

الكسي تولستوي

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الاول

الشقيقتان



دار التقدم

موسكو

لذلك الزمن ، وكاتبة . (رواية «قلب قلق» وقصص بعنوان «مكان منسى» . وبعد ذلك جملة من كتب للاطفال واكثرها شعبية هو «الصديقة») . . .

انقضت طفولتى فى ضيعة زوج امى المسماة سوسنوفكا . بستان ، وبرك يحيط بها الصفصاف ، وينمو فيها القصب . والنهير السهبى تشاغرا . والرفقاء هم اولاد القرية . وخيول الركوب . والسهب المعشوشب ، حيث الربى وحدها كانت تكسر خط الافق الرتيب . . . وتعاقب فصول العام مثل احداث ضخمة وجديدة دائما . ان كل ذلك ولا سيما نشاتى وحيدا قد وسعت دائرة احلامى .

حين كان الشتاء يحل ، وتتراكم الثلوج فى البستان وحول البيت كان عواء الذئاب يرتفع فى الليل . وحين تغنى الريح فى مداخن المواقد ، يضاء مصباح معلق فوق مائدة مستديرة فى غرفة الطعام ، وهى حجرة مجصصة الجدران ومفروشة بشكل بائس ، ويقرا زوج امى فى العادة نكراسوف ، وليف تولستوى وتورغينيف بصوت عال . . .

وكانت امى تصغى وهى تحيك الجوارب . وكنت ارسم او الوّن صورا . . . ولم تستطع اية حادثة ان تخرق صمت تلك الامسيات فى ذلك البيت الخشبى القديم حيث تفوح حرارة المواقد المجصصة ، المدفاة بالروث المجفف او القش ، وحيث لا بد من شمعة للتنقل من حجرة مظلمة الى اخرى . . .

لم اقرا كتب اطفال غالبا ، فمن المحتمل انها لم تكن لدى . وكان كاتبى المفضل تورغينيف . وقد بدات اسمعه فى امسيات الشتاء وانا فى سن السابعة تقريبا . ثم ليف تولستوى ونكراسوف وبوشكين . (كان اهل البيت ينظرون الى دوستويفسكى بشىء من الرعب باعتباره كاتبا «قاسيا») .

وانا فى نحو العاشرة اخذت اكثر المطالعة ، كل ما لهؤلاء الكلاسيكيين . وبعد حوالى ثلاثة اعوام حين ادخلونى بصعوبة (لاننى حصلت فى امتحانات القبول على درجة سقوط تامة تقريبا) فى مدرسة ثانوية استطعت الحصول فى مكتبة المدينة على جيول فيرن وفينيمور كوبر وماين ريد والتهمتهم بتعطش ، رغم ان امى وزوجها كانا ينعيان على هذه الكتب تفاهتها .

وقبل دخولى الى المدرسة الثانوية كنت اتعلم فى البيت ، فقد استقدم زوج امى من سامارا معلما هو اركادى ايفانوفيتش سملوفواخوتوف وهو طالب مدرسة ثانوية دينية ، وكان مجدورا احمر كالنار وشخصا ممتازا انسجمنا معا ولكننا درسنا العلوم على مهل .

ذات شتاء ، وكنت فى نحو العاشرة ، نصحتنى امى بكتابة قصة . وكانت تود كثيرا ان اصبح كاتبا . وقد قضيت امسيات كثيرة منكبا على مغامرات الصبى ستيبكا . . . وانا لا اذكر شيئا من هذه القصة غير عبارة : كان الثلج يتلالأ تحت ضوء القمر كالالماس . وانا لم ار الالماس قط ، ولكن هذا التشبيه اعجبنى . ولم تكن قصة ستيبكا موفقة على ما يبدو ، فلم تكرهنى امى مرة اخرى على الابداع .

قبل الثالثة عشرة ، قبل دخولى الى المدرسة الثانوية عشت حياة تاملية حالمة . ولم يعفنى هذا بالطبع من ان اقضى اياما كاملة فى حصد العشب ومكان حصاد الحبوب ودراسها ، وعند النهر مع اولاد القرية ، والتردد شتاء الى المعارف من الفلاحين لاستمع الى الحكايات والحواديت والاغانى ، ولعب الورق والكعاب ، والعراك على اكوام الثلج بالقبضات ، والتقمص فى اعياد الميلاد ، وركوب الخيول غير المروضة بلا لجام ولا سرج ، والى غير ذلك .

تركت سنوات المجاعة الثلاث من عام ١٨٩١ حتى عام ١٨٩٣ اثرا عميقا فىّ ما زلت احسه حتى الآن . كانت الارض آنذاك مشققة ، والخضرة قد ذبلت قبل الاوان وتناثرت ، والحقول صفراء محروقة . وفى الافق عتمة كدرة احرقت كل شىء .

وفى القرى تعرت سطوح الاكواخ لان الناس استخدموا قشها علفا للمواشى ، وربطت المواشى النحيلة السليمة بالسيور الى الروافد . . . فى تلك السنوات نجت ضيعة زوج امى بالكاد من الخراب . . . ومع ذلك فقد اضطر بعد بضع سنوات الى بيعها . . . ان ولاية سامارا كلها اصبحت تعود الى كبير مالكى الاراضى شاخوبالوف الذى كان يشترى اراضى الاعيان كلها ويأخذ من الفلاحين اجور الاستئجار السنوى بالقدر الذى كان يشتهيه . . .

في عام ١٩٠١ انهيت المدرسة الثانوية في سامارا وسافرت الى بطرسبورغ للاستعداد لامتحانات القبول . واديت امتحان القبول الى المعهد التكنولوجي ودخلت فرع الميكانيك .

ارجع تجاربي الادبية الاولى الى سن السادسة عشرة ، وهي عبارة عن اشعار هي تقليد عاجز لنكراسوف ونادسون . وانا لا استطيع ان اتذكر السبب الذي حداني الى كتابتها ، فقد يكون الحلم الطائش الذي لم يجد شكلا له . كانت الاشعار فجة فتركت العكوف عليها .

ولكنني كنت اشتاق مرة بعد اخرى الى عملية خلق لم تتبلور بعد . واحببت الدفتر والحبر والريشة . وعندما كنت طالبا كنت اعود بين الفينة والاخرى الى تجربة الكتابة ، ولكن ذلك كان بداية شيء ما لا يستطيع ان يتشكل ، ان يكتمل . . .

تزوجت في وقت مبكر ، في التاسعة عشرة ، طالبة في معهد الطب ، وعشنا سوية عيشة طلابية عاملة اعتيادية حتى نهاية عام ١٩٠٦ . واشتركت مثل الجميع في الاضطرابات والاضرابات الطلابية ، وانضممت الى كتلة الاشتراكيين الديموقراطيين ، والى لجنة مطعم المعهد التكنولوجي . وفي عام ١٩٠٣ كدت اقتل بحجارة طائرة اثناء مظاهرة عند كاتدرائية قازانسكي ، فانقذني كتاب كنت قد حشرته تحت المعطف على صدري .

وعندما اغلقت المعاهد التعليمية العالية سافرت في عام ١٩٠٥ الى درزدن ، حيث قضيت سنة في مدرسة تكنيكية . وهناك عدت الى كتابة الشعر مرة اخرى ، وكانت هذه تجارب ثورية وغنائية . في صيف ١٩٠٦ عدت الى سامارا ، واطلعت والدتي عليها . فقالت في اسى انها جميعا غثة جدا .ولم احتفظ بهذا الدفتر .

ان لكل عصر شكله الذي يصوغ به الافكار والمشاعر والعواطف . ولم يكن لدي هذا الشكل الجديد ولم اكن قادرا بعد على خلقه .

في صيف ١٩٠٦ توفيت امي الكسندرا ليونتيفنا بالتهاب السحايا . فرحلت الى بطرسبورغ لاتابع دراستي في المعهد التكنولوجي .

وبدأ عهد الرجعية ، ويطلع الرمزيون معها على اضواء المسرح .

عند ذلك ، في ربيع ١٩٠٧ ، كتبت اول ديوان لي وهو اشعار «منحلة» . وكان ذلك كتيبا تقليديا ساذجا ورديئا . ولكنه بالنسبة لي شققت به الطريق الى فهم الشكل الحديث للشعر . وبعد عام اصدرت الديوان الثاني : «وراء الانهار الزرقاء» . وانا لا اتبرأ منه حتى يومنا هذا . فان «وراء الانهار الزرقاء» حصيلة اول تعرفي بالفولكلور الروسي ، بالابداع الشعبي الروسي .

حينذاك بدات تجاربي الاولى في النثر «حكايات القعقع» . وقد حاولت فيها ان اصف على شكل حكايات انطباعاتي في الطفولة . ولكن استطعت بعد سنوات عديدة ان اوفق في ذلك بقدر اكثر كمالا في قصة «طفولة نيكيتا» .

وانا مدين ببداية عملي ككاتب قصص لصلتي بالشاعر والمترجم م . فولوشين . في صيف ١٩٠٩ سمعت فولوشين وهو يقرا ترجماته من هنري دو رينيه . وقد بهرني سبك الصور . ان الرمزيين في بحثهم عن الشكل والجماليين ، مثل رينيه ، اعطوني مبادئ الشيء الذي لم يكن لدي آنذاك ، ولا سبيل للابداع والشكل والتكنيك بدونه .

في خريف ١٩٠٩ كتبت اول قصة طويلة لي هي «اسبوع في ضيعة تورغينيفو» وهي احدى القصص التي دخلت فيما بعد في كتاب «ما وراء الفولغا» وبعد ذلك في المجلد الموسّع «تحت اشجار الزيزفون القديمة» وهو كتاب عن تقليدات حياة الاعيان من ذلك القسم من اصحاب الاطيان الذين طحنهم سلاطين الارض الجدد— آل شاخوبالوف . لم يمس كتابي الاعيان المترسخين على الارض الذين انتقلوا الى الاشكال المكثفة من الاقتصاد . فلم اكن اعرفهم . ثم تتبع ذلك روايتان «السيد الاعرج» و«غريبو الاطوار» . وبذلك ينتهي عهدي الاول في الفن القصصي ، المرتبط بالبيئة التي كانت تحيطني في صباي .

استنفدت موضوع الذكريات ، واقتربت تماما من الواقع المعاصر . وهنا منيت بالفشل . فقد كانت قصص واقاصيص الواقع المعاصر فاشلة وغير نموذجية . والآن ادرك سبب ذلك . فقد واصلت العيش في دائرة الرمزيين الذين لم يكن فنهم الرجعي يتقبل الواقع المعاصر الفائر بعنف وتهديد في اتجاهه نحو الثورة .

ابتعد الرمزيون فى التجريد ، فى الغموض قابعين فى «الابراج العاجية» حيث كانوا ينوون انتظار انتهاء ما كان يزحف .

لقد احببت الحياة ، وكرهت بكل جوارحى التجريد والمذاهب المثالية . والذى كان نافعا لى فى عام ١٩١٠ اضرنى واعاقنى فى عام ١٩١٣ .

كنت ادرك جيدا ان من المستحيل الاستمرار فى ذلك . كنت اعمل كثيرا دائما ، والآن اعمل باصرار اشد ، ولكن النتائج كانت بائسة : فانا لم ار الحياة الحقيقية للبلاد والشعب .

وبدات الحرب العالمية الاولى . وكنت فى جبهات القتال كمراسل حربى لجريدة «روسكيه فيدوموستى» ، وزرت انجلترا وفرنسا (عام ١٩١٦) . وانا منذ زمان بعيد لا اعيد اصدار كتاب اللوحات الادبية عن الحرب لان الرقابة القيصرية لم تسمح لى بكل قوة ان اقول ما رايته وما شعرت به . ولم تدخل غير بضع اقاصيص ذلك الوقت فى مجموعة مؤلفاتى .

ولكننى رايت الحياة الحقة ، وساهمت فيها بعد ان نزعت عنى رداء الرمزيين الاسود المسدل كليا . ورايت الشعب الروسى .

فى الاشهر الاولى من ثورة شباط تحولت الى موضوع بطرس الاكبر . ومن المرجح ان سليقة الفنان اكثر من الوعى هى التى جعلتنى ابحث فى هذا الموضوع عن مفاتيح لغز الشعب الروسى ، والدولة الروسية .

وانا ارجع بداية عملى المسرحى ككاتب مسرح الى الايام الاولى من الحرب . وقبل ذلك ، فى عام ١٩١٣ ، كتبت كوميديا «المغتصبون» وعرضتها على مسرح «مالى» فى موسكو .. وقد اثارت حماسة فى قسم من المشاهدين ، وسرعان ما منعت من قبل مدير المسارح الامبراطورية .

ما بين عام ١٩١٤ و١٩١٧ كتبت وعرضت خمس كوميديات : «الطلقة» و«الشيطان» و«السنونو» و«الصاروخ» و«اللون المر» .

ومع قيام ثورة اكتوبر عدت الى النشر مرة اخرى ، وانهى المسودة الاولى لـ«يوم بطرس» واكتب قصة «كونوا رحماء !» التى هى اول تجربة لنقد المثقفين الليبراليين الروس فى ضوء لهيب اكتوبر .

وفى خريف عام ١٩١٨ سافرت مع العائلة الى اوكرانيا ، وقضينا الشتاء فى اوديسا ، حيث كتبت كوميديا «الحب كتاب ذهبى» وقصة «كاليوسترو» . ومن اوديسا سافرت مع العائلة الى باريس ، وهناك بدات فى تموز عام ١٩١٩ بكتابة ملحمة «درب الآلام» .

كانت الحياة فى الهجرة اقسى فترة فى حياتى . هناك ادركت ما تعنى ان تكون منبوذا ، انسانا مقطوعا عن الوطن ، بلا وزن ولا ثمرة ، ولا حاجة لاحد بك فى كل الاحوال .

وكتبت بحماس رواية «درب الآلام» (الجزء الاول «الشقيقتان») وقصة «طفولة نيكيتا» و«مغامرات نيكيتا روتشين» وبدات عملا كبيرا امتد عدة اعوام : اعدت من جديد عمل كل ما هو ثمين مما كتبته حتى ذلك الوقت . . .

وكان باكورة عملى بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «على العتبة» . وبذلك انقطعت فى الحال كل صلاتى بالكتاب المهاجرين . و«لبس الحداد علىّ» اصدقائى السابقون . وفى ربيع ١٩٢٢ وصل من روسيا السوفييتية الكسى مكسيموفيتش بشكوف * . وانعقدت بيننا علاقات ودية .

فى فترة اقامتى فى برلين كتبت رواية «آيليتا» وقصص «الجمعة السوداء» ، و«مقتل انطوان ريفو» و«المخطوطة المكتشفة تحت السرير» وهى اكثر هذه الاعمال اهمية من حيث الموضوع . . .

فى ربيع ١٩٢٣ سافرت مع العائلة الى روسيا السوفييتية .

وكان باكورة عملى بعد العودة الى الوطن مؤلفان : قصة «ايبيكس» وقصة غير طويلة هى «المدن الزرق» . . .

فى عام ١٩٢٤ عدت الى المسرح : كوميديا «طرد الشيطان الضال» ومسرحيتا «مؤامرة الامبراطورة» و«آزيف» وكوميديا «اعاجيب فى المنخل» و«الشباب العائد» وتحويلات مسرحية «تمرد الآلات» و«انا كريستى» و«رجل اعمال» (حسب موضوعات مسرحيات الشاعر الالمانى غازينكليفر) .

---

* مكسيم غوركى .

وفى عام ١٩٢٦ كتبت رواية «هيبربولويد المهندس غارين» ، وبعد عام بدأت بكتابة الجزء الثانى من رواية «درب الآلام» وهو «عام ١٩١٨» .

وفى نفس الوقت لم اكف عن تحوير وتنقيح كل ما كتبته من قبل ...

فى عام ١٩٣٠ كتبت الجزء الاول من رواية «بطرس الاول» . وبعد عام ونصف العام الرواية الهجائية : «الذهب الاسود» التى اعدت صياغتها فى عام ١٩٣٨ ونشرتها تحت عنوان «المهاجرون» ، وانهيت الجزء الثانى من «بطرس الاول» فى عام ١٩٣٤ .

ان كلا الجزئين التى نشرتهما من «بطرس الاول» ما هما الا مدخل الى الرواية الثالثة ، الى العمل الذى بدأت به (فى خريف ١٩٤٣) .

ما الذى ساقنى الى ملحمة «بطرس الاول» ؟ ليس صحيحا اننى اخترت ذلك العهد لتفسير الواقع المعاصر . لقد جذبنى الاحساس بكمال القوة الفوارة والابداعية للحياة التى تفتح فيها الخلق الروسى بنصوع فريد .

ان اربعة عهود تجذبنى الى التصوير لنفس هذه الاسباب : عهد ايفان الرهيب ، وعهد بطرس الاول ، والحرب الاهلية ١٩١٨-١٩٢٠ وعهدنا الحالى المنقطع النظير بسعة نطاقه واهميته . ولكن الكتابة عنه رهن بالمستقبل . ولفهم سر الشعب الروسى وعظمته يجب ان يُعرف ماضيه معرفة جيدة وعميقة : ان يُعرف تاريخنا ، وعقده الجذرية ، والعهود التراجيدية والابداعية التى تشكل فيها الخلق الروسى .

فى عام ١٩٣٥ بدأت بكتابة قصة «الخبز» التى هى نقلة ضرورية بين رواية «عام ١٩١٨» ورواية «صباح غائم» التى كنت اعمل الفكر فيها فى ذلك الوقت . وانهيت «الخبز» فى خريف ١٩٣٧ . وقد سمعت الى العديد من الانتقادات لهذه القصة ، وهى فى غالبها تنحصر فى انها جافة و«عملية» . ولتبرير ذلك استطيع ان اقول شيئا واحدا هو ان «الخبز» كانت محاولة لتمثيل مادة تاريخية دقيقة بوسائل فنية ، ومن هنا جاء جموح الخيال . ولكن من الممكن ان تنفع هذه المحاولة احدا من الناس فى وقت ما . وأنا ادافع عن

الحق للكاتب فى التجربة وفى الاخطاء المرتبطة بها . ويجب احترام تجربة الكاتب ، فلا فن بلا جرأة . والطريف ان «الخبز» شأنها شأن «بطرس الاول» يمكن ان تترجم الى جميع لغات العالم تقريبا ، وربما فى اعداد كبيرة .

وسوية مع هذه الاعمال الادبية اقوم باعداد خمسة اجزاء من الفولكلور الروسى لدار النشر للاطفال . وانا ارفض تحوير وتنقيح الحكايات . وباحتفاظى بنقاء القصة الشفاهية اربط روايات الموضوع المروى فى موضوع واحد مع الاحتفاظ بجميع خصائص الكلام الشعبى ومع تنقية الموضوع من جميع التفاصيل والهوامش التى ادخلت اما بان يعمد الراوى على ادخال تفاصيل حكايات اخرى بشكل آلى ، واما بسبب عدم نضوج الراوى ، واما بسبب خصائص الكلام المحلية غير المميزة .

فى اليوم الذى بدأت فيه الحرب الوطنية الكبرى ، يوم ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، فرغت من رواية «صباح غائم» . وعند اعدادى الثلاثية كلها للطبع قمت بتنقيح الكتابين الاولين من هذه الملحمة . وقد كتبت الثلاثية خلال اثنين وعشرين عاما . وموضوعها العودة الى البيت ، الطريق الى الوطن . والواقع ان كتابة السطور الاخيرة والصفحات الاخيرة من «صباح غائم» يوم كان وطننا فى نار الحرب تقنعنى بأن سبيل هذه الرواية صائب .

عندما اعود بنظرى الآن الى السنتين الرهيبتين المدمرتين من الحرب اجد ان الايمان بقوى شعبنا التى لا تنضب ، الايمان فى صحة طريقنا التاريخى ، الطريق الباهظ والصعب والمستقيم والانسانى نحو الحياة العظيمة ، وحب الوطن وحده ، والتألم الممض بعذاباته ، وكراهية العدو - كل هذا قد اعطى القوى للنضال والنصر . وقد آمنت بانتصارنا حتى فى اصعب الايام من تشرين الاول - تشرين الثانى عام ١٩٤١ . ويومذاك بدأت فى زيمينكي (على مقربة من مدينة غوركى على شاطئ الفولغا) قصتى الدرامية «ايفان الرهيب» . فكانت ردا على المهانة التى عرض الالمان وطنى لها . فاخرجت من العدم الروح الروسية الملتهبة - ايفان الرهيب - لاسلح «ضميرى المضطرم» . وواصلت كتابتى المقالات ، وأنا اعمل فى هذه المسرحية ، ومن بين اكثر هذه المقالات صدى :

«وايه ، ايتها الارض الروسية !..»
من قصيدة ملحمية قديمة بعنوان
«حديث عن فصيلة ايغور»

١

ان اى انسان غريب على بطرسبورغ يدخلها بعين مراقب من احد الشوارع الضيقة المعرشة بأشجار الزيزفون لأية بلدة نائية سينتابه ، فى لحظة الانتباه ، شعور معقد من الانفعال الذهنى والانسحاق النفسى .

انه يجوب شوارع مستقيمة ضبابية ، ويمر ببيوت كئيبة ذات نوافذ داكنة ، على بواباتها حجاب ناعسون ، ويطيل النظر الى انبساط نهر النيفا الغزيرة المياه العابسة ، والى الخطوط المزرقة للجسور ذات المصابيح التى تضاء قبل هبوط الظلام ، والقصور غير المريحة الخالية من البهجة المزينة واجهاتها بالاعمدة ، ويتطلع الى كتدرائية بطرس وبولس بارتفاعها الشاهق غير المالوف للهندسة الروسية والى القوارب البائسة المترائية فى الماء الداكن ، والى المراكب التى لا حصر لها مثقلة بالخشب الرطب ، وممتدة على الشطئان الغرانيتية ، ثم ينقل بصره فى وجوه المارة الشاحبة المهمومة ذات العيون الكدرة كدرة المدينة ذاتها ، ان هذا المراقب الدخيل بعد ان يمتلأ بصره وسمعه بكل ذلك سيخفى راسه عميقا فى ياقته ، اذا كان حسن النية ، اما اذا كان سيئ النية فانه سيتصور ان افضل شىء ان تُسدَّد ضربة قاضية على كل هذه الفتنة الجامدة وتمزق اربا .

ذات مرة فى عهد امبراطور بطرس الاول تملك الرعب الشديد شماسا من كنيسة ترويتسكايا القائمة حتى الآن على مقربة من جسر ترويتسكى ، حين رأى فى الظلام ، وهو نازل من برج الجرس ، شبح ساحرة نحيلة حاسرة الراس ، وفيما بعد صرخ فى حانة :

كانت بطرسبورغ ، مثل أية مدينة اخرى ، تعيش حياتها الخاصة المتوترة المثقلة بالهموم . وكانت القوة المركزية فيها توجه هذه الحياة ، الا انها لم تكن مندمجة مع ما يمكن ان يدعى بروح المدينة : لقد كانت القوة المركزية تسعى الى استتباب النظام ، والهدوء ، والعقلانية ، بينما كانت روح المدينة تسعى الى تحطيم هذه القوة . وكانت روح التهديم منتشرة فى كل مكان تغذى بالسم الفتاك المضاربات الهائلة فى البورصة لساكيلمان الشهير ، والحنق القاتم فى نفس العامل فى مصنع الفولاذ ، والامنيات الشوهاء لشاعرة على الموضة جالسة حتى الساعة الخامسة صباحا فى قبو «الاجراس الحمراء» للفنانين . وحتى اولئك الذين كان عليهم ان يكافحوا هذا التهديم كانوا دون وعى منهم ياتون كل شىء لتسعيره وزيادة حدته .

ذلك زمن كان فيه الحب ، والمشاعر الطيبة والسليمة تعتبر ابتذالا ومن مخلفات الماضى ، وكان الناس فيه لا يحبون ، بل يشتهون الحب ، ويتهالكون ، كالمسمومين ، على كل ما هو حاد ومثير للالم فى بواطنهم .

كانت الفتيات يخفين بكاراتهن ، والازواج وفاءهم . وكان التهديم يعتبر امارة على حسن الذوق ، والاعياء العصبى علامة على رهافة الحس . وكان المروجين لذلك كتاب على الموضة كانوا يبزغون من العدم خلال موسم واحد . وابتكر الناس لأنفسهم الموبقات والانحرافات لمجرد انهم لا يريدون ان يعتبروا عاديين .

تلك هى بطرسبورغ فى عام ١٩١٤ . كانت منهوكة بليالى السهر ، تغرق سامها بالخمور والذهب ، والحب الفارغ ، بانغام التانغو الممزقة لنياط القلب والحسية اللامتناهية – رقصة الموت – فكانها كانت تعيش على انتظار يوم مهلك رهيب . وكانت لذلك بوادره : فان شيئا جديدا غامضا كان يتسلل من كل الشقوق .

٢

– . . . نحن لا نريد ان نتذكر شيئا . نحن نقول : كفى ، ولندر ظهورنا الى الماضى ! ومن وراء ظهرى ؟ فينوس دو ميلو ؟ وهل هذه يمكن ان تؤكل ؟ ام تستطيع ان تطيل وتنمى شعرى ؟

انا لا افهم لماذا انا بحاجة الى هذا العملاق الرخامى ؟ ستقول انه الفن ، الفن . كفى ! اما تزال معجبا بدغدغة هذه الفكرة لك ؟ انظر الى يمينك وشمالك ، والى امامك ، وفى موضع قدميك . انك تحتذى حذاء امريكيا ! عاشت الاحذية الامريكية ! ان الفن هو سيارة حمراء ، واطارات من المطاط ، وصفيحة من البنزين ، وسبعون ميلا فى الساعة . فان ذلك يثير فى نفسى التهام المسافات . والفن ايضا اعلان مساحته ستون ذراعا يصور فتى انيقا عليه قبعة عالية مشعة كالشمس . والفن خياط فنان ، عبقرى يومنا هذا ! انا اريد ان التهم الحياة ، وانت تطعمنى ماء سكر يوصف لمن يعانون من الضعف الجنسى . . .

ارتفع ضحك وتصفيق من نهاية القاعة الضيقة وراء الكراسى ، حيث كان طلاب من الدورات الدراسية ومن الجامعة يقفون متزاحمين . عدّل المتحدث سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف من وضع نظارته الأنفية الناطة على أنفه الكبير ، متبسما من فم مبلل ، وهبط درجات المنبر البلوطى الكبير بحركة رشيقة .

كان اعضاء «جمعية الامسيات الفلسفية» يجلسون على جانب من القاعة وراء منضدة طويلة يضيؤها شمعدانان خماسيا الشموع وهؤلاء هم رئيس الجمعية انتونوفسكى الاستاذ فى اللاهوت ، ومحاضر اليوم المؤرخ فليامينوف ، والفيلسوف بورسكى ، والكاتب الماكر ساكونين .

وكانت «جمعية الامسيات الفلسفية» قد تعرضت فى هذا الشتاء الى هجوم شديد من جانب شبان مغمورين ولكنهم ذوو السنة لاذعة ، هاجموا الكتاب الموقرين ، والفلاسفة المحترمين بضراوة عنيفة ، وقالوا اشياء جريئة ومغرية جعلت الفيلا القديمة مقر الجمعية فى شارع فونتانكا تغص بالناس ايام السبوت ، حين تكون الدعوة مفتوحة للجميع .

وهذا ما حدث اليوم ايضا . عندما اختفى سابوجكوف فى الحشد وسط تصفيق صعد الى المنبر اكوتدين ، وهو رجل قصير ذو جمجمة حليقة الشعر ناتئة ، ووجه فتى اصفر بارز الوجنتين . كان حديث العهد فى الحضور الى مثل هذه الامسيات ، وافر الحظ من النجاح ولا سيما فى الصفوف الخلفية من القاعة . وكان العارفون

يبتسمون بغموض حتى يتساءل المتسائلون : مَن هذا ومن ايـن جاء ؟ وعلى اية حال لم يكن اكونديين اسمه الاصلي ، وقد جاء من خارج الحدود ، ولم يكن تحدثه فى هذه الامسيات يخلو من غرض .

اجال اكونديين بصره فى القاعة التى خيم عليها السكون وهو يداعب لحيته الهزيلة الشعر ، واخذت شفتاه تنشقان عن بسمة خفيفة، وشرع يتحدث .

فى تلك الاثناء كانت فتاة شابة تجلس فى صف المقاعد الثالث عند الممر الاوسط تسند ذقنها بجمع يدها . كانت ترتدى فستانا اسود من الجوخ عاليا حتى العنق . وكان شعرها الناعم الرمادى مرفوعا فوق اذنيها ، ومعقوصا فى عقصة كبيرة ، يسندها مشط . كانت الفتاة تتمعن فى الجالسين وراء المنضـدة الخضراء دون ان تتحرك ولا تبتسم ، واحيانا كانت عيناها تستقران على الشموع .

وعندما ضرب اكونديين المنبر البلوطى ، وصاح : «الاقتصاد العالمى يوجه اول ضربة من قبضته الحديدية الى قبة الكنيسة» زفرت الفتاة زفرة خفيفة ، وانزلت قبضتها من تحت ذقنها المحمر قليلا فى اسفله ، ووضعت قطعة ملبس فى فمها .

وتكلم اكونديين :

– . . . وانتم ما تزالون تحلمون احلاما غامضة عن ملكوت الرب على الارض . بينما هو ماض فى سباته رغم كل جهودكم . ام لعلكم تاملون انه سيستيقظ فى آخر الأمر ، ويتكلم مثل اتـان بلعام * ؟ اجل ، انه سيستيقظ ، ولكن لا على اصوات شعرائكم المعسولة ، ولا على دخان المباخر . بل ان صافرات المصانـع وحدها قادرة على ايقاظ الشعب . انه سيستيقظ ، ويتكلم وسيكون صوته غير مريح لاسماعكم . ام لعلكم تعتمدون على سباتكـم وجهالتكم ؟ اذكر لكم انكم تستطيعون ان تسدروا فيهما نصف قرن آخر . ولكن اياكم ان تسموا ذلك الخلاص المنتظر . ان ذلك ليس هو المستقبل بل الماضى . هنا فى بطرسبورغ فى هذه القاعة الفاخرة اختلقوا الفلاح الروسى على اوهامهم ، وكتبوا عنه مئات المجلدات ،

*حسب الانجيل تكلمت اتان بلعام بصوت انسانى احتجاجا على ضربات انزلت عليها . (المترجم) .

والفوا الاوبرات . وانا اخشى ان تنتهى هذه التسليـة بدم كثير يراق . . .

الا ان رئيس الجمعية اوقف الخطيب فى هذه اللحظة . ابتسم اكونديين ابتسامة باهتة ، واخرج من جيب سترته منديلا كبيرا ، ومسح جمجمته ووجهه بحركة معتادة . وصدرت اصوات من اقصى القاعة :

– دعه يتكلم !

– من الفظاظة ان يغلق فم انسان .

– هذه سخرية !

– اسكتوا ، ايها الجالسون فى الخلف !

– اسكتوا انتم !

واستمر اكونديين يقول :

– . . . الفلاح الروسى نقطة تجذب افكار الكثيرين . اجل . ولكن اذا لم تكن هذه الافكار مرتبطة ارتباطا عضويا بمطامحـه العريقة ،وبمفهومه الفطرى عن العدالة وهو مفهوم الانسانية جمعاء ، فانها ستقع كما تقع البذور على الصخور . وطالمـا بقى الناس لاينظرون الى الفلاح الروسى كانسان ذى معدة خاوية ، وظهر موقر بالعمل ، ولا يجردونه من خصائصه المسيحية التى الصقها به بعض السادة فى حقبة من الزمن ، فسيبقى القطبان على وجودهما الماساوى : افكاركم الفخمة التى ولدت فى ظلام المكاتب ، والشعب الذى لا تريدون ان تعرفوا شيئا عنه . . . ونحن هنا لا نريد حتى ان نوجه نقدا حقيقيا لكم . فسيكون غريبا ان نضيع الوقت فى اعادة النظر فى هذه الكتلة الضخمة – هذه النزوات الانسانية . لا ، بل نقول لكم انقذوا انفسكم قبل فوات الاوان . لأن افكاركم وكنوزكم ستلقى فى مزبلة التاريخ دونما أسف . . .

لم تجد الفتاة ذات الفستان الاسود فى نفسها الرغبة لتفكر فيما قيل من على المنبر البلوطى . فقد كان يبدو لها ان جميع هذه الاقوال والمناقشات مهمة جدا بالطبع ، وكثيرة الدلالة ، الا ان الاكثر اهمية شيء آخر لم يتحدث عنه هؤلاء الناس . . .

وفى غضون ذلك ظهر رجل آخر وراء الطاولة الخضراء . جلس متمهلا الى جانب الرئيس ، واحنى راسه يمينا وشمالا بالتحية ،

ثم مرّر يده المحمرة على شعره الكتانى المبلل من الثلج . وبعد ان اخفى يديه تحت الطاولة جلس منتصبا فى سترته السوداء الضيقة جدا . كان لهذا الرجل شعر طويل وكثيف مثل قبعة ، ووجه نحيل كامد له حاجبان مقوسان ، تحتهما عينان رماديتان وسيعتان محاطتان بظلين . بيسونوف كان نسخة طبق الاصل للصورة التى نشرتها له مجلة اسبوعية فى عددها الاخير .

والآن لم تعد الفتاة ترى غير هذا الوجه الجميل بشكل يبعث على النفور . كانت تتمعن بما يشبه الرعب فى تلك التقاطيع الغريبة التى كثيرا ما راودت احلامها فى ليالى بطرسبورغ العاصفة .

ها هو الآن قد قرب اذنه من جاوه ، وابتسم بسمة مشوبة بسذاجة ، ولكن الغرور والعجرفة ، وشيئا آخر لم تستطع ان تتبينه ، وان كان اشد ما يثير قلقها لاح فى منحنيات منخريه الدقيقين وحاجبيه المفرطين انوثة ، وفى تلك الجاذبية الناعمة الخاصة المطلة من وجهه .

وفى اثناء ذلك كان المحاضر فليامينوف ، وهو رجل احمر الوجه مرسل اللحية ، ذو نظارة مذهبة وخصلات ذهبية شائبة تحيط بجمجمته الكبيرة يرد على اكونديين قائلا :

— انت محق أحقية الانهيار الجليدى فى تدهوره من الجبال . ونحن ننتظر منذ زمن بعيد حلول العهد الرهيب ، ونتنبأ بانتصار حقيقتكم .

انتم ستتغلبون على عناصر الطبيعة ، لا نحن . ولكننا نعلم ان العدالة المثلى التى تصرخون لدعوتها بصفارات المصانع لن تكون الا كومة من حطام ، وفوضى يتيه فيها انسان مصعوق . ان هذا الانسان سيقول «انا عطشان» لانه سيكون خلوا من اية قطرة من الفيض الآلهى . فحذار ، — وهنا رفع فليامينوف اصبعا طويلة كالقلم ، وراح ينظر الى صفوف المستمعين بحدة من خلال نظارته ، — انتم تريدون ان تحولوا الانسان فى الجنة التى تحلمون بها وباسم هذه الجنة الى آلة حية ، الى رقم كذا — الانسان الى رقم — وفى هذه الجنة الرهيبة يكمن خطر ثورة جديدة ، افظع كل الثورات ، ثورة الروح .

فقال اكونديين من مكانه ببرود :

— تحويل الانسان الى رقم هو مثالية ايضا .

مال فليامينوف على الطاولة ونشر ذراعيه فوقها فالقت الشموع لمعانا على صلعته ، اخذ يتحدث عن الخطيئة التى سيتردى العالم فيها ، وعن القصاص الرهيب المقبل . وسرت نحنحة فى القاعة .

حلت فترة الاستراحة فخرجت الفتاة الى المشرب ، ووقفت فى بابه معبسة ومستقلة بنفسها . كان بعض المحامين وزوجاتهم يشربون الشاى ، ويتحدثون باصوات اعلى من اصوات الآخرين . وكان الكاتب الشهير تشيرنوبيلين ياكل السمك بمرق التوت قرب الموقد مديرا عينيه الخبيثتين الثملتين على الرائحين والغادين بين لحظة واخرى . وعند منصة المشرب وقفت سيدتان فى منتصف العمر من المشتغلات فى الادب لهما عنقان قذران وعقدتان كبيرتان على راسيهما تلو كان الشطائر . وكان القساوسة يقفون فى منأى ويتقوى ولا يختلطون بأهل الدنيا . بينما وقت تحت الثريا رجل وخّط الشيب شعره المنفوش بافراط وقد طوى ذراعيه خلفه تحت سترته الطويلة مهتزا على كعبيه . انه الناقد تشيرفا ينتظر ان يتقدم احد من الناس اليه . دخل فليامينوف ، فاندفعت احدى السيدتين الاديبتين نحوه ، وتشبثت بكمه ، وكفت الاخرى عن مضغ الطعام ، ونفضت عنها الفتات ، واحنت رأسها ، ووسعت عينيها . فقد تقدم بيسونوف منها موزعا الانحناءات المؤدبة من رأسه ذات اليمين وذات الشمال .

احست الفتاة ذات الفستان الاسود بكل جلدها ان الاديبة قد انكمشت بشدة داخل مشدها النسائى . قال بيسونوف شيئا لها ببسمة كسلى . فبسطت هذه ذراعيها الممتلئتين ، وضحكت مقلّبة عينيها .

هزت الفتاة كتفها ، وتركت المشرب . سمعت من يناديها . كان شاب اسمر نحيل فى سترة من المخمل يشق الجمع نحوها . انحنى لها فرحا ، وغضّن انفه امارة على الغبطة ، وامسك يد ها . كانت كفه رطبة ، وعلى جبينه تدلت خصلة مبللة من الشعر ، بينما كانت عيناه السوداوان الطويلتان تنظران اليها برقة طرية . ان هذا الفتى يدعى الكسندر ايفانوفيتش جيروف . قال لها :

— ما هذا ؟ ماذا تفعلين هنا ، يا داريا دميترييفنا ؟

— مثل ما تفعل انت .

ردت الفتاة عليه بذلك ، وحررت يدها منه ، ودستها فى الفراء الذى تدفىء* فيه يديها ، ومسحتها بالمنديل الذى كان فى داخله .

قهقه الفتى ، وزادت نظرة عينيه رقة :

– عجيب اذا كان سابوجكوف لم يعجبك فى هذه المرة ايضا ! انه تكلم اليوم كنبى . وما يثيرك منه حدته وطريقته الفريدة فى التعبير . ولكن جوهر تفكيره ، اليس هو ما نريده فى سرنا ، ونخشى ان نبوح به ؟ بينما هو يملك الجراة على قوله . اسمعى :

كلنا شباب فى شباب
وفى المعدة جوع والتهاب
غدا سنلتهم السراب . . .

انه يا داريا دميتريفنا شىء غير اعتيادى . جديد ، وجرىء ليس من المعقول انك لا تحسين بذلك ! شىء جديد كل الجدة يشق طريقه ! انه منا ، جديد ، نهم ، جرىء . وكذلك اكوندين . حقا انه مفرط فى منطقيته ، لكنه جاد وجارح فى تعابيره . وما هو الا شتاء او شتاءان او ثلاثة من مثل شتائنا هذا حتى ينهار كل شىء ، ويتفتق ! عظيم جدا !

كان الشاب يتحدث بصوت خفيض ، مبتسما بحلاوة ونعومة .
واحست داشا * بان كل شىء فيه يرتعش ارتعاشا دقيقا ، وكانه من انفعال رهيب . احنت له راسها دون ان تدعه يكمل كلامه ، وراحت تشق طريقها نحو مشجب المعاطف .

كان الحاجب الغاضب المزين صدره بالمداليات ، المو كل عن حفظ المعاطف مشغولا بتسلم المعاطف والكالوشات فلم يعر التفاتا الى داشا التى كانت تمد الفيشة له . كان عليها ان تنتظر طويلا ، وكان تيار من الهواء البارد يهب على قدميها من خلال باب دائما الانفتاح مفض الى رواق فارغ . وقف فيه حوذية طوال فى قفاطين زرق مبللة يعرضون خدماتهم على الخارجين بمرح ووقاحة :

– على حصان سريع ، يا صاحب المقام !

* صيغة التحبب والتصغير لداريا ، وسترد هذه الصيغة كثيرا فيما بعد . (المترجم) .

– اركب معى ، الى منطقة بسكيه .
وفجاة صدر من وراء داشا صوت بيسونوف واضحا ، باردا :
– يا حاجب ، هات معطفى ، وقبعتى ، وعصاتى .

واحست داشا بمثل الأبر الدقيقة فى ظهرها . ادارت راسها بسرعة ، وحدقت بعينى بيسونوف . قابل بيسونوف نظرتها بهدوء كشىء يستحقه ، الا ان جفنيه رفا ، وظهرت نداوة حية فى عينيه الرماديتين ، وكانهما استسلمتا ، وشعرت داشا بخفقان قلبها .

قال بيسونوف وهو ينحنى لها :
– احسب اننا التقينا عند اختك ، ام انا مخطىء ؟
– نعم ، التقينا .

واختطفت معطفها من الحاجب ، وركضت الى المدخل الرئيسى . وفى الخارج حركت الريح الرطبة الباردة ثوبها ، ورشقتها بقطرات صدئة . التفت داشا بياقتها الفرائية حتى عينيها . سبقها شخص وقال فى اذنيها : «يا للعينين !»

حثت داشا خطاها على الاسفلت المبلل ، عبر الاشرطة المهتزة من الضوء الكهربائى . وترامت الى سمعها انغام الكمان من باب مطعم مفتوح . انها انغام للفالس جعلتها تدندن مع نفسها من خلال موفة الفراء الشعثاء التى تدفىء فيها يديها :

– ليس بالأمر السهل ، لا ، ابدا ، ابدا !

٣

سالت داشا خادمتها لوشا ، وهى تفك ازرار معطفها الفرائى المبلل :
– لا احد فى البيت طبعا ؟

وكانت لوشا تلقب بالمغولى العظيم لوجهها العريض الوجنتين كوجه صنم ، والمغطى بطبقة كثيفة من البودرة . اجابت لوشا بصوت نحيل وهى تنظر الى المرآة ، بان السيدة غائبة حقا ، الا ان السيد بالبيت فى غرفة مكتبه ، وانه سيتناول العشاء بعد نصف ساعة .

ذهبت داشا الى غرفة الجلوس ، وجلست الى البيانو ، ووضعت ساقا على ساق ، وطوقت ركبتها بيديها .

ما دام نيقولاى ايفانوفيتش زوج اختها فى البيت ، فمعنى ذلك انه قد تشاجر مع زوجته ، وانه الآن وعق المزاج وسيشكو لها . والساعة الآن الحادية عشرة ، وليس لديها ما تفعله حتى الساعة الثالثة حين يراود النوم مقلتيها . فهل تزجى الوقت بالقراءة ؟ ولكن ماذا تقرأ وليس لها من رغبة فى القراءة ؟ ام تظل جالسة تفكر ، وذلك ابهظ على نفسها . حقا ، ما اتعب الحياة فى بعض الاحيان !

زفرت داشا ، وفتحت غطاء البيانو ، وجلست مولية جنبها الى المفاتيح ، وراحت تسترجع فى يد واحدة لحنا لسكريابين . ان الانسان ليجد عسرا فى الحياة اذا كان فى سن غير مريحة كان يكون فى التاسعة عشرة ، ولا سيما اذا كان فتاة ، وذكية جدا ، وصارمة كثيرا ، بسبب من نقاء ابله ، مع اولئك الذين كانوا يبدون رغبتهم فى تبديد ضجر الفتاة ، وما اكثرهم !

فى العام الماضى وصلت داشا الى بطرسبورغ قادمة من سامارا لتدخل دورات الحقوق ، واقامت عند اختها الكبيرة يكاترينا دميتريفنا سموكوفنيكوفا التى كانت متزوجة من محام يتمتع بشهرة كبيرة ؛ فكانت حياتهما صاخبة ومرفهة .

كانت داشا اصغر من اختها بحوالى خمسة اعوام ، وكانت ما تزال صبية حين تزوجت اختها ، فكانت لقاءات الشقيقتين فى الاعوام الاخيرة قليلة ، والآن بدات بينهما علاقات جديدة : علاقات محبة عند داشا ، وعلاقات حنان عند يكاترينا دميتريفنا .

كانت داشا فى البداية تحاكى شقيقتها فى كل شيء ، وتعجب بجمالها ، وذوقها ، وقدرتها على التصرف مع الناس . وكانت تخجل فى حضرة اصدقائها ، ولكن حياءها كان يجعل كلامها لاذعا مع بعضهم . كانت يكاترينا دميتريفنا تسعى الى ان تجعل بيتها نموذجا للذوق والجدة التى لم تصل بعد بين عامة الناس . وكانت لا تترك معرضا دون ان تشهده ، وتشترى اللوحات لرسامين مستقبليين . ومن جراء ذلك كانت لها مع زوجها احاديث شديدة فى السنة الاخيرة ، لان الزوج كان يحب اللوحة التى تنم عن فكرة عميقة ، بينما كانت الزوجة بكل حماسها النسوى تفضل ان تعانى فى سبيل فن جديد على ان تعتبر متاخرة فى الذوق .

وكانت داشا ايضا معجبة بتلك اللوحات الغريبة المعلقة على جدران غرفة الجلوس ، الا انها كانت تقول لنفسها مفحومة : ان هذه الشخوص المربعة بوجوهها الهندسية وبعدد من الايدى والارجل اكثر من اللازم ، وتلك الالوان الباهتة كالصداع ما هى الا نوع قبيل هازىء من الشعر اعلى بكثير مما تستوعبه مخيلتها الخاملة .

جرت العادة ان تجتمع فى بيت آل سموكوفنيكوف كل ثلاثاء مجموعة من الضيوف صاخبة مرحة لتتناول العشاء فى غرفة الطعام المؤثثة برياش مصنوع من خشب القيقب . كان بينهم محامون من هواة الكلام ، وزيرة نساء ، ومتتبعون متحمسون للتيارات الادبية ؛ وصحفيان او ثلاثة علامون فهامون باصول ممارسة السياسة الداخلية والخارجية ؛ والناقد العصبى المزاج تشيرفا المبيّت ابدا لكارثة ادبية اخرى . وفى بعض الاحيان كان ياتى فى وقت مبكر شعراء شبان كانوا يتركون دفاتر اشعارهم فى جيوب معاطفهم فى رواق البيت . وقبيل بدء العشاء كانت تصل شخصية شهيرة ، وتتقدم من ربة البيت على مهل ، وتتخذ مجلسها فى مقعد وثير بعظمة ووقار . واحيانا ، والعشاء فى منتصفه كان الضيوف يسمعون خشخشة كالوشين جلديين يخلعان فى الرواق ، وصوتا مخمليا يقول :

«السلام عليك ، ايها المغولى العظيم !» وبعد ذلك كان وجه حليق ذو خيشومين متدليين ، وجه فنان يمثل على الدوام دور العاشق ينحنى على كرسى ربة البيت ، ويقول :

– يا عزيزتى كاتيوشا * ، هاتى يدك !

كانت داشا تعتبر اختها الشخص الرئيسى فى هذه الحفلات ، وتحنق على مَن كان لا يعيرها اهتماما كبيرا ، وهى العذبة ، الطيبة ، الصافية القلب ، وتغار ممن يفرط فى التودد اليها . فتحدجه بعينين غاضبتين .

ثم اخذت داشا تنفذ بالتدريج الى هذا العدد المذهل من الوجوه . فصارت الآن تزدرى مساعدى المحامين ، اذ لم تر شيئا مهما فيهم عدا سترهم الطويلة الوبراء ، واربطتهم البنفسجية ،

* او كاتيا صيغة التحبب والتصغير لاسم يكاترينا . (**المترجم**) .

ومفارقهم عبر رؤوسهم كلها . كما كرهت الفنان العاشق ، لانها لم تر له الحق فى ان يسمى اختها يكاترينا بـ«كاتيوشا» ولا ان يدعو المغولى العظيم بلقبها البيتى هذا ، ولا ان يقول وهو يضيق عينيه المرتخيتين صوب داشا ، ويجرع كاس الفودكا :

«اشرب نخب شجرة اللوز المتفتحة !»

وكانت داشا تتميز غيظا كلما اقدم الرجل على ذلك .

كانت وجنتاها متوردتين حقا ، ولكنها لم تستطع التخلص من لون زهر شجرة اللوز هذا ، اللون الملعون ، فكانت وهى وراء المائدة تحس وكانها دمية خشبية ملونة .

ولم تسافر داشا فى الصيف الى ابيها فى سامارا المغبرة القائظة ، وقبلت بفرح ان تظل عند اختها على ساحل البحر فى سيستروريتسك . فالتقت هنا بنفس الناس الذين التقت بهم فى الشتاء ، لكنهم كانوا يلتقون اكثر من قبل راكبين القوارب ، سابحين ، جالسين فى الغابة ياكلون الدوندرمه . وفى الاماسى كانوا يستمعون الى الموسيقى ، ويتناولون عشاءهم تحت النجوم ، فى شرفة الكازينو مضوضئين صاخبين .

وكانت يكاترينا دميترييفنا قد اوصت لداشا على ثوب ابيض مطرز بالساتان ، يتوسطه نطاق حريرى عريض ينتهى بعقدة كبيرة عند ظهرها ، وقبعة كبيرة من الكريشة البيضاء محاطة بشريط اسود . واذا بداشا تجد نفسها موضع حب نكانور يوريفيتش كوليتشيك مساعد زوج اختها ، وكانه فتحوا عينى هذا الرجل فجاة .

الا انه كان من «المحتقرين» . وتميزت داشا غيظا ، ودعته الى الغابة ، ودون ان تتركه يتفوه بكلمة واحدة فى الدفاع عن نفسه (كل ما استطاع هو ان مسح بمنديل يشد عليه قبضته) قالت له انها لن تسمح لاحد بان ينظر اليها كـ«انثى» ، وانها حانقة ، وتعتبر شخصنا ذا مخيلة فاسقة ، وانها ستشكوه اليوم حالا الى زوج اختها .

وقد شكت الى زوج اختها فى ذلك المساء ذاته . اصغى نيقولاى ايفانوفيتش الى قصتها كلها ، وهو يمسد لحيته المعتنى بها جيدا ، ناظرا بدهشة الى وجنتيها المتوردتين من الغيظ ، والى

رقبتها الكبيرة المهتزة غيظا ، والى كل قوامها الرشيق فى ثوبها الابيض ، ثم جلس على الرمل عند الماء ، وراح يقهقه حتى اخرج منديله من جيبه ، ومسح به عينيه قائلا :

– اذهبى ، يا داريا ، اذهبى ، ستجعلينني اموت من الضحك !

فانصرفت داشا غير فاهمة شيئا ، فى حيرة وارتباك . ومنذ ذلك الحين لم يجرا كوليتشيك على ان يرفع عينيه الى داشا ، وقد نحل ومال الى الوحدة . وانقذ شرف داشا . الا ان هذه القصة كلها اثارت فجاة مشاعر كانت غافية فى اعماق عذريتها . واختل التوازن الرقيق ، وكان ذاتا اخرى خانقة ، حالمة ، عديمة الشكل ، كريهة قد نمت فى جسم داشا كله من الراس حتى اخمص القدم . فاستشعرته بكل جلدها ، وتعذبت وكانما من دنس ، واستولت عليها الرغبة فى ان تزيل عن نفسها نسيج العنكبوت غير المرئى هذا وتعود من جديد غضة ، متبردة ، خفيفة .

وصارت تقضى ساعات بكاملها فى لعب التنس ، وتسبح مرتين فى اليوم ، وتستيقظ فى الصباح الباكر حين تكون قطرات الندى الكبيرة ما تزال متلألئة على اوراق الشجر ، والبخار يتصاعد من البحر الليلكى ، الصقيل كالمرآة ، المقاعد الندية موزعة على الشرفة الفارغة ، والممرات الرملية الرطبة مكنوسة .

الا ان تلك الذات الثانية كانت ترتد حية بعد ان تتدفأ فى الشمس ، او فى الفراش الناعم ليلا ، وتتسلل الى قلب داشا بحذر ، وتعصرها بيدها الطرية . وكان من المستحيل اقصاؤها عنها ، او ازالتها ، تماما مثل الدم على المفتاح المسحور فى حكاية اللحية الزرقاء .

وصار جميع المعارف ، واختها الاولى بينهم ، يرون داشا قد زانت محاسن فى هذا الصيف وهى تزداد حسنا كل يوم . وذات صباح جاءت يكاترينا دميترييفنا الى شقيقتها ، وقالت :

– ماذا سيكون علينا ان نفعل بعد الآن ؟

– ما الامر ، يا كاتيا ؟

جلست داشا فى قميص النوم على السرير ، ولوت شعرها فى عقدة كبيرة .

– انت تزدادين حسنا ، فماذا سنفعل بعد هذا ؟

حدقت داشا الى شقيقتها بعينيها الصارمتين المظللتين برموش طويلة ، واعرضت عنها . ولون الدم وجنتيها واذنيها .

– لا اريد ، يا كاتيا ، ان تتحدثي معي على هذا النحو . فان ذلك يضايقني . أتفهمين ؟

جلست يكاترينا دميتربيفنا على السرير ، وضغطت خدها على ظهر داشا العاري ، وضحكت مقبلة شقيقتها ما بين دفتي كتفيها . وقالت :

–ما اسرع الغضب اليك ! من انت ؟ قنفذ او هرة برية ؟

ذات مرة ظهر في ساحة التنس رجل انجليزي نحيل ، حليق ، بارز الذقن ، طفولي العينين ، في قيافة لا شائبة فيها جعلت بعض الشبان من بطانة يكاترينا دميتربيفنا في جزع من امرهم . دعـا الانجليزي داشا الى اللعب ولعب معها كالآلة . وبدا للفتـاة ان ملاعبها لم يلق نظرة عليها خلال اللعب كلـه . بل كان ينظـر خلالها . وخسرت داشا اللعبة ، وعرضت عليه ان يلاعبهـا مرة اخرى . طوت داشا كمي بلوزتها البيضاء لتكون اخف حركة . وخلال اللعب تدلت خصلة شعر من تحت طاقيتها من البيكه ، ولكن داشا لم تعدها الى موضعها . وفكرت في سرها وهي تصد الكرة بضربة قوية قرب الشبكة تماما : .

«للفتاة الروسية البارعة رشاقة لا تلمح في كل حركاتها ، وتورد الوجنتين يلائم محياها» .

وربح الانجليزي اللعبة الثانية ايضا ، وانحنى لداشا بمنتهى الجفاف . واشعل سيكارة شذية الرائحة ، وجلس على مقربـة ، بعد ان طلب لنفسه قدحا من شراب الليمون .

ولعبت داشا اللعبة الثالثة مع طالب مدرسة مشهور ، فكانت اثناء اللعب تلقي من طرف عينيها نظرات على الانجليزي ، فتراه جالسا وراء طاولة صغيرة وقد وضع ساقا على ساق وطوق بيديه رسغ قدمه بجوربها الحريري ، ودفع قبعة القش الى مؤخرة رأسه ، وراح يحدق في البحر دون التفات .

وفي الليل ، حين كانت داشا مضطجعة على سريرها استرجعت كل ذلك ، متصورة نفسها بوضوح وهي تقفز في ساحة اللعب ،

محمرة الوجه ، متهدلة خصلة الشعر ، فاذا بها تبكي من كبريائها الجريحة ، ومن شيء آخر كان اقوى منها .

وكفت عن الخروج الى التنس منذ ذلك اليوم ، حتى قالت لها يكاترينا دميتربيفنا ذات مرة :

– يا داشا ، ان مستر بيلس يسال عنك كل يـوم لماذا كففت عن اللعب ؟

فغرت داشا فاها من شدة الفزع . ثم قالت حانقة انهـا لا تريد ان تسمع «اقاويل حمقاء» ، وانها لا تعرف شخصا بهذا الاسم ، ولا تريد ان تعرف ، وهو ، بصراحة ، وقح اذا كان يتصور انها بسببه قد كفت عن الاشتراك في «لعبة التنس الحمقاء هـذه» .

ورفضت داشا الخروج الى الغداء ، ووضعت في جيبها خبزا وحبات من عنب الثعلب ، وخرجت الى الغابة . وبينما كانت تتمشى في ذلك الحرش الصنوبري الفواح برائحة صمغ حار ، بين الاشجار الطويلة الحمراء الجذوع باعاليها المتمايلة مع حفيف الريح قررت مع نفسها ان اية امكانية لم تبق للتمادي في اخفاء الحقيقة المؤسفة : غرامها بالانجليزي ، وتعاستها اليائسة .

وهكذا نما الشخص الثاني في نفس داشا ، رافعا راسه شيئا فشيئا . في بـادئ الامر كان وجوده كريها كالدنس ، مؤلمـا كالدمار . وبعد ذلك تعودت داشا هذه الحالة المعقدة ، مثلمـا تتعود النساء في الشتاء على المشد والثياب السميكة بعد انتهاء الصيف والنسيم الطري ، والماء المنعش ببرودته .

وقضت داشا اسبوعين في حبها الأنوف للانجليزي . كـانت تكره نفسها ، وتحنق على هذا الرجل . وقد رأته عدة مرات من بعيد يلعب التنس بتكاسل وبراعة ، ويتعشى مع البحارة الروس ، فكانت تقول لنفسها انه اكثر رجال الارض جاذبية على الاطلاق .

الا ان فتاة فارعة الطول نحيلة ترتدي لباسا من الفانيلـة البيضاء ظهرت الى جانبه فجأة . انها خطيبته الانجليزية . واذا بهما يرحلان . وقضت داشا ليلة مؤرقة ، وبغضت نفسها بغضا مشوبا باشمئزاز ضار . وقبيل الصباح قالت لنفسها : لتكن هذه آخر غلطة في حياتي .

وهدأت بهذا التفكير ، بل وادهشها ، فيما بعد ، ان يـزول

كل ذلك بمثل هذه السرعة والسهولة . ولكن لم يزل كل شيء . فقد اضحت تحس الآن وكأن «الشخص الثانى» ذاك قد اندمج فيها ، وذاب فى داخلها ، واختفى ، وهى الآن فتاة اخرى : انها كما كانت من قبل خفيفة ، غضة ، ولكن كيانها كله كأنما اضحى اطرى وارق ، واكثر غموضا ، وبشرتها اضحت اشف ، حتى انها لم تتعرف على وجهها فى المرآة . ثم ان عينيها بوجه خاص ، عينيها الرائعتين اضحتا عينين اخويين ، اذا نظر المرء فيهما صعد الدوار الى راسه .

فى اواسط آب انتقل آل سموكوفنيكوف مع داشا الى شقتهما الكبيرة فى شارع بانتليمونوفسكايا بطرسبورغ . وعادت من جديد حفلات العشاء ايام الثلاثاء ، ومعارض الصور او حفلات العرض الاول الصاخبة فى المسارح ، ودعاوى الفضائح فى المحاكم ، وشراء اللوحات ، وتفخيم الماضى ، والرحلات الليلية الى الفجر فى مطعم «سمرقند» . وظهر الفنان العاشق من جديد وقد القى عن جسمه فى مصح المياه المعدنية ثلاثة وعشرين رطلا . واضيفت الى كل هذه المسرات اللاغبة شائعات مبهمة ، مثيرة وسارة عن حدوث تحول وشيك .

ولم يعد لداشا متسع من الوقت للتفكير ولا للشعور : فى الصباح كانت تختلف الى المحاضرات ، وفى الساعة ، الرابعة تخرج للتنزه مع اختها ، وفى المساء للمسارح والحفلات الموسيقية ، والدعوات الى العشاء ، والناس ، ولا دقيقة واحدة تخلو فيها الى نفسها .

وفى امسية من امسيات الثلاثاء ، بعد ان فرغ الضيوف من العشاء ، وراحوا يحتسون خمرة «الليكور» دخل الكسى الكسييفيتش بيسونوف غرفة الجلوس ، ولما وقع بصر يكاترينا دميتريفنا عليه قرب الباب صبغت وجهها حمرة قانية . وقطع الضيوف حديثهم المشترك ، جلس بيسونوف على الأريكة ، وتناول فنجان القهوة من يد يكاترينا دميتريفنا .

جلس بالقرب منه محاميان ، هما من المتضلعين فى الادب ، الا ان بيسونوف ابتدر يقول على غرة ، وهو يرمق ربة البيت بنظرة طويلة غريبة ، ان الفن لا وجود له على الاطلاق ، بل هناك دجل ، وشعوذة حاو يجعل قردا يتسلق السماء على حبل .

«ولا يوجد شعر ، ان كل شيء قد انقرض منذ زمان قديم : الناس ، والفن . اما روسيا فهى فطيسة يحوم عليها سرب من الغربان فى وليمة للغربان . وجميع الذين يكتبون الشعر سيدخلون جهنم» .

كان يتكلم بصوت واطئ النبرة خال من الرنين ، وتوردت بقعتان على وجهه الحانق الشاحب . وكانت ياقة قميصه مدعوكة ، ورماد السيكائر متناثرا على سترته . وكانت القهوة تنسكب على البساط من القدح الصغير الذى يمسكه .

كان متضلعا الادب يريدان اثارة جدال ، الا ان بيسونوف ظل يتابع يكاترينا دميتريفنا بعينين غشتهما دكنة ، دون ان يعيرهما التفاتا . ثم نهض وتقدم نحوها ، وسمعت داشا قوله :

— انا لا اطيق مجتمع الناس ، فاسمحى لى بالانصراف .

طلبت اليه يكاترينا دميتريفنا بوجل ان يقرا شيئا . فهز راسه . ووقف طويلا ضاغطا يدها الى شفتيه ، يودعها ، حتى احمر ظهرها احمرارا شديدا .

وبدأ النقاش بعد انصرافه . اجمع الرجال على ان : «هناك حدودا ، على اية حال ، ولا يجوز له ان يحتقر مجتمعنا بهذا الشكل السافر» . وتنقل الناقد تشيرفا من واحد الى آخر ، وهو يكرر : «ايها السادة ، انه سكران كليا» . واتفقت السيدات على ان «بيسونوف سواء اكان سكران ام منساقا مع مزاجه الخاص فانه رجل مثير على حد سواء ، وليكن ذلك معلوما للجميع» .

فى اليوم التالى قالت داشا عند الغداء انها تعتبر بيسونوف واحدا من اولئك الاشخاص «الحقيقيين» تعيش حلقة يكاترينا دميتريفنا باسرها على انفعالاته ، وآثامه ، وذوقه ، وكأنما على الضوء المنعكس منه . «انا افهم ، يا كاتيا ، ان مثل هذا الرجل يمكن ان يُفقد المرأة صوابها» .

ارتبك نيقولاى ايفانوفيتش وقال : «مجرد ان شهرته قد سحقتك ، يا داشا» . واعتصمت يكاترينا دميتريفنا بالصمت . ومنذ ذلك الحين لم يزر بيسونوف آل سموكوفنيكوف . وشاع انه يطيل البقاء فى غرفة الممثلة تشاراديفا وراء كواليس المسرح . وذهب كوليتشيك مع اصحابه ليروا تشاراديفا نفسها ، فاصيبوا

بخيبة ظن ، فقد كـــانت نحيلة كالهيكل العظمى مجرد تنـــورات مدنتلة .

ذات مرة التقت داشا ببيسونوف فى احد المعارض . كـان واقفا عند النافذة يتصفح فهرس المعرض بلا مبالاة ، بينما وقفت امامه طالبتان قميئتان تنظران اليه بابتسامتين خامدتين ، وكانهما امام تمثال فى متحف الشمع . مرت داشا به بطيئة الخطى ، ودخلت القاعة الأخرى وجلست على مقعد ، فقد شعرت بتعب فى قدميها ، وبكآبة .

وبعد هذا الحادث اشترت داشا تصوير بيسونوف ، ووضعته على الطاولة . وقصائده – المجموعة فى ثلاثة دواوين صغيرة بيضاء الغلاف – قد تركت فى نفسها بادئ الأمر شعورا بالتسمم : قضت ثلاثة ايام غير متمالكة شعورها ، وكانها اضحت شريكة فى قضية سرية خبيثة . الا انها بعد ان اعادت قراءة قصائده صارت تجـد متعة فى تلك الاحاسيس الموجعة باللذات وكان احدا يهمس لهـا داعيا اياها لان تفقد صوابها وترتخى ، وتنثر شيئا ما غـاليا وتحن الى شيء لن يكون .

وبسبب بيسونوف اخذت تتردد على جمعيـــــة «الامسيات الفلسيفية» . وكان بيسونوف ياتى الى الجمعية فى وقت متاخر ، ويتحدث بندرة ، الا ان داشا كانت تعود الى البيت فى كل مـرة مستثارة وكانت مسرورة اذا رات فى البيت ضيوفـــا . صمتت كبرياؤها المهانة .

واليوم كان عليها ان تسترجع الحان سكريابين فى وحدة . كانت الأصوات ، كالكرات الثلجية ، تتساقط ببطء فى داخـــل صدرها ، نافذة الى اعماق تلك البحيرة المظلمة التى لا قعر لها . وحين كانت تسقط كانت تغضن سطح الماء وتغرق . ويصير الماء بين مد وجزر ، وفى الظلمة الساخنة ، يدق القلـــب دقا اجوف مذعورا ، وكان شيئا مستحيلا سيحدث عاجلا ، الآن ، فى هـــذه اللحظة .

ارخت داشا ذراعيها على ركبتيها ، ورفعت راسها . فى الضوء الهادئ لظليلة المصباح البرتقالية كانت وجوه قرمزية ، منتفخة ، ذات عيون جاحظة تطل من الجدران ، وكانها اشباح فوضى مـــا

قبل الطوفان ، المتشبثة بعطش بسياج جنة عدن فى اليوم الاول للخليقة .

قالت داشـــا لنفسها : «نعم ، يا مولاتى ، ان قضيتنـــا لخاسرة» . وتحركت اصابعها سريعة فى سلم موسيقى من اليسار الى اليمين ، ثم انزلت غطاء البيانو دون ان تحدث صوتـا ، واخرجت سيكارة من علبة يابانية ، واشعلتها . وسعلت ، وسحقتهـا فى النفاضة .

صاحت داشا بصوت يمكن ان يسمع عبر اربع حجرات :

– يا نيقولاى ايفانوفيتش ، كم الساعة ؟

سقط شيء فى المكتب ، ولم تتلق داشا جوابا . ظهـــرت «المغولى العظيم» ، واعلنت ، وهى تتطلع الى نفسها فى المرآة ، ان العشاء جاهز .

جلست داشا فى غرفة الطعام امام زهرية فيها زهور ذابلة . واخذت تقطعها باصبعها فتتساقط اوراقها على مفرش المـــائدة . قدمت «المغولى العظيم» الشاى ، واللحم البارد ، والبيض المقلى ، واخيرا جاء نيقولاى ايفانوفيتش فى بدلة زرقاء جديدة ، ولكنها بدون ياقة . وكان شعره غير مصفف ، ولحيته مائلة الى اليسار ، وقـد تعلقت فيها ريشة من وسادة الاريكة .

انحنى نيقولاى ايفانوفيتش لداشا عابسا ، وجلس فى طرف المائدة ، وقرب منه مقلاة البيض ، وشرع ياكل بنهم .

وبعد ذلك اسند مرفقه الى حافة المائدة ، ووضع خده على قبضته الكبيرة المشعرة ، وثبت عينيه غير الرائيتين الى كومة الوريقات المقطوعة ، وقال بصوت واطئ غير طبيعى تقريبا :

– فى الليلة الماضية خانتنى اختك .

٤

ان شقيقتها ، كاتيا ، اقترفت شيئا رهيبا ، غامضا ، اسود . فى الليلة الماضية استقر راسها على وسادة ، وقد اعرض عن كل شيء حى ، عزيز ، دافئ ، بينما انسحق جسدها ، وتشوه . على هذا

النحو فهمت داشا ، وهى ترتعش فزعـــــا ، ما سماه نيقولاى ايفانوفيتش خيانة . وفوق كل ذلك لم تكن كاتيا فى البيت ، كانما لم يعد لها وجود فى الدنيا .

فى الدقيقة الاولى كادت داشا تغيب عن الوجود ، واظلـم بصرها . وانتظرت مكتومة الانفاس ان ينفجر نيقولاى ايفانوفيتش منتحبا ، او يصرخ بشىء مفزع . الا انه لم يضف كلمة اخرى الى ما اعلنه ، وراح يدير بين اصابعه حمالة الشوكات . ولم تجرؤ داشا على النظر فى وجهه .

وبعد فترة طويلة من الصمت دفع الكرسى عن المائدة بحركة حادة وذهب الى مكتبه . وقالت داشا لنفسها : «سيطلق النار على نفسه» . ولكن هذا ايضا لم يحدث . وتذكرت داشا باسف حاد خاطف يده الكبيرة المشعرة على المائدة . ثم اختفى عن بصرها ، وظلت داشا تكرر : «ما العمل ؟ ما العمل ؟» ورن فى راسها : كل شىء ، كل شىء قد فسد وتحطم .

ظهرت «المغولى العظيم» من وراء ستارة الجوخ تحمل صينية : نظرت داشا اليها ، وادركت فى الحال ان «المغولى العظيم» لن تكون بعد الآن . فاضت دموعها من عينيها ، وصكت اسنانها بقـوة ، وركضت الى غرفة الجلوس .

هنا ، كانت كل الاشياء ، حتى اصغر الدقائق ، قد رتبتها وصفتها يـدا كاتيا فى رعاية وحب ، الا ان روح كاتيا قد غادرت هذه الغرفة ، وانقلب كل شىء فيها حوشيا وخاليا مـن الحياة . جلست داشا على الأريكة ، واستقر بصرها بالتدريج على لوحـة اشتريت منذ وقت قصير . ولاول مرة رأت داشا وفهمت ما كان مرسوما فيها .

كانت اللوحة تصور امراة عارية وسمت بلون احمر متقيح ، وكان جلدها مسلوخ . فمها منحرف الى جانب ، وفى موضع انفها ثقب مثلث ، وراسها مـربع ، وقد الصقت بها قطعة قمـاش . والساقان مثل خشبتين مستديرتين منفصلتين . وفى اليدين زهرة . وبقية التفاصيل فظيعة . وافظع ما فى اللوحة الركن البنى الكدر الذى جلست فيه المراة منفرجة الساقين . وقد اطلق على اللوحة اسم «حب» . وكانت كاتيا تسميها فينوس الحديثة .

«لهذا السبب ، اذن ، كانت كاتيا معجبة كثيرا بهذه الأنثى الفاسقة . وهى الآن مثلها ، تحمل وردة فى ركن» . انبطحت داشا ، ووجهها الى الوسادة ، واخذت تبكى عاضة على شفتيها لتكتم صوت بكائها . وبعد برهة من الوقت دخل نيقولاى ايفانوفيتش غرفـة الجلوس ، باعد بين ساقيه ، وراح يضرب زناد قداحته فى غضب ، وتقدم من البيانو واخذ يدق على مفاتيحه . واذا بدقاته تتحول فجأة الى اغنية بسيطة . وشعرت داشا ببرودة تسرى فى اوصالها . صفق نيقولاى ايفانوفيتش غطاء البيانو ، وقال :

– كان يجب توقع ذلك .

اعادت داشا هذه الجملة فى سرها عدة مرات ، محاولـة ان تفهم معناها . وفجأة رن الجرس رنة حادة فى الـــرواق . امسك نيقولاى ايفانوفيتش لحيته ، الا انه قال بصوت مكتوم : «او – او او !» ولـم يفعل شيئا سوى انه اسرع فى الدخول الى مكتبـه . وارسلت خطوات «المغولى العظيم» فى الدهليز صوتا مثل صـوت الحوافر . ووثبت داشا من الاريكة . غامت الدنيا امام عينيها ، وقلبها يخفق بشدة ، وخرجت الى الرواق .

كانت يكاترينا دميترييفنا هناك تفك الاشرطة الليلكيـة لقلنسوتها الفرائية بأصابع خدرها البرد ، وكانت تغضن انفها . عرضت لأختها خدها المتورد البارد لتقبله ، الا انها لـم تتلق القبلة المرجوة فنفضت راسها لتلقى القلنسوة عنـه ، وتفرست عيناها الرماديتان باختها . وسالت بصوتها الواطئ العميق العذب الفاتن ابدا :

– هل حدث شىء عندكم ؟ هل تشاجرتما ؟

اخذت داشا تنظر الى كالوش نيقولاى ايفانوفيتش الجلدى ، وكان يسمى فى البيت بـ«الكالوش المتحرك بذاته» . وكان فى تلك اللحظة يقبع مهملا . وارتعش ذقن داشا .

– لا ، لم يحدث شىء . مجرد مزاج .

فكت يكاترينا دميترييفنا ببطء الازرار الكبيرة على معطفها من فراء السنجاب ونفضته عنها بحركة من كتفيها العاريتين ، وها هى بكليتها دافئة ، حنون ، تعبى . وانحنت بشدة لتفك حذاءهـا الطويل ، وقالت :

– تبللت قدماى ،وانا ابحث عن سيارة .

عندئذ سالت داشا بحدة ، وهى مستمرة فى النظر الى كالوش نيقولاى ايفانوفيتش :

– اين كنت ، يا كاتيا ؟

– فى عشاء ادبى ، يا عزيزتى ، تكريما لشخص لا اعرف حتى اسمه ، قسما بالله . نفس النمط . انا تعبة الى حد الاعياء ، واريد ان انام .

ودخلت غرفة الطعام . والقت حقيبتها الجلدية على المفرش ، ومسحت انفها الصغير بمنديلها ، وسالت :

– مَن قطع وريقات الزهور ؟ واين نيقولاى ايفانوفيتش ؟ اهو نائم ؟

وتملكت الحيرة داشا ، فان شقيقتها لا تشبه المرأة الفاسقة فى اللوحة مطلقا ، ولم تكن غريبة عليها ، بل وهى اليوم ، لسبب ما ، اقرب اليها من اى وقت مضى ، حتى لودّت لو تمسد عليها بكليتها .

ومع ذلك فقد قالت داشا بكل ما فى روحها من حضور ، واظفرها يخدش المفرش فى الموضع الذى تناول فيه نيقولاى ايفانوفيتش البيض المقلى قبل نصف ساعة :

– يا كاتيا !

– ماذا ، يا عزيزتى ؟

– انا اعرف كل شىء .

– ماذا تعرفين ؟ بالله ، ما الذى حصل ؟

وجلست يكاترينا دميتريفنا الى المائدة ، ماسة بركبتيها ساقى داشا ، متطلعة اليها بفضول من الاسفل الى الاعلى .

قالت داشا :

– كشف لى نيقولاى ايفانوفيتش كل شىء .

ولم تنظر الى وجه شقيقتها ، لترى ما يعصف فى داخلها .

وبعد صمت طويل جدا يكاد يفتك بالنفس قالت يكاترينا دميتريفنا بصوت حانق :

– اى خبر عاصف اعلن نيقولاى ايفانوفيتش ؟

– انت تعرفين ، يا كاتيا .

– لا ، لا اعرف .

وقد فاهت بـ«لا اعرف» هذه ، وكان كرة ثلجية تكورت من هذه الكلمة .

وفى الحال هوت داشا على قدميها :

– اذن ، فقد يكون ذلك غير صحيح ؟ كاتيا ، يا عزيزتى ، ويا مهجتى ، يا شقيقتى الجميلة ، قولى لى : كل ذلك غير صحيح ؟

وغطت داشا بالقبل السريعة يد كاتيا الرقيقة ، العابقة بالعطر ، ذات العروق الزرقاء كالجداول .

اجابت يكاترينا دميتريفنا ، مغمضة عينيها فى ونى :

– غير صحيح ، طبعا . وها انت تبكين فورا . وغدا ستصبح عيناك حمراوين ، وانفك منفوخا .

ورفعت داشا ، وظلت تطبق شفتيها على شعرها طويلا .

وهمست داشا فى صدرها :

– انا حمقاء !

وفى تلك اللحظة صدر صوت نيقولاى ايفانوفيتش العالى الواضح من وراء باب مكتبه :

– انها تكذب !

التفتت الشقيقتان فجاة ، الا ان باب المكتب كان مغلقا .

قالت يكاترينا دميتريفنا :

– اذهبى للنوم يا صغيرتى ، اما انا فذاهبة لأستوضح الامر . يا له من امر ممتع ، وانا لا اكاد اقف على قدمى .

رافقت داشا الى غرفتها ، وقبلتها ساهمة ، ثم عادت الى غرفة الطعام ، فاختطفت محفظتها ، وعدلت من وضع المشط على راسها ، ودقت باب المكتب باصبعها بهدوء .

– افتح ، نيقولاى ، ارجوك .

الا انها لم تتلق جوابا . كان صمت منحوس ، اعقبه نخير من الف ، وقلقلة مفتاح ، ودخلت يكاترينا دميتريفنا ، فرات ظهر زوجها العريض . لم يلتفت اليها ، بل سار نحو الطاولة ، وجلس فى المقعد الجلدى ، وتناول سكينا من عظم العاج ، ومرره بحدة على كتاب (هو رواية فاسيرمان «رجل الاربعين») .

فعل كل ذلك وكأن يكاترينا دميتربيفنا لم تكن فى الغرفة .
جلست يكاترينا دميتربيفنا على الأريكة ، وجذبت تنورتها على ساقيها ، واخفت منديلها فى المحفظة ، وسدت قفلها . وبتلك الحركة ارتجفت خصلة الشعر على هامة نيقولاى ايفانوفيتش . قالت يكاترينا دميتربيفنا :

– شىء واحد لا افهمه . انت حر فى ان تظن ما تشاء من الظنون ، ولكننى ارجو الا تشركنى دائما فى امزجتك .

عندئذ استدار على مقعده بحمية ، ومد رقبته ولحيته ، وقال من خلال اسنانه :

– اذن ، عندك الوقاحة الكافية لتسمى ذلك مزاجى ؟

– انا لا افهم .

– رائع ! لا تفهمين ؟ اما ان تتصرفى كامرأة رخيصة ، فانت تفهمين ، كما يبدو ؟

فتحت يكاترينا دميتربيفنا فمها قليلا عند سماعها هذه الكلمات . وقالت بهدوء وهى تنظر الى وجه زوجها المحمر بشدة حتى تفصد بالعرق وجهه المشوه غيظا :

– قل لى : متى بدأت تتحدث معى بهذه اللهجة المهينة ؟

– ارجو المعذرة ، يا مولاتى ! ولكننى لا اجيد التحدث بلهجة اخرى . وباختصار اود لو اعرف التفاصيل .

– اية تفاصيل ؟

– لا تكذبى على فى وجهى .

– هذا ما تعنيه اذن ، – قالت ذلك ، وتقلبت عيناها الوسيعتان وكان ذلك من منتهى التعب ، – اليوم قلت لك شيئا ما . . . ونسيته مطلقا .

– اريد ان اعرف مع من حصل ذلك .

– انا لا اعرف .

– مرة اخرى ارجو الا تكذبى . . .

– انا لا اكذب . ولا داعى للكذب عليك . ولكننى قلت . وما اكثر ما اقول ساعة الغضب ! قلت ، ونسيت .

خلال هذا الكلام كان وجه نيقولاى ايفانوفيتش جامدا كالحجر ، الا ان قلبه غاص ووجب من الفرح : «حمدا لله ، كانت تكذب على

نفسها» . والآن كان من الممكن بأمان ان يتظاهر فى صخب بانه لا يصدق شيئا تنفيسا عن كرب قلبه .

نهض من مقعده ، وراح يتمشى على البساط ، متوقفا بين الحين والآخر ، شاقا الهواء بضربات من سكينه العاجية ، وهو يتحدث عن سقوط العائلة ، وفساد الخلق ، وعن الواجبات المقدسة المهملة الآن ، واجبات المرأة – الزوجة ، ام اولادها ، ومساعدة زوجها . ولام يكاترينا دميتربيفنا على خوائها الروحى ، وعلى تبذيرها الأهوج للنقود المكتسبة بالدم (صححت يكاترينا دميتربيفنا : «ليس بالدم ، بل بتحريك اللسان») . لا ، بل واكثر من الدم ، بحرق الاعصاب . ووبخها على عدم عنايتها باختيار الاصحاب ، وانعدام الترتيب فى البيت ، وولعها بـ«تلك البلهاء» المغولى العظيم ، وحتى بـ«اللوحات التى تثير قرفى فى غرفة جلوسك المبتذلة» .

وباختصار ، نفّس نيقولاى ايفانوفيتش عما فى صدره .

تجاوزت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . وعندما بح صوت الزوج وصمت ، قالت يكاترينا دميتربيفنا :

– لا يمكن ان يكون هناك ابغض من رجل سمين وهستيرى .

ونهضت ، ودخلت مخدعها .

الا ان نيقولاى ايفانوفيتش لم يتكدر الآن حتى من هذه الكلمات . خلع ملابسه ببطء ، وعلقها على ظهر المقعد ، ودور الساعة ، واندس فى الفراش النظيف المفروش على الأريكة الجلدية ، وارسل زفرة خفيفة .

فكر وهو يفتح كتابا ليهدئ نفسه بالقراءة انتظارا للنوم : «اجل ، ان نمط حياتنا ردىء . ويجب ان نعيد تنظيم حياتنا كلها . مؤلم ، مؤلم» . الا انه انزل الكتاب فى اللحظة التالية ، وارهف سمعه . كان الهدوء يسود البيت . مخط شخص من انفه ، فوجب قلبه لهذا الصوت . وفكر مع نفسه : «انها تبكى ، اى ، اى . يبدو اننى تماديت فى القول» .

وعندما اخذ يسترجع كل حوارهما ، وتمثل كاتيا جالسة نصفى ، اخذه الاشفاق عليها . رفع جسمه على كوعه ، واستعد

للخروج من تحت الدثار ، الا انه شعر باسترخاء يدب فى جسمه كله ، وكانه من تعب ايام كثيرة ، فالقى راسه على الوسادة ، وغفا .

خلعت داشا ملابسها فى غرفتها النظيفة المرتبة ، واخرجت المشط من شعرها ، وهزت راسها حتى تطايرت دبابيس الشعر فورا ، وانسلت فى فراشها الأبيض ، وسحبت الغطاء حتى ذقنها ، وقلصت عينيها ، وقالت لنفسها : «شكرا لله ، كل شىء على ما يرام ! وليس لى الآن ما يشغل بالى ، فلأنم» . وتصورت امامها وجها صغيرا مضحكا . فابتسمت ، وعكفت ركبتيها قليلا ، وطوقت الوسادة . وغشتها سنة لذيذة مظلمة من النوم ، وفى الحال تردد فى ذاكرتها صوت كاتيا بوضوح : «غير صحيح ، طبعا» . فتحت داشا عينيها ، «لم اقل لكاتيا كلمة واحدة . سالتها فقط : صحيح ام غير صحيح . فاجابتنى وكانما كانت تفهم تماما مدار الحديث» . وكان الوعى يوخز جسمها كله وخز الابر : «خدعتنى كاتيا !» ، وبعد ان تذكرت كل دقائق الحديث ، وكلمات كاتيا وحركاتها رأت بوضوح ان فى الأمر خدعة حقا . واحست داشا بصدمة . لقد خانت كاتيا زوجها ، ولكنها بعد اقتراف خيانتها ، واثمها ، وكذبها ، اضحت اكثر فتنة . والأعمى وحده لا يستطيع ان يلحظ فيها شيئا جديدا ، ورقة وافية ذات نكهة خاصة . وهى تكذب بطريقة تاخذ باللب ، تغرى بالحب . ولكنها جانية . انا لا افهم شيئا ، لا افهم .

وقلقت داشا وتحيرت . شربت ماء ، واشعلت المصباح ، ثم اطفاته ثانية ، وظلت تتقلب على الفراش حتى الصباح شاعرة بانها لا تستطيع ان تدين كاتيا ، ولا تدرك ما اقترفته .

ولم تستطع يكاترينا دميترييفنا ايضا ان تغفو فى تلك الليلة . انطرحت على ظهرها خائرة القوى ، ملقية ذراعيها فوق الدثار الحريرى ، وبكت ، دون ان تمسح دموعها ، على احساس مبهم فى نفسها سيىء ، وغير نظيف ، ولكونها غير قادرة على ان تغير من الأمر شيئا ، ولأنها لن تكون مثل داشا ابدا متقدة العاطفة وقوية الخلق ، كما بكت لأن نيقولاى ايفانوفيتش نعتها بالمراة الرخيصة ، ووصف غرفة الجلوس بالابتذال . وبكت من البكاء لأن الكسى الكسييفيتش بيسونوف اخذها فى منتصف الليلة الماضية على عربة سريعة الخيول الى فندق خارج المدينة ،

وهناك امتلكها غير عارف ، ولا محب ، ولا شاعر بكل ما كان قريبا اليها ، عزيزا عليها ، امتلكها بتماهل وقرف وكانها دمية ردية ، من تلك الدمى الموضوعة فى مخزن مدام دوكليه للازياء الباريسية فى شارع موروسكايا .

٥

اتخذت جمعية اطلقت على نفسها اسم «المجمع المركزى لمكافحة العرف السائد» مقرا لها فى شقة المهندس ايفان ايليتش تليغين فى الطابق الخامس من بيت حديث البناء فى الشارع التاسع عشر فى جزيرة فاسيليفسكى .

وكان تليغين قد استاجر هذه الشقة «للسكن» لمدة عام ، بسعر مخفض . فخصص له غرفة واحدة . اما سائر الغرف المؤثثة باسرة حديدية ومناضد ومقاعد من خشب الصنوبر فقد خصصت للمستاجرين من «العزاب ايضا ، وعشاق المرح حتما» . ولم يجد صديقه وزميل صفه السابق سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف كبير عناء فى ان يوفر هؤلاء له .

فسكن الشقة طالب كلية الحقوق الكسندر ايفانوفيتش جيروف ، والمخبر الصحفى انتوشكا ارنولدوف ، والرسام فاليت ، والآنسة الشابة يلزافيتا راستورغوييفا ، التى لم تجد حتى الآن مشاغل على ذوقها .

كان نزلاء الشقة يستيقظون فى وقت متاخر — ساعة عودة تليغين من المصنع لتناول فطوره ، وكان كل واحد منهم يقبل على عمله متماهلا . كان انتوشكا ارنولدوف يستقل الترام الى مقهى فى جادة نيفسكى ، ليعرف آخر الأخبار ، ثم يذهب الى مقر جريدته . ويجلس فاليت فى العادة ليرسم صورة شخصية له . ويغلق سابوجكوف عليه الباب ليعد خطبا ومقالات عن الفن الجديد . وكان جيروف ينسل الى غرفة يلزافيتا كييفنا ، ويناقش معها امور الحياة بصوت ناعم كالمواء . وكان يكتب اشعارا ، ولكن كبرياءه تابى عليه ان يطلع احدا عليها . وكانت يلزافيتا كييفنا تعتبره نابغة .

كانت يلزافيتا كيبفنا ، الى جانب احاديثها مع جيروف والنزلاء الآخرين تحوك من صوف متعدد الالوان اشرطة طويلة لا تنفع لأغراض محددة ، وتغنى بصوت عميق قوى زائف اغانى اوكرانية ، او تبتكر لنفسها تصفيفات شعر غير مالوفة ، او تكف عن الغناء ، وتفل شعرهـا ، وتستلقى على السرير تطالع كتابـا ، وتنغمر فى المطالعـة حتى تصاب بصداع . ويلزافيتا كيبفنا جميلـة فارعة موردة الخدين ، تبدو عيناها القصيرتا النظر وكانهما مرسومتان على صفحة وجهها ، وملابسها لا تنم عن ذوق ، فكانت موضع نقد حتى من نزلاء شقة تليغين .

حين كان يظهر شخص جديد فى البيت كانـت تدعـوه الى غرفتها ، ويبدا حديث يدير الراس ، قائم بكليته على التطرف فى الحدود ، وبعد ذلك كانت تستدرج محدثها لتعرف هل هو متعطش الى الجريمة ؟ وهل هو مقتدر على القتل ، مثلا ؟ وهل يستشعر فى نفسه «التحريض الذاتى» ؟ فقد كانت تعتبر هذه الخاصية علامة على روعة الانسان .

بل ان نزلاء شقة تليغين علقوا هذه الاسئلة على باب غرفتها . لقد كانت يلزافيتا كيبفنا ، عموما ، فتاة غير راضية ، وكانت دائما تتوقع «تحولات» و«احداثا مروعة» تجعل الحياة جذابة تعاش بكل كيان الانسان ، بدلا من الملل قرب نافذة صغيرة اعتمها المطر .

وكان تليغين نفسه يجد غير قليل من التسلية فى مراقبـة نزلائه ، ويعتبرهم جماعة من الممتازين وذوى الصبوات ، الا انـه لم يشترك فى ملاهيهم الا قليلا ، بسبب قلة الوقت .

وذات يوم فى عيد الميلاد جمع سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف نزلاء الشقة ، والقى عليهم الخطبة التالية :

— ايها الرفقاء ، ان اوان العمل قد حان . نحن كثيرون ، ولكننا مبعثرون . واعمالنـا حتى الآن تتسم بطابع التشتت والتهيب . وعلينا ان نؤلف فصيلة ، ونسدد ضربة الى المجتمع البرجوازى . ولهذا الغرض ينبغى اول الأمر ان نكون من بينـنا الجماعة المبادرة ، وبعد ذلك نذيع هذا البيان ، وفيه نقول : «نحن الكولومبسيون الجدد ! نحن الدعاة النوابغ ! نحن بذور الانسانية الجديدة ! نحن نطالب المجتمع البرجوازى السابح فى الدسم ان ينبذ

كل الخرافات . منذ الآن لن يكون هناك وجود للفضائل . تلغـى العائلة والاعراف الاجتماعية ، وعقود الزواج . اننا نطالب بذلك . يجب على الانسان ، امراة كان او رجلا ، ان يكون عاريا طليقا . والعلاقات الجنسية ملك للمجتمع . ايها الشبان والشابات ، ايها الرجال والنساء اخرجوا من جحوركم ، واطلعوا عراة سعـداء الى الرقص تحت شمس الحيوان المتوحش ! ..»

وبعد ذلك قال سابوجكوف ان الضرورة تستدعى اصـدار مجلة مستقبلية باسم «طبق الآلهة» سيقدم تليغين قسما من المال المصروف عليها ، والقسم الآخـر يجب ان ينتزع من فكوك البرجوازيين — والمجموع ثلاثة آلاف روبل .

وعلى هذا النحو اسس «المجمع المركزى لمكافحة العـرف السائد» ، والاسم من ابتكار تليغين الذى ضحك بشدة من مشروع سابوجكوف ، حين عاد من المصنع . وجرى فى الحال الاعداد لاصدار العدد الاول من «طبق الآلهة» . قدم بعض رعاة الفنون الاغنياء ، والمحامين ، وحتى ساشكا ساكيلمان نفسه المبلغ المطلوب — ثلاثة آلاف روبل . واوصى بطبع استمارات على اوراق للف تحمل اسما غريبا هو «المركز النابذ» ، وبدات الدعوات توجه الى المحررين اللازمين ، وصارت المواد تجمع للمجلة . واقترح الرسام فاليت ان تشوه جدران حجرة سابوجكوف التى حولت الى مقر لهيئـة التحرير ، بالرسوم الماجنة . فرسم على الجدران اثنتى عشرة صورة شخصية له ، ونوقشت مسالة تاثيث الغرفة مناقشة طويلة ، واخيرا اخليت الغرفة الا من طاولة كبيرة الصقت عليها اوراق مذهبة .

وبعد صدور العدد الاول من المجلة بدا الناس فى المدينة يتحدثون عن «طبق الآلهة» . فاعلن البعض عن سخطه ، واكـد آخرون على ان الأمر ليس بالبساطة الذى يبدو فيها ، وفى المستقبل القريب قد تودع اعمال بوشكين فى الارشيف . واصيب الناقـد تشيرفا بالذهول ، فقد نعت فى «طبق الآلهة» بالوغد . واسرعت يكاترينا دميتريفنا بالاشتراك فى المجلة لسنة كاملة ، وعزمت على ان تنظم عشاء يوم ثلاثاء مع المستقبليين .

اوفد «المجمع المركزى» سيرغى سيرغيفيتش سابوجكـوف للعشاء فى بيت سموكوفنيكوف . فجاء مرتديا سترة طويلة قذرة

من الفستيان الأخضر اخذها بالاستعارة من حلاقة المسرح ، وكانت قد استعملت فى مسرحية «مانون ليسكو» . واكل بافراط مبالـغ فيه فى العشاء ، وضحك ضحكا مجلجلا بغيضا حتى لسمعه هو ، وسمى النقاد ، وهو ينظر الى تشيرفا ، بـ«بنـات آوى اكلـة الفطائس» . بعد ذلك استرخى ، وراح يدخن آ معدلا نظارته الانفية على انفه المبلل . وبشكل عام كان الحضور يتوقعون اكثر من ذلك .

بعد صدور العدد الثانى تقرر اقامة حفلات عشاء تحت اسم «التدنيسات الرائعة» . وقد شهدت داشا احدى هذه التدنيسات . فتح جيروف الباب الامامى لها ، وانشغل بها فى الحال . اخذ منها كالوشيها ، ومعطفها الفرائى ، بل ورفع خيطا صغيرا كان عالقـا بثوبها من الجوخ . ودهشت داشا لرائحة الكرنب فى الرواق . سار جيروف وراءها فى الممر جنبا الى مكان التدنيس ، وسالها :

– خبرينى باى العطور تتعطرين ؟ عطر رائع الشذى .

ثم ادهش داشا رخصُ كل هذه الجسـارة المعلن عنهـا بضوضاء . حقا لقد كانت تتناثر على الجدران عيون ، وانوف وايد ، وشخوص مستهجنة ، وناطحات سحاب متهاوية ، وباختصار ، كل ما يؤلف اجزاء صورة فاسيلى فاليت الذى كان واقفا هناك صامتا ، وعلى خديه رسم خطان منكسران . وكان المضيفون والضيوف – ومن بينهم الشعراء الشبان الذين كانوا يحضرون عشاءات الثلاثـاء فى منزل سموكوفنيكوف بمجموعهم تقريبا – يجلسون على الواح غير مسحوجة وموضوعة على كتل خشبية (هبة من تليغين) ، وكانوا يقراون الشعر باصوات مبالغ فى وقاحتها عن سيارات تدب على قبو السماء ، وعن «بصقة على المصاب بالزهرى السمارى» ، وعن فكين فتيين كسر بهما الشاعر قباب الكنائس ، كما يكسر الجوز ، وعن جندب غير مفهوم ابدا لابس معطفا غاليا يقفز من النافذة الى الرصيف وهو ممسك بمنظار مكبر ودليل سياحة . الا ان كل هذه البشائع بدت لداشا شوهاء . ولم يعجبها يصدق الا تليغين . تقدم منهـا اثناء الحديث ، وسالها بابتسامة حيية عما اذا كانت تريد شايـا وشطائر .

– الشاى والسجق عندنا اعتياديان ، يعنى جيدان .

كان وجهه ملوحا ، حليقا ، عليه مسحة من السذاجة ، اما عيناه الزرقاوان الطيبتان فيبدو انهما ذكيتان وقاسيتان عنـد الضرورة .

وفكرت داشا بانها ستسره اذا قبلت بعرضه ، فنهضت ، ودخلت غرفة الطعام ، حيث رات مائدة عليهـا صحن الشطائر ، وسماور مبعوج . اسرع تليغين فى جمع الصحون المستعملـة ، ووضعها على الارض فى احد اركان الغرفة ، والتفت باحثا بعينيه عن خرقة ، ومسح المائدة بمنديله ، وصب لداشا قدح شاى ، وانتقى لها «الذ» شطيرة . وقد قام بكل ذلك على مهل بيديـه الكبيرتين القويتين ، وتكلم ، وكانما يجهد نفسـه بشكل خاص لتكون داشا مرتاحة وسط هذه القذارة :

– شؤوننا البيتية فوضى لا نظام لها . هذا صحيح ، ولكن الشاى والشطائر من الدرجة الفاخرة ، مشتراة من مخزن يليسييف الشهير . وكانت هناك حلويات الا انها التهمت ، ولكن . . . – وهنا اطبق شفتيه ، ونظر الى داشا ، ولاح فى عينيـه الزرقاوين خوف ، ثم تصميم ، وقال – هلا سمحت لى ؟ – واخرج من جيب صداره ملبستين ملفوفتين بورقتيهما .

وفكرت داشا مع نفسها «مع مثل هـذا الرجـل لا يتردى الانسان» ، ولكى تسره ايضا قالت :

– هذا النوع الذى افضله من الملبس .

ثم جلس تليغين مقابل داشا بانحراف ، واخذ يحدق فى علبة الخردل بانتباه . ونضح العرق على جبينه العريض الكبير مـن التوتر . اخرج منديله بحذر ، ومسح جبينه .

وافترت شفتا داشا عن ابتسامة لا ارادية : ذلك لان هذا الرجل الكبير الجميل كان على درجة من انعدام الثقة بالنفس تجعله يود لو يتوارى وراء علبة الخردل تلك . وتخيلت داشا ان امـه العجوز النظيفـة الملابس تعيش فى مدينـة ارزاماس ، كما بدا لها ، وتكتب له من هناك رسائل حادة حول «عادتـه المستاصلـة فى تسليف نقوده لمختلف الحمقى» ، وتعظه بان «احترام النـاس ، يا ابنى العزيز ، لا يمكن ان تكسبـه الا بالتواضع والمثابرة» . وهو ، على ما يبدو ، يتافف من هـذه

الرسائل ، مدركا كم هو بعيد عن الكمال . واستشعرت داشا رقة تجاه هذا الرجل . سألته :

– اين تشتغل ؟

رفع تليغين عينيه فى الحال ، ورأى ابتسامتها ، فابتسم هو الآخر ابتسامة عريضة .

– فى مصنع البلطيق .

– وهل عملك ممتع ؟

– لا اعرف . اعتقد ان كل عمل ممتع .

– اظن ان العمال يحبونك كثيرا .

– لم افكر فى ذلك قط . ولكن لا اظن انهم يحبوننى . ولماذا عليهم ان يحبونى ؟ فانا شديد معهم . رغم ان علاقاتنا طيبة بالطبع ، علاقات رفاقية .

– قل لى هل اعجبك عن صدق كل ما جرى فى تلك الغرفة ، اليوم ؟

زالت غضون من على جبين ايفان ايليتش ، وانفجر ضاحكا بصوت عال .

– صبيان . اشقياء طائشون . فتية رائعون . انا راض عن نزلاء شقتى ، يا داريا دميترييفنا . فى بعض الاحيان تحدث منغصات فى عملنا ، واعود الى البيت منزعجا ، فأجدهم هنا قد ابتكروا هراء من هراءاتهم . . . وفى اليوم التالى حين اتذكر ما حصل اضحك وابتهج .

قالت داشا بلهجة حازمة :

– اما انا فلا تعجبنى هذه التدنيسات ابدا . انها سفاهة محض .

نظر فى عينيها بدهشة . فأكدت قولها : «لا تعجبنى ابدا» .

قال ايفان ايليتش مفكرا :

– انا المذنب فى ذلك بالطبع . فانا الذى شجعتهم عليه ، حقا ، ان تدعى ضيوفا ، وتقضى المساء كله فى قول سفاسف امر . . . من المؤلم جدا ان كل هذا لم يعجبك على هذا النحو .

حدقت داشا فى وجهه مبتسمة ، واحست بانها تستطيع ان تقول ما تشاء لهذا الرجل الغريب عليها تقريبا .

– اتصور ، يا ايفان ايليتش ، انك لا بد ان تهوى شيئا مختلفا تماما . يبدو لى انك رجل طيب ، احسن بكثير من تصورك انت لنفسك ، حقا ، حقا .

وركزت داشا كوعيها على المائدة ، ووسدت حنكها على كفها ، ومست شفتيها بخنصرها . كانت عيناها تبتسمان ، الا انهما بدتا له مخيفتين ، جميلتين الى حد مذهل ، عينين رماديتين واسعتين باردتين قليلا . ولذعره الشديد لوى ملعقة شاى ثم عدلها .

ولحسن حظه دخلت الغرفة يلزافيتا كييفنا ، كانت تلقى على كتفيها شالا تركيا ، وقد ضفرت شعرها فوق اذنيها بضفيرتين كقرنى الخروف . مدت لداشا يدا طويلة مقدمة نفسها باسم «راستورغويفا» وجلست وقالت :

– تحدث جيروف عنك كثيرا جدا . واليوم درست وجهك . وارى انك قد شعرت بالسأم ، وهذا شىء جيد .

اسرع ايفان ايليتش يسالها :

– يا ليزا ، اتريدين شايا باردا ؟

– لا ، يا تليغين . انت تعرف اننى لا اشرب الشاى ابدا . . .

اذن قد تسائلين نفسك ، بالطبع ، اى مخلوق غريب هذا الذى يتحدث معك ؟ انا لا احد . شخص حقير . انا فاسدة وبليدة .

كان ايفان ايليتش واقفا عند المائدة ، فاشاح بوجهه يائسا . وغضت داشا من بصرها . فامعنت يلزافيتا كييفنا فيها النظر مبتسمة .

– انت انيقة ، مرفهة وبارعة الجمال . لا تنكرى ، فانت تعرفين ذلك بنفسك . انت موضع حب عشرات الرجال ، بالطبع . ومن المؤلم ان كل هذا سينتهى بغاية من البساطة . سيأتى الذكر ، فتلدين له اولادا ، ثم تموتين . فما اضجر ذلك !

ارتعشت شفتا داشا تكدرا ، واجابت :

– انا لا اريد ان اكون خارجة عن المألوف . ولا ادرى لماذا يقلقك مستقبلى الى هذا الحد .

ابتسمت يلزافيتا كييفنا بمرح اشد ، وبقيت عيناها حزينتين وشفيقتين .

– لقد حذرتك باننى حقيرة كانسان ، ومقززة كامرأة .

والذين يتحملونني قليلون جدا ، وعن شفقة فقط كما يفعل تليغين مثلا . فتمتم تليغين دون ان يرفع راسه :

– اى هراء هذا الذى تتحدثين به ، يا ليزا .

– انا لا اطالبك بشىء ، يا تليغين ، فهدئ من روعك . –

والتفتت الى داشا مرة اخرى : – هل عانيت عاصفة ذات مرة ؟ اما انا فقد عانيت واحدة . كان هناك رجل ، وكنت احبه ، وكان يكرهنى بالطبع . وكنت آنذاك اعيش على البحر الاسود . وثارت عاصفة . وقلت لذلك الرجل : «لنخرج الى البحر . . .» فخرج معى موجدة وحنقا . وحملنا الى عرض البحر . . . ما اروعها من تسلية . . . وخلعت عنى ثوبى ، وقلت له . . .

قال تليغين مغضنا شفتيه وانفه :

– اسمعى ، يا ليزا . انت تكذبين . لم يحدث ذلك . انا اعرف .

عندئذ نظرت يلزافيتا كييفنا اليه بابتسامة مبهمة ، واخذت تضحك فجاة . وضعت كوعيها على المائدة ، واخفت وجهها بينهما ، وضحكت ، واهتزت كتفاها الممتلئتان . نهضت داشا ، وقالت لتليغين انها تريد ان تذهب الى البيت ، وتنصرف دون ان تودع احدا ، اذا امكن ذلك .

وقدم ايفان ايليتش لداشا معطفها بحذر شديد ، وكان المعطف جزء من كيانها ايضا . ونزل الى الاسفل على السلم المظلم ، مشعلا طوال الوقت اعواد الثقاب ، متكدرا من حلكة الظلام وهبوب الريح ، وزلق الارض ، واوصل داشا الى ركن الشارع ، واجلسها فى عربة زلاجة . كان الحوذى عجوزا ، والثلج يغمر حصانه . ظل ايفان ايليتش وقتا طويلا واقفا فى البرد حاسر الراس ، وبلا معطف ، ينظر الى الزلاقة الواطئة وهى تتلاشى وتذوب فى الضباب الأصفر ، ومعها يتلاشى ويذوب شبح الفتاة الجالسة فيها . وبعد ذلك عاد الى البيت متمهلا ، ودخل غرفة الطعام ، فرأى يلزافيتا كييفنا فى جلستها تلك ، ووجهها بين يديها . حك تليغين ذقنه ، وقال عابس الاسارير :

– ليزا .

عندئذ رفعت ليزا راسها بسرعة شديدة .

– ليزا ، لأى سبب ، وارجو المعذرة ، تخوضين دائما فى حديث يجعل الجميع فى حرج وخجل ؟

قالت يلزافيتا كييفنا بصوت خافت وهى لا تفتا تحدق فيه بعينيها الحزينتين ، القصيرتى النظر ، اللتين تبدوان مرسومتين على صفحة وجهها :

– احببتَ . رايت ذلك من الوهلة الاولى . اوه ، يا للضجر .

قال تليغين وقد صعد الدم الى وجهه :

– هذا غير صحيح البتة . غير صحيح .

– اذن ، فانا متاسفة .

ونهضت بتكاسل ، وخرجت ، ساحبة وراءها على الارض شالها التركى المغبر .

سار ايفان ايليتش بعض الوقت مغمورا فى افكاره ، شرب شايا باردا ، ثم رفع المقعد الذى جلست عليه داريا دميترييفنا ، وحمله الى غرفته . وهناك تروّى ، ووضعه فى احد الاركان ، واحتوى كل انفه براحته ، وقال ، وكأنما قد صعق صعقة هائلة :

– هراء . . . سخافة !

كان هذا اللقاء بالنسبة لداشا مجرد لقاء من لقاءات عديدة . التقت برجل طيب ، وانتهى الأمر . كانت داشا فى سن لا يرى فيها المرء ولا يسمع بشكل جيد : فان سمعه موقر بضجيج الدم فى عروقه ، وعيناه فى كل مكان – وحتى فى وجه انسان امامه – لا تريان الا صورته هو ، وكأنها انعكاسه فى مرآة . والقبح وحده فى مثل هذه السن يثير الخيال ، اما جمال الناس ، ومناظر الطبيعة الخلابة ، وجمال الفن المتواضع فان كل ذلك يعتبر حاشية الحياة اليومية لملكة فى التاسعة عشرة من العمر .

ولم يكن الأمر كذلك مع ايفان ايليتش . والآن ، وقد انقضى اكثر من اسبوع على زيارة داشا ، فقد اخذ يتعجب من ان تظهر فى شقتهم هذه الفتاة ذات البشرة الوردية الرقيقة ، والثوب الاسود من الجوخ ، والشعر الاشقر الشاحب المرتفع فوق راسها ، والفم الطفولى المتكبر ، وتظهر دون ان تلحظ (حتى انه لم يسلم عليها راسا) تظهر ببساطة (فقد دخلت ، وجلست ، ووضعت على ركبتها موفة الفراء التى تدفئ بها يديها) . ولم يكن مفهوما كيف وافقته

العزيمة ليتحدث معها ببساطة عن السجق المشترى من مخازن بليسييف .

والملبستان الدافئتان اللتان اخرجهما من جيبه ، وعرض عليها ان تأكلهما ؟ فيا له من نحس !

كان ايفان ايليتش خلال حياته (تخطى التاسعة والعشرين قبل حين) قد احب ست مرات : عندما كان تلميذ فى المدرسة الثانوية فى تازان احب فتاة ناضجة ، هى ماروسيا خفويفا ، ابنة طبيب بيطرى ، كانت تجوب الشارع الرئيسى فى الساعة الرابعة ، ولزمن طويل ، دون فائدة ، وهى فى معطف واحد لا يتغير مصنوع من قماش البلش ، الا ان ماروسيا خفويفا لم تكن فى وضع يقبل التمازح ، فنبذته ، وانصرف هو عنها ، دون مرحلة انتقالية ، الى آدا تيليه الفنانة المتجولة التى انتزعت دهشة اهل المدينة بظهورها فى جميع الاوبريتات ، من كل العصور ، على قدر الامكان بثوب سباحة ، وهو امر ابرزته ادارة المسرح فى اعلاناتها : «آدا تيليه الحائزة على المدالية الذهبية لجمال ساقيها» .

وتجرا ايفان ايليتش حتى على ان ينفذ الى بيت الفنانة ، ويحمل اليها باقة من الزهور ، المقطوعة من حديقة البلدية . الا ان آدا تيليه اعطت هذه الزهور لتشمها كلبتها الصغيرة الغزيرة الشعر ، وقالت لايفان ايليتش ان معدتها قد مرضت تماما من الطعام المحلى ، وطلبت اليه ان يهرع الى الصيدلية . وبهذا انتهى الامر .

وبعد ذلك ، حين صار طالبا فى بطرسبورغ مال الى طالبة الطب فيلبوشيفيتش ، بل وكانت له مواعيد معها فى مسرح التشريح ، الا ان ذلك بحد ذاته لم يأت بنتيجة مرجوة ، وغادرت فيلبوشيفيتش لتعمل فى مستشفى احد الاقضية .

وذات مرة اغرمت به فتاة تدعى زينوتشكا تعمل فى مخزن كبير للقبعات ، غراما شديدا اسلمها الى اليأس . واستجاب ايفان ايليتش لكل ما رغبت فيه ، لارتباكه ورقة قلبه . الا انه تنفس الصعداء حين رحلت الفتاة الى موسكو مع الفرع الذى تعمل فيه من الشركة ، فقد مضى معها شعور كان يراوده دائما بان ثمة واجبات لم يقم بها .

ويرجع تاريخ آخر عاطفة حب مست قلبه الى حزيران قبل

عامين . فقد كانت هناك فتاة نحيلة شاحبة تظهر كل يوم قبيل الغروب فى النافذة المقابلة لنافذته المطلة على الفناء وتفتح النافذة ، وتنظف بالفرشاة ، وبحرص شديد ، ثوبها البنى الذى لا يتغير ، ثم ترتديه ، وتخرج لتجلس قليلا فى المنتزه .

وفى المنتزه ، فى اوائل الغسق ، تحدث معها ايفان ايليتش ، ومنذ ذلك الحين اخذا يتنزهان سوية كل مساء ، ويبديان اعجابهما بلحظات الغروب فى بطرسبورغ ، ويتجاذبان اطراف الحديث .

كانت هذه الفتاة ، واسمها اوليا كوماروفا ، تعمل فى مكتب كاتب عدل ، وكانت وحيدة دائمة المرض والسعال . وقد تحادثا عن هذا السعال ، والمرض ، وعن الوحشة التى تهبط على صدر الانسان الوحيد عند المساء ، وعن صاحبة لها تسمى كيرا ، احبت رجلا طيبا ، ورحلت معه الى القرم . وكانت احاديثهما كئيبة . وكانت اوليا كوماروفا يائسة من امرها حتى انها لم تخجل ان تبوح لايفان ايليتش بافكارها المكنونة وهى متوقعة احيانا ان يقع فى غرامها فجأة ، ويتزوجها ويأخذها الى القرم .

وكان ايفان ايليتش يشفق عليها كثيرا ، ويكن لها الاحترام ، الا انه لم يقدر ان يحبها ، ولو انه بعد احاديثهما احيانا كان يفكر وهو مستلق على الاريكة فى الظلمة بانه انسان انانى ، سيئ ، وبلا قلب .

وفى الخريف اصيبت اوليا كوماروفا بنزلة صدرية ووقعت طريحة الفراش . وقد اخذها الى المستشفى ، ومن هناك الى المقبرة . وقبيل موتها قالت له : «هل ستتزوجنى اذا شفيت ؟» فاجابها ايفان ايليتش : «كلمة شرف ، سأتزوجك» .

ولم يكن شعوره نحو داشا يشبه مشاعره السابقة . لقد قالت له يلزافيتا كييفنا «احببت» . ولكن الانسان يمكن ان يحب من يفترض ان يناله ، وليس من الممكن ان يحب تمثالا او غيمة .

وقد شعر نحو داشا بعاطفة فريدة ، جديدة عليه ، ومشوبة بالغموض ، لان الاسباب الداعية لها قليلة — بضع دقائق من الحديث ، ومقعد فى ركن من الغرفة .

كما ان هذه العاطفة لم تكن على قدر كبير من الحدة ، الا ان ايفان ايليتش صار الآن يحس فى نفسه بالرغبة فى ان يكون

فريدا ، ويبدا بالاهتمام بنفسه كثيرا . وكان غالبا ما يقول لنفسه :

«قريبا سأبلغ الثلاثين ، وانا ما ازال اعيش لنفسي وبلا غاية . خواء رهيب . انانية ولا مبالاة ازاء الناس . يجب ان اتماسك قبل فوات الاوان» .

في اواخر اذار ، وفي يوم من ايام بواكير الربيع ، الطالعة بغتة على المدينة البيضاء من الثلج ، المتدثرة طلبا للدفء ، حين تلمع قطرات الجمد منذ الصباح وتقطر من الافاريز السطوح ويشرشر الماء في انابيب تصريف المياه من اعالي البنايات ، ويطفح في البراميل الخضراء الموضوعة تحتها ، ويهش الثلج في الطرقات ، ويتصاعد البخار من الاسفلت ، وتجف بقع منه ، ويحس المرء بثقل المعطف الشتائي على كتفيه ، وبين الحين والآخر تقع العين على رجل ذي لحية مدببة يسير بدون معطف ، واذا بالناس كلهم ينظرون اليه ويبتسمون ، وحين يرفع المرء راسه يرى السماء لا يسبر لها عمق ، زرقاء كانها غسلت بالماء ، في يوم كهذا اليوم ، وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر خرج ايفان ايليتش من الدائرة الهندسية في جادة نيفسكي ، وفك معطفه ذا الحاشية الفرائية ، وقلص عينيه اتقاء الشمس .

«الحياة رائعة على اية حال» .

وفي تلك اللحظة وقع بصره على داشا . كانت تسير على حافة الرصيف وئيدة الخطى ، ترتدي معطفا ربيعيا ازرق ، وقبعة زرقاء شدت عليها زهورا اصطناعية بيضاء . وكانت تؤرجح طردا بيدها اليسرى فكانت الزهور على قبعتها تتمايل . وكان التأمل والحزن يطفحان من محياها . ومن ورائها كانت الشمس الهائلة الشعثاء النور ، المتوهجة بوهج ربيعي في السماء الزرقاء النائية تنعكس على برك الماء ، وخطوط الترام ، والزجاج ، وظهور السابلة ، وتحت اقدامهم ، وعلى محاور عجلات العربات .

بدا وكان داشا قد خرجت من هذه الزرقة والنور ، وتراءت لحظة ، لتختفي بعدها في جمهور الناس . نظر ايفان ايليتش طويلا في تلك الناحية ، وسمع قلبه يدق في صدره ببطء . كان الهواء كثيفا ، لاذعا ، يدير الراس .

سار ايفان ايليتش ببطء الى الناصية ، ووضع يديه وراء

ظهره ، ووقف طويلا امام اسطوانة الاعلانات . وقرا : «مغامرات جاك الجديدة الطريفة ، منتزع الاحشاء» ، وفكر بانه لا يفهم شيئا ، وبانه سعيد سعادة لم يذقها في حياته كلها .

ولما ابتعد عن اسطوانة الاعلانات رأى داشا ثانية . عادت على هيئتها تلك : الزهور البيضاء على قبعتها ، والطرد في يدها ، وقدماها تسيران على حافة الرصيف . تقدم منها ، وخلع قبعته .

– داريا دميتريفنا ، ما اروع هذا اليوم . . .

جفلت داشا قليلا . ثم رفعت اليه عينين باردتين قليلا لمعت فيهما من جراء النور نقاط خضر . وابتسمت برقة ، ومدت له يدها المتقفزة في قفاز ابيض من جلد الجدي ، وصافحته بقوة ومودة :

– لطيف ان التقي بك . بل وفكرت اليوم فيك . . . صدقني ، لقد فكرت ، – وهزت راسها ، واهتزت الزهور البيضاء على قبعتها .

– كانت لدي مهمة في جادة نيفسكي ، وانا الآن حر طوال اليوم ، يا داريا دميتريفنا . ما اروع الطقس اليوم . . . – وغضن شفتيه محاولا بكل طاقته الا تنفرجا عن ابتسامة .

سالت داشا :

– يا ايفان ايليتش هل تستطيع ان توصلني الى البيت ؟

وانعطفا في شارع جانبي ، وسارا الآن في الظل .

– ايفان ايليتش ، هل سيبدو لك غريبا لو اسالك عن شيء ؟ لا ، بالطبع ، انا استطيع ان اتحدث معك . شرط ان تجيبني راسا . اجبني دون تردد ، وعلى الفور . اجبني في اللحظة التي اسالك فيها .

ولاح الهم على وجهها ، وقطبت حاجبيها . وقالت ، وهي تشق الهواء بذراعيها :

– من قبل كنت اتصور ان هناك لصوصا ، وكذابين وقتلة . . . وهم موجودون في مكان ما ، مثل الثعابين ، والعناكب ، والفئران . ولكن البشر ، كل البشر – وقد تكون لهم مواطن ضعف ، ونزوات ، الا انهم جميعا طيبون ، واضحون . . . انظر الى تلك الفتاة الخادمة . انها كما تراها وباطنا . وكان العالم كله يبدو لي وكانه ملون بالوان فاتنة . هل انت تفهمني ؟

– ذلك شيء رائع ، يا داريا دميترييفنا . . .

– علـى مهلك . امـا الآن فكانني اغوص في هذه الصورة ، الى الظلام واحتباس الهواء . . . انا اعرف ، قد يكون الانسـان جذابا ، بل لطيفـا ، حلوا حلاوة يمكن ان تتلمسهـا ، ولكنـه في نفس الوقت يذنب ذنوبا فظيعة . وانـا لا اقصد انـه يسرق الفطائر من الدولاب ، بل يأثم اثما حقيقيـا : يكذب ، – واشاحت داشـا بوجههـا ، وارتعش حنكهـا – ان هذا الرجـل فاسـق بامرأة متزوجـة . وانـا اريد ان اسالك : هـل يجوز هذا يـا ايفـان ايليتش ؟

– لا ، لا يجوز .

– ولماذا لا يجوز ؟

– لا استطيع ان اقول ذلك الآن ، ولكنني اشعر بانه لا يجوز .

– وهل تظن انني لا اشعر بذلك ؟ منذ الساعة الثانية وانا اهيم حزينة . الجو اليوم صاف منعش ، بينما انا اتصور ان في هذه البيوت ، وراء الستائر ، يختفي اناس سود القلوب . وعلي انا ان اعيش معهم . هل تفهم ؟

اجاب بسرعة :

– لا ، لا افهم .

– كلا ، علي ان اعيش معهم . آه ، ما اعمق الحزن في قلبي ، اذن فانا مجرد فتاة صغيرة . وهذه المدينة لم تشيد للفتيـات الصغيرات ، بل للكبار .

وتوقفت داشا عند مدخـل البيت ، وراحت تدفـع على الاسفلت ، براس حذائها العالي ، جيئة وذهوبا ، علبة سيكارة فارغة رسمت عليها سيدة باللون الاخضر تنفث الدخان من فمها . واحس ايفان ايليتش ، وهو ينظر الى راس حذائها الصقيل ، وكان داشا تذوب ، وتتلاشى كالضباب . وكان يود لو يبقيها معه ، ولكن باي قوة ؟ وكان يعرف ان هناك مثل هذه القـوة ، ويشعر انهـا تعصر قلبه ، وتأخذ بخناقه . ولكن كل شعوره بالنسبة لداشـا مجرد ظل على حائط ، لأنه هو نفسه ليس الا «ايفان ايليتش الطيب واللطيف» .

– والآن ، مع السلامة ، وشكرا لك ، يا ايفان ايليتش . انت لطيف وطيب جدا . انا لم اشعر باي ترويح ، ولكنني شاكرة لك جزيل الشكر ، على اية حال . لقد فهمتني ، اليس كذلك ؟ تلك هي امور الدنيا . يجب ان اصبح راشدة ، ولا مفر من ذلك . زورنا في وقت فراغك ، ارجوك .

وابتسمت ، وهزت يده ، ودخلت البيت ، وغيبها الظلام .

٦

فتحت داشا باب غرفتها ، ووقفت مذهولة . فقد شمت في الغرفة رائحة زهور رطبة ، وفي اللحظة التالية وقعت عيناهـا على سلة زهور عالية المقبض ، مزينة بشريط ازرق ، موضوعة على منضدة الزينة الصغيرة . ركضت نحوها ، وغمرت وجهها فيها ، انها زهور بنفسج مسحوقة مبللة .

وانفعلت داشا . كانت منذ الصباح تريد شيئا لا تعرف ما هو بالضبط ، اما الآن فقد ادركت انها كانت تريد زهر البنفسج . ولكن مَن ارسل هذه الزهور ؟ ومَن فكر فيها هذا اليوم باهتمام شديد حتى حزر ما كانت هي نفسهـا لا تعرف ما هو ؟ الا ان الشريط وحده لم يعجبها ، فقد كان في غير محله . وفكرت داشا ، وهي تفكه :

«فتاة لا باس بها ، ولو كانت منفعلة . ستسير في طريقها الخاص ، مهما اقترفتم من ذنوب ، ايها الآثمون . ربما تظنون انهـا تشمخ بانفها اكثر من اللازم ؟ ولكن هناك اناسا سوف يفهمـون الانف الشامخ ، بل ويقدرونه .»

وتبين ان ورقة سميكة قد حشرت في الشريط كتب عليها : «احبي الحب» . وفي الوجه الآخر من الورقة : «تربيـة زهور في ليس» . اذن ، فقد كتب شخص في محل بيع الزهور هذه جملة «احبي الحب» . وخرجت داشا الى الدهليز وسلة الزهور في يديها ، وهتفت :

– يا مغولي ، من جلب لي هذه الزهور ؟

نظرت «المغولى العظيم» الى سلة الزهور ، وتنهدت بصدق . فان هذه الاشياء لم تكن تعنيها على الاطلاق .

– جلبها صبى من محل الزهور ليكاترينا دميتريفنا . ولكن السيدة امرتنى ان احملها لك .

– الم يقل ممن ؟

– لم يقل سوى : سلميها الى السيدة .

عادت داشا الى غرفتها ، ووقفت عند النافذة . كان الغروب يلوح من خلال زجاج النافذة ، غمر السماء من اليسار ، من وراء الحائط الآجرى للبيت المجاور ، ثم اخضوضر ، ونحل . وظهرت نجمة فى ذلك الخلاء الأخضر ، وتوامضت ، ولمعت وكأنها قد غسلت لتوها . وفى الاسفل ، فى الشارع الضيق ، الذى اخذ الضباب يملأ ارجاءه ، انيرت المصابيح الكهربائية مرة واحدة على امتداده كله ، الا انها لم تكن ساطعة النور بعد ، ولا متالقة . وزعقت سيارة فى مكان قريب ، ورات داشا انها كانت تسير عبر الشارع مختفية فى ظلمة المساء .

تلبد الظلام فى الغرفة تماما ، وفاحت زهور البنفسج رائحة ناعمة . لقد ارسلها ذلك الرجل الذى اتهمت كاتيا معه . كان ذلك واضحا . وقفت داشا تفكر بانها كذبابة وقعت فى شيء مثل نسيج العنكبوت ، رقيق ، ومغو . ان هذا «الشيء» كان فى رائحة الزهور الرطبـة ، وفى الكلمتين المصطنعتين ، المثيرتين : «احبى الحب» ، وفى السحر الربيعى لهذا المساء .

وفجأة خفق قلبها خفقانا سريعا قويا . وشعرت داشا وكان اصابعهـا تمس شيئا محرما ، سريـا ، لاذع الحلاوة وتراه ، وتسمعه ، وتحسه . واذا بها تطلق العنان لعواطفها ، وكأنما قد صممت على ذلك بكل كيانها . وكان من المستحيل ان تفهم كيف وجدت نفسها فى تلك اللحظة فى الجانب الآخر . ذابت الصرامة ، ذلك الجدار الجليدى ، وتحولت الى ضباب ، مثل ذلك الضباب فى نهاية الشارع ، حيث انطلقت السيارة بلا صوت حاملة سيدتين فى قبعتين بيضاوين .

لم تشعر الا بخفقان قلبها ، وبدوار خفيف فى راسها ، بينما

رنت فى جسمها كلـه موسيقى تلقائية مثل موجة برودة بهيجة : «انا احيا ، احب . البهجة ، الحياة ، كل الدنيا لى ، لى ، لى !»

فتحت داشا عينيها ، وقالت بصوت مسموع :

– اسمعى ، يا عزيزتى . انت ما تزالين فى نقاب عذرتك ، وخلقك وعق لا يحتمل ...

ومشت الى ركن الغرفـة البعيد ، وجلست فى مقعد وثير كبير ، وراحت تسترجع كل مـا حدث فى الاسبوعين ، وهى تفض الورقة عن قطعة شوكولاته بتأن وبطء .

لم يتغير شيء فى البيت . بل واصبحت كاتيا تعامل نيقولاى ايفانوفيتش بمزيد من الرقة . وكان مرح الاعطاف ، وينوى بناء بيت ويفى فى فنلنده . وكانت داشا وحدها تعانى صامتة هـذه «المأساة» لانسانين اصيبا بالعمى . لم تجرأ ان تفاتح اختهـا فى الحديث . واختها التى كانت دائما شديدة الالتفات الى تقلب امزجة داشا ، لم تفطن هذه المرة الى شيء . اوصت يكاترينا دميتريفنا على بدلتين لها ولاختها بمناسبة عيد الفصح ، فكانت تقضى ساعات عند محل الخياطة وصناعة القبعـات ، وتشترك فى اسواق البر والاحسان ، وتنظم برجاء من نيقولاى ايفانوفيتش ، امسية ادبية لغرض سرى ، هو جمع المال لمنفعة لجنة الجناح اليسارى للحزب الاشتراكى الديموقراطى – او من يسمون بالبلاشفة – وتجمـع الضيوف فى ايام الخميس فضلا عن ايام الثلاثاء ، وباختصار لـم تكن لديها دقيقة فراغ واحدة .

وخاطبت داشا نفسها : «وانت قد جبنت فى هذا الوقت ، ولم تستقرى على شيء ، ورحت تفكرين فى اشياء انت فيها كالنعجة ، لم تفهميها ولن تفهميها حتى تحرقى جناحيـك» ، وضحكت داشـا بخفوت . ومن تلك البحيرة المظلمة التى كانت تتساقط فيها كرات الجليد الصغيرة ، والتى لم يكن من الممكن ان يرجى منها خير ، نهضت صورة بيسونوف اللاذعة الخانقة ، كما كان يحدث كثيرا فى هذه الأيام . اباحت هى نفسها ، فاستولى هو على افكارها . وهدأت داشا . وتكتكت الساعة فى الغرفة المظلمة .

ثم صفق باب فى مكان بعيد فى البيت ، وسمعت داشا صوت اختها وهى تسأل :

– هل عادت منذ وقت طويل ؟

نهضت داشا من المقعد ، وخرجت الى الدهليز . واذا بيكاترينا دميتريبفنا تقول فى الحال :

– لماذا انت محمرة ؟

كان نيقولاى ايفانوفيتش يخلع معطفه السميك وهو يروى ملحة لاذعة من مُلَح عاشق المسرح . نظرت داشا نظرة كره الى شفتيه الكبيرتين الرخوتين ، وتبعت كاتيا الى مخدعها . وجلست هناك الى منضدة الزينة الأنيقة الرقيقة كأى شىء فى هذه الحجرة ، وراحت تسمع كلام اختها الطويل عن المعارف الذين التقت بهم اثناء النزهة .

وكانت يكاترينا دميتريبفنا اثناء الحديث ترتب الاشياء فى دولابها ذى المرآة ، الحافل بالقفازات ، وقطع الدنتلا ، والبراقع ، والاحذية الحريرية – مجموعة كبيرة من الاشياء التافهة العابقة بالعطور التى تستخدمها : «يظهر ان كرينسكى خسر القضية مرة اخرى ، وهو الآن بلا نقود . التقيت بزوجته . انها تتشكى ، وتقول الحياة اضحت صعبة . وفى بيت تيميريازيف حسبة . وشينبرغ عاد الى امرأته الهستيرية مرة اخرى ، بل ويقال انها اطلقت النار على نفسها فى شقة . هذا هو الربيع ! وما اجمل الطقس اليوم ! جميع الناس يتجولون فى الشوارع كالسكارى . عندى خبر آخر . التقيت باكوندين ، وهو يؤكد بان الثورة ستندلع عندنا فى القريب العاجل . الهيجان فى المصانع ، والقرى ، وفى كل مكان . ليتها تقع فى اقرب وقت . فرح نيقولاى ايفانوفيتش فرحا شديدا حتى انه اخذنى الى مطعم «بيفاتو» ، فشربنا هناك زجاجة شمبانيا ، نخب الثورة المقبلة ، هكذا ، رأسا» .

كانت داشا تستمع الى اختها صامتة ، وهى ترفع وتنزل غطاءات القوارير البلورية . ثم قالت فجأة :

– كاتيا لا حاجة لأحد بى كما انا خُلِقت .

فالتفتت يكاترينا دميتريبفنا وجوربها الحريرى فى يدها ، وتفرست فى اختها . فتابعت هذه قولها :

– والشىء المهم اننى انا ايضا ، لست بحاجة لنفسى وانا

على طبيعتى هذه . انا كمَن قرر ان يعيش على الجزر النى ، واعتبر نفسه ارفع بكثير من الآخرين .

قالت يكاترينا دميتريبفنا :

– انا لا افهمك .

نظرت داشا الى ظهرها ، وتنهدت .

– جميع الناس ، حسب رايى ، سيئون . واننا ادينهم . بعضهم حمقى ، وبعضهم مقرفون ، والبعض الآخر قذرون . وانا وحدى الفاضلة . انا هنا غريبة ، وذلك يرهقنى كثيرا . انا ادينك انت ايضا ، يا كاتيا .

فسالته يكاترينا دميتريبفنا بهدوء ، دون ان تلتفت اليها :

– لأى شىء ؟

– ارجو ان تفهمينى . انا اسير شامخة الانف ، وهذا كل ما لدى . ان ذلك حماقة صرف ، وقد ضجرت من غربتى بين الناس . وباختصار ، انا معجبة كثيرا برجل ما .

كانت داشا تتحدث بذلك منكسة الراس ، فقد دست اصبعها فى فم قارورة بلورية ، ولم تستطع ان تخرجها منه .

– حمدا لله ، يا فتاتى ، على انك معجبة برجل . ستكونين سعيدة ، فان لم يسعدك الله فمن يسعد ؟

وارسلت يكاترينا دميتريبفنا تنهيدة خفيفة .

– ولكن ذلك ليس بهذه البساطة . اظن اننى لا احبه .

– اذا كان يعجبك فسوف تحبينه .

– تلك هى المسالة . انه لا يعجبنى .

عند ذاك سدت يكاترينا دميتريبفنا باب الدولاب ، وتوقفت عند داشا .

– قبل لحظة قلت انك معجبة ... يا للغرابة ...

– ارجوك ، يا كاتيا ، ألا تتسرعى فى لومى . انت تذكرين الانجليزى الذى كان فى سيستروريتسك . لقد اعجبت به ، بل احببته . ولكننى كنت آنذاك على طبيعتى . حنقت ، وتراويت ، وبكيت فى الليالى . اما هذا الرجل : .. انا لا اعرف هل هو الذى ... نعم ، هو ، هو ... هز سكينة نفسى ... وانا الآن فتاة اخرى كلية ،

كأنني شممت مبخرة ... لو دخل الى غرفتي الآن لاستطاع ان يفعل كل ما شاء دون اى اعتراض من جانبى ...

– ما هذا الذى تقولينه ، يا داشا ؟

وجلست يكاترينا دميتريفنا على مقعد الى جانب اختها ، وجذبتها نحوها ، وامسكت يدها الحارة ، وقبلت باطن كفها ، الا ان داشا تحررت من طوقها ببطء ، وزفرت ، واسندت راسها على يدها ، وحدقت طويلا فى النافذة ، المصطبغة بالزرقة ، والى النجوم .

– داشا ، ما اسمه ؟

– الكسى الكسيفيتش بيسونوف

عندئذ انتقلت كاتيا الى مقعد مجاور ، ووضعت يدها على حنجرتها ، وجمدت فى جلستها . لم تر داشا وجهها ، فقد كان كله فى الظل ، ولكنها شعرت بانها فاهت لها بشىء مريع .

«هذا افضل» فكرت داشا مع نفسها ، وهى تستدير بجسمها ، واستشعرت بعد هذه الجملة بخفة وخواء .

– قولى لى ارجوك ، لماذا يستطيع الآخرون كل شىء ، وانا لا استطيع ؟ منذ عامين وانا اسمع عن الف اغراء واغراء وطوال حياتى لم اذق طعم القبل الا مرة واحدة ، قبلنى فيها تلميذ فى المدرسة الثانوية فى حلبة التزحلق .

وتنهدت بقوة ، وصمتت . وكانت يكاترينا دميتريفنا فى تلك اللحظة تجلس منحنية الظهر ، ويداها على ركبتيها . قالت :

– بيسونوف شخص سيىء جدا . انه فظيع ، يا داشا . هل تسمعينني ؟

– نعم .

– انه سيحطمك كليا .

– وما العمل الآن ؟

– انا لا اريد ذلك . دعى الاخريات ... لا انت ، لا انت ، يا عزيزتى .

قالت داشا :

– يقولون ان الغراب الصغير سيىء لانه اسود جسدا وروحا . قولى لى : بم بيسونوف سيىء ؟

– لا استطيع ان اقول ... لا اعرف ... ولكن الرجفة تسرى فى جسدى ، حين افكر فيه .

– ولكنك ، انت ايضا كنت معجبة به بعض الشىء ؟

– ابدا ... انا اكرهه ! .. فليحفظك الله منه .

– اذن ساقع فى شراكه لا محالة . ساقع فى حبائله .

– ما هذا الحديث ؟ .. لقد جننا ، كلتانا .

الا ان داشا راق لها هذا الحديث بالذات ، وكأنها كانت تسير على لوحة ضيقة على اطراف اصابعها . التذت بانفعال اختها . ولم تفكر فى بيسونوف تقريبا ، الا انها تعمدت اظهار عواطفها نحوه ، ووصفت لقاءاتهما ، ووجهه . وضخمت كل ذلك ، وبدا وكأنها تقضى الليالى بطولها مؤرقة تفكر فيه ، وهى الآن مستعدة للارتماء فى احضانه . واخيرا بدا الأمر مضحكا لها نفسها ، وودت ان تمسك كاتيا من كتفيها ، وتقبلها قبلا كثيرة قائلة لها : «اذا كانت ثمة حمقاء ، فهى انت ، يا كاتيا» . الا ان يكاترينا دميتريفنا انزلقت فجأة من المقعد الى البساط ، وطوقت داشا ، ووضعت وجهها على ركبتيها ، وصرخت بصوت مفزع ، وجسمها كله يرتعش :

– اعذرينى ، اعذرينى ... داشا اعذرينى !

وهلعت داشا . انحنت نحو اختها ، ومن الفزع والشفقة اخذت تبكى هى ايضا مجهشة بالبكاء ، وراحت تتساءل : عم تتحدث ، وعلى اى شىء اعذرها ؟ الا ان يكاترينا دميتريفنا كزت على اسنانها ، واكتفت بملاطفة اختها ، وتقبيل يديها .

اثناء الغداء نقل نيقولاى ايفانوفيتش بصره من واحدة الى اخرى ، وقال :

– طيب . وانا ايضا الا يجوز ان اعرف سبب تلك الدموع ؟

ردت داشا فى الحال :

– سبب الدموع هو مزاجى المتعكر . فاطمئن ، ارجوك ، فانا اغرق بنفسى ، دون معونتك ، اننى لا اساوى خنصر زوجتك .

وجاء ضيوف فى وقت احتساء القهوة ، بعد الغداء . فقرر نيقولاى ايفانوفيتش ان من الضرورى الذهاب الى احد المطاعم بسبب حالة العائلة النفسية . واخذ كوليتشيك يتلفن الى الكراج ،

وطلبوا من كاتيا وداشا الذهاب لتتهيأ للخروج . وجاء تشيرفا ، ولما عرف انهم ينوون الذهاب الى مطعم اعتراه غضب مفاجىء .

— مَن المتضرر فى نهاية الأمر بنتيجة المنادمات التى لا تنتهى ؟ الادب الروسى ، بالطبع .

الا انهم اخذوه هو ايضا فى السيارة مع الآخرين .

كان مطعم «بلميرا الشمالية» غاصا بالناس وصاخبا . وكانت قاعته الهائلة فى الطابق الارضى مترعة بالضوء الساطع المشع من الثريات البلورية . وكانت المرايا — الجدران تضاعف بانعكاستها الثريات ، ودخان السيكائر ، المتصاعد من الأسفل ، والموائد المصفوفة بعضها قرب بعض ، والرجال فى بذلات الفراك ، واكتاف النساء العارية ، والباروكات الملونة على رؤوسهن — خضراء ، وليلقية ، وشائبة ، والزركشة الناصعة البياض على قبعاتهن ، والاحجار الكريمة ، المتلألئة على نحورهن وآذانهن ، بلألاء برتقالى ، وازرق ، وياقوتى ، والندل المارقين فى الظلام ، وشخصا مهزولا رافعا ذراعيه ، وعصاه السحرية تشق الهواء امام ستارة المخمل القرمزى ، والتماع ادوات الموسيقى النحاسية ، كل ذلك قد ضاعفته المرايا اضعافا مضاعفة ، حتى بدا وكأن البشرية كلها ، والعالم اجمع يجلس فى منظورات لا نهائية .

كانت داشا تراقب الموائد وهى تمتص الشمبانيا من خلال قصبة . ها هو رجل حليق مبودر الخدين يجلس امام جرذل شمبانيا مثلج ، وقشور سراطين البحر . عيناه نصف مغمضتين ، وفمه مزموم بازدراء . والظاهر انه فى جلسته هذه يفكر بأن الكهرباء ستنطفئ آخر المطاف ، ويموت جميع الناس ، ولا يستحق ان يفرح الانسان بشيء .

وها هى الستارة قد اهتزت ، وانفرجت الى الجانبين . وقفز الى المسرح يابانى صغير ذو غضون مفزعة ، ولاحت فى الهواء حوله كرات زاهية الالوان ، وصحون ، ومشاعل . وفكرت داشا مع نفسه : «لماذا قالت كاتيا : اعذرينى ، اعذرينى ؟» وفجأة شعرت وكأن راسها يضغط ، وقلبها يتوقف عن الخفقان . «معقول ؟» غير انها هزت راسها طاردة الافكار ، وتنهدت بعمق ، واجبرت نفسها على الا تفكر بهذه الـ«معقول» . ونظرت الى اختها .

كانت يكاترينا دميتريفنا تجلس فى الطرف الآخر من المائدة ، متعبة ، حزينة ، وجميلة الى درجة جعلت عينى داشا تمتلئان بالدموع . رفعت اصبعا الى شفتيها . ونفخت فيها خلسة . وكانت هذه اشارة متفق عليها . وقد رأتها كاتيا وفهمتها ، فابتسمت ببطء ابتسامة عذبة .

وحوالى الساعة الثانية بدأ الجدل حول المكان الذى سيذهبون اليه . طلبت يكاترينا دميتريفنا ان تستاذن بالعودة الى البيت . وقال نيقولاى ايفانوفيتش انه يلتزم بقرار الجميع . وقرر «الجميع» الاستمرار فى السهرة .

وعندئذ وقع بصر داشا على بيسونوف من خلال جمع الناس المتضائل . كان يجلس الى مائدة وقد وضع كوعه عليها فى بقعة بعيدة ، وهو يصغى باهتمام الى اكوندين الذى كان يحدثه عن شيء ما بحدة ، مخططا بظفره على غطاء المائدة ، وفى فمه سيكارة نصف مضموغة . وكان بيسونوف ينظر الى ذلك الظفر المتحرك . كان وجهه شاحبا بادى الاستغراق . وبدا لداشا انها سمعت من خلال الصخب : «نهاية ، نهاية لكل شيء» . ولكن نادلا تتريا عظيم البطن حجبهما كليهما عن بصرها فى اللحظة التالية . نهضت كاتيا ونيقولاى ايفانوفيتش ، ونادايا على داشا ، والفضول والانفعال ما برحا يعذبانها .

خرجوا الى الشارع فاذا بالقرس يباغتهم برائحة منعشة حلوة ، كانت النجوم تتلألأ فى السماء السوداء الليلكية . وسمعت داشا من ورائها شخصا يقول بضحكة مقتضبة : «ياليها من ليلة فاخرة على نحو شيطانى !» وتقدمت السيارة من الرصيف ، وطلع من وراء ، من غمامة البنزين المحروق رجل رث الثياب ، واختطف طاقيته ، وبحركة راقصة فتح باب السيارة امام داشا . القت داشا نظرة عليه ، وهى تدخل ، فراته رجلا نحيلا ، ووجهه غير حليق ، وفمه معوج ، وجسمه كله يرتعش ، وكوعاه مضغوطان على جبينه .

— تهانى على الامسية السعيدة فى معبد الترف وملذات الحواس !

هتف الرجل بصوت اجش وبحيوية ، ولقف بحذق قطعة نقود

صغيرة القيت له ، واذى التحية بطاقيته الممزقة . وشعرت داشــا وكأن عينيه السوداوين الغاضبتين تخدشانها بنظراتهما .

وصلوا الى البيت فى ساعة متأخرة . استلقت داشا فى السرير على ظهرها ، ولكنها لم تنم ، بل هومت ما بين اليقظة والنوم ، وكان جسمها كله قد تخدر تعبا شديدا .

وفجأة ازاحت الدثار عن صدرها بأنة ، وقعدت ، وفتحــت عينيها . كانت الشمس تسطع من النافذة على ارض الغرفة ... «يا الهى اى رعب كان منذ لحظة ؟!» وكادت تبكى من شـدة الفزع ، ولكن حين استجمعت شتات نفسها كانت قد نسيت كل شئ . ولم يبق الا الم فى القلب من حلم رهيب كريه .

خرجت داشا ، بعد الفطور ، الى الدراسة ، وسجلت اسمها لتقدم امتحانا ، واشترت بعض الكتب ، وانغمرت فى حياة عمليـة صارمة حقا حتى وقت الغداء . ولكنها فى المساء اضطرت مرة اخرى ان تلبس جوربا حريريـــا (فى الصباح كانت قد قررت ان تلبس جوارب قطنية فقط) ، وتبودر يديها وكتفيهـــا ، وتعيد تصفيـف شعرها . «جميل لو استطيع ان ارتب عقدة من الشعر فى قفاى ذلك لان الجميع يصيحون : اعملى تصفيفة شعر عصرية ، وكيف اعملها والشعر يتهافت تلقائيا» ، وباختصار عذاب فى عذاب . والتقطت عيناها بقعة من اثر الشمبانيا فى مقدمة ثوبهـــا الحريـرى الازرق الجديد .

وفجأة شعرت بأسف شديد على هذا الثوب ، بل وعلى حياتها الضائعة ، حتى انها جلست وفى يدها تنورتها التالفة ، وراحــت تنتحب . مد نيقولاى ايفانوفيتش رأسه من الباب ، غير انه رأى داشا فى قميصها الداخلى تجلس باكية ، فاستدعى زوجته . جاءت كاتيا راكضة ، واختطفت الثوب وقالت «لا تفزعى ، ستزول اللطخة فى الحال» . ونادت المغولى العظيم ، فجاءت هذه ببنزين وماء ساخن .

ونظف الثوب ، وارتدته داشا . وزعق نيقولاى ايفانوفيتش من الرواق غاضبا : «انه العرض الاول ، ولا يجوز التأخر» . ولكنهم تأخروا عن بداية المسرحية ، بالطبع .

جلست داشا فى المقصورة الى جانب يكاترينـا دميتريفنا . فشاهدت على المسرح رجلا ضخما ذا لحيـة مستعـارة ، وعينين

متسعتين على نحو غير طبيعى يقف تحت شجرة مسطحة يقول لفتاة فى رداء وردى زاه :

«احبك ، احبك» وامسك الرجل يدها . ورغم ان المسرحية لم تكن شجية ، الا ان داشا كانت تغالبها العبرة طوال العرض ، مشفقة على الفتاة ذات الرداء الوردى الزاهى . وكان يؤلمهــــا ان سير المسرحية لا يجرى هذا المجرى . فقد اتضح من سياقها ان الفتاة قد تحبه ولا تحبه . كانت تجابه عناقه بضحكة حورية الماء ، وتهرب الى وغد كان بنطلونه الأبيض يلوح فى آخر المسرح . امسك الرجل برأسه ، وقال انه سيحرق مخطوطة ما ، عمل العمر كله ، وينتهى الفصل الاول من المسرحية .

جاء معارف الى المقصورة ، وبدا حديث مألوف ، سريـــع ، ومنشط .

وصف شيتبرغ المسرحية بأنها مشوقة . وشيتبرغ رجل ضئيل الجسم اصلع الجمجمة ، ذو وجه حليق متغضن يبدو وكأنه يوشك طوال الوقت ان ينط من ياقته المنشاة .

— مشكلة الجنس مرة اخرى ، ولكنها مطروحـــة بحدة . والبشرية يجب ان تتخلص من هذه المسألة اللعينة فى نهاية الأمر .

فرد عليه بوروف ، المحقق فى القضايـا الهامـة جدا ، وهو رجل ضخم جهم ، ليبرالى النزعة ، هربت زوجته فى عيد الميلاد مع صاحب اسطبل لخيول السباق :

— ذلك يتوقف على الاشخاص . فالمسالـــة بالنسبـة لى محلولة . المرأة تكذب بجوهر وجودها ذاته ، والرجل يكذب بمعونة الفن . المسألة الجنسية حقارة محض ، والفن هو احد انواع الجرم الجنائى .

قهقه نيقولاى ايفانوفيتش ، وهو ينظر الى زوجته . فتابـــع بوروف حديثه بكآبة :

— حين يحين الوقت يصنع الطائر بيضة ويزدهى الذكر بذيل زاه . وهذا كذب ، لأن ذيله الطبيعى رمادى وليس زاهيا . وعلى الشجرة تتفتح زهرة ، وهذا كذب ايضا ، خداع ، والحقيقة هناك ، فى الجذور الشوهاء تحت الارض . والانسان اكثر المخلوقات كذبا . فالزهور لا تنمو عليه ، وليس له ذيل يزدهى به ، فيضطر الى ان

يستخدم لسانه : ما يسمى بالحب كذب مضاعف ومقرف ، وكذلك كل ما لف حوله . انها اشياء محاطة بالغموض فقط للفتيات فى سن غضة – ورمق داشا بطرف عينه – وفى زماننا المثقل بالحماقة ينشغل الجديون من الناس بهذه السخافة . اجل ، ان الدولة الروسية تعانى من قساة المعدة .

وانكب على علبة الحلويات بتقطيبة مرضية ، وحشر باصبعه فيها ، ولم يقع اختياره على قطعة ، ورفع الى عينيه منظارا بحريا كان متعلقا بسير من رقبته .

وتحول الحديث الى الركود فى السياسة والرجعيـــة ، وقص كوليتشيك بهمس منفعل آخر فضيحة فى البلاط .

فقال شينبرغ بسرعة :

– فظاعة ، فظاعة .

ولطم نيقولاى ايفانوفيتش ركبته ، وقال :

– نحن بحاجة الى ثورة ، ايها السادة ، الى ثورة فورا . وإلا فسنختنق كليا . وعندى معلومات – وخفض هنا صوته – فى المصانع اضطراب شديد .

طارت اصابع شينبرغ العشر كلها فى الهواء من شدة الانفعال .

– ولكن متى ، متى ؟ من المستحيل ان ينتظر الانسان الى ما لا نهاية .

فقال نيقولاى ايفانوفيتش بمرح :

– سنرى حتما ، يعقوب الكسندروفيتش ، وسنعهد لـــك وزارة العدل يا صاحب المعالى .

سئمت داشا من الاستماع الى هذه القضايا ، والثـورات ، والمناصب الوزارية . وضعت كوعا على مخمل المقصورة ، وطوقت باليد الأخرى خصر كاتيا ، وحدقت فى قاعة المسرح ، هازة راسها لمعارفها بابتسامة بين الحين والآخر . كانت داشا تعرف وترى انها واختها موضع اعجاب الناس ، فكانت تلك النظرات المندهشة بين جمع الناس – نظرات الرجال الرقيقة ، ونظرات النساء الحانقـة – ونتف العبارات ، والابتسامات تخلف فى نفسها ما يخلفه هواء الربيع من احساس بالسكر . وزايلها مزاجها الباكى . ودغدغت خصلة من شعر كاتيا خدها قرب اذنها .

همست داشا :

– كاتيا ، انا احبك .

– وانا ايضا .

– هل انت مسرورة لأننى اعيش معك ؟

– جدا .

وفكرت داشا بشىء آخر لطيف تقوله لكاتيا . وفجأة وقع بصرها على تليغين فى الأسفل . كان واقفا يرتدى سترة سوداء ، ويحمل فى يديه قبعته ، وبرنامج الحفلة ، وكان منذ وقت طويل يختلس النظر الى مقصورة آل سموكوفنيكوف ، دون ان يرفع راسه مخافة ان يلحظ . وكان وجهه الملوح القوى يبرز واضحا بين الوجـوه الأخرى اما لشدة بياضها ، او هزالها . وكان شعره اكثر شقرة مما كانت تتصوره ، فقد كان بلون الشوفان .

التقت عيناه بعينى داشا فانحنى تحية لها فى الحال ، ثـم استدار ، الا ان قبعته سقطت منه . ولما انحنى ليرفعها ، اصطدم بسيدة بدينة جالسة فى مقعد وثير ، فاخذ يعتذر ، وصعد الدم الى وجهه ، وتراجع وداس على قدم محرر المجلة الجمالية «جوقـــة السوزيات» . قالت داشا لاختها :

– هذا هو تليغين .

– اواه ، انه لطيف جدا .

– من لطفه وددت لو اقبله . ليتك تعرفين اى ذكاء له ، يا كاتيا .

– داشا ، هذا . . .

– ماذا ؟

الا ان اختها صمتت . وفهمت داشا فصمتت ايضا . وعـاد قلبها الى انقباضه ، وسرى الاضطراب داخل قوقعتها . سرحـت هنيهة ، وبعد ان نظرت من جديد الى تلك الاعماق ، رات الظلام والرهبة هناك .

وحين انطفأت الانوار ، وانفرجت الستارة على الجانبين ، تنهدت داشا ، وكسرت كسرة من شوكولاته ، ووضعتها فى فمها ، واخذت تصغى بانتباه .

مازال الرجل ذو اللحية المستعارة يهدد بحرق المخطوطـة ،

والفتاة تسخر منه ، وهى جالسة الى البيانو . وكان واضحا ان من الضرورى ان تتزوج هذه الفتاة باقصى سرعة ممكنة ، لكى لا يجرجر الحبل خلال ثلاثة فصول .

رفعت داشا عينيها الى سقف القاعة ، فرأت عليه صورة امرأة حسناء نصف عارية تطير بين السحب ، وعلى ثغرها ابتسامة صافية . وقالت لنفسها : «يا آلهى ، ما اشبهها بى !» وفى الحال رات نفسها بعين اخرى : مخلوقة فى مقصورة تاكل الشوكولاته ، وتكذب ، وتتورط ، وتنتظر ذلك الشىء غير المالوف يحدث من تلقاء نفسه . ولكن لا شىء يحدث «ولا حياة لى حتى اذهب اليه ، واسمع صوته ، واحس بكل كيانه . اما سائر الاشياء فكذب . المهم ان يكون المرء نزيها» .

ومنذ ذلك المساء كفت داشا عن التردد . لقد عرفت االآن انها لا بد ذاهبة الى بيسونوف ، وخشيت تلك الساعة . عزمت مرة ان تسافر الى ابيها فى سامارا ، الا ان فكرت بان الالف والخمسمائة كيلومتر ، لا تحميها من الغواية ، فهزت يدها ، وكأنها تقول وليكن ما يكون .

وخنقت انوثتها العذراء الناضجة بالعافية ، ولكن ما كان فى وسعها ان تفعل شيئا ازاء «الشخص الثانى» فى داخلها اذا كان العالم كله يعينه عليها . واخيرا كان مهينا على نحو لا يطاق ، ان تتعذب وتفكر طويلا جدا ببيسونوف هذا ، الذى لا يريد حتى ان يعرفها ، ويعيش خالى البال مستمتعا بحياته فى مكان قرب جادة كامينواوستروفسكى ، وينظم الاشعار عن فنانة ترتدى تنورات مدنتلة . بينما هى ، داشا ، قد امتلأت به الى آخر قطرة ، وذابت فيه .

واخذت داشا ، الآن ، تتعمد تصفيف شعرها مبسطا ، وتلفه كالعقدة على علبانها ، وتلبس ثوبا قديما – مدرسيا – جلبته من سامارا ، وتستظهر القانون الرومانى حزينة جهماء ، ولا تخرج الى الضيوف ، وتمتنع عن التسليات . ولكن التمسك بالنزاهة لم يكن بالامر الهين كما تبين . فقد جبنت داشا فى الواقع .

فى مساء منعش البرودة فى بداية نيسان ، سارت داشا من الجزر الى البيت ماشية ، وكان الغروب قد خفت ، وشعت السماء

الليلكية الضارية الى الخضرة ، بنور فسفورى ، دون ان تلقى ظلالا .

فى البيت قالت داشا انها ذاهبة للدراسة ، وفى الحقيقة انها ركبت الترام الى جسر يلاغين ، وقضت المساء كله تجوب الممرات الجرداء الاشجار ، وتعبر القناطر ، وتنظر فى الماء ، وفى الاغصان الليلكية المتسطحة فى وهج الغروب البرتقالى ، والى وجوه المارة ، والى اضواء العربات ، ووراء جذوع الاشجار المطحلبة . وكان فكرها خاليا ، وخطواتها متئدة .

كانت السكينة ترين على نفسها ، وهواء البحر الربيعى المالح قليلا يتغلغل فى كل كيانها . تعبت قدماها ، ولكنها لم ترد ان تعود الى البيت . كانت العربات تنطلق عدوا فى جادة كامينواوستروفسكى ، وتمرق السيارات مروقا ، ويتمشى المتنزهون جماعات متبادلين النكات والضحكات . وانعطفت داشا فى شارع جانبى .

كان الشارع هادئا تماما وخاليا . وكانت السماء فوق سقوف البيوت خضراء . وكانت الموسيقى تتسرب من خلال الستائر المسدلة فى كل بيت . فى هذا البيت يتعلم احد عزف سوناتة ، ومن ذاك تأتى موسيقى فالس مالوفة اليفة ، ومن تلك النافذة للعلية المصطبغة بحمرة الغروب الكامدة يصدح كمان .

وشعرت داشا ، وقد افعمت الاصوات قلبها ، بان كيانها كله يترنم ايضا ، ويحن . وبدا وكان جسدها قد امسى خفيفا نقيا .

استدارت فى منعطف ، وقرات رقم دار على الحائط ، وتبسمت . وتقدمت من بابه الامامى الذى دقت عليه تحت رأس اسد برونزى بطاقة زيارة كتب عليها «ا . بيسونوف» . وقرعت الجرس بقوة .

٧

كان الحاجب فى مطعم «فينا» يساعد بيسونوف على خلع معطفه ، فقال له بلهجة ذات معنى :

– يا الكسى الكسييفتش ، ان شخصا ينتظرك .

- من ؟
- انثى .
- من هى ؟
- لا تعرفها .

سار بيسونوف الى الركن القصى من قاعة المطعم ، وهو ينظر فوق الرؤوس بعينين فارغتين . احنى لسكوتكين رئيس النـدل سبلتيه الجانبيتين الشيباوين على كتفى بيسونوف ، وقال ان طبق اليوم الممتاز هو من لحم الضأن . فقال له بيسونوف :

- لا اريد ان آكل . قدم لى نبيذى الابيض المفضل .

وجلس بادى الوقار ، مرفوع الصدر ، واضعا يديه على الخوان . فى هذه الساعة ، وفى هذا المكان كانت تنتابه فى العادة حالة متكررة من الالهام الكئيب . كانت جميع انطباعات اليوم تندمج فى شكل منسق مدرك ، وفى داخله ، فى الأعماق المتأججة بعزف الكمانات الرومانيـة ، وروائح العطور النسائيـة ، واحتباس الهواء فى قاعـة المطعم المكتظـة بالناس كان يظهر ظل لهذا الشكل الآتى من الخارج ، وهذا الظل هو الالهام . وكان يشعر بانه يتوصل الى المعنى الخفى للاشياء والكلمـات بحاسة تلمس داخلية عمياء .

رفع بيسونوف قدح النبيذ ورشف منه دون ان يباعـد بين اسنانه . كان قلبه يخفق ببطء . وكان يخامره شعور بالراحة لا يوصف متغلغلا فى كامل كيانه المتشبع باصوات الموسيقـى والناس .

وعلى مائدة مقابلة قرب المرآة كان يتعشى سابوجكـوف ، وانتوشكا ارنولدوف ، ويلزافيتا كييفنا . وكانت هذه قد ارسلت الى بيسونوف بالأمس رسالة طويلة ، وحددت له موعدا للقاء هنا ، وهى الآن جالسة محمرة منفعلة . كانت ترتدى ثوبا من قمـاش مخطط بالاسود والاصفر ، وتضع فى شعرها عقدة بهذا اللون . وحين دخل بيسونوف احست بضيق فى تنفسها .

- كونى على حذر ، انه هجر الفنانـة ، وهو الآن من غير امرأة ، وخطر ، كالنمر ، - همس لها ارنولدوف كاشفا راسا عن اسنانه الذهبية والمسوسة .

وضحكت يلزافيتا كييفنا ، واهتزت عقدتهـا المخططة ، وسارت بين الموائـد الى بيسونوف ، تحت نظرات الناس وتكشيراتهم .

اضحت حياة يلزافيتا كييفنا فى المدة الأخيرة مضجرة للغاية ، كانت الايام تتابع دون ما عمل تنغمر به ، ودون امـل فى حال افضل . وبكلمة واحدة سام محض . وكان واضحا ان تليغين ينفر منها . كان يعاملها بلطف ، ولكنه كان يتجنب ان يتحدث اليها او يلتقى بها على انفراد . بينما كانت هى تشعر بانها بحاجة اليـه بالذات . فكانت ، اذا تردد صوته فى الرواق ، تحدق فى البـاب تحديقة نافذة . وكان يسير فى الممر على اطراف اصابعه دائمـا . بينما كانت هى تنتظر ، واجمة القلب ، والباب يتراءى ذائبا امام بصرها ، الا انه كان يمر بهـا ، شانه كل مرة ، دون ان يتوقف ليطرق الباب على الاقل ويطلب عود ثقاب .

قبل بضعة ايام اشترت احد كتب بيسونوف ، مناكدة جيروف الذى كان يعيب كل شىء فى هذه الدنيا بحذر قط ، قطعت اوراق الكتاب بمكواة الشعر وقرأته عدة مرات متتابعة ، ودلقت عليـه القهوة ، وجعدته وهى تقرا فى السرير ، واخيرا اعلنت ، عند الغداء انه عبقرى . . . انفعل نزلاء شقـة تليغين . ووصف سابوجكوف بيسونوف بانـه دملة فى جسم البرجوازية المتفسخ . ونضخ عرق على جبين جيروف . وكسر الرسام فاليت صحنا . وبقى تليغين وحده لم يبد اهتماما . وعند ذاك حدث فى نفسها ما يسمى بـ«لحظـة استفزاز النفس» . فراحت تقهقه ، وذهبت الى غرفتها ، وهنـاك كتبت الى بيسونوف رسالة متحمسة سخيفة ، تطلب فيها ان تلتقى به ، وعادت الى غرفة الطعام ، والقت الرسالـة على المائدة ، صامتة . قرا النزلاء الرسالة بصوت عال ، وتناقشوا طويلا . وقال تليغين :

- رسالة جريئة جدا .

عندئذ سلمت يلزافيتا كييفنا الرسالة الى الطباخة ، لترميها فى صندوق البريد فى الحال . وشعرت بانها تندفع فى هاوية .

والآن ، وهى تتقدم من بيسونوف ، بادرته قائلة بخفة :

- كتبت لك ، فجئت . شكرا .

وجلست قبالته فى الحال ، مديرة جنبها الى المائدة ، واضعة ساقا على ساق ، مركزة كوعها على الخوان ، مسندة ذقنها على راحة يدها ، وانشأت تنظر الى بيسونوف بعينيها المرسـومتين على ما تبدوان . لزم بيسونوف الصمت . جلب النادل قدحا ثانيا ، وصب فيه النبيذ ليلزافيتا كيبفنا . قالت الفتاة :

— ستسأل ، طبعا ، لماذا اردت ان اراك .

— لا ، لن اطرح هذا السؤال . اشربى نبيذك .

— انت محق ، فليس عندى ما اقولـه . انت تحيـا ، يا بيسونوف ، وانا لا . مجرد انني ضجرة .

— ماذا تمارسين ؟

— لا شيء . — وضحكت ، وصعد الدم الى وجهها فى الحال . — يضجرنى ان اصبح محظية . انا لا اعمل شيئا . انا فى انتظار ان تصدح الابواق ، ويندلع الوهج . . . ايبدو ذلك غريبا لك ؟

— ومن انت ؟

لم تجب ، واطرقت براسها ، وازداد احمرار وجههـا ، ثم همست :

— انا طيف .

ابتسم بيسونوف ابتسامة متكلفة ، وفكر مع نفسه : «بلهاء انها بلهاء» . الا ان لشعرها الذهبى مفرقا محببا للنفس ، مفرق آنسة ، وبدت كتفاها المثلثتان المكشوفتان بشدة نقيتين حتى ان بيسونوف ابتسم مرة اخرى اكثر طيبة ، ومص قدح النبيذ من خلال اسنانه ، وتولدت فى نفسه رغبة مفاجأة فى ان ينفث على هذه الفتاة الساذجة دخان خياله . فذكر لها ان ليل العقاب الرهيب فى سبيله الى ان يخيم على روسيا ، وانه يتحسس ذلك ، بامارات خفية منحوسة .

— لا بد انك قد شاهدت فى المدينة اعلانا ملصقـا على الجدران يصور شيطانا مقهقها يندفع هابطا سلما هائلا على اطار سيارة . . . اتفهمين ما يعنى هذا ؟

نظرت يلزافيتا كيبفنا الى عينيه الثلجيتين وفمه الانثوى ، وحاجبيه النحيلين المرفوعين ، والى ارتجاف اصابعه الخفيف وهى تحمل القدح ، والى احتسائه النبيذ بنهم وببطء . ودار راسهـا

دورانا ممتعا . وعلى مسافة بعيدة بدا سابوجكوف يرسل الايماءات لها . وفجأة التفت بيسونوف ، وسأل عبوسا :

— من هؤلاء الناس ؟

— انهم اصدقائى .

— لم تعجبنى ايماءاتهم .

عندئذ قالت يلزافيتا كيبفنا دون ترو :

— لنذهب الى مكان آخر ، الا ترغب ؟

تفرس بيسونوف فيها . كانت عيناها محولتين قليلا ، وفمها يفتر عن بسمة خفيفـة ، وقد ظهرت حبـات عرق صغيرة على صدغيها ، وفجأة احس بلهفة الى هذه الفتاة القويـة والمعافاة القصيرة النظر ، فامسك بيدها الكبيرة الحارة التى كانت مستقرة على المائدة ، وقال :

— اما ان تنصرفى الآن . . . واما ان تلزمى الصمت . تعالى — من الضرورى التصرف على هذا النحو .

اكتفت يلزافيتا كيبفنا بان ارسلت زفرة قصيرة ، وغاض الدم من وجنتيها . ولم تشعر كيف نهضت ، وامسكت بيسونوف بيدها ، وسار الاثنان بين الموائد . وحين جلسا فى العربـة لم تستطع الريح نفسها ان تبرد جلدها الملتهب . قرقعت العربة على بلاط الشارع . استند بيسونوف على مقبض عصاه بكلتـا يديه ، ووضع حنكه عليهما ، وقال :

— عمرى خمسة وثلاثون عاما ، ولكن الحيـاة انتهت ولن يخدعني الحب بعد الآن . اى شيء اكآب من ان يكتشف المرء فجأة بان جواد الفارس ما هو الا حصان من خشب ؟ وما يزال الى الامام وقت طويل جدا — اجرجر نفسى فى هذه الحياة كالجثـة — والتفت وانفرجت شفتاه عن بسمة هازئة — يبدو ان على ايضا ان انتظر هنالك حتى تصدح ابواق اريحا . حسنا ، جميل لو يرتفع فجأة من هذه المقبرة صداح الابواق ! وينتشر الوهج فى ارجاء السماء . . . نعم ، يبدو انك على حق . . .

وصلا الى فندق خارج المدينة . قادهما النادل الناعس عبر دهليز طويل الى الغرفة الوحيدة التى بقيت شاغرة . وهى غرفة واطئة السقف اوراق جدرانها حمراء ، مشققة ، مبقعة . وكان ثمة

سرير كبير قد وضع عند الجدار تحت ظليلة حائلة اللون ، وعند قدمى السرير مغسلة قصديرية . وكانت الحجرة تفوح برطوبة محبوسة ، وعطن تبغ . سألت يلزافيتا كييفنا ، وهى عند الباب ، بصوت لا يكاد يسمع :

– لماذا جئت بى الى هنا ؟

سارع بيسونوف يجيب :

– لا ، لا ، سنرتاح هنا .

خلع معطفها وقبعتها ، ووضعهما على مقعد مخلوع . جلب النادل زجاجة شمبانيا ، وتفاحات صغيرة ، وعنقود عنب معفر بالنشارة الفلينية ، ونظر الى المغسلة ، واختفى عبوسا كما كان .

ازاحت يلزافيتا كييفنا الستارة عن النافذة ، فرأت مصباحا غازيا يضىء وسط العراء الرطب ، وصهاريج ضخمة يسوقها اناس متكورون تحت ظليلات الخيش . ابتسمت بكآبة واقبلت على المرآة ، واخذت تسوى شعرها بحركات جديدة غير مألوفة اليها نفسها . وفكرت مع نفسها هادئة : «غدا حين اثوب الى رشدى ، اجن» وعدلت العقدة المخططة . سأل بيسونوف :

– اتريدين نبيذا ؟

– نعم ، اريد .

جلست على الاريكة ، واقعى هو عند قدميها على البساط ، وقال فى تأمل :

– ان لك لعينين مخيفتين : وحشيتين وبديعتين . عينان روسيتان . اتحبيننى ؟

وعاودها الذهول مرة اخرى ، الا انها حدثت نفسها فى اللحظة التالية : «لا ، ذلك هو الجنون بعينه» . تناولت القدح عن يديه ، مترعا بالنبيذ ، وشربت ، وفى الحال دار راسها ببطء ، وكأنها تنهار . قالت وهى تتسمع كلماتها وكأنها ليست كلماتها وكأنها تتردد من بعيد :

– اننى اخاف منك ، وسأكرهك لا بد لا تنظر الى هكذا ، تخجلنى .

– انت فتاة غريبة .

– بيسونوف ، انت رجل خطير جدا . انا من عائلة على

المذهب الدينى القديم ، وانا اؤمن بوجود الشيطان . . . اوه ، يا آلهى ، لا تحدق بى هكذا . انا اعرف ، لماذا اردتنى . . . انا اخشاك .

وضحكت بصوت عال ، وارتج كل جسدها من ضحكها ، وطرطش النبيذ من القدح فى يدها . وانزل بيسونوف وجهه على ركبتيها . وقال بصوت يائس ، وكان خلاصه كله الآن فى يديها :

– احبينى . . . اتوسل اليك ان تحبينى . . . انا مرهق . . . واحس بالرهبة . . . رهبة الوحدة . . . احبينى . . . احبينى . . .

وضعت يلزافيتا كييفنا يدها على راسه ، واغمضت عينيها .

قال انه فى كل ليلة تتملكه رهبة الموت . ويجب ان يستشعر وجود انسان قريبا منه ، الى جانبه ، يأسو له ، ويدفئه ، ويهب نفسه له . ذلك عقاب ، عذابات . . . «نعم ، نعم ، نعم ، اعرف . . . ولكننى قد فقدت الحس بسبب البرد . وقلبى قد توقف . ادفئينى . انا بحاجة الى القليل . واشفقى على ، فانا اموت . لا تتركينى وحيدا ، ايتها الفتاة الطيبة ، الطيبة . . .»

صمتت يلزافيتا كييفنا رعبا واضطرابا . بينما راح بيسونوف يقبل راحتيها بقبلات تزداد طولا . وصار يقبل ساقيها الكبيرتين القويتين . شدت الفتاة على نفسها اقوى ، وبدا وكأن قلبها قد توقف من الخجل الشديد .

وفجأة لفت نار صغيرة كل كيانها . فقد صار بيسونوف يبدو قريبا الى النفس ، بائسا . . . رفعت راسه قليلا ، وقبلت شفتيه بقوة وبنهم . وبعد ذلك وقد زايلها الخجل خلعت ثيابها بعجالة ، واضطجعت على السرير .

وحين غفا بيسونوف ، واضعا رأسه على كتفها العارية ، ظلت تحدق طويلا بعينيها قصيرتى النظر فى وجهه الشاحب المصفر الذى انتشرت تجاعيد التعب عليه كله ، على الصدغين ، وتحت الجفنين ، وعند الفم المطبق . وجه غريب ، ولكنه الآن حبيب الى الأبد .

كان النظر الى النائم متعبا جدا حتى ان يلزافيتا كييفنا اخذت تبكى .

تصورت ان بيسونوف ، اذا ما استيقظ ، ورآها فى السرير ، متلائمة ، غير جميلة ، ذات عينين منتفختين من البكاء ، فانه سيسعى الى التخلص منها فى الحال ، ولا يمكن ان يحبها شخص

بعد الآن ، وسيتيقن الجميع من انها امرأة متحللــــة ، بلهاء ، رخيصة ، وانها ستتعمد ان تفعل كل ما من شانه ان يحملهم الى التفكير بانها تحب رجلا واحدا ، بينما منحت نفسها لرجل آخر ، وهكذا ستكون حياتها دائما مملوءة بالكدر والقذارة والاهانـــات الموجعة . اخذت يلزافيتا كيبفنا تنتحب بحذر ، وتمسح عينيها بطرف المفرش . حتى غلبها النوم ، على هذه الحال ، والدموع فى عينيها .

استنشق بيسونوف الهواء من انفــه بعمق ، واستدار الى ظهره ، وفتح عينيه . كان جسمه كله يئن تحت وطأة انقباض لا يوصف من خمار البارحـــة ، وكان من المقرف التفكير بضرورة الشروع فى يوم جديد . امعن النظر طويلا فى كرة السرير المعدنية ، ثم تجرأ على النظـــر الى يساره . كانت امرأة تنبطح الى جانبه على ظهرها ايضا مغطية وجهها بكوعها العارى .

«من هى ؟» وشحذ ذاكرته المشطرية ، غير انــه لم يتذكر شيئا . سحب علبة سيكائره من تحت الوسادة بحذر ، واشعل سيكارة «اوه ، يا للشيطان ! نسيت ، فو ، فظاعة» .

قال بصوت متلطف :

– يبدو انك قد استيقظت . صباح الخير .

لزمت المرأة الصمت ، ولم ترفع كوعها . فتابع يقول :

– بالأمس كنا غريبين . ونحن اليوم مربوطان بالعرى الخفية لهذه الليلة .

وتعبس . كان كل ذلك نوعا من الابتذال . والشىء الرئيسى انه لا يعرف ماذا ستفعل الفتـــاة الآن . اتبدى ندما وتبكى ، ام يستولى عليها فيض من مشاعر القربى ؟ مس كوعهـــا بحذر ، وتنحى . يبدو ان اسمها مارغريت . قال مهموما :

– هل انت غاضبة ، يا مارغريت ؟

عندئذ جلست مستندة على الوسائد ، واخذت ترمقه بعينيها الجاحظتين القصيرتي النظر ، وهى تمسك على صدرها قميصهـــا الليلى الساقط . كان جفناها منتفخين ، وفمها الممتلىء معوجا فى ابتسامة هازئة . وتذكر كل شىء واحس برقة كرقة اخ . قالت :

٥*

– لست مارغريت ، بل يلزافيتا كيبفنا . انا امقتك . انزل من السرير .

انسل بيسونوف من تحت الغطاء فورا ، واخذ يرتدى ملابسه ، على نحو ما ، وراء سدل السرير ، قرب المغسلة العفنة ، ثم ازاح الستارة عن النافذة ، واطفأ المصباح الكهربائى . وتمتم :

– هناك لحظات لا تنسى .

ظلت يلزفيتا كيبفنا تتابعه بعينيها الداكنتين . وحين جلس على الاريكة يدخن سيكارة ، قالت ببطء :

– ساذهب الى البيت ، وساسمم نفسى .

– انا لا افهم مزاجك ، يا يلزافيتا كيبفنا .

– لا احتاج الى ان تفهمنى . اخرج من الغرفة ، فانا اريد ان ارتدى ثيابى .

خرج بيسونوف الى الدهليز حيث كان يسرى تيار قوى مــن الهواء ، وتفوح رائحة غاز الكاربون . واضطر الى الانتظار طويلا . فجلس على افريز النافذة يدخن . ثم سار الى نهاية الدهليز ، حيث تناهت اليه من مطبخ صغير اصوات واطئة لنادل وخادمتين يتبادلون الحديث ، وهم يحتسون الشاى ؛ قال النادل :

– ملأت اسماعنا بقريتك . انها ليست روسيا . انت لا تفهمين شيئا ! تجولى ليلا فى الغرف ، وسترين روسيا امامك . الجميع اوغاد . اوغاد واوباش .

– كن ارق فى تعابيرك ، يا كوزما ايفانيتش .

– اذا كنت اعمل فى هذه الغرف ثمانيـــة عشر عاما ، فمعنى ذلك ان لى حقا فى ان اتكلم هكذا .

قفل بيسونوف عائدا ، فرأى باب غرفته مفتوحا ، والغرفـــة فارغة . وكانت قبعته ملقاة على الارض .

وفكر : «وليكن . هذا افضل» ، وتثاءب ، وتمطـــى معدلا عظامه .

وهكذا بدأ يوم جديد . وكان يختلف عن اليوم الفائت بان ريحا قوية منذ الصباح بددت السحب الممطرة ، وساقتها نحو الشمال ، فتلبدت هناك كتلا بيضاء واسعة . كانت المدينة المبللة تغمر بسيول باكرة من نور الشمس وكانت الغيلان الهلامية الخفية

عن العين – نزلات البرد والسعال ، والعلل الخبيثة ، وعصبيات السل السوداوية تتكور على نفسها ، وتشوى ، وتغيب عن الوعى ، وحتى الميكروبات شبه الغامضة للنيورستنيا السوداء لاذت وراء الستائر ، فى ظلام الغرف والاقبية الرطبة . وكانت ريح خفيفة تهب على الشوارع . وفى البيوت كانت النوافذ تنظف وتفتح . وكان البوابون فى قمصانهم الزرق يكنسون الارصفة . وفى جادة نيفسكى كانت فتيات الشوارع ذوات الوجوه المخضرة يعرضن للسابلة باقات من زهور الثلجية المعطرة بانواع رخيصة من ماء الكولونيا . وفى المخازن كان يرقع ما هو شتوى على عجل ، وتظهر فى الواجهات الاشياء الربيعية البهيجة مثل الازهار الاولى .

طلعت صحف ما بعد الظهر كلها تحمل العناوين : «مرحبا بالربيع الروسى» . وكانت بعض القصائد ازدواجية المعنى بشكل بالغ . وباختصار استهبلت الرقابة .

وفى آخر الامر سار فى شوارع المدينة المستقبليون من جماعة «المجمع المركزى» وسط صفير الاولاد وصيحاتهم . وكانوا ثلاثة : جيروف ، والرسام فاليت ، واركادى سيميسفيتوف الذى لم يكن معروفا لاحد آنذاك ، وهو شاب طويل القامة له وجه حصان .

كان هؤلاء المستقبليون يرتدون بلوزات قصيرة بلا احزمة من المخمل البرتقالى اللون المخطط بخطوط ملتوية سوداء ، وقد حمل كل واحد منهم منظارا احادى العدسة ، ورسم على خده سمكة ، وسهما ، وحرف «ر» . وفى حوالى الساعة الخامسة اعتقلهم مفتش الشرطة فى منطقة ليتينايا ، وحملهم فى عربة الى مركز الشرطة للتحقيق فى هوياتهم .

كانت المدينة كلها قد خرجت الى الشوارع . سارت العربات اللامعة وسيول الناس فى شارع موروسكايا ، والكورنيش ، وجادة كامينواوستروفسكى . وكانت كثرة كاثرة من الناس تتصور ان شيئا غير اعتيادى لا بد سيحصل اليوم : اما ان يوقع على بيان فى قصر الشتاء ، او ينسف مجلس الوزراء بقنبلة ، او عموما «سيبدأ» فى مكان ما . . .

الا ان الغسق قد خيم على المدينة ، واضيئت الانوار على طول

الشوارع والقنوات عاكسة على الماء الاسود ابرا متعرجة من الضوء ، ولاح غروب هائل ، داخن غائم ، من على جسور النيفا وراء مداخن مصانع انشاء السفن . ولم يحصل شىء . وومضت آخر لمعة على اشبيل قلعة بطرس وبولس ، وانتهى النهار .

عمل بيسونوف فى هذا النهار كثيرا وبشكل طيب . انعشته الاغفاءة بعد الفطور ، فاخذ يطالع جوته طويلا ، وقد اثارته المطالعة واقلقته .

سار بين رفوف الكتب ، وفكر بصوت مسموع ، وجلس بين الحين والآخر الى مكتبه يسجل الكلمات والابيات . جلبت مدبرة البيت العجوز التى كانت تعيش معه فى شقة العزوبة ابريقا من الصينى يتصاعد منه بخار قهوة الموكا .

كان بيسونوف فى لحظات من التجلى . فقد كتب ان الليل يخيم على روسيا ، وتنفرج ستارة المأساة ، والشعب الذى يعبد الله يتحول بمعجزة شان القوزاقى فى قصة غوغول «الانتقام الرهيب» الى متمرد على الله ، ويرتدى قناعا رهيبا . ويجرى الاعداد للاحتفال بالقداس الاسود على نطاق الشعب كله . وتنفتح الهاوية . وما من خلاص .

اغمض عينيه وتصور حقولا مقفرة ، وصلبانا على المدافن ، وسقوفا بددتها الريح ، وفى المدى البعيد ، وراء التلال ، هالة نيران الحرائق . امسك راسه بكلتا يديه ، وفكر بانه على هذه الصورة بالذات يحب تلك البلاد التى عرفها عن طريق الكتب والصور فقط . تغطى جبينه بالغضون العميقة ، وامتلأ قلبه برعب التنبؤ . وبعد ذلك وضع السيكارة المشتعلة بين اصبعيه وكتب وريقات مخشخشة بخطه الكبير .

وعند هبوط الظلام استلقى بيسونوف على الاريكة دون ان يشعل الضوء ، والقلق ما يزال يستولى على كيانه ، وراسه ملتهب ، ويداه نديتان . وبهذا انتهى عمله اليومى .

انتظمت دقات قلبه شيئا فشيئا ، وصارت اكثر هدوءا . والآن كان عليه ان يفكر كيف يمضى هذا المساء والليلة . اوف . . . لا احد تلفن له ، ولا زاره . يتعين عليه ان يصارع شيطان السأم وحده . ومن الطابق العلوى ، حيث كانت تعيش عائلة انجليزية ،

كان يتناهى الى سمعه عزف بيانو ، وقد بعثت هذه الموسيقى فى نفسه رغائب غامضة مستحيلة .

وفجاة رن جرس الباب الخارجى فى صمت البيت . وسمع بيسونوف خفق خطوات نعال مدبرة البيت على الارض وصوتا نسائيا معقدا :

– اود ان اراه .

ثم توقفت خطوات خفيفة دؤوب عند الباب . ابتسم بيسونوف هازئا ، ودون ان يتحرك . انفتح الباب قبل ان يطرق ، ودخلت الغرفة فتاة هيفاء نحيلة اضاءها من الخلف ضوء الدهليز ، كانت تضع على راسها قبعة كبيرة غرزت فيها زهور بيضاء نائلة .

توقفت وسط الغرفة ، وهى لا تميز شيئا من الضوء ، وحين نهض بيسونوف من الاريكة صامتا ، تراجعت قليلا ، الا انها هزت راسها بعزيمة ، وقالت بنفس النبرة العالية :

– اتيت اليك فى امر مهم جدا .

تقدم بيسونوف من المكتب ، واضاء المصباح . تنورت ظليلة المصباح الزرقاء بين الكتب والمخطوطات ، وملات الغرفة كلها بضوء خافت هادئ .

– ما الذى استطيع ان افعله لك ؟

قال الكسى الكسييفيتش ذلك ، وهو يشير للقادمة الى مقعد ، وجلس هو على كرسى مكتبه بهدوء ، واضعا يديه على مرفقى الكرسى . كان وجهه شديد الشحوب ، وتحت جفنيه ازرقاق . رفع عينيه الى زائرته على مهل ، وجفل ، وارتجفت اصابعه ، وقال بخافت الصوت :

– داريا دميتريفنا ، لم اعرفك فى اللحظة الاولى .

جلست داشا على المقعد بنفس الحزم الذى دخلت به ، ووضعت على ركبتيها يديها المقفزتين بقفازين من جلد الحمل ، وقطبت حاجبيها ؛

– انا سعيد فى زيارتك ، يا داريا دميتريفنا . انها هدية كبيرة جدا .

قالت داشا دون ان تسمعه :

– لا تتصور ، ارجوك ، انني من المعجبات بك . ان بعض قصائدك تعجبنى ، وبعضها الآخر لا يعجبنى ، انا لا افهمها ، ولا احبها ابدا . وانا لم اجىء مطلقا لاتحدث عن الاشعار . . . بل جئت لانك قد عذبتنى .

وخفضت راسها كثيرا ، فلاحظ بيسونوف ان عنقها قد احمر ، وكذلك معصماها ما بين نهاية القفازين وكمى الثوب الاسود . لزم بيسونوف الصمت ، ولم يبد حراكا .

– وبالطبع ان ذلك الامر لا يعنيك . وكم اود انا ايضا ان لا يعنينى ، ولكننى اضطر الى ان اعانى ، كما ترى ، لحظات مؤلمة جدا . . .

ورفعت راسها بسرعة ، وحدقت فى عينيه بعينيها الصارمتين الصافيتين . فاسبل بيسونوف جفنيه ببطء .

– لقد ولجت علىّ كالمرض . انا دائما اجد نفسى افكر فيك وذلك ، فى آخر الأمر ، فوق مستوى طاقتى . كان من الافضل ان اجئ ، واقول لك بصراحة . واليوم قد وطدت عزمى على ذلك . وها انا قد جئت لاعلن لك عن حبى . . .

وارتعشت شفتاها ، واسرعت فاشاحت بوجهها ، وراحت تنظر الى الجدار ، حيث علق قناع بطرس الاول مضاء من الاسفل بجفنيه المطبقين وبابتسامة ترف على فمه المطبق ، وكان محبوبا لدى جميع الشعراء فى ذلك الحين . وفى الطابق العلوى كانت عائلة الكاهن الانجليزى تغنى رباعية : «نموت» . «لا ، نطير» . «فى السماء البلورية» . «فى الفرح الخالد المخلد» .

وتكلمت داشا بسرعة وحرارة :

– وان اخذت تؤكد لى بانك تحمل مشاعر ما نحوى فاننى ساغادر على التو . انك لا تستطيع حتى ان تضمر لى الاحترام ، هذا شىء واضح . فان النساء لا يتصرفن تصرفى هذا . ولكننى لا اريد شيئا ، ولا اطلب شيئا . كنت اريد فقط ان اقول اننى احبك حبا مبرحا وعنيفا جدا . . . وقد هد هذا الحب كيانى . . . ولم يبق حتى على كبريائى . . .

وقالت لنفسها : «والآن جميل لو انهض واحيى بهزة ابينة من راسى ، واخرج» . الا انها ظلت جالسة تحدق فى القناع الباسم .

وتملكها تعب طاغ يشلها حتى عن رفع يدها ، واحست فى تلك اللحظة بكل جسمها ، وبوقره ودفئه . وقالت فى سرها ، وكانها فى حلم : «اجب ، اجب الآن» . غطى بيسونوف وجهه بكفه ، واخذ يتحدث بصوت خافت مكتوم كما يتحدثون فى الكنيسة .

— لا استطيع الا ان اشكرك بكل روحى على هذا الشعور . ان مثل هذه اللحظات ، مثل هذا الشذى الذى غمرتنى به ، لا ينسى ابدا . . .

قالت داشا من خلال اسنانها :

— لا يراد منك ان تتذكرها .

صمت بيسونوف ، ونهض ، وابتعد ساندا ظهره على خزانة الكتب .

— لا يسعنى الا ان انحنى لك اجلالا ، يا داريا دميتريفنا . انا لا استحق ان اصغى اليك . ولعلى لم العن نفسى من قبل ، مثلما العنها فى هذه اللحظة . لقد بددتها ، وبذرتها ، واعتصرت نفسى كلها . بم ارد عليك ؟ ادعوك الى فندق خارج المدينة ؟ ساكون نزيها معك ، يا داريا دميتريفنا . ليس لى ما احب به . قبل بضعة اعوام كنت واثقا من اننى ما ازال قادرا على ان انهل من الشباب الابدى ، وما كنت لا سمح لك بان تغادرينى .

احست داشا ، وكانه يغرز فيها ابرا . فقد كان فى كلماته عذاب مستطيل . . .

— الآن ابدد الشراب الغالى ليس الا . ولا بد انك تدركين ما يكلفنى ذلك . ان امد يدى واتناوله . . .

همست داشا على عجل :

— لا ، لا .

— بلى . وانت تعرفين ذلك . ليس هناك اجلى من اثم التبذير . والتبديد حتمى . وهذا ما جئت الى من اجله . من اجل تبديد كاس العفاف . . . وقد قدمتها لى . . .

وتقلص عينيه ببطء . نظرت داشا الى وجهه مرعوبة مكتومة الانفاس .

— اسمحى لى بان اكون صريحا معك ، يا داريا دميتريفنا . انت شديدة الشبه باختك ، حتى من الوهلة الاولى . . .

صرخت داشا :

— ماذا ؟ ماذا قلت ؟

ووثبت من المقعد ، وتوقفت امامه . لم يدرك بيسونوف انفعالها ، ولم يحسن تأويله . شعر بانه فاقد صوابه لا محالة . استنشق منخراه طيب عطرها ، وتلك الرائحة غير المحسوسة تقريبا ، والقاهرة فى الوقت ذاته ، رائحة بشرة انثى تختلف من شخص لآخر .

— هذا جنون . . . انا اعرف . . لا استطيع صبرا . . .

همس بذلك باحثا عن يدها . الا ان داشا انتزعت نفسها ، وركضت ، وعند العتبة نظرت بعينين وحشيتين ، واختفت . وصفقت الباب الخارجى بقوة . تقدم بيسونوف من مكتبه بخطوات بطيئة ، ونقر باظافره على علبة بلورية ، وتناول سيكارة . وبعد ذلك ضغط كفه على عينيه واحس بكل قوة خياله المخيفة بان الراهب الابيض المهيىء للمعركة الحاسمة قد بعث له هذه الفتاة العاطفية ، الرقيقة ، المغرية ، ليجذبه ، ويحوله ، وينقذه . الا انه واقع فى قبضة الراهب الاسود على نحو ميئوس منه ، ولا خلاص له الآن . فقد كان الجشع الذى لا يشبع والندم يحرقانه ببطء كسم يجرى فى دمه .

٨

— اهذا انت ، يا داشا ؟ ممكن ، ادخلى .

كانت يكاترينا دميتريفنا واقفة امام مرآة الصوان ، تشد عليها المشد . ابتسمت لداشا بسهوم ، وتابعت الدوران بجد واطئة البساط بنعليها الضيقين . كانت فى ملابسها الداخلية الرشيقة بالشرائط والمخرمات ، وذراعاها الجميلتان وكتفاها مبودرة ، وشعرها مصفف على شكل تاج فاخر . وعلى منضدة واطئة الى جانبها وضع قدح ماء حار ! وهنا وهناك مقصات للاظافر ومبارد ، واصابع احمر الشفاه وكحل الجفون ، وحقق البودرة . واليوم كان المساء بلا منهاج ، ويكاترينا دميتريفنا انشغلت «فى تنظيف ريشها» كما تعود اهل البيت ان يسموا ذلك .

قال وهى تشد جوربها :
– تصورى ان المشدات ذات الصفيحة المعدنية المستقيمة يبطل استعمالها الآن . انظرى الى هذا المشد الجديد من مدام ديوكليه . البطن اكثر تحررا بمقدار كبير ، بـــل وبارز بعض الشيء . ايعجبك هذا ؟

اجابت داشا : «لا ، لا يعجبنى» . وتوقفت عند الجوار ، ووضعت يديها وراء ظهرها . رفعت يكاترينا دميتربيفنا حاجبيها مندهشة .

– احقا لا يعجبك ؟ يا للاسف . ان لبسه مريح .
– ما هو المريح ، يا كاتيا ؟
– لعل المخرمات لا تعجبك ؟ يمكن استبدالها باخرى . عجيب ، على اية حال . لماذا لا يعجبك ؟

وادارت مرة اخرى جنبها الايمن ثم الايسر الى المرآة . قالت داشا :

– ارجوك ، اسالى غيرى هل تعجبه مشداتك .
– ولكن نيقولاى ايفانوفيتش لا يفهم شيئا فى هذا الامر .
– لا يخص الامر نيقولاى ايفانوفيتش ايضا .
– ما الخبر ، يا داشا ؟

بل وفغرت يكاترينا دميتربيفنا فاها اندهاشا . لاحظت الآن فقط ان داشا لا تكاد تتمالك نفسها ، وتتكلم من خلال اسنانها ، وعلى خديها بقع ملتهبة .

– يبدو لى ، يا كاتيا ، ان من الاحرى بك ان تكفى عـــن الدوران امام المرآة .
– ولكن ينبغى علىّ ان اكون فى مظهر لائق .
– لمن ؟
– ما هذا الذى تقولينه ! . .
– تكذبين .

وبعد ذلك لزمت كلتا الشقيقتين الصمت وقتا طويلا . رفعت يكاترينا دميتربيفنا من المقعد مبذلا من وبر الجمل له بطانة حريرية زرقاء ، وارتدته ، وربطت حزامه ببطء . راقبت داشا حركاتها باهتمام ، ثم قالت :

– اذهبى الى نيقولاى ايفانوفيتش ، واخبريه بكل شيء فى صدق .

ظلت يكاترينا دميتربيفنـــا واقفة تتحسس حزامها . وكان واضحا ان غصصا قد تصاعدت الى حلقومها عدة مرات ، فكانت تبلع ريقها وكانها تبتلع طعاما . وسالت بخفوت :

– داشا ، هل عرفت شيئا ؟
– كنت لتوى عند بيسونوف (وهنا نظرت يكاترينا دميتربيفنا بعينين غير مبصرتين ، وشحبت فجاة شحوبا مرعبا ، وهزت كتفيها) يمكنك ان تطمئنى ، لم يحصل معى شيء . لقد اعلن لى فى اللحظـة المناسبة . . .

رفعت داشا قدما ، ووضعت اخرى .

– منذ وقت طويل حدست انك . . . معه بالذات . . . الا ان ذلك كلـه مقرف جدا بحيث لا يصدق . . . لقد جبنت وكذبت . وانا لا استطيع ان اعيش فى هذه الوضاعة . . . اذهبى الى زوجك ، واخبريه بكل شيء .

ولم تستطع داشا ان تواصل كلامها ، فقد كانت شقيقتها تقف امامها مطاطاة الراس . وكانت داشا تنتظر كل شيء الا طاطاة الراس المستغفرة الطائعة هذه .

سالت كاتيا :

– هل اذهب الآن اليه ؟
– نعم ، هذه اللحظة . . . يجب ان تفهمى بنفسك . . .

ارسلت يكاترينا دميتربيفنا تنهيدة قصيرة ، وسارت نحو الباب ، وهناك ابطات خطاها ، وقالت :

– لا استطيع ، يا داشا . – الا ان داشا لزمت الصمت – حسنا ، ساخبره .

كان نيقولاى ايفانوفيتش يجلس فى غرفة الاستقبال يطالع ، وهو يحك لحيته بسكين عاجى ، مقالة اكوندين المنشورة فى العدد الجديد لمجلة «روسكيه زابسكى» («المذكرات الروسية») .

كانت المقالة مخصصة لذكرى وفاة باكونين . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يستمتع بها . وحين دخلت زوجته هتف :

– كاتيوشا ، اجلسى . واسمعى ماذا يكتب . هذه هـــى

الفقرة . . . «ان سحر هذا الرجل (يقصد باكونين) * لا يكمن في طراز تفكيره ولا في اخلاصه لقضيته في النهاية ، بل في الحماس الذى طبق افكاره في الحياة العملية ، والذى تشبعت به كل حركة من حركاته ، والمناقشات المساهرة مع برودون ** ،والشجاعة الذى تقحم بها لهيب النضال ، وحتى هذا العمل الجميل الذى صوب به ، وهو الرجل الخارجى ، مدافع المنتفضين النمساويين ، قبل ان يعرف جيدا ضد من ولأجل اى شيء يناضلون . ان حماس باكونين هو رمز لتلك القوة الجبارة التى تنزل بها الطبقات الجديدة الى حلبة النضال . ومهمة العصر الطالع عى تجسيد الافكار ، لا انتزاعها من تحت اكوام الحقائق الخاضعة لزخم الحياة الاعمى ، ولا سحبها الى عالم مثالى ، بل عملية عكسية هى امتلاك العالم المادى بعالم الافكار . ان الواقع هو كومة من الوقود ، والافكار شرارات . وهذان العالمان المنفصلان والمتعاديان يجب ان يتحدا في لهب الانقلاب العالمى . . .» فكرّى بذلك ، يا كاتيوشا . . . انه واضح كبياض على سواد : عاشت الثورة . مرحى ، يا اكوندين ! انه الواقع الذى نعيشه ، بلا افكار كبيرة ولا عواطف كبيرة . الحكومة منساقة بشيء واحد فقط : الخوف الجنونى على المستقبل . والمثقفون متهالكون على الطعام والشراب . ونحن نقضى اوقاتنا بالثرثرة ، ولا شيء غير الثرثرة ، يا كاتيوشا ، بينما نحن غائصون بالحماة الى آذاننا . والشعب يتعفن حيا . وروسيا جمعاء قد تآكلها السفلس والفودكا . روسيا متهرئة ، ستتحول الى ركام من نفخة واحدة . والعيش على هذا النحو غير ممكن . . . نحن نحتاج الى نوع من حرق النفس ، التطهير بالنار . . .

كان نيقولاى ايفانوفيتش يتكلم بصوت منفعل رخيم ، شاقا الهواء بالسكين ، وعيناه قد استدارتا . وقفت يكاترينا دميتريفنا

---

* باكونين ميخائيل الكسندروفيتش (١٨١٤-١٨٧٦) منظر الفوضوية وعدو لدود للماركسية . (المترجم) .

** برودون بيير جوزيف (١٨٠٩-١٨٦٥) . اشتراكى فوضوى فرنسى من البرجوازية الصغيرة (المترجم) .

على مقربة ممسكة بظهر مقعد . وحين فرغ من كلامه ، وعاد يشق صفحات المجلة بالسكين تقدمت منه زوجته ووضعت يدها على شعره :

— نيقولاى ، سيؤلمك كثيرا ما سأخبرك به الآن . اردت ان اخفيه ، ولكن اقتضى الامر ان اخبرك به . . .

اطلق نيقولاى ايفانوفيتش راسه من يدها ، وامعن النظر فيها .

— نعم ، انا مصغ ، يا كاتيا .

— انت تذكر انني قلت لك في ساعة غضب حين تخاصمنا ذات مرة بانك يجب الا تثق بى كثيرا . . . ولكنى عدت فنفيت ذلك .

— نعم ، اتذكر .

ووضع الملجة ، واستدار في مقعده استدارة كاملة . وتقلبت عيناه ذعرا وهى تلتقيان بنظرة كاتيا البسيطة المطمئنة .

— حسنا . . . لقد كذبت عليك آنذاك . . لم اكن مخلصة معك آنئذ . . .

غضّن وجهه بشكل يثير الرثاء ، محاولا ان يبتسم . وشعر بجفاف في حلقه . وحين لم يعد المضى في الصمت ممكنا ، قال بصوت لا رنة فيه :

— حسنا فعلت حين قلت لى . . . شكرا ، يا كاتيا . . .

عندئذ امسكت يده ، مستها بشفتيها ، وضغطتها على صدرها ، الا ان اليد انسلت منها ، ولم تعمد هى الى الاحتفاظ بها . وبعد ذلك قعدت يكاترينا دميتريفنا على البساط بهدوء ، ووضعت راسها على ذراع المقعد الجلدية وقالت :

— الا تريد ان افضى اليك باكثر من ذلك ؟

— لا ، اذهبى ، يا كاتيا .

نهضت ، وخرجت ، وعند باب غرفة الطعام اندفعت داشا اليها على غرة ، وتشبثت بها ، وعصرتها ، وهمست مقبلة شعرها ، وجيدها ، واذنيها :

— اعذرينى ، اعذرينى . . . انت رائعة ، مدهشة ! . . سمعت كل شيء . . . اتصفحين عنى ، يا كاتيا ، تعذريننى ؟ كاتيا ؟

تحررت يكاترينا دميترييفنا منها بحذر ، وتقدمت من المائدة ، وعدلت ثنية كانت على المفرش ، وقالت :

– نفذت امرك ، يا داشا .

– كاتيا ، اتصفحين عني يوما ما ؟

– كنت على حق ، يا داشا . فان ذلك افضل .

– لم اكن على حق فى شيء ! فعلت ذلك عن حقد . . . عن حقد . . . والآن ادرك ان ما من احد يجرؤ على ادانتك . لا يهم اننا جميعا نتعذب ، واننا سنتالم ، لكنك على حق ، وانا اشعر بانك على حق فى كل شيء . . . اعذريني ، يا كاتيا .

وسالت على خدى داشا دموع كبيرة كحبات الحمص . كانت تقف الى الخلف ، على بعد خطوة من شقيقتها ، وتتكلم بصوت عال :

– اذا لم تصفحى عنى ، فانني لا اريد ان اواصل الحياة .

التفتت يكاترينا دميترييفنا اليها بسرعة .

– ماذا تريدين منى ايضا ؟ انت تريدين ان يعود الصفاء والمودة الى كل شيء . . . ساقول لك اذن . . . لقد كذبت وكتمت لانه بذلك فقط كان من الممكن اطالة حياتى مع نيقولاى ايفانوفيتش قليلا . . . اما الآن ، فقد انتهى كل شيء . هل فهمت ؟ مضى زمن طويل وانا لا احب نيقولاى ايفانوفيتش ، ولا اخلص له . وانا لا اعرف ان كان يحبنى او لا يحبنى ، ولكن لا قرابة بيننا . هل فهمت ؟ اما انت فكالشرشر تخفين راسك تحت ابطك دائما لكيلا ترى الاشياء الفظيعة . بينما رايتها وعرفتها ، ولكننى عشت فى هذا القذر ، لاننى امراة ضعيفة . ورايت كيف تبتلعك هذه الحياة ، انت الأخرى . وقد حاولت ان اصونك ، ومنعت بيسونوف من زيارتنا . . . كان ذلك حتى قبل انه . . . ولكن لا اهمية لذلك . . . الآن انتهى كل شيء . . .

ورفعت يكاترينا دميترييفنا راسها فجاة ، مرهفة السمع . شعرت داشا بالبرودة تسرى فى ظهرها من الذعر . فقد ظهر نيقولاى ايفانوفيتش عند الباب خارجا بجنبه وراء الستارة . كان يخفى يديه وراء ظهره .

– بيسونوف ؟

سال ذلك هازا راسه بابتسام . ودخل غرفة الطعام .

لم تجب يكاترينا دميترييفنا . تبقع خداها ، ويبست عيناها ، وانطبق فمها .

– يبدو انك تظنين ، يا كاتيا ، ان حديثنا قد انتهى . انه ظن خاطىء .

وتابع يقول مبتسما :

– داشا ، اتركينا وحدنا ، ارجوك .

– لا ، لا اخرج .

وبقيت داشا الى جانب اختها .

– لا ، ستخرجين ، اذا طلبت منك ذلك .

– لا ، لن اخرج .

– فى هذه الحال ، سيتعين على ان اغادر البيت .

اجابت داشا ناظرة اليه نظرة ضارية :

– غادر .

احمر نيقولاى ايفانوفيتش ، ولكن فى اللحظة التالية عاد الى عينيه التعبير السابق – الجنون المرح .

– هذا افضل ، ابقى . المسالة على هذا النحو ، يا كاتيا . . . قبل برهة كنت جالسا فى المكان الذى تركتنى فيه ، واذا اردت الحق ، فاننى خلال بضع دقائق عانيت ما تصعب معاناته . . . وانتهيت الى استنتاج وهو ان علىّ ان اقتلك . . . نعم ، نعم .

حين سمعت داشا هذه الكلمات اسرعت فالتصقت بشقيقتها مطوقة اياها بذراعيها ، بينما راحت شفتا يكاترينا دميترييفنا ترتجفان ازدراء .

– انت فى هستيريا . . . انت بحاجة الى ان تتناول قطرات الناردين ، يا نيقولاى ايفانوفيتش . . .

– لا ، يا كاتيا ، فى هذه المرة ليست هستيريا . . .

صرخت يكاترينا دميترييفنا ودفعت داشا عنها ، واقتربت من نيقولاى ايفانوفيتش تماما صائحة :

– اذن ، افعل ما جئت من اجله . هيا ، افعل . ها انا اقول لك فى وجهك : انا لا احبك .

تراجع خطوة ، واخرج من وراء ظهره مسدسا «نسائيا» صغيرا ، ووضعه على الخوان ، ودس اطراف اصابعه فى فمه ، وعضها ، واستدار وسار نحو الباب . راقبته كاتيا ببصرها ، وسمعته يقول دون ان يلتفت :

– انا متالم . . . متالم . . .

عند ذاك اندفعت نحوه ، وامسكت كتفيه ، وادارت وجهه اليها :

– انت تكذب . . . تكذب . . وتكذب الآن ايضا . . .

غير انه هز راسه ، وخرج . جلست يكاترينا دميترييفنا عند المائدة .

– ذلك ، يا داشا ، مشهد من الفصل الثالث ، وفيه طلقة مسدس . سأتركه .

– الله معك . . . كاتيوشا .

– اتركه ، لا اريد ان اعيش بهذا الشكل . بعد خمسة اعوام سيدركنى الكِبَر ، ويفوت الاوان . لا اريد ان اعيش هكذا . . . قذارة !

وغطت وجهها بيديها ، وانزلته من بين مرفقيها المستندين الى المائدة . جلست داشا على مقربة منها ، وقبلتها من كتفيها قبلات سريعة حذرة . رفعت يكاترينا دميتريفنا راسها :

– اتظنين اننى لا اشفق عليه ؟ انا اشفق عليه دائما . ولكن تصورى ، اذا ذهبت اليه الآن ، فسيجرى بيننا حديث طويل ، زائف كليا . . . كان شيطانا يتدخل بيننا ، ويزيف . الحديث مع نيقولاى ايفانوفيتش مثل العزف على بيانو مختل . . . لا ، ساترك البيت . . . آه ، يا داشا ، داشا ، ليتك تعرفين اى شقاء اعانى ! . .

ومع ذلك فى آخر المساء ذهبت يكاترينا دميتريفنا الى زوجها فى مكتبه .

كان الحديث مع زوجها طويلا ، وقد تحدث كلاهما بصوت خافت ، وبشجى ، وحاولا ان يكونا نزيهين ، ولم يرحم احدهما الآخر ، ومع ذلك فقد شعر كلاهما بأنهما بهذا الحديث لم يتوصلا الى شىء ، ولم يتفاهما على شىء ، ولم يقترب احدهما من الآخر .

وبعد ان ترك نيقولاى ايفانوفيتش وحده لبث جالسا الى مكتبه حتى الفجر متاوها . وقد عرفت كاتيا فيما بعد انه فى خلال هذه الساعات فكر واستعرض كل حياته . وكانت نتيجة هذا رسالة مطولة الى زوجته ختمها بالآتى : «اجل ، يا كاتيا ، كلنا فى زقاق خلفى مسدود . فى الاعوام الخمسة الماضية لم اشعر بشعور قوى واحد ، ولم اقم بخطوة كبيرة واحدة . وحتى حبى لك وزواجنا مرا وكاتما فى عجالة عاجلة . كيان تافه نصف هستيرى ، تحت فعل مخدر مستمر . وهناك مخرجان : اما قتل نفسى ، واما تمزيق هذا الغشاء الروحى المُثقل على افكارى ، وعلى مشاعرى ، وعلى وعيى . ولست انا فى وضع اقوى فيه على ان افعل هذا او ذاك . . .»

وقد حدثت الكارثة العائلية بمباغتة شديدة ، وانهار العالم البيتى بسهولة يسيرة وبشكل كلى انصعقت داشا به ، ولم يخطر ببالها ان تفكر فى نفسها ، واهوائها كفتاة بدت لها تفاهة ، شبحا رهيبا على الحائط ، كذلك الذى كانت المربية تخيفها وكاتيا به فى الزمن البعيد .

كانت داشا تقترب عدة مرات فى اليوم من باب حجرة كاتيا ، وتنقر عليها باصبعها نقرا خفيفا فتجيبها كاتيا :

– عزيزتى داشا ، لو سمحت ان تتركينى وحدى ، ارجوك .

وفى تلك الايام كان على نيقولاى ايفانوفيتش ان يترافع فى المحكمة . فكان يخرج فى الصباح الباكر ، ويتناول فطوره وغداءه فى المطعم ، ويعود الى البيت ليلا . وقد هزت مرافعته القضاة وقاعة المحكمة كلها . كان يترافع مدافعا عن زويا ايفانوفنا زوجة موظف مصلحة الضرائب لادنيكوف التى ذبحت عشيقها الطالب شليبه ابن صاحب عقارات فى بطرسبورغ ، وقد جرى الحادث ليلا فى السرير فى بيت فى شارع غوروخوفايا . بكت النساء ، وضربت المتهمة زويا ايفانوفنا متكأ المقعد براسها ، وافرج عنها .

احاط جمع من النساء بنيقولاى ايفانوفيتش لدى خروجه من المحكمة شاحب الوجه غائر العينين ، والقين الزهور عليه ، وهتفن ، وقبلن يديه . اتجه نيقولاى ايفانوفيتش من المحكمة الى البيت ، وتحدث مع كاتيا فى ارتخاء نفسى تام .

وكانت يكاترينا دميتريفنا قد هيأت الحقائب للسفر ،

فنصحها مخلصا بان تسافر الى جنوب فرنسا ، واعطاها اثنى عشر الف روبل لسد نفقات الرحلة . وكان هو قد قرر اثناء الحديث معها ايضا ، ان يسلم القضايا الى مساعده ، ويسافر الى القرم للاستراحة والتروى .

وفى واقع الأمر لم يكن واضحا ولا محددا ما اذا كان فراقهما لفترة من الزمن ام الى الأبد ، ومن منهما يهجر الآخر ؟ فان هذين الامرين الحادين قد حجبهما لغب السفر بعناية .

ونسيا داشا . وقد خطرت على بال يكاترينا دميتريبفنا فى اللحظة الاخيرة فقط ، وكانت قد ارتدت بدلة السفر الرمادية ، وقبعة انيقة مبرقعة ، وبدت نحيلة ، حزينة ، رقيقة . وقع بصرها على داشا وهى جالسة على صندوق فى الرواق . كانت داشا تؤرجح ساقيها ، وتاكل خبزا ومربى لانهم نسوا ان يوصوا على غداء اليوم .

قالت يكاترينا دميتريبفنا ، وهى تقبلها من خلال البرقع :

— داشا ، يا حبيبتى . ماذا سيكون الأمر معك ؟ اترغبين فى السفر معى ؟

غير ان داشا قالت انها ستظل وحدها فى الشقة مع «المغولى العظيم» ، وانها ستؤدى الامتحانات ، وتسافر فى نهاية ايار الى ابيها لتقضى الصيف كله هناك .

٩

بقيت داشا وحدها فى البيت . الآن بدت لها الغرف الكبيرة غيرمريحة ، والاشياء فيها زائدة . وحتى اللوحات التكعيبية فى غرفة الجلوس فقدت برحيل سيد البيت وسيدته قدرتها على اثارة الرعب ، وبهت رواؤها ، وتدلت الستائر بثنيات ميتة . ورغم ان «المغولى العظيم» كانت تطوف الحجرات كل صباح صامتة كالشبح ، نافضة الغبار بمنفضة من ريش الديك فقد كان يبدو وكان غبارا آخر غير منظور يغطى البيت متزايدا فى كثافته .

كان من الممكن ان تقرا فى غرفة شقيقتها ، وكانما فى كتاب ، كل ما عاشت به يكاترينا دميتريبفنا . فى احد الاركان حمالة عليها مشروع لوحة — فتاة تضع اكليلا ابيض على راسها ، وعيناها تملآن نصف وجهها . كانت يكاترينا دميتريبفنا تتشبث بهذه

الحمالة كطريقة لتخلص نفسها باية وسيلة من الهرج المجنون حولها ، الا انها لم تصمد بالطبع . وهذه منضدة قديمة مملوءة بالاشياء غير الكاملة وقطع قماشية زاهية مبعثرة على غير نظام ، وكلها غير كاملة ومهملة ، وهى محاولة اخرى للهروب . ومثل هذه الفوضى تشيع فى خزانة الكتب ايضا ، والظاهر ان يدا قد بدات فى ترتيبها ثم اهملتها . وفى كل مكان كتب مرمية ، ومحشورة ، ومقطوعة نصف اوراقها . كتب عن رياضة اليوغا ، ومحاضرات مبسطة عن التصوف ، وقصائد وروايات ، الا كم من المحاولات والجهود الضائعة للبدء فى حياة طيبة ! وجدت داشا على منضدة الزينة مفكرة فضية الغلاف سجل فيها : «٢٤ قميصا داخليا ، ٨ حمالات صدر ، ٦ حمالات صدر مدنتلة . . . تذاكر لآل كرينسكى الى مسرحية «العم فانيا» . . .» ثم بخط كبير كخط طفل : «شراء كعكة تفاح لداشا» .

وتذكرت داشا ان كعكة التفاح هذه لم يكتب لها ان تشترى . ورثت لشقيقتها رثاء أسال دموعها . ان هذه الشقيقة العاطفية الطيبة الرهيفة الحس لتتحمل حياة كهذه كانت تتشبث بالاشياء والتوافه ، محاولة ان تثبت ، وتقى نفسها من التشتت والتحطم ، ولكن لم يسعفها شىء ولم يساعدها احد .

استيقظت داشا فى الصباح الباكر ، وجلست الى الكتب ، وادت الامتحانات ، فكانت متفوقة فى كل مادة تقريبا . كانت ترسل «المغولى العظيم» لترد على التلفون الذى كان يدق فى المكتب بلا انقطاع ، فكانت هذه تجيب جوابا واحدا لا يتغير «سافر السيد والسيدة ، والآنسة لا تستطيع ان تاتى لترد» .

كانت داشا تقضى اماسى بكاملها تضرب على البيانو . ولم تثر الموسيقى مشاعرها كما كانت تفعل من قبل ، ولم تجعلها تريد شيئا غير محدد ، ولم تجمد قلبها الحالم . الآن ، حين كانت تجلس وادعة رصينة امام دفتر النوتات مضاءة من الجانبين بشمعتين ، كانت وكانها تطهر نفسها بالاصوات المهيبة القوية التى كانت تملأ جنبات هذا البيت الخالى حتى آخر زاوية فيه .

واحيانا كانت يظهر وسط الموسيقى اعداء صغار — الذكريات غير مدعوة . فكانت داشا ترخى يديها ، وتتعبس . وعندئذ كان

يرين على البيت سكون مطبق حتى ليسمع هسيس الشمعة . وبعد ذلك ترسل داشا زفرة صاخبة ، ومن جديد تمس يداها المفاتيح الباردة بقوة ، فيتطاير الاعداء الصغار من الغرفة الكبيرة الى الدهليز المظلم ، وراء الدواليب والعلب الكارتونية ، مثل الغبار والاوراق اليابسة المتطايرة بالريح . . . لقد اختفت الى الأبد داشا التي دقت الجرس على باب بيسونوف ، وقالت لكاتيا المجردة من الحماية كلمات حانقة . ان تلك الفتاة الهوجاء كادت تجلب الكوارث . يا له من أمر عجيب ! وكان الحب كل شيء في هذه الدنيا ، رغم انه لم يكن هناك اي حب .

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة كانت داشا تغلق البيانو ، وتطفئ الشمعتين ، وتاوي الى فراشها . وكان كل ذلك يجري دون تردد ، وبجدية . وخلال تلك الفترة وطدت العزم على ان تبدا باقصى سرعة ممكنة حياة مستقلة – ان تكسب رزقها بنفسها ، وتضم كاتيا اليها .

ما كادت داشا تفرغ من الامتحانات في اواخر ايار حتى سافرت الى ابيها عن طريق الفولغا عبر مدينة ريبينسك . في المساء خرجت من القطار لتستقل على التو سفينة بيضاء ساطعة الاضاءة وسط الليل والماء الداكن ، وفكت امتعتها في المقصورة النظيفة ، وضفرت شعرها ، وفكرت في ان الحياة المستقلة تبدا بداية طيبة ، وابتسمت سعادة وقد وسدت راسها كوعها ، وغفت على عدعدة السفينة الوادعة .

وايقظتها خطوات ثقيلة وركض على ظهر السفينة . كان ضوء الشمس ينسكب عبر مضلع النافذة ، متماوجا على خشب المغسلة الماهوغاني شعاعات ضعيفة . وكانت الريح التي تلاعب الستارة الحريرية تفوح بشذى زهر العسل . فتحت داشا المضلع قليلا . كانت السفينة راسية على شاطئ قفر وقفت تحت جرفه الواطئ المنهار عربات محملة بصناديق من خشب الصنوبر . وكان مهر اصهب يترد عند حافة الماء وقد افرج قوائمه النحيلة ذات الركب السميكة . وعلى الجرف صوة منار تبرز على شكل صليب احمر .

قفزت داشا من السرير ، ووضعت حوض الاستحمام على الارض ، اشبعت الاسفنجة بالماء ، ثم عصرتها على نفسها ، وشعرت

بانتعاش ورهبة عظيمين حتى اخذت تضغط ركبتيها على بطنها ضاحكة . ثم ارتدت جوربين ابيضين وفستانا ابيض ، وقبعة بيضاء ، وكانت قد اعدت ذلك كله منذ المساء . وقد انسجم عليها كل شيء ، واذ شعرت داشا باستقلالها ، خرجت الى ظهر السفينة رصينة ، ولكنها طافحة بالسعادة .

كان اللالاء الخفيف لانعكاس اشعة الشمس يلمع على السفينة البيضاء كلها ، وكان النظر الى الماء يزغلل البصر ، فقد كان النهر يتلالأ ويومض . وعلى الشاطئ الآخر المرتفع يلوح برج جرس ابيض قديم مختف الى النصف بين اشجار البتولا .

وحين غادرت السفينة الشاطئ ، استدارت نصف استدارة ، وسارت نازلة مع مجرى النهر ، وبدت الضفتان وكانهما تندفعان نحوها . وكانت اسقف الاكواخ القشبية المعتمة تلوح هنا وهناك من وراء الاكمات ، وكانها تتداعى . وكانت السحب تتراكم في السماء مزرقة في اسافلها ، تلقي ظلالا بيضاء في اعماق النهر الزرقاء المصفرة .

جلست داشا في مقعد من الخوص المضفور ، واضعة ساقا على ساق ، مطوقة ركبتها ، وشعرت بان منعطفات النهر اللامعة ، والسحب وظلالها البيضاء ، والتلال باشجار البتولا ، والمروج ، وتيارات الهواء الفواحة تارة بعشب المستنقعات ، وتارة بجفاف الارض المحروثة والبرسيم العسلي ، والافسنتين تنفذ خلال كيانها ، ويمتلئ قلبها ببهجة هادئة .

اقترب رجل بطيء الخطى ، وتوقف عند الحاجز مديرا له جنبه ، وراح يتطلع اليها ، كما يبدو . نسيته داشا عدة مرات ، الا انه بقي واقفا في مكانه لا يريم . عندئذ عزمت عزما ثابتا على الا تلتفت اليه ، الا ان ما جبلت عليه من طبع ملتهب جدا جعلها لا تتحمل هذه المعاينة بهدوء اعصاب . تورد وجهها ، والتفتت بسرعة وغيظ . فاذا بها ترى تليغين يقف امامها ، ممسكا بعمود مترددا بين التقدم والحديث وبين الاختفاء . وجدت داشا نفسها تضحك فجاة ، فقد ذكرها بشيء مرح طيب على نحو غير محدد . كما ان ايفان ايليتش (تليغين) كله العريض المنكبين ، القوي ، الخجول ،

فى سترته البيضاء بدا وكأنه نتيجة ضرورية لكل هذه السكينـــة النهرية . مدت يدها له ، فقال تليغين :

— رايتك وانت تستقلين السفينة . فى الواقع نحن سافرنا سوية من بطرسبورغ فى عربة قطار واحـدة . ولكننى ترددت فى التقدم منك ، فقد كنت غارقة فى افكارك كثيرا . . . الا اضايقك ؟

— اجلس — وقدمت منه مقعدا من الخوص المضفور قائلة : انا مسافرة الى ابى ، وانت الى اين ؟

— انا ، اذا اردت الصراحـة ، حتى الآن لا اعرف الى اين . ساذهب فى المرحلة الاولى الى اقربائى فى كينيشما .

جلس تليغين الى جوارها ، وخلع قبعته . وانعقد حاجباه ، وظهرت غضون على جبهته . وراح ينظر بعينين متقلصتين الى الماء الذى كان يخرج من تحت السفينة مثل درب مقعر مزبد . كانـت طيور النورس باجنحتها الحادة تطير فوقه فى مؤخرة السفينـــة ، وتسقط عليه ، وتقلع مرسلة صيحات جشاء شاكية ، وبعد ان تتخلف بعيدا ، تدور ، وتتخاصم على كسرة خبز طائفة .

— انه يوم جميل ، يا داريا دميترييفنا .

— انه يوم رائع ، يا ايفان ايليتش ، يوم رائـع ! فى جلستى هذه فكرت باننى قد انتزعت نفسى من الجحيم الى الحرية ! انـت تذكر حديثنا فى الشارع ؟

— اتذكره الى آخر كلمة ، يا داريا دميترييفنا .

— بعد ذلك الحديث حصلت اشياء اعاذنا الله منها ! ساحدثك عنها ذات يوم . — وهزت راسها مستغرقة الفكر . — كنت الانسان الوحيد الذى لم يفقد صوابه فى بطرسبورغ ، حسب ما اتصور . — وهنا ابتسمت ، ووضعت يدها على كم سترته . رف جفنا ايفـان ايليتش رهبة ، وانطبقت شفتاه . وتابعت داشا قولها : انا شديدة الثقة بك ، يا ايفان ايليتش . انت قوى جدا ؟ صحيح ؟

— هذا ظنك .

— وانسان موثوق .

واحست داشا بان كل افكارها طيبة واضحة اريحية ، مثلما ان افكار ايفان ايليتش طيبـة ، صادقـة ، وقويـة . وكان يسرها بشكل خاص ان تقول كلامها ليعبر بالذات عن هذه الدفقات المشرقة

من المشاعر القريبة الى فؤادها ، وقالت : اتصور ، يا ايفـــان ايليتش ، لو انك احببت فانك ستحب برجولة وثقة ، وانك اذا اردت شيئا ، فلن تحيد عنه .

ادخل ايفان ايليتش يده فى جيبه بحركة بطيئـــة ، دون ان يرد عليها ، واخرج قطعة خبز ، واخذ يلقيها الى الطيور . اندفع سرب من طيور النورس البيضاء يلتقط فتات الخبز وهو تتصايح مستثارة . نهضت داشا وايفان ايليتش ، واتجها نحو حاجـــز السفينة . قالت داشا :

— ارم لهذا الطائر ، فانه يبدو شديد الجوع .

قذف تليغين بقية قطعة الخبز بعيدا فى الهواء . انزلق نورس ضخـــم كبير الراس على جناحين ســاكنين مسطحين كسكينين ، وانقض ، ولكنه اخطأ هدفه ، وفى الحال انطلق زهاء عشرة مـــن الطيور على قطعة الخبز الساقطة حتى سطح الماء المطرطش بزبد داكن من اسفل السفينة . قالت داشا :

— اتعرف اية امرأة اود ان اكون ؟ سانهى الدراسة فى العام المقبل ، وابدأ بكسب فلوس كثيرة ، وآخذ كاتيا لتعيش معى . سترى ، يا ايفان ايليتش .

غضّن تليغين وجهه حين كانت تتكلم مجاهدا ليضبط نفسه ، واخيرا فتح فمه ، عن صف قوى نظيف من الاسنان الكبيرة وضحك ضحكا مرحا حتى تندّت رموش عينيه . احمر وجه داشا ، الا ان حنكها ارتعش ، وضحكت ، دون ارادتها ، كما ضحك تليغين ، دون ان تدرى سببا لذلك .

واخيرا قال تليغين :

— انت رائعة ، يا داريا دميترييفنا . . . كنت اخاف منـــك خوف الموت . . . ولكنك رائعة تماما !

فقالت داشا غاضبة :

— هكذا اذن . . . تعال نتناول فطورنا .

— بكل سرور .

طلب ايفان ايليتش اخراج طاولة الى سطح السفينة ، واخذ يحلق بسهوم ذقنه الحليق حلاقة ممتازة ، وهو ينظر فى قائمـــة الطعام .

– ما رأيك ، يا داريا دميتريفنا ، فى زجاجة من النبيذ الأبيض الخفيف ؟

– ساشرب قليلا بسرور .

– أبيض ام احمر ؟

اجابت داشا محاكية لهجته الجدية :

– هذا او ذاك .

– فى هذه الحال لنشرب نبيذا فوارا .

مرت السفينة بضفة تلالية فيها شرائط خضراء لامعة من القمح ، وزرقاء خضراء من الجودار ، ووردية من الحنطة السوداء المزهرة . وراء منعطف النهر ، كانت الشمس تنعكس على زجاج نوافذ بيوت منخفضة ذات سقوف من القش قائمة على اكوام من الروث فوق مرتفع صلصالى . وابعد من ذلك لاح عدد من صلبان مقبرة القرية ، وطاحونة صغيرة كاللعبة ذات ستة اذرع مهدمة الجانب . وكان جمع من الاطفال يركض على طول الضفة المرتفعة من وراء السفينة ، قاذفا بحجارة لم تكن تصل حتى الى الماء . واستدارت السفينة ، وظهرت على الضفة الخالية أجمة منخفضة تحوم الغربان فوقها .

هبت نسمة دافئة تحت مفرش المائدة ، وفستان داشا . وبدا النبيذ الذهبى فى القدحين الكبيرين المشلعين هبة آلهية . قالت داشا انها تغبط ايفان ايليتش لأن له عمله ، ووثوقه فى الحياة ، بينما سيكون عليها ان تقضى عاما ونصف عام منكبة على الكتب ، فضلا عن تعاسة اخرى تقع من نصيبها ، وهى كونها خلقت امراة . ضحك تليغين ، واجاب :

– ولكننى طردت من العمل فى المصنع .

– احقا ؟

– طلبوا منى ان اتخلى عن العمل خلال اربع وعشرين ساعة ، ولو لا ذاك لما كنت على هذه السفينة الآن . احقا لم تسمعى اى احداث حدثت عندنا ؟

– لا ، لا .

– لقد انفصلت ببساطة ، نعم ... – وصمت واضعا كوعيه على الخوان . – انظرى الى اى حد من الحماقة والهرجلة تجرى

الامور عندنا . شىء لا يصدقه العقل . والشيطان يعلم اى صيت سيكون لنا ، نحن الروس . شىء معيب ومخز . فكرى فى الأمر : شعب موهوب ، وبلاد فى غاية الثراء . ولكن ماذا ترى العين مقابل ذلك ؟ ترى مجموعة من الكتبة المتغطرسين . استعضنا عن الحياة بورق وحبر . لا يمكنك ان تتصورى كم نستهلك من الورق والحبر . منذ ان بدانا هذه البيروقراطية فى عهد بطرس الاول ونحن لا نستطيع ان نتوقف حتى الآن . ولكن الحبر قد يكون شيئا ميتا . فتصورى ذلك .

ابعد ايفان ايليتش قدح النبيذ ، واشعل سيكارة . وكان من الواضح انه لم يكن مريحا له الاستمرار فى مثل هذا الحديث .

– لا داعى الى اثارة الذكرى . يجب ان نفترض بأن الامور عندنا ايضا ستكون حسنة يوما ما ، ليس اسوا مما لدى الآخرين .

قضت داشا وايفان ايليتش هذا النهار كله على سطح السفينة . كان من الممكن ان يبدو حديثهما الى المستمع الغريب ضربا من الهراء ، ولكن ذلك راجع الى انهما كانا يتحدثان حديث شفرة . فقد كانت الكلمات ، واكثرها اعتيادية ، تتخذ مدلولا مزدوجا بشكل غامض غير مفهوم ، فاذا اشارت داشا بعينيها الى فتاة ممتلئة الجسم قليلا ينتفخ وراء ظهرها لفاعها الليلكى ، والى مساعد القبطان الثانى الذى كان يسير الى جانبها مركزا كل انتباهه وقالت : «انظر ، يا ايفان ايليتش يبدو ان امورهما ماشية» . فمن الضرورى ان يفهم من ذلك : «لو حصل بيننا شىء ما ، فلن يكون بهذا الشكل» . وما كان فى مقدور احد منهما ان يتذكر باخلاص ما قاله ، الا انه بدا لايفان ايليتش ان داشا اذكى منه بكثير ، وارق وادق فى ملاحظتها ، بينما بدا لداشا ان ايفان ايليتش اطيب قلبا منها ، وافضل ، واذكى بالف مرة .

جمعت داشا شجاعتها اكثر من مرة لتحدثه عن بيسونوف ، الا انها كانت تحجم عن ذلك . كانت الشمس تدفىء ركبتيها ، والنسيم يمس وجنتها ، وكتفيها ، وجيدها ، مثل اصبع حنون مدورة . وفكرت داشا مع نفسها : «لا ، ساحدثه غدا ، سيسقط مطر ، وساحدثه» .

وفى آخر النهار عرفت داشا – وكانت تهوى مراقبة الناس ،

ولها عين مدققة مثل سائر النساء – كل شيء تقريبا عن جميع المسافرين على السفينة ، الأمر الذى بدا لايفان ايليتش اعجوبة تقريبا .

ولسبب ما قررت داشا ان مدير جامعة بطرسبورغ – وهو رجل عبوس يضع نظارة شمسية ويرتدى لباس «الانفرناسية» – غشاش كبير فى الورق على ظهور السفن . ورغم ان ايفان ايليتش كان يعرف ان هذا الرجل هو عميد الجامعة بالفعل ، الا ان الشك اخذ يساوره الآن فى ان يكون غشاشا فى الورق فعلا . وبشكل عام لقد اهتز تصور ايفان ايليتش للواقع خلال هذا اليوم ، احس بما يشبه دوار الراس ، او حلم اليقظة ، وكان عاجزا تقريبا عن ان يتحمل من حين لآخر موجة عارمة من الحب لكل ما يرى ويسمع ، ففكر بان من الممتع حقا لو يلقى نفسه فى الماء ، مثلا ، لينقذ تلك الفتاة المقصوصة الشعر ، لو انها سقطت من فوق الحاجز . فليتها تسقط !

وفى منتصف الليل داهم داشا نعاس مفاجىء لذيذ ما كادت تصل معه الى مقصورتها ، وعند الباب قالت مودعة ، وهى تتثاءب :

– ليلة سعيدة . عاين وراقب غشاش الورق ذاك .

اتجه ايفان ايليتش الى الدرجة الاولى من ظهر السفينة فى الحال ، حيث كان عميد الجامعة المؤرق يقرا مؤلفات ديماس الأب . نظر ايفان ايليتش اليه بعض الوقت ، وفكر مع نفسه بانه رجل رائع ، رغم انه غشاش ، ثم عاد الى الممر الساطع الاضاءة ، الذى كان يفوح بزيت المحركات ، والخشب المطلى باللاك ، وبعطر داشا ، ومر ببابها على اطراف اصابعه ، ودخل مقصورته ، واستلقى فى سريره على ظهره ، واغمض عينيه ، واحس بأن كيانه كله منصعق ، وبانه مفعم كلية بالاصوات والروائح ، وحرارة الشمس ، وبفرح حاد ، كالألم فى القلب .

ايقظه صفير السفينة بعد الساعة السادسة صباحا . كانوا يقتربون من كينيشما . ارتدى ايفان ايليتش ملابسه بسرعة ، ونظر فى الممشى . كانت الابواب كلها مغلقة ، والجميع ما زالوا نياما . وداشا نائمة ايضا . وفكر ايفان ايليتش : «يجب ان انزل هنا ، والا فسيكون سلوكى غريبا» ، وخرج الى ظهر السفينة ،

ناظرا الى كينيشما هذه التى لاحت الى الانظار فى وقت غير مناسب كليا ، قابعة على ضفة عالية شديدة الانحدار ، بسلالمها الخشبية ، وبيوتها الخشبية المتراكمة كيفما اتفق ، واشجار الزيزفون الخضراء الصفراء الساطعة فى شمس الصباح فى منتزه البلدية ، وبغمامة الغبار الساكنة المعلقة فوق العربات الجارية على منحدر المدينة . ظهر ملاح يحمل حقيبة تليغين ، وهو يطأ بقوة ظهر السفينة بكعبى قدميه الحافيتين . قال له ايفان ايليتش بلهجة منفعلة :

– لا ، لا . غيّرت فكري . ارجعها الى مكانها . قررت ان اسافر الى نيجنى . ليس لى حاجة للنزول فى كينيشما . ضعها هنا ، تحت السرير . شكرا لك ، يا عزيزى .

لبث ايفان ايليتش جالسا فى المقصورة زهاء ثلاث ساعات ، مفكرا بالطريقة التى سيفسر فيها لداشا تصرفه المبتذل والمتطفل ، حسب رايه ، وبدا واضحا ان التفسير غير ممكن : ليس بوسعه ان يلجا الى الكذب ، او يقول الحقيقة .

وبعد الساعة العاشرة خرج الى ظهر السفينة نادما ، كارها لنفسه مزدريا لها ، وقد وضع يديه وراء ظهره ، وسار فى مشية متمالقة ، وعلا وجهه تعبير زائف ، وباختصار ، صورة للابتذال . الا ان القلق اخذ يساوره بعد ان دار دورة فى السفينة ، ولم يقع بصره على داشا . لم تكن داشا موجودة فى اى مكان . واحس ايفان ايليتش بجفاف فى حلقه . الظاهر ان شيئا ما قد حدث . وفجأة وقع عليها وقوعا . كانت جالسة على الكرسى المضفور فى المكان الذى جلست فيه امس ، بادية الحزن ساكنة . وكانت تضع على ركبتيها كتابا وكمثرى . ادارت راسها الى ايفان ايليتش ببطء ، واتسعت عيناها ، وكأنما ذلك عن فزع ، وامتلأتا ببهجة ، وعلا خديها تورد ، وتدحرجت الكمثرى من ركبتيها . قالت خافضة الصوت :

– انت هنا ؟ لم تنزل ؟

ابتلع ايفان ايليتش غصته ، وجلس الى جوارها ، وقال بصوت لا رنة فيه :

– لا اعرف كيف ستنظرين الى تصرفى ، ولكننى لم انزل فى كينيشما عن عمد .
– كيف سانظر الى تصرفك ؟ لن اقول ذلك .
وضحكت داشا ، وفجأة وضعت يدها فى كفه ببساطة وحنان ، حتى ان راسه عاد يدور طوال اليوم اشد مما دار يوم امس .

١٠

وفى حقيقة الأمر حدث فى المصنع الميكانيكى ما يلى : فى مساء ماطر سرت فى سمائه الفسفورية غيوم تسوقهـا الريح ، ظهر رجل غريب يرتدى ممطرا مطاطيا مرفوع القلنسوة يسير بين جمع من العمـال العائدين الى بيوتهـم بعد العمل ، فى زقاق ضيق نتن موحل بوحل الفحم والحديد الخاص الذى يكثر عادة فى الشوارع الملتصقة بالمصانع الكبيرة .
سار بعض الوقت فى اثر الجميع ، ثم توقـف وراح يوزع المنشورات ذات اليمين وذات الشمال ، قائلا بصوت خفيض :
– من اللجنة المركزية . . . ، اقراوه ، يا رفاق .
تناول العمال المنشورات اثناء سيرهم ، واخفوها فى جيوبهم وتحت قبعاتهم .
وحين وزع الرجل ذو الممطر المطاطى جميع المنشورات تقريبا ظهر احد الحراس بالقرب منه شاقا طريقه بكتفه خلال حشد العمال بقوة ، وقـال على عجل «انتظـر» وامسك ممطره من الخلف . الا ان الرجل ، وهو المبلل الزلق المتمسَّك ، خلص نفسـه ، وركض . وصدرت صفارة حادة ، ردت عليها صفارة اخرى من بعيد . وسرت دمدمة خافتة بين الجمع المتضائل . الا ان المهمة قد تمت ، واختفى الرجل .
وبعد يوم او يومين من الحادث ، لم تبدا ورشة البرادة العمل منذ الصباح ، مفاجئة بذلك ادارة المصنع الميكانيكى ، وتقدمـت مطاليب ليست خطيرة جدا ، ولكنها حازمة .
وسرت عبارات غير محددة ، وملاحظات وكلمات غاضبـة متطايرة كالشرر فى مبانى المصنع الطويلة المتسرب اليها ضـوء ضعيف من خلال النوافذ القذرة والسقوف الزجاجية المسخمة ، وراح

العمال الواقفون عند المخارط ينظرون نظرات غريبة الى رؤسائهم وهم يمرون بهم ، وينتظرون بتاثر مكظوم التعليمات اللاحقة .
وبينما كان الاوسطة الأقدم بافلوف ، وهو واش ، يـدور قرب مكبس يشتغل على القوة المائية ، سقطت مصادفة سبيكـة حمراء متقدة على قدمه وسحقتها سحقا ، فارسل صرخات وحشية . وعندئذ شاع فى المصنع ان شخصا قد قُتِل . وفى الساعة التاسعة اندفعت سيارة الليموزين الهائلة العائدة لكبير المهندسين داخلة فناء المصنع كالصاعقة .
وصل ايفان ايليتش تليغين فى الساعة المعتادة الى ورشة الصهر ، وهى عبارة عن مبنى هائل دائرى ارضها طينية ، وافرانها مبنية عند الجدران ، وقد تحطم الزجاج فى بعض نوافذها ، وتدلت سلاسل من اذرع الرافعات . وتوقف تليغين عند الباب ، وحرك كتفيه من برودة الصباح ، وصافح الاوسطة بونكو بمرح ، وكان قد تقدم منه .
كانت ورشة الصهر قد تلقت طلبا مستعجلا لصنع قواعد متحركة للآلات ، فاخذ ايفان ايليتش يتحدث مع بونكو عن العمل القادم متشاورا معه باستغراق وبطريقة جدية حول اشياء ليست موضع شك عند اى واحد منهما . وقد ادت هذه الحيلة الصغيرة الى ان يخرج بونكو مطمئنا من المحاورة تماما ، وقـد ارخى اعتزازه بنفسه لانه قد بدا العمل فى ورشة الصهر منذ خمسة عشر عاما كعامل بسيط ، وهو الآن اوسطة اقدم يعتز بمعارفه وخبرته اعتزازا كبيرا جدا ، بينما كان تليغين موقنـا بان بونكو اذا اطمان الى عمل فان هذا العمل سيسير سيرا سريعا وجيدا .
تجول ايفان ايليتش فى ورشة الصهر متحدثا الى عمال الصهر والقولبة بلهجة رفاقية شبه مازحة كانت تفصح اكبر الافصاح عن العلاقات المتبادلة بينه وبين كل واحد منهم . وكانه يقول له : انا وانت نقوم بعمل واحد ، فمعنى ذلك اننا رفيقان . الا اننى مهندس وانت عامل ، اذن ، فنحن فى الواقع عدوان ، ولكن ما دام احدنا يحترم الآخر فلن يبقى امامنا الا ان ينكت الواحد على الآخر .
اتجهت رافعة الى احد الصهاريج مخففة سلسلتها المصلصلة . واستقبلهـا عاملان ضليعان ضخمان هما فيليب شوبين ذو الشعر

الذى وخطه الشيب ، والنظارة المدورة ، وايفان اوريشنيكـوف القوى ذو الجسم الرياضى واللحية الجعداء والشعر الفاتح اللـون المشدود بنطاق ، والعينين الزرقاوين . واخذ الاول يزيح بالعتلة الغطاء الحجرى عن واجهة الفرن ، بينما شد الثانى كلابة الرافعة الى البوتقة الطويلة المبيضة من الحرارة . قرقعت السلسلـة ، وتارجحت البوتقة ، وطافت فى الهواء الى وسط الورشة موشوشة ، متوهجة ، نائرة قشرة من الخبث .

قال اوريشنيكوف :

– قف . اخفض .

ومرة اخرى قعقعت الرافعة ، ونزلت البوتقة ، وانصب على الارض سيل باهر اللون من البرنز ، قاذفا بنجيمات خضر متفجرة ، مضيئا سقف الورشة المقوس بوهج برتقالى . وفاحت رائحـة النحاس الحلوة المقززة ، ورائحة احتراقه .

وفى اثناء ذلك انفتح مصراعا الباب المزدوج المؤدى الى المبنى المجاور ، ودخل الى ورشة الصهر عامل شاب بخطى سريعة حازمة وقد ارتسم الشحوب والغيظ على وجهه . وصاح بصوت حاد خشن :

– اوقفوا العمل . . . اخرجوا !

وحدج تليغين بنظرة جانبية ، وقال :

– هل سمعتمونى ، ام لا ؟

اجاب اوريشنيكوف بهدوء :

– سمعنا ، سمعنا . لا تصرخ – ورفع راسه الى الرافعة ، وقال : دميترى ، لا تنم ، تحرك .

وقال العامل حاشرا يديه فى جيبيه :

– حسنا ، اذا سمعتمونى فافعلوا ما ترونه صائبا . لن نطلب اليكم مرة اخرى .

واستدار بحركة شديدة ، وخرج .

كان ايفان ايليتش قد جلس الى قطعة مصبوبة حديثا وراح يكشط فى عناية التراب بقطعة سلك . اما بوتكو الجالس على مقعد عال الى منضدة عالية عند الباب فقد اخذ يحك بسرعة لحيته الشيباء الصغيرة الشبيهة بلحية العنز . وقال مديرا عينيه :

– اترك العمل سواء اردت ام لـم تـرد . ولكن هل يفكر هؤلاء بم ستطعـم الاطفـال اذا طردوك من المصنـع ، ام تراهم لا يفكرون ؟

اجاب اوريشنيكوف بصوت كثيف :

– الافضل ألا تمس هذه الأمور ، يا فاسيلى ستيبانوفيتش .

– وكيف لا امسها ؟

– لأن ذلك أمر يخصنا . فانت ستلجأ الى الرؤساء وتحابيهم . فما عليك الا ان تصمت .

سعال تليغين اخيرا ، ونظر الى اوريشنيكوف :

– ما سبب الاضراب ؟ ما هى المطاليب ؟

اشاح اوريشنيكوف بصره . فاجاب بوتكو :

– اضرب عمال ورشة البرادة . فى الاسبوع الماضى حوّل ستون من مخارطهـم الى العمل بالقطعة على سبيل التجربـة . وفى النتيجة يظهر انهم لا يكسبون ما كانوا يكسبونه من قبل ، ويتعين عليهم ان يشتغلوا اوقاتا اضافية . وها هم قد علقوا قائمة كاملة عند الباب فى المبنى السادس بمطاليب مختلفة ، وليس كبيرة .

وغمس الريشة فى الدواة غاضبا ، وشرع فى تسجيل القائمة . وضع تليغين يديه وراء ظهره ، وسار خلال الافران ، ثم قال ، وهو يعاين من خلال فتحة مستديرة يتراقص وراءها البرنز المذاب متلويا كالافاعى فى النار البيضاء التى لا تحتمل :

– يا اوريشنيكوف ، اظن ان هذه القطعة ظلت هناك وقتا اطول مما يجب ، اليس كذلك ؟

خلع اوريشنيكوف مئزره الجلدى دون ان يجيب ، وعلقه على مسمار ، ولبس قبعة من جلد الخروف ، وسترة طويلة حسنة النوع ، وقال بصوت عميق كثيف تردد فى الورشة كلها :

– اوقفوا العمل ، يا رفاق . وتعالوا الى المبنى السادس ، الباب الاوسط .

وسار نحو باب الخروج . القى العمال الادوات صامتين . بعضهم نزل من الرافعة ، والبعض الآخر طلع من حفرة فى الارض ، وسار الجميع فى حشد وراء اوريشنيكوف . وفجأة حدث شىء عند الباب . ارتفع صوت جنونى متحول الى زعيق :

— تكتب ؟ ... تكتب ، يا ابن الكلبة ؟ سجل اسمى ، واخبر الرؤساء ! . .

وكان ذلك صوت عامل القولبة الكسى نوسوف يصرخ ببونكو . وكان وجهه المتعب غير المحلوق منذ فترة طويلة بعينيه الكدرتين الغائرتين يختلج ويتلوى ، وقد انتفخ ودج فى رقبته النحيلة ، وكان ، يضرب حافة المنضدة بجمع يده الأسود صارخا :

— مصاصو دماء ! . . معذبون ! . . سنجد لكم ما يسكتكم ايضا ! . .

عند ذاك مسك اوريشنيكوف بنوسوف من جذعه ، وابعده من المنضدة العالية بيسر ، وسار به الى الباب . فهدأ هذا حالا ، وفرغ الورشة .

وعند الظهر كان المصنع كله مضربا . وسرت شائعات بان ثمة قلاقل فى مصنعى اوبوخوفسكى ونيفسكى للآلات . وكان العمال يقفون فى باحة المصنع بجماعات كبيرة منتظرين نتيجة مفاوضات الادارة مع لجنة الاضراب .

وكان الاجتماع معقودا فى دائرة المصنع . وقد فزعت الادارة ، وقامت بتنازلات ، ولم تبق الا عقبة واحدة ، هى مطلب العمال فى فتح الباب الموجود فى السياج المصنوع من الالواح الخشبية لئلا يضطروا الى الدوران وشق طريقهم خلال الوحل مسافة ربع فرسخ . ولم يكن هذا الباب يهم احدا فى الحقيقة ، الا ان الامر تحول الى نوع من الاعتداد لكل من الطرفين ، واصرت الادارة فجاة على رايها ، وبدات نقاشات طويلة . وفى تلك الاثناء جاء فى التلفون امر من وزارة الداخلية : رفض جميع مطاليب لجنة الاضراب ، والامتناع عن اجراء اية مفاوضات معها حتى اشعار آخر .

وقد افسد هذا الأمر القضية كلها افسادا كبيرا حتى ان كبير المهندسين انطلق الى المدينة على الفور لتوضيح الأمر . وذُهل العمال ، وكان الشعور السائد مسالما بالاحرى . دخل بعض المهندسين فى الحشد شارحين باسطين اذرعهم . بل وصدر ضحك فى مكان ما . واخيرا ظهر على مدخل الدائرة المهندس بولبين الضخم الركين الاشيب ، وصرخ بصوت تردد فى الفناء كله بان المفاوضات ارجات الى الغد .

بقى ايفان ايليتش فى ورشة الصهر حتى المساء ، ولما راى الافران ستنطفئ على اية حال ، حك علباءه ، وذهب الى بيته . كان المستقبليون جالسين فى غرفة الطعام ، وقد ابدوا جميعا اهتماما شديدا بما يحدث فى المصنع . الا ان ايفان ايليتش لم يحدثهم بشىء ، وراح وهو مستغرق فى افكاره يمضغ الشطائر التى قدمتها له يلزافيتا كييفنا ، ثم انصرف الى غرفته ، واغلقها عليه بالمفتاح ، واستلقى لينام .

لدى اقترابه من المصنع فى اليوم التالى راى وهو ما يزال على مسافة بعيدة ، ان فى الأمر سوءا . كانت جماعات العمال تقف فى كل الزقاق تتشاور . وقد احتشد قرب بوابة المصنع جمهور غفير يقدر بعدة مئات ، يطن طنين خلية نحل مستثارة .

كان ايفان ايليتش يرتدى قبعة ناعمة ومعطفا مدنيا ، فلم يسترع انتباه احد . تسمع الى جماعات من المتجادلين فعرف ان اعضاء لجنة الاضراب جميعا قد اعتقلوا ليلا ، وان الاعتقال ما يزال جاريا بين العمال ، وان لجنة جديدة قد انتخبت ، والمطاليب التى اعلنوها الآن مطاليب سياسية ، وان فناء المصنع الآن مملوء بالقوزاق ، ويقال ان امرا قد صدر بتفريق الجمهور ، الا ان القوزاق قد رفضوا كما زُعِم ، واخيرا ان عمال مصنع اوبوخوفسكى ، ومصنع نيفسكى لبناء السفن وبعض المصانع الصغيرة قد انضموا الى الاضراب .

عزم ايفان ايليتش على ان يشق طريقه الى الدائرة ليطلع على الاخبار ، الا انه بعد جهد جهيد لم يستطع الا ان ينفذ حتى البوابة . وهناك كان قوزاقيان جسيمان انزلقت قبعتاهما على جانب وانفرجت لحيتاهما الى الجانبين يقفان الى جانب الحارس بابكين المعروف المتعبس فى فروته الضخمة . وكانا ينظران بمرح ووقاحة الى وجوه العمال المؤرقة السقيمة ، وكلاهما متورد الوجنتين ، مشبعا غذاء ذا مظهر مشاكس وهازىء .

فكر ايفان ايليتش «اجل ، ان هذين القوزاقيين لن يرعويا عن شىء» وهمّ بالدخول الى الفناء ، الا ان اقرب القوزاقيين اليه سد طريق الدخول عليه ، وتفرس فيه بعينين وقحتين ، وقال :

— الى اين ؟ ابتعد !

– عليّ ان اذهب الى الدائرة . انا مهندس .
– قلت لك : ابتعد !
عندئذ ترددت اصوات من المحتشدين :
– كفرة ! جلاوزة !
– لم يكفكم ما سفكتم من دمائنا !
– شياطين متخمون ! محتكرو اطيان !

وفي تلك البرهة شق شاب قصير ابثر الوجه ذو انف كبير معكوف طريقه الى الصفوف الامامية . كان يرتدي معطفا ضخما لا يناسب حجمه ، ويضع على شعره الأجعد قبعة عالية في وضع اعوج . وتكلم متعتعا هازا ذراعه الواهنة :
– ايها الرفاق القوزاق ! السنا روسا جميعا ؟ على من تشهرون السلاح ؟ على اخوتكم . وهل نحن اعداؤكم لتطلقوا النار علينا ؟ ماذا نحن نريد ؟ نحن نريد السعادة للروس جميعا . نريد ان يكون كل انسان حرا . نريد ان نقضي على التعسف . . .

زم احد القوزاقين شفتيه ، وتفحص الشاب بازدراء من راسه حتى قدميه ، واستدار ، واخذ يخطو على طول البوابة . بينما اجاب الثاني بصوت رسمي مهيب :
– لن نستطيع السماح باية تمردات ، لاننا اقسمنا اليمين .
وعندئذ صاح الاول بالشاب الأجعد الشعر ، بعد ان فكر بالجواب على ما يبدو :
– اخوان ، اخوان . . . شد بنطلونك ، فقد تفقده .
وضحك القوزاقيان كلاهما .

ابتعد ايفان ايليتش عند البوابة ، فان موجة الحشد كانت تدفعه جانبا ، نحو السياج ، حيث تكومت كومة حدائد صدئة . وبينما كان يحاول ان يصعد كومة الحدائد ، وقع بصره على اوريشنيكوف الذي كان يمضغ قطعة خبز بهدوء ، وقد سرح قبعته من فراء الخروف على مؤخرة راسه . غمز اوريشنيكوف لتليغين بحاجبيه ، وقال بصوت عميق :
– نعم الاحوال ، يا ايفان ايليتش .
– مرحبا ، يا اوريشنيكوف . بم سينتهي كل هذا ؟
– ونحن نهتف قليلا ، ثم نخلع قبعاتنا طائعين . وهذا كل

ما تبقى من التمردات . انهم ارسلوا القوزاق الينا ، فبم سنحاربهم ؟ اأقذفهم بهذه البصلة فاقتل اثنين منهم ؟

وفي تلك الاثناء حدثت دمدمة في الجمع ثم تلاشت . وفي السكون صدر عند البوابة صوت آمر حاد :
– يا سادة ، ارجوا ان تتفرقوا الى بيوتكم . وسينظرون في رجاواتكم . ارجوكم ان تتفرقوا بهدوء .

اضطرب الجمع ، واندفع الى الوراء ثم الى ناحية . ابتعد فريق ، وتقدم آخر . واشتد لغط الكلام . وقال اوريشنيكوف :
– للمرة الثالثة يرجون دون تهديد .
– من يقول هذا ؟
– ضابط قوزاقي .
– يا رفاق ، يا رفاق ، لا تتفرقوا .

تردد صوت منفعل ، وقفز على كومة الحدائد الى الخلف من ايفان ايليتش رجل شاحب منفعل ذو قبعة كبيرة ، ولحية سوداء شعثاء ، كانت سترته الانيقة مزررة تحتها بدبوس انجليزي .
وقال الرجل بصوت جهير بعد ان مد يدين ضم قبضتيها :
– يا رفاق ، لا تتفرقوا مهما كلف الامر . لقد عرفنا من مصدر موثوق ان القوزاق رفضوا اطلاق النار علينا . والادارة تجري مفاوضات مع لجنة الاضراب عن طريق وسيط . وفضلا عن ذلك يناقش عمال السكك الحديد الآن اعلان اضراب عام . والحكومة في ذعر .

زعق صوت جنوني :
– برافو !

وسرى طنين في الحشد ، وغاص الخطيب فيه ، وغاب . وكان الناس يتوافدون وكفا الى الزقاق .

بحث ايفان ايليتش ببصره عن اوريشنيكوف ، الا ان هذا كان في تلك اللحظة واقفا بعيدا عنه وقرب البوابة . وترددت كلمة «ثورة ، ثورة» غير مرة .

شعر ايفان ايليتش بان انفعالا بالخوف والفرح يملأ كيانه كله . ارتقى كومة الحدائد واجال بصره في الحشد الذي صار الآن ضخما ، وفجأة رأى اكوندين على بعد خطوتين منه . كان يضع على

عينيه نظارة ، وعلى رأسه كيبيه لها طرف كبير ، ويلبس عباءة سوداء . شق طريقه اليه رجل فى قبعة مستديرة وشفتاه ترتجفان . وسمع تليغين ما قال الرجل لأكوندين :

– اذهب ، يا ايفان افاكوموفيتش ، انهم ينتظرونك .

رد اكوندين باقتضاب وغيظ :

– لا اذهب .

– اجتمعت اللجنة كلها . وهم لا يريدون ان يتخذوا قرارا بدونك ، يا ايفان افاكوموفيتش .

– انا باق على رأيى ، وهذا معروف .

– لقد فقدت صوابك . . . ها انت ترى ماذا يجـرى . وانا اقول لك ان اطلاق النار سيبدأ بين لحظة وأخرى . . .

واخذت شفتا الرجل ذى القبعة المستديرة ترتعشان .

قال اكوندين :

– قبل كل شىء لا ترفع صوتك . اذهب واتخـذ قرارا مساوما . انا لا اشترك فى استفزاز . . .

– اللعنة ، اللعنة . جنون محض !

قال الرجل ذو القبعة المستديرة ، وشق طريقه فى الحشد . وتقدم جنبا من اكوندين العـامل الذى دعا بالأمس عمـال ورشة تليغين الى الاضراب ، فقال لـه اكوندين شيئا . اومـأ لـه العامل برأسه ، واختفى . ثـم حصل الشىء نفسـه – عبارة قصيرة وهزة راس – مع عامل آخر .

ولكن صيحات تحذيرية ترددت بين الحشد فى تلك اللحظة . وفجأة صدرت ثلاث طلقات جافة قصيرة . وخيم سكون على الفور . وسُمع صوت مكتوم ممطوط وكأنـه عن قصد «آ – آ – آ –» . وتحـرك الحشد ، وتراجع عن البوابـة . كان احد القوزاق يرقد فى الوحل الذى عجنته الاقدام ، ووجهه الى الارض ، وركبتاه معكوفتان على بطنه . وفى الحال سرت صيحة فى كتلة الناس كلها : «لا حاجة ، لا حاجة» . فقد فتحت البوابة . الا ان طلقة رابعة مـن مسدس صدرت عن جانب ، وتطايرت بعض الحجارة ، فارتطمت فى الحديد . وفى تلك اللحظة رأى تليغين اوريشنيكوف واقفا حاسر الرأس ، فاغر الفم ، وحيدا امام الحشد المتراكض فى فوضى . بدا وكأنه

قد انغرس فى الارض من الرعب بحذائيه الطويلين . وفى ذات الوقت رنت كضربات سوط طلقات طويلة من بندقية – واحدة وثانية واخرى ، واذا باوريشنيكوف يركع على ركبتيه برفق ، وينطـرح على الارض .

بعد اسبوع انتهى التحقيق فيما حدث فى المصنع . فكان ايفان ايليتش فى قائمة الاشخاص الذين اشتبه فى عطفهم على العمال . وعندما استدعى الى الدائرة تحدث مع الادارة بحدة ، على غير توقع من الجميع ، وقدم استقالته .

١١

كان الدكتور دميترى ستيبانوفيتش بولافين والد داشا ، جالسا فى غرفة الطعام قرب سماور كبير متصاعد البخار يطالـع الصحيفة المحليـة «نشرة سامارا» وكان كلما احترقت سيكارتـه حتى عقبها القطنى يتناول سيكارة اخرى من علبة سيكائر سميكة مملوءة ، ويشعلها من عقب السيكارة . سعل ، وصعـد الدم الى وجهه ، وحك صدره المشعر تحت قميصه المفتوح . كان يطالع ويرشف الشاى الخفيف من صحن الفنجان ناثرا الرمـاد على الصحيفة ، والقميص ، ومفرش المائدة .

ترامى صريف سرير من وراء الباب ، ووقع اقدام ، ودخلت داشا الغرفة وقد القت روبها على قميص النوم ، وهى ما تزال متوردة ناعسة . نظر دميترى ستيبانوفيتش الى ابنته من فـوق نظارته الانيقة المصدوعة بعينين ساخرتين باردتين كعينى داشا ، وقرب خده لتقبله . قبلته داشا وجلست قبالته مقربة منهـا الخبز والزبدة . وقالت :

– الريح مرة اخرى .

والواقع ان ريحا قوية حارة ما تزالت تهب لليوم الثانى . كانت سحابة من الغبار الكلسى تجثم على المدينة ، وتبرقـع الشمس . وكانت سحب كثيفة واخزة تجرى دفقات عبر الشارع ، وكان السابلة القلائل يديرون لها ظهورهم . وكان الغبار ينفذ فى كل شق ، وفى اطر النوافذ ، ويستقر بطبقة رقيقة على افاريـز النوافذ ، ويهص بين الاسنان . وكانت الريح تهز زجاج الشبابيك ،

وتقعقع بالسقف الحديدى . وفى الوقت ذاته كان الجو حارا وغرا ، بل وان رائحة الشارع نفذت الى الغرف .

قال دميترى ستيبانوفيتش :

– وباء من امراض العيون . شىء لطيف .

وتنهدت داشا .

قبل اسبوعين توادعت مع تليغين على سلم السفينة وقد رافقها فى آخر الأمر حتى سامارا ، ومنذ ذلك الحين وهى تعيش مع ابيها بدون عمل فى شقة جديدة فارغة غير مألوفة لها ، حيث كانت صناديق الكتب المغلقة تقف فى الصالة ، ولم تكن الستائر قد علقت بعد ، وكان من المتعذر العثور على شىء فيها ، كما لم يكن فيها مكان يستريح المرء فيه ، ان العيش فيها يشبه العيش فى حانة .

راحت داشا تقلب الشاى فى القدح ، وتنظر مكتئبة الى سحائب الغبار الرمادى تتطاير وراء النافذة من تحت الى فوق . كان يخيل اليها ان عامين قد انقضيا كالحلم ، وها هى قد عادت الى البيت ثانية ، ولم يبق من كل الأمانى والانفعالات وضروب الناس ، من بطرسبورغ الصاخبة غير هذه السحائب من الغبار .

قال دميترى ستيبانوفيتش ، وهو يقلب الصحيفة :

– قتلوا الارشيدوق .

– ايهم ؟

– كيف ايهم ؟ ارشيدوق النمسا اغتيل فى ساريفو .

– هل كان شابا ؟

– لا اعرف . صبى لى قدحا آخر .

القى دميترى ستيبانوفيتش قطعة سكر صغيرة فى فمه – وكان يحتسى الشاى دائما خلال قطعة سكر فى الفم – ونظر الى داشا نظرة هازئة . وسأل وهو يرفع صحن الفنجان .

– خبرينى ارجوك ، هل انفصلت يكاترينا عن زوجها نهائيا .

– لقد اخبرتك ، يا بابا .

– حسنا ، حسنا . . .

وتناول الصحيفة من جديد . مشت داشا الى النافذة . يا للسأم ! وتذكرت السفينة البيضاء ، والشىء الرئيسى ان الشمس

كانت تملأ الرحب : السماء الزرقاء ، والنهر ، وسطح السفينة النظيف ، وكل شىء ، كل شىء مغمور بالشمس ، والنداوة ، والطراوة . عندئذ بدا ان ذلك الطريق المتلألئ ، اى النهر العريض الملتوى ببطء ، والسفينة «فيودور دوستويفسكى» وعليها داشا وتليغين ، كل ذلك ينصب ويتداخل فى خضم من الضياء والبهجة ازرق بلا ساحل ويتحول الى نعيم .

آنذاك لم تتعجل داشا ، رغم انها كانت تدرك ان تليغين كان يعانى ، ولم تكن هى تعترض على هذه المعاناة . ولكن لم العجلة ، وكل لحظة من لحظات تلك السفرة كانت طيبة رغم ذلك ، وهما سيصلان الى السعادة على اية حال .

اصبح ايفان ايليتش لدى اقترابهما من سامارا شاحب الوجه ، وكف عن المزاح . حدثت داشا نفسها : نحن مبحران بحر السعادة ، وشعرت بنظرته اليها ، وكأنها نظرة رجل قوى مرح مرت عليه عجلة . كانت مشفقة عليه ، ولكن ماذا كان بوسعها ان تفعل ، وكيف تدعه يقترب منها ، ولو قليلا ، وقد كانت تدرك ان ذلك لو حدث لبدا فى الحال ما كان يجب ان يحدث فى آخر الرحلة . انهما ، عندئذ ، لن يصلا الى السعادة ، بل ستحترق منهما بجزع فى منتصف الطريق . ولهذا السبب اكتفت بان تكون حنونة معه فقط . اما هو ، فقد خيل اليه انه سيهين داشا اذا لمح ، ولو بكلمة واحدة ، الى ما كان السبب فى سهاده اربع الليالى ، احس بنفسه فى ذلك العالم الفريد نصف الشفاف ، حيث جميع المظاهر قد انزلقت عنه مثل ظلال فى ضباب ازرق ، وحيث كانت عينا داشا الرماديتان تشعان وعيدا وقلقا ، وحيث لا واقع غير الروائح ، وضوء الشمس ، والم فى القلب لا يفتر .

فى سامارا استقل ايفان ايليتش سفينة اخرى ، وعاد بها . واختفى بحر داشا المتلألئ الذى كانت تبحر عليه بهدوء غامر وانتشت ، وارتفعت سحائب من الغبار وراء زجاج النافذة المرتج .

قال دميترى ستيبانوفيتش :

– سيجر النمساويون آذان الصربيين هؤلاء – ثم خلع نظارته من انفه ووضعها على الصحيفة ، واكمل : – اما انت ، فما هو رأيك فى المسالة السلافية ، يا قطيطة ؟

هزت داشا كتفيها ، وهي واقفة عند النافذة ، وسالت مغمومة :
– هل ستاتى للغداء ؟
– لا ، على الاطلاق . عندى حالة حمى قرمزية فى بيت بوستنيكوف .
تناول دميترى ستيبانوفيتش صدر قميصه الشكلى من على المنضدة بحركة بطيئة ، وارتداه ، وزرر سترته من قماش الشنتونغ ، وتفحص جيوبه ليطمئن الى ان كل شىء فى مكانه ، وشرع يمشط شعره الاشيب الأجعد على جبينه بمشط مثلوم .
– على كل حال ، ماذا بخصوص المسالة السلافية ؟
– أوه ، يا الهى . لا اعرف ، يا بابا . لماذا تلح علىّ ؟
– اما انا فلى رائى الشخصى ، يا داريا دميترييفنا .
كان يكره كثيرا ، كما يبدو ، ان يذهب الى بيت بوستنيكوف كما انه ، بوجه عام ، يهوى الكلام فى السياسة فى الصباح ، وهو وراء السماور . تابع قوله :
– المسالة السلافية – هل انت مصغية ؟ – مسمار السياسة العالمية . وكثير من الناس يفشلون فى هذه المسالة . ولهذا السبب فان البلقان موطن السلاف الأصلى انما هو الزائدة الدودية لاوربا، وربما تريدين ان تساليني : لماذا ؟ فاجيبك . – وهنا اخذ يطوى اصابعه السميكة : اولا ، ان السلاف اكثر من مائتى مليون ، وهم يتوالدون كالارانب ، ثانيا انهم استطاعوا ان يخلقوا دولة عسكرية جبارة كالامبراطورية الروسية ، وثالثا ان الجماعات السلافية الصغيرة ، رغم الاندماج ، تنظم نفسها فى كيانات مستقلة ، وتطمح الى ما يسمى بالتحالف السلافى العام ، ورابعا – وهذا الأهم – ان السلاف يكونون طرازا من «الباحث عن الله» جديدا كليا من الناحية الخلقية ، وخطرا للغاية فى بعض الوجوه على الحضارة الاوروبية . ان «البحث عن الله» – هل انت تسمعيني ، يا قطيطة ؟ هو رفض وتهديم للحضارة الحديثة كلها . وانا ابحث عن الله ، اى عن الحقيقة فى نفسى انا ، ولاجل ذلك يجب ان اكون حرا بشكل مطلق ، وانا اهدم الأسس الخلقية التى د'فنت تحتها ، اهدم الدولة التى تصفدنى بالاغلال .

قالت داشا جزعة :
– اذهب الى بيت بوستنيكوف ، يا بابا .
– لا ، ابحثى عن الحقيقة هناك .
ونقر باصبعه ، وكأنه يشير الى باطن الأرض ، الا انه صمت فجاة ، واستدار نحو الباب . كان الجرس يرن فى الرواق .
– داشا ، اذهبى لفتح الباب .
– لا استطيع ، فانا لم ارتد ثيابى .
صاح دميترى ستيبانوفيتش :
– ماتريونا ! آه ، امراة لعينة . – وذهب بنفسه ليفتح الباب ، وعاد فى الحال يحمل فى يده رسالة . وقال :
– انها من كاتيا . انتظرى ، ولا تلتقطيها من يدى ، ساكمل حديثى اولا . . . اذن ، ف «البحث عن الله» يبدأ ، قبل كل شىء ، من التهديم ، وهذه المرحلة خطرة جدا ، ومعدية . وروسيا الآن مصابة بهذه المرحلة من المرض بالذات . . . اخرجى مساء الى الشارع الرئيسى وستسمعين الناس يزعقون : «النجدة» . فى الشارع يتسكع قطاع الطريق . انها شقاوة فاحشة وقد عجز البوليس عن السيطرة عليها . ان اولئك الفتيان الذين لا خلاق لهم هم «باحثون عن الله» . هل فهمت ، يا قطيطة ؟ وهم اليوم يستهترون فى الشارع الرئيسى ، وغدا سيبداون بالاستهتار فى ارجاء الدولة الروسية كلها . والشعب قاطبة يعانى من المرحلة الاولى من «البحث عن الله» مرحلة هدم الاسس .
وتنشق دميترى ستيبانوفيتش ، واشعل سيكارة .
اختطفت داشا من اصابعه رسالة كاتيا ، وذهبت الى غرفتها . بينما مضى فى اثبات شىء ما بعض الوقت ، وسار صافقا الابواب فى الشقة الواسعة نصف الفارغة المغبرة بارضيتها المطلية ، ثم ذهب الى وجهته .
كتبت كاتيا فى رسالتها :
«عزيزتى داشا . انا لا اعرف حتى الآن شيئا عنك ولا عن نيقولاى . انا الآن فى باريس . والموسم هنا فى ذروته . والنساء يلبسن فساتين ضيقة جدا فى الاسفل . والشيفون فى الموضة . باريس جميلة جدا . ليتك ترين ذلك : وكل الناس فى

باريس بلا استثناء يرقصون التانغو . وفى الافطار فى الفترة بين تقديم صحن وصحن ينهض الناس ، ويرقصون ، وفى الساعة الخامسة ايضا ، واثناء الغداء وهكذا دواليك حتى الصباح . ولا مكان لى اتحاشى فيه الموسيقى . وفيها شيء من الحزن والعذاب والحلاوة . ويخيل الىّ دائما اننى اشيع شبابى ، وشيئا لا يمكن ان يرد حين انظر الى تلك النسوة بفساتينهن ذات الفتحات الواطئة ، وعيونهن المؤطرة بالازرق ، والى فرسانهن . وبشكل عام انا احس بضجر . واتصور دائما ان شخصا ما لا بد ان يموت . وانا اخاف على ابى كثيرا . فقد تخطى سن الشباب منذ زمان . الروس هنا يملأون كل مكان ، وجميعهم من معارفنا . وفى كل يوم نجتمع فى مكان ما ، وكأننا لم نغادر بطرسبورغ . وبالمناسبة حدثونى هنا عن نيقولاى ، وزعموا انه كان على علاقة قريبة جدا من امرأة هى ارملة ولها ولدان وثالث طفل صغير . هل تفهمين ؟ وقد تألمت كثيرا جدا فى بادىء الامر . وفيما بعد شعرت ، لسبب ما ، بالشفقة على ذلك الطفل الصغير . . . آه يا عزيزتى داشا ، اود احيانا لو يكون لى طفل . ولكن ذلك ممكن فقط اذا كان من رجل احبه . اذا تزوجت انجبى طفلا . ليكن ذلك فى بالك» .

اعادت داشا قراءة الرسالة عدة مرات ، ودمعت عيناه لا سيما على ذلك الطفل البرىء من كل ذنب ، وجلست تكتب جوابا ، وفرغت منه قبل الغداء ، وتغدت وحدها — لم تمس من الطعام الا قليلا — ثم ذهبت الى غرفة المكتب واخذت تنبش فى المجلات القديمة ، ووجدت رواية طويلة جدا ، واستلقت على الأريكة وسط الكتب المبعثرة ، وطالعت حتى المساء . وجاء والدها اخيرا مغبرا تعبا ، وجلس الاثنان للعشاء ، وكان الوالد يرد على جميع اسئلتها بـ«اهـا» . الا ان داشا استخلصت منه ان الطفل فى ربيعه الثالث ، والمصاب بالحمى القرمزية قد مات . وتنشق دميترى ستيبانوفيتش ، بعد ان نطق بهذا النبأ ، ووضع نظارته الانفية فى محفظتها ، وذهب لينام . استلقت داشا فى السرير ، وتغطت بالمفرش حتى راسها . وافرغت ما فى صدرها باكية على مختلف الانباء الحزينة .

انقضى يومان . وانتهت زوبعة الغبار برعود ومطر مدرار

ظل يقرع السقف طوال الليل ، وطلع صباح الاحد هادئا رطبا مغسولا .

ما كادت داشا تنهض فى الصباح حتى جاء لزيارتها صاحب للعائلة قديم هو سيمين سيمينوفيتش غفيادين موظف الاحصاء فى البلدية ، وهو رجل نحيل محدودب ، بادى الشحوب دائما ذو لحية شقراء ، وشعر مصفوف وراء اذنيه . وكانت تفوح منه رائحة قشدة . ولم يكن يعاقر الخمرة ، ولا يدخن ، ولا يأكل اللحم ، وكان تحت رقابة البوليس . سلم على داشا ، وقال دون اية مناسبة بصوت هازئ : — لقد جئت اليك لنذهب الى الفولغا ، يا امرأة .

قالت داشا لنفسها : «وهكذا انتهى كل شيء بموظف الاحصاء غفيادين» . وتناولت مظلة بيضاء ، وسارت وراء سيمين سيمينوفيتش هبوطا الى الفولغا ، الى الرصيف الذى كانت الزوارق تقف عنده .

كان الحمالون والعتالون ، وهم رجال وشبان عراض المناكب واسعو الصدور حفاة حاسرو الرؤوس ، عراة الرقاب ، يطوفون بين عنابر الحبوب الخشبية الطويلة ، واكوام الأخشاب وبالات الصوف والقطن . كان بعضهم يلعب لعبة قذف النقود ، والبعض الآخر ينام على الاكياس والالواح . وعلى مسافة بعيدة كان زهاء ثلاثين رجلا يركضون على سلم المركب المهتزة حاملين الصناديق على اكتافهم . وكان ثمة رجل سكران يقف بين العربات وقد كساه الوحل والغبار ، وتضرجت وجنته بالدم وكان يشتم بتكاسل وفحش رافعا بنطلونه بكلتا يديه .

قال سيمين سيمينوفيتش بلهجة تهذيبية : — ان هذا الصنف من الناس لا يعرف اعيادا ولا استراحة ، اما انا وانت فذاهبان الى الاستمتاع بالطبيعة فى وقت الفراغ كانسانين ذكيين مثقفين .

وطفر رجلين حافيتين ضخمتين تعودان لشاب واسع الصدر ضخم الشفتين كان مبطوحا على الأرض ، بينما جلس شخص آخر على جذع ، وراح يمضغ خبزا . وسمعت داشا قول الشاب المبطوح فى اثرها :

– فيليب ليت لنا مثلها .

فاجاب الآخر من فم ممتلئ :

– مفرطة النظافة . تتطلب متاعب كثيرة .

كانت اشباح القوارب الصغيرة تتحرك فى النهر المصفر العريض على انعكاسات الشمس الرجراجة متجهة الى الشاطئ الرملى البعيد . وقد استأجر غفيادين واحدا من مثل هذه القوارب ، وطلب الى داشا ان تهتم بتدوير الدفة ، بينما جلس هو الى المجذافين ، واخذ يجذف بعكس التيار . وسرعان ما تفصد العرق على وجهه الشاحب .

– الرياضة شئ عظيم .

قال سيمين سيمينوفيتش ذلك ، واخذ يخلع عنه سترته ، وحلّ حمالة البنطلون بشئ من الحياء ، وحشرها بعيدا فى مقدمة القارب . كانت له ذراعان نحيلتان ضعيفتان عليهما شعر طويل ، وكان طرفا ردنيه مصنوعين من السيليولويد . فتحت داشا مظلتها ، وحدقت فى الماء مقلصة عينيها .

– اعذرينى على سؤال غير متواضع ، ياداريا دميترييفنا . يقال فى المدينة انك موشكة على الزواج ، اهذا صحيح ؟

– لا ، غير صحيح .

عندئذ رسم تكشيرة عريضة كانت غير ملائمة لاسارير وجهه المفكرة الساهمة ، وحاول بصوت ضعيف ان يغنى «آه ، نحن منحدرون مع الفولغا الام» الا ان الخجل ركبه ، وراح يجذف بكل قوته .

قابلهما من الاتجاه الآخر قارب مملوء بالناس . كانت ثلاث نساء من طبقة متوسطة فى فساتين خضراء وقرمزية من الكشمير يقضمن حب عباد الشمس ، ويلفظن القشور فى احضانهن . وقد جلس قبالتهن رجل له وجه سفاح ، فى غاية السكر ، اجعد الشعر ، اسود الشاربين ، يقلب عينيه ، وكأنه يحتضر ، ويعزف «البولكا» على الاكورديون . وكان شخص آخر يجذف بجنون ، مرنحا القارب ، بينما لوح ثالث بمجذاف احتياطى ، وصاح على سيمين سيمينوفيتش :

– تنح عن الطريق ، يا رمة .

ومروا على قرب شديد صائحين لاعنين .

واخيرا انزلق القارب على القاع الرملى قرب شاطئ ، فقفزت داشا الى الشاطئ . اعاد سيمين سيمينوفيتش ارتداء حمالة البنطلون والسترة . وقال مقلصا عينيه :

– رغم انى من سكان المدن ، الا اننى اعشق الطبيعة دائما ، لاسيما اذا انضاف اليها قوام فتاة . وفى ذلك اجد شيئا من تورغنيف . لنذهب الى الغابة .

وساروا على الرمل الحار ، غائصين فيه حتى الكاحل . وكان غفيادين يتوقف بين لحظة واخرى ويمسح وجهه بمنديله ، ويقول :

– انظرى ، اية بقعة فاتنة .

واخيرا انتهى الرمل ، وكان يجب ارتقاء عدوة قليلة الارتفاع تبدا بعدها مروج قطع العشب فى بعض اماكنها ، وتفشى الذبول فى صفوفه . كانت زهور العسل تعبق برائحة حارة هناك ، وكانت شجيرة جوز كثيفة الاوراق تحنو فوق الماء على شفا خندق ضيق . وكان جدول ماء يترقرق فى منخفض ريان العشب ليصب فى بركة اخرى مستديرة . وقد نمت على ضفتيها اشجار زيزفون معمرة ، وشجرة صنوبر وعرة انبسط فرعها الوحيد كاليد . وعلى مسافة ابعد نما حرش من الزهور البرية البيضاء على تلعة ضيقة من الارض . كان هذا المكان بقعة مفضلة لطيور الشنقب اثناء مجراتها . جلست داشا وسيمين سيمينوفيتش على العشب . كان الماء فى وهاد ملتوية صغيرة ، تحت اقدامهما ، يعكس زرقة السماء ، وخضرة الشجر . وكان طائران رماديان صغيران يقفزان فى اجمة غير بعيد عن داشا ، ويسقسقان سقسقة رتيبة . وكان حمام برى يهدل فى شجرة بوحشة هديل من فارقته اليفته . جلست داشا مادة ساقيها ، ملقية يديها على ركبتيها تصغى الى الحمام العاشق المهجور يناغيها من الاغصان بصوت رقيق :

«داريا دميترييفنا ، آه ما الذى دهاك – لمَ انت حزينة هذا الحزن ، تريدين ان تبكى ؟ لم يحصل شئ بعد ، بينما انت كئيبة ، وكأن الحياة قد انتهت انقضت ، توارت . مجرد انك متضجرة بطبعك» .

قال غفيادين :
– اريد ان اكون صريحا معك ، يا داريا دميتريينفنا ، فهل تسمحين لى ان القى جانبا بما يسمى بالمتعارف عليه ؟
– تكلم ، فسيان عندى .
اجابت داشا ، وقد استلقت على ظهرها موسدة راسها على يديها لتنظر الى السماء ، لا الى عينى محدثها الصغيرتين الزائغتى النظر . وكان سيمين سيمينوفيتش يختلس النظر الى جوربيها الابيضين .
– انت فتاة ابية جريئة . وانت شابة جميلة تفور الحياة فى اعماق نفسك . . .
قالت داشا : ولنفرض ذلك .
– امعقول انك لم ترغبى مرة فى تحطيم هذه الاخلاق الموروثة من تربيتك ومحيطك ؟ امن المعقول انك باسم هذه الاخلاق المرفوضة من جميع ذوى المكانة مضطرة الى كبت غرائزك الجميلة ؟
– ولنفرض اننى لا اريد ان اكبت غرائزى الجميلة ، فماذا يكون ؟
سالت داشا ، وانتظرت جوابه بفضول كسول . كانت الشمس تدفؤها ، وتجد متعة فى النظر الى السماء ، والى الغبار المشمس ، الذى كان يملأ كل تلك الزرقة المترامية الاطراف ، حتى انها لم تجد رغبة فى التفكير او فى الحركة .
صمت سيمين سيمينوفيتش حافرا الارض باصبعه . كانت داشا تعرف انه متزوج من المولدة ماريا دافيدوفنا . وكانت زوجته تاخذ اطفالها الثلاثة اكثر من مرة فى كل عام ، وتهجره الى امها التى كانت تعيش فى بيت مقابل داره . وكان سيمين سيمينوفيتش يعزى فى البلدية هذه الهجرانات الى طبع زوجته الحساس والمضطرب . بينما عزتها هى فى مستشفى المدينة الى استعداد زوجها فى كل دقيقة الى ان يخونها مع كل امراة ، وهو لا يفكر بغير ذلك . الا انه لايخونها بسبب جبنه وخوره ، وذلك شئ مخجل تماما . وهى لم تعد تحتمل رؤية وجهه الطويل ، الشبيه بوجوه النباتيين . وكان سيمين سيمينوفيتش خلال هذه الخصامات

يعبر الشارع عدة مرات فى اليوم حاسر الراس . ثم يتصافى الزوجان ، وتنتقل الزوجة الى بيته مع الاولاد والوسائد .
– اذا اختلت امراة ورجل فان رغبة طبيعية تتولد لدى المراة فى ان تكون له ، ولدى الرجل فى ان يتملك جسدها – وسعل سيمين سيمينوفيتش ، ثم اردف قائلا – وانا ادعوك لان تكونى صادقة وصريحة . انظرى فى اعماق نفسك فستجدين الرغبة الطبيعية لاحساس سليم تضطرم فيها وسط الاهواء والاكاذيب .
– لا تضطرم اية رغبة فى نفسى الآن ، فما يعنى ذلك ؟
سالت داشا ، وكانت تحس بتسلية وارتخاء . رأت نحلة تطوف فوق راسها ، فى الاصفرار الشاحب لزهرة برية ، فى الغبار الاصفر . بينما مضى الحمام العاشق المهجور يهدل فى شجيرة الحور : «داريا دميترييفنا ، داريا دميترييفنا ، العلك عاشقة ؟ عاشقة ، عاشقة ، كلمة شرف . ولذلك انت حزينة» . وشرعت داشا تضحك لدى سماعها ذلك .
– يبدو ان الرمل تسرب الى حذائك . اسمحى لى بنفضه .
قال سيمين سيمينوفيتش بصوت خافت غريب ، وسحبها من كعب حذائها . عندئذ جلست داشا بسرعة ، وانتزعت منه الحذاء ، وضربته به على خده . وقالت :
– يا سفيه . لم اتصور قط انك رجل بهذه الوضاعة .
لبست حذاءها ، ونهضت ، والتقطت المظلة ، وسارت نحو النهر ، دون ان تنظر الى غفيادين .
وفكرت داشا وهى تهبط من العدوة : «حمقاء ، حمقاء . لم اساله حتى عن عنوانه لتكتبى له . اما هو فى كينيشما واما فى نيجنى ، والآن ، اجلسى مع غفيادين . آه يا ربى» . التفتت ، ولمحت غفيادين يسير على المنحدر المعشوشب ، رافعا رجليه كاللقلق ، مديرا بصره الى ناحية . «ساكتب لكاتيا : «تصورى : يبدو اننى مغرمة ، هذا ما يبدو لى» » . ورددت داشا بصوت خافض ، مستمعة الى صوتها : «عزيزى ، عزيزى ، عزيزى ايفان ايليتش» .
وفى تلك اللحظة سمعت على مقربة منها صوتا يقول «لا ادخل ، لا ادخل ، اتركنى ، ستمزق التنورة» . ورات رجلا مسنا عاريا

يخوض فى الماء الى ركبتيه . له لحية قصيرة ، واضلاع مصفرة ، وقد تدلى شريط الصليب الاسود على صدره الغائر . كان مظهره وقحا وكان يسحب نحو الماء امراة كئيبة حانقا صامتا . وكانت المراة تردد : «اتركنى ، ستمزق التنورة» .

عندئذ ركضت داشا بكل قواها بحذاء الشاطئ نحو القارب ، وقد شعرت بتقلص فى حنجرتها من التقزز والعار . وبينما كانت تدفع القارب الى الماء جاء غنيادين راكضا متقطع الانفاس . ودون ان ترد عليه ، وتنظر اليه جلست على مقدمة القارب ، وتظللت بالمظلة ، ولزمت الصمت طوال طريق العودة .

بعد هذه النزهة اخذت داشا بطريقة غريبة غير مفهومة حتى لنفسها تشعر باستياء من تليغين ، وكانما هو الملوم على كل هذا الضيق من هذه البلدة النائية المغبرة المتوهجة بالشمس بأسيجتها المنتنة ، وبوّاباتها الكريهة وبيوتها الصغيرة الآجرية الشبيهة بالعلب ، وباعمدة للتلفونات وللترام بدلا من الاشجار ، والقيظ الثقيل عند الظهيرة ، حين تتجول فى الشارع الرمادى الابيض الخالى من الظل امراة كادت تصاب بدوار الشمس ، تعلق حزم السمك المجفف على كتفيها ، وتصرخ ناظرة فى الشبابيك المتربة «سمك مجفف ، سمك» ، الا ان كلبا مصابا بدوار الشمس مثلها ، نصف معتوه يتوقف بالقرب منها ، ويتشمم السمك ، بينما يترامى من قناة بعيد صوت ارغن الشوارع يعزف لحن الفالس القديم المشحون بالسام .

كان تليغين ملوما على ان داشا تتلقى الآن بحساسية شديدة كل ما يحيط بها من هذا الركود الباطنى لحياة البرجوازية الصغيرة ، والذى لا ينوى ، كما يبدو ، ان يتزحزح من مكانه ابدا ، وحتى ولو خرجت الى الشارع وصرخت بصوت وحشى : اريد ان اعيش ، ان اعيش !» .

وكان تليغين ملوما على انه كان مبالغا فى تواضعه واستحيائه . فليس هى ، اى داشا ، من كان عليه ان يقول «اعلم اننى احبك» . وكان ملوما على انه لم يترك خبرا عنه ، وكانما غاص تحت الارض ، بل ولعله نسى التفكير فيها .

وبالاضافة الى كل هذا السام ، رات داشا فى احد الليالى الحالكة اللاهبة كالفرن الحلم الذى راته فى بطرسبورغ ، حين هبت من نومها والدموع فى مآقيها ، وقد غاب عن ذاكرتها ايضا مثلما غاب آنذاك كبخار تصاعد من زجاج رطب . الا انه تصورت ان هذا الحلم المعذِّب الرهيب ينذر بمصيبة . نصح دميترى ستيبانوفيتش ابنته بان تحقن بالزرنيخ . وفيما بعد جاءت رسالة ثانية من كاتيا . كتبت :

«عزيزتى داشا ! بى حنين شديد اليك ، والى اصحابى ، والى روسيا . وانا اشعر اكثر فاكثر بان الذنب يقع علىّ فى الانفصال عن نيقولاى ايضا . استيقظ ، واقضى اليوم كله يلازمنى هذا الشعور بالذنب ، ونوع من التعفن الروحى . ثم - ولا ادرى هل كتبت لك عن ذلك - ان شخصا يلاحقنى منذ بعض الوقت . اخرج من البيت فاراه قادما من الجهة المقابلة . اصعد فى المصعد الى مخزن عام ، فاراه يقفز اليه اثناء صعوده . بالامس كنت فى اللوفر . وقد تعبت فى المتحف ، وجلست على مصطبة ، وفجاة احس وكان يدا تمر على ظهرى . التفت فاجده يجلس غير بعيد عنى . انه رجل نحيل ، تفشى الشيب فى شعره الاسود ، ولحيته تبدو وكانها مصمغة على خديه . كان يضع يديه على راس عصاه ، وينظر نظرة كالحة ، وعيناه غائرتان . وهو لا يتكلم ، ولا يضايقنى الا اننى اخاف منه . واشعر بانه يحوم حولى . . .» .

اطلعت داشا اباها على الرسالة . وفى الصباح التالى قال دميترى ستيبانوفيتش عرضا ، وهو يطالع صحيفته :

- سافرى الى القرم ، يا قطيطة .

- لماذا ؟

- ابحثى عن نيقولاى ايفانوفيتش هذا ، وقولى له : انه مغفل . دعه يسافر الى زوجته فى باريس . وعلى العموم . . . حسب ما يريد . . . تلك قضيتهما الشخصية . . .

وظهر الغضب والانفعال على دميترى ستيبانوفيتش رغم انه كان يكره اظهار مشاعره . وفجاة احست داشا بالفرح . فقد كانت تتمثل القرم رحابا زرقاء ساحرة تزخر بالامواج . وتصورت

الظل الطويل لشجرة حور هرمية ، ومسطبة حجرية ، ولفاعا يرف
على راسها ، وعينين قلقتين تنظران اليها .
جمعت امتعتها بسرعة ، وسافرت الى يفباتوريا ، حيث كان
نيقولاى ايفانوفيتش يستحم فى البحر .

١٢

فى ذلك الصيف كان سيل غير اعتيادى من المصطافين قد
جاء الى القرم من الشمال . كان الساحل باسره يغص بالمتنزهين
المسلوخى الانوف من اهالى بطرسبورغ اللاذعين الجالبين معهم
نزلاتهم الصدرية والتهاب العصبات ، ومن الموسكوفيين الضاحين
المهملى الهندام بكلامهم المتراخى الناعم ، ومن اهالى كييف ذوى
العيون السود غير عارفين الفرق بين الواو اللينة والواو المضخمة ،
ومن اغنياء سيبيريا المزدرين لهذه الضوضاء الروسية . وكان
الجميع يشوون ويلوحون جلودهم فى الشمس حتى الاسوداد :
نساء شابات ، فتيان طويلو السيقان ، ورهبان ، وموظفون ،
واناس مبجلون ، وازواج مع زوجاتهم يعيشون كلهم برخاوة ،
كما كان الجميع يعيشون فى روسيا انذاك ، وكان اسفل عمودهم
الفقرى قد انقصم .
وفى منتصف الصيف ، وبسبب الماء المالح ، والحر وتلويح
الشمس فقد هؤلاء الناس الشعور بالحياء ، وبدأت ملابس على طراز ما
يلبسه اهل المدن تبدو ابتذالا زائدا عن الحاجة ، وظهرت على
الساحل نساء لا تسترهن غير المناشف التترية ، ورجال يشبهون
الصور المرسومة على المزهريات الاترورية .
وترنحت اسس العائلة فى هذا الجو غير الاعتيادى من الامواج
الزرقاء والرمل الحار ، والاجساد العارية المبثوثة فى كل مكان .
وبدا كل شىء هنا سهلا وممكنا . ولا حاجة الى التفكير فى تصفية
الحساب ، فيما بعد ، فى الشقة الكئيبة فى الشمال ، حيث المطر
يسح وراء النافذة ، والتلفون يدق فى الرواق ، ولكل فرد التزاماته . ماء
البحر يتزلق على الساحل بقرقرة ناعمة ، ويمس الاقدام ، فيستشعر

الجسم الممدد على الرمل ، والاذرع المبسوطة ، والاجفان المسبلة
بخفة وحرارة ولذة . ان كل الاشياء على الاطلاق ، حتى اخطرها
سهلة ولذيذة .
فى هذا الصيف تخطى نزق المصطافين وتحللهم جميع الابعاد ،
وكان كلفا جبارا انفصل عن الشمس المتوقدة فى صباح من صباحات
حزيران قد اصاب ذاكرة وتعقل سكان المدن هؤلاء بمنات الوفهم .
لم يكن فى طول هذا الساحل بيت واحد بخير . تقطعت الروابط
الوثيقة فجأة . وبدا وكأن الهواء نفسه موقر بهمس الغرام والضحك
الناعم ، والهذر الذى لا يوصف ، والمقول على هذه الارض الحارة
المسكونة فيها اطلال المدن القديمة ، وعظام الشعوب المندثرة .
وكان يبدو وكأن يوما لتصفية الحساب وللدموع المرة سيأتى مع
امطار الخريف .
وصلت داشا الى يفباتوريا بعد الظهر . وبينما كانت تقترب
من البلدة على الطريق المترب الذى كان يمتد كشريط ابيض فى
سهب مستو مرورا بالبطائح الملحية ، واكداس القش لمحت
سفينة خشبية كبيرة ازاء الشمس كانت تسير ببطء على بعد نصف
ميل ، فتلوح وكأنها تسير فى السهب ، وسط الافسنتين ، واشرعتها
السوداء منحرفة وممتدة من فوق السفينة حتى اسفلها . كان منظرا
مذهلا انتزع منها آه تعجب . قال الارمنى الذى كان
جالسا الى جوارها فى السيارة ، وهو يضحك : «سترين
البحر الآن» .
استدارت السيارة مارة بملاحات مربعة الشكل ، وارتقت
مرتفعا رمليا ، انفتح البحر من عليه . وبدا وكأنه اكثر ارتفاعا من
الارض وكان ذا لون ازرق داكن ومفروشا بجدائل طويلة بيضاء
من الزبد . اصفرت ريح مرحة فى الآذان . ضغطت داشا
على الحقيبة الجلدية على ركبتيها ، وفكرت مع نفسها : «هذا هو
بيداء» .

فى هذا الوقت كان نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف
جالسا فى سرادق اقيم على اعمدة عند البحر ، يحتسى القهوة مع
الفنان العاشق . كان المصطافون يأتون الى هنا بعد ان استراحوا
من الغداء ، ويجلسون الى موائد صغيرة ، ويتنادون ويتحدثون عن
فائدة العلاج باليود ، وعن السباحة فى البحر وعن النساء . وكان

الجو داخل السرادق طريا ، وكانت الريح تحرك حوافى المفارش البيضاء . ولفاحات النساء . مر يخت بشراع واحد وتناهت من عليه اصوات مرحة . وجاء الموسكوفيون فى جمع ، واحتلوا مائدة كبيرة ، وجميعهم من ذوى الصيت العالمى . تجهم الفنان العاشق لدى رؤيته لهم ، وتابع حكاية محتوى مسرحية فكرّ فى كتابتها .

– موضوع المسرحية كله مدروس بعمق ، ولكننى لم اكتب غير الفصل الاول – قال ونظر فى وجه نيقولاى ايفانوفيتش متأملا مهيبا – ان لك رأسا رائقا ، وانت تفهم فكرتى يا نيقولاى . امرأة شابة جميلة ولكنها ضجرة تتهافت خمولا ، ومحاطة بالتفاهة . ان هؤلاء الناس طيبون ، ولكن الحياة قد امتصتهم امتصاصا ، مشاعر متعفنة ، وسكر . وباختصار ، انت تفهمنى ... وفجأة تقول هذه المرأة : «يجب ان ارحل ، اتخلص من هذه الحياة ، ارحل الى النور ... بينما لها زوج وصديق ... وكلاهما يعانى ... افهمنى يا نيقولاى ... ان الحياة قد امتصت ... وهى ترحل ولا اشير الى مَنْ ... لا عشيق لها ، مجرد مزاج ... ثم نرى الرجلين جالسين فى حانة يحتسيان الخمرة صامتين ... يبتلعان الدموع مع الكونياك . والريح تصفر فى مدخنة الموقد ، تنعيهما ... جو حزين ... خاو ... مظلم ...»

سأل نيقولاى ايفانوفيتش :

– هل تريد ان تعرف رأيى ؟

– نعم ، قل لى فقط : «ميشا ، اترك الكتابة» وسأتركها .

– مسرحيتك رائعة . انها الحياة بعينها – قال نيقولاى ايفانوفيتش ، وقد اغمض عينيه ، وراح يهز رأسه – اجل ، يا ميشا ، اننا لم نعرف كيف نقدر سعادتنا ، وقد رحلت عنا . وها نحن بلا امل ، ولا عزيمة جالسون نشرب . والريح تعول فوق مقبرتنا ... ان مسرحيتك تؤثر فىّ للغاية ...

ارتعش الانتفاخان تحت عينى الفنان العاشق ، رفع جسمه ، وقبل نيقولاى ايفانوفيتش بقوة ، ثم ملأ قدحيهما . قرع الصديقان القدحين ، ووضعا كوعيهما على المائدة ، ومضيا فى حديثهما الحميم .

قال الفنان العاشق ملقيا الى محدثه نظرة ثقيلة :

– نيقولاى ، اتعرف اننى احببت زوجتك ، كالالهة .

– نعم ، هذا ما بدا لى .

– لقد تعذبت ، نيقولاى ولكن كنتَ صديقى ... وكم من مرة هربت من بيتك ، مقسما على الا اتخطى عتبة دارك مرة اخرى ... ولكن كنت اعاود الزيارة ، وامثل دور المهرج ... ولكن اياك ، يا نيقولاى ، ان تلومها .

ومط شفتيه بضراوة .

– انها تصرفت معى تصرفا فظا ، يا ميشا .

– ربما ... ولكننا جميعا مذنبون ازاءها . آه ، يا نيقولاى ، شئ واحد لا استطيع ان افهمه فيك . كيف وانت تعيش مع مثل هذه المرأة – وارجو المعذرة – كنت على علاقة قريبة فى الوقت ذاته مع تلك الارملة صوفيا ايفانوفنا ؟ لماذا ؟

– تلك مسألة معقدة .

– تكذب . لقد رأيتها . انها امرأة بسيطة .

– اسمع ، يا ميشا . الآن صار الأمر فى حكم الماضى ، بالطبع . لقد كانت صوفيا ايفانوفنا مجرد انسان طيب . وقد وهبتنى لحظات من الفرح ، ولم تطلب منى شيئا قط . بينما كان كل شئ فى البيت معقدا للغاية ، عسيرا ، معمقا ... ولم تكن لى القوة الروحية الكافية لأؤثر بها على يكاترينا دميترييفنا ...

– غير معقول ، يا نيقولاى . ها نحن سنعود الى بطرسبورغ وتقام امسية الثلاثاء ، وازوركم بعد العرض ... واجد البيت فارغا ... كيف اتحمل ذلك ؟ .. اسمع ... اين زوجتك الآن ؟

– فى باريس .

– وهل تتراسل ؟

– لا .

– سافر الى باريس . لنسافر سوية .

– بلا فائدة ...

– نيقولاى ، لنشرب نخب صحتها .

– لنشرب .

ظهرت الممثلة تشاروديفا فى السرادق ، بين الموائد . كانت ترتدى ثوبا اخضر شفافا ، وقبعة كبيرة . كانت نحيلة كالافعى ترتمى ظل ازرق تحت عينيها . ولربما كان عمودها الفقرى معطوبا ،

فقد كانت تتاود وتنحنى . نهض للقائها محرر المجلة الجمالية «جوقة الموزيات» ، وامسك يدها ، ولثم ببطء ثنية المرفق .

قال نيقولاى ايفانوفيتش من خلال اسنانه :

– امراة مدهشة .

– لا ، يا نيقولاى ، لا ، ان تشارودييفا فطيسة لا غير . هل تريد ان تعرف سببا ؟ . . مجرد انها عاشت مع بيسونوف ثلاثة اشهر ، وتقرا الاشعار المنحلة فى الحفلات بصوت كالمــواء . . . انظر ، انظر . ان فمها يصل الى اذنيها ، والعروق بارزة فى رقبتها . انها ليست امراة ، بل ضبع .

ومع ذلك فحين اقتربت تشارودييفا من المائدة ، هــازة قبعتها شمالا ويمينا ، مبتسمة من فم كبير وشفتين ورديتين نهض الفنــان العاشق ببطء ، وكانه قد صعق وحرك يديه مدهوشــا ووضعهما تحت حنكه .

– نينا . . . عزيزتى . . . يا للزينــة ! . . . لا احتمل . لا احتمل . . . نصحونى بالهدوء التام ، يا حبيبتى . . .

ربتت تشارودييفا على خده بيدها العظمية ، وغضنت انفها .

– وماذا عذرت عنى يوم امس فى المطعم ؟

– هل اغلظت القول عليك ، يوم امس ، فى المطعم ؟ اوه يا نينا .

– نعم ، وبشدة .

– كلمة شرف ، انا المفترى عليه .

وضعت تشارودييفا خنصرها على شفتيــــه ضاحكة : «انت تعرف اننى لا استطيع ان اغضب عليك طويلا» . ثــم التفتت الى نيقولاى ايفانوفيتش وقالت بصوت مختلف تماما ، كانمــا تمثل تمثيلية دارجة .

– لقد مررت من توى بغرفتك . يبدو ان احدى قريباتك قد وصلت . فتاة ساحرة .

القى نيقولاى ايفانوفيتش نظرة سريعة على صديقه ، ثم تناول من صحن الفنجــان السيغار ، واخــذ يمتص الدخــان منــه مصات قوية ، حتى انتشر الدخان على لحيته كلها . قال :

– هذه مفاجاة . ماذا يمكن ان يعنى ذلك ؟ . . انا ذاهب .

والقى السيغار فى البحر ، واخذ يهبط السلم الى الساحل ، مديرا عصاه الفضية الراس . وقد دفع قبعته الى مؤخر راسه ، وعندما وصل الى الفندق كان لاهث الانفاس . . .

– داشا ، لماذا جئت ؟ ما الذى حصل ؟

سال ، وهو يغلق الباب وراءه . كانت داشــا جالســة الى الارض قرب حقيبة مفتوحة ، تخيط جوربا . عندما دخل زوج اختها نهضت متثاقلة ، وعرضت له خدها ليقبلها ، وقالت مشتتة الفكر :

– يسعدنى جدا ان اراك . قررنا ، ابى وانا ، ان تسافر الى باريس . جلبت معى رسالتين من كاتيا . خذهما واقراهما ارجوك .

اختطف نيقولاى ايفانوفيتش الرسالتين من داشا ، وجلس عند النافذة . ذهبت داشا ، الى غرفة المغسلة ، واخذت تغير ملابسها ، وكانت تسمع زوج اختها يتصفح ورق الرسالتين ، ويزفر . ثــم سكن . تنصتت داشا حتى سمعته يسال فجاة :

– هل تناولت فطــورك ؟ اذا كنت جائعة فلنــذهب الى السرادق .

عندئذ فكرت مع نفسهــا : «لم يعد يحبهــا تمامــا» . سوت قبعتها على راسها بكلتا يديها ، وعزمت على ان ترجئ الحديث عن باريس الى الغد .

فى الطريق الى السرادق لــزم نيقولاى ايفانوفيتش الصمت ونكس بصره الى الارض ، ولكن حين سالته داشا «هل انت تسبح؟» رفع بصره بادى المرح ، وقال انهم الفوا هنا «جمعية مناهضة ثياب السباحة» التى ترمى بالدرجة الاولى الى اغراض صحية .

– تصورى ان الجســم يتلقى من اليود خلال شهر عــن السباحة على هذا البلاج اكثر مما يمكن ان يتناوله باطنيا بطريقة اصطناعية خلال هذه المدة نفسها . وفضلا عن ذلك فانك تمتصين اشعة شمسية ودفئا من الرمل المحمى . ونحن الرجال يمكــن ان نحتمل ، فنحن لا نغطى الا ما تحت الخصر . اما النساء فيغطين ثلثى الجسم تقريبا . وقد اخذنا نناهض ذلك بحزم . . . يوم الاحــد سالقى محاضرة فى هذا الموضوع .

سارا بمحاذاة الماء على الرمل الاصفر الناعم كالمخمل والمكون من الاصداف الصغيرة المسطحة التى صقلتها امواج المد والجزر .

وهناك ، غير بعيد عنهما ، حيث كانت الامواج الصغيرة تجـــرى وتنحسر عن الجرف مزبدة ، كانت فتاتان فى طاقتى سباحة حمراوين تتمايلان كالطوافتين .

قال نيقولاى ايفانوفيتش بلهجة جادة :

— من اتباعنا .

كان ينمو فى نفس داشا احساس يزداد قوة بين الاثـــارة والقلق . وقد ابدا حين رات السفينـــة ذات الاشرعـــة السوداء فى السهب .

توقفت داشا لتنظـــر الى الماء يسيح على الرمل كـــالغشاء الرقيق ، ثم يعود فيتراجع ، تاركا مسارب صغيرة ، وكان فى تماس الماء بالارض هذا شىء بهيج ازلى ، حتى ان داشا ترقصت ، ومدت يدها اليه . رات سرطانا صغيرا مسطحا يعدو جنبا ، مخلفا غُميمة من الرمل ، واختفى فى الاعماق . وجاءت موجة وبللت ذراعى داشا الى المرفقين .

قال نيقولاى ايفانوفيتش مقلصا عينيه :

— ارى فيك تغيرا ، اما انك قد ازددت حسنـــا ، او نحفت قليلا ، او ان اوان زواجك قد حان .

التفتت داشا ، ونظرت اليه بغرابة ، ونهضت ، وسارت نحو السرادق دون ان تمسح يديها ، ومن هناك كان الفنـــان العاشق يلوح بقبعته القشية .

اكلت داشا فطائر اللحم واللبن الخاثر ، وشربت الشمبانيا ، وانشغل الفنان العاشق محتفيا بها ، وبين الحين والآخر كان يركس فى حالة جمود ، هامسا وكانما لنفسه : «يا آلهى ، ما الطفها !» ، ثم جاء ببعض الشبـــان ليتعرفوا عليها ، وهم طـــلاب فى الاستوديو المسرحى تحدثوا باصوات مكتومة ، وكانهم فى اعتراف امام كاهن ، وكان نيقولاى ايفانوفيتش مغتبطا بهذا النجاح لقريبته داشا .

احتست داشا النبيذ ، وضحكت ، وكانت تمد يدها لهذا او ذاك ليقبلها ، ولم تصرف بصرها عن البحر المائج المتالق بزرقته . كانت تقول لنفسها : «انها لسعادة» .

بعد الاستحمام والنزهة ذهبوا لتناول عشائهم فى الفندق ، حيث كان الصخب والوضاءة والاناقة . تحدث الفنان العاشق عـن

الحب طويلا وبحرارة . وسكر نيقولاى ايفانوفيتش قليلا ، وهـو يتفرس فى داشا ، وغرق فى حزن . بينما كانت داشا تراقب طوال الوقت ومن خلال فتحة فى ستارة النافذة ومضات ضعيفة تظهـــر وتختفى غير بعيد عنها ، وتختفى ، وتعود ثانية . واخيرا نهضت ، وخرجت الى الساحل . كان البدر المستدير الصافى ، القريب تماما كما فى حكايات شهرزاد يطل على درب حرشفى متلالئ عبر البحر كله . شبكت داشا اصابع يديها ، وقرقعتها .

تناهى اليها صوت نيقولاى ايفانوفيتش فاسرعت مبتعـــدة بمحاذاة الماء الذى كان يلعق الساحل وسنان . رات داشا شبح امراة جالسة على الرمل ، وبقربها شبحا آخر لرجل يوسد راســه ركبتيها . وكان راس انسان يعوم سابحا بين الومضات الزجراجة فى الماء الليلكى الداكن . نظرت الى داشا عينان انعكس فيهما نور القمر ، وظلتـــا تراقبانها طويلا . ثم ابصرت داشـــا شخصين متلاصقين ، وبعد ان مرت بهما سمعت تنهيدة وقبلة .

«داشا ، داشا !» — سمعت هذا النداء من بعيد . فجلست على الرمل ، وركزت كوعيها على ركبتيها ، واسندت حنكهـــا على يديها . لو جاء تليغين الآن وجلس الى جانبها ، وطوق بذراعـــه ظهرها ، وسالها بصوت صارم وخافت «هل انت لى» فستجيبـــه «لك» .

تحرك شبح رمادى كان راقدا وراء تلة رمل ، وقعد متدلى الراس ، ونظر طويلا الى الدرب المتلالئ الذى رسمـــه القمر على الماء ، وكانما لتسلية الاطفال ، ونهض ، ومر بداشا متهافتـــا كالميت . وعرفت داشا بقلب واجف هالع انه بيسونوف .

وهكذا بدات بالنسبة لداشا هذه الايام الاخيرة للعالم القديم . ولم تكن كثيرة وهى مشبعة بقيظ صيف آخذ بالهمود ، بهيجـــة وسعيدة . ولكن الذين تعودوا على ان يفكروا بان يوم الغد واضح كمعالم الجبال البعيدة المزرقة ، وحتى الاذكياء منهم وذوو البصائر لم يستطيعوا ان يـــروا ، ولا ان يعرفوا ما وراء اللحظـــة التى يعيشونها . ولقد كـــان وراء هذه اللحظة الملونة ، المضمخـــة بالروائح ، والمفعمة بدفق نسغ الحياة بكل الوانه يرقد ظـــلام دامس . . . ما من نظرة ، ولا شعور ، ولا فكر نفذ قيد شعرة الى

هناك ، لم يكن هناك غير نفر تحسس ما هو قادم ، وربما بشعور مبهم فقط كشعور الحيوان عند دنو العاصفة . وكان هذا الشعور شبيها بقلق غير معروف الهوية . بينما كانت تنزل على الارض فى ذلك الوقت سحابة غير مرئية ، تدور دورانا مجنونا ، لها خطوط منتصرة ضارية هابطة ولم يكن الرمز الوحيد الى ذلك الا شريطا من ظل الشمس ممتدا من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى ماسحا كل الحياة القديمة المرحة الخاطئة على الارض .

١٣

كان بيسونوف يقضى اياما بكاملها منطرحا عند البحر . وكان وهو يتطلع الى الوجوه : النسائية الضاحكة الملوّحة قليلا بالشمس والرجالية النحاسية الحمراء المنفعلة ، يحس فى جزع بان قلبه ليس الا قطعة من الثلج ترقد فى صدره . وكان يفكر ، وهو ينظر الى البحر ، بانه باق كما هو منذ آلاف السنين يضرب الساحل بامواجه . وكان الساحل ، آنذاك ، مقفرا ، بينما هو اليوم ماهول بالناس ، وسيموت الناس ، ويقفر الساحل ثانية ، ويظل البحر يترامى على الرمل كديدنه . وكان بيسونوف ، وهو يفكر ، يقطب ويجمع باصابعه الاصداف فى كومة ، ويحشى فيها عقب سيكارته المنطفئة ، ثم يذهب للسباحة . وبعد ذلك يتناول غداءه بتوان ، ثم يذهب لينام .

يوم امس جلست فتاة على الرمل عجلى ، غير بعيد عنه وراحت تحدق طويلا فى ضوء القمر ، وكانت تفوح منها رائحة خفيفة لعطر البنفسج . فرفت ذكرى فى ذهنه الراكد . وتململ بيسونوف ، وقال لنفسه «لا ، لا تلق بشصك عليها . . . الى الشيطان . . . انا ذاهب لانام» ، ونهض وذهب الى الفندق .

وتهيبت داشا بعد هذا اللقاء . خيل اليها ان حياة بطرسبورغ – كل تلك الليالى المضطربة – قد انقضت الى الابد وبيسونوف الذى فتنها ذات مرة بشىء غير مفهوم قد صار فى طى النسيان .

الا ان كل شىء قد استيقظ فيها بقوة جديدة من نظرة واحدة ، من تلك اللحظة التى مر فيها شبحا اسود ازاء ضوء القمر ، ولم يكن ذلك على شكل مشاعر مضطربة مبهمة ، بل هو الآن رغبة اكيدة حارة حرارة الظهيرة . انها متعطشة لتحس هذا الرجل . لا ان تحب ، ولا ان تتعذب ، ولا ان تتردد ، بل ان تحسه فقط .

كررت بصوت واهن وهى جالسة فى فراش ابيض فى غرفة بيضاء مغمورة بضوء قمرى :

– آه ، يا آلهى ، آه ، يا آلهى ، اى شىء هذا ؟

وفى الساعة السادسة صباحا خرجت داشا الى ساحل البحر ، وخلعت ملابسها ، ودخلت فى الماء الى ركبتيها ، وارسلت بصرها . كان البحر شاحب الزرقة ، ناحل اللون ، وهناك فى البعيد فى بعض الامكنة فقط كان يغطى سطحه تموج خفيف كامد . كان الماء يتماوج متماهلا فيرتفع الى ما فوق الركبة تارة ، ويهبط الى اسفلها تارة اخرى ، مدت داشا ذراعيها ، وارتمت على هذه الطراوة السماوية ، واخذت تسبح . ثم لفت جسمها فى روبها الوبر ، وقد انتعشت وكسا ملح البحر جسدها ، واستلقت على الرمل وقد سرى دفء فيه .

وفكرت مع نفسها . وقد اسندت خدها على مرفقها الفوّاح بالطراوة : «لا احب غير ايفان ايليتش . احبه ، احبه . وانا معه اشعر بالنقاء والنضارة والفرح . حمدا لله اننى احب ايفان ايليتش . وساتزوجه» .

واغمضت عينيها ، وغفت ، شاعرة بالماء يخفق بالقرب منها ، وكانه يتنفس منتظما مع انفاسها .

وكانت الغفوة هذه لذيذة . وقد لازمها الاحساس بجسمها دافئا خفيفا فى رقدته على الرمل . واغرمت بنفسها فى نومها .

فى الغروب حين كانت الشمس تنزل مثل قرص مسطح فى الوهج البرتقالى الخالى من كل غيمة ، التقت داشا ببيسونوف جالسا على صخرة عند درب يتعرج عبر حقل مسطح من الافسنتين . وكانت داشا قد وصلت الى هناك اثناء نزهتها وتوقفت فى الحال لدى رؤيتها لبيسونوف ، وارادت ان تستدير وتركض الا ان الخفة السابقة قد زايلتها مرة اخرى ، وثقلت رجلاها ، وكانهما

غامضتا في الارض ، فراحت تنتظر اليه من تحت حاجبيها وهو يتقدم نحوها لا تكاد تظهر عليه الدهشة من اللقاء ، ويخلع قبعة القش ، وينحني لها بخشوع انحناءة راهب .

— لم تخطئني عيناي بالامس ، يا داريا دميتريفنا ، انت التي كنت على ساحل البحر ؟

— نعم ، انا . . .

وصمت منكسا بصره ، ثم نظر الى قلب السهـــــب ساحبا بصره على داشا .

— في هذا الحقل يحس المرء عند الغروب وكانه في صحراء . نادرا ما يتجول الناس هنا . فليس حولك غير الافسنتين والصخور وفي الغسق يخيل اليك ان الارض اقفرت من كل انسان .

وضحك بيسونوف كاشفا ببطء عن اسنان بيض ، نظرت داشا اليه نظرة طائر بري . ثم سارت الى جانبه على الدرب . كانت اجمات عالية من الافسنتين قد نمت على الجانبين وفي جنبات الحقل كله فوّاحة برائحة مرة ، وكان القمر يلقي على الارض الجافة عند كل اجمة منها ظلا شاحبا لما يزل . وكان خفاشان يطيران فوق راسيهما محلقين هابطين في خط غير مستقيـــــم ومصطفقين باجنحتهما ظاهرين بوضوح في شريط الغروب .

قال بيسونوف :

— اغراءات ، اغراءات لا منجى لك منها . تغري وتغوى واذا بك مرة اخرى واقعة في وهم . انظري باي دهاء قد نظم كـــل ذلك — واشار بعصاه الى قرص البدر المتدلي على انخفاض — طوال الليل سيحوك الشباك ، وسيدعى الدرب بانه جدول ، وستبدو كل اجمة ماهولة ، وحتى الجثة ستبدو جميلة ، والوجه النسائي غامضا . ولكن قد يكون هذا ما يجب ان يكون حقا : كل الحكمـــــة في هذا الوهم . . . ما اسعدك ، يا داريا دميتريفنا ، ما اسعد حظك . . .

قالت داشا باصرار :

— ولم تحسبه وهما ؟ اظن ان ذلك ليس بوهم اطلاقا .. مجرد انه بدر ينير .

— بالطبع ، يا داريا دميتريفنا ، بالطبـــــع . . . «كوني كالاطفال» . ان الوهم في انني لا اصدق باي شيء من هذا . ولكن

«كوني ايضا كالافاعي» . ولكن كيف التوفيق بين الاثنين ؟ ماذا يحتاج ذلك ؟ . . يقولون ان الحب هو الموفق ؟ وانت ماذا تظنين ؟

— لا اعرف ، لا اظن شيئا .

— من اي اصقاع ياتي الحب ؟ وكيف اغواؤه ؟ باية كلمة سحر ؟ ان يستلقي المرء في التراب ويناديه : اوه يا الهي ، يسّر لي حبا ! . .

وضحك ضحكة غير عالية مبديا اسنانه .

قالت داشا :

— لا اسير ابعد من ذلك . اريد ان اذهب الى البحر .

واستدارا ، وراحا يسيران على الافسنتين نحو مرتفع رملي . وفجاة قال بيسونوف بصوت ناعم حذر :

— اتذكر الى آخر كلمة كل ما قلته عندما كنت في بيتي في بطرسبورغ . لقد افزعتك (سارت داشا بسرعة شديدة ناظرة امامها) . آنئذ كان يهزني شعور واحد . . . ليس جمالـــك الفريد ، لا . . . بل الذي اذهلني ونفذ الى اعماق نفسي موسيقى صوتك التي لا توصف . عندئذ نظرت اليك وفكرت مع نفسي : ذلك هو خلاصي كله — ان اهبك قلبي ، واصير شحاذا خنوعا . اذوب في ضيائك . . . لربما اكسب قلبك ؟ ان اصير غنيا غنى لا حد له ؟ فكري يا داريا دميتريفنا ، ها قد جئت ، وعليّ ان افك اللغز .

سبقته داشا ، وطلعت على كثيب رملي . كان الدرب العريض الذي يلقيه البدر متلالا كالحراشف على صدر الماء الثقيل يمتـــد حتى نهاية البحر مقطوعا بشريط وضاء طويل ، وهناك ، فوق هذا الضوء ينهض الق داكن . وكان قلب داشا يخفق بشدة ، حتى انها اغمضت عينيها ، وفكرت في سرها «يا آلهي ، انقذني منه» . غرز بيسونوف عصاه في الرمل عدة مرات .

— لقد حان الوقت لان تتخذي قرارك ، يا داريا دميتريفنا . يجب ان يحترق احدنا في هذه النار ، اما انت واما انا . . . فكري ، اجيبي . . .

قالت داشا بحدة واقتضاب :

— انا لا افهم .

— عندما تصيرين متسولة فارغة النفس محروقة عندئذ فقط

تبدأ لك حياة حقيقية ، يا داريا دميتريفنا . . . بدون نور القمر هذا وهو اغراء رخيص ، وستكون لك حكمة . وهذا لا يحتـــاج الا ان تخلعي عنك طوق العذرة .

تناول بيسونوف يد داشا بيده المتثلجة ، وحدق في عينيها . فلم تستطع داشا الا ان تقلص عينيها ببطء . وبعد بضع لحظات طويلة من الصمت قال :

— على كل ، من الافضل ان ناوى الى بيوتنـــــا لننام . تحدثنا ، وناقشنا المسالة من جميع الجوانب ، ثم ان الوقت متاخر ايضا . . .

صحب داشا الى الفندق ، وودعها باحترام ، ودفع قبعتــه الى مؤخر راسه ، وسار بمحاذاة الماء ، ناظرا الى اشباح المتنزهين المغبشة . ثم توقف فجاة واستدار ، وتقدم من امراة فارهـــة كانت واقفة بلا حراك ، وقد لفت جسمهـــا بشال ابيض . القى بيسونوف عصاه عبر كتفه ، وامسك طرفيها ، وقال :

— نينا ، مرحبا .

— مرحبا .

— ماذا تفعلين وحدك على الساحل ؟

— اقف .

— لماذا وحدك ؟

— وحدى ، لانى وحدى . — اجابت تشارودييفـــا بخفوت وغضب .

— اما زلت غاضبة ؟

— لا ، يا عزيزى ، هدات منذ زمان .

— نينا ، تعالى الىّ .

القت راسها الى الخلف . وصمتت طويلا ، ثم اجابت بصوت متهدج غير واضح :

— هل جننت ؟

— وانت ، الم تعرفى هذا ؟

امسك يدها ، الا انهـــا سحبتها بحدة ، وسارت ببطء الى جانبه ، على طول انعكاسات ضوء القمر المنزلقة على الماء الاســود الزيتى اللون ، مع خطواتهما .

في صباح اليوم التالى ايقظ نيقولاى ايفانوفيتش داشا بطرق [illegible] على بابها :

— عزيزتى داشا ، استيقظى . لنذهب لشرب القهوة .

انزلت داشا ساقيها من السرير ، ونظرت الى جوربيهـــا وحذائها . كان جميعها مغطى بطبقة من الغبار الرمادى . ان شيئا ما قد حصل . ام لعلها حلمت مرة اخرى بذلك الحلم المرعب ؟ لا لم يكن حلما بل شيئا اسوا منه بكثير . لبست داشا ثيابها على نحو ما ، واسرعت لتستحم في البحر .

الا ان الماء قد اتعبها ، والشمس ارمضتها . فكرت وهى جالسة وروبها الموبر على كتفيها ، حاضنة ركبتيهـــا العاريتين ، ان ما من شىء طيب يمكن ان يحصل هنا .

«لست ذكية بل جبانة وعاطلة . وخيالى مبالغ . وانا لا اعرف ماذا اريد . في الصباح اريد شيئا ، وفي المساء شيئا آخر . وهذا هو بالذات الانسان الذى امقته» .

احنت داشا راسها ، وحدقت في البحر . ان غموضا وحزنا [illegible] اسالا الدموع من عينيها .

«يا لهذا الكنز العظيم الذى احرز عليه . ومَنْ له حاجة به ؟ لا احد في هذه الدنيا . انا لا احب احدا حبا حقيقيا . يعنى انه على حق . من الافضل حرق كل شىء ، واحراق نفسى فيه لاكون شخصا في [illegible] من امره . دعانى اليه ، ويجب ان اذهب اليه اليوم ، في المساء و . . . آوه ، لا !»

انزلت داشا وجهها الى ركبتيها ، وهى تحس بحر شديد . وكان واضحــا ان من المستحيــل الاستمرار اطول في العيش هذه الحياة المزدوجة . لا بد ان ياتى اخيرا الخلاص من العـــذرة التي لا تطاق . ولتكن مصيبة .

وهكذا راحت تتامل وهى في جزع من امرها :

«لنفرض اننى سافرت من هنا ، الى ابى . الى الغبار والآلام . وابقى هناك حتى مجىء الخريف . وتبدا الدراسة . واصير اشتغل اثنتى عشرة ساعة في اليوم ، وتجف نضارتى ، واصبح عولـــة . واحفظ القانون الدولى عن ظهر قلب . واصير ارتدى التنورات من

الفانيلة : المحامية المحترمة العانس بولافينا . انه لمخرج محترم جدا بالطبع» .

نفضت داشا الرمل الذى علق فى جلدها ، وذهبت الى الفندق . كان نيقولاى ايفانوفيتش مستلقيا فى الشرفة فى بيجامة حريرية يطالع رواية ممنوعة لاناطول فرانس . جلست داشا على ذراع المقعد الهزاز الذى كان يستلقى فيه ، وقالت فى استغراق وهى تهز نعلها فى قدمها .

– اردنا ان نتكلم حول كاتيا .

– نعم ، نعم .

– ترى ، يا نيقولاى ، ان حياة المرأة صعبة بشكل عام . حتى فى سن التاسعة عشرة لا اعرف ماذا افعل بنفسى .

– فى سنك ، ياعزيزتى داشا ، يجب ان يحيا الانسان حياته بكل ما فيه من طاقة ، ودون ان يتردد فى شىء . التفكير الطويل لا يوصلك الى شىء . افكر مع نفسى وانا ناظر اليك ، انك فائقة الجمال .

– هذا ما عرفته ! لا فائدة من الحديث معك يا نيقولاى . انت دائما غير لبق ولا تقول الشىء الذى يجب ان يقال ، ولهذا السبب تركتك كاتيا .

ضحك نيقولاى ايفانوفيتش ، ووضع رواية اناطول فرانس على بطنه ، والقى يديه الممتلئتين وراء راسه .

– ستبدأ الامطار ، ويعود الطائر بنفسه الى البيت . هل تذكرين كيف كانت تنظف ريشها ؟ . . ومع ذلك احب فانا كاتيا كثيرا . فقد صفى كل واحد منا ديونه للآخر .

– اها ، اذن فانت تتحدث بهذا الشكل الآن ! ولكن لو كنت فى مكان كاتيا لسلكت نفس السلوك معك . . .

وسارت الى سياج الشرفة غاضبة .

– ستكبرين اكثر وسترين ان اخذ امور العيش بجدية مفرطة حماقة ومجلبة للاذى . تلك هى خاصية افراد آل بولافين ، تعقدون كل شىء . . . يجب ان يكون الانسان ابسط ، واقرب الى الطبيعة . . .

وتنهد ، وصمت ناظرا فى اظافره . مر بالشرفة طالب عرق يركب دراجة . وقد جلب البريد من البلدة .

قالت داشا باكتئاب :

– ساذهب للاشتغال معلمة ريفية .

فاستفهمها نيقولاى ايفانوفيتش فى الحال :

– الى اين ؟

غير انها لم تجب ، وذهبت الى غرفتها ، حمل البريد رسالتين الى داشا ، احداهما من كاتيا ، والثانية من دميترى ستيبانوفيتش . وقد كتب الاخير فى رسالته :

«ابعث اليك رسالة من كاتيا . وقد قرأتها . ولم تعجبنى . ولكن افعلوا ما يحلو لكم . . . كل شىء عندنا كما هو من قبل . الحر شديد . وبالاضافة الى ذلك يوم امس اعتدى احد الشقاة على سيميون سيمينوفيتش غفيادين بالضرب المبرح فى منتزه المدينة ، ولكنه يخفى الامر . تلك هى كل اخبارنا . ثم وصلتك بطاقة بريدية من شخص يدعى تليغين ، ولكننى اضعتها . يبدو لى انه فى القرم ايضا ، او فى مكان آخر» .

اعادت داشا قراءة السطرين الاخيرين بامعان ، وبدا قلبها يخفق فجاة خفقانا شديدا . بل وضربت الارض بقدمها بعد ذلك فى حسرة . يا للفرحة «يبدو لى انه فى القرم او فى مكان آخر» . ان اباها رجل مزعج حقا ، غير مبال ، وانانى . دعكت رسالته فى يدها ، وجلست طويلا الى منضدة الكتابة مسندة حنكها على راحة يدها .

وبعد ذلك اخذت تقرا رسالة كاتيا .

«انت تذكرين ، يا عزيزتى داشا اننى كتبت لك عن الرجل الذى يتعقبنى . يوم امس مساء جلس الى جانبى فى حديقة لوكسمبورغ . تهيبت فى بادىء الامر ، ولكننى بقيت جالسة . عندئذ قال لى : «كنت اتعقبك ، وقد عرفت اسمك ، ومَنْ انت . ولكن فيما بعد حلت بى محنة كبيرة : لقد وقعت فى غرامك» . نظرت اليه . انه يجلس بعظمة ، ووجهه صارم ، داكن وشاحب . «لا داعى الى ان تخافى منى . فانا رجل عجوز ، وحيد ، ومصاب بالذبحة الصدرية ، وقد اموت فى اية لحظة . وفجاة تحدث هذه المحنة» . وسالت الدموع على خده . ثم قال وهو يهز راسه :

«آوه ، ما احلى وجهك ، ما احلاه» . قلت : «كف عن ملاحقتى» . واردت ان انصرف ، الا اننى احسست بالشفقة عليه ، وبقيت اتحدث معه . . . اصغى هو هازا راسه مغمضا عينيه . تصورى ، يـــا عزيزتى داشا ، اليوم تلقيت رسالة من امراة ، يبدو انها بوابة البيت الذى كان يعيش فيه . . . انها تبلغنى «بناء على طلبه» بانه قد توفى ليلا . . . ما ارعب ذلك . . . والآن ايضا . اتقدم عـــن النافذة ، وارى فى الشارع آلاف وآلاف الانوار والعربات تعدو ، والناس يسيرون بين الاشجار . وبعد المطر يخيم الضباب . ويبدو لى كل ذلك يعود الى الماضى . وان كل شىء قد مات ، وان هؤلاء الناس اموات ، واننى ارى ما فات وانقضى ، وان ما يحدث الآن ، وانا واقفة انظر اليه لا اراه ولكننى اعرف ان كل شىء قد انتهى ، ربما انا متوعكة المزاج تماما . احيانـا استلقى وانخرط بالبكاء متأسفة على ان الحياة قد ولت . لقد كانت هناك سعادة ، مهما كانت لونها واناس احبهم ولم يبق لذلـــك اى اثر . . . جف قلبى فى صدرى ، وذبل . وانا اعرف ان المستقبل يضمر محنة كبيرة اخرى ، وكل ذلك جزاء على الحياة السيئة التى عشناها» .

اطلعت داشا نيقولاى ايفانوفيتش على هذه الرسالة .

اخذ يقرؤها متنهدا ، ثم قال انه كان دائما يشعر بذنبه نحو كاتيا .

– كنت اعرف ان حياتنا سيئة ، وان تلـــك الملـــذات المستمرة ستنتهى يوما ما بانفجار اليأس . ولكن ما كان فى وسعى ان اعمل اذا كانت التسلية هى كل الشغل الشاغل لحياتى وحياة كاتيا وكل الذين كانوا يحيطون بنا . احيانا اتطلع الى البحر هنا واقول لنفسى ان هناك روسيا تحرث الارض وترعى الماشيـــة وتستخرج الفحم ، وتنسج ، وتطرق المعادن ، وتبنى ، وان هناك اناسا يحملونها على ان تفعل كل ذلك . اما نحن ارستقراطيـــة البلاد الفكرية ، المثقفين ، جماعة ما ثالثة ، . . . فلا نمت بصلة لاى من طرفى روسيا هذه . انها تعيلنا ، ونحن فراشات . الهـــا لمأساة . لو حاولت مثلا ان ازرع خضروات او اقوم بشىء آخر نافع لما اجديت فتيلا . لقد كتب لى حتى آخر ايام ان ارف كالفراشة ، بالطبع نحن نكتب كتبا ، ونلقى خطبا ، ونصنع السياسة ، ولكن

كل ذلك لا يخرج عن نطاق تزجية الوقت ، حتى حين نحس بوخز الضمير . ان تلك الملذات المستمرة انتهت عند كاتيـــا بخراب روحى ، وما كان من الممكن ان يحدث غير ذلك . . . آه ، لو كنت تعرفين اية امرأة فاتنة رقيقة حنون كانت كاتيا ! وانا الذى افسدها ، حطمها . . . نعم انت على حق ، يجب ان اسافر اليها . . .

واستقر رايهما على ان يسافرا الى باريس فور حصولهما على جوازى السفر . وبعد الغداء نزل نيقولاى ايفانوفيتش الى البلدة ، بينما شرعت داشا فى تحويل قبعتها القشية لتكون صالحة للسفر ، الا انها اتلفتها فقط واعدتها الى مرتبة الغرفة . ثم كتبت رسالة الى ابيها ، وعند حلول الظلام استلقت فى الفراش ، بعد ان شعرت باعياء مفاجئ ، ووسدت خدها راحة يدها ، واصغت الى هديـــر البحر يبدو ابعد فابعد ، واحلى فاحلى .

ثم خيل اليها ان شخصا ينحنى عليها ، ويزيح خصلـــة شعر من على وجهها ، ويقبلها فى عينيها ، ووجنتيها ، وطرفى شفتيها ، يلثمها لثما خفيفا كالتنفس . وسرت حلاوة هذا اللثم فى كيانهـــا كله . راحت داشا تستيقظ ببطء . رات فى النافذة المفتوحـــة نجوما قليلة ، وقد اطار النسيم اوراق الرسالـــة ، وراح يخفق فيها . ثم ظهر من وراء الجدار شبح انسان . وركز كوعيه عـــلى افريز النافذة الخارجى وصار يحدق فى داشا . .

عندئذ استيقظت داشا تماما ، وجلست ، وضمت يديها الى صدرها ، فى الموضع الذى كان فستانها فيه غير مزرر .

وسالت فى صوت لا يكاد يسمع :

– ماذا تريد ؟

فقال الرجل عند النافذة بصوت بيسونوف :

– كنت انتظرك على الساحل . فلماذا لم تاتى ؟ اتخافين ؟

ترددت داشا قليلا ثم قالت :

– نعم .

عندئذ تسلق الرجل فوق افريز النافذة ، وازاح المنضدة ، وسار نحو السرير .

– قضيت ليلة فظيعة . اردت ان اشنق نفسى . اليست فيك ولو ذرة من الشعور نحوى ؟

هزت داشا راسها ، ولم تحرك شفتيها .
– اسمعى ، يا داريا دميتريفنا ، ان هذا يجب ان يحدث ، ان لم يكن اليوم ، فغدا ، او بعد عام . لن استطيع ان اعيش بدونك . لا تجعلينى افقد صورتى الانسانية . – وكان يتحدث بخفوت وبحة ، ودنا من داشا تماما . فندت منها فجاة زفرة عميقة مقتضبة ، وواصلت تحديقها فى وجهه . – كل ما قلته البارحة كذب . . . انا فى عذاب مبرح . . . وليست لى القوة على محو ذكراك . . . كونى زوجتى .
وانحنى على داشا مستنشقا عبيرها ، واضعا يده وراء رقبتها ، وضغط شفتيه على شفتيها . صدت داشا صدره بيديها . الا ان يديها انطوتا . عندئذ مرت فكرة هادئة فى وعيها المشدوه : «هذا ما كنت اخافه واشتهيه ، ولكن ذلك صنو القتل . . .» واشاحت وجهها ، وسمعت بيسونوف يتمتم شيئا فى اذنها مع انفاس الخمرة . وفكرت داشا مع نفسها : «هذا ما حصل له تماما مع كاتيا» . وعندئذ انكمش جسمها كله من برودة صافية مفيقة ، وصارت رائحة الخمرة اكثر حدة ، والتمتمة اشد قرفا .
– اتركنى .
همست بذلك ، وازاحت بيسونوف بالقوة وهرعت الى الباب ، وزررت اخيرا فتحة فستانها .
عندئذ استولت على بيسونوف نوبة من الجنون . امسك داشا من يدها ، وضغطها على جسمه ، وصار يقبلها فى عنقها . صارعته صامتة مطبقة شفتيها . وحين استطاع ان يرفعها ، ويحملها قالت بهمس سريع :
– لن يكون ذلك ، ولو تموت . . .
ودفعته بقوة ، وحررت نفسها ، ووقفت عند الحائط . انهد بيسونوف على مقعد ، وهو ما يزال يتنفس بصعوبة ، وجلس دون حراك . مسدت داشا يديها فى المواضع التى انطبقت فيها آثار الاصابع .
قال بيسونوف :
– لم تكن هناك حاجة للتسرع .
اجابت :

– انت تشعرنى بالغثيان .
عندئذ القى راسه جنبا على متكأ المقعد . قالت داشا :
– انت مجنون . . . اخرج حالا . . .
وكررت ذلك عدة مرات . ففهم اخيرا ، ونهض ، وتسلق النافذة تقبلا اعوج الحركة . سدت داشا صفاقة النافذة ، وراحت تذرع الغرفة المظلمة . لقد كانت تلك ليلة مزرقة .
قرب الصباح تقدم نيقولاى ايفانوفيتش من بابها خافقا بقدميه الحافيتين ، وسأل بصوت تاعس :
– هل توجعك اسنانك ، يا داشا ؟
– لا .
– ولكن ما سبب تلك الحركة فى الليل ؟
– لا اعرف .
تمتم «امر غريب» وانصرف . لم تستطع داشا ان تجلس ، ولا ان تستلقى . بل قضت الليلة تذرع الغرفة من النافذة الى الباب جيئة وذهوبا لتختنق من نفسها ذلك القرف الحاد كوجع الاسنان . لو ان بيسونوف اخذها اخذا لكان ذلك افضل ، على ما يبدو . وتذكرت بالم ممض السفينة البيضاء الغارقة بنور الشمس ، وذلك الحمام العاشق المهجور فى حرش الحور يهدل هديله الطويل يناغيها ليزعم لها كذبا انها عاشقة . نظرت داشا الى الفراش الذى ابيض فى الغبش ، والذى كان مكانا رهيبا تحول فيه وجه انسان قبل حين الى بوز شيطان ، واحست ان من المستحيل عليها ان تعيش وهذا الاحساس يلازمها . انها مستعدة لتحمل اى عذاب ما عدا الاحساس بهذا القرف . كان راسها يلتهب ، وكانت تود لو ترفع عن وجهها ورقبتها وجسمها كله شيئا كانت تحسه كنسيج العنكبوت .
واخيرا لاح الضوء المتسرب من خلال صفاقة النافذة ساطعا . وبدات الابواب تصفق فى الدار ، ونادى صوت رنان «ماتريوشا ، اجلبى ماء . . .» استيقظ نيقولاى ايفانوفيتش ، وسمعته وهو ينظف اسنانه خلف الجدار . بللت داشا وجهها بالماء ، وانزلت قبعتها على حاجبيها ، وخرجت الى الساحل : كان البحر ساخنا كالحليب الطازج ، والرمل رطبا . وفى الجو رائحة نباتات بحرية ،

انعطفت داشا الى الحقل . وسارت فى الطريق . كانت عربة مـن الاغصان المضفورة يجرها حصان واحد قادمة للقائها من الجانب الآخر من الطريق تثير عجلاتها سحابة صغيرة من الغبار ، وقـد جلس تترى فى مقعد السائق ، وخلفه رجل عريض الكتفين فى ثياب بيض . نظرت داشا اليه ، وقالت لنفسها كالنائمة (انطبقت عيناها من الشمس ، ومن التعب) «هذا رجل لطيف سعيـد آخر ، وليكن كذلك ، لطيفا سعيدا» وانحرفت عن الطريق . وفجأة صدر مـن العربة صوت مرعوب :

– داريا دميتربيفنا !

وتقفز شخص الى الارض ، وركض نحوها وجمد قلب داشا ، وارتخت رجلاها من ذلك الصوت . التفتت ، فرأت تليغين يجرى نحوها ملوح الوجه ، منفعل الاسارير ازرق العينين محببا الى القلب على نحو مفاجئ حتى ان داشا وضعت يديها على صدره بسرعـة ، وضغطت وجهها عليه ، واجهشت تبكى بكاء طفوليا عاليا .

امسك تليغين كتفيها بقوة . وحين حاولت داشا ان تقـوم ببعض التوضيح بصوت متقطع قال :

– ارجوك ، يا داريا دميتربيفنا ، ارجوك ، فيما بعد . هذا غير مهم . . .

تبلل صدر سترته الكتانية بدموع داشا . وخففت الدموع عنها . سألت :

– هل انت قادم الينا ؟

– نعم جئت لاودعك ، يا داريا دميتربيفنا . بالامس فقط عرفت انك هنا ، فاردت ان اودعك .

– تودعنى ؟

– استدعونى للخدمة ، ولا مفر من ذلك .

– استدعوك للخدمة ؟

– الم تسمعى حقا ؟

– لا .

– انها الحرب .

نظرت داشا اليه ، ورمشت ، ولم تكن فاهمة شيئا فى تلك اللحظة .

١٤

كان اجتماع استثنائى لهيئة التحرير يعقد فى مكتب رئيس تحرير الصحيفة الليبرالية الكبيرة «كلمة الشعب» . ولما كانـت المشروبات الكحوليـة قد منعت يوم امس بموجب قانون ، فقـد قدم الكونياك والروم مع شاى هيئة التحرير على خلاف العادة .

كان الليبراليون المحنكون الملتحون يجلسون فى مقاعد عميقة وثيرة ، يدخنون التبغ ، ويشعرون بانهـم فى حيص بيص . وكان المحررون الشبان يجلسون على افاريز النوافذ ، وعلى اريكة جلدية مشهورة ، هى قلعة المعارضة ، وصفها احد الكتاب المشهورين وصفا غير حذر ، فقال انها مباءة للبق .

كان رئيس التحرير ، وهو رجل اشيـب مورد الوجنتين ، انجليزى المنحى يقول بصوت متشدق – كلمة بكلمة – احدى خطبه الشهيرة التى كان عليها ان ترسم – ورسمت بالفعل – خط سلوك الصحافة الليبرالية كلها .

– « . . . التعقيد فى مهمتنا يرجع الى اننا يجب ونحن امام الخطر الذى يهدد سلامة الدولة الروسية ، ان نمد يدنا الى السلطة القيصرية ، دون ان نتراجع عن معارضتها خطوة واحدة . ويجب ان يكون عملنا نزيها وصريحا . ان مسألة لوم الحكومة القيصرية على جرجرتنا للحرب ، هى فى اللحظة الراهنة مسألـة ثانوية . يجب ان ننتصر اولا ، ومن بعد نحاكم المذنبين . ايها السادة ، بينما نتحدث هنا ، تجرى معركة دموية قرب كراسنوستاف وقد ارسل جيشنا لسد الجبهة المصدوعة . ومصير هذه المعركة غير معروف الآن ، ولكن يجب الا يغيب عن الاذهان ان كييف مهددة . وليس من شك فى ان الحرب لا يمكن ان تستمر اكثر من ثلاثة او اربعة اشهر ، ومهما تكن نتيجتها فاننا سنقول للحكومة القيصرية مرفوعى الرؤوس : اننا كنا معكم فى الساعة الحرجة ، ونحن الآن نطالبكم كشفا بالحساب . . .

لم يتمالك نفسـه احد قدامى المحررين ، واسمـه بلوسفيتوف ، وكان يكتب فى شؤون الادارة الذاتية فصـاح محتدا :

– الحكومة القيصرية هي التي تحارب ، فلماذا نمد يدنا لها ؟ انا لا افهم ، ولو حطمت راسي . المنطق البسيط يحتم علينا ان نبعد انفسنا عن هذه المغامرة . ومن ورائنا جميع المثقفين . دعوا القياصرة يضرب احدهم عنق الآخر ، فان ذلك لن يكون الا لفائدتنا .

– نعم ، ان مد اليد الى نيقولاى الثانى شيء مقرف ، مهما قلتم فيه يا سادة – تمتم بذلك «الفا» احد كتاب المقالات الافتتاحية ، واختار لنفسه قطعة كعكة من الصحن – ان ذلك يجعل المرء يتصبب عرقا باردا في نومه . . .

وفي الحال تحدثت عدة اصوات :

– لا توجد ، ولا يمكن ان توجد ظروف تجبرنا على الاتفاق . . .

– ما هذا ؟ استسلام ؟ اريد ان اسأل .

– اهذه نهاية مخزية للحركة التقدمية كلها ؟

– اما انا ايها السادة ، فاريد على كل حال ان يشرح احد لي الغرض من هذه الحرب .

– ستعرف حين يقطع الالمان الرقاب .

– انت ، يا اخ ، تبدو قوميا متعصبا !

– مجرد انني لا اريد ان أضرب .

– ولكنهم لايضربونك ، بل يضربون نيقولاى الثانى .

– المعذرة . . . وبولونيا ؟ وفولينيا ؟ وكييف ؟

– كلما ضربونا اكثر دنت الثورة اكثر .

– اما انا فلا ارغب في ان اتخلى عن كييف في سبيل اية ثورة .

– اخجل ، يا بيتر بيتروفيتش ، اخجل يا اخ . . .

شرح رئيس التحرير بعد ان اعاد النظام بصعوبة ، ان الرقابة العسكرية ستغلق الجريدة ، وفق احكام قانون الطوارئ ، على اقل هجوم على الحكومة ، وستسحق براعم حرية الكلمة التي بذلت جهود كبيرة في النضال في سبيلها .

– . . . ولهذا اقترح على الاجتماع الموقر التوصل الى وجهة نظر مقبولة . ومن جهتي فانا اجرؤ على ان اعلن رايا قد يكون غريبا ، وهو اننا يجب ان نقبل هذه الحرب بكليتها ، وبكل

عواقبها . ولا تنسوا ان هذه الحرب تحظى بشعبية بالغة بين المجتمع . وقد اعتبرت في موسكو الحرب الوطنية الثانية . – وهنا ابتسم ابتسامة خفيفة ، وغض بصره – وقد استقبل القيصر في موسكو استقبالا حارا تقريبا . والتعبئة بين السكان البسطاء تجرى بطريقة لم يتوقعوها ، ولم يجرأوا على ذلك . . .

فهتف بيلوسفيتوف بصوت انقلب حزينا متشكيا :

– هل انت تمزح ، يا فاسيلي فاسيليفيتش ام كيف ؟ ذلك لانك تهدم فلسفة بكاملها . . . نذهب لمساعدة الحكومة ؟ وماذا عن عشرة آلاف روسي من افضل ابناء روسيا ، اولئك الذين يذوون في سيبيريا منذ زمان ؟ . . والعمال الذين قتلوا رميا بالرصاص ؟ . . والدم بعد لم يجف .

كل هذه الاحاديث كانت بالغة الروعة والنبل ، الا انه صار واضحا لكل انسان ان لا مفر من الاتفاق مع الحكومة ، ولهذا فحين جاءت من المطبعة مسودة تصحيح المقال الافتتاحي الذي كان يبدأ بهذه الكلمات : «يجب ان نرص صفوفنا في جبهة موحدة امام الزحف الالماني» نظر المجتمعون الى مسودة التصحيح صامتين ، وارسل احدهم زفرة كظيمة ، بينما قال آخر بكثير من الدلالة «عشنا وشفنا» . وزرر بيلوسفيتوف بعصبية جميع ازرار سترته السوداء المذرورة برماد التبغ ، الا انه لم يخرج ، وجلس في المقعد ثانية ، وصدر العدد التالي بالعنوان التالي «الوطن في خطر ، الى السلاح !» .

ومع ذلك فقد كان قلب كل واحد منهم مفعما بالاضطراب والهلع . فكيف تطاير السلم الاوربي الوطيد هباء في الهواء خلال اربع وعشرين ساعة ، وكيف انقلبت الحضارة الاوربية الانسانية التي كانت «كلمة الشعب» تعير الحكومة بها كل يوم ، وتدعو عامة الشعب اليها ، كيف انقلبت الى بيت من ورق (لقد اخترعت طباعة الكتب والكهرباء ، وحتى الراديوم ، واذا بين عشية وضحاها يظهر من تحت القميص المنشى ذلك المخلوق البدائي المشعر الشبيه بالحيوان وفي يده هراوة) لا ، ان هذا يصعب على هيئة التحرير نفسه والاعتراف به ، فان مرارته لا تطاق .

وانتهى الاجتماع بصمت وكآبة . ذهب الكتاب الاجلاء لتناول الفطور في مطعم كوبا ، واجتمع الشبان في مكتب رئيس قسم

الاخبار . وتقرر القيام بتحقيق منفصل عن امزجة اكثر الاوساط والفئات تنوعا وعهد الى انتوشكا ارنولدوف قسم الرقابة العسكرية . وخلال الهرج والمرج حصل على سلفة ، وانطلق ، لا يلوى على شيء ، على عربة سريعة الخيول الى مقر هيئة الاركان فى جادة نيفسكي .

استقبل سولنتسيف رئيس قسم الصحافة وعقيد هيئة الاركان ارنولدوف فى مكتبه ، واستمع اليه بادب ، محدقا فى عينيه بعينين صافيتين مرحتين جاحظتين . وكان ارنولدوف قد اعد نفسه ليلتقى باحد العمالقة - بجنرال مورد الوجه امعدى التقاطيع - سوط الصحافة الحرة ، ولكنه وجد امامه رجلا انيقا مهذبا لم يبح صوته ، ولم يجار عليه ، ولم يبد ميلا الى تعنت او ضغط او معارضة شيء ما . وكل ذلك لم يكن يلائم الصورة المالوفة عن الماجوريين للقيصر .

— آمل ، يا حضرة العقيد ، الا ترفض ان تنير الاسئلة التى ساطرحها برايك الموثوق .

قال ارنولدوف ، ورمق بطرف عينه صورة نيقولاى الاول الداكنة التى تمثله واقفا بطول قامته ينظر بعين بلا رحمة وشفقة الى ممثل الصحافة ، وكانه يريد ان يقول له : «السترة قصيرة ، والحذاء اصفر ، والانف عرق ، انه لمنظر مشين . انت خائف يا ابن الكلبة» . وتابع ارنولدوف قوله :

— انا لا اشك ، يا حضرة العقيد ، فى ان القوات الروسية ستكون فى العام القادم فى برلين ، الا ان هيئة التحرير مهتمة بشكل خاص ببعض التفاصيل . . .

قاطعه العقيد سولنتسيف بادب :

— يبدو لى ان الراى العام الروسى لا يتصور بالقدر الكافى نطاق الحرب الحالية . وانا ، بالطبع ، لا يسعنى الا ان احيى امنيتك الجميلة فى ان يصل جيشنا الى برلين ، ولكننى اخشى ان يكون ذلك اصعب مما تتصور . وانا من ناحيتى ارى ان المهمة الاساسية للصحافة فى اللحظة الراهنة اعداد الراى العام الى فكرة وجود خطر جدى جدا محدق بدولتنا ، والتضحيات البالغة التى يجب ان نتحملها جميعا .

انزل ارنولدوف دفتر ملاحظاته ، ونظر الى العقيد بحيرة . تابع سولنتسيف كلامه :

— نحن لم نبحث عن هذه الحرب ، ونحن فى اللحظة الراهنة ندافع عن وطننا فقط . والالمان يتفوقون علينا فى عدد المدافع ، وكثافة شبكات الخطوط الحديدية فى منطقة الحدود . ومع ذلك فنحن نفعل كل ما فى وسعنا لمنع العدو من تخطى حدودنا . والقوات الروسية تنفذ الواجب الملقى على عاتقها . ولكن من المستحسن كليا ان يتشرب المجتمع ، من جانبه ايضا ، بشعور الواجب تجاه الوطن . - وهنا رفع سولنتسيف حاجبيه . - انا ادرك ان شعور الوطنية بين بعض الفئات يشوبه بعض التعقيد . الا ان الخطر على درجة من الجدية تتيح - وانا واثق من ذلك - تأجيل جميع المجادلات والمحاسبات الى وقت افضل . ان الامبراطورية الروسية لم تمر بمثل هذه اللحظة الحرجة حتى فى عام ١٨١٢ * . ذلك كل ما اود ان تاخذه بعين الاعتبار . ثم يجب ان يذاع بين الناس ان المستشفيات العسكرية التى تملكها الحكومة لا تستطيع ان تستوعب كل الجرحى . لهذا ومن هذه الناحية ايضا ، يجب ان يكون المجتمع مستعدا لتقديم مساعدة كبيرة . . .

— اعذرنى ، يا حضرة العقيد ، انا لا افهم اى عدد من الجرحى يمكن ان يكون ؟

ومرة اخرى رفع سولنتسيف حاجبيه عاليا .

— يبدو لى ان من المحتمل توقع ما بين مائتين وخمسين وثلثمائة الف جريح فى الاسابيع القريبة .

بلع انتوشكا ارنولدوف ريقه ، وسجل الرقم ، وسأل بمزيد من الاحترام :

— وفى هذه الحال بكم تقدر عدد القتلى ؟

— فى العادة نقدر ما بين خمسة الى عشرة بالمائة من عدد الجرحى .

---

* المقصود هنا الحرب الوطنية التى خاضتها شعوب روسيا ضد الغزاة الفرنسيين تحت قيادة نابليون الاول ؛ وانتهت بانتصار روسيا . (المترجم) .

– اها ، شكرا لك .

ونهض سولنتسيف . فصافحه ارنولدوف بسرعة ، وحين فتح الباب البلوطى اصطدم باتالنت الذى كان داخلا . انه صحفى مسلول أشعث الشعر كان يرتدى سترة مدعوكة ، ولم يذق طعم الفودكا منذ يوم امس .

قال هذا ، وهو يحاول ان يغطى صدر قميصه القذر بكفه :

– يا حضرة العقيد ، جئت اليك بخصوص الحرب . ما رايك ، هل سنستولى على برلين قريبا ؟

خرج ارنولدوف من مقر هيئة الاركان الى ساحة القصر ، ولبس قبعته ، ووقف برهة مقلصا عينيه .

وتمتم من خلال اسنان مضمومة :

– الحرب حتى النصر . حذار ايها الهرمون سنصفى حسابنا معكم على روحكم الانهزامية .

كانت ارهاط من الفلاحين الملتحين الهُوج تملأ بالحركة ارجاء الساحة الهائلة المكنوسة جيدا ، بعمود الكسندر الغرانيتى الثقيل . وكانت تسمع صيحات اوامر قوية . كان الفلاحون يصطفون ويركضون من مكان الى آخر ويستلقون على الارض . وفى احد الاماكن صاح زهاء خمسين رجلا بصوت متنافر ، وهم يصعدون على الرصيف «هورا» وانطلقوا فى عدو متعثر . . . وصاح بهم صوت اجش غطى على صيحاتهم : «قف ، استعداديا اوغاد يا اولاد الكلاب !..» وكان يتناهى من مكان آخر : «الحق به ، واطعنه بالحربة فى جسمه ، فاذا انكسرت الحربة فاضرب بالعقب» .

ان هؤلاء هم نفس الفلاحين المخشوشنين ذوى القمصان العريضة والاحذية الليفية وذوى اللحى المستديرة وآثار العرق الجاف الظاهر على دفاتهم ، اولئك الذين جاءوا قبل مائتى عام الى هذه الشطئان المستنقعية ليشيدوا المدينة . والآن قد دعوا مرة اخرى ليسندوا باكتافهم عمود الامبراطورية المتزعزع .

انعطف ارنولدوف الى جادة نيفسكى ، وهو لا يكف عن التفكير فى المقال الذى سيكتبه . كانت سريتان فى كامل عدة المسيرة ، بالحقائب الظهرية والقصعات والارفاش تسيران فى وسط الشارع على انغام المزامير مثل عواء ريح الخريف . كان التعب والغبار

يبدوان على هؤلاء الجنود العراض الوجنات . وكان ضابطهم الصغير ذو القميص الاخضر والاحزمة الجديدة المتصالبة على صدره يرفع جسمه على اطراف اصبعه بين لحظة واخرى . ويلتفت جاحظ العينين ويصيح : «يمين ! يمين !» . ويسمع المرء وكأنه يحلم بضجيج جادة نيفسكى ويراها جميلة متالقة بالعربات والزجاج . «يمين ! يمين ! يمين !» . وسار الفلاحون المنقادون الثقال الارجل وراء الضابط الصغير فى ترنح رتيب . لحق بهم حصان عداء اسود فاحم يتطاير الزبد منه . وقد كبحه سائق عريض العجز ليوقف العربة التى يجرها . ونهضت فى العربة سيدة حسناء ونظرت الى الجنود المارين . وبيدها المقفزة بقفاز ابيض رسمت لهم علامة الصليب .

مرّ الجنود ، وحجبهم سيل العربات . وكانت الارصفة حارة ومزدحمة ، وكان الجميع وكانهم ينتظرون شيئا . كان المارة يتوقفون ، ويصغون الى احاديث هنا وصيحات هناك ، ويشقون طريقهم وسط الزحام ويلقون اسئلة ، ثم ينصرفون منفعلين الى تجمعات اخرى .

وبالتدريج تحددت وجهة حركة السير الفالتة ، وتحولت الجموع من جادة نيفسكى الى شارع مورسكايا . وهناك راحت تسير وسط الشارع مباشرة . وتراكض شبان قصار صامتين مهمومين . وعند مفترق الشارع قذف بعض الناس قبعاتهم فى الهواء ، ولوح آخرون بالمظلات ، وطنت فى ارجاء الشارع «هورا ! هورا !» . وصفر الاولاد الصغار صفيرا حادا . واينما وجهت بصرك رايت عربات غير متحركة وقفت فيها نساء زاهيات الثياب . وتدفقت الجماهير الغفيرة نحو ساحة كاتدرائية اسحاق ، وانتشرت فيها ، وتسلل الناس من خلال قضبان الحديقة . وكانت جميع النوافذ والسطوح ودرجات الكاتدرائية الغرانيتية غاصة بالناس . وكان كل هؤلاء الناس ، بعشرات الوفهم ، ينظرون الى اعمدة الدخان تتصاعد من النوافذ العليا لمبنى السفارة الالمانية الثقيل الداكن الحمرة . وكان بعض الناس يتراكضون وراء الزجاج المهشم ، ويلقون على الجموع حزما من الورق ، فتتطاير ، وتسقط ببطء . مع كل عمود دخان ، وكل شىء جديد يقذف من النوافذ كانت موجة من الهدير تسرى فى الحشد . وها هم هؤلاء الشبان المهمومون يظهرون على واجهة

المبنى حيث يقف على الجانبين عملاقان من البرنز يمسكان بمقودى حصانين برونزيين . وهدأ الحشد ، وارتفعت ضربات مطارق على معدن . وترنح احد العملاقين ، وانهبد على الرصيف . وهدر الحشد واندفع نحوه ، وبدأ الازدحام ، وتراكض الناس من كل ناحية . «الى نهر مويكا ، خذوها الى مويكا .. الملاعين !» وسقط التمثال الثانى . امسكت بكتف انتوشكا ارنولدوف سيدة ممتلئة تضع على انفها نظارة انفية ، وهتفت به : «سنغرقها جميعا ، ايها الشاب» . وتحرك الحشد الى مويكا . وسمعت ابواق المطافىء ، ومن بعيد لمعت خوذ نحاسية . وظهرت الشرطة الخيالة من وراء المنعطفات . وفجأة راى ارنولدوف ، وسط المتراكضين والمتصايحين ، شخصا شديد الامتقاع حاسر الراس له عينان جامدتان زجاجيتان متسعتان . وعرف انه بيسونوف ، فتقدم منه . قال بيسونوف :

— هل كنت هناك ؟ سمعتهم يقتلون .

— احقا كان هناك قتل ؟ ومَنْ قتلوا ؟

— لا اعرف .

واستدار بيسونوف ، وسار فى الساحة فى مشية متخلخلة كمشية الاعمى . والآن كانت فلول الحشد تتراكض جماعات نحو جادة نيفسكى ، حيث بدأ تحطيم مقهى «ريتر» .

فى ذلك المساء وقف انتوشكا ارنولدوف الى منضدة عالية ، فى احدى حجرات التحرير الغاصة بدخان التبغ ، وراح يكتب بسرعة وعلى قطع ورق ضيق :

«... اليوم شهدنا الغضب الشعبى بكل نطاقه وجماله . وتجدر الاشارة الى ان ما من زجاجة نبيذ من تلك التى كانت فى اقبية السفارة الالمانية قد شربت ، بل كُسِر كل شىء ، وصب فى نهر مويكا . ان المساومة مستحيلة . وسنحارب حتى النصر ، مهما سنقدم من تضحيات . لقد ظن الالمان انهم سيجدون روسيا تغط فى النوم ، ولكن الشعب هبّ على الكلمات الراعدة «الوطن فى خطر» هبة رجل واحد . وسيكون غضبه رهيبا . ان الوطن كلمة جبارة ولكننا نسيناها . ومع الطلقة الاولى من مدفع الالمان عادت الى الحياة بكل جمالها الطاهر ، وشرعت تتالق بحروف من نار فى قلب كل فرد منا ...»

وقلّص انتوشكا عينيه ، واحس بقشعريرة خفيفة تسرى فى ظهره . يا لهذه الكلمات التى وجد نفسه منساقا لكتابتها ! ولكنها ليست كتلك التى كتبها قبل اسبوعين ، حين عهد اليه ان يكتب استعراضا للتسليات الصيفية . وتذكر ذلك الرجل الذى خرج الى خشبة المسرح الهزلى ، على هيئة خنزير وغنى «انا خنزير صغير ، ولا اخجل . انا خنزير صغير وافخر . امى كانت خنزيرة ، وانا اشبهها جدا ...»

وكتب انتوشكا والحبر يتناثر من ريشته :

«... نحن ندخل فى عهد بطولى . قد تعفنا طويلا ونحن احياء . والحرب تطهير لنا» .

وطبعت مقالة ارنولدوف رغم معارضة الانهزاميين بزعامة بيلوسفيتوف . ولكنها قد نشرت فى الصفحة الثالثة ، وتحت عنوان غير مثير هو «فى ايام الحرب» ، وذلك هو التنازل الوحيد عن عادة الصحيفة . واخذت ترد على هيئة التحرير رسائل من القراء فريق يعبر عن الارتياح الحار بالمقالة ، وفريق يعرب عن السخرية المرة . الا ان رسائل الفريق الاول كانت اكثر بكثير . وزيدت اجرة انتوشكا على السطر ، وبعد اسبوع استدعاه فاسيلى فاسيليفيتش رئيس التحرير الى مكتبه ، حيث استقبله الرئيس الاشيب مورد الوجنتين معطرا بماء كولونيا انجليزى ، ودعاه ليجلس فى مقعد ، وقال مهموما :

— عليك ان تسافر الى الريف .

— سمعا .

— ينبغى علينا ان نعرف ماذا يفكر الفلاحون وعمّ يتحدثون — وضرب حزمة كبيرة من الرسائل بباطن كفه وقال — ظهر بين المثقفين اهتمام هائل فى الريف . ويجب ان تقدم فكرة حية مباشرة عن ابى الهول هذا .

— تدل نتائج التعبئة على نهوض وطنى هائل ، يا فاسيلى فاسيليفيتش .

— اعرف ، ولكن يا للغرابة ! من اين جاءهم ذلك ؟ سافر الى حيث تريد ، وتسكّع ، واسال . وحتى يوم السبت انتظر منك خمسمائة سطر عن انطباعاتك حول الريف .

وخرج انتوشكا من هيئة التحرير الى جادة نيفسكى ، حيث اشترى بدلة سفر عسكرية الفصال وطماقين اصفرين ، وقبعة مدارة ، وارتدى كل ذلك ، وذهب ليتناول فطوره فى مطعم دونون ، حيث احتسى لوحده زجاجة شمبانيا فرنسية ، وانتهى الى قرار هو ان ابسط شىء ان يسافر الى قرية خليبى ، حيث كانت يلزافيتا كيبفنا تنزل عند اخيها كى كيبفيتش . وفى المساء شغل مقعدا فى مقصورة فى عربة قطار دولية واشعل سيغارا ، ونظر الى طماقيه الاصفرين الصارفين بشجاعة وقال لنفسه : «يا لها من حياة رائعة !»

كانت قرية خليبى تقع فى منخفض بين مستنقع والنهير سفينوخا ، وهى تتالف من اكثر من ستين بيتا محاطة بحدائق ينمو فيها عنب الثعلب بكثرة ، وشارعها تتوسطه اشجار زيزفون معمرة ، ومبنى مدرستها الكبير على رابية هو بيت سابق لاحد اصحاب الاطيان . كانت القرية الزراعية صغيرة وفقيرة ، فكان جميع الفلاحين تقريبا يسافرون الى موسكو للبحث عن عمل .

دخل انتوشكا القرية عند المساء على عربة فاذهله سكون فيها لم يعكره الا قاقاة دجاجة حمقاء خرجت من تحت اظلاف فرس ، ونباح كلب عجوز تحت شونة ، وصوت مخباط يضرب على غسيل يغسل فى النهير . وكان هناك كبشان يتناطحان وسط الشارع متشابكين بقرونهما .

اعطى انتوشكا الاجرة للعجوز الاصم الذى جلبه من المحطة ، وسار فى درب الى مكان لاحت فيه واجهة المدرسة القديمة المصنوعة من جذوع الشجر من خلال خضرة اشجار البتولا . وعلى درجات المدخل نصف المتآكلة كان يجلس كى كيبفيتش المعلم ويلزافيتا كيبفنا يتبادلان الحديث ببطء . وفى الاسفل كانت اشجار الصفصاف الضخمة تلقى ظلالا طويلة على المرج . وكانت الزرازير تطير كسحابة داكنة متلالئة . ومن بعيد ترامى صوت زمارة ليجمع القطيع . وخرجت بعض الابقار الحمراء من دغل للقصب ، وخارت واحدة منها بعد ان رفعت راسها . كان كى كيبفيتش الذى كان شديد الشبه باخته وذا عينين تبدوان مرسومتين مثل عينيها يقول وهو يقضم قشة :

— وفضلا عن ذلك ، فانت يا ليزا ، غير منظمة مطلقا فى الحياة الجنسية . واشخاص من مثلك هم فى الحقيقة فضلات كريهة للحضارة البرجوازية .

كانت يلزافيتا كيبفنا تنظر فى ابتسامة متراخية الى بقعة فى المرج . كانت الاعشاب والظلال فيها تكتسى صفرة دافئة فى ضوء الشمس الغاربة .

— حديثك مضجر للغاية ، يا كى ، انك قد استظهرت كل شىء ، وكل شىء عندك واضح وكانه مكتوب فى كتاب .

— ان كل شخص ، ياليزا ، ملزم بالاهتمام فى ترتيب افكاره كلها فى نظام منسق ، لا فى كون هذا الحديث او ذاك مضجرا اوغير مضجر .

— اهتم انت ، كما يحلو لك .

كان المساء هادئا . كانت الاغصان الشفافة لاشجار البتولا المتهدلة ساكنة بلا حراك امام مدخل المدرسة . وكان طائر سيغرد يصرصر عند اسفل التل . نظرت يلزافيتا كيبفنا حالمة الى الاشجار الذائبة فى النسق الازرق . وظهر بين الاشجار رجل صغير خفيف الحركة يحمل حقيبة . هتف انتوشكا :

— هذه هى ليزا ، مرحبا ، ياست الحسن . . .

بشت يلزافيتا كيبفنا به بشاشة هائلة ، فنهضت بحماس ، وعانقته .

سلم كى كيبفيتش بجفاف ، ومضى يقضم القشة . استلقى انتوشكا على الدرجات ، واشعل سيغارا .

— جئت اليك طلبا للمعلومات ، يا كى كيبفيتش ، حدثنى بالتفصيل ماذا يفكر الناس فى قريتكم عن الحرب وماذا يقولون . . .

ابتسم كى كيبفيتش ابتسامة هازئة .

— الشيطان يعرف ماذا يفكرون . . . هم يصمتون . . . الذئاب ايضا تصمت حين تجتمع فى قطيع .

— يعنى لم تكن هناك مقاومة للتعبئة ؟

— لا ، لم تكن هناك مقاومة .

— وهل يعرفون ان العدو المان ؟

— لا ، لا مسالة المان هنا .

– فما هى المسالة اذن ؟

ابتسم كى كيبفيتش مرة اخرى ابتسامة حازنة .

– ليست المسالة مسالة المان ، بل بندقية . . . الحصول على بندقية فى ايديهم . . . الانسان ومعه بندقية تتغير نفسيته ، سنعيش ، ونرى الى اى اتجاه ينوون تصويب بنادقهم . . . هذا هو الامر . . .

– وهم ، على اية حال ، يتحدثون عن الحرب .

– اذهب الى القرية ، واستمع . . .

عند حلول الظلام ذهب انتوشكا ويلزافيتا كيبفنا الى القرية . كانت نجوم آب تتناثر فى ارجاء السماء الآخذة بالبـــرود . وفى منخفض القرية كان الجو ميالا الى الرطوبة عابقا برائحة بقية الغبار التى تتطاير من اقدام القطيع ورائحة حليب طازج . والى جانب البوابات وقفت عربتان بلا خيول . وتحت اشجار الزيزفون التى احلولـك فيهـــا الظلام صرف دولاب بئر ، وزفر حصان ، وكــان يترامى الى الاذن صوت نخيره ، وهو يعب الماء . وفى مكان مكشوف عند شونة خشبية لها سقف من القش جلست ثلاث فتيات على جذوع يغنين بصوت خفيض . تقدمت يلزافيتا كيبفنا وانتوشكا وجلسا ايضا فى ناحية . كانت الفتيات يغنين :

حليبى القرية
جميلة فى كل شىء
بمقاعدها وازاهيرها
وفتياتهـــا الجميلات . . .

التفتت احداهن الى القادمين ، وقالت بخفوت :

– ما رايكما ، يا صاحبتى ، الم يحن وقت النوم ؟

ولكنهن بقين على جلستهن ولم يتحركن . كان شخص ينشغل فى الشمونة ، ثم صر باب ، وخرج فلاح اصلع فى سترة من فراء الخروف غير مزررة ، وصلصل طويلا ليغلق القفل ، ثم اقبل على الفتيات ، واضعا يديه على اسفل ظهره وابرز لحيته العنزية .

– ماضيات فى غنائكن ، يا شحرورات ؟

– نغنى ، لكننا لا نغنى عنك ، يا عم فيودور .

– ساطردكن من هنا بالمقرعة . . . انها عادة سيئة ان تغنين فى الليل .

– وانت تغار ؟

بينما قالت الاخرى متنهدة :

– لم يبق لنا الا ان نغنى عن قريتنا ، يا عم فيودور .

– نعم ، احوالكن سيئة . يتموكن .

قرفص العم فيودور قرب الفتيات . قالت اقربهن اليه :

– سمعنا نساء قرية كوزمودميا نسكويه يقلن ان رجالا كثيرين اخذوهم للحرب ، نصف العالم تقريبا .

– قريبا سيصلون اليكن ايضا ، يا فتيات .

– سياخذوننا الى الحرب ؟

وتضاحكن ، وسالت الاخيرة ايضا :

– مع مَنْ يتحارب قيصرنا ، يا عم فيودور ؟

– مع قيصر آخر .

وتبادلت الفتيات النظرات . تنهدت واحدة ، وعدّلـــت الاخرى المنديل على راسها ، بينما قالت الاخيرة :

– وهذا ما قالته نساء قرية كوزمودميا نسكويه لنا . مع قيصر آخر .

فى تلك اللحظة برز راس اجعد من وراء الجذوع وقــال صاحبه بصوت مبحوح ، وهو يلبس فروته :

– كفاك كذبا ، يا هذا . ليس مع قيصر آخر ، بـــل الحرب مع الالمان .

اجاب فيودور :

– كل شىء جائز .

واختفى الراس ثانية . اخرج انتوشكا ارنولدوف علبـــة السيكائر ، وقدم لفيودور سيكارة ، وسال بحذر :

– ما رايك ، هل خرج الرجال من قريتكـــم الى الحرب راضين ؟

– كثيرون خرجوا راضين ، يا سيد .

– اذن ، كان هناك نهوض ؟

– نعم ، نهضوا ، ولماذا لا ينهضون ؟ على الاقل ليروا كيف تسير الامور هناك . اما اذا قتلوا ، فالامر سيان ، لأنهم يموتون هنا ايضا . ان الارض فى قريتنا شحيحة . ونحن لا نجد ما ناكله غير الخبز وماء الخبز . بينما هناك ياكلون اللحم مرتين فى اليوم ، حسب الاقوال ، كما يوجد سكر وشاى وتبغ ، فدخن حسب ما تريد .

– ولكن اليس القتال مخيفا ؟

– وكيف لا ؟ مخيف بالطبع .

١٥

فى الطريق الواسعة المغطاة بوحل سائل كانت تتحرك عربات مكسوة بالمشمعات ، وعجلات تحمل القش والتبن ، وعربات اسعاف ، واحواض طوافات ضخمة مترنحة صارفة . وكان المطر ينهمر بلا انقطاع ، دقيقا مائلا . وكانت الاخاديد المحروثة والسواقى على جانبى الطريق مملوءة بالماء . وكانت الاشجار والادغال تلوح من بعيد مغبشة المعالم .

كانت قوافل الجيش الروسى المهاجم تتحرك كالسيل العرم فى الوحل والمطر وتحت الصيحات والشتائم ، وجلجلة السياط واصطدام محور بآخر . وعلى جانبى الطريق تناثرت خيول فاطسة ومحتضرة ، وعربات مقلوبة وعجلاتها بارزة الى الاعلى . وبين الحين والآخر كانت سيارة عسكرية تشق طريقها فى هذا السيل ، فيبدأ تصاعد الصياح والتاوهات ، وتقف الخيول على قوائمها الخلفية ، وتسقط عربة محملة على المنحدر ، وفى اثرها سواقها .

وحين كان ينقطع سيل العربات كان الجنود ياتون بعده سائرين على الاقدام فى خط طويل منزلقين فى الوحل ، حاملين على ظهورهم الاكياس والمشمعات . وكانت تشق حشدهم غير النظامى عربات الامتعة وعربات اخرى محملة بالبنادق تظهر بارزة من كل الجهات . وقد جلس فوقها الجنود المرافقون للضباط . وبين الحين والآخر كان يخرج رجل من الطريق راكضا فى الحقل ، ويضع بندقيته على العشب ، ويجلس القرفصاء .

ثم كان يتبع ذلك مزيد من العربات والطوافات ، والعجلات ، وعربات مدنية يجلس فيها اناس مبللون بمعاطف مطر للضباط . وكان هذا السيل الهادر تارة يسقط فى منخفض ، ويتزاحم ، ويزعق ويتعارك رجاله على الاماكن ، وتارة يمتد صاعدا مرتفعا ببطء ، ويختفى وراء القمة . وكانت تصب فيه من الجانبين صفوف جديدة من العربات تحمل القمح والعلف والقذائف . وكانت وحدات صغيرة من الخيالة تاتى متسابقة فى الحقل .

واحيانا كانت تدخل المدافع فى صفوف العربات مقعقعة قعقعة حديدية . وكانت خيول ضخمة عريضة الصدور يمتطيها نتريون ذوو وجوه ملتحية ضارية التقاطيع يسوطون الخيول والناس لتشق هذه الخيول الطريق كالمحرات ساحبة وراءها مدافع فطساء متقافزة . وكان هناك اناس يتراكضون من كل الجهات ، وآخرون واقفون على العربات يلوحون بايديهم . ومرة اخرى كان السيل يتصل ، وينصب فى غابة فواحة برائحة قوية للفطر والاوراق المتفسخة يسرى ضجيج المطر فى ارجائها .

ثم تبرز امام البصر مداخن مواقد من بين اكوام القاذورات والاخشاب المحروقة على جانبى الطريق ، ويتارجح فانوس مهشم ، وتخفق فى الريح ورقة اعلان سينمائى الصقت على جدار آجرى لبيت هدمته القنابل . وهنا ايضا كان يرقد فى عربة بلا عجلتين اماميتين نمساوى جريح بمعطفه الازرق ووجهه ممتقع ، وعيناه كدرتان حزينتان .

وعلى بعد حوالى خمسة وعشرين فرسخا من هذه الاماكن كان دوى المدافع يترامى خافتا فى الافق الداخن . لقد كانت هذه القوات وطوابير العربات تنصب الى تلك المنطقة ليل نهار ، كما تتجه اليها القطارات من جميع انحاء روسيا محملة بالقمح والناس والقنابل . كانت البلاد كلها تهتز على دوى المدافع . لقد انفجر اخيرا كل ما تراكم فيها تحت الكبت والقمع من شر جشع لا يشبع .

وبدا وكان سكان المدن المتخمين بحياة شائهة فاسدة قد استيقظوا من حلم خانق . لقد كان فى دوى المدافع صوت العاصفة العالمية المثير . وبدت الحياة السابقة غير محتملة بعد هذا . فحيا السكان الحرب بحماس مشؤوم .

فى الريف لم يسأل الناس كثيرا : من نحارب ولاى شىء ؟ فان الامر سيان لديهم . لان الحقد والكراهية قد غشيا العيون منذ زمان بغشاوة دموية . ونضج وقت الاعمال الرهيبة . ترك الفتيان والفلاحون الشبان نساءهم وفتياتهم ، وتزاحموا فى عربات البضائع خفافا متعطشين ، وانطلقوا عبر المدن بصفير واغان فاحشة . لقد انتهت الحياة القديمة ، وبدا وكأن ملعقة هائلة اخذت تقلب روسيا وتعكرها ، وسرى الدبيب والحركة فى كل شىء ، وسكر سكرة الحرب .

كانت طوابير العربات والقوات العسكرية تتدفق وتذوب حين تصل الى منطقة القتال التى يترامى دويها عشرات الفراسخ . هنا كان ينتهى كل شىء حى وانسانى . كان يخصص لكل فرد موضع فى التراب ، فى الخندق ، ينام فيه ويأكل ، ويقصع القمل ، ويطلق من بندقيته على شريط الظلام الماطر الى حد الذهول .

وفى الليل كان الافق كله يلتهب ببطء بنيران الحرائق القرمزية ، وتتخطط السماء بخطوط الشرر المنبعثة من انطلاق الصواريخ وتتناثر كالنجوم وتتلاحق القذائف بعويل مصم ، وتنفجر اعمدة من النار والدخان والغبار .

هنا كانت الاحشاء تتقلص من الرعب المقزز ، ويقشعر الجلد ، وتنعكف الاصابع . وعند منتصف الليل كانت تطلق الاشارات . فيتراكض الضباط وشفاههم ملتوية ، وينهض الجنود المنتفخين بالنعاس والرطوبة ، شاتمين متصايحين متضاربين . وتركض مجموعات غير نظامية من الناس فى العراء متعثرين متشاتمين عاوين عواء وحشيا ، يستلقون تارة ، ويثبون اخرى ، ويقذفون انفسهم فى خنادق الاعداء مصعوقين مأخوذين فاقدين الذاكرة من الرعب والغيظ .

وبعد ذلك لا يتذكر احد قط ما حصل فى تلك الخنادق ، هناك . وكانوا يضطرون الى التلفيق حين كانوا يريدون التباهى بمآثر بطولية من مثل كيف غرزت الحربة ، وكيف تهشم الراس تحت ضربة من كرنافة البندقية . وكان الهجوم الليلى يخلف جثثا .

وكان يحل نهار جديد ، وتأتى مطابخ الميدان ، ويأكل الجنود المتهالكون المتجمدون ويدخنون . ومن بعد ذلك يبدأون

الحديث عن السناج والنساء ، ويلفقون كثيرا ايضا ويبحثون عن القمل ، وينامون . وكانوا يقضون اياما كاملة نائمين فى منطقة الرعد والموت هذه ، العارية الملوثة بالغائط والدم .

فى مثل هذا الوضع ، فى الوحل والرطوبة ، عاش تليغين ايضا غير خالع ملابسه وحذاءه الطويل اسابيع متتالية . كان الفوج الذى سجل فيه ملازما ثانيا قد خاض معارك هجومية ، وفقد اكثر من نصف ضباطه وجنوده ، ولم يعوض عن خسائره ، وكان الجميع ينتظرون شيئا واحدا : ساعة تحويلهم الى المؤخرة ، وهم اشباه الاموات من التعب ، والممزقو الثياب .

الا ان القيادة العليا كانت تسعى الى عبور جبال الكربات قبل حلول الشتاء ومهما يكن الثمن ، والدخول الى المجر ، وتدميرها . ولم يكونوا يبخلون فى الارواح ، فقد كانت هناك احتياطات كبيرة من النفوس البشرية . وكانوا يتصورون ان مقاومة الجيوش النمساوية المتراجعة بلا نظام ستنهار تحت الضغط الطويل لقتال مستمر دخل شهره الثالث ، وستسقط كراكوفيا وفينا ، وسيتمكن الروس من الخروج من الجناح الايسر الى المؤخرة الالمانية غير المحمية .

وتطبيقا لهذه الخطة كانت القوات الروسية تزحف نحو الغرب بلا انقطاع آسرة عشرات الالوف من الاسرى ، واحتياطات هائلة من المواد الغذائية والقذائف والاسلحة والملابس . فى الحروب الماضية كان جزء فقط من مثل هذه المغانم ، ومعركة واحدة فقط من هذه المعارك الدموية المستمرة التى كانت تستحق فيالق كاملة يمكن ان يقرروا مصير الحملة . والآن ، وحتى رغم ان الجيوش النظامية قد تحطمت فى المعارك الاولى فان حدة القتال قد استشرت . لقد خرج الجميع الى الحرب ، من الاطفال حتى الشيوخ – الشعب بأسره . فقد كان فى هذه الحرب شىء فوق الادراك الانسانى . كان يبدو وكان العدو على وشك ان يدحر ، وقد استنزف دمه ، وما هو الا جهد آخر ، ويهل النصر الحاسم . ويبذل الجهد ولكن كانت تطلع مكان جيوش العدو المتفتتة جيوش جديدة كانت تسير للقاء الموت فى جموح قانط ، وتهلك ، لم تكن لا جحافل التتار ولا كراديس الفرس تقاتل بتلك القسوة ،

وتموت بالسهولة التى كان يموت فيها الاوربيون الضعاف الاجسام المدللون ، او الفلاحون الروس الماكرون ، الذين راوا انهم ليسوا الا ماشية عجماء – لحوها فى هذه المجزرة التى دبرها الساسة .

تخندقت بقايا الفوج الذى يخدم تليغين فيه على شاطئ نهير ضيق عميق . كان الموقع سيئا ، مكشوفا كليا ، والخنادق غير عميقة . وكان الفوج ينتظر بين لحظة واخرى امرا بالهجوم ، ولكن الجميع الآن كانوا مسرورين فى ان تسنح لهم فرصة للنوم ، وتغيير الاحذية ، ونيل شىء من الراحة ، رغم ان نارا حامية كانت تنطلق من الضفة الاخرى للنهير حيث كانت الوحدات النمساوية تتخندق .

وعند المساء ، حين هدا اطلاق النار حوالى ثلاث ساعات ، كما هى العادة ، ذهب ايفان ايليتش تليغين الى مقرقيادة الفوج ، التى كانت تحتل قلعة مهجورة على بعد زهاء فرسخين من موقع الفوج .

كان ضباب اشعث يرقد على صدر النهير المتلوى بين النباتات الكثيفة ويخيم على الاجمات عند الشاطئ . وكان الجو هادئا رطبا فيه رائحة اوراق اشجار رطبة . وبين الحين والآخر كانت اطلاقة وحيدة تنهبد فى الماء مثل كرة جوفاء .

قفز ايفان ايليتش عبر حفرة الى الطريق العامة وتوقف ، واشعل سيكارة . كانت الاشجار العالية الجرداء على جانبى الطريق تبدو فى الضباب شاهقة الطول على نحو مفزع . وعلى اطرافها كان منخفض مستنقعى يبدو وكانه مملوء بالحليب . وصفرت رصاصة فى السكون صفيرا شاكيا . زفر ايفان ايليتش زفرة عميقة ، وسار على حصى مصلصل ، رافعا راسه الى اشباح الاشجار . لقد استرخى كل ما فى نفسه بسبب هذا الهدوء المحيط به ، ومن كونه يسير ويفكر لوحده . لقد ابتعد ضجيج النهار الصاخب ، الا ان حزنا رقيقا نافذا تسلل الى قلبه . فتنهد ثانية ، والقى السيكارة ، ووضع يديه وراء رقبته ، وسار على هذا الوضع ، وكانه فى عالم

عجيب لم يكن فيه غير اشباح الاشجار ، وقلبه الحى الملتهب بالحب ، وسحر داشا غير المرئى .

كانت داشا معه فى ساعة الراحة والهدوء هذه ، وكان يحس بملامستها كلما هدا زئير القذائف الحديدى ، وازيز البنادق ، والصيحات ، والسباب – كل هذه الاصوات الغريبة على خليقة الله – وكلما كان من الممكن ان ينزوى فى ركن من المخبأ ، وعندئذ كان السحر يمس قلبه .

وكان يبدو لايفان ايليتش انه ، لو قسم له ان يموت ، فانه سيشعر بسعادة الاتصال هذه الى آخر لحظة فى حياته . ولم يكن يفكر فى الموت ، ولم يهابه . لا شىء بقادر الآن على ان ينتزعه من حالة الحياة المدهشة ولو كان الموت نفسه .

فى الصيف ، حين سافر الى يفباتوريا ليرى داشا لآخر مرة كما خيل له ، غمرته موجة من الحزن ، وقلق ، وفكر فى مختلف الاعتذارات . الا ان لقاءهما فى الطريق ، ودموع داشا المباغتة ، وراسها الاشقر مضغوطا على صدره ، وشعرها ، ويديها ، وكتفيها الفواحة برائحة البحر ، وفمها الطفولى حين نطق ، وقد رفعت اليه وجهها بالرموش المسبلة المبللة : «ايفان ايليتش ، عزيزى ، كم انتظرتك» – كل هذه الاشياء التى لا توصف ، والتى كانها هبطت عليه من السماء ، فى ذلك الطريق عند البحر قد حولت حياة ايفان ايليتش كلها فى بضع دقائق . وقال وهو ينظر الى الوجه الحبيب :

– سأظل احبك ، طيلة حياتى .

وفيما بعد بلغ به الوهم الى حد ان تصور انه لم ينطق بهذه الكلمات ، بل دارت فى ذهنه فقط ، وانها قد فهمت ما فى ذهنه . انزلت داشا يديها من كتفيه ، وقالت :

– عندى اشياء كثيرة ينبغى ان اخبرك بها . فلنذهب .

وسارا ، وجلسا على الرمل عند الماء . ملات داشا كفها بالحصباء الصغيرة ، واخذت تلقيها فى الماء على مهل .

– المسالة هى هل ستستطيع ان تحسن معاملتى ، حين تعلم بكل شىء . رغم ان ذلك لا يهم ، عاملنى حسب ما تشاء . – وتنهدت . – عشت فى غيابك حياة سيئة يا ايفان ايليتش . فاعذرنى ، اذا كان ذلك فى امكانك .

وحدثته عن كل شيء بصدق وتفصيل . عن سامارا ، وعن مجيئها الى هنا ، وعن لقائها ببيسونوف ، وعن فقدانها الرغبة فى الحياة ، من شدة قرفها ، من ذلك الجو البطرسبورغى الخانق الذى تصاعد مرة اخرى ، وسمم الدم ، والهب الفضول . . .

— الى متى اشمخ بانفى ؟ وراودتنى الرغبة فى ان اغرق نفسى فى الحماة — لا باس . ولكننى جبنت فى اللحظة الاخيرة . . . ايفان ايليتش ، عزيزى — وبسطت ذراعيها وقالت — ساعدنى ، لا اريد ، ولا استطيع ان امضى فى بغض نفسى ، ولكن لم يمت كل شيء فىّ . . . انا اريد شيئا مختلفا تماما ، مختلفا كليا . . .

وبعد هذا الحديث صمتت داشا طويلا ، وثبت ايفان ايليتش بصره فى الماء الصقيل الضارب الى الزرقـة ، المتلالىء بالشمس . وكانت روحه ، رغم كل شيء ، طافحة بالسعادة .

ولم تدرك داشا ان الحرب قد بدأت ، وان تليغين يجب ان يسافر فى الغد للحاق بفوجه ، الا بعد فترة من الوقت ، حين تبللت قدماها بموجة اهاجتها الريح .

— ايفان ايليتش !

— نعم .

— هل ستحسن معاملتى ؟

— نعم .

— كثيرا ؟

— نعم .

عندئذ زحفت على ركبتيهـا على الرمل لتقترب منه اكثر ، ووضعت يدها فى يده ، كما فعلت عند ذاك على سطح السفينة .

— ايفان ايليتش ، وانا ايضا ساحسن معاملتك .

وضغطت بشدة على اصابعه المرتعشة ، وسألت بعد برهة من الصمت :

— ماذا قلت لى اذ كنا فى الطريق ؟ — وغضنت جبهتها — اى حرب ؟ مع من ؟

— مع الالمان .

— وانت ؟

— سأسافر غدا .

تاوهت داشا ، وصمتت مرة اخرى . ومن بعيد كان نيقولاى ايفانوفيتش يجرى على الساحل متجها نحوهما ، فى سترته المخططة ، وكأنه قد غادر سريره من توه على ما يبدو . كان يلوح بجريدة ، ويصرخ بشيء ما .

ولم يلق التفاتا الى ايفان ايليتش . عندئذ قالت داشا : «نيقولاى ، هذا اكبر صديق لى» . — امسك نيقولاى ايفانوفيتش تليغين من سترته ، وصرخ فى وجهه :

— هذا ما توصلنا اليه ، ايهـا الشـاب ، ها ؟ ها هى حضارتك ، ها ؟ هذه فظاعة ! هل تفهم ؟ هذا هذيان !

وقضت داشا النهار كله قرب تليغين لا تبارحه ، وديعـة مستغرقـة . ولاح له هذا اليوم المملوء بنور الشمس المزرق قليلا ، وهدير البحر واسعا لا تستوعبه الظنون . وكل دقيقـة فيه تمطت حتى لكأنها استحالت حياة كاملة .

تجول تليغين وداشا على الساحل ، واستلقيا على الرمل ، وجلسا فى الشرفة ، وكانا فى ذهول . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يلاحقهما اينما ذهبا ، ولا ينفك عنهما ، ولا يفتأ يتحدث باحاديث مطولة عن الحرب وتسلط الالمان .

وقبيل المساء استطاعا الانفلات من نيقولاى ايفانوفيتش . فخرجا وحيدين ، وتوغلا بعيدا بمحاذاة سـاحل الخليج المنحدر انحدارا خفيفا . سارا صامتين ، فى خطو متساوق ، وهنا بدأ ايفان ايليتش يفكر بان الواجب يقتضيه ، على اية حال ، ان يقول شيئا ما لداشا . وبالطبع ، انها تنتظر منه بوحا حارا ومحددا فى الوقت ذاته . ولكن ماذا فى وسعه أن يتمتم ؟ وهل تستطيع الكلمات ان تفصح عما يملأ جوانحه ؟ لا ، ان ذلك غير قابل للافصاح .

وفكر مع نفسه ، وهو ينظر الى قدميه : «لا ، لا ، لو بحت لها بتلك الكلمات ، فان ذلك سيكون معيبـا . انها لا يمكن ان تحبنى ، ولكنها كفتاة شريفة طيبة ستقبل ، اذا طلبت يدها . ولكن هذا سيكون اكراها . وفضلا عن ذلك لا يحق لى ان اقول لاننـا نفترق لفترة غير محددة ، فاننى ، فى اغلب الاحتمالات ، لن أعود من الحرب . . .»

وكانت تلك نوبة من نوبات تعذيب النفس . توقفت داشا

فجأة ، وتعلقت بكتفه ، وخلعت نعلها مرددة «يا آلهي ، يا آلهي» واخذت تفرغ الرمل من النعل ثم ارتدته ورفعت قامتها وتنهدت :

– ساشعر بحب شديد لك ، حين ترحل ، يا ايفان ايليتش .

ووضعت يدها على رقبته ، وتفرست في عينيه بعينيهـــا الصافيتين ، الرماديتين الصارمتين تقريبا ، الخاليتين من كل ظل لبسمة ، وزفرت زفرة اخرى خفيفة .

– سنكون سوية ، هناك ايضا ، ها ؟

جذبها ايفان ايليتش جذبة رقيقة ، وقبّل شفتيها الناعمتين المرتعشتين . فاغمضت داشا عينيها . وفيما بعد حين بُهرت منهما الانفاس كليهما تنحت داشا ، وامسكت يد ايفان ايليتش ، وسار الاثنان بمحاذاة الماء الثقيل الداكن اللاعق الساحل بالسنة قرمزية عند اقدامهما .

كان ايفان ايليتش يتذكر كل ذلك في لحظات الهدوء بانفعال متجدد في كل مرة . والآن ، وهو يسير في الضباب ، على الطريق العامة ، بين الاشجار ، ويداه وراء رقبته عادت تتراءى له نظرة داشا المتفرسة ، واحس بقبلتها الطويلة .

– قف ! من القادم !

هتف صوت غليظ في الضباب .

– من جماعتكم .

اجاب ايفان ايليتش ، وانزل يديه الى جيبي معطفه العسكري. وانعطف عند اشجار بلوط نحو هيكل قلعة غير واضح المعالم ، حيث كان النور يلوح اصفر في بعض نوافذها المضـــاءة . وعلى المدخل ابصر شخص تليفوني فرمى سيكارته ، ووقف في هيئـــة استعداد . «هل جاء البريد ؟» «لا ، ياحضرة الضـــابط ، نحن في انتظاره» . دخل ايفان ايليتش الى الرواق . كانت طنفسة قديمة معلقة فوق درج بلوطي عريض في آخر الرواق تصور آدم وحواء واقفين وسط الاشجار . كانت هي تمسك في يدها تفاحة ، وهو غصنا مقطوعا عليه زهور . وكانت شمعة موضوعة في فم زجاجة في اسفل الدرج تضيء بضوئها الشاحب وجهيهما الحائلين وجسميهما المزرقين .

وفتح ايفان ايليتش بابا الى اليمين ، ودخل حجرة فارغة لها

سقف منحوت منهار في احد الاركان من جراء قنبلة سقطت يوم امس على الجدار . كان الملازم الاول الامير بيلسكي والملازم مارتينوف جالسين على سرير قرب موقد مشتعل . سلم ايفان ايليتش ، وسأل متى من المتوقع ان تصل السيارة من مقر الاركان ، وجلس على كومة من علب الخراطيش غير بعيد عن الضابطين ، وقلص عينيه من الضوء .

سأل مارتينوف :

– اما زال اطلاق النار مستمرا هناك ، عندكم ؟

لم يجب ايفان ايليتش ، وهزّ كتفيه . ومضى الامير بيلسكي متابعا حديثه بصوت خافت :

– والاهم هي هذه الرائحة النتنـــة . لقـــد كتبت لاهلي ان الموت لا يخيفني . فانا مستعد في سبيل الوطن الى التضحيـــة بحياتي ، ولاجل هذا ، اذا اردت الدقة ، انتقلت الى المشاة ، وها انا جالس في الخنادق ، ولكن الرائحة النتنة هي التي تقتلني .

اجاب مارتينوف ، وهو يعدل احدى كتفيتيه :

– الرائحة النتنة شيء تافه ، اذا لا تعجبك فلا تشمهـــا . ولكن خلو المكان من النســـاء هو الشيء الجوهري . ان ذلك لا يؤدي الى خير . احكم بنفسك : قائد الجيش هرم ، فاقاموا لنا هنا ديرا ، لا خمرة ، ولا نساء . ايمكن ان تدعو هذا اهتماما بالجيش ؟ اهذه حرب ؟

نهض مارتينوف من السرير ، واخذ يدفع برأس حذائه خشبة محترقة . وراح الامير يدخن مستغرقا ناظرا الى النار . وقال :

– خمسة ملايين جندي يروثون . وفضلا عن ذلك تتفسخ الجثث والخيول النافقة . ستظل الحرب طوال حياتي تذكرني بشيء كريه الرائحة . بررررر . . .

سمع هدير محرك سيارة في الفناء . وصاح صوت منفعل عند الباب :

– يا سادة ، جاء البريد .

خرج الضباط الى مدخل القلعة . كانت شخوص داكنة تتحرك عند السيارة ، وبعض الرجال يتراكضون في الفناء . وكرر الصوت المبحوح : «يا سادة ، ارجو الا تتخاطفوا من الايدي» .

وجلبت اكياس البريد والطرود الى الرواق ، واخذوا يفكونها على الدرج تحت آدم وحواء . وكانت تحتوى على بريد الشهر كله . وظهر ان تلك الاكياس الجنفاصية القذرة كانت تحتوى على عالم كامل من الحب والحنين – حياة كاملة مهجورة ، رقيقة ، لا تسترد .

– يا سادة ، لا تتخاطفوا من الايدى – بحّ النقيب بابكين ، وهو رجل ضخم احمر الوجه – الملازم الثانى تليغين ست رسائل وطرد . . . الملازم الثانى نيشنى رسالتان . . .

– نيشنى قتل ، يا سادة . . .

– متى ؟

– اليوم صباحا . . .

سار ايفان ايليتش الى الموقد . كانت الرسائل الست كلها من داشا . وكان العنوان على الظروف مكتوبا بخط كبير . وغمر الحنان ايفان ايليتش على تلك اليد الحبيبة التى خطت هذه الحروف الكبيرة . انحنى على النار ، وفضّ الظرف الاول بحـذر . ففاحت منه ذكرى قوية جعلت ايفان ايليتش يغمض عينيه برهة . ثم قرأ :

«سافرنا – نيقولاى ايفانوفيتش وانا – الى سيمفروبـول فى اليوم الذى ودعناك فيه ، وفى المساء ركبنا قطار بطرسبورغ . ونحن الآن فى شقتنا القديمـة . نيقولاى ايفانوفيتش قلق جدا بسبب عدم ورود اى خبر من كاتيـا ، ونحن لا نعرف اين هى الآن . ان ما وقع لنا ، انت وانا ، كان عظيما جدا ومفاجئا جدا حتى اننى ما ازال غير متمالكة حواسى . اننى احبك ، وسيكون حبى لك صادقا وسيزداد قوة . اما الآن فان بلبلة شديدة تجتـاح النفس . القوات تمر فى الشوارع على انغام الموسيقى فتشيع فى الجو حزنا ممضا حتى لكان السعادة تمضى راحلة مع الابواق ، مع هؤلاء الجنود . انا اعرف لا يجوز لى ان اكتب ذلك ، ولكن يجب ان تكون حذرا فى الحرب ، على اية حال» .

– يا حضرة الضابط ، يا حضرة الضابط .

التفت تليغين بصعوبة فرأى جنديا مراسلا يقف عند الباب .

– برقية تلفونية ، يا حضرة الضـابط . . . يطلبونك فى الفوج .

– مَنْ ؟

– المقدم روزانوف . طلب ان تاتى بأسرع ما يمكن .

طوى تليغين الرسالة التى لم يتم قراءتها وحشرها وراء قميصه مع الظروف الاخرى ، وانزل قبعته على عينيه ، وخرج .

كان الضباب قد ازداد كثافـة ، وحجب الاشجار ، والسائر يحس وكانـه يخوض فى حليب ، ولا يتعرف على الطريق الا من صلصلة الحصباء . اعاد ايفان ايليتش مع نفسه «سيكون حبى لك صادقا ، وسيزداد قـوة» . وفجـأة توقف مرهفا سمعـه . لم يكن يصدر من الضباب صوت ما عدا الصوت الذى يحدثه احيانا سقوط قطرة ثقيلة من شجرة . ثم اخذ يميز ، على مسافة غير بعيدة عنه ، قرقرة وخشخشة خفيفة . وواصل سيره ، فصارت القرقرة اكثر وضوحا . ارتد بقوة ، فانهبدت كتلة الطين التى انخلعت من تحت قدميه ساقطة فى الماء بطرطشة ثقيلة .

كان ذلك ، على ما يبدو ، المكان الذى كانت الطريق العامة تقطعه فوق النهر عند جسر محروق . وعلى الضفة الاخرى من النهر، على بعد زهاء مائة خطوة كانت الخنادق النمساوية تصل الى حافة النهر . وكان ايفان ايليتش يعرف ذلك . وبالفعل ازت رصاصة من الجانب الآخر كالسوط على طرطشة الماء ، ورجع النهر صوتها ، وازت اخرى وثالثة ، ثم اعقبت ذلك صلية طويلة ، مثل قعقعـة حديد ، فردت عليها من كل جانب طلقات عجلى خنق الضبـاب اصواتها . وتوالى الازيز والدوى والزئير على النهر كلـه اقوى فاقوى ، وفى ذلك الضجيج اللعين ، لعلع مدفع رشاش بعجلة ، وسمع صوت انفجار فى الغابة . وجثم الضباب الممزق الهادر على الارض ساترا على هذا الامر الكريه المعتاد .

ولعدة مرات كانت احدى الرصاصات ترتطم بشجرة قرب ايفان ايليتش محدثة صوت قضم ، ويسقط غصن . ترك الطريق العامة الى الحقل ، واتخذ طريقه تلمسا بين الاجمات . هدا التراشق بغتة ، مثلما بدا ، ثم انتهى . خلع ايفان ايليتش قبعته ، ومسح جبينه الرطب . انسدل مرة اخرى سكون اشبـه بالسكون تحت الماء ، ولم يبق الا اصوات القطرات تقطر من الاشجـار . حمدا لله ، اليوم سيقرأ رسائل داشا . وضحك ايفان ايليتش وقفز عبر

حفرة . وفجأة سمع ، على مقربة شديدة منه ، صوت رجل يتثاءب ثم يقول :

– يا فاسيلى اى نوم فى مثل هذه الاحوال ؟ اى نوم ؟

ردّ صوت مهتز :

– انتظر . هناك شخص قادم .

– مَنْ القادم ؟

– من جماعتكم ، من جماعتكم .

اسرع تليغين يقول ، وفى الحال رأى المتراس الترابى للخندق ، ووجهين ملتحيين يتطلعان من تحت الارض . سأل :

– اية سرية هذه ؟

– الثالثة يا حضرة الضابط ، سريتك . ولماذا تسير على الارض المكشوفة ، يا حضرة الضابط ؟ قد يصيبونك .

قفز تليغين الى الخندق ، وسار فيه الى خندق الاتصال المؤدى الى مخبأ الضباط . كان الجنود الذين ايقظهم اطلاق الرصاص هذا يتحدثون :

– فى مثل هذا الضباب من السهل جدا ان يعبر العدو النهر فى مكان ما .

– انه شيء بسيط .

– فجأة رمى ودوى كثيف . ترى ايريد ان يخيفنا ام هو نفسه خائف ؟

– وانت ، لست خائفا ؟

– انا ، يا صاحبى ؟ انا جبان جدا .

– يا اولاد ، قطعت اصبع لغفريل .

– لو رأيتموه كيف يزعق رافعا اصبعه الى فوق .

– حظوظ ! . . سيرسل الى اهله .

– ابدا ! لو كانت ذراعه كلها قد قطعت لكانت له اجازة ! اما دون اصبع واحدة ، فسيحشرونه ليتعفن فى مكان قريب ثم يعودونه الى السرية ثانية .

– متى ستنتهى هذه الحرب ؟

– اوه ، كفى .

– ستنتهى ، ولكن لن نرى نحن نهايتها .

– على الاقل لو استولينا على فينا .

– وما حاجتك اليها ؟

– لا لشيء ، ولكن احسن .

– حتى اذا لم تنته الحرب فى الربيع ، فان الجميع سيهربون على اية حال . فمن سيزرع الارض ؟ النسوان ؟ الشعب سحق سحقا . كفى ، تشبعنا بالدم بما فيه الكفاية وزيادة ، وسنذهب الى بيوتنا من تلقاء انفسنا .

– ولكن الجنرالات لن يكفوا عن الحرب عن قريب .

– ما هذا الكلام ؟ . . من يقول هذا ؟

– كفى نباحا ، يا عريف . . . انصرف . . .

– لن يكف الجنرالات عن الحرب .

– انه على حق ، يا اولاد . فهم اولا يقبضون رواتب مضاعفة ، واوسمة ونياشين .

لقد قال لى احد الاشخاص ان الانجليز يعطون لجنرالاتنا ثمانية وثلاثين روبلا ونصف على كل مجند .

– اوه ، الاوباش ! كما يبيعون الماشية .

– لا باس ، سنصبر ، ونرى .

عندما دخل تليغين المخبأ رأى آمر الكتيبة المقدم روزانوف – وهو رجل بدين ذو نظارة ، وخصل شعر قليلة – جالسا على اغطية خيول موضوعة فى احد الاركان تحت اغصان الصنوبر ، وقد ابتدره قائلا :

– جئت اخيرا يا صاحبى .

– ارجو المعذرة ، يا فيودور كوزميتش ، فقد اضعت طريقى . الضباب كثيف .

– المسألة ، يا صاحبى ، ان هناك عملا ينبغى انجازه فى الليل .

ووضع فى فمه قطعة الخبز التى كان طيلة الوقت يمسكها بيده الوسخة . اطبق تليغين فكيه ببطء .

– الخلاصة ، يا عزيزى ايفان ايليتش ، ان الامر قد صدر الينا بالعبور الى الضفة الاخرى . وسيكون لطيفا لو ننجز ذلك

بشيء من اليسر . اجلس بجانبي . اتريد شيئا من الكونياك ؟ لقد عنت لي هذه الخطة . . . اقامة جسر مقابل دغل الصفصاف الكبير تماما ، وتعبير فصيلتين على تلك الضفة . . .

١٦

– سوسوف !
– نعم ، يا حضرة الضابط .
– احفر . . . على مهلك ، لا تلق التراب فى الماء . يا اولاد تقدموا الى الامام . . . زوبتسوف !
– نعم ، يا حضرة الضابط .
– انتظر . . . ثبته هنا . . . احفر قليلا . . . خفّض . . . على مهل . . .
– على مهل ، يا اولاد ، ستخلعون كتفى . . . ادفع . . .
– هيا ، ادفع . . .
– لا تصرخ ، هدوء ، يا حيوان !
– اسند الطرف الآخر . . . يا حضرة الضابط ، هل نرفع ؟
– هل ربطتم الطرفين ؟
– نعم .
– ارفع . . .

وارتفع فى غيوم الضباب المشرّب بضـــوء القمر عمودان مرتفعان تربط بينهما عوارض ، وقد صدر صريف من ذلك . انها جسر معلق . كانت اشباح المتطوعين تتحرك على الشاطئ وهى لا تكاد تبين . وكان الكلام والسباب يجريان بهمس عجول .

– هل استقر ؟ ها ؟
– استقر بصورة جيدة .
– خفّض . . . بحذر اكثر . . .
– برفق ، برفق يا اولاد . . .

بعد ان تثبت العمودان بطرفيهما فى ضفة النهر ، فى اضيق موضع فيه ، اخذا يميلان ببطء الى الامام ، وتدليا فوق الماء فى الضباب .

– هل سينوش الضفة الثانية ؟
– خفّض على مهل .
– ثقيل جدا .
– قف ، قف . . . برفق ! . .

ومع ذلك فقد انطرح الطرف الثانى من الجسر على المـــاء بطرطشة عالية . اشار تليغين بذراعه قائلا :

– استلقوا !

استلقت اشباح المتطوعين على عشب الشاطئ بصوت غير مسموع . شفّ الضباب ، الا ان الظلام صار احلك ، والهواء اثقل عند السحر . وكان الهدوء يسود الضفة الاخرى . نادى تليغين :

– زوبتسوف !
– نعم !
– انزل الى الماء وصفّ الواحا !

نزل المتطوع فاسيلي زوبتسوف بجسمه الركين الناشر رائحة عرق نافذة من الشاطئ الى الماء مارا بتليغين . ورأى ايفـــان ايليتش يده الكبيرة تمسك بالعشب مرتجفة ، وتطلقه ، وتختفى .

– عميق ، – قال زوبتسوف بهمس مرتجف صدر من مكان فى الاسفل واستمر – ناولونى الالواح ، يا اولاد . . .
– الالواح ، ناولونى الالواح !

وراحت الالواح تتناقل بين الايدى بسرعة وبلا صوت . وكان من المستحيل تسميرها خوفا من حدوث ضجة . صفّ زوبتسوف الصفوف الاولى ، وخرج من الماء الى الجسر ، وراح يقول بصوت خافت ، واسنانه تصطك :

– اسرع ، ناول بسرعة . . . لا تبطئ . . .

كان الماء القارس البرودة يرســـل خريره تحت الجسر ، والعمودان يتمايلان . وكان تليغين يميز معالم الاجمات الداكنة على الشاطئ الآخر ، وبالرغم من انها لم تكن تختلف عن الاجمات فى الجانب الروسى ، الا ان منظرها بدا مخيفا . عاد ايفان ايليتش الى الشاطئ حيث كان المتطوعون مستلقين ، وهتف بحدة :

– انهضوا !

وفي الحال نهضت في الغمـــام المبيض شخوص ممسوحـــة المعالم كبيرة بشكل بالغ .

– واحدا بعد واحد ، اجر ! . .

استدار تليغين نحو الجسر . وفي تلك اللحظة تنورت الالواح الصفر ، وراس زوبتسوف ذو اللحية السوداء الملقى الى الوراء من الرعب ، وكان شعاع شمس اصطدم بغمامة الشباب فجاة . انحرف شعاع المصباح الكاشف جانبا الى الاجمات ، وانتزع من الظلام غصنا معوجا عليه عساليج عارية ، وعاد ثانية ليتمدد على الالواح . ركض تليغين مطبق الاسنـــان عبر الجسر ، وفي تلك اللحظة بدا وكان كل ذلك السكون الاســـود قد انفجر وانعكس كالرعد في راسه . اخذت نيران البنادق والرشاشات تنهمر على الجسر من الجانب النمساوي . قفز تليغين على الشاطئ ، وقعد على رجليه ، واستدار . كان جندي طويل القامة لم يتعرف عليـــه ، يركض على الجسر حاضنا بندقيته على صدره ، ثم افلتت من يديه، ورفع يديه ، وسقط الى الجانب في الماء . كان احد الرشاشـــات يصب ناره على الجسر والماء والشاطئ . ركض جندي آخر هو سوسوف ، واستلقى بالقرب من تليغين . . .

– سامزق هؤلاء الاوغاد باسناني !

وركض ثان ، وثالث ، ورابع ، وترنح آخر ، وزعق متخبطا في الماء . . .

عبر الجميع الجسر راكضين ، وانطرحوا مكومين بالارفاش قليلا من التراب امامهم . والآن صار الرصاص يرعد على نحو جنوني فوق النهر كله . وكان من المتعذر على المرء ان يرفع راسه . فقد ظل الرشاش يمطر بوابل رصاصه هناك حيث استلقى المتطوعون على الارض . وفجاة ازّ شيء على ارتفاع واطئ مرة ومرتين . . . وست مرات ، ودوّت الى الامام ستة انفجارات خافتة . انهم الروس يقصفون وكر الرشاش .

قفز تليغين وفاسيلي زوبتسوف امامه وركضا حوالي اربعين خطوة ، ثم استلقيـــا . وعاد الرشـــاش الى العمل من الظلام الى اليسار . ولكن كان واضحا ان النار من الجانب الروسي كانت اشد، وان النمساويين يبعدون داخل الارض . استغل المتطوعون فترات

السكون وركضوا نحو المكان ، حيث قد احدثت مدفعية الروس ثغرة في الاسلاك الشائكة امام الخنادق النمساوية يوم امس .

وكان النمساويون قد بداوا وصلها من جديد خلال الليل ، فتركوا جثة تتدلى عليها . قطع زوبتسوف الاسلاك ، وسقطت الجثة امام تليغين كالزكيبة . وثب المتطوع لابتيف الى الامام بدون سلاح زاحفا على الاربع سابقا الآخرين ، واستلقى امام المتراس تماما ، فصاح به زوبتسوف :

– انهض ، والق قنبلة !

الا ان لابتيف صمت ولم يتحرك ، ولم يلتفت ، فلا بد ان قلبه جمد من الرعب . اشتد اطلاق النار ، ولم يستطع المتطوعون التحرك ، والتصقوا بالارض ، واندفنوا فيها .

صاح زوبتسوف :

– انهض ، والق قنبلة ، يا ابن الكلبة ! اقذفها !

ومدّ جسمه ممسكا بندقيته من كرنافتها ، ووخز بحربتـــه معطف لابتيف الذي برز كالحدبة . ادار لابتيف وجهه الغاضب ، وفك قنبلة يدوية من حزامه ، وقذفها فجاة ملقيا صـــدره على المتراس ، وقفز الى الخندق بعد انفجارها .

صاح زوبتسوف بصوت غريب عليه :

– اضرب ، اضرب !

نهض زهاء عشرة من المتطوعين ، وهرولوا ، وغيّبتهـــم الارض . وكان لا يسمع غير اصوات الانفجارات الحادة المتقطعة .

تحرك تليغين على المتراس جيئة وذهابا كالاعمى ولم يستطع ان يفك قنبلة ، فقفز اخيرا الى الخندق ، وركض ضاربا الطين اللزج بكتفيه ، متعثرا ، صارخا بملء فمه . . . وراى وجها ابيض كالقناع لرجل منضغط على تجويف في جدار الخندق ، فامســك الرجل من كتفيه ، وكان الرجل لايفتأ يهذر وكانه في النوم . . .

– اسكت ، ايها الشيطان . لن امسك بسوء .

صرخ تليغين في الوجه الابيض كالقناع ، وهو يكاد يبكي ، وركض ، قافزا فوق الجثث . الا ان المعركـــة كانت تقترب من نهايتها ، وطلع حشد من الناس الرماديين متسللين من الخنادق الى الحقل بعد ان القوا بنادقهم ، فدفعوهم بكرنافات البنادق . وكان

الرشاش ما يزال يلعلع فى وكره المسقوف على بعد زهاء اربعين خطوة ، مصوبا ناره الى معبر النهر . شق ايفان ايليتش طريقه بين المتطوعين والاسرى ، وصاح :

– ماذا تنتظرون ، ماذا تنتظرون ؟ اين زوبتسوف ؟

– انا هنا . . .

– ماذا تنتظر ، ايها الشيطان اللعين ؟

– وكيف استطيع ان اصل اليه ؟

وركضا .

– قف ! . . هذا هو ! . .

كان ممر ضيق فى الخندق يؤدى الى وكر الرشاش . ركض تليغين فيه طاويا جذعه ، وقفز الى مخبأ كان كل شىء فيه يرتج فى الظلمة من الذبذبة التى لا تطاق ، وقبض على شخص من مرفقيه ، وجره واذا بالسكون يسود ، ولم يبق الا فحيح الرجل الذى جره من وراء الرشاش ، وهو يقاوم .

– الوغد ، انه يمانع . . . اسمح لى .

تمتم زوبتسوف بذلك من الخلف ، واشفع ذلك فى الحال بثلاث ضربات بكرنافة البندقية على جمجمة النمساوى فارتجف هذا ، وتوجع ، ثم همد . . . تركه تليغين وخرج من المخبأ . صاح زوبتسوف فى أثره :

– يا حضرة الضابط ، انه موثق .

وبعد قليل انزاح الظلام تماما . وظهرت على الطين الاصفر بقع وخطوط دم ، وتناثرت جلود مسلوخة من عجل ، وعلب تنك ، ومقال ، بينهما جثث آدمية متكورة كالزكائب . وكان المتطوعون المنهكون الخاملون ، منهم من انطرح ارضا ، ومنهم من كان يأكل من معلبات ، ومنهم من كان ينبش فى الحقائب التى رماها النمساويون .

وكان الاسرى قد سيقوا منذ وقت طويل الى ما وراء النهر . وقد عبر الفوج النهر ، واحتل مواقعه ، وكانت المدفعية تقصف خطوط النمساويين الثانية ، فكان هؤلاء يردون عليها بنار ضعيفة . تساقط رذاذ ، وانقشع الضباب . وضع ايفان ايليتش مرفقه على حافة الخندق ، وحدق فى الحقل الذى ركضوا فيه ليلا . انه حقل

كسائر الحقول ، بنى التربة ، رطب تناثرت فيه هنا وهناك قطع من الاسلاك الشائكة ، وآثار سوداء لارض محفورة ، وبعض جثث المتطوعين . والنهر قريب جدا ، ولا وجود للاشجار التى تصورها بالامس جبارة ، ولا لاجمات مخيفة . ولكن ما اكثر الجهود التى بذلت لقطع هذه الخطوات الثلاثمائة !

استمر النمساويون فى تراجعهم ، ولاحقتهم الوحدات الروسية حتى الليل دون ان تنال قسطا من الراحة . وأمر تليغين بان يحتل مع متطوعيه غابة صغيرة كانت تتراءى مزرقة على قمة تل ، وقد احتلها عند المساء بعد فترة قصيرة من التراشق بالنيران . وتخندقوا على عجل ، ونصبوا نقاط حراسة ، واقاموا اتصالا تلفونيا مع وحدتهم ، واكلوا ما كان فى حقائبهم من طعام ، وغفا الكثيرون تحت الرذاذ وفى الظلام حيث تتصاعد رائحة تفسخ اوراق الاشجار فى الغابة ، رغم ان الامر قد صدر لهم بالاستمرار فى اطلاق النار طول الليل .

اقتعد تليغين قرمة ، واتكأ على جذع شجرة ناعمة مما علق بها من طحلب . وكانت بين الحين والآخر تسقط قطرة وراء ياقته ، وكان ذلك شيئا طيبا ، لانه كان يمنعه من الغفو . وكان اللغط الصباحى قد انقضى منذ وقت طويل ، وزال حتى ذلك الاعياء الرهيب عندما أمروا بالسير زهاء عشرة فراسخ على الجذامات المنتفخة من المطر ، وتخطى الاسيجة والسواقى ، حين صارت الاقدام المتخشبة تتخبط حيثما اتفق ، والرؤوس متورمة من الالم .

سمع شخص يسير على الاوراق المتساقطة ، وصوت زوبتسوف يقول بخفوت :

– اتريد بقسماطة ؟

– شكرا .

تناول ايفان ايليتش بقسماطة منه ، واخذ يمضغها . كانت حلوة فذابت فى فمه . قرفص زوبتسوف على مقربة منه :

– اتسمح لى بالتدخين ؟

– شرط ان تكون حذرا .

– عندى غليون .

– زوبتسوف ، ما كان لك ان تقتله ، ها ؟

– مَنْ ؟ جندى الرشاش ؟
– نعم .
– بالطبع .
– اتريد ان تنام ؟
– لا يهم . يمكن بدون ذلك .
– هزنى ، اذا غفوت .

كانت القطرات تتساقط ببطء على الاوراق المتفسخة وعلى يده ، وعلى سطح قبعتـــه . كانت هذه القطرات بعـــد الضجيج والصيحات ، واللغط المقرف ، بعد قتل جندى الرشاش تتساقط مثل كرات زجاجية صغيرة . تتساقط فى الظلام ، فى اعماق الغابة ، حيث تتصاعد رائحة الاوراق المتفسخـة . وكان الحفيف يذود النوم عن عينيـــه المنطبقتين ... لا ، لا يجوز ... لايجوز ... وفتح ايفان ايليتش بقوة عينيه المنطبقتين ، ورأى خطوط الاغصان غير الواضحة ، وكأنها خطوط مرسومة بفحم ... ولكن من الحمق ايضا الاستمرار باطلاق النار طوال الليـــل ... دعوا المتطوعين ينالون شيئا من راحة ... ثمانية قتلى ، واحد عشر جريحا ... طبعا يجب ان يكون الانسان حذرا فى الحرب ... آه ، داشا ، داشـــا . والقطرات الزجاجية ستشيع السكينة فى النفس ، وتواسى ...

– ايفان ايليتش ! ..
– نعم ، نعم ، زوبتسوف ، لست نائما ...
– اليس من الخطا قتل الانسان ؟ .. اغلب الظن ان له بيتا ، وعائلة مهما تكن ، بينما غرزت الحربة فيه ، وكأنمـــا اغرزها فى دمية انسان وقضى الامر . عندما قضيت لاول مرة فى حياتى على انسان ، لم استطع ان اذوق الطعام ، فقد شعرت بالغثيان ... اما الآن فانا اقضى على العاشر او التاسع ... شىء رهيب ها ؟ فهل هناك شخص يتحمل الخطيئة ؟
– اية خطيئة ؟
– خطيئتى مثلا . اقول ، ان شخصا يتحمل خطيئتى – جنرالا او شخصا آخر فى بطرسبورغ يتصرف بكل هذه الامور ...
– واية خطيئة لك ، اذا كنت تدافع عن وطنك ؟
– وليكن ... ولكن يبدو ان هنـــاك من يتحمل الذنب .

فلنبحث عنـــه . ان من اطلق هذه الحرب ، هو الذى سيتحمل وزرها ... وسيحاسب عن هذه الامور بشدة ...

رن فى الغابة صوت اطلاقة حاد . وجفل تليغين وصدرت عدة اطلاقات اخرى من الجانب الآخر .

وكان الامر يبدو اشد غرابة لان العدو لم يكن على احتكاك معهم منذ المساء . هرع تليغين الى التلفون . اخرج جندى التلفون رأسه من الحفرة .
– الجهاز لا يعمل ، يا حضرة الضابط .

والآن راحت الطلقات تتردد تترى فى الغابة كلها وترتطم الرصاصات فى الاغصان . تراجعت النقاط الامامية واخذت ترد على النار وظهر المتطوع كليموف قرب تليغين ، وقال بصوت وحشى غريب : «انهم يطوقوننا ، يـا حضرة الضابط» وقبض على وجهه ، وجلس على الارض ، ثم انطرح عليهـــا . وصرخ شخص آخر فى الظلام :
– يا اخوان ، انا اموت .

لمح تليغين بين جذوع الاشجار قامات المتطوعين الفارعـــة الساكنة . وكانوا جميعا يتجهون بابصارهم اليه وقد احس بذلك . امر بان ينسلوا كل واحد على حدة الى شمال الغابة ، الجهة التى لم تطوق بعد ، فى اغلب الاحتمال . وسيبقى هو يقـاوم هنا ، فى الخنادق مع من يريد ان يبقى ، قدر ما تمكن المقاومة .
– المطلوب خمسة اشخاص ، فمن يرغب ؟

خرج من الاشجار زوبتسوف ، وسوسوق ، والشـــاب كولوف ، واتجهوا نحوه . التفت زوبتسوف وصاح :
– بقى اثنان ! رايابكين ، تعال .
– حسنا ، يمكننى ...
– الخامس ، الخامس .

نهض من الارض جندى قصير القامـــة يرتدى فروة خروف وقبعة شعثاء :
– ربما انا ايضا .

واستلقى الستة وبين الواحد والآخر زهاء عشرين خطوة ، وراحوا يطلقون النار . واختفت الاشباح وراء الاشجار . افرغ ايفان

ايليتش بضع علب من الخراطيش وفجأة تراءى له بوضوح بالغ كيف ان الرجال ذوى المعاطف الزرق سيقلبون فى صباح الغد جثته المكشرة على ظهرها ، ويأخذون بتفتيشه ، وتمتد يد قذرة وراء القميص .

وضع بندقيته ، وحفر فى الارض الرطبة ، واخرج رسائل داشا ، وقبلها ، ووضعها فى الحفرة التى حفرها ، وطمرها ، وفرش فوقها اوراقا متفسخة . وفجأة سمع صوت سوسوف الى يساره : «اوى ، اوى ، يا اخوان !» لقد بقيت علبتان من الخراطيش .

زحف ايفان ايليتش نحو سوسوف المطرق برأسه واستلقى الى جانبه ، وتناول علبتين من حقيبته . والآن لم يبق احد يطلق النار غير تليغين وشخص آخر الى يمينه واخيرا انتهت الخراطيش . انتظر ايفان ايليتش ، ونظر فيما حوله ، ونهض ، واخذ ينادى على اسماء المتطوعين . ولم يرد على ندائه الا اسم واحد ، وتقدم كولوف منه معتمدا على بندقيته . سأل ايفان ايليتش :

– هل عندك خراطيش ؟

– لا .

– والآخرون لا يردون ؟

– لا ، لا .

– حسنا ، لنذهب . اركض .

القى كولوف بندقيته على ظهره ، وركض متخفيا وراء الاشجار . اما تليغين ، فما ان خطا عشر خطوات حتى احس بوخزة اصبع حديدية كليلة على كتفه من الخلف .

١٧

وتبين انها عتيقة بالية كل التصورات التى تصور الحرب هجوما جريئا للفرسان ومسيرات غير عادية ، ومآثر بطولية للجنود والضباط .

ان الهجوم الشهير لحرس الفرسان ، حين اجتازت ثلاث سرايا

مترجلة ، حواجز الاسلاك الشائكة دون ان تطلق رصاصة واحدة ، وعلى رأسها آمر الفوج الامير دولغوروكوف الذى كان يتخطى تحت نيران الرشاشات والسيغار فى فمه ، ولسانه يرسل الشتائم باللغة الفرنسية كالعادة ، ان هذا الهجوم قد ادى الى ان يفقد حرس الفرسان نصف عدده ما بين قتيل وجريح ، ليستولى على مدفعين ثقيلين تبين انهما قد عطلا بسبب قدمهما ، وانهما كانا محميين برشاش واحد فقط .

وقد قال ضابط سرية قوزاقية فى هذا الصدد : «لو وُكِل الأمر الىّ لاستوليت على هذه النفاية بعشرة من القوزاق» .

واتضح من الشهور الاولى ان لا فائدة من شجاعة الجندى السابق ، اى الرجل البطولى الضخم ذى الشاربين الذى يجيد العدو على الفرس وفلق الهام بالسيف دون ان يهاب الرصاص . فقد صار التكتيك وتنظيم المؤخرة يحتلان الصدارة فى الحرب . وطُلب من الجنود ان يموتوا بصلابة وطاعة فى الاماكن المحددة على الخريطة . ونشأت الحاجة الى عساكر مقتدرين على الاختفاء ، والتخندق فى الارض ، والتلاشى مع لون الغبار . ونُسخت كليا القواعد العاطفية التى وضعها مؤتمر لاهاى حول ما يجوز وما لا يجوز فى القتل . وتشتتت مع هذه الورقة الممزقة بقايا الأصول الخلقية التى لم تعد لأحد حاجة اليها .

وهكذا فان الحرب قامت ، خلال بضعة شهور ، بعمل قرن كامل . وحتى ذلك الحين كان الكثيرون ما يزالون يعتقدون بان الحياة الانسانية تحكمها قوانين الخير السامية ، وان الخير منتصر على الشر فى آخر المطاف لا محالة وستبلغ الانسانية الكمال . ولكن لقد كان ذلك من بقايا القرون الوسطى التى اوهنت الارادة ، واعاقت سير الحضارة . والآن ، اصبح واضحا حتى للمثاليين الراسخين فى المثالية ان الخير والشر هما مفهومان فلسفيان محض ، وان العبقرية الانسانية قد دخلت فى خدمة سيد خبيث . . .

لقد كان ذلك زمنا أُوحى فيه حتى للاطفال الصغار ان القتل والتدمير والقضاء على امم بكاملها هى افعال شجاعة مقدسة . وكانت الصحف بملايين النسخ تردد ذلك يوميا وتزعق به وتدعو اليه . وكان خبراء خصوصيون يتنبأون كل صباح بنتائج المعارك . وكانت

الصحف تنشر تنبؤات المتنبئة الشهيرة مدام تيب . وظهر العديد من العرّافات والعرّافين والمنجمين والعارفين بالغيب . ونقصت البضائع ، وارتفعت الاسعار ، وتوقف تصدير الخامات من روسيا . وكانت ثلاثة موانئ في الشمال والشرق – وهي المنافذ الوحيدة الباقية للبلاد المغلقة والمنعزلة انعزالا تاما – لا تستقبل غير القذائف واسلحة الحرب . واهملت زراعة الحقول . وشاعت المليارات من العملة الورقية في الريف حتى صار الفلاحون يبيعون القمح بلا رغبة .

في المؤتمر السري المنعقد في استوكهولم لاعضاء العصبة الصوفية السرية لانصار «الحكمة الانسانية» قال مؤسس هذه الجماعة ان الصراع الرهيب الذي يجري في الاجواء العليا قد انتقل الى الارض الآن ، وستحدث كارثة عالمية ، وستكون روسيا ضحية للتكفير عن الاوزار . وبالفعل كانت جميع الافكار العقلانية تغرق في اقيانوس من الدم يغمر خط الجبهة الهائل الممتد ثلاثة آلاف فرسخ والذي يطوق اوربا . وما من عقل كان قادرا على ان يوضح لماذا تدمر الانسانية نفسها في عناد بالحديد والديناميت والمجاعة . ان دمامل متقيحة تعود الى الزمن الغابر كانت تنفجر . كان الجميع يعاني تركة الماضي . ولكن حتى هذا لم يكن ليوضح شيئا .

وبدأت المجاعة في اقطار . وتوقفت الحياة في كل مكان ، واخذت الحرب تبدو الفصل الأول فقط من تراجيديا .

وامام هذا المشهد كان الفرد الذي اعتبر الى فترة وجيزة «عالما صغيرا» وشخصا متضخما ، كان كل فرد يتضاءل ويتحول الى ذرة غبار لا حول لها . وخرجت الجماهير البدائية الى اضواء المسرح التراجيدي لتحل محله .

وكان حظ النساء اثقل الحظوظ . لقد كانت كل واحدة منهن وفق ما خصت به من جمال وسحر وذكاء ، قد نسجت لنفسها شبكة عنكبوتية من خيوط دقيقة متينة بما فيه الكفاية بالنسبة للحياة الاعتيادية . وكان كل من كتب له ان يسقط فيها يطن طنينا مسليا على اية حال .

الا ان هذه الحرب قد هتكت هذه الشبكات ايضا . وكان من المستحيل حتى التفكير في نسجها من جديد في ذلك الزمن القاسي .

فلا بد من انتظار ازمان افضل . فظلت النساء ينتظرن بصبر ، وكان الزمن ينقضي ، واعوام النساء المعدودة تمضي قاحلة حزينة .

اصبح الازواج والعشاق والاخوان والابناء – الذين صاروا الآن مجرد ارقام ، وحدات تجريدية محض – يرقدون تحت حدبات ترابية في الحقول على مشارف الغابات ، وعند الطرق . وكان من المستحيل على اية جهود ان تزيل الغضون الجديدة المتزايدة من وجوه النساء الشائخة قبل الاوان .

١٨

– قلت لأخي : انك جامد العقيدة . انا اكره الاشتراكيين الديموقراطيين ، سيتعذب الشخص في حكمكم ، اذا زل في كلامه . انت انسان نجمي . عندئذ طردني من البيت . وها انا في موسكو بلا نقود . انها لقضية مسلية جدا . ارجوك ، يا داريا دميترييفنا ان تطلبي الى نيقولاي ايفانوفيتش ان يجد لي عملا . وسيان عندي اي عمل ، وافضل كل شيء ، بالطبع ، ان يكون في قطار الاسعاف .

– حسنا ، سأقول له .

– ليس لي احد من المعارف هنا . هل تذكرين «مجمعنا المركزي» ؟ يقولون ان فاسيلي فنيامينوفيتش فاليت قد رحل الى مكان ما ، يبدو في الصين . . . سابوجكوف في مكان ما في الجبهة ، وجيروف في القفقاس يحاضر عن المستقبلية . وانا لا اعرف اين تليغين . يبدو انك كنت من معارفه المقربين ؟

سارت يلزافيتا كييفنا وداشا ببطء في شارع جانبي بين اكوام الثلج العالية . وكان الثلج يتساقط ندفا صغيرة ، ويهس تحت الاقدام . اخرج سائق زلاجة واطئة حذاءه اللبادي المتصلب من مقعده ، ومر في عدو بطيء . وقال :

– اوانس ، حذار من السحق !

في ذلك الشتاء تساقط الثلج بوفرة كبيرة . وكانت اغصان الزيزفون في ذلك الشارع تتدلى وهي مغطاة بالثلج . وكانت السماء البيضاء الثلجية بكاملها حافلة بالطيور . وكانت غربان الكنيسة تطير فوق المدينة ناعبة وباسراب متناثرة ، وتحط على الابراج والقباب ، وتحلق في العلو الزمهريري .

توقفت داشا عند منعطف ، وعدّلت لفاعها الابيض . وكان معطفها من جلد عجل البحر وموفة اليدين الفرائية قد تغطيا بالثلج . وكان وجهها قد اصابه نحول ، وعيناها قد اتسعتا وازدادتا صرامة . قالت :

– ايفان ايليتش مفقود . وانا لا اعرف شيئا عنه .

ورفعت داشا عينيها ، ونظرت الى الطيور . لا بد ان الغربان كانت جائعة فى المدينة المكسوة بالثلج .

وقفت يلزافيتا كييفنا وعلى شفتيها الحمراوين جدا ابتسامة متجمدة ، واطرقت براسها المعتمر بقبعة اذنية . وكانت ترتدى معطفا رجاليا ضيقا عليها عند النهدين ، ذا ياقة فرائية مفرطة فى عرضها ، وكمين قصيرين لا يغطيان يديها المحمرتين . وكانت بعض ندف الثلج تذوب على رقبتها المصفرة قليلا .

قالت داشا :

– ساتحدث هذا اليوم مع نيقولاى ايفانوفيتش .

– انا اقبل باى عمل – قالت يلزافيتا كييفنا ، ونظرت الى قدميها ، وهزت راسها – لقد احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا شديدا جدا – وضحكت ، واغرورقت بالدموع عيناها القصيرتا النظر – اذن ، سآتى غدا . الى اللقاء .

ودّعت ، وانصرفت تخطو خطوات عراضا بحذائها اللبادى ، حاشرة يديها المتجمدتين فى جيبيها كما يفعل الرجال .

نظرت داشا فى اثرها ، ثم قطبت حاجبيها ، واستدارت فى المنعطف ، ودخلت الفيلا الذى تستخدم الآن مستشفى عسكريا للمدينة . هنا ، فى غرف الفيلا العالية السقوف ، المغطاة بخشب البلوط ، الفوّاحة برائحة اليود كان الجرحى الحليقو الرؤوس منطرحين على اسرة او قاعدين ، وقد ارتدوا ثياب المستشفى . وكان اثنان يلعبان الداما عند النافذة . وكان شخص آخر يذرع الغرفة من ركن الى ركن وهو يمس الارض بنعليه مسا رقيقا . وحين ظهرت داشا القى عليها نظرة سريعة وغضّن جبينه المنخفض ، واستلقى على سريره ملقيا يديه وراء راسه .

نادى صوت واهن :

– يا ممرضة !

اقتربت داشا من شاب ضخم منتفخ ذى شفتين سميكتين . فقال هذا متأوها بعد كل كلمة :

– اديرينى على الجنب الايسر ، بحق المسيح .

امسكته داشا ، ورفعته بكل قوتها ، وقلبته كالزكيبة .

– حان وقت قياس حرارتى ، يا ممرضة .

نفضت داشا محرارا ، وحشرته تحت ابطه .

– انا انقيأ ، يا ممرضة . ما ان آكل كسرة خبز حتى افرغ كل شىء . كل هذا فوق طاقتى .

غطته داشا ببطانية ، وانصرفت عنه . لاحت ابتسامات على وجوه المرضى فى الأسرة المجاورة ، وقال احدهم :

– انه يتظاهر من اجلك ، والا فهو معافى كالثور .

وقال صوت آخر :

– اتركوه يضطرب فهو لا يؤذى احدا . انه شغل للممرضة ومتعة له .

– يا ممرضة ، هذا سيمين يريد ان يسالك عن شىء ولكنه يستحى .

تقدمت داشا من رجل كان قاعدا على سريره له عينان مرحتان مستديرتان كعيون الغربان ، وفم صغير كفم الدب . وقد مشط لحيته الضخمة المستديرة كالمروحة . رفع لحيته ، ومط شفتيه باتجاه داشا .

– انهم يضحكون ، يا ممرضة . انا مرتاح من كل شىء ، ممتن تماما .

ابتسمت داشا . وزايل قلبها الثقل الذى كان يجثم عليه قبل حين . جلست على حافة سرير سيمين . طوت كمّ الجريح ، واخذت تعاين ضمادته . فراح هذا يصف لها مواضع الالم فيه بالتفصيل .

كانت داشا قد وصلت الى موسكو فى تشرين الاول ، حين دخل نيقولاى ايفانوفيتش فى فرع موسكو من الاتحاد البلدى للدفاع محمولا بدوافع وطنية . وقد اعطى شقته فى بطرسبورغ الى انجليز من البعثة العسكرية ، وعاش مع داشا فى موسكو حياة بسيطة ، فكان يرتدى سترة من الشموا ، ويشتم المثقفين الناعمين ، ويعمل كالحصان ، على حد تعبيره .

وكانت داشا تدرس القانون الجزائى ، وتقوم بشؤون المنزل الصغير ، وتكتب لايفان ايليتش كل يوم . وكانت مطمئنة النفس مستورة . وبدا الماضى بعيدا وكانه يعود الى حياة شخص آخر . كانت وكانها تعيش بنصف وجودها مفعمة بالقلق وانتظار الاخبار ، والحرص على ان تحفظ نفسها لايفان ايليتش فى طهارة وصرامة .

فى بداية تشرين الثانى ، وبينما كانت داشا تقلب صحيفة «الكلمة الروسية» وهى تحتسى قهوتها رات اسم تليغين فى قائمة المفقودين . كانت القائمة تشغل عمودين ببنط صغير . مرّت داشا على اسماء الجرحى ، واسماء القتلى ، ورات اسم تليغين الملازم الثانى فى آخر قائمة المفقودين .

وهكذا كان النبأ الذى سوّد كل حياتها لا يشغل الا سطرا واحدا من البنط الصغير .

وشعرت داشا بان كل هذه الحروف الصغيرة ، والسطور الجافة ، والاعمدة والعناوين تمتلىء بالدم . كانت هذه لحظة من الرعب لا توصف ، فقد تحولت صفحة الجريدة الى الشىء الذى كانت تكتب عنه ، الى كتلة شريرة دامية تفوح بالموت ، وتزار باصوات خفية .

هزّت القشعريرة داشا . وحتى يأسها غرق فى هذا الرعب الحيوانى والغثيان . انطرحت على الاريكة ، وغطت نفسها فى معطفها .

جاء نيقولاى ايفانوفيتش عند الغداء ، وجلس عند قدمى داشا ، ومسد عليهما صامتا ، قائلا :

— انتظرى ، يا داشا ، المهم ان تنتظرى . انه مفقود ، والظاهر انه وقع فى الاسر . وانا اعرف الف حالة مشابهة .

وفى الليل رات فى حلمها رجلا فى قميص جندى جالسا على سرير حديدى فى حجرة فارغة ضيقة يغطى نافذتها نسيج العنكبوت والغبار . وكان وجهه الرمادى يتلوى من الالم . وكان يشد على جمجمته الصلعاء بكلتا يديه ، ويقشرها وكانها بيضة ، وياخذ ما تحت القشرة وياكله ، داسا اصابعه فى فمه .

صرخت داشا فى الليل صرخة جعلت نيقولاى ايفانوفيتش يجد نفسه عند سريرها مغطى ببطانية ، وقضى وقتا طويلا قبل ان يقنعها على ان تقول ما حصل . ثم وضع قطرات الناردين فى قدح ، وقدمه لتشربها داشا ، وشرب هو ايضا .

كانت داشا ، وهى جالسة على سريرها ، تدق صدرها باصابعها المضمومة ، وتقول بخفوت ويأس :

— لا استطيع ان اعيش بعد الآن ، افهمنى ، يا نيقولاى ، لا استطيع ، ولا اريد .

كان من الصعب جدا ان تعيش بعد ما حدث ، ومن المستحيل ان تعيش كما كانت تعيش قبل هذا .

مست الحرب داشا باصبعها الحديدية لا غير ، والآن صار كل الموت وكل الدموع من نصيبها . وحين مرّت الايام الاولى من اليأس الحاد اتخذت داشا الشىء الوحيد الذى تستطيع ان تفعله : اجتازت الدورة المستعجلة للممرضات ، واشتغلت فى مستشفى عسكرى .

فى بادئ الامر واجهت صعوبة كبيرة . لقد كان ياتى من الجبهة جرحى لم يغيروا ضماداتهم اياما عديدة . وكانت ضمادات الشاش ترسل رائحة كريهة تبعث الدوار فى الممرضات . واثناء العمليات كان على داشا ان تمسك بالارجل والايدى المسودة التى كان يتساقط من جراحها قطع متخثرة من الدم والقيح ، وعرفت كيف يكز الرجال الاقوياء على اسنانهم ، وترتعش اجسامهم عاجزة عن تحمل الالم .

وكانت تلك العذابات من الكثرة بحيث لم تكن تكفيها كل الرحمة الموجودة فى هذه الدنيا لتشفق عليها . بدا لداشا انها قد ارتبطت الى الابد بهذه الحياة المشوهة المدماة ، ولا حياة اخرى غيرها . كانت ظليلة المصباح الخضراء تشتعل فى حجرة الخفارة الليلية ، وتترامى من وراء الجدار تمتمة شخص فى هذيانه . وكانت القوارير تصطك على الرف حين تمر سيارة فى الشارع . ويصبح هذا الانسحاق جزءا من الحياة الحقيقية .

وكانت داشا تسترجع الماضى ، وهى جالسة الى منضدة فى حجرة الخفارة ليلا ، فيلوح لها كالحلم فى وضوح متزايد . لقد عاشت ، كما عاش الجميع ، مفتونة بنفسها ، متعالية . واذا بها تجد نفسها تهبط من السحب لتسقط فى الدم ، فى الوحل ، فى هذا المستشفى العسكرى ، حيث رائحة الجسد العليل وحيث يئن الناس فى نومهم انينا ثقيلا ، ويهذرون ويتمتمون . وها هو الجندى التترى يحتضر ، وبعد عشر دقائق سيتعين عليها ان تذهب اليه وتحقنه بالمورفين .

اقلق داشا لقاؤها اليوم مع يلزافيتا كيبفنا . كان اليوم متعبا ، فقد جلبوا من غاليسيا جرحى مثخنين ، حتى اضطروا الى قطع كف احدهم من الرسغ وبتر ذراع آخر من الكتف ، وكان اثنان منهم يهذيان هذيان الاحتضار . وقد تعبت خلال اليوم ، ومع ذلك فقد ظلت ايلزافيتا كيبفنا عالقة فى ذهنها بيديها المحمرتين ، ومعطفها الرجالى ، والابتسامة البائسة ، والعينين الوديعتين .

جلست داشا فى المساء لتستريح ، وحدقت فى الظليلة الخضراء ، وفكرت فى ان تكون تلك المقدرة على البكاء فى منعطف الطريق ، وعلى القول لشخص غريب : «احببت ايفان ايليتش حبا شديدا ، حبا شديدا جدا ...»

قعدت داشا على مقعد كبير مائلة الى جنب تارة ، وضامة رجليها تارة اخرى ، وفتحت كتابا – هو تقرير عن «نشاط الاتحاد البلدى» خلال ثلاثة اشهر – اعمدة من الارقام والكلمات غير المفهومة كليا ، ولكنها لم تجد فى الكتاب سلوى . نظرت الى الساعة وتنهدت ثم مضت الى غرفة الجرحى .

كان الجرحى نائمين ، والهواء خانقا . وكان مصباح شاحب الضوء موضوع داخل طوق الثريا الحديدى ، يشتعل على ارتفاع عال تحت السقف البلوطى . وكان الجندى التترى الشاب الذى بترت ذراعه يهذى مقلبا راسه الحليق على الوسادة . رفعت داشا قارورة الثلج من الارض ، ووضعتها على جبينه الملتهب ، وعدلت بطانيته . ثم طافت على الاسرة كلها وجلست على مقعد منخفض ، طاوية يديها على ركبتيها .

وقالت لنفسها «ان قلبى غير متمرن . تعلم فقط ان يحب الرشيق والجميل . ولم يتعلم ان يشفق ويحب ما لا يحب» . وسمعت صوتا رقيقا يقول : اتريدين ان تنامى يا ممرضة ؟ فالتفتت . كان سيمين ذو اللحية ينظر اليها من سريره .

سالته داشا :

– لماذا غير نائم ؟
– نمت فى النهار .
– هل توجعك يدك ؟
– هدات ... يا ممرضة .

– نعم ؟
– ان وجهك يبدو صغيرا . العلك تريدين النوم ؟ اذهبى لتاخذى غفوة ! وساراقب انا ، وادعوك اذا دعت الحاجة .
– لا ، لا اريد النوم .
– هل لديك اقارب فى الجبهة ؟
– خطيبى .
– يحفظه الله .
– انه مفقود .
– آى ، آى – وهز سيمين لحيته ، وتاوه – اخى الصغير كان مفقودا ، وبعد ذلك تلقينا رسالة منه . انه اسير . وهل خطيبك رجل طيب ؟
– طيب جدا جدا .
– ربما سمعت به . ما اسمه ؟
– ايفان ايليتش تليغين .
– سمعت . انتظرى على مهلك . لقد سمعت انه وقع فى الاسر . فى اى فوج ؟
– فوج تازانسكى .
– انه بالذات اسير ، وحى يرزق . انه انسان طيب ! لا باس ، يا ممرضة ، ما عليك الا ان تنتظرى . ستنتهى الحرب مع اقتراب الربيع . ستتصالح . ستلدين له ابناء . ثقى بى .

استمعت داشا اليه ، والدموع فى حلقومها . وكانت تعرف ان سيمين يلفق كل شىء ، وهو لا يعرف ايفان ايليتش . ومع ذلك كانت ممتنة له . قال سيمين بصوت خفيض :

– آه ، يا مسكينتى ...

ولما عادت الى حجرة الخفارة ، وجلست على المقعد واضعة وجهها على ظهره ، احست وكانهم قد تقبلوها معهم فى ود ، وهى الغريبة ، قائلين لها : ابقى معنا . وبدا لها انها الآن تشمل بحنانها كل الجرحى والنائمين . ومع حنانها وتصوراتها تخيلت فجاة وبوضوح شديد ان ايفان ايليتش هو ايضا ينام ويتنفس مثل هؤلاء على سرير ضيق فى مكان ما ...

اخذت داشا تروح وتجئ فى الحجرة . وفجاة رن التلفون وبعث

في جسمها رعدة قوية . فقد كان رنينه حادا جدا وغليظا في السكون الغافي . لا بد انهم جلبوا جرحى آخرين في القطار الليلي .

– نعم .

ردّت داشا ، فسمعت في السماعة صوتا نسائيا رقيقا منفعلا :

– اريد ان اكلم داريا دميترييفنا بولافينا .

– هذه انا – ردّت داشا ، وخفق قلبها خفقانا شديدا – من انت ؟ . . كاتيا ؟ . . . . . . كاتيوشا ؟ اهذه انت ؟ . . . عزيزتي ! . .

١٩

– ها نحن سوية من جديد ، يا فتيات – قال نيقولاي ايفانوفيتش ، ساحبا سترته الشموا على بطنه وامسك حنك يكاترينا دميترييفنا ، وقبلها من خدها قبلة رنانة قائلا : – صباح الخير ، يا حلوة ، كيف نمت ؟

ومرّ بداشا جالسة على مقعدها ، فقبلها من شعرها .

– انا وهي الآن على اتم وفاق ، يا كاتيوشا . انها فتاة رائعة ، محبة للعمل .

وجلس الى المائدة المغطاة بمفرش ناصع البياض ، وقرب منه كاس البيضة الصينية التي وضعت فيها بيضة ، واخذ يكسر راسها .

– تصوري ، يا كاتيوشا ، انني احببت البيض على الطريقة الانجليزية مع الخردل والزبدة ، فانه لذيذ جدا . انصحك بان تجربيه . اما في المانيا فيعطون لكل فرد بيضة واحدة مرتين في الشهر . فما رايك في ذلك ؟

وفتح فمه الواسع ، وضحك .

– ان هذه البيضة ذاتها ستتسبب الخراب لالمانيا . يقولون ان الاطفال اخذوا يلدون عندهم بلا جلود . كان بسمارك يقول لهؤلاء الحمقى يجب ان يعيشوا مع روسيا في سلام . ولم يصغوا ، واحتقرونا . والآن تفضلوا ، بيضتان في الشهر .

قالت يكاترينا دميترييفنا ، وهي تخفض راسها :

– انه لشيء مريع ان يولد الاطفال بلا جلود ، مريع اينما ولد هؤلاء الاطفال ، سواء عندنا او عند الالمان .

– اعذريني ، يا كاتيوشا ، انت تتكلمين سخافة .

– انا اعرف فقط ان من الفظاعة ان يقتل الناس كل يوم ، فظاعة مريعة تسلبك الرغبة في ان تستمر في العيش .

– وما العمل ، ياعزيزتي ؟ ان المرء يضطر الى ان يفهم من معاناته الخاصة ما هي الدولة . كنا نقرا فقط عند ايلوفايسكي واضرابه من المؤرخين كيف قاتل الفلاحون دفاعا عن اراضيهم في معارك كوليكوفو * وبورودينو ** . وكنا ننظر الى الخارطة ، ونقول لانفسنا : «آه ، ما اكبر روسيا !» . والآن علينا ان نقدم نسبة معينة من الحيوات للحفاظ على سلامة تلك التي تلون في الخرائط باللون الاخضر ، وتمتد عبر اوربا كلها وآسيا . انه لشيء مقبض . سأتفق معك اذا قلت ان جهاز الدولة عندنا سيئ . والآن ، حين اخرج لاموت في سبيل الدولة فانا قبل كل شيء اسأل اولئك الذين يرسلونني الى الموت : هل انتم ذوو القوة القاهرة لحكمة الدولة . وهل استطيع ان اريق دمي بارتياح في سبيل الوطن ؟ نعم ، ياكاتيوشا ، ما تزال الحكومة على عادتها القديمة في النظر شزرا الى المنظمات الاجتماعية . ولكن اضحى واضحا انها لا تستطيع الآن الاستغناء عنا ابدا . نحن نتدخل شيئا فشيئا في شؤون الدولة . انا متفائل جدا .

ونهض نيقولاي ايفانوفيتش ، وتناول علبة كبريت من رف

* معركة كوليكوفو (عام ١٣٨٠) معركة تاريخية انتصرت فيها القوات الروسية بقيادة الامير دميتري دونسكوي على جحافل التتار تحت قيادة خان ماماي انتصارا عظيما (المترجم) .

** معركة بورودينو (عام ١٨١٢) من اعظم معارك الحرب الوطنية الروسية بين القوات الروسية تحت قيادة ميخائيل كوتوزوف والقوات الفرنسية بقيادة نابوليون الاول . وقد وقعت في ضواحي موسكو واصبحت انعطافا في سير الحرب لصالح القوات الروسية وحددت حتمية هزيمة جيش نابوليون . (المترجم) .

قشرة البيضة . وتابع كلامه قائلا : لن يذهب الدم المراق جزافا . الموقد ، واشعل سيكارته واقفا ، والقى عود الثقاب المنطفىء فى وستنتهى الحرب بان يقف وراء دفة الدولة اخونا ، رجل المجتمع . ستفعل الحرب ما اخفقت عن فعله جماعة «الارض والارادة» ، والثوريون والماركسيون . مع السلامة ، يا فتيات .

وعدّل سترته ، وخرج ، وبدا من ظهره مثل امراة بدينة متنكرة بلباس رجالى .

تنهدت يكاترينا دميتريفنا ، وجلست عند النافذة مع حياكتها . وجلست داشا الى جانبها على ذراع المقعد ، وطوقت كتفى اختها . كانت كلتاهما فى ثوب اسود عالى الرقبة ، انهما الآن فى جلستهما الصامتة الهادئة هذه متشابهتان جدا . كانت ندف الثلج الصغيرة تتساقط ببطء وراء النافذة ، وكان الضوء الثلجى الصافى ينعكس على جدران الغرفة . ضغطت داشا بخدها على شعر كاتيا المعطر قليلا بعطر غير مالوف لها .

— كاتيوشا ، كيف قضيت تلك المدة ؟ انك لا تحدثيننى بشىء .

— وعم احدثك ، ياقطيطة ؟ لقد كتبت لك .

— ومع ذلك ، فانا لا افهم . انك ، يا كاتيوشا ، جميلة ساحرة ، طيبة . انا لا اعرف امراة اخرى على غرارك . ولكن لماذا لا تبدين سعيدة ؟ وعيناك دائما حزينتان ؟

— اظن ان قلبى تعيس ؟

— لا ، انا اسالك جادة .

— انا نفسى دائمة التفكير فى ذلك ، يا اختى . من المرجح ان الانسان حين يمتلك كل شىء يشعر بتعاسة حقيقية . ان لى زوجا طيبا ، واختا محبوبة ، وحرية ... بينما اعيش وكاننى فى سراب ، واسير كالشبح ... اتذكر اننى قلت لنفسى فى باريس : ليتنى اعيش فى بلدة صغيرة نائية ، واربى الدواجن ، وازرع الحديقة بالخضروات ، وفى المساء التقى بصديقى العزيز وراء النهر ... لا ، يا داشا ، ان حياتى قد انتهت .

— لا تتفوهى حماقة ، يا كاتيوشا .

نظرت كاتيا الى اختها بعينين فارغتين شابتهما دكنة :

— اتعرفين اننى اتحسس ذلك اليوم نفسه . واحيانا يتراءى لى بوضوح تلك الفرشة المخططة ، والمفرش المنزلق ، والحوض المملوء بالصفراء التى تقياتها ... وانا ارقد ميتة ، صفراء ، شائخة ...

وانزلت يكاترينا دميتريفنا طرة الحياكة الصوفية ، وحدقت فى ندف الثلج المتساقطة فى السكون الراكد . وفى البعيد ، من تحت برج الكرملين المستدق ، من تحت النسر الذهبى المقوس الساقين كانت الغربان تحوم مثل سحابة من الاوراق السوداء .

— اتذكر ، يا داشا ، اننى استيقظت مرة فى ساعة مبكرة جدا من الصباح . وكانت باريس تبدو من الشرفة ملفعة كلها بدخان مزرق ، ومن كل مكان فيها كانت تتصاعد ادخنة بيضاء ورمادية وزرقاء . وكان المطر قد هطل اثناء الليل ، وفى الجو رائحة طراوة وخضرة وفانيليا . وفى الشوارع سار اطفال يحملون كتبا ، ونساء مع سلالهن ، وقد فتحت حوانيت الاطعمة ابوابها . وبدا ذلك ثابتا وسرمديا . وراودتنى الرغبة فى ان انزل الى الاسفل ، واختلط بالجمع ، والتقى برجل ذى عينين ودودتين ، واضع يدى على صدره . ولكن عندما نزلت الى الشوارع العريضة ، كان الجنون قد شمل المدينة كلها . كان باعة الصحف يركضون ، وجماهير الناس المضطربة فى كل مكان . والصحف كلها تتشبع برعب وموت وكراهية . لقد بدات الحرب . ومنذ ذلك اليوم لم اسمع غير كلمة .. الموت ، الموت ... فعلام التعويل بعد كل هذا ؟ ..

صمتت داشا قليلا ، ونادت :

— كاتيوشا ...

— ماذا ، يا حبيبتى ؟

— كيف انت مع نيقولاى ايفانوفيتش ؟

— لا اعرف . يبدو ان احدنا صفح للآخر . انظرى لقد مرت ثلاثة ايام ، وهو رقيق جدا معى . لا مكان للحسابات النسائية . ومن يهتم بالمراة حتى اذا فقدت عقلها مما تعانى من عذاب ؟ صوتى كطنين بعوضة ولا اكاد اسمعه . انا احسد العجائز ، فهن ياخذن كل شىء ببساطة : الموت قريب منهن ، لهذا فهن يتهيان للقائه .

غيّرت داشا جلستها على ذراع المقعد ، وزفرت زفرات

عميقة ، وانزلت ذراعها عن كتفى كاتيا ، قالت يكاترينا دميتريفنا برقة :

– عزيزتى داشـــا ، لقد اخبرنـى نيقـولاى ايفانوفيتش بانك مخطوبة . صحيح ؟ يا عزيزتى المسكينة ! وتناولت يد داشا ، وقبلتها ، ووضعتها على صدرها ، واخذت تمسدها قائلة : انــا اعتقد بان ايفان ايليتش حى . اذا كنت تحبينه جدا ، فانت فى غير حاجة الى شىء آخر فى الدنيا .

صمتت الشقيقتـــان مرة اخرى محدقتين فى الثلج المتساقط وراء النافذة . مرّت فى الشارع فصيلة من طلاب المدارس العسكرية تتزلق احذيتهم بين اكوام الثلج ، وكان كل واحد منهم يتابط ليفة من اغصان البتولا وتبديلة ثياب داخلية . كانوا ذاهبين الى الحمام وكانوا ينشدون نشيدا بحنجرة فقط يتخلله الصفير :

حلقى ، يا صقور ، كالنسور
كفانا الحزن والكمد ...

بعد غياب عدة ايـــام عادت داشـــا مرة اخرى الى العمل فى المستشفى العسكرى . وبقيت يكاترينــــا دميتريفنا وحدها فى الشقة التى كان كل شىء فيها غريبا عليها : منظران طبيعيان مملان معلقان على الحائط يصوران كومة دريس ، وماء متخلف من ثلج ذائب يتجمع بين اشجار البتولا الجرداء . وفوق الاريكة فى غرفـــة الطعام صور فوتوغرافية لاناس لا تعرفهم ، وفى الزاوية حزمة من عشب السهب المغبر .

حاولت يكاترينـــا دميتريفنـــا ان تذهب الى المسرح ، حيث كـــان الممثلون القدامى يمثلون مسرحيات لاوستروفسكى ، والى معارض الصور والمتاحف ، الا ان كل ذلك بدا لها شاحبـــا ناصل الالوان ، نصف ميت ، وبدت هى لعينيهـــا شبحا يطوف فى عالـــم هجره جميع الاحياء منذ زمان .

كانت يكاترينا دميتريفنا تقضى ساعات بكاملها جالسة عند النافذة بالقرب من انابيب التدفئة المشعة دفئا ، تنظر الى موسكو الثلجية الهادئة ، حيث كان رنين اجارس الكنائس الحزين يتردد فى الهـواء الرقيق ، ومن خــلال الثلج المتساقط ليعلن عن صـــلاة

تذكارية ، او عن جناز لقتيل جلب من الجبهة . كان الكتاب يسقط مـن يديهـا . فعمّ تقرأ الآن ؟ وبم تحلم ؟ وكـم تبدو تافهة الآن جميع الاحلام والافكار السالفة !

وكان الوقت يمضى ما بين جريدة الصباح وجريدة المساء . وكانت يكاترينا دميتريفنا ترى جميع المحيطين بهـا يعيشـون بالمستقبل وحده ، بايام تخيلية من النصر والسلام . وكان كل ما يعزز هذه التوقعات يستقبل بفرح غامر ، بينما كانت الاخفاقات تُسلم الناس الى الكآبـة وتنكيس الرؤوس . وكان الناس كالمجانين فى تسقطهم للاشاعات ، ونتف العبارات ، والانباء غير المحتملة ، وفى التهابهم بما تنشره الصحف .

واخيرا قررت يكاترينا دميتريفنا ان تتحدث مع زوجها طالبة اليه ان يجد لهـــا عملا . وفى بدايـــة آذار بدات العمل فى نفس المستشفى الذى كانت داشا تعمل فيه .

وفى الايام الاولى شعرت بما شعرت بـه داشا من نفور مـن القذارة والعذاب ، الا انها تغلبت على نفسها ، واستأنست بالعمل تدريجيا . وقد بث هذا التغلب على نفسها الفرح فى اعطافهـــا ، ولاول مرة احست بدنوها من الحياة المحيطة بهـا . واحبت العمل القذر المتعب ، واشفقت على الذين تعمل لهم . وذات مرة قالت لداشا :

– لماذا قالوا بوجوب ان نعيش حياة مصفاة غير اعتيادية ؟ نحن من حيث الجوهر ، امراتان كبقية النساء . وبحاجة الى زوجين اكثر بساطة ، واطفال اكثر ، وعيشة اقرب الى الطبيعة .

فى اسبـــوع الآلام زارت الشقيقتان كنيســـة نيقولا بقرب محطة رجيفسكى . واخذت يكاترينا دميتريفنا معها طعام عيد الفصح المعد للمستشفى لتباركه فى الكنيســـة ، وفطرت مع داشـــا فى المستشفى . وكان على نيقولاى ايفانوفيتش ان يحضر اجتماعـــا استثنائيا فى تلك الليلة فجاء فى سيارة بعد الساعة الثانية ليلا لياخذ الشقيقتين من المستشفى . قالت يكاترينا دميتريفنا انهـا وداشا لا تشعران بنعاس ، وطلبت ان ياخذهما فى جولة فى السيارة . وكان ذلك غير معقول ، الا انهـم قدموا للسائق قدح كونياك ، وذهبوا الى منطقة خودينسكويه بوليه ، فى اطراف موسكو .

كانت فى الجو لذعة من القرس برّدت الوجنات . والسماء خالية من الغيوم ، فيها القليل من النجوم المتلألئة . وكان الجليد يتكسر تحت عجلات السيارة . وكانت كاتيا وداشا تضغط احداهما على الاخرى فى مقعد السيارة العميق ، كانت كلتاهما فى منديل ابيض ، ومعطف فرائى رمادى . التفت نيقولاى ايفانوفيتش اليهما من مقعد الى جانب السائق – كانت كلتاهما سوداء الحاجبين واسعة العينين . فقال بصوت خفيض :

– اوه ، ياربى ، لا اعرف ايكما زوجتى .

اجابت واحدة منهما :

– لن تحزر .

وضحكت كلتاهما .

بدات حوافى السماء تخضوضر قليلا فوق الحقل الهائل المغبّش ، وفى البعيد لاحت معالم سوداء للغابة «سيريبريانى بور» .

قالت داشا خافتة الصوت :

– كاتيوشا ، كم اود ان اعشق !

فضغطت يكاترينا دميتريفنا على يدها ضغطة خفيفة . لمعت نجمة كبيرة فوق الغابة ، فى رطوبة الفجر الخضراء ، وتماوج لمعانها ، وكانها تتنفس .

– نسيت ان اقول لك ، يا كاتيوشا – قال نيقولاى ايفانوفيتش ، واستدار على المقعد بكل جسمه . – قبل حين وصل مندوبنا المفوّض تشوماكوف ، وهو يقول ان الوضع فى غاليسيا حرج جدا . الالمان يقذفوننا بنار صاعقة ، حتى انهم يسحقون افواجا كاملة فى ضربة واحدة . ونحن نعانى نقصا فى القذائف . . . اللعنة ! . .

لم تجب كاتيا ، بل رفعت بصرها الى النجوم . وضغطت داشا خدها على كتفها بينما اطلق نيقولاى ايفانوفيتش لعنات اخرى ، وامر السائق بالعودة الى البيت .

فى اليوم الثالث من عيد الفصح شعرت يكاترينا دميتريفنا بتوعك ، ولم تخرج للخفارة ، ولزمت الفراش . وتبين انها مصابة بالتهاب الرئتين ، فلا بد ان بردا قد نفذ عميقا فى اوصالها .

٢٠

– تلك هى اوضاعنا ، بالغة السوء .

– كفاك بحلقة فى النار ، اذهب لتنام .

– تلك هى الاوضاع . . . آه ، يا اخوانى ، ان روسيا تضيع !

كان ثلاثة من الجنود يجلسون قرب نار آخذة بالهمود عند حائط طينى لزريبة مغطاة بسقف من القش مرتفع مثل كديسة تبن . كان احدهم يجفف لفافة ساقيه على اوتاد قرب النار ، ويراقبها لئلا تحترق . وكان الثانى يخيط رقعة على بنطاله ، ويسحب الخيط بحذر . اما الثالث ، وهو مجدر الوجه ، ذو انف كبير ولحية سوداء هزيلة الشعر ، فكان يحدق فى النار بعينين غائرتين ماخوذتين ، وقد طوى ساقيه وحشر يديه عميقا فى جيبى بنطاله . وقال بصوت خفيض :

– الخيانة فى كل مكان ، تلك هى المسالة . ما ان تبدأ قواتنا بالتفوق حتى تؤمر بالانسحاب . نحن لا نعرف الا ان نعلق اليهود على الاشجار ، بينما الخيانة تعشش فى القمة .

قال الجندى الذى كان يجفف لفافة الساقين :

– قرفت من هذه الحرب تماما ، ولكن لا توجد جريدة واحدة تكتب عن ذلك – ووضع عسلوجا على الجمر بحذر وتابع قوله : نزلنا نهاجم ، ثم انسحبنا ، وبعد ذلك عدنا الى الهجوم ، اوه ، اللعنة عليهم جميعا . وها نحن نعود الى موقعنا السابق بنفس الوضع ، بلا نفع ولا جدوى !

وبصق فى النار . وقال الجندى مرقع البنطال بضحكة هازئة دون ان يرفع راسه من عمله :

– قبل حين جاء الملازم الاول جادوف الىّ . لا بأس . وربما من الضجر ضايقته الشياطين . فاخذ بدوره يضايقنى . ماسبب الثقب فى بنطالك ؟ ولماذا تقف بهذا الشكل ؟ فاعتصمت بالصمت . وانتهى حديثنا بطريقة بسيطة جدا ، بلطمة على اسنانى .

ردّ الجندى الذى كان يجفف لفافة الساقين :

– لا بنادق ، ولا عتاد . وفى بطاريتنا لا توجد غير سبع قذائف لكل مدفع . فلا يبقى لهم الا الضرب على الاسنان .

نظر مرقع البنطال اليه مندهشا ، وهزّ راسه بتاييد . وقال الجندى ذو الشعر الاسود والعينين المخيفتين :

– استدعوا جميع الرجال ، وهم الآن يجندون الى سن الثالثة والاربعين . وبمثل هذه القوة يمكن اجتياح العالم كله . وهل نحن نرفض ان نقاتل ؟ شرط ان تؤدى واجبك ، مثلما نؤدى واجبنا .

هزّ مرقع البنطال راسه :

– تماما . . .

فقال اسود الشعر :

– لقد رايت حقلا قرب فارسوفيا كان يرقد على ارضه ما بين خمسة الآف الى ستة الآف مقاتل سيبيرى . وجميعهم قتلى ، مرتمين مثل احزمة من القش . فلماذا ؟ وما السبب ؟ ساقول لكم السبب . . . حين اخذ المجلس العسكرى يقرر هذا وذاك من الامور ، خرج احد الجنرالات من هناك فى الحال وبعث برقية سرية الى برلين . فهمت ؟ وخرج الفيلقان السيبيريان من محطة القطار واتجها قدما الى ذلك الحقل ، فاذا بهما يقعان تحت نيران الرشاشات المباشرة . وانت تحدثنى عن لطمة اصابت اسنانك . عندما كنت لا اركب النير على الحصان بشكل جيد ، كان ابى ياتى ويصفعنى على وجهى ، لكى يجعلنى اتعلم العمل احسن واشعر بالخوف . ولكن لاى شىء جندلوا المقاتلين السيبيريين كالخراف ؟ لقد قلت لكم ، يا اصحابى ، ان روسيا قد ضاعت . ونحن قد غدر بنا جميعا . غدر بنا فلاح هو من ابناء قريتى بوكروفسكويه ، صعلوك متشرد . ولا اريد ان اذكر اسمه . . . انه جاهل ، مشاكس يتصنع اللطافة ، ترك العمل ، واخذ يسرق الخيول ، ويتردد على الاديرة ، وتعلق بالنساء وشرب الخمور . . . وهو الآن فى بطرسبورغ يعيش كالقيصر يرقص حوله الوزراء والجنرالات ، نحن نقتل هنا بالآلاف ، ونرقد على الارض الرطبة ، بينما هم يسبحون فى الكهرباء فى بطرسبورغ ، ويشربون ، وياكلون ، وينفجرون سمنة .

وسكت فجاة . كان الصمت والرطوبة يلفان الجو . ثم ترامى من الزريبة صوت خيول تقضم باسنانها ، وارتطام احدها فى الجدار

ارتطاما خافتا . هبط طائر ليلى من وراء السقف نحو النار ، واختفى زاعقا زعيقا شاكيا . وفى تلك اللحظة صدر فى السماء البعيدة ، زئير هادر مقترب ، وكأن وحشا كان ينطلق بسرعة لا تصدق ، شاقا الظلام ببوزه ، وارتطم فى مكان ما ، وفى البعيد ، وراء الزريبة ، اندلع انفجار هزّ الارض هزا . ضربت الخيول الارض بحوافرها ، ورنت لجاماتها . قال الجندى مرقع البنطال مرتاعا :

– هذه هى الضربة !

– يا له من مدفع !

– انتظر !

رفع الثلاثة رؤوسهم . وصدر فى السماء الخالية من النجوم صوت ثان استمر حوالى دقيقتين ، ووقع الانفجار الثانى فى بقعة قريبة جدا وراء الزريبة ، وبرزت اشباح اشجار الشوح المخروطية ، واهتزت الارض مرة اخرى . وفى الحال سمعوا مسار القنبلة الثالثة . وكان صوتها متقطعا ثقيلا على السمع يجلب الانتباه ويجعل القلوب تتجمد فى الصدور . نهض الجندى ذو الشعر الاسود من الارض ، واخذ يتراجع . وانقض شىء من الاعلى وانزلق كالبرق الاسود ، واندفع الى الاعلى عمود نارى اسود بفرقعة مدوية .

وحين سقط العمود لم تبق الا حفرة عميقة فى المكان الذى كان فيه الجنود والنار . وكان السقف القشى يحترق مرسلا الدخان الاصفر فوق جدار الزريبة المنهار . اندفع حصان طويل العرف من اللهب شاخرا ، منطلقا نحو اشجار صنوبر كانت بارزة من الظلام .

وهناك ، وراء حوافى السهل المسننة اخذت تبرق هالة النيران ، والمدافع تهدر ، وترتفع الصواريخ مثل ديدان طويلة ، فتضىء نيرانها ، وهى تتساقط ، الارض الرطبة الداكنة . كانت القذائف تثقب السماء صافرة ، هادرة .

٢١

فى ذلك المساء ، وفى ملجا للضباط يقع غير بعيد عن الزريبة ، كان ضباط احدى سرايا فوج اوسولسكى يقيمون حفلة بمناسبة تلقى النقيب تيتكين خبرا عن مولد طفل له . كان قبو

الملجأ الواطئ منغرزا عميقا فى الارض يحميه سقف ذو طبقات ثلاث ، وتضيؤه شموع مغروزة بزجاجات ، وقد جلس الى مائدة فيه ثمانية ضباط ، وطبيب ، وثلاث ممرضات من مستشفى الميدان .

شربوا كثيرا . وكان الاب السعيد ، النقيب تيتكين نائما ، وقد القى راسه فى صحن وضعت فيه فضلات الطعام وتدلت كفه القذرة على راسه الاصلع . وكانت الممرضات يبدون مليحات جدا بسبب انحباس الهواء ، والخمرة ، وضوء الشموع الناعم ، وكن يرتدين اثوابا رمادية ومناديل رمادية . كانت لاحداهن وتدعى موشكا ، عقصتان سوداوان من الشعر عند صدغيها ، وكانت تضحك دون كلل كاشفة عن حنجرة بيضاء . كان جاراها واثنان آخران يجلسان قبالتها يحدقون فيها بنظرات ثقيلة . وكانت الثانية ، ماريا ايفانوفنا ، بدينة تصل حمرة خديها الى حاجبيها ، تجيد اداء الاغانى الغجرية العاطفية بشكل مدهش . فكان المستمعون يخرجون عن اطوارهم ، ويضربون على المائدة ، مرددين : «آه ، اللعنة ، ما كان ابدعها من حياة !» اما ثالثة الجالسات الى المائدة فهى يلزافيتا كييفنا . كانت اضواء الشموع تتفتت فى عينيها الى ذرات نارية صغيرة ، وتشع فيهما فترى الوجوه بيضاء من خلال الدخان ، ووجه جارها الملازم الاول جادوف وحده كان يبدو مخيفا وجميلا . كان رجلا واسع المنكبين ضخما ، حليقا وذا عينين شفافتين . وكان يجلس مستقيم الجذع ، ملفوفا بحزامه لفا قويا ، وقد افرط فى الشراب ، ولم يسكر بل امتقع لونه فقط . وحين كانت موشكا السوداء الشعر تتهافت من الضحك ، وماريا ايفانوفنا تتناول القيثار ، وتمسح وجهها بمنديل مدعوك ، وتغنى بصوت عميق حزين «ميلادى فى سهوب مولدافيا» كان جادوف يبتسم بطرف فمه ابتسامة بطيئة ، ويصب لنفسه مزيدا من الخمرة .

كانت يلزافيتا كييفنا تحدق عن قرب فى وجهه الصافى الخالى من كل تغضن . وكان هو يسليها بحديث لبق وغير جدى . فقد روى لها ، مثلا ، ان نقيبا يدعى مارتينوف كان يخدم فى فوجهم اشتهر بانه كان جبريا يؤمن بالقضاء والقدر ، وبالفعل ، عندما كان يحتسى شيئا من الكونياك كان يخرج ليلا وراء الاسلاك الشائكة ، ويقترب من خنادق العدو ، ويشتم الالمان باربع لغات ، وقبل ايام دفع ثمن

غروره بان أصيب بجرح فى بطنه . تنهدت يلزافيتا كييفنا ، وقالت : يعنى ان النقيب مارتينوف بطل . فضحك جادوف بهزء :

- اعذرينى ، هناك مغرورون ، وهناك حمقى ، ولكن ليس هناك ابطال .

- ولكن اليست بطولة ان تخرجوا فى هجوم ؟

- اولا ، انهم لا يخرجون فى هجوم، بل يجبرون على الخروج ، والذين يخرجون جبناء . بالطبع ، هناك اناس يجازفون بحياتهم دون اكراه ، ولكن هؤلاء فيهم تعطش عضوى الى القتل - وهنا نقر جادوف الطاولة باظافره الصلبة - هؤلاء الناس ، على الارجح ، يقفون على ارفع درجة من الوعى العصرى .

ورفع جسمه قليلا بخفة ، وتناول من طرف المنضدة البعيد علبة كبيرة من حلوى الفواكه ، وقدمها الى يلزافيتا كييفنا .

- لا ، لا اريد - قالت واحست بان قلبها يخفق بشدة وجسمها يضعف - وانت ؟ حدثنى .

غضن جادوف جلدة جبينه ، وتغطى وجهه بغضون صغيرة مباغتة جعلته يبدو عجوزا . وكرر بحدة :

- وما هذا . . . وانت ؟ بالامس رميت يهوديا وراء الزريبة . اتريدين ان تعرفى اهذا مريح ام لا ؟ اى هراء هذا !

واطبق اسنانه الحادة على سيكارة ، واشعل عود ثقاب . كانت اصبعه المسطحة التى تمسك به قوية الا ان السيكارة لم تقع فى لهب العود على اية حال ، ولم تشتعل .

وقال ، والقى عود الثقاب الذى احترق حتى اظفره :

- نعم ، انا سكران . ارجو المعذرة . لنخرج الى الهواء الطلق .

نهضت يلزافيتا كييفنا ، وكانما فى نومها ، وسارت خلفه فى الفتحة الضيقة المؤدية الى خارج الملجأ . لاحقتها صيحات السكارى المرحة . ضربت ماريا ايفانوفنا على القيثار ، وغنت بصوت عميق : «كان الليل يعبق بنشوة اللذة . . .»

فى الخارج كان الهواء مشبعا برائحة ربيعية قوية للاوراق المتفسخة ، وكان الظلام والسكون يلفان كل شئ . سار جادوف على العشب الرطب بخطوات سريعة بعد ان دس يديه فى جيبيه ،

وسارت يلزافيتا كييفنـــا متأخرة عنه قليلا ، والبسمة لا تفارق ثغرها . وفجأة توقف جادوف ، وسأل بنبرة حادة :

– ها ، ما رايك ؟

كانت اذناها تلتهبان . سيطرت على انقباض فى حلقومهـا واجابت بصوت لا يكاد يسمع :

– لا ادرى .

– لنذهب .

واوما براسه ناحية سقف الزريبة المسود . وبعد ان خطا عدة خطوات توقف ثانية ، وشدّ بيده المتشلجة على ذراع يلزافيتا كييفنا بقوة . وتحدث بحرارة مباغتة :

– لى بنية كبنية الارباب . استطيع ان اشطر العملة النقدية بيدىّ الى شطرين . وانفذ ببصرى خلال كل شخص ، وكانـه من زجاج شفاف. . . انا اكرههم ! – وتلعثم وكانه تذكر شيئـــا ، وضرب الارض بقدمه – كل هذه القهقهـات والاغانى ، والاحاديث الجبانة وضاعة . انهـم جميعـــا مثل ديدان فى روث داقىّ . . . اسحقهم . . . اسمعى . . انا لا احبك : لا استطيع ! ولن احبك . . . فلا تخدعى نفسك . . . ولكننى بحاجـة اليك . . انــا اكره هذا الاحساس بالتبعية . . . يجب ان تفهمى . . . وحشر يديه تحت مرفقى يلزافيتا كييفنا ، وجذبها بقوة ، واطبق على صدغها شفتيه الجافتين الحارتين كالجمر .

واندفعت يلزافيتا كييفنا لتحرر نفسها ، الا انه كان يعصرها بقوة ، حتى ان عظامها قد قرقعت ، فالقت راسها الى الخلف ، وتدلت ثقيلة بين يديه . قال لها :

– لست مثل الاخريات . ساعلمك . . .

وصمت فجأة ، ورف راسه . كان صوت حاد نافذ يتنامى فى الظلمة . قال جادوف من خَلَل اسنانه :

– اوه ، اللعنة !

وفى الحال دوى انفجار على مسافة بعيدة . اندفعت يلزافيتا كييفنا مرة اخرى ، الا ان جادوف كان يعتصرها بقوة اشد . قالت باستماتة :

– اتركنى !

انفجرت قنبلة ثانية . واستمر جادوف يتمتم بشىء مـا ، وفجأة تصاعد عمود نارى اسود على مقربة كلية وراء الزريبـة ، وارسل دوى الانفجار حزم القش المحترقة عاليا فى الهواء .

افلتت يلزافيتا كييفنا من يدى جادوف ، وعدت نحو الملجأ .

كان الضباط يخرجون سراعا من فتحة الملجأ ، ويعدون على الارض التى بدت سوداء مخدودة من جـراء الضوء المائل ، ملقين نظرات الى الزريبة المحترقـــة وراءهم . اتجه بعضهم يسارا نحو الغابة ، حيث كانت الخنادق ، واتجه الآخرون يمينا فى ممر الاتصال المؤدى الى تحصينات الجسر . كانت البطاريات الالمانية تهدر وراء النهر ، بعيدا خلف التلال . كان الرمى ياتى من اتجاهين : من اليسار مصوبا نحو الجسر ، ومن اليمين مصوبا نحو المعبر الذى كان يؤدى الى مزرعة كانت قد احتلتها سرية من فوج اوسولسكى قبل فترة فى الضفة الاخرى من النهر . وكان قسم من النار موجها على البطاريات الروسية .

رات يلزافيتا كييفنا النقيب جادوف يسير حاسر الراس ويداه فى جيبيه متجها فى خط مستقيم نحو وكر الرشاش . وفجـأة ظهرت دائرة ناريـة سوداء شعثاء فى المكان الذى كان يقف فيـه شخصـه الطويل . اغمضت يلزافيتا كييفنا عينيها ، وحين نظرت ثانيـة رات جادوف يسير اكثر الى اليسار وكوعاه ما زالا منفرجين . صاح النقيب تيتكين غاضبا . كان واقفا قرب يلزافيتا كييفنا ومعه منظار :

– لقد قلت لهم اننـا لسنا بحاجـة الى هذه المزرعة والآن ، تفضلوا وانظروا . قلبوا المعبر كله . آه خنازير !

ونظر فى المنظار مرة اخرى – آه ، الخنازير يصوبون عـلى المزرعـة تماما ! هلكت السريـة السادسة . آه ! – واستدار وحك علباءه الجرداء بشدة ، ونادى : شملابكين !

– نعم .

اسرع فى الرد عليـه شخص صغير كبير الانف يرتـدى قبعـة قوزاقية .

– هل اتصلتم بالمزرعة ؟

– الاتصال مقطوع .

– اخبر الكتيبة الثامنة بان ترسل تعزيزات الى المزرعة .

– سمعا .
اجاب شلابكين ، وانزل يده من صدغيه بحركة قوية وابتعد خطوتين وتوقف .
ونادى النقيب ثانية بصوت وحشى :
– ملازم شلابكين .
– نعم .
– نفذ الامر .
– سمعا .
وابتعد شلابكين اكثر ، وانزل رأسه ، واخذ يحفر الارض بقصبة ، فصرخ النقيب :
– يا ملازم شلابكين !
– نعم .
– اتفهم لغة الانسان ام لا ؟
– نعم ،افهم .
– انقل الامر الى السرية الثامنة . ولك ان تقول لهم باسمك الا ينفذوه . فهم ليس من البلاهة بحيث يرسلون رجالا الى هناك . ليرسلوا زهاء خمسة عشر رجلا الى المعبر لاطلاق النار . وابلغ الفرقة حالا بان السرية الثامنة تجتاز المعبر بضربة بارعة . اما الخسائر فيمكن ان نقتبسها من السرية السادسة . اذهب ، اما انت يا آنسة ، فانصرفي – والتفت الى يلزافيتا كيفنا – اقلعي من هنا الى الشيطان فان الرمى سيبدأ الآن .
وفى تلك اللحظة انطلقت قذيفة بازيز ، ووقعت وانفجرت فى الجوار .

٢٢

كان جادوف مستلقيا عند فتحة مخبأ الرشاش ، يتابع المعركة من خلال المنظار بلهفة غير صارف بصره عنها . كان المخبأ قد حفر على منحدر تل مشجر يجرى تحته نهر باستدارة خفيفة ، والى اليمين كانت اعمدة الدخان تتصاعد من الجسر الذى احترق قبل حين ، ووراءه ، فى الضفة الاخرى من النهر وفى مستنقع مكسو بالعشب كان

خط الخنادق الملتوى يرى من مخبأ الرشاش ، وكانت السرية الاولى من فوج اوسولسكى تتخندق فيها . والى اليسار من ذلك كان جدول صغير يتلوى فى مجرى ينمو فيه القصب ، ليصب فى النهر ، وابعد من ذلك يسارا ، ووراء الجدول كانت مبانى المزرعة الثلاثة تحترق ، ووراءها كانت السرية السادسة تتخندق فى خنادق تلتقى فى زاوية . وعلى بعد ثلثمائة خطوة تقريبا كانت تبدأ خطوط الالمان التى كانت تتجه بعد ذلك يمينا بعيدا نحو التلال المشجرة .
كانت النهر يبدو احمر متسخا من جراء لهب الحريقين ، وكان ماؤه يفور لكثرة ما تساقط فيه من قذائف ، ويتطاير كالنوافير ، ويتلفع بسحب بنية .
كانت المدفعية تركز اقوى نارها على المزرعة . وكانت انفجارات قذائف الشرابنيل لا تفتاء تتوهج فوق الابنية المحترقة ، وتتصاعد اعمدة سوداء شعثاء على جوانب خط الخنادق الملتقى فى زاوية ، وكانت نيران البنادق تومض من وراء النهر فى القصب والعشب وميضا صفيرا .
وكانت انفجارات القنابل الثقيلة تهز الهواء ، وقذائف الشرابنيل ذات الشظايا تتطاير بصوت واهن فوق النهر وفوق المروج ، وفى هذه الضفة من النهر فوق خنادق السرايا الثانية والثالثة والرابعة . وكان هزيم الرعد يترامى من وراء التلال ، حيث كانت اثنتا عشرة بطارية المانية ترسل ومضات خاطفة . وكانت قذائف المدافع الروسية الجوابية تصفر فى الهواء ، منطلقة الى ما وراء هذه التلال . وكان الضجيج يشق الاذان ، ويضغط على الصدور ويفجر الغيظ فى القلب .
واستمرت الحال على هذا المنوال وقتا طويلا . نظر جادوف فى ساعته المضيئة فرآها تشير الى الساعة الثانية والنصف . فالفجر يوشك على الانبلاج ، والهجوم متوقع بين لحظة واخرى .
وبالفعل اشتد قصف المدفعية ، وفار ماء النهر فورانا اشد ، وكانت القذائف تتساقط على المعابر والتلال فى هذه الضفة من النهر . وكانت الارض احيانا تهتز اهتزازا خافتا ، وتتناثر كتل الطين والحصى من جدران المخبأ وسقفه . الا ان ساحة المزرعة المحترقة باتت هادئة . وفجأة تطايرت من البعيد عشرات الصواريخ مثل اشرطة

نارية ، منحرفة نحو النهر وانارت الارض كالشمس . وحين انطفأت الانوار خيم ظلام حالك لبضع دقائق . اذن ، فان الالمان نهضوا من الخنادق ، وخرجوا فى هجوم .

وفى الغبش المضبب لمح جادوف اخيرا شخوصا صغيرة متحركة بعيدا فى المروج . كانت تارة تسقط ، وتارة يلاحق بعضها بعضا . ولم تجابهها نار واحدة من المزرعة .

التفت جادوف ، وصاح :

– ذخائر !

ارتج الرشاش وكأنما تملكته ضراوة شيطانية ، وراح يرش الرصاص عجولا ، ويكتم الانفاس بدخان لاذع . وفى الحال عجلت الشخوص الصغيرة حركتها على المرج وسقط بعضها . الا ان الحقل كله كان مغمورا بنقط المهاجمين . وكانت طلائعهم تركض نحو الخنادق المهدمة للسرية السادسة . فنهض من هناك زهاء عشرين رجلا . وتجمع حشد من الرجال بسرعة حول ذلك المكان .

لم تكن هذه المعركة فى سبيل المزرعة الا جزءا تافها من موقعة هائلة امتدت فى جبهة طولها مئات الفراسخ ، وكبدت الطرفين مئات الالوف من الانفس .

كان الروس قد احتلوا المزرعة قبل اسبوعين ليضمنوا لانفسهم رأس جسر فى حالة الهجوم عبر النهر . وقرر الالمان الاستيلاء على المزرعة لوضع نقطة مراقبة فى مكان اقرب الى النهر . وكان هذا الهدف وذاك ضروريين فقط لقادتى الفرقتين – الالمانية والروسية – ومضمنين فى الخطة الاستراتيجية للحملة العسكرية لكلا الطرفين ، تلك الخطة التى ترووا عميقا فى كل دقائقها .

كان قائد الفرقة الروسية الجنرال دوبروف الذى كان له اسم عائلة غير روسى فابدله منذ نصف عام باسمه الحالى بترخيص من المراجع العليا يلعب الورق حين تلقى نبأ هجوم الالمان فى قطاع فوج اوسولسكى .

ترك الجنرال الورق ، وانتقل مع الضباط الكبار واثنين من المرافقين الى الصالة التى نشرت على منضدة فيها خرائط طوبوغرافية . وكانت قد وردت من الجبهة انباء عن قصف المعبر والجسر . ففهم الجنرال بان الالمان عازمون على الاستيلاء على

المزرعة ، اى بالذات على المكان الذى بنى عليه خطته الشهيرة للهجوم ، والتى وافقت عليهما قيادة الفيلق ، وقدمت الى قائد الجيش للتصديق عليها . الا ان هجوم الالمان على المزرعة افسد الخطة كلها .

كانت الاخبار التلفونية تؤكد هذا الخطر بين لحظة واخرى . انزل الجنرال نظارته الانفية من فوق انفه الكبير ، وقال بهدوء ولكن بحزم ، وهو يلاعبها :

– حسنا ، لن اتراجع قدما واحدة من المواقع التى احتلها .

وارسل امرا تلفونيا على الفور لاتخاذ تدابير مناسبة للدفاع عن المزرعة . وامر فوج كوندرافنسكى الاحتياطى من الدرجة الثالثة بالزحف فى كتيبتين نحو المعبر لتعزيز النقيب تيتكين . وفى تلك اللحظة وصل خبر من قائد المدفعية الثقيلة عن قلة القذائف ، وتحطم احد المدافع ، وانعدام امكانية الرد على نار العدو الصاعقة ردا مناسبا .

الا ان الجنرال دوبروف ردّ على ذلك ، وقد القى نظرة صارمة على الحضور :

– حسنا ، حين تنفد القذائف سنحارب بالسلاح الابيض .

واخرج منديلا ناصع البياض من سترته الرمادية ذات القلبة الحمراء ، ونفضه ، ومسح نظارته الانفية به ، وانحنى على خارطة .

وظهر فى الباب المرافق الاصغر الكونت بوبروسكى الضابط فى بدلة من الكاكى البنى الداكن منسجمة مع جسمه كالقفاز . وقال وهو يبتسم ابتسامة لا تكاد تلحظ بطرف فمه الصبوى الجميل :

– ياصاحب السيادة ، يقول النقيب تيتكين ان السرية الثامنة تجتاز طريقها الى المعبر بضربة ماهرة ، رغم نار العدو المهلكة .

نظر الجنرال الى الضابط من فوق نظارته الانفية ، وحرك فمه الحليق ، وقال :

– حسن جدا .

ولكن رغم اللهجة المشجعة تواردت من الجبهة انباء مقلقة اكثر فاكثر . وصل فوج كوندرافنسكى الى المعبر وعسكر وتخندق ، والسرية الثانية ماضية فى ضرباتها الماهرة ولكنها لم تعبر النهر بعد . ارسل النقيب اسلامبيكوف قائد كتيبة الهاون برقية ذكر فيها

ان مدفعين من مدافعه قد اصيبا ، وان قذائفه قليلة . وابلغ العقيد بوروزدين آمر الكتيبة الاولى من فوج اوسولسكى ان السرايا الثانية والثالثة والرابعة تتكبد خسائر كبيرة فى الرجال من جراء مواقعها المكشوفة ، ولهذا فهو يطلب اذنا اما بالهجوم ودحر العدو الوقح ، واما بالتراجع الى حافة الغابة . ولم ترد انباء من السرية السادسة التى كانت تحتل المزرعة .

وفى الساعة الثانية والنصف من بعد منتصف الليل عقد مجلس عسكرى . وقال الجنرال دوبروف انه سيتقدم بنفسه على راس القوات الموكلة له ،ولكنه لن يتراجع فترا واحدا عن راس الجسر المحتل . وفى اثناء ذلك وصل الخبر عن احتلال الالمان للمزرعة ، والقضاء على السرية السادسة الى آخر رجل . دعك الجنرال منديله الكتانى بين اصابعه ، واغمض عينيه . ورفع العقيد سفيتشين رئيس الاركان كتفيه الممتلئتين وامتلأ بالدم وجهه اللحيم الملتحى ، وتكلم ببحة ظاهرة :

— ياصاحب السيادة ،لقد ابلغتكم اكثر من مرة بان من المخاطرة احتلال مواقع فى الضفة اليمنى . اننا سنفقد كتيبتين وحتى ثلاثا واربعا على هذا المعبر ، وحتى لو احتللنا المزرعة مرة اخرى ، فان الاحتفاظ بها سيكلفنا غاليا .

قال الجنرال دوبروف ، وقد تفصد انفه عرقا :

— ان راس الجسر ضرورى لنا ، ويجب ان يكون لنا ، وسيبقى لنا . والمسالة هى اننا لو فقدنا راس الجسر فان خطتى الهجومية ستنهار .

واعترض العقيد سفيتشين وقد ازداد حمرة :

— ياصاحب السيادة ، القوات لا تقوى على عبور النهر تحت نار صاعقة اذا لم تسند بالمدفعية بالشكل المناسب ، وانت تعرف ان المدفعية ليس لها ما تسند به .

رد الجنرال على ذلك :

— حسنا ، فى هذه الحال اخبر القوات بان نياشين القديس غيورغى معلقة على الاسلاك فى الجانب الآخر من النهر . انا اعرف جنودى .

وبعد هذه الكلمات التى سيحفظها التاريخ حتما نهض

الجنرال ، واخذ يتطلع فى النافذة ، وهو يدير نظارته الذهبية فى اصبعه القصيرة وراء ظهره ، فرأى شجرة بتولا مبللة تنمو فى المرج وملفوفة بالضباب الصباحى الازرق الرقيق ، وسربا من العصافير يحط على اغصانها الرقيقة اليانعة الخضرة ، ويزغرد فى عجلة وقلق ، وينطلق فجاة ، ويغيب . وكانت اشعة الشمس الذهبية المنحرفة تنير المرج المضبب كله بمعالم الاشجار غير الواضحة عليها .

انتهى القتال عند مطلع الشمس . واحتل الالمان المزرعة ، والضفة اليسارية من الجدول ، ولم يبق بيد الروس من راس الجسر غير منخفض فى الضفة اليمنى من الجدول حيث كانت السرية الاولى . واستمر تراشق واهن فوق الجدول طوال النهار ، ولكنه كان واضحا ان السرية الاولى تحت خطر التطويق ، وقد انقطع اتصالها المباشر بضفة النهر مع الروس بسبب احتراق الجسر ، وكان اعقل مخرج هو الخروج من المستنقع فى الليلة ذاتها .

الا ان العقيد بوروزدين آمر الكتيبة الاولى تلقى بعد الظهر امرا بالاستعداد لخوض النهر فى تلك الليلة للوصول الى المستنقع لتعزيز موقع السرية الاولى . واوعز الى النقيب تيتكين بتجميع قوى السرية الخامسة والسرية السابعة اسفل المزرعة ، والعبور على جسر عائم . واوعز الى الكتيبة الثالثة الاحتياطية من فوج اوسولسكى باتخاذ موقع هجومى ، والى فوج كوندرافنسكى بعبور النهر من المخاضة عند المعبر المحروق ، والقيام بهجوم جبهوى .

كان الامر جديا ، والترتيب واضحا : تطويق المزرعة بحركة كماشة بواسطة الكتيبة الاولى يمينا ، والكتيبة الثانية يسارا ، على ان يجذب فوج كوندرافنسكى اليه كل انتباه العدو ، وناره . وحدد منتصف الليل للبدء فى الهجوم .

فى الغبش ذهب جادوف للاشراف على وضع الرشاشات عند المعبر ، ونقل رشاش واحد فى زورق ، فى اشد ما تكون الحيطة ، الى جزيرة صغيرة لا تتجاوز مساحتها بضع عشرات من الامتار ، نمت عليها شجيرات الصفصاف . وبقى جادوف هناك .

وجهت البطاريات الروسية طوال النهار نارا ضعيفة على المزرعة ، واعمق منها على المواقع الالمانية المقتربة من النهر . وكانت تنطلق بين الحين والآخر طلقات منفردة من بندقية صوب

النهر . وفى منتصف الليل بدأ عبور النهر فى صمت من ثلاثة مواقع راسا . ولصرف انظار العدو بدأت وحدات فوج بيلوتسركوفسكى الواقعة على بعد زهاء خمسة فراسخ فى اعلى النهر بمناوشات قوية . والتزم الالمان الصمت حذرين .

راقب جادوف المعبر بعد ان ازاح اغصان الصفصاف المغطاة بنسيج العنكبوت . كانت الى يمينه نجمة صفراء متوامضة تتدلى على ارتفاع واطئ فوق التلال المشجرة ، وتنعكس على النهر الاسود شريطا من الضوء الكابى المرتعش اخذت تقطعه اشياء داكنة . وظهرت شخوص راكضة من مكان الى آخر على الجزر الرملية والمنبسط الرملى . وعلى مسافة غير بعيدة عن جادوف كان زهاء عشرة اشخاص يخوضون فى الماء الى صدورهم محدثين طرطشة واطئة ، ممسكين بنادقهم وحقائب العتاد فى اذرعهم المرفوعة . ان هؤلاء كانوا من فوج كوندروفينسكى يعبرون النهر .

وفجاة نشبت نيران سريعة بعيدا فى الضفة الاخرى ، وصفرت القذائف فى طيرانها واخذت قنابل الشرابنيل تنفجر عاليا فوق النهر بفرقعة معدنية . وكان كل توهج يضئ وجوها ملتحية ناهضة من الماء . وكان المنبسط الرملى كله يغص بالرجال الراكضين . وانطلقت نوبة جديدة من النيران ، وصدرت صيحات . وتصاعدت صواريخ وتناثرت فى السماء كلها باضواء باهرة . ورعدت البطاريات الروسية . جرف التيار عند قدمى جادوف رجلا يتخبط ويردد بصوت مكتوم : «راسى ، اصابوا راسى !» وتشبث بالصفصاف . ركض جادوف الى الجانب الآخر من الجزيرة . ورأى ان العوامات الممتلئة بالناس كانت تتحرك عبر النهر على مسافة بعيدة ، والوحدات التى قد عبرت النهر كانت تجرى فى الحقل . وكانت زوبعة النار الصاعقة تهدر فوق النهر والمعابر والتلال كما كانت بالامس مُصِمّةً مُبهِرةً . وكان الماء الفائر يبدو موبوءا بالديدان . فقد كان الجنود يتخبطون وينسلون ويتصايحون من خلال اعمدة الدخان السوداء والصفراء ، وبين النوافير المائية . والذين وصلوا الى الضفة الاخرى اخذوا بالزحف الى الشاطئ . وكانت رشاشات جادوف تلعلع فى المؤخرة ، والقذائف الروسية تنفجر فى المقدم . وكانت سريتا النقيب كلتاهما تضربان

المزرعة بنار متقاطعة . تحولت الوحدات المتقدمة من فوج كوندروفينسكى – التى فقدت نصف رجالها اثناء العبور ، كما تبين فيما بعد – الى هجوم بالحراب . الا انها فشلت ، واستلقت تحت الاسلاك الشائكة . ومن وراء الجدول خرجت الكتيبة الاولى بصفوف كثيفة من خلل القصب . وتدفق الالمان من الخنادق .

كان جادوف يستلقى عند الرشاشة متشبثا بعدة الاطلاق المرتجة ارتجاجا مجنونا ويصب نارا مسفة على رابية معشوشبة وراء خنادق الالمان كان يجرى عليها رجلان تارة ، وثلاثة اخرى ، وجمع من الرجال تارة ثالثة ، وكانوا جميعا وبلا استثناء يتعثرون ، وينكفئون ارضا على وجوههم وجنوبهم .

وعد جادوف : «ثمانية وخمسون ، ستون» . ثم نهض شخص ضئيل الجرم ، وامسك براسه ، وسار مترنحا على الرابية . حول جادوف سبطانة الرشاشة فوقع الشخص على ركبتيه ، وانطرح . «واحد وستون» . وفجاة انبعث امام بصره ضوء محرق لايطاق . واحس جادوف بانه قد رفع فى الهواء وبان وجعا حادا يشل ذراعه .

احتلت المزرعة وجميع خطوط الخنادق المجاورة لها واسر حوالى مائتى اسير ، وفى الفجر خمدت نار المدفعية فى كلا الجانبين . وبدأ جمع القتلى والجرحى ووجد رجال الاسعاف عند تفتيش الجزر الصغيرة رشاشة مقلوبة فى الصفصاف المحطم ، وبالقرب منها جنديا مدفونا فى الرمل ، وقد شُجَّ يافوخه ، وعلى بعد عشرة امتار ، فى الجانب الآخر من الجزيرة رقد جادوف ورجلاه فى الماء . انهضوه فانٌ ، وكانت قطعة من العظم الوردى تبرز من كمه الملطخ بالدم .

وحين جلبوه الى مستشفى الميدان صاح الطبيب على يلزفيتا كيبفنا : «جاءوا بفتاك . الى طاولة العمليات راسا» . وكان جادوف فاقد الوعى مستدق الأنف ، اسود الفم . وحين خلعوا قميصه رأت يلزافيتا كيبفنا على صدره الابيض العريض رسما من الوشم

لقردين متشابكين بذيليهما . كز جادوف على اسنانه اثناء العملية ، واعترت التشنجات وجهه .

وبعد ان انتهى التعذيب ، وضُمد الجرح فتح عينيه ، انحنت يلزفيتا كييفنا عليه فقال :

— واحد وستون .

وظل جادوف يهذى حتى الصباح ، ثم غفا . طلبت يلزافيتا كييفنا بان يعهدوا اليها بنقله الى المستشفى العسكرى الكبير التابع الى هيئة اركان الفرقة .

٢٣

دخلت داشا الى غرفة الطعام . كان نيقولاى ايفانوفيتش ودميترى ستيبانوفيتش يجلسان صامتين ، وكان الاخير قد قدم من سامارا فى اول الامس بناء على برقية مستعجلة . امسكت داشا لفاحها الابيض عند ذقنها ، ونظرت الى وجه ابيها الأحمر والى شعره المنفوش ، كان دميترى ستيبانوفيتش يجلس وقد طوى ساقا واحدة ، ثم حولت داشا بصرها الى نيقولاى ايفانوفيتش المعوج الاسارير الملتهب الجفنين وجلست الى المائدة ايضا ورات وراء النافذة هلالا نحيلا صافيا يتدلى فى الاغبشاش الضارب الى الزرقة .

كان دميترى ستيبانوفيتش يدخن ناثرا الرماد على صداره الموبر . وكان نيقولاى ايفانوفيتش يجهد ليجمع فتات الخبز فى كومة واحدة على الخوان . وساد الصمت وقتا طويلا .

وفى آخر الامر تكلم نيقولاى ايفانوفيتش بصوت مخنوق :

— لماذا تركناها جميعا ؟ هذا لا يصح .

— اجلس وسأذهب انا — ردت داشا ، ونهضت . لم تعد تشعر بالم ولا بتعب وقالت لأبيها ، وهى تلف اللفاح على فمها : بابا ، اذهب واحقنها بحقنة اخرى .

نشق دميترى ستيبانوفيتش من انفه بشدة ، والقى عقب سيكارته النافذة عبر كتفه . كانت الارض حوله مزروعة كلها باعقاب السيكائر .

— احقنها مرة اخرى يا أبى ، اتوسل اليك .

عندئذ هتف نيقولاى ايفانوفيتش متضايقا وبصوت مصطنع :

— لا يمكن ان تعيش على الكافور وحده . انها تحتضر ، ياداشا .

التفتت داشا نحوه بقوة .

— لا تتجرا على هذا الكلام ! لاتتجرا . انها لن تموت .

اختلج وجه نيقولاى ايفانوفيتش الاصفر . استدار نحو النافذة ، فشاهد ايضا الهلال الرقيق النافذ فى الخواء المزرق . قال :

— اية وحشة لو ترحل . آه ، لا اطيق .

سارت داشا فى غرفة الجلوس على اطراف اصابعها . ونظرت فى النوافذ مرة اخرى ، فاستشعرت بالبرد الزمهريرى الابدى المترامى وراءها . انسلت الى مخدع كاتيا المضاء بمصباح ليلى اضاءة لا تكاد تغالب الظلمة .

هناك ، فى اعماق المخدع كان الوجه الصغير يرقد على الوسائد ، كما كان بلا حراك ، على السرير العريض الواطئ ، وقد دفع شعره الجاف المسود الى فوق ، والى الاسفل من الوجه كف نحيلة . ركعت داشا على ركبتيها امام السرير . كان تَنفّس كاتيا واهنا لا يكاد يسمع . وبعد وقت طويل قالت بصوت خافت متشكٍ :

— كم الساعة ؟

— الثامنة ، كاتيوشا .

استنشقت كاتيا بعض الانفاس ، وسالت مرة أخرى وفى صوتها نبرة الشكوى :

— كم الساعة ؟

وطوال النهار كانت تعيد هذا السؤال . كان وجهها نصف الشفاف هادئا ، وعيناها مغمضتين . . . ومنذ وقت طويل وهى تسير على البساط الناعم فى الدهليز الطويل الاصفر . كل شيء اصفر فيه : الجدران والسقف . وعاليا الى اليمين ينصب ضوء اصفر معذب من النوافذ المتربة . والى اليسار عديد من الابواب

المسطحة . ووراءها — اذا ما فتحتها — حافة الارض ، اللاقرار .
وكاتيا تسير ببطء شديد ، كما فى النوم ، مارة بهذه الابواب والنوافذ المتربة . وامامها دهليز طويل سطيح فى ضوء اصفر ، والهواء مكتوم ، وكل باب ينشر وحشة الموت . متى ستحل النهاية يارب ؟ لو تتوقف ، وتسمع . . . لا شىء يسمع . . . ووراء الابواب ، فى العتمة يبدأ صوت بطىء خفيف يطن مثل صوت لولب الساعة الحائطية . . . آه ، ما اشد الوحشة ! . . ليتها تفيق . . . ليتها تقول شيئا بسيطا انسانيا . وعندئذ كانت كاتيا تردد بجهد ، وفى صوتها نبرة شكوى :

— كم الساعة ؟

— كاتيوشا ، عم تسالين طوال الوقت ؟

«جميل ان تكون داشا هنا . . .» ومرة اخرى كان بساط الدهليز يمتد تحت قدميها بغثيان ناعم وينصب الضوء الخشن المقبض من النوافذ المتربة . ويدق لولب الساعة من بعيد . . .

«ليتنى لا اسمع . . . لا ارى . . . لا احس . . . استلقى واتدثر . . . ليت النهاية قريبة . . . ولكن داشا تضايقنى ، لا تدعنى اغيب . . . تمسك يدى ، تقبل ، تدمدم ، وتدمدم . . . وكان تنفّس حياة ينصب منها فى جسدى الفارغ الخفيف . . . ما اضجر ذلك ! . . كيف اشرح لها ان الموت سهل ، اسهل من ان احس بهذا النفس الحى فى كيانى . . . ليتها تتركنى لا» .

— كاتيوشا ، انا احبك ، احبك ، هل تسمعين ؟

«لا تتركنى ، تشفق علىّ . . . يعنى غير ممكن . . . ستبقى الفتاة وحدها ، تتيتم» .

— داشا !

— ماذا ؟

— لا اموت .

يبدو ان اباهما يقترب . فى الجو رائحة تبغ . ينحنى ، يزيح البطانية ، وتنغرز ابرة فى الصدر بالم حاد لذيذ . وتسرى فى الدم طراوة التسكين العذبة وتترنح جدران الدهليز الاصفر ، وتنفرج ، وينتشر برد منعش . وداشا تمسد الذراع المنطرحة فوق البطانية ، وتضغط شفتيها عليها ، وتبث فيها دفا . وبعد

دقيقة اخرى يذوب الجسد فى ظلمة النوم الحلوة . ولكن الشرطات الصفراء الصارمة تتطاير مجددا من الجانبين ومن وراء عينيها . . . وتتكون متباهية ، ومن تلقاء نفسها ، وتتضاعف ، وتقيم دهليزا خانقا ، معذبا .

— داشا ، داشا لا اريد ان ارحل الى هناك .

وتمسك داشا راسها بيديها ، وتستلقى على الوسادة الى جوارها ، وتضغط نفسها عليها وهى حية قوية ، وكانما تنبعث منها قوة الحياة الفظة الحارة !

ولكن الدهليز استطال مرة اخرى ، وكان يجب ان تنهض ، وتجرجر فيه قدميها ، وعلى كل قدم ثقل طن . لا يجوز ان تظل راقدة . وداشا تحتضنها ، وتنهضها ، وتقول لها : تعالى .

وهكذا صارعت كاتيا الموت ثلاثة ايام بلياليها . وكانت تحس فى نفسها دائما بارادة داشا المضطرمة ولولا داشا لخارت منذ زمان ، وارتاحت الى الابد .

فى اليوم الثالث قضت داشا المساء كله والليل عند سرير شقيقتها لا تبارحه . وكان الشقيقتين صارتا كيانا واحدا له الم واحد ، وارادة واحدة . وقبيل الصباح تصببت كاتيا اخيرا بعرق غزير ، وانقلبت على جنبها . وكانت انفاسها لا تكاد تسمع . ارتعبت داشا ، واستدعت اباهما ، وقررا الانتظار . وفى الساعة السابعة صباحا زفرت كاتيا ، وانقلبت على جنبها الآخر ، ومرت الازمة ، وبدأت العودة الى الحياة .

ولاول مرة خلال تلك الايام غفت داشا ايضا على المقعد الكبير عند الفراش . وعندما علم نيقولاى ايفانوفيتش ان كاتيا قد خلصت من الموت طوق دميترى ستيبانوفيتش من صداره الموبّر ، واجهش باكيا .

وبدأ النهار الجديد بداية سارة ، وكان دافئا مشمسا ، وبدا كل واحد منهم طيبا مع الآخر . وجلبت من حانوت الزهور شجيرة من زهور الليلك الابيض ، ووضعت فى غرفة الجلوس .

واحست داشا بانها قد انتزعت كاتيا بيديها من الحفرة الباردة السوداء المؤدية الى الظلام الابدى . لم يكن على الارض شيء اغلى من الحياة ، وقد ادركت ذلك الآن ادراكا راسخا .

في نهاية ايار نقل نيقولاى ايفانوفيتش يكاترينا دميتريفنا الى بيت ريفى مبنى من جذوع الشجر قرب موسكو ، له شرفتان كانت احداهما تطل على حرش من اشجار البتولا ينشر ظلا اخضر متحركا دائما تسرح فيه عجول رقشاء ، وتطل الثانية على حقل منحدر متموج .

وفى كل مساء كانت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش ينزلان من قطار الضواحى الى محطة صغيرة ، ويسيران فى المرج المستنقعى . وكان البعوض يحوم حول راسيهما . ثم كان يتعين عليهما ان يصعدا فى مرتفع . وهنا كان نيقولاى ايفانوفيتش يتوقف عادة بحجة ان يلقى نظرة على الغروب ، ويقول لاهثا :

– يارب ، ما اروع ذلك !

كانت السحائب الليلكية الساكنة العقيمة ، وهى السحائب التى تكون عادة عند الغروب ، تجثم وراء السهب المظلم المزروع فى بعض اجزائه بشرائط من الحبوب ، وفى الاجزاء الاخرى باشجار الجوز اللفاء وايائك البتولا . وكان وهج الغروب السماوى يشع ضوءا كابيا من الفرجات الطويلة فى هذه السحائب ، وقد انعكس شريط برتقالى من السماء على مسافة غير بعيدة الى الاسفل عند خور الجدول . وكانت الضفادع لا تكف عن النقيق ، واكداس الدريس وسقوف القرية تلوح داكنة فى الحقل المنبسط الذى اوقدت نار فى ناحية منه . وهناك ، فى مكان ما وراء السدة والسياج العالى كان معسكر لص توشينو * فى غابر الازمان . ظهر قطار من

* – كان دميترى الدعى الثانى الربيبة المتدخلين البولونيين والفاتيقان . وقد ادعى انه ابن قيصر روسيا ايفان الرابع . وقد دخل روسيا مع القوات البولونية فى سنة ١٦٠٧ وعسكر فى توشينو بالقرب من موسكو . فى عام ١٦١٠ قتله احد انصاره . (المترجم) .

وراء الغابة يصفر صفيرا طويلا ، ناقلا الجنود الى الغرب ، فى الغروب الخابى .

اقتربت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش من البيت الريفى آخذين طريقهما فى طرف الغابة ، فرأيا من خلال زجاج الشرفة المائدة معدة للعشاء ، ومصباحا على شكل كرة زجاجية مغبشة . ركضت للقائهما كلبة المنزل «شاريك» تنبح بحفاوة ، وحين وصلت اليهما مبصبصة بذيلها ، ابتعدت عنهما حيطة الى الافسنتين ، وراحت تنبح فى ناحية .

نقرت يكاترينا دميتريفنا باصابعها على زجاج الشرفة ، فقد كان ما يزال غير مسموح لها الطلوع الى الخارج بعد حلول الظلام . اغلق نيقولاى ايفانوفيتش باب السياج وراءه ، وقال : «فى رأيى انه بيت ريفى فاتن» . وجلسوا الى العشاء . روت يكاترينا دميتريفنا اخبار المنطقة : جاءت كلبة مجنونة من توشينو ، وعضت دجاجتين من دجاجات عائلة كيشكين ! عائلة جيلكين انتقلت اليوم الى بيت سيموف الريفى ، واذا بسماورهم يسرق فى نفس اليوم . الطباخة ماتريونا جلدت ابنها مرة اخرى .

تناولت داشا طعامها صامتة ، فقد تعبت فى المدينة تعبا شديدا . اخرج نيقولاى ايفانوفيتش من حقيبته حزمة من الجرائد ، واخذ يطالعها ، مخللا اسنانه بعود التخليل ، وعندما كان يقع على انباء مؤسفة ، كان يحدث صريفا باسنانه الى ان تقول كاتيا له : نيقولاى ، ارجوك ، لا تصرف باسنانك . خرجت داشا الى مقدمة البيت ، وجلست ، واسندت حنكيها على يديها ، وحدقت فى السهل المظلم المرصع بالنيران ، والى النجوم الصيفية الصغيرة المنثورة . كانت تنبعث من الحديقة رائحة احواض زهور مروية .

فى الشرفة كان نيقولاى ايفانوفيتش يقول وهو يقلب جرائده .

– لا يمكن ان تستمر الحرب طويلا بعد الآن لسبب واحد هو ان دول الوفاق ونحن – الحلفاء – ندمر انفسنا .

سألت كاتيا :

– أتريد شيئا من اللبن الخاثر ؟

– اذا كان باردا فقط . . . فظاعة ، فظاعة ! فقدنـــا المدينتين : لفوف وليوبلين . يا للعار ! كيف يمكن ان نقاتل اذا كان الخونة يغرزون السكين فى ظهورنا ! مستحيل !

– نيقولاى ، لا تَصرِف باسنانك .

– اتركينى وشانى ! اما اذا فقدنا فرسوفيا فذلك هو العار الاكبر ، وبعده سيتعذر العيش . حقــا فى بعض الاحيان يتساءل المرء مع نفسه : اليس من الافضل عقد هدنة من نوع ما ، وتحويل الحراب نحو بطرسبورغ ؟

تناهى صفير قطار من بعيد ، وترددت قرقعة عجلاته على الجسر الملقى فوق الجدول الذى كان الغروب منعكسا عليــه قبل حين ويبدو القطار ينقل الجرحى الى موسكو . خشخش نيقولاى ايفانوفيتش بصحفه مرة اخرى وقال :

– القطارات تنقل الجنود الى الجبهة بدون بنادق . وهـم يقعدون فى خنادقهم مسلحين بالعصى . وبندقية واحدة لكل خمسة منهـم . ويهاجمون بهذه العصى نفسها ، على أمل ان ياخذوا بندقيـة الجندى المجاور حين يصرع . أوه ، اللعنة ، اللعنة ! . .

نزلت داشــا من مدخـل البيت ، ووضعت مرفقهـا على بـاب الحديقة . كان ضوء الشرفة يسقط على اوراق الارقطيون اللامعة عند السياج ، وفى الطريق . مر بيتيا ، ابن ماتريونا ، منكس الراس بائسا فاتر الهمـة يثير الغبار بقدميـه الحافيتين . لم يبق امامه الا ان يعود الى المطبخ ويقوم نفسه للجلد ، ويستلقــى لينام .

خرجت داشا من باب الحديقة ، وسارت ببطء الى نهــر خيمكى .

وهناك وقفت على الجرف فى الظلام وتسمعت . وترامـــى اليها خرير ينبوع لا يسمع الا فى الليل . دمدمت كتلة من التربة انخلعت من الجرف الجاف ، وتدحرجت عليه ، سقطـــت فى الماء بطرطشـــة . وكانت اشبـــاح الاشجار السوداء تنتصب على جانبيها ساكنة . وفجاة بدات اوراقها ترسل حفيفا ناعسا ، ثم عاد السكون . مرة اخرى . وساءلت داشا نفسها بصوت خفيض : متى ، متى ، متى !» وطقطقت باصابعها .

فى احد الاعياد فى اوائل حزيران استيقظت داشا فى ساعة مبكرة وذهبت لتغتسل فى المطبخ لئلا توقظ كاتيـــا ، رات على المنضدة كومة من الخضار ، وفوقها بطاقة بريدية خضراء يبدو ان بائع الخضار جلبها من البريد مع الجرائد . كان بيتيا ، ابن ماتريونا ، يجلس على العتبة ناشقا ، وقد شد ساق دجاجة الى عصا صغيرة . وكانت ماتريونا تعلق الغسيل على اغصان الاقاصيا .

صبت داشـــا فى وعاء خزفى ماء فواحا برائحـة النهر ونضت قميصها عن كتفيها ، ونظرت مرة اخرى لتعرف ما هذه البطاقة البريدية الغريبة . امسكت طرفها باصبعين مبللتين ، فاذا بها تقرأ : «عزيزتى داشا ، انا قلق لأننى لم اتلق ردا على ايـــة واحدة من رسائلى . امن المعقول انها فقدت ؟»

اسرعت داشا بالجلوس على المقعد ، فقد غامت الدنيـــا امام عينيها ، وارتخت رجلاها . . . «جرحى قد اندمل كليا وانـا الآن امـــارس التمارين الرياضيـــة يوميـا وعلى العموم امسك زمام نفسى بيدى . بل واتعلم الانجليزية والفرنسية . اعانقــــك ، يا داشا ، اذا ما زلت تذكريننى . ايفان تليغين» .

سحبت داشا قميصهـــا على كتفيهـا وقرات الرسالـة للمرة الثانية :

«اذا ما زلت تذكريننى ! . .» وثبت واقفة وركضت الى كاتيا فى مخدعها ، وازاحت الستارة القطنية من على النافذة .

– كاتيا ، اقرئى بصوت عال ! . .

وجلست داشا على سرير كاتيا التى بدا عليها الفزع ، ولم تنتظر ان تقرا اختها الرسالة ، واخذت تقراها بنفسها ، ونهضت مسرعة بعد هذا ، رافعة يديها :

– كاتيا ، يا كاتيا . ما افظع ذلك !

– ولكنه حى ، والحمد الله ، ياعزيزتى داشا .

– احبـــه ! . . يا الهى ، ماذا علىّ ان افعـــل ؟ . . اجبنى يارب ، متى تنتهى الحرب ؟

اختطفت داشا البطاقة البريدية ، وركضــــت الى نيقولاى ايفانوفيتش . وبعد ان تلتها عليه طلبت منه مأخوذة ادق جواب عن سؤالها : متى تنتهى الحرب ؟

— ياعزيزتى ، لا احد الآن يعرف هذا .
— فماذا تعمل انت ، اذن ، فى ذلك الاتحاد البلدى الاحمق ؟
لا شىء غير هراء يقوله الجميع من الصباح حتى المساء . ساذهب الى قائد القوات فى موسكو . . . واطلب منه . . .
— ماذا تطلبين منه ؟ . . آه ، يا داشا ، داشا . ينبغى ان تتحلى بالصبر .

وظلت داشا بضعة ايام تلوب على نفسها ولا تستقر فى مكان . ثم هدات ، وكانها انطفات . وكانت فى المساء تاوى الى غرفتها مبكرا ، وتكتب الرسائل لايفان ايليتش ، وتصنع الطرود له وتلفها بالجنفاص . وعندما كانت يكاترينا دميترييفنا تبادرها الحديث عن تلبيغين كانت داشا تصمت عادة . وتخلت داشا عن نزهة المساء ، وظلت تقضى معظم اوقاتها جالسة مع كاتيا وهى تخيط او تطالع . وكانت تحس ضرورة ان تخفى كل مشاعرها فى اعماق نفسها قدر الامكان ، وتغطى نفسها بجلدة عادية حصينة من الحياة .

اما يكاترينا دميترييفنا فرغم انها ابلت تماما خلال الصيف الا انها انطفات هى الاخرى مثل داشا . وكانت الشقيقتان غالبا ما تقولان انهما ترزحان مثل كل انسان الآن ، تحت ثقل كحجر الرحى . كانتا تجدان رهقا فى الاستيقاظ ، ورهقا فى السير ورهقا فى التفكير والالتقاء بالناس ، وتتلهفان الى الساعة التى تاديان فيها الى الفراش مرهقتين ، فان النوم والنسيان متعة لا تعادلها متعة . بالامس دعت عائلة جيلكين الضيوف لتذوق المربى التى صنعتها حديثا ، ووصلت الجريدة وهم يحتسون الشاى ، واذا بهم يجدون اخا جيلكين فى قائمة القتلى . لقد صرع فى ساحة المجد . دخل اهل المنزل الى البيت ، ومضى الضيوف على الشرفة فى الظلام بعض الوقت ، ثم انصرفوا صامتين . وهكذا الحال فى كل مكان . كانت تكاليف العيش عالية ، والمستقبل يبدو غامضا ، والياس يخيم على النفوس . وجرى التخلى عن فرسوفيا ، ونسفت بريست-ليتوفسك واستسلمت . وكان الجواسيس يعتقلون فى كل مكان .

وكثر قطاع الطرق فى المنخفض على نهر خيمكى . ولم يخرج

احد الى الغابة اسبوعا كاملا خوفا منهم . ثم طردهم الحراس من المنخفض ، واعتقلوا اثنين منهم ، ونجا ثالث وانسل الى فضاء زفينيغورود كما يقول الناس لينهب الضياع .

ذات صباح وصلت عدوا عربة الى الساحة الصغيرة قرب بيت عائلة سموكوفنيكوف ، وكان السائق واقفا على بسطة العربة . وتراكضت نحوه من كل الجهات النسوة والطباخات والصبيان . ان شيئا ما قد حدث . وخرج بعض المصطافين مستاجرى البيوت الريفية من ابواب حدائقهم . واندفعت ماتريونا عبر الحديقة وهى تمسح يديها . كان السائق يقول احمر ملتهبا وهو واقف على بسطة عربته :
— . . . جروه من الدائرة وهزوه وضربوه على الرصيف ، ثم قذفوه فى نهر موسكو . وكان حوالى خمسة المان مختفين فى المصنع . . . امسكوا ثلاثة ، الا ان الشرطة هربتهم ، والا لكان لهم نفس المصير فى نهر موسكو . . . وفى ساحة لوبيانسكايا كلها يتطاير الحرير والمخمل على الدوام . والنهب يجرى فى المدينة كلها . . . والناس حشود . . .

انزل سوطه بكل قوة على حصانه العداء المنحنى بعض الشىء بين عريشى العربة المعكوفين ، حاثا اياه وساطه مرة اخرى فانطلق الحصان بالعربة المتخلخلة وثبا فى الشارع ، ثاخرا مزبدا ، وانعطف نحو الخمارة .

كانت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش فى موسكو . وكان عمود اسود من الدخان يتصاعد من هناك والى سديم السماء الرمادى المسفوع بالشمس ، وينتشر كسحابة . وكان الحريق يشاهد جيدا من ساحة القرية حيث تجمهر حشد من سواد اهل الريف . وحين كان المصطافون مستاجرو البيوت الريفية يقتربون كانت الاحاديث تسكت : كانت الانظار التى توجه الى السادة مشوبة بالسخرية او التوقع الغريب . وظهر رجل قوى البدن وحاسر الراس يرتدى قميصا ممزقا ، وصاح وهو يتقدم الى كنيسة صغيرة مبنية بالآجر :

- فى موسكو يذبحون الالمان .

وما كاد ينتهى من صياحه حتى اخذت امرأة حبلى تنحب . وتدافع الناس الى الكنيسة ، وركضت يكاترينا دميتربيفنا ايضا الى هناك . واضطرب الحشد ، وضج .

- محطة فرسوفيا فى موسكو تحترق . احرقها الالمان .

- ذبحوا زهاء الفى المانى .

- بل ستة آلاف . والقى الجميع فى النهر .

- بدأوا بالالمان ، ثم مضوا يصفون بالتتابع . يقولون ان حوانيت شارع كوزنيتسكى موست * قد نهبت الى آخرها .

- هذا ما يستحقونه . سمنوا على عرقنا ، هؤلاء الاوغاد !

- من المستحيل ان توقف الشعب .

- فى منتزه بتروفسكى ، وانا لا اكذب قسما بالله ، فقد جاءت اختى لتوها من هناك ، فى هذا المنتزه ، كما يقول الناس ، عثروا على جهاز لاسلكى فى بيت ريفى ووجدوا بالقرب منه جاسوسين متنكرين بلحيتين مستعارتين . وقد فتكوا بهما بالطبع .

- ينبغى ان تفتش جميع البيوت الريفية !

وراى الناس فيما بعد فتيات قرويات يحملن اكياسا فارغة وهن يركضن هابطات التل نحو السدة التى يسير عليها طريق موسكو . اخذ الناس يصيحون عليهن . فالتفتن ، ولوحن بالاكياس وتضاحكن . سالت يكاترينا دميتربيفنا فلاحا هرما محتشم المظهر كان واقفا بالقرب منها يحمل عصا طويلة .

- الى اين هؤلاء الفتيات يركضن ؟

- لينهبن ، ايتها السيدة الكريمة .

واخيرا وبعد الساعة الخامسة وصلت داشا ونيقولاى ايفانوفيتش من المدينة فى عربة . كان كلاهما مضطربا ، وقد رويا ، واحدهما يقاطع الآخر ان الناس فى موسكو كلها يجتمعون

* شارع فى موسكو حيث كانت تقع حوانيت غالية كان اكثرها يعود الى الاجانب . **(المترجم)** .

حشودا ، ويحطمون بيوت الالمان والمخازن الالمانية . وقد احرقت عدة بيوت ونهب مخزن الملابس الجاهزة التابع لماندل ، وحطم مستودع بيكر للبيانوهات فى شارع كوزنتسكى موست . ورميت البيانوهات من نوافذ الطابق الثانى ، والقيت فى النار .

وتغطت ساحة لوبيا نسكايا بالادوية والزجاج المهشم . ويقال ان حوادث قتل قد وقعت . وبعد الظهر خرجت الدوريات ، واخذت تفرق الناس . والآن هذا كل شىء .

قال نيقولاى ايفانوفيتش وهو يرمش بعينيه من الانفعال :

- هذه همجية ، بالطبع . ولكن تعجبنى هذه الروح الملتهبة ، جبروت الشعب . اذا كانوا اليوم قد نهبوا المخازن الالمانية فغدا سيقيمون المتاريس . والحكومة تهاونت فى هذه الاباحة عن قصد . نعم ، اؤكد لك لتتنفس عن شدة غيظ الشعب . ولكن الشعب من خلال هذه الافعال سيطمع فى تذوق شىء اكثر جدية . . .

وفى تلك الليلة نهب قبو عائلة جيلكين ، وسرقت بياضات عائلة سفيتشنيكوف من العليّة . وظل الضوء مشتعلا فى الخمارة حتى الصباح . وبعد اسبوع صار اهل القرية يتهامسون ، وهم ينظرون نظرات مريبة الى المصطافين المتنزهين .

وفى بداية آب انتقلت عائلة سموكوفنيكوف الى المدينة . وعادت يكاترينا دميتربيفنا الى عملها فى المستشفى العسكرى . وكانت موسكو فى ذلك الخريف حافلة باللاجئين من بولنده . وكان من المتعذر على المرء ان يشق طريقه فى زحام شارع كوزنيتسكى موست ، وبتروفكا ، وتفيرسكايا . وكانت المخازن والمقاهى والمسارح غاصة بالناس ، وفى كل مكان كانت تسمع عبارة جديدة : «معذور» .

وكان هذا اللغط والترف والمسارح والفنادق المكتظة ، والشوارع المزدحمة السابحة بالضوء الكهربائى محمية عن جميع المخاطر بجدار حى يكوّنه جيش مؤلف من اثنى عشر مليونا من البشر ينزف دما .

واستمرت الاوضاع الحربية فى حالة لا تبعث على الاطمئنان

قط . وكان الناس فى كل مكان من الجبهة والمؤخرة يتحدثون عن تصرفات راسبوتين البغيضة ، وعن الخيانة ، وعن استحالة الاستمرار فى القتال اذا لم ينقذ القديس نيقولا بمعجزة .

وفى خضم اليأس والفساد هذا اوقف الجنرال روزسكى هجوم الجيوش الالمانية بشكل مفاجئ وفى ميدان مكشوف .

٢٤

كانت الريح الشمالية الشرقية تحنى اشجار الحور الجرداء على ساحل البحر فى الغسق الخريفى ، وتهز اطر النوافذ فى البيت القديم القائم على التل ببرجه الخشبى ، وتدمدم فى السقف دمدمة تخيل اليك ان انسانا ثقيل الوزن يتخطى على السطح الحديدى ، وتصفر فى المداخن ، وتحت الابواب ، وفى كل شق .

ومن نوافذ البيت كان فى مستطاع الناظر ان يرى الورود العارية تنحنى من جهة الى اخرى انحناء شديدا على الارض البنية المحروثة ، والسحب الممزقة تعوم فوق البحر المموج الرصاصى اللون . وكان الجو باردا وموحشا .

وكان اركادى جادوف جالسا على اريكة بالية فى الغرفة المأهولة الوحيدة فى الطابق الثانى من البيت . وكان الكم الفارغ من سترته ، التى كانت انيقة يوما ما ، محشورا تحت حزامها . وكان وجهه بجفنيه المنتفخين محلوقا حلاقة جيدة وشعره مصففوفا بعناية ، وعلى وجنتيه عضلتان متحركان .

قلص جادوف عينيه من دخان سيكارته ، واحتسى شيئا من النبيذ الاحمر المتبقى فى براميل موجودة فى قبو بيت ابيه . وكانت يلزافيتا كييفنا تجلس على الطرف الثانى من الاريكة ، وتحتسى النبيذ ايضا وتدخن مبتسمة ابتسامة رقيقة . وقد عودها جادوف ان تصمت اياما كاملة ، ان تصمت وتصغى ، بعد ان يحتسى زهاء ست زجاجات من نبيذ «كابيرنيه» المعتق ويبدأ بالتحدث . وقد تراكمت فى نفسه افكار مريرة كثيرة اثناء الحرب

واثناء اقامته جائعا فى «قصر كابيرنيه» نصف المهدم وسط بضعة افدنة من دوالى الكروم – الثروة الوحيدة التى بقيت له بعد وفاة ابيه .

فى ليلة من الليالى التعسة فى المستشفى العسكرى فى المؤخرة قبل ستة اشهر حين كانت ذراعه المبتورة غير الموجودة توجعه وجعا ممضا قال ليلزافيتا كييفنا بغيظ وحنق وتكدر :

ـ بدلا من ان تبحلقى فىّ بعينيك العاشقتين طوال الليل ، ولا تدعينى انام استدعى القس غدا ليسوى هذه القضية المضجرة .

امتقعت يلزافيتا كييفنا ثم هزت راسها موافقة . وعقد قرانهما فى المستشفى العسكرى . وفى كانون الاول نقل جادوف الى موسكو ، حيث اجريت له عملية ثانية ، وفى بواكير الربيع سافر مع يلزافيتا كييفنا الى أنابا ، وسكنا فى «قصر كابيرنيه» . ولم تكن لجادوف اية موارد للعيش ، فكانا يحصلان على ثمن خبزهما ببيع الاثاث القديم والادوات المنزلية . الا ان النبيذ الكابيرنيه كان متوفرا بكثرة والمخمر خلال سنوات الحرب .

وفى هذا البيت الخاوى نصف المهدم ذى البرج الملوث بذرق الطيور بدات البطالة الطويلة الميئوسة . وقد استنفدت الاحاديث كلها منذ زمن طويل . والمستقبل لا ينطوى على شىء وكان الباب اغلق على الزوجين الى الأبد .

حاولت يلزافيتا كييفنا ان تملأ بوجودها فراغ الايام الطويلة بشكل معذب . ولكنها لم توفق كبير توفيق : فقد كانت رغبتها فى الحظوة بالاعجاب مضحكة وغير متقنة ، وبلا اقتدار . وقد عيرها جادوف على ذلك . فراحت تفكر فى يأس بانها ، رغم سعة فكرها ، سريعة التأثر كامرأة . ومع ذلك فانها لن تستبدل باية حياة اخرى هذه الحياة المعدمة المملوءة بالاهانات ، المترعة بالسأم ، والخضوع للزوج ، واللحظات النادرة من النشوة المجنونة .

وفى الآونة الاخيرة ، حين اخذ الخريف يصفر على الساحل الأجرد اصبح جادوف متوتر الاعصاب بشكل خاص : فما تكاد تبدى حركة حتى ترتفع شفته فوق اسنانه الحانقة ، ويتفوه باشياء فظيعة من خلال اسنانه مقطعا الكلمات بوضوح . وكانت يلزافيتا

كيبفنا فقط ترغد داخليا في بعض الاحيـــان ، وتسرى القشعريرة في جسدها من الاهانة . ومع ذلك كانت تصغى الى هذيانه ساعات طويلة غير صارفة عينيها عن وجهه الجميل الناحل .

وكان يرسلها لتجلب النبيذ من القبو الآجــرى المقوس السقف ، مسرح العناكب الكبيرة الراكضة . فكانـــت تقرفص هناك عند برميل ، وتراقب نبيذ كابيرنيه الاحمر ينزل في الجرة الخزفية وتطلق العنان لافكارها . وتفكر بمرارة منتشية في ان اركادى سيقتلها ذات يوم هنا ، في القبو ، ويدفنها تحت برميل . وستمر ليالى شتائية طويلة وذات ليلة يوقد شمعة ، وينـزل الى العناكب هنا . ويجلس امام البرميل ، ويراقب هذا النبيـــذ النازل كما تراقبه الآن ، وينادى فجأة «ليزا . . .» وما من شيء غير العناكب تركض على الجدران . فيجهش لاول مرة في حياتـه من الوحدة ، ومن الوحشة القاتلة . لقد كانت يلزافيتا كيبفنـا تعوض بمثل هذه الاحلام عن كل الاساءات ، فانها في آخر المطاف ستكون هى الرابحة لا هو .

اشتدت الريح . واهتز الزجاج من عصفاتها . اعول صوت وحشى من البرج ، وسيظل يعول ، على ما يبدو ، طوال الليل . ولم تتوقد نجمة واحدة فوق البحر .

وكانت يلزافيتا كيبفنا قد نزلت ثلاث مرات الى القبو ، وملأت الجرة . وبقى جادوف على جلسته الساكنة وعلى صمته . في هذه الليلة لا بد ان تجرى احاديث من نوع خاص .

وتكلم جادوف فجأة وبصوت عال :

– أليست عندنا بطاطس ، على الاقل ؟ كان في امكانك ، على ما يبدو ، ان تلاحظي انني لم اتناول شيئا من الاكل منذ الامس .

وذهلت يلزافيتا كيبفنا . بطاطس ، بطاطس . . . انهـا منذ الصباح كانت مشغولة بافكارها ، بعلاقة اركادى بها حتى ان العشاء لم يخطر على بالها . ووثبت من الاريكـة . فقـال جادوف بصوت متثلج :

– اجلسى يا قذرة . انا اعرف بدونك اننا لا نملك بطاطس . يجب ان اقول لك انك لا تجيدين شيئا في الحياة خلا التفكير في مختلف السفاسف .

– سأذهب الى جيراننا ، فقد يبادلوننا النبيذ بشيء من الخبز ومن البطاطس .

– افعلى ذلك حين افرغ من الحديث . اليوم حللت نهائيـا مسالة اباحـة الجريمة . (وبهذه الكلمات لفت يلزافيتـا كيبفنا اللفاع عليها ، وانزوت في طرف الاريكة .) ان هذه المسالة استهوتني منذ الطفولة . والنساء اللائى التقيت بهن اعتبرنني مجرمـا ، واستسلمن لى بتعطش كبير . الا انني لم احل فكرة الجريمة الا في الاربع والعشرين ساعة الماضية .

ومد يده الى القدح ، وشرب النبيذ بنهم واشعل سيكارة :

– تصوريني جالسا في الخندق على بعد ثلثمائة خطوة عن العدو . فما الذى يمنعني من تخطى المتراس ، والذهاب الى خندق العدو ، لاقتل مَنْ ينبغى ان يقتل ، وانهب فلوسهم وبطانياتهم والقهوة والتبغ ؟ لو كنت واثقا من انهـم لن يرمونى او يرموننى ولكن لا يصوبوننى فانني بالطبع لذهبت وقتلت ونهبت ، ونشرت صورتى في الصحف كبطل . ان ذلك يبدو واضحا ومنطقيـا . والآن ، ها انا قاعد على بعد ستة فراسخ من أنابـا ، في «قصر كابيرنيه» وليس في خندق ، فلماذا لا اذهب ليلا الى المدينة ولا اقتحم مخزن مورافيتشيك للمجوهرات ، واستولى على المجوهرات والذهب ، واذا صادفت مورافيتشيك نفسه ، فاغرز فيه سكينا بكـل سرور ، في هذا الموضع – واشار باصبعه الى بدايـة الرقبة بحزم – لماذا لا افعل ذلك حتى الآن ؟ هذه المرة ايضا بدافع الخوف فقط . والخوف من الاعتقال ، والمحاكمة ، والاعدام . يبدو انني اتحدث بمنطق . ها ؟ ان سلطة الدولة هى التى تبت في مسالة قتل ونهب العدو . اى تبت فيها وفق الاخلاق التـــى ترسمها الحكومة ، اى بمجموعة القوانين الجنائية والمدنية ، في المعنى الايجابى . ومعنى ذلك ان المسالة تنحصر في احساسى الشخصى بمَنْ اعتبره انا عدوالى .

قالت يلزافيتا كيبفنا بصوت لا يكاد يسمع :

– العدو في الحالة الاولى هو عدو الدولة وفى الحالة الثانيـة عدوك فقط .

– تهانىَّ ! حدثيني شيئا ما عن الاشتراكية . هراء ! الاخلاق

قائمة على حق الفرد ، لا المجموع . اعتقد بان التعبئة قد نجحت نجاحا باهرا فى جميع الاقطار والحرب ماضية فى سنتها الثالثة بكل معمعانها ، مهما احتج بابا روما ، فقط لأننا جميعا ، كل فرد منا ، قد تجاوزنا قماط الرضاعة . اننا نريد القتل والنهب ، واذا لا نريد بشكل مباشر فاننا لا نعترض عليهما فى شىء . والدولة تنظم القتل والنهب . والحمقى والقاصرون ماضون فى تسمية القتل والنهب قتلا ونهبا . وانا منذ الآن اسميهما التحقيق الكامل لحق الفرد . النمر ياخذ مايريد . وانا ارفع من النمر . فمن يجرؤ على تحديد حقوقى ؟ مجموعة القوانين ؟ لقد اكلتها الديدان .

وضم جادوف قدميه ، ونهض بخفة ، وراح يذرع الغرفة التى كان يتسلل اليها من خلال الزجاج المغبر خط كاب من الغروب لا يكاد ينيرها .

– ان مليارا من الناس يجدون انفسهم الآن فى حالة حرب . وخمسمائة مليون من الرجال يقاتلون فى الجبهات ، وهم منظمون ومسلحون . ويمثلون فى الوقت الحاضر مجموعتين متعاديتين . ولكن لا شىء يمنعهم من ان يوقفوا القتال فى احد الايام ، ويتحدوا وسيحدث هذا حين سيقول رجل لهذه الخمسمائة مليون من الرجال : «ايها الحمقى ، انكم لا تصوبون الى الهدف الصحيح» . ولا بد ان تنهى الحرب بتمرد ، بثورة ، بحريق يشمل العالم . وتتحول الحراب الى داخل البلاد . وسيكون المجموع سيد الحياة وسيجلسون على العرش فقيرا من الحثالة ويقدمون له فروض الطاعة . وليكن ذاك . ان ذلك سيزيد من اطلاق يدىَ للنضال . فمن ناحية يوجد قانون الجماهير ، ومن الناحية الثانية يوجد قانون الفرد . انتم الاشتراكية ونحن قانون الغاب ، نحن الفوضوية المقدسة ، المنظمة بانضباط جديدى .

كان قلب يلزافيتا كييفنا يخفق خفقانا مجنونا . انها هذه بالذات تلك «المهاوى» التى كانت تحلم بها حين كانت فى شقة تليغين . ولكنها لم تعد تلك المزحات المرحة المصاغة بالبنود الاثنتى عشرة «للاستفزاز الذاتى» التى علقها نزلاء شقة تليغين على باب ليزا . . . والآن فى الغسق مر بالنوافذ رجل رهيب حقا مثل حيوان الكوجر الامريكى فى قفص . كان يتحدث

لمجرد انه غير طليق . وحين اصغت يلزافيتا كييفنا اليه احست وكانها رات عدوا مجنونا لخيول منطلقة ، وسهبا ، ووهجا . . . وتراءى لها انها تسمع صيحات ، وضجيج معركة والزعيق قبل الموت واغانى السهب .

٢٥

فى اوائل الشتاء من عام ١٩١٦ ، ووسط الجزع العام والتوقعات التى لا تحمل املا استولت القوات الروسية فجأة على قلعة ارضروم بالعنوة حافرة انفاقا عميقة خلال الثلوج ، متسلقة منحدرات كساها الجليد . وكان ذلك فى وقت مُنى فيه الانجليز بهزائم عسكرية فى ما بين النهرين وقرب القسطنطينية ، وجرى فيه قتال عنيد فى الجبهة الغربية على بيت المعدّاوى على نهر ايسر ، وكان الاستيلاء على بضعة امتار من الارض المروية بالدماء ريا كثيفا يعتبر نصرا كان برج ايفيل يسرع لاذاعته على جميع العالم .

وفى الجبهة النمساوية تحولت الجيوش الروسية بقيادة الجنرال بروسيلوف الى هجوم حاسم بنفس الفجاءة ايضا .

وحدثت بلبلة عالمية . وصدر فى انجلترا كتاب عن الروح الروسية الملغزة . وبالفعل ، وخلافا للفكر المنطقى ، وبعد سنة ونصف سنة من الحرب ، والهزيمة ، وفقدان ثمانى عشرة ولاية ، وخور العزيمة العام وبعد الخراب الاقتصادى ، والانحطاط السياسى عادت روسيا مندفعة الى الهجوم على طول جبهتها تمتد ثلاثة آلاف فرسخ . وارتفعت موجة معاكسة من القوة النضرة التى تبدو غير مستنفدة .

وسارت صفوف مئات الالوف من الاسرى داخل روسيا ، وتلقت النمسا ضربة مميتة ونتيجة لها تهشمت بعد سنتين بسهولة وكانها وعاء من الفخار . وعرضت المانيا الصلح سرا . وارتفع سعر الروبل . وانبثعت من جديد الآمال بانهاء الحرب العالمية بضربة حربية . وراجت «الروح الروسية» رواجا فائقا بين الناس . وشُحنت بواخر المحيطات بالفرق الروسية . وغنى

فلاحو اوريول ، وتولا ، وريازان اغانى الجنود الروسيـــــة فى شوارع سلانيك ، ومارسيليا ، وباريس ، وشنوا هجمات جنونية بالحراب انقاذا للحضارة الاوربية .

واستمر الهجوم طيلة الصيف واستدعى للخدمة رجال من اعمار متزايدة ممن كانوا فى الاحتياط ، وانتزع الفلاحون فى سن الثالثة والاربعين من الحقل ، من العمل . وكان يجرى تشكيـــل الوحدات التكميلية فى جميع المدن . واقترب عـــدد المعبئين الى اربعة وعشرين مليونا وخيمت على المانيا ، واوربا كلها سحابة الرعب القديم من الجحافل الآسيوية .

وخلال هذا الصيف اقفرت موسكو اقفارا شديدا . فقـــد امتصت الحرب الرجال مثل مضخة ماصـــــة . ورحـــل نيقولاى ايفانوفيتش الى الجبهة فى مينسك . وعاشت داشا وكاتيـــا فى المدينة عيشة هادئة منعزلة ، وكان العمل كثيرا ، واحيانا كانت تاتى من تليغين بطاقات بريدية مقتضبة حزينة ، فقد حاول كما يظهر ، الهروب من الاسر ، الا انه قبض عليه ، ونقل الى قلعة .

وفى احد الاوقات زار الشقيقتين رجل لطيف جدا هو النقيب روتشين الذى اوفد الى موسكو لتسلم الذخيرة . وكان نيقولاى ايفانوفيتش قد اخذه ذات مرة فى سيارته من الاتحـــاد البلدى ليتناول طعام الغداء فى البيت . ومنذ ذلك الحين اخذ روتشين يتردد على البيت .

كان جرس الباب الخارجى يدق عند حلول الظلام من كـــل مساء . فتتنهد يكاترينا دميتريفنا على الفور تنهيـــدة حذرة ، وتذهب الى الصوان ، وتضع مربى فى سكرجة او تشرح الليمون شرائح للشاى . ولاحظت داشا ان كاتيا حين يظهر روتشين فى غرفة الطعام ، بعد ان يدق الجرس ، لا تدير راسها اليه حالا ، بل تتباطا برهة ، ثم تطل من شفتيها ابتسامتها الرقيقة المعتادة . وكان فاديم بيتروفيتش روتشين ينحنى بتحية صامتة . كان نحيلا ذا عينين داكنتين خاليتين من البهجة ، وراس حليق متناسق . . . وكان يجلس الى المائدة متمهلا ويشرع برواية الانباء الحربية . وكانت كاتيا تشرب الشاى ، وتنظر فى وجهه ، وكان يبدو مـــن عينيها بحدقتيها الواسعتين انها تصغى اليه باهتمام خاص . وحين

تلتقى عيناه بعينيها كان يظهر على وجهه عبوس خفيف ويصلصل مهمازاه تحت المائدة . واحيانا يخيم على المائدة صمت طويل ، وفجاة تتنهد كاتيا وتحمر ، وتبتسم عن تقصير . وينهض روتشين فى نحو الساعة الحادية عشرة ويقبل يد كاتيا باحترام ويد داشا بذهول وينصرف ، راجيا الا يرافق الى الرواق . وكانت خطواته القوية تسمع وقتا طويلا فى الشارع الخالى . وكانت كاتيا تمسح الاكواب وتغلق الصوان ، دون ان تنطق كلمـة واحدة ، وتاوى الى غرفتها ، وتدير المفتاح فى الباب .

ذات مرة كانت داشا تجلس قرب النافذة المفتوحة عند الغروب . كانت الخطاطيف تحلق عاليا فوق الشارع . واستمعت داشا الى اصواتها الرقيقة الرنانة ، وفكرت فى ان يوم غد سيكون حارا صاحيا ، ما دامت الخطاطيف تحلق عاليا . انها طيور سعيدة ما دامت لا تعرف شيئا عن الحرب .

غربت الشمس ، وتلوّن الغبار فوق المدينة بلون ذهبى . وجلس الناس فى الغبش عند البوابات ومداخل البيوت . وشاعت وحشة فى نفسها ، وانتظرت داشا شيئا ما وها هو اورغن الشوارع بدا عزفه فى مكان غير بعيد مضيفا نغمة عاطفية متكررة مزمنة تعبر عن وحشة المساء . وضعت داشا مرفقها على افريز النافذة . كان صوت نسائى عال يرتفع الى سطوح البيوت نفسها مغنيا : «تغذيت على الخبز اليابس ، وشربت الماء القارس . . .»

تقدمت كاتيا نحو مقعد داشا من الخلف ، ويبدو انها سمعت ايضا ، فقد وقفت بلا حراك .

– انها تغنى جيدا ، يا كاتيوشا .

قالت كاتيا فجاة بصوت واطئ وغريب .

– لاى شىء هذا ؟ لِمَ قدُر لنا ؟ اى ذنب ارتكبنـــــا ؟ عندما ينتهى هذا ساصير عجوزا ، هل فهمت ؟ لا اصطبر اكثر من هذا ، لا استطيع ! . .

ووقفت عند الحائط ، قرب الستارة شاحبة متقطعة الانفاس ، وقد ظهرت غضون عند فمها ، تنظر الى داشـــا بعينين جافتين داكنتين . وكررت بخفوت وبحة صوت :

— لا استطيع اكثر ، لا استطيـــــع . ان ذلك لن ينتهى ابدا ! . . نموت . . . ولن نعرف الفرحـــة بعد الآن . . . اتسمعين عويلها ؟ . . انها تدفن احياء .

طوقت داشا اختها ، ومسدت عليها ، وارادت تهدئتها ، الا ان كاتيا رفعت كوعيها حيث ارادت ان تنحيها .

دق الجرس فى الرواق . ابعدت كاتيا اختها ، ونظرت الى الباب . دخل روتشين فى قميص خشن من الجوخ ، وحذاء جديد مدهون . سلم على داشا ببسمة ، ومد يده الى كاتيا ، وفجأة نظر اليها بدهشة وتجهم . انصرفت داشا الى غرفة الطعام فى الحال ومن هناك ، وبينما كانت تضع عدة الشاى على المائدة سمعت كاتيا تسأل روتشين بنفس الصوت الواطئ المبحوح ، ولكن بتحفظ :

— انت مسافر ؟

سعل واجاب بجفاف :

— نعم .

— غدا ؟

— لا ، بعد ساعة وربع .

— الى اين ؟

— الى الجبهة .

وبعد برهة من الصمت ، عاد يقول :

— المسألة ، يا يكاترينا دميتريفنا ، ان هذا هو لقاؤنـــا الاخير ، على ما يبدو ، ولهذا قررت ان اقول . . .

اسرعت كاتيا لمقاطعته :

— لا ، لا . . . انا اعرف كل شىء . . . وانت تعرف عنى . . .

— يكاترينا دميتريفنا ، انت . . .

صاحت كاتيا بصوت جنونى :

— نعم ، انت ترى بنفسك ! . . اتوسل اليك ان تنصرف . . .

ارتج الفنجان فى يدى داشا . واللذان كانا فى غرفة الجلوس صمتا . واخيرا تكلمت كاتيا بصوت خافت تماما :

— اذهب ، يا فاديم بيتروفيتش . . .

— وداعا .

وزفر زفرة قصيرة . وصرف حذاءه المدهون وانصفق الباب الخارجى . دخلت كاتيا غرفة الطعام ، وجلست الى المائدة وضغطت يديها على وجهها بكل قوة .

ومنذ ذلك الحين لم تذكر كاتيا الراحل بكلمة واحدة . تحملت الالم بشجاعة ، رغم انها كانت تستيقظ صباحا وعيناها محمرتان ، وفمها منتفخ . ارسل روتشين فى طريقه بطاقة بريدية – تحيـــة للشقيقتين ، ووضعت هذه الرسالة على طوار الموقد حيث لوثها الذباب .

كانت الشقيقتان تذهبان فى كل مساء الى بولفار تفيرسكوى لكى تستمعا الى الموسيقى . وكانتا تجلسان على مسطبة ، وتنظران الى الفتيات والصبايا يتنزهن تحت الاشجار فى اثواب بيضـــــاء ووردية ، وكان فى البولفار كثرة من النساء والاطفال ، ونادرا ما يمر عسكرى مرفوع الذراع فى ضمادة ، او مشـــوه جرب على عكازة . وكان فرقة من الآلات النحاسيـــة تعزف فالس «على تلال منشوريا» . وكان صوت الابواق حزينا يتعالى فى السماء المسائية .

وكانت داشا تمسك يد كاتيا الضعيفة النحيلـــة ، وتقول وهى تنظر الى ضوء الغروب المتسرب من بين الاغصان :

— كاتيوشا ، كاتيوشا ، اتذكرين :

ايه يا حبى الذى لم يكتمل ،
فى قلبى يبرد الحنان . . .

اعتقد اننا لو نتجمل بالشجاعة ، فسنرى الوقت الذى يتاح لنا فيه ان نحب ، دون عذاب . . . لاننا نعرف الآن ان الحب اسمى شىء فى الدنيا . انا اتصور احيانا ان ايفان ايليتش سيأتى من الأسر وسيكون مختلفا جدا ، جديدا كل الجدة . انا الآن احبه بينى وبين نفسى ، بالخيال . وسنلتقى وكان احدنا قد احب الآخر فى حياة اخرى غير هذه الحياة .

قالت يكاترينا دميتريفنا ، وقد مالت الى كتفها :

— اما انا ، يا عزيزتى داشا ، فان قلبى قد شاخ لما فيه من المرارة والعتمـــة . سترين انت اوقاتا سعيدة ، اما انا فلن ارى . . . ذبلت كالزهرة العقيمة .

– من العيب ان تقولى ذلك ، يا كاتيوشا .
– لا ، يا فتاتى ، يجب ان اتحلى بالشجاعة .
وذات مساء من تلك الامسية على المسطبة جلس عسكرى على الطرف الآخر منها . وكانت الفرقة الموسيقية تعزف فالسا قديما . وكانت اضواء المصابيح ترسل ضوءا شاحبا من خلال الاشجار . وكان جارهما على المسطبة يتفرس فيها بشدة حتى ان داشا احست بتوتر فى رقبتها . التفتت ، وندت منها «لا !» فجائية مذعورة خفيفة .
كان بيسونوف يجلس الى جانبها نحيفا رث المظهر فى سترة عسكرية متهدلة كالكيس وقبعة عليها صليب احمر . نهض وسلم صامتا . قالت داشا «مرحبا» ، واطبقت شفتيها . دفعت يكاترينا دميترييفنا بجسها الى ظهر المسطبة ، محتمية بظل قبعة داشا ، واغمضت عينيها . كان بيسونوف رماديا اللون وكأنه مسربل بالغبار ، او انه لم يغتسل .
قال لداشا رافعا حاجبيه :
– رأيتك فى البولفار يوم امس واول امس ولكننى ترددت فى التقدم منك . . . انا ذاهب لأقاتل . انهم وصلوا الىّ ايضا .
قالت داشا بعصبية مباغتة :
– كيف تذهب لتحارب ، وانت فى الصليب الأحمر ؟
– لنفرض ان الخطر قليل نسبيا – ، بالطبع . ولكن سواء لدى ان اقتل او انجو ، لا ابالى تماما . . . الحياة مضجرة تماما ! يا داريا دميترييفنا – ورفع رأسه ، ورمق شفتيها بنظرة كابية – مضجرة من كل هذه الجثث ، ولا شىء غير الجثث . . .
سالت كاتيا دون ان تفتح عينيها :
– هل انت ضجر من هذا ؟
– نعم ، ضجر جدا ، يكاترينا دميترييفنا . فى الماضى كان ثمة شىء من الأمل . . . ولكن ، بعد هذه الجثث والجثث خيم ليل ابدى . . . جثث ، ودم وفوضى . هكذا . . . يا داريا دميترييفنا ، واذا اردت الحقيقة ، فقد جلست اليك راجيا تضحية نصف ساعة من الوقت لى .
– ولاى شىء ؟ – سالت داشا ، ونظرت فى وجهه الغريب

والسقيم ، وخيل اليها فجأة وبصفاء ادار رأسها انها ترى هذا الرجل لأول مرة .
قال بيسونوف مغضنا وجهه :
– فكرت طويلا فيما جرى فى القرم واود ان اتحادث معك – ودس يده ببطء فى جيب سترته الجانبى ليخرج علبة السيكائر – اود ان ابدد بعض الانطباعات غير الحسنة . . .
قلصت داشا عينيها ، لم تجد اى اثر للسحر فى هذا الوجه الكريه . فقالت بتصميم :
– احسب ان ليس بيننا ما نتحدث عنه – . واشاحت عنه .
– مع السلامة ، يا الكسى الكسييفتش .
تشوه وجه بيسونوف ببسمة معوجة ، ورفع قبعته ، وانصرف . نظرت داشا الى ظهره الواهن ، والى بنطاله العريض جدا وكأنه يوشك ان يسقط على حذائه الثقيل الطويل المترب . أمن المعقول ان هذا المخلوق هو بيسونوف حلم لياليها المسهدة ؟
– كاتيوشا ، اجلسى ، وانتظرينى قليلا .
قالت بعجالة ، وركضت وراء بيسونوف الذى استدار فى ممر جانبى . لحقت به لاهثة الانفاس ، وامسكته من كمه . توقف ، واستدار ، وانسبل جفناه على عينيه الشبيهتين بعينى طائر مريض.
– الكسى الكسييفيتش ، لا تغضب منى .
– لست غاضبا ، بل انت لم تريدى ان تتحدثى معى .
– لا ، لا . . . انت لم تفهمنى على الوجه الصحيح . . . انا اقدرك كثيرا ، وارجو لك كل خير . . . ولكن لا داعى لتتذكر ما فات . . . لا شىء يبقى من الماضى . . . انا اشعر بالذنب واحس بالاشفاق عليك . . .
هز كتفيه ، ونظر من خلال داشا الى السابلة ببسمة ساخرة.
– اشكرك على الاشفاق .
تنهدت داشا ، فلو كان بيسونوف غلاما صغيرا لأخذته الى بيتها ، وغسلته بماء دافئ ، واطعمته حلوى . ولكن ماذا تفعل مع هذا الرجل وهو الذى خلق له ما يؤلمه ويعذبه ويكدره .
– اكتب لى كل يوم ، اذا اردت ، يا الكسى الكسييفتش ، وسأرد عليك .

قالت له ، ونظرت فى وجهه باكثر ما يمكن من الطيبة . دفع راسه الى الوراء ، وضحك ضحكة باردة .

— شكرا ... ولكن بى نفـور من الورق والحبر ... —

وتغضن وكانما ابتلع شيئا حامضا — اما انت قديسة ، يا داريا دميتريفنا واما معتوهة ... انت عذاب الجحيم انزل علىّ ، وانا حى ، هل فهمت ؟

وجاهد لينصرف ، ولكن بدا وكانـه لا يستطيـع ان ينتزع قدميه . وقفت داشا مطرقة الراس ، فقد كانت تحس بالرثاء ، ولكن قلبها بارد . نظر بيسونوف الى جيدها المحنى والى نهدها الرقيق الفتى البادى من فتحة الفستان الابيض ، وفكر بان هذه هى النهاية ، الموت .

— كونى رحيمة .

قال بصوت بسيط خفيض انسانى . همست على الفور دون ان ترفع رأسها : «نعم ، نعم» وسارت بين الاشجـار . وللمرة الأخيرة بحث بيسونوف ببصره عن راسها الأشقر الشعر بين حشد الناس . لم تبد منها التفاتة . وضـع يده على شجرة ، تشبث باصابعه بقشرتها الخضراء ، فان الأرض ، ملجاه الأخير ، مادت من تحت قدميه .

٢٦

كان القمر يتدلى مثل كرة شاحبة فوق مستنقعـات الخث المقفرة . وكان الضباب يتلوى فوق الخنادق المهجورة . وفى كل مكان قرم اشجار مقطوعة ، وهنا وهناك تلوح اشجـار صنوبر قصيرة وفى الجو رطوبة وسكون . وصف من عربات الاسعاف يسير على درب ضيق مرصوف بجذوع الشجر . وخط الجبهة لا يبعد غير ما يقرب من ثلاثة فراسخ وراء حدود الغابة المسننة ، ولا صوت يترامى من هناك .

فى احدى هذه العربات كان بيسونوف منطرحا على القش ، مغطى بكسوة حصان مشبعة برائحته . كانت الحمى تنتابه كل مساء مع غروب الشمس ، وتصطك اسنانه من القشعريرة ، وكان يبدو ان جسده يجف وتمر فى ذهنه افكار صافية خفيفة ملونـة

كفوران بارد . كان ذلك احساسا بهيجا بفقدان الوزن الجسدى .

سحب الكسوة الى ذقنه ونظر الى السماء المعتمة المحمومة . هذه هى نهاية الطريق على الارض : الظلمة ، وضوء القمر ، والعربة المتارجحة كالمهد . وهكذا بعد ان تكتمل حلقة القرون تعود عجلات السكيثيين الى الدوران والصريف . ولكن كل الاشياء لم تكن الا احلاما : اضواء بطرسبورغ ، الأبهة الحادة لمبانيها ، والموسيقى فى صالاتها الدافئة المتالقة ، وفتنة ستارة المسرحية وهى ترتفع ، وسحر الليالى الثلجية ، واذرع النساء المطروحة على الوسائد ، والحدقات الداكنة المجنونة ... إثارات الشهـرة ... سكرة المجد ... الضوء الهادىء فى المكتب ، القلب الخافق حماسـا ، النشوة التى يبعثها خلق الكلمـات ... الفتـاة ذات الزهور الاصطناعية البيضاء على قبعتها ، مندفعة من الرواق المضاء الى غرفته المظلمة ، الى حياته ... كل ذلك مجرد احلام ... والعربة تهتز ... والى جنبها يسير فلاح بقبعة منكسة على عينيه . الفان من السنين وهو يسير جنب العربـة ... ذلك هو امتداد الزمن اللانهائى المكشوف فى ضوء القمر الكابى ... ومن ظلام القرون تتحرك الظلال . ويتعالى صريف العربات ، وتشق العالم عجلاتها السود . وهناك ، فى الضباب الشاحب مداخن مواقد ناتئة ، وادخنة الحرائق تتعالى الى السماء ، وصريف العجلات وقعقعتها . ويرتفع الصريف والقعقعة اكثر ، ويزداد اتساعا ، والسماء كلها مملوءة بهدير صاعق يمزق النفس ...

توقفت العربـة فجاة . ومن خلال الهدير الذى يملأ الليل الشاحب تبلغ السمع اصوات السواقين المذعورة . رفع بيسونوف جسمه قليلا . فرأى فى ضوء القمر عمودا طويلا متلالىء الحوافى يعوم على ارتفاع واطىء فوق الغابة ، ويستدير ويلتمع ، ويهدر بزئير محركات ، ويخرج من بطنه شعاع من الضوء ابيض نحيل ميال الى الزرقة ، ويندفع فوق المستنقعات ، فوق قرم الاشجـار ، فوق الاشجار المطروحة ، فوق شجيرات الشوح ، ويستقر على الطريق العامة ، على العربات .

وترامت من خلال الطنين اصوات ضعيفة مثل ضربات سريعة على بندول الايقاع ... وتناثر الناس من العربات . انحرفت عربة

اسعاف ذات عجلتين نحو المستنقع ، وانقلبت . . . وفى اللحظة التالية توهجت حزمة باهرة من الضوء على الطريق على بعد مائة خطوة من بيسونوف وارتفع حصان وعربة فى الهواء مثل كتلة سوداء ، وتصاعد عمود هائل من الدخان وانقلب طابور العربات كله فى زوبعة من الهدير . عدت الخيول فى المستنقع ساحبة وراءها الاجزاء الامامية من العربات ، وتراكض الناس . وانقذفت العربة التى يرقد بيسونوف عليها ، وهوت ، وتدحرج بيسونوف على منحدر الطريق الى الحفرة ، وانهبد كيس ثقيل على ظهره ، غمره القش .

القى المنطاد الالمانى تنبلة ثانية ، ثم اخذ دوى محركاته يبتعد ، وتلاشى . عندئذ بدأ بيسونوف يزيح القش من فوقه متوجعا ، وخرج بجهد من تحت الامتعة التى وقعت عليه ، ونفض نفسه وصعد الى الطريق . فرأى بعض العربات تقف هناك بجنبها وقد فقدت انصافها الامامية . وكان احد الخيول يرقد فى المستنقع مع عريش عربته ، وراسه ملقى الى الوراء ، يسحب رجله الخلفية آليا .

تحسس بيسونوف وجهه وراسه . مست اصابعه بقعة لزجة عند اذنه . وضع منديله على الخدش ، وسار على الطريق نحو الغابة . كانت ساقاه ترتجفان بشدة من الخوف والسقطة ، فاضطر بعد بضع خطوات ان يجلس على كومة من الحجارة الغليظة . اراد ان يشرب جرعات من الكونياك إلا ان القارورة بقيت مع الامتعة فى الحفرة . اخرج بيسونوف الغليون وعلبة الكبريت من جيبه بصعوبة ، وشرع يدخن . كان دخان التبغ مرا وكريها . ثم تذكر الحمى ، ان حالته سيئة ، ويجب ، مهما يكن من شيء ، ان يصل الى الغابة ، فقد قيل له ان البطارية تعسكر هناك . نهض بيسونوف الا ان رجليه لم تطاوعاه قط ، وكانهما من خشب ، ولا تكاد تتحركان اسفل بطنه . فقعد ثانية على الارض ، واخذ يدلكهما ويمدهما ، ويقرصهما ، حتى اذا احس بالالم يسرى فيهما فنهض وسار .

كان القمر عاليا الآن والطريق يتلوى فى الظلمة عبر المستنقعات المقفرة حتى يبدو بلا نهاية . وضع بيسونوف يديه على حقوه ، وترنح رافعا ومجرجرا لذانيه الثقيلين بصعوبة ، وخاطب نفسه :

«جرجر نفسك ، جرجر حتى تسحقك العجلات . . . نظمت اشعارا ، واغويت حمقاوات . . . والآن تقذفك . . . جرجر نفسك فى اتجاه الافول حتى تنهار . . يمكن ان تحتج ، تفضل احتج ، وازعق . . . حاول ، حاول ، اصرخ بافظع ما تستطيع ، اعول . . .»

والتفت بيسونوف فجأة . انزلق ظل رمادى من الطريق الى الأسفل . . . فسرت البرودة فى ظهره . ابتسم بتهكم ، ورفع صوته بعبارات متقطعة لا معنى لها ، وسار فى وسط الطريق . . . ثم القى نظرة حذرة الى الخلف ورأى فى الواقع ان كلبا كبير الراس طويل القوائم كان يتبعه على بعد خمسين خطوة وراءه .

– الشيطان يعرف ماهذا !

غمغم بيسونوف ، واسرع فى سيره ، ثم القى نظرة اخرى عبر كتفه . كان هناك خمسة كلاب تسير خلفه فى صف واحد ، منكسة الابراز ، رمادية ، مرتخية المؤخرات . قذفها بيسونوف بحجر قائلا :

– ساضربكم . . . ابعدوا عنى ، ياقذارة . . .

انحدرت الوحوش الى اسفل ، الى المستنقع صامتة . جمع بيسونوف بعض الحجارة ، واخذ يتوقف بين الحين والاخر ويقذفها . . . ثم واصل سيره ، وصفر ، وصاح «هاى ، هاى . . .» خرجت الوحوش من اسفل الطريق وسارت وراءه ثانية .

بدأت شجيرات شوح صغيرة تظهر على جانبى الطريق . ثم ان بيسونوف لمح امامه ، عند المنعطف ، شبح شخص توقف متفرسا ، وبعد ذلك تراجع فى ظل شجيرات الشوح .

همس بيسونوف «اللعنة !» واختفى فى الظل ايضا ، ووقف طويلا محاولا السيطرة على خفقات قلبه ، توقفت الوحوش ايضا غير بعيد ، وجثم أولها واضعا بوزه على قائمتيه الاماميتين . ولم يتحرك الشخص الذى فى الأمام . رأى بيسونوف بوضوح شديد عمامة طويلة بيضاء كالنقاب تبرقع وجه القمر . ثم صدر صوت وانغرز فى دماغه كالابرة ، هو صوت انسحاق غصن تحت قدم ، هى قدم ذلك الشخص بالتأكيد . طلع بيسونوف سريعا الى وسط الطريق ، وسار شادا على قبضتيه بجنون . واخيرا رآه الى

اليمين . كان جنديا مديد القامة ، محدودبا يلقى معطفه على كتفيه ، وكان وجهه بلا حاجبين ، يحاكى وجوه الموتى ، رماديا ، وفمه نصف مفتوح . صرخ بيسونوف :

— اى ، من اى فوج انت ؟

— من البطارية الثانية .

— اوصلنى الى البطارية .

صمت الجندى ، ولم يبد حركة ، ونظر الى بيسونوف نظرة كدرة ، ثم ادار راسه الى اليسار :

— ما هذه ؟

اجاب بيسونوف نافد الصبر : كلاب .

— لا ، ليست هذه كلابا .

— لنذهب ، اسرع ، اوصلنى .

قال الجندى رافعا صوته :

— لا ، لا اذهب .

— اسمع ، انا مصاب بحمى ، ارجوك ، اوصلنى ، وسأعطيك نقودا .

قال الجندى رافعا صوته :

— لا ، لن اذهب الى هناك . انا هارب .

— يا احمق ، انهم سيقبضون عليك ، على اية حال .

— كل شيء جائز .

القى بيسونوف نظرة جانبية عبر كتفه فلم ير الوحوش فلعلها اختفت بين اشجار الشوح .

— وهل البطارية بعيدة ؟

لم يجب الجندى . استدار بيسونوف ليذهب ، الا ان الجندى قبض على مرفقه بقبضة قوية كالكماشة .

— لا ، لا ادعك تذهب الى هناك . . .

— اترك يدى .

— لن اتركها ! — ونظر الجندى فى ناحية فوق اشجار الشوح ، دون ان يترك ذراع بيسونوف — منذ يومين وانا لم اتناول طعاما . . . قبل حين كنت غافيا فى الاخدود ، وسمعتهم قادمين . . . قلت لنفسى انهم رجال وحدتى . وبقيت مستلقيا .

انهم كثر يسيرون على الطريق على ايقاع واحد . فما هى الحكاية ؟ ونظرت من الاخدود . فاذا هم يسيرون مكفنين فى خط لا نهاية له . . . كالضباب . . .

صاح بيسونوف بصوت وحشى ، وهو يحاول فك ذراعه :

— ما هذا الذى تقوله لى ؟

— ما قلت الا الصدق ، فصدقنى ، ايها الوغد .

انتزع بيسونوف ذراعه ، وركض وكأنه يركض على رجلين قطنيتين ، لا على رجليه الاصليتين . وتبعه الجندى يلطبط بحذائه الثقيل لاهثا وامسكه من كتفه . وقع بيسونوف ، وغطى رقبته وراسه بيديه . انهدّ الجندى عليه آزا بانفه وانشب اصابعه القاسية فى حلقومه ، وضغط . وبعد ذلك جمد وهمد .

همس الجندى من خلال اسنانه بذلك :

— اذن ، هذا انت !

عندما سرت رعشة طويلة فى جسد المطروح ، استطال الجسد ، وارتخى ، وكأنما تسطح على التراب . عندئذ فك الجندى قبضته ، ونهض ، وتناول طاقيته . وسار فى الطريق ، دون ان يلتفت الى ما صنعت يداه . ترنح ، وهز راسه ، وجلس ممددا ساقيه على منحدر الاخدود .

وقال الجندى لنفسه :

— ما العمل الآن ؟ الى اين ؟ اوه ، يا منيتى ! تعالوا ، والتهمونى ، يا اوغاد . . .

٢٧

حاول ايفان ايليتش تليغين ان يهرب من معسكر الاعتقال ، الا انه قبض عليه ونقل الى قلعة ، وحبس حبسا انفراديا . وفى القلعة راح يخطط لهروب ثان ، وفى غضون ستة اسابيع انشغل فى قطع قضبان النافذة . وفى اواسط الصيف اخليت القلعة بشكل مفاجئ ، وارسل تليغين الى ماكان يسمى بـ«الجب العفن» كنوع من العقاب الاضافى . وكانت هذه مكانا رهيبا يُكرب النفس هو عبارة

عن أربعة عنابر طويلة محاطة بأسلاك شائكة مقامه فى منخفض واسع وسط حقل للقمح النباتى . وعلى مسافة بعيدة فى اسفل التلال ، حيث كانت ترتفع مداخن آجرية ، كان يبدأ خط حديدى ضيق صدئ ممتدا عبر المستنقع كله ، ينتهى على مقربة من العنابر ، عند حفرة عميقة ، كانت موقعا للعمل فى العام الماضى حيث هلك اكثر من خمسة آلاف جندى روسى بالتيفوس والدوسنطاريا . وفى الجانب الآخر من المنبسط البنى-الاصفر كانت ترتفع جبال الكربات بسلسلتها المسننة . والى الشمال من العنابر ، فى اعماق المستنقع كان يلوح للعين عدد كبير من الصلبان الصنوبرية . وفى الأيام الحارة كانت انفاس التبخر تتصاعد فوق المنبسط ، ويطن ذباب الخيل ، وتتدلى الشمس حمراء مغبشة ناشرة التفسخ فى هذا المكان المكرب .

كانت الاعاشة هنا صارمة ، والطعام قليلا . وكان نصف السجناء هنا مصابين بأمراض المعدة والحمى ، والتقيحات ، والطفح الجلدى . ومع ذلك فان معنوية السجناء مرتفعة : فقد كان الجنرال بروسيلوف يتقدم بمعارك قوية ، والفرنسيون يدحرون الالمان فى شمبانيا وعند فيردون ، والاتراك يخلون شبه جزيرة البلقان . وكانت نهاية الحرب تبدو الآن قريبة قربا حقيقيا .

الا ان الصيف انقضى ، وبدأت الامطار ، والجنرال بروسيلوف لم يستول على كراكوفيا ، ولا على لفوف ، وهدأت المعارك الدامية فى الجبهة الفرنسية واخذت دول الحلف الثلاثى ودول الوفاق تلعق جراحها . وكان واضحا ان نهاية الحرب قد تأجلت الى الخريف المقبل .

عندئذ بدأ اليأس يدب فى «الجب العفن» . وكف فيسكوبوينيكوف ، جار تليغين ، عن الحلاقة والاغتسال فجأة . وصار يقضى اياما كاملة مستلقيا على سريره غير المرتب ، لا يرد على سؤال . واحيانا كان ينهض قليلا مكشرا عن انيابه ، ويحك جسمه باظافره فى كراهية ، كانت بعض القرح الوردية تظهر تارة على جسمه ثم تختفى . وذات ليلة ايقظ ايفان ايليتش ، وقال له بصوت كامد :

– تليغين ، هل انت متزوج ؟

– لا .

– اما انا فلى زوجة وابنة فى تفير . يجب ان تزورهما !

– كفى ، نم .

– سانام نوما عميقا ، يا اخ .

وفى الصباح الباكر ، عند تعداد السجناء لم يرد فيسكوبوينيكوف على اسمه . ووجدوه فى المرحاض مشنوقا بحزام رفيع . واضطرب العنبر كله وتزاحم السجناء بالقرب من جثته المطروحة على الأرض . كان المصباح يضيئ وجهه المجزع بالم مفعم بالكراهية ، وآثار الحك على صدره تحت القميص الممزق . كان ضوء المصباح كدرا بدت فيه وجوه الاحياء المنحنية على الجثة منتفخة ، صفراء ، مشوهة . التفت احد السجناء ، وهو المقدم ميلشين ، نحو ظلام العنبر ، وقال بصوت عال :

– وهل سنظل ساكتين يارفاق ؟

وسرت دمدمة مخنوقة فى الجمع ، وعلى الأسرة . انصفق الباب ، وظهر ضابط نمساوى ، هو آمر المعسكر ، وانشق الجمع يفسح له الطريق الى الجثة الهامدة ، واذا باصوات عالية ترتفع :

– لن نسكت !

– عذبوا الرجل !

– هذا دابهم !

– انا اتعفن حيا !

– لسنا مجرمين .

– كان يجب ان نضربكم اكثر يا اوغاد . . .

وقف الآمر على اطراف اصابعه وصرخ :

– سكوت ! كل فى مكانه ! خنازير روس !

– ماذا ؟ . خنازير روس ؟!

– نحن خنازير روس ؟!

وفى الحال اندفع نحو الآمر رجل ركين له لحية منفوشة هو النقيب جوكوف . دفع بابهامه الى وجه الضابط النمساوى ، وصاح بصوت مختلج مشيرا اشارة فاحشة .

– يا ابن الكلبة ، هل رأيته ؟

وهز راسه الاشعث ، وامسك الآمر من كتفيه وهزه بضراوة ، وطرحه ارضا ، وانطرح عليه .

وصمت الضباط الذين احاطوا بالمتصارعين بدائرة متماسكة . ولكن سرعان ما تردد صوت خطوات الجنود المتراكضين على الالواح ، وصرخ الآمر «النجدة !» عندئذ نحى تليغين رفاقه قائلا : «لقد جنّ ، وسيخنقه !» وامسك جوكوف من كتفيه ، وابعده عن النمساوى . وصرخ الآمر بالالمانية : «انت وغد !» . كان جوكوف لاهثا . قال بصوت خافت «اتركنى ، وسأريه ، هذا الخنزير» . الا ان الآمر قد نهض ، ولبس طاقيته المجعدة ، والقى نظرة متفرسة سريعة على وجه جوكوف ، وتليغين ، وميلشين ، واثنين او ثلاثة آخرين واقفين بالقرب منهم ، وكانما يريد ان يحفظهم فى ذاكرته ، وسار خارجا من العنبر مصلصلا بمهمازيه بقوة . وتقفل الباب فى الحال ، ووضع الحراس عند المدخل .

فى ذلك الصباح لم يجر تعداد ، ولم يرتفع صوت طبل ، ولم توزع قهوة البلوط . وقبيل الظهر دخل جنود الى العنبر ومعهم نقالة ، وحملوا جثة فيسكوبوينيكوف . واغلق الباب مرة اخرى . وتفرق السجناء الى الأسرة ، واضطجع الكثيرون منهم . وران هدوء كلى على العنبر ، وكان الأمر واضحا : تمرد ، ومحاولة قتل ، ومحاكمة عسكرية .

بدا ايفان ايليتش ذلك اليوم ، على عادته ، غير مخالف اية قاعدة من القواعد التى وضعها لنفسه ، والذى ظل يراعيها تمام المراعاة منذ اكثر من عام : فى الساعة السادسة ضخ ماء بنى اللون فى جردل ، وبلل جسده ، ودلكه وقام بالمائة تمرين وتمرين من التمارين الرياضية حارصا على ان تطقطق عضلاته ، ولبس ثيابه ، وحلق وجهه ، ولأن القهوة لم توزع اليوم جلس ، على الريق ، يدرس النحو الالمانى .

كانت العطالة الجسدية اصعب الاشياء فى الأسر واكثرها تهديما . وقد ضعضعت الكثيرين . كان احدهم يعمد فجاة الى بودرة وجهه وتزيين عينيه وحاجبيه ، ويظل يتهامس اياما كاملة مع شاب مبودر مثله ، وكان آخر يتحاشى رفاقه ، ويتهافت على السرير ساحبا بطانيته المهلهلة من راسه ، لا يغتسل ولا يحلق ، وياخذ

ثالث باستعمال فاحش الكلام ويزعج الجميع بحكايات غريبة ، وينتهى اخيرا الى القيام بفعل قبيح جدا حتى ينقل الى مستشفى المعسكر .

وكانت الصرامة هى الخلاص الوحيد من هذا كله . انقلب تليغين خلال فترة الأسر ميالا الى الصمت ، وقد جف جسده الذى كان مدرعا بالعضلات ، وصار حادا فى حركاته ، واكتست عيناه لمعانا باردا عنودا ، وفى لحظة الحنق والتصميم تصيران مرعبتين .

اليوم كرر تليغين بعناية اشد من المعتاد الكلمات الالمانية التى سجلها بالأمس ، وفتح كتاب شبيلهاغين المتهرىء . جاء جوكوف وقعد على حافة سريره ، ولم يلتفت تليغين اليه ، واستمر يقرأ بصوت واطىء . زفر جوكوف وقال :

– يا ايفان ايليتش ، اريد ان اقول فى المحكمة اننى مجنون .

نظر تليغين اليه بسرعة . كان وجه جوكوف العريض الأنف ، الأجعد اللحية ، ذو الشفتين الناعمتين الدافئتين الظاهرتين من خلال شاربيه الكثين ، مطرقا يبدو عليه الذنب ، وكانت رموشه الفاتحة ترمش باستمرار .

– لا اعرف ما الذى وسوس لى لأشير له اشارتى الفاحشة تلك ، انا نفسى لا ادرى الآن ماذا كنت اريد ان اثبت له . انا ادرك ، يا ايفان ايليتش ، اننى مذنب ، بالطبع . . . اندفعت ، وورطت رفاقى . . . هذا ما عزمت عليه : اقول اننى مجنون . . . هل توافقنى ؟

اجاب ايفان ايليتش ، معلما باصبعه على المكان الذى وصل اليه من الكتاب .

– اسمع ، ياجوكوف ، سيرمون عددا منا بالتاكيد . . . اتعرف هذا ؟

– نعم ، افهم .

– اذن ، اليس من الاحسن الا تتباله فى المحكمة ؟ ما رايك ؟ . . .

– انت على حق ، بالطبع .

– لن يلومك احد من رفاقك . . . سوى ان المتعة فى ضرب بوز تساوى غالية الثمن جدا .

– وحالتى انا مؤلمة جدا لاننى عرضت رفاقى الى المحاكمة !

– وهز جوكوف راسه المنقوش الشعر – ليت اولئك الاوغاد يقضون علىّ وحدى .

وظل يتحدث على هذا المنوال وقتا طويلا ، الا ان تليغين لم يعد يصغى اليه ، وواصل قراءته لكتاب شبيلهاغين ، ثم نهض ، وتمطى ، مفرقعا بعضلاته . وفى تلك اللحظة انفتح الباب الخارجى بعنف ، ودخل اربعة جنود شاكين الحراب فى بنادقهم ، ووقفوا على جانبى الباب ، وتعقعوا بترابيس البنادق ، ودخل الرقيب الأول ، وهو رجل عبوس معصوب العين اجال بصره فى العنبر ، وصرخ بصوت ضار لا رنة فيه :

– النقيب جوكوف ، المقدم ميلشين ، الملازم الثانى تليغين . . .

خرج المدعوون ، وحدق الرقيب الاول فى كل واحد منهم بعناية ، واحاط الجنود بهم ، اقتيدوا من العنبر عبر الفناء الى بيت خشبى صغير هو بيت الآمر . وكانت تقف هناك سيارة عسكرية قد وصلت قبل حين . وازيحت الاسلاك العائقة التى تسد الطريق الى خارج المعسكر . وكان احد الحراس واقفا بلا حراك عند كشك مخطط . وفى داخل السيارة جلس السائق ، وهو صبى ذو عينين منفوختين بعض الشىء ، مائلا على ظهر مقعده امام الدفة . لكز تليغين بكوعه ميليشين الذى كان يسير الى جانبه .

– هل تعرف سياقة سيارة ؟

– اعرف ، ولكن لماذا ؟

– اسكت .

ادخلوا الى مكتب الآمر . كان ثلاثة ضباط نمساويين جدد يجلسون الى طاولة من خشب الصنوبر مغطاة بورق نشاف وردى اللون . وكان احدهم ، وهو رجل مزرقّ الوجه من الحلاقة ، تطفح على خديه الممتلئين بقع حمراء ، يدخن سيغارا . وقد لاحظ تليغين انه لم يرفع بصره الى الداخلين . وكانت يداه مستقرتين على الطاولة واصابعه السميكة المشعرة متشابكة ،

وعينه متقلصة بسبب دخان السيغار ، وياقته تضغط على رقبته . وفكر تليغين : «ان هذا اتخذ قراره مع نفسه» .

وكان الحاكم الآخر ، الذى يراس المحكمة ، رجلا عجوزا اعجف ذا وجه مستطيل كئيب قليل الغضون النظيفة ، له شاربان اشيبان كثان . وكان احد حاجبيه مرفوعا بنظارة من عدسة واحدة . امعن نظره فى المتهمين ، وحوّل الى تليغين عينه الرمادية التى بدت كبيرة من وراء العدسة . كانت عينا صافية ذكية تنم عن رقة . واختلج شارباه .

فكر ايفان ايليتش مع نفسه : «فى منتهى السوء» ونظر الى الحاكم الثالث الذى كان يضع امامه نظارة ذات اطار من قوقعة السلحفاة وورقة صغيرة مكتوبة بخط دقيق . كان رجلا قصيرا ممتلئا ، بشرته صفراء مشربة بلون رمادى ، وشعره خشن مسرح تسريحة قصيرة ، واذناه كبيرتان . وكان واضحا من كل شىء انه واحد من العسكريين الفاشلين .

حين صف المتهمون امام الطاولة لبس هذا نظارته المستديرة بحركة بطيئة . ومرر كفه الجافة على ورقة مكتوبة ، وبدا فجاة يقرا قرار الاتهام كاشفا عن اسنان صناعية صفراء .

كان الآمر المعتدى عليه يجلس الى ناحية من الطاولة عاقدا حاجبيه ، ضاما شفتيه . ركز تليغين انتباهه ليتابع كلمات الاتهام ، الا ان فكره ، رغم ارادته ، كان يعمل بحدة وداب فى اتجاه آخر .

«. . . عندما ادخلت جثة المنتحر الى العنبر استغل بعض الروس هذه الحادثة لتحريض رفاقهم على العصيان المكشوف للسلطة ، واخذوا يهتفون بشتائم وتعابير فاحشة هازين قبضاتهم مهددين . وكان المقدم ميليشين ، مثلا يحمل بيده مطواة مفتوحة . . .»

شاهد ايفان ايليتش عبر النافذة الصبى السائق يدير اصبعه فى انفه ، ثم انقلب على جنبه فى مقعده ، ودفع على وجهه قبعته الضخمة ، تقدم جنديان قصيران من السيارة ، وقد القيا على كتفيهما معطفين ازرقين ، ووقفا يتطلعان . قرفص احدهما ، ومس اطار العجلة باصبعه ثم استدار الاثنان – فقد دخلت عربة المطبخ الى الفناء ، والدخان يتصاعد من مدخنته بوداعة ،

واستدارت نحو العنابر ، حيث اتجه الجنديان ايضا بتكاسل . لم يرفع السائق راسه ، ولم يلتفت ، فلعله قد غفا . عض تليغين على شفتيه من نفاد الصبر ، وعاد يصغى الى صوت المدعى الصارم :

«. . . النقيب جوكوف المشار اليه سابقا اظهر للسيد الآمر خمس اصابع مطوية مهددا حياته عن عمد ظاهر وسبق اصرار ، بالاضافة الى ان الابهام كان بارزا بين السبابة والوسطى ، وهى اشارة مقيتة كانت تهدف ، فى الظاهر ، الى تحقير شرف البزة الملكية الامبراطورية . . .»

وبعد هذه الكلمات نهض الآمر ، وبدا ، وقد تبقع وجهه ببقع حمر ، يشرح للحاكمين بالتفصيل حكاية اصابع النقيب غير المفهومة كثيرا ، بينما اصغى جوكوف نفسه ، وكان قليل الالمام بالالمانية ، بكل ما لديه من قدرة ، وحاول ان يدس كلمة واحدة ، والتفت الى رفاقه بابتسامة تقصير طيبة ، ولم يضبط نفسه ، فتكلم بالروسية مخاطبا المدعى :

— يا حضرة العقيد ، اسمح لى بالتنويه — انا اقول له لمَ هذا التحامل علينا ، لمَ ؟ انا لا اعرف التعبير بالالمانية ، فلذلك اظهرت له باصابعى .

قال ايفان ايليتش من خلال اسنانه :

— جوكوف ، اسكت .

نقر رئيس المحكمة بالقلم . تابع المدعى مطالعته .

وصف العقيد كيف وبأى موضع امسك جوكوف بالآمر و«طرحه ارضا وضغط بابهامى يديه على حلقومه ، بغية التسبب فى موته» وانتقل الى احرج نقطة فى الاتهام : «. . . كان الروس بتدافعهم وصياحهم يحرضون القاتل على القتل . فان احدهم ، وهو الملازم الثانى يوهان تليغين اندفع الى مكان الحادث ، حين سمع خطوات الجنود المتراكضين ، وابعد جوكوف ولثانية واحدة فقط كانت بين الحياة والموت المحتم لحضرة الآمر» . وهنا توقف المدعى ، وابتسم راضيا عن نفسه — «ولكن فى تلك اللحظة ظهر الخفراء من مراتب اوطأ ، فلم يستطع الملازم الثانى تليغين الا ان يصرخ بضحيته : «يا وغد» .

واعقب ذلك تحليل سيكولوجى منمق لتصرف تليغين «الذى

حاول ، كما هو معروف ، الهروب مرتين من الأسر . . .» ووجه العقيد اتهاما قاطعا لكل من تليغين وجوكوف وميلشين الذى كان يحرض على القتل ملوحا بالمطواة . ولتشديد قوة الاتهام عمد الى تبرئة ايفانوف واوبيكو «اللذين وقعا تحت تاثير حالة الهيجان» .

بعد نهاية المطالعة اكد الآمر ان ذلك كله وقع طبق الصورة المروية تماما . واستجوب الجنود فذكروا ان المتهمين الثلاثة الأوائل مذنبون فعلا ، ولم يعرفوا شيئا عن المتهمين الآخرين . فرك رئيس المحكمة يديه النحيفتين ، واقترح اسقاط التهمة على ايفانوف واوبيكو بسبب عدم توفر الادلة . هز الضابط الاحمر الوجه راسه بعد ان دخن السيغار حتى وصل الى شفتيه . ووافق المدعى ايضا بعد شىء من التردد . عندئذ تنكب اثنان من الحرس السلاح . وقال تليغين «. . داعا يا رفاق» . نكس ايفانوف راسه ، وصمت اوبيكو ونظر الى ايفان ايليتش بذعر .

اخرج المبرآن ، واعطى رئيس المحكمة الكلام بمتهمين . سأل تليغين :

— هل تعتبر نفسك مذنبا فى التحريض على التمرد ، وفى الاعتداء على حياة آمر المعسكر ؟

— لا .

— وماذا تريد ان تقول بالذات فى هذا الخصوص ؟

— الاتهام مختلق من الفه الى يائه .

وثب الآمر مسعورا طالبا الايضاح . فاوقفه الرئيس باشارة .

— اليس لك ما تضيفه الى افادتك هذه ؟

— لا .

ابتعد تليغين عن الطاولة ، وتفرس فى جوكوف . فأحمر هذا ، ونخر من فمه ، واعاد فى اجابته عن الاسئلة ما صرح به تليغين كلمة كلمة . وفعل ميلشين مثله . استمع رئيس المحكمة الى الاجوبة ، واغمض عينيه بتعب . واخيرا نهض الحكام ، اختلوا فى الغرفة المجاورة ، وعند الباب بصق الضابط الاحمر الوجه ، وكان آخرهم ، عقب سيغاره المحترق حتى شفتيه ، ورفع ذراعيه وتمطى بتلذذ .

قال تليغين بصوت هامس :

– الرمى . وقد عرفته منذ دخولنا .

وتوجه الى الحارس قائلا :

– اعطنى قدح ماء .

تقدم الجندى من الطاولة مسرعا ، واخذ يصب من القارورة ماء كدرا ، وهو ما يزال ممسكا بندقيته . همس ايفان ايليتش فى اذن ميلشين بسرعة :

– عندما يخرجوننا ، حاول ان تشغل المحرك .

– مفهوم .

بعد دقيقة ظهر الحكام ، واحتلوا اماكنهم السابقة . خلع رئيس المحكمة نظارته الاحادية بتؤدة ، وقرّب من عينيه قصاصة ورق كانت تهتز قليلا ، وقرا قرار الحكم القصير الذى انزل على تليغين وجوكوف وميلشين عقوبة الاعدام رميا بالرصاص .

ورغم ان ايفان ايليتش كان متيقنا من صدور مثل هذا القرار الا انه لدى سماعه لتلك الكلمات ، احس بان الدم يغادر قلبه . نكس جوكوف راسه . اما ميلشين القوى العريض المنكبين ذو الانف العقابى فقد لعق شفتيه ببطء .

فرك رئيس المحكمة عينيه المتعبتين . ثم غطاهما بكفه ، وتكلم بوضوح ، ولكن بخفوت :

– يعهد الى السيد الآمر بتنفيذ الحكم على الفور .

نهض الحكام ، وظل الآمر وحده جالسا لبرهة من الوقت منتصب الجذع مخضوضر الوجه . ونهض ، وعدّل سترته النظيفة واوعز للجنديين الباقيين بصوت مبالغ بحدته بان يخرجا المحكومين. عند الباب الضيق تلكأ تليغين ليمكن ميلشين من الخروج اولا . امسك ميلشين بذراع الحارس كمن خارت قواه ، وتمتم بلسان متلعثم :

– لنذهب ، لنذهب ارجوك ، مسافة قليلة . . . بطنى يوجعنى وجعا ممضا . . .

حدق الجندى فيه ذاهلا وقاوم ونظر الى الوراء خائفا وهو لا يعرف كيف يتصرف فى الظرف الطارئ . الا ان ميلشين كان قد سار به حتى مقدمة السيارة ، وقرفص ، وغضن وجهه ، وتوجع ، قابضا باصابعه المرتعشة على ازرار ملابسه تارة ، وعلى مقبض

السيارة اخرى . وظهر على وجه الحارس رثاء واشمئزاز . قال غاضبا :

– اجلس ، اذا كان بطنك يوجعك . اسرع !

الا ان ميلشين ادار مفتاح التشغيل فجاة بقوة ضارية . انحنى الجندى نحوه مذعورا ليبعده . صحا الصبى السائق ، وصاح بشىء ما مغتاظا ، وقفز من السيارة . وكل ما حدث بعد ذلك لم يستغرق غير بضع ثوان . راقب تليغين من تحت حاجبيه حركات ميلشين وهو يحاول ان يقترب من الحارس الثانى قدر الامكان . وتعالى صوت المحرك ، وخفق قلبه مع ذلك الاهتزاز الحاد المذهل.

– جوكوف ، امسك البندقية ! – صاح تليغين ممسكا حرسه من وسطه ، ورفعه فى الهواء وقذفه على الارض بقوة ، وبلغ السيارة ببضع قفزات حيث كان ميلشين يصارع الجندى لينتزع البندقية . هجم ايفان ايليتش على الجندى بضربة سددها على رقبته بقبضته ، فتاوه هذا ، وقعد . اندفع ميلشين الى دفة القيادة ، وحرك المقابض وراى ايفان ايليتش بوضوح رفيقه جوكوف ينسل الى السيارة ومعه البندقية ، والصبى السائق ينسل على طول الجدار ، ويقفز الى باب مقر الآمر فجاة والوجه المستطيل المشوه بالذعر ذا النظارة الاحادية يلوح فى النافذة ، وقامة الآمر القصيرة عند مدخل البيت ، والمسدس الراقص فى يده . . . وطلقة، واخرى . . . «اخطات ، اخطات ، اخطات» .

وبدا وكان عجلات السيارة انغرست فى الخث ، الا ان تروس التعشيق زعقت ، واندفعت السيارة . والقى تليغين نفسه على المقعد الجلدى . واشتد هبوب الهواء على وجهه ، وصار الكشك المخطط يقترب بسرعة وكذلك الحارس المصوب بندقيته . دوت طلقة ومرت السيارة به كالزوبعة والى الخلف تراكض الجنود فى الفناء ، وركعوا على ركبهم . طلقة ! طلقة ! ولكن هذه الطلقات اصبحت اصم واصم . التفت جوكوف ، وهدد بقبضته . الا ان مربع العنابر المظلم اخذ يتضاءل وينخفض شيئا فشيئا ، واختفى المعسكر وراء المنعطف . مرقت بهم الاعمدة والاحراش ، والارقام على الاحجار خاطفة متلاحقة .

التفت ميلشين ، وقد تصاعد الدم ملونا جبينه ، وعينه وخده وصاح على تليغين :

– الى الامام ؟

– الى الامام حتى نعبر الجسر ، ثم يمينا فى الجبال .

٢٨

جبال الكربات مقفرة موحشة فى المساء الخريفى الرياحى . واحس الهاربون بالاضطراب والقلق حين صعدوا الى الممر عبر الطريق المتعرج الابيض المغسول بالامطار حتى السطح الحجرى . كانت ثلاث او اربع اشجار صنوبر تتمايل فوق الهوة . وفى الاسفل غابة لا تكاد تبين فى نقاب الضباب يترامى منها حفيف . والى الاسفل منها فى قعر الهوة كان سيل غزير يخر مندفعا وقالبا الصخور بهدير .

ووراء جذوع الصنوبر بعيدا وراء قمم الجبال الشجراء المنعزلة كان شريط طويل من الغروب يلمع بين الغيوم الرمادية . وكانت الريح شديدة طليقة على هذا الارتفاع تضرب فى جلد غطاء السيارة .

جلس الهاربون صامتين . كان تليغين ينظر فى خارطة ، وميلشين يتطلع صوب الغروب وهو يرتفق دفة القيادة . وكان راسه مضمدا بخرقة .

سال بصوت خفيض :

– ماذا نفعل بالسيارة ؟ وقد نفد البنزين .

اجاب تليغين :

– لا يجوز ترك السيارة هنا ، العياذ بالله .

– ليس امامنا الا ان ندفعها الى الهوة .

قال ميلشين ، وتاوه ، وقفز الى الطريق ، وطبطب بقدميه بقصد تمرينهما ، واخذ يهز جوكوف من كتفه قائلا له :

– هاء ، يا نقيب ، استيقظ . وصلنا !

خرج جوكوف الى الطريق دون ان يفتح عينيه ، وتعثر ،

وقعد على صخرة . سحب ايفان ايليتش من السيارة مماطر جلدية – وسلة طعام كانت قد اعدت لغداء الحكام فى «الجب العفن» . ووزعوا الطعام على الجيوب ، ولبسوا المماطر ، وامسكوا برفارف السيارة ، ودفعوها الى الهوة . قال ميلشين :

– اديت خدمتك يا عروسة ، والآن على المعاش ! يا لله !

تدلت العجلاتان الاماميتان فوق الهوة ، وبكت السيارة الطويلة المتربة بمقاعدها الجلدية ، واطرها البرونزية طائعة مثل كائن حى ، وجنحت ، ثم هوت الى الاسفل مع نثار من الحجارة وكسر الصخر ، وتعلقت لحظة بنتوء صخرة ، وقرقعت ، وانقلبت ، ودوّت الى الاسفل فى هدير متعاظم من الحجارة وشظايا الحديد المتطايرة حتى استقرت فى السيل . وتردد الصدى ، وترامى بعيدا فى المضايق الضبابية .

تحول الفارون الى غابة ، وساروا بمحاذاة الطريق وكانوا يتكلمون نزرا ، وينطقون همسا . وكان الظلام قد خيم تماما ، واشجار الصنوبر تضج فوق رؤوسهم مهيبة وكان ضجيجها يشبه صوت مياه متساقطة على مبعدة .

كان تليغين ينزل الى الطريق بين الحين والآخر ، وينظر الى ارقام الفراسخ على الاعمدة . وقاموا بدورة كبيرة فى مكان يحتمل ان تكون نقطة عسكرية ، واجتازوا عدة منخفضات ، وتعثروا فى الظلام بالاشجار الساقطة ، والجداول الجبلية ، وتبللوا ، وتمزقت ثيابهم . وسروا فى الليل بكاملها . وذات مرة قبيل الصباح سمعوا صوت سيارة ، فرقدوا فى حفرة ، ومرت السيارة على مقربة منهم ، بل وسمعوا اصواتا فيها .

وفى الصباح اختاروا للاستراحة موضعا على مقربة من جدول فى وهدة شجراء نائية . واكلوا ، واتوا على نصف قارورة من الكونياك ، ثم طلب جوكوف ان يحلقوا وجهه بالموسى الصدئة التى وجدها فى السيارة . وحين ازيلت لحيته وشارباه فوجئ رفيقاه بأن له حنك طفل ، وشفتين بارزتين . ضحك تليغين وميلشين طويلا ، مشيرين اليه باصبعيهما . وابتهج جوكوف كثيرا ، كان يخور مثل بقرة ويمط شفتيه ، وتبين انه سكران . نثرا عليه الاوراق ، وطلبا منه ان ينام .

بعد ذلك نشر تليغين وميلشين الخارطة على العشب ، ورسم كل منهما تخطيطا طوبوغرافيا لنفسه . وتقرر ان ينقسموا يوم غد : يذهب ميلشين وجوكوف الى رومانيا ، ويتجـه تليغين الى غاليسيـا . ودفنوا الخارطـة الكبيرة فى الارض . وفرشوا الاوراق الجافة ، ودفنوا انفسهم فيها وغفوا فى الحال .

فى الاعلى ، عند حافة الطريق فوق الوهدة وقف رجل معتمد على بندقيته ، هو حارس الجسر . سـاد الصمت حوله فى القفر الغابى تحت قدميه ، ولم يسمع غير زمزمة دجاجة الارض فى طيرانها الثقيل فوق مرجة فى الغابة ، صافقة بجناحيها على شجيرات الحور ، ومسقط ماء يترامى صوته من بعيد . وتقف الحارس قليلا ، ثم انصرف متنكبا بندقيته .

عندما فتح ايفان ايليتش عينيه ، كان الليل مخيما . وكانت النجوم الساطعة تلمع بين اغصان الاشجار السوداء الساكنة . بدأ يتذكر اليوم الغالب ، الا ان الاحساس بالجهد النفسى فى المحكمة ، وخلال الهروب كان موجعا جدا بحيث طرد من ذهنه تلك الافكار .

سأل ميلشين بصوت خافت :

– هل انت يقظان ، يا ايفان ايليتش ؟

– منذ زمان . انهض وايقظ جوكوف .

وبعد ساعة كان ايفان ايليتش يسير بمحاذاة الطريق الواضح ببياضه فى الظلمة .

٢٩

فى اليوم العاشر وصل تليغين الى خط الجبهة . وكان طوال هذه المدة يسير ليلا ، ويختفى فى الغابة عند طلوع النهار ، وحين كان يضطر الى النزول فى واد ، كان يختار لمبيته بقعة فى منأى عن الاماكن المأهولة . وكان يقتات على الخضار النيئ الذى كان ينشله من حدائق الخضروات .

كان الليل باردا ممطرا . وكان ايفان ايليتش ينسـل على الطريق العامـة بين عربات الاسعاف المتجهـة غربـا ، والمملوءة بالجرحى وعربات اخرى محملة بالحاجات المنزلية ، وجموع النساء

والشيوخ الحاملين على اذرعهم اطفالا وصررا وادوات منزلية .

وكانت القوافل المحملة بالجنود والامتعة العسكرية تأتى مـن الاتجاه الاخر ميممة صوب الشرق . وكان من الغريب التصديـق بان عام ١٩١٤ وعام ١٩١٥ قد انتهيـا وعـام ١٩١٦ يدنو من نهايته ، وطوابير العربات ما تزال ، كمـا كانت من قبل ، تصر عجلاتها على الطرق المخربة ، واهالى القرى المحروقة يضربون فى الارض فى يأس خانع . لا فرق سوى ان الخيول العسكرية الضخمة لاتكاد الآن تجرجر ارجلها ، وان الجنود ممزقو الملابس ضئيلو الاجسام ، ان جموع المشردين صامتـون متبلدو الاحاسيس . وهناك ، فى الشرق من حيث تسوق الريح اللاذعـة غيوما واطئة ما زال الناس يقتل بعضهـم بعضا دون ان يهلك فريـق فريقه الخصم .

كانت كتلة هائلة من الناس والعربات تتحرك فى الظلام على منخفض مستنقعى ، وعبر جسر مقـام على نهر منتفخ . وكانت العجلات تقعقع ، والسياط تنز ، والاوامر تصدر باصوات صارخة ، واضواء الفوانيس الكثيرة تتحرك ، فكان ضوؤها يسقط على الماء الكدر الملتف بين دعائم الجسر .

وصل ايفان ايليتش الى الجسر منزلقا على منحدر الطريـق العامة . وكانت قافلة عسكرية تمر عليه . ولا امل فى العبور الى الجهة الأخرى قبل طلوع النهار .

كانت الخيول عند دخولها الجسر تركع بعرائش عرباتهـا وتتشبث بحوافرهـا فى الالواح الرطبة ، ولا تكاد تجر العربات . وعلى الحافة وعند مدخل الجسر كان يقف رجل على فرس والريح تعصف فى مشمعه ، وفى يده فانوس ، وكان يصرخ بصوت مبحوح . وقد تقدم منه عجوز ، ورفع قبعته يطلب منه شيئا ، على ما يبدو . ولكن الفارس ، بدلا من ان يجيبه ، ضربه بالفانوس الحديدى على وجهه ، وسقط العجوز تحت العجلات .

كان الطرف الآخر من الجسر يغيب فى الظلام ، الا ان نقاط الضوء هنـاك كانت توحى بوجود آلاف من النازحين . استمرت القافلة فى تحركها البطئ . ووقف ايفان ايليتش ملتصقا بعربة ، كانت تجلس فيها امرأة نحيلة متدثرة فى بطانية ، وشعرها متهدل

على عينيها ، وهى تحتضن قفص طيور بذراع ، وتمسك العنان بالذراع الاخرى ، توقفت قافلة العربات فجـــاة والتفتت المراة مذعورة . تنامى طنين الاصـــوات فى الطرف الآخر من الجسر ، وتزايدت اشعة الفوانيس المتحركة . ان شيئا قد حدث . صهـــل حصان صهيلا وحشيا ضاريا . وصرخ صوت ممطوط باللغـــة البولندية «انقذ نفسك» . وفى الحال مزقت الهواء طلقة بندقية . واندفعت خيول ، وتقعقعت عربات ، وارتفعت اصوات نسوة واطفال فى زعيق وعويل .

وبعيدا الى اليمين ومضت شرارات متفرقة ، وترامت اصوات طلقات جوابية . صعد ايفان ايليتش على عجلة ، وتطلع . ودق قلبه كالمطرقة . كان الرمى كما يبدو ياتى من كل مكان ، على النهر كله . نزلت المراة مع قفصها من العربة ، وتعلقت تنورتهـــا ، فوقعت وزعقت بصوت عميق : «اوى انقذونى !» وتدحرج القفص بالطائر على منحدر الطريق .

وعادت قافلـــة العربات تتحرك على الجسر عدوا ، وسط الصيحات والقرقعة . وتعالت على الفور اصـــوات جنونية : «قف ! قف !» وشاهد ايفان ايليتش عربة كبيرة تجنح على حافة الجسر ، وتنقلب على الدرابزين ، وتسقط فى النهر . عندئـــذ وثب مـــن العجلة ، وقفز عبر الصرر المرمية حتى بلغ قافلة العربات ، وانبطح على عربة سائرة . وفى الحال نفذت الى راسه رائحة خبز حلوة . دس يده تحت مشمع ، وقطع نهاية رغيف ، واخذ ياكلها غاصا من النهم .

وصلت قافلة العربات الى الضفة الثانية اخيرا وسط الفوضى واطلاق النار . قفز ايفان ايليتش من العربة ، وتسلل بين عربات النازحين الى الحقل ، وسار بمحاذاة الطريـــق . عرف من نتف العبارات الملتقطة من الظلام ان اطلاق النار ذاك كان على العدو ، اى على دورية روسية : ومعنى ذلك ان خط الجبهة لا يبعد عـــن هذه الاماكن اكثر من عشرة فراسخ .

توقف ايفان ايليتش عدة مرات ملتقطا انفاسه . كان المشى عكس الريح والمطر صعبا ، وتعبت رجلاه عند الركبتين ، وتوهـــج وجهه ، والتهبت عيناه وانتفختا . وفى آخر الأمر جلس على مرتفع

الحفرة ، ووضع راسه بين يديه . وكانت قطرات المطر الباردة تتساقط تحت رقبته ، وجسمه كله يئن متوجعا .

فى تلك اللحظة بلغ أذنه صوت خافت عميق مثل انهيار أرض على مسافة بعيدة . وبعد برهة زفر الليل مثل تلك الزفرة للمرة الثانية . رفع ايفان ايليتش راسه ، وتسمـــع وميز بين تينـــك الزفرتين العميقتين همهمة جوفاء تخمـــد تارة وتتنامى اخرى فى ذبذبات غاضبة . لم تكن تلك الاصوات تاتى من الجهة التى كان يسير اليها ، بل من يساره ، من الجهة المعاكسة تقريبا .

جلس على الجانب الآخر من الحفـــرة . الآن صارت ترى بوضوح مزق الغيوم الواطئة السارحة فى السماء المتسخة الحديدية . كان ذلك هو الفجر . وكان ذلك هو الشرق . وكانت روسيا هناك .

نهض ايفان ايليتش ، وشد حزامه ، وسار فى تلك الجهة مباعدا بين ساقيه فى الوحل ، متخطيا الجذامات المبللة والاخاديد وخنادق العام الماضى نصف المتهدمة .

وحين تنورت الدنيا تماما راى تليغين ثانية فى نهاية الحقل طريقا عامة غاصة بالناس والعربات . توقف ، واجال بصره . فراى فى ناحية مزارا ابيض تحت شجرة هائلة تعرت من نصف اوراقها . كان الباب مخلوعا ، والاوراق الذاوية متناثرة على سطحه المستدير ، وعلى الارض .

قرر ايفان ايليتش ان ينتظر هنا حلول الظلام . فدخـــل المزار ، واستلقى على الأرض الخضراء من الطحلب . كانت رائحة الاوراق الرقيقة المثيرة برخاوتها تبعث الدوار فى راسه . ترامـــت اليه من بعيد كركبـــة عجلات ، وضربات سياط . وكانت هذه الضوضاء تبدو لطيفة على الاذن بشكل مذهل ، وفجاة تلاشت . وكان يحس بما يشبه الاصابع يضغط على عينيه . وشيئا فشيئا ظهرت بقعة حية فى النعاس الثقيل عليه كالرصاص . بدت وكانها تحاول ان تكون حلما ، فلم تقدر . فقد كان الاعياء شديدا جعله يئن ويغرق اكثر فاكثر فى النوم . ولكن البقعة كانت تقلقه . فاخذ نومه يخف ، ومن جديد اخذت تترامى الى سمعه كركبة العجـــلات من بعيد . وزفرايفان ايليتش ، وقعد .

راى من خلال الباب سحبا مسطحة سميكة ، وكانت الشمس

تجنح الى الغروب واشعتها العريضة تمتد تحت قاعدتها الرطبة الرمادية الثقيلة . وكانت بقعة خفيفة من الضوء تقـــع على حائط المزار المتداعى ، وتضيئ الايقونة الخشبية الحائلة اللون من تقادم الزمن ، المائلة التى يظهر فيها وجه العذراء فى هالة ذهبية ، والطفل فى ثوب قطنى متهرئ راقد على ركبتيهـــا ، وكانت يد العذراء المباركة مقطوعة من الايقونة .

خرج ايفان ايليتش من المزار فرأى عند عتبته امراة شابة تجلس على الدرجة الحجرية ، وعلى ركبتيها طفل . كانت ترتدى رداء ابيض مبقعا بالوحل وتسند خدها على يد ، وتضع اليد الاخرى على بطانية الطفل الملونة . رفعت راسهـــا ببطء وتطلعت على ايفان ايليتش بنظرة وضيئة غريبة ، ورف وجهها المخضل بالدمع ، وكانها تبتسم ، وقالت بالاوكرانية بصوت خافت :

— مات الصغير .

وعادت تضع خدها على يدها . انحنى تليغين نحوها ، ومسد راسها ، فارسلت تنهيدة مندفعة . قال برقة :

— لنذهب . سأحمله عنك .

هزت المراة راسها :

— الى اين اذهب ؟ اذهب وحدك ، ايها السيد الطيب .

وقف ايفان ايليتش برهة اخرى ، ودفع طاقيته فوق عينيه وانصرف . فى تلك اللحظة خرج رجلان من الجندرمة النمساويـــة العسكرية يعدوان على فرسيهما من وراء المزار ، وعليهما معطفان مبللان قذران ولهما وجهان مزرقان مشوربان . وحين مر بايفان ايليتش اوقفا فرسيهمـــا ، وصاح الذى كان فى المقدمـــة بصوت اجش :

— تقدم !

اقترب ايفان ايليتش ، فانحنى الفارس من على السرج وتفحصه فى عناية بعينيه البنيتين الملتهبتين من الريح والسهر . والتمعـــت عيناه فجاة ، وهتف :

— روسى !

وامسك ايفان ايليتش من ياقته . لم يقاوم تليغين ، بـــل ابتسم ابتسامة مازنة مقهورة .

حُبس تليغين فى زريبة . وكان الليل قد هبط . وكان دوى التراشق بالمدافع يُسمع بوضوح ، ويلوح من خلل الشقوق بين الاخشاب وميض احمر كامد . اكل ايفان ايليتش بقية الخبز الذى اخذه من العربة يوم امس ، وسار على طول الجدران المصنوعة من الواح الخشب عسى ان يعثر على فتحة . تعثر ببالـــة من التبن المضغوط ، وتثاءب ، واستلقى . الا ان النوم لم يراوده . فبعد منتصف الليل اخذت المدافع تقصف على مسافة غير بعيدة ، وكانت التوهجات المحمرة تنفذ من خلال الشقوق بين الالواح . رفع ايفان ايليتش جسمه قليلا وتسمع . تضاءلت الفترات بين الطلقات وصارت جدران الزريبة تهتز ، وفجاة لعلعل رصاص البنادق على مسافـــة دانية جدا .

وكان واضحا ان المعركـــة تقترب . وصدرت اصوات مستثارة ، وبربر محرك سيارة . وتردد وقع اقدام كثيرة وارتطم جسم ثقيل بجدار الزريبة من الخارج . وعندئـــذ فقط لاحظ ان الرصاص يتساقط على جدار الزريبة تساقط البندق على جسم صلب . فتمدد على الارض فى الحال .

نفذت رائحة دخان البارود حتى الى داخل الزريبة . وكان الرمى لا ينقطع ، والظاهر ان الروس كانوا يهجمون بسرعة شديدة . الا ان هذه الزوبعة من الاصوات الرهيبة لم تستمر طويلا . وصدرت ضربات منفجرة ، اى ان القنابل اليدوية كانت تفرقـــع فرقعة الجوز عندما يكسر . نهض ايفان ايليتش مسرعا مـــن الارض وتراكض بمحاذاة الجدار . امن المعقول ان الهجوم يُرد ؟ واخير صدر زئير اجش مجلجل ، وزعيق ودمدمة اقدام . وسكتت الطلقات فى الحال . ولم يسمع فى تلك الثانية الطويلـــة غير صوت ضربات فى شىء لدن وصلصلة حديد . ثم ارتفعت اصوات مذعورة صارخة : «نستسلم ، ايها الروس ! . .» .

خلع ايفان ايليتش كسرة من خشب الباب ، فرأى اشخاصا يركضون ، وقد غطوا رؤوسهم بايديهم . واندفع نحوهم فرسان يلقون ظلالا هائلة ، وشقوا طريقهم فى خضمهـــم . . وراحـــوا يجولون . اتجه ثلاثة من المشاة نحو الزريبـــة ، فاندفع فارس

للحاق بهم ، وعباءته تتطاير خلف ظهره ، وفرســه الضخم يشب على رجليه الخلفيتين ثقيلا ناخرا .

كان الفارس يلوح بسيفه كالسكران فاتحا فمه على وسعه . وحين نزل الفرس على رجليه الاماميتين انزل الفارس سيفه بقـوة فصفر فى الهواء ، وانغرس حده فى لوح الباب فانكسر .

صرخ تليغين بصوت جنونى ، وهو يقرع الباب :

- اطلقونى .

اوقف الفارس فرسه .

- من الهاتف ؟

- اسير . ضابط روسى .

- دقيقة .

قذف الفارس مقبض سيفه المكسور ، وانحنى ، وسحب المزلاج . وخرج ايفان ايليتش ، فاذا بالذى اطلقه ، وهو ضابط فى الفرقة الوحشية ، يقول بشىء من التهكم :

- ياله من لقاء !

تطلع ايفان ايليتش اليه ، وقال :

- لا يبدو انى اعرفك .

- انا سابوجكوف سيرغى سيرغييفيتش - وانفجر بقهقهـة حادة ، وقال : لم تكن تتوقعنى ؟ اللعنة ، انها الحرب !

٣٠

سار القطار فى الساعة الاخيرة قبل وصوله الى موسكو مارا ببيوت ريفية مهجورة صافرا صفيرا ممدودا . ودخانـه الابيض يلتف مع اوراق الاشجار الخريفية ، وصفرة اشجـار البتولا الشفافة ، واحراش الحور القرمزية الفواحة برائحة الفطر . واحيانا كانت اغصان القيقب الحمراء العريضة تتدلى على سدة القطار تماما . وحين كانت الاحراش تشف كانت تلوح من خلالهـا هنا وهناك الكرات الزجاجية على احواض الزهـور ، والصفاقات المسمرة فى البيوت الريفية ، والاوراق الساقطة على الممرات والدرجات .

مرت محطة صغيرة كان يقف على رصيفها جنديان يضعان على ظهريهما حقيبتين ، وقد نظرا الى نوافذ القطار بلا اكتراث ، بينما كانت سيدة شابة فى معطف ذى مربعات تجلس حزينة معزولة على مسطبة تخطط رسما بطرف مظلتها على الواح الرصيف المبللة . وبعد المنعطف لاح حاجز خشبى من وراء الاشجار وقد رسمت عليه زجاجة كتب عليها : «فودكا شوستوف المطعمة بالغبيراء لا تضارع» . وانتهت الغابة وظهرت الى اليسار واليمين صفوف طويلة من الكرنب الابيض-الاخضر ، وعند تقاطع الخط الحديدى مع طريق وقفـت خلف الحاجز عربة محملة بالقش ؛ وامراة فى فروة رجالية تمسك مقود حصان نحيل عنيـد . وصار من الممكن الآن ان يلمـح البصر فى الافق البعيد اطراف الابراج المستدقة تحت سحابة طويلة ، وقبة كنيسة «المسيح المخلص» تلمع عاليا فوق المدينة .

كان تليغين يجلس عنـد نافذة العربة مستنشقا هواء ايلول الكثيف ، ورائحة الاوراق والفطر المتفسخ ودخان قش يحرق فى مكان ما ، ورائحة الارض التى مسها الصقيع عند الفجر .

واحس ايفان ايليتش بانه قطع دربا من الآلام امتد سنتين ، ونهايته هنا ، فى ساعة الانتظار الطويلة الرائعة هذه . وقد خمن انه سيضغط فى الساعة الثانية والنصف تماما على زر الجرس فى ذلك الباب الوحيد - وكان يتصوره من خشب البلوط الفاتح فوقه شباكان صغيران - الباب الذى كان سيبلغه ولو كان ميتا .

انتهت حدائق الخضار الملحقة بالبيوت ، وظهرت على جانبى الطريق بيوت الضواحى الصغيرة المبقعة بالوحـــل ، وشوارع مرصوفة رصفا غير متقن تسير عليها عربات مشحونة مكركبة ، واسيجة وراءها حدائق نبتت فيهـا اشجار زيزفون معمرة تفرش اغصانها حتى منتصف الشوارع الجانبية ، ولافتات ملونة ، وسابلة ذاهبون فى شؤونهم التافهة دون ان يلتفتوا الى القطار الهادر وراكبه - ايفان ايليتش - الجالس عند نافذة احدى عرباته ، وفى الاسفل ، سار نحو داخل الشارع ترام صغير كاللعبـة ، وطلعت قبة كنيسة صغيرة من وراء بيت ، ودقت العجلات على المحـولات . واخيرا ، اخيرا - بعد سنتين طويلتين - مر بالنوافذ رصيف محطة موسكو الخشبى . وصعد الى العربات شيـوخ نظاف لا مبالون فى مآزر

بيضاء . اخرج ايفان ايليتش راسه بعيدا وراء النافذة ، وتطلع . من الحماقة انتظار احد ما : انه لم يبلغ عن وصوله .

خرج ايفان ايليتش من المحطة الى ساحة المحطة ، ولم يضبط نفسه فضحك : فقد كان صف طويل من العربات يقف فى الساحة على بعد زهاء خمسين خطوة . وكان السواقون يصرخون من مقاعدهم ملوحين بقفازاتهم :

– انا حاضر ! انا حاضر ! انا حاضر !

– تفضل ، يا حضرة السيد ، على الحصان الفاحم !

– عربتى سريعة ، وبعجلات من مطاط !

وكانت الخيول باعنتها المتوترة تضرب الأرض بحوافرها ، وتحمحم ، وتصهل . وكان الصياح ينتشر فى الساحة كلها . وبدا وكان العربات توشك على اجتياح المحطة .

صعد ايفان ايليتش على عربة عالية جدا ، لها مقعد ضيق . ساله السائق الجميل الصفيق عن العنوان بتساهل لطيف ، ولكى يبهر زبونه جلس بانحراف على مقعده ، ممسكا العنان رخوا بيده اليسرى ، مطلقا حصانه فى عدو سريع . وراحت العجلات المطاطية المنفوخة تنط على حجارة الشارع .

– هل انت قادم من الحرب ، يا حضرة ؟

– هربت من الاسر .

– صحيح ؟ وكيف الحال عندهم ؟ يقولون ليس لهم ما ياكلونه . انت ، يا جدة ، احذرى . عمى بطل وطنى . يهرب الكثيرون من هناك . احذر ، يا صاحب العربة . . . آه ، المغفل ! . . هل تعرف ايفان تريفونيتش ؟

– من هو ؟

– انه فى شارع رازغولاى ، يتاجر بالاقمشة الجوخ ! . . يوم أمس ركب فى عربتى ، دامع العينين . آه ، حكاية ! . . اثرى من الصفقات الحربية ، وهو لا يعرف كيف ينفق فلوسه لكثرتها ، ولكن زوجته هربت مع بولونى قبل يومين ، واصحابنا السواقون نشروا الحادث فى طول موسكو وعرضها . وايفان تريفونيتش الآن لا يجرؤ على الخروج الى الشارع . . . ذلك جزاء نهب الناس . . .

– ارجوك ان تسرع ، يا صاحبى .

حثه ايفان ايليتش رغم ان حصانه السريع العالى كان منطلقا فى شارع جانبى كالريح ، ملقيا راسه الغاضب الى الوراء على عادته القبيحة .

– وصلنا ، يا حضرة السيد ، المدخل الثانى . قف ، يا فاسيا ! . .

القى ايفان ايليتش نظرة سريعة منفعلة على النوافذ الست من بيت ابيض ، حيث تدلت ستائر من الدنتلا وادعة نقية ، وقفز عند المدخل . كان الباب قديما منقوشا محلى براس اسد ، وجرسه غير كهربائى ، من النوع القديم . توقف ايفان ايليتش بضع ثوان ، غير قادر على ان يرفع يده الى الجرس ، وقلبه متباطىء الخفقان موجع . «فى واقع الامر اننى لا اعرف شيئا الآن . فقد يكون البيت خاليا من الناس ، وربما لا يستقبلوننى» . فكر بذلك مع نفسه . وضغط المقبض النحاسى وسمع الجرس يدق فى اعماق البيت . «بالطبع لا يوجد احد فى البيت» . ولكنه سرعان ما سمع وقع خطوات إمراة سريعة . فتلفت مشتت اللب . فراى وجه السائق المرح يغمز له . ثم صلصلت سلسلة ، وانفتح الباب ، واطل وجه وصيفة عليه آثار جدرى قليلة . سعل تليغين وسالها :

– هل تسكن داريا دميتريفنا هنا ؟

ردت الفتاة المجدورة برقة وعذوبة صوت :

– انها فى البيت ، فى البيت ، تفضل . السيدة والآنسة موجودتان فى البيت .

سار ايفان ايليتش كالحالم فى رواق ضيق تنتشر فيه رائحة فراء ، له جدار زجاجى ، وفيه سلال . فتحت الوصيفة الى اليمين بابا ثانيا مبطنا بمشمع اسود ، فوجد ايفان ايليتش نفسه فى ممر صغير علقت فيه معاطف نسائية ، وامام المرآة قفازات ، ومنديل عليه صليب احمر ، ولفاح ازغب . وكانت كل هذه الاشياء البريئة تعبق برائحة خفيفة مالوفة لعطور نسائية مذهلة .

ذهبت الوصيفة لتبلغ عن وصول ضيف دون ان تسال عن اسمه . مس ايفان ايليتش باصابعه اللفاح الازغب ، وخامره شعور مفاجىء بان لا صلة بين هذه الحياة النقية الفاتنة وبينه ، وهو الخارج من الحماة الدامية . سمع صوت الوصيفة آتيا من

اعماق البيت : «يا آنسة ، جاء من يسأل عنك» . اغمض ايفان ايليتش عينيه ، وكأن صاعقة ستنقض عليه من السماء بعد لحظة ، وسمع صوتا عجولا صافيا بث الرجفة من راسه حتى قدميه :

– هل يسأل احد عنى ؟ من ؟

ترددت خطوات فى الحجرات ، جاءت مندفعة من هاوية السنتين من الانتظار . وظهرت داشا عند باب الممر ، وقد سقط عليهـــا ضوء من النوافذ ، وسرت شقرة فى شعرها الناعم . وبدت اعلى قامة ، واكثر نحافة ، وهى فى بلوزة محاكة ، وتنورة زرقاء .

– هل سألت عنى ؟

وتلجلجت ، وارتعش وجهها ، وارتفع حاجباه ، وانفغر فمها ، الا ان ظل الفزع زايل وجهها فى اللحظة التالية ، وتالقت عيناهـــا بالدهشة والفرح .

– اهذا انت ؟

قالتها بصوت لا يكاد يسمع ، وبسطت ذراعيها وطوقت رقبة ايفان ايليتش بانفعال ، وقبلتـــه بشفتين رقيقتين مرتعشتين . ثم ابتعدت عنه :

– ايفان ايليتش ، تعال الى هنا .

وركضت الى غرفة الجلوس وجلست على مقعد ، وطوت جذعها نحو ركبتيها ، وغطت وجهها بيديها .

– بالطبع ، هذا من الحماقة . . .

همست بذلك ، وهى تمسح عينيها بكل جهدها . ووقف ايفان ايليتش امامها . وفجأة امسكت داشا بذراعى المقعد ، ورفعـــت راسها :

– ايفان ايليتش ، هل هربت ؟

– هربت .

– يا ربى وماذا ؟

– وراسا الى هنا .

وجلس فى مقعد قبالتها ، وهو يضم طاقيته بكل قوته . سالت داشا متلعثمة :

– كيف حدث . . . ذلك ؟

– بشكل اعتيادى ، عموما .

– وهل تعرضت للخطر ؟

– نعم . . . اقصد ليس بذاك الخطر .

وتبادلا كلمات اخرى لبرهة اخرى . وبالتدريج اخذ الحياء يستولى عليهما . غضت داشا بصرها ، وسألت :

– منذ زمان وانت فى موسكو ؟

– جئت من محطة القطار راسا .

– سأطلب قهوة الآن . . .

– لا ، لا داعى للكلفة . . . سأذهب الآن الى الفندق .

عندئذ سألت داشا بصوت لا يكاد يسمع :

– هل ستأتى فى المساء ؟

هز ايفان ايليتش راسه بعد ان اطبق شفتيه . وكان يحس بعسر فى تنفسه .

نهض .

– اذن ، انا ذاهب : وسآتى فى المساء .

مدت داشا يدها له ، فتناولها ناعمة قويـــــة ، ومن هذه الملامسة شعر بتوهج ، وتصاعد الدم الى وجهـــه . ضغط على اصابعها ، وسار الى الرواق ، الا انه التفت عند بابه . كانت داشا تقف وظهرها الى النور ، ترمقه من تحت حاجبيها .

– هل من الممكن ان اجىء فى نحو الساعة السابعة ، يا داريا دميترييفنا ؟

هزت راسها بالايجاب . خرج ايفان ايليتش مسرعا من مدخل البيت ، وقال للسائق :

– الى الفندق ، الى فندق جيد ، بل واحسن فندق !

جلس فى العربة متكئا على ظهر مقعدها ، حاشرا يديه فى جيبى معطفه ، وابتسم ابتسامة عريضة . مرت به سريعا ظلال مزرقة – ظلال الناس والاشجار والعربات . وبردت وجهه نسمة قارســـة فواحة بنكهة مدينة روسية . رفع ايفان ايليتش الى انفه كفه التى ما تزال ملتهبة من ملامسة داشا ، وضحك قائلا بينه وبين نفسه : «سحر !»

فى تلك اللحظة كانت داشا تقف عند نافذة فى غرفة الجلوس بعد ان ودعت ايفان ايليتش . كان راسها يطن ، وكانت ، مهما

بذلت من جهد ، لا تستطيع ان تتغلب على الرهبة والانفعال وتفكر بما حدث . اطبقت عينيها بشدة ، واهتت فجـاة ، وركضت الى مخدع اختها .

كانت يكاترينا دميتريفنا تجلس عند النافذة تخيط شيئـا وتفكر . وعندما سمعت خطوات داشا سالتها دون ان ترفع رأسها اليها :

— من كان عندك ، يا داشا ؟

ونظرت كاتيا ، وسرت رعشة فى وجهها .

— هو . . . الا تفهمين ؟ . . هو . . . ايفان ايليتش .

انزلت كاتيا خياطتها ، وبسطت ذراعيها ببطء . وقالت داشا بصوت خافت :

— افهميني ، يا كاتيا . انا لست فرحـة . بل ويتملكني الخوف .

٣١

ما ان هبط الظلام حتى اخذت داشا تجفل عند كل نأمـة ، وتركض الى غرفة الجلوس ، وتتسمع . . فتحت عدة مرات كتابا على صفحة لا تتغير «احبت ماروسيا الشوكالاته التى اشتراها لها زوجها من مخزن كرافت . . .» وفى الغسق البارد اضيئت نافذتان فى بيت الممثلة تشارودييفا المقابل لبيتهم ، واخذت خادمة على راسها طاقية تهيئ المائدة ، ثم ظهرت تشارودييفا نحيلة كالهيكل العظمى وقد القت على كتفيها معطفا مخمليا ، وجلست الى المائدة ، وتثاءبت ، وربما نامت على الاريكـة ، صبت لنفسها حساء ، وغرقت فجاة فى تفكير ، وثبتت عينيهـا الجامدتين فى مزهريـة فيهـا وردة ذابلة . كررت داشا من خلال اسنانها : «احبت ماروسيـا الشوكالاته» . ودق الجرس فجاة . وغاض الدم من قلب داشا ، ولكن الطارق لم يكن الا موزع الصحيفة المسائية . وقالت داشا لنفسها : «لا يأتى» وذهبت الى غرفة الطعام ، حيث كان مصباح واحد يضيىء فوق المفرش الابيض ، وحيث الساعة تتكتك ، وكانت

تشير الى السابعة الا خمس دقائق . جلست داشا الى المائدة ، «وعلى هذا النحو تمضى الحياة ثانية بعد ثانية . . .»

ودق الباب الخارجى مرة أخرى . تقطعت انفاس داشـا ، وهبت واقفة ، وركضت الى الرواق . . . كان القادم حارسا من المستشفى العسكرى جلب رزمة من الورق . وايفان ايليتش لن ياتى بالطبع ، وهو على حق . فقد انتظرته سنتين ، وعند اللقاء لم تجد كلمات مناسبة تقولها له .

اخرجت داشا منديلها ، واخذت تعض طرفه . لقد كانـت تترجس وتعرف ان ذلك سيحدث بالصورة التى حدث بها بالضبط . عامين احبت صورة رجلها الخيالى ، ولما جاءها حيا . . . ذهلت عن امرها .

وقالت داشا لنفسها : «فظاعة ، فظاعة» . ولم تلاحظ الباب يفتح قليلا ، وتظهر ليزا المجدورة .

— يا آنسة ، جاءوا لزيارتك .

زفرت داشا زفرة عميقة ، ومشت الى غرفة الطعام بخفـة ، وكأنما لا تمس الأرض . كانت كاتيا اول من رات داشا ، فابتسمت لها . نهض ايفان ايليتش ، ورمش وانتصب واقفا .

كان يلبس قميصا جديدا من الجوخ ، وحزام عتاد جديـدا القاه على كتف واحدة . وكان حليق الوجه باتقان ، قد حلق شعر راسه لتوه . والآن كان واضحا بشكل خاص ارتفاع قامتـه ، وامتشاقه وسعة كتفيه . وبالطبع ، كان هذا رجلا جديدا اطلاقا . نظرة عينيه الوضاءتين قوية ، وعلى طرفى فمه المستقيم الدقيـق غضنان ، خطان صغيران . . . وجب قلب داشا ، فقد فهمت انهمـا من اثر الموت والفزع والعذاب . كانت يده قوية باردة .

اخذت داشا مقعدا ، وجلست الى جانب تليغين . فوضع هو يديه على الخوان ، وقبضهما ، واخذ يتحدث عن الأسر والهروب من الأسر ، وهو ينظر اليها نظرات سريعة خاطفـة . وكانت هى فى جلستها الشديدة القرب منه تتطلع الى وجهه فاغرة الفم .

واحس ايفان ايليتش وهو يروى وكان صوته يرن من مسافة بعيدة ، وليس بصوته ، وان كيانه كله يهتز منفعلا . والى جانبه تجلس مخلوقة تعجز الكلمات عن وصفها ماسة بثوبها ركبته — فتاة

غير مفهومة مطلقا ، يضوع منها شذى دافئ يدير الرأس .

ظل ايفان ايليتش يتحدث طوال المساء . وكانت داشا تستفهمه وتقاطعه ، وتبسط يديها ، وتلتفت الى اختها :

– كاتيوشا ، هل فهمت ؟ حكموا عليهم بالاعدام رميا بالرصاص !

وحين وصف تليغين الصراع من اجل السيارة ، والثانية الفاصلة عن الموت ، وانطلاق السيارة ، والريح الهابة على الوجه – الحرية والحياة ! – لاح شحوب كثير على وجه داشا ، وامسكت يده وقالت :

– لن ندعك تذهب الى اى مكان بعد الآن !

ضحك تليغين :

– سيستدعوننى ثانية ، ولا مفر من ذلك . وكل ما آمله ان يرسلونى الى مصنع حربى .

وضغط على يدها بحذر .. اخذت داشا تحدق فى عينيه ، وتمعن النظر فيهما ، ولونت خديها حمرة خفيفة . فكت يدها ، وقالت :

– لماذا لا تدخن ؟ ساجلب لك علبة ثقاب .

وخرجت بسرعة ، وعادت فى الحال ومعها علبة ثقاب ، وتوقفت امام ايفان ايليتش ، واخذت تقدح اعواد الثقاب ممسكة اياها من رأسها تماما فتنكسر فى يدها . تلك هى اعواد الثقاب التى تشتريها صاحبتنا ليزا ! واخيرا اشتعل عود ثقاب . رفعته بحذر الى سيكارة ايفان ايليتش فانار ضوؤه حنكها . امتص تليغين انفاسا من سيكارته مقلصا عينيه . ولم يدر بخلده ان من الممكن ان يحس بمثل هذه السعادة من اشعال سيكارة له .

كانت كاتيا طول هذا الوقت تراقب داشا وتليغين صامتة ، وكانت سعيدة كل السعادة لداشا ، ومع ذلك فقد كانت تحس بحزن شديد . ذلك لان فاديم بتروفيتش روتشين لن يغب عن ذاكرتها ابدارغم انها كانت تامل ان تنساه . وقد كان يجلس معهما على المائدة ايضا ، وقد جلبت له ايضا علبة ثقاب ذات مرة ، واشعلت له سيكارته ، دون ان تكسر عود ثقاب واحد .

انصرف تليغين عند منتصف الليل . طوقت داشا اختها ، وقبلتها بقوة ، واغلقت باب غرفتها . اضطجعت على السرير والقت يديها وراء راسها ، وفكرت بانها قد طلعت اخيرا من الركود الكئيب ، ورغم ان كل شىء حولها ما يزال وحشيا فارغا ومرعبا ، الا ان كل هذا زرقة امل ، نفحة من السعادة .

٣٢

تلقى ايفان ايليتش فى اليوم الخامس من وصوله رسالة رسمية من بطرسبورغ تبلغه بالحضور فورا الى مصنع البلطيق .

وقد تعاقب كالحلم الفرح بهذه الرسالة ، وبقية النهار التى قضاها مع داشا بهمومهما فى المدينة ، والوداع السريع فى محطة نيكولايفسكى ، ثم مقصورة الدرجة الثانية بدفئها الجاف ، وطقطقة جهاز التدفئة والظرف الذى عثر عليه فى جيبه فجاة مربوطا بشريط ، وفيه تفاحتان وشوكالاته وكعكات . فك ايفان ايليتش زر ياقة قميصه الجوخ ، ومد رجليه ، ودون ان يستطيع ان يتخلى عن ابتسامته الحمقاء نظر الى الجار الجالس قبالته ، وهو عجوز لا يعرفه ضئيل الجسم صارم الهيئة فى نظارة .

سأل العجوز :

– هل انت خارج من موسكو ؟

– نعم ، من موسكو – ثم تابع مع نفسه :

– ياللرب ، اية كلمة لطيفة عجيبة هى «موسكو» هذه ! . . شوارع صغيرة مغمورة بشمس الخريف ، واوراق جافة تحت الاقدام ، وداشا الخفيفة الهيفاء تسير على هذه الاوراق ، وصوتها الصافى الذكى – وهو لم يفهم اية كلمة منها – والشذى الدائمى لزهور دافئة يشمه حين كان ينحنى نحوها او يقبل يدها .

قال العجوز :

– هرج ومرج وضوضاء فى هذه المدينة . امضيت ثلاثة ايام فى موسكو . . . ورايت ما فيه الكفاية – وباعد بين ساقيه بحذائيهما الطويلين وكالوشين عاليين ، وبصق واكمل : وفى الشوارع تجد اناسا يتراكضون هنا وهناك . . . وفى الليل اضواء وصخب ،

ولافتات ، وكل شيء يدور . . . وزحام الناس . . . جنون !!!
نعم ، هذه هي موسكو . . . بداية الارض . . . بينما لا اجد غير طراد جهنمي مخبول . وانت ، ايها الشاب ، لقد خضت معارك . فهل جرحت ؟ لقد ادركت ذلك من الوهلة الاولى . . . قل لى ، انا العجوز ، أمن المعقول ان دماءنا تسفك هناك فى سبيل هذه الضوضاء اللعينة ؟ اين الوطن ؟ اين الدين ؟ اين القيصر ؟ دلنى . انا مسافر الى بطرسبورغ لاجلب خيوطا . . . ليأخذها الشيطان ! تفو ! . . باى شيء ساعود الى تيومن ؟ بخيوط ؟ . . لا لا اعود بخيوط بل اعود واقول : يا ناس ، نحن هالكون جميعا . هذا ما ساعود به . . . تذكر قولى ، ايها الشاب . اننا سندفع الثمن ، سندفع ثمن كل شيء . . . سيكون علينا ان نحاسب على هذا الجنون .

واسند العجوز يديه على ركبتيه ، ونهض ، وانزل الستارة الصغيرة على النافذة التى كانت تتطاير وراءها فى الظلام شرارات القطار مثل خطوط ضوئية . وتابع العجوز حديثه :

– نسينا الرب فنسانا . . . هذا ما اقوله ، آوه ، سندفع الثمن غاليا جدا . . .

فسأل ايفان ايليتش :

– هل تظن ان الالمان سيغلبوننا ؟

– ومن يعرف ؟ من سيرسله الرب لعقابنا فسنتحمل العذاب منه . . . لنفرض ان الخدم فى حانوتى بداوا يتوقحون . ساتحمل بعض الوقت ، ثم اوجه لاحدهم ضربة على قفاه ، والآخر لطمة على رقبته ، والثالث اطرده شر طردة . . . ولكن روسيا ليست حانوتى ، بل هى استثمارة شاسعة . ان الرب رحيم بالعباد ، ولكن اذا لوّث الناس الطريق اليه وجب تنظيف الطريق ، ام لا ؟ ذلك ما ارمى اليه . . . الرب انصرف عن العالم . . . ولا يمكن ان يوجد ارهب من ذلك . . .

وضع العجوز يديه على بطنه ، واغمض عينيه والتمعت نظارته لمعانا كالحا حين راح يهتز فى ركن رفه الرمادى . خرج ايفان ايليتش من المقصورة ، ووقف عند نافذة فى الممر ووجهه يكاد يلامس زجاجها .

كان يتسرب من الفتحة هواء منعش حاد . ووراء النافذة كانت الخطوط النارية تتطاير فى الظلام ، وتتشابك ، وتسقط على الارض . وبين الحين والآخر كانت تمر سحابة رمادية من الدخان ، وكانت عجلات القطار تقرع مطواعة . وصفرت القاطرة صفيرا ممدودا ، وهى تنعطف فى منعطف ، والقت نار حجرة الوقود فيها ضوءا على القمم المخروطية لاشجار الشوح ، وقد برزت هذه من الظلمة ثم اختفت . وقرقعت محولات الخطوط . واهتزت العربة اهتزازا خفيفا ، وومض قرص اخضر لمصباح ، ومرة اخرى مرت خطوط نارية طويلة بالنوافذ مثل مطر نارى .

وفيما كان ايفان ايليتش يراقبها امتلأ قلبه بكل ما حدث خلال تلك الايام الخمسة غامرا اياه بفرح مفاجىء . ولو كان فى مقدوره ان يكشف هذا الشعور لاحد من الناس لاعتبر مجنونا . ولكن ذلك بالنسبة له ليس غريبا او بعيدا عن العقل ، ان كل شيء فيه واضح كل الوضوح .

واحس بان ملايين وملايين من الناس تعيش فى ظلام الليل ، وتتعذب ، وتموت . الا انها تعيش بالمعنى الرمزى لهذه الكلمة ، وكل ما يحدث على الارض يحدث بهذا المعنى ، وتوهما تقريبا . وهذا التوهم من القوة بحيث لو بذل ايفان ايليتش اى جهد لتغير كل شيء ، وصار مختلفا . وبين هذا التوهم يوجد صميم حى هو ايفان ايليتش ، بقامته المنحنية الآن على النافذة . انه مخلوق محبوب خرج من عالم الظلال ومنطلق وسط المطر النارى فوق العالم المظلم .

واستمر هذا الشعور غير الاعتيادى لحب نفسه بضع ثوان ، وعاد الى المقصورة ، وصعد الى الرف العلوى ، ونظر الى يديه الكبيرتين ، وهو يخلع ثيابه ، وفطن لاول مرة فى حياته بانهما جميلتان . والقاهما خلف راسه ، واغمض عينيه ، وتراءت داشا له فى الحال . كانت تحدق فى عينيه با نفعال وعشق (حدث ذلك اليوم فى غرفة الطعام . لفت داشا بعض الكعك . دار ايفان ايليتش حول المائدة ، وتقدم منها ، وطبع قبلة على كتفها الدافئة . التفتت إلتفاتة سريعة ، فسالها : «داشا ، هل تقبلين ان تكونى زوجتى ؟» فاكتفت بان حدقت فيه .)

اما الآن ، وهو مضطجع على الرف ، يتخيل وجه داشا ، دون ان يشبعه هذا التخيل فقد احس ، ولأول مرة فى حياته ايضا ، بالحبور ، وبنشوة كون داشا تحبه ، تحب الشخص ذا اليدين الكبيرتين الجميلتين .

ذهب ايفان ايليتش الى مصنع البلطيق فى يوم وصوله الى بطرسبورغ ، وعيّن فى احدى الورش ضمن النوبة الليلية .

وكانت تغيرات كثيرة قد حصلت فى المصنع خلال ثلاث سنوات . ازداد عدد العمال ثلاث مرات . كان جزء منهم شبابا ، وجزء آخر نقل من الاورال او من المدن الغربية ، وجزء أخذ من الجيش العامل . وكان العمال يقرأون الصحف ، ويلعنون الحرب ، والقيصر ، والقيصرة ، وراسبوتين ، والجنرالات ، وكانوا ساخطين ، وواثقين جميعا من ان «الثورة ستندلع» بعد الحرب .

وكانوا ساخطين بشكل خاص على خلط الحنطة بالنخالة فى المخابز ، واختفاء اللحم فى الاسواق لعدة ايام متتالية ، واذا وجد فهو منتن ، والبطاطس اضر بها الصقيع ، والسكر نذر ، وعلاوة على ذلك فان الغلاء قد استشرى ، واصحاب الحوانيت ، وهم اغنياء حديثون ومضاربون ، قد اثروا من الصفقات الحربية ، كانوا يشترون علبة الحلوى بخمسين روبلا ، وزجاجة الشمبانيا بمائة روبل ، ولم يريدوا ان يسمعوا ولو كلمة عن الصلح مع الالمان .

اجيز ايفان ايليتش ثلاثة ايام لتدبير شؤونه الخاصة ، فقضى المدة كلها فى التجواب فى ارجاء المدينة بحثا عن شقة . وقد تفقد عشرات البيوت دون ان يعجبه واحد منها . ولكنه فى اليوم الاخير عثر فجأة على ما لاح فى خياله وهو فى عربة القطار : خمس غرف صغيرة ذات نوافذ نظيفة تطل على مغرب الشمس . وكانت هذه الشقة الواقعة فى نهاية جادة كامينواستروفسكى غالية بعض الشيء بالنسبة لايفان ايليتش ، ولكنه استأجرها فى الحال ، وكتب يخبر داشا بذلك .

وذهب الى المصنع فى الليل الرابع . كانت المصابيح مضاءة على الاعمدة العالية فى الفناء المسود من قذارة الفحم ، والدخان

الخارج من المداخن ينزل ساقطا نحو الارض بفعل الرطوبة والريح ، والهواء اصفر ثقيل مشبع بذرات السخام . ومن خلال النوافذ نصف الدائرية الهائلة المغبرة فى مبانى المصنع كان الناظر يرى دوران عدد ضخم من البكرات وسيور النقل ، وحركات اجسام المخارط الحديدية وهى تثقب ، وتخرط ، وتصقل الحديد والبرنز . وكانت الاقراص العمودية لمكابس التخريم تدور . وفى الاعلى كانت مقاصير الرافعات تروح وتجيء فى الظلام . وكانت افران الصهر تتوهج بضوء وردى وابيض ، والمطرقة البخارية الجبارة تهز الارض بضرباتها ، واعمدة اللهب تتصاعد من المداخن الواطئة فى ظلام السماء الرمادية . وكانت اشباح الناس تتحرك وسط هذا الطنين وهدير الآلات . . .

دخل ايفان ايليتش الورشة حيث كان المكابس تعمل صانعة اغلفة قنابل الشرابنيل . طاف المهندس ستروكوف به فى انحاء الورشة شارحا له بعض خصائص العمل الجديدة على ايفان ايليتش . وكان هذا المهندس صاحبا قديما له . ثم دخل معه الى مكتب محجوز بالالواح الخشبية فى ركن من الورشة ، حيث اطلعه على الكتب والسجلات ، وسلّمه المفاتيح ، وقال له وهو يرتدى معطفه :

– نسبة التلف فى الورشة هى ثلاثة وعشرون بالمائة من انتاجها العام . فحاول ان تتمسك بهذه النسبة .

وجد ايفان ايليتش فى هذه الكلمات ، وفى طريقة تسليمه للورشة عدم اكتراث بالعمل . وقد غمه ذلك ، فقد عرف ستروكوف مهندسا ممتازا ورجلا متحمسا فى الماضى . عندئذ سأله :

– اتحسب من غير الممكن التقليل من نسبة التلف ؟

هز ستروكوف رأسه متثائبا ، وسرح طاقيته الى اسفل شعره غير المصفوف ، وعاد الى المخارط مع ايفان ايليتش .

– ابصق على ذلك ، يا صاحبى . ما الذى يهمك فيه ؟ ايهمك اننا سنقتل من الالمان فى الجبهة اقل بنسبة ٢٣ بالمائة ؟ وبالاضافة الى ذلك ليس فى اليد حيلة ، فان الآلات قد استهلكت ، فلتذهب الى الشيطان !

وتوقف عند مكبس ، وضع عامل عجوز قصير الساقين فى

منزر جلدى قطعة حديد محمية الى حد الاحمرار تحت المكبس ، وهبط القالب ، ونفذ ذراع المكبس فى الفولاذ الوردى وكأنه ينفذ فى زبدة ، ويتطاير اللهب ، وارتفع القالب ، وسقط غلاف الشرابنيل على الارض الترابية . وفى الحال تناول العجوز قطعة جديدة . وكان عامل آخر شاب مديد القامة اسود الشاربين منشغلا عند فرن الصهر .قال ستروكوف مخاطبا العامل العجوز :

– اذن ، الاغلفة بالتلف ، يا روبليف ؟

ابتسم العجوز ، وادار لحيته الهزيلة الى جانب ، ونظر الى تليغين نظرة ماكرة بطرف عينيه الضيقتين :

– صحيح بالتلف . انظر كيف يعمل ؟ – ووضع يده على عمود صغير مخضر من الزيت كان قالب المكبس ينزلق عليه . – انه يهتز . كان يجب ان يلقى فى كومة المهملات منذ زمان .

ضحك العامل الشاب الواقف عند فرن الصهر ، وهو فاسيلى بن ايفان روبليف وقال :

– هناك اشياء كثيرة يجب ان تقذف من هنا . الآلة ادركها الصدا .

قال ستروكوف بمرح :

– على مهلك ، يا فاسيلى .

– تلك هى المسألة . . .

وهز فاسيلى رأسه بشعره الأجعد . وظهرت تكشيرة خبيثة واثقة على وجهه النحيل العالى الوجنتين قليلا ذى العينين الثاقبتين الغاضبتين والشاربين الاسودين .

قال ستروكوف لايفان ايليتش بصوت خافض وهو يبتعد :

– انهما احسن العمال فى الورشة . الى اللقاء . ساذهب اليوم الى «الاجراس الحمراء» . الم تذهب الى هناك ؟ كازينو ممتاز ، ويقدمون فيها النبيذ .

بدأ تليغين يهتم بروبليف الاب والابن بفضول . فقد اذهلته فى الحديث الاول ذاك لغة الكلام الرمزية تقريبا ، والبسمات والنظرات التى تبادلها ستروكوف معهما ، وكان الثلاثة كانوا يختبرون

تليغين ليكتشفوا أهو من اصحابهم ام عدو لهم . وقد ادرك من البساطة الخاصة التى تحدث بها روبليف الاب والابن معه فى الايام التالية انهما يعتبرانه «من اصحابهم» .

وهذا الانحياز لم يكن يتعلق ، فى اغلب الظن ، بآراء تليغين السياسية التى كانت غير واضحة وغير محددة ، بل كان يتعلق ، على الاكثر ، بذلك الاحساس بالثقة الذى كان يوحيه وجوده لكل انسان . كان لا يتحدث ولا يقوم بشىء يلفت النظر ، ولكن كان واضحا انه رجل نزيه ، رجل فاضل ، صاف الى النهاية ، انه من اصحابهم .

وفى النوبات الليلية كان ايفان ايليتش اذا دنا من الاب والابن يسمعهما يتجادلان فى الغالب .

كان فاسيلى روبليف رجلا مطلعا لا يفتأ يتحدث عن الصراع الطبقى ودكتاتورية البروليتاريا ، وهو الى ذلك يتحدث بلغة الكتب وبطلاقة . وكان روبليف الاب من اتباع الكنيسة القديمة ، ماكرا وشيخا غير متدين البتة . وكان يقول :

– كل شىء مدون فى كتب الاديرة عندنا فى غابات بيرم : هذه الحرب نفسها ، وكيف ستجلب الخراب ، ستدمر ارضنا كلها ، وكم سيبقى من الناس ؟ سيبقى منهم القليل النزر . . . وعندئذ سيخرج من الغابات ، من احد الاديرة رجل سيحكم الارض ، يحكم بكلمة الله الرهيبة .

فكان فاسيلى يقول :

– التصوف .

– آه ، ايها الأرعن ، الجلف ، اراك تتبجح بالالفاظ . . . تعتبر نفسك اشتراكيا !.. واى اشتراكى انت ! مجرد قوزاقى ريفى ! كنت مثلك ايام زمان . لا يهمه الا ان يتهافت على الامر : فيدفع قبعته الى اذنه ، ويوسع عينيه ، ويصرخ : «انهضوا للنضال . . .» مع من ، ولاى شىء ؟ احمق !

فيقول فاسيلى مشيرا الى ابيه بابهامه :

– اسمع الى العجوز كيف يتحدث . فوضوى متزمت . لا يفقه شيئا من الاشتراكية ، ولكنه لا يكف عن لومى ليعترض على فقط .

قاطعه ايفان روبليف ، وهو يخرج من فرن الصهر قطعة حديد متطايرة الشرر ورسم بها نصف دائرة فى الهواء ووضعها بخفة تحت ذراع المكبس النازل :

— لا ، لا يا سادة . انتم تقراون الكتب ، ولكنكم لا تطالعون الكتب التى ينبغى ان تطالع . والتواضع ليس بشيمة احد منهم ، ولا يفكرون فيه . . . ولا يفهمون ان كل انسان يجب ان يكون فقيرا فى روحه فى زماننا هذا .

— راسك مشوش ، يا ابى . من الذى صاح قبل حين وجيز : انا ثورى ؟

— نعم ، صحت . . . واذا حدث شىء فساكون اول من يمسك بمذراة للقتال . وما الذى يجعلنى اتمسك بالقيصر ؟ انا فلاح . وهل تعرف كم حرثت من الارض خلال ثلاثين عاما ؟ انا ثورى بالطبع . وهل تحسب اننى لا اهتم بخلاص روحى ؟

كان تليغين يكتب لداشا كل يوم . وكان ردها عليه اندر . كانت رسائلها غريبة ، وكانما قد مسها صقيع ، فكان ايفان ايليتش يحس وهو يقراها بقشعريرة خفيفة . وكان فى العادة يجلس الى النافذة معيدا عدة مرات قراءة رسالة داشا المكتوبة بسطور كبيرة مائلة الى الاسفل . ثم كان ينظر الى الغابة الرمادية الليلقية على الجزر ، والى السماء الغائمة الكدرة كماء القناة ، كان ينظر ويفكر بان هذا ما يجب ان تكون عليه رسائل داشا لا بالرقة التى يودها لقصر رويته .

كتبت له :

«صديقى العزيز . تقول انك استاجرت شقة مؤلفة من خمس غرف . ففكر فى النفقات التى ستثقل كاهلك بها . وحتى ان لم تعش فيها وحدك فان خمس غرف كثيرة . ثم انك ستحتاج الى خادمتين ، وهذا فى ايامنا هذه غال للغاية . حل الخريف عندنا فى موسكو ، والجو بارد ، وممطر ، وما من بصيص . . . وعلينا ان ننتظر الربيع . . .»

وعندما ردت بنظرة على سؤاله يوم سفره : هل تقبلين ان

تكونى زوجتى ؟ لم تشر مباشرة فى رسائلها قط الى القران ، ولا الى حياتهما المقبلة معا . كان يجب انتظار الربيع .

وصار انتظار الربيع هذا ، والأمل المبهم اليائس فى حدوث معجزة يراود الجميع الآن . توقفت الحياة ، ودخل كل الاحياء فى سبات الشتاء مثل سبات دب يمص قائمته . وكان يبدو وكان المرء لم تعد له القوة ليتحمل انتظار ربيع دموى آخر الا فى الحلم .

ذات مرة كتبت داشا :

«. . . لم ارد ان اخبرك ولا ان اكتب لك عن وفاة بيسونوف . ولكننى يوم امس حكوا لى تفاصيل عن مقتله المريع . قبل خروجه الى الجبهة بوقت قصير التقيت به فى بولفار تفيرسكوى . كان بائسا جدا ، يبدو لى اننى لو لم اصده آنذاك لما لاقى حتفه . ولكننى صددته . وما كان لى الا افعل ذلك ، وسافعل الشىء نفسه لو اعيد الماضى» .

قضى تليغين نصف يوم فى الرد على هذه الرسالة . . . «كيف يمكن ان تفكرى باننى لا اتقبل كل ما يخصك» كتب ذلك ببطء شديد حريصا على ان تكون كل كلمة صادقة كل الصدق . «احيانا اختبر نفسى فاتصور انك احببت رجلا آخر ، وهذا افظع ما يمكن ان يحدث لى ، وحتى فى هذا الحال ساقبل بذلك . . . ولا يعنى هذا اننى ساخضع لهذا . لا ، فان شمسى ستظلم . . . ولكن هل حبى لك فى الفرح فقط ؟ انا اعرف ذلك الاحساس الذى يراود المحب حين يريد ان يضحى بحياته بسبب حبه القوى . . . والظاهر ان بيسونوف احس بذلك الاحساس ، حين خرج الى الجبهة ... وانت ، ياداشا ، يجب ان تشعرى بأن لك مطلق الحرية ... وانا لا اسالك شيئا ، حتى الحب . . . وقد ادركت ذلك فى المدة الاخيرة . . .» .

بعد يومين غادر ايفان ايليتش المصنع عند الفجر عائدا الى البيت ، ولدى وصوله اخذ حماما ، واستلقى فى السرير ، ولكنه اوقظ بعد قليل ، وسلم برقية :

«كل شىء بخير . احبك بشدة . داشاك» .

وفى يوم من ايام الآحاد جاء المهندس ستروكوف الى ايفان ايليتش ، واخذه الى كازينو «الاجراس الحمراء» .

كان الكازينو يحتل قبوا رسمت على سقفه المقوس وعلى

جدرانه طيور مبرقشة ، واطفال ذوى وجوه صغيرة منحلة وجعدات كثيرة الدلالة . كان الكازينو صاخبا وكثير الدخان . وعلى المسرح جلس رجل ضئيل الجسم اصلع محمر الخدين يضرب على البيانو . وكان بعض الضباط يشربون «كروشون» * قويا ، ويطلقـــون الملاحظات بصوت عال على النساء الداخلات . وبعض المحـــامين المولعين بالفن يصرخون ويتجادلون . وكانت ملكة القبو ، الحسناء السوداء الشعر المنتفخة العينين تقهقه بصوت عال . بينمـــا كان انتوشكا ارنولدوف يكتب رسالة من الجبهة ، وهو يلوى خصلـة شعره . وكان مؤسس المستقبلية – وهو طبيب بيطرى مشـــوه الوجه مسلول المظهر – يهوم متدلى الراس من السكر على منصـة قرب الحائط . وكان صاحب القبو – وهو ممثل سابق طويل الشعر وديع عليه خمول الادمان على الخمرة – يظهر بين الحين والآخر عند باب جانبى ناظرا الى الزبائن بعينين مخبولتين ويختفى .

انتشى ستروكوف من «الكروشون» فقـــال يحدث ايفـــان ايليتش :

– اتدرى لماذا احب هذا الكازينو ؟ لأنك لن تستطيـع ان تجد مثل هذا التعفن فى مكان آخر . متعة ! . . انظر ، الى تلـك الزاوية ، هناك تجلس إمراة نحيفة مخيفة لا تستطيع حتى ان تحرك جسمها . هستيريا فى آخر مراحلها ، ولكنها تحظى بنجاح خارق .

وضحك ستروكوف ، وعبّ من «الكروشون» واخذ ، دون ان يمسح شفتيـه الناعمتين المظللتين بشارب تترى ، يسمى لايفان ايليتش اسماء الجُلاّس مشيرا باصبعه الى وجوههم المؤرقة السقيمة الشبيهة بوجوه المجانين .

– هؤلاء آخر الموهيقان ** . . . بقايا الصالونات الجمالية . باه ! عفن . باه ! وقد تقوقعوا عنا ، يتظاهرون بانه لا توجـد حرب ، وان كل شيء كما هو فى الماضى .

---

* مزيج لعدة انواع من النبيذ الابيض والكونيـــاك والروم . (المترجم) .

** قبيلــة منقرضــة من الزنوج الحمر فى امريكـــا الشماليــة . (المترجم) .

اخذ تليغين يتسمع وينظر . . . وكان كل شيء يبدو لعينيه كالحلم بسبب الحر والدخان والنبيذ ، وكان راسه يدور . . . رأى بعض الاشخاص يلتفتون الى باب المدخل ، والطبيب البيطرى يفتح عينيه المصفرتين ، ووجه صاحب الكازينو المخبـــول يبرز من وراء الحائط ، والمرأة شبه الميتة الجالسة الى ناحية من ايفان ايليتش ترفع جفنيه الناعسين ، وترتد الحياة الى عينيها فجأة ، وتستقيم قامتها بحيوية غريبة وهى تنظر الى حيث كان الجميع ينظرون . . . وران سكون مباغت فى القبو ، ورن قدح عند سقوطه . . .

كان رجل كهل متوسط الطول يقف فى باب المدخل وقد دفـع كتفيه الى الامام ، وحشر يديه فى جيبى ردائه الجوخى . كان وجهه الضيق بلحيته السوداء المتدلية يبتسم مرحا بغضنيـــه العميقين المالوفين ، وشعت فى وجهه عينان ذكيتان نفاذتان متفحصتـــــان ملتهبتان بلون رمادى . وقد استمر ذلك دقيقة . ومن ظلام الباب اقترب منه وجه آخر – وجه موظف – ارتسمت عليه بسمة مقلقة ، وهمس له شيئا فى اذنه . غضّ الرجل انفه الكبير كارها :

– مرة اخرى انت وسخافتك . . . آه ، كم سئمت .

والقى نظرة اخرى الى رواد القبو بمرح اشد ، وهز لحيته ، وقال بصوت عال ممدود :

– وداعا ، يا اصدقائى المرحين .

واختفى فى الحال ، وصفق الباب . وسرى طنين فى انحـــاء القبو كله . غرز ستروكوف اظافره فى يد ايفان ايليتش ، وقـــال لاهث الانفاس :

– هل رأيت ؟ رايت . . . هذا راسبوتين .

٣٣

خرج ايفان ايليتش من المصنع ماشيا فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . كانت ليلة قارسة من ليالى كانون الاول ، ولـــم يصادف عربة ليستاجرها ، فقد اصبح الآن من الصعب الحصول على واحدة منها فى مثل هذه الساعة حتى فى مركز المدينة . سار تليغين بسرعة فى وسط الشارع المقفر ، متنفسا البخار فى ياقته المرفوعة .

كان الهواء كله يبدو فى ضوء المصابيح النادرة منقبا بابر الجمد ، وكان الثلج يخشخش تحت قدميه بصوت عال . والى الامام لمحت عيناه ومضات ضاربة الى الحمرة تتراقص فى الواجهة الصفراء المسطحة لاحد البيوت . استدار تليغين فى منعطف ، وراى لهب نار فى مجمرة مشبكة ، وشخوصا متثلجة متدثرة وسط سحب من البخار . والى مسافة ابعد على الرصيف وقف زهاء مائة شخص بلا حراك فى صف واحد من النساء والشيوخ والغلمان . انه طابور يقف قرب حانوت لبيع الاغذية . وعلى مقربة كان الحارس الليلى يطبطب بحذائه اللبادى ، ويضرب قفازيه احدهما بالآخر .

سار ايفان ايليتش بمحاذاة الطابور ناظرا الى الشخوص المنكمشة الملتصقة على الحائط ، الملتفة بالمناديل ، والبطانيات . وسمع صوتا يقول :

– يوم امس حطموا ثلاثة حوانيت فى منطقة فيبورغسكايا .

– هذا ما يبقى .

– يوم امس حطموا ثلاثة حوانيت فى منطقة فيبورغسكايا . يكون هناك كيروسين بعد الآن . وبينما انا هناك جاءت طباخة آل ديمينتيف ، واخذت خمس زجاجات بسعر فاحش .

– بكم ؟

– الزجاجة بروبلين ونصف ، يا فتاتى .

– الكيروسين ؟

– لن يفلت صاحب الحانوت من العقاب . سنتذكره اذا دقت الساعة .

– قالت اختى فى اوختا ان الناس امسكوا صاحب حانوت من هذا الصنف ، وحشروا راسه فى برميل مملوء بالماء المخلل وغرق فيه وهو يتوسل اليهم ان ينقذوه .

– لم يعاقبوه بما فيه الكفاية ، يجب ان يعذب اكثر .

– ونحن نتجمد فى الطابور .

– وهو ينتفخ بالشاى .

سال صوت مبحوح :

– من الذى ينتفخ بالشاى ؟

– كلهم ينتفخون بالشاى . زوجة الجنرال التى اخدم عندها

تنهض فى الساعة الثانية عشرة ، وتظل تشرب الشاى حتى الليل ، ولا اعرف كيف لا تنفجر هذه البلهاء .

– وتجمد انت ، وامرض بالسل .

– قولك صحيح تماما ، عندى سعال بالفعل .

– اما الفتاة التى اخدم عندها ، يا اعزائى ، فهى محظية . اعود من السوق فاجد الضيوف يملؤون غرفة الطعام فى بيتها ، وجميعهم سكارى . وفى الحال يطالبون بالبيض المقلى ، والخبز والفودكا ، وباختصار بطعام بسيط ومشروب قوى .

وارتفع صوت واثق :

– ينفقون النقود الانجليزية فى شرب الخمرة .

– ما هذا الذى تقوله ؟

– باعوا كل شىء . صدقونى ، فانا اعرف ما اقول . انتم تقفون هنا ، ولا تعرفون شيئا ، بينما هم باعوكم جميعا ولمدة خمسين عاما مقدما . كما باعوا الجيش كله .

– يا إلهى !

ومرة اخرى ارتفع صوت مبحوح ينادى :

– يا حضرة الحارس ، يا حضرة الحارس !

– ماذا حصل ؟

– هل سيباع الملح اليوم ؟

– على اكثر الاحتمالات لا يباع الملح اليوم .

– آه ، الملاعين .

– منذ خمسة ايام والملح غير موجود .

– الاوغاد يمتصون دم الشعب .

قال الحارس بصوت عالى النبرة كثيف :

– كفى كلاما ، يا نساء ، والا فان الحنجرة ستصاب بالبرد .

وخلف تليغين الطابور وراءه . وهدا لغط الاصوات الغاضب ، ومن جديد خيّم القفر والظلام الزمهريرى .

وصل ايفان ايليتش الى الكورنيش ، واستدار الى الجسر ، وحين عبثت الريح باطراف معطفه تذكر ان عليه ان يبحث عن عربة ، على اية حال ، الا انه سرعان ما نسى ذلك . كانت عيون

المصابيح تتوامض على الشاطئ الآخر باهتة لا يكاد البصر يلمحها . وكانت الالتماعات الخافتة من ممر المشاة عبر النهر تنعكس خطا مائلا على الجليد . وكان المتسع العريض المقفر المظلم لنهر النيفا نهبة لريح قارسة تحدث عويلا بالثلج ، وصفيرا شاكيا فى اسلاك خطوط الترام ، وفى فتحات درابزين الجسر الحديدى .

كان ايفان ايليتش يتوقف من حين لآخر ، ويحدق فى تلك القمة الموحشة ، ثم يواصل سيره ، ويفكر ، كدابه الآن فى التفكير فى اتجاه واحد : فى داشا ، وفى نفسه ، وفى تلك اللحظة التى راودته السعادة كالنار ، وهو فى عربة القطار .

كان كل شىء يكتنفه الآن مبهما مضطربا متناقضا معاديا لتلك السعادة . وكان يضطر فى كل مرة ان يبذل جهدا ليقول لنفسه : اننى حى ، سعيد ، وستكون حياتى منيرة رائعة . لقد كان من السهل ان يقول هذا الكلام حين كان عند النافذة وسط شرارات القطار المنطلق ، بينما صار الآن يحتاج الى جهد هائل ليفصل نفسه عن تلك الشخوص المتجمدة تقريبا فى طوابير الانتظار ، عن الوحشة المميتة للريح المعولة فى كانون الاول ، عن الشعور بالخسارة العامة ، والهلاك المعلق فوق الرؤوس .

كان ايفان ايليتش واثقا من شىء واحد : كان يجد خيرا فى اشياء جمة : فى حبه لداشا وفى فتنة داشا ، وفى ذلك الاحساس السار الذى راوده وهو واقف آنذاك عند نافذة العربة وفى حب داشا له . ان معبد الحياة المريح العريق ، المكتظ ربما ، والرائع رغم ذلك ، قد اهتز ، وتصدع بضربات الحرب ، وتمايلت اعمدته ، وظهر صدع على عرض قبته ، وتساقطت الحجارة القديمة ، وهناك وسط الغبار المتطاير ، وهدير المعبد المحطم شخصان : ايفان ايليتش وداشا ، كانا وهما فى حميا الحب البهيجة ، ورغم كل شىء ، يطمحان فى ان يكونا سعيدين . فهل ذلك صحيح ؟

فكر ايفان ايليتش ، وهو يمد بصره فى الظلمة الليلية الموحشة ، ونقاط الاضواء المتوامضة ، ويسمع الريح تصفر كنواح يمزق القلب : «لماذا اغالط نفسى ؟ ان الرغبة فى السعادة اسمى الاشياء . وانا راغب فيها ، وليكن ذلك بالرغم من كل شىء ،

فهل استطيع انا القضاء على الطوابير امام الحوانيت ، واطعام الجياع ، وايقاف الحرب ؟ لا . ولكن اذا كنت لا استطيع فهل يتحتم على ايضا ان اتلاشى فى هذا الديجور ، وارفض السعادة ؟ لا ، ليس حتما . ولكن هل استطيع ان اكون سعيدا ؟ هل ساكون سعيدا ؟ . .»

قطع ايفان ايليتش الجسر . وسار على شارع الكورنيش دون ان يلاحظ الطريق الذى يسلكه . كانت المصابيح الكهربائية العالية المهتزة بفعل الريح ترسل ضوءا ساطعا . وكان رذاذ الثلج يتناثر على الرصيف العالى بهسهسة جافة . كانت نوافذ قصر الشتاء مظلمة خاوية . عند كشك الحراسة المخطط فى الثلج المكوم وقف حارس عملاق مرتديا فروة خروف ، ضاغطا البندقية على صدره .

كف ايفان ايليتش عن السير فجاة ، وتطلع الى النوافذ ، ثم حث خطاه مصارعا الريح فى بادىء الامر ، ثم مدفوعا بها من ظهره . وبدا له انه يستطيع الآن ان يقول للجميع ، لكل الناس قاطبة ، حقيقة بسيطة واضحة ، فيصدقون بها جميعا . يستطيع ان يقول لهم : «انتم ترون ان المضى فى العيش على هذه الطريقة مستحيل . الدول قائمة على البغضاء ، والحدود مخططة بالبغضاء . وكل واحد منكم كتلة من البغضاء ، قلعة مصوبة مدافعها الى كل الجهات والدنيا مكتظة ورهيبة ، والعالم كله مختنق بالكراهية والناس يفتك بعضهم ببعض ، وتسيل انهار الدم . الم يكفكم هذا ؟ الم تدركوا بعد ؟ اتريدون ان يقضى الانسان على الانسان ، هنا ايضا ، فى كل بيت ؟ ثوبوا الى رشدكم ، والقوا السلاح ، وحطموا الحدود ، وافتحوا ابواب الحياة ونوافذها . . . هناك الكثير من الارض للحبوب ، والكثير من المروج للماشية ، والكثير من المنحدرات للكروم . . . وبطون الارض لا تنضب ، ولكل انسان متسع من الارض . . . أمن المعقول انكم لا ترون انكم ما تزالون فى ظلام القرون الغابرة . . .»

لم تظهر عربة فى هذه الناحية من المدينة . عبر ايفان ايليتش النيفا ثانية ، وتوغل فى الشوارع الصغيرة الملتوية فى منطقة بطرسبورغسكايا . واصل طريقه وهو غارق تفكيره ومناجاة

نفســـه بصوت مسموع ، فطـــاف على غير هدى فى شوارع مقفرة مهلهلة الظلمة حتى خرج الى كورنيش لقناة .

«يالها من نزهة !» وتوقف ايفان ايليتش ملتقطا انفاسه ، وضحك ، ونظر فى ساعته . وكانت فى تمام الخامسة . خرجت من منعطف قريب سيارة كبيرة مكشوفة منطفئة المصابيح يهس الثلج تحت عجلاتها يسوقها ضابط فى معطف عسكرى مفتوح الازرار . كان وجه الضابط الضيق الحليق شاحبا ، وعيناه جامدتين ، مثل عيون المفرطين فى المسكر ، والى الخلف منـــه جلس ضابط آخر سرح قبعته على علبائه ، ولم يكن وجهه مرئيا لتليغين ، فقد كان يمسك بكلتا يديه لفة ملفوفة بحصيرة . وكان ثالث ركاب السيـــارة فى ملابس مدنية يرفع ياقة معطفه ويضع على راسه قبعة عالية مـــن فرو عجول البحر . رفع جسمه قليلا ، وامسك بكتف السائـــق . توقفت السيارة غير بعيد عن القنطرة . ورأى ايفان ايليتش الثلاثة يقفزون منها الى الثلج ، ويخرجون اللفة ، ويسحبونها لعـــدة خطوات على الثلج ثم يدفعونها بجهد ، ويوصلونها الى منتصـــف القنطرة ويحملونها فوق درابزين القنطرة ، ويسقطونها فى الماء . عاد الضابطان الى السيارة فى الحال ، بينما انحنى المدنى لبعض الوقت مادا بصره الى الاسفل ، ثم انزل ياقته ، وركض لاحقـــا برفيقيه . وانطلقت السيارة باقصى سرعتها ، واختفت .

تمتم ايفان ايليتش فى سره : «اوه ، يـــا للقذارة» . فكان طوال هذا الوقت واقفا حابسا انفاسه . سار الى القنطرة ، ولكنه مهما امعن النظر لم يلتقط بصره شيئا فى الثغرة السوداء الكبيرة فى الجليد تحت الجسر . لا شىء غير بقبقة الماء الدافىء المنتن مـن انبوب تصريف المياه .

«اوه يا للقذارة» – تمتم ايفان ايليتش ثانية وتعبس ، وسار على الرصيف المحاذى للقناة . حصل اخيرا فى زاوية الشارع على زلاجة يجرها حصان غليظ الشفتين ، كان سائق الزلاجة العجوز منكمشا متخشبا من البرد . وحين صعد ايفان ايليتش الى الزلاجة وشد الدثار المتجمد واغمض عينيه ، كان كل جسمه يئن من التعب . وفكر مع نفسه : «انا محب ، وتلك هى الحقيقة . ومهمـــا فعلت ، واذا بدافع الحب هذا ، فهو جيد» .

٢٤

كانت اللفة الملفوفة بحصيرة ، والتى القاها الثلاثة من القنطرة فى ثغرة الجليد تحتوى على جثة راسبوتين القتيل . وقد اقتضى قتل هذا الرجل القوى الذى كان يملك حيوية لاانسانية ان يسقى نبيذا مخلوطا بسيانيد البوتاسيوم ثم يطلق عليه الرصاص فى صدره وظهره وقفاه ، ثم يهشم راسه بوصلة مفصلية . ومع ذلك فحين عثر على جثته ، واخرجت من ثغرة الجليد قرر الطبيب ان راسبوتين لم يلفظ نفسه الاخيرة الا تحت الجليد .

كان هذا القتل بمثابة اباحة لكل ما كان قد بدأ بعد شهرين . وقد قال راسبوتين غير مرة ان العرش سينهار بموته ، وتسقط سلالة رومانوف الحاكمة . والظاهر ان هذا الرجل الوحشى الضارى كان يملك حاسية غامضة لتشوف المحنة ، على غرار الحاسية التى تملكها الكلاب قبيل حلول وفاة فى البيت ، وقد مات ، بصعوبة شديدة ، آخر حماة العرش ، الفلاح وسارق الخيول ، والغـــول المتعصب .

وبموته خيم جزع مشؤوم على القصر ، بينما عمت البهجـــة ارجاء البلاد ، وراح الناس يهنىء بعضهم بعضا . وكتب نيقولاى ايفانوفيتش الى كاتيا من مينسك : «فى ليلة وصول النبأ اوصى ضباط هيئة الاركان للقائد الأعلى على ثمانى دوزينة من الشمبانيا للمائدة المشتركة . وردد الجنود فى الجبهة كلهـــا هتافـــات التهليل . . .»

وبعد عدة ايام نسى الناس فى روسيا مقتل راسبوتين الا ان القصر لم ينس . فقد كان اهلـــه يؤمنون بنبوءتـــه ، واستعدوا لمواجهة الثورة بياس منحوس . فقسمت بتروغراد سريا الى اقسام ، وطلبت الرشاشات من كبير الأمراء سيرغى ميخائيلوفيتش ، ولما رفض تسليمها طلبوها من ارخانغلسك ، وخزنت اربعمائة وعشرون رشاشة فى عليات البيوت ومفارق الشوارع . وزيد الضغط على الصحافة ، وكانت الصحف تصدر وفيها اعمدة غير مكتوبة . وكتبت الامبراطورة الى زوجها رسائل مفعمة باليأس ساعية الى ان تثير فيه العزيمة وصلابة النفس . الا ان القيصر ظل قابعا كالمسحور فى موغيليف

وسط العشرة ملايين من المقاتلين الموالين له – وكان لا يشك فى ولائهم . ولم تكن النســـاء المتمردات ، واللغط فى الطوابير على الطعام فى بتروغراد يهمه اكثر مما كان تهمه جيوش الامبراطوريات الثلاث الضاغطة على الجبهة الروسية . وفى ذلك الوقت وخفية عن القيصر كان الجنرال الكسييف رئيس هيئة الاركان للقائد الاعلى يعد الخطط فى موغيليف لاعتقال القيصرة ، والقضاء على الكتلة الالمانية فى البلاط .

فى كانون الثانى وُقّع على قرار الهجوم فى الجبهة الشمالية توقعا للحملة الربيعية . وبدأت المعركة قرب ريغا فى ليلـــــة زمهريرية . وارتفعت عاصفة ثلجية مع اطلاق نيران المدفعيـــة . وزحف الجنود فى الثلج العميق وسط عويل العاصفة الثلجية ، ولهب القذائف المنفجرة بغزارة . واشتركت عشرات الطائرات فى المعركة لمساندة الوحدات المهاجمة فجرفتها الريح نحو الارض ، وفى ظلام العاصفة الثلجية راحت تصب نيران رشاشتها على القوات المعادية والقوات الروسية دون تمييز . لقد كانت روسيا تحاول للمرة الاخيرة تحطيم الطوق الحديدى المطبق عليها ، وللمرة الاخيرة كان الفلاحون الروس المرتدون البدلات المموهة البيضاء والريح تدفعهم من ظهورهم يقاتلون فى سبيل الامبراطورية التى كانت تحتل سدس العالم ، وفى سبيل الحكم المطلق الذى استطاع ذات مرة ان يبنى دولة كبرى ويهدد العالم ، والذى لم يعد الآن غير اثر مـــن آثار الماضى كان يجب ان يقبر منذ زمان ، وسخافة تاريخية ، ومرضا مميتا للبلاد كلها .

واستمرت المعركة الضروس عشرة ايام ، وتناثرت آلاف الجثث تحت اكوام الثلج . واوقف الهجوم وجمد . وخمدت الجبهـة فى الثلوج .

٣٥

كان ايفان ايليتش قد نوى السفر الى موسكو فى عيد الميلاد ، الا انه بدلا من ذلك اوفد من قبل المصنع الى السويد ، ولم يعد منها الا فى شباط ؛ ولدى وصوله استطاع ان يحصل على اجازة لمـــدة

ثلاثة اسابيع ، وابرق لداشا بانه سيغادر فى السادس والعشرين من الشهر .

وكان عليه قبل السفر ان يعمل اسبوعا كاملا فى الورش . وقد ادهشته التغيرات التى حدثت خلال غيابه : اضحت ادارة المصنع لينة الجانب بادية الاهتمام على غير عادتها ، بينما بلغ الحنق عند العمال حدا كان يخيل اليك معه ان احدهم سيقذف مفتاح الربط على الارض فى اللحظة التالية ، ويصرخ : «اتركوا العمل ، واخرجوا الى الشارع . . .»

وقد اثارتهم فى هذه الايام بشكل خاص محاضر مجلس دوما الدولة حيث كانت تجرى المناقشات حول قضية الطعام . وكان واضحا جدا من تلك المحاضر ان الحكومة التى كانت تحافظ بالكاد على رباطة جاشها وكرامتها تبذل آخر قواها لتقف امام الهجوم ، وان الوزراء القيصريين لم يعودوا يتحدثون كالعمالقة الاسطوريين ، بل بلغة البشر ، وان اقوال الوزراء وما يقـــال فى الدوما مناف للحقيقة ، بينما الحقيقة هى على السنة الجميع : شائعات مشؤومة غامضة عن هلاك شامل موشك الوقوع فى الجبهة والمؤخرة بسبب المجاعة والخراب .

اثناء العمل الاخير لاحظ ايفان ايليتش قلقـــا غير اعتيادى عند العمال . فقد كانوا يتركون المخارط باستمرار ويتشاورون . والظاهر انهم ينتظرون اخبارا معينة . وعندما سأل فاسيلى روبليف فيم يتشاور العمال ، القى فاسيلى سترته المبطنة على كتفه بحنق ، وخرج من الورشة ، وصفق الباب . وقال ايفان روبليف :

– صار فاسيلى سيىء الطبع بشكل فظيع . وقد حصل على مسدس من مكان ما ، وهو يحمله معه .

الا ان فاسيلى عاد بعد وقت قصير ، واحاط به العمـــال فى اقصى الورشة وتقاطروا من جميع المخارط . واخذ فاسيلى يقرأ ورقـــة بيضاء بصوت عال وبتشديد على المقاطع : «بيان قائد قوات منطقة بطرسبورغ الفريق خابالوف . فى الايام الاخيرة كان توزيع الطحين على المخابز ، وخبز الخبز يجريان بنفس الكمية المعتادة مـــن قبل . . .»

واذا بالاصوات تتعالى :

– كذب ، كذب . انهم لا يبيعون الخبز منذ ثلاثة ايام . . .
– «ولا يمكن ان يوجد نقص فى بيع الخبز . . .»
– امر وتصرف ؟
– «واذا كان هناك نقص فى الخبز لدى بعض الحوانيت فان ذلك راجع الى ان الكثيرين راحوا ، تخوفا من نقص فيه ، يشترونه لصنع البقسماط . . .»
وزعق صوت :
– ومن يصنع البقسماط ؟ عسى ان يختنق به .
وصاح فاسيلى بصوت اعلى :
– اسكتوا ، يارفاق . يجب ان نخرج الى الشارع ، يارفاق . . . هناك اربعة آلاف عامل من مصنع اوبوخوفسكى يزحفون على جادة نيفسكى . . . وهناك عمال آخرون قادمون من منطقة فيبورغسكايا . . .
– صحيح ! ليرونا الخبز !
– لن يروكم الخبز ، يارفاق . لا يوجد فى المدينة من الطحين الا ما يكفى لثلاثة ايام ، وبعدها لن يكون هناك لا خبز ولا طحين . القطارات كلها متوقفة وراء الاورال . . . وهناك السايلوات مملوءة بالقمح . . . وفى تشيليابينسك كميات هائلة من اللحوم تتعفن فى محطة القطار . وفى سيبيريا يشحمون العجلات بالزبدة . . .
وهدرت الورشة كلها ، ورفع فاسيلى ذراعه قائلا :
– ايها الرفاق ، لا احد يعطينا الخبز اذا لم ناخذه نحن بايدينا . . . لنخرج مع عمال المصانع الاخرى الى الشارع تحت شعار : «كل السلطة للسوفييتات» . . .
فهتف العمال متراكضين فى الورشة :
– اوقفوا المخارط ! . . اتركوا العمل ! . . اطفئوا افران الصهر ! . .
تقدم فاسيلى روبليف من ايفان ايليتش ، وكان شارباه يرتجفان . وقال بلهجة واضحة :
– انصرف ، انصرف قبل ان تتاذى !
نام ايفان ايليتش بقية تلك الليلة نوما سيئا ، واستيقظ قلقا . كان الصباح غائما وكانت قطرات الماء تتساقط على الافريز

الحديدى فى الخارج . . . بقى ايفان ايليتش مستلقيا يستجمع افكاره . لا ، لم يزايله القلق ، والقطرات تثير اعصابه ، وكانها تسقط فى داخل دماغه . «لا حاجة الى الانتظار حتى السادس والعشرين ، بل يجب ان اسافر غدا» . فكر على هذا النحو وخلع قميصه . ومشى الى الحمام عاريا ، وفتح الدش ، ووقف تحت الرشاش اللاذع البرودة .
كان لديه الكثير من المشاغل قبل السفر . فشرب قهوته على عجل ، وخرج الى الشارع ، وقفز الى ترام غاص بالناس . وهنا ايضا احس باضطراب . كان الركاب يجلسون صامتين متجهمين على عادتهم طاوين ارجلهم ، منتزعين اطراف ثيابهم من تحت من يشاركونهم المقاعد ، كانت ارضية الترام لزجة ، وقطرات الماء تتساقط على نوافذه ، والجرس بالقرب من سائق الترام يدق مثيرا للاعصاب . وكان يجلس قبالته موظف عسكرى له وجه اصفر منتفخ قليلا ، وقد جمدت ابتسامة معوجة على فمه الحليق ، وكانت عيناه تنظران بتساؤل وبحيوية لا تتميزان بهما على ما يبدو . وحين امعن ايفان ايليتش النظر لاحظ ان جميع الركاب ينظر بعضهم الى بعض بنفس النظرة المتسائلة الحيرى .
توقف الترام عند زاوية جادة بولشوى . وتململ الركاب ، واخذوا يجيلون ابصارهم ، وقفز بعضهم من الترام . نزع سائق الترام مفتاح التدوير ، ووضعه فى صدر معطفه الفرائى الازرق ، وفتح الباب الامامى قليلا ، وقال بانفعال غاضب :
– الترام سيتوقف عند هذا الحد .
كانت عربات الترام تقف فى جادة كامينواستروفسكوى ، وجادة بولشوى كلها على امتداد البصر . وكان جمهور من الناس يتحرك على الارصفة كبقع سوداء . وبين الحين والآخر كانت تهبط الصفاقة الحديدية على نافذة احد الحوانيت محدثة دويا . وتساقط ثلج رطب .
صعد على سطح احدى عربات الترام رجل ذو معطف طويل مفتوح ، وانتزع طاقيته ، وراح يصرخ بشىء على ما يبدو . وتعالى بين الجمهور و–و–و– . . . اخذ الرجل يربط حبلا بسطح الترام ، وانتصب ثانية ، وانتزع طاقيته مرة اخرى . وتعالى مرة

اخرى فى الحشد و — و — و ! تقفز الرجـل الى الرصيف . وماج الحشد متراجعا . وعندئذ تجلت للعين جمهرة كثيفة من الناس تجر الحبل الذى ربط بعربة الترام منزلقة على الثلج الاصفر القذر . وبدأت العربة تجنح الى جانب . وتراجع الناس ، وصفر الصبيان . الا ان العربة ترنحت ثم عادت الى وضعها السابق ، وارتفع صوت انطباق عجلاتها على السكة . عندئذ انضـم الى الساحبين اناس تقاطروا من مختلف الجهات ، وامسكوا بالحبل باهتمام وصمت ، وجنحت العربة مرة اخرى ، وانقلبت فجاة وتهشم زجاج نوافذها . تقدم الناس نحو العربة المقلوبة ، وهم ما زالوا على صمتهم .

— واختلط الحابل بالنابل !

سمع ايفان ايليتش ذلك الموظف العسكرى ذا الوجـه الاصفر المنتفخ يقول هذه الجملة من ورائه . وارتفعت فى الحال عدة اصوات متنافرة ممطوطة :

سقطتم صرعى فى النضال الحاسم . . .

ورأى ايفان ايليتش فى طريقه الى جادة نيفسكى نفس النظرات الحائرة والوجوه المضطربة . كان المستمعون المتعطشون يلتفون حول رواة الاخبار مثل دوامات صغيرة . وعند مداخل البيوت وقف بوابون ممتلئو الاجسام . واطلت خادمة بوجهها تنظر فى الشارع . كان سيد ذو لحية معتنى بها يرتدى معطفا مبطنا بالفراء مفتوح الازرار ، ويحمل محفظة يسأل الكناس :

— قل لى ، ياصاحبى ، ما هذا الحشد هناك ؟ ماذا يحدث هناك ؟

— يطالبون بالخبز ، ايها السيد ، ويتمردون .

— واضح !

وعند مفترق الطريق وقفت سيدة شاحبة تحمل كلبا نحيلا راعشـا رجلاه الخلفيتان متدليتان مرتعشتان وكانت هذه السيدة تسأل كل من مر بها :

— ما هذا الحشد ؟ . ماذا يريدون ؟

هتف السيد ذو المعطف المبطن بالفراء مرحا ، وهو يمـر بها :

— فى الجو رائحة ثورة ، ايتها السيدة .

سار عامل على الرصيف وطرفا سترتـه من فراء الخروف يخفقان بشدة ، واختلج وجهه السقيم . التفت فجاة وصرخ بصوت متقطع باك :

— يارفاق ، هل سيظلون يشربون دمنا زمنا طويلا ؟ . .

اوقف ضابط ممتلئ الخدين صبوى الاسارير العربة التى كان يستقلها ، وامسك بحزام السائق . وحدق فى الناس المضطربين وكانه يحدق فى كسوف الشمس .

وصاح العامل عليه وهو يمر به بصوت ناشج :

— تفرج ، تفرج !

وتعاظم حشد الناس ، وصار يشمل الشـارع كله وهدر هديرا منفعلا ، وتحرك باتجاه الجسر . وارتفعت اعلام بيض فى ثلاثة اماكن . وجرف هذا السيل المارة فى طريقه كالقش . عبر ايفان ايليتش الجسر مع الحشد . كان بعض الخيالة يعدون على خيولهم عبر ميدان «مارسوفو بوليه» المضبب المكسـو بالثلج المحفور بآثار حوافر . وحين رأوا الحشد اداروا خيولهم ، واقتربوا منه بخطوات وئيدة . ضحك احدهم ، وهو عقيـد مورد الوجنتين مشقوق اللحية ، رافعا يده بالتحية . وتعالى فى الحشد غناء ثقيل جزع . وطارت غربان شعثاء من الاغصان العارية الداكنة ، من ظلام الحديقة «ليتنى» ، نفس الغربان التى افزعت ذات مرة قاتلى الامبراطور بافل .

سار ايفان ايليتش فى المقدمة ، وكان يحس بغصة فى حنجرته . تنحنح ليزيلها ، الا ان الانفعال كان يتصاعد من اعماقه مرة بعد اخرى . بلغ حصن اينجينيرنى فاستدار شمالا ، وسار فى جادة ليتيينى .

كان جمهور آخر من الناس ينصب فى جادة ليتيينى قادما من منطقة فيبورغسكايا . وقد امتد الى مسافة طويلة فى الجسر . وكانت بوابات البيوت على طول طريقه غاصة بالفضوليين والوجوه المنفعلة فى جميع النوافذ .

توقف ايفان ايليتش عند بوابة احد البيوت على مقربة من موظف عجوز كانت الرعشة تسرى فى وجنتيـه الشبيهتين بوجنتى

كلب . وكان صف من الجنود الجامدين المتكئين على بنادقهم يسد الشارع بعيدا الى اليمين .

اقترب الحشد وتباطأ سيره . وتطايرت اصــوات مذعورة متجهة الى وسطه : «قفوا ، قفوا ! . .»

واذا بآلاف من الاصوات النسائية العاليــة تعول مرددة : «خبز ، خبز ، خبز ! . .»

قال الموظف : «لا يجوز السماح بهذه المشاهد» والقى نظرة صارمة على ايفان ايليتش من فوق نظارته . وفى تلك اللحظة خرج بوابان ضخمان من احدى البوابات وراحــا يدفعان الفضوليين بكتفيهمــا . اهتزت وجنتا الموظف ، وزعقت سيدة شابة ترتدى نظارة انفية : «لا تتجاسر ، ايها الابله !» الا ان البوابة قــد اغلقت . واخذت مداخل البيوت والبوابات تغلق فى الشارع كله . وتعالت اصوات مذعورة :

– لا داعى ، لا داعى !

واقترب الحشد الهادر . وطلع فى مقدمته شاب ذو وجه محمر الخدين منفعل يضع على راسه قبعة عريضــة الحافة . وترددت اصوات :

– الراية فى المقدمة ، الراية فى المقدمة !

وفى تلك اللحظة ظهر امام صف الجنود ضابط ضخم ضيق الخصر يرتدى قبعة قوزاقية بميلان . ووضع يده على قراب المسدس عند خصره ، وصرخ بصوت كان من الممكن ان تفهم منه هــذه الكلمات : «صدر امر باطلاق النار . . . لا اريد سفك الدماء . . . تفرقوا ! . .»

فارتفعت اصوات وحشية :

– الخبز ، الخبز ، الخبز !

وزحف الحشد على الجنود . . . وبدا الناس يمرون بايفان ايليتش والطيش فى عيونهم . . .

– الخبز ! . . يسقط ! . . اوغاد ! . .

وسقط احدهم . وصرخ مستطار اللب رافعا وجهه المتغضن : «اكرعهم . . . اكرعهم !»

وفجأة صدر فى الشارع صوت مثــل صوت تمزيق قماش خشن . وسكن كل شىء فى الحال . وشد احد الطلاب على طاقيتــه بين اصابعه ، وغاص فى الحشد . . . ورفع الموظف يده المعقدة ليرسم علامة الصليب . واطلقت طلقة فى الهواء ولم تتبعها طلقة اخرى الا ان الحشد تراجع . بعضه قد تفرق ، والبعض الآخر توجه الى ساحة زنامينسكايا . ومعه الراية . وبقيت قبعات وكالوشى ملقاة على الثلج الاصفر فى الشارع . طلع ايفان ايليتش الى جادة نيفسكى فسمع ثانية هدير اصوات كثيرة . انه حشد ثالث كان قد عبــر النيفا قادما من جزيرة فاسيليفسكى . وكانت الارصفة مكتظــة بالنساء الانيقات ، والعسكريين ، والطلاب ، وغرباء لهم مظهــر اجنبى . وكان ضابط انجليزى ذو وجه وردى طفلى يقف كالعمود . وكانت البائعات ذوات الشرائط السوداء فى شعورهن يضغطــن وجوههن المبودرة على زجاج ابواب المخازن . بينما سار حشــد غاضب من العاملات والعمال فى وسط الشارع متغلغلا فى امتداده الضبابى ، وهو يعول : «الخبز ، الخبز ، الخبز ! . .»

كان سائق زلاجة يقف بمحاذاة الرصيف وقد مال بجنبه نحو جزئها الامامى ، واخذ يحدث بمرح راكبته السيدة ذات الوجــه الاحمر المذعور .

– الى اين اذهب ؟ ها انت ترى بنفسك . ذبابة لا يمكن ان تمر من هنا .

– امض فى طريقك ، ايها الاحمق ، ولا تجرؤ على التحدث معى ؟ . .

– لا ، لست احمق منذ اليوم . . . انزلى من الزلاجة . . .

تدافع المارة على الرصيف ، رفعوا رؤوسهم ، وتسمعــوا ، وتساءلوا منفعلين :

– قتلوا مائة شخص فى جادة ليتيينى ؟ . .

– كذب . . . اطلقوا النار على حبلى ورجل عجوز . . .

– يارب ! وما ذنب العجوز هذا ؟

– هذه كلها اوامر بروتوبوبوف . وهو مجنون . . .

– اى نبأ هذا ، ياسادة . . . لايصدق ! اضراب عام . . .

– كيف ؟ والماء والكهرباء ؟

– ليت الرب يجعلها انباء صحيحة ، آخر الأمر .
– مرحى للعمال ! . .
– لا تفرحوا ، سيقمعونهم . . .
– حاذر ان تُقمع قبلهم ، وانت بهذه السحنة . . .

مضى ايفان ايليتش الى العناوين التى ينشدها آسفا على تضييعه الوقت الكثير ، غير انه لم يجد احدا ممن قصدهم فى البيت . فعاد يتجول فى جادة نيفسكى غاضبا .

كانت حركة الزلاجات قد عادت الى الشارع ، وخرج البوابون يزيحون الثلج من الارصفة ، وظهر الرجل المهيب ذو المعطف الاسود على مفرق الطرق ورفع فوق الرؤوس المحتدة ، وافكار الناس المضطربة هراوته البيضاء ، عصا النظام السحرية . ولربما فكر عابر سبيل خبيث ، وهو ينظر الى الشرطى عند اجتيازه الشارع قائلا لنفسه : «انتظر ، يا اخى ، وسيأتى وقتك» . ولكن لم يدر فى خلد احد من الناس ان الوقت قد حان فعلا ، وان هذا الشخص المشوروب المنتصب كالعمود الحامل للهراوة لم يعد اكثر من شبح وانه سيختفى بين عشية وضحاها من مفرق الشوارع ، من الحياة العامة ، من ذاكرة الناس . . .

– تليغين ، تليغين ! قف ايها الاصم ! . .

وركض المهندس ستروكوف نحو ايفان ايليتش وطاقيته منسرحة على مؤخرة راسه ، وعيناه تلمعان بمرح فياض . . .

– الى اين ذاهب ؟ لندخل الى مقهى . . .

وامسك يد ايفان ايليتش وجره الى مقهى . كان دخان السيغار فى المقهى يلذع العيون . وكان الناس بقبعاتهم المستديرة السوداء وبقبعات من فراء عجول البحر ، وبمعاطفهم غير المزررة يتجادلون ، ويتصايحون ، ويقفزون واقفين . شق ستروكوف طريقه نحو نافذة ، وجلس الى مائدة صغيرة قبالة ايفان ايليتش ، وهتف ممسكا المائدة بكلتا يديه .

– الروبل يسقط ، والسندات المالية تذهب الى الجحيم . تلك هى القوة ! . . خبرنى ماذا شاهدت . . .

– كنت فى جادة ليتيينى ، وقد اطلقوا النار هناك ، ولكن فى الهواء ، على ما يبدولى . . .

– وما رايك فى هذا كله ؟

– لا ادرى . اعتقد ان على الحكومة الآن ان تعالج بجدية مسالة نقل الاطعمة .

صاح ستروكوف ، وهو يضرب سطح المائدة الزجاجى :

– فات الوقت ! فات ! . . اكلنا امعاءنا بانفسنا . . . ولتنته الحرب ، فقد لاقينا ما فيه الكفاية ! . . اتدرى ماذا ينادون فى المصانع ؟ ينادون بدعوة سوفييت نواب العمال . بان لا يؤمنوا بغير السوفييتات !

– صحيح ؟

– تلك هى النهاية ، ياعزيزى ! انهار الحكم المطلق . . . فافتح عينيك . ليس هذا تمردا ، بل وليس ثورة . . . انه بداية الفوضى . . . بل الفوضى العظيمة بعينها . . . – وانتفخ عرق على عرض جبين ستروكوف تحت قطرات العرق – وبعد ايام ثلاثة لن تبقى هناك دولة ، ولا جيش ، ولا حكام ، ولا رجال شرطة . . . بل مائة وثمانون مليونا من الناس الشُعث البدائيين . وهل تدرى من هو الانسان البدائى الاشعث ؟ النمر ووحيد القرن دميتان للاطفال بالنسبة له . خلية فى جهاز عضوى متفسخ . ذلك هو الانسان البدائى الاشعث . وذلك شىء رهيب جدا . انه بكتيريا تاكل بكتيريا اخرى فى قطرة ماء .

قال تليغين :

– اوه ، ليتخطفك الشيطان ! لا شىء من هذا ، ولن يكون شىء من هذا ! انها ثورة ، وشكراللرب عليها .

– لا ، ان ما رايته اليوم ليس ثورة . انه تحلل المادة . وستأتى الثورة ، فيما بعد ستأتى . . . ولكننا انا وانت لن نراها .

قال ايفان ايليتش وهو ينهض :

– قد يكون ذلك . وان فاسيلى روبليف هو الثورة . اما انت ، ياستروكوف ، فلا . انت كثير الضجيج ، وتتحدث بشكل مبهم . . .

عاد ايفان ايليتش الى شقته فى وقت مبكر ، واوى الى فراشه فى الحال . ولكن النوم لم يغشه الا برهة قصيرة ، تنهد بعدها ، وانقلب ثقيلا على جنبه ، وفتح عينيه . شم رائحة جلد الحقيبة التى كانت مفتوحة على احد المقاعد . فى هذه الحقيبة التى اشتراها فى استوكهولم محفظة صغيرة مـن الجلد البديع لادوات الزينة الفضية ، هدية لداشا . وكان ايفان ايليتش يحس بالرقة نحوها ، فيفك ورقها الناعم كل يوم ، ويعاينها . بل وكان يتخيل مقصورة عربة بنافذة طويلة ، كما هى فى القطارات غير الروسية ، وداشا فى لباس السفر تضع على ركبتيها هذه المحفظة الفواحة بالعطر والجلد رمزا لسياحات رخية مدهشة .

راى ايفان ايليتش السماء الداكنة وراء النافذة تتشبع بانعكاس ضوء المدينة الليلقى الكدر . وادرك بصفاء شعور الكراهية الحزينة الذى لا بد ان يعتمل فى نفوس اولئك الذين كانوا يطالبون بالخبز اليوم ، حين ينظرون الى هذا الضوء . المدينة غير المحبوبة ، الموحشة ، الكريهة . . . دماغ البلاد وارادتها مصابة الآن بـداء تتال . . . وهى فى احتضار . . .

خرج ايفان ايليتش من البيت فى حوالى الثانية عشرة ، فراى الجادة العريضة الضبابية مقفرة . لاحت من وراء نافذة رطبة لحانوت بيع الزهور مزهرية بلورية فيها باقة بديعة من الورود الحمراء المبللة بقطرات كبيرة من الماء . فرنا ايفان ايليتش اليها برقة من خلال الثلج المتساقط .

ظهرت من شارع جانبى دورية تتالف من خمسة قوزاقيين ، ادار آخرهم فرسه ، وعدا به نحو ثلاثة من الرجال يرتدون الكيبيه كانوا يسيرون على الرصيف وهم منهمكون فى حديث منفعل منخفض . توقف الرجال ، وامسك احدهم ، وهو يتحدث بمرح ، شكيمة فرس القوزاقى . كانت هذه الحركة غير اعتيادية كليا جعلت قلب ايفان ايليتش يثب فى صدره . ولكن القوزاقى ضحك ، ودفع راسه الى الخلف ، ثم اطلق العنان لفرسه الغليظ الرقبة الذى كان يضرب بقوائمه ، ولحق برفاقه ، وانطلق الجميع فى عدو سريع حتى غيبهم ظلام الجادة .

وحين كان يفان ايليتش يقترب من الكورنيش اخذ يلتقـى

بزمر من سكان المدينة فى هيجان . والظاهر ان احدا لم يستطع ان يهدأ بعد حدث يوم امس : وهاهم الناس يتداولون الرأى ويتناقلون الشائعات والاخبار ، وكان الكثيرون منهم يسيرون نحو النيفـا . وكان هناك بضعة آلاف من الفضوليين يتحركون على الثلج بمحاذاة السياج الغرانيتى كجماعات سوداء من النمل . وكانت زمرة من الزاعقين تصرخ عند الجسر على الجنود الذين كانوا يسدون الطريق بوقوفهم فى عرض الجسر ، وعلى طوله حتى نهايته الاخرى التى لـم تكد ترى فى الغبش من جراء الثلج المتساقط .

– لماذا سددتم الجسر ؟ ! اتركونا نمر !

– نريد ان نذهب الى وسط المدينة .

– قلة حياء . يضايقون الاهالى . . .

– الجسور اقيمت لعبور الناس ، وليس لشاكلتكم .

– هل انت روسى ام لا ؟ . . دعونا نعبر !

كان ضابط صف ضخم ذو اربعة نياشين القديس غيورغى يذرع الجسر عرضا من درابزين الى آخر مصلصلا بمهمازيه ، وحين سمع الشتائم تتعالى من الجمع ادار الى المتصايحين وجهه العابس المجدر المصفر . وقال وشارباه المفتولان يهتزان :

– آه ، سادة وتتكلمون على هذا النحو . لا استطيـع ان اسمح بعبور الجسر . . . ساضطر الى استخدام السلاح فى حالة عدم الامتثال للأمر . . .

وتصايح الزاعقون من جديد :

– لن يطلق الجنود النار علينا .

– وضعوك هناك ، وانت الكلب ، الشيطان المجدر . . .

استدار ضابط الصف مرة اخرى وراح يتكلم ، ورغـم ان صوته كان اجش حادا – عسكريا ، فقد انعكس فى كلماتـه نفس الحيرة المذعورة التى كانت تعتمل فى نفوس الجميع فى تلك الايام وقد احس الزاعقون بذلك ، وشتموا ، وضغطوا على الحاجز .

وفجأة تكلم رجل طويل نحيل ذو نظارة انفية معوجة ، ورقبة طويلة ملفوفة بلفاح ، وكان صوته عاليا عميقا :

– انهم يضيقون حركة المرور ، والحواجز فى كـل مكان ، والجسور قد طوقت . وذلك منتهى التحقير . هل نستطيع التنقل

في المدينة بحرية ، ام اصبح حتى ذلك متعذرا ؟ ايهـــا المواطنون اقترح عدم الالتفات الى الجنود ، والعبور على الجليد الى الضفـة الاخرى . . .

– كلامك صحيح . على الجليد ! هورا ! . .

وعلى الاثر ركض عدة اشخاص على الدرجات الغرانيتية المغطاة بالثلج ، والمؤدية الى النهر . وسار الرجل الطويل ذو اللفـــاح المتطاير في الريح بخطوات حازمة على الجليد بمحاذاة الجسر . انحنى الجنود على الدرابزين في الاعلى وصاحوا :

– ياهؤلاء ، ارجعوا ، والا سنطلق النار . . . ارجع ، ايهـا الشيطان الطويل ! . .

الا ان الرجـل مضى في سيره دون ان يلتفت ، ومن خلفـه سار عدد متزايد من الناس في صف واحد وفي سير سريع ، وانزلقـــوا واحدا بعد الآخر على منحدر السدة الى الجليد ، وتراكضت اشباحهم السود على الثلج . صاح الجنود عليهم من فوق الجسر فرد الراكضون عليهم بصياح مثله محيطين افواههم بايديهم . رفع احد الجنود بندقيته ، الا ان جنديا آخر دفعه من ظهره فاقلع ذلك عن اطلاق النار .

واتضح فيما بعد ان اية خطة محددة لم تكن لاحد من الذين خرجوا الى الشوارع ، ولكن الاهالي حين شاهدوا الحواجـــز على الجسور ومفارق الطرق تملكهم جميعا الدافع الكامن في نفوسهم منذ القدم ، ورغبوا فيما محظور الآن : عبور الجسور ، والتجمع في حشود . وهذا الظرف وهج الخيال المريض توهجا شديدا . وشاعت في المدينة شائعة تقول ان شخصا يقود كل هذه القلاقل .

في نهاية اليوم الثاني كمنت وحدات من الفوج بافلوفسكي في جادة نيفسكي ، واطلقت رشقات طويلة مـــن النار على تجمعات الفضوليين وعلى بعض المارة . واخذ الاهالي يدركون ان شيئـــا شبيها بالثورة آخذ في الظهور .

ولكن احدا لم يكن يعرف بؤرتها ، ولا الموجه لها . كما لم يكن يعلم بذلك قائد القوات ، ولا الشرطة ، بَلَنه' بروتوبوبوف

الدكتاتور صاحب الحظـوة ، وصاحب معمل اقمشة الجوخ مـــن سيمبيرسك ، ذلك الرجل الذي شج له صاحب الاطيان ناؤوموف راسه في يوم ما في فندق ترويتسكايا بعد ان شق بـــه الباب ، فسبب له ذلك الضرر في الجمجمة والدماغ آلاما في الراس وانهيارا عصبيا ، ثم تخلخلا مستديما فيما بعد ، حين عهـــدت اليه ادارة الامبراطوريـة الروسيـــة . كانت بؤرة الثورة في كل الانحاء ، في كل بيت ، وفي راس كل مواطن عادي زاخر بالخيالات والسخط والتذمر . وكانت هذه الاستحالة في تحديد بؤرة الثورة تنذر بالشؤم . فقد كانت الشرطة تتصيد الاشباح . وكان عليها في الواقع ان تعتقل مليونين واربعمائة الف ، هم مجموع سكان بتروغراد .

امضى ايفان ايليتيش اليوم كله في الشوارع يخامـــره ذلك الاحساس الغريب الذي كان يخامر كل فرد ، لا محالة ، الاحساس بدوار دائمي . وكان يتلمس تعاظم الهيجان في المدينة الى حـــد يقرب من الجنون . فقد كان جميع الناس يتحللون الى دوار جماعي شامل ، وكان هذا المجموع في تجواله في الشوارع وعياجه يبحث ويتوق الى اشارة ، الى ومضة تعمي البصر ، وتدمج الجميع في كتلة واحدة .

لم يرهب الرصاص في جادة نيفسكي غير قلة مـــن الناس . فقد انثال الناس كما تنثال الوحوش وتجمعوا حول جثتين مطروحتين عند زاوية شارع فلاديميرسكايا احداهما لامراة في تنورة من القماش الرخيص ، والثانية لعجوز في معطف من فراء الراكون . . . وحين اشتد اطلاق النار تراكض الناس شتاتا ، ومرة اخرى تسكعوا بمحاذاة الجدران .

هدا اطلاق النار عند هبوط الظلام . وهبت ريح قارســة ، ونظفت السماء ، وتوهج الغروب بكآبة في السحب التي تراكمت وراء البحر . وطلع هلال حاد الطرفين ، وتدلى واطئا فوق المدينة في بقعة سوداء فاحمة من السماء .

ولم تضأ المصابيح في تلك الليلة . وكانت النوافذ مظلمة ، ومداخل البيوت مسدودة . وامتدت اهرام البنادق المشبكـــة على طول جادة نيفسكي الخالي المظلم . وكانت اشباح الحراس الضخمة تتراءى على مفارق الطرق . وكان ضوء القمر يلمع بين الحين والآخر

على زجاج نافذة او على شريط سكة الترام ، او على فولاذ حربة . وخيم الهدوء والسكينة . ولكن سماعات التلفون فى كل بيت كانت تنقل كلمات جنونية عن الاحداث بصوت مذعور خافت .

وفى صباح ٢٥ شباط غصت ساحة زناميسكايا بالوحدات ورجال الشرطة . ووقفت امام فندق «سيفرنايا» خيالة الشرطة على صهوات خيول صهباء متوثبة دقيقة القوائم . ورابط رجال الشرطة المشاة بمعاطفهم السوداء حول تمثال الامبراطور الكسندر الثالث ، وتجمعوا زمرا فى الساحة . ووقف القوزاق عند محطة القطار وقد علا المرح وجوههم الملتحية ، وقبعاتهم القوزاقية العالية المنسرحة الى جانب ، وبرزت حزم التبن عند سروجهم . وكانت رجال فوج بافلوفسكى يلوحون بمعاطفهم بلونها الرمادى المتسخ باتجاه جادة نيفسكى .

ارتقى ايفان ايليتش النتوء الحجرى لمدخل محطة القطار ، وفى يده حقيبة صغيرة ، كانت الساحة كلها ترى من هنا بوضوح جيد .

كان نصب الامبراطور يتوسطها بفرسه المعتلى صخرة من الغرانيت حمراء بلون الدم ، وقد تدلى راسه البرونزى لثقل راكبه . وكان الامبراطور يجلس على الصهوة ثقيلا كالجاذبية الارضية ، وقد كسا الثلج كتفيه الكنيبتين ، وطاقيته المستديرة . كانت حشود الناس تشق طريقها نحو قاعدة النصب فى الساحة قادمة من خمسة شوارع ، رافعة اصواتها بالصياح والصفير والسباب .

ومثلما حدث بالامس على الجسر ، كان الجنود ، ولاسيما القوزاق الذين يتقدمون على صهوات خيولهم ازواجا من الناس الذين كانوا ينثالون من جميع الجهات ، يتبادلون معهم الشتائم ولواذع الكلمات . وكان الصمت والبلبلة الواضحة يرينان على زمر رجال البوليس المتجهمين الضخام الاجسام . وكان ايفان ايليتش يعرف جيدا ذلك القلق الذى يسود فترات انتظار الامر بالاشتباك فى معركة ، حين يكون العدو المهاجم قاب قوسين او ادنى ، وكل الدلائل تشير الى ما ينبغى القيام به ، ولكن صدور الامر يتاخر ، وتستطيل الدقائق بشكل مؤلم . صلصل باب المحطة فجاة وانفتح ، وطلع على السلم ضابط جندرمة شاحب الوجه برتبة عقيد يرتدى معطفا

قصيرا . انتصب بقامته ، وادار عينيه الوضيئتين فى الساحة ، ومررهما على وجه ايفان ايليتش ... ثم هبط الدرجات بخفة بين القوزاق المتراجعين ليفسحوا الطريق له ، واخذ يقول شيئا لضابط قوزاقى رافعا اليه لحيته ، اصغى الضابط القوزاقى اليه مرتميا على السرج ، وعلى شفتيه ابتسامة هازئة . اشار العقيد براسه صوب جادة ستارى نيفسكى ، وسار على الثلج عبر الساحة بمشية متوثبة . ركض نحوه ضابط شرطة احكم شد حزامه على بطنه الضخم ، واهتزت يده تحت طاقيته عندما رفعها لتحيته . تعاظمت صيحات الحشد المتقدم من ناحية جادة ستارى نيفسكى ، ثم أخذت الأذن اخيرا تميز غناء . احس ايفان ايليتش بيد تمسك كمه بقوة ، ورای رجلا مهتاجا يرفع جسمه بالقرب منه حاسر الراس يمتد على وجهه القذر خدش احمر .

– ايها الاخوان ، القوزاق !

صاح الرجل بصوت وحشى يهز النفس كالصوت الذى يطلق قبيل القتل وسفك الدم فيغوص منه القلب ، وتغطى غشاوة الجنون على العيون : «قتلونى ، يا اخوان ... تدخلوا ... انهم يقتلون !»

استدار القوزاق على سروجهم ، ونظروا اليه صامتين . وقد شحبت وجوههم ، واتسعت حدقات عيونهم .

وفى تلك الاثناء لاحت فى جادة ستارى نيفسكى رؤوس سوداء كثيفة ، هى رؤوس عمال حاضرة كولبينو الذين كانوا يتقدمون فى الشارع . ورفرف علم احمر مبلل فى الريح . ابتعد خيالة الشرطة عن مدخل فندق «سيفرنايا» ، وما هى الا لحظة حتى لمعت فى ايديهم سيوف عريضة مستلة . ارتفع فى الحشد صياح ضار . ووقع بصر ايفان ايليتش مرة اخرى على عقيد الجندرمة . انه يركض ممسكا غلاف مسدسه بيد ، وملوحا للقوزاق بالاخرى .

تطايرت من حشد عمال حاضرة كولبينو قطع من الجليد والحجارة ، باتجاه العقيد ، وخيالة الشرطة . تواثبت الخيول الصهباء الدقيقة القوائم اكثر . وترددت طلقات واهنة من مسدسات ، وارتفع دخان عند قاعدة النصب : لقد كان رجال الشرطة يطلقون النار على عمال حاضرة كولبينو . وفى تلك اللحظة شب فى صف القوزاق فرس اصهر افطس من افراس منطقة الدون ، على بعد عشر

خطوات من ايفان ايليتش . انحنى راكبه القوزاقى على رقبتـه ، ولكزه ، وبعدة وثبات وصل به الى عقيد الجندرمة ، وقد استلّ سيفه اثناء جريه ، وضربه به ضربة قوية صافرة ، ثم عاد فرفع فرسه على رجليه الخلفيتين . وتحرك القوزاق كتلة واحدة نحـو مكان القتل . شقت حشود الناس الحواجز وتدفقوا على الساحة . . . سمعت طلقات صادرة من مكان ما غطتهـا صيحة جماعية تهتف : «هورا . . . هورا . .»

– ماذا تعمل هنا ، ياتليغين ؟

– اريد ان اسافر مهما يكن من شيء ، ولا يهمنى اذا كان ذلك على قطار بضائع ، او على قاطرة . . .

– اقلع عن ذلك فالسفر مستحيل الآن ، ياصاحبى . انها الثورة . . .

كان المتحدث انتوشكا ارنولدوف وهو غير حليق نافر المظهر ، احمر الجفنين ، جاحظ العينين . وقد غمغم كالهاذى غارزا اصابعه فى طية معطف ايفان ايليتش :

– هل رأيت كيف قطعوا راس عقيد الجندرمة ؟ . . تدحرج مثل كرة القدم . جمال ! . . انت ، ايها الابله ، لا تفهم . انها الثورة !

كان الرجلان واقفين فى ممر محطة القطار مضغوطين فى زحام الناس . وتابع انتوشكا كلامه :

– فى الصباح رفض الفوج الليتوانى وفوج فولينسكـى اطلاق النار . . . وخرجت سرية من فوج بافلوفسكى الى الشارع ومعها سلاحها . . . والمدينة فى فوضى ، ولا احـد يفهم شيئا . . . والجنود فى جادة نيفسكى كثار كالذباب ، يتسكعون ، ويخافـون الذهاب الى الثكنات . . .

٣٦

كانت داشا وكاتيا تسيران بخطى سريعة على طبقات الجمـد الرقيقة المتكسرة تحت اقدامها فى شارع مالايا نيكيتسكايا الباهت الاضاءة . كانتا ترتديان معطفين فرائيين ، وتلفان راسيهما بلفاحين

ازغبين . ارتفع فى السماء الباردة الضاربة الى الخضرة هلال مدبب الطرفين صاف . وترامـى الى السمع نباح كلاب وراء بـوابة . ضحكت داشا فى زغب لفاحها الرطب ، وهـى تنصت الى تكسر الجليد .

– كاتيا ، لو ان احدا من الناس اخترع آلة ووضعها هنـا – ووضعت داشا يدها على صدرها – فانها ستسجل اشياء فريدة .

وترنمت داشا بصوت خافت . فتناولت كاتيا يدها .

– دعينا نذهب ، هيا !

توقفت داشا ثانية بعد بضع خطوات .

– كاتيا ، اتعتقدين انها الثورة حقا ؟

من بعيد شع فى عيونهما مصباح كهربائى صغير موضوع فوق مدخل نادى الحقوقيين ، حيث دعت كتلة الكاديت ، تحت تـأثير الشائعات الجنونية القادمة من بتروغراد ، الى اقامة اجتماع عام فى الساعة التاسعة والنصف مساء لتبادل الآراء ، وايجاد قاعـدة مشتركة للعمل فى هذه الايام الحرجة . صعدت الشقيقتان السلم الى الطابق الثانى ركضا ، ودخلتا القاعة دون ان تخلعا معطفيهما ، بل اكتفتا بفك لفاحيهما . كانت القاعة غاصة بالناس تستمع بتوتر الى سيد بدين مورد الخدين ملتح يحرك يديه الكبيرتين حـركات لطيفة . كان هذا الرجل يقول بصوت جميل متوسط الجهارة :

– . . . الاحداث تتنامى بسرعة تدير الراس . فى بتروغراد نقلت كل السلطة يوم امس الى الجنرال خابالوف الذى الصق فى انحـاء المدينة كلها هذا الاعلان : «فى الايام الاخيرة حدثت فى بتروغـراد قلاقل مصحوبة بالعنف والاعتداء على حياة ضباط الجيش والشرطة . أمنع كل تجمع فى الشوارع ، وانبه سكان بتروغراد الى اننى اكدت للقوات اللجوء الى السلاح عند الحاجة ، وعدم التوقف امام اى شيء فى سبيل اعادة النظام الى العاصمة . . .»

– جزارون !

رن صوت طالب جهير من جوف القاعة .

– . . . ان هذا الاعلان ، كما كان متوقعا ، قد جعل كاس الصبر تطفح . فانضم الى جـانب المنتفضين خمسة وعشرون الف جندى من حامية بتروغراد يمثلون مختلف اصناف السلاح . . .

وقبل ان ينهى كلامه ضجت القاعة بالتصفيق . وقفز بعض الرجال على مقاعدهم ، وهتفوا ، واوماوا بأيديهم ، وكانهم يوجهون الطعنات الى النظام القديم . نظر الخطيب الى القاعة الهادرة مبتسما ابتسامة عريضة ، ثم رفع ذراعه ، وتابع كلامه :

– وصلت قبل حين برقية تلفونية غاية فى الاهمية – وهنا دس يده فى جيب سترته ذات المربعات ، وبسط ورقة مطوية ، وقال : اليوم ارسل رودزيانكو رئيس مجلس دوما الدولة الى القيصر برقية تلفونية على الخط المباشر : «الوضع ينذر بالخطر . الفوضوية فى العاصمة . الحكومة مشلولة . النقل والتموين والوقود فى انهيار تام . الرصاص يطلق فى الشوارع بلا نظام . القوات تطلق النار بعضها على بعض احيانا . من الضرورى اسناد الوزارة الجديدة الى رجل يتمتع بثقة البلاد . لا يجوز الابطاء . كل ابطاء صنو الموت . ندعو الله الا يوقع المسؤولية على رأس العاهل فى هذه الساعة الحرجة» .

انزل السيد ذو الخدين الموردين الورقة ، وادار عينيه البراقتين فى القاعة . لم يذكر الموسكوفيون مثل هذه المسرحية الخلابة . وتابع الخطيب كلامه بصوت ناعم منغّم :

– نحن الآن ، ياسادة ، على عتبة اعظم حدث موشك على الوقوع فى تاريخ بلادنا . ولربما فى هذه اللحظة تحقق هناك – ومد ذراعه مثل تمثال دانتون – مطمح العديد من الاجيال ، وأُخذ الثار لطيوف الديسمبريين المفجوعة . . .

تاوهت امراة ولم تتمالك نفسها .

– آه ، يا إلهى !

– ولربما ستندمج روسيا غدا فى جوقة اخوية فرحة تردد كلمة : الحرية ! . .

فرددت اصوات صارخة :

– عاشت الحرية ! . .

وهبط السيد فى مقعده ، ومرر ظاهر كفه على جبهته . نهض من طرف الطاولة رجل مديد القامة ذو شعر طويل كتانى اللون ، ووجه ضيق ، ولحية صهباء ذابلة . واخذ يتكلم بصوت فيه نبرة حزن دون ان ينظر الى احد :

– منذ لحظة سمعت بعض الرفاق يهتفون : عاشت الحرية . شىء صحيح . واى شىء يمكن ان يكون افضل من اعتقال نيقولاى الثانى فى موغيليف ، ومحاكمة الوزراء ، وطرد حكام الولايات ورجال الشرطة . . . ورفع راية الثورة الحمراء . . . انها بداية صحيحة . . . العملية الثورية ، حسب المعلومات المتوفرة ، قد بدأت بداية صحيحة وبطاقة حيوية . وفى هذه المرة ، على ما يبدو ، ستنجح . ولكن ها انتم قد سمعتم السيد الفاضل الذى تحدث قبلى يقول كلاما جميلا جدا . فقد اعرب – ان لم تخنى اذنى – عن الرضى التام بالثورة الموشكة الحدوث ، وافترض انه سيندمج بروسيا كلها فى المستقبل القريب جدا فى جوقة اخوية واحدة . . .

اخرج الرجل ذو الشعر الكتانى منديلا ، ووضعه على فمه ، كمن يحاول ان يخفى ضحكة هازئة . الا ان وجنتيه تبقعتا ، وسعل ، ورفع كتفيه العظميتين . سأل شخص وراء داشا التى كانت تشارك اختها فى مقعد واحد :

– من المتكلم ؟

همس احدهم فى الاجابة همسا سريعا :

– الرفيق كوزما . كان فى عام ١٩٠٥ عضوا فى سوفييت نواب العمال . قبل مدة قصيرة عاد من المنفى .

وتابع الرفيق كوزما كلامه :

– لوكنت فى مكان الخطيب السابق لتريثت قليلا فى ابداء الغبطة – وفجأة اكتسى وجهه الشمعى موجدة وحزما وهو يقول : ان اثنى عشر مليونا من الفلاحين قد اعدوا للقتال ، وهم ما يزالون فى الجبهات . . وملايين من العمال يختنقون فى الاقبية ، ويقفون جياعا فى الطوابير امام حوانيت الطعام . فلعلكم تريدون ان تغنوا جوقة اخوية واقفين على ظهور العمال والفلاحين . . .

وصدرت فى القاعة هسهسة ، وصرخ صوت حانق : «هذا استفزاز !» هز السيد ذو الوجنتين المحمرتين كتفيه ، ومس الجرس . وواصل الرفيق كوزما كلامه :

– . . . القى الامبرياليون اوربا فى حرب مريعة ، واعتبرتها الطبقات البرجوازية عاليها وسافلها حربا مقدسة – تلك الحرب من اجل الاسواق العالمية ، من اجل انتصار منقطع النظير للراسمال . . .

اما الخونة ، الاشتراكيون-الديموقراطيون فقد ايدوا السادة متواطئين معهم ، واقروا معهم بأن الحرب وطنية ومقدسة . وسيق الفلاحون والعمال الى المجزرة . . . وانا اريد ان اسأل : من الذى رفع صوته فى هذه الايام الدموية ؟

— ماذا يقول ؟ . . ! اجعلوه يخرس !

ارتفعت اصوات حانقة ، وعلا الضجيج ونهض بعض الناس قافزين من اماكنهم مؤشرين بايديهم .

— . . . الساعة دقت . . . ولهب الثورة سيمتد ، لا محالة ، الى صميم الفلاحين والعمال . . .

وبعد ذلك تعذر تماما ان تلتقط الاذن كلامه ، بسبب الصخب فى القاعة . هرع بعض الاشخاص المرتدين ستر النهار الى الطاولة . ارتد الرفيق كوزما عن المنصة ، وتوارى وراء البـاب . واحتلت مكانه خبيرة مشهورة فى تربية الاطفال .

— ان الكلمة المثيرة للاستياء التى القاها الخطيب السابق . . .

وفى تلك اللحظة همس شخص على مقربة شديدة مـن اذن داشا بصوت منفعل رقيق :

— مرحبا ، يا عزيزتى . . .

نهضت داشا مسرعة حتى دون ان تجد الوقت لتلتفت ، فرأت ايفان ايليتش واقفا عند الباب . نظرت اليه — الى رجلها ، فبدا لها اجمل رجل فى العالم . اما هو فقد اذهله مرة اخرى ، كما حدث له مرارا من قبل ، ان يرى داشا مختلفة تماما عما كان يتصورها فى ذهنه فى غيابها ، ولكنها اكثر جمالا بما لا حد له : شاعت حمرة حارة فى خديها ، وبدت عيناها الرماديتان الزرقاوان مثل بحيرتين لا قرار لهما . كانت صورتها كاملة ، ولا ينقصها شىء . ردت داشا التحية بصوت خافت ، وتناولت يده ، وخرج الاثنان الى الشارع .

توقفت داشا فى الشارع ورنت الى ايفان ايليتش مبتسمة . ثم تنهدت ، ورفعت ذراعيها الى كتفيه ، وقبلته من شفتيه . وفاحت منها الفتنة الانثوية لعطر فيه بعض المرارة . امسكت داشا يـده ثانية وهى صامتة ، وسار الاثنان على قشرات الجليد المخشخشة ، والملتمعة بضوء الهلال المتدلى منخفضا هناك ، فى اعماق الشارع .

— آه ، كم احبك ، يا ايفان ! كم انتظرتك . . .

— لم استطع القدوم ، انت تعرفين . . .

— لا تغضب اذا كنت قد كتبت لك رسائل سيئة ، فانا لا احسن الكتابة .

توقف ايفان ايليتش ، وحدق فى وجهها المرفوع اليه ، الباسم بصمت . كان المنديل المزغب يضفى عليه مسحة خاصة من الحلاوة والبساطة ، ويجعل الحاجبين المخططين تحته اكثر اسودادا . جذبها ايفان ايليتش اليه برفق ، فالتصقت به منقلة قدميها . قبلها مرة اخرى . وعادا يسيران .

— هل ستمكث طويلا ، يا ايفان ؟

— لا اعرف . هذه الاحداث . . .

— نعم ، انها الثورة .

— تصورى ! اننى جئت على قاطرة . . .

— اتعرف ، يا ايفان ان . . .

وسارت معه على خطو واحد ناظرة الى طرفى حذائيها .

— ماذا ؟

— سأذهب هذه المرة معك الى بيتك . . .

لم يرد ايفان ايليتش عليها . ولم تشعـــر داشا الا بأنه يحاول ان يملأ صدره بالهواء عدة مرات . واحست بالحنان والاشفـــاق عليه .

٣٧

كان اليوم التالى رائعا لأنه اثبت مفهوم نسبية الزمن فقد نقلت العربة ايفان ايليتش من فندقـــه فى شارع تفيرسكايا الى شارع اربات بحوالى عام ونصف عـــام . وقد قال الحوذى : «لا ، ياحضرة المحترم فات ذلك الزمان الذى تستطيع ان تستأجر فيـــه عربة بنصف روبل . فى بتروغراد كسب الناس حريتهم وسنفعـــل ذلك فى موسكو فى القريب العاجل . انظر الى ذلك الشرطى الواقف هناك . اود لو اسوق العربة عليه ، والهب وجهه بسوطى . ابـــن الكلبة ذاك . انتظر ، يا محترم ، وسنصفى حسابنا مع الجميع» .

استقبلت داشا ايفان ايليتش عند باب غرفة الطعام .

كانت فى روبها البيتى ، وشعرها الاشقر قد صفف على عجل ، وعبق الماء الطازج يفوح منها ، ودق جرس الزمن ، وتوقف الزمن ، وامتلأ كله بكلمات داشا ، وضحكها ، وشعرها الناعم الخفيف المشع فى شمس الصباح . وكان ايفان ايليتش يحس بالاضطراب حتى حين كانت داشا تنتقل الى الطرف الآخر من المائدة . فتحت داشا باب دولاب الاوانى ، ورفعت ذراعيها ، وانحسر كمّا روبها العريضان . وفكر ايفان ايليتش مع نفسه بان من المستحيل ان يكون للناس مثل هاتين الذراعين ، ولكن الأثرين الابيضين للتطعيم ضد الجدرى فوق المرفق كانا يؤكدان وحدهما بان هاتين الذارعين انسانيتان على الرغم من ذلك . تناولت داشا قدحا ، وادارت راسها الاشقر الشعر ، وقالت شيئا مدهشا ، وضحكت .

جعلت ايفان ايليتش يشرب عدة اقداح من القهوة . كانت تنطق بكلمات ، وايفان ايليتش ينطق باخرى ، ولكن كلمات الناس ، على ما يبدو ، لا يكون لها معنى الا فى الزمن المتحرك بشكل طبيعى . اما اليوم فلم تكن للكمات معان . كانت يكاترينا دميتريفنا جالسة معهما فى غرفة الطعام تسمعهما يثرثران بالتوافه عن القهوة ، وعن محفظة جلدية لادوات الزينة ، وعن راس تُطلع فى بتروغراد ، وعن شعر داشا الذى يبدو اصهب فى الشمس الساطعة – وياللعجب ! وهما فى ذلك ما بين دهشة شديدة ، ونسيان سريع للموضوع .

جلبت الخادمة الصحف . نشرت يكاترينا دميتريفنا «روسكيه فيدوموستى» ، وتاوهت واخذت تتلو بصوت مسموع بيان الامبراطور عن حل دوما الدولة . اندهشت داشا وتليغين من هذا الخبر اندهاشا كبيرا . الا ان يكاترنيا دميتريفنا بعد ذلك ، واصلت قراءتها «روسكيه فيدوموستى» فى سرها . قالت داشا لتليغين : «تعال الى غرفتى» وقادته عبر دهليز مظلم صغير الى غرفتها . دخلت داشا الغرفة قبله ، وقالت بعجالة : «انتظر لحظة ، لا تنظر» ، واخفت شيئا ابيض فى جرار الخزانة .

كان ايفان ايليتش يرى غرفة داشا لاول مرة . يرى منضدة الزينة باشيائها العديدة الغريبة عليه ، والسرير الابيض الضيق بوسادتين كبيرة وصغيرة . وكانت داشا تتوسد الاولى فى نومها ،

وترتفق الثانية حين تهوِّم ، والمقعد الوثير عند النافذة ، وقد أُلقى على ظهره لفاح مزغب .

طلبت داشا الى تليغين ان يجلس فى ذلك المقعد ، وقربت منه كرسيا بلا ظهر ، وجلست عليه قبالته مسندة مرفقيها على ركبتيها ، موسدة حنكها على يدها ، وحدقت فى وجهه دون ان يرف لها جفن ، طالبة منه ان يقول لها كم يحبها . دق جرس الزمن مرة اخرى .

قال تليغين :

– داشا ، لو وهبونى كل ماهو موجود ، كل الارض لما اسعدنى ذلك . هل تفهمين ؟ – فهزت داشا رأسها . – ما الحاجة الىّ اذا كنت وحيدا فى الدنيا ؟ صحيح ؟ . . وما نفع نفسى لنفسى ؟ – هزت داشا راسها . – ولاى شىء آكل ، واسير ، وانام ؟ وما نفع هاتين اليدين ، وهاتين القدمين ؟ . . وماذا وراء امتلاكى لثروات اسطورية ؟ . . ولكن أتتصورين اية وحشة اشعر بها وانا وحيد ؟ – هزت داشا راسها . – ولكن الآن ، حين تجلسين هذه الجلسة بقربى . . . انسى وجود نفسى . . . اشعر فقط بوجودك ، بالسعادة . فانت كل شىء . انظر اليك فيدور راسى . امن المعقول انك تتنفسين ، وانك حية ، وانك لى . داشا ، اتفهمين شيئا مما اقوله ؟

قالت داشا :

– اتذكر جلوسنا على ظهر السفينة ، وقد هب النسيم ، وتلألأ النبيذ فى الاقداح ، وقد احسست انذاك باننا نمخر نحو السعادة . . .

– وهل تذكرين الظلال الزرق هناك ؟

هزت داشا راسها ، وخيل اليها على الفور بانها هى ايضا تتذكر ظلالا زرقا رائعة . وطافت فى ذاكرتها طيور النورس التى كانت تطير وراء السفينة ، والشطئان الواطئة ، والدرب المتلالىء الذى القته الشمس بعيدا على الماء ، والذى بدا لها كان نهايته الاخرى تلتقى ببحر السعادة الازرق المتالق . بل وتذكرت داشا الثوب الذى كانت ترتديه . . . الا كم من سنين طويلة قد مرت منذ ذلك الحين . . .

فى المساء عادت يكاترينا دميتريبفنا راكضة من نادى الحقوقيين وهى منفعلة متهللة ، وروت قائلة :

– فى بتروغراد انتقلت كل السلطة الى لجنة الدوما . واعتقل الوزراء . ولكن شائعات رهيبة تسرى بين الناس تقول ان القيصر غادر مقر القيادة ، وان الجنرال ايفانوف يزحف على بتروغراد بفيلق كامل ليضع حدا للقلاقل . . . اما هنا فقد حدد يوم غد لاقتحام الكرملين والترسانة . . . يا ايفان ايليتش ، غدا سناتى ، انا وداشا ، اليك فى الصباح لنشاهد الثورة . . .

٣٨

كان فى وسع المشاهد ان يرى من نافذة الفندق سيل الناس الاسود يتقدم ببطء فى شارع تفيرسكايا الضيق ، وتتحرك الرؤوس ، وطاقيات كثيرة العدد ، وقبعات ، ومناديل رأس ، ورقع الوجوه الصفراء . والفضوليون يطلون من جميع النوافذ ، والاولاد على السطوح .

وكانت يكاترينا دميتريبفنا واقفة عند النافذة وقد رفعت برقعها حتى حاجبيها . كانت تمسك يد تليغين مرة ، ويد داشا اخرى وتقول :

– ما ارهب ذلك ! . . ما ارهب ذلك !

فكان ايفان ايليتش يقول :

– يكاترينا دميتريبفنا ، اؤكد لك ان الشعور السائد فى المدينة مسالم للغاية . قبل مجيئكما عرجت الى الكريملين ، فعلمت ان المفاوضات جارية هناك . والظاهر انهم سيسلمون الترسانة دون اطلاق رصاصة . . .

– ولكن لماذا هم ذاهبون الى هناك ؟ . . انظر اى عدد ضخم من الناس . . . ماذا يريدون ان يفعلوا ؟ . .

كانت داشا تنظر الى سيل الرؤوس المتموج والى خطوط السطوح والابراج . كان الصباح باهت الضوء ، خفيف البرد . وكان ثمة سرب من غربان الزروع يحوم

بعيدا فوق القباب الذهبية لكنائس الكريملين وفوق النسور المقوسة الارجل فى اعلى الابراج المدببة .

وخيل لداشا ان انهارا عظيمة قد اكتسحت الجليد ، وطفحت على الارض وانها وعزيزها محمولان بهذا التيار ، وليس عليها الآن الا ان تمسك يده بقوة . وخفق قلبها قلقا وفرحا ، مثل قلب طائر يحلق فى اعالى الجو .

قالت كاتيا :

– اريد ان ارى كل شيء ، لنخرج الى الشارع .

كانت الاعلام الحمراء تزين بناية دوما المدينة الاجرية الداكنة اللون – مقر قيادة الثورة – ذات الاعمدة الشبيهة بالقنانى ، والدرابزينات العديدة ، والشرفات والابراج . وكانت شرائط القماش الاحمر تلف الاعمدة ، وتتدلى فوق افريز المدخل الرئيسى . وامام المدخل اربعة مدافع رمادية على عجلات عالية رابضة على الرصيف المتجمد . وعلى المدخل جلس جنود الرشاشات متكورين على انفسهم ، وقد زينوا كتافياتهم باشرطة حمراء . وكانت جماهير غفيرة من الناس تنظر بتوجس مرح الى الاعلام الحمراء ، والى نوافذ الدوما المتربة السوداء . حتى اذا ظهر فى الشرفة الصغيرة فوق مدخل البناية شخص صغير الجرم بادى الانفعال ، ولوح بيديه ، وصرخ بشيء غير مسموع . ارتفع من الحشد هدير الفرح .

وكان الناس اذا ملأوا ابصارهم بالنظر الى الاعلام والمدافع انصرفوا سائرين على الثلج الذائب قليلا والقذر عبر اطواق كنيسة ايفرسكايا العميقة خارجين الى الساحة الحمراء ، حيث كانت الوحدات العسكرية الثائرة تجرى مفاوضات عند بوابتى سباسكيه ونيكولسكيه مع المنتدبين من الفوج الاحتياطى المرابط والمتحصن فى الكريملين .

دفعت الجماهير كاتيا وداشا وتليغين بسيلها الى مدخل الدوما تماما . كان الصباح يترامى متعاليا من شارع تفيرسكايا حتى ملأ ارجاء الساحة .

– يارفاق ، تنحوا . . . يارفاق راعوا النظام !

ارتفعت بذلك اصوات شابة منفعلة . انشق حشد الناس على مضض ، فاندفع خلاله الى مدخل الدوما اربعة طلاب يلوحون ببنادقهم ، وشابة مليحة الوجه شعثاء الشعر فى يدها سيف . كانوا يسوقون عشرة معتقلين من رجال الشرطة ضخام مشوربين مطرقى الرؤوس عابسين شدت ايديهم وراء ظهورهم . سار فى مقدمتهم ضابط شرطة له راس حليق مزرق حاسر ، والدم قد تخثر مسودا عند صدغه . مرر عينيه الصهباوين اللامعتين بسرعة على وجوه الحشد المستهزئة . كانت كتافيتا معطفه قد انتزعتا مع قطعة منه .

وتردد اصوات من الحشد :

– جاء ماكان ينتظركم ، يا اصحاب ! لعبتم علينا ، وكفى .

– وحكمتم حكم القياصرة . . .

– عترة ملعونة ! . . .

– امسكوهم ، واجعلوهم يذوقون العذاب . . .

– يا اولاد ، هيا ! . .

صاح الطلبة مبحوحى الاصوات :

– يارفاق ، يارفاق . اتركوهم يمرون . راعوا النظام الثورى !

وصعدوا الى مدخل الدوما راكضين دافعين رجال الشرطة ، وغيبتهم الابواب . وعندئذ تدافع وراءهم بعض الاشخاص ، ومن بينهم كاتيا وداشا وتليغين .

كان بعض جنود الرشاشات يقرفصون عند رشاشاتهم على الارض الرطبة فى دهليز عار عالى السقف باهت الاضاءة . وكان احد الطلبة – وهو فتى ممتلئ الخدين صعقه الصياح والتعب على مايبدو – يصيح بكل داخل .

– لا اريد ان افهم شيئا ! اعطنى الترخيص بالدخول ! . .

وكان بعض الداخلين يبرزون له تراخيصهم ، والبعض الاخر يكتفون بهز اذرعهم عليه ، ويرتقون السلم العريض الى الطابق الثانى ، حيث كان الجنود المتربون النعسى الصموتون مستلقين او تابعين قرب جدران الممرات العريضة غير تاركين بنادقهم . كان بعضهم يمضغ الخبز ، والبعض الآخر يشخر ، وسيقانهم الملفوفة

بلفائفها منطوية تحتهم . وكان المتفرجون يمرون متسكعين ويقرأون الاعلانات الغريبة المدبسة على الابواب ويتطلعون الى المفوضين المبحوحين الراكضين من حجرة الى اخرى ، المهتاجين الى آخر حدود الطاقة الانسانية .

امتلأ بصر كاتيا وداشا وتليغين بكل هذه الغرائب ، وشقوا طريقهم الى قاعة ذات علو مزدوج تغطى نوافذها ستائر ارجوانية حائلة اللون ، وتصطف فيها المساطب المبطنة بالارجوان على شكل انصاف دوائر . وكان على الجدار الأمامى اطاران مذهبان فارغان كانا يضمان من قبل صورتى القيصر والقيصرة ويبدوان الآن مثل بقعتين سوداوين ضخمتين . وامام الاطارين تمثال مرمرى للامبراطورة يكاترينا فى روبها البرونزى المتباعد الطرفين . تبتسم منطلقة الاسارير مداهنة شعبها .

وعلى مساطب القاعة جلس اناس مرهقون يسندون رؤوسهم على ايديهم وقد بدت وجوههم مسودة غير حليقة . وكان بعض الرجال نائمين دافنين وجوههم فى لوحة الكتابة امامهم ، والبعض الآخر ينزعون القشرة عن قطع السجق فى غير ما رغبة ، ويأكلون الخبز . وفى الاسفل ، امام تمثال يكاترينا المبتسمة ، جلس شبان ممتقعو الوجوه فى قمصان سود الى منضدة طويلة فرش عليها غطاء من المخمل الاخضر المذهب الحواشى . وبين هؤلاء رجل اصهب اللحية طويل الشعر . . . قالت كاتيا :

– انظرى يا داشا . هذا هو الرفيق كوزما وراء المنضدة .

وفى تلك اللحظة تقدمت من الرفيق كوزما فتاة قصيرة الشعر ، مدببة الأنف ، واخذت تهمس بشىء . اصغى الرجل دون ان يلتفت ثم نهض وقال :

– أعلن غوتشكوف رئيس البلدية للمرة الثانية انه لن يوزع الاسلحة على العمال . اقترح التصويت بدون مناقشة على احتجاج ضد عمل اللجنة الثورية .

واخيرا استطاع تليغين ان يعرف (بعد ان استجوب طالبا قصيرا مستغرقا فى تدخين سيكارة) ان اجتماع سوفييت نواب العمال مستمر هنا فى قاعة يكاترينينسكى هذه لليوم الثانى بلا انقطاع .

فى فترة الغداء رأى جنود الفوج الاحتياطى الموجودون فى

الكريملين دخـــان مطابخ الميدان المتنقلـــة فى الساحة الحمراء فاستسلموا ، وفتحوا البوابة . وعم الصياح الساحة ، وارتفعت القبعات فى الهواء . وارتقى جندى صغير لوبنويه ميستو * الموضع الذى قتل فيه دميترى الدعى ** فى زمانه ، فانطرح عاريا تماما ، وقناع خروف على وجهه ، ومزمار البهلول على بطنه ، ذلك المكان الذى كان يعلن فيه تتويج القياصرة وتنحيتهم عن العرش ، وتذاع فيه جميع حريات الشعب الروسى وقيوده ، ارتقى تلك المنصة الواطئة التى كان الارقطيون يتناثر عليها احيانا كثيرة ، ثم يعود الدم المسفوك فيرويها . وكان هذا الجندى الضئيل يرتدى معطفا صلبا ، وبدا يتكلم عن شىء منحنيا للناس ، دافعا طاقيته العالية الى اذنيه بكلتا يديه ، ولم يتبين احد شيئا من كلامه لشدة الصخب . وكان الجندى ضئيلا جدا ، غربل فى آخر موجة للتجنيد من احدى الاماكن النائية ، ومع ذلك فان سيدة كانت تضع على راسها قبعـة بريش مائلة الى جانب قد شقت طريقها اليه ، وقبلته . وبعد ذلك انزله الناس من «لوبنويه ميستو» ، ورفعوه على اذرعهم ، وحملوه هاتفين .

وفى تلك الاثناء صعد شاب من المحتشدين على تمثال الجنرال سكوبليف مقابل دار الحاكم العام فى شارع تفيرسكايا ، وشد قطعة من القماش الاحمر على سيفه . وتعالى الهتاف له . وانسل بعض الاشخاص الغامضين الى قسم البوليس السرى من الزقاق وسمع من هناك صوت زجاج يتكسر ، ثم طلع دخان . وهتف اناس : «هورا» . وعند نصب بوشكين فى بولفار تفير سكوى تحدثت كاتبة مشهورة والدمع يسح من مآقيها عن فجر الحياة الجديدة ، وبعد ذلك وضعت بمساعدة طالب علما احمر صغيرا على يد بوشكين الواقف فى لحظة استغـــراق . وهتف الناس : «هورا» . وكانت المدينة كلهـــا

---

* منصة حجرية مستديرة الشكل كانت تعلن من فوقها مراسيم القياصرة واحكام الاعدام . (المترجم) .

** المدعى الثالث على عرش روسيا ؛ وقد تسمى باسم دميترى ابن القيصر ايفان الرابع (الرهيب) واعدم سنة ١٦١٢ فى موسكو فى «لوبنويه ميستو» . (المترجم) .

كالسكرى طيلة ذلك اليوم . ولم يعد احد الى بيته حتى ساعـة متاخرة من الليل ، وقد تجمهـــر النـــاس فى تجمعـات ، وراحوا يتحدثون ، ويبكون من الفرح ، ويتعانقون ، وينتظرون برقيات . فان روح اهالى المدينة تطغى بعد ثلاثة اعوام من الجزع والكراهية والدم .

عادت كاتيـا وداشا وتليغين الى البيت عند هبوط الظلام فعرفوا ان الخادمـــة ليزا قد خرجت الى بولفار بريتشستنسكى لحضور اجتماع ، وان الطباخة قد حبست نفسها فى المطبخ ، وانها تبكى وتطلق صرخات خافتة . افلحت كاتيا بعد لأى فى اجبارها على فتح الباب :

— ماذا حدث لك ، يامارفوشا ؟

— قـ . . . ستـ . . لوا . . . قيصرنا .

قالت وغطت بيدها فمها الممتلىء ذا الشفتين المنتفختين من البكاء . وكانت رائحة الكحول تفوح منها .

قالت كاتيا منزعجة :

— انت تقولين هراء . ان احدا لم يقتله .

وضعت سخان الشاى على موقد الغاز ، وذهبت لتعد المائدة . استلقت داشا على الاريكة فى غرفة الجلوس وجلس تليغين عند قدميها . قالت داشا :

— ايفان ، ياعزيزى ، اذا اخذتنى غفوة دون ان ادرى ، فايقظنى حين يعد الشاى فانا مشوقة اليه جدا .

وانقلبت ، ووضعت كفيها تحت خدها ، وقالت بصوت ادركه النعاس :

— احبك كثيرا .

فى الشفق كان اللفاح الذى كان تلتف به داشا يلوح ابيض . وكان تنفسها غير مسموع . جلس ايفان بلا حراك ، وقد انفعم قلبه . ظهر ضوء فى شق الباب فى نهاية الغرفة ، ثم انفتح الباب ، ودخلت كاتيا ، وجلست الى جانب ايفان ايليتش على مسند الاريكة وطوقت ركبتيها . وبعد برهة من الصمت سألت بصوت خفيض :

— غفت داشا ؟

— طلبت ان توقظ عند تهيئة الشاى .

– ومارفوشا تبكى فى المطبخ لأن القيصر قتـــل . ماذا سيحصل ، يا ايفان ايليتش ؟ . . يخامرنى شعور بان جميع السدود قد خرقت . . . وقلبى يوجعنى خوفا على نيقولاى ايفانوفيتش . . . ارجو ، ياعزيزى ، ان ترسل له برقية فى الصباح الباكر غدا . . . قل لى متى تنويان – انت وداشا – السفر الى بتروغراد ؟

لم يجب ايفان ايليتش . ادارت كاتيا له راسها وتفرست فى وجهه بعينيها الواسعتين كعينى داشا تماما ، سوى انهما عينا امراة جديتان ، وابتسمت ، وجذبت ايفان ايليتش ، وقبلته من جبينه .

فى صباح اليوم التالى خرج الناس جميعا الى الشارع . سارت الشاحنات المملوءة بالجنود فى شارع تفيرسكايا وسط زحـام الناس ، والهتافات المتواصلـة ، فكان الجنـود مسلحين بالحراب والسيوف . واعتلى الصبيان متون المدافع المقرقعـة ووقفت على اكوام الثلج القذرة وعلى الارصفة لحراسة النظام فتيات فى ريعان الشباب شاهرات السيوف متوترات الوجوه وطلاب مدججون بالسلاح لا يعرفون الرحمة . انهم الميليشيـا المتطوعة . صعد اصحاب الحوانيت على السلالم وانزلوا النسور الامبراطورية من لافتاتهم . وسارت فى شارع المدينة فتيات سقيمات المظهر – هن عاملات من معمل التبغ يحملن صورة ليف تولستوى الذى كان ينظر بجهامة من تحت حاجبيه المعقودين الى كل هذه الغرائب . وبدا وكأن من المستحيل ان تكون بعد الان حرب او بغضاء ، ولم يبق الا ان ترفع الراية الحمراء على احد ابراج الاجراس العاليـة حتى يدرك العالم اجمع اننا جميعا اخوة ، وان القوة الوحيدة فى الدنيـا هى الفرح والحرية والحب ، والحياة . . .

وحين حملت البرقيات النبـا الصاعق عن تنحيـة القيصر وانتقال المُلك الى كبير الامراء ميخائيل ، وعن رفضه للعرش القيصرى بدوره ، لم يدهش احد كثيرا ، فقد بدا وكان تلك الأيام حبلى باعظم من هذه العجائب .

لمعت نجمـة فى السماء الشفافـة اللانهائيـة العمق ، فوق خطوط السطوح غير المستقيمة ، والشفق البرتقالى . ولاحت اغصان الزيزفون العارية سوداء ساكنة تلبدت الظلمة تحتها تماما ،

وتجمدت البرك على الرصيف وراحت تتكسر تحت الاقدام . توقفت داشا ، ودون ان تفك يديها المتشابكتين اللتين طوقت بهما يد ايفان ايليتش مدت بصرها عبر السياج الواطئ فى الضوء الباهت فى النافذة الصغيرة العميقة فى كنيسة القديس نيقولا .

كانت الكنيسـة وفناؤهـا فى الظل تحت اشجار الزيزفون . ترامى من بعيد صوت انصفاق باب وسار فى الفناء رجل قصير فى معطف طويل يصل الى الارض ، وقبعة معكوفة الحافة . وكان الجليد يتكسر تحت حذائه اللبـادى ، وترامت صلصلة المفاتيح . اخذ الرجل يرتقى برج الجرس على مهل . همست داشا :

– ذهب القندلفت ليدق الجرس .

ورفعت داشا راسها . كان ألَق الغروب يرتمى على ذهب القبة الصغيرة على برج الكنيسة .

دق الجرس الذى يدعو الناس منذ ثلاثمائـة عام الى سكينـة النفس قبل النوم . وقفزت الى ذاكرة ايفان ايليتش فى الحال تلك الكنيسة الصغيرة فى الطريق ، والمراة التى كانت تبكى بصمت على عتبتها وهى بردائها الابيض ، والطفل الميت على ركبتيها . ضغط ايفان ايليتش بكوعه على يد داشا ضغطة قوية . نظرت داشا اليه نظرة تساؤل . وسالته بهمس سريع :

– اتريد ؟ لنذهب . . .

ابتسم ايفان ايليتش ابتسامة عريضة ، فعبست داشـا وضربت الارض بحذائها .

– ليس فى الامر ما يضحك حين تسير امراة ويدها بيد الشخص الذى تحبه اكثر من اى شىء آخـر على الارض ، وتبصر ضوءا فى نافذة فيدخلان الكنيسة ، ويعقدان قرانهما . . .

وتناولت داشا يد ايفان ايليتش ثانية ، وسالت :

– هل انت فاهمى ؟

٣٩

– ايها المواطنون ، جنود الجيش الروسى الحـر منذ الآن فصاعدا . لقد حظيت بشرف نادر ، هو ان اهنئكم بيوم مجيد : ان قيود العبودية قد حطمت ، وقام الشعب الروسى خلال ثلاثة ايام

باعظم ثورة فى التاريخ دون اراقة قطرة من الدماء . فقد خلع القيصر المتوج عن العرش ، واعتقل الوزراء القيصريون . وتنازل ميخائيل ولى العهد من تلقاء نفسه عن عبء العرش الثقيل . ومنذ اليوم انتقلت السلطة بكامل هيبتها الى الشعب . واصبحت على راس الدولة حكومة مؤقتة لكى تجرى الانتخابات الى الجمعية التاسيسية لعموم روسيا فى اقرب وقت مستطاع ، على اساس التصويت السرى المباشر المتساوى العام . . . فلنهتف منذ اليوم : عاشت الثورة الروسية ، عاشت الجمعية التأسيسية ، عاشت الحكومة المؤقتة ! . . .

تعالى هتاف طويل من آلاف الجنود المحتشدين . اخرج نيقولاى ايفانوفيتش سموكوفنيكوف منديلا كبيرا كاكى اللون من جيب سترته الشموا ، ومسح رقبته ووجهه ولحيته . كان يتكلم وهو واقف على منصة مصنوعة بارتجال من الواح خشبية ، يضطر الصاعد اليها الى التسلق على عوارض متقاطعة . وكان يقف وراء ظهره آمر الكتيبة تيتكين الذى رقى قبل حين الى رتبة مقدم ، وقد ارتسم الانتباه المتوتر على وجهه المسفوع بلحيته القصيرة وانفه الممتلئ . وحين تعالى الهتاف رفع يده الى طرف طاقيته بتحية ساهمة . وكان زهاء الفى جندى يقفون امام المنصة فى الحقل المنبسط المرقش ببقع سوداء من الارض والثلج المتسخ . كانوا يقفون فاغرى الافواه معتمرين بالخوذ الحديدية لابسين المعاطف المتجعدة بلا احزمة ، وبلا سلاح ، يصغون الى الكلمات المذهلة الذى كان ينطق بها سيد احمر كالديك الحبشى . وفى المدى البعيد كانت مداخن قرية محروقة تلوح بارزة من خلال الضباب الرمادى . ووراء القرية كانت تبدا مواقع الالمان .

— ايها الجنود !

تابع نيقولاى ايفانوفيتش خطابه ، وقد مد الى الامام يده منفرجة الاصابع ، وتدفق الدم الى رقبته :

— بالامس فقط كنتم اناسا من درجة واطئة ، قطيعا اعجم كانت القيادة العليا القيصرية ترسله الى المذبحة . ولم يكونوا يسألونكم ما الذى يجب ان تموتوا من اجله . . كانوا يجلدونكم على اقل ذنب ، ويرمونكم بالرصاص دون محكمة . . (سعل المقدم

تيتكين ، ورفع قدما ووضع اخرى ، الا انه صمت ، وانزل راسه ثانية ، وعاد الى اصغائه) . لقد عينتنى الحكومة المؤقتة مفوضا لجيوش الجبهة الغربية – وهنا شد نيقولاى ايفانوفيتش على اصابعه كمن يمسك بعنان – واصرح لكم انه منذ اليوم لا توجد رتب واطئة ، ولا القاب . وانتم الجنود ، منذ اليوم ، مواطنون متساوون للدولة الروسية ولا يوجد الان فرق بين الجنود وقائد الجيش . وقد الغيت القاب صاحب السيادة ، صاحب المعالى ، صاحب الفخامة . منذ اليوم ستقولون «مرحبا ايها السيد الجنرال» و«لا ، ايها السيد الجنرال» و«نعم ، ايها السيد الجنرال» . وصيغ الجواب المهينة مثل «بالامر والخدمة ، يا صاحب السيادة» قد الغيت كما الغى اداء الجندى التحية العسكرية لكل ضابط مهما تكن رتبته . وفى امكانكم ان تصافحوا الجنرال اذا شئتم ذلك . . .

ها – ها – ها –

سرت هذه الوهوهة مرحة فى حشد الجنود . وابتسم تيتكين ايضا ، ورفت رموشه خوفا .

— واخيرا نأتى الى الشيء الاهم : ايها الجنود ، من قبل كانت الحكومة القيصرية هى التى تخوض الحرب ، ومنذ اليوم سيخوضها الشعب ، انتم انفسكم . ولهذا تقترح الحكومة المؤقتة عليكم تشكيل لجان الجنود فى جميع الجيوش – لجان السرايا والكتائب والافواج صعودا حتى لجان الجيوش . . . ارسلوا الى هذه اللجان الرفاق الذين تثقون بهم ! . . ومنذ اليوم سيتحرك اصبع الجندى على الخارطة العسكرية الى جانب قلم القائد الاعلى . . . ايها الجنود ، اهنئكم بمكسب الثورة الرئيسى ! . .

وضجت الهتافات فى الحقل مرة اخرى . وقف تيتكين بهيئة استعداد ، وادى التحية العسكرية . واكتسى وجهه لونا رماديا . واخذت الصيحات ترتفع من الجنود المحتشدين :

— هل سنعقد الصلح مع الالمان عن قريب ؟

— كم سيخصصون من الصابون للفرد الواحد ؟

— وماذا بخصوص الاجازات ؟ ماهى التعليمات ؟

— ايها السيد المفوض . ماذا سيكون عندنا الآن ؟ هل سننتخب ملكا ؟ ومَن سيحارب ؟

ولكى يرد على الاسئلة على نحو افضل نزل نيقولاى ايفانوفيتش من المنصة ، فاحاطه الجنود الهتاجون فى الحال . اسند المقدم تيتكين مرفقه على درابزين المنصة ، وراقب راس المفوض الحربى الحليق الحسير وقفاه الممتلئ وهو يتحرك وسط الخوذ الحديدية ، ويدور ويبتعد . امسك جندى احمر الشعر يلوح عليه المرح والغضب يضع معطفه على كتفيه (كان تيتكين يعرفه جيدا ، من سرية المخابرة) امسك نيقولاى ايفانوفيتش من حزام سترته ، وراح يسائله مطوفا بصره فيما حوله :

– ايها السيد المفوض الحربى ، انت تحدثت لنا حديثا مشوقا ، ونحن اصغينا اليه بشوق ... والآن اجبنى على هذا السؤال .

ضج الجنود فرحين ، واشتد تزاحمهم . تعبس المقدم تيتكين ، ونزل من المنصة واجما .

قال الجندى وهو يكاد يمس انف نيقولاى ايفانوفيتش باظفره الاسود :

– اطرح عليك هذا السؤال . تلقيت من قريتى رسالة تخبرنى بان البقرة التى كانت فى بيتى قد فطست ، وانا لا املك حصانا ، زوجتى راحت تطوف فى الارض مع اولادنا تستجدى الناس كسر الخبز ... اريد ان اسأل : ايحق لك الآن ان ترمينى بالرصاص اذا حاولت الهرب ؟

– اذا كانت سلامتك الشخصية اغلى عندك من الحرية ، ففى وسعك ان تخونها ، تخونها كيهوذا . عندئذ ستقول روسيا لك فى وجهك : لا تستحق ان تكون جنديا فى الجيش الثورى ... اذهب الى بيتك !

صرخ نيقولاى ايفانوفيتش بحدة ، فقال الجندى :

– لا تصرخ على !

– ومن انت لتصرخ علينا !

– ايها الجنود – ورفع نيقولاى ايفانوفيتش جسمه على اطراف اصابعه – هنا يجرى سوء تفاهم ... ان الوصية الاولى للثورة هى الاخلاص لحلفائنا ... وعلى الجيش الروسى الثورى الحر ان يهاجم بقوة جديدة عدو الحرية الالد ، المانيا الامبريالية ...

فارتفع صوت غليظ :

– وانت هل سبق لك ان غذيت القمل من دمك فى الخنادق ؟

– انه لم ير قملة واحدة منذ ولادته ...

– اهد له ثلاثا للتكاثر ...

– لا تحدثنا عن الحرية . حدثنا عن الحرب . نحن نحارب منذ ثلاث سنوات ... انت فى طيب مقام فى المؤخرة ، تغذى لك كرشا اما نحن فيجب ان نعرف كيف تنهى الحرب ...

صاح نيقولاى ايفانوفيتش مرة اخرى :

– ايها الجنود ، ان راية الثورة قد رفعت . الحرية والحرب حتى النصر الاخير ...

– اوه ، ابله ملعون لا فائدة منه ...

– نحن نحارب منذ ثلاث سنوات ، ولم نجد نصرا ...

– ولماذا اذن خلعوا القيصر ؟ ..

– خلعوا القيصر عن قصد . كان يعرقل عليهم تطويل الحرب ...

– انه ماجور ، يا رفاق ...

شق المقدم تيتكين طريقه الى نيقولاى ايفانوفيتش دافعا الجنود بكوعه ، وشاهد مدفعيا ضخما مكور الكتفين اسود الشعر يمسك المفوض من صدره ، ويهزه ويصرخ فى وجهه :

– لماذا جئت الى هنا ؟ قل : لماذا جئت الينا ؟ جئت لبيعنا ، يا ابن الكلبة ...

وغار قفا المفوض المستدير فى رقبته ، واهتزت لحيته الشائلة الى فوق ، الشبيهة بلحية مستعارة . دفع الجندىَ ، ومزق باصابع مرتجفة ياقة قميصه . تعبس الجندى وخلع خوذته الحديدية ، وضرب بها راس نيقولاى ايفانوفيتش ووجهه عدة ضربات قوية ...

٤٠

جلس حارس ليلى ورجل من رجال الميليشيا عند باب مخزن المجوهراتى مورافييتشيك يتبادلان الحديث بخفوت . وكان الشارع خاليا ، والمخازن مغلقة ، وريح آذار الخفيفة تصفر فى اشجار الحور

التى لم تكتس اوراقها بعد ، وتخشخش فى اعلان «قرض الحرية» الملصق على سياج ، والقمر الوضاء كقمر الجنوب ، الحى ، مثل قنديل البحر يتدلى عاليا فوق المدينة .

وكان الحارس الليلى يتحدث ببطء :

– وكان هو يصطاف فى منزله على الساحل البحرى فى يالطا . وكان قد خرج الى التنزه فى سروال ابيض ، حسب الاصول ، بكل نياشينه . واذا بهم يسلمونه برقية فى الشارع عن خلع صاحب الجلالة الامبراطور . ويقرا البرقية ، وتنفجر الدموع من عينيه امام الناس جميعا .

ردد رجل الميليشيا متعجبا :

– اى ، اى ، اى .

– وبعد اسبوع اُقيل .

– والسبب ؟

– لانه حاكم ، والحاكم غير مقبول فى هذه الايام .

– اى ، اى ، اى . .

كرر رجل الميليشيا تعجبه ، ناظرا الى قط شاو كان ماضيا فى شؤونه بحذر فى ظل القمر تحت شجيرات الاقاسيا .

– . . . وكان جلالة الامبراطور يعيش فى ذلك الوقت فى موغيليف بين قواته وحياته رخية مطمئنة . فى النهار يشبع من النوم ، وفى الليل يطالع التقارير عن المعارك الحاصلة . . .

قال رجل الميليشيا :

– الملعون عطشان بالتاكيد ، وذاهب لشرب الماء :

– عمن تتحدث ؟

– عن قط مخزن سينوبلى للدخان . خرج يتمشى .

– حسنا . وفجاة يتصلون بجلالة الامبراطور بالخط المباشر ، ويبلغونه بكذا وكيت ، ويقولون ان شعب بتروغراد ثائر ، والجنود لا يريدون التصدى للشعب ، بل يبتغون العودة الى بيوتهم . ولكن صاحب الجلالة لا يظن ذلك بالأمر الخطير ، ويستدعى جميع الجنرالات ، ويلبس النياشين والوشائح ، ويخرج اليهم ليقول : «الشعب ثائر فى بتروغراد ، والجنود لا يريدون التصدى للشعب بل يبتغون العودة الى بيوتهم . فماذا يجب ان

افعل ؟ ادلوا لى برأيكم ، وماذا تحسبون ؟ نظر جلالته الى الجنرالات ، ولكن هؤلاء ، يا صاحبى ، لم يقولوا رايهم ، بل اداروا وجوههم جميعا . . .

– اى ، اى ، اى ، مصيبة !

– واحد منهم فقط لم يدر وجهه عن الامبراطور ، وهو جنرال عجوز سكير . قال له : «ياصاحب الجلالة ، مرنى اضع رقبتى لك» . هز صاحب الجلالة راسه ، وابتسم بمرارة ، وقال : «من بين جميع رعاياى الاحباء لم يبق الا واحد مخلص ، وحتى هذا تجده سكران كل يوم منذ الصباح . والظاهر ان ملكى قد انتهى ، ناولونى ورقة فيها شعار الدولة لأوقع على تنازلى عن العرش» .

– ووقع بالفعل ؟

– وقع ، وذرف دموعا مريرة .

– اى ، اى ، اى ، مصيبة . . .

وفى تلك الاثناء مر بالمخزن رجل طويل يلبس كيبية ذات راس مدبب كبير غاطسة حتى حاجبيه . وكان ردن سترته الفارغ محشورا فى حزامه . ادار وجهه نحو الرجلين الجالسين عند المخزن ، ولمعت اسنانه بوضوح . قال الحارس خافت الصوت :

– هذا الرجل يمر للمرة الرابعة .

– انه لص بالتاكيد .

– هذه الحرب هى التى ولدتهم بهذه الكثرة ياصاحبى . ظهروا فى اماكن لم تعرفهم من قبل . فنانون فى صنعتهم .

دقت الساعة على برج الجرس ثلاث دقات من مسافة بعيدة ، واعقبها صياح ديكة الفجر . وظهر ذو الذراع الواحدة فى الشارع مرة اخرى . وقد اتجه هذه المرة الى الحارسين تماما ، نحو المخزن . صمت الرجلان وراحا يتطلعان اليه . وفجاة قال الحارس بهمس متسارع :

– وقعنا فى داهية ، يا ايفان . اطلق صفارتك .

اخذ رجل الميليشيا يخرج صفارته الا ان ذا الذراع الواحدة وثب عليه ، وضربه بقدمه على صدره ، وفى نفس اللحظة ضرب الحارس الليلى بمقبض المسدس على راسه . وفى تلك البرهة ركض رجل ثان نحو المدخل : كان قصيرا بارز الشاربين فى معطف جندى ،

وقد انقض على رجل الميليشيا ، ولوى ذراعيه وراء ظهره بحركة سريعة قوية .

واخذ ذو الذراع الوحدة والقصير يعالجان القفل صامتين حتى فلاه ، ودخلا مخزن مورافيبيشيك ساحبين الى داخلـه الحارس المصعـوق ورجل الميليشيـا المشدود الذراعين ، وسدا الباب وراءهما .

وانتهى كل شيء فى بضع دقائق . شدت الاحجار الكريمـة والذهب فى صرتين . وبعد ذلك قال القصير :

– وهذان ؟

ورفس بحذائه رجل الميليشيا الذى كان منطرحا على الارض قرب البسطة .

تمتم رجل الميليشيا بصوت ضعيف :

– ياعزيزى ، لا داعى للقتل لا تفعلاه ايها الطيبان . .

قال ذو الذواع الواحدة بحدة :

– لنذهب .

– اقول لك انهما سيبلغان عنا .

– لنذهب ، يا سافل !

وامسك اركادى جادوف الصرة باسنانـه ، ووجه مسدسه «الموزر» على شريكه . فضحك هذا بتهكم ، وسار نحو الباب . وكان الشارع ما يزال خاليا . خرج الاثنان بهدوء ، وانعطفا فى ركن الشارع ، وسارا نحو «قصر كابرنيه» . قال جادوف للرجل القصير اثناء سيره :

– سافل ، قاتل ، وغد . تجنب ذلك ، اذا كنت تريد العمل معى . فهمت ؟

– فهمت .

– والآن ، اعطنى الصرة . واذهب فى الحال واعد القارب ، ساذهب انا لاحضار زوجتى . يجب ان نكون فى البحر عند الفجر .

– نذهب الى يالطا ؟

– ليس هذا شانك . الى يالطا او الى القسطنطينية . . .

انا صاحب الأمر .

٤١

سافر تليغين وداشا الى بتروغراد ، وبقيت كاتيا وحيدة . وقد رافقتهما الى محطة القطار – كانا فى حالة من شرود الذهن ، وكانهما فى حلم – وعادت الى البيت وحدها عند حلول الظلام .

كان البيت خاليا . فقد خرجت مارفوشـا وليزا الى اجتماع خدام البيوت . كانت غرفة الطعام ما تزال عابقـة برائحة تبغ وزهور ، وشجيرة الكرز المزهرة ماتزال واقفة فى موضعها بين اوانى الطعام غير المرفوعة . سقت كاتيا الشجيرة بدورق المـاء ، وجمعت اوانى الطعام وجلست على مقعد دون ان تشعل الضوء ، ووجهها الى النافذة فرات السماء وراءها مظلمة ملفعة بالسحب . دقت ساعة الحائط فى غرفة الطعام . وستمضى فى دقاتها ، حتى لو تمزق القلب حزنا وكمدا . ظلت كاتيا جالسة فى سكون وقتـا طويلا ، ثم تناولت لفاعا ازغب من على الكرسى الوثير ، والقته على كتفيها ، وذهبت الى غرفة داشا .

كان الفراش المخطط على السرير العارى يلوح فى الظلمة . وعلى احد المقاعد علبة كرتونية فارغة من علب القبعـات ، وعلى الأرض تناثرت اوراق ومزق . وبعد ان عرفت كاتيا ان داشا اخذت معها كل حاجياتها ، ولم تبق او تنس شيئا . فكدرها ذلك عظيـم التكـدر حتى تندت عيناهـا . جلست على السرير ، على الفراش المخطط ، ساكنة ايضا وبلا حراك كما كانت فى غرفة الطعام .

دقت ساعة غرفة الطعام العاشرة دقات رنانة . عدلت كاتيا اللفاع على كتفيهـا ، وذهبت الى المطبخ ووقفت هناك برهة ، وارهفت سمعها ، ثم رفعت جسمها على اطراف اصابعها ، وتناولت من الرف دفتر المطبخ ، انتزعت منه ورقة بيضاء ، وكتبت بقلم رصاص : «ليزا ومارفوشا . كان يجب ان تخجلا على ترككما البيت طوال النهار وحتى الليل» . ونزلت دمعة على الورقة . وضعت كاتيا الورقة على طاولة المطبخ ، وذهبت الى مخدعها . فخلعت ملابسها على عجل ، وانسلت الى سريرها ، وهدأت .

فى منتصف الليل صفق باب المطبخ ، ودخلت ليزا ومارفوشا تطبطبان باقدامهما وتتحدثان بصوت عال ، وراحتا وجاءتـا فى

المطبخ ، ثم هدات حركتهما . وبعد ذلك ارتفع ضحكها فجأة ، بعد ان قرأتا الورقة . طرفت كاتيا بعينيها ، ولم تبد حراكا .

ساد السكون فى المطبخ فى آخر الأمر . ودقت الساعة معلنة الواحد بعد منتصف الليل . وترامت هذه الدقة رنانة ومزرقة . انقلبت كاتيا على ظهرها ، وازاحت البطانيـة عنها بضربة من قدمهـا ، وتنهدت بصعوبـة عدة مرات ، وكانها لا تجد الكفايـة من الهواء ، وقفزت من السرير ، واضاءت المصباح الكهربائى ، وقلصت عينيها من ضوئه المفاجىء واقتربت من المرآة الكبيرة القائمـة . كان قميص النوم الخفيف لا يصل الى ركبتيها . نظرت كاتيا الى صورتها فى المرآة بسرعة وسهوم ، الى صورة تبدو جد اليفة لها ، وارتعش حنكها . دنت من المرآة كثيرا ، ورفعت شعرها من الجانب الايمن . «نعم ، نعم ، بالطبع . هذا ثم هذا . . . – وتمعنت فى وجههـا كله – نعم ، نعم ، طبعا . . . وبعد عام سيشتعل رأسى شيبا ، ثم تدركنى الشيخوخة» . اطفات الكهرباء ، واستلقت على السرير ثانية ، وغطت عينيها بكوعها . «لم اذق لحظـة من الهناء طوال حياتى . والان انتهى كل شىء . . . لن يطوقنى احد بذراعيـه ، ولا يعتصرنى ، ولا احد يقـول لى : ياعزيزتى ، يـا حبيبتى ، يا فرحتى . . .»

ومن بين الافكار المرة والتاسفات طاف فى ذاكرة كاتيا فجأة درب رملى رطب عبر مرج من الارض مزرورق من المطر ، واشجار زيزفون كبيرة . . . وهى نفسها – كاتيا – تسير فى هذا الدرب فى ثوب بنى ومؤزر اسود ، والرمل يهسهس تحت نعليها ، وهى تحس بخفتها ، ورشاقتها ، والنسيم يداعب شعرها ، والطالب اليوشـا يقود دراجته على العشب الرطب ، لا على الدرب ، ولكن على العشب المبلل . وانقلبت كاتيا لتمنع نفسها من الضحك . . . واليوشا يقول بصوت اجوف : «انا اعرف – انا لاآمل بان تبادلينى شعورى . وقد جئت لغاية واحدة فقط ، هى ان افضى ذلك لك . سانهى حياتى يوما ما فى محطة قطار نائية ، فوداعا . . .» ويمتطى دراجتـه ويسير عبر المرج ، مخلفا وراءه اثرا ازرق على العشب . . . ظهره مكـور فى سترته الرماديـة ، وطاقيتـه البيضاء تختفى ورا الخضرة . وتصرخ كاتيا : «اليوشا ، عد !»

... احقا ان هذه التى يعذبها الارق الآن ، كانت واقفة آنئذ فى ذلك الدرب الرطب ، والنسيم الصيفى العبق برائحـة المطر يداعب مئزرها الاسود ؟ قعدت كاتيا فى السرير ، ووضعت راسها بين يديها ، واسندت كوعيها على ركبتيهـا العاريتين ، ولاحت فى خيالها اضواء مصابيح شاحبة ، ورذاذ ثلجى ، وريـح تدوى فى اشجار جرداء ، وصرير زلاجة زاعق موحش قانط ، وعينا بيسونوف الجليدتان قريبتين من عينيها . . . حلاوة الخور وشلل الارادة . . . رعشة الفضول المقززة . . .

اضطجعت كاتيا مرة اخرى . ورن الجرس بحدة فى سكـون البيت . سرت البرودة فى جسد كاتيا . ورن الجرس للمرة الثانية . سارت ليزا فى الدهليز حافية نصف نائمة ترسل زفرات غاضبة ، وصلصل مزلاج الباب الخارجى ، وبعد دقيقة سمعت كاتيا طرقا على باب مخدعها : «جاءت برقية لك ، ياسيدة» .

تناولت كاتيا الظرف الضيق متغضنة الاسارير ، وفضت الختم ، ونشرت الورقة ، واذا ببصرها يغيم .

– ليزا – قالت وهى تنظر الى الفتاة التى اخذت شفتاهـا ترتجفان من الذعر – مات نيقولاى ايفانوفيتش .

صرخت ليزا ، وانفجرت بالبكاء . طلبت كاتيا اليهـا ان تنصرف . ثم اعادت قراءة الحروف الشنيعة على شريط البرقيـة للمرة الثانية : «توفى نيقولاى ايفانوفيتش متاثرا بجراح بليغـة اصابته اثناء تادية واجبه النبيل نقطة سينقل جثمانه الى موسكو على نفقة الاتحاد . . .»

احست كاتيا بثقل الغثيان تحت نهدها ، وغشاوة وسوداء امام عينيها ، مدت جسمها الى الوسادة ، وفقدت الوعى . . .

فى اليوم التالى جاء لزيارة كاتيا ذلك السيد الملتحى المورد الوجنتين الذى سمعته فى اليوم الاول للثورة يتحدث فى نـادى الحقوقيين – وهو شخصية اجتماعية شهيرة ورجل ليبرالى يـدعى الامير كابوستين – اونجسكى – وقد اخذ يديها بيديه ، وضغطهما على صداره الموبر ، وراح يقول انه باسم المنظمة التى كان يعمل فيها مع الفقيد نيقولاى ايفانوفيتش ، وباسم مدينة موسكو الذى هو الآن مساعد مفوضها ، وباسم روسيا والثورة ينقل الى كاتيا

التعازى والاسف على فقد مناضل مجيد فى سبيل الفكرة تخطفه الردى قبل الاوان .

كان الامير كابوستين - اونجسكى بطبعه مفعما بالسعادة والعافية والمرح ، وصادقا فى اظهار اساه وتفوح من لحيته وصداره رائحة سيغار مهدئة حتى ان كاتيا احست لبرهة من الوقت بأن انقباض نفسها يتراخى . فرفعت اليه عينيها اللامعتين من السهاد وباعدت شفتيها الجافتين :

- شكرا على ما قلته عن نيقولاى ايفانوفيتش . . .

اخرج الامير منديلا كبيرا ومسح عينيه . انه قد ادى واجبا ثقيلا وانصرف . زعقت سيارته فى الشارع الجانبى بصوت كصوت الغول . وعادت كاتيا تطوف فى الحجرة . توقفت امام الصورة الفوتوغرافية لجنرال لا تعرفه له وجه اسد ، وتناولت البوما للصور ، وكتابا ، وعلبة من صنع الصين رسم على غطائها مالك الحزين ممسكا بضفدعة . ثم تمشت من جديد ، ناظرة الى ورق الحائط ، الى الستائر . . . ولم تمس طعام الغداء . قالت الخادمة ليزا : «على الاقل لو اكلت مهلبية الفواكه» . هزت كاتيا راسها رفضا دون ان تحرك شفتيها . كتبت لداشا رسالة قصيرة ، ولكن مزقتها فى الحال .

كانت تود لو ترقد وتنام . ولكن الرقود فى السرير كالرقود فى التابوت - رهيب بعد الليلة البارحة . . . وكان اشد ما يوجعها هو اسفها اليائس على نيقولاى ايفانوفيتش ، فقد كان انسانا طيبا رقيق القلب مشوش الفكر . . . كان يجب ان تحبه على ما هو عليه . . . اما هى فعذبته ! فشاب قبل الاوان . نظرت كاتيا فى النافذة الى السماء الكئيبة الحائلة اللون . ولوت اصابعها حتى فرقعت .

وفى اليوم التالى اقيم قداس تذكارى لنيقولاى ايفانوفيتش . وبعد يوم دفن رفاته . وقيلت كلمات جميلة على قبره ، فشبه الفقيد بقادوس بحرى هلك فى اعماق اليم ، وبرجل حمل المشعل الملتهب طوال حياته المجيدة . وحضر الدفن رجل قصير القامة يلبس نظارة هو احد الاشتراكيين-الثوريين المشهورين ، وقد جاء متاخرا ، وقال لكاتيا بدمدمة غاضبة : «تنحى ، يا مواطنة» . وشق

طريقه حتى حافة القبر ، واخذ يتكلم قائلا ان موت نيقولاى ايفانوفيتش يؤكد مرة اخرى صحة سياسة حزبه حول مسالة الارض . وكانت التربة تتفتت تحت حذائه القبيح المظهر ، وتسقط مرتطمة بالتابوت . شعرت كاتيا بنوبة غثيان تمسك حلقومها ، فانسلت من الجمع خلسة ، وعادت الى البيت .

كانت تراودها رغبة واحدة : ان تغتسل ، وتنام . ولكن حين دخلت البيت استولى عليها الرعب : اذ وقع بصرها على ورق الحائط المخطط ، والصور الفوتوغرافية والعلبة بمالكها الحزين ، والخوان المدعوك فى غرفة الطعام والنوافذ المتربة . فاى وحشة كانت تنبعث من هذه الاشياء ! طلبت كاتيا ان يملأ حوض الحمام ، واستلقت فى الماء الدافئ وهى تئن . فان جسمها كله قد احس اخيرا بتعب قاتل . ثم جرجرت نفسها الى مخدعها بجهد شديد ، وغفت دون ان ترفع غطاء الفراش الخارجى . وهجست لها فى نومها رنات جرس ، ووقع خطوات، واصوات ، وطرق على الباب ولم ترد عليها .

استيقظت كاتيا حين خيم الظلام التام ، وقلبها منقبض موجع ، وتساءلت مذعورة شاكية «ماذا ؟ ماذا ؟» ورفعت جسمها فى السرير قليلا ، وللحظة املت ان يكون كل ذلك مجرد حلم مرعب تراءى لها . . . ثم شعرت ، وللحظة ايضا ، بالغبن واللاانصاف . فعلام تتعذب ؟ وعادت الى عالم اليقظة تماما ، وعدلت شعرها ، ولبست خفيها على قدمين عاريتين ، وقالت لنفسها بوضوح وهدوء : «لا اريد ان احتمل اكثر من ذلك» .

فتحت كاتيا ، على مهل ، باب صندوق الأدوية البيتى المعلق على الحائط ، واخذت تقرأ الاوراق الملصقة على القوارير . فتحت قارورة المورفين الصغيرة ، وشمتها وضمت عليها راحتها ، وذهبت لتخرج قدحا من غرفة الطعام ، الا انها توقفت فى الطريق اليها اذ رات ضوءا فى غرفة الجلوس . وسالت بخفوت : «اهذا انت يا ليزا ؟» وفتحت باب الغرفة قليلا ، ورات رجلا ضخما فى قميص عسكرى يجلس على الاريكة وراسه الحليق مضمد بعصابة سوداء . نهض بسرعة حين رآها . اخذت ركبتا كاتيا ترتعشان ، واحست بخواء تحت قلبها . حدق الرجل فيها بعينين مخيفتين متسعتين ، زاما شفتيه المستقيمتين . لقد رات امامها فاديم بتروفيتش روتشين . وضعت

كاتيا كلتا يديها على صدرها . وقال روتشين ببطء وعزم دون ان يصرف بصره عنها :

– جئت لاقدم لك احتراماتى . ان خادمتك اخبرتنى بمصابك . وقد بقيت لاننى رايت من الواجب ان اخبرك بان فى وسعك ان تضعينى انا وحياتى كلها تحت تصرفك .

وارتعش صوته حين قال الكلمات الاخيرة ، وامتلأ وجهه النحيل بحمرة داكنة . ضغطت كاتيا يديها على صدرها بكل قوتها . وقرأ روتشين فى عينيها الحاجة الى ان يدنو منها ويعينها . وحين اقترب قالت واسنانها تصطك :

– اهلا بك ، يا فاديم بتروفيتش ...

وبحركة لاارادية رفع ذراعيه ، وهو يهم بتطويقها ، فقد بدت متهافتة تعيسة ، وهى تضم قبضتها على القارورة بتشنج ، الا انه احجم فى اللحظة التالية ، وانزل ذراعيه وتقطب . ادركت كاتيا فجأة بفطرة المرأة انها ، وهى المرأة التعيسة الصغيرة ، الخاطئة ، العاجزة بكل دموعها التى لم تذرف بعد ، وبقارورة المورفين البائسة اصبحت ضرورية وعزيزة على هذا الرجل المتاهب بصمت وتجهم الى ان يمزج روحها بروحه . حبست كاتيا دموعها غير قادرة على ان تقول شيئا وان تفك اسنانها ، وانحنت على يد فاديم بتروفيتش ، وضغطتها على شفتيها ، وعلى وجهها .

٤٢

وضعت داشا كوعيها على القاعدة المرمرية ، ونظرت فى النافذة . كان الشفق يملأ نصف السماء وراء الغابات الداكنة فى نهاية جادة كامينو اوستروفسكى . وكانت السماء مسرحا تصنع فيه عجائب . كان ايفان ايليتش يجلس جنب داشا يحدق فيها بلا حراك ، رغم انه كان يستطيع ان يتحرك على هواه ، فان داشا لن تغادر الان غرفتها التى انعكس الشفق القانى على جدارها الابيض . قالت داشا :

– ما اشجى الجو ، وما اعذبه ! كاننا نطير فى سفينة جوية ...

هز ايفان ايليتش راسه موافقا . رفعت داشا يديها من قاعدة النافذة وقالت :

– يعذبنى شوق طاغ الى الموسيقى . فكم مضى من الوقت دون ان اعزف ؟ منذ ان بدات الحرب ... تصور وما تزال الحرب قائمة ... ونحن ...

تحرك ايفان ايليتش ، ومضت تقول :

– حين تنتهى الحرب سنهتم بالموسيقى ... اتتذكر يا ايفان كيف استلقينا على الرمل ، وقد جرى البحر على الرمل تماما ؟ انت تذكر اى لون كان للبحر ؟ ازرق فاتح ... واتصور اننى قد احببتك طوال حياتى .

وتحرك ايفان ايليتش ثانية ، وهم ان يقول شيئا ، الا ان داشا سبقته قائلة :

– السخان يغلى !

وخرجت من الحجرة راكضة ، الا انها توقفت عند الباب . وكان لا يرى فى الظلام الوليد غير وجهها ، ويدها الممسكة بالستارة ، وقدمها فى جورب رمادى . اختفت داشا ، والقى ايفان ايليتش ذراعيه وراء راسه ، واغمض عينيه .

كان تليغين وداشا قد وصلا اليوم فى الساعة الثانية بعد الظهر . وكانا قد اضطرا الى قضاء الليل كله جالسين على الحقائب فى ممر العربة المكتظة . وعند وصولهما مباشرة شرعت داشا فى فك امتعتهما والنظر فى جميع الاركان ، ومسح الغبار . اعجبت بالشقة ، وعزمت ان تعيد ترتيب كل شىء فيها . وكان يجب القيام بذلك فورا . استدعى البواب من الاسفل ، وتعاون مع ايفان ايليتش لنقل الاصونة والارائك من غرفة الى اخرى . وحين تم تغيير وضع الاثاث طلبت داشا من ايفان ايليتش ان يفتح جميع نوافذ التهوية الصغيرة فى اعالى الشبابيك ، وذهبت هى لتستحم . وظلت وقتا طويلا تسكب الماء على جسدها ، وصنعت شيئا لوجهها ولشعرها ، ومنعت ايفان ايليتش من دخول هذه الغرفة مرة وتلك الغرفة اخرى ، رغم ان ايفان ايليتش كان يمنى النفس طوال اليوم بان يلتقى بداشا كل لحظة ويطيل النظر فيها .

ومع هبوط الظلام هدات داشا اخيرا . دخل ايفان ايليتش غرفة

الجلوس وقد اغتسل وحلق ، وجلس الى جانب داشا . وكانا يختليان فى سكون للمرة الاولى بعد مفارقتهما موسكو . جاهدت داشا ان تملأ الوقت بالحديث وكانهـا كانت تخاف من هذا السكون . فقد ارضها ، كما اعترفت لايفان ايليتش فيما بعد ، ان يقول لها بصوت «خاص» : «اذن ، يا داشا . . .»

ذهبت لتنظر فى امر السخان ، وجلس ايفان ايليتش مغمض العينين . انصرفت ، والهواء ما يزال مملوءا بانفاسها . ودق كعباها على ارض المطبخ بفتنة لا توصف . وفجاة رن شىء يتهشم هناك ، وتناهى صوت داشا الشاكى : «كوب !» وانفعم قلب ايفان ايليتش بفرح حار قائلا لنفسه : «حين استيقظ غدا سارى صباحا غير اعتيادى ، ساجد داشا معى» . ونهض مسرعا وظهرت داشا عند الباب .

– كسرت كوبا . . . ايفان ، اتريد شايا حقا ؟

– لا . . .

وتقدمت منه ، ولما كانت الغرفة غارقة فى ظلام . فقد وضعت ذراعيها على كتفيه وسالت بخفوت :

– فيم كنت تفكر ؟

– فيك .

– اعرف . وماذا كنت تظن فى ؟

وبدا وجهها المغبش فى الظلمة عبوسا ، بينما كانت تبتسم فى الواقع . وكان صدرها يرتفع وينخفض منتظم الانفاس .

– فكرت فى ان ذهنى غير قادر على ان يتصورك كزوجتى . ثم فهمت فجاة ، وجئت اليك لأخبرك . اما الآن فلا اتذكر شيئا .

قالت داشا :

– آى ، آى ، اجلس ، ودعنى اجلس جنبك .

وجلس ايفان ايليتش على الكرسى وجلست داشـا جنبه على ذراع الكرسى وقالت :

– وفيم فكرت ايضا ؟

– جلست هنا عندما كنت فى المطبخ ، قلت لنفسى : «حلت فى البيت مخلوقة مدهشة . . .» اهذا سيئ ؟

اجابت داشا مفكرة :

– نعم ، هذا سيئ جدا .

– هل تحبينني يا داشا ؟

– اوه – وحركت راسهـا من الاسفل الى الاعلى – احبك حتى شجرة البتولا .

– حتى شجرة البتولا ؟

– احقا انك لا تعرف ان لكل امرئ فى نهاية عمره حدبة من الارض تظللها شجرة بتولا باكية ؟

امسك ايفان ايليتش داشا من كتفيها . فاستجابت لعناقـه برقة . وتبادلا قبلة طويلة مثلمـا فعلا منذ زمن بعيد على ساحل البحر . وتقطعت انفاسهما . قالت داشـا : «آه ، ايفان» وطوقت عنقه ، وسمعت قلبه يدق دقات ثقيلـة فاشفقت عليه . تنهدت ، ونهضت من ذراع المقعد ، وقالت ببساطة :

– ايفان ، لنذهب .

تلقت داشا رسالة من شقيقتها فى اليوم الخامس من وصولها تخبرها كاتيا فيها بوفاة نيقولاى ايفانوفيتش .

«. . . مررت بفترة من الشقاء والياس . وشعرت فى وضوح باننى ساظل وحيدة الى ابد الدهر . اوه ، ما ارهب ذلك ! . . ولرهبته عزمت على ان اتخلص منه باسرع وقت . . . اتفهمين ؟ . . وانقذتنى معجزة . . . وربما مصادفة . . . لا ، لا ، كانت معجزة حقيقية . . . ولا يمكنني ان اكتب عن ذلك . . . ساخبرك به حين نلتقى . . .»

وصعقت داشا بنعى نيقولاى ايفانوفيتش وبرسالة كاتيا ، فعزمت على السفر الى موسكو فى الحال ، الا انهـا تلقت فى اليوم التالى رسالة اخرى من كاتيا تخبرهـا فيها بان تتهيأ للسفر الى بتروغراد ، وتسالها ان تبحث لهـا عن غرفة غير غالية الايجار . وقد احتوت الرسالة على ملاحظة تقول فيها : «سيزوركمـا فاديم بتروفيتش روتشين وسيروى لكما كل شىء بالتفصيل . فهو لى اخ واب وصديق العمر» .

كان تليغين وداشا يتمشيان فى شارع عمرش فى يوم احد من نيسان . كانت قطع مهلهلة من السحاب الذائب من الشمس تطوف فى السماء الزرقاء زرقة ربيعية وفى الجو برودة . وكان ضوء الشمس

ينفذ خلال الشارع المعرش ، وكأنه ينفذ من خلال ماء . ويرتمى على ثوب داشا الابيض وكانت جذوع الصنوبر الجافة الضاربة الى الحمرة تقترب منهما بينما كانت الريح تضج فى اعاليها ، وتحرك اوراقها . رنت داشا الى ايفان ايليتش الذى كان قد خلع قبعته ، وعقد حاجبيه مبتسما . كان يغمرها احساس بالسكينة والامتلاء – بسحر النهار والبهجة لانها تتنفس بيسر ، وتسير خفيفة مستسلمة كليا الى هذا النهار والى هذا الرجل السائر بجانبها .

– ايفان .

نادت داشا مفترة الثغر ، فتساءل ايفان فى بسمة :

– ماذا ، يا داشا ؟

– لا . . . فكرت بشىء ما .

– عم ؟

– مجرد فكرة .

– عم ؟

– فيما بعد .

– انا اعرف عم .

التفت داشا التفاتة سريعة .

– اقسم على انك لا تعرف . . .

وصلا الى شجرة صنوبرة كبيرة . نزع ايفان ايليتش قطعة من القشرة مغطاة بقطرات ناعمة من الصمغ ، وكسرها بين اصابعه والقى على داشا نظرة حانية من تحت حاجبيه :

– كلا ، اعرف .

ارتجفت يد داشا وقالت هامسة :

– احس وكان كيانى كله يجب ان ينصب فى فرح اشد واعظم . . . كل كيانى ممتلىء . . .

هز ايفان ايليتش راسه . وكانا قد خرجا الى فرجة بين اشجار مكسوة بعشب اخضر ناعم ، وشقائق صفر تهتز بالريح . وكان ثوب داشا يخفق فى الريح بين حين وآخر ، فكانت تنحنى فى كل مرة ساهمة ، وتعدل تنورتها ، وتقول :

– هذه الريح عقاب ! . .

فى نهاية الفرجة امتد سياج مشبك عال لاحد القصور ، تقشر

الطلاء المذهب عن رؤوس قضبانه بفعل الزمن . دخلت حصاة صغيرة فى حذاء داشا . قعد ايفان ايليتش ، وخلع الحذاء من قدم داشا الدافئة المكسوة بجورب ابيض ، وقبل القدم قرب اصابعها . لبست داشا حذاءها وطبطبت بقدمها ، وقالت :

– اريد ان يكون لى ولد منك . . . هذا ماكنت افكر فيه . . .

٤٣

اقامت يكاترينا دميتريفنا فى بيت خشبى غير بعيد عن شقة داشا تديره امراتان عجوزتان ، كانت احداهما تدعى كلافديا ايفانوفنا – مغنية فى سالف الايام ، والاخرى – وتدعى سوفوتشكا – مرافقة لها . كانت كلافديا ايفانوفنا تخطط حاجبيها منذ الصباح ، وتضع على راسها لمة مستعارة فاحمة السواد ، وتجلس لتلعب لعبة الحظ والتمنى فى الورق . بينما كانت سوفوتشكا ذات الصوت الرجولى الخشن تقوم بتدبير شؤون البيت . وكان البيت نظيفا مكتظا على الطراز القديم بالعديد من افرشة المائدة الصغيرة والسدائل ، والصور المصفرة لعهد الشباب الغابر . وفى الصباح كانت الحجرات تمتلىء برائحة القهوة الشذية ، وعند اعداد الغداء كانت كلافديا ايفانوفنا تشم الملح لأنها لا تطيق رائحة الطبخ ، وكانت سوفوتشكا تصيح بصوتها الرجولى من المطبخ : «اين اذهب بهذه الرائحة المقززة لك ، فانا لا استطيع ان اقلى البطاطس بماء الكولونيا» . وفى المساء كانت توقد مصابيح الكيروسين ذات الزجاجات المغبشة الكروية الشكل . وكانت العجوزتان تحيطان كاتيا بالرعاية .

كانت كاتيا تعيش حياة هادئة فى هذا المأوى القديم الطراز ، السالم من عوادى الزمن . كانت تستيقظ فى الصباح الباكر وترتب الحجرة بنفسها ، وتجلس قرب النافذة ترتق الثياب ، وترفأ الجوارب ، او تصنع من فساتينها الانيقة القديمة لباسا ابسط . وبعد الفطور كانت تخرج فى العادة الى الجزر وتتجول ومعها كتاب او صرة تطريز ، وتجلس على مسطبة فى المكان المفضل لها بالقرب

من البحيرة الصغيرة ، وتراقب الاطفال يلعبون عند تليلة الرمل ، وتطالع ، وتطرز وتفكر ، وتعود فى نحو السادسة لتناول الغداء عند داشا . وفى الساعة الحادية عشرة كانت داشا وتليغين يوصلانها الى البيت . كانت الشقيقتان تسيران فى المقدمة وذراعاهما متشابكتان ، بينما كان ايفان ايليتش يسير وراءهما مسرحا قبعته على علبائه صافرا وبمثابة «غطاء للمؤخرة» ، لان الخروج فى المساء لم يعد مأمونا فى تلك الايام .

كانت كاتيا تكتب لفاديم بتروفيتش روتشين كل يوم ، وكان روتشين طيلة هذه المدة موفدا فى مهمة الى الجبهة . وكانت كاتيا تروى فى رسائلها بعناية وصدق كل ما فعلته وفكرت فيه خلال ذلك اليوم . وكان روتشين يسالها ذلك ، ويؤكد لها فى رسائله الجوابية : «كم كان عزيزا على ان تكتبى لى ، يكاترينا دميتريفنا ، ان المطر قد بدأ يرذ رذاذا حين عبرت جسر يلاغين اليوم ، ولم تكن لديك مظلة فاحتميت تحت الاشجار ريثما يتوقف المطر ! ان كل دقائق حياتك عزيزة على ، واريد ان اعرفها حتى لم يعد فى وسعى الآن ان اعيش بدونها» .

كانت كاتيا تعرف ان روتشين يبالغ ، وان فى وسعه بالطبع ان يعيش بدون ان يعرف دقائق حياتها ، ولكن التفكير فى ان تظل وحيدة مع نفسها كان يفزعها اشد الفزع حتى انها كانت تحاول الا تتشكك ، بل تصدق بان حياتها كلها لازمة لفاديم بتروفيتش وعزيزة عليه . ولهذا فان كل ما كانت تفعله الان يتخذ مغزى خاصا . اضاعت الكشتبان وبحثت عنه ساعة بكاملها ، واخيرا وجدته فى اصبعها . ولعل فاديم بتروفيتش سيضحك من ذهولها الشديد هذا . والان كانت كاتيا تنظر الى نفسها كما تنظر الى شىء غريب عنها تماما . ذات مرة ، حين كانت تعمل عند النافذة وتفكر لاحظت ان اصابعها ترتجف . رفعت راسها ، وغرزت الابرة فى تنورتها عند الركبة وحدقت الى الامام طويلا . واخيرا ميز بصرها وجها نحيلا امامها فى المكان الذى كانت فيه مرآة الصوان ، وجها نحيلا له عينان واسعتان حزينتان ، وشعر بسيط التصفيف ، مضموم فى عقدة الى الخلف . . . وتساءلت كاتيا مع نفسها : «امعقول ان هذه انا ؟» وغضت بصرها ، وتابعت خياطتها ، الا ان قلبها وجب فى صدرها ،

ووخزت اصبعها بالابرة ، فرفعت الاصبع الى فمها ، وعادت تنظر الى المرآة ، ولكنها رأت صورتها فى المرآة هذه المرة ، اقبح من الصورة التى رأتها فى المرة الاولى . . . وفى تلك الليلة كتبت لفاديم بتروفيتش : «فكرت فيك طوال هذا اليوم وقد اشتقت اليك ، ياصديقى العزيز . اجلس عند النافذة وانتظر . ان ما يحدث فى نفسى الآن يشبه شيئا قد نسيته منذ زمان طويل . . . مشاعر فتاة . . .»

وحتى داشا الشاردة الفكر ، الغارقة فى علاقاتها مع ايفان ايليتش ، تلك العلاقات المعقدة التى لم يشهد العالم مثيلا لها منذ بدء الخليقة ، حسب ظنها ، لاحظت تغيرا طرأ على كاتيا ، وفى احد الامسيات اثناء شرب الشاى ، راحت تبرهن طويلا على ان كاتيا ينبغى ان ترتدى الآن ، والى الابد ، ثيابا سوداء تغطى العنق . وانشأت تقول : «اؤكد لك انك لا ترين نفسك يا كاتيوشا ، ان مظهرك مظهر فتاة فى التاسعة عشرة . . . حقا يا ايفان ، الا تراها تبدو اصغر منى ؟»

— نعم ، اقصد ، ليس تماما ، ولكن اظن . . .

قالت داشا :

— آه . انت لا تفهم شيئا . شباب المرأة ليس له علاقة بالعمر ، بل باسباب اخرى ، ليس للعمر اية اهمية هنا . . .

واوشكت على النفاد النقود القليلة التى تركها نيقولاى ايفانوفيتش لكاتيا . فاشار تليغين عليها بان تبيع شقتها القديمة فى شارع بانتيليمونوفسكايا ، الفارغة منذ شهر آذار . فوافقت كاتيا ، وذهبت مع داشا الى الشقة لتاخذ منها بعض الاشياء العزيزة لارتباطها بالذكريات .

حين صعدت كاتيا الى الطابق الثانى ، ووقع بصرها على الباب البلوطى ذى الرقعة النحاسية التى تحمل اسم «ن . ى . سموكوفنيكوف» شعرت بان الحياة توشك على اتمام دورتها . خلع البواب قبعته تحية ، وفتح باب الشقة بمفتاحه . انه نفس البواب العجوز المالوف لكاتيا ، الذى كان يفتح الباب الخارجى بعد منتصف الليل ناخرا من انفه بغضب ، والنعاس عالق فى اجفانه ، وعنقه ملفوف بياقة معطفه الملقى على كتفيه ، وكان

دائما يطفىء الضوء الكهربائى قبل ان تلحق كاتيا بان تصعد الى شقتها ، اما الان فقد جعل كاتيا وداشا تدخلان قبله ، وقال مطمئنا :

— تأكدى ، يكاترينا دميتريفنا ، من ان اى قلامة لم تضع من شقتك . كنت اراقب المستاجرين ليل نهار . ابنهم قتل فى الجبهة والا لظلوا ساكنين فيها حتى الان ، فقد كانوا راضين عن الشقة . . .

كان الرواق مظلما ليست فى هوائه رائحة انفاس حية . وكانت الستائر مسدلة فى جميع الغرف . ذهبت كاتيا الى غرفة الطعام ، وادارت مفتاح الضوء . شعت الثريا البلورية بنور ساطع فوق المائدة المغطاة بمفرش من الجوخ الرمادى ، وكانت سلة الزهور الخزفية ما تزال فى وسطها ، وفيها غصن الميموزا الذابل منذ زمان . وكانت الكراسي ذات الظهور العالية والبطون الجلدية — الشهود اللامبالون على الحياة المرحة العاصفة التى فاتت — تقف فى اماكنها على طول الجدران . وكانت احد ابواب صوان الاوانى المنحوت الضخم كالبيانو مفتوحا تلوح الاقداح المقلوبة من خلال فتحته . وكان الغبار يغطى المرآة الفينيسية البيضوية ، والصبى الذهبى ما يزال راقدا فوقها مادا يده الى خصلة ذهبية .

وقفت كاتيا عند الباب بلا حراك ، وقالت لداشا بخفوت :

— داشا ، انت تذكرين الوضع ! . . تصورى ، والان لا وجود لاحد . . .

ثم ذهبت الى غرفة الجلوس ، واشعلت الثريا الكبيرة واجالت بصرها ، ثم هزت كتفيها . كانت اللوحات التكعيبية ، والمستقبلية التى كانت تبدو فى وقت ما متحدية ومخيفة تتدلى على الجدران بائسة كابية ، وكانها ، زينات كرنفالية مهملة بعد ان انتفت الحاجة اليها .

— وهل تذكرين هذه ، يا كاتيوشا ؟

قالت داشا ، واشارت الى لوحة «فينوس الحديثة» القابعة فى ركن اصفر مع زهورها ، واكملت قولها :

— انذاك بدت لى وكانها علة كل المصائب .

وضحكت داشا وشرعت بتصفح النوتات . ذهبت كاتيا الى مخدعها السابق . كان كل شىء فيه على حالته تماما كما كان منذ ثلاثة

اعوام ، يوم ارتدت ثياب السفر والبرقع وهرعت الى هذه الغرفة للمرة الاخيرة لتاخذ قفازها من طاولة الزينة .

والان كان كل شىء كابيا وبدا اصغر حجما مما كان من قبل . فتحت كاتيا الدولاب المملوء بفضلات المخرمات والحرير وفضلات القماش والجوارب والاخفاف البيتية . وكانت رائحة عطر خفيفة ما تزال تفوح من هذه الاشياء التى كانت تبدو لها فيما مضى ضرورية . اخذت كاتيا تقلبها دون غاية ، فقد كان كل غرض منها مرتبطا بذكرى الحياة التى ذهبت بلا رجعة . . .

وفجاة تحطم السكون الذى كان يخيم على البيت كله وملات انغام الموسيقى جنباته ، حين اخذت داشا تعزف السوناتة التى كانت تتدرب عليها اثناء تحضيرها للامتحانات قبل ثلاثة اعوام . سدت كاتيا باب الدولاب ، وذهبت الى غرفة الجلوس وجلست بالقرب من شقيقتها .

استدارت داشا نصف استدارة ، وقالت :

— اليس ذلك رائعا ، يا كاتيا ؟

وعزفت بعض الفواصل الاخرى وتناولت كراسة اخرى من الارض . قالت كاتيا :

— لنخرج . بدات اشعر بصداع .

— والحاجيات ؟

— لا اريد ان اخذ شيئا من هنا . سانقل البيانو وحده الى شقتك . اما سائر الاشياء فلا حاجة اليها . . .

جاءت كاتيا الى الغداء منتعشة من المشى السريع ، مرحة ، فى قبعة جديدة ، وبرقع سماوى اللون . قالت ، وهى تلثم خد داشا بشفتيها الدافئتين :

— وصلت بالكاد قبل ان يهطل المطر الغزير . وحذائى قد تبلل على اية حال . اعطينى نعالا استبدله به .

وسارت نحو النافذة فى غرفة الجلوس ، وهى تخلع قفازها . كان المطر الذى راح يكر ويفر عدة مرات يهطل الان سيولا رمادية ويدور فى خفقات الريح ، ويضج فى انابيب التصريف . رات كاتيا بعيدا فى الاسفل مظلات تجرى راكضة . وخرق ضوء ابيض الهواء

المعتم امام النوافذ ، وسرت قرقعة جعلت نفس داشـــا يتقطع فى صدرها . سالت كاتيا وقد افتر فمها عن ابتسامة :

– اتدرين من سيزوركما مساء اليوم ؟

سالت داشا :

– من ؟

الا ان الجرس رن فى الرواق ، فركضت داشـا لتفتح الباب وترددت ضحكة ايفان ايليتش ، وحفيف قدميه على بساط الرواق ثم مر وداشا الى غرفة نومهما وهما يتحادثان بصوت عال ويضحكان . خلعت كاتيا قفازيها ، وقبعتها وعدلت شعرها ، والابتسامة المتكتمة الناعمة ما تزال ترف على شفتيها .

جلس ايفان ايليتش الى المائدة مرحا موردا مبلل الشعر وروى لهما الاخبار . العمال فى مصنع البلطيق مضطربون مثل جميع العمال الان فى المصانع والمعامل الاخرى . والسوفييتات تؤيد مطاليبهم باستمرار . والمشروعات الخاصة اخذت تغلق ابوابها شيئا فشيئا ، والمشروعات الحكومية تعمل بخسارة ، ولكن لا احد يهتم بان تجنى الارباح الآن والحرب والثورة قائمتان . واليوم عقد فى المصنع اجتماع حاشد اخر خطب فيه بلاشفة ، قالوا جميعا كلاما واحدا : «يجب انهاء الحرب ، ولا تنازلات ، ايا كانت ، للحكومة البرجوازية ، ولا اتفاقيات مع اصحاب المشاريع ، وكل السلطـة للسوفييتات التى ستتكلف بالنظام ! ..»

– وانا ايضا صعدت لاخطب . ولكنهم سحبونى من المنصة . وجاء فاسيلى زوبليف ليقول : «انا اعرف انك لست لنا عدوا فلماذا تقول سخافـــات . ان راسك محشو بالسفـاسف» . فقلت لــه : «فاسيلى ، بعد ستة اشهر ستتوقف المصانع ولا يجد الناس شيئا ياكلونه» . فرد على قائلا : «يارفيق ، قبل ان يهـل العام الجديد ستنتقل الارض كلها ، والمصانع جميعـا الى الشغيلة . ولن نترك برجوازيا واحدا فى الجمهورية ولو للمتحف . ولن يكون للنقود وجود . اشتغل وعش وكل شىء لك . انهـا الثورة الاجتماعيـة ، فافهمنى !» وعد ان يكون كل ذلك فى العام الجديد .

وضحك ايفان ايليتش ضحكة متزنة الا انه هز راسه ، واخذ يجمع الفتات على الخوان باصبعه . وتنهدت داشا :

– قلبى يخبرنى بأن بلايا كبيرة ستحصل .

قال ايفان ايليتش :

– نعم . ان الحرب لم تنته ، وفى ذلك علة الأمر . ما الذى تغير منذ شباط ؟ اطاحوا بالقيصر ، ولكن الفوضى استفحلت . هناك حفنة من المحامين واساتذة الجامعات وهم اناس مثقفون دون ريب يؤكدون للامة كلها قائلين : اصبروا ، حاربوا وسيأتى زمن تعطيكم فيه دستورا انجليزيا ، بل واحسن منه بكثير . ان هؤلاء الاساتذة لا يعرفون روسيا ، ولم يطلعوا على التاريخ الروسى بشكل جيد . ان الشعب الروسى ليس كماً مجرداً . ان الشعب الروسى شعب فياض الشعور موهوب قوى . فلا عجب ان يشق الفلاح الروسى طريقه الى المحيط الهادى وهو بحذائه الليفى . اما الالمانى فيبقى فى مكانه ويسعى الى بغيته خلال مائة عام ويصبر . بينما الروسى غير صبور ، ومن الممكن ان يحفزه الحلم بالاستيلاء على الكون فيسير فى سرواله المصنوع يدويا ، وحذائه الليفى ، وفاسه فى حزامه . . . اما الاساتذة فيريدون ان يحضروا خضم الشعب الهدار فى اطار دستور وقور ، نعم ، يبدو اننا سنشهد احداثا خطيرة جدا .

كانت داشا واقفة عند المائدة تصب القهوة فى اقداح . فاذا بها تترك ركوة القهوة فجاة ، وتضغط وجههـــا الى صدر ايفـــان ايليتش . فقال ايفان ايليتش وهو يمسد شعرها :

– لا ، لا ، لا حاجة الى القلق يا داشا . لم يحدث شىء فظيع حتى الان . . . حدث ان وقعنـا فى مـآزق اسوأ . . . فانـا اذكر – اسمعينى – اذكر اننا وقعنا فى «الجب العفن» . . .

واخذ يتذكر المشاق العسكرية التى صادفته . رفعت كاتيا بصرها الى الساعة الحائطية ، وخرجت من غرفة الطعام . نظرت داشا الى وجه زوجهـــا الهادئ القوى الملامح والى عينيـــه الرماديتين الضاحكتين ، وهدأت شيئا فشيئا : ان المراة تشعر بالاطمئنان فى صحبة هذا الرجل . حين فرغت من سماع قصته «الجب العفن» ذهبت الى المخدع لتبودر وجهها . فرأت كاتيا جالسة امام منضدة الزينة هناك تفعل شيئا لوجهها . قالت لها بصوت ناعم :

– عزيزتى داشـــا ، الـم يبق لديك شىء من ذلك العطر الباريسى ؟ انت تذكرينه ؟

جلست داشا على الارض امام اختها ، وحدقت فيهـا بدهشة بالغة ثم سالت همسا :

– اراك تنفشى ريشك ، يا كاتيوشا ؟

احمرت كاتيا وهزت راسها :

– ماذا بك اليوم ، يا كاتيوشا ؟

– اردت ان اخبرك ، ولكنك لـم تسمعى كلامى الى آخره . سيصل فاديم بتروفيتش مساء اليوم ، وسياتى الى شقتكمـا من محطة القطار مباشرة ... ليس من اللائق ان استقبلـه فى بيتى لان الساعة متاخرة ...

دق جرس الباب فى الساعة التاسعة والنصف . هرعت كاتيا وداشا وتليغين الى الرواق . فتح تليغين الباب فدخل روتشين وعلى كتفيه معطف عسكرى مدعوك وطاقيته نازلة على جبينه . واذ وقع بصره على كاتيا رقت ملامح وجهه النحيل الكئيب الملوح حين افتر عن ابتسامة . نظرت كاتيا اليه مرتبكة فرحة . القى روتشين معطفه وطاقيته على مقعد وسلم قائلا بصوت قوى فيه بحة : «اعذرونى على دخولى فى هذه الساعة المتاخرة . رغبت ان اراك هذه الليلة ، انت يا يكاترينا دميتريفنا ، وانت ، يا داريا دميتريفنا» فتالقت عينا كاتيا نورا وقالت :

– انا مسرورة لوصولك ، يا فاديم بتروفيتش .

وحين انحنى ليقبل يدها لثمت راسه بشفتيها المرتعشتين .

قال ايفان ايليتش :

– كـان يجب ان تجلب امتعتك معك . اننـا لن نتركك تغادرنا ، ستبات عندنا ...

قالت داشا :

– على الاريكة التركية فى غرفة الجلوس ، واذا كانت قصيرة فسنضع كراسى فى طرفها .

سمع روتشين ما يقولـه هؤلاء الناس العطوفون الانيقون ، وكانه فى حلم . وكان قد جاء اليهم وهو ما يزال وعثا ، بعد ليالى السفر المؤرقة ، والتسلل فى النهار من نوافذ العربة بحثا عن الطعـام ، والكفاح المستمر فى سبيل مكان من ستة افتار فى مقصورة وسط سباب يثقب الاذان . وكان ما يزال يستشعر الغرابة من ان يفرح

بوجوده هؤلاء الثلاثة المتنعمون بهذا القدر غير المعقول من الجمال والنظافة ، والعبقون بروائح زكية ، والواقفون على ارض صقيلـة كالمرآة ... يفرحون به هو ، روتشين ... وحدق كالنائم فى عينى كاتيا البهيتين المرددتين مسرورة ، مسرورة ، مسرورة ...

عدل نطاقه ، وسوى كتفيه ، وارسل زفرة عميقة ، وقال :

– شكرا ، دلونى اين اتوجه ؟

دلوه على الحمام ليغتسل ، ثم دعوه الى غرفة الطعام وقدموا الطعام له . اكل وهو لا يميز ما كان يقدم له ، وشبع سريعا ووضع الماعون جانبا ، واشعل سيكارة ، ولان وجهه النحيل الحليق الصارم الذى اخاف كاتيا حين راته فى الرواق وبدا اكثر تعبا . وحين اشعل عود الثقـاب ارتعشت يداه الكبيرتان الملوثتان بضوء المصبـاح بظليلته البرتقالية . كانت كاتيا تجلس فى ظل الظليلة ، فراحت من هناك تطيل النظر فى فاديم بتروفيتش ، وتشعر بانها تحب كل شعرة فى يده ، وكل زر فى سترته البنية الداكنة المدعوكة . وقد لاحظت انه كان يطبق فكيه احيانا وهو يتحدث ، وينطق من بين اسنانه . كانت عباراته متقطعة مشوشـة . والظاهر انه كان يتحسس بنفسـه ، ويحاول ان يكبت فى نفسـه شعورا بالحنق يعتمل فيـه منذ زمن طويل ... تبادلت داشا النظرات مع اختها وزوجها فسالت روتشين عما اذا كـان يريد ان يستريح بعد تعب السفر ؟ توهج ، وجلس منتصبا على الكرسى .

– لم اجئ هنا لاجد مكانا انام فيه ... لا ، على الاطلاق ...

وخرج الى الشرفة ، ووقف تحت المطر الليلى الدقيق . اشارت داشا بعينيها الى الشرفة ، وهزت راسها . وجاء صوت روتشين من هناك :

– اعذرينى ، يا داريـا دميتريفنـا ، بحق الرب ... تلك نتيجة تلك الليالى الاربع المؤرقة ...

وعاد من الشرفة ، ومسد الشعر على قمة راسه وجلس فى مكانه . وقال :

– جئت اليكم من مقر القيادة العليا مباشرة احمل الى وزير الحربية اخبارا مقلقة جدا ... وحين رايتكم احسست بالالم ...

فاسمحوا لى بان اقص عليكم كل شىء . ليس لى فى الدنيا شخص هو اقرب الى عنك ، يا يكاترينا دميتريفنا .

شحبت كاتيا . وقف ايفان ايليتش عند الحائط وذراعه وراء ظهره ، وحدقت داشا فى روتشين بعينين مرتعبتين . سعل روتشين ، وقال :

– ان لم تحدث معجزة فاننا سنهلك . . . لم يعد للجيش وجود . . . والجنود يفرون من الجبهة ويرحلون على سطوح العربات . . . وما من امكانية انسانية لايقاف انهيار الجبهة . . . ذلك مثل مد البحر . . . لم يعد الجندى الروسى يعرف من اجل اى شىء يحارب ، وفقد الاحترام للحرب . فقد الاحترام لكل مايتصل بهذه الحرب – احترامه للدولة ، ولروسيا . يعتقد الجنود بان الحرب ستنتهى فى نفس اليوم الذى ترتفع فيه صرخة تنادى بـ«السلام» . . . ونحن وحدنا الاسياد لا نريد السلام . . . ان الجندى الان يبصق على المكان الذى خدع فيه خلال ثلاثة اعوام ، ويرمى بندقيته ، ولا يمكن بعد الان اجباره على ان يحارب . . . وفى الخريف او نحوه ، حين تفر الملايين العشرة كلها . . . سينتهى وجود روسيا كدولة ذات سيادة . . .

وصك فكيه بقوة حتى ارتفعت عضلات على وجنتيه . واستمر فى كلامه بصوت عديم الرنين .

– انا احمل خطة الى وزير الحربية وضعها بعض السادة الجنرالات لانقاذ الجبهة . . . خطة اصيلة . . . وعلى كل حال سيكون من المتعذر على الحلفاء لوم جنرالاتنا على عدم الرغبة فى القتال . ومعنى الخطة : اعلان التسريح التام للجيش فى اسرع وقت ، اى تنظيم الهروب من الجيش والحفاظ بهذه الطريقة على سلامة السكك الحديدية ، والمدفعية واحتياطات التموين والعتاد . التأكيد لحلفائنا عن عزمنا على المضى فى الحرب . وفى الوقت نفسه نقيم فى منطقة نهر الفولغا حاجزا من الوحدات الموثوقة – ومثل هذه الوحدات موجودة – ونبدأ بتكوين جيش جديد كليا فيما وراء نهر الفولغا ، على ان تكون نواته من وحدات المتطوعين ونقوم فى الوقت ذاته بتشكيل ودعم وحدات للانصار . . . ونبدأ الحرب من جديد معتمدين على مصانع الاورال وفحم سيبيريا وقمحها . . .

صاح تليغين :

– يعنى فتح الجبهة للالمان . . . وكشف وطننا للنهب !

– لم يعد لنا وطن ، بل مكان كان فيه وطننا – وضم روتشين يديه المطروحتين على مفرش المائدة – لم تعد روسيا العظيمة قائمة منذ اللحظة التى القى فيها الشعب سلاحه . . . يبدو انك لا تريد ان تفهم ما بدأ بالفعل . . . هل يستطيع القديس نيقولا ان يعينكم الان ؟ لقد نسيتم ان تصلوا له . . . ان روسيا العظيمة الان مجرد روث لتسميد الارض . . . يجب ان يعاد بناء كل شىء من جديد : القوات ، الدولة ، ويجب ان تصب فينا روح جديدة . . .

واستنشق الهواء بقوة من خلال منخريه ، واوقع راسه على يديه الموضوعتين على المائدة ، واجهش باكيا بصوت عميق خافت كصوت الكلاب . . .

فى تلك الليلة لم تخرج كاتيا لتنام فى حجرتها . ارقدتها داشا معها فى سريرها ، وفرشت لايفان ايليتش فى غرفة المكتب . وخرج روتشين الى الشرفة بعد ذلك المشهد المقبض للجميع ، وبعد ان بلله المطر عاد الى غرفة الطعام واعتذر ؛ وبالفعل كان الرقاد احسن مخرج . وقد غفا ما ان خلع ملابسه . وحين سار ايفان ايليتش على رؤوس اصابعه ليطفئ الضوء رآه نائما على ظهره وقد طوى ذراعيه على صدره واضعا راحتيها احداهما على الاخرى ، وكان وجهه النحيل ذو العينين المغمضتين بقوة ، والغضون التى رسمها ضوء الفجر المزرورق وجه رجل يكبت الما فى صدره .

ظلت داشا وكاتيا تتحادثان همسا لوقت طويل ، وهما تحت غطاء واحد . وكانت داشا ترهف سمعها بين الحين والاخر . مازال ايفان ايليتش غير قادر على ان يهجع فى مكتبه . قالت داشا : «اما يزال يذرع المكتب ، بينما عليه ان يخرج الى المصنع فى الساعة السابعة . . .» وانسلت من تحت الغطاء ، وهرولت حافية الى زوجها . كان ايفان ايليتش يجلس على الاريكة المفروشة يطالع

فى كتاب ضخم وضعه على ركبتيه ، وقد انزل حمالة البنطلون . نظر اليها بعينين براقتين لا تريان ، وسال :

– اذن لم تنامى حتى الان ؟ . . اجلسى . . . لقد وجدت شيئا . . . اسمعى . . .

وقلب الصفحة ، واخذ يقرأ بصوت خافت :

«قبل ثلثمائة عام كانت الريح تسرح طليقة فى الغابات والسهول السهبية ، وفى المقبرة الهائلة المسماة الارض الروسية . كانت هناك اسوار محروقة لمدن مندثرة ، ورماد فى اماكن ماهولة ، وصلبان وعظام عند طرق غطاها العشب ، وعصائب الغربان ثم عواء الذئاب فى الليالى . وكانت اخر عصابات اللصوص التى كانت قد انفقت على الشراب ونهبت منذ وقت طويل الفراء الغالية والاقداح من المعادن الثمينة ، والاطر اللؤلؤية للايقونات تجوب فى بعض دروب الغاب . كان كل شىء فى روسيا قد نهب وقضى عليه .

شاع الدمار فى روسيا واقوت من اهلها . وحتى تتر القرم كفوا عن اجتياح السهب الخالى ، اذ لم يبق لهم ما ينهبونه . وخلال السنين العشر من «الاضطراب الكبير» قطع الادعياء واللصوص والفرسان البولونيون الارض الروسية كلها بالسيف والنار صقعا صقعا ، وتفشت المجاعة الشديدة ، فاكل الناس روث الخيول ، واللحم البشرى المملح . وسرى الوباء الاسود . ونزح الباقون الى الشمال ، الى البحر الابيض ، والاورال ، وسيبيريا .

وكان البطريق قد اشار على افراد الفئة العليا الذين اصابهم الفقر ، والتجار الوافدين بعد كساد بضائعهم والفلاحين الصارمين من بقاع الشمال والفولغا – ، بان يختاروا صبيا عينه لهم ليكون قيصرا على موسكو . فجاءوا به مرعوبا فى تلك الايام العصيبة على زلاجة ماضين به خلال طرق الربيع الموحلة الى الاسوار المحروقة المحيطة بموسكو ، المقفرة المدمرة الى اخرها ، بعد ان حررت من المغيرين البولونيين بجهود جبارة ، جاءوا به نحو موسكو المحروقة التى لم تكن الا اكواما من الرماد . وكان القيصر الجديد لا يحسن غير البكاء والصلاة . فظل يبكى ويصلى ناظرا من نافذة الزلاجة بجزع الى حشود الروس المهلهلى الثياب المتوحشين الذين طلعوا لاستقباله وراء

بوابات موسكو . ولم تكن للروس ثقة كبيرة بالقيصر الجديد . ولكن كان يجب ان يعيشوا ، وبداوا يعيشون . اقترضوا النقود من تجار ستروغانوف . وشرع سكان المدينة يشيدون ، والفلاحون يحرثون الارض القفراء . وارسل الطيبون من الناس على الخيول وعلى الاقدام لتنظيف الطرق من اللصوص . عاش الناس فى فقر وشظف ، وقدموا آيات الاجلال للقرم ، والليتوانيين والسويديين . وحافظوا على ايمانهم ، وعرفوا ان هناك قوة واحدة هى الشعب القوى الحاذق النشيط المقتدر . واملوا ان يتغلبوا على المصاعب ، فتغلبوا عليها . ومن جديد بدا العمران يشيع فى الارض الخراب . . .»

صفق ايفان ايليتش الكتاب :

– ها انت ترين . . . لن نهلك الان . . . لن تهلك روسيا العظيمة بينما احفاد اولئك الفلاحين المهلهلين الذين هبوا والرماح بايديهم لينقذوا موسكو ، دحروا كارل الثانى عشر ونابليون . . اما حفيد ذلك الصبى الذى جلبوه الى موسكو على زلاجة بالقوة فشيد بطرسبورغ . . . لن تهلك روسيا العظيمة ! . . وقضاء واحد يكفى لأن تعيد الارض الروسية . . .

ونخر ، وراح يتطلع فى النافذة التى تنور وراءها صباح رطب . اسندت داشا راسها الى كتفه ، فاخذ هو يمسده ، وقبلها من شعرها .

– اذهبى للنوم ، يا خايفة . . .

ضحكت داشا ، وودعته وذهبت . وعند الباب التفتت وقالت :

– ايفان ، ان كاتيا متيمة به . . .

– حسن ، انه رجل رائع . . .

كان المساء حارا ساكن الريح . والهواء يفوح برائحة بنزين محروق وقطران الارصفة الخشبية . وكانت حشود الناس تسير فى جادة نيفسكى مبرقشة اللباس وبلا نظام وسط الابخرة ودخان السيكائر . وكانت سيارات الحكومة تنطلق باعلامها المرفرفة مقوقعة زاعقة . وكانت اصوات الصبيان الحادة ، باعة الجرائد تصرخ

بالانباء المثيرة التى لم يعد احد يصدق بها . وكان باعة السيكائر وعلب الكبريت والاشياء المسروقة يتسللون شاقين طريقهم عبر حشود الناس . وفى حدائق الساحات العامة كان الجنود يستلقون على العشب وسط احواض الزهور يقضمون حبوب عباد الشمس .

خرجت كاتيا وحدها من جادة نيفسكى . كان روتشين قد اتفق معهـا على ان يكون بانتظارهـا فى حوالى الساعـة الثامنة فى رصيف النهر . انعطفت كاتيا نحو ساحة القصر . كانت مصابيح صفراء تشع من النوافذ السوداء فى الطـابق الثـانى من هذا القصر القانى الحمرة الجهم الذى كانت بعض السيارات تقف عند مدخله ، والجنود والسواق يروحون ويجيئون ضاحكين . مرت دراجة بخارية مقرقعة يسوقها سناع صبى وضع على راسه قبعة سائق وقد قبب الهواء قميصه وراء ظهره .

وفى شرفـة فى ركن وقف رجل عجوز ذو لحيـة طويلة بيضاء مرتفقا على الدرابزين ساكن الحركة . التفتت كاتيـا وراءها وهى تستدير حول القصر فرات الخيول البرونزية الخفيفة تحت طاق مقر هيئـة الاركان العامـة ما تزال تشب على قوائمهـا الخلفيـة باتجاه مغـرب الشمس . عبرت كاتيا الرصيف وجلست على مسطبـة غرانيتية قرب النهر . كانت معالم الجسور الشفافة الضاربة الى الزرقـة تتدلى فوق النيفا الجارى بونى . وكـان البرج المستدق لكاتدرائية بطرس وبولس ينعكس فى النهر كالذهب الابريز . وفى النهر كان زورق بائس المظهر يتحرك خلال الانعكاسات المتلالئة . ووراء منطقة بطرسبورغسكايا ، وراء السطوح والادخنة كان قرص الشمس المنطفئ يغوص فى وهج برتقالى اللون .

وضعت كاتيا يديها على ركبتيها ، وراحت تحدق بهدوء فى هذا الافول ، وتنتظر فاديم بيتروفيتش وادعة صابرة .وقد جاء فاديم بتروفيتش من الخلف دون ان تلحظـه ، اسند مرفقيـه على السدة الغرانيتية ورنا اليها من عل . احست كاتيا به ، فالتفتت ، ونبضت وعلى ثغرها ابتسامة . كان ينظر اليها نظرة غريبة ذاهلة . صعدت السلم الى رصيف النهر ، وامسكت يد روتشين . وسار الاثنان . سالته كاتيا بخفوت :

— ماذا ؟

تلوت شفتاه ، هز كتفيه ولم يجب . عبرا جسر ترويتسكى ، وفى بدايـة جادة كامينواوستروفسكى اومـا روتشين براسـه الى دارة * كبيرة كسيت جدرانها الخارجية بالبلاط البنى . كانت النوافذ الواسعة لحديقة الشتاء تطفح بضوء ساطع . وعند المدخل وقفت بعض الدراجات البخارية .

ان هذه الدارة العائدة لراقصة باليه مشهورة تحولت الان الى مقر رئيسى للبلاشفة . كانت دقات الالآت الكاتبة تسمع منها ليل نهار . وكان جمهور غفير من العمال والجنود العائدين من الجبهـة والبحارة يحتشد كل يوم امامها فيطل من الشرفة زعيم حزب البلاشفة ويتحدث عن ضرورة اخذ العمال والفلاحين للسلطة بالقوة ، وانهاء الحرب فورا ، واقامة نظام جديد عادل فى بلادهم وفى العالم اجمع .

قال روتشين من خلال اسنانه :

— قبل حين كنت واقفـا هنـا مع الحشد فسمعت مـن هذه الشرفة كلمات نارية لاهبة . والناس يستمعون ... ليتك شاهدت كيف كانوا يصغون !.. انـا لا اعرف الان : من الغربـاء فى هذه المدينة : نحن ام هم ؟ (واوما الى شرفـة الدارة) انهـم لـم يعودوا يصغون الينا ... نحن نتمتم بكلمات فارغة من المعنى ...عندما جئت الى هنا كنت اعرف اننى روسى ... اما هنا فانا غريب ... انا لا افهم ، لا افهم ...

وتوغلا فى جـادة كامينواوستروفسكى . لحق بهـم شخص فى معطف رث وقبعة من القش . كان يحمل دلوا فى احدى يديه ، وحزمة من اعلانات فى الاخرى ...

قال روتشين بصوت اجوف ، واستدار لكيلا ترى كاتيا وجهه العابس :

— انا افهم شيئا واحدا ، هو ان البقعة الحية المشعة فى هذه الفوضى هى قلبك ، يا كاتيا ... انا وانت يجب الا نفترق ...

اجابت كاتيا بخفوت :

— لم اجرؤ ان اقول ذلك لك ... ولكن كيف لنا ان نفترق ، يا صديقى العزيز ...

---

* استعملت هذه اللفظة عوضا عن الفيلا (المترجم) .

وصلا الى المكان الذى الصق فيه الرجل حامل الدلو من توه اعلانا ابيض غير كبير على الحائط . ولان كليهمـا كان متاثرا فقـد توقفا لبرهة . وفى ضوء مصباح الشارع كان من الممكن ان يقرا فى الاعلان : «الى الجميـع ! الى الجميـع ! الى الجميـع ! الثورة فى خطر ! . . .»

– يكاترينا دميترييفنا !

نادى روتشين وتناول يد كاتيا النحيلة ، وتابع سيره البطىء فى الجادة الواسعة التى ركنت الى الهدوء مع هبوط الظلام ، بينمـا الشفق المسائى لم يهمد بعد فى طرفه القصى .

– ستمر سنون ، وتزول الحروب ، وتهدأ الثورات ، ويبقى شىء واحد غير خامد هو قلبك الحبيب الوديع الرقيق . . .

ومن خلال النوافذ المفتوحة فى البيوت الكبيرة تناهت اليهما اصوات مرحة ، ونقاشات ، وانغام موسيقى . ومرة اخرى سبقهما الرجل المحنى الظهر يحمل دلوه ، والتفت وهو يلصق اعلانا آخر . ومن تحت قبعة القش المهلهلـة تفرست بهمـا عيناه المتقدتان بالكراهية .

آب ١٩٢١

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتـم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته وشكل عرضه ، وطباعتـه ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ٢١

موسكو ـ الاتحاد السوفييتى

22—2200

الكسي تولستوي

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الثاني

عام ١٩١٨



دار التقدم

موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان

А. Толстой

Хождение по мукам

Трилогия

Книга вторая

ВОСЕМНАДЦАТЫЙ ГОД

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

T $\frac{70302-1052}{014(01)-75}$ 593—75

غرقنا فى الماء ثلاثا ، وسبحنا
بالدم ثلاثا ، وسلقنا بالمحلول
القلوى ثلاثا . فلا انظف منا .

١

انتهى كل شيء . كانت الريح القارسة تسوق قمامة الاوراق فى شوارع بطرسبورغ الخالية الراكنة الى الهدوء – مزقا من الاوامر العسكرية ، واعلانات المسارح ، ونداءات تحث الشعب الروسى الى التمسك «بالضمير والوطنية» . كانت مزق الاوراق الملونة بلطخات عجينة اللصق الجافة عليها تزحف بخشخشة منحوسة دارجة على الارض مع حلزونيات الثلج المتولدة عن الريح الارضية .

كان ذلك كل ما تبقى من الضجيج الذى كان يعربد مصطخبا فى العاصمة قبل فترة قصيرة من الزمن . فرغت الساحات والشوارع من الحشود الفضولية ، وخلا قصر الشتاء الذى خرقت سطحه قنبلة اطلقها طراد «افرورا» . واختفى فى المجهول اعضاء الحكومة المؤقتة ، واصحاب البنوك الكبار ، والجنرالات المشهورون ... وخلت الشوارع الموحلة الرثة من العربات الرائعة ، والنساء المتأنقات ، والضباط والموظفين ورجال المجتمع ذوى الافكار المثيرة . وفى الليالى كانت تتكاثر اصوات المطارق تدق الالواح على ابواب المخازن . ولم تبق الا واجهات قليلة يعرض بعضها قطعة جبنة ، وبعضها كعكة يابسة . الا ان ذلك كان يزيد الشوق للحياة المختفية . كان عابر السبيل يحاذى الجدران وجلاً ينظر بطرف عينه الى الدوريات – الى جماعات من الرجال المتمسين السائرين وعلى طاقياتهم نجمة حمراء ، وعلى اكتافهم بنادق متجهة بمواسيرها نحو الارض .

كانت الريح الشمالية ترسل نفحات القرس فى نوافذ البيوت المعتمة ، وترتفع فى مداخل البيوت الخالية مبددة اشباح الترف الزائل . لقد كانت بطرسبورغ رهيبة فى اواخر العام ١٩١٧ .

رهيبة ، غامضة ، متعذرة على الفهم . انتهى كل شىء . واُلغى ما كان فى الماضى . كان رجل يرتدى قبعة بالية ويحمل دلوا وفرشاة يعبر الشارع الذى كانت تكنسه ريح ارضية ويلصق هنا وهناك المزيد والمزيد من الاعلانات عن المراسيم ، فكانت الملصقات تلوح كالرقع البيض على جدران البيوت العتيقة . ان المراتب والفوارق ورواتب التقاعد وكتافيات الضباط ، الملكية الخاصة ، والحق فى ان تعيش على هواك – كل ذلك قد اُلغى . انتهى ! اوسل ملصق الاعلانات نظرة غاضبة من تحت قبعته الى زجاج النوافذ ، الى قاطنى البيوت الذين ما يزالون يذرعون الغرف الباردة فى معاطفهم الفرائية واحذيتهم اللبادية قائلين وهم يفركون اصابعهم :

– وماذا بعد ؟ ماذا سيحدث ؟ هلاك روسيا . نهاية كل شىء ... الموت !

ولئن اقتربوا من النوافذ كان فى وسعهم ان يروا على خط مائل عربة نقل طويلة تقف قرب مدخل الدارة التى كان يقطنها صاحب الفخامة ، فى الموضع الذى كان يقف فيه شرطى حارس فى هيئة استعداد ينظر الى الواجهة الرمادية بطرف عينه ، ويروا رجالا مسلحين يخرجون اثاثا وابسطة ولوحات من الباب المفتوح على مصراعيه . وفوق المدخل يرفرف علم احمر ، وهنا ايضا يحوم صاحب الفخامة نفسه بسبلتيه الشبيهتين بسبلتى الجنرال سكوبليف ، مرتديا معطفا خفيفا ، وراسه الأشيب يهتز . انهم ينقلونه ! والى أين فى شدة القر هذه ؟ الى حيث القت ... بينما كان صاحب الفخامة هذا درعا حصينا فى جهاز الدولة !

ويهبط الليل . ظلام دامس لا مصباح فى شارع ، ولا ضوء فى النوافذ . لا يوجد فحم . ويقولون ان سمولنى * غارق فى الضوء ، وفى مناطق المعامل يوجد ضوء ايضا . والزوبعة الثلجية تعربد فوق

* مقر هيئة اركان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى فى ١٩١٧ ثم مقر الحكومة السوفييتية الاولى .ــ المترجم .

المدينة المعذبة المثقبة بالرصاص وتصفر فى ثقوب السطوح منذرة بالويل . وتئز طلقات فى الظلام . فمن يطلق النار ، وعلى من ، ولأى شىء ؟ هل الطلقات هناك حيث يومض الوهج ، ويلون غمائم الثلج ؟ حيث مستودعات النبيذ تحترق ... والناس يجرعون النبيذ من البراميل المحطمة فى الاقبية . . . عليهم اللعنة ، عسى ان يحترقوا احياء !

ايها الروس ، الروس !

كان الروس يعودون بالملايين محشورين فى قطارات لا نهاية لها ، قادمين من الجبهة الى بيوتهم فى القرى ، والسهوب ، والمستنقعات ، والغابات ... الى اراضيهم ، الى نسائهم . كانوا يقفون مضغوطين لا يستطيعون حراكا فى العربات المحطمة النوافذ المكتظة الى اقصى حد ، حتى ليستحيل ان يُخرج ميت من الزحام ، ويُقذف من النافذة . كانوا يسافرون راكبين على العوارض الحديدية المخففة للصدمات ، وعلى سطوح العربات . كانوا يتجمدون بردا ، ويموتون تحت العجلات ، ويشدخون رؤوسهم فى المسافات الضيقة بين العربات وهياكل الجسور . وكانوا يحملون فى صناديق صغيرة وفى صرر كل ما وقع تحت ايديهم من اشياء لان كل شىء ينفع : رشاشة ، ترباس مدفع ، سقط متاع اُخذ من ميت ، قنابل يدوية ، بنادق ، حاك ، جلد قطع من مقعد فى عربة قطار . والشىء الوحيد الذى لم يجلبوه ، هو النقود . فان هذه الاوراق غير النافعة لا تستطيع حتى ان تلف بها سيكارة .

كانت القطارات تدب بطيئة فى سهول روسيا ، وتتوقف لتلتقط انفاسها فى محطات محطمة النوافذ مخلوعة الابواب . وكانت القطارات تستقبل كل محطة بوابل من السباب . كان الجنود بمعاطفهم الرمادية يقفزون من سطوح العربات ، ويقلقلون بترابيس بنادقهم ، وينطلقون ليبحثوا عن ناظر المحطة ليقضوا فى الحال على ذيل البرجوازية العالمية هذا قائلين «اعطنا قاطرة ! .. هل سئمت من الحياة ، يا ابن كذا وكيت ، يا ابن الكلب ؟ دع القطار يخرج ! ..» ويهرولون نحو قاطرة فى الرمق الأخير عرب منها سائقها ووقادها الى السهوب . «اعطونا فحما ! خشبا ! أكسروا الاسيجة ، حطموا الابواب ، والنوافذ !» .

قبل ثلاثة اعوام كانوا لا يسالون كثيرا : من تحارب ، ولأى شيء . كان السماء انشقت ، والأرض زُلزلت : تعبئة وحرب ! وادرك النـاس أن زمن الاحداث المريعـة قد اقترب . انتهى نمط الحياة القديم . والسلاح فى اليد . ولن يعودوا الى ما كانوا عليه . مهما يكن من شيء . فقد تراكمت مظالم كثيرة على مر القرون .

وفى ثلاث سنوات من الحرب عرفوا ما هى الحرب . رشاشـة من أمام ، ورشاشـة من خلف . وأنت منبطح فى الروث ، بين القمل الى ان تحين منيتك . ثم سرت الرعدة فى الاجساد ، والزغللـة فى العيون . انهـا الثورة ! . . افـاق الناس على انفسهـم . ونحن مـا مصيرنا ؟ هل سيخدعوننا من جديد ؟ واستمعوا الى الدعاة : اذن ، كنا اغرارا من قبل ، والآن يجب أن نكون عقلاء . . . حاربنا ما فيـه الكفاية ، فلنعد الآن الى بيوتنا لتصفيـة الحساب . الآن نعرف اى كرش سنبقر بحربتنا . لا قيصر الآن ولا اله . لا أحد غيرنا . فلنعد الى بيوتنا ، ولنقسم الأرض !

ومرت القطارات العسكرية كالمحراث فى السهول الروسيـة مخلفة وراءها المحطات وقطارات السكك الحديدية المحطمة ، والمدن الرثـة . ومن القرى والضيـاع كان ينبعث صريف واحتكـاك معدن بمعدن ، حيث كانت ماسورات البنادق تقطع بالمبارد . ان الروس قد استقروا فى الأرض جديا ، وعادت الشعل تضىء الاكواخ كما فى الازمنة السحيقة ، والنساء يلففن الغزول على مناول جدات الجدات . وبدا وكان الزمن قد ارتد الى القرون الخوالى . كان ذلك شتاء ، حين بدات الثورة الثانية ، ثورة اكتوبر . . .

ان بطرسبورغ الجائعـة المنهوبـة بالفرق ، المباحة للريح القطبية ، المطوقة بجبهة معادية ، المهزوزة بالمؤامرات ، الفقيرة الى الفحم والخبز ، مدينة المصانع المنطفئة المداخن ، الشبيهة بدماغ انسـان مكشوف كانت فى ذلك الحين تذيـع على موجـات محطتهـا الاذاعية المسماة «تسارسكويه سيلو» افكارا جنونية متفجرة .

صاح شاب نحيل من على القاعدة الغرانيتية للتمثال ، وكان يلبس قبعة فنلندية أدار مقدمتها نحو مؤخر راسه :

— ايها الرفاق ، ايها الرفاق الهاربون من الجيش ، لقد ادرتم

ظهوركم الى الامبرياليين الحقراء . . . ونحن عمال بطرسبورغ نقول لكم : اصبتم فيما فعلتم ، يا رفاق . . . نحن لا نريد ان نكون مرتزقة البرجوازية الدموية . فلتسقط الحرب الامبريالية !

— تسقط ، تسقط ، تسقط . . .

سرى ذلك بتوان بين جمع الجنود الملتحين . كانـوا يقفون امام تمثال الامبراطور الكسندر الثـالث تعابـا مثقلين يحملون البنادق وصرر المتاع على اكتافهـم . كانت طبقـة من الثلج تغطى تمثال القيصر الاسود الضخم الذى كان بوز حصانه القصير يتدلى فوق الخطيب ذى المعطف الخفيف المفتوح .

— ايها الرفاق . . . ولكن يجب الا نلقى البنادق ! ان الثورة فى خطر . والعدو ينهض ضدنا من اطراف الدنيا الاربعـة . . . وفى يديـه المفترستين اكوام من الذهب وسلاح فتاك رهيب . . . وهو يهتز الآن فرحا ، اذ يرانـا نشرق بالدم . . . ولكننا لن نفزع . . . ان سلاحنا هو ايمان ملتهب فى الثورة الاجتماعية العالمية . . . انها ستحدث ، وعن قريب . . .

وحملت الريح نهاية العبارة . توقف عند التمثال رجل واسع المنكبين مرفوع الياقة ليقضى حاجة صغيرة . والظاهر انه لم يلحظ التمثال ولا الخطيب ولا الجنود حملة الصرر . الا ان عبارة معينة قد اثارت انتباهه فجاة ، او ربما ليست العبارة بحد ذاتهـا ، بل تلك الثقة الهائجة التى قيلت بها من تحت بوز الحصان البرونزى :

— . . . ولتكونوا على علم . . . اننا بعد نصف عام من الزمن سنقضى على افظع شر ، على النقود . . . ولن تكون هناك مجاعة ، ولا فقر ، ولا ذلـة . . . خذ قدر حـاجتك من المستودع العـام . . . يا رفاق ، وسنبنى بالذهب مرافق عامة . . .

ولكن ريحا ثلجية هبت فى تلك اللحظة ، ونفذت عميقا فى حلق الخطيب ، فبدأ يسعل منحنيا بضيق خانق ، غير قادر على أن يتخلص من سعاله . وبدا وكان رئتيه ستنفجران . تريثت الجنود برهـة ، واهتزت قبعاتهم العالية ، وانصرفوا . بعضهم الى المحطة ، والبعض الآخر عبر المدينة الى ما وراء النهر . نزل الخطيب عن القاعدة ، ساحبا اظافره على غرانيتهـا المتجمد . ناداه الرجل ذو الياقـة المرفوعـة بصوت خافت :

— روبليف ، مرحبا .

زرر قاسيلى روبليف معطفه الخفيف وهو ما يزال يسعل . ونظر الى ايفان ايليتش تليغين نظرة جفاء دون ان يمد له يده .

— ماذا ؟ ما حاجتك ؟

— أنا مسرور بلقياك . . .

— هؤلاء الملاعين ، غلاظ العقول . . .

قال روبليف وهو ينظر الى معالم محطة القطار غير الواضحة بسبب تساقط الثلج ، حيث ما زال اولئك الجنود الملتحون الموبوءون بالقمل يتجمهرون جماعات وعند اقدامهم صررهم . واردف قائلا :

— هل من المعقول ان تحرك ادمغتهم ؟ انهم يولون من الجبهة كالعصافير . خفاف العقول . . . الارهاب ضرورى معهم . . .

وقبضت يده المتجمدة على الريح الثلجية . . . وضربت بقبضتها شيئا غير منظور فى تلك الريح . ثم تدلت وسرت رعدة برد فى اوصاله . . .

— روبليف ، يا عزيزى ، انت تعرفنى جيدا (وانزل تليغين ياقته ، وانحنى نحو وجه روبليف الترابى اللون) . . . اشرح لى الامر ، بحق الرب . . . نحن نضع رقابنا فى الانشوطة . . . يستطيع الالمان ، اذا شاءوا ، ان يكونوا فى بتروغراد* فى غضون اسبوع . . . افهمنى . أنا لم اهتم بالسياسة فى يوم من الايام . . .

— ماذا تعنى بانك لم تهتم بالسياسة ؟ — سال روبليف وتحول الى ايفان ايليتش بحركة هوجاء وقد تجهم وجهه — بم اهتممت اذن ؟ والآن اتعرف من الذى لا يهتم ؟ — وتفرس فى عينى ايفان ايليتش بجنون — الحيادى . . . عدو الشعب .

— لهذا السبب بالذات اردت ان اتحدث معك . . . فتحدث كما يتحدث الناس .

وغضب ايفان ايليتش ايضا . زفر روبليف الهواء بعمق من خلال انفه .

---

* الاسم الذى اطلق على بطرسبورغ من ١٩١٤ حتى ١٩٢٤ . — المترجم .

— انت غريب الاطوار ، يا رفيق تليغين . ليس لى الوقت لاتحدث معك . هل تستطيع ان تفهم ذلك ؟

— اسمع ، يا روبليف ، انا الآن فى حالتى النفسية هذه . . . هل سمعت بان كورنيلوف يثير منطقة الدون ؟

— سمعنا .

— اما ان اخرج الى الدون . . . واما ان ابقى معكم . . .

— ولماذا : «اما» هذه ؟

— هكذا ، يجب ان اومن بشىء . . . انت الى جانب الثورة ، وانا الى جانب روسيا . . . وربما أنا ايضا الى جانب الثورة . أنا ، اذا كنت تعلم ، ضابط مقاتل . . .

انطفأ الحنق فى عينى روبليف السوداوين ، ولم يبق فيهما غير الارهاق المسهد . قال :

— حسنا . تعال غدا الى سمولنى ، وسل عنى . . . روسيا — وهز رأسه مبتسما بتهكم — ان روسياك هذه تجعل المرء يتميز غضبا . . . تملأ العين دما . . . ومع ذلك فاننا جميعا نموت فى سبيلها . . . اذهب الآن الى محطة البلطيق وستجد ما يقرب من ثلاثة آلاف هارب من الجيش يقضون اسبوعهم الثالث منطرحين على الارض . . . اجتمع بهم وحرضهم على الوقوف الى جانب السوفييتات . . . قل لهم : ان بتروغراد بحاجة الى الخبز ، ونحن بحاجة الى مقاتلين . . . (وجفت عيناه من جديد) قل لهم : اذا كنتم ستنبطحون على سطوح مواقدكم البيتية كسالى فانكم ستهلكون ، مثل الجراء ، وستجربون بجلدكم ما هى الثورة . . . دق هذه الكلمات فى رؤوسهم ! . . لا احد يستطيع الآن ان ينقذ روسيا ، وان ينقذ الثورة غير السلطة السوفييتية . . . فهمت ؟ لا شىء فى العالم الآن اهم من ثورتنا . . .

ارتقى تليغين السلم المتجمد فى الظلام الى شقته فى الطابق الخامس . تلمس الباب فى الظلمة ، وطرق ثلاث طرقات ، وطرقة منفردة . سمع وقع اقدام فى الداخل تقترب من الباب . وبعد برهة من الصمت سال صوت زوجته الخافت :

– من ؟
انا ، انا . . . داشا .

وسمع تليغين زفرات خلف الباب . صلصلت سلسلة وظل القفل مستعصيا عن الدوران وقتا طويلا . وكان يسمع همس داشا : «آه ، يا ربى ، يا ربى» . واخيرا افلحت فى فتح الباب . وحالما فعلت ذلك غابت فى ظلمة الممر لتجلس فى مكان ما .

احكم تليغين اغلاق الباب بكل الاقفال والزلاليج . وخلع الكالوش . وتلمس جيوبه بحثا عن الكبريت . اللعنة . لا يوجد كبريت . مد ذراعيه الى الامام دون ان يخلو معطفه وقبعته ، واتجه الى حيث غابت داشا . قال :

– استيهتار . بلا ضوء مرة اخرى . داشا ، اين انت ؟

اجابت من غرفة المكتب بصوت خافت بعد برهة من الصمت :

– اشتعل قليلا ، ثم انطفأ .

دخل تليغين غرفة المكتب ، وكانت ادفأ غرفة فى الشقة كلها ، الا أنها هى الأخرى كانت باردة اليوم . امعن النظر ولكنه لم يتبين شيئا ، بل ولم يسمع انفاس داشا . وكان جائعا جدا ، ويود بشكل خاص ان يحتسى شايا . الا انه احس بأن داشا لم تعد شيئا .

انزل ياقة معطفه ، وجلس على الكرسى قرب الاريكة ووجهه الى النافذة . كان ضوء اغبش يرود الظلام الثلجى . وكان ضوء كشاف يحوم فى السماء طالعا من كرونشتادت او من مكان قريب منها .

وفكر ايفان ايليتش مع نفسه : «لطيف لو اشعل الموقد الآن . ولكن كيف أسأل داشا عن مكان علبة الثقاب دون ان ازعجها ؟»

غير انه لم يحزم امره . ود لو يعرف ماذا تفعل الآن : تبكى ام تهوم نعسى ؟ كان الهدوء شاملا . خيم سكون الصحراء على البيت ذى الطوابق الخمسة كله . لا شىء غير صدى خفيف لطلقات نادرة تطلق فى مكان ما . وفجاة احمرت مصابيح الثريا الستة قليلا ، وتنورت الغرفة بضوء احمر خافت . كانت داشا جالسة الى المكتب واضعة معطفها الفرائى على ما عليها من ثياب ،

وقد مدت الى امام ساقا واحدة فى حذاء لبادى . كان راسها مستقرا على المكتب ، وخدها على نشافة ورق . الوجه نحيل معذب ، والعين مفتوحة . ابقتها مفتوحة وهى جالسة تلك الجلسة غير المريحة وغير الطبيعية ، حسب ما اتفق . . .

– عزيزتى داشا ، لا يجوز ذلك ، على اى حال .

قال تليغين بصوت كامد . فقد اشفق عليها اشفاقا لا يطاق ابدا . جاء الى المكتب . الا ان الخيوط الحمراء فى المصابيح ارتعشت وانطفأت . لم يستمر الضوء غير بضع ثوان .

توقف وراء داشا ، وانحنى عليها ممسكا انفاسه . لا اسهل من ان يمسد شعرها صامتا ، على الأقل . الا انها كالجثة لم تبد استجابة لاقترابه منها .

– داشا ، لا تعذبى نفسك بهذا الشكل . . .

قبل شهر ولدت داشا طفلا توفى فى اليوم الثالث من ميلاده . كانت الولادة مبتسرة ، تمت بعد صدمة عصبية فظيعة اصابت داشا حين بوغتت فى الشفق بشخصين ملفوفين بكفنين متطايرين فى الريح فارهين بشكل لاانسانى هجما عليها وهى فى ميدان «مارسوفو بوليه» . وانهما ، بالتأكيد ، من اولئك «القفازين» الذين كانوا يربطون اقدامهم بزنبركات خاصة ، وينشرون الرعب فى بتروغراد كلها فى تلك الاوقات الفريدة . واخذا يكشران اسنانهما لداشا ، ويصفران ليا . وعندما سقطت مغشيا عليها انتزعا معطفها من عليها ، ووليا هاربين عبر جسر ليباجى . بقيت داشا فترة من الوقت منطرحة على الأرض . وهطل المطر مدرارا ، وضجت اشجار الزيزفون الجرداء فى حديقة ليتنى ضجيجا موحشا ، وصرخ شخص وراء نهر «فانتانكا» صرخة ممطوطة : «النجدة !» واحست داشا بان الطفل يرفس فى بطنها ، يريد الخروج الى هذا العالم .

كان يطالب ، فنهضت داشا ، وعبرت جسر ترويتسكى . كانت الريح تضغطها على درابزين الجسر الحديدى ، وثوبها المبلل يلتصق بين ساقيها . وما من ضوء ، ولا عابر سبيل . والنيفا تحتها اسود الماء مضطرب . واحست داشا بعد ان عبرت الجسر باول نوبة من الالم . وادركت انها لن تستطيع بلوغ البيت ، فارادت فقط ان تصل الى شجرة ، وتحتمى من الريح . وفى شارع كراسنيه زورى اوقفها

جندى من جنود الدورية . امسك بندقيته ، وانحنى على وجهها الشاحب شحوب الموت .

— خلعوا ثيابك ، الاوغاد ! اوه ، وانت حبلى .

واوصل داشا الى دارها ، وسحبها الى الطابق الخامس . طرق الباب باخمص بندقيته ، وحين أطل تليغين براسه صاح به :

— اليس جميلا ان تترك زوجتك ليلا فى الشارع لوحدها وهى على وشك ان تضع ؟ ايها البرجوازى اللعين ، العديم التدبير . . .

وبدا المخاض فى نفس الليلة . جاءت الى الشقة قابلة ثرثارة . واستمرت آلام المخاض اربعا وعشرين ساعة . وخرج الوليد حبيس الانفاس بسبب ما ابتلع من ماء . طبطبت القابلة عليه ، ودلكته ، ونفخت فى فمه . فتلوى وجهه وانشا يولول . ولم تياس القابلة رغم ان الوليد اخذ يسعل . وظل يولول متشكيا كالقطيطة ، ولم يرضع ثدى امه . ثم كف عن الولولة ، وبقى ينط فقط . وفى صباح اليوم الثالث مدت داشا ذراعها الى المهد ، ثم سحبتها حين مست جسده البارد . رفعته بسرعة ، وفكت لفائفه . كان شعره الخفيف الفاتح اللون يقف منتصبا على جمجمته العالية .

ارسلت داشا صرخة وحشية . وقفزت من الفراش الى النافذة لتكسرها ، وتقذف نفسها منها ، وتنهى حياتها . . . وراحت تكرر : «غدرت به ، غدرت به . . . لا اطيق ، لا اطيق !» . ووجد تليغين صعوبة كبيرة فى تهدئتها وارقادها . واخرج الميت الصغير . قالت داشا لزوجها :

— جاءه الموت حين كنت نائمة . تصور ان شعره قد وقف على راسه . . . تعذب لوحده . . وانا كنت نائمة . . .

ولم يستطع شىء أن يبعد عن خيالها رؤيا مصارعة الطفل وحده للموت .

— حسنا ، يا ايفان . سأكف عن ذلك .

اجابت بذلك تخلصا من سماع صوت زوجها الرصين ، ورؤية وجهه المعافى المورد و «المستبشر» رغم كل حرمان .

كانت عافية تليغين الطافحة تمكنه من ان يضرب فى المدينة بكالوش وث من الفجر الى ساعة متاخرة من الليل بحثا عن عمل

مساعد ، وعن طعام ، وحطب ، وغير ذلك . وكان يهرع عدة مرات الى البيت ، مظهرا قدرا غير اعتيادى من العناية والاهتمام .

الا ان هذه العناية الناعمة بالذات هى ابعد ما تحتاجها داشا فى اللحظة الراهنة . كلما اسرف ايفان ايليتش فى اظهار فعالية عملية ازداد ابتعاد داشا عنه بشدة . كانت تقضى النهار بكامله جالسة فى الغرفة الباردة . واذا المت بها سنة من نوم ، فذلك شىء رائع . عند ذاك ستغفو ، وتمرر يدها على عينيها ، وتحس بشىء من الارتياح . فتذهب الى المطبخ متذكرة أن ايفان ايليتش طلب اليها ان تصنع شيئا ما . الا انها لم تستطع ان تقوم حتى باهون الاعمال . وكان مطر اواخر الخريف يدق زجاج النوافذ ، وتصخب الريح فوق بطرسبورغ . وفى هذا البرد يرقد جسد طفلها الميت الذى لم يكن قادرا حتى على الشكوى ، يرقد فى مقبرة عند ساحل البحر . . .

ادرك ايفان ايليتش انها مريضة نفسيا . كان انطفاء الكهرباء كافيا لان يجعلها تنزوى على كرسى فى احد الاركان ، وتغطى راسها بلفاع ، وتغيب فى كآبة يائسة . بينما كان على الانسان ان يعيش ، ان يعيش . . . كتب عنها الى اختها يكاترينا دميتريفنا فى موسكو ، الا ان الرسائل لم تصل . ولم تجب كاتيا ،أم لعلها هى الأخرى قد اصيبت بمكروه . لقد كانت الاوقات صعبة .

وقعت قدم ايفان ايليتش على علبة الكبريت بينما كان يراوح وراء ظهر داشا . وعرف على الفور : حين كانت الكهرباء تنطفىء كانت داشا تصارع الظلام والوحشة مكتفية باشعال عود ثقاب من حين الى آخر . قال ايفان ايليتش لنفسه : «يا ويحى ، وهى وحيدة طوال النهار» .

رفع العلبة بحذر ، ووجد فيها بضعة اعواد . جلب من المطبخ عيدان الحطب التى نشرها صباحا بعناية من بقايا صوان قديم ، وقرفص فى غرفة المكتب ، واخذ يوقد النار فى الموقد الحديدى الصغير المرصوف بالآجر ذى المدخنة الحديدية الممتدة بعاكس عبر الغرفة كلها . ونشر دخان الخشب المشتعل رائحة مريحة ، وهبت نفحة ريح فى شقوق باب الموقد . وانعكست على سقف الغرفة دائرة من الضوء الرجراج .

ان هذه المواقد المصنوعة بيتيا اشتهرت فيما بعد باسم «النحلة». وادت خدمات كثيرة للبشرية طوال فترة الشيوعية العسكرية. وهى حديدية ذات اربع ارجل، ومنها البسيطة ذات عين طبخ واحدة او المعقدة ذات فرن داخلى يمكن أن تشوى فيه المعجنات من رواسب القهوة، بل وحتى الفطائر المحشوة بالسمك المجفف، او المترفة منها المرصوفة بالصفائح المنزوعة من المصطليات. فقد كانت تستخدم للتدفئة والطبخ والخبز وترنيم اغانى النار العريقة مصحوبة بعويل العاصفة الثلجية.

وكان الناس يجتمعون حول جمراتها مثلما كان القدامى يجتمعون حول كانون النار فى الازمنة الغابرة، يدفئون ايديهم المتثلجة منتظرين تراقص الغطاء على السخان متجاذبين اطراف احاديث لم يسجلها احد مع الاسف. وكان الاساتذة بلحاهم الكثيفة والاحذية اللبادية فى ارجلهم، واللفاحات على اكتافهم يقربون كراسيهم الكسيحة منها، ويكتبون كتبا مدهشة. وكان الشعراء الضاوون من الجوع ينظمون القصائد عن الحب والثورة. وكان المتآمرون المتحلقون المتقاربو الرؤوس يتهامسون باخبار يفوق احدها سابقه بالاغراب فى الخيال. وكان الكثير من الاثاث الممتاز الأثرى يحرق متحولا الى دخان يتطاير من خلال المداخن الحديدية فى تلك السنوات.

كان ايفان ايليتش يحب موقده كثيرا. وقد ملط شقوقه بالطين، وعلق علب التنك تحت مدخنته لكيلا يتساقط السخام على الأرض. حين غلى السخان أخرج كيس ورق، ونثر سكرا ناعما فى قدح وزاد منه ليحلو اكثر. واخرج من الجيب الآخر ليمونة وقعت فى يديه اليوم باعجوبة (بادلها بقفازين عند احد مشوهى الحرب فى جادة نيفسكى) واعد شايا حلوا بالليمون، ووضعه امام داشا.

— داشينكا*، هذا بالليمون . . . والآن ساوقد المسرجة.

كانت هذه المسرجة عبارة عن علبة حديدية، معباة بزيت عباد الشمس تطوف فيها فتيلة. جلب ايفان ايليتش المسرجة، وتنورت الغرفة بضوء باهت.

---

* صيغة تدليل من اسم داشا (الاسم الكامل داريا). — **المترجم**.

كانت داشا تجلس الآن فى كرسيها فى وضع طبيعى تحتسى الشاى. جلس تليغين على مقربة منها شديد الرضى.

— اتذكرين بمن التقيت؟ بفاسيلي روبليف. هل تذكرين روبليف الاب وروبليف الابن؟ كانا يشتغلان فى ورشتى. كانت بيننا صحبة كبيرة. الاب ذو العين النافذة. قدم فى الريف، وقدم فى المصنع. رجل مدهش! اما فاسيلي الذى كان بلشفيا حتى فى ذلك الحين فهو فتى ذكى، محنق كالشيطان نفسه. كان اول من اخرج عمال مصنعنا الى الشارع فى شباط. وكان يتسلق الى عليات البيوت باحثا عن رجال الشرطة. ويقولون انه قتل لوحده خمسة او ستة رجال منهم . . . وبعد انقلاب اكتوبر صار من ذوى النفوذ. جرى حديث بينى وبينه . . . هل تسمعينني يا داشا؟

قالت: انا سامعة. ووضعت القدح الفارغ، واسندت خدها على يدها المضمومة النحيلة، وحدقت فى اللهب المتطاير من المسرجة . . . كانت عيناها الرماديتان تنمان عن عدم اكتراث لكل ما فى العالم، وكان وجهها ناصلا، وبشرتها الرقيقة شفافة، وانفها الصغير الذى كان من قبل انوفا بل ونزقا يبدو مدببا الآن.

قالت لتبدى شكرها على الشاى بالليمون على الارجح:

— ايفان. كنت ابحث عن علبة ثقاب فوجدت علبة سيكائر وراء الكتب. اذا كنت تريد . . .

— سيكائر! انها من سيكائرى القديمة المفضلة، يا داشينكا.

واظهر ايفان ايليتش فرحا مبالغا به، رغم ان هذه العلبة قد خباها بنفسه لوقت الشدة. اشعل سيكارة، ونظر من طرف عينه الى بروفيل داشا الخالى من الحياة. وحدثته نفسه: «ابعدها عن هنا، الى منطقة دافئة، الى الشمس».

— لنعد الى كلامنا. تحدثت مع فاسيلي روبليف فساعدنى كثيرا، يا داشا . . . لا اعتقد أن هؤلاء البلاشفة سيختفون فجاة. وجوهر الامر كله فى امثال روبليف. هل تفهمين؟ حقا ان احدا لم ينتخب البلاشفة. وسلطتهم معلقة بشعرة، وهى منحصرة فى بتروغراد وموسكو وبعض مراكز المحافظات . . . ولكن السر كله يكمن فى نوعية السلطة . . . ان لهذه السلطة صلة الرحم بامثال

فاسيلي روبليف . . .وهم ليسوا كثارا فى بلادنا . الا أن لهم ايمانا .
قد تمزقه السباع والنمور ، وقد يحرق حيا ، ولكنه سيظل ينشد
النشيد الأممي متهللا . . .

ظلت داشا على صمتها . حرك ايفان ايليتش الحطب فى
الموقد . وقال وهو مقرفص امام بابه :

— افتفهمين ما أرمى اليه فى كلامى ؟ . . . يجب ان اميل الى
هذا الجانب او ذاك . ليس من اللائق ان اقعد وانتظر حتى تستقر
الأمور على حال من الاحوال . . . ومن العار ان اجلس على قارعة
الطريق أستجدى . انا رجل معافى ، ولست مخربا . . . ويداى
مشوقتان الى عمل شيء ما ، اذا أردت الحقيقة . . .

تنهدت داشا . وانطبق جفناها ، وتحدرت قطرات من الدمع من
تحت اهدابها . واستنشق ايفان ايليتش الهواء من منخريه .

— من الطبيعى ان علينا ان نبت بأمرك قبل كل شيء ، يا
داشا . . . ينبغى ان تلملمى شتات قوتك وتنتعشى . فان
الطريقة التى تعيشين بها هى الانطفاء بعينه .

ولم يضبط نفسه ، فشدد على كلمة «انطفاء» بغيظ . وعندئذ
تكلمت داشا بصوت طفولى شاك :

— وهل أنا ملومة لأنى لم امت آنذاك ؟ والآن اعيقك عن
الحياة . . . انت الذى جلبت لى الليمونة . . .انا لا اطلب منك . . .

راح ايفان ايليتش يذرع الغرفة محدثا نفسه : «تلك هى
نتيجة الحديث معها !» ونقر باظافره على زجاج النافذة الذى اكتست
بطبقة من البخار . كان الثلج يدوم فى الخارج ، والزوبعة الثلجية
تعول ، والريح الضارية تنطلق بسرعة شديدة ، وكأنها تستبق
الزمن نفسه ، وتنفذ الى الازمان المقبلة لتعلن عن احداث غير
اعتيادية . وفكر ايفان ايليتش مع نفسه : «هل ارسلها الى خارج
البلاد ؟ ام الى ابيها فى سامارا ؟ ما اعقد تنفيذ ذلك . . . ومع ذلك
من المستحيل الاستمرار على هذا النمط من الحياة . . .»

اخذت يكاترينا دميتريفنا ، اخت داشا ، زوجها فاديم
بتروفيتش روتشين الى ابيها فى سامارا ، حيث كان من الممكن ان
يعيشا بهدوء ، حتى الربيع ، دون يتلفا اعصابهما على كل كسرة

خبز . ان سلطة البلاشفة ستنتهى ، لا محالة ، مع اقبال الربيع .
بل ان الدكتور دميترى ستيبانوفيتش بولافين حدد مواعيد دقيقة
وهى : ما بين ذوبان الثلج وبدء اوحال الربيع سيشن الالمان
هجوما على طول الجبهة ، حيث كانت فلول الجيوش الروسية
منشغلة بالاجتماعات والخطابات ، ولجان الجنود تجاهد ، وسط
الفوضى والخيانة والهروب من الوحدات ، لايجاد اشكال جديدة
للانضباط الثورى .

ان دميترى ستيبانوفيتش قد شاخ خلال الاعوام الاخيرة ،
وعاش حياة محدودة ، وازدادت احاديثه عن السياسة . وقد انشرح
للغاية بمجئ ابنته ، وانخرط فورا فى تحويل تفكير روتشين
السياسى . فكانا يجلسان ساعات طوالا فى غرفة الطعام حول
السماور (الآلة الضخمة المجعدة السطح الذى سكب من بطنه
بحيرة كاملة من الماء الفائر وحنكته الشيخوخة ، فما ان تلقى فيه
فحما حتى ينشأ يغنى اغانى السماور الريفية مدة طويلة) . كان
دميترى ستيبانوفيتش المهمل الهندام ، المترهل البدين بخصائل
شعره الشائبة الجعداء غير المصفوفة يدخن سيكائر كريهة
الرائحة ، وسعل محمرا ، ويظل يتكلم بلا انقطاع . . .

— بلادنا المسكينة وقعت فى داهية . . . لقد خسرنا
الحرب . . . فلا يغضبك قولى هذا ، يا حضرة المقدم . كان
يجب ان يعقد الصلح فى عام ١٩١٥ . . . وأن تخضع للالمان
ونتعلم على ايديهم . فى هذه الاحوال تعلمنا منهم شيئا ويمكن ان
نكون بشرا . اما الآن فقد تقضى الأمر . . . والطب عاجز فى مثل
هذه الحال ، كما يقولون . . . لا حاجة الى هذا الكلام ، أرجوك ! . .
بأى شيء سندافع ؟ بالمذراة الثلاثية الاسنان ؟ فى هذا
الصيف سيحتل الالمان كل المنطقة الجنوبية والوسطى من
روسيا ، ويحتل اليابانيون سيبيريا ، ويطردون فلاحينا
المتوحشين مع مذراتهم الثلاثية الاسنان الى التوندرا ،
الى الدائرة القطبية ، ويبدأ النظام والثقافة ، وموقف الاحترام
عن الفرد . . . وستكون عندنا روسلاند . . . وذلك يرضينى كل
الرضا . . .

كان ديمترى ستيبانوفيتش ليبراليا قديما وهو الآن يسخر بتهكم مرير على ما كان «مقدسا» فى الماضى . وحتى بيته انطبع بهذا الطابع من الازدراء النفسى . فالغرف بنوافذها المتربة لم تكن تنظف ، وصورة منديلييف فى غرفة المكتب مبرقعة بنسيج العنكبوت ، والنباتات تذبل فى احواضها ، والكتب والابسطة واللوحات ما زالت فى الصناديق تحت الارائك منذ ان كانت داشا هنا ، لآخر مرة ، فى عام ١٩١٤ .

وحين انتقلت السلطة فى سامارا الى سوفييت النواب ، وامتنعت غالبية الاطباء عن العمل مع «نواب الكلاب وسراطين البحر» عرض على دميترى ستيبانوفيتش منصب المدير العام لمستشفيات المدينة . وقد قبل المنصب لتقديره بأن الالمان سيدخلون سامارا فى الربيع على اية حال . كانت هنالك ازمة فى الادوية ، فكان دميترى ستيبانوفيتش لا يستخدم غير الحقن الشرجية ، ويقول لمساعديه . وهو ينظر اليهم باستعلاء ساخر من خلال نظارته الانفية المصدوعة : «المعدة بيت الداء . والناس خلال الحرب لم ينظفوا معدهم . نقبوا فى العلل الاصلية لقوضانا الكريمة تجدوها فى المعدة الممتلئة بالاوساخ . اجل ، يا سادة . . . استخدموا الحقن الشرجية مع كل واحد بالتاكيد . . .»

الا ان الاحاديث حول مائدة الشاى كانت ترهق روتشين وتضايقه . لم يبل بعد من الرجة التى سببتها له قنبلة انفجرت بالقرب منه اثناء معركة فى احد شوارع موسكو فى اول تشرين الثانى ، حين كان يقود سرية من طلاب المدارس العسكرية مدافعا عن مشارف بوابة نيكيتسكيه ، وكان سابلين فى صف البلاشفة يهاجم من ناحية ساحة ستراستنايا . وكان روتشين يعرف سابلين منذ سنوات التلمذة فى موسكو صبيا ملاكى الوجه ذا عينين زرقاوين تصطبغ وجنتاه بحمرة الخجل . وكان غريبا جدا ان يقارن المرء ذلك الشاب المنحدر من عائلة مثقفين من سكان موسكو القديمة بهذا البلشفى المتحمس ، او الاشتراكى-الثورى اليسارى – او سمه ما شئت من الاسماء – بمعطفه الطويل والبندقية يركض مراوغا وراء اشجار الزيزفون فى بولفار تفيرسكوى الذى تغنى به بوشكين ، وحيث كان سابلين الى زمن غير بعيد ، حين

كان طالبا نجيبا ، يتمشى فيه متأبطا كتاب نحو . «يا سيد سابلين انت تحارب لتخون روسيا والجيش ، وتفتح الطريق للالمان ، وتطلق الوحش الكاسر ! . . ربما من الممكن ان تعذر المراتب الدنيا ، هذه البهائم الناخرة ، ولكن انت . . .» واصبح روتشين نفسه منبطحا وراء رشاشة (فى خندق صغير فى زاوية شارع ماليا نيكيتسكايا ، عند حانوت تشيتشكين للالبان) وعندما وثبت قامة سابلين الرشيقة بمعطفه الطويل مرة اخرى من وراء شجرة شقها بالرصاص . انفلتت البندقية من يدى سابلين وقعد على الارض ممسكا فخذه قرب اربيته . وفى تلك اللحظة تقريبا قذفت شظية القبعة من على راس روتشين . وفقد القدرة على الحركة .

فى الليلة السابعة من القتال فى موسكو خيم ضباب اصفر كثيف . وهدات لعلعة الرصاص . وظلت تقاتل شراذم منفردة معزولة من طلاب المدارس العسكرية ، والطلاب الآخرين والموظفين . الا ان لجنة الامن العام برئاسة الطبيب فى مستشفى البلدية يدعى رودنيف قد اختفت عن الوجود . وسيطرت على موسكو قوات اللجنة الثورية . وفى اليوم الثانى كان فى وسع المشاهد ان يرى فى شوارع المدينة شبانا فى ملابس مدنية يحملون الصرر وعيونهم تنم عن سوء طوية . كانوا ينسلون الى محطتى كورسك وبريانسك . . . ورغم انهم كانوا يرتدون لفافات الساق العسكرية أو احذية الفرسان الطويلة فان احدا لم يكن يعترضهم .

ولو لم يصب روتشين بتلك الصدمة لرحل هو الآخر . ولكن شللا خفيفا قد الم به ، ثم عمى (مؤقتا) ، وبعده اعتلالا فى القلب . وكان ينتظر ظهور قوات القيادة العليا بين لحظة واخرى وبدء المدافع من عيار ستة بوصات بقصف الكرملين من تلال فوروبيوفو . الا ان الثورة كانت قد بدات من توها بالتغلغل فى اعماق الجماهير . واقنعت كاتيا زوجها بالسفر ، ونسيان البلاشفة والالمان لفترة من الوقت .

وخضع فاديم بتروفيتش . ونزل فى سامارا لا يفارق شقة الطبيب . كان ياكل وينام . ولكن كيف له ان ينسى ! كان يصك نفسه وهو يتصفح كل يوم «انباء سوفييت سامارا» المطبوعة على ورق تغليف . فقد كان كل سطر فيها يلذعه كالسوط .

الانتصارات ، والاستيلاء على عواصم المحافظات بقطاراتها من الذهب .

وكان يجلس قبالته رجل عسكرى ممتلىء الجسم متوسط العمر يضع على كتفيه شريطا ابيض . كانت جمجمته البيضوية جرداء ضخمة مثل حصن للسلطة . وكانت شفتاه الغليظتان تبدوان بارزتين فى وجهه الشحيم الحليق . كان يمضغ بلا توقف محركا عضلتى حاجبيه ، متفرسا فى المشهيات المتنوعة . وكانت الكاس ضائعة فى يده الكبيرة ، والظاهر انه كان متعودا على الاقداح الكبيرة . شرب كاسه دافعا راسه الى الوراء دفعة قصيرة . وبقيت عيناه الزرقاوان الذكيتان الصغيرتان كعينى دب لا تستقران على احد ، وكانه كان على احتراس . وكان العسكريون ينحنون نحوه باهتمام خاص . كان هذا الرجل هو دوتوف اتمان اورنبورغ ، بطل قوزاق الاورال ، وقد حل ضيفا منذ وقت قصير .

وعلى مسافة غير بعيدة عنه جلس مسيو جانو السفير الفرنسى بين امراتين جميلتين احداهما شقراء والاخرى ذات شعر كستنائى ، وكان يرتدى بدلة سهرة رمادية فاتحة وقميصا ناصع البياض . وكان وجهه الصغير ذو الشاربين المهيبين والانف المدبب تنطبع عليه آثار الحياة الفاسقة . كان يلثغ بالراء ويميل تارة الى المفاتن نصف العارية للمراة ذات الشعر الكستنائى (التى ضربته بزهرة على يده جزاء على ذلك) وتارة الى كتف الشقراء الوردية اللؤلؤية ، فكانت تضحك وكان الفرنسى يدغدغها . وكانت كلتا المراتين تفهمان الفرنسية شرط التحدث بها ببطء . وكان ظاهرا ان مفاتن النساء قد سلبت عقل جانو المسكين . وكل ذلك لم يعقه اثناء الوقفات القصيرة عن مخاطبة بريكين صاحب الطاحونة الرصين الذى وصل لتوه من اومسك ، او رفع كاسه نخب انجازات دوتوف الباهرة . كان اهتمام مسيو جانو بطحين سيبيريا ولحوم وزبدة اورنبورغ قد اظهر ولاءه الحار نحو حركة البيض . وكان السفير الفرنسى فى اوقات المصاعب التموينية قادرا دائما على ان يعرض للحكومة خمسين قطارا محملة بالطحين وغيره . . . وكانت هناك عقول متشككة تؤكد ان لا ضير من دعوة مسيو جانو الى تقديم

اوراق اعتماده كاملة ، مثلما تفعل اية حكومة معتبرة . . . الا ان الحكومة فضلت طريقة اكثر لباقة : الثقة بالحلفاء .

وكان يجلس الى المائدة اجنبى معتبر آخر هو السنيور بيكولومينى الأسمر السريع النظرات (وكان يؤكد ان ذلك هو لقبه الحقيقى) . وكان يمثل فى شخصه الأمة الايطالية فى شىء من عدم التحديد ، والشعب الايطالى . وكانت بزته الزرقاء القصيرة مزينة بشريط فضى ، وعلى كتفيه كتافيتا جنرال ضخمتان . وقد شكل فى سامارا كتيبة ايطالية خاصة . وقد تساءلت الحكومة بدهشة «اين يجد الايطاليين هنا ؟ الشيطان يعلم !» الا انها قدمت المال . فهو من الحلفاء على اية حال . ولم تكن تعار له اهمية فى الاوساط البرجوازية .

كانت الحكومة متغيبة عن المادبة ما عدا غير الحزبيين : الدكتور بولافين ومساعد رئيس الاستخبارات سيميون سيميونوفيتش غفيادين الذى ارتفع عاليا فى سلم الوظيفة . وقد انقضى زمن المباهج المتبادلة ، حيث كان البلاشفة يدحرون . كانت حكومة لجنة الجمعية التاسيسية – من الاشتراكيين-الثوريين الجامدين عن بكرة ابيهم – تثرثر عن مكاسب الثورة ثرثرة لم يكن احد يستطيع التصديق بها غير التشيكيين الذين ليس لهم اى فهم فى الشؤون الروسية . لقد كانت حكومة الاشتراكيين-الثوريين شيئا جيدا بالطبع ، فى بداية الأمر حين اقاموا انقلابا ، وكان يجب تهدئة العمال والفلاحين . وكان تجار سامارا انفسهم يرددون شعارات الاشتراكيين-الثوريين . وها هى الفولغا قد تحررت من خفالينسك الى قازان ، واحتل دنيكين شمال القفقاس كله تقريبا ، وكراسنوف يقترب من تسارتسين ، ودوتوف طهر الاورال ، وفى سيبيريا يظهر كل يوم اتمانات بيض مرعبون ، وهؤلاء الشحاذون الطوال الشعر فولسكى وبروشفيت وكليموشكين واضرابه المجتمعون فى القصر الفخم لزعيم نبلاء سامارا ما زالوا غير قادرين على ان يخلدوا الى الهدوء ، تواقين الى الجمعية التاسيسية . . . تفو ! وكبار التجار اخذوا ينتقلون بحزم الى شعارات اخرى ابسط وامتن واكثر فهما . . .

تحدث دميترى ستيبانوفيتش مخاطبا الاجانب بالدرجة الاولى :

– . . . لقد انتزعت من الحية حمتها . انها حقيقة ضخمة لها

جماهير غفيرة من الناس تسير خلف النقاب الكثيف التى اثارتـه العاصفة الثلجية : تسير متلازمة الايدى ، فى جماعات ، صارخة ضاحكة . معاطف عسكرية ، فروات ، نساء ، صبيان . ان روسيا الاصلية ، الرمادية كانت تتدفق . . . من اين جاء هذا العـدد الضخم ؟

غار قفا روتشين الاشيب المتوتر المرتاب بين كتفيه . مست كاتيا كتفه بخدها . ان الحياة التى تمر وراء النافذة العالية لم تكن مفهومة لها . قالت :

— فاديم ، انظر اية وجوه مستبشرة . . . امن المعقول ان هذه نهاية الحرب ؟ شيء لا يصدق . انها سعادة عظيمة . . .

ابتعد روتشين عنها ، وعصر يديه وراء ظهره ، وكانـت اضمامة شفتيه حادة .

— فرح مبتسر . . .

كان خمسة اشخاص يجلسون فى غرفـة صغيرة معقودة السقف ، وهم فى ستر مجعدة ، وقمصان من القماش الخشن من تلك التى يلبسها الجنود . كانت وجوههم مسودة من اثر السهاد . وعلى منضدة غطيت بقماش من الصوف محروق كانت اقداح الشاى واجهزة التلفون تقف بين الاوراق ، واعقـاب السيكائر ، وكسر الخبز . وكان الباب يُفتح احيانا على ممشى مملوء بضجيج الناس ، ويدخل عسكرى عريض المنكبين يشد عليه احزمة كثيرة ، جالبا معه اوراقا للتوقيع .

وكان الرئيس ، خامس الجالسين الى المائدة ، وهو رجل ربع القامة فى سترة رمادية قصيرة يجلس فى كرسى وثير لا يتناسب ارتفاعه مع قامته ، فيبدو كالغافى . كانت يده اليسرى موضوعـة على جبينه حاجبة عينيه وانفه فلا يرى الناظر اليه غير فمه المستقيم بشاربه الخشن ، وخده غير الحليق بعضلته المختلجـة . والذين كانوا يعرفونه عن كثب كانوا من الممكن ان يحسوا بان عينـه الثاقبة الذكية تنظر من خلال فرجات الاصابع التى تغطى وجهه باعياء الى المتكلم ، وتلحظ التغيرات على وجوه المجتمعين .

كانت التلفونات تدق بشكل متواصـل . فكان الرجل ذو

المنكبين العريضين والاحزمة الكثيرة يرفع السماعات . ويقـول بصوت منخفض حاد النبرة : «مجلس مفوضى الشعب . اجتماع . لا يجوز . . .» وبين الحين والآخر يصطدم شخص بالباب من جهة الممشى ، وتدور مقبض الباب النحاسى . ووراء النوافذ كانت الريح تعصف من جهة البحر ، وتضرب الزجاج بحبات الثلج والمطر .

انتهى المتكلم . واطرق بعض الجالسين برؤوسهم ، وطوقها البعض الآخر بيديه . وحرك الرئيس كفه الى الأعلى ووضعها على جمجمته الصلعاء ، ودون ملاحظة على قصاصة ورق ، وخط تحت كلمة ثلاثة خطوط حتى نفذ سن القلم فى الورق ونقل القصاصة الى الشخص الثالث على يساره ، وهو رجل نحيـل ذو شاربين اسودين ، وشعر منتصب .

قرا الرجل الثالث قصاصة الورق ، وابتسم تحت شاربين ، وكتب جوابا على نفس القصاصة . . .

القى الرئيس نظرة متمهلة على النافذة ، حيث كانت الزوبعة الثلجية تزمجر وراءها ، وقطع القصاصة الى مزق صغيرة . وتحدث بصوت اصم :

— الخطيب على حق . لا يوجد جيش ، ولا اطعمة . نحن ندور فى خواء . والالمان يهاجمون ، وسيهاجمون . ان الخطيب على حق . . .

فقاطعته اصوات :

— اهذه النهايـة ؟ ما المخرج ؟ نستسلم ؟ نلجا الى العمل السرى ؟

— ما المخرج ؟ (وتقلص عينيه) . المخرج فى القتال . القتال الشديد . فى تحطيم الالمان . اذا لم نحطمهم الآن فسنتراجـع الى موسكـو . واذا استولى الالمـان على موسكو فسنلجـا الى الاورال . ونؤسس جمهورية اورال — كوزنيتسك . فهنـاك الفحم والحديد والبروليتاريا المكافحة . وسنجلى عمال بتروغراد الى هناك . انه عمل جليل . واذا اقتضت الضرورة فسنتراجع حتى الى كامتشاتكا . شيء واحد يجب الا يغيب عن الاذهان : الحفاظ على طليعة الطبقة العاملة ، وعدم السماح بتدميرها . سنحتل موسكو وبتروغراد من جديد . . . سيتغير الوضع فى الغرب عشرين مرة . ليس من شيم البلاشفة ان يدلوا انوفهم ، وينكسوا رؤوسهم . . .

وقفز من كرسيه العالى بحيوية غير اعتيادية ، وجرى – ويداه فى جيبيه – الى الباب البلوطى ، وفتح نصفه . فاتجهت نحوه وجوه عمال بتروغراد النحيلة المتغضنة المشوربة وعيونهم الملتهبة متطلعة اليه من الممشى ، من الابخرة الكثيفة والضوء الشاحب . . . رفع يده الكبيرة ، الملطخة بالحبر :

– ايها الرفاق . ان الوطن الاشتراكى فى خطر ! . .

٢

فى اوائل الشتاء كان سيلان من الجموع البشرية يلتقيان فى محطات ملتقى الخطوط الحديدية فى جنوب روسيا . كان رجال المجتمع والعسكريون فى ملابس مدنية ، واصحاب الأعمال ، ورجال الشرطة والملاكون من اصحاب الضياع المحروقة ، والمحتالون ، والممثلون والكتاب وموظفو الحكومة ، والمراهقون الذين احسوا بعودة زمن فنيمور كوبر ، وبعبارة مختصرة سكان العاصمتين بالوانهم المختلفة الذين كانوا غارقين فى الصخب والضوضاء الى حين غير بعيد ، كل هؤلاء الناس كانوا ينزلون من الشمال هاربين من الفظاعة المريعة الى المناطق الغنية فى القمح فى احواض الدون وكوبان وتيريك .

ومن الجنوب ، من الاتجاه المقابل كان جيش ما وراء القفقاس ذو المليون رجل يزحف كالكتلة المتماسكة باسلحته ومدافعه وقذائفه ، وعربات الملح والسكر والانسجة . وعند الملتقى كان يحدث زحام ينشط فيه جواسيس الحرس الابيض . وكان القوزاق يأتون من قراهم ليشتروا السلاح ، وكان الفلاحون الاغنياء يبادلون الحبوب وشحم الخنزير بالقماش . وانتشر اللصوص والنشالون الذين كانوا يجندلون ضحاياهم فى المكان الذى يمسكونهم فيه ، على الخطوط الحديدية .

وكانت حواجز الحماية التى تقيمها الفصائل الحمراء قليلة المفعول ، فقد كانت تخرق كنسيج العنكبوت . هنا كانت سهوب وحرية ، ومواطن للقوزاق الاحرار منذ اقدم العصور .

كان كل شىء هنا متزعزعا زائلا لا وضوح فيه . اليوم تجد الاغراب وفقراء الفلاحين يتغلبون ، وينتخبون سوفييتا للنواب ، وغدا ترى القوزاق يفرقون الشيوعيين بالسيوف ، ويرسلون مبعوثا – ورسالة المبايعة داخل قبعته – الى الاتمان كاليدين فى نوفوتشيركاسك . اما السلطة السوفييتية فلا يعبا لها احد هنا .

ولكن السلطة السوفييتية اخذت فى نهاية تشرين الثانى تظهر الجديدة فى بسطها . انشئت الفصائل الثورية الاولى – من البحارة والعمال وجنود الجبهة الذين بلا ماوى يتنقلون فى قطارات شبه معطلة . وكانوا لا يخضعون كثيرا للقيادة ، ويعربدون ، ويقاتلون بشراسة ، الا انهم كانوا يتراجعون عند اقل احباط ، ويهددون فى اجتماعات حاشدة يعقدونها بعد المعركة بتقطيع اوصال رؤساء الوحدات .

كانت مناطق الدون وكوبان حسب الخطة الموضوعة انذاك مطوقة من الجهات الاساسية الثلاث : كان سابلين يتحرك من الشمال الغربى فاصلا الدون عن اوكرانيا ، وسيفرس يزحف الى روستوف ونوفوتشيركاسك بنصف دائرة ، وفصائل بحارة البحر الاسود تضغط من نوفوروسيسك . وفى الداخل يجرى الاعداد لانتفاضة فى مناطق المصانع ومناجم الفحم .

فى كانون الثانى اقتربت الفصائل الحمراء من تاغانروغ وروستوف ونوفوتشيركاسك وكان النزاع بين القوزاق والاغراب (النازحين من المدن الأخرى) لم يصل بعد فى قرى منطقة الدون الى الحدة التى تقتضى شهر السلاح . فقد كانت منطقة الدون ما تزال ساكنة . وقد تخلت قوات الاتمان كاليدين المتفرقة عن الجبهة بدون قتال تحت ضغط قوات الحمر .

واصبح الحمر خطرا مميتا . وثار العمال فى تاغانروغ وطردوا من المدينة فوج المتطوعين بامرة كوتيبوف وحطمت فصيلة الرقيب بودتيلكوف الحمراء آخر حامية للاتمان قرب نوفوتشيركاسك .

وعندئذ ارسل الاتمان كاليدين الى رؤساء منطقة الدون بنداء اخير يائس يطلب فيه ارسال متطوعين من القوزاق الى التشكيلة العسكرية المتماسكة الوحيدة – الى جيش المتطوعين الذى كان

يشكله الجنرال كورنيلوف والجنرال الكسييف والجنرال دينكين في روستوف ... الا ان احدا لم يستجب لنداء الاتمان .

في ٢٩ كانون الثاني شكل كاليدين حكومة اتمانيـة في قصر نوفوتشيركاسك . وفي الصالة البيضاء جلس حول منضدة نصف دائرية الرؤساء الاربعة عشر لدوائر قوات قوزاق منطقة الدون ، وجنرالات مشهورون ، وممثلو «مركز موسكو لمكافحة الفوضوية والبلشفيـــة» . وقال الاتمان الجهم الفارع ذو الشاربين المتدليين متحدثا بسكينة كئيبة :

— ايها السادة ، ينبغي ان ابلغكم بان وضعنا ميئوس منه . فان قوات البلاشفة تتعاظم من يوم لآخر . وكورنيلوف يسحب كل قواته من جبهتنا . وقراره لا يقبل النقض . ولم يستجب غير مائـــة وسبعة واربعين شخصا على ندائي الى الدفاع عن منطقة الدون . واهالي منـــاطق الدون وكوبان ليسوا فقط لا يؤيدوننا ، بـــل ويعادوننا . فما سبب ذلك ؟ كيف تسمي هذه الفظاعة المشينة ؟ ان الطمـع قـد ادى بنـا الى التهلكـــة . ولم يعد هناك شعور بالواجب ، ولا بالشرف . اقترح عليكم ، ايها السادة ، ان تتخلوا عن صلاحياتكم ، وتسلموا السلطة الى آخرين — وجلس ، ثـــم اضاف دون ان ينظر الى احد : — ايها السادة ، تكلموا باختصار . فالوقت لا يسمح ...

فزعق عليه ميتروفان بوغايفسكي مساعد الاتمـــان «شقي الدون» مغتاظا :

— بعبارة اخرى انت تقترح تسليم السلطة الى البلاشفة ؟..

فرد الاتمان على ذلك بان الحكومة العسكرية في حل من ان تفعل ما تراه مناسبا ، وغادر الاجتماع في الحال ، وخرج الى مقره عبر باب جانبي وهو يخطو خطوات ثقيلة . نظر من خلال النافذة الى اشجار المنتزه الجرداء المتمايلة ، والى السحب الثلجية المثيرة الياس ونادى زوجته . لم ترد الزوجة على ندائه . فتابع توغلـــه الى غرفة النوم حين كان الموقد يتوهج . خلع سترته ، وصليب الرقبة . وللمرة الاخيرة حدق في الخارطة العسكرية المعلقة فوق السرير ، وكانه ما يزال غير مصدق . كانت الاعلام الحمراء الصغيرة تحدق كثيفة بمنطقة الدون وسهوب كوبان . والابرة الوحيدة التي

تحمل علما ثلاثي الالوان كانت مغروزة في نقطة سوداء تشير الى روستوف . اخرج الاتمان مسدس براونينغ الدافىء المفلطح من الجيب الخلفي في سرواله الأزرق ذي الشرائط ، وسدد رصاصة الى قلبه .

وفي التاسع من شباط خرج الجنرال كورنيلوف بجيشـــه الصغير المؤلف من المتطوعين ، وجميعهـــم من الضباط وطلاب المدارس العسكرية وعربات الجنرالات والمدنيين من ذوي المقامات الرفيعة ، وغادر روستوف الى السهوب وراء الدون .

سار هذا الجنرال القصير القامة الغضوب ذو الوجه الشبيه بوجوه المغول ماشيا في مقدمة قواته وعلى كتفيه جراب الجنود . بينما كان الجنرال دنيكين التعيس المصاب بالتهاب القصبات يرقد متدثرا في دثار من جلد النمر في احد عربات الطابور .

مرت وراء عربة القطار السهوب البنية العارية من الثلج . وكانت ريح ندية فواحة بتربة عند الذوبان تهب من فتحة النافذة المحطمة الزجاج . وكانت كاتيا تحدق في النافذة ، وقد غطت راسها وصدرها بشال وبري ، معقود وراء ظهرها . وكان روتشين يهوم غافيا وقد ارتدى معطفا من معاطف الجنود ، وقبعة ممزقة مدببة ، ومد ساقيه . كان القطار بطيئا في سيره . فكانت الاشجار الجرداء العالية تمر مضغوطة الاغصان مثقلة بالاعشاش . وكانت غربان القيظ تحوم فوقها كالسحب ، وتهتز على الاغصان . دنت كاتيا من النافذة . كانت غربان القيظ تنعب نعيبا مرتاعا موحشا كمـــا يحدث لها في الربيع : نعيبا كذلك الذي كانت كاتيا تسمعه في طفولتها البعيدة على حلول الربيـــــع ، والضباب ، والعواصف الرعدية الاولى .

كانت كاتيا وروتشين مسافرين الى الجنوب . ولكن الى اين ؟ الى روستوف ، الى نوفوتشيركاسك ، الى القرى القوزاقيـــة على الدون ؟ الى حيث تعقد عقدة الحرب الأهلية . كان روتشين ينام متدلي الراس ، ووجهـــه غير الحليق ناحل ، والغضون العميقـــة تكتنف فمه المضموم بازدراء . وشعرت كاتيا برهبة مباغتة ، فقد خيل اليها ان هذا الوجه الذي تراه لم يكن وجهه ، بل آخر غريبا

مدبب الأنف . . . حملت الريح عبر النافذة نعيب غربـــان القيظ ودمدمت عجلات العربة على محولات السكك ، وقد ابطا القطار فى سيره . كان طابور من العربات يمتد فى طريق موحلة يشق السهب فى خط منحرف . احصنة هزيلة شعثاء ، عربات ريفية ملطخـــة بالوحل ، واناس ملتحون غرباء مخيفون . ندت من روتشين فى نومه شهقة مبحوحة معذبة ما بين النخير والانين . فمست كاتيا وجهه بيديها المرتجفتين :

— فاديم ، فاديم . . .

قطع شهيقه المخيف فجاة . وفتح عينيه الخاويتين من كـل تعبير .

— فو ، اللعنة . حلمت حلما مزعجا . . .

توقف القطار . وانضمت الى نعيب غربان القيظ أصوات ناس . تراكضت نسوة يرتدين احذية رجالية طويلة ، ويحملن اكياسا وتدافعن كاشفات عن ارداف بيضاء ، وهن يحاولن الانسلال الى عربة بضائع . اندس فى نافذة المقصورة قرب كاتيا تماما راس اشعث ذو طاقية ملطخة ولحية ملتفة نامية حتى عينيه الصغيرتين .

— لعل لديكم رشاشة للبيع ؟

انبعثت آهة تعجب من الرف الأعلى ، وانقلب شخص بقوة واجاب بصوت مرح :

— عندنا مدافع فقط . الرشاشات بعناها كلها .

قال فلاح فاغرا فمه الكبير بشكل دفع لحيته الى الجانبين كالمكنسة :

— لا حاجة بنا الى المدافع .

ودس نصف جسمه فى النافذة ، واجال بصره داخل المقصورة بمكر عسى أن يقـــع عـلى شيء يمكـــن شراؤه . قفـــز مـن الرف الاعلى جندى ضخم . وجـــه عريض ، وعينـــان زرقاوان متشبثتان ، وراس حليق متناسق . شد حزامـــه على معطفـــه بحركـــة قويـــة .

— ما انت والقتال يا والد ! آن لك أن تستلقى على رف الموقد .

قال الفلاح :

— هذا صحيح . ولكن لا يمكن ان تستلقى على رف الموقد

فى مثل هذه الايام ، ايها الجندى . لا أحد يسمح لك بذلك — لانه عليك ان تطعم نفسك والعائلة .

— بالنهب ؟

— كلام فارغ . . .

— ولكن ما حاجتك الى رشاشة ؟

— كيف اقول لك ؟

وفرك الفلاح انفه ، وحك شعر لحيته بيد معقدة ، وكل ذلك ليخفى لمعان عينيه ، فقد كانتا تبتسمان بخبث .

— عاد ولدى من الجبهة . وقال لى : اذهب الى محطة القطار ، واعرف سعر الرشاشة . يمكن ان اشتريها باربعة بودات* من القمح . ها ؟

— انكم كولاك — قال الجندى وضحك — شياطين خبثاء ! كم حصانا عندك ، يا اب ؟

— وهبنى الله ثمانية . اليس عندكم ما يباع ؟ اسلحة او اشياء اخرى ؟ — ومرر عينيه مرة اخرى على الجالسين فى المقصورة . وفجاة اختفت الابتسامة وانطفا لمعان عينيه ، واشاح وجهه وكانما لم يكن فى المقصورة أناس بل روث ، وسار فى وحل الرصيف ، هازا سوطه .

قال الجندى متطلعا الى كاتيا بنظرة صريحة :

— هل رأيته ؟ ثمانية احصنة ! واثنا عشر ولدا ربما . يركبهم الخيول ويطلقهم فى السهب للنهب والسلب . اما هو فيستلقى على رف الموقد ، ومؤخرته على القمح ، يجمع الاسلاب .

وادار الجندى بصره الى روتشين ، واذا بحاجبيه يرتفعان ، ووجهه يتالق :

— فاديم بتروفيتش ، هذا انت ؟

القى روتشين على كاتيا نظرة خاطفة ، ولكن لم يجد مناصا من ان يقول «مرحبا» ويمد يده . شد الجندى على يده بقوة ، وجلس الى جانبه . رات كاتيا أن روتشين يبدو محرجا . سمعته يقول بلا حرارة :

---

* بود يساوى ١٦،٣٨ كيلوغراما . — **المترجم** .

– ها قد التقينا اذن . أنا مسرور بأن أراك فى صحة طيبة ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . اما انا فمتنكر ، كما ترانى .

حدست كاتيا أن هذا الجندى هو الكسى كراسيلنيكوف المرافق السابق لروتشين . فقد حدثها فاديم بتروفيتش عنه غير مرة ، وكان يعتبره طرازا رائعا للفلاح الروسى الذكى الموهوب . كان غريبا أن يقابله روتشين الآن بهذا البرود . ولكن كراسيلنيكوف قد ادرك السبب ، على ما يبدو . فقد اشعل سيكارة ، وهو يبتسم . وسأل بصوت خفيض ، ولهجة جدية :

– عقيلتك ؟

– نعم . فقد تزوجت . تعارفا . كاتيا ، هذا ملاكى الحارس الذى حدثتك عنه . . . قاتلنا ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . وما علىّ إلا ان اهنئك بالصلح المشين . . . صقـور روسيا . . . ها – ها . . . وها انا أنسل مع زوجتى الى الجنوب . . . اقرب الى الشمس . (ورنت الكلمة «الشمس» رنينا جارحا فى اذنيه ، فغضن وجهه . ولم يبد كراسيلنيكوف امارة على عجب) . لم يبق شىء آخر . . . كافأنا الوطن المنكور بحربة فى البطن . . . (وارتعد وكأن قملة سرت فى جسمه كله) . خارجون عن القانون ، اعداء الشعب . . . هكذا . . .

– وضع سيادتك صعب !

وهز كراسيلنيكوف رأسه ، ونظر فى النافذة مقلصا عينيه . كان الناس يحتشدون فى حديقة امامية قرب المحطة للسكة الحديدية ذات سياج محطم .

– وضعك كوضع رجل اجنبى . انا افهمك ، يا فاديم بتروفيتش . بينما الآخرون لا يفهمون . انت لا تعرف شعبنا .

– ماذا تعنى بأننى لا اعرف ؟

هكذا . . . ولم تعرفه قط . وقد خُدعت على الدوام .

– من خدعنى ؟

– خدعناك نحن ، الجنود ، الفلاحون . . . حين كنت تدير ظهرك نفسك ، يا فاديم بتروفيتش ! اخترع الاسياد هذه الكلمات : شجاعة ، نكران الذات ، وحب القيصر والوطن ،

يجعلنا نحشو بها ادمغتنا فى الجيش . . . انا فلاح . مسافر الآن الى اخى الجريح قعيد الفراش فى روستوف ، فقد اصابه احد الضباط برصاصة فى صدره . سآخذه واعود به الى القرية . . . وربما سنحرث او ربما سنحارب . . . سنذهب هناك ونرى . . . ولكن اذا حاربنا سنحارب برغبتنا ، وبدون طبول المعركة ، سنحارب بضراوة . . . لا ، يا فاديم بتروفيتش ، لا تسافر الى الجنوب ، فلن تجد هناك خيرا . . .

بلل روتشين شفتيه الجافتين ، وهو يحدق فيه بعينين لامعتين . كان كراسيلنيكوف يمعن النظر اكثر فاكثر فيما كان يجرى فى الحديقة الامامية ، حيث كان يتعالى هدير اصوات حانق . تسلق بعض الناس الاشجار ليشاهدوا من هناك .

– على العموم لن تستطيعوا مغالبة الشعب . هذا ما اقوله لك . انتـم برجوازيون شأنكـم شأن الاجانب وهذه الكلمة «البرجوازيون» خطيرة الآن ، ويمكن تغييره بكلمة لصوص خيول . ان محاربا له ابهة مثل الجنرال كورنيلوف ، الذى علق بنفسه صليب غيورغى على صدرى ، فكر فى أن يجعل القوزاق يحاربون فى سبيل الجمعية التأسيسية ، فلم يحصل على نتيجة . الشعب لا يحتاج الى كلمات كهذه . اما كورنيلوف فيعرف الشعب كما يبدو . . يشاع انه ينطلق الآن معربدا فى سهوب كوبان كالكلب فى قطيع من الذئاب . . . ويقول الفلاحون : «البرجوازيون مستشرون لأن العنان لم يطلق لهـم فى موسكو . . .» وقد نظفوا بنادقهم ودهنوها تحسبا لكل طارىء . لا ، يا فاديم بتروفيتش عد مع عقيلتك الى العاصمة . . . فهناك آمن لك من وجودك بين الفلاحين . . . انظر ماذا يفعلون . . . (وفجأة رفـع صوته متجهما) سيقتلونه الآن . . .

يبدو ان الامر قد اقترب من نهايته فى الحديقـة الامامية . كان جنديان قصيران ركينان لهما وجهان متوحشان يقبضان بقوة على رجل خائر يرتدى سترة ممزقة عند الصدر خيطت من بطانية فانيلة . كان وجه الرجل غير الحليق بانفه المتورم شاحبا شحوب الموت ، وقد سال خط من الدم من طرف شفتيه المرتجفتين . وكانت عيناه اللامعتان المبيضتان تراقبان امرأة شابة مهتاجة كانت تارة تخلع منديلها السميك من رأسها ، وتارة تجلس هازة

تنورتها حولها ، وتارة تثب على الرجل الشاحب ، وتقبض على شعره المنفوش ، وتصرخ بشعور شبيه بالتلذذ :
– سرقها . نشلها من تحت التنورة ، الوغد ! اعد الفلوس .

وامسكته من خديه ، وجمدت . افلت الرجل الشاحب من اصابعها فجاة . الا ان الجنديين امسكا به . زعقت المراة . وفى تلك اللحظة ظهر فى مكان الحادث رجل له راس كبير شاقا طريقه بين الناس ، ونحى المراة بكتفه ، ولطم الرجل الشاحب على اسنانه لطمة قصيرة محكمة توجع منها الرجل ، وبرك فى الحال . انحنى الرجل الجالس على اقرب شجرة ، وكان له كمان طويلان ، وصرخ : «قتل !» فاندفع الجمع فى الحال . ثم صار الناس ينحنون على الجسد ، ويرفعون قاماتهم هازين قبضاتهم .

مرت نافذة المقصورة بجمهور الناس . تحرك القطار اخيرا ! واحست كاتيا بغصة صيحة مكتومة تضغط على حلقومها . تجهم روتشين بازدراء . وهز كراسيلنيكوف راسه قائلا :
– اى ، اى ، اى . يبدو انهم قتلوه بلا سبب وجيه . ان هؤلاء النسوة يشعلن النار فى صدر مَنْ تشاء . انهن اشد ضراوة من الرجال . لا احد يصدق بما حصل لهن خلال هذه السنوات الاربع . عدنا من الحرب فرايناهن قد تغيرن تماما . الآن لا تكاد تمسهن بسوط حتى تود ان تنجو بنفسك . الفراخ انقلبن ديكة . . .

من الوهلة الأولى يبدو غير مفهوم السبب الذى جعل القائد الأعلى الكسييف والقائد الأعلى لافر كورنيلوف «منظمى خلاص روسيا» يقودان حفنة من الضباط وطلاب المدارس العسكرية – خمسة آلاف شخص – مع مدفعية بائسة ، وبلا قذائف ولا ذخيرة ، ويسيران بهم جنوبا الى يكاترينودار ، فى قلب القوات البلشفية التى طوقت عاصمة قوازق كوبان بنصف دائرة .

كان من المتعذر ان يجد المرء فى ذلك خطة استراتيجية محكمة . فقد خرج جيش المتطوعين من روستوف اضطرارا ، اذ لم يستطع الدفاع عنها . واجتاحته عاصفة الثورة فى سهوب

2—2570

كوبان ، ولكن كان ثمة خطة سياسية برهن عليها الشهران اللذان اعقباها . فقد كان لا بد من ان يثور القوزاق الاغنياء على الاغراب الذين جاءوا من المناطق الاخرى ، اى على جميع السكان الجدد الذين يعيشون عن طريق استئجار اراضى القوزاق ولا يتمتعون باية حقوق او امتيازات . وكان فى كوبان مليون وستمائة الف غريب مقابل مليون واربعمائة الف من القوزاق .

كان لا بد ان يسعى الغرباء الى الاستحواذ على الارض والسلطة ، وان يشهر القوزاق السلاح للمحافظة على امتيازاتهم . كان الاغراب تحت قيادة البلاشفة وكان القوزاق فى بادئ الامر غير راغبين فى ان يخضعوا لاية سلطة . فما من شيء افضل من ان يكون اصحاب اطيان فى قراهم ! ولكن حدث فى شباط ان اقتحم العامل القوزاقى غولوبوف ومعه سبعة وعشرون قوزاقيا اجتماعا لهيئة اركان الميدان التابعة للاتمان نازاروف فى نوفوتشيركاسك ، وصاح بالمجتمعين هازا مسدسه ، بينما سدد قوزاقه بنادقهم اليهم : «انهضوا ، ايها الاوغاد ، فقد جاء الاتمان السوفييتى غولوبوف ليتولى السلطة !» . وبالفعل قام اليوم التالى بقتل نازاروف وهيئة اركانه رميا بالرصاص فى حرش خارج المدينة . (ولكى ياخذ بيده صولجان الاتمان) قام ايضا بقتل ترابة الفى ضباط قوزاقى ، واندفع فى السهب ، وقبض على جنرال فان برغايفسكى ، واخذ يتردد به على الاجتماعات داعيا الى ان تكون منطقة الدون حرة ، والى مبايعته على الاتمانية ، وانتهى ذلك الى ان يقتل هو نفسه فى اجتماع فى قرية زابلافسكايا القوزاقية ، وباختصار وجد القوزاق انفسهم فى شباط بلا رئيس . وفضلا عن ذلك كانت روسيا الجزعة ، الجائعة ، الهائجة تضغط عليهم من الشمال .

كانت الخطة الأولية لقيادة جيش المتطوعين الذى جرد لما سمى فيما بعد بـ«الحملة الجليدية» تستهدف رئاسة القوزاق بعد الاستقرار فى يكاترينودار ، وتجنيد قوات قوزاقية نظامية ، وقطع القفقاس وحقول النفط فى غروزنى وباكو عن روسيا البلشفية ، وتاكيد الولاء للحلفاء .

كان البحار سيميون كراسيلنيكوف (اخو الكسى

كراسيلنيكوف) يرقد مع آخرين فى حقل محروث عند حافة منخفض
غير بعيد عن سدة السكة الحديدية . وعلى مقربة منه كان احد
الجنود يحفر الارض بالرفش عجولا كالخلد . وحين تخندق فى
الحفرة التى بندقيته امامه ، والتفت الى سيميون قائلا :

– تعمق فى الارض أكثر ، يا اخ .

حفر سيميون كتل الأرض اللزجة من تحته بصعوبة . وكان
الرصاص يئز فوقه . رن الرفش عند ارتطامه بآجرة . شتم
سيميون ، ونهض على ركبتيه ، واذا به يفاجأ بصدمة حارة تصيب
صدره . ويشهق بالدم وانكفأ على وجهه فى الحفرة التى حفرها .

كانت تلك احدى المعارك القصيرة العديدة التى كانت تسد
الطريق أمام جيش المتطوعين . كانت القوات الحمراء كبيرة العدد ،
كما هى دائما . ولكنها كانت قادرة على القتال مثلما كانت قادرة
على التراجع دون فاجعة كبيرة ، لأن النصر فى الفترة الاولى من
الحرب لم يكن الزاما لها . وكانوا رجال الفصائل الحمراء يفسرون
تراجعهم اما بعدم صلاحية الموقع ، او بالمقاومة العنيدة لجيش
المتطوعين . ولكن هذا لا يهمهم كثيرا فانهم سيوفقون فى المرة
القادمة .وهكذا جعلوا كورنيلوف يمر .

اما بالنسبة لجيش المتطوعين فقد كانت كل معركة مراهنة
على الموت او الحياة ، فقد كان عليه ان ينتصر ، ويتحرك مع
طوابير عرباته وجرحاه فى مسيرته ليوم واحد . ولم يكن ثمة مجال
للتراجع . ولهذا كان رجال كورنيلوف يضعون فى كل معركة كل ما
لهم من قوة مستميتة ، وينتصرون . وهذا ما حصل فى هذه المرة
ايضا .

كان كورنيلوف يقف منفرج الساقين على كومة قش متبقية
من العام الماضى على بعد نصف فرسخ من صفوف القابعين تحت
نيران الرشاشات . رفع مرفقيه ، ونظر فى منظار
الميدان . كان كيس الجنفاص يهتز وراء ظهره . وقد فك ازرار
معطفه الفرائى الأسود المؤطر بالرمادى من الداخل . كان يشعر
بالحر . وكان حنكه المغطى بشعر اشيب يبرز عنودا من تحت
المنظار .

كان الملازم الاول دولينسكى مرافق القائد يقف فى الاسفل
مضغوطا على كومة القش . كان شابا واسع العينين اسود الحاجبين
فى معطفه من معاطف الضباط ، وطاقية مدعوكة . كان يرنو من
الاسفل الى حنك القائد الأشيب على طريقة الفتوة مبتلعا الغصة
التى تعترض حنجرته من القلق ، وكانما تجمع كل الأمل فى النجاة
فى هذا الشعر الأشيب العزيز والانسانى كليا .

وكان دولينسكى يردد :

– انزل ، يا صاحب السيادة ، اتضرع اليك ان تنزل ، فقد
يقتلونك .

ورأى شفتى كورنيلوف الليلقيتين تتباعدان وفمه ينفرج عن
تكشيرة عصبية . معنى ذلك ان الأمور سيئة . كف دولينسكى عن
النظر الى الجهة التى كان فيها البلاشفة بصفوفهم الكثيفة ينهضون
فوق السهب الاخضر البنى وينتقلون كالدمى السوداء . كانت
قنابل الشرابنيل تفور هناك محدثة ازيزا ممطوطا . ولكن كان
يعرف جيدا ان القنابل قليلة ، قليلة للغاية ... وكان مدفع
الحمر عن عيار ست بوصات يدوى وراء الجسر المحطم بدمدمة
خانقة ... وتلعلع رشاشة عجلى . وكان الرصاص يئز كالنحل من
مكان قريب فوق راس القائد .

– يا صاحب السيادة ، اخشى ان تصاب ...

انزل كورنيلوف المنظار . وانكمش وجهه المغولى الاسمر
ذو العينين السوداوين الشبيهتين بعينى قنبرة ، وظهرت عليه
الغضون ، ودار فى مكانه على القش ، واستدار الى الخلف ،
وانحنى بجذعه على حرسه الخاص ، وهم رهط من التركمانيين
المترجلين النحاف المعكوفى الازجل كانوا يقفون وراء كومة القش
بقبعاتهم الضخمة المستديرة المصنوعة من فراء الغنم ، وستراتهم
القفقاسية المخططة بلون السلمون ، جامدين كالاصنام وهم
يمسكون بمقاود خيول ضاوية .

اشار كورنيلوف بذراعه نحو المنخفض ، واصدر أمره
بصوت حاد نابح . وثب التركمانيون الى خيولهم كالقطط . زعق
احدهم بلغته مخرجا صوته من اقصى الحلق ، فاستل الجميع
سيوفهم المعكوفة وانطلقوا فى خبب ثم فى عدو سريع عبر السهب

متجهين الى المنخفض ، حيث كان يلوح حقل محروث يتراءى وراءه شريط سدة الخط الحديدى .

والآن كان سيميون كراسيلنيكوف يرقد على جنبه ، اذ كان ذلك اخف عليه . قبل ساعة من الزمن كان قويا محتدما ، امـــا الآن فهو يئن انينا واهنا متواصلا يبصق الدم بعسر . كان رفاقــه يطلقون النار عن يمينه وشماله كيفما اتفق . وكانت ابصارهــم متجهة مثله الى المنحدر البنى على ذلك الجانب مــن المنخفض ، حيث كان نحو خمسين فارسا ينطلقون كالسيل العرم . وكان ذلك هجوم احتياط الخيالة .

عدا شخص من وراء كراسيلنيكوف ، وسقط على ركبتيــه بالقرب منه ، وراح يصرخ باعلى صوته ملوحا بمسدسه . كــان الرجل يرتدى سترة جلدية سوداء . انتشر الخيالة فى المنخفض ، ومضى هو يصرخ بلهجة غير عسكرية ، ولكنها على قدر هائل مــن الاصرار :

— اياكم ان تتراجعوا ، اياكم ان تتراجعوا !

وها هى قد ظهرت على هذا الجانب من المنخفض قبعــات هائلة ، وانبعث عويل ممدود مثل عويل الريح ، انهم التركمانيون ينقضون . كانوا ينحنون على اعراف خيولهم بسترهم المخططة ، وينطلقون عبر الحقل المحروث اللزق ، حيث الثلج المتسخ مــا يزال متبقيا فى الاخاديد . تطايرت كتل الطين مــن تحت سنابك الخيول . وصدرت صيحات ممطوطة رهيبة من وجوه التركمانيين الصغيرة الملوحة المكشرة المشوربة تحت قبعات فرائية عالية . وبان لمعان سيوفهم المعكوفة لمعان الماء . آه ، لن يصمد فتياننا امام هجوم الخيالة ! ذوو المعاطف الرمادية ينهضون مــن الحقل المحروث ، ويطلقون النار ، ويتراجعون . ثارت ثائرة المفوض ذو السترة الجلدية ، فاقتحم وضرب شخصا على ظهره :

— الى الامام ، بالحراب !

ويشاهد كراسيلنيكوف رجلا من ذوى السترة المخططة ينقلب من فوق جواده ، كالمتظاهر ، وينظر الجواد مذعورا ، وينطلق هاربا . ويصدر من الصفوف صوت ارتطام حديد بحديد ، وكرات من دخان ، نار صفراء متولدة من انفجار قنبلة شرابنيل . تخبط

الجندى قاسكا الفكه ذو المعطف الفضفاض ، والقى بندقيتــه ، وفاض الدم منه ، وفغر فمه ، وهو ينظر الى الموت المتقحــم . ظلوا يقتربون ، ويكبرون مع خيولهم . فى مقدمتهم رجل يكــاد حصانه يمس الارض ، وقد دلى بوزه كالكلب . رفع التركمانى عامته ، ووقف على ركابه ، وقد تطايرت اذيال ردائه .

— وغد !

قال كراسيلنيكوف ، ومد يده ليتناول بندقيته وتمتم :

— آه ، مفوضنا هالك .

اذ راى التركمانى ينطلق بحصانه نحو ذى السترة الجلدية :

— اطلق النار ، اللعنة !

ولم ير كراسيلنيكوف الا السيف المعكوف ينفذ فى السترة الجلدية . . . وما هى الا لحظة حتى اقتحم سيل الخيالة على الصف . وانتشرت رائحة عرق الخيول الحار .

قطع التركمانيون الصف ، والتفوا على جناحيه ، ومن المنخفض طلع الى الحقل المحروث الضباط بمعاطفهم السوداء والرماديــة الفاتحة اللون وهم يتعثرون والكتافيات تلتمع على اكتافهم .

— هوررررا !

واقتـــرب القتال من ســـدة الخط الحديدى . وظـــل كراسيلنيكوف وقتا طويلا لا يسمع غير أنين المفوض المطعـــون بالسيف . وكانت طلقات النار تتضاءل . وصمتت المدافـــع . اغمض كراسيلنيكوف عينيه ، وكان يحس طنينا فى راسه ، ووجعا فى صدره . عزت عليه نفسه ، ولم يرد ان يموت . استرخـــى جسمه المثقل على الارض . تذكر باشفاق زوجته ماتريونا . انهـــا ستضيع فى الدنيا وحيدة . كانت تنتظره بشوق ، وتكتب اليه فى الفاروغ بأن يعود . ود لو تراه ماتريونا الآن ، وتضمد لـــه جرحه ، وتجلب له ما يشربه . ولطيف ان يكون ذلك مـــاء . . . ولينا خاثرا . . .

سمع كراسيلنيكوف سبابا مقذعا ، واصواتا ليست باصوات جماعته . بل اصوات السادة فتح عينيه . فرأى اربعة قـــادمين . واحد فى سترة جركسية رمادية ، واثنان فى معطفين مـــن معاطف الضباط . والرابع فى معطف طالب عليه كتافيتان مـــن كتافيات

شباط الصف . كانوا يتأبطون بنادقهم كما يفعل الصيادون . قال احدهم :

– انظر . هذا بحار . اقض عليه ، الوغد .

– انه قد فطس . . . اما ذاك فهو حى .

وتوقفوا ناظرين الى فاسكا الفكه وهو راقـــد على الأرض . وفجأة زعق ذو السترة الجركسية بصوت ضار :

– انهض !

ورفس فاسكا .

ورأى كراسيلنيكوف فاسكا ينهض ، وقد غطى الدم نصف وجهه . صـــاح ذو السترة الجركسية موجها ضربـــة قصيرة الى اسنانه :

– انهض ، باستعداد !

وفى الحال اعد الاربعة بنادقهم . فصاح فاسكا بصوت باك :

– ابق على حياتى ، يا عم .

قفز ذو السترة الجركسية مرتدا عنه ، وطعنه بالحربـــة فى بطنه مستنشقا الهواء بحدة . ثم استدار ومضى فى سبيلـه . وانحنى الآخرون على فاسكا ونزعوا عنه حذاءه الطويل .

بعد ان قتل المتطوعون اسراهم ، واضرموا النار فى ادارة القرية عظة للآخرين ، تابعوا سيرهم نحو الجنوب ، التقط القوزاق سيميون كراسيلنيكوف من الحقل المحـــروث . وحين غيب خط الافق المسطح فوق السهب البادى الاخضرار عربـــات المتطوعين عادوا مع زوجاتهم واطفالهم وماشيتهم الى قريتهم .

كان سيميون يخاف ان يموت بين الغرباء . كانت لديـــه بعض النقود ، فطلب من أحد الاشخاص ان يوصله فى عربته الى روستوف . ومن هذه المدينة كتب الى اخيه ينبئه بانه مجروح فى صدره جرحا بليغا ، وانه يخاف ان تؤاتيه المنيـــة بين الغرباء ، كما ابلغه عن رغبته فى ان يرى ماتريونا . وبعث رسالته هذه مع احد ابناء قريته .

كان سيميون حتى عام ١٩١٨ يخدم فى اسطول البحر الأسود بحارا على ظهر المدمرة «كيرتش» .

وكان هذا الاسطول تحت قيادة الاميرال كولتشاك . ان هذا

الرجل ، رغم ذكائه وثقافته ، وما خلفه حبا نزيها لروسيا لم يفهم شيئا مما كان يحدث ، وما كان ينبغى ان يحدث . كان يعـــرف تكوينات واسلحة جميع اساطيل العالم ، ويستطيع دون خطأ ان يحدس هوية اية سفينة حربية من خلال ضباب البحر ، وكـــان احسن خبير فى الالغام ، وأحد المبادرين فى رفع قـــدرة الاسطول الروسى بعد كارثة تسوسيما . ولكن لو ان احدا من الناس فتح معه حديثا (حتى عام ١٩١٧) فى السياسة اجاب بان السياسـة لا تهمه ، وانه لا يفهم شيئا فيها ، وانه يعتقد بان السياسة مـــن شأن الطلبة ، وطالبات الصفوف النسائية العليا من ذوات الهندام المهمل واليهود .

كانت روسيا ، كما يتصورها ، بوارج تسحب وراءها شريطا من الدخان (منها ما هو موجود ومنها ما يفترض أن يكون) ، وعلم القديس اندرى يرفرف بعزة على بارجة الاميرال حاملة العلم باثا الذعر فى المانيا . وكان يحب مدخل وزارة الحربية الصارم الرصين (على طراز الأمبراطورية العظمى) بحاجبه المالوف له (الذى كان يقول كلما ساعده لخلـــع معطفه : «الطقس سيئ ، يـــا الكسندر فاسيليفيتش») ، مثلما كان يحب زملاءه الانيقين المهذبين ، والجو الودى المغلق لنادى الضباط . وكان الامبراطور رأس هذا النظام ، وهذه التقاليد .

وكان كولتشاك دون شك يحب روسيا اخرى ، روسيا التى كـــانت تصطف على سطوح البواخر – البحارة بطاقياتهـــم ذات الاشرطة ، روسيا العريضة الوجه ، المملوحة البشرة ، المفتولـــة العضل ، روسيا التى كانت ترتل صلاة المساء باصوات رائعة ، عند انزال العلم فى الغسق ، روسيا التى كـــانت تموت «بنكران ذات» حين يؤمر بذلك . والمرء يمكن ان يفخر بها .

فى عام ١٩١٧ اقسم كولتشاك يمين الولاء للحكومة المؤقتة دون تردد ، وصار يقود اسطول البحر الاسود . وقد تحمل سقوط راس الأمبراطورية بمرارة لاذعة ، كشىء لا محيص عنه ، وقبل ، على مضض ، بلجان البحارة ، والنظام الثورى ، كـــل ذلك لأن الاسطول وروسيا كانا فى حالة حرب مع الالمان . انه سيمضى فى الحرب حتى لـــو بقى له زورق الغام واحد . وكـــان يحضر فى

سيباستوبول اجتماعات البحارة ، ويقول فى الرد على الخطب المتحدية التى كان يلقيها الخطباء العمال من الوافدين والمحليون انه شخصيا ليس بحاجة الى مضيق الدردنيل او البوسفور لأنه لا يملك ارضا ولا معامل ، ولا شىء له يصدره من روسيا ، ولكنه يطالب بالحرب ثم الحرب ثم الحرب ليس كاجير للبرجوازية (وهنا كانت تكشيرة الازدراء تشوه وجهه الحليق بحنكه القوى ، وفمه المرتخى ، وعينيه الغائرتين) — «ولكننى اقول ذلك كوطنى روسى» .

وكان البحارة يضحكون . انه لشىء مريع . ان هؤلاء المخلصين الذين كانوا بالأمس فقط مستعدين لأن يتقحموا النار والماء فى سبيل الوطن وعلم القديس اندرى كانوا يصرخون باميرالهم : «ليسقط ماجورو الامبريالية !» وكان كولتشاك ينطق بكلمتى «وطنى روسى» بعنفوان وبايماءة صريحة مستعدا بنفسه فى تلك اللحظة لأن يموت بنكران ذات ، بينما كان البحارة — وقد اغراهم الشيطان — يستمعون الى الاميرال وكانهم يستمعون الى عدو يحاول ان يخدعهم بخبث .

وسمع سيميون كراسيلنيكوف فى الاجتماعات بان «الوطنيين» ليسوا هم الذين يريدون استمرار الحرب ، بل اصحاب المصانع والملاكون الكبار الذين يبتزون من ورائها اموالا طائلة ، وان الشعب ليس بحاجة الى هذه الحرب . وكان يقال ان الالمان هم مثلنا عمال وفلاحون ، وانهم يقاتلون لأنهم مخدوعون من قبل برجوازيتهم المتعطشة للدماء ومن قبل المناشفة . وكان البحارة فى الاجتماعات ممتلئين بالكراهية الشديدة . وارتفعت الاصوات : كانوا يخدعون الشعب الروسى منذ الف عام ! الف عام وهم يمتصون دماءنا ! هؤلاء الملاكون والبرجوازيون ، الاوغاد !» وقد انفتحت العيون . بسبب ذلك عشنا اسوأ من عيشة السائمة ... هذا هو العدو ! ... وبالرغم من ان سيميون كان يحن الى استثمارته المهملة ، وزوجته الشابة ماتريونا فقد كان يشد على قبضته ، وهو يصغى الى الخطباء ، ويسكر ، كالجميع ، بخمر الثورة ، وينسى فى هذا السكر حنينه الى بيته ، والى زوجته الحسناء ماتريونا ...

وذات مرة قدم من بتروغراد داع بارز هو فاسيلى روبليف . وطرح هذا السؤال : «هل ستظلون ايها الاخوان ، حمقى الى ابد الآبدين . تثرثرون فى الاجتماعات ؟ لقد باعكم كيرينسكى الى الرأسماليين منذ زمن طويل . سيمهلونكم فترة أخرى تتبجحون فيها ، ومن بعدها يقطع اعداء الثورة رؤوسكم كلها . فالقوا عنكم كولتشاك قبل ان يفوت الوقت ، وخذوا الاسطول بايديكم ، ايدى العمال والفلاحين ...»

وفى اليوم التالى ارسلت برقية لاسلكية من على ظهر البارجة : انزعوا اسلحة جميع الضباط . اطلق بعض الضباط النار على انفسهم وسلم الآخرون اسلحتهم . وامر كولتشاك من على بارجته الاميرال «القديس غيورغى القاهر» بان يخرج الطاقم كله الى ظهر البارجة . ذهب البحارة الى فسحة الاصطفاف متضاحكين ، ووقف اميرالبحر كولتشاك على جسر القيادة بكامل بزته الاستعراضية ، وصاح بصوت حاد عالى النبرة :

— ايها البحارة . وقع بلاء لا يمكن دفعه : ان اعداء الشعب عملاء الالمان السريين نزعوا اسلحة الضباط . واى أحمق يمكن ان يتحدث جادا عن مؤامرة للضباط معادية للثورة ! وعلى العموم يجب القول انه لا توجد معاداة للثورة ، وليس لها وجود اصلا .

وهنا اخذ الاميرال يذرع الجسر مقعقعا بسيفه واخذ يتنفس عما فى صدره :

— ان كل ما حدث اعتبره اهانة لشخصى بالدرجة الأولى ، باعتبارى كبير الضباط . وبالطبع لا يمكننى بعد هذا ولا ارغب فى قيادة الاسطول ، وسابرق فى هذه اللحظة الى الحكومة ابلغها بترك الاسطول ، والرحيل . يكفى هذا ! ..

وراى سيميون الاميرال يمسك سيفه الذهبى ، ويضغط عليه بكلتا يديه ، واخذ يفكه من حزامه ، تعصى السيف عليه فراح يجذبه ، بل ان شفتيه ازرقتا .

— ان كل ضابط شريف يجب ان يتصرف تصرفى هذا لو كان فى مكانى ! ..

ورفع السيف ، والقاه فى البحر . ولكن حتى هذه الاشارة التاريخية لم تترك اى اثر فى البحارة .

ومنذ ذلك الحين حدثت فى الاسطول احداث عنيفة . اشار البارومتر الى قرب هبوب عاصفة . وكان البحارة الذين تربطهم حياة البحر برباط قوى ، الرجال الاشداء الجسورون الخفاف الحركة ، الذين راوا المحيطات واراضى غريبة ، والذين هم اكثر تطورا من الجنود الاعتياديين ، واكثر احساسا بالحاجز الذى لا يمكن اجتيازه القائم بين مقصورة الضباط ، وعنابر البحارة ، لقد كان هؤلاء البحارة مادة سريعة الاشتعال . وقد اسرعت الثورة فى الاستفادة منهم منذ البداية . ودخل البحارة معمعان النضال بكل ما لهم من حماس لا ينضب واضرموا بانفسهم قوى العدو الذى كان مترددا لم يستقر بعد على قرار ، مترقبا ، محتشدا ، ليستجمع قواه .

ولم يعد لسيميون الوقت ليفكر فى البيت ، وفى الزوجة . فى اكتوبر انتهت الكلمات الجميلة ، وبدات البندقية تقول كلمتها . وكان العدو فى كل خطوة ، والموت يكمن مترصدا فى كل نظرة خائفة وحاقدة ومتكتمة . وكانت روسيا من بحر البلطيق حتى المحيط الهادى ، ومن البحر الابيض حتى البحر الأسود فى غليان كدر خانق . القى سيميون بندقيته على كتفه ، وخرج ليحارب «افعوان الثورة المضادة» .

شق روتشين وكاتيا طريقهما فى محطة القطار من خلال الزحام يحملان صرة وابريق شاى ، واجتازا مع السيل البشرى نقاط الحراسة الشاهرة الحراب ، وصعدا فى الشارع الرئيسى فى روستوف .

قبل شهر ونصف فقط كانت صفوة المجتمع البطرسبورغى تتجول هنا متنقلة من مخزن الى مخزن . وكانت الارصفة تزدهى بالوان طاقيات الجرس ، والمهمازات تصلصل ، واللغة الفرنسية تسمع هنا وهناك ، والسيدات الانيقات يخفين انوفهن من القر فى الفراء الثمين . كان من طيشهن المفرط يتوقعن تمضية الشتاء هنا فقط ليعدن فى مستهل الصيف الى شققهن وداراتهن فى بطرسبورغ ، حيث الحجاب الرصينون والصالات ذوات العمد ، والابسطة والمواقد الملتهبة . آه ، بطرسبورغ ! لا بد أن يمر كل شىء

بسلام فى آخر المطاف . والسيدات الانيقات لسن ملومات فى شىء على الإطلاق .

واذا بكل شىء قد اختفى ، وكان مخرج مسرح الكبير صفق بيديه ليدير المنظر فى مسرح دائرى . وتغير الديكور . اقفرت شوارع روستوف ، وسمرت ابواب الحوانيت بالالواح ، هشم الرصاص زجاج واجهاتها . واخفت السيدات فراءهن ، وشددن رؤوسهن بالمناديل . هرب جزء صغير من الضباط مع كورنيلوف ، وتحول الآخرون بسرعة مسرحية الى برجوازيين صغار وادعين ، والى ممثلين ، ومغنين فى المقاصف ، ومعلمى رقص ، الى غير ذلك . كانت ريح شباط تدفع دوامات من القاذورات على الارصفة ...

قال روتشين :

— نعم ، تاخرنا .

كان يسير مطرق الراس . كان يخيل اليه أن جسد روسيا يتحلل الى آلاف القطع . فان العقد الوحيد الذى كان يغلى الامبراطورية قد انهار مزقا . ويصبح الشعب كالقطيع . ويختفى التاريخ ، والماضى المجيد ، مثل الاغشية الضبابية الموضوعة على ديكور . ويتكشف خواء اجرد محروق .. قبور ، وقبور ... تلك نهاية روسيا . كان يحس بان شيئا فى داخله كان يعتبره واسعا ومحورا لحياته ، قد تهشم الى كسر واخزة ... كان يسير متاخرا خطوة واحدة وراء كاتيا ، متعثرا اثناء سيره . «روستوف سقطت ، وسيقضى على جيش كورنيلوف آخر قطعة متجولة من روسيا . ان لم يكن اليوم فغدا .. وعندئذ لم تبق الا ان اوجه رصاصة الى صدغى» .

سار الزوجان على غير هدى . تذكر روتشين عناوين بعض زملائه فى الفرقة .. ولكن لعلهم هربوا او قتلوا رميا بالرصاص ؟ عندئذ لا مفر من الموت على قارعة الطريق . نظر الى كاتيا . كانت تسير عادلة متواضعة فى سترتها القصيرة من الصوف السميك ، وقفازيها الوبر . كان وجهها الحلو ذو العينين الرماديتين الواسعتين يلمع بنقاء سريرة متحولا من اللافتات المخلوعة الى الواجهات المسدودة .. وعلى طرفى ثغرها شبح ابتسامة . «الا تفهم كل هذه الفظاعة ؟ ما هذه السماحة والغفران ؟»

كان رهط من الجنود العزل يقفون فى ركن الشارع . كان احدهم ، وهو رجل مجدر الوجه ذو عين منتفخة من تجمع الـــدم حولها ، يتابط رغيف خبز رمادى اللون كان بين الحين والآخر يقتطع منه قطعة بحركة وانية ، ويمضغها ببطء . قال له احـــد الجنود :

– لا يستطيع احد ان يفهم الوضع هنا . لمن السلطـــة ؟ للسوفييتات ام لغيرها ؟

وكان مع الجندى المتكلم صندوق خشبى ربط اليه حذاء لبادى مستهلك . فاجابه ماضغ الخبز :

– السلطة بيد الرفيق برونيتسكى . فـــاذهب للبحث عنه . سيعطينا قطارا نرحل عليه . والا فسنقضى العمر كلـــه متعفنين فى روستوف .

– من هو هذا ؟ ما هى رتبته ؟

– مفوض عسكرى ، على ما يبدو . . .

اقترب روتشين من الجنود ، وسال عن احد العناوين . اجابه احدهم فى غير ما ود :

– لسنا من اهالى المدينة .

وقال آخر :

– لم تصل الى الدون فى الوقت المناسب ، ايها الضابط .

اسرعت كاتيا فى جذب زوجها من كمه ، فعبرا الشـارع الى الرصيف المقابل . كان شيخ فى معطف مهلهل وقبعة قشية يجلس هناك على مسطبة تحت شجرة جرداء . وكان الشيخ يرتعش وهو يضع ذقنه غير الحليق على عجرة عصاه ، وكانت قطرات من الدمع تسيل من عينيه المغمضتين على خديه الغائرين .

سرت رجفـة فى وجه كاتيـــا . عندئذ جذب روتشين كمهـــا قائلا :

– لنذهب ، لنذهب . لن تستطيعى ان ترثى لكل الناس . . .

وظلا يضربان طويلا فى المدينة القذرة الرثة حتى عثرا على رقم البيت الذى ينشدانه . دخلا فرأيا رجلا قصير القامة متين الرجلين له راس اجرد كالبيضة . كان يرتدى صدارا مبطنا بلا كمين من صدارات الجنود قد غطاه القذر كليـــا . وكان يحمل قدرا ادار عنه

وجهه لنتانته . كان ذلك هو تيتكين المقدم فى الفوج الذى كان يخدم فيه روتشين . وضع القدر على الارض ، وتعانق مع فاديـــــم بتروفيتش ، وصفق كعبيه ، وصافح كاتيا .

– ارى ، ارى ، ولا حاجة للكلام . ساجد لكما مكانا . فقط ان تسكنا فى غرفة واحدة صغيرة . ولكن مقابل ذلك هناك مرآة ذات ثلاثة اوجه ، ودريقة . وزوجتى من هذه المنطقة . . . فى البداية عشنا هناك (واشار الى بيت اجرى من طابقين) ثم انتقلنا الى هنا (واشار الى ملحق خشبى متداع) لنعيش حياة بروليتارية . وانا ، كما ترى ، اغلى صبغ الأحذية . وقد سجلت اسمى فى بورصة العمل كعاطل . . . واذا لم يش الجيران بنـــا فسنتحمل على نحومـــا . . . نحن روس ، ونستطيع التعود .

وضحك كاشفا عن اسنان رائعة فى فمه الكبير ، ثم قـــال بتكبر : «اجل ، تلك حالة الأمور» ومسح صلعته براحة كفه ملطخا اياها بصبغ الاحذية .

ورحبت زوجته بالضيفين بصوت رخيم ، وكانت قصيرة مثله رقيقة البنيان ، الا ان عينيها العسليتين نمتا عن شىء من عدم الارتياح . انزل روتشين وكاتيا فى حجرة صغيرة واطئة تسلخ ورق حيطانها ، وكان فيها ، بالفعل ، مرآة ذات ثلاثة أوجه فى حالة سيئة ادير وجهها الى الحائط عند احد الاركان ، ودريقة ، وسرير حديدى . قال تيتكين :

– ادرنا وجه المرآة الى الحائط محافظة عليها . فانها شىء ثمين . فقد ياتون للتفتيش فتتحول الى حطام . فانهم لا يتحملون النظر الى وجوههم – وضحك ثانية ، ومسح على صلعته – وعلى اية حال انا افهمهم بعض الشىء : التحطيم يجرى على نطاق البلاد كلها ، فاذا وجدوا امامهم مرآة ، حطموها . . .

واعدت زوجته المائدة بنظافـــة ، الا ان الشوكات كانت صدئة ، والصحون غير سليمة . والظاهر انهما قد اخفيا ما لهما من متاع عزيز . اكل روتشين وكاتيا بلذة شديدة السمك المدخن والخبز الابيض والبيض المقلى مع شرائح دهن الخنزير . وانشغل تيتكين واشما الطعام فى صحنيهما . بينما طوت زوجته ذراعيهـــا السميكتين تحت نهديها ، وراحت تشكو من الحياة :

— البشاعة فى كل مكان ، والقمع . انه باختصار تعذيب . انا منذ اكثر من شهر لا اخرج من الفناء . . . ليتهم يطردون هؤلاء البلاشفة فى اقرب وقت . . . ماذا يقولون عن الوضع عندكم فى العاصمة ؟ هل سيبيدونهم قريبا ؟

قال تيتكين مرتبكا :

— امسكى لسانك . انك على مثل هذه الكلمات تفقدين رأسك فى مثل هذه الايام ، يا صوفيا ايفانوفنا .

— لن امسكت . فليقتلونى !

وتدورت عينا صوفيا ايفانوفنا ، وشدت ذراعيها على تحت نهديها بقوة . وقالت :

— سيعود القيصر الينا (وهزت نهديها لزوجها) انت وحدك لا تبصر شيئا . . .

تعبس تيتكين باعتذار . وحين خرجت زوجته من الحجرة متضايقة تحدث همسا :

— لا تلقيا بالا اليها . انها انسانة طيبة القلب ، وربة بيت فاخرة ، الا ان الاحداث افقدتها توازنها . . . (ونظر فى وجه كاتيا الذى احمر من الشاى ، والى روتشين الذى كان يلف سيكارة) آه ، يا فاديم بتروفيتش ، ليس ذلك بالأمر الهين . . . لا يجوز النظر فى الاحداث دون تمحيص ولا دراية . . . يصادف ان التقى بأناس وارى الكثير . . . اذهب غالبا الى بتايسك ، على الضفة الاخرى من الدون . وغالبية السكان هناك من فقراء الفلاحين والعمال . . . فاى قطاع طرق هم ، يا فاديم بتروفيتش ؟ لا ، بل هم اناس مذلون ومهانون . . . وما اشد انتظارهم للسلطة السوفييتية ! فقط الا تعتبرنى بلشفيا ، بحق الرب (ووضع على صدره يدين قصيرتين مشعرتين متضرعا ، وكانه يعتذر اعتذارا شديدا) ان الحكام المتكبرين القصار العقول هم الذين اعطوا روستوف للسلطة السوفييتية . . . ليتك تعرف ماذا حدث عندنا ايام الاتمان كاليدين . . . كان ضباط الحرس الفاجرون المتغطرسون يذرعون شارع سادوفايا بصفوف زاهية قائلين : «سنعيد اولئك الاوغاد الى السراديب» . واولئك الاوغاد هم كل الشعب الروسى . . . انه يقاوم ولا يريد ان يعيش فى السرداب . فى كانون الاول كنت فى

نوفوتشيركاسك ، انت تذكر ان المحبس يقع فى الشارع الرئيسى ، وقد بناه الاتمان بلاتوف ، على ما يقال ، فى عهد الكسندر المبارك ، وهو مبنى صغير على النمط الامبراطورى . والآن حين اغمض عينى ، يا فاديم بتروفيتش اتخيل درجات ذلك الرواق المخضبة بالدم . . . عندما مررت به سمعت صراخا رهيبا ، كالصراخ الذى يطلقه انسان يعذب . . . وذلك فى وضح النهار ، وفى وسط عاصمة منطقة الدون . . . واقترب فارى بالقرب من المحبس جمهورا وقوزاقا مترجلين . والجميع صامتون ينظرون الى جلد يجرى عند الاعمدة لتخويف الناس . كانوا يخرجون العمال المتعاطفين مع البلاشفة من المخفر اثنين اثنين ويجلدونهم . تصور ، لمجرد التعاطف . يثبتون اذرعهم على الأعمدة فى الحال ، ويبدا اربعة من القوزاق الاقوياء بإلهاب ظهورهم واعجازهم بالسياط . فكان لا يسمع غير صفير السياط ، والقمصان والبناطيل تتطاير مزقا ، واللحم قطعا ، والدم يسح على الدرجات ، وكانه دماء حيوانات ذبيحة . . . انا من الصعب ان أُصدم ، ولكننى صدمت آنذاك : ترامت صيحة رهيبة جدا . . . لا يصرخ الناس مثلها لمجرد الم جسمانى . . .

كان روتشين يصغى منكس البصر ، واصابعه الممسكة بالسيكارة ترتجف . حك تيتكين باصبعه نقطة خردل لصقت على الخوان .

— وبالنتيجة فارق الاتمان الحياة ، وصفوة القوزاق الاعيان مدفونون فى المنخفض خارج المدينة : الدم المسفوح على الدرجات طلب الثار . سلطة الفقراء . . . انا شخصيا لا يهمنى ان اغلى صبغ احذية او افعل شيئا آخر . . . لقد خرجت حيا من الحرب العالمية ، ولا آثمن غير شىء واحد هو نفس الحياة ، واعذرنى على هذا التشبيه . لقد قرات الكثير من الكتب وانا فى الخنادق ، وتشابيهى ادبية . اذن . . . (وهنا نظر فى الباب ، وخفض صوته) سأقتنع بكل نظام للحياة اذا رايت اناسا سعداء . . . ارجو ان تفهمنى ، يا فاديم بتروفيتش ، انا لست بلشفيا . . . (ووضع يديه على صدره مرة أخرى) . انا لا احتاج لنفسى الشىء الكثير : قطعة خبز ، قبضة تبغ ، وصحبة صميمية حقا . . . (وضحك

بارتباك) . لكن المسالة ان العمال متذمرون ، ودع عنك عامة الناس . . . هل سمعت بالمفوض العسكري الرفيق برونيتسكي ؟ نصيحتي ان تختفي حين ترى سيارته منطلقة . صعد بعد الاستيلاء على روستوف مباشرة . ما ان يسمع كلمة اعتراض واحدة حتى يصيح : «الرفيق لينين يقدرني تقديرا عاليا ، وانا ابرق للرفيق ليني شخصيا . . .» وقد احاط نفسه بعناصر اجرامية . في كل مكان تجري المصادرة والرمي بالرصاص . وفي الليالي يسلبون في الشوارع ايا كان . انه يتصرف كقاطع طريق . . . فما هذا ؟ واين تذهب الاموال المصادرة ؟ . . ان اللجنة الثورية لا تستطيع ان تفعل شيئا معه . تخاف . . . لا اعتقد انه رجل مبدئي . . . انه يلحق الضرر بالقضية البروليتارية اكثر . . . (الا ان تيتكين ادار ظهره شاعرا بانه قد تمادى في الامر ونخر ، واخذ يضع يديه على صدره بلا كلمات هذه المرة) .

قال روتشين ببرود :

— انا لا افهمك ، ايها السيد المقدم . ان برونيتسكي وامثاله هم السلطة السوفييتية الصرف . . . ولا يمكن تبرير اعمالهم ، بل مكافحتهم غير باخلين بالحياة . . .

اسرع تيتكين يسأل :

— لاجل من ؟

— لاجل روسيا العظيمة ، ايها السيد المقدم .

— وما هي هذه ؟ اعذرني على طرح السؤال بهذه الصورة الحمقاء . روسيا العظيمة باي مفهوم ؟ اريد تعبير ادق . بمفهوم الطبقة العليا في بتروغراد ؟ هذا واحد . . . ام بمفهوم فوج المشاة الذي خدمنا ، انت وانا فيه ، والذي هلك ببطولة على الاسلاك الشائكة ؟ ام بمفهوم مؤتمر التجار في موسكو ؟هل تذكر كيف بكى ريابوشينسكي * على روسيا العظيمة في مسرح البلشوي ؟ وهذا ثالث مفهوم . ام بمفهوم العامل الذي يتفهم عظمة روسيا في الاعياد حين يكون في خمارة قذرة ؟ أم بمفهوم مائة مليون فلاح . . .

* من كبار اصحاب البنوك والمعامل الروس ومن زعماء الثورة المضادة البرجوازيين . — **المترجم** .

— اللعنة . . . (اسرعت كاتيا بالضغط على يد روتشين تحت المائدة) . اعذرني ، يا مقدم ، حتى الآن كنت اعرف ان روسيا هي ما تسمى بسدس الكرة الارضية ، ويسكنها شعب عاش تاريخا عظيما . . . ام لعل الامر ليس كذلك حسب رأي البلاشفة . . . ارجو المعذرة . . . (وابتسم ابتسامة مريرة من خلال الضيق المكبوت في صدره بصعوبة) .

— انه كذلك بالضبط . . . وانا فخور . . . انا شخصيا احس بالرضا حين اقرا تاريخ الدولة الروسية . الا ان المائة مليون فلاح لم يقراوا هذه الكتب ، ولا يحسون بالفخر . وهم يريدون ان يكون لهم تاريخهم الخاص المتجه الى الازمان المقبلة لا الازمان الغابرة . . . تاريخ الرخاء . . . ولا مفر من ذلك . ثم ان لهم قادة هم البروليتاريا ، وهؤلاء يتقدمون اكثر من ذلك ، انهم يتجراون على خلق ما يسمى بالتاريخ العالمي . . . ولا مفر من ذلك ايضا . . . انت تتهمني بالبلشفية ، يا فاديم بتروفيتش . . . وانا اتهم نفسي بالتفرج ، وتلك خطيئة باهظة ، ولكن عذري هو في التعب الشديد من حياة الخنادق ، وآمل ان اكون بمرور الوقت اكثر نشاطا ، عندئذ لا اظنني ساعترض على تهمتك هذه . . .

وباختصار انتفش تيتكين ، وقد تغطت صلعته المحمرة بقطرات العرق . كان روتشين يلبس معطفه بسرعة ولكنه لم يفلح في وضع ازراره في مواضعها الصحيحة . وتقلص وجه كاتيا من الحزن الشديد ، وهي لا تفتأ تنقل بصرها بين زوجها وتيتكين . وقال روتشين بعد صمت متوتر :

— متاسف لفقدي رفيقا . شكرا جزيلا على حسن الضيافة . . .

وخرج من الغرفة دون ان يمد يده للمصافحة . وفجاة قالت كاتيا التي كانت تلزم الصمت دائما ، قالت بصوت عال كالصراخ وهي شدت يديها :

— فاديم ، ارجو ان تنتظر . . . (التفت رافعا حاجبيه) فاديم ، لست الآن على حق . . . (وتوهجت وجنتاها) . لا يمكن ان يعيش الانسان بمثل هذا المزاج ، بمثل هذه الافكار . . .

قال روتشين مهددا :

— هكذا ، اذن ! . تهاني . . .

— فاديم ، انت لم تسالنى عن رايى قط ، وانا لم اطالبك ، ولم اتدخل فى شئونك . . . لقد وثقت بك . . . ولكن يجب ان تفهم ، يا عزيزى فاديم ، ان تفكيرك خاطئ . اردت ان اقول ذلك منذ زمان بعيد . . . يجب القيام بشىء آخر مختلف كليا . . . ليس الامر الذى جئت من اجله الى هنا . . . يجب ان تفهم اولا . . . وعندئذ فقط ، اذا كنت واثقا (وهنا انزلت ذراعيها وظلت تشدهما تحت المائدة من الانفعال الشديد) . . . واذا كنت واثقا من ان ضميرك يسمح لك ، فى هذه الحال اقتل . . .

— كاتيا ، — صرخ بها صرخة خانقة وكانها من ضربة وجهت اليه — ارجو ان تصمتى !

— لا ! . . انا اقول ذلك لاننى احبك حبا جنونيا . . . يجب الا تتحول الى قاتل . . يجب ، يجب . . .

ظل تيتكين يهمس وهو لا يجرؤ على ان يندفع اليها او اليه :

— اصدقائى ، اصدقائى . . دعونا نتكلم ، نتفق .

ولكن الاتفاق كان مستحيلا ، فان كل ما تجمع فى نفس روتشين خلال الاشهر الأخيرة قد انفجر بكره عارم . كان واقفا عند الباب مادا عنقه ونظر الى كاتيا ، مكشرا عن اسنانه ، وفح :

— امقتك . الى الشيطان ! . . مع حبك . . . ستجدين لنفسك سافلا . . . بلشفيا . . . الى الشيطان ! . .

وارسل من حنجرته نفس الصوت المؤلم الذى ارسله وهو فى عربة القطار ، وبدا وكانه موشك على اتيان اشياء فظيعة ، وان الجو مشحون بمصيبة . . . (حتى تحرك تيتكين ليحمى كاتيا) . الا أن روتشين قلص عينيه ببطء ، وخرج .

كان سيميون كراسيلنيكوف جالسا على سرير المستشفى يستمع بتجهم الى اخيه الكسى . وكانت المؤونة التى ارسلتها له ماتريونا — دهن خنزير ، ولحم دجاج ، وفطائر — مستقرة عند مؤخرة السرير . ولم يكن سيميون ينظر اليها . كان نحيفا ، ووجهه سقيما غير حليق ، وشعره ملتفا من طول الرقاد ، وساقاه نحيلتين

ومما فى السروال الداخلى من القماش الاصفر الرخيص . كان ينقل بيضة حمراء من يد الى يد . وكان اخوه الكسى الملوح البشرة الاشقر اللحية يجلس على مقعد بلا مسند ، فارجا ساقيه اللابستين حذائين جيدين ، وكان يقول بعذوبة ورقة ، ولكن قلب سيميون يستوحش لكل كلمة يقولها :

— الفلاحون لهم خطهم الخاص ، وللعمال خطهم الآخر . . . دخل العمال فى المنجم «غلوبوكويه» عندنا فامتلأ بالماء ، وتعطلت الآلات ، وتشتت المهندسون . بينما لا بد ان يأكل الانسان ، صحيح ام لا ؟ دخل العمال جميعا الى الحرس الأحمر . يعنى أن مصالحهم تقتضى تعميق الثورة . صحيح ام لا ؟ بينما الثورة بالنسبة لنا نحن الفلاحين هى حرث مقدار عشر بوصات عميقا فى التربة ، وتعميقنا لها يعنى الحرث والبذر والحصد . هل قولى صحيح ام لا ؟ اذا كنا نذهب جميعا لنحارب فمن سيعمل اذن ؟ النسوان ؟ نحمد الله اذا استطعن رعاية المواشى . بينما الارض تتطلب العناية والرعاية . ذلك هو الأمر ، يا اخى . فلنسافر الى ديارنا ، فانك ستتشافى اسهل على غذائنا . اصبحت لنا ارض الآن . بينما لا يوجد من يعمل فيها . لا احد يحرث ، ويبذر ، ويحصد . وكيف نستطيع ، ماتريونا وانا ، وحدنا ان نفعل ذلك كله ؟ عندنا الآن ثمانية عشر خنوصا ، وقد وضعت عينى على بقرة ثانية . وكل ذلك يحتاج الى ايد عاملة .

اخرج الكسى كيس التبغ من جيب معطفه العسكرى . فهز سيميون راسه ممتنعا عن التدخين : «ما يزال الصدر موجعا». اخذ الكسى يقلب المؤونة ، وهو ماض فى اقناع اخيه بالذهاب للعيش فى القرية ، وتناول فطيرة رقاقية منتفخة ، وتلمسها .

— كل هذه ، صرفت ماتريونا رطلا كاملا من السمنة .

قال سيميون :

— اسمع ، يا الكسى ايفانوفيتش . انا لا اعرف بما اجيبك . ساذهب معك الى القرية بسرور ريثما يندمل الجرح . ولكن لن اعمل فى الارض ، فلا تأمل فى ذلك .

— طيب ، ايمكن ان اسأل لماذا ؟

– لا اقدر ، يا اليوشا * (وتشنج فمه ، الا أنه تغلب على ذلك بجهد) . افهمنى ، لا اقدر . لن استطيع ان انسى جرحى . . . لن استطيع ان انسى جلدهم لرفقائى . . . (واشاح بوجهه نحو النافذة بمثل ذلك التشنج ونظر بعينين ضاريتين) . يجب ان تضع نفسك فى موضعى . . . لا استطيع ان افكر الا بهؤلاء الاوغاد . . . (وهمس بشىء ما ، ثم رفع صوته ضاغطا البيضة الحمراء فى قبضته) . لن اهدأ . . . ما دام هؤلاء الاوغاد يمتصون دماءنا . . . لن اهدأ ! . .

هز الكسى ايفانوفيتش راسه ، وبصق على عقب السيكارة بين اصبعيه ليطفئها ، وتلفت ليضعها فى مكان ما ، ثم القاها تحت السرير .

– حسنا ، يا سيميون ، قضيتك قضية نبيلة . . . لنسافر الى ديارنا لتتشافى . ولن الزمك البيت بالقوة .

ما كاد الكسى كراسيلنيكوف يخرج من المستشفى حتى التقى بابن قريته ايغنات ، من جنود الجبهة . توقف الاثنان ، وتبادلا التحية ، واستفسر كل واحد عن احوال صاحبه . فقال ايغنات انه يعمل سائقا لدى اللجنة التنفيذية . ثم مضى يقول :

– لنذهب الى سينما «سوليل» ، ومنها الى بيتى لتبيت عندى . القتال دائر هناك اليوم . هل سمعت عن المفوض برونيتسكى ؟ لا اعرف كيف يجد منفذا من الورطة اليوم . رجاله مستشرسون . والمدينة كلها تعول من جراء تصرفاتهم . يوم أمس نهارا قتلوا صبيين من تلامذة المدرسة فى ذلك الركن لغير ما سبب . هجموا عليهما بالسيوف . وكنت واقفا هنا ، عند العمود ، فتقيأت . . .

ووصلا الى سينما «سوليل» وهما يتحدثان . كان الناس كثيرين . فشقا طريقهما ، ووقفا قرب موقع الاوركسترا . كان رجل نحيل شاحب جدا محدودب الظهر له شعر طويل كثيف اسود يسير بخطى قصيرة أمام منصة هيئة الرئاسة على المسرح الصغير ،

* صيغة تدليل من الكسى . – **المترجم** .

وكانه يسير فى قفص ، وكانت هيئة الرئاسة تتالف من امرأة مدورة الوجه فى معطف للجنود ، وجندى كئيب السحنة ذى رأس مضمد بشاش قذر ، وعامل عجوز نحيل العود يرتدى نظارة وشابين فى قميصين من القمصان العسكرية . وكان الرجل الشاحب يتحدث ملوحا بقبضة واهنة وبحركة رتيبة ، بينما كانت يده الأخرى تقبض على قصاصات من الصحف .

همس ايغنات لكراسيلنيكوف :

– انه معلم وهو من اعضاء السوفييت عندنا . . .

– لا نستطيع ان نصمت . ولا يجب ان نصمت . . . أمن المعقول ان ما لدينا فى المدينة هى السلطة السوفييتية التى حاربتم فى سبيلها ؟ . . عندنا تعسف . . . استبداد اسوأ من الاستبداد القيصرى . . . انهم يقتحمون البيوت على السكان الآمنين . . . وعند هبوط الظلام يتعذر الخروج الى الشارع بسبب السلب والنهب . . . والاطفال يقتلون فى الشوارع . . . وقد تحدثت بذلك فى اللجنة التنفيذية ، وتحدثت فى اللجنة الدورية . . . ان اعضاءها عاجزون . . . فان المفوض العسكرى يتستر على كل هذه الجرائم بسلطته المطلقة . . . ايها الرفاق . . . (وضرب على صدره ضربة عصبية بحزمة القصاصات) . لماذا يقتلون الاطفال ؟ لتقتلونا . . . ولكن لماذا تقتلون الاطفال ؟ . .

وغطى على كلماته الاخيرة هدير منفعل شمل القاعة كلها . كان الجميع يتبادلون النظرات فى رعب واضطراب . وجلس الخطيب الى منضدة الرئاسة ، وغطى وجهه المتغضن باوراق الجرائد . تلفت رئيس الجلسة ، وهو الجندى المضمد ، نحو الكواليس ، وقال :

– الكلام الآن للرفيق تريفونوف آمر الحرس الأحمر . . .

صفقت القاعة كلها ، صفقوا واذرعهم مرفوعة . وصاحت عدة اصوات نسائية من اعماق القاعة : «نرجوك ايها الرفيق تريفونوف» . وزعق صوت عميق النبرة : «مرحى للرفيق تريفونوف !» . عند ذاك ابصر الكسى كراسيلنيكوف رجلا ممشوق القامة فارعا فى سترة جلدية انيقة وحزامين متصالبين مما يلبسه الضباط يقف عند موقع اوركسترا بالذات مديرا ظهره للجمهور ، ثم استدار فجأة كالنابض ليواجه الصياحين والمصفقين ، مرر عينيه الجاحظتين

الرماديتين الفاتحتين بلون الفولاذ على الوجوه بسخرية وبرود ، واخذت اذرعهم تنزل فى الحال ، وتنكمش رؤوسهم بين الاكتاف ، وصار الناس يكفون عن التصفيق . وسار بعضهم مسرعين نحو المخرج وهم منحنون .

ابتسم ذو العينين الفولاذيتين ابتسامة مزدرية . وعدل قراب مسدسه بحركة قصيرة . كان له وجه ممثل طويل حليق حلاقة جيدة . استدار نحو المسرح ثانية ووضع مرفقيه على حاجز موقع الاوركسترا . لكز ايغنات جنب كراسيلتيكوف .

— انه بروينيتسكى . نظرته وحدها تكفى لكى تفزع .

خرج تريفونوف آمر الحرس الاحمر من وراء الكواليس يضرب الارض بحذائيه الثقيلين . كان كم سترته من قماش الفنيلة مربوطا بربطة حمراء . كان يمسك بين يديه عمرة مربوطة ايضا بربطة حمراء فى طرفها الاعلى . كان ركين البنيان ، بادى الرصانة . اقترب من حافة المسرح ببطء . وتحركت جلدة رأسه الرمادية على جمجمته الحليقة . كان الظل المرتمى من جبينه يغطى عينيه . رفع ذراعه فساد الصمت . اشار بكف نصف مضمومة الى بروينيتسكى الواقف الى الاسفل .

— ايها الرفاق ، ها هو بروينيتسكى ، المفوض الحربى موجود هنا . وذلك شىء جيد جدا . فليجب هو على السؤال . واذا لم يرد ان يجيب سنجبره على ذلك .

قال بروينيتسكى من الاسفل بتهديد .

— هكذا !

— نعم ، سنجبره . نحن سلطة العمال والفلاحين ، وهو ملزم على الخضوع لها . ان الوقت حرج الآن ولذا يصعب فهم كل الامور دفعة واحدة . . . انه لزمن مضطرب . والوسخ ، كما هو معروف ، يطوف دائما على السطح . . . ومن هنا نستدل ان محتالين يلتصقون بالثورة . . .

صاح بروينيتسكى بلكنة بولونية واضحة :

— ماذا يعنى ؟ . . سم . . . سم اسما .

— لا تستعجل ، سنتصل الى الاسم ايضا . . . لقد نظفنا مدينة روستوف من عصابات الحرس الابيض بدماء العمال

والفلاحين ، أيها الرفاق . . . وتقف السلطة السوفييتية فى منطقة الدون بقدمين راسختين . لماذا ترامت الاحتجاجات من كل جانب ؟ العمال قلقون ، ورجال الحرس الاحمر مستاؤون . . . والجنود فى القطارات هائجون قائلين لماذا يتركوننا فى سكك الحديد خلال وقت طويل دون حركة ؟ . . وقبل دقائق سمعنا هنا صوت ممثل المثقفين (واشار بكفه الى الخطيب السابق) . فما هى المسالة ؟ يبدو كل انسان غير راض عن السلطة السوفييتية ؟ يقولون : لماذا تنهبون ، لماذا تسكرون ، لماذا تقتلون الاطفال ؟ بل ان الخطيب السابق طلب بنفسه ان يُقتل . . . (ضحك وتصفيق هنا وهناك) . ايها الرفاق ، ان السلطة السوفييتية لا تنهب ولا تقتل الاطفال بل الاوغاد الذين لصقوا بالسلطة السوفييتية هم الذين ينهبون ويقتلون . . . وبذلك يقوضون ايمان الناس بالسلطة السوفييتية ، وبذلك يضعون فى ايدى اعدائنا سلاحا لا يرحم . . . (توقف . صمت لا تسمع فيه انفاس مئات من الناس .) ولهذا السبب اريد ان اسال على الرفيق بروينيتسكى . . . هل يعلم هو بمقتل صبيين يوم امس ؟

صوت بارد من الاسفل :

— نعم ، اعلم .

— جيد جدا . وهل يعلم بالسطوات الليلية ، والسكر والعربدة فى فندق «بالاس» ؟ هل يعلم اين تذهب الاموال المصادرة ؟ اتسكت ، يا رفيق بروينيتسكى ؟ ليس عندك ما ترد به . الاموال المصادرة تنفقها عصابة اللصوص على الخمرة . . . (هدير فى القاعة . تريفونوف يرفع ذراعه .) وهناك شىء آخر قد اتضح لنا . . . لم يعطك احد السلطة فى روستوف . ان اوراق تفويضك مزيفة ، واستشهاداتك بموسكو ، ولا سيما بالرفيق لينين كذب وقح . . .

كان بروينيتسكى يقف الآن منتصب القامة . وقد سرت رجفات فى وجهه الوسيم الشاحب . وفجأة تقفز جانبا الى حيث يقف جندى شاب اشقر الشعر فاغر الفم ، وامسكه من معطفه ، وصاح بصوت رهيب مشيرا الى تريفونوف :

— ارم هذا الوغد !

تلوى وجه الشاب بشكل وحشى ، وجذب البندقية من ظهره . كان تريفونوف يقف بلا حراك مباعدا ساقيه ، الا ان راسه انحنى بحركة كحركة الثور . خرج عامل من وراء الكواليس ، ووقف بالقرب منه ، وحرك ترباس البندقية على عجل . وفى الحال تبعه آخر ، وثالث حتى امتلأ المسرح كله بسواد الستر والمعاطف ، وصلصلت الحراب المتصادمة . عندئذ صعد رئيس اللجنة فوق المنضدة ، وعدل الضمادة التى تهدلت على عينيه ، وصرخ بصوت مزكوم :

— ايها الرفاق ، ارجو الا تثيروا الذعر ، لم يحدث شيء غير متوقع . اغلقوا الباب ، يا مَنْ فى الخلف . الرفيق تريفونوف فى امان تام . الكلام للرفيق بروينيتسكى للرد .

الا ان بروينيتسكى اختفى . وكان الجندى الاشقر وحده ما يزال فى وقفته بالقرب من مكان الاوركسترا فاغرا فمه بدهشة .

٣

لقى جيش المتطوعين مقاومة جدية جدا بالقرب من قرية كورينيفسكايا . ومع ذلك فقد استولى على القرية بخسائر كبيرة ، وهنا صار مؤكدا ما كان يخفى عن الجيش ، ويخشى منه اكثر من اى شيء آخر على الاطلاق : قبل عدة ايام استسلمت يكاترينودار عاصمة منطقة كوبان للبلاشفة بلا قتال ، وهى التى كانت هدف الحملة ، والامل فى الراحة ، وقاعدة للاستمرار فى النضال . وهرب المتطوعون من كوبان تحت امرة بوكروفسكى واتمان كوبان والحكومة المحلية نفسها الى جهة مجهولة . وهكذا وجد الجيش نفسه فجأة فى حيص بيص ، وهو على بعد مسيرة ثلاثة ايام من الهدف .

كما ان الامل فى ان تلقاه كوبان باستبشار كان خادعا ايضا . والظاهر ان القوزاق قرروا معرفة ما يحدث دون معونة جيش المتطوعين . كانت الضياع على طريق الجيش مهجورة ، فى كل قرية كمين بالانتظار ، وفوق كل قمة تل رشاشة فى الحراسة . فعلام يمكن ان يعول جيش المتطوعين ؟ على قوزاق اكوبان

المنحدرين من اوكرانيا ، ام على الجركس الذين شبوا على العداوة القديمة نحو الروس ، ام على قصائل جيش القفقاس التى لزقت باراضى كوبان الغنية وقد راح كلهم يغنون فجاة فى جوقة واحدة مع الضباط ذوى الكتافيات المذهبة وطلاب المدارس العسكرية اليافعين : «مرحى لكورنيلوف ، مرحى للوطن ، مرحى للايمان !» ولكن هذه الصيغة المستهلكة العديمة النفع والمطموسة كالعملة القيصرية هى كل ما كان جيش المتطوعين يستطيع تقديمه للقرى القوزاقية الغنية وقد تيقظت لتتساءل «الم يحن الوقت لنعلن جمهوريتنا القوزاقية المستقلة ؟» وللاغراب الذين لجاوا من المناطق الاخرى الملتفين حول الرايات الحمراء ليناضلوا من اجل المساواة فى الحقوق فى اراضى كوبان والدون ، وصيد الاسماك ، وفى سبيل السلطة السوفييتية . . .

حقا ان جيش المتطوعين كان ياخذ معه فى طابوره الداعية الشهير البحار فيودور باتكين الاعوج القدم ، الداكن البشرة بروبه من القماش المشمع ، وطاقيته المزينة باشرطة القديس غيورغى . وقد حاول الضباط اكثر من مرة ان يقتلوه اثناء المسيرة كيهودى حقير وابن كلب أحمر ، الا ان كورنيلوف نفسه كان يحميه وهو يظن ان البحار المشهور باتكين يسد كليا نواقص الجيش فى حقل الايديولوجية . وفى الحالات التى كان قائد الجيش يضطر فيها للكلام امام الناس (فى القرى القوزاقية) كان يترك باتكين يتحدث قبله ، فكان هذا يثبت للاهالى بمكر وذكاء ان كورنيلوف يدافع عن الثورة ، وان البلاشفة ، على العكس من ذلك ، اعداء للثورة مباعون للالمان .

وما كان من الممكن ان يستسلم الجيش لان الاسرى لم يكونوا ياخذون فى ذلك الوقت . وكان التفرق يعنى الموت واحدا واحدا . وكانت هناك خطة لاجتياز سهوب استراخان الى نهر الفولغا ، والخروج الى سيبيريا . الا ان كورنيلوف اصر على المضى فى الزحف على يكاترينودار للاستيلاء على هذه المدينة عنوة . تحول الجيش من قرية كوزينيفسكايا جنوبا ، وبعد معارك باهظة عبر نهر كوبان عند قرية اوست – لابينسكايا ، وكان النهر فى ذلك الفصل من العام فياضا ومائجا . وسار الجيش دون توقف مجرجرا معه

طابورا من العربات عليها عدد كبير من الجرحى . الا انه كان مثير الرهب وشديد الضراوة حتى أن طوق القوات الحمراء كان ينفك فى كل مرة تاركا اياه يمر .

سار الجيش باتجاه مايكوب مخادعا العدو ، الا انه حين وصل الى قرية فيليبوفسكايا عبر نهر بيلايا ، وتحول فى زاوية حادة نحو الغرب فى مؤخرة يكاترينودار . وهنا ، وراء نهر بيلايا ، وفى فج ضيق احاطت به قوات كبيرة من قوات الحمر . وكان الوضع يبدو ميئوسا . وزعت البنادق على الجرحى جراحا خفيفة ، المحمولين على العربات . . . استمر القتال النهار بطوله . كان الحمر يطلقون من المدافع من المرتفعات ، ويرشقون بالرشاشات المعابر والعربات ولا يدعون الصفوف تنهض . ولكن حين هبط الظلام ، وتحول جيش المتطوعين الممزق الى الهجوم المضاد بجهد اخير مستميت تراجع الحمر من المرتفعات ، وجعلوا قوات كورنيلوف تمر نحو الغرب . ووقع ما وقع من قبل ايضا ، انتصرت الخبرة العسكرية ، والادراك بان الحياة تتوقف على نتيجة هذه المعركة .

كانت القرى تشتعل فى كل مكان فى الليل . وقد ساء الطقس ، وهبت ريح الشمال ، وتلبدت السماء بسحب ثقيلة داكنة . وبدأ المطر يسقط ، وظل يهطل طوال الليل غزيرا مدرارا . وفى الخامس عشر من آذار وجد الجيش امامه ، وهو يزحف باتجاه قرية نوفو – دميتروفسكايا مسافات واسعة من المياه والوحل السائل . وكانت التلال القليلة المخططة بالدروب تغيب فى الضباب الذى يفترش الأرض . خاض الرجال فى الماء الى الركب ، وغطست العربات وعجلات المدافع حتى محاورها . وسقط ثلج رطب ، وهبت عاصفة جامحة لا مثيل لها .

خرج روتشين من عربة البضائع ، وعدل البندقية وكيس متاعه . وتلفت فيما حوله . كانت جماعات من جنود فوج فارنافسكى تضج على السكك الحديدية . . . بعضهم فى معاطف عسكرية والبعض الآخر فى فروات ، وآخرون فى معاطف مدنية

محزمة بحبال . والكثيرون منهم يحملون احزمة من عتاد الرشاشات وقنابل يدوية ومسدسات . بعضهم يضع على راسه عمرات ليبا رؤوس مستدقة ، والبعض الآخر طراطير مخروطية ، وفريق ثالث قبعات عالية مصادرة من المضاربين . وكانت الاحذية الطويلة الممزقة ، والاحذية اللبادية ، والارجل الملفوفة بالخرق تعجن الطين اللزج . كان الجنود يصرخون ، وحرابهم تتصادم : «الى الاجتماع الحاشد ، يا اولاد ! سنحلل الأمر بانفسنا ! كفاهم سوقنا الى المجزرة !»

كان الاضطراب بسبب الشائعات المبالغ فيها ، كما هو الأمر دائما فى مثل هذه الاحوال ، عن اندحار الوحدات الحمراء قرب قرية فيليبوفسكايا : «عند كورنيلوف خمسون الفا من الضباط ، ويجردون ضده فوجنا وحده لكى يبيده . . . خيانة ، يا اولاد ! امسكوا بالآمر !»

وتراكض الجنود الى فناء المحطة المنتهى وراءها تماما بالسهب المغطى بنقاب داكن من المطر . كانت ابواب عربات البضائع تقرقع قرقعة شديدة ، حين كان رجال متوحشون يقفزون منها وبنادقهم على ظهورهم ، ويتراكضون الى حيث كانت الريح تصفر فوق جموع الناس فى اشجار الحور المخروطية التى ما تزال جرداء ، وكانت غربان القيظ تحوم فوق قممها ناعبة . صعد الخطباء على السطح العشبى لأحد مخازن الثلج ، ورفعوا قبعاتهم امامهم ، وصاحوا : «يا رفاق ، لماذا يتغلب علينا قطاع الطرق الكورنيلوفيون ؟ لماذا سمحوا لجيش المتطوعين بالوصول الى يكاترينودار ؟ . . ما هو خطة جيشنا ؟ . . دعوا الآمر يجيب» .

وهدر حشد من الف رجل «ليجب !» بقوة جعلت غربان القيظ تحلق عاليا تحت السحب . ورأى روتشين ، وهو واقف عند مدخل المحطة ، الآمر يتحرك بقبعته المدعوكة وسط الرؤوس المضطربة متجها نحو خزان الثلج . كان وجهه العظمى الحليق بجسره الجامد شاحبا حازما . فعرف روتشين ان الآمر هو صاحبه القديم سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف .

في فترة ما قبل الحرب كان سابوجكوف يتكلم باسم جماعة «اناس المستقبل» محطما الاخلاقية القديمة . وظهر فى المجتمع البرجوازى راسما على خديه رسوما غاوية ، وسترته من الفانيلا الخضراء الزاهية . واثناء الحرب تطوع فى سلاح الفرسان ، واشتهر كمستطلع ومبارز جرئ ، وحصل على رتبة ملازم . وبعد ذلك ، وفى بداية عام ١٩١٧ اعتقل فجأة ، وارسل الى بتروغراد ، وحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص لانضمامه الى منظمة سرية . ثم اطلقت ثورة شباط سراحه فكان لفترة معينة يتكلم عن كتلة الفوضويين فى سوفييت نواب الجنود . ثم اختفى ليظهر ثانية فى تشرين الثانى مشاركا فى الاستيلاء على قصر الشتاء . وكان من اوائل الضباط النظاميين الذين انخرطوا فى الحرس الأحمر .

ها هو الآن قد صعد الى المسطح العشبى منزلقا ، ولما استقر هناك حشر ابهامى يديه تحت حزامه ، وجعّد جلدة رقبته ونظر الى الرؤوس العديدة المتطلعة اليه . وابتدر قائلا بسخرية وبصوت لم يرفعه كثيرا بل جعله مسموعا فى كل مكان :

– اتريدون ان تعرفوا ، يا شياطين الصراخ ، لماذا يتغلب علينا الاوغاد ذوو الكتافيات المذهبة ؟ بسبب هذا الصراخ والفوضى . بالاضافة الى انكم لا تطيعون اوامر القيادة العليا ، وترفعون عقيراتكم بالصياح بكل ذريعة ... بل وهناك من بينكم من يثير الرعب !.. من قال لكم اننا اندحرنا عند قرية فيليبوفسكايا ؟ من قال لكم انهم مرروا كورنيلوف الى يكاترينودار بخيانة ؟ انت الذى قلت ؟ (ودفع ذراعه الحاملة بالمسدس مشيرا بها الى شخص من الواقفين فى الاسفل) . تعال الىّ ، لنتحدث ... اذن ، لم تقل انت ... (ودس مسدسه فى جيبه بلا رغبة .) تحسبوننى احمق وطفلا غريرا ، ولا افهم لماذا تزعقون ... اتريدون ان اقول لكم لماذا ؟ ان فيدكا ايفولغين اولا ، وبافلينكوف ثانيا ، وتيرنتى دوليا ثالثا قد تلقوا بالاتصال المباشر نبأ يقول ان فى محطة آفيبسكايا صهاريج الكحول ... (ضحك . وفم روتشين قد تلوى بابتسامة حازنة : «تخلص المحتال» .) من الواضح ان هؤلاء الفتيان متلهفون للقتال . وواضح ان القائد العام خائن لأن صهاريج الكحول قد يستولى

عليها ضباط كورنيلوف فجأة ... وتلك مصيبة ستحل بالجمهورية ... (عاصفة من الضحك جعلت غربان القيظ تصعد عاليا فى السماء .) انا اعتبر الحادث قد انتهى ، ايها الرفاق ... وها انا اقرا آخر بلاغ حربى .

اخرج سابوجكوف اوراقا ، وشرع يقرؤها بصوت عال ، استدار روتشين ، وخرج خلال المحطة الى الرصيف ، وجلس على مسطبة مكسورة ، واخذ يلف له سيكارة من التبغ البيتى . قبل اسبوع سجل (بهوية مزيفة) فى وحدة من الحرس الاحمر ذاهبة الى الجبهة . وقد ساءت علاقته مع كاتيا . بعد الحدث العصيب الذى جرى حول مائدة الشاى عند تيتكين قضى روتشين بقية النهار يجوب المدينة ، وفى الليل عاد الى كاتيا ، ولم ينظر فى وجهها مخافة ان يظهر علامة تأثر ، وقال بصرامة :

– امكثى هنا شهرا او شهرين ، لا ادرى ... آمل ان تكونى معه على اتفاق تام فى الآراء ... وفى اول فرصة سادفع له على اقامتك . ولكن الح عليك بان تخبريه فورا ان اقامتك عنده لن تكون بلا مقابل ، لن تكون احسانا منه ... ساغيب لفترة من الوقت .

سالت كاتيا محركة شفتيها حركة ضعيفة :

– الى الجبهة ؟

– هذا ما يخصنى وحدى تماما ...

اصبحت علاقته مع كاتيا رديئة للغاية . فى يوم من ايام تموز من السنة الماضية ، وعلى رصيف نهر النيفا الذى كانت تعكس صفحته الصقيلة معالم الجسور واعمدة جزيرة فاسيليفسكى – فى ذلك اليوم المشمس البعيد – قال روتشين لكاتيا التى كانت جالسة على مصطبة غرانيتية قرب الماء : «ستنتهى الحروب ، وتمر الثورات ، وتزول ممالك ، ويبقى قلبك وحده خالدا ...» وها هما بقيا عدوين فى فناء قذر ... ولم تكن كاتيا تستحق هذه النهاية ... «ولكن ، اللعنة ، حين تكون روسيا كلها منتهية ...»

كانت خطة روتشين بسيطة : الوصول فى وحدة للحرس الأحمر الى منطقة المعارك ضد جيش المتطوعين ، والتسلل اليه فى اول فرصة سانحة . فقد كان الجنرال ماركوف والعقيد

نيجينتسيف من ضباط ذلك الجيش يعرفانه شخصيا . وكان في امكانه ان يخبرهما بمعلومات قيمة عن مواقع واوضاع الوحدات الحمراء . ولكن الاهم من ذلك ان يشعر بانه بين جماعته ، وان يلقي عن وجهه قناعه اللعين ، ويتنفس اخيرا بملء رئتيه ، ويبصق مع جمع الرصاص نفثة كرهه الدامية في وجه اولئك «الحمقى المخدوعين ، والمتوحشين المستهترين» ...

— احسن الأمر التعبير بشأن الكحول . اننا نصخب كثيرا . وقد قمنا بضجة هائلة ، وحين نفكر في الأمر نجد انفسنا في ورطة من التفكير .

قال شخص زري الهيئة في فروة خروف برز صوفها من تحت ابطه وعلى ظهره ، وجلس على المصطبة قرب روتشين . وطلب منه تبغا قائلا :

— انا أدخن الغليون كالعجائز ، يا صاحبي . (وادار وجهه الماكر المخشوشن بلحيته الناصلة وعينيه المتقلصتين .) كنت اشتغل في مخازن الحبوب عند تجار في نيجني نوفغورود ، فتعودت عند ذاك على تدخين الغليون . انا احارب منذ عام ١٩١٤ ، ولا استطيع ان اتوقف . تلك هي مشكلتي ، يا أخ ، محارب مزمن ، والله العظيم .

قال روتشين في غير ما رغبة :

— آن لك ان تستريح .

— استريح ؟ واين هذه الراحة ؟ انت ، يا فتى ، من الاغنياء كما ارى . لا ، لن اترك القتال . لقد شبعت مصائب من البرجوازيين ! انا اشتغل عند الاغنياء منذ ان كان عمري ستة عشر عاما ، وطوال ذلك الوقت وانا حارس . ترقيت الى سائق عربة عند تجار آل فاسينكوف — وربما سمعت بهم — ولكن اضررت بزوج رمادي من خيولهم ، من الخيول الاصلية ، بان تركتهما خطأ يعبان ماء كثيرا . نعم ، ارتكبت خطأ ، فطردوني بالطبع . وولدي قتل ، وزوجتي توفيت منذ زمان . والآن حدثني في سبيل من احارب : في سبيل السوفييتات ام في سبيل البرجوازيين ؟ انا رجل ذو معدة مملوءة ، وحذائي هذا قد اخذته من احد الموتى في الاسبوع الماضي . حذاء لا تنفذ اليه الرطوبة . شيء ممتاز . وكل

عملي ان اطلق النار ، وبعد المعركة اجلس قرب المرجل . اننا نحارب منذ الآن من اجل قضيتنا نحن ، يا فتى . والفقراء ، المساكين ، والذين من حظهم البؤس والشقاء هم الذين يؤلفون جيشنا . اما الجمعية التأسيسية فقد رأيت من انتخبوا اليها في نيجني نوفغورود — المثقفين والشيوخ القساة .

— تعلمت تدوير لسانك بمهارة .

قال روتشين ، وقد اختلس نظرة الى محدثه . وكان يدعى كفاشين . وكان قد قضى معه اسبوعا كاملا في عربة قطار واحدة ينام الى جانبه على الرف العلوي . وكان ركاب العربة يدعون كفاشين بـ«الجد» . وكان يجلس ومعه جريدة اينما امكنه ذلك ، يضع على انفه الناحل نظارة انفية ذهبية ، ويقرأ بصوت خفيض . قال يروي حكايتها : «حصلت على هذه النظارة الانفية في سامارا بموجب قرار تمليك . وكان المليونير باشكيروف قد اوصى بها لنفسه . ولكن انا الذي استخدمتها» .

ورد على روتشين :

— صحيح ما قلته . انني تعلمت تدوير لساني . لم افوت اجتماعا واحدا . وكلما دخلت محطة قطار قرأت كل المراسيم والقرارات وكل شيء . فالكلام هو قوتنا البروليتارية . فماذا كنا نساوي لو كنا صامتين وبلا وعي ؟ مجرد سمكة صغيرة !

واخرج الجريدة ، ونشرها بعناية ، ووضع نظارته الانفية بروية ، واخذ يقرأ المقال الافتتاحي ناطقا بالكلمات وكأنها كتبت بلغة غير روسية .

«... تذكروا انكم تقاتلون في سبيل سعادة جميع الشغيلة والمستثمرين ، انتم تقاتلون في سبيل الحق في بناء حياة عادلة ، حياة افضل ...»

استدار روتشين ولم يلحظ ان كفاشين كان ينطق بهذه الكلمات ، وهو يتفرس فيه من فوق نظارته الانفية . قال كفاشين بصوت مختلف تماما :

— والظاهر انك ، ايها الفتى ، من الاغنياء . لم تعجبك قراراتي . ألعلك جاسوس ؟

من محطة آفيبسكايا سار طابور فوج فارنافسكى ماشيا الى قرية نوفو – دميتروفسكايا . وفى ظلام منتصف الليل كانت الريح تصفر بين الحراب ، وتعبث فى الثياب ، وتقذف الوجوه بخرز الجليد . كانت الاقدام تغطس خلال طبقة صلبة من الثلج ، وتصل الى الوحل اللزج . ومن خلال ضجيج الريح ترددت صيحات : «قف ! قف ! اخف ! لا تضغط ، شياطين !»

كان القرس ينفذ من خلال المعاطف الخفيفة ، ويصل حتى العظام . فكر روتشين مع نفسه : «فقط الا أقع . والا فستكون نهايتى . ستدوسنى الاقدام . . .» وكانت اكثر الاشياء تعذيبا له هى هذه الوقفات والصرخات فى المقدمة . والظاهر انهم ضلـــوا طريقهم ، وراحوا يتجولون على حافة شىء يشبه منخفضا او نهيرا . تردد صوت متقطـع وكانه يودع : «يا اخوان لا استطيع ان اقـاوم اكثر» . وفكر روتشين : «اهذا صوت كفاشين ؟ كان طوال الوقت يسير الى جانبى . حزرلى . لم يصدق بكلمة واحدة من كلماتى» . (وقد تنصل روتشين منه بجهد يوم أمس) . توقف الذيــــن فى المقدمة مرة اخرى . ارتطم انف روتشين بظهر شخص بمعطفــه المتجمد . وفكر ، مع نفسه واقفا ويداه المتثلجتان محشورتـــان داخل كميه وراسه مطرق «اربع سنوات وانا اغالب التعب ، وقد قطعت آلاف الفراسـخ من اجل ان اقتل . ان ذلك مهم جدا وذو شان كبير . اما ان اسىء الى كاتيا واتركها فذلك اقل شانا . غدا او بعد غد سانتقل الى الجانب الآخر ، وفى مثل هذه العاصفة الثلجيـــة سأتحول الى قتل الروس . غريب . كاتيا تقول اننى رجـل شريف وطيب . ذلك غريب ، غريب جدا» .

وانتبه بفضول الى دوران هذه الافكار فى راسه . ثم انقطعت . فكر : «شىء سيىء يعنى اننى اتجمد . تمر فى ذهنى الافكار الرئيسية الاخيرة . اذن ، ساستلقى الآن على الثلج» .

الا ان الظهر المتجمد امامه قد ترنح ، وسار . فترنح روتشين مثله وسار وراءه . الآن صارت رجلاه تغوصان الى الركب ، وكان الحذاء الثقيل يخرج من الطين بجهد . حملت الريح جزءا من صيحة : «نهر ، اولاد . . .» وتردد سباب . . . والريح ما زالت تصفــر بين الحراب مثيرة الافكار الغريبة . مرت به شخوص غامضـــة

محدودبة . استجمع روتشين قواه ، وسحب قدمه بأنين ، ومضى فى سيره بصعوبة .

كان سيل بنى يبرز خطا اسود على الثلج ، والى ابعد من ذلك كان كل شىء محجوبا بالثلج المتطاير . كانت الاقدام تنزلق على المنحدر . والماء الداكن ينطلق مزمجرا . وصيحات :

– انغمر الجسر بالماء . . .

– يعنى نرجع ؟

– من قال نرجع ؟ أنت ؟ انت الذى قلت ؟

– اتركنى ، يا رفيق ، اتركنى .

– اضربه بالاخمص . . .

– أوى . . . اوى . . . اوى . . .

وفى الاسفل وراء حافة الشاطىء شب مخروط ضوئى مـــن فانوس كهربائى . وبان قوس الجسر مغمورا بماء رمادى منطلق بشدة ، وقطعة مكسورة من الدرابزين . وارتفع الفانـــوس الى الاعلى ، ورسم منحنيات ضوئية ، وانطفأ . وقال صوت مبحـــوح رهيب :

– فصيلة . . . عبوا ! . . البنادق والعتاد على الرؤوس . لا تتدافعوا . . . اثنين اثنين . . . هيا !

رفع روتشين البندقية ودخل الماء حتى خصره ، ولم يكن الماء باردا برودة الريح . كان يضرب جنبه الايمن بقوة ، ويدفعه ، محاولا أن يجرفه فى هذا الظلام الرمادى المبيض ، فى الدوامة . كانـــت قدماه تنزلقان وهما لا تكادان تتحسسان الواح الجسر المحطم .

كان فوج فارنافسكى قد ارسل الى قرية نوفو – دميتروفسكايا لتعزيز القوات المحلية . وقد خرج اهل القرية جميعهم لحفـــر الخنادق ، وحصن مقر ادارة القرية وبعض البيوت ، ونصبـــت الرشاشات . وكانت المدفعية الثقيلة قد وضعت جنوبا فى قريـــة غريغوريفسكايا . وفى تلك المنطقة نفسها كان يرابط الفوج الثانى لشمال القفقاس تحت امرة دميترى شيليست الذى ظل يلاحـــق جيش المتطوعين ابتداء من روستوف . وفى محطة آفيبسكايا غربـا توجد حامية ومدفعية وقطارات مدرعة . وكانت قوات الحمر موزعة

على رقعة واسعة وهو أمر لا يجوز فى مثل هذه الارض الموحلة وانعدام الطرق .

عند المساء عبر الساحة الى مقر ادارة القرية فارس قوزاقى ملطخ بالثلج الرطب والوحل . وتوقف عند مقدمة البيت . كان البخار ينبعث من جنبى حصانه المنتفخين :

– اين الرفيق الآمر ؟

خرج عدة اشخاص الى مقدمة البيت يزررون معاطفهم على عجل . وظهر سابوجكوف فى فروة الفرسان شاقا طريقه بينهم :

– أنا الآمر .

التقط القوزاقى انفاسه ، وانحنى على القربوس ، وقال :

– رجال نقطة الحراسة قتلوا جميعا . تخلصت أنا وحدى .

– وماذا بعد ؟

– بعد ؟ توقع مجىء كورنيلوف ليلا بكل قوته . . .

وتبودلت النظرات فى مقدمة البيت . كان بين الواقفين فيها شيوعيون وهم منظمو الدفاع عن القرية . نشق سابوجكوف من منخريه ، تغضن لغده وقال : «انا مستعد ، فكيف انتم ، يا رفاق؟ . .»

اخذ القوزاقى الذى ترجل عن فرسه يقص كيف قتل الجركس من لواء الجنرال اردبلى جميع افراد نقطة الحراسة . تجمع عند مقدمة البيت حشد من الجنود والقوزاقيات والصبيان يصغون الى الراوى صامتين .

وتقدم روتشين ايضا ، وقد غطى راسه وعنقه بقلنسوة صوفية . لقد استطاع فى الليل ان ينال قسطا من النوم ويجفف ملابسه فى بيت حار منتن حيث كان زهاء خمسين من الجنود الحمر يرقدون على الأرض بين الطاقات والثياب المبتلة . وفى الفجر خبزت ربة البيت خبزا ، وقطعته بنفسها ، ووزعته قطعا على الجنود :

«ابذلوا يا جنود جهودكم لتمنعوا الضباط من دخول قريتنا» .

فرد الجنود على ربة البيت الشابة :

«لا تخافى شيئا . . . خافى من شىء واحد . . .»

ونطقوا بكلمة جعلتها تلوح عليهم برغيف من الخبز . «يا لكم من ثيران . . . حتى وانتم امام الموت لا يغرب ذلك عن بالكم . . .»

كانت مسيرة الليلة البارحة قد خلفت فى روتشين انحلالا وألما مضنيا يعتور جسمه كله . الا ان قراره كان قاطعا . منذ الصباح كان يحفر الارض المتجمدة فى حدائق الخضروات . ثم كان يحمل صناديق الذخيرة من العربات الى مقر ادارة القرية . وفى الغداء وزع على كل فرد قدح من الكحول فازال هذا السائل اللاهب شعور الانحلال من جسمه ، وادفأ عظامه ، فقرر ان يقضى امره اليوم دون تأجيل .

وها قد وقف الآن قرب مقدمة ادارة القرية باحثا عن فرصة يسأل فيها الخروج الى نقطة الحراسة الامامية . وكان قد حسب لكل شىء حسابه الى حد كتافيتى النقيب التى خاطها داخل قميصه على صدره . وحصل ما توقع . نزل البحار الركين الذى كان واقفا مع سابوجكوف من مقدمة البيت ، واخذ يدعو الراغبين الى تادية امر خطر ، قائلا بصوت حديدى :

– يا اخوان ، من لا يبخل بحياته . . .

وبعد ساعة كان روتشين قد غادر القرية مع فريق مؤلف من خمسين مقاتلا متجها الى واد ملفع بضباب كثيف . هبط ظلام رطب . وكف الثلج عن النزول ، كانت الريح الدافعة تصفع الوجوه بقطرات كبيرة من المطر . سار الجنود بلا طريق مخوضين فى ماء شامل ، وكانهم يعبرون بحيرة ، متجهين نحو التلال ، حيث كان يجب ان يحفروا خنادق .

لمعت ومضة ضوء فى الغبش الصباحى الرطب . ثم دمدمة زغول ، وتلاشى . . . واعقب ذلك فى الحال ازيز رصاص غير نظامى على التلال وشاطئ النهر . ثم ومضة ضوء اخرى ، واطلاقة مدفع ، ولعلع رشاش فى الامام ، فى غمامة الضباب .

ان كورنيلوف يتقدم . كانت وحداته الامامية قد وصلت الى ذلك الشاطئ من النهر . وخيل لروتشين انه لمح شخصين او ثلاثة يركضون منحنى الظهور عند الماء تماما متجهين الى اجمة . وخفق قلبه . اخرج جسمه من الخندق الصغير الذى حفر على منحدر الشاطئ .

كان النهر الكدر ذو اللون الاصفر المخضوضر ينطلق فى

دوامات عالية بين الشاطئين . والى اليسار ، فى وسطه كان الجسر يرى مغمورا فى الماء الى النصف . وقد طلع عليه من النهر زهاء عشرين شخصا من تلك الشخوص الغامضـــة المنحنية الظهور ، وعبروا عليه ، كانت النار تطلق على النهر والجسر من التلال بلا نظام ، وبتتابع متزايد . وعلى مقربة دانية على الضفة المقابلة من النهر اندلع لسان طويل من اللهب منبعث من مدفع . انفجـــرت قنبلة شرابنيل فوق الخندق الذى يقبع فيه روتشين . ونهضت شخوص رمادية وسوداء من وراء قوس الجسر ونزلت الى معبر النهر وتناثرت متراكضة زاحفة على عجيزاتها ، متدحرجة ، عاوية . كانت جميعها تحمل كتافيات بارزة كالخطوط .

ضربة مدفع مرة اخرى ، وهدير متقطع فوق الخندق . وان صوت : «اوى ، اوى ، يا اخوان . . .» لهج شخص من خلال ازيز الرصاص :

— انهم يطوقوننا ! . . يا اولاد ، تراجعوا !

وشعر روتشين بدنو الدقيقة المرتقبة ، انطرح بسرعـــة ، وظل بلا حراك . وتردد فى راسه : «لا يوجد منديل ابيض ، يجب ربط قطعة قميص على حربة ، وتصيح ، بالفرنسية حتما . . .» سقط شخص ثقيلا على ظهره ، وانطرح عليه ، وطوقه من رقبته ، وانشب اصابعه فى حنجرته ناخرا . قفز روتشين محاولا النهوض ، وراى من وراء كتفه وجها مدمى وعينا جاحظة صهباء ، وفما فاغرا لا اسنان فيه . كان كفاشين هذه المرة ايضا . كان يردد وكانه فى نوبة من الغيبوبة :

— انك تصلى لله ، لانك رايت جماعتك . . .

دفعه روتشين عن ظهره ، ونهض بكل قامته ، وترنح . تشبث كفاشين بكتفيه كالعلقة . كافح روتشين ليحرر نفسه ، وانقذف على متراس الخندق ، وانشب اسنانه فى الفروة النتنة بجنون . واحس بأن كوعيه وركبتيه اخذت تنزلق على الطين السائل . كانت حافة المنحدر على بعد خطوة ونصف .

— اتركنى !

زمجر روتشين اخيرا . انهارت الارض تحت قدميه فتدحرج مع كفاشين على المنحدر نحو النهر .

كان دوى المدافع يملأ الارجاء كلها ، وتهتز الارض مـــن الانفجارات . كانت قوات الجيش الرئيسية تعبر النهر . وكانت المدافع من قرية غريغوريفسكايا تضرب المعابر . وكانـــت القنابل تسقط فى ارجـــاء الحقل الثلجـــى . وحين كانت تقـــع فى النهر كانت تثير نوافير من الماء .

كان مشاة البيض يعبرون النهر وكل اثنين مع حصان واحد . وكانت الخيول تتراجع وهى تنزل الى النهر السريـــع الجريان ، فكانوا ينخسونها بالحراب . انحدرت عربة مدفع من على الشاطئ الزلق الشديد الانحدار مندفعة بقوة . وغطس المدفع تحت المـــاء مترنحا من جانب الى جانب . وكان الحوذية يضربون الخيـــول الهزيلة بالسياط حتى استطاعت ان تجره على نحـــو ما على قوس الجسر الغريق جزئيا فى طرفيه . وكانت القذائف تتساقط وتنفجر ، ويفور الماء . شبت الخيول على قوائمها الخلفية ، وتشربكت سيورها .

تركيت عجلات المـــدافع الرشاشة منحدرة مـــارة بالجسر الى النهر ، وطافت ، ودارت . وانقلبت احداها ، وحملها التيار مع خيولها ورجالهـــا ، فتعلق الرجال بالعجلات . وهبطت قنبلـــة من السماء على هذا الخليط مرسلة فى عمود عال من الماء شظايا من الخشب ، وقطعا من الابدان الممزقة .

وعلى الشاطئ كان شخص صغير الجرم قصير اللحية فى سترة من قماش الفانيلة البنى ، وقبعة فرائية بيضاء غاطسة فى راسه يدور على حصانه الهزيل القذر . كان يصرخ بصـــوت عال عصفورى ملوحا بسوطه مهددا . انه الجنرال ماركوف المشرف على عبور النهر . وقد حيكت حول شجاعته حكايات خيالية .

كان ماركوف من اولئك الذين قاتلوا فى الحرب العالميـــة الاولى ، وقد سممتهم الى الابد انفاسها المنحوسة . وكان يبدو انه يجد متعة لا تعادلها متعة اخرى حين يمتطى صهوة جواده ومنظاره على عينيه ، او يكون شاهرا سيفه فى الصف المهاجم وهو يقود لعبة القتال الرهيبة . وفى آخر الامر صار فى مستطاعه ان يحارب ايا

كان ، ولأى غاية كانت . تعبأ ذهنه ببعض الصيغ الجاهزة عـــن الرب والقيصر والوطن . وكانت له حقائق مطلقة لا حاجة معها الى مزيد . وكان كلاعب الشطرنج اذا لعب لا يرى من رحاب العالم ، غير حركات البيادق على الرقعة .

كان طموحا متعاظما شديدا وغليظا على مرؤوسيه . كان يثير الرعب من بين رجال جيشه . والكثيرون يشعرون بالحزازة ازاء هذا الرجل الذى لا يرى فى الناس غير بيادق شطرنج . الا أنه كان شجاعا ، وحسن المعرفة بتلك اللحظات الحرجة من المعركة حيث كان من الضرورى للقائد ان يداعب الموت لانتصار المعركـــة طالعا بصفوف عساكره الى الأمام تحت وابل الرصاص والسوط فى يده .

استمر عبور النهر عدة ساعات . ولفت العاصفة الثلجيـــة النهر والشواطئ من جديد ، واشتد عصف الريح متجهة نحـــو الشمال . وبرد الجو بسرعة . كان روتشين يرقد مخلوع الكتف تحت منحدر الشاطئ قرب الماء ، وقد فقد الأمل منذ وقت طويل فى ان يلحظـه احد . ورغم الألم الذى يلذع كتفـه اخرج كتافيتيـه من وراء قميصه ، واستطاع أن يثبتهما على نحو ما على قميصـــه بدبابيس ، وخلع النجمة الخماسية من طاقيته . وكان النهر قد جرف جثة كفاشين منذ وقت بعيد ، والجرحى يتناثرون فى كـــل مكان ، ولا يلتفت اليهم .

لم يتوقف الجيش بعد عبوره النهر ، وزحف فى معركة باتجاه قرية نوفو-دميتروفسكايا . جمدت ثياب العساكر عليهم ، وتغطت بطبقة من الجمد . وتصلبت الارض تجمدا ، ورنت عليها سنابك الخيول والعجلات ، وتمزقت الاحذية على الركام والحفر ، وتجرحت الاقدام . رفع بعض الجرحى اجسامهم ، وزحفوا على الشاطئ الحاد الانحدار معرجين بجهد ، ومنزلقين . شعر روتشين بان رجليـــه تتجمدتان ملتصقتين بالارض . كز على اسنانه (كان الألم يسرى فى كتفه وركبته المحطمة) ورفع جسمه ايضا ، وسار فى اثر الجرحى . لم يلتفت احد اليه . اقتضاه الصعود الى أعلى منحدر النهر جهدا كبيرا . وهناك ، فى الأعلى كانت العاصفة الثلجية تعول ، والرصاص يئز . كان رجل محدودب فى معطف ضباط متجمد وقلنسوة يجرجر

نفسه امامه ، فاذا به يندفع فجأة الى جانب ويسقط . فلم يكن من روتشين الا ان زاد من انحناءة قامته متغلبا على عصف الـــريح ، ومضى فى سبيله .

جثة حصان ميت مدفون فى الثلج ، وقد تصلبت الى الأعلى رجله الخلفية . وعند مدفع مهجور وقف حصانان بائسان هزيلان وقد انزلا بوزيهما الى الأرض ، وقد جمدت جنباهما ، وتكونت كومتان من الثلج على ظهريهما . بينما كانت الرشاشات تلعلــع الى الامام بمزيد من الاصرار والوعيد . لقد قاتل جيش المتطوعين ليمضى ليلته هذه فى بيوت دافئة لا أن يموت فى حقل تعصف به الزوبعة الثلجية .

كانت المدفعية فى قرية غريغوريفسكايا تضرب المهاجمين . الا ان الوحدات الحمراء الاخرى والاحتياطات من محطة آفيبسكايا لم يلحقـوا فى المعركة . ولم يتلق الفوج القفقاسى الثانى امـــرا بالهجوم الا بعد طرق فوج فارنافسكى فى قرية نوفو-دميتروفسكايا ، وكان يقتل فى اشتباكات بالسلاح الابيض فى الشوارع . سار الفوج القفقاسى الثانى عشرة فراسخ عبر مستنقعات واراض مغمورة بمياه الفيضان ، وخسر فصيلة كاملة غرقا وتجمدا ، وضرب مؤخـــرة البيض ممكنا بقايا فوج فارنافسكى من خرق الحصار .

وحدث عند البيض ايضـــا مثل هذا الاضطراب والبلبلـــة . تصلبت فصيلة بوكروفسكى الكوبانية ، ولم تسر خلال المستنقع ، وكان قد اوكـــل اليها مهاجمة القرية من الجنوب . كمـــا أن بوكروفسكى الذى تسلم رتبة الجنرالية من حكومة كوبان لا من القيصر قد تلقى اهانة قاسية من الجنرال الكسييف اثناء الاجتماع الحربى ، حين قال له بازدراء ارستقراطى : «كفى ، يا عقيـــد ، اعذرنى ، لا اعرف الآن كيف ادعوك ...» وبسبب «العقيد» هذا لم يرد بوكروفسكى ان يسير خلال المستنقع . كما ان فصيلـــة الخيالة بقيادة الجنرال ارديلى التى ارسلت لتطويق القرية مـــن الشمال لم تستطع عبور منخفض مغمور بالماء . فعادت ليلا لتعبر من المعبر العام .

كان فوج الضباط اول من وصل الى قرية نوفو-دميتروفسكايا . زحف الضباط المتجمدون المهتاجون ، المقاتلون القدامى ، الرائحة

البيتية للروث المجفف المحروق والخبز الطازج ، ورأوا الضوء الدافئ في النوافذ . فزحفوا عبر خليط الثلج والوحل ، دون انتظار التعزيزات ، عبر الماء الغامر المغلف بطبقة رقيقة من الجمد . ولوحظوا وهم على مشارف القرية ، فانطلقت عليهم النيران من رشاشات . هجم الضباط بالحراب . وكان كل واحد منهم يعرف كيف وماذا يجب ان يفعل في كل ثانية . وكانت قبعة ماركوف البيضاء تلمع في كل مكان . لقد كانت معركة ضباط نظاميين مع جمهرة من الجنود المقادين قيادة ضعيفة ، والمنظمين بانضباط سيئ .

واندفع الضباط الى القرية واشتبكوا في مناوشات بالسلاح الابيض في الشوارع مع جنود فوج فارنافسكي والانصار . وفي الظلام والخلط طُعِنَ جنود الرشاشات او نسفوا بالقنابل اليدوية ، وهم وراء رشاشاتهم . وتلقى البيض تعزيزات مستمرة ، فاستطاعوا تطويق الحمر ، فتراجع هؤلاء الى ساحة القرية ، حيث كانت اللجنة الثورية تقيم في مقر ادارة القرية .

كان الرصاص ينطلق من كل مخبأ ، والقتال يدور في كل مفرق . وجاءت عربة المدفع منطلقة في نافورة من الوحل ، واستدارت عند حافة الساحة ، ووجهت ماسورتها نحو واجهة مقر الادارة . وتفجرت القذيفة بقرقعة مرنة . واخذ الناس يقفزون من نوافذ البيت ، وانتشر دخان اصفر . واصابت نيران المدفع صناديق الذخيرة فاخذت تتفجر .

وفي تلك اللحظات بالذات كان الفوج القفقاسي الثاني يطلق النار من الشرق على المهاجمين . وسمع جنود فوج فارنافسكي بالقتال في مؤخرة العدو فشد ذلك من عزيمتهم . اختطف سابوجكوف راية الفوج من حامل الراية وقد بح صوته من الصراخ والسباب ، وكانت ملفوفة بقطعة من المشمع ، ولوّح بها ليفكها ، وعبر الساحة الى اشجار الحور العالية المتمايلة ، حيث كان البيض اكثر تجمعا . اخذ رجال فوج فارنافسكي يخرجون من وراء البوابة والاسيجة ، وينهضون من الأرض ، ويتقاطرون من كل جهة ، مهيئين حرابهم الى الامام ، وخرقوا الحصار ، وخرجوا من القرية صوب الغرب .

قضى روتشين تلك الليلة في عربة مهملة بعد أن أنزل منها جثتين متجمدتين ، وغطى جسمه بالتبن . كانت المدافع تقصف طوال الليل ، وقنابل الشرابنيل تتفجر فوق قرية نوفوديميتروفسكايا . ومنذ الصباح اخذت عربات جيش المتطوعين تتجه الى هناك ، بعد قضاء ليلة في قرية كالوجسكايا . خرج روتشين من العربة ، وسار وراء العربات . وكان من شدة الانفعال لا يشعر بالألم .

كانت الريح ما تزال تهب شديدة ، ولكن من الشرق هذه المرة مبددة السحب الثلجية والممطرة . وفي نحو الساعة الثامنة صباحا ظهرت السماء المجلوة الزرقاء من خلال قطع الغيوم المتحركة الى الاعلى بسرعة . وسقط ضوء الشمس باشعة حارة مستقيمة كالسيوف . واخذ الثلج يذوب . والسهب يعتم سريعا ، مخططا باشرطة زمردية للنباتات البارضة واشرطة صفراء لجذامات الحصاد . والتمعت المياه ، وترقرقت الجداول مسرعة في الاخاديد التي خلفتها العربات على الطرق . وجفت الجثث على الاكمات ، ناظرة بعيونها الميتة الى السماء اللازوردية .

— انظر ، انه روتشين . وحق الرب ! روتشين كيف جئت الى هنا ؟

هتفوا بذلك من عربة مارة . التفت روتشين . كان ثلاثة اشخاص رؤوسهم ملفوفة ، واذرعهم مرفوعة على شيالات يجلسون في عربة ملطخة محطمة يسوقها قوزاقي مدلهم السحنة يلقى على كتفيه فروة خروف رثة . حيا أحد هؤلاء روتشين بهزات عديدة من رأسه ، وانفرجت شفتاه المتشققتان عن ابتسامة . كان رجلا طويلا هزيلا تبدو رقبته مشرئبة من تحت ياقته . لم يكد روتشين يتعرف عليه زميلا له في الفوج يُدعى فاسكا * تيبلوف كان آنذاك مورد الوجنتين مرحا يهوى النساء والخمرة . سار صامتا الى العربة وتعانق معه وقبّله قائلا :

— قل لي ، تيبلوف ، الى مَنْ يجب ان اتوجه ؟ من هو رئيس

---

* صيغة لاسم فاسيلي — المترجم .

هيئة الاركان عندكم ؟ انظر الى كتافيتي ، قد شددتهما بدبابيس . عربت الى جانبكم يوم امس فقط .

— اصعد . قف يا سافل !

صاح تيبلوف على السائق . دمدم القوزاقي ، الا انه اوقف العربة . صعد روتشين فى ركن العربة ، ودلى ساقيه فوق عجلتها . كانت رحمة إلهية ان يركب فى عربة تحت شمس حـارة . وروى مغامراته منذ خروجه من موسكو بلهجة جافة كلهجة تقرير . سعل تيبلوف قليلا وقال :

— سأذهب بنفسى معك الى الجنرال رومانوفسكى ... نصل الى القرية ، ونتناول طعاما ، واقضى شغلك فى لمح البصر ... يا عجيب ! تريد ان تظهر امام الرئاسة راسا فتقول : قد عربت من عصابة الحمر ، ولى الشرف فى الحضور ... انت لا تعرف جماعتنا . لن يدعوك تصل الى هيئة الاركان .. يطعنونك ... انظر ، انظر — واشار الى جثة طويلة فى معطف ضابط — انه ميشكا * ، البارون كورف ... واتته المنية ... لعلك تذكره ... كان فتى رائعا ... اسمع ، هل معك سكائر ؟ اوه ، ما اجمل الصباح ! بعد غد ، يا عزيزى ، سنتصل الى يكاترينودار . وننام على اسرة ، ثم نخرج الى البولفار ! موسيقى ، وأوانس ، وجعة !

وضحك ضحكة عالية بهيجة . وتجعد وجهه السقيم المسحوب حتى العظم ، وتوهجت على وجنتيه بقع الحمى .

— وهكذا ستكون فى روسيا كلها موسيقى ونساء وجعة . سنستريح شهرا فى يكاترينودار ، وننظف انفسنا ، ثم الى التنكيل ... ها — ها ! لسنا حمقى الآن ، يا عزيزى . كسبنا بالدم امر التصرف بالامبراطورية الروسية . سنريهم ما هو النظام ... السَفَلة ! انظر اليه ميتا — واشار الى منحدر ساقية حيث كان يرقد رجل فى سترة من فراء الغنم ممددا بشكل غير طبيعى — لا بد انه واحد من امثال دانتون ** عندهم ...

* شيفة لاسم ميخائيل . — المترجم .

** دانتون جورج جاك ، شخصية بارزة فى الثورة الفرنسية البرجوازية فى اواخر القرن الثامن عشر . — المترجم .

لحقت العربة عجلة مخلخلة من الاغصان المضفورة . كان فيها رجلان ملطخان بالوحل ، وقد القيا ياقتى معطفيهما الى الوراء ، وقبعتاهما الفرائيتان مبللتان . كان احد الرجلين ضخما ذا وجه داكن مرتخ ، والثانى ذا لحية رمادية مرسلة . وانتفاخين تحت عينيه ، وقد وضع ممسك سيكارة طويل فى زاوية فمه الرخو .

قال تيبلوف ، وهو يومىء برأسه عليهما :

— حماة الوطن . ولكن سنتحمل من قلة الخيل .. ينفعون .

— السمين هو غوتشكوف على ما يبدو . صحيح ؟

— نعم ، هو ، وسيعدم رميا فى وقته ، يمكن ان تطمئن ... اما الذى يضع ممسك السيكارة فى فمه فهو بوريس سوفورين ، وهو ايضا من قلة الخيل .. يبدو انه من انصار القيصر . ولكن ليس بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ! انه مراوغ ، ولكنه صحفى قدير ... لن نعدمه ...

دخلت العربة القرية . بدات البيوت وراء الحدائق الصغيرة مقفرة . وما تزال بقايا الحرائق ترسل دخانا . وقد تناثرت بعض الجثث التى غطست فى الوحل الى النصف . كانت طلقات منفردة تتردد هنا وهناك . انهم يقضون على الاغراب الذين لجأوا الى كوبان من المناطق الاخرى والذين اخرجوا من السراديب والشونات . كانت العربات تقف فى الساحة بلا نظام . وكان الجرحى يصيحون من عربات نقلهم . وكانت الممرضات يتنقلن بين العربات معذبات مذهولات بسبب التعب فى معاطف جنود قذرة . ومن الفناء ارتفع صياح يشبه صياح حيوان وضربات سياط . وكان الخيالة يعدون على خيولهم . وعند احد الأسيجة جماعة من طلاب المدارس العسكرية يشربون الحليب من جردل صفيح .

كانت الشمس تشع بمزيد من السطوع والحرارة فى اعماق السماء الزرقاء المكشوفة للريح . ومن خشبة بين شجرة وعمود تلغراف تدلت مترنحة مع الريح جثث ملتوية الرقاب اقدامها العارية مدلاة بمقدماتها نحو الأرض . انها جثث سبعة من الشيوعيين اعضاء فى اللجنة الثورية والمحكمة العسكرية .

وجاء آخر يوم من حملـــة كورنيلوف . ظلـل المستطلعون الفرسان عيونهم باكفهم اتقاء الشمس ، ورأوا فى الضباب الصباحى قباب يكاترينودار المذهبة وراء نهر كوبان الكدر .

كانت مهمة وحدة الخيالة الصدامية أن تنتزع من الحمر المعدية الوحيدة الموجودة فى تلك الاماكن لعبور نهر كوبان بالقرب من قرية يلزافيتينسكايا . وكان ذلك خديعة جديدة لكورنيلوف . فقـد كان من الممكن ان يتوقعوه من الجنوب ، من ناحيـــة قريـــة نوفو - دميتروفسكايـا ، ومن الجنوب الغربى على خط نوفوروسييسك - يكاترينودار الحديدى . اما ان يختار اخطر إلتفافة غرب المدينـة ، فى مكان لا جسور فيه ، بل معدية واحدة يعبر عليها جيش كامل عبر مياه كوبان السريعة الجريان ، قاطعا بذلك كل امكانية للتراجـع ، فانـــه تكتيك لاجتياح المدينة لـــم يكن من الممكن ان يتنبأ به افتوتوموف رئيس هيئـة اركان القوات الحمراء . ولكن كورنيلوف الماكر مثل ثعلب عجوز اختار هذا الطريق بالذات ، لأنه اقل حماية ، ويتيح راحة من القتال ليومين او ثلاثة ايام ، و يخرج بالجيش الى بساتين وحدائق يكاترينودار مباشرة .

سُدّ النقص فى الذخيرة عند احتلال محطة آفيبسكايا على الخط الحديدى ، حيث نسف جيش المتطوعين سكة الحديد ليأمنوا انفسهم من نيران القطارات المصفحة . ومع ذلك فان رشاشات احد قطارات الحمر اصابت جناح المهاجمين الذين كانوا يخوضون فى ماء موحـل كثيف بعد ذوبان الثلـــج . وعندمـا كان شريط الرصاص ، وهو يرفـع نوافير الماء ، يصطدم بهـم كانوا يسقطون على الماء كالبط غاطسين برؤوسهم ، ثم يخرجون رؤوسهم ويتراكضون . دافعت حامية محطة آفيبسكايا دفاع المستميت . الا أن الحمر كانوا فى حالة ميئوسة ، لأنهم كانوا فى موضع دفاع فقط ، وكان العدو يهاجم .

وكانت وحدات جيش المتطوعين تطوق المحطة وتحيطها ببطء وبصفوف ملتوية . كانت الشمس تغمر الوادى الازرق . وقد طلعت من سطح الماء الاشجار واكوام القش وسطوح الضياع ، بينما كانت ظلال غيوم الربيع يطارد بعضهـا بعضـا عبر مياه الفيضان . كان كورنيلوف بسترتـــه الفرائيـــة ، وكتـافيتى الجنرال الناعمتين ، وبالمنظار والخارطـة يتقدم بجواده هيئة اركانـه فى ذلك المنبسط

الصقيل . كان يعطى الاوامر لمرافقيـه الذين كانوا يعدون ممتطين افراسهم الهزيلة فى طرطشة من الماء . وذات مرة وقع تحت النار ، وجرح الجنرال رومانوفسكى الذى كان يسير الى جانبه جرحا خفيفا .

حين تم إلتفاف حول المحطة من الغرب ، وبدا الهجوم العام ، وساط كورنيلوف حصانه بمقرعته ، وتوجه خببا باتجاه المحطة مباشرة ، اذ لم يكن يشـــك فى النصر . وهنـــاك بين الخطوط الحديدية ، والقطارات المهجورة وبنايات السكك والعنابر والمخازن كانت القوات المقتحمة تفتك بالحمر . وكان ذلك آخر نصر لجيش المتطوعين وادماه .

هرع العقيد نيجنتسيف المورد الخدين الفَتوى الى كورنيلوف منفعلا قافزا بين الجثث ، وابلغـــه ونظارته الانفيـــة تلمع فوق عينيه :

- يا صاحب السيادة ، احتلت محطة آفيبسكايا .

فاسرع كورنيلوف يقاطعه بنفاد صبر :

- وهل استوليتم على القذائف ؟

- نعم ، يا صاحب السيادة ، سبعمائة قذيفة ، واربع عربات من الخراطيش .

- حمدا لله ! حمدا لله . . .

ورسم كورنيلوف علامة صليب عريضة ، فخدش ظفر خنصره معطفه المتصلب .

عندئذ اشار نيجنتسيف له بعينيـه الى حشـد من الصداميين واقف عنـد المحطـــة . انهـــم فوج خاص من السفاكين المغامرين يضعون على اكمامهـم مثلثا من ثلاثة الوان . كانوا يقفون معتمدين على بنادقهم ، وكانهم بعد صعودهم فى جبال حادة الانحدار . تجمدت وجوههم فى تكشيرة الجنون المتعبة ، وكانت ايدى ووجوه الكثيرين منهم مدماة ، وعيونهم عائمة .

- انقذوا الوضع مرتين ، وكانوا أول المهاجمين ، يا صاحب السيادة .

- طيب !

ضرب كورنيلوف حصانه ، وعدا عليه بكامل سرعته ، رغم ان المسافة لم تكن كبيرة ، ووصل الى الصداميين (اضطرب هؤلاء على

الفور ، واسرعوا يصطفون باستقامة) جذب كورنيلوف عنان فرسه بتلك الحركة القوية التى تصور عادة فى التماثيل التذكارية ، ودفع راسه الى الوراء ، وصاح بصوت حاد :

– شكرا ، يا نسورى ! اشكركم على العمل الرائع ، ومرة اخرى على انكم استوليتم على القذائف . . . انحنى لكم إجلالا . . .

بعد ان حصل الجيش على احتياطى من الذخيرة بدأ يعبر نهر كوبان على المعدية الخشبية التى استولت عليها فصيلة الخيالة الصدامية . وكان عدد الجيش فى ذلك الوقت تسعة آلاف رجل ، واربعة آلاف فرس . واستمر العبور ثلاثة ايام . وامتدت وحداته العسكرية والعربات والناقلات والمعدات الحربية على جانبى النهر مثل معسكر هائل . خفقت ريح الربيع بالبياضات المغسولة المدعوكة المنشورة على اعمدة العربات . وتصاعد الدخان من نيران المعسكر . وكانت الخيول المربوطة ترعى فى المروج . وصعد الضباط المبتهجون الى العربات وسعوا ، والمناظير على عيونهم ، ان ينفذوا عبر الغبش المزرورق ليروا حدائق وقباب المدينة الموعودة .

– بالشرف ، نحن كالصليبيين وقد اقتربوا من القدس .

– هناك كانت يهوديات ، اما فى هذه المدينة فبروليتاريات . . .

– سنعلن النساء ملكية مشتركة . . . ها – ها . . .

– الى الحمام ، ثم البولفار ، وبعدها الجعة !

لم تجر من جانب يكاترينودار محاولة لعرقلة العبور . ولكن رجال الاستطلاع كانوا يطلقون بعض الطلقات بين الحين والآخر . عزم الحمر على الدفاع . اسرع أهل المدينة جميعا بمن فيهم النساء والاطفال فى حفر الخنادق ، ومد الاسلاك الشائكة ، ونصب المدافع . وقدمت من نوفوروسييسك فصائل من بحارة البحر الاسود ، وجلبوا معهم مدافع وقذائف . وخطب المفوضون فى الوحدات العسكرية عن الجوهر الطبقى لجيش المتطوعين بقيادة كورنيلوف ،

وان وراءه «البرجوازية العالمية التى لا تعرف الرحمة ، والتى سنخوض ضدها معركة حاسمة ، ايها الرفاق» واقسموا على ان يموتوا ولا يسلموا يكاترينودار .

وفى اليوم الرابع خرج جيش المتطوعين للاستيلاء على عاصمة كوبان .

واستقبلت صفوف المتطوعين المهاجمة نارا حامية من البطاريات المنصوبة فى محطة البحر الاسود ، ومن الارصفة على نهر كوبان . الا ان وعورة المكان والبساتين والسواقى والاسيجة ومجارى الجداول مكنتهم من الاقتراب من المدينة دون خسائر كبيرة .

وهنا نشبت المعركة بالقرب مما يسمى «المزرعة» عند بيت ابيض يقع على مشارف اجمة من اشجار الحور ما زالت عارية الاوراق على ضفة كوبان العالية ، حيث ابدى الحمر مقاومة صلدة واكتسحوا ، الا انهم عادوا فهجموا بحشود كثيفة على نيران الرشاشات ، واستولوا على المزرعة ، وبعد ساعة اجبرهم على التراجع قوزاق كوبان وهم مشاة الصدام والاستطلاعيون بقيادة العقيد اولاغاى .

وفى الحال اتخذ كورنيلوف مقرا لهيئة اركانه بيتا من طابق واحد فى المزرعة . ومن هناك كانت تشاهد بوضوح شوارع يكاترينودار المستقيمة ، وبيوتها البيضاء العالية ، والحدائق الامامية والمقبرة ، ومحطة البحر الاسود . وامام كل هذا المنظر صفوف الخنادق الطويلة . كان نهارا ربيعيا ساطعا خفاق الريح . وكانت ادخنة الطلقات تتطاير فى كل مكان ، وهدير المدافع المستمر يهز المنبسط المزرق اهتزازا ثقيلا يجفل له القلب . ولم يغمض الحمر ولا البيض بالانفس فى ذلك اليوم .

خصصت للقائد كورنيلوف حجرة فى ركن من البيت الابيض ، ونصبت تلفونات الميدان ووضعت منضدة ومقعد وثير . وقد دخل اليها حالا ، وجلس الى المنضدة ، وبسط الخارطة ، وغرق فى تامل حركات اللعبة التى قد بدأها . وكان مرافقاه – الملازم دوليتسكى والخان خاجييف – يقفان احدهما عند الباب ، والثانى عند التلفونات .

كان وجه القائد المغولى القسمات المتغضن النحيل متجهما كما لم يتجهم من قبل . كان الشيب قد غزا نصف شعره المنتصب وبدء الصغيرة الجافة بخاتمها الذهبى تستلقى على الخارطة بلا حياة . انه وحده ، خلافا لنصائح الكسييف ودنيكين والجنرالات الآخرين ، قرر ان يقوم بهذا الهجوم ، والآن فى نهاية اليوم الأول تزعزعت ثقته بنفسه . ولكن ما كان ليعترف بذلك حتى مع نفسه .

لقد وقع خطآن : الأول ان ثلث القوات مع الجنرال ماركوف قد أبقى على المعبر لحفظ العربات ، ولهذا لم تكن الضربة الأولى ضد يكاترينودار مركزة بشكل كاف ، ولم تجلب ما كان متوقعا منها . فقد صمد الحمر ، وتشبثوا بالخنادق ، وثبتوا فيها على ما يبدو برسوخ . والخطأ الثانى هو فى تطبيق نفس تكتيك الحملة التنكيلية على يكاترينودار ، مثلما طبق على القرى التى احتلت فى الطريق ، فقد طوقت المدينة من كل الجوانب (على الجناح الايمن بفرقة مشاة واستطلاعيين على طول النهر حتى مصانع الجلود ، وعلى الجناح الايسر بتغلغل الخيالة بقيادة ارديلى) لفرض سد جميع المنافذ والمخارج والتنكيل بالمدافعين عن المدينة وباهاليها رميا بالرصاص وشنقا وضربا باعتبارهم «قطاع طرق» و «رعاعا متمردين» . فان هذا التكتيك قد ادى الى ان يقرر المقاومون ان الموت فى ساحات المعارك افضل من الموت على اعواد المشانق . فقد كان الناس يصيحون فى طول المدينة وعرضها ان «كورنيلوف قد عزم على الفتك بالجميع !» فاذا بالنساء والفتيات والاطفال والشيوخ يندفعون تحت وابل الرصاص الى الخنادق ومعهم جرار الحليب والفطائر يطعمون المدافعين قائلين : «كلوا ، يا بحارة ! كلوا ، يا جنود ! يا رفاقنا الاعزاء ، اصمدوا من اجلنا ...» ومضوا يزودون المدافعين بالطعام ، ويحملون لهم صناديق العتاد ، رغم أن الخيالة كانوا يعدون على افراسهم فى كل مكان ، ولا سيما عند المساء صائحين : «ابتعدوا عن الشوارع ! الى البيوت ! اطفئوا الانوار !..»

وهكذا كان التفوق للحمر فى اليوم الأول . فقد البيض فى ذلك اليوم ثلاثة من أفضل القادة عندهم ، وحوالى الف ضابط وجندى ، وانفقوا ، دون هدف ملموس ، أكثر من ثلث ذخيرتهم .

ووصلت من نوفوروسييسك قطارات تصف محطمة متتالية

مخترقة اغطية النيران محملة بالبحارة والقذائف والمدافع . وتراكض المقاتلون من العربات الى الخنادق مباشرة . وكانت الخسائر فادحة بسبب كثافتهم وانعدام القيادة .

ظل كورنيلوف جالسا الى الخارطة لا يبارح غرفته فى المزرعة . وقد ادرك أن هناك امرين لا ثالث لهما : اما الاستيلاء على المدينة او الهلاك للجميع . وبلغ تفكيره الى حد الانتحار ... ان الجيش الذى كان قائده الأوحد يذوب مثل جنود من القصدير القوا فى موقد . ولكن ذلك الرجل غير الهياب وقليل الذكاء كان عنيدا كالثور .

كان حوالى عشرين من الضباط الجرحى جالسين فى الشمس المتوقدة على مدرج الكنيسة فى قرية يلزافيتينسكايا . ومن الشرق كان هدير المدافع يترامى قويا تارة خافتا اخرى . بينما هنا ، فى السماء الصافية فوق برج الجرس الذى اصيب بقذيفة فقد كانت الحمامات تصعد باستمرار . كانت الساحة امام الكنيسة مقفرة ، والبيوت بشبابيكها المحطمة مهجورة . والى جانب سياج من الاغصان المضفورة حيث كانت البراعم تتنفخ فى اجمة لليلق كانت ثمة جثة نصف مدفونة منكفئة على وجهها يكثر عليها الذباب .

كان الضباط على مدرج الكنيسة يتحدثون باصوات خفيضة :

— كانت لى خطيبة جميلة ، فتاة رائعة ما ازال اتذكرها فى فستان وردى مكشكش . اين هى الآن ؟ لا ادرى .

— نعم ، الحب ... شىء لا يصدق ... ان الحياة الماضية تجذب كثيرا ... نساء نظيفات ، وأنت حسن الهندام تجلس هادئا فى مطعم ... آه ، ما اجمل ذلك ، يا سادة ...

— ان هذا البلشفى مقزز الرائحة ... لطيف لو يدفن ...

— سياكله الذباب .

— سكوتا ... على مهلكم يا سادة ... مرة أخرى اشتد القصف ...

— صدقونى انها خاتمة المطاف . جيشنا الآن فى المدينة .

صمت . والتفت الجميع ينظرون صوب الشرق حيث كان الدخان والغبار يخيم على يكاترينودار مثل سحابة رمادية صفراء . ويتقدم ضابط نحيل كالهيكل العظمى اصهب الشعر وهو يعرج ، ويقول :

– فالكا* مات الآن . . . كان يصرخ : «ماما ، ماما . . هل تسمعينني ؟ . .»

بينما كان صوت حاد يقول من اعلى المدرّج :

– الحب ! وآنسة فى فستان مكشكش . . . هراء . احاديث لا قيمة لها . زوجتى احلى من خطيبتك ذات الفستان المكشكش . . . ومع ذلك ارسلتها الى . . . (ونخر من انفه غاضبا .) ثم انك تكذب على اية حال . لم تكن لك خطيبة . . . مجرد مسدس فى جيبك ، وسيف الى جنبك – تلك هى كل عائلتك وما اليها . . .

توقف روتشين الذى كان يقوم بدورية عند الكنيسة ومعه بندقية ، ونظر الى المتحدث بامعان . كان وجهه صبويا اشقر الشعر ذا انف افطس ، وفم محاط بغضنين عميقين ، والعينين شائختين ثقيلتين بلون ازرق كدر ، مسهدتين شبيهتين بعينى قاتل . اعتمد روتشين على بندقيته (كانت قدمه ما تزال توجعه) وطافت فى ذهنه افكار ملحاحة . عادت اليه ذكرياته عن كاتيا المهجورة اشفاقا حادا . وضع جبينه على حديد الحربة البارد ، وردد مع نفسه : «كفى ، كفى ، ان هذا ضعف ، لا حاجة لكل ذلك . . .» ونفض الافكار عن راسه ، وسار على العشب الطرى . «لا وقت للاشفاق ، لا وقت للحب . . .»

وقف رجل ركين متجهم الى جانب حائط آجرى اصيب بقذيفة ، وراح يحدق من خلال منظاره . كانت لطخات من الطين الجاف تلطخ سترته الجلدية الجميلة ، وبنطاله الجلدى وكذلك الحذاء القوزاقى . وبين حين وآخر كانت رصاصة تصيب الحائط الآجرى بالقرب منه .

وعلى بعد مائة خطوة الى الاسفل منه وضعت بطارية وصناديق القذائف الخضراء . وكانت الخيول قد جلبت الى السياج من توها ، فكانت واقفة متدلية الرؤوس تخرج روثا يتصاعد البخار منه . كان طاقم البطارية يقرفص ضاحكا مدخنا على مسندات المدافع يتطلع نحو

* صيغة لاسم فالنتين . – المترجم .

الآمر ذى المنظار . كان الجميع بحارة ما عدا ثلاثة من رجال المدفعية جاهلى الثياب ملتحين .

كان الدخان والغبار يحجب الافق ، وخطوط الخنادق وتعرجات الارض والبساتين . وكان ما لمحه الآمر قد ظهر بغير وضوح ، واختفى من مجال الرؤية . ظهر بحار نحاسى البشرة فى قميص بحار داخلى نقط من وراء البيت الذى يقف الآمر عنده ، وتسلل كالقط على طول الجدار ، وجلس عند قدمى الرجل الركين ، وطوق ركبتيه بذراعيه القويتين الموشومتين ، وقلّص قليلا عينيه الصهباوين كعينى الباشق . وقال بصوت خفيض :

– عند الشاطئ تماما شجرتان ، هل تراهما ؟

– اذن ؟

– وراءهما بيت صغير ، أترى جدرانه البيضاء ؟

– اذن ؟

– انه المزرعة .

– اعرف .

– انظر الى اليمين تجد حرشا . وهناك الطريق .

– ارى .

– فى الساعة الرابعة جرى بعض الخيالة هناك يعدون على افراسهم ، واخذ بعض الناس يدبون . وفى المساء جاءت عربتان . هناك يقبع الشيطان لا فى اى مكان آخر .

– انزل الى الاسفل .

قال الرجل الركين بلهجة آمرة ، ودعا آمر البطارية . صعد الى المرتفع رجل ملتح يرتدى سترة من فراء الغنم . قدم له الرجل الركين منظاره ، فراح هذا ينظر وقتا طويلا . وقال بصوت مزكوم :

– ضيعة سلوساريف ، المزرعة . المسافة اربعة فراسخ وربع . يمكن توجيه النار على ضيعة سلوساريف .

واعاد المنظار ، ونزل الى الاسفل بحركة غير موزونة . وصاح بملء حنجرته :

– بطارية ،استعداد ! المسافة . . . القذيفة الأولى . . . نار . . .

ودوّت المدافع بهدير الرعد ، وتراجعت المواسير على المكابس

مرسلـة لهبا ، وانطلقت القنابل الثقيلـة حاملة الموت الى شاطىء كوبـان المرتفع ، الى شجرتى الحور ، حيث كان كورنيلوف الجهم يجلس الى الخارطة فى البيت الابيض .

فى اليوم الثانى من الهجوم استدعى الجنرال ماركوف مع فوج الضباط الذى كان يحمى معبر عربات الجيش . وكان روتشين جنديا فى هذا الطابور . وبساعـة واحدة قطعت الفراسـخ السبعـة الى يكاترينودار فى جو اكثر تلففا بالغبار من جو يوم امس بسبـب تصف المدفعية . كان ماركوف يسير فى المقدمة فى قبعته القوزاقية المدفوعة الى قفاه ، وسترته المبطنة بالقطن المفكوكة الازرار . كان يخاطب عقيد هيئة الاركان الذى كان يسير وراءه ولا يكاد يلحق به لاعنا شاتما القيادة العليا :

— لعنة ! قطعوا اللواء الى اجزاء ، وتركونى مع طابور العربات وجعلـونى اقبـع هنـاك . . . فلو اطلقـونى مع اللـواء لكنت فى يكاترينودار منذ زمان . . .

وقفز عبر ساقيـة ، ورفع سوطـه ، واستدار نحو الطـابور الممتد عبر حقل اخضر ، ورفع صوتـه بالايعـاز حتى انتفخت عروق رقبته . . .

اخذ الضباط اللاهثون بوجوههم المهمومة العرقة يتراكضون ، واستدار الطابور ، وكأنه على محور ، وامتد فى الحقل باربعة خطوط متذبذبة مواجها المدينة . وكان روتشين غير بعيد عن ماركوف . وقفوا عدة دقائق ، وجربوا ترابيس البنادق ، وعدّلوا وعاينوا اكياس الخراطيش . واصدر ماركوف امره الثانى ماطا حروف العلـة . فانفصلت جماعـة الحرس وهرولت متقدمـة الى الأمـام . وسارت الصفوف وراءها .

التقوا الى اليسـار بعربـات بانسـة تحمل الجرحى فى الدرب المطـــروق . وكان بعضهـــم يمشون على الاقدام منكسى الرؤوس . وكان جرحى كثيرون جالسين على حوافى السواقى وعلى العربات المنكفئة . وبدت العربات والجرحى بعـــدد لا يحصى ، الجيش كله .

لحق بالفوج على فرس فاحم رجل ضخم ممتلىء ذو شـاربين . كان يشد شريطا أحمر على قبعته ، ويرتدى سترة مفصلة على قده عليها شرائط كتفية لادارة مؤنة الجيش . هتف للجنرال ماركوف بشىء ما مرحا ، الا ان هذا استدار ، ولم يجب . انه رودزيانكو الذى غادر طابـور عربـات الجيش ليشـاهد عمليـة الاستيـلاء على يكاترينودار .

توقف الفوج مرة اخرى . جاء الايعاز من بعيد . فراح الكثيرون يدخنون . صمتوا جميعـا ينظرون الى حيث راحت جماعـة الحرس تختفى بين السواقى والاكمات . لوّح الجنرال ماركوف بسوطه . وسار باتجـاه حرش اشجـار الحور العـالى . كان عمود اشعث من الدخـان يتصـاعد على فترات قصيرة من اعمـاق الاشجار البادئـة الاخضرار ، وتتطاير نوافير من كتل التراب والاغصان .

وقفوا طويلا . وتجاوزت الساعة الرابعة . ظهر فارس من وراء الحرش ، وجاء يعدو منكبا على عنق حصانه . ورأى روتشين حصانه المزبد الشدقين يدور عند ساقية ، خائفا ان يقفزها ، ثم هز الحصان ذيلـه وقفز . وطارت الطاقيـة من رأس الفارس . وحين وصل الى الفوج هتف :

— الهجوم . . . تكتلات رجـال المدفعيـة . . . الجنرال فى المقدمة . . . هناك . . .

واشار بيده الى حيث لاح عدة اشخاص على اكمة لمعت بينها قبعة فرائية بيضاء . وصدر الأمر :

— الصف ، الى الأمام !

تقلصت حنجرة روتشين ، وجفت عيناه . شعر لحظة من الرعب والنشوة اختفى فيها الاحساس بالجسد ، وبزغت الرغبة فى الجرى ، فى الصياح ، فى اطلاق النـار ، فى الطعن ، فى ان يمتلىء القلب بالدم فى لحظة النشوة هذه ، كتضحية . . .

تحرك الصف الأول ، وسـار روتشين على جناحه الايسر . ها هى الاكمة حيث وقف الجنرال ماركوف فارجا ساقيه ، ووجهـه الى الفوج المهاجم .

كان يكرر : «ايهـا الاصدقاء ، ايها الاصدقـاء ، الى الأمام !» وبدت عيناه المتقلصتان دائما متسعتين رهيبتين فى تلك اللحظة .

ثم راى روتشين انصال العشب الجافة الناتئة . وفى كل مكان فيهـا كان يرقد انـاس مرتمين كالزكـائب – على وجوههـم او على جنوبهم – بلا حراك ، فى قمصان الجنود ، فى ستر البحارة ، فى معاطف الضباط . وراى امامه سياجا واطئا من الاغصان المضفورة ، واحراشا شائكـــة بلا اوراق . كان رجل طويل الوجـه فى صدار جندى مبطن يجلس وظهره الى السياج يفتح فمه ويسده .

قفز روتشين السياج وراى طريقـا عريضـا . كانت نوافير الغبار تتقدم عليه بسرعة . انهم البلاشفة يطلقون نيران رشاشاتهم على المهاجمين . توقف وتراجع ، وضاق تنفسه ، ونظر وراءه . كان الذين قفزوا السياج من المهاجمين راقدين . ورقد روتشين ايضا ، وضغط خده على الارض الشائكة . وجاهد مجبرا نفسه فرفع راسه . كان الصف مستلقيا على الأرض . وفى الحقل ، على بعد حوالى خمسين خطوة الى الامام كانت تمتد حدبـة ساقيـة . نهض روتشين قافزا . وركض هذه الخطوات الخمسين وثبـا حانيا جذعـه . وخفق قلبـه بجنون . وقع فى طين لزج فى الساقيـة . وجرى الصف كلـه وراءه واحدا وراء الآخر . وسقط واحد او اثنان ولم يصلا الى الساقية . رقد الجميع فى الساقية لاهثى الانفاس . كان الرصاص ينهمر مارقا فوق رؤوسهم ، فى اعلى الساقية .

الا ان شيئا قد تغيّر الى الأمام فجاة . بدات القذائف تنصب نحو الثكنات من ناحية غير محددة . وضعُفت نار الرشاشات .

نهض الصف بجهد ، واندفع الى الأمام . وراى روتشين ظله الطويل الداكن الحمـرة المنزلق على الحقل الوعـر . كان يلتوى ، ويقصر تارة ويطول اخرى الى ما لا نهايـة . وفكر مع نفسـه : «يا للغرابة ، ما زلت حيا ، بل والقى ظلا على الأرض» .

اشتد اطلاق النار مرة اخرى من ناحية الثكنات ، الا ان الصف الناحل الآن استلقى على بعد مائة خطوة منها فى الوهدة العميقـة . وهناك فى قاع الوهدة الصلصالى الرمادى كان ماركوف يروح ويجىء بعينين رهيبتين . وكان لا يفتأ يردد :

– يا ســادة ، يا ســـادة . . . مهلة قصيرة . . . دخنوا ، اللعنة . . . وتكون الضربة الاخيرة . . . الأمر هيّن . . مجرد مائة خطوة . . .

وكان الى جانب روتشين ضابط قصير القامة اصلع كان يكرر بصوت خفيض نفس الشتائم البذيئة وهو ينظر الى حافـة الوهدة المرسلة غبارا من ارتطام الرصاص عليها . وكان بعض الرجال قد استلقوا وغطوا وجوههم باذرعهم . وقرفص رجل وامسك بجبينـه وهو يتقيا دما . والكثيرون كانوا يروحون ويجيئون فى قاع الوهدة كالضباع فى قفص . وصدر امر : «الى الأمام ، الى الأمام !» وبدا وكان احدا لم يسمعه . شد روتشين حزامـه بحركة مرعوصـة ، وامسك باغصان اجمة ، وزحف الى الاعلى . انزلق ، فكزّ على اسنانه ، واعاد الكرة . وفى اعلى الوهدة راى ماركوف جالسا القرفصاء . وهو يصيح :

– هجوم ! الى الامام !

وراى روتشين على بعد بضع خطوات الى الأمام نعلى ماركوف المقوبين . وسبقه بعض الأشخاص . كانت الشمس الغاربـة تغمر بضوئها جدار الثكنات الآجرى ، وتسطع بتوهجها على شظايا زجاج النوافذ المهشم . خرج بضعة اشخـاص من الثكنات ، وركضوا فى الحقل الى البيوت البعيدة ذات الحدائق الامامية . . .

كان رهط من المدنيين والجنود يقفون على مقربة من آلة جمباز محطمة ملقاة فى الفناء الرملى لثكنات رجال المدفعية . كانت الوجوه شاحبة ممدودة منهمكة ، والعيون مسبلة ، والايدى مدلاة بلا حياة .

وامامهم وقف عدد اقل من الضباط معتمدين على البنادق . كانوا ينظرون الى الاسرى ببغض شديـد . وكان هؤلاء واولئك صامتين ينتظرون . واذا بالنقيب فون ميكه قد دخل الفناء مسرعا متوثبا – وقـــد عرفـــه روتشين – نفس الرجـل صاحب العينين الثقيلتين المسهدتين الشبيهتين بعينى قاتل . صاح مرحا :

– الجميع . . . الأمر لجميعهم . . . يا سادة ، ليتقدم عشرة منكم . . .

وقبل ان يتقدم عشرة من الضباط مقرقعين بترابيس بنادقهم حدثت حركة بين الاسرى . خلع احدهم – وهو رجل عريض الصدر ضخم – قميصه من فوق راسه . وصرخ آخر بصوت متهدج ، وكان مدنيا عليلا بلا اسنان اذ شاربين سوداوين مستقيمين :

– اشربوا ،ايها الطفيليون ، دم العمال !

وتعانق اثنان بقوة . وانشد صوت مبحوح نشيد «الاممية»

بنغمـة مختلفة : «هب يا عالم العمال . . .» اسند الضباط العشرة بنادقهم على اكتافهم . وفي تلك اللحظة احس روتشين بنظرة ثاقبة . فرفع بصره . (كان جالسا على صندوق يخلع حذاءه .) كانت عينان (اذ لم ير الوجـه) تحدقان فيـه بتعنيف لحظـة الموت ، وبرفعـة شامخة . . . «عينان رماديتان اليفتان حبيبتان ، يا آلهي !»

— نار!

وانطلقت الطلقات متفرقة عجلى . وارتفـع انين وصياح . احنى روتشين راسه الى الاسفل ، وراح يشد قدمه التي خدشتها رصاصة بخرقة قذرة .

وكاليوم الاول لم يجلب اليوم الثاني نصرا لجيش المتطوعين . صحيح ان تكنات رجال المدفعية قد احتلت على الجناح الايمن ، الا انه لم يتقدم في الوسط خطوة واحدة ،وفقد الفوج الذي كان يقاتل هناك آمره المقدم نيجنتسيف محبوب كورنيلوف . وعلى الجنـــاح الايسر تراجع فوج الخيالة بقيادة اردیلی . وابدی الحمر مقاومة لم يبدوا مثلها من قبل ، رغم ان الجرحى كانوا في كل بيت تقريبا في يكاترينودار . وقتل الكثيرون من النساء والاطفال قرب الخنادق وفي الشوارع . ولو كان هناك قائد مقتدر مكافح يوجـه الهجوم العام للحمـــر بدلا من افتونوموف لدحر جيش المتطوعين حتما وابيد ، وقد تهلهل وشاعت الفوضى في وحداته .

وفي اليوم الثـــالث ، وبعـــد ان ســدت الشواغر في افواج المتطوعين على نحو ما ارسلت للهجوم مرة اخرى ، وصدت مرة اخرى الى نقاط انطلاقها . والكثيرون القوا بنادقهم ، ولاذوا في المؤخرة ، في طوابير العربـــات ، ويئس الجنرالات . وزار الجنرال الكسييف المواقع ، وهز راسه الاشيب ، وانصرف . ولكن احدا لم يجرؤ على ان يذهب الى القائد العام ويقول له ان اللعبة قد خسرت ، وانه حتى وان شقوا طريقهـــم الى يكاترينودار بمعجزة فان من المستحيـــل الاحتفاظ بالمدينة منذ الآن .

بعـــد ان قبـــل كورنيلوف جبين المقـدم المحبوب الميت نيجنتسيف الذي جلب على عربة الى المزرعة تحت نافذة غرفته اطبق فمه ولم يتحدث الى انسان بكلمة واحدة ، الا مرة واحدة حين انفجرت قنبلة شرابنيل قرب بيتـه ، وخرقت رصاصة واحدة منهـا النافذة

واصابت السقف ، عندئذ اشار الى تلك الرصاصة باصبع جافة ، وقال للمرافق خاجييف لسبب ما :

— احتفظ بها ، يا خان .

في ليلة اليوم الرابع ارسل أمر القائد العام على كل تلفونات الميدان : «واصلوا الهجوم» .

ولكن في اليوم الرابع اصبح واضحا لكل انسان أن زخم الهجوم قد ضعف كثيرا . ولـم يستطـع الجنرال كوتيبوف الذي خلف نيجنتسيف القتيـل أن ينهض للقتال فوج كورنيلوف (وهو احسن فوج في الجيش) وكان منطرحـــا في حدائق الخضروات . وكانت الوحدات تقاتل بوني . واستمر فوج اردیلی للخيالة في تراجعـه . وظل ماركوف يغالب النعاس اثناء السير ، وقد بح صوته من الصياح والسباب ، ولم يستطع ضباطه ان يخرجوا انوفهم ابعد من التكنات .

في منتصف النهـار اجتمـع مجلس حربي في غرفـة كورنيلوف مؤلف من الجنرالات الكسييف ورومانوفسكي وماركوف وبوغايفسكي وفيليمونوف ودنيكين . استمع كورنيلوف الى تقرير رومانوفسكي ضاما راسه الاشيب الصغير في كتفيه :

«لا توجـد قذائف ، ولا توجـد خراطيش . والمتطوعون من القوزاق يغادرون الى قراهـم . والافواج كلهـا مهلهلـة . والحالـة النفسية مكتئبة . والكثيرون من غير الجرحى يتركون خطوط القتال الى طوابير العربات . . .» وما الى ذلك . . .

كان الجنرالات يصغون مطرقي الابصـار . اتكـا ماركوف على كتف احد الجنرالات وغفا . وفي الضوء الشاحب (حيث كانت الستارة مسدلة على النافذة) كان وجه كورنيلوف البارز الوجنتين مثل وجه مومياء جافة . تكلم بصوت كامد :

— وهكذا فان الوضع ، يا سادة ، حرج بالفعل . وانا لا اجد مخرجا غير الاستيلاء على يكاترينودار . قررت الهجوم في فجر الغد على المدينة على طول الجبهة . وقد بقي فوج كازانوفيتش في الاحتياط . ساقوده بنفسي في الهجوم .

ونخر من انفه فجاة . ظل الجنرالات في جلستهم المطرقة . وبعفوية هتف الجنرال دنيكين الركين ذو اللحية التي وخطها الشيب ، الشبيه بموظف دؤوب ، والمصاب بالتهاب القصبات : «أوه ، يا إلهي ، يا

البى !» وسعل ، وسار نحو الباب . القى كورنيلوف على ظهره نظرة خاطفة من عينيه السوداوين اللامعتين . واستمع الى الاعتراضات ، ونهض ، وفضّ المجلس الحربى . وحدد الاول من نيسان موعدا للهجوم الحاسم .

بعد نصف الساعة عاد دنيكين الى الغرفة ، وما يزال صدره يصفر . وجلس ، وقال برفق :

– يا صاحب الفخامة ، اسمح لى أن اطرح عليك سؤالا من رجل لرجل :

– أنا سامع لك ، يا انتون ايفانوفيتش .

– يا لافر غيورغييفيتش ، لماذا أنت متصلب الى هذه الدرجة ؟

رد كورنيلوف على الفور ، وكانما حضر هذا الرد منذ زمان :

– لا يوجد مخرج آخر . اذا لا نحتل يكاترينودار ساطلق رصاصة على جبينى . (واشار الى صدغه باصبعه المقضوم ظفره حتى الجلد .)

– لا يحق لك ان تفعل ذلك ! – ورفع دنيكين يديه الممتلئتين البيضاوين جدا الى صدره . – امام الله ، امام الوطن . . . من سيقود الجيش ، يا لافر غيورغييفيتش ؟

– انت ، يا صاحب المعالى . . .

وباشارة من نفاد الصبر جعل مفهوما ان الحديث قد انتهى .

كان صباح الحادى والثلاثين من آذار حارا صاحيا . وراحت موجات التبخر تتصاعد من الارض التى اخذت تخضوضر . كانت مياه كوبان الصفراء الكدرة تجرى بكسل بين الضفاف العالية لا يعكر هدوءها غير قفزات السمك . كان الهدوء يخيم . وبين آونة واخرى فقط كانت تنطلق رصاصة ، ويهدر مدفع من بعيد ، وتصفر قنبلة كان الناس يستريحون ليبدأوا معركة دموية جديدة فى الغد .

كان الملازم دولينسكى يدخن على مقدمة البيت ويفكر مع نفسه : «اود لو اغسل ثوبى وملابسى الداخلية ، وجوربى . . . ولطيف لو اغتسل» . بل كان ثمة طائر طائش يغرد مرحا فى الحرش . رفع دولينسكى راسه واذا به يسمع صوت قنبلة تنفذ فجاة فى الحرش الأخضر ، و تنفجر بقرقعة حديدية . كف الطائر عن التغريد .

القى دولينسكى عقب السيكارة على دجاجة حمقاء لا يُعرف كيف لم يصنع منها حساء . وزفر ، وعاد الى البيت ، وجلس قرب الباب ، الا انه وقف على قدميه فجاة ، ودخل الى الحجرة الخافتة الضوء . كان كورنيلوف يقف عند الطاولة يعدل بنطاله . سال بخفوت :

– الم يهيأ الشاى بعد ؟

– سيكون جاهزا بعد دقيقة ، يا صاحب الفخامة . لقد دبرت الامر .

جلس كورنيلوف الى الطاولة ، وحط عليها كوعيه ، ووضع كفه الجافة على جبينه ، وفرك غضونه .

– اردت أن اقول شيئا ، يا ملازم . . . اوه ، نسيت . مصيبة . . .

انحنى دولينسكى على الطاولة منتظرا سماع شىء . ان كل ذلك غريبا على القائد العام – الصوت الخافت ، والارتباك – حتى ان ذلك افزعه .

كرر كورنيلوف :

– مصيبة . . . ساتذكر ، بالطبع ، لا تخرج . . . قبل لحظة كنت انظر من النافذة . . . صباح رائع . . . نعم ، الأمر كالآتى . . .

صمت ورفع راسه متسمعا . والآن حتى دولينسكى سمع هدير قنبلة مقترب مثير ، بدا وكانه فى النافذة المسدلة الستار . تراجع دولينسكى . حدث انفجار رهيب فى الأعلى . وتفجر الهواء ، واندلع اللهب . وانقذف جسم القائد العام الى الأعلى منفرج الاعضاء . . .

ووجد دولينسكى نفسه مقذوفا من النافذة . وقعد على العشب ، وقد تغطى بالكلس الابيض ، وشفتاه ترتجفان . وتراكض الناس اليه . . .

كان احد الاطباء يقرفص مشغولا عند جسد كورنيلوف المطروح على نقالة ومغطى الى النصف بسترة قوزاقية . وعلى مسافة وقف رهط من ضباط الاركان ، وكان دنيكين اقربهم الى النقالة ، يضع على راسه طاقية عريضة بطريقة خرقاء .

قبل دقيقة كان كورنيلوف يتنفس ، ولم تكن على جسده اصابات ظاهرة ، مجرد خدش صغير عند الصدغ . كان الطبيب لا

يثير انتباه احد ، ولكنه ادرك فى تلك اللحظة ان كل الانظار متجهة اليه ، وبالرغم من انه كان واضحا له ان النهاية قد حلت ، الا انه ظل يعاين الجسد بهيئة اهتمام . نهض بتؤدة ، وعدّل نظارته ، وهز راسه ، وكانه يقول : «مع الاسف ، الطب فى هذه الحال عاجز» .

تقدم منه دنيكين وتكلم معه بصوت مكبوت :

— قل لنا شيئا يسرى عنا .

بسط الطبيب ذراعه ، وقال :

— بلا أمل ! انتهى .

اخرج دنيكين المنديل بحركة راعصة ، وضمه الى عينيه ، وفركهما ، واهتز جسمه الركين واسترخى . اقتربت منه جماعة من ضباط الاركان ، ولم تعد تنظر الى الجثة ، بل الى دنيكين . ركع على ركبتيه ، ورسم علامة الصليب على وجه كورنيلوف الشمعى الاصفر ، وقبّله من جبينه . رفعه ضابطان ، وتحدث ثالث بانفعال :

— يا سادة ، مَن يتسلم القيادة ؟

— انا بالطبع ، انا اتسلمها — هتف دنيكين بصوت عال منتحب — هناك امر بذلك من لافر غيورغييفيتش من قبل ، وقد تحدث الىّ بذلك يوم امس . . .

فى تلك الليلة غادرت جميع وحدات جيش المتطوعين مواقعها بسكون . واتجه المشاة والخيالة وطوابير العربات ومستشفيات الميدان والعربات المحملة بالشخصيات السياسية شمالا صوب ضياع غناتشباو حاملة معها جثمان كورنيلوف وجثمان نيجنتسيف .

وفشلت حملة كورنيلوف . وقتل القادة الكبار ونصف المشتركين فيها . وبدا وكان مؤرخى المستقبل لا يحتاجون الا لبضع كلمات لذكرها .

ولكن فى الواقع كانت «الحملة الجليدية» لكورنيلوف ذات اهمية كبيرة . فان البيض وجدوا فيها لاول مرة لسانهم ، واسطورتهم ، ومصطلحاتهم القتالية صعودا حتى وسام البيض الجديد والذى يصور على شريط غيورغى القديس سيفا وتاجا من شوك .

وبعد ذلك ، وخلال حملات التجنيد والتعبئة ، وفى الجدالات المزعجة مع الاجانب ، وخلال ظهور سوء التفاهم مع السكان طلعوا

بتاج الاستشهاد العظيم كاول وارفع محاججة لهم . ولم تكن هناك معارضة . فلا باس لو ان احد الجنرالات ، مثلا ، ضرب سكان قضاء كامل باخامص البنادق . فان الذين فعلوا ذلك هم شهداء عظام وخلفاء الشهداء العظام ، ولا يمكن ان يطبق العقاب عليهم .

لقد كانت حملة كورنيلوف استهلالا يرفع بعده الستار عن تراجيديا ، تتابع فيها المشاهد امام الانظار بكثرة موجعة ، وكل مشهد افظع واشد فتكا من سابقه .

٤

قفز الكسى كراسيلنيكوف من مرقاة العربة ، وحمل اخاه على يديه كالطفل ، ووضعه على الرصيف . كانت ماتريونا تقف عند الجرس قرب باب المحطة . لم يعرفها سيميون راسا ، فقد كانت ترتدى ثوبا من صنع المدينة ، وشعرها الاسود اللامع مشدودا بمنديل ابيض نظيف على موضة سوفييتية جديدة . وكان الخوف مرتسما على محياها الفتى المستدير الجميل ، وشفتاها مطبقتين .

وحين اقترب سيميون مستندا على اخيه لا يكاد يحرك رجليه رمشت عينا ماتريونا البنيتان ، وارتعش وجهها . وقالت بخفوت :

— يا عزيزى . . بهذه الحال صرت !

زفر سيميون فى الم ، ووضع يده على كتف زوجته ولثم بشفتيه خدها النظيف البارد . اخذ الكسى السوط من يدها . ووقف الثلاثة صامتين برهة . قال بعدها الكسى :

— ذلك هو زوجك . كانوا يحاولون قتله . ولكن لم ينجحوا فى ذلك . لا بأس . سنحصد سوية . فلنذهب يا عزيزتى .

طوقت ماتريونا ظهر سيميون بحنان وقوة ، واوصلته الى عربة وضعت فيها مخدات مطرزة على بساط من حياكة بيتية ، واجلسته هناك . وجلست هى الى جانبه مادة الى الامام ساقيها اللابستين حذاء جديدا من طراز مدنى . قال الكسى مرحا وهو يعدل طوق المؤخرة :

— فى شباط تخلف احد الخيالة عن القطار العسكرى . وخلال يومين ملأته بالخمرة البيتية ، وفضلا عن ذلك اعطيته خمسمائة روبل من عملة كيرينسكى . فانظر اى حصان اخذت منه . — وضرب الحصان الاصهب القوى على كفله برقة . ووثب الى مقدمة العربة ، وعدل وضع قبعته من فراء الغنم ، وسحب الأعنة . ثم ساروا فى الطريق الريفى خلال حقول فى بداية خضرتها غردت فوقها بحماس قبرة صغيرة تصفق جناحيها فى ضوء الشمس . اطلت ابتسامة على وجه سيميون المعتل غير الحليق . شدته ماتريونا اليها وسألته ببصرها فأجاب :

— نعم ، انتم هنا تتمتعون . . .

احس سيميون ببهجة وهو يدخل البيت الريفى الرحب المبيض جيدا . صفاقات خضر على النوافذ الصغيرة ، ومقدمة البيت جديدة من الخشب . وها هو الباب الوطئ الاليف قد عبر عتبته فاذا به يرى الموقد المدفأ المبيض بالطباشير تبييضا جيدا ، والمنضدة الركينة المغطاة بمفرش مطرز ، وعلى الرف اوان ليست ريفية ابدا بل من النيكل والصينى ، والى اليسار مخدع ماتريونا بسريره المعدنى العريض المغطى بدثار مدنتل ، وكثرة من الوسائد العالية ، والى اليمين غرفة الكسى (حيث كان الاب المتوفى يعيش من قبل) ، وعلى الحائط لجام وسرج وعدة عربة وسيف وبندقية وصورة فوتوغرافية ، وفى الغرف الثلاث كلها وضعت زهور فى مزهريات بعناية ، الدرَيقة والصبار . . . وكل هذا اليسار والنظافة ادهشا سيميون الذى ظل غائبا عن البيت عاما ونصف العام ، واذا به يجد الدرَيقة والصبار امامه وسريرا كسرير الأميرة ، وثوبا من خياطة المدينة على ماتريونا . قال وهو يجلس على المسطبة :

— انتم تعيشون كأصحاب الاطيان . — وراح يفك لفاحه بصعوبة . وضعت ماتريونا ثوبها الحضرى فى الصندوق ، وشدت مئزرا ، وقلبت مفرش المائدة على وجهه الآخر ، وراحت تعد المائدة بسرعة . مدت شوكة الموقد داخله ، وانحنت الى الارض

تحت ثقل جعل يديها العاريتين حتى الكوع ، حمراوين ، واخرجت القدر الحديدى لحساء الكرنب . وكان قد وضع على المائدة شحم الخنزير المقدد ، وبطة مدخنة ، وسمك مجفف . والقت على الكسى نظرة سريعة ، فغمز لها . عندئذ جلبت جرة من الفخار مترعة بالخمرة المقطرة بيتيا .

ثم جلس الاخوان الى المائدة . ناول الكسى اخاه القدح الاول . احنت ماتريونا راسها تشجيعا . عند ذاك شرب سيميون الكحول الملتهب فى جرعة واحدة تقريبا . مسح كل من الكسى وماتريونا عينيه . ومعنى ذلك انهما سعيدان جدا بان سيميون حىّ يجلس معهما الى المائدة .

عندما انتهوا من احتساء حساء الكرنب قال الكسى :

— نحن لا نعيش حياة مدهشة ، ولكن حياة لا باس بها ، مقتدرة .

رفعت ماتريونا الصحون التى جمعت فيها العظام وجلست بالقرب من زوجها . فاستطرد الكسى فى القول :

— هل تذكر الحقل قرب الحرش عند بيت الأمير ، الحقل المسمى ذا القاع الذهبى ؟ عملت ضجيجا كبيرا فى القرية . قطرت للفلاحين ستة جرادل من الخمرة فخصصوا هذه الأرض لى . وقد حرثناها انا وماتريونا هذه السنة . وحصلنا فى الصيف الماضى على غلة لا باس بها من شريط الارض عند النهر . وكل ما تراه : السرير ، والمرآة ، ودلات القهوة ، والملاعق والشوكات ، وغير ذلك من الاشياء والحاجات حصلنا عليها فى هذا الشتاء . ان زوجتك ماتريونا ربة بيت ماهرة . لا تفوت موعدا واحدا للسوق الريفية . انا ما ازال على الطريقة القديمة ابيع كل شئ بالنقود . اما هى فلا . تذبح خنزيرة او دجاجات وتأخذها على عربة مع الطحين والبطاطس ، وتنزل الى المدينة . . . ولا تذهب الى السوق ، بل تذهب الى السادة السابقين فى شققهم ، وتقلب عينيها وتقول : «السرير ببودين من الطحين وستة ارطال من شحم الخنزير . . . وهذا الدثار اشتريه ببطاطس . . .» ستنفجر ضاحكا حين ترانا عائدين من السوق . . . كالفجر . . . عربتنا محملة بحاجات كثيرة .

قالت ماتريونا وهى تعصر يد زوجها :

– هل تذكر ابنة خالتى افدوتيا ؟ اكبر منى بعام واحد . مخطوبة لالكسى .

ضحك الكسى ، وراح يقلب فى جيبه .

– النسوان قررن ذلك قبلى . . . اما انا يا اخى فقد مللت حياة الترمل حقا . سكر وعهر . وفى النتيجة تلحق المرء قذارة لا يستطيع ان يتخلص منها فيما بعد . . .

اخرج كيس التبغ وغليونا محروقا مزينا بحليات نحاسية تتدلى منه ، وحشاه بالتبغ المصنوع بيتيا ، وتصاعد الدخان فى جو البيت . احس سيميون بالدوار من الكلام ومن الخمرة . فلبث جالسا يستمع ويتعجب .

فى الغسق اخذته ماتريونا الى الحمام ، وصوبنت له بعناية ، وغلفته بالبخار ، ودلكته بالليف ، ولفته بفروة خروف . وعادوا ثانية الى المائدة ، وتعشوا ، وافرغوا ما فى الجرة الفخارية الى آخر قطرة . ورغم ان سيميون ما زال ضعيفا الا انه استلقى مع زوجته فى الفراش وغفا وذراعها الحارة حول رقبته . وعندما فتح عينيه فى الصباح رأى البيت نظيفا مدفئا . كانت ماتريونا تعجن العجين وفى عينيها لمعان ، وعلى شفتيها ابتسامة تكشف عن اسنانها البيضاء . وبعد قليل سيحين موعد عودة الكسى من الحقل لتناول فطوره . كان ضوء الربيع يتدفق من النوافذ النظيفة ، ويتحرك لمعانا على اوراق الدريقة . قعد سيميون فى السرير وتمطى . وكان حالته تحسنت ضعفين خلال اليوم الفائت والليلة التى قضاها مع ماتريونا . ارتدى ملابسه واغتسل ، وطلب عدة حلاقة اخيه ، وحلق فى غرفته امام شظية المرآة على النافذة . وخرج الى الشارع ، ووقف عند البوابة ، وحيّا شيخا مسنا جالسا فى الحديقة الامامية المجاورة عاش فى عهود سيطرة اربعة اباطرة . خلع العجوز قبعته ، واحنى رأسه باعتبار ، واستمر على جلسته مادا ساقيه الميتتين فى حذائهما اللبادى باستقامة ، واضعا يديه المعروقتين على عجرة عصاه .

كان الشارع الاليف مقفرا فى تلك الساعة من النهار . وكانت اشرطة خضرة الحبوب تلوح بين البيوت على امتداد البصر . وعلى

الاكمات عند خط الافق كانت العربات تلوح هنا وهناك غير مربوطة بخيول . نظر سيميون يسارا فرأى طاحونتين فوق رأس منحدر طباشيرى تدور دواليبهما بونى . وعلى المنحدر الى الاسفل لاح برج جرس ابيض بين البساتين والسقوف القشية . ووراء حرش ما زال غير مورق كانت الشمس تنعكس ملتهبة على نوافذ دار الامير السابقة . وكانت غربان القيظ تنعب فوق اعشاشها . وكان الحرش ومقدمة البيت الجميلة منعكستين فى بركة فيضان . وهناك كانت الابقار تبرك ، والاطفال يتراكضون .

وقف سيميون ينظر من تحت حاجبيه ، وقد حشر يديه فى جيبيه الواسعين لسترة اخيه . نظر واحس بلوعة فى صدره . وبالتدريج ، ومن خلال موجات الحر الشفافة المتدفقة على القرية ، وفوق الحدائق الليلقية ، والارض المحروثة كان لا يلوح فى عين خياله هذا العالم وهذا السكون . جاء الكسى على عربة ، وناداه مرحا وهو ما يزال بعيدا . فتح البوابة ، وامعن البصر فى سيميون . فكّ عدة الحصان ، واخذ يغسل يديه تحت المغسلة المعلقة فى الفناء . وقال بحنان :

– لا بأس ، يا اخى ، ستتعود . انا ايضا عندما عدت من الجبهة الالمانية كنت اعاف كل شيء لان امام عينى دما . . . وضجرا . . . آه ، لعنة الله على هذه الحرب . . . تعال نتناول فطورنا .

صمت سيميون . ولكن ماتريونا ايضا لاحظت ان زوجها حزين . بعد الفطور عاد الكسى الى الحقل . وخرجت ماتريونا حافية رافعة اذيال ثوبها ، لتحمل الروث على الحصان الثانى . استلقى سيميون على فراش اخيه ، وتقلب ولم يستطع ان ينام . اثقل الحزن على قلبه . فكر وهو يكز على اسنانه : «انهما لن يفهمانى ، ولذا ليس من الضرورى ان اتحدث معهما فى هذا الموضوع» . ولكن فى المساء حين خرج الثلاثة وجلسوا على قرمة عند البوابة ، لم يصطبر سيميون فقال :

– على اية حال يجب ان تنظف البندقية ، يا الكسى .

– لتذهب البندقية الى الجحيم . . . منذ الآن والى مائة عام لن نحارب .

— فرحك مبكر ، مثل اهتمامك باليسار والراحة .
امتص الكسى من غليونه ، وبصق بين رجليه قائلا :
— وانت ايضا لا تدمدم مغموما قبل الاوان . تعال نتحدث كفلاحين . فلسنا فى اجتماع عام . فانا اعرف كل ما يقولونه فى الاجتماعات العامـة . وقد صرخت نفسى بهـا . فقط ان تكون قادرا على الاستماع لما هو ضرورى لك اما غير الضرورى فاطرحه جانبا . اذا قلت ان الارض للشغيلة ، فهذا حق تماما . أما لجان فقراء الفلاحين فنحن فى القريـة ضيقنا تصرفات اعضائهـا . وفى قريـة سوسنوفكا تفعل اللجنة ما تشاء . والمصادرة وسوء الادب قد بلغا الهامة . وقد تحولت ضيعة الكونت بوبرينسكى الى السوفخوز ، ولم يقتطعوا للفلاحين شبرا واحدا من الارض . وممن تتألف اللجنة ؟ من اثنين من معدمى المنطقة . اما البقية فالشيطان يعرفهم . منهم غرباء ومحكومون سابقون . . . هل فهمت ام لا ؟ . .
استدار سيميون قائلا :
— ليس هذا ما عنيت . . .
— اذا كان ذلك لم تعنه فانا الذى اعنيه . فى عام ١٩١٧ صرخت فى الجبهة عن البرجوازية . واصبت برصاصة فى رجلى ، عسى الله يعطى العافيـة لمن اصابنى بها ، فقد سرحت الى البيت راسا ، ورايت مهما اكلت فانك ستجوع غدا لا محالة ، وتطلب طعاما . اكدح . . .
ضرب سيميون القرمة باظافره :
— الارض تلتهب تحتكم ، وانتم نائمون .
قال الكسى باصرار :
— ربما عندكم فى الاسطول او فى المدن لم تنته الثورة بعد . اما عندنا فقد انتهت حالما قسموا الارض . والآن هذا ما سيحدث : سنجمع الغلال اولا ثم نلتفت الى لجان الفقراء . وحتى عيد القديس بطرس لن نترك لجنة واحدة . سندفن اعضاءها احياء فى الارض . نحن لا نخاف الشيوعيين ، ولا اى شياطين . فتذكر ذلك . . .
قالت ماتريونا بخفوت :
— كفى ، يا الكسى ايفانوفيتش . انظر اليـه يرتعش بكل كيانه . امعقول ان تجرى تحقيقا مع مريض ؟

صاح سيميون :
— لست مريضا . . . بل انا غريب هنا !
ونهض وسار نحو سياج الحديقة .
وانتهى الحديث عند هذا الحد .
كان خفاشـان مثـل عفريتين يطيران فى شريط الغروب المنطفىء . وكانت بعض النوافذ مضاءة ذلك لان الناس كانوا ينهون عشاءهم . وحملت الريح اغنية من بعيد باصوات فتيـات . ثم انقطعت الاغنية ، وحلت مكانها كركبـة حوافر منطلقـة فى الشارع العريض فى غبش المساء . توقف الفارس وهتف بشىء ما ، ثم اطلق العنان لحصانـه من جديد . اخرج الكسى غليونـه من فمـه ، وتسمع . ونهض من على القرمة .
وقالت ماتريونا بصوت مرتجف :
— اهى بلية ؟
واخيرا ظهر الفارس وهو فتى حاسر الراس ، حافى القدمين . . . وصاح :
— الالمان قادمون ! . . قد قتلوا اربعة اشخاص فى قرية سوسنوفكا ! . .

فى منتصف آذار ، حسب التقويم الجديد ، وبعد ان عقـد الصلح ، بدات القوات الالمانية هجوما على اوكرانيا والدتياس على طول الجبهة من ريغا حتى البحر الاسود .
بموجب بنود الصلح كان يجب ان يحصل الالمان من الحكومة المركزية الاوكرانية على ٧٥ مليون بود من الحبوب ، و١١ مليون بود من الماشيـة الحية ، ومليونى دجاجة وبطة ، ومليونين ونصف مليون بود من السكر ، و٢٠ مليون ليتر من الكحول ، والفين وخمسمائة عربة قطار محملة بالبيض ، و٤ آلاف بود من الشحم الى جانب الزبدة والجلود والصوف والاخشاب وغيرها . . .
هاجم الالمـان اوكرانيـا وفق كل قواعد الحرب : بطوابير من ذوى البزات الخاكيـة والخوذ الفولاذيـة . واكتسحت المدفعيـة الالمانية الثقيلة حواجز القوات الحمراء الضعيفة .

سارت القوات وطوابير السيارات ومجاميع عائلة من المدفعية الثقيلة عليها خطوط مبرقشة الالوان للتمويه ، وقرقعت الدبابات والسيارات المصفحة ، وجلبت عوامات وجسور كاملة للعبور . وازّت اسراب الطائرات فى السماء .

لقد كانت تلك مسيرة التكتيك على شعب اعزل تقريبا . فكانت الفصائل الحمراء المؤلفة من قدامى المحاربين والفلاحين وعمال المناجم وعمال المدن السيئة التنظيم والأقل عددا بعدة مرات من القوات الالمانية تتراجع مقاتلة الى الشمال والى الشرق .

وفى كييف حلت الحكومة المركزية الاوكرانية التى قدمت اوكرانيا للالمان ، ونصب فى محلها الجنرال سكوروبادسكى من حاشية القيصر السابق . كان يرتدى المعطف الازرق على التقليد الاوكرانى ، ويضع يده على خصره ، ويمسك بصولجان الهيتمان : «عاشت اوكرانيا الحقة ! منذ الآن والى الابد سيستتب السلام والنظام والرخاء . العمال الى آلاتهم ، والفلاحون الى محاريثهم ! والحمر الى جهنم !»

بعد اسبوع من مجىء الفارس بالخبر الرهيب فى الشارع العريض فى قرية فلاديميرسكويه ظهرت كوكبة من الخيالة فوق المنحدر الطباشيرى بالقرب من الطاحونتين فى الصباح الباكر مؤلفة من عشرين خيالا تمتطى خيولا سوداء ضخمة – رجال ضخام فى هيئة غير روسية يرتدون سترا قصيرة خضراء رمادية وقبعات عالية ذات اشرطة . اطلوا على القرية من علٍ ، وترجلوا .

كان ما يزال فى القرية اناس ، فان الكثيرين منهم لم يخرجوا بعد الى الحقول . تراكض الاولاد من بوابة الى اخرى ، وتنادت النساء عبر اسيجة حدائقهن وسرعان ما تجمهر جمهور فى ساحة الكنيسة . واتجهت الاعين الى الأعلى ، حيث نصبت رشاشتان بالقرب من الطاحونتين ، وكانتا تبدوان بوضوح .

وبعد ذلك بقليل قرقعت عجلات مصفحة بالحديد فى شارع القرية من الجانب الآخر ، وطقطق سوط ، ودخل الساحة حصانان بنيان مزبدان فى عدو سريع يجران عربة عسكرية . كان على مقعد

الحوذى جندى اخرق ذو عينين وضاءتين وفك طويل يرتدى سترة ضيقة وطاقية مسطحة . وقد جلس وراءه ضابط المانى متخوصر وهو سيد فى هيئة غريبة صارمة يضع زجاجة على عينه ، وقبعة جديدة انيقة مثل قبعات الدمى . والى يساره رجل تعرفه القرية هو مدير اعمال الأمير الذى كان قد هرب من الضيعة فى الخريف الماضى فى ملابسه الداخلية .

اما الآن فقد كان غريغورى كارلوفيتش ميل هذا يجلس مقطب الحاجبين مستدير الوجه الحليق يضع نظارة مذهبة الاطار ويلبس معطفا جيدا وقبعة مدفئة . احس الفلاحون بحكة فى جلودهم حين وقعت ابصارهم عليه .

صاح الضابط الغريب الهيئة باللغة الروسية فجاة : «اخلعوا القبعات !» خلع بعض الذين كانوا على مقربة منه قبعاتهم على مضض . وساد السكون الساحة . ظل الضابط على جلسته متخوصرا والتمعت الزجاجة على عينه ، وبدأ يتحدث مخرجا الكلمات بعسر ، ولكن بنطق سليم :

– يا فلاحى قرية فلاديميرسكويه ، ها قد رايتم على الرابية ، هناك ، رشاشتين المانيتين ، وهما تعملان بشكل ممتاز . . . وانتم ، بالطبع ، فلاحون ذو تفكير سليم ، وانا لا اريد ان الحق بكم اذى . ويجب القول ان قوات الامبراطور غليوم الالمانية جاءت اليكم لتعيد بينكم حياة الناس الشرفاء . نحن الالمان ، لا نحب ان تسرق ملكية الآخرين ، وسنعاقب على ذلك عقابا لا رحمة فيه . وقد علمكم البلاشفة بشكل آخر ، اليس كذلك ؟ ومن اجل هذا طردنا البلاشفة ، ولن يعودوا اليكم ابدا . انصحكم بان تفكروا جيدا باعمالكم السيئة ، وبان تعيدوا فى الحال الى صاحب هذه الضيعة ما سرقتموه منه . . .

اثارت هذه الكلمات نحنحة عصبية فى الجمع . كان غريغورى كارلوفيتش طوال الوقت جالسا وقد نزلت شرابة قبعته على عينيه ، وراح يمعن النظر فى الفلاحين . وفى مرة واحدة لاحت على وجهه الممتلئ ابتسامة الظفر ، والظاهر انه تعرف على واحد فى

الجمع . انهى الضابط خطابه . وصمت الفلاحون . قال الضابط مخاطبا غريغوري كارلوفيتش :

– اديت واجبي . والآن تحدث انت ، يا سيد ميل .

رفض غريغوري كارلوفيتش هذا الاقتراح بادب جم :

– ليس لديّ ما اقوله لهم ، ايها السيد الملازم . انهم فهموا بدون كلامي .

قال الضابط الذي لم يكن يعنيه الأمر :

– حسنا . سر ، يا اوغست !

ضرب الجندي ذو الطاقية المسطحة بسوطه ، وتدحرجت العربة العسكرية بين الحشد المتراجع متجهة الى بيت الأمير حيث كانت لجنة القضاء التنفيذية تتخذه مقرا لها قبل ثلاثة ايام . وراح الفلاحون يتطلعون في اثر العربة .

قال صوت في الجمع :

– جلس الالماني مخوصرا .

– وغريغوري كارلوفيتش ملتزم الصمت ، يا اصحاب .

– انتظروا ، وسياتيكم كلامه .

– مصيبة . وماذا فعلنا لنستحقها ؟ . .

– عن قريب سيحضر ضابط البوليس .

– قد جاء في قرية سوسنوفكا . دعا الى اجتماع ، وامطر المجتمعين سبابا . وقال لهم يا نهابين ولصوص هل نسيتم عام ١٩٠٥ ؟ وثرثر ثلاث ساعات ، شاتما اياهم طوال الوقت . وشرح النظام كله .

– ماذا سيكون الآن ؟

– الجلد .

– انتظر ، وماذا عن الأرض المزروعة ؟ لمن تكون الآن ؟

– بالمناصفة . سيتركوننا نجمع الغلة ، والنصف للأمير .

– أوه ، يا للشيطان ، انا راحل .

– الى اين راحل ، يا احمق ؟ . .

وبعد ان تحدث الفلاحون تفرقوا . وفي المساء اعادوا الى بيت الأمير الارائك والمقاعد والاسرة والستائر والاطارات المذهبة للمرايا واللوحات .

تعشوا في بيت كراسيلنيكوف دون ان يوقدوا الضوء . كان الكسي يضع ملعقته غير مرة وينظر من النافذة ، ويزفر . وكانت ماتريونا تسير بهدوء كالفارة ما بين الموقد والمائدة . بينما جلس سيميون محدودبا ، وشعره الداكن المتجعد ينزل على جبينه . كانت ماتريونا تمسه من الحين الى آخر بيدها أو صدرها كلما نظفت المائدة من الكسر أو وضعت اناء بطعام جديد . الا انه كان لا يرفع رأسه ، وظل صامتا متجهما .

وفجأة اندفع الكسي الى النافذة ، ونقر زجاجها باظافره ، واطل منها . الآن ، وفي سكون المساء كان يسمع بوضوح صياح وحشي طويل آت من بعيد . قعدت ماتريونا على المصطبة في الحال ، وحشرت يديها بين ركبتيها .

قال الكسي بصوت خافت :

– انهم يجلدون فاسكا دمينتييف . قبل مدة اخذوه الى بيت الأمير .

همست ماتريونا :

– هذا الثالث .

وصمتوا ، وتسمعوا . وكان الصراخ ما يزال يخيم على مساء القرية بنفس النبرة من القنوط والرعب .

نهض سيميون فجأة . وشد الحزام على بنطاله بحركة متشنجة ، وذهب الى اخيه في الغرفة . تبعته ماتريونا صامتة . انزل البندقية من الحائط . طوقته ماتريونا من رقبته ، وتعلقت بها ، دافعة رأسها الى الخلف ، صاكة اسنانها البيضاء ، وجمدت . اراد سيميون ان يدفعها عنه الا انه لم يستطع . سقطت البندقية على الأرض الترابية . عندئذ استلقى على السرير منكفئا بوجهه على الوسادة . جلست ماتريونا على مقربة ، مسدة بحركات سريعة شعره الخشن .

رجا غريغوري كارلوفيتش ميل مدير اعمال الامير ان ترسل حامية الى قرية فلاديميرسكويه غير معتمد على قوة الحراس والفايداماك – قوات الهيتمان الجديدة . وكان الالمان يوافقون في

مثل هذه الاحوال عن رضى . دخلت الى القرية فصيلتان ومعهما رشاشات .

وسكن الجنود فى بيوت الفلاحين . وشاع بين الناس أن غريغورى كارلوفيتش نفسه عين البيوت التى ستسكن . وعلى اية حال فقد عين لكل من الفلاحين الذين اشتركوا الاستباحة التى حدثت فى العام الفائت لضيعة الأمير ، او كل عضو من اعضاء اللجنة التنفيذية للقضاء من غير الحزبيين (وكان قد اختفى حوالى عشرة شبان من القرية قبل مجىء الالمان) جنديا واحدا مع حصانه ليطعمهما .

وهكذا طرق بيت الكسى كراسيلنيكوف جندى المانى شبهم بكل لباسه العسكرى يحمل بندقية ويرتدى خوذة وغيرها . واظهر لالكسى الأمر الصادر وهو يتفوه بكلمات غير مفهومة ، ثم زبت على كتفه قائلا :

— تمام ، صديق . . .

وخصصت للجندى غرفة الكسى ، ولم يأخذوا منها سوى عدة العربة والسلاح . وهيا الجندى مكانه فى الحال . فرش بطانية جيدة ، وعلق صورة غليوم على الحائط ، وطلب ان تنظف الارض على نحو أحسن .

وبينما كانت ماتريونا تنظف الارض جمع ملابسه الداخلية وطلب ان تغسل متفوها مزيجا من الكلمات الالمانية والروسية المشوهة . ولما رضى عن كل شىء انبطح بحذائه على السرير ، وراح يدخن سيكارة .

كان الجندى بدينا له شاربان مسطحان مرفوعان الى الأعلى . والثياب التى يرتديها جيدة ومريحة . وكان يأكل كثيرا كالخنزير المخصى . اكل كل ما جلبته ماتريونا فى الغرفة . وقد اعجبه بشكل خاص شحم الخنزير المملح . وكانت ماتريونا تأسف اشد الأسف على تقديم شحم الخنزير للالمانى ، الا ان الكسى قال : «لا عليك ! دعيه يعلف وينام . شرط الا يحشر انفه فى اى مكان» .

وفى اوقات فراغه كان الجندى يترنم باناشيد عسكرية او يكتب رسائل الى وطنه على بطاقات بريدية تحمل مناظر كييف . لم يشاكس ، ولكنه كان يسير بخطى ثقيلة عالية ، ويضرب الارض بحذائه وكأنه سيد البيت .

وخيم على بيت كراسيلنيكوف سكون وكأنما قد فجعوا بفقيد . كانوا يجلسون الى المائدة وينهضون صامتين ، والكسى حزين تلوح التجاعيد على جبينه ، وماتريونا شاحبة الوجه ، تتنهد وتمسح الدموع خلسة بمئزرها . وكانت اكثر ما تخاف ان يفقد سيميون السيطرة على نفسه . الا انه فى تلك الأيام يبدو وكأنه قد هدأ وانطوى على نفسه .

والآن صارت تلصق فى كل يوم على دار ادارة القضاء وعلى بوابات البيوت أوامر الهيتمان حول اعادة الارض والماشية الى اصحاب الاطيان ، وحول المصادرة والضرائب ، وحول بيع الحبوب الاجبارى وحول العقوبات الصارمة لكل محاولة للتمرد واخفاء الشيوعيين وغير ذلك .

وكان الفلاحون يقرأون الأوامر ويلوذون بالصمت . ثم شاعت شائعات خبيثة تقول ان التجار دخلوا احدى القرى تحت حراسة الخيالة الالمانية ، واخذوا معهم حتى الحبوب غير المدروسة ، ودفعوا اوراقا نقدية غير روسية حتى ان النساء لم يردن اخذها ، وانهم فى قرية اخرى ساقوا نصف الماشية بل وفى قرية ثالثة لم يبقوا على شىء حتى ما تتلقطه العصافير .

وبدأ الفلاحون يجتمعون جماعات صغيرة ليلا فى اماكن سرية ، واخذوا يسمعون الحكايات ويتذمرون . ما العمل ؟ وبم العون ؟ ان قوة جبارة تجثم على القرية لا تستطيع معها الا ان تتنفس ولا تبدى صوتا .

اخذ سيميون يتردد على هذه الاجتماعات خلف البيوت ، عند الجدول ، تحت شجرة الصفصاف . كان يجلس على الأرض ، وسترته ملقاة على كتفيه ، ويدخن ، ويستمع . واحيانا كان يهم ان ينهض ، ويلقى عنه سترته ، ويبسط كتفيه ليخطب : «ايها الرفاق ! . .» ولكن ذلك لا يأتى بنتيجة سوى اخافتهم ، فترتعش سراويلهم رعبا ، ويتفرقون .

ذات مرة ، فى غبش المساء ، التقى فى المرعى العام برجل كان واقفا مبتسما . مر سيميون به فناداه الرجل بصوت خفيض :

— اخى !

جفل سيميون . أهو من جماعته حقا ؟ سال وهو ينظر اليه من طرف عينه :
– ما حاجتك ؟
– هل انت اخو الكسى ؟
– لنفرض .
– انت لا تعرف اصحابك ... هل تذكر بحارة «كيرتش» ؟
– كوجين ! انت ؟
وصافحه' سيميون بقوة .
وقفا واحدهما ينظر الى الآخر . قال كوجين وهو يلقى نظرة سريعة الى الخلف .
– هل قطعتم نهايات بنادقكم ؟
– لا . ان كل شيء ما يزال هادئا عندنا !
– وهل عندكم رجال مكافحون ؟
– من يدرى ؟ لم أر بعد . نحن ننتظر ماذا سيحدث .
– ماذا تفعلون ، ايها الاصحاب ؟ – قال كوجين ، وعيناه تتقلبان طوال الوقت تحملقان فى معالم الاشياء المحيطة به فى الغسق – ماذا تنتظرون ؟ سينتفونكم كما تنتف الوزة ، وانتم قد عطيتم لهم رؤوسكم . أتعرفون انهم قد احرقوا كل شيء فى قريتنا اوسبينسكويه بنار المدفعية . وهربت النساء والاطفال ، ولاذ الرجال فى الغابة ... واهالى قرى نوفوسباسكويه ، وفيدوروفكا ، وغولاى-بوله يتوافدون الينا جميعا ...
– ماذا تعنى بـ«الينا» ؟
– هل تعرف غابة ديبريف ؟ انهم يجتمعون هناك ... حسنا ، اهمس للرجال : على قرية فلاديميرسكويه ان تزود اربعين بندقية مقطوعة النهايات ، وحوالى عشر بنادق اعتيادية مع خراطيشها ، وما يمكن جمعه من القنابل اليدوية ، واخفوا ذلك فى التبن فى الحقل ... هل فهمت ؟ فى قرية سوسمنوفكا يخفون ذلك تحت تلال القش . والفلاحون ينتظرون الاشارة منى فقط ... وفى قرية غونديايفكا ثلاثون فلاحا على خيولهم ينتظرون ... يجب ان نخرج .
– الى اين ؟ الى من ؟
– الى الاتمان ... انه يدعى شوس . الآن نحن نجمع

الفصائل فى كل منطقة يكاترينوسلاف ... فى الاسبوع الماضى دحرنا الغايدماك ، واحرقنا مزرعة ... طرافة ومتعة ، يا اخى ، نلقى الكحول والسكر على الفلاحين هبة وعطاء ... تذكر ، سآتى بعد اسبوع ...
وغمز لسيميون ، وقفز سياجا ، وركض منحنيا الى القصب ، حيث كانت الضفادع تنقنق بصوت عال .
كانت الشائعات حول الاتمانات والغارات قد وصلت الى قرية فلاديميرسكويه ، الا ان اهل القرية لم يصدقوا . وها هو شاهد حى قد ظهر بالخبر اليقين . فى ذلك المساء قصّ سيميون ذلك على اخيه . اصغى الكسى بجد .
– ما اسم هذا الاتمان ؟
– يقولون : شوس .
– لم اسمع به . تدور الشائعات حول نستور ايفانوفيتش ماخنو ، يقولون ان لديه زهاء خمسة وعشرين من قطاع الطريق ، وهم يغيرون على الضياع . اما شوس فلم اسمع عنه ... كل شيء ممكن . فالفلاح الآن مقتدر على كل شيء . سواء أكان شوس او غيره فان فى القضية خيرا ... اوصيك فقط الا تتحدث الى الفلاحين . وحين تقتضى الضرورة سأخبرهم بنفسى .
ضحك سيميون ضحكة هازئة ، وهز كتفيه .
– انتظروا حتى يسلخوا جلدكم .
يبدو ان كوجين لم يظهر لسيميون وحده فى ذلك المساء . فقد تهامس الناس فى القرية حول البنادق المقطوعة والقنابل اليدوية وفصائل الاتمان . وكان من الممكن ان تسمع الاذن ، اذا ارهفت ، حزيز المناشير على الحديد فى هذا الفناء او ذاك فى الليالى . الا ان كل شيء كان هادئا بعدُ . بل ان الالمان اقاموا النظام ، واصدروا امرا بأن يكنس الشارع فى عشية السبت على الاحد . فلم يجد الاهالى بدا من كنس الشارع .
ثم وقعت بلية . فى ساعة مبكرة ، وقبل ان تخرج البهائم للشرب سار فى الشارع المكنوس رجال شرطة وجنود يضعون الشارات على صدورهم ، وطرقوا زجاج النوافذ قائلين :
– اخرجوا !

اخذ الفلاحون يخرجون من بيوتهم حفاة يزررون ثيابهم ، فاعطى لهم امر رسمى يفرض على هذا البيت او ذاك مقدارا من الحبوب والصوف وشحم الخنزير والبيض ليقدم الى ادارة مـؤنة الجيش الالمانى بسعر معين فى الماركات الالمانية . وكان طابور من العربات العسكرية يقف فى الساحة عند الكنيسة . وكان الجنود الالمان المقيمون فى البيوت يقفون عند بواباتها مرتدين خوذهم وحاملين بنادقهم .

حك الفلاحون رؤوسهم . بعضهم راح يحلف بالرب بانه معدم . وبعضهم رمى قبعته على الارض قائلا :

— لم يعد عندنا قمح ، والله . اذا قطعتمونى لن تجدوا عندى شيئا ! . .

وفى تلك اللحظة راوا مدير الاعمال يسير فى الشارع فى عربة ركوب . فكان فزع الفلاحين بنظارته الذهبية اشد من فزعهم من رجال الشرطة والجنود ، لأن غريغورى كارلوفيتش كان يعرف كل شىء ويرى كل شىء .

اوقف حصان عربته . تقدم ضابط الشرطة من العربة . وتحدث الاثنان . وصاح على رجال الشرطة . فدخل هؤلاء الى اول بيت ، وعثروا على حبوب فى الخال مخفية تحت السماد . وحين سمع غريغورى كارلوفيتش صياح صاحب الحبوب لم يبدر منه شىء سوى ان نظارته قد لمعت .

فى ذلك الوقت كان الكسى يذرع فناء بيته شديد الذهول ، ومرآه يثير الأسى . انزلت ماتريونا منديلها على عينيها ، وبكت فى مقدمة البيت .

وكان الكسى يسأل وهو يرفع قطعة خشب او عجلة مكسورة ويلقيها فى نبات القرّاص عند السياج :

— ما نفع هذه النقود الالمانية لى ، ما نفع الماركات ؟ — وحين لمح ذيكا ضرب قدمه على الارض وشتمه : «حقير !» ومسك بالقفل على حجرة المؤنة :

— ماذا سناكل اذن ؟ هذه الماركات ؟ اذن يريدوننا ان ننقلب الى متسولين ؟ ان يدمرونا كليا ؟ مرة اخرى فى ربقة الظلم ؟

قال سيميون وهو جالس قرب ماتريونا :

— سيأتى اسوأ من ذلك . . . سيأخذون حصانك .

— لن يكون ذلك ابدا . ساقتلهم بالفاس !

— فات الوقت .

وانتحبت ماتريونا :

— اوى ، يا عزيزى . . . سأقطع حناجرهم باسنانى . . .

طرق الباب باخمص بندقية . ودخل الجندى البدين الذى كان يقيم عندهم هادئا مرحا وكانما يدخل بيته . ووراءه دخل ستة من رجال الشرطة ومدنى على قبعته عقدة شريط ثلاثية الاسنان ، رمز الهيتمان ودفتر التسجيل فى يديه . قال له الالمانى ، وهو يشير الى غرفة المؤنة .

— هنا الكثير من القمح وشحم الخنزير .

حدجه الكسى بنظرة ضارية ، وتراجع ، والقى بكل قوته مفتاحا كبيرا صدئا تحت قدم الموظف الهيتمانى .

فصاح هذا :

— احذر ، ايها الوقح . هل يحكك جلدك ، يا ابن الكلبة ؟

دفع سيميون ماتريونا بكوعه ، ووثب من مقدمة البيت ، الا ان حربة عريضة النصل صدته من صدره . وصاح الالمانى بعنف وسلطان :

— توقف . روسى فى مكانك !

ظلت العربات العسكرية طول النهار تنحمل بالمؤن . وتحرك طابورها فى ساعة متأخرة من الليل . نهبت القرية نهبا تاما . ولم يشتعل ضوء فى البيوت ، ولم يجلس الناس الى مائدة . كانت النساء ينتحبن فى البيوت المظلمة ، داعكات بايديهن الماركات الورقية . . .

لا جدوى من ان ينزل فلاح وزوجته مع هذه الماركات الى المدينة لانهما لن يحصلا من الحوانيت على شىء ، لا على مسمار ، ولا على ذراع قماش ، ولا قطعة جلد . فان المعامل لا تعمل ، والحبوب والسكر والصابون والخامات تنقل بالقطارات الى المانيا . ولا حاجة لفلاح وإمراته الى ان يجلبا الى البيت بيانو ،

ولا لوحة هولندية قديمة ، ولا ابريق شاى صينيا . وعيونهما لا تقع الا على الغايداماك ذوى الخصلات المتهدلة والشوارب النازلة فى معاطفهم الزرق ، والقبعات الاستراخانية المتوجة باعاليها القرمزية ، كانا يتسكعان فى الشارع الرئيسى بين التجار الزرق الوجوه من الحلاقة ذوى القبعات العالية وهم المحتالون المشتغلون بعمليات بيع وشراء العملة الاجنبية . ويتحسران بالم ، ويعودان الى بيتهما دون اية مشتريات . وفى الطريق ، وبعد عشرين فرسخا يتوقف القطار لان محاور العربات قد حميت ، ولا يوجد دهن لتشحيمها ، لان الالمان قد اخذوه . فرشوا الرمل على المحاور ، ويتحرك القطار قليلا ثم يتوقف ثانية .

ولهذا كله كانت النسوة ينتحبن ، ويضممن الماركات الالمانية المدعوكة بين اصابعهن ، ويخفى الرجال الماشية فى وهدات الغابة بعيدا عن المصيبة ، فمن يدرى اى امر المانى سيصدر فى الغد !

كانت الاضواء لا توقد فى القرية ، وكل البيوت مظلمة ما عدا بيت الأمير وراء الحرش عند البحيرة ، فقد كانت الانوار تتلألأ فيه تلألؤا زاهيا ، اذ كان مدير الاعمال يقيم هناك حفلة تكريمية للضباط الالمان . وتعزف الموسيقى العسكرية . وتحوم انغام موسيقى الفالس الالمانية كالارواح الشريرة فوق القرية المظلمة . ثم يحلق صاروخ كالشهاب النارى عاليا فى السماء لتسلية الجنود الالمان الواقفين فى فناء بيت الأمير حيث دُحرج برميل من الجعة . وكان الصاروخ ينفجر ، وتضاء السقوف القشية والحدائق واشجار الصفصاف وبرج الجرس الابيض والاسيجة بنجوم تتساقط ببطء . وقد ارتفعت وجوه كثيرة خالية من الفرح نحو هذه الانوار . وكان الضوء يسطع سطوعا يجعل كل غضن فى الوجوه يبرز بوضوح . ومن المؤسف ان احدا لم يصورها وهى فى هذه الحال بآلة تصوير غير منظورة . فان مثل هذه الصور ستكون موضوعا لتفكر فيه هيئة الاركان الالمانية .

وتنورت حتى الحقول على بعد فرسخ من القرية وكانما اهل عليها نهار . وكان بعض الرجال الذين كانوا يتسللون نحو كدس من التبن منفرد ، فلما راوا النور استلقوا على الأرض بسرعة الا

واحدا كان واقفا عند اكداس التبن رفع راسه الى الانوار المتساقطة من السماء ، وقال بابتسامة حازمة :

— عظيم !

انطفأت الانوار قبل ان تصل الى الأرض ، وعاد الظلام . اجتمعت الرجال عند اكداس التبن ، وطقطقت البنادق ، وهى تقذف على الارض .

— كم مجموعها ؟

— عشر بنادق مقطوعة ، يا رفيق كوجين ، واربع بنادق اعتيادية .

— قليل . . .

— لم يكن لدينا وقت كاف ، غدا ليلا سنجلب عددا آخر . .

— واين الخراطيش ؟

— خذ . انها فى الجيوب . . . عدد كبير .

— اخفوها تحت اكداس التبن ، يا رجال . . . تحتاج الى قنابل يدوية ، اجلبوا قنابل يدوية . . . البندقية المقطوعة سلاح الشيوخ الذين يختفون فى ساقية وراء اجمة . طلقة واحدة ويتهافتون ، وتنتهى المعركة . اما المحارب الشاب فبحاجة الى بندقية ، والشىء الاول قنبلة يدوية . أفهمتم ؟ وسيف لمن يستطيع استعماله . انه خير الاسلحة .

— لطيف ان نبدأ فى الأمر هذه الليلة ، يا رفيق كوجين .

— نثير القرية كلها ، والله العظيم . . . تجمع فى قلوبنا الكثير من الاحن . اخذوا كل ما نملك كأنما انتزعوا منا جزءا من الجسم . . . سنخرج اليهم بالمذرات والمناجل ، او اذا امكن القول ، بكل ادوات الشغل . . . وسنقضى عليهم وهم نائمون بأسهل من السهولة . . .

— وهل انت الآمر هنا ؟

صاح كوجين بصوت حاد . وصمت برهة . ثم اخذ يتحدث بصوت مداهن ، ثم راح يرفع صوته شيئا فشيئا :

— من الآمر هنا ؟ اريد ان اعرف . . . ام انا اتحدث مع سفلى ؟ ام انصرف وادع الالمان والغايداماك يضربونكم وينهبونكم . . . (وهمس بشتيمة .) الا تعرفون الانضباط ؟ ام

أن عدد الرؤوس التى قطعتها لهذا السبب بسيفى قليل ؟ اذا كنت تريد ان تدخل الى الفصيلة يجب ان تقسم اشد القسم على الطاعة التامة للاتمان . . . والا فلا تدخل . لك عندنا ان تفعل ما تريد : اشرب الخمر وتمتع بالحياة ، ولكن حالما يصيح الاتمان : «الى الخيول» لن تكون ملك نفسك . مفهوم ؟ (صمت . ثم قال بتراض ولكن بصرامة .) لا يجوز مس" الالمان لا اليوم ولا غدا . ان الأمر يحتاج الى قوة عظيمة .

— يا رفيق كوجين ، على الاقل اسمح لنا بان ننتقم من غريغورى كارلوفيتش . انه لا يدعنا نعيش على اية حال .

— اما ما يخص مدير الاعمال ففى الاسبوع القادم على اقل تقدير ، والا فلن انتهى من شؤونى . قبل ايام اغتصب المانى امراة فى قرية اوسيبوفكا . هكذا . فوضعت ابرا فى الفطائر التى ياكلها . وعندما اكلها قفز من المائدة ، وركض الى الفناء . وسقط . وبعد قليل مات . فما كان من الالمان الا ان قتلوا تلك المراة فى مكانها . فخرج الفلاحون بفؤوسهم . . . وانا لا اريد أن اتذكر ماذا فعل الالمان . . . والآن لن تجدوا اثرا فى المكان الذى كانت فيه قرية اوسيبوفكا . . . تلك هى نتيجة العمل الاعتباطى ! هل انتم فاهمون ؟

تنهدت ماتريونا ، وتقلبت على السرير . بدأت الدنيا تتنور ، وصاحت ديكة الفجر . كانت قطرات الندى تتناثر على افريز النافذة المفتوحة . وطن البعوض . واستيقظت القطة على سطح الموقد ، وقفزت برفق ، وصارت تتشمم الفضلات فى الركن .

كان الاخوان جالسين الى المائدة العارية يتحدثان بصوت خفيض ، كان سيميون يضع راسه بين يديه ، والكسى منحنيا نحوه يتمعن فى وجهه :

— لا استطيع يا سيميون . ارجو ان تفهمنى ، يا عزيزى . لن تستطيع ماتريونا ان تقوم بأمور الاستثمارة وحدها . هنا ما جمعناه خلال سنوات . فكيف اتركه ؟ سيأتون على آخر شىء ، وعندما اعود لا اجد غير الخواء .

قال سيميون :

— كيف تتركه ؟ لنفرض انه سيضيع ، فأية اهمية لذلك ؟ سننتصر وستبنى بيتا من آجر . (وضحك بتهكم .) من الضرورى القيام بحرب الانصار ، بينما انت مهتم باستثمارتك .

— مرة اخرى اقول لك : من سيطعمكم ؟

— انت لا تطعمنا على اية حال ، بل تطعم الالمان ، والهيتمان ، وكل سافل حقير . . . انت عبد . . .

— انتظر لحظة . الم احارب فى سبيل الثورة عام ١٩١٧ ؟ الم ينتخبونى الى لجنة الجنود ؟ الم اقوض جبهة الامبرياليين ؟ هكذا . . . فعل مهلك لا تعيرنى ، يا سيميون . . . والآن اذا جاء الجيش الأحمر فساكون اول من يمسك بالبندقية . قالى اين تريدنى أن اذهب الى الاتمانات فى الغابة ؟

— الآن حتى لهؤلاء نفع .

— ليكن ذلك .

قال سيميون ومد يديه على المائدة :

— الجرح اللعين يشد وثاقى . تلك هى مصيبتى . . . والكثيرون من زملائنا فى اسطول البحر الاسود قد دخلوا هذه الفصائل . . . سنشعل النار فى اوكراينا من الجهات الاربع . امهلنا . . .

— هل رايت كوجين مرة اخرى ؟

— رايته .

— ماذا يقول ؟

— اتفقنا على أننا نشعل حريقا كبيرا فى قريتكم قريبا .

نظر الكسى الى اخيه وشحب ، واطرق برأسه .

— هذا ما يجب ان يكون بالطبع . . . ان بيت الضيعة ذاك يقف مثل قذى فى العين . . . ما دام غريغورى كارلوفيتش حيا ، فانه لن يتركنا نتنفس . . .

نزلت ماتريونا من السرير بقميص النوم فقط — سوى انها القت عليها لفاحا موردا — وتقدمت وضربت المائدة ببراجم قبضتها عدة مرات قائلة :

– لن اتحمل ، انهم ينتزعون ما عندى ! نحن النساء نصفى حسابنا مع هؤلاء الشياطين قبلكم ، يا رجال .

نظر اليها سيميون بمرح فجاة :

– هكذا ؟ كيف ستحاربن يا نساء ؟ حدثينا .

– سنحارب على طريقتنا ، نحن النساء . سنضع زرنيخا فى طعامهم ... وسنحصل على هذا الزرنيخ . استدرجه الى المتبن او الى الحمام . الست املك ابرة حياكة او غيرها ؟ سأغرزها به فلا تند عنه صرخة . سنبدا نحن فلا تجبنوا ... واذا اقتضى الأمر حملنا البنادق ، فلسنا اسوا منكم ...

ضرب سيميون الارض بقدمه ، وضحك ملء فمه .

– لست امراة ! انت شيطان !

– اتركنى .

وارتدت حذاءها على قدميها العاريتين عند عتبة الباب ، وهى تحرك لفاحها ، وطبطبت به ، وخرجت ، لترى الماشية على ما يبدو . ظل سيميون والكسى يهزان راسيهما طويلا ويضحكان «امراة كالاتمان ، ما هى امراة» . هبت من النافذة المفتوحة نسمة قبيل الفجر ، وداعبت اوراق الدُريقة ، وحملت همهمة ونتفا من اغنية غير روسية . كان الجندى المقيم يعود سكران من بيت الضيعة مثيرا الغبار بحذائه .

شد الكسى النافذة بغيظ .

– خير ان تأوى الى غرفتك ، يا سيميون ، وتستلقى .

– تخاف ؟

– ويستطيع هذا الشيطان السكران ان يتشبث بك ... انه يتذكر كيف هجمت عليه .

– ساهجم مرة اخرى . – ونهض سيميون وذهب الى غرفته – آه ، يا الكسى ، الثورة بسبب ذلك تموت ، بسبب صعوبة انهاضكم ... الم يكفكم ما فعل كورنيلوف ؟ وما يفعل الغايدماك والالمان ؟ ماذا تريدون بعد ؟ (وفجاة قطع كلامه .) انتظر ...

ترامت دمدمة من الفناء ، وطبطبة حذاء ثقيل غير واثقة . وتعالى صوت نسائى حانق : «اتركنى ! ..» ثم ضجيج مقاومة ،

وتنفس ثقيل ، ثم صاحت ماتريونا ثانية بصوت اشد ، وكانه من الم : «سيميون ، سيميون ! ..»

اندفع سيميون من البيت مستفزا على ساقين معوجتين . وامسك الكسى بالمسطبة وبقى على جلسته . ولكن فقد كان يعرف ماذا يحصل حين يندفع المرء على هذه الصورة .. وفكر مع نفسه : «فى المساء تركت الفاس فى الرواق . سيستخدمها اذن ...» صاح سيميون فى الفناء بصوت وحشى . وصدرت ضربة ساحقة . ونش شىء فى الفناء وغرغر ، وسقط ثقيلا .

دخلت ماتريونا مبيضة الوجه كقطعة بياض تجر وراءها لفاحها وانحنت نحو الموقد ، متنفسة بصدرها العالى .. وفجاة هزت يديها على الكسى ، على عينيه ...

ظهر سيميون فى الباب هادئا شاحبا .

– ساعدنى ، يا اخى . لنحمله الى مكان ما وندفنه ...

٥

بلغت القوات الالمانية حدود الدون وبحر آزوف وتوقفت . لقد استولى الالمان على منطقة غنية للغاية اكبر حجما من المانيا كلها . وفى الدون ، مثلما فى اوكرانيا ، اسرعت القيادة الالمانية فى التدخل فى السياسة ، وساعدت اصحاب الاراضى الكبيرة ، والقوزاق الاغنياء الذين كانوا قبل اربع سنوات فقط يتبجحون باحتلال برلين بلا صعوبات . ان هؤلاء القوزاق الركينين العراض الوجوه ذوى الشرائط الحمراء على سراويلهم ، الاقوياء وكانهم صبوا من فولاذ انقلبوا الآن الى حملان وديعة .

قبل ان يصل الالمان الى روستوف هجم جيش قوزاقى مؤلف من عشرة آلاف رجل بقيادة الاتمان بوبوف على نوفوتشيركاسك عاصمة الدون . كانت الغلبة تميل الى جانب القوزاق الحمر الذين يؤلفون حامية هذه المدينة والبلاشفة الذين اسرعوا اليهم من روستوف فى معركة دامية على الهضبة العالية فوق الدون . الا ان حادثة خيالية حسمت الأمر .

جاءت جماعة متطوعين بقيادة العقيد دروزدوفسكي من رومانيا مشيا على الاقدام . وفي ٢٢ نيسان فجأة استولت على روستوف ، واحتفظت بها حتى المساء حين اخرجت منها . وسار رجال دروزدوفسكي في السهب باحثين عن جيش كورنيلوف . وبينما هم في الطريق في الخامس والعشرين من نيسان سمعوا ضجيج معركة قرب نوفوتشيركاسك . فانطلقوا نحو المدينة دون ان يسألوا عن المتحاربين ولماذا يحاربون ، وشقوا طريقهم بسرعة الى احتياط الحمر ، واثاروا فوضى مريعة . ولما رأى قوزاق الدون ان عونا قد هبط عليهم من السماء تحولوا الى الهجوم المضاد ، ودحروا الحمر ، وابعدوهم ، واحتلت نوفوتشيركاسك . وتحولت السلطة من اللجنة الثورية الى «لجنة انقاذ الدون» . وبعد ذلك جاء الالمان .

وتحت حمايتهم سلمت هذه اللجنة في نوفوتشيركاسك — التي لم يترك الالمان حامية فيها عن تعقل — صولجان الاتمان الى الجنرال كراسنوف «الصديق الشخصي للامبراطور غليوم» على حد تعبيره هو . ودقت اجراس الكاتدرائية برنين رقيق ناعم . وتجمهر القوزاق في الساحة الكبيرة المرصوفة امام الكاتدرائية هاتفين «هورا !» وتمنى قوزاق القرية الخير للحكم الجديد .

لم يتوغل الالمان في اعماق الدون وكوبان بعد روستوف . وحاولوا اخضاع قرية باتايسك الواقعة على الضفة اليسرى مقابل روستوف ، والتي يقطنها عمال يعملون في ورش ومعامل روستوف وفقراء الفلاحين . ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على القرية رغم النار الحامية والهجمات الدامية . فقد قاومت باتايسك المحاطة كليا تقريبا بمياه الفيضان مقاومة مستميتة ، وبقيت مستقلة .

ووقف الالمان عند هذا الحد . وقصروا جهودهم على تعزيز سلطة الاتمان ، وتزويده بالاسلحة المأخوذة من مخازن الاسلحة الروسية في اوكرانيا . وعلى هذه الصورة من الحذر حلت مسألة حربية هي الموقف ازاء الجماعتين من المتطوعين : جيش دنيكين وجماعة دروزدوفسكي . سار المتطوعون على وصيتين : القضاء على البلاشفة ، وتجديد الحرب ضد الالمان ، اي الولاء الى الحلفاء حتى النهاية . وكانت الوصية الاولى تبدو للالمان معقولة وجيدة

بينما اعتبروا الثانية حماقة ليست خطرة الى حد كبير . ولهذا تظاهروا بانهم لا يعرفون بوجود المتطوعين . كما تظاهر رجال دنيكين ودروزدوفسكي بانهم لا يلاحظون وجود الالمان على الارض الروسية .

وهكذا اضطرت جماعة دروزدوفسكي ذات مرة لشق مسيرتها من كيشينيف الى روستوف الى عبور نهر . كان الالمان يقفون على احدى ضفتيه ، في بوريسلافل ، والبلاشفة على الضفة الثانية ، في كاخوفكا .

وكان الالمان قد فشلوا في الاستيلاء على جسر على النهر ، وعند ذلك استطاع رجال دروزدوفسكي الاستيلاء على الجسر واخرجوا جماعة الحمر من كاخوفكا ، وواصلوا السير دون ان ينتظروا شكر الالمان لهم .

ووقع رجال دنيكين بنفس التناقض ، ولكن على نطاق اوسع . في نهاية نيسان استطاعت بقايا جيش المتطوعين التي تمزقت عند يكاترينودار ان تصل الى منطقة قريتي يغورليتسكايا وميتشيتينسكايا على بعد حوالي خمسين فرسخا من نوفوتشيركاسك . وهنا هبط عليها خلاص مفاجيء . وهو نبأ استيلاء الالمان على روستوف ، والقوزاق الدون على نوفوتشيركاسك . فترك الحمر المتطوعين بسلام . وفتحوا جبهة ضد العدو الجديد — الالمان .

وتمكن المتطوعون من ان ينالوا قسطا من الراحة ، ويعالجوا الجرحى ، ويستجمعوا قواهم . وكانوا ، قبل كل شيء ، بحاجة الى سد النواقص في عتاد وذخيرة جيشهم .

كانت جميع المحطات من تيخوريتسكايا حتى باتايسك مملوءة باحتياطات هائلة من الاعتدة الحربية للهجوم المضاد الذي يعده الحمر باتجاه روستوف . عندئذ هاجم الجنرالات ماركوف وبوغايفسكي واردلي بثلاثة طوابير اقرب مؤخرة للحمر ، في محطات كريلوفسكايا ، وسوسيكا ، ونوفوليوشكوفسكايا ودمروا القطارات ، ونسفوا القطارات المصفحة ، وعادوا الى السهب بغنيمة هائلة . واحبط هجوم الجيش الاحمر على الالمان .

شفى الكتف المفصوم ، والتأمت الخدوش الصغيرة التي حدثت في المعارك . وقوى روتشين ، واسمر من تلويح الشمس ، وتلاشى شبحه خلال الايام الأخيرة في القرية الهادئة .

لقد المهمة التي كانت تعذبه كمرض الحمى منذ خروجه من موسكو : انتقامه من البلاشفة على الاساءة . كان ينتقم ، وكان ، على اية حال ، يتذكر لحظة واحدة ... لحظة عدْوه نحو سفة الخط الحديدي ... كان الانتصار ... كانت ركبتاه ترتجفان ، والدم ينبض في صدغيه ... خلع طاقيته اللينة ، مسح بها جبينه . وقد فعل ذلك لا شعوريا ، مثل جندي قديم حريص على نظافة سلاحه . لم يكن يحس بالكراهية الجنونية السابقة ، باطواق الرصاص تشد على جمجمته والدم المتدفق الى عينيه . انه قد لحق بعدو ولحز الحزبية لحبه ، وقتلها . اذن ، فقد كان على حق ؟ ويجاهد عقله الآخذ بالصفاء ليفهم : هل هو على حق ؟ نعم ؟ على حق ؟ ولكن لماذا يسأل هو نفسه عن ذلك ؟

كان يوم احد ، وكانت صلاة القداس تقام في كنيسة القرية .

كان روتشين متأخرا فمكث بعض الوقت على مدرج الكنيسة بين الاضرحة المحلوقة حديثا ، وخرج ليتجول في المقبرة القديمة وراء الكنيسة . سار على عشب نمت عليه هندباء برية ، وقلع خصلة عشب ، وقضمها ، وجلس على اكمة صغيرة . كان فاديم بتروفيتش انسانا نزيها ، وكما قالت كاتيا ، انسانا طيبا .

تراءت من النافذة نصف مفتوحة مغشاة بنسيج عنكبوت اصوات اطفال ، وكانت نبرات الشماس بصوته الكثيف غاضبة خالية من الرأفة ، حتى لكأن اصوات الاطفال على وشك ان تفزع ، وتتطاير في ذعر . ووجد فاديم بتروفيتش فكره يطوف في الماضي ، وكأنما يبحث عن شيء وضاء واحفل بالطهر ...

انه يصحو من الفرح ، وراء النافذة الثقيلة العالية سماء ربيعية داكنة الزرقة لم ير مثلها منذ ذلك الحين . وكان في وسعه ان يسمع حفيف الاشجار في الحديقة ، وعلى الكرسي الى جانب السرير الخشبي قميص جديد من الساتان ازرق مرقط فرحا بيوم الاحد . ويفكر ماذا سيفعل طيلة النهار الطويل ، ولمن يلتقي ، وكان لذلك من الاغراء والبهجة ما يجعله يطيل استلقاءه على السرير ...

ويتطلع الى ورق الحائط ، حيث رسمت بتكرار بيوت صينية لها سقوف معكوفة ، وقنطرة شديدة الانحدار ، وصينيان تحت مظلتين ، وصيني آخر في قبعة تشبه طليلة المصباح يصطاد السمك من على القنطرة . صينيون طيبون مضحكون ، ما اطيب عيشهم في البيت عند الجدول ... ويتراءى اليه من الرواق صوت امه : «فاديم ، هل انت جاهز ؟ انا تهيأت ...» وهذا الصوت الهادئ الحبيب يرن في حياته كلها باليمن والسعادة ... ويقف بالقرب من امه والقميص المرقط على جسده ، وهي في ثوب حريري انيق ، وتقبله وتخرج مشطا من شعرها ، وتمشط له : «الآن احسن ، لنذهب ...» وتفتح مظلتها ، وهي تهبط السلم العريض . وكانت خيول عربة «الترويكا» * الصهباء لا تكاد تستقر في مكانها في الساحة المكنوسة المعلمة بآثار المكنسة ، الحصان الايسر يشاكس ، والثاني الاساسي ، الرصين ، يضرب بحافره ، ويقول الحوذي المتبسم المغتبط ذو الكمين الاحمرين البادين من تحت سترة مخملية بلا اكمام رافعا لحيته الشمطاء الى فوق : «كل عام وانتم بخير» ، وتجلس الام بوضع مريح في العربة التي تقاتها الشمس ، وينضغط فاديم على امه بسعادة وتلهبها لسماع صفير الريح في اذنيه ، ورؤية الاشجار المتطايرة الآتية من الجهة المقابلة . وتنطلق «الترويكا» مثقلة حول بيت الضيعة . وهذا هو شارع القرية العريض ، والفلاحون المنحنون واحدا اثر الآخر ، والدجاجات المقاقئة المتراكضة من تحت العجلات . سياج الكنيسة الابيض ، والمرجة الخضراء ، واشجار البتولا المتلفحة البراعم من لونها ، وتحتها صلبان معوجة ، والقبور ... ومدرج الكنيسة الحافل بالمتسولين ... ورائحة البخور الاليفة ...

ما تزال الكنيسة واشجار البتولا قائمة هناك حتى الآن ، وفاديم بتروفيتش يرى بعين خياله خضرتها المطرزة على خلفية السماء الزرقاء ... وتحت واحدة منها — الخامسة من ركن الكنيسة — ترقد الام منذ زمان رقدتها الابدية ، وقد احيط قبرها بسياج . وقبل ثلاثة اعوام كتب الفتدلقت العجوز الى فاديم

---

* عربة تجرها ثلاثة خيول . — المترجم .

بتروفيتش ان السياج قد كسر ، وان الصليب الخشبي قد تخير ... والآن فقط تذكر بندم شديد انه لم يرد على رسالته حتى الآن .

الوجه الحبيب ، واليدان العطوفتان ، والصوت الذي كان يوقظه صباحا ويترعه بالسعادة طوال اليوم ... حب كل شعرة من شعره ، كل خدش في جسده ... يا إلهي كان حبا يزيل عنه كل حزن ، مهما يكن ذلك الحزن . والآن كان كل ذلك قد دفن بالوجه الابكم تحت الاكمة الصغيرة في ظل البتولا مندمجا مع الارض ...

وضع فاديم بتروفيتش كوعيه على ركبتيه ، وغطى وجهه بيديه .

مرت اعوام طويلة . وكان يبدو دائما وكأنه لم يبق الا مطالبة واحدة ، ويصحو ممتلئا بالسعادة في صباح ازرق كما في الماضي سيقوده الصبيان ذوا المظلتين عبر القنطرة المحدودبة الى البيت ذي السقف المعكوف ... وهناك تكون في انتظاره حبيبة قريبة الى القلب بشكل لا يوصف ...

وفكر فاديم بتروفيتش مع نفسه «وطني !» وتذكر ثانية «الترويكا» المنطلقة في القرية «انها روسيا ... ما كان ورمينا ... وقد اختفى ، ولن يكون بعد الآن ... لقد صار الصبي ذو القميص من الساتان قاتلا» .

ونهض سريعا ، وبدأ سيره على العشب واضعا يديه وراء ظهره ، مطرقعا باصابعه . وقادته افكاره نفسها الى حيث كان يظن انه قد صفق باب الماضي بقوة وحدة . فقد كان متيقنا من انه ذاهب الى الموت ... وها هو ، لم يمت ... وما اسهل ان يرقد الانسان الآن في حفرة في السهب مغطى بالذباب ...

وفكر مع نفسه : «الموت سهل ، والعيش صعب ... وفي ذلك يكمن واجب كل واحد منا : ان يقدم للوطن المحتضر لا ركبة حية من اللحم والعظم ، بل كل الاعوام الخمسة والثلاثين التي عاشها ، العواطف ، والآمال ، والبيت الصيفي ، وكل الفاوته ...»

توجع ، والتفت فيما حوله ليعرف هل يسمعه احد . ولكن اصوات الاطفال ما تزال تنشد . والحمامات تهدل على افريز صدئ ... وتذكر بعجالة كالخلسة ، لحظة اخرى ، لحظة الحنيئة التي

لا تحتمل . (ولم يذكر كاتيا بذلك قط .) كان ذلك في موسكو ، قبل عام . وكان روتشين قد علم ، وهو في المحطة ، ان زوج يكاترينا دميتريفنا دفن نفس اليوم ، وانها الآن وحيدة . وقد جاء اليها عند هبوط المساء ، فقالت له الخادمة انها نائمة ، فبقي ينتظر جالسا في غرفة الجلوس . وقالت الخادمة همسا ان يكاترينا دميتريفنا تبكي طوال الوقت : «تدير وجهها الى الحائط في سريرها ، وتبكي كالطفل ، حتى انها تغلق باب المطبخ ...» فقرر ان ينتظر ، حتى لو انتظر الليل كله . وظل جالسا على الاريكة ، يسمع تكتكة الساعة في مكان ما موقعة الوقت ، منتزعة لحظات العمر ، واضعة الغضون على الوجه الحبيب ، ناثرة الشيب الفضي في الشعر ، بلا رأفة ولا هوادة ... وفكر روتشين في ان كاتيا ، اذا لم تكن نائمة ، فهي لا بد ان تفكر في ذلك ، وهي تسمع تكتكة الساعة . ثم سمع خطواتها الواهنة غير الواثقة . وكان كعب احد نعليها قد التوى . كانت تسير في المخدع ، وبدا وكأنها تبحث عن شيء ما . توقفت ، وبقيت بلا حراك فترة طويلة . واخذ روتشين يقلق ، وكأنما فهم افكار كاتيا من خلال الجدار . وصر الباب ، ودخلت كاتيا الى غرفة الطعام ، وراحت تحرك اشياء بلورية في صوان السفرة فترسل رنينا . وانتصب روتشين متحفزا للاندفاع ، ففتحت الباب قليلا : «يا ليزا ، هذه انت ؟» كانت ترتدي روبا من وبر الجمال ، واحدى يديها تمسك بقدح ، والاخرى بقارورة صغيرة تافهة ... كانت تنوي ان تتخلص بهذه الوسيلة من الاسى ، من الوحدة ، من الزمن الذي لا يعرف رأفة ، من كل شيء ... كان وجهها الناحل ذو العينين الرماديتين مثل وجه طفل اهمله الجميع ... جميل لو وجدت نفسها في البيت الصيفي ذاك . قال فاديم بتروفيتش لها عندئذ : «انا تحت تصرفك ، وكل حياتي تحت تصرفك ...» وصدقت هي بأن وحدتها كلها ، كل الاعوام المتبقية من عمرها يمكن ان تغرق في حنيته ، في حبه ...

اوه ، يا للشيطان ! كان بالطبع يعرف دائما ان كاتيا لم تتخل عنه لحظة واحدة ، حتى حين كانت الكراهية تضغط على رأسه مثل طوق من رصاص . وفي هذا الشهر الرهيب للمعارك ايضا ، كانت تسد عليه طريقه بظل غير مرئي ، باسطة يديها ، ومتوسلة

بلا صوت ، وهو ، الذى بح صوته من الصياح الجنونى غرز حربته فى معطف جندى أحمر ، غرزها عبر ذلك الظل الملازم له ، وخلع طاقيته ، ومسح النصل بها . . .

انتهى القداس . وخرج من الكنيسة جمهور من الضباط وطلاب المدارس العسكرية ملوحى الوجوه . وسار الجنرالات المشهورون متمهلين وعيونهم صارمة ، وقمصانهم نظيفة ، وصدورهم مزينة بالنياشين والصلبان : ارديلى الطويل الوسيم المشوق القوام كالصورة المرسومة بلحيته المنفرجة وطاقيته المائلة ، وماركوف اللاذع بقبعته الفرائية المثلثة ، وكوتيبوف القصير الربع المتين الافطس الأنف ذو العينين الشبيهتين بعينى دب ، والقوزاقى بوغايفسكى بشاربيه المفتولين . ثم خرج دنيكين ورومانوفسكى البارد «العويص» كما يسمى فى الجيش بوجهه الجميل الذكى ، وكان الاثنان يتحادثان . وانتصب الجميع لمدى رؤية القائد العام ، والذين كانوا يلعبون تحت اشجار البتولا رموا سكائرهم .

لم يعد دنيكين ذلك البائس بحذائه البالى وملابسه المدنية ، «العجوز» المصاب بالتهاب القصبات ، الذى تعلق بعربات الجيش دون متاع . فقد انتصبت قامته ، وحسنت قيافته ، وكانت لحيته الشائبة توحى لكل الناس بالاحترام الابوى ، وقد تدورت عيناه ، وامتلأتا ببقيق الصرامة مثل عينى الصقر . وطبيعى انه ليس كورنيلوف الا انه كان اكثر الجنرالات تجربة وتعقلا . رفع اصبعين الى طاقيته العسكرية ، ومر ببوابة الكنيسة فى ابهة ، وجلس فى العربة مع رومانوفسكى .

اقبل تيبلوف الطويل القامة على روتشين . كانت يده اليسرى فى رافعة ، ومعطف الخيالة المدعوك ملقى على كتفيه ، وقد حلق بمناسبة العيد ، وكان فى مزاج ممتاز .

— هل سمعت الاخبار ، يا روتشين ؟ سيحتل الالمان والفنلنديون بطرسبورغ ان لم يكن اليوم فغدا ، وهم تحت قيادة مانيرهايم ، هل تذكره ؟ الجنرال من حاشية القيصر ، فتى شاطر ، مقاتل ممتاز . . . وفى فنلنده نحروا جميع الاشتراكيين . والبلاشفة ينسلون من موسكو ، ومعهم حقائبهم ، عبر ارخانغلسك . انها

حقيقة ، كلمة شرف . . . وصل الملازم سيفيليكوف من تولوتشين كاسك ، وهو يروى ذلك . . . اما فى تولوتشين كاسك فيقول ان النساء والفتيات رائعات كاغصان البان ، لكل رجل عشر منهن . . . (وافرج رجليه النحيلتين المطويتين عند الركبتين ، وضحك ضحكة جعلت تفاحة آدم ترتفع من وراء ياقة قميصه .)

لم يشجع روتشين الحديث عن النساء والفتيات فعاد تيبلوف الى الاخبار السياسية التى كان يحياها الجيش ، وهو فى اعماق السهب .

— تبين ان موسكو كلها ملغمة . الكرملين والكنائس والمسارح ، واحسن المبانى جميعا ، واحياء كاملة . وقد مدت اسلاك كهربائية الى سوكولنيكى ، فان هناك بيتا سريا يحرسه اعضاء اللجنة الاستثنائية ليل نهار . . . تصور سنقترب واذا بكل شىء ينسف ! وتتطاير موسكو فى الهواء . . . (وانحنى ، وخفض صوته .) انها حقيقة ، كلمة شرف . . . وقد اتخذ القائد العام تدابير مناسبة ، ارسلت الى موسكو استطلاعات خاصة للعثور على هذه الاسلاك . عندئذ سنقترب من موسكو ، ولا ندعهم ينسفونها . . . وبالمقابل سنشنقهم ! فى الساحة الحمراء ! جميل ! على ملأ من الناس وعلى قرع الطبول .

تعبس روتشين ، ونهض :

— من الخير أن تظل على حديثك عن الفتيات ، يا تيبلوف ،

— يعنى ، لا يعجبك ؟

— نعم ، لا يعجبنى .

ونظر روتشين بتصميم فى عينى تيبلوف القحبتين البليدتين ، فامال هذا فمه الى جانب .

— يبدو انك لم تنس جراية الحمر .

رفع روتشين حاجبيه ، وتقدم منه :

— ماذا ؟ ماذا قلت ؟

— قلت ما يقوله فوجنا كله . . . حان الوقت الان تبلغ عن عملك فى الجيش الاحمر ، يا روتشين . . .

— حقير !

ولم ينقذ تيبلوف من صفعة الا كون يده على واقعـــة ، وما يزال يعتبر جريحا . لـم يضربـه روتشين ، واستدار الى الوراء بحدة واضعا يده وراء ظهره ، وسار بين القبور متخشبا مرفوع المنكبين .

عدّل تيبلوف معطفه المنسرح ، ابتسم ابتسامة متكدرة ، ونظر الى ظهر روتشين المستقيم . في تلك اللحظة وصل الملازم فون ميكه ، ومعه نقله الملازم فاليريان اونولى . وهو شاب ذو وجه منمش وعينين وضاءتين حالمتين واسعتين ، ابن صاحب معمل التبغ من سمفيروبول يرتدى معطف طالب مستهلكا ملطخا ببقعات بنية ، عليه كتافيتا ضابط صف .

— ماذا حدث بينكما ؟ تشاتمتما ؟ — سأل فون ميكه بصوت حاد كصوت الصلّم في العادة .

جذب تيبلوف شاربه ، وهو ما يزال منتعشا ، وروى كل المحادثة بينه وبين المقدم روتشين .

قال اونولى ذو العينين الحالمتين بسآمة :

— عجيب انك ما تزال مندهشا ، ايهـا السيد النقيب . كـان واضحـا لى منذ اليـوم الاول ان المقدم روتشين جاسوس .

— اسكت ، يا فاليا ، — قال فون ميكه وهو يغمز بالنصف الايسر من وجهه الذى اصيب بصدمة قنبلـة . — والشيء المهم ان الجنرال ماركوف يعرفه شخصيـا . . . ولذا يجب ان تكـون حذرا . . . امـا انا فاراهن بـسنتى على ان روتشين بلشفى ، ووغد ، وقذر . . .

حتى نهاية شهر ايار كان الهدوء النسبى يسود شمـــال القفقاس . فقد كان كلا الطرفين يستعد للمعركـة الحاسمـة . المتطوعون يتهيأون للاستيلاء على نقاط الالتقاء الرئيسيـة على الخطوط الحديدية ، وقطع القفقاس ، وتطهير المنطقة من الحمر بمعونة القوزاق البيض . واللجنة التنفيذية المركزية لجمهوريـة كوبان–البحر الاسود تتهيأ للقتال على ثلاث جبهات : ضد الالمان ،

وضد القوزاق البيض ، وضد «عصابات دنيكين» التى انتعشت من جديد .

وكان جيش القفقاس الاحمر المؤلف فى معظمـه من الجيش القيصرى السابق لما وراء القفقاس ، والاغراب من المناطق الاخرى وشبيبة القوزاق المالكة لقطع صغيرة من الارض يصل فى عدده الى مائة الف مقاتل . وكان اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية يشكون فى ان لقائده العام — افتونوموف — ميولا دكتاتورية . كان فى حالة شجار دائم مع الحكومة . وقد وصف اعضاء اللجنة التنفيذيـة المركزية فى احد الاجتماعـات الحاشدة الكبيرة بجواسيس الالمان والمستفززين . وردا على ذلك «وصمـه» اللجنة مـع سوروكين المقرب اليه بانهما قاطعا طريق ، وعدوان من اعـداء الشعب ، ونعتتهما باللعنة والعار الابدى .

وكل هذا التشاجر شلّ الجيش ، وبدلا من الشروع بهجوم مركز بثلاث مجموعات على جيش المتطوعين الذى كان فى وسط هذه المجموعات ، شاع الاضطراب فى الجيش الاحمر ، وصار يعقـد اجتماعات حاشدة ، ويسقط امراء الوحـدات ، وكان فى احسن الاحوال عرضة لهلاك مأساوى .

واخيرا تغلبت المراسيم الصادرة من موسكو على عناد المناطق فى الاطراف ، وعين افتونوموف مفتشا فى الجبهة ، وانتقلت قيادة المجموعة الشمالية الى المقدم كالنين وهو لا يلى جهم المظهر ، بينما بقى سوروكين قائدا للمجموعة الغربية .

وفى ذلك الوقت بالذات انضم الى جيش المتطوعين العقيد دروزدوفسكى بجماعته المؤلفة من ثلاث آلاف ضابط صار من نخبة ضباطه يعادل كل منهم فى القتال عشرة من الجنود الاقتار ، وتدفق القوزاق القرى على افراسهم ، وبدأ الضباط يصلون من بتروغراد وموسكو ومن كل ارجاء روسيـا وحيدا وجماعات ، وقد بلغت اسماعهم معجزة «الحملة الجليدية» . وارسل الالمان كراسنوف السلاح والمال رغم شحه . فكان جيش المتطوعين يقوى كل يوم ، وقد رفعت عزيمته الدعاية المقتدرة للجنرالات ورجال المجتمـع ، والعمليات غير البارعة للسلطة السوفييتية المحلية ، واقوال شهود العيان القادمين من الشمـال .

وفي نهاية ايار لم تكن قوات الحمر السخنية بقادرة على سحق جيش المتطوعين . فتحولت الى الهجوم ، ووجهت ضربة رهيبة الى المجموعة الشمالية للجيش الاحمر بقيادة تالتين في محطة تورغوفايا .

– لماذا كففتم عن الغناء ، يا رجال ؟
– بحت اصواتنا .
– دعوني آخذ جمرة .

وقرفص ايفان ايليتش عند النار الى القيت فيها من الاعلى لوحة الخط الحديدي الخشبية الواقية من الثلج ، ولما اشتعل الغليون بقى ليتشمس .

كان الوقت متأخرا . وقد انطفأت كل النيران تقريبا على طول خط السكة الحديدية . وفي الليل الطرى لمعت نجوم كثيرة . كانت النار تضيء الى الاعلى على مدة الخط قطارات البضاعة وهي عربات الحمولة الحمراء بلون الآجر ، المحطمة والممزقة . لقد جاء بعضها من سواحل المحيط الهادي ، والبعض الآخر من المستنقعات القطبية ، ومن رمال توركستان ، ومن الفولغا وبوليسيه . وكانت كل عربة تحمل ملاحظة «الترجيع على الفور» . ولكن المواعيد كلها قد فاتت منذ زمان . وها هي هذه العربات المعدة للعمل السلمي المصطبرة على المحن طويلا بمحاورها التي لم تدهن ، وجوانبها المحطمة كانت مهيأة – وهي تستريح الآن تحت النجوم – الى عمل خيالي كليا . انها ستلقى بقطاراتها الكاملة وحمولتها عن الخط . بعضها سيحشى بالاسرى من الجنود الحمر كالسردين في العلب ، وبوشحت ابوابه وابوابه بالالواح ، ليسير آلاف الاميال وقد عُلِّم بالطباشير : «حمولة غير قابلة للفساد . سرعة بطيئة» . وبعضها يصبح مقابر للمصابين بالتيفوس ، وثلاجات لنقل الجثث المجمدة ، وبعضها ينسف ويتطاير شظايا في السماء ... وفي مناطق سيبيريا النائية ستستخدم ابوابها وجدرانها لصنع اسيجة وزرائب للماشية . وستنقضي شهور عديدة قبل ان يعود السليم منها نصف محروق . مضعضعا الى المكان الذي طالب بعودته الفورية ، ويقف على القضبان المعدلة للتصليح .

– ماذا يكتبون من موسكو ، يا رفيق تليغين . هل ستنتهي الحرب الاهلية قريبا ؟
– عندما ننتصر .
– يعني ... انهم يزعلون علينا ! ...

كان بعض الذين عند النار يستلقون باسترخاء ملتحين ملوحي البشرة سود ... لم تكن لهم رغبة في النوم ، ولا في حديث طويل ، طلب احدهم تبغا عند تليغين .

– يا رفيق تليغين ، من هم هؤلاء التشيكوسلوفاكيون ومن اين جاءوا الينا ؟ انهم حسب ما اذكر لم يكونوا في الوجود قبل هذا ...

اوضح ايفان ايليتش ان التشيكوسلوفاكيين هم اسرى الحرب النمساويين ، وقد بدأت الحكومة القيصرية تشكل منهم فيلقا لترسله الى فرنسا ، ولكن الوقت لم يتسن لها لتفعل ذلك ...

– اما الآن فان السلطة السوفييتية لا تستطيع ان تسرحهم ما داموا يريدون يحاربوا في الجبهة الامبريالية ... وقد طالبنا بتجريدهم من السلاح ، ولهذا تمردوا ...
– امعقول اننا سنحاربهم ايضا ، يا رفيق تليغين ؟
– لا احد يعرف شيئا الآن ... المعلومات غير محددة تماما . انا اشك في ذلك ... عددهم حوالى اربعين الفا . لا اقل ...
– اذن ، من السهل ان نقضي على هذا العدد ...

وعاد الصمت يلف المجتمعين عند النار ، قال الذي طلب تبغا من تليغين ناظرا من مؤخر عينيه ، والظاهر لجوء الاشتراك في الحديث :

– في عهد القيصر ارسلونا الى صارا كاميش . ولم يوضحوا لنا شيئا : لماذا يجب ان نحارب الترك ، وفي سبيل من نضحي بحياتنا . والجبال في تلك البقعة عظيمة . وننظر ونفكر بان امك ولدتك في ساعة نحس ... اما الآن فالامر مختلف . انها حرب في سبيلنا ، حرب استقلالنا . كل شيء مفهوم : ضد من ولأي شيء .
– حدثني على سبيل المثال . يشعرتني تشيرتوغولوف .
قال جندي آخر بصوت كثيف رافعا جسمه على كوعه ، وجلس

في مكان اقرب الى النار حتى لكاد من المدهش ان النار لم تحترق لحيته . كان ذا شكل مخيف ، وشعره الاسود نازل على جبينه ، وعيناه المستديرتان تلتهبان في وجهه الملوح . ثم استطرد يقول :

— كنت في الشرق الاقصى مرتين ، وقضيت في السجن مدة متفاوتة على التشرد . . . طيب . ومع ذلك وضعوني في الثكنة ، واعطوني بطاقتي العسكرية ، وارسلوني لاحارب . . . جرحت ستة جروح . . . هذه هي . انظروا — ووضع اصبعه في فمه ، وجذبه الى طرف ، وكشف عن اسنان مكسورة — ودبرت امرى ، ووصلت الى موسكو ، الى مستشفى عسكرى ، وهناك وجدت البلاشفة . . والتهمت كل متاعبي . سألوني : وضعك الاجتماعي ؟ اجبتهم لا تبحثوا بعيدا . انا سليل عامل زراعي محترم ، لا اعرف اقارب لي . فضحكوا كثيرا واعطوني بندقية ، وترشيحا . وصرنا في ذلك الوقت نجوب المدينة باحثين عن البرجوازيين . . . اذا دخلنا الى شقة فاخرة نجد اهلها خائفين ، بالطبع . . نبحث فنجد انهم قد اخفوا الملح والسكر . . . الاوغاد ! انهم خائفون يرتجفون ، ولكن لا تند عنهم كلمة واحدة . واحيانا يطير بي الغيظ واخرج عن الطور[illegible] الانسانية . تحدث يا وغد ، واشتم وتوسل بي . . . اسميه ابن الـكـلـب . ولكن لن اجده يتحدث . . . فاقول لنفسي : ما هو القضية ؟ . . واحس بالاهانة . عشت طوال عمرى ، وعملت لهؤلاء الابالسة ، وارقت من اجلهم دمي . . . وهم لا يعتبرونني انسانا وافكر : هؤلاء هم ، البرجوازيون : منذ ذلك الحين صار يحرقني الحقد الطبقي . حسنا . . . ذات مرة كانت تجب مصادرة بيت التاجر ريابينكين . كنا اربعة ومعنا رشاشة لاثارة الخوف . وتطرق الباب الخارجي . وبعد قليل تفتح لنا الباب خادمة انيقة ، وقد شحبت واضطربت متلجلجة : آه ، آه . . . وسارت على اطراف اصابعها . . . نحيناها جانبا ، ودخلنا صالة ، لغرفة كبيرة مزينة باعمدة . وفي الوسط مائدة كان يجلس اليها ريابينكين وضيوفه ياكلون الفطائر ، حدث ذلك في اسبوع المرافع وكان الجميع سكارى بالطبع . . . كان ذلك في وقت يموت فيه البروليتاريون جوعا ! . ولذا ضربت الارض بالبندقية بشدة ، وصرخت بهم بصوت عال ! بينما هم جالسون يتسمرون . . . ونهض ريابينكين للقائنا متوردا

مرحا ، وعيناه جاحظتان ويقول : "ايها الرفاق الاعزاء ، انا اعرف منذ زمان انكم ستصادرون بيتي بكل محتوياته ! امهلوني لانتهي من العشاء . بالمناسبة ، اجلسوا معنا . . . ولا عيب في ذلك لانه هذا كله ملك للشعب" ويشير الى المائدة . . . اخذنا نتردد ، ولكننا جلسنا الى المائدة ، ونحن نمسك البنادق متجهمين . . . اما ريابينكين فقد قدم لنا الفودكا والفطائر والشهيات . . . وتحدث وضحك . . . لم يترك شيئا لم يتحدث فيه ، مقلدا اشخاصا نعتوها بلاذع الكلام . . . والضيوف يقهقهون . . . واخذنا نحن نضحك . . . وقيلت نكات مختلفة عن سلوك البرجوازيين ، وبدا جدال . ولكن كلما تحسى احدنا قليلا اغرق صاحب البيت عروسه بالفودكا ، شربنا باكواب للشاي ، ولم نشرب بعدها . . . وبداوا يحضرون زجاجات الشمبانيا ، فوضعنا بنادقنا في ركن . . . واقول لنفسي : "يا تشيرتوفوتوف ، اهذا انت تسير في الصالة ، وتتعلق بالاعمدة ؟" وبدانا نغني الاغاني جماعيا ، وعند المساء تركنا الرشاشة على مقدمة البيت ، كيلا يدخل شخص غريب علينا ، وبقينا نشرب ستا وثلاثين ساعة . استرجعت فيها ما خسرته خلال حياتي البكماء . ومع ذلك فان ريابينكين قد خدعنا ، ذلك التاجر الخبيث ! . . بينما كنا نمرح ونشرب استطاع — بمساعدة الخادمة في ذلك — ان يخفي كل المجوهرات والذهب والعملة الاجنبية ، ومختلف الاشياء الثمينة في مكان مامون . . . لقد خبأها لحد الجدران والاثاث . . . وعند الانصراف قال ريابينكين مودعا ، وهو سكران بالطبع : "ايها الرفاق الاعزاء ، خذوا ، خذوا كل شيء ، انا لا آسف على شيء . لقد خرجت من الشعب ، واعود الى الشعب . . ." وفي ذلك اليوم رحل خارج القطر . اما انا فاستدعيت الى اللجنة الاستثنائية . قلت لهم : "مذنب انا ، ارموني بالرصاص" . الا انهم لم يرموني الا لكوني غير واع . وانا حتى الآن سعيد لانني قد تمتعت . . . هناك شيء يستحق ان اذكره . . .

قال احد الجالسين وراء الدخان :

— هناك الكثير من الخبثاء بين البرجوازيين ، ولكنهم ليسوا قلة بيننا .

توجهت الانظار اليه . وقال الذي طلب تبغا من المهيض :

— لا احد يوقف الشعب الآن ، ما دام قد خاض الدم فى عام ١٩١٤ . . .

قال صوت من وراء الدخان :

— ليس هذا ما اعنيه . العدو عدو ، والدم دم . . . ولكن سبب الغباء .

— وانت من ؟

اجاب الصوت خافتا :

— انا ؟ انا غبيت .

عندئذ صمت الجميع ، وراحوا ينظرون فى الجمر الواهن . سرت اروشة فى ظهر تليغين . كان الليل طريا . انقلب شخص عند النار ، واستلقى موسدا خده على قبعته .

نهض تليغين ، وتمطى ، وعدل من هندامه ، وحين انزاح الدخان الآن صار من الممكن رؤية «الغبيت» جالسا طاويا رجليه فى الجانب الآخر من النار . كان يقشر نصل الافسنتين وكان الجمر يضيء وجهه الطويل الناحل بشعره المزغب الفاتح قليلا ، وحوصته الشبيهة بنعومة وجه نسائى . وقد سرح على تقاء طاقية مستهلكة ، ووضع على كتفيه العسيقين معطف جندى . كان عاريا حتى الحزام . كان القميص ، الذى كان يبحث فيه عن قمل كما يبدو ، مرميا بالقرب منه . لاحظ ان العيون متجهة اليه فرفع راسه ببطء وابتسم ابتسامة طفولية بطيئة .

عرفه تليغين . كان احد المقاتلين فى سريته . واسمه ميشكا سولومين من الفلاحين القاطنين بالقرب من مدينة يلبتس ، وقد تطوع فى الحرس الأحمر ، وجاء الى شمال القفقاس من جيش سيفرس .

ما ان التقت عيناه بعينى تليغين حتى خفضهما ، وكأنه قد ارتبك . عندئذ فقط تذكر ايفان ايليتش ان ميشكا سولومين معروف فى السرية كناظم اشعار ، ومسكر معربد ، رغم انهم لم يروه سكران الا نادرا . القى المعطف عن كتفيه بحركة كسولة ، واخذ يلبس قميصه . ارتقى ايفان ايليتش السلم الى عربة الركاب ، حيث راى مصباح الكيروسين يشتعل ساهرا فى النافذة الوحيدة فى مقصورة آمر الفوج سيرغى سيرغييتش سابوجكوف .

ومن على السلم كانت النجوم ونقاط النار المرتبكة على الهمود على الارض فى الاسفل تبدو اكثر وضوحا .

مد سابوجكوف راسه من النافذة ، وفى فيه غليونه المعكوف وقال :

— تعال ، يا تليغين ، عندى ماء مغلى .

كان مصباح الكيروسين المثبت على الجدار الجانبى يرسل ضوءا شاحبا فى المقصورة المهلهلة فى الدرجة الثانية ، فيضيء السلاح المعلق من خطافات ، والكتب المبعثرة فى كل مكان ، والخرائط العسكرية . كان سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف فى قميص قذر من الجيت ، وقد التفت الى تليغين لدى دخوله ، وساله :

— هل تريد كحولا ؟

جلس ايفان ايليتش على التخت . ترامى سجع سمان من النافذة المفتوحة مع طراوة الليل . خرج احد الجنود من عربة مجاورة ، وهو بين النوم واليقظة . يسير بخطوات متعثرة لقضاء حاجته . واهتزت اوتار «البالالايكا» خافتة الرنين . وارتفع صياح ديك من مسافة قريبة . وكان الليل قد جاوز نصفه .

سال سابوجكوف ، وقد فرغ من تهيئة السخان :

— ديك صحيح ؟

كانت عيناه صفراوين ، ووجهه النحيل مبقعا ببقع حمر . . . تلمس التخت وراءه ، وعثر على النظارة الانفية ، ووضعها على انفه ، واخذ ينظر الى تليغين :

— اذن ، فان الفوج يملك ديكا حيا ؟

— جاء نازحون جدد ، وقد اخبرت المفوض بذلك ، عشرون عربة بنساء واطفال . . . اية لعنة عليه — قال تليغين مقلبا الشاى فى القدح .

— من اين جاءوا ؟

— من قرية بريغولنايا ، طابور كبير ، وقد هاجمهم القوزاق فى الطريق . كلهم غرباء ، فقراء ، شكل ضابطان قوزاقيان فى قريتهم جماعة ، وانطلقوا فى الليل ، وفتشوا البيوت ، وشنقوا عددا من رجال القرية .

قال سابوجكوف ناطقا كل حرف بوضوح :

– وباختصار ، حادثة اعتيادية .

وبدا في سكر شديد ، دعا تليغين الى ان يرفه عن نفسه . . كان جسم تليغين يئن كله من التعب ، ولكنه احس بان الجلوس في مكان دافئ واحتساء الشاي سيريحانه حتى انه لم ينصرف رغم ان الحديث مع سيرغي سيرغييفيتش لن يأتيه بجدوى .

– اين زوجتك ، يا تليغين ؟

– في بتروغراد .

– انت رجل غريب . في زمن السلام يمكن ان تكون مواطنا سعيدا كل السعادة . زوجة طيبة ، واطفال صالحون ، وغراموفون . . . ولكن اي شيطان جعلك تدخل الجيش الاحمر ؟ سيقتلونك . . .

– لقد اوضحت لك الامر من قبل .

– تناور لتدخل الحزب ؟

– اذا كان الامر يقتضي فسادخل الحزب .

قال سابوجكوف ، وتملص عينيه من وراء زجاج النظارة الانفية المعكر :

– اما انا فحتى لو سلقتني في ثلاثة مراجل لما جعلتني شيوعيا . . .

– اذن ، لو كان هناك رجل غريب من بيننا فهو انت ، يا سيرغي سيرغييفيتش ! .

– لا ، ابدا . لي عقل غير دياليكتيكي . . . طبيعة وحشية تبنى دائما على الغاب . هكذا ! تقول انني غريب ؟ (وضحك باستهزاء ، وبارتياح على ما يبدو .) منذ تشرين الاول وانا احارب في سبيل السلطة السوفييتية . هكذا ! هل قرأت شيئا لكروبوتكين ؟ *

– لا ، لم اقرأ .

– ذلك واضح . . . سلام ، يا اخ . . . العالم البرجوازي متآكل ومضجر بشكل جهنمي . . . واذا انتصرنا فسيكون العالم

* كروبوتكين (١٨٤٢–١٩٢١) احد كبار رجال الفوضوية ومنظريها في روسيا . – المترجم .

الشيوعي ايضا مضجرا واعتياديا ، فاضلا ومضجرا . . . وكروبوتكين شيخ طيب . . . عنده شعر واحلام ، ومجتمع بلا طبقات . انه شيخ رفيع التربية : «اعطوا للناس حرية فوضوية ، وحطموا مواطن الشر في العالم ، اي المدن الكبيرة ، وستقيم الانسانية اللاطبقية جنة ريفية على الارض ، لان المحرك الاساسي في الانسان هو حب القريب . . .» ها – ها . . .

وضحك سابوجكوف ضحكة مجلجلة ، وكأنه يريد ان يعوي نحيحا ، ونطت نظارته الانفية على انفه المعظمي ، والتمس تحت الثلث ، وهو يضحك ، واخرج علبة قصديرية فيها كحول ، وصب في قدح ، وشرب ، وقضم قطعة سكر ميشما اياها تحت اسنانه .

– ان مأساتنا ، يا عزيزي ، هو انتا ، نحن المثقفين الروس ، قد نشأنا في الحضن الوادع لنظام القنانة ، واخافتنا الثورة لا الى حد الموت ، بل الى حد التقيؤ اللعين . . . لا يجوز المبالغة ناس وادعين الى هذه الدرجة ! ها ؟ كنا نجلس في عشنا الريفي ، ونفكر مستمعين الى صداح الطيور : «ليتك لو نظمت الحياة بشكل يجعل كل الناس سعداء . . .» من هذه البيئة خرجنا . . . والمثقفون في الغرب عقول كبيرة ، زبدة البرجوازية يتداولون مهمة ملحة : تطوير العلم والصناعة ، ونشر سراب المثالية الدوامي في العالم . . . المثقفون هناك يعرفون لماذا يعيشون . . . اما نحن ، فالعياذ بالله ! . . منْ نخدم ؟ وما هي مهماتنا ؟ من جهة نحن جزء لا يتجزأ من النزعة السلافية ، ونحن ورثتها في الفكر . وما هي النزعة السلافية ، الا تعرف ؟ انها مثالية اصحاب الاراضي الروس . ومن جهة اخرى ان برجوازية وطننا تدفع لنا المال ، ونحن نعيش على حسابها . . . بينما نحن نخدم الشعب وحده . . . يا للغرابة ، الشعب ! . . تراجيديا كوميدية ! وقد بكينا على مصالح الشعب كثيرا حتى شحت دموعنا . . . وعندما عرفنا من امكانية ذرف الدموع لم نجد ما نعيش به . . . وصرنا نعلم بان فلاحينا سيصلون قريبا الى القسطنطينية ويصعدون الى القبة ، ويركزون صليب الارثوذكسية فوق كاتدرائية القديسة صوفيا . . . حلمت بان اهدي الكرة الارضية للفلاحين فاطلقتنا بالمطارق ، نحن المحسنين العالمين الباكين . . . فضيحة فريدة

من نوعها ! رعب مريع !.. ويبدأ التخريــــب ، يا عزيزي ...
ويحاول المثقفون التراجع ، وتخليص رؤوسهم مــن الربقة : «لا اريد ، حاولوا ان تدبروا الامر بدوني . . .» كان ذلك وروسيا على شفا هاوية مميتة . . . خطأ فادح غير قابل للتصحيح . وسبب ذلك في اننا جميعا قد تربينا تربية ارستقراطية ، وتخيليون جدا غير قادرين على فهم الثورة خارج الكتب . . . والكتب تتحدث عن الثورة وكأنها السحر الحلال . . . وهنا يهرب الجنود من الجبهــة الالمانية ، ويغرقون الضباط ، ويمزقون القائد العام ، ويحرقون الضياع ، ويتصيدون زوجات التجار على الخطوط الحديديــة ، وينتزعون من الاماكن المصونة فيهن اقراط الماس . . . لا ، لن نلعب مع مثل هذا الشعب وكتبنا خالية من اي وصف له . . . فما العمل ؟ لان نذرف دموعا غزيرة في بيوتنا ، ولكن المصيبة اننــا نسينا كيف نذرف الدموع !.. تحطمت احلامنا تماما ولفقد مــا نعيش به . . . وهكذا نحن من الرعب والقرف ندفن رؤوسنا تحت الوسائد ، ويهرب بعضنا الى خارج الوطن ، اما الذين اكثر حمقا فيشهرون السلاح . وتحصل فضيحة في عائلة كريمة . . . أمــا الشعب ، وسبعون بالمائة منه اميون ، فلا يعرف ماذا يفعل بما تراكم فيه من كراهية ، ويخوض في الدم والرعب . . . فيقــول : «حالوا! ، شربوا بعضنا ! حطموا المرايا اذن ، واقلعوا كل شيء من الجذور !» زمرة واحدة بين المثقفين احتفظت باتزانها . انهــم الشيوعيون ، ماذا يفعل الناس حين تأخذ سفينة بالغرق ؟ يقذفون خارجها بكل ما هو زائد . . . واول ما فعله الشيوعيون هو ان قذفوا ببراميل المثالية الروسية القديمة خارج سفينتنا . . . وكل ذلك عمــــل زعيمهم ، الــــ[illegible] روسي . . . واحس الشعب رأسا ، وبحاسة غريزية ان هؤلاء هم من جماعته ، وليسوا سادة ، انهم لن يتباكوا ، وانهم سيديرون الأمر بسرعة . . . ولهـــذا السبب ، انا معهم ، يا عزيزي ، رغم انني قد تربيت في دفيئــة كروبوتكين الزجاجية ، في الاحلام . . . وما اكثر الذين من امثالي ! لا تكشر ، يا تليغين . انت على العموم جنين ، بدائي وفــرح . . . بعضنا ، اذا اردت ان تعلم ، يحتاج الى ان يقلب ، عن وعي ، ظهرا على بطن . عندئذ سنشعر بكل لحمة ، مؤكدين في انفسنا القــوة

الارادية الواحدة : الحقد . . . ولا يجوز ان نحارب بدون ذلك . . . انما نعطي كل ما في الطاقة الانسانية ونضع امامنا غاية يسمو الشعب نحوها . . . ولكننا زمرة . . . والاعداء في كل مكان . . . هل سمعت بالتشيكوسلوفاكيين ؟ سيأتي المفوض ويحدثك عنهم . . . هل تدري ، ماذا اخاف ؟ اخاف ان يكون ذلك انتحارا لنا . لا أثق بانتصارنا . سنصمد شهرا او شهرين او ستة اشهر ، ولا نصمد اكثر . . . نحن هالكون ، يا اخي . . . سينتهي كل شيء بالعودة الى الجنرالات . . . وانا اقول لك ان اللوم في كل ذلك يقع على الصغار الفلاحية . . . عندما بدأ تحرير الفلاحين كان يجب ان نصرخ : «النجدة ، سنهلك . نحن بحاجة الى الزراعة المكثفة ، الى تطوير شديد للصناعــــة ، الى تعليم عام . . . وليخرج من بين الفلاحين بوغاتشيف جديد ، وستينكا رازين جديد . لا يهم من هو الذي يحطم صفائح الثلاثة تحطيما كليا . . .» هذه هي الاخلاق التي كان يجب ان نلقيها بين الجماهير ، بهذه الاخلاق نربي المثقفين . . . ولكننـــا اسرفنا في ذرف سيول من دموع الفرح . «يا ربي ، ما ارحــب روسيا وما اشد اصالتها ! الفلاح هو الآن كالهواء ، وضباب ملائكي الارض بالآنسات الموسوقات في قصص تورجينيف سليمة ، والروح متطرفة في شعبنا ليس كما هي الحال في الغرب التصحيح . . .» وها هو الآن انا ينحل كل حلم !

ولم يستطع سابوجكوف ان يقول اكثر من ذلك . فقد توهج وجهه ولكنه لم يقل الشيء الاهم على ما يبدو . جلس تليغين فاغر الفم مقهورا يلتقط كلماته . وقد وضع قدح الشاي البارد علـى ركبتيه . ترددت وقع اقدام في ممر العربة تبدو لانسان ثقيل جدا ، وانفتح باب المقصورة ، وظهر رجل ربع القامة عريض المنكبين اشعث الشعر الفاحم على جبينه الواسع . جلس صامتا قرب المصباح واضعا يديه الكبيرتين على ركبتيه . كانت الغضون القليلة تبدو كالندوب على وجهه الملوح بالريح . وكانت عيناه لا تظهران ، وهما في ظل الحاجبين المتدليين . انه رئيس الشعبة الخاصــة للفرع ، الرفيق لمبزا .

سأل بصوت غليظ وبلهجة جافة :

— الكحول مرة اخرى . حذار ايها الرفيق . . .

قال سابوجكوف :

– اى كحول ! أوه ، اذهب الى جهنم . ها انت تراننا نشرب شايا .

فهدر غيمزا دون ان يتحرك :

– واسوأ من ذلك ان تكذب . رائحة الكحول تفوح من نافذتك . بدا اضطراب في العربات ، فان الجنود يتلمسون . . . وهل متاعبنا قليلة ؟ والشيء التالي انك بدأت تتحدث في الفلسفة حديثا لا نهائيا احمق ، ومن هنا استنتج انك سكران .

– حسنا ، سكران . ارمني .

– لا احتاج الى وقت طويل لكي ارميك ، وانت تعرف ذلك جيدا . اما اصطبارى عليك فراجع الى اخذى بعين الاعتبار صفاتك القتالية . . .

قال سابوجكوف :

– اعطني تبغا .

اخرج غيمزا من جيبه كيس قماش بوقار ، ثم تابع كلامه مخاطبا تليغين بصوت بطيء ، وكأنه يطحن بالرحى .

– المرة بعد الاخرى نفس المنظر غير المقبول : في الاسبوع الماضي رمينا بالرصاص ثلاثة اوغاد ، وقد استجوبتهم بنفسي . متعفنون . احترقوا بكل شيء . وفي الحال حصل على كحول . . . واليوم رمينا وغدا خبيثا ، من استخبارات دنيكين . قبض عليه بنفسه بين نبات الاسل . . . اما الآن فهو امامكم سكران يتفلسف . خليط عجيب في ذهنه . كنت واقفا عند النافذة انصت . اوشكت على التقيؤ ، وكأنما من رائحة شيء عفن . . . لو كان اى واحد غيرى لارسله من زمان الى التصفية القاسية من هذه الفلسفة . لأنه يحتاج خلقيا . . . وبعد ذلك سيمرض يومين ، ولا يستطيع قيادة الفوج . . .

– ولكن ما العمل اذا قد رميت زميلي في الجامعة ؟

وقلص سابوجكوف عينيه ، واشتنج منخراه .

لم يرد غيمزا بشيء ، وكأنه لم يسمع قول سابوجكوف . خفض تليغين رأسه . . . وتكلم سابوجكوف دافعا انفه العرق نحو غيمزا :

– صحيح انه من استخبارات دنيكين . بينما كنا ، انا وهو ، نرتد على «الاصيات الفلسفية» . لا ادرى كيف صار في الجيش الابيض . . . ربما عن يأس . . . انا الذى جلبته اليك . . . الم يكفك انني اديت واجبي ؟ أم تريدني ان ارقص . حين رأيتهم يسوقونه الى المنخفض ؟ . . صرت في الخلف ورأيت . – وتفرس في عيني غيمزا المظلمتين الغائرتين . – هل من حقى ان تكون لي مشاعر انسانية ، ام يجب ان احرق كل شيء في نفسى ؟

اجاب غيمزا على مهل :

– لا ، ليس من حقك . . . اما بالنسبة لمرك فانا لا اعرف . . . ولكن بالنسبة اليك فيجب ان تحرق في نفسك كل شيء . . . فان هذه البؤرة المسها الموجودة في نفسك ستولد العداء للثورة .

صمتوا طويلا . كان الجو ثقيلا . وهدأت كل الاصوات خارج النافذة . صب غيمزا لنفسه شايا ، وقطع قطعة كبيرة من الخبز الرمادى ، واخذ يأكله ببطء ، مثل رجل شديد الجوع . ثم بدأ يتحدث بصوت كامد عن التشيكوسلوفاكيين . كانت الانباء مقلقة . فقد تمرد التشيكوسلوفاكيون في جميع القطارات ، الممتدة من بينزا الى فلاديفوستوك . قبل ان تعي السلطة السوفييتية الأمر كانت الطرق الحديدية والمدن تحت ضربات التشيكيين . استولت الوحدات القريبة على بينزا ، واتجهت نحو سيزران ، واحتلتها . وانتشرت زحفها نحو سامارا . كانت هذه القوات ملتزمة بالانضباط التزاما جيدا صنفة التسليح تحارب باقتدار واستماتة . وكان من الصعب الآن معرفة ما اذا كان ذلك مجرد عصيان عسكرى ، أم توجهها قوى معينة من خارج البلاد . والشاعر اله علنا وذلك . وعلى اية حال ، ان جبهة جديدة تمتد من المحيط الهادىء حتى الفولغا قد انفجرت كخط من البارود منطوية على عواقب فادحة .

في الخارج تقدم شخص من النافذة . صمت غيمزا ، وتعبس والتفت . باداء صوت :

– يا رفيق غيمزا ، تعال . . .

– ماذا تريد ؟ تكلم .

– سرى .

انزل غيمزا حاجبيه على محجريه ، واسند يده على التخت ، وجلس بهذه الصورة برهة ، ثم انهض نفسه قسرا ، وخرج صاربا بكتفيه جانبي الباب . وفي فسحة العربة جلس على الدرجات ، وانحنى بجذعه . طلع من الظلام شخص طويل في معطف خيالة ، وتقدم نحوه مصافحا بمحاذيه وهمس في اذنه بشيء على عجل . . .

اما سابوجكوف فما ان خرج غيمزا حتى اخذه يمص غليونه مصات سريعة ، ويبصق في النافذة عدة مرات بضراوة ، ورمى نظارته الانفية ، وراح يضحك فجأة .

— كل السر في الامر هو ان تجيب عن السؤال المطروح اجابة مباشرة . . . هل يمكن قتل الانسان ؟ يمكن . ما هو الهدف الاقرب ؟ الثورة العالمية . . . لا دخل لعواطف المثقفين هنا . يا اخي . . .

وفجأة قطع كلامه ، وانتصب ، وراح يتسمع . كانت العربة كلها تهتز . فقد كان غيمزا يضرب جدارها بقبضته . وارتفع صوته العالي المبحوح :

— وماذا لو كذبت علي ، يا ابن الكلبة . . .

امسك سيرغي سيرافيميتش بيد تليغين . . .

— هل سمعت ؟ أتعرف ما الامر ؟ هناك شائعات كريهة حول قائدنا العام سوروكين . . . وهذا رفيق من الشعبة الخاصة قد عاد من هناك . هل فهمت السبب في عبوس غيمزا الجهنمي ؟ . .

شحب ضوء النجوم قبيل الفجر . وصاح ديك مرة اخرى بين العربات . ونزل الندى على المعسكر الهاجع . ذهب تليغين الى مقصورته ، وخلع حذاءه ، واستلقى على التخت متنهدا ، وصرت النوابض من تحته .

كان تليغين يتخيل احيانا ان سعادة الحياة القصيرة فكأنه قد رآها في نومه في السهب الاخضر ، تحت قرقعة عجلات القطار . . . كانت حياته موقتة وادعة : عهد الطلبة ، وبطرسبورغ الهائلة اللانهائية ، والوظيفة ، والصحبة الرخية لذوي الاطوار الغريبة الذين كانوا يعيشون في شقته في جزيرة فاسيليفسكي ، آنذاك كان المستقبل يبدو واضحا وكأنه قد جمع في راحة يد . فلم يطل التفكير

في المستقبل . كان مرور الاعوام فوق سطح بيته متمهلا غير مرهق . كان ايفان ايليتش يعرف بانه سيؤدي ما يجب عليه عمله بنزاهة ، وحين يشتعل رأسه شيبا ، ينظر الى الخلف ليرى ما صنع ويجد انه قد قطع طريقا طويلة دون ان ينحرف في مزالق خطرة مثل آلاف من امثاله . وقد دخلت داشا الى حياته اليومية البسيطة ، دخلتها بسلطان ، وتألقت عيناها الرماديتان بسعادة صارمة . حقا لقد كان يراود النفس شك قصير الاجل وفي الاغوار العميقة منها ، في ان هذه السعادة لم تكن مكتوبة له ! الا انه كان يطرد شكه ويعقد النية على ان يقيم — حين تنتهي الحرب — بيتا سعيدا لداشا . وحتى حين انهارت الجدران الصلبة للامبراطورية ، واختلط كل شيء ، وجأر من الحنق والالم شعب تعداده مائة وخمسون مليون انسان بقي ايفان ايليتش موقنا بان العاصفة ستمر ، وان المرجة عند بيت داشا ستزهر عامرة بالسلام بعد المطر .

وها هو مرة اخرى على التخت في قطار عسكري . بالامس معركة ، وفي الغد معركة . وواضح الآن ان الماضي لا عودة له . وكان يشعر بالخجل حين يتذكر انه قبل عام كان يشغل نفسه في تأثيث شقته في جادة كامينواوستروفسكي ، فيشتري سريرا من الخشب النفيس لتلد داشا عليه طفلا ميتا .

كانت داشا اول من اصطدمت بقعر الدوامة . كانت الثورة بالنسبة لها «اللذان» اللذان قفزا عليها في الحديقة «ليتني» ، والرايات السود بشعره المنتصب ، والمجاعة ، والظلام ، والمراسيم الملصقة كشاناتها بالحقد والكراهية . وكانت الثورة في الليالي تصفر فوق السطوح ، وتقلقل النوافذ المتجمدة بالثلج ، وتصرخ بداشا باصوات مهولة : «خربة !» . وفي ربيع بطرسبورغ الرمادي هبت ريح رطبة ، ونزلت قطرات الماء من السطوح ، وسقطت قطع الجليد المتشبع من الانابيب التصريف المنفرجة . وقالت داشا لايفان ايليتش الذي كان قد عاد الى البيت دافقا بالحيوية ، في معطف غير مزرر ، وعيناه اللامعتان بشكل خاص ترمقان داشا التي كانت منكمشة مدثرة في الشال حتى حنكها) :

— اود لو احطم رأسي . يا ايفان ، وانسى كل شيء الى الابد . . . ربما يمكن ان اكون لك صديقة . . . وفي هذه الحال ، لا اقدر ان

امضي في ملازمة الفراش القطيع ، ومواجهة النهار اللعين من جديد .
الهمني ، ارجوك . لا اقدر ، لا اقدر على العيش . لا تتصور انني بحاجة
الى رفاه ، لا شيء ، لا شيء احتاج اليه . . . فقط ان اعيش حياة بكل
انفاس . . . لست بحاجة الى توافه . . . فقدت حسي . . . اعذرني . . .

قالت ذلك ، واستدارت .

كانت داشا صارمة في عواطفها دائما . اما الآن فقد اضحت
ناسية . سألها ايفان ايليتش :

— اليس من الافضل ان ننفصل لبعض الوقت يا داشا ؟ . .

وعندئذ ولاول مرة خلال الشتاء كله راى حاجبيها يرتعشان
بفرح ، وتتألق عيناها بأمل غريب ، ويختلج وجهها النحيل
شكاية . . .

— اظن من الافضل ان نفترق ، يا ايفان .

عندئذ بدا يسعى بحزم وعن طريق روبليف ليدخل الجيش
الاحمر ، وفي نهاية آذار رحل في قطار عسكري الى الجنوب . وقد
ودعته داشا على رصيف محطة الكتابيرسكي ، وحين مرت نافذة العربة
بكت بكاء مرا ، منقية الشال الصوفي على وجهها .

ومنذ ذلك الحين قطع ايفان ايليتش مئات الفراسخ ، ولكن ما
من معركة ولا تعب ولا حرمان استطاع ان ينسيه الوجه الحبيب
الباكي في زحام النساء عند حائط المحطة المسود . كانت داشا
تودعه ، وكأنما الى الابد . واجهد ايفان ايليتش نفسه ليعرف لماذا
لم يرق لها ؟ انه في نهاية المطاف هو المسؤول عن برودها طبعا .
انها ليست اول امرأة تلد طفلا ميتا . وليست الثورة هي التي
انتزعت منها القلب . . . ان ذاكرته حافلة بالازواج الذين زادهم
الزمن العصيب المضطرب حبا الى قريب . . . فعلى اي شيء تلومه ؟

واحيانا كان يتولد في نفسه حنق : حسنا ، يا عزيزتي ، ابحثي
واعثري على رجل آخر يدللك مثل هذا التدليل . . . العالم ينهار ،
ومعاناتها تبقى اغلى لها من كل شيء . . . مجرد الدلال ، تعودت على
الطعام الناعم واستنكاف عن الخبز الناشف .

كل ذلك صحيح ، ولكن الاستدلال الذي يتولد منه ان ايفان
ايليتش مثال للفضيلة ، وان عدم الوقوع في حبه جريمة . وفي كل

مرة كان يصطدم بهذا . . . فيقول لنفسه : احقا ، اي شيء فريد في ؟
انا معافى جسميا . هذا اولا . فهل انا ذكي وجذاب بشكل خارق ؟ لا ،
انا اتسابق مثل اي رجل عاشق . . . وهل انا بطل ، انسان كبير ؟ شاعر
فاتن ؟ لا ، ابدا . . . انا رجل عادي بسيط نزيه ، مثل ملايين
الناس . . . وقد رجعت ورقة يا نصيب مصادفة ، اذ احبتني فتاة
ساحرة ارهف احساسا مني بالف مرة ، واذكى ، وارقى ، وكفت عن
حبي بنفس الطريقة غير المفهومة . . . »

وعندما كان ينظر الى نفسه بهذا المنظار كان يفكر : العل
السبب في انه ليس في مستوى الزمن الذي يعيشه ، بل ويقاتل قتالا
باهتا ، وكأنه يغنم في مصلحة ؟ كان له النفي باناس اشداء في الشر
والخير ، سيموت بطل عملاق في المعارك الدموية . . . ويقول لنفسه :
حقا انت ، يا ايفان ايليتش ، فلتك كرهت العدو كل الكراهية
وخشيت الموت بقوة . . . »

والتهم ايفان ايليتش لذلك كثيرا . ودون ان يلاحظ ذلك بنفسه
اصبح واحدا من اكثر العاملين في الفوج وثوقا وتعقلا وشجاعة .
اوكلت اليه عمليات خطرة نفذها بشكل باهر .

جعله الحديث مع سيرغي سيرغييفيتش شديد التفكير . ان الامر
المرح كان ايضا فريسة حزن . . . فريسة حزن شديد . . . وميشكا
سولوفيف ؟ وتشيرنوفرتوف ؟ والآلاف ممن تمر بهم عيون ملاحظة ؟
انهم جميعا يطاوعون زمنهم . ضخام ، تمحص تشوعهم العذابات .
وليس لديهم الكلمات ليقولوها . لا شيء لديهم البندقية في اليد ، وعند
الحزن عطف وحشي يتبعه ندم . . . تلك هي روسيا ، تلك هي
الثورة . . .

— أيها الرفيق آمر السرية . . . استيقظ . . .

جلس للتمرين على التخت . كان قرص الشمس الذهبي يطل
من النافذة معلقا فوق حافة السهب الاصفر . وهز الجندي ايفان
ايليتش مرة اخرى . وكان عريض الوجه اسهب اللحية احمر
كالشمس الساطعة .

— آمر الفوج يطلبك بسرعة . . .

كان المصباح ما يزال يضيء في مقصورة سابوجكوف مرسلا رائحة كريهة . وقد اجتمع فيها ليميزا ومفوض الفوج سوكولوفسكي السقيم الاسود الشعر ذو العينين السوداوين الملتهبتين من الارق ، وآخرون من امراء الكتائب وبعض امراء السرايا . وممثل لجنة الجنود الذي كان يرتسم على وجهه تعبير عن الاستقلالية بل والتحدي . . وكان الجميع يدخنون . كان سيرغي سيرغييفيتش الذي كان قد ارتدى سترته وعلق مسدسه بسلك الشريط البرقي بيد مرتجفة . وقد قرأ بصوت مبحوح حين توقف ايفان ايليتش عند الباب :

— « . . . وهكذا قطع احتلال العدو المفاجيء للمحطة قواتنا وجعلها تحت ضربة مزدوجة . نناشدكم باسم الثورة وباسم السكان التعساء الذين ينتظرهم حتما الموت والشنق والتعذيب ، اذا تركناهم تحكم عصابات البيض ، ان ترسلوا التعزيزات دون ان تضيعوا دقيقة واحدة» .

صاح سوكولوفسكي :

— ماذا نفعل بدون امر القائد العام ؟ سأذهب مرة اخرى لا حاول الاتصال به بالخط السائر . . .

قال ليميزا حانقا :

— اذهب ، وحاول (ونظر الجميع اليه .) اما انا فأقول لك اذهب انت . خذ اربعة من المقاتلين وتليغين ، واذهبوا الى مقر القيادة في عربة ترولي . ولا تعد دون ان تحصل على الامر . . . سابوجكوف ، اكتب ورقة الى القائد العام سوروكين . . .

كان احد الخيالة واقفا في الرابية المعشبة ، وقد وضع كفه فوق عينيه ، وراح يمعن النظر في شريط الخط الحديدي . فقد كانت عليها سحابة من الغبار تقترب بسرعة .

وحين اختفت السحابة في تجويف من الارض مس الخيال فرسه بساقه ثم بالمهماز . هز الفرس الاصهب النحيل رأسه مغتاظا ، واستدار ، ونزل من الرابية التي كانت تختبيء على منحدرها فصيلة من الضباط المتطوعين امام كتل الطين التي جمعت من توها .

قال فون ميكه : «عربة ترولي» وقفز من السرج واخذ يضرب ركبتي الفرس الاماميتين بمقرعته ليجعله يبرك . ضم الفرس الحرن رجليه ، وحرك اذنيه ، ولكنه اطاع ، ونزل الى الارض زافرا زفرة عميقة ، ومس التراب ببوزه ، وبرك . وكان جنبه المضمد بالاضلاع يرتج ويهبط .

فرفض فون ميكه على الرابية والى جانبه روتشين . وفي تلك اللحظة خرجت عربة الترولي من التجويف وكان من الممكن الآن تمييز ستة رجال بمعاطف عسكرية .

— نعم ، صور ! — وادار فون ميكه رأسه الى اليسار — يمينا ! — ثم اداره الى اليمين — استعداد ! نار سريعة نحو الهدف المتحرك . . . اضرب !

مزق الهواء فوق الرابية كانقصاص المنشى ، ومن خلال غمامة الغبار كان من الممكن ان يرى الرائي رجلا يسقط من عربة الترولي ، وينقلب عدة مرات ، ويتدحرج على المنحدر ممسكا العشب بيديه .

اطلقت النار من عربة الترولي من ثلاث بنادق ومسدسين . وبعد لحظة كان يجب ان تختفي في التجويف التالي وراء كشك التحويل . مزق فون ميكه الهواء بصفير سوطه ، واستشاط غضبا :

— سيفيبون . يفيبون ! كان الاحرى بكم ان تصطادوا غربانا ! عار !

كان روتشين يعتبر جيد الرماية . وجه بندقيته على بعد قدم امام العربة ، وصوب على رجل عريض المنكبين ضخم حليق الوجه يلبس اسود الأمر . . . وفكر مع نفسه «انه كثير الشبه بتليغين ! نعم . . سيكون ذلك قتليها . . .»

واطلق روتشين . طارت طاقيته من على رأسه ، وفي تلك اللحظة اختفت عربة الترولي في التجويف التالي . اطلق فون ميكه سوطه .

— قذارة ، كل الرهط قذارة . لستم رماة ، يا حضرات الضباط ، بل قذارة .

وراح يشتم جاحظ العينين مثل قاتل مؤزق حتى نهض الضباط من على الارض نافضين ركبهم ، واخذوا يتذمرون :

— يا آمر السرية . . الاحرى بك ان تمسك لسانك ، عندنا من هو اعلى منك رتبة .

وضع زوتشين مشطا جديدا ، واحس بان يديه ما تزالان ترتجفان . لمن اي شيء ؟ أمن المعقول من مجرد التفكير بان ذلك الرجل كان يشبه ايفان تليغين ؟ هراء ، انه في بتروغراد .

صعد الطوش سوكولوفسكي وتليغين براس منخفض الى مقدمة بيت آجري من طابقين هو مقر ادارة القرية يقع مقابل الكنيسة كالعادة مطلا على ساحة غير مرصوفة كانت الاسواق الريفية تقام فيها سابقا . كانت الدكاكين الآن مغلقة بالالواح ، والنوافذ محطمة ، والاسيجة مخلوعة ، وقد اقيم في الكنيسة مستشفى عسكري . كانت اسمال الجنود ترفرف على الحبال في فناء الكنيسة .

كانت اعقاب السكائر وقصاصات الورقة مبعثرة في رواق ادارة القرية ، حيث كانت تقيم هيئة اركان القائد العام سوروكين وكان جندي احمر يجلس الى جانب السلم المؤدي الى الاعلى على مقعد من الخشب المعوج واضعا بندقيته بين رجليه . وكان يهوم بشيء مهيب وعيناه مغمضتان . كان فتى عريض الوجنتين ذا خصلة متهدلة - امارة مالوفة على الغطرسة العسكرية - تبرز من تحت طاقيته المسوحة على قفاه بشريطها الاحمر ، سأل سوكولوفسكي بعجالة :

- نريد مقابلة الرفيق سوروكين . . . كيف نذهب ؟

فتح الجندي عينيه الكدرتين من ضجر ناعس . كان انفه ناعما لا ينم عن جدية . نظر الى سوكولوفسكي - الى وجهه وملابسه وحذائه ، ثم نظر بهذه الطريقة الى تليغين . تقلص منه الأمر بنفاد صبر .

- انا اسالك ، يا رفيق ، . . نحن نريد مقابلة القائد في امر استثنائي .

قال ذو الخصلة المتهدلة :

- ولكن الحديث مع الحارس لا يجوز .

صاح سوكولوفسكي :

- اللعنة ! دائما نجد مثل هؤلاء الاوغاد في مقر الاركان شكليون ! اطالبك يا رفيق بان تجيب : هل سوروكين موجود هنا ام لا ؟

- غير معلوم . . .

- واين رئيس الاركان ؟ في الدائرة ؟

- في الدائرة .

جذب سوكولوفسكي تليغين من كمه ، واندفع يصعد السلم . عند ذلك قام الحارس بحركة تعلن ولكن دون ان يترك مقعده ، فقد افرج البندقية من بين رجليه :

- الى اين ذاهبان ؟

- كيف الى اين ؟ الى رئيس الاركان .

- هل لديكما ترخيص ؟

بدا الطوش يشرح للحارس السبب الذي حملهم الى المجيء الى قرية تروتلي . وقد تميز غيظا حتى طلع الزبد على شفتيه . فاستمع هذا وهو ينظر الى الرشاشة الرابضة امام المدخل ، والى المراسيم والاوامر والاعلانات التي كانت تملأ حيطان الرواق . وهز راسه ، وقال بكآبة :

- يجب ان تفهم ، يا رفيق ، وانت الواعي . اذا كان معك ترخيص اترككم تذهب ، والا اطلقت النار بلا رحمة .

وكان لا بد من الخضوع ، رغم ان الترخيصات كانت تعطى في مكان ما في الطرف الآخر من الساحة . والمكتب في الغالب الظن مقفول . سيقولون لهما ان القومندان قد خرج ولم يحضر الا في الغد . وظهر الاعياء على سوكولوفسكي فورا . . . وفي تلك اللحظة اندفع من الساحة الى الباب شخص فخم القامة في قميص مشقوق حتى وسطه يضرب الارض بحذائه الطويل .

- يا ميتكا* . . يوزعون الصابون . . .

وكان زيعا قذفت بالحارس من الكرسي ، وثب خارجا الى مقدمة البيت . صعد سوكولوفسكي وتليغين الى الطابق الثاني دون ان يعترضهما عارض . وبعد استرشاده بمستاوات متفتحات العيون في ممرات حريرية يمشي بهما يمينا وشمالا عثرا اخيرا على غرفة رئيس الاركان .

دخلاها فرأيا عسكريا انيق الملبس ينظر في اظافره ، وهو مستلق على اريكة مهلهلة ممددا رجليه . استرشدهما حقيقة الامر بانتباه جم ، واستقبال بروليتاري معتن به شالعا كل كلمة بـ«ايها

---

* صيغة لاسم دميتري . - المترجم .

رفيق» (رغم ان هذه الكلمة كانت تخرج من فمه وكأنها «يا كونت سوكولوفسكي» و«يا امير تليغين») ثم استأذن وخرج يصرف بحذائه الاصفر الطويل ذي الاربطة حتى ركبتيه . وبدا همس وراء الحائط ، وصفق باب من بعيد ، ثم هدأ كل شيء .

نظر سوكولوفسكي الى تليغين بعينين ملتهبتين :

— هل تفهم شيئا ؟ الى اين جئنا ؟ وبما علاقة قيادة الجيش ؟

رفع كتفيه النحيلتين ، وبقي مسحوقا في غاية الدهشة . عاد الهمس مجددا من وراء الحائط . وانفتح الباب على سعته ، ودخل رئيس الاركان ، وهو رجل في اواسط العمر ركين ذو جبهة عريضة صلعاء وسحنة متجهمة يرتدي قميصا عسكريا خشنا مشدودا بحزام قوقازي على بطن كبير . وتفرس في تليغين خطفا ، وهز رأسه تحية لسوكولوفسكي ، وجلس وراء المنضدة ، واضعا يديه المشعرتين امامه بحركة معتادة . كانت جبهته رطبة مثل جبهة رجل قد فرغ لتوه من الاكل والخمرة . وحين احس بالنظرات مصوبة اليه زاد من جهامة وجهه الاحمر المنتفخ . قال باعتبار وبرود :

— ابلغني التوبيخي الكما ، ايها الرفيقان ، قدمتما في امر مستعجل . يدهشني لماذا لم يستخدم آمر الفوج ، او انت ، ايها الرفيق المفوض ، خط الاتصال المباشر ...

قال سوكولوفسكي :

— حاولت الاتصال ثلاث مرات . — وقفز على قدميه واخرج من جيبه شريطا برقيا ، وقدمه الى رئيس الاركان قائلا :

— كيف يمكن ان ننتظر بهدوء ورفاقنا يهلكون ... ولا اوامر من قيادة الجيش ... والناس يتوسلون الينا لاغاثتهم ... ولواء «العربة البروليتارية» يهلك ومعه طابور من العربات وفيها الفان من اللاجئين ...

القى رئيس الاركان نظرة خاطفة على الشريط ، وقذفه لتلتوي حول محبرة كبيرة :

— نحن ، ايها الرفاق ، على علم في المعارك الجارية الآن في منطقة فوج «العربة البروليتارية» ... وانا اقدر حماسكم ، وسورتكم الثورية (كان يبدو وكأنه يبحث عن الكلمات بجهد) . ولكنني اطلب منكم في المستقبل الا تثيروا الرعب ... لا سيما وان عمليات العدو

عارضة ... وباختصار ان كل التدابير قد اتخذت ، ويمكنكما ان تعودا الى واجباتكما مطمئنين .

ورفع رأسه . كانت نظرته صارمة وصافية . نهض تليغين حين عرف بان المحادثة قد انتهت ، وظل سوكولوفسكي جالسا كأنما قد صعق . قال :

— لا استطيع العودة الى الفوج بمثل هذا الجواب . سيعقد الجنود اجتماعا عاما هذا اليوم وسيهب الفوج اليوم لاغاثة «البروليتاريين» بمحض ارادته ... وانبهك ، يا رفيق ، بانني سأخطب في الاجتماع مؤيدا الهجوم ...

اخذ وجه رئيس الاركان يحمر ، وجبهته الضخمة الصلعاء تلمع . دفع كرسيه بحركة صاخبة ، ونهض ، فارتخى عليه بنطاله العسكري عقد يديه وراء حزامه قائلا :

— ستكون مسؤولا امام المحكمة العسكرية الثورية ، يا رفيق ! لا تنس اننا لسنا في عام ١٩١٧ !

— لا تحاول ان تخيفني ، يا رفيق !

— اسكت !

في تلك اللحظة انفتح الباب بسرعة ، ودخل رجل طويل رشيق القامة بشكل غير اعتيادي يرتدي سترة جركسية من القماش الرقيق . كان وجهه الجميل الكئيب بشعره الاسود الساقط على الجبهة ، وبشاربيه المتدليين مصطبغا بذلك اللون الوردي الفاتح الذي يكون عادة لدى المسرفين في السكر او الفساد . كانت شفتاه مطبقتين صارمتين ، وعيناه السوداوان متسعتين . اقترب تماما من سوكولوفسكي وتليغين ملوحا بكم سترته الايسر ، وحدق فيهما بنظرة وحشية . والتفت الى رئيس الاركان ، وقد ارتعش منخراه بعنف :

— ما هذا السلوك على النمط القيصري مرة اخرى ! ما هذه المسكنة ؟ اذا كانا مذنبين يرميان بالرصاص ... ولكن دون اهانة يا جنرال ...

سمع رئيس الاركان هذه الملاحظة صامتا ، وقد اطرق برأسه . وما كان من سبيل لاي اعتراض ، فقد كان هذا هو القائد العام سوروكين نفسه . قال بهدوء :

— اجلسا ، ايها الرفيقان ، انا مصغ اليكما .

وجلس على افريز النافذة .

عاد سوكولوفسكي يشرح الغرض من مجيئهما : الحصول على اذن لفوج فارنافسكي في الهجوم فورا لمساعدة جاره فوج «الحرية البروليتارية» . ان ذلك الى جانب كونه واجبا ثوريا عملية حساب بسيط : فلئن عبر «البروليتاريون» ، فان فوج فارنافسكي سيجد نفسه مقطوعا عن القاعدة .

لم يجلس سوروكين على افريز النافذة غير ثانية واحدة . طفق بعضها يذرع الغرفة من الباب الى الباب ملقيا اسئلة قصيرة ، وكلما كان يستدير بحركة حادة كان شعره المصفوف يتطاير . كان الجنود يحبونه على حماسته وشجاعته . وكان يجيـــــد الكلام في الاجتماعات العامة . وكانت هذه الصفات غالبا ما تحتل مكان العلم العسكري في تلك الايام . كان ضابطا فوزانيا برتبة نقيب ، وقد حارب في جيش يودينيتش في ما وراء القفقاس ، وبعد انقلاب اكتوبر عاد الى قريته بتروبافلوفسكايا في كوبان ، وشكل فصيلة انصار من ابناء قريته . حارب معها في حصار يكاترينودار ، وحالفــــه التوفيق ، وطلع نجمه بسرعة ، وادار المجد رأسه ، وكانت فيه طافحة ، وكان يجد الوقت الكافي للقتال واللهو . وفضلا عن ذلك فان رئيس الاركان احاطه عن قصد بنساء مليحات ، وكل الجو الملائم للفجور .

سال حين فرغ سوكولوفسكي من الحديث ، ومسح جبهتـــه عصبيا بمنديل ممعوك قذر :

— وماذا اجابوكما في هيئة اركاني ؟

اسرع رئيس الاركان ليقول :

— اجبتهما باننا قد اتخذنا جميع الاجراءات لانقاذ فوج «الحرية البروليتارية» . وقلت ان قيادة فوج فارنافسكي تتدخل في اوامر قيادة الجيش ، وهذا امر غير مسموح به كليا ، وفضلا عن ذلك فانها تثير ذعرا لا يقوم على اساس .

قال سوروكين بلهجة تصالحية مفاجئة :

— لا يجوز ان يعالج الموضوع بهذا الشكل ، يــا رفيق . الانضباط ضروري بالطبع ... ولكن هناك اشياء اهم بالف مرة

مما تقوله عن الانضباط ... ارادة الجماهير ! يجب تشجيع المـــد الثوري ، رغم ان ذلك يناقض ما تقوله عن العلم العسكري ... ولتكن عملية فوج فارنافسكي بلا جدوى ، ولتكن مضرة ، لتكن ما تكون ! عندنا ثورة ... واذا منعتهم الآن هرعوا الى عقد اجتماع عام . انا اعرف هؤلاء الصباحين . سيصرخون ثانية بانني احطم الجيش بالسكر ...

واندفع الى الموقد ، ونظر الى سوكولوفسكي نظرة ضارية :

— قدم تقريرك !

اخرج تليغين ورقة على الفور ، ووضعها على الطاولة ، اختطفها القائد ، ومرر عليها عينيه السريعتين ، واخذ يكتب تأثرا الحبر عن ريشته :

«آمر فوج فارنافسكي بالقيام فورا بالزحف ، وتادية واجبـــه الثوري» .

نظر رئيس الاركان اليه بابتسامة ساخرة ، ولكنه تراجـــع خطوة حين مد القائد العام الورقة اليه ، ووضع يديه خلف ظهره :

— لاتقدم الى محكمة ، ولكني لن اوقع هذا الامر ...

في تلك اللحظة قفز ايفان ايليتش وامسك سوروكين مـــن معصمه مانعا اياه من رفع المسدس . وحجب سوكولوفسكي رئيس الاركان بجسمه . ترددت انفاس الاربعة ثقيلــــة . جرد سوروكين نفسه ، ووضع المسدس في جيبه ، وخرج صافقا الباب بشــــدة جعلت بعض الجص يتساقط ...

صفقت ابواب ، وتلاشت خطوات القائد المسرعة .

قال رئيس الاركان بمصالحة ونبرة جشاء :

— استطيع ان اؤكد لكم يا رفاق ، انني اذا وقعت على هذا الامر فان مصيبة قد تحصل على نطاقات واسعة .

سأل سوكولوفسكي بصوت مبحوح بعد ان سعل :

— اية مصيبة ؟

نظر رئيس الاركان نظرة غريبة اليه :

— الا تحدس عم اتحدث ؟

— لا .

رورقت عينا سوكولوفسكي من طرفيهما .

— انا اقصد جيشي ...
— يعني ؟
— ليس لي الحق في ان اكشف عن اسرار عسكرية امام مفوض فوج . اليس كذلك ، يا رفيق ؟ ستكون اول من يرميني بسبب ذلك . . . ولكننا تعرضنا اثناء حديثنا في شؤون عميقة . حسنا . . . خذوا كل شيء على مسؤوليتكم . . .

اقبل على خارطة غرزت فيهـــا اعلام صغيرة . تقـــدم سوكولوفسكي وتليغين وصارا وراء ظهره . والظاهر ان تقارب حرارة الانفاس في قفص ازعج رئيس الاركان بعض الشيء . تحركت لوحتا كتفيه تحت القميص . الا انه اخرج بهدوء عودا نظيفا لتخليل الاسنان ، ومرر نهايته المخضومة على الخارطة من الاعلام الثلاثيـــة الالوان في الاتجاه الجنوبي الى مواقع الحمر الكثيفة . وقال :

— هنا البيض .
— اين ؟ — وتقدم سوكولوفسكي من الخارطة تماما ، ممررا عليها عينيه العشواوين . — ولكن هذه تورغوفايا . . .
— نعم ، تورغوفايا . وسقوطها سينظف نصف الطريق امام البيض !
— انا لا افهم . . . تصورنـــا البيض ابعد الى الشمال على الاقل بحوالي . . .
— نحن تصورنا ، لا البيض . تورغوفايا في اللحظة الراهنة تحت ضربـــة مركزة . والبيض يملكون طائرات ودبابات ، وهم ليسوا شرذمة كورنيلوف السابقـــة . . . انهم يعملون على خطوط داخلية ، ويوجهون الضربات اينما يريدون . والمبادرة في ايديهم .

قال تليغين :
— في الشمال من تورغوفايـــا فرقـــة دميتري ضيليست الحديدية . . .
— تحطمت . . .
— وفرقة الخيالة ؟
— تحطمت .

ابلع سوكولوفسكي ريقه ، وتقدم من الخارطة . وقال :
— انت انسان شديد التحفظ ، يا رفيق . كأنك قد قمت

بسقوط تورغوفايا . . . هنا تحطم وهنا تحطم . — واستدار نحو رئيس الاركان مخاطبا — وجيشنا ؟

— نحن ننتظر امر القيادة العامة العليا . فان للرفيق كالنين حساباتـــه الخاصة . ولا تستطيع اركان قيادة الجيش ان تطالب اركان القيادة العامة العليا بالهجوم ، وهي تهز قبضتها عليها . لماذا تقلق انت ؟ ان الحرب ليست اجتماعا عاما .

وابتسم رئيس الاركان ابتسامة رقيقة . نظر سوكولوفسكي الى وجهه المستل الهادئ حابسا انفاسه . وتحمل رئيس الاركان تلك النظرة . قال وهو يعود الى الطاولة :

— تلك هي الامور ، ايها الرفيقان . ولهذا السبب لا املك الحق في ان اسحب وحدة عسكرية واحدة من الجبهة ، ولو ان ذلك يبدو معقولا كليا وضروريا . . . ان وضعنا ليس بالسهل ابدا . الآن ، عودا الى وحدتكما فورا . وكل ما قلته لكما سري لا يفشى في الوقت الحاضر . يجب المحافظة على الهدوء التام في الجيش . اما بشأن فوج «الحرية البروليتارية» فلا حاجة للقلق على مصيره ، لقد حصلت على معلومات مطمئنة . . .

والعقد حاجبا رئيس الاركان فوق انفـــه المعكوف . وصرف الزائرين بهزة من رأسه . خرج سوكولوفسكي وتليغين من مكتبه . في الغرفة المجاورة كان التوبجي يقلم اظافره واقفا عند النافذة . وحيا الخارجين بأدب .

همس سوكولوفسكي :
— وغد .
عندما خرجا الى الشارع ، امسك بكم تليغين :
— ها ؟ ما رأيك ؟
— شكليا انه على حق . اما من حيث الجوهر فان ذلك تخريب بالطبع .
— تخريب ؟ لا . ان اللعبة اكبر . ساعود لارميه . . .
— دع عنك هذا ، يا سوكولوفسكي . لا تأت بحماقة . . .
نشم سوكولوفسكي :
— خيانة . اقول لك ان هنا خيانة . كل يوم يبلغون غموضا في هيئـــة الاركان مبكرا . وقد شمت سوروكين المفوضين .

وحاول انت ان تقف امامه . ان سوروكين قيصر وآله في الجيش . انه محبوب لشجاعته ، لأنه من عندهم - وهل تعرف من رئيس الاركـان هنا ؟ انه عقيـد قيصرى يدعى بيلياكوف ... هل فهمت العقدة ؟ ولكن لتلعب ... ما رأيك ، هل ستتخطى البيض بنجاح ؟

هز رئيس الاركان الجرس . ظهر النوبجي على الباب .

قال بيلياكوف وهو ينظر الى الاوراق جهما :

— اعرف لي ما هي حالة القائد ؟

— الرفيق سوروكين في المطعم . وحالته بين بين .

وانتظر النوبجي حتى ابتسم رئيس الاركان ابتسامة مباخرة على مضض ، وعندئذ ابتسم النوبجي ابتسامة كثيرة الدلائل :

— زينكا * معه .

— حسنا . انصرف .

ذهب بيلياكوف الى شعبة الاتصال ، وعاين الاخبـار التلغرافيـة ، ووقع بخط واضح بطرف بعض الاوراق ، ولبث برهة في الممر عند الباب الاخير ، حيث كانت تتردد من ورائه انغام هادئة على اوتار . اخرج رئيس الاركان منديله ، ومسح رقبته الحمراء القوية ، وطرق الباب ، ودخل دون ان ينتظر ردا .

كان سوروكين يجلس مشمرا كمى سترته العريضتين عند مائدة في وسط الغرفة مفروشة بجرائد وعليها آنية مستخدمة واقداح . وكان وجهه الوسيم ما يزال عابسا ، وقد تساقطت خصائل من شعره الاسود على جبهته الندية ، نظر الى بيلياكوف بحدقتين متسعتين . كانت زينكا تجلس على مقعد بلا ظهر الى جانبه واضعة ساقا على ساق حتى لاح رباط جوربها ، ومخرمات ثوبها الداخلي ، وكانت تعزف على قيثار . كانت امرأة شابة ذات عينين زرقاوين زاهيتين وشفتين نديتين ، وانف دقيق ينم عن العزم ، وشعر اشقر منفوش مرفوع الى اعلى رأسها . والثنيات السقيمة وحدها عند الفم ، ولو انها لا تكاد تبين . كانت تضفي على وجهها الرقيق مسحة حيوان وحشي يستطيع ان يعض . كانت حسب هويتها ابنة عامل سكك الحديد من انحاء اومسك ، وذلك ما لم يكن يصدق به

---

* صيغة لاسم زينايدا . — المترجم .

اي انسان بالطبع ، مثلما لم يصدق انسان بان عمرها ثمانية عشر عاما ، وبانها من عائلة تدعى كاتالمينا ، وبان اسمها زينايدا . الا انها كانت تضرب على الآلة الكاتبة بشكل ممتاز ، وتشرب الفودكا ، وتعزف على القيثار ، وتغني اغاني عاطفية جذابة . وقد وعـد سوروكين بانه سيرميها بيده لدى اول محاولة منها لنشر فسـاد الحرس الابيض والتعفن في هيئة اركانه . واطمأن الناس عند ذلك .

قال بيلياكوف حانيا رأسه ، وهو عند الباب للتحوط :

— رائع ، بكل تأكيد . في اي وضع تضعني انـت ؟ يأتي اثنان من اللجنة المركزية كما هو واضح ، ويهددان بالاجتماعات العامة . فاذا انت تنحاز الى جانبهما بسرعة . . . ما اسهل الذهاب الى جهاز التلفون ، والاتصال بيكاتيرينودار ، ليرسلـوا لك على الفور يهوديا ينظم لك هيئة الاركان ، وينام معك في السريـر ، ويصحبك الى المراحيض ، ويضبط جميع افكارك . فظاعــة ، بالتأكيد ! ان لدى القائد العام سوروكين ميلا الى الدكتاتورية ! انصب لتكون تحت الرقابة . . . اما انا فلا اريد . . . يمكنك ان ترميني . . . ولكنني لن اسمح لك بان تهددني بالمسدس في وجود من هم اقل رتبة . . . اي انضباط سيكون بعد هذا ! . . . لتتلقفك الشياطين .

مضى سوروكين ينظر الى رئيس الاركان ، ومد يده الكبيرة القوية ، ولكنه قبض على الهواء بدلا من عنق الزجاجة . سرت رعشة في فمه ، ولولبي شاربيه . الا انه استطاع ان يمسك بالزجاجة على اية حال ، وصب كوبين .

— اجلس ، واشرب .

نظر بيلياكوف بطرف عينه الى مخرمات سروال زينكا ، وتقدم من المائدة . قال سوروكين :

— لو لم تكن ذكيا لرميتك بالرصاص . . . الانضباط . . . ان انضباطي هو القتـال . هيا ، ليحـاول اي منكم ان يباهي الجماهير . . . سأروعها . انتظر وقتا ، لا احد غيري يستطيع دحر البيض . انا الذي سيحطم الاوغاد البيض . . . وسيهتز العالم . . .

واستنشق منخراه الهواء ، وبانت العروق على صدغيـه النبض !

– سأنظف مناطق كوبان والدون وتيريك بدون اللجنة المركزية . . . ان هؤلاء الاوغاد ، اعضاء اللجان ، ماهرون في تصرفاتهم في يكاترينودار لا في الجبهة . . . انهم جبناء . . . اذن فانا على حق ، في المعركة دكتاتور . . . انا اقود جيشا !

ومد يده الى قدح الكحول ، الا ان بيلياكوف دلق له القدح ، وقال :

– كفى شربا .

– لماذا ، تأمرني ؟

– ارجوك ، كصديق . . .

ألقى سوروكين نفسه على ظهر المقعد ، وزفر عدة زفرات قصيرة ، واخذ يجيل بصره حتى اوقفه على زينكا . كانت تمرر اظافرها على الاوتار .

غنت ، وقد رفعت حاجبيها بتكاسل : «وتنقضي الليل . . .»

استمع سوروكين ، والعروق على صدغه راحت تنبض بقوة اسرع . نهض ، ودفع رأس زينكا الى الوراء ، وراح يقبلها من فمها بنهم . استمرت زينكا في العزف ، ثم نزل القيثار من ركبتيها .

قال بيلياكوف بلطف :

– هذا امر يختلف ، آه ، يا سوروكين ، احبك ، ولا ادري لماذا احبك .

حركت زينكا ملبسها اخيرا ، وانحنت انحناءة واطئة الى الارض محمرة ورفعت القيثار ، ولمعت عيناها الناصعتان من تحت شعرها المشوش ، لعقت شفتيها المتورمتين بطرف لسانها وقالت :

– اوف ، اوجعتني . . .

– اتعرفون يا اصدقائي ؟ عندي زجاجة مخبأة . . .

وقطع بيلياكوف كلامه مختنقا بكلمته . وتعلقت في الهواء يده المنفرجة الاصابع . ازت رصاصة وراء النافذة وتعالت اصوات . خرجت زينكا من الغرفة مع قيثارتها خطفا وكأنها مدفوعة بريح . تجهم سوروكين واتجه نحو النافذة .

قال رئيس الاركان بعجالة :

– لا تخرج . سأعرف لديك ما الأمر .

كان العراك واطلاق الرصاص ظاهرة اعتيادية في مقر هيئة

الاركان . فقد كان جيش سوروكين يتألف من جماعتين اساسيتين : القوزاق الكوبانيين الذين كان سوروكين قد شكل نواتهم في العام الماضي ، والاوكرانيين الذين جمعوا من بقايا الجيوش الاوكرانية الحمراء التي تراجعت تحت ضغط الالمان . . . وكان بين القوزاق والاوكرانيين شحناء مزمنة . كان الاوكرانيون لا يحسنون المقاومة في اراض غريبة ، ولا يتورعون كثيرا اذا كان الامر يتعلق بالعلف والتموين ، حتى كانوا يمرون في قرى القوزاق .

وكان العراك واطلاق الرصاص يحدث كل يوم ، ولكن ما بدأ اليوم كان اكثر خطورة . اندفع القوزاق الخيالة بالصيحات . وتراكض الجنود الحمر جماعات مذعورة من سياج الى آخر ومن حديقة الى اخرى . وسمع اطلاق نار شديد باتجاه المحطة . وفي الساحة امام نوافذ مقر الاركان كان قوزاقي جريح يصرخ بوحشية رافسا ومتلويا في الغبار .

وبدا هرج ومرج في مقر الاركان . كان خط التلفون منذ الصباح لا يرد على المكالمات ، والآن عاد يحمل من هناك سيلا من الانباء المخبولة لا يمكن ان يفهم منه غير شيء واحد : ان البيض في زحفهم السريع باتجاه سوسيكا – اومانسكايا يطاردون امامهم وحدات الحمر المذعورة . ووحداتهم الامامية التي وصلت الى مقر الاركان بدأت بالنهب في المحطة والقرية . وفتح الكوبانيون النار ، ونشبت معركة .

اندفع سوروكين خارج البوابة على فرس اصهب ضخم شرس . ووراءه زهاء خمسين راكبا في ستر جركسية وسيوف معوجة ، وقلانسهم تتطاير وراء ظهورهم . وكان سوروكين يجثم على الصهوة وكأنه قد سمر فيها . كان حاسر الرأس يعرف الناس وجهه حالا . ألقى رأسه الجميل الى الوراء . صفرت الريح تعبث بشعره وكميه والاذيال محمرته . كان ما يزال سكران ، يدق الحزم ، شاحب الوجه . وكانت عيناه تنظران كعرس ، ونظرتهما رهيبة . وكانت سحابة من الغبار تتطاير وراء الخيول المنطلقة .

كانت بعض الطلقات تسمع من وراء الحاجز الشائك بالقرب من المحطة . كان بعض المرافقين يطلق صرخات عالية ، وقد وقع

احتضنهم من حصانه ، الا ان سوروكين لم يعر الى ذلك التفاتا ، كان ينظر الى حيث كانت جمهرة رمادية من الجنود تتصايح وتتفور وتركض بين قطارات البضائع .

عرفوه من بعيد . صعد الكثيرون الى سطوح العربات ، وارتفعت البنادق فوق الرؤوس وتعالى الصياح . تخطى سوروكين سياج حديقة المحطة دون ان يخفف سرعته ، وعدا على السكك الى قلب الجمهرة . امسك الجنود بلجام فرسه . رفع ذراعيه فوق راسه وصاح :

— ايها الرفاق ، رفاق السلاح ، ايها المقاتلون ! ماذا حدث ؟ ما هذا الرعب ؟ ولماذا الهلع ؟ مَنْ ادار لكم رؤوسكم ؟ اى وغد ؟

ارتفع صوت عالٍ :

— غدروا بنا !

وارتفعت اصوات اخرى :

— غدر بنا امراء الوحدات ! كشفوا الجبهة !

راح جمهور مؤلف من عدة آلاف يصرخ على السكك الحديدية ، وفى الحقل ، والعربات :

— غدروا بنا . . . تحطم الجيش كله . . . يسقط القائد ! اقتلوا القائد !

وصفر صفير وعويل ، وكان ريحا شيطانية كانت تهب . صهلت خيول المرافقين ، ووقفت على ارجلها الخلفية . وتدافعت نحو سوروكين وجوه متلوية وايد سوداء ، صرخ بشدة جعلت رقبته القوية تنتفخ :

— سكوت ! لستم جيشا ثوريا . . . شرذمة من قطاع الطرق والاوغاد . . . ارونى الخائفين على جلودهم ومثيرى الهلع . . . ارونى اعوان الحرس الابيض !

وحث حصانه فجأة ، هز الحصان جذعه الامامى ، واندفع عميقا بين الجمهور . انحنى سوروكين من على السرج واشار باصبعه :

— هذا هو !

التفت الجمهور بصورة لا ارادية الى الذى اشار اليه سوروكين . كان رجلا طويلا نحيلا ذا انف كبير ، شحب الرجل ، ورفع مرفقيه ، وتراجع . لا احد يدرى هل كان سوروكين يعرفه

بها ام قد ضحى به كاول رجل فى طريقه ليجد مخرجا للوضع الحرج . . . وكان الجمهور بحاجة الى دم . اختطف سوروكين سيفا معوجا ، ورفعه فى الهواء ، وهوى به على رقبة الرجل الطويلة بصفير . انبجس الدم على بوز الحصان برشاش قوى .

— هكذا يعامل الجيش الثورى اعداء الشعب .

حث سوروكين حصانه ثانية ، ودار فى الحشد رهيبا شاحبا ملوحا بالسيف الدامى لاعنا مهددا مهدئا :

— لا انحدار ابدا . . . الجواسيس وعملاء البيض ينشرون الرعب عن قصد . . . وهم الذين يدفعونكم الى النهب ، ويقوضون الانضباط . . . من قال انهم طوقونا ؟ من رآهم يقطعوننا ؟ هل رايت ذلك ايها الحقير ؟ ايها الرفاق ، لقد قدتكم الى المعركة ، وانتم عرفتمونى . . . انا ايضا احمل فى جسدى ستة وعشرين جرحا ! اطالبكم بان تكفوا عن النهب فى الحال ! وليذهب كل واحد منكم الى قطاره ! اليوم ساقودكم فى هجوم . . . اما الجبناء والخائفون على جلودهم فبانتظارهم انتقام السخط الشعبى . . .

استمع الجمهور ، وعلته الدهشة ، وصعد بعض الافراد على اكتاف الآخرين ليلقوا نظرة على قائدهم العام . ما تزال الاصوات ترتفع ولكن القلوب تتوهج . وترددت هنا وهناك : « انه يقول الحقيقة . . . ليقدنا . لنذهب معه . . . » . وظهر امراء السرايا الذين كانوا قد اختفوا ، واخذت الوحدات تعود الى قطاراتها شيئا فشيئا . كان ثمة شق فى سترة سوروكين عند الصدر . الرجه والظهر آثار جراح قديمة . . . وكان وجهه شاحبا مأخوذا . . . زال الهلع . احتمت حواجز الرشاشات لملاقاة القطارات المقتربة . وسار الخط كله ببرقيات فى منتهى الحزم .

ومع ذلك فقد كان لا محيص من تراجع الجيش . وبعد عدة ايام فقط امكن اعادة النظام الى الوحدات العسكرية فى منطقة محطة تيماشيفسكايا ، والبدء بهجوم مضاد . زحف الحمر فى خطوط على فيسيلكى وكورينيكا . كان الجنود الحمر يرون سوروكين منطلقا على حصانه الاصهب كلما تأرجحت كفة المعركة . وكان يبدو وكأنه بارادته الملتهبة وحدها قد حوّل مصير الحرب

منقذا المنطقة الساحلية على البحر الاسود . ولم يبق أمام اللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية شمال القفقاس الا ان تعترف رسميا بأسبقيته في العمليات الحربية .

٦

في تلك الايام من اواخر ايار ، حين كان جيش دنيكين يحرم بمحطة كوبان التابعة خيم خطر جديد على جمهورية روسيا السوفييتية . ثارت ثلاث فرق تشيكية في وقت واحد تقريبا في جميع القطارات من بينزا الى اومسك زاحفة من الجبهة الاوكرانية نحو الشرق .

وكان هذا التمرد اول ضربة اعدها مسبقا المتدخلون ضد روسيا السوفييتية . كانت الفرق التشيكية قد بدأت تتشكل منذ عام ١٦١٤ اولا من التشيكيين الذين كانوا يعيشون في روسيا ، ثم من اسرى الحرب ، وقد اضحت بعد ثورة اكتوبر جسما غريبا داخل البلاد ، وراحت تتدخل في الشؤون الداخلية بقوة السلاح .

ولم يكن من السهل دفع التشيكيين الى الهجوم المسلح على الثورة الروسية ، لانهم كانوا ما يزالون ينظرون الى روسيا باعتبارها المحرر المقبل للشعب التشيكي من الحكم الامبراطوري النمساوي . وكان الفلاحون التشيكيون الذين كانوا يسمعون الاوز لعيد الميلاد يقولون على العادة القديمة «اوزة واحدة للروس» . كانت الفرق التشيكية وهي تتراجع تحت ضغط المعارك مع الالمان في اوكرانيا تتهيأ الى الانتقال الى فرنسا ليظهروا في الجبهة ، للعالم اجمع ، تأييدهم لحرية بلاد التشيك ، والمساهمة في انتصارها على النمساويين والالمان .

تحرك اسرى الحرب الالمان والمجريون المكروهون بشكل خاص لقاء القطارات التشيكية المتجهة الى فلاديفوستوك . وكان لبرك الدم يحتدم في الاماكن التي يلتقي فيها هذان التياران . وكان عملاء الحرس الابيض يوشوشون للتشيكيين بنوايا البلاشفة السيئة ، وبمقاصدهم المزعومة عن تجريد الوحدات التشيكية السيارة وتقديمها الى الالمان .

وفي ١٤ ايار حدث عراك خطير بين التشيكيين والمجريين في محطة تشيليابنسك . فاعتقل سوفييت نواب الشغيلة في هذه المدينة بعض التشيكيين الذين تمادوا في القتال بشكل خاص ، مما ادى الى ان يهب القطار كله لرفع السلاح . واضطر السوفييت الى التراجع لان الجنود الحمر عنده في خط السكة الحديدية كله لم يكونوا مسلحين التسليح الكافي . شاع نبأ حادث تشيليابنسك في القطارات التشيكية كلها . وحدث الانفجار حين أعلن الامر البرقي الاستفزازي لرئيس المجلس العسكري الاعلى للجمهورية ردا على هذه الاحداث :

«على جميع السوفييتات تجريد التشيكوسلوفاكيين من السلاح ، والمخالف سيقع تحت طائلة المسؤولية . وكل تشيكوسلوفاكي يوجد مسلحا على الخط الحديدي يجب ان يرمى في مكانه . وكل قطار يعثر فيه ولو على مسلح واحد يجب ان تفرغ عرباته ، ويوضع ركابها في معسكر لاسرى الحرب» .

ولما كان للتشيكيين انضباط فائق ولقسم منهم خبرة في القتال وعدد وافر من الرشاشات والمدافع ، بينما لم يكن للسوفييتات لم قصائل ردينة التسليح من الحرس الاحمر ، وبلا قيادة محنكة ، فانهم هم الذين قاموا بتجريد السوفييتات ، ولبس بالعكس ، وبسطوا سيادتهم على طول الخط من بينزا الى اومسك .

بدأ التمرد في بينزا ، حيث ارسل السوفييت خمسمائة من الحرس الاحمر لملاقاة اربعة عشر الفا من التشيكيين . وقد قام الحمر بهجوم على محطة السكة الحديدية ، ونحروا على بكرة ابيهم تقريبا . واخرج التشيكيون معهم من بينزا آلة طباعة «بعثة اعداد اوراق الدولة» وقهروا الحمر في معركة كبيرة قرب بيزنتشوك وليبياغي ، واحتلوا سامارا .

وعلى هذا النحو تشكلت جبهة جديدة للحرب الاهلية شملت بسرعة مساحات هائلة في الدولغا والاورال وسيبيريا .

كان الدكتور ميلاسيف ستيبانوفيتش بولاقين يرقد على بطنه في شباك مفتوح ، ويصغي الى الهدير الاصم لقصف المدافع . كان الشارع خاليا ، والشمس البيضاء تحرق بشكل لا يطاق جدران

البيوت غير العالية ، والنوافذ المضروبة للمخازن الخالية ، واللافتات غير المجدية والشارع الاسفلتي المغطى بغبار الكلس .

في الساحة الى اليمين ، الى حيث كان ينظر الطبيب برزت السدة الخشبية المغطاة باسمال ناحلة اللون والتي تستر تمثال الكسندر الثاني : والى جنبها انتصب مدفع ، وتجمع رهط من الناس يقلبون الحجارة ، ويحفرون شيئا ، بلا جدوى ، كما هو واضح . كان بينهم القس سلوفوخوتوف وكاتب العدل ميشين بهساء وفخر المنتقلين في سامارا روماشوف صاحب مخزن للمأكولات ، وستراميوف العضو السابق للادارة المحلية الذاتية ، وكوروبسوف صاحب الاطيان الانيس الوسيم الذي كان رجلا كبيرا في زمانه . وجميعهم زبائن دميتري ستيبانوفيتش ، وشركاؤه في لعبة الورق «الهويست» . . . كان احد الجنود الحمر يضع بندقيته بين رجليه ويدخن جالسا على حجر .

دوت المدافع وراء نهر ساماركا ، ورن زجاج النوافذ رنينا خافتا . تلوى فم الطبيب على هذه الاصوات رعبا ، ناخرا من منخريه في شاربيه الاشيبين . كان نبضه مائة وخمسة - ومعنى ذلك ان الخميرة الاجتماعية القديمة ما تزال فيه . ولكن اظهار عواطفه اكثر من ذلك ما يزال امرا خطرا ، لان امر اللجنة الثورية الذي يهدد العناصر المضادة للثورة بالرمي بالرصاص كان يفوح كالعين الحمراء في مكانه على الالواح التي سدت بها النافذة اللامعة المهشمة لمخزن ليدر للمجوهرات في الجانب الآخر من الشارع مقابل داره .

ظهر في الشارع الخالي شخص غريب المنظر مرعوب يرتدي قبعة تسمى «سلاما» وحذاءه من ليف جوز الهند ، وسترة من حرير التبسور من فصال ما قبل الحرب . كان الرجل يمشي بمحاذاة الجدار ، ويتطلع الى الخلف بين برهة واخرى ، ويثب ، وكأن طلقات كانت تنفجر قرب اذنه . كان شعره بلون لبقة الكتان يتدلى حتى كتفيه ، ولحيته الصهباء قليلا تبدو وكأنها قد لصقت بوجهه الشديد الشحوب .

كان ذلك الشخص هو غمياذين الاخصائي في الادارة المحلية الذاتية (الزيمستفو) والذي حاول ذات مرة ان يثير في داخلنا «الحيوان الجميل» الكامن فيها . كان قادما لزيارة دميتري

ستيبانوفيتش ، والقصد من الزيارة ، كما يبدو ، مهم جدا جعله يتغلب على خوف الشارع الخالي ، ودوي قصف المدفعية .

رأى غمياذين الطبيب في النافذة . فلوح له بذراعه متضايقا ، وكأنه يقول له : «من اجل الرب لا تنظر لانهم يراقبونني» . انضغط على الحائط تحت امر اللجنة الثورية متلفتا الى الوراء ، ثم ركض عبر الشارع ، واختفى وراء البوابة . وبعد دقيقة دق باب الطبيب الخلفي .

همس غمياذين وهو يدخل غرفة الطعام :

- اغلق النافذة ، بحق الرب ، انهم يراقبوننا . وانزل الستار . . . لا . . . الافضل الا تنزلها . . . يا دميتري ستيبانوفيتش ، انا مبعوث اليك . . .

- اي خدمة ؟

سأل الطبيب بسخرية ، وجلس الى المائدة المغطاة بمشمع قذر محروق . ثم قال :

- اجلس ، وحدثني . . .

تناول غمياذين مقعدا ، وهبط عليه ، وعكف ساقه تحته ، وهمس في اذن الطبيب همسا عاليا متطاير اللعاب :

- دميتري ستيبانوفيتش . . . قبل حين جرى تصويت في اجتماع سري للجنة الجمعية التأسيسية للاقتراح عليك بشغل منصب نائب وزير الصحة .

- نائب وزير ؟ - استفسر الطبيب ، وارخى طرف فمه حتى ان حنكه قد تغضن كله . - هكذا . ولاية جمهورية ؟

- ليس لجمهورية بل لحكومة . . . اننا نأخذ بايدينا المبادرة للقتال . . . نفتح جبهة . . . نحصل على آلة لطبع الاوراق النقدية . . . ونزحف برئاسة الفيلق التشيكوسلوفاكي على موسكو . . . ونستدعي جمعية تأسيسية . . . وكل هذه الاعمال فعلناها نحن . انت تفهم ، نحن . . . اليوم حصل نزاع حاد . الاشتراكيون-الثوريون والمناشفة طالبوا بكل المناصب الوزارية . ولكن ، نحن اعضاء الادارة المحلية الذاتية ، دافعنا عنك ، ومررنا ترشيحك . . . هل انت موافق ؟

وفي تلك اللحظة بالذات صدر دوي رهيب وراء نهر ساماركا جعل الاقداح تطقطق على المائدة حتى ان غفيادين وثب على قدميه ، وامسك بمقبضه قائلا :

— انهم التشيكيون . . .

وصدر دوي آخر ، ولعلعت رشاشة كانت تبدو قريبة للغاية . جلس غفيادين ثانية وقد شحب كليا ، وطوى ساقه .

— انهم الاوغاد الحمر . . . عندهم رشاشات نصبوها على سايلوات الحبوب . . . ولكن لا مجال للشك في ان التشيكيين يقتحمون المدينة . . . سيستولون عليها حتما .

تمتم دميتري ستيبانوفيتش بصوت اجش :

— اعتقد انى موافق . هل تريد شايا ، ولكنه بارد ؟

امتنع غفيادين عن الشاي ، وراح يهمس وكأنه في غيبوبة :

— سيراس الحكومة وطنيون — انزه الناس ، شخصيات نبيلة . . . فولسكي ، وانت تعرفه ، محام من تفير ، رجل ممتاز . . . والنقيب فورتوناتوف . . . وكليموشكين ، وهو من بلدتنا سامارا ، انه انسان نبيل ايضا . . . وجميعهم من الاشتراكيين-الثوريين ، مناضلون صلبون . . . يتوقعون ايضا تشيرنوف نفسه . ولكن ذلك سري للغاية . . . انه يقاتل البلاشفة في الشمال . . . والضباط في كتلة وثيقة معنا . . . ومن العسكريين يرشح العقيد غالكين . . . يقولون انه دالتحول الجديد . . . وباختصار ، كل شيء مهيأ . ونحن بانتظار الهجوم فقط . . . وكل المعلومات تشير الى ان التشيكيين قد عينوا اليوم ليلا موعدا للهجوم . . . وانا امثل الميليشيا . وهذا عمل خطير ويحتاج الى جهد كبير . . . ولكن يجب ان نقاتل ، وان نضحي بالنفس . . .

ترددت وراء النافذة اصوات عالية ناشزة لأبواق عسكرية تعزف «النشيد الاممي» . طوى غفيادين جذعه ، ووضع رأسه على بطن دميتري ستيبانوفيتش ، كان شعره الكتاني يبدو كشعر دمية .

احتجبت الشمس وراء سحابة ممطرة . ولم تأت الطراوة مع الليل ، وغشى النجوم نقاب من القتامة ، وازداد قصف المدافع وراء

النهر حدة وكثافة . فكانت البيوت تهتز من الانفجارات . وكانت بطارية البلاشفة ذات ٦ مدافع ، المنصوبة على السايلو ترعد في الظلام . وكانت الرشاشات تلعلع على سطوح البيوت . وفيما وراء النهر ، في ضواحي سامارا التي كانت ترتبط بجسر خشبي كان الحراس الحمر في النقاط الامامية يطلقون النار ، تتردد اصواتها ضعيفة .

انتشرت سحابة في السماء بدمدمة راعدة . وحلّ ظلام حالك ، ولم يلح اي ضوء لا في المدينة ولا على النهر . لا شيء غير ومضات المدافع وهي تطلق نيرانها .

لم ينم احد في المدينة . وكانت لجنة الجمعية التأسيسية تجتمع بشكل متواصل في مكان مجهول . وكان المتطوعون من منظمات الضباط عالجي الاعصاب في البيوت في بدلهم وباسلحتهم . وكان اهالي المدينة يقفون عند النوافذ يحدقون في الظلام الليلي ! ورجال الدوريات يتنادون في الشوارع . وفي فترات السكون كانت تسمع صافرات القاطرات وهي تنقل القطارات صوب الشرق .

رأى المتطلعون من النوافذ برقا متعرجا يقطع السماء من الحافة الى الحافة . واضاء مياه الفولغا الكدرة بضوء كئيب . ولاحت صواري الصنادل والسفن عند الارصفة ، وظهر عاليا فوق النهر وفوق السطوح هيكل السايلو الضخم ، والبرج المستدق للكنيسة اللوثرية ، وبرج الجرس الابيض الملحق بدير النساء ، والمشيد كما يقال ، بالاموال التي جمعتها الراهبة المتجولة سوسانا . وانطفأ البرق . وحلّ الظلام . . .

تمزقت السماء ، وهبت ريح ، والتوت مداخن المواقد عويلا وعصفا . وبدأ التشيكيون الهجوم .

هجم التشيكيون بصفوف غير كثيفة من جانب محطة كريازه الى جسر السكة الحديدية ، وخلال مصانع كبس الشحم الى ضواحي المدينة في ما وراء النهر . وقد اعاقت تقدمهم وعورة المنطقة ، والسد ، وتكاثر الصفصاف الارجواني .

وكان المدخل الى المدينة يقع عبر الجسرين الخشبي والخاص بالسكة الحديدية . وكانت مدافع البلاشفة في الساحة وراء سايلو الحبوب تقصف مشارف المدينة . وابتدت ضرباتها القوية

والانفجارات على روح الشجاعة فى وحدات العمر لخير الواثقة بغيرة قياداتها .

وفى اواخر الليل لجأ التشيكيون الى الحيلة . كان بقايـــا اللاجئين البولونيين يعيشون فى عنابر بالقرب من سايلو الحبوب مع نسائهم واولادهم ، وكان ذلك معروفا لدى التشيكيين . وحين اخذت قذائفهم تنفجر فوق السايلو خرج البولونيون من العنابر وتناثروا هنا وهناك بحثا عن ملجأ . ابتلعهم المدفعيون عن المدافع بالشتائم وباسياخ تسليك المدافع . وانتصدوا حين راحت المدافع ذات الست بوصات تهدر مصمة تخطف الابصار ... ولكن حشدا جديدا من النساء تراكض من العنابر ، وتصايح :

– لا تطلقوا ، يا باني * ، لا تطلقوا من فضلكم ، نتضرع اليكم الا تصرعوا التعساء .

واحاط بالمدافع من كل جانب .

امسكت البولونيات غريبات الشكل باسيـــاخ التسليك ، وعجلات المدافع ، واخذن بالايدى ، وتعلقن تقبيـــلات بالمدفعيين المصعوقين بهدير المدافع ، وتشبثن بلحاهم ، وسحبنهـــم الى الارض ... وكان تحت بلوزة كل واحدة منهن قميصا عسكريا ، وتحت كل تنورة بنطلونا عسكريا ...

وصرخ شخص :

– يا اصحاب ، هؤلاء تشيكيون !

فعاجلته طلقـــة مسدس عصفت رأســـه ... اخذ البعض المقاومة ، ولاذ البعض الآخر بالفرار ... اما التشيكيون فكانوا قد خلعوا المغاليق من المدافع ، وتراجعوا مطلقين النار . ثم غابوا فى الفواصل بين العنابر وكأن الارض ابتلعتهم .

انطفأت البطارية ، وسكتت الرشاشات . واستمر التشيكيون فى الهجوم محتلين ضواحى سامارا فيما وراء النهر ووصلـــوا الى القرانا .

فى صباح اليوم التالى انقشعت السحب ، وانعكست الشمس الجافة على نوافذ بيت دميترى ستيبانوفيتش غير المغسولة . كان

* «باني» جمع «بان» وهي تعني السيد بالبولونية – المترجم .

الدكتور جالسا الى الطاولة فى هندام انيق ، وعيناه لحاترتان ، لانه لم ينم الليلة . كان مغسل الاوانى والصينية وصحـــون المناجين مملوءة باعقاب السكائر . كان بين الفينة والاخرى يتناول مشطا مكسورا ، ويمشط به خصلات شعره الجعداء الشائبة الى جبينه . كان يتوقع فى كل لحظة ان يدعى لاداء واجباته الوزارية . لقد تبين انه كان طموحا .

كان الجرحى يمرون بنوافذ بيته فى شارع دفوريالسكايا وكانهم يسيرون فى مدينة شبه ميتة . وكان بعضهم يجلس على الارصفة بمحاذاة الجدران ، ويلفون جراحهم بخرق ملطخة على نحو ما ، وكانوا يرفعون ابصارهم الى النوافذ الفارغة ، ولكن لا يجدون احدا يطلبون منه ماء او خبزا .

كانت الشمس تسخن الشارع الذى لم ترطبه عاصفة المطر ابدا . وكانت اصوات المعركة تترامى قادمـــة من وراء النهـــر . انطلقت سيارة مائلة شارع دفوريالسكايا بسحب الغبار الكلسى ، وتراءى وجه الطوفى العسكرى الملتوى ذو الفم الاسود . انعطفت السيارة فى الشارع عبر الجسر الخشبى ، حتى لمست بقذيفة مدفع كان وكانها ، كما ذكر فيما بعد . توقف الزمن ، وبدت المعركة بلا نهاية . وخمدت المدينة فلم تعد تتنفس . وارتدت نساء المجتمع الراقى البيضاء واستلقين واضعـــات الوسائد على رؤوسهن . وتداولت لجنة الجمعية التاسيسية غنائها الصباحى الذى افقدتــــه صاحبا الظاهرة . وبدت وجوه الوزراء فى السرداب شاحبة شحوب الموت . واصوات المعركة ما تزال تترامى من وراء النهر ...

منذ الظهر تقدم دميترى ستيبانوفيتش من النافذة ولمس واتخذها . حيث لم يعد قادرا على الجلوس فى دخان التبغ الازرق . كان الشـــارع قد خلا من اى جريح . والكثير من النوافذ قد فتح فتحات صغيرة ، فلاحت عين تتلصص من وراء ستارة هنـــا ، وتراءى وجه منطفئ هنا وهناك . واطلت رؤوس من مداخل البيوت ، واختفت . كان يبدو وكأن البلاشفة لم يعودوا فى الوجود ... ولكن ما هذه الطلقات المتتابعة من وراء النهر ؟ .. آه ، مـــا اصعب الوضع .

وفجأة – كمعجزة – ظهر من وراء المنعطف ضابط طويـــل

السائقين في سترة عسكرية ناصعة كالثلج مرتفعة عند الخصر ، وتوقف برهة ، وسار في وسط الشارع . كان سيفه يضرب الى جانب حذائه . وكانت كتافيتاه المذهبتان تتألقان مثل شمس الظهيرة ، مثل نعمة من العهد القديم .

ورف في قلب دميتري ستيبانوفيتش شيء منسي ، وكأنما تذكر شيئا ، وحنق على شيء . اطل برأسه من النافذة بحيوية مبهمة ، وصاح على الضابط :

— عاشت الجمعية التأسيسية !

القى الملازم نظرة غامزة على وجه الطبيب الممتلىء ، واجاب على نحو غامض :

— ستری ...

واطل الناس من جميع النوافذ ، ونادوا ، وتساءلوا :

— يا حضرة الضابط ... كيف الحال ؟ استوليتا ؟ وصل البلاشفة !

ارتدى دميتري ستيبانوفيتش قبعة بيضاء لها حافة نائئة ، وتناول عصاه ، ونظر الى نفسه في المرآة ، وخرج . كان الناس يملؤون الشوارع ، وكأنهم خارجون من كنيسة . وفي الواقع رن جرس كنيسة رنينا رقيقا ، تزاحم الجمهور الصاخب ببهجة على المفرق ، امسكت بكم دميتري ستيبانوفيتش احدى زبائنه ، وهي سيدة لها ثلاثة ذقون . كانت رائحة النفتالين تفوح من الزهور الاصطناعية على قبعتها الضخمة ، وقالت :

— دكتور ، انظر انهما تشيكيان !

كان تشيكيان يقفان عند ملتقى الشوارع محاطين بالنساء ، وبندقيتاهما مائلتان الى الارض . احدهما ازرق الوجه من الحلاقة ، والآخر ذو شاربين اسودين ضخمين . كانا يبتسمان بعصبية ، ويلقيان نظرات سريعة على السطوح والنوافذ والوجوه .

كانت قبعتاهما الانيقتان ، والسترتان العسكريتان بازرارهما الجلدية ، والعلامتان المشدودتان على ذراعيهما اليسراوين ، والحقيبتان وامشاط الرصاص المتينة ، ووجهاهما الناعمان عن نسيم ، كل ذلك يبعث الانشراح والدهشة المقرونة بالاحترام فكأن هذين قدما الى شارع دفوريانسكايا من عالم آخر .

صاح بعض الموظفين من وسط الزحام :

— مرحى ! عاش التشيكيون ! لنرفعهم على ايدينا ! هيا !

اراد دميتري ستيبانوفيتش ان يقدم التحية اللائقة ، وقد انحنى متضعضعا ونخر من انفه ، الا ان الانفعال جفف حنجرته ، فاسرع الى الشقة السرية ، حيث كانت تنتظره التزامات رفيعة .

كان السرداب عند صاحبة الطاحونة فارغا ، لا شيء فيه غير بقايا رائحة التبغ المحترق ، ونفاضات مملوءة باعقاب السكائر ، وفي طرف المنضدة كان رجل اشقر ينام ورأسه ملقى على اوراق رسمت عليها وجوه كبيرة الانوف . مس دميتري ستيبانوفيتش كتفه . تنفس الاشقر نفسا عميقا ، ورفع وجه الملتحي بعينيه الزرقاوين المائعتين المتلطختين بعد النوم .

— ما الخبر ؟

سأل دميتري ستيبانوفيتش بحدة :

— اين الحكومة ؟ الذي يتكلم معك نائب وزير الصحة .

— آه ، الدكتور بولافين ، اوه ، اللعنة . كنت ... ما هي الحال في المدينة ؟

— لم يتم تطهير كل شيء . ولكن هذه هي النهاية . الدوريات التشيكية في شارع دفوريانسكايا .

كشف الاشقر عن اسنانه فاتحا فمه ، وقهقه .

— لطيف !! يا للشيطان ... مهارة ! اذن فالحكومة ستجتمع هنا تمام الساعة الثالثة . اذا سار كل شيء على ما يرام ستنتقل في المساء الى مكان افضل ...

وحلّ على دميتري ستيبانوفيتش حدس مخيف فقال :

— اعذرني ... هل انا اتحدث مع عضو في اللجنة المركزية للحزب !! هل انت الكسيتيف ؟

اجاب الاشقر بإيماءة غير محدودة ، وكأنه يقول : «هذا الحل ...» دق جرس التلفون . تناول السماعة من على المنضدة .

— اذهب ، يا دكتور . ان مكانك الآن في الشارع ... تذكر انما يجب الا نسمح بالمتطرفين ... انت ممثل المثقفين البرجوازيين . لتحاول ان تهدئ من ثائرتهم ... والا فسائت حرفا — وغمز له — ستحدث منغصات في المستقبل ...

خرج الدكتور . كانت المدينة كلها الآن قد خرجت الى الشوارع . كان الناس يتبادلون التحيات ، وكأنهم فى عيد الفصح . وكانوا يتبادلون التهانى ، ويتناقلون الاخبار ...

– البلاشفة يندفعون الى ساماركا بالآلاف . يحاولون العبور الى هذه الضفة ...

– ولكن يقتلونهم ...

– ويغرق منهم الكثير الكثير ...

– صحيح تماما . الفولغا كلها فى اسفل المدينة مغطاة بالجثث ...

– اذن نشكرا للخالق على ذلك ... انا لا اعتبر ذلك خطيئة ...

– حقا موت الكلاب للكلاب ...

– يا سادة ، هل سمعتم ؟ اطلقوا القنابل من على برج الجرس ...

– من ؟ البلاشفة ؟

– حتى لا يدق الجرس .. هذا ما يسمى صفق الباب وراءك .. يمكن ان افهم لو كان آخر غير القنابل .

– الى اين ، يا اب ؟

– الى الاسفل . اريد ان اعاين الهرى . هل هو سالم .

– هل فقدت عقلك ؟ ما زال البلاشفة على ارصفة النهر .

– دميتري ستيبانوفيتش ، جاء اليوم السعيد ! . لماذا اراك مشغول الفكر ؟

– اختاروني نائب وزير ...

– تهانيّ ، يا صاحب المعالى ...

– لم يحن الوقت بعد للتهنئة ... لم تستول على موسكو بعد ...

– آه ، يا دكتور ، على الاقل ان تتنفس هواء نقيا .. وسنقول شكرا على ذلك ...

كانت الكتائبيات المذهبة تطوق فى الحشد هنا وهناك متباهية . كانت رمزا لكل ما هو قديم ومريح ومأمون . مرت جماعة من الضباط بخطى حازمة يصاحبها صبيان متأنقون . ضحكت نساء

ابيات . انعطف الجمهور من شارع سادوفايا الى شارع دفوريانسكايا مارا بفيلا لكورليتا ذات الأبهة السخيفة ، المرصوفة بالبلاط الاخضر . اندفع رجل فى الحشد ...

– ما هذا ؟ ماذا حصل ؟

– يا حضرة الضابط ، فى هذا الفناء بلشفيان يختفيان وراء الخشب ...

– هكذا ... يا سادة ، يا سادة ، تحركوا ...

– الى اين هرب اولئك الضباط ؟

– يا سادة ، يا سادة ، لا حاجة الى اى فزع ...

– وجدوا اعضاء فى اللجنة الاستثنائية !

– دميتري ستيبانوفيتش ، لنبتعد احتياطا ، والا ...

صدرت طلقات . ماج الحشد . وتراكض الناس فاقدين صوابهم . ووجد دميتري ستيبانوفيتش نفسه فى شارع دفوريانسكايا مرة اخرى لاهثا . وشعر بالمسؤولية ازاء كل ما يحدث . بلغ الساحة وقلص عينيه ناظرا الى المسلة التى تغطى نصب الكسندر الثاني . مد ذراعه ، وقال بلهجة غاضبة وبصوت عال :

– البلاشفة مستعدون لتحطيم كل ما هو روسى . وهم يريدون ان ينسى الشعب الروسى تاريخه . هنا ينتصب تمثال للقيصر محرر لا يؤذى احدا . ارفعوا عنه هذه الالواح السخيفة ، وهذه الخرق الكريهة .

كان هذا اول خطاب له فى الشعب . وفى الحال صاح شبان فى قبعات لها حواف لامعة – تدل هيئتهم على انهم باعة فى حوانيت :

– انزعوها !

ارتفعت فرقعة الالواح . وهى تقلع عن التمثال . واصل دميتري ستيبانوفيتش مسيره . قل الجمهور . كانت الطلقات تتردد هنا من وراء النهر باصوات اقل . جاء رجل عار الا من سروال داخلى ميلل يركض من الجهة المضادة للجهة التى كان يتقدم منها دميتري ستيبانوفيتش . كان شعره الداكن يتهدل على عينيه ، ووجهه العريض مرضوضا . تصايحت بعض النسوة ، وابتعدت عنه متراكضات الى البوابات . استدار الرجل فجأة ، وانطلق هابطا

المنحدر الى الفولغا . وركض وراءه ثلاثـــة آخرون ، ثم آخرون ، وآخرون مبللين نصف عراة لاهثين . . . وارتفعت اصوات في الشارع :

- بلاشفة ! اقتلوهم !

كان الجميع كالشناكيب التي افزعتها الطلقات ينعطفون نحو المنحدر ، الى الارصفـــة . فلحق دميتري ستيبانوفيتش ، وركض ايضا ، وامسك برجل سقيم ذي انف معقوف ، وبلا رموش .

- انا وزير في الحكومة الجديدة . . . يجب ان توضع رشاشة هنا في الحال ! اذهب ، واجلبها . انا آمرك . . .

- لا افهم الكلام الروسي .

اجاب الرجل السقيم ممتعضا مديرا لسانه بصعوبة . . . دفعه الطبيب . . . يجب الاسراع بالفعل . . . ذهب بنفســـه ليبحث عن تشيكيين عندهم رشاشة . . . واذا به يرى بلشفيا آخر عند المدخل الحديدي ، حيث كانت تتعلق نجمة حمراء نصف مخلوعـــة . كان الرجل مسوّد البشرة من تلويح الشمس ، حليق الراس ذا لحية تترية . كان القميص العسكري الذي يرتديه ممزقا ، وقد سال الدم من بقعة صغيرة على كتفه . هز راسه كالكلب مبديا اسنانا صغيرة مقرقشا ، وقد لاح عليه الرعب من الموت .

هاجمه حشد من الناس ، وتفوهت النساء خاصة بكلمات مبهمة . ولوّح الكثيرون بالمظلات والعصي والقبعات المخضوطلة . . . واحتد جنرال متقاعد واقف على درجات مدخل بيت ورفع صوته فوق جميع الاصوات ملوحا على البلشفي بذراعيه الفيلقيتين ، وقد تحدرت طاقيته المنفخة على صلعتيه الجانبيتين ، وتارجح الوسام تحت رقبته الرخوة .

- اعدموه ، يا سادة . . . انه مفوض . . . بلا رحمة . . . ان ابني هو الآخر احمر . . . محنة عظيمة . . . ارجو ، يا سادة ، ان تجدوا ابني وتجلبوه لي . . . سأقتله هنا ، امام الجميع . اقتل ابني . . . يجب الا تكون ثمة رحمة في هذا الخصوص ايضا . . .

فكر دميتري ستيبانوفيتش قلقا : «التدخل لا فائدة منه في هذه الحال» وتلفت مبتعدا . . . صمتت الصيحات . . . وفي المكان الذي كان يقف فيه المفوض الجريح قبل حين كانت المظلات والعصي تلوح في الهواء . . . عمّ السكون تماما ، ولم تسمع الا الضربات .

نزل الجنرال المتقاعد من على مدخل البيت الى الاسفل ملوحـــا بذراعيه بوجل كقائد فرقة موسيقية ، وقد نزلت قبعته على انفه .

لحق بدميتري ستيبانوفيتش كاتب العدل ميشين . كان في سترة قذرة مزررة حتى عنقه ، ووجهه منتفخ ، ونظارته الانفية قد فقدت احدى عدستيها .

- قتلوه . . . انهالوا عليه بالمظلات . . . انه فظيع مثل هذا الحكم الكيفي للغوغاء . . . آه ، يا دكتور ، ويقولون ان اشياء فظيعة تحدث على شاطئ سامارا . . .

- لنذهب الى هناك في هذه الحال . . . انت تعرف انني في الحكومة . . .

- اعرف ، انا مسرور . . .

وباسم الحكومة اوقف دميتري ستيبانوفيتش جماعة من صف ضباط ، وطالبهم بمصاحبته الى شاطئ النهر ، حيث كانت تجري تجاوزات غير مرغوب فيهـــا . الآن كانت الدوريات التشيكية تقف في كل مكان عند مفارق الشوارع . كانت النساء الانيقات يزيّنهـــم بالزهور ، ويعلمنهم النطق بالروسية متضاحكات ضحكا رنانا محاولات ان يعجب الاجانب بالنساء والبلدة وبروسيـــا كلها التي اذاقت التشيكيين العلقم في سنوات الاسر .

على شاطئ سامارا القذر قضى متطوعون من الاهالي على فلول الحمر الفارين من ضواحي سامارا . وصل دميتري ستيبانوفيتش الى هناك متاخرا كثيرا . استطاع الحمر الذين وفقوا في عبور الجسر العمس ، وعبروا النهر سباحـــة بخط مائل ان يركبوا الصنادل والسفن ، ويرحلوا الى اعلى الفولغا . كانت بعض الجثث مطروحة على الشاطئ في الموج المتكاسل ، ومئات اخرى قد جرفتها الفولغا .

كان غفيادين يجلس على زورق مقلوب عفن ، وقد شد على كمه شريطا ثلاثي الالوان ، وشعره الكتاني مبلل من العرق . كانت عيناه الشهلاوان تماما تنظران ببؤبؤيهما الصغيرين الى النهر المشمس . تقدم دميتري ستيبانوفيتش منه ، وهتف بحدة :

- ايها السيد معاون رئيس الميليشيا ، يبلغني ان تجاوزات غير مرغوب فيها تحدث هنا . . والحكومة تامر بان . . .

لم يتم الدكتور كلامـــه اذ وقع بصره على هراوة من البلوط

في بلدي غفيادين التصق بها ثم وتخلص من الشعر . همس غفيادين بصوت مكتوم ، يكاد يسمع :

— هذا آخر يوم . . .

ونزل من الزورق بتراخ ، وتقدم من الماء ، ونظر الى رأس حليق يعوم ببطء وانحراف عن التيار . تقدم خمسة او ستة من الشبان من غفيادين ومعهم العصي . عندئذ عاد دميتري ستيبانوفيتش الى ضباطه الذين كانوا يشربون الكفاس * الباقاري من بائع نشط في مئزر نظيف لا احد يعرف اية حماسة جعلته يخرج بعربته . خطب الدكتور بالضباط يحثهم على وضع حد للقسوة الزائدة . واشار الى غفيادين والى الرأس العائم . حرك ضابط الفرسان الطويل الساقين ذو القميص الناصع الذي رأيناه قبل حين ، حرك شاربيه الابيضين من زبد الكفاس ، ودفع بندقيته ، واطلق الرصاص . فغاص الرأس تحت الماء .

عندئذ شعر دميتري ستيبانوفيتش بانه فعل كل ما يتعلق به ، فاستدار عائدا الى المدينة . كان عليه الا يتأخر على اجتماع الحكومة الاول ، صعد في التل لاهثا مثيرا الغبار بحذائه . كان نبضه لا يقل عن مائة وعشرين . لقد تكشفت امام بصره آفاق تدير الرأس : الزحف على موسكو ، الرنين الرقيق لكنائسها التي لا تحصى ، بل والله يعلم ربما كرسي الرئاسة . . . فان الثورة امر لا يحزر ، واذا تدهورت متراجعة فان كل هؤلاء الاشتراكيين-الثوريين والاشتراكيين-الديموقراطيين سيجدون انفسهم صرعى تحت عجلاتها في لمحة البصر . . . لا ، لا ، لنوقف اعمال اليساريين المتطرفين

٧

جلست يكاترينا دميتريفنا في غرفة الجلوس الواطئة وراء شجيرة الدريقة ، عصرت المنديل المبلل بالدمع ، وراحت تكتب رسالة الى اختها داشا .

---

* مشروب مصنوع من الخبز الاسود . ـ المترجم .

كان المطر يصفع النافذة المحجبة ، والاقاسيا تتمايل في الفناء بشدة . وكان ورق الجدران المحلول يهتز في الريح التي كانت تسوق السحب من بحر آزوف .

كتبت كاتيا :

«داشا ، يا داشا . قنوطي لا حدود له . فاديم قتيل . وقد ابلغني بذلك صاحب البيت الذي اعيش فيه ، المقدم تيتكين . لم اصدق ، وسألته ممن عرف ذلك . فاعطاني عنوان فاليريان اونوف احد رجال كورنيلوف الذي جاء من الجبهة . في الليل هرعت الى فندقه . يبدو انه كان سكران ، فقد جرني الى غرفته ، واخذ يعرض علي ان اشرب النبيذ . . . كان ذلك فظيعا . . . انت لا تستطيعين ان تتصوري اي اناس هنا . . . سألته : «هل زوجي قتل ؟» . كان اونوف من الفوج الذي خدم فيه فاديم ورفيقه ، وقد اشترك معه في معارك . . . وكان يراه كل يوم . . . اجابني باستهزاء : «نعم قتيل ، فاعذريني ، يا فتاة . فقد رأيت بنفسي كيف كان الذباب يأكله . . .» ثم قال : «كان روتشين تحت الشبهة عندنا ، ومن حسن حظه انه قتل في معركة . . .» ولم يذكر اليوم الذي حصل فيه الحادث ، ولا المكان الذي قتل فاديم فيه . . . توسلت ، وبكيت . . . صرخ بي : «لا اذكر كل الاماكن التي قتل فيها قتيل وغيره» . وعرض علي نفسه كبديل . . . آه ، داشا ! اي اناس هؤلاء ! . . هربت من الفندق مذعورة العقل . . .

انا لا استطيع ان اصدق ان فاديم لم يعد في الوجود . . . ولكن لا يجوز الا اصدق به . فلماذا يكذب هذا الرجل ؟ والمقدم ايضا يقول هذا ما حصل ، كما يبدو . . . لم اتلق من فاديم طوال وجوده في الجبهة غير رسالة واحدة قصيرة تبدو وكانما كتبها شخص آخر غيره . . . وقد جاءتني في الاسبوع الثاني بعد عيد الفصح . . . رسالة بلا خطاب . . . وهذه هي كلمته بكلمة : «ارسل لك نقودا . . . انا لا استطيع ان اراك . . . اتذكر كلماتك عند الفراق . . . انا لا اعرف هل يمكن ان يكف الانسان عن ان يكون قاتلا . . . انا لا ادري كيف اصبحت قاتلا . . . وانا احاول الا افكر . ولكن يبدو انني سأضطر الى ان افكر وان اعمل شيئا . . . فحين يزول ذلك — اذا كان ذلك ممكنا — عندئذ سنتقابل . . .» .

وهذا كل شيء ، يا داشا ، وكم ذرفت من دموع . لقد رحل عني ليموت . . . بأي شيء كنت استطيع ان اوقفه ، اعيده ، انقذه ؟ ماذا في وسعي ان افعل ؟ ان اضمه في قلبي بكل قوتي . . . هذا فقط . . . ولكنه لم يعد يلاحظني في المدة الاخيرة . كانت الثورة تحدق في وجهه بكل عيونها . آه ، انا لا افهم شيئا . هل ينبغي علينا جميعا ان نعيش ؟ لقد تهدم كل شيء . . . نحن ، كالطيور في العاصفة ، ننطلق في ارجاء روسيا . . . لماذا ؟ لو ان كل الدم المراق ، كل العذابات والآلام تعيد لنا البيت ، والغرفة الطعام النظيفة ، والاصحاب الذين يلعبون الورق . . . فهل سنعود سعداء من جديد ؟ ان الماضي مات ، مات الى الابد ، يا داشا . . . وانتهت الحياة . فليأت آخرون اقوياء وافضل . . .»

وضعت كاتيا القلم ، ومسحت عينيها بمنديل مدعوك . ثم نظرت الى المطر النازل على زجاجات النافذة الاربع . كانت الاقاصيا تنحني وتتمايل في الفضاء بشدة ، وكان الريح الغاضبة تنفش شعرها . وعادت كاتيا تكتب :

«رحل فاديم الى الجبهة ، وحل الربيع . كان هدف حياتي كلها انتظارا لفاديم ، ما احزن ذلك ، وما كان اقله ضرورة لأي انسان . . . اتذكر كيف نظرت من خلال الشباك قبيل المساء ، وقد تفتحت الاقاصيا ، وتفتقت البراعم الكبيرة ، واضطرب سرب من العصافير . . . واحسست بالكدر والوحشة . . . انا غريبة ، غريبة على هذه الارض . . . انتهت الحرب ، وستنتهي الثورة ، وستغرق روسيا ، لنقاتل ، ولنهلك ، ولنعذب . اما الشجرة فستتفتح كما تفتحت في الربيع الماضي ، الذي سبقه ، وما قبله وقبله . وهذه الشجرة والعصافير – والطبيعة كلها – قد ابتعدت عني الى مدى كبير ، وهي تعيش هناك حياتها غير المفهومة لي . . .

داشا ، لماذا عذاباتنا كلها ؟ لا يمكن ان تكون عبثا . . . نحن ، النساء ، انا وانت ، نعرف عالمنا الصغير . . . ولكن كل ما يحدث حولنا – كل روسيا – اي موقد ملتهب هو ؟ لا بد ان تخلق هناك سعادة جديدة . . . واذا كان الناس لا يؤمنون بذلك ، فليس من المعقول ان يصير احدهم يبغض الآخر ويقتل احدهم

الآخر بهذا الشكل . . . لقد فقدت كل شيء . . . ولست بحاجة الى شيء . . . ولكنني اعيش لانه من العار ، ليس من الخوف ، بل من العار ان اضع راسي تحت عجلات قطار . . . او ان اتعلق من حبل في خشبة .

لقد سأغادر روستوف كي انسى كل شيء . . . واسافر الى يكاترينوسلاف . . . فهناك عندي معارف . وهم ينصحونني بأن اعمل في محل حلويات . ربما ستأتين انت ايضا الى الجنوب ، يا داشا ؟ . . . يقولون ان الحال عندكم في بتروغراد سيئة جدا . . .

هذا هو الفرق : ان المرأة لن تهجر حبيبها ولو في نهاية العالم . . . بينما رحل فاديم . . . لقد احبني طالما كان واثقا من نفسه . . . انت تذكرين اي شمس كانت تضيء سعادتنا في بطرسبورغ في حزيران . . . لن انسى ما حييت شمس الشمال الشاحبة . . . لم تبق لي من فاديم صورة فوتوغرافية ، ولا شيء آخر . . . كان كل شيء كان حلما . . . لا استطيع ، يا داشا ، لا استطيع ان اصدق بأنه قتيل . . . اظن انني سأفقد عقلي . . . لقد غدت حياتي عيشة حزينة ، وبلا جدوى . . .»

ولم تستطع كاتيا ان تستمر في الكتابة اكثر . . . كان المنديل قد تبلل كله . . . ومع ذلك فقد كان يجب ان تنقل الى اختها كل ما هو مألوف واعتيادي مما يقدره الناس اكثر من غيره في الرسائل . . . وقد كتبت تحت ضجيج المطر هذه الكلمات دون ان تضع فيها فكرة او شعورا . . . عن ثمن المواد الغذائية ، وعن غلاء المعيشة . . . «لا توجد اية اقمشة ، ولا خيط . . . والابرة بألف وخمسمائة روبل او بخمسين حبة . . . جارتي في البيت ، فتاة في السابعة عشرة عادت ليلا عارية مضروبة ، فقد جردوها من ملابسها في الشارع . والشيء الرئيسي انهم يقتنصون الاحذية خاصة . . .» وكتبت عن الالمان انهم يعزفون في حديقة البلدية موسيقى عسكرية ، وهم يأمرون بكنس الشوارع . اما الحبوب والسمنة والبيض فيحملونها بالقطارات الى المانيا . . . وعامة الناس والعمال يكرهونهم ، ولكنهم يلزمون الصمت ، لانهم لا ينتظرون نصرة من احد .

وكل ذلك اخبرها به المقدم تيتكين . «انه طيب جدا ولكن

الطعام ثم زالت كان يرعقه على ما يبدو . وزوجته لم تعد تخجل من ان تذكر ذلك . وكتبت كاتيا ايضا : «يوم امس الاول اكملت ٢٧ عاما من عمرى . ولكن شكلى . . اوه ، دعك من هذا . . . انه غير مهم الآن . . . ليس لى احد يهتم بشكلى . . .»

وتناولت المنديل مرة اخرى .

سلمت كاتيا هذه الرسالة الى تيتكين ، فوعد بان يرسلها الى بتروغراد فى اقرب فرصة . ولكنها ظلت فى جيبه مدة طويلة بعد رحيل كاتيا . كان الاتصال بالشمال صعبا جدا . ولم يكن البريد يعمل . وكانت الرسائل ترسل بايدى رسل خاصين من المجازفين ، وكانوا يتقاضون عليها نقودا كثيرة .

باعت كاتيا ، قبيل رحيلها ، كل الاشياء القليلة التى حملتها من سامارا . لم تبق الا شيئا واحدا هو الخاتم الزمردى الذى كان قد أهدى لها فى عيد ميلادها . وكان ذلك منذ زمن بعيد قبل الحرب ، فى صباح ربيعى فى بطرسبورغ . وقد صار ذلك ذكرى بعيدة حتى ان كاتيا لم تحس بارتباط مع تلك المدينة الضبابية التى انقضى فيها صباها . . . خرجت داشا والمرحوم نيقولاى ايفانوفيتش وكاتيا الى جادة نيفسكى . . . واختاروا خاتما فيه فص من الزمرد . فوضعت الفص الأخضر فى اصبعها ، ولم يبق الا هو من الحياة الماضية . . .

غادرت عدة قطارات محطة روستوف تباعا . دُفعت كاتيا وحشرت فى عربة من الدرجة الثالثة . فجلست عند النافذة ، ووضعت على ركبتيها صرة من الثياب الداخلية المرقعة . ومرت بها المروج المغمورة بالماء ، ومستنقعات الدون ، والادخنة فى الافق ، والمعالم الضبابية لباتايسك التى لم يقهرها الالمان ، وتحت الضفة العالية قرى الصيادين الغاطسة فى الماء الى السقف ، وبيوت طينية وبساتين وزوارق مقلوبة ، واولاد يعدون عُدد صيد . ثم انبسط بحر آزوف كغطاء حليبى ، وفى البعيد بعض القوارب الشراعية العائمة ، ثم المداخن المنطفئة لمصانع تاغانروغ ، وسهوب ودواب ومناجم مهملة وقرى كبيرة على منحدرات تلال

طباشيرية ، وبواشق فى السماء الزرقاء . وصفير القطار يوحش هدوء الرحاب ، وفلاحون يهمسون فى المحطات ، وخوذ الالمان الحديدية . . .

نظرت كاتيا من نافذة القطار منحنية الظهر كالعجوز ، لعل وجهها كان حزينا وحلوا حتى ان الجندى الالمانى الذى كان يجلس قبالتها حدق طويلا فى هذه المرأة الروسية الغريبة . وكان الحزن ايضا يبدو على وجهه النحيل المتعب فى نظارة اطارها من النيكل .

قال لها بالالمانية بصوت خفيض :

— الجناة يلقون القصاص على كل شىء ، يا سيدة . سيحين الوقت . سيكون ذلك عندنا فى المانيا ، وفى العالم اجمع : المحكمة الكبرى . . . سوسياليزموس سيكون اسمها . . .

لم تفطن كاتيا فى الحال الى انه يخاطبها بالذات . رفعت بصرها الى النظارة الصافية الكبيرة النيكلية الاطار . احنى الالمانى رأسه لها بمودة :

— السيدة تتكلم بالالمانية ؟

— نعم .

— حين يتعذب الانسان كثيرا يجد السلوى فى معقولية اسباب بلائه . — قال الالمانى وقد وضع رجليه تحت المقعد ، وانزل جبهته حتى ان عينيه صارتا تنظران الى كاتيا من فوق النظارة . — لقد درست كثيرا تاريخ الانسانية . اننا بعد فترة طويلة من الهدوء نعود مرة اخرى لندخل فى عهد الكوارث . هذا هو استنتاجى . نحن نشهد بداية انهيار حضارة عظيمة . ولقد مر العالم الآرى بمثل ذلك ذات مرة . كان ذلك فى القرن الرابع ، حين خرب البرابرة روما . والكثيرون مستعدون لايجاد اوجه تشابه مع عصرنا هذا . ولكن هذا لا شىء . فروما قد حطمتها افكار المسيحية . ولم يفعل البرابرة اكثر من ان مزقوا جثة روما . اما الحضارة الحديثة فان الاشتراكية ستحطمها . فى المثل السابق كان هناك هدم ، اما هنا فانشاء . كانت افكار المسيحية تعطيها هى المساواة ، والاممية ، والتفوق المطلق للفقراء على الاغنياء . وكانت هذه افكار البرابرة الذين كانوا يطأون روما الطفيلية الفظيعة الغارقة فى الترف . وبسبب ذلك كان

الرومان يخافون المسيحيين ذلك الخوف الشديد ويلاحقونهم بتلك القسوة . ولكن المسيحية لم تكن لها فكرة اشتراكية . ولم تنظم العمل . واكتفت على الارض بالتهديد فقط ، اما سائر الاشياء فقد وعدت بها في السماء . المسيحية لم تكن الا سببا للتحطيم والعقاب ، وحتى في السماء وفي الحياة المثلى لم يكن في وسعها ان تعد الا نظام الامبراطورية الرومانية الطبقي البيروقراطي ذا المقامات المقلوب رأسا على عقب . وكانت هذه اخطاءها الرئيسية ، وبمقابل ذلك وضعت روما فكرة النظام . ولكن انعدام النظام في ذلك الحين - الفوضى الشاملة - كان هو العلم الامثل للبرابرة الذين كانوا يتحينون ساعة اقتحام اسوار روما . وقد حانت تلك الساعة . وتحولت المدن الى خرائب داخنة . وتناثرت الجثث في الطرقات مطعونة بالسنان مسحوقة بعجلات البرابرة . ولم يكن ثمة خلاص لان اوربا وآسيا الصغرى وافريقيا كانت تحترق من ادناها الى اقصاها . وحام الرومان كالطيور فوق حريق العالم . فقتلهم البرابرة ، وفتكت بهم الوحوش في الغابات ، وهلكوا في الصحارى من الجوع والحر والقر . قرأت قصة لاحد المعاصرين تحكي كيف ان «بروبا» زوجة حاكم روما هربت في قارب ليلا مع ابنتيها من روما التي اجتاحها الالمان الاريخ ورأت الرومانيات ، وهن يحدقن في لهب التنور اللهيب الذي كان يلتهم المدينة الخالدة . وكان ذلك نهاية العالم ...

تلك الالماني صورة متاعه ، واخرج من تعرضنا دفتر مذكرات سميك ذا غلاف جلدي متهرئ . واستغرق في تورقه بعض الوقت مبتسما ابتسامة متحفظة . وقال وقد انتقل الى مقعد كاتيا :

- هذا لتتصوري على نحو افضل كيف كانت حالة الرومان قبيل هلاكهم ، استمعي الى فقرة من اميانوس مارسيلنوس . هذا وصفه لاسياد الكون !

«الاثواب الطويلة من الارجوان والحرير ترفرف في الريح ، وتتيح النظر من تحتها الى القميص الغالي المطرز برسوم الحيوانات المختلفة . وعرباتهم المتألقة المرفقة بخمسين من الخدم تهز الارصفة والبيوت وهي تنطلق في الشارع بسرعة فائقة . واذا ما دخل احدهم الحمامات المتصلة عادة بحوانيت ومطاعم واماكن للنزهة فانه يطلب بلهجة آمرة ان تخصص كل ادوات الاستعمال العام لاستخدامه وحده ،

ويخرج من الحمامات لابسا خواتم وحلي مع الاحجار الكريمة ، ورافعا ثوبه لئلا يكفي قماشه لاكساء اثني عشر رجلا . ثم تأتي الثياب الخارجية التي ترضي غروره . وعلاوة على ذلك لا ينسى ان يتخذ مظهر البطولة التي لا تفتقر حتى لمارسيلوس العظيم فاتح سيراقوسة . واذا كان هو ايضا يقوم برحلات جرئية ومعه حاشية ضخمة من الخدم والطهاة والمشايعين والخصيان المتوجهين الى ضياعه الايطالية ، حيث يمارس صيد الطيور والارانب الداجنة . واذا ما صادف لا سيما في ظهيرة قائظة ان واتته الشجاعة ليعبر بحيرة لوكرين بمركبه المذهب قاصدا دارته البحرية فانه فيما بعد يقارن هذه الرحلة بحملات قيصر واسكندر الاكبر . واذا نفذت ذبابة الى ما وراء الستارة الحريرية لسطح مركبه ، او سقطت اشعة الشمس من خلال الثنيات فانه يندب حظه العاثر متأسفا على انه لم يولد في البلدان الكيميرية ، حيث يخيم الظلام الابدي . وضيوف الاعيان المحسودون هم الطفيليون والمتزلفون الذين يهللون لكل كلمة السيد . انهم يتطلعون بغبطة الى اعمدة الحجرات المرمرية والى الارضية الفسيفسائية . وعلى المائدة طيور واسماك غير اعتيادية في حجومها تثير دهشة الجميع حتى يجلب ميزان للتأكد من جسامة هذه المأكولات . وفي الوقت الذي يشيع فيه الضيوف الرزينون بوجوههم عن هذا المنظر يطلب الطفيليون كاتب عدل ليكتب وثيقة في صحة هذه الاعاجيب ...» .

قال الالماني وهو يغلق دفتر مذكراته :

- نعم ، «sic transit»*. ان هؤلاء الناس راحوا يجوبون الطرقات والمدن المخربة بحثا عن الطعام . واستمرت موجات البرابرة تأتي من الشرق ساحقة ناهبة . وبعد حوالي خمسين سنة لم يبق للامبراطورية الرومانية اثر . ولما انتصب في مكان روما العظيمة وراحت الاغنام ترعى بين القصور المهجورة . وخيم ليل على اوربا طوال سبعة قرون .

ولقد حدث ذلك لأن المسيحية استطاعت ان تدمر ، ولكنها لم تكن لديها فكرة عن تنظيم العمل . والوصايا المسيحية لا تتحدث عن

* هكذا ينقضي ... امجد العالم!

العمل . ان قوانينها الخلقية لا تطبق على من يزرع ويحصد ، بل على من يزرع لهم العبيد ويحصدون . واصبحت المسيحية دين الاباطرة والغزاة . وبقى العمل غير منظم ، وخارج الاخلاق . والبرابرة الجدد هم الذين يجلبون دين العمل الى العالم ، اولئك هم الذين يحطمون روما الثانية . هل قرأت شبينغلر ؟ انه رومانتى من رأسه حتى اخمص قدمه ، وهو على صواب فى شيء واحد فقط ، وهو ان الشمس تغرب من اوربا له . ولكنه تشرق علينا . انه لا يستطيع ان يجلب البروليتاريا العاصية الى قبره . ان البجع يصرخ قبيل الموت . وعلى هذا النحو ، اجبرت البرجوازية شبينغلر على ان يصرخ كالبجعة . . .
انه آخر ورقة رابحة لديها . لقد تعفنت اسنان المسيحية . اما اسناننا فهى من حديد . ونحن نعارضها بالتنظيم الاشتراكى للعمل . . . انهم يجبروننا على محاربة البلاشفة . . . اهوه ! . اتحسبين اننا لا نفهم من يدفع بدلنا ، وضد من ؟ اننا نفهم اكثر بكثير مما يبدو فى الظاهر . . . من قبل كنا نحتقر الروس . اما الآن فقد بدأنا نعجب بالروس ونحترمهم . . .

مر القطار بقرية كبيرة بصفر صفيرا مطوطا . تراءت بيوت متينة ذات سقوف مغطاة بالحديد ، واكداس قش طويلة ، وحدائق مسيجة ، ولافتات حوانيت . سارت عربة صغيرة على درب مترب الى جانب القطار يسوقها فلاح يرتدى لبجسا عسكريا بلا حزام وقبعة من فروة . خرف وقف الفلاح لازجا ساقيه على العربة بعجلات حديدية لاغا طرفى الزمام ، جرى الحصان المستلىء الضخم محاولا ان يسبق القطار . التفت الفلاح نحو نوافذ العربة ، وهتف بشيء كاشفا عن اسنان بيض . قال الالمانى:

— هذه غولاى-بوله . قرية غنية جدا .

اضطرت كاتيا ان تنتقل من قطار الى آخر عدة مرات ، اذ اخطأت فلم تأخذ القطار المباشر . وقد صرفها عن افكارها المرهقة الضوضاء والانتظار فى المحطات ، والوجوه الجديدة ، ورحاب السهوب التى لم تكن قد رأتها من قبل منداحة خارج نافذة العربة . وكان الالمانى قد نزل منذ وقت طويل ، وقد هز يدها بقوة عند الوداع . لقد كان هذا الرجل شديد الوثوق فى حتمية الاحداث الراهنة ، كما حدد بدقة ، على ما يبدو ، نصيبه فى الاشتراك فيها . وقد ادهش

كاتيا تفاؤله الرصين واقلقها . فان كل ما كان الجميع يعتبرونه هلاكا وفظاعة وفوضى كان بالنسبة له بداية متوقعة طويلا لعهد عظيم .

كانت كاتيا طوال هذا العام ، لا تسمع غير صريف الاسنان العاجز ، وتنهدات اليأس الشديد ، ولا ترى — مثل ذلك الصباح من آذار فى بيت ابيها — غير وجوه مثلوية ، وقبضات مشدودة . صحيح ان المقدم نيستكين لم يكن يتنهد ولم يصرف باسنانه ، الا انه ، على حد تعبيره ، «مغتبط» وكان يرحب بالثورة انطلاقا من ايمانه «المغتبط» بالعدالة .

كان جميع الناس فى الوسط الذى عاشت فيه كاتيا يرون فى الثورة هلاكا نهائيا لروسيا وللثقافة الروسية ، وهزيمة للحياة كليا ، وفتنة عالمية ، وسطو الرؤيا الموعودة . لقد كانت هناك امبراطورية ، وكان جهازها يعمل بشكل مفهوم وواضح . كان الفلاح يحرث ، وعامل المنجم يقلع الفحم ، والمعامل تصنع البضائع الرخيصة والجيدة ، والتجار يبيعون بنشاط ، والموظفون يعملون كالساعة . والناس الذين فى الاعلى كانوا يتنعمون بنعم الحياة . وكان يقال ان مثل هذا النظام غير عادل . ولكن ما العمل . والله قد قضى بذلك . وفجأة يتحول كل شيء الى حطام ، وتتحول الامبراطورية الى غابة ليل مهابة . . . وسار رجل وعريف مترنحا وعيناه مبيضتان من الفزع . . .

توقف القطار طويلا فى سكون عند محطة صغيرة . اخرجت كاتيا رأسها من القطار . كانت اوراق شجرة عالية تحف حفيفا هادئا فى الظلام . وكانت السماء المنجمة تبدو لا نهائية فوق هذه الارض التى يلفها الغموض .

وضعت كاتيا مرفقيها على اطار النافذة المفتوحة . ذكرها حفيف الاوراق والنجوم ورائحة الارض الدافئة باحدى الليالى . . . كان ذلك فى متنزه قرب باريس . . . وكان بعض الاشخاص اصحابهم بطرسبورغيون تعرفهم جيدا قد جاءوا الى هناك فى سياراتهم . . . وكان الجو رائقا جدا فى التعريشة فوق البركة التى تناولوا عشاءهم فيها حيث كانت اشجار الصفصاف الباكى يبدو كالغمائم الفضية فوق الماء .

كان بين الذين كانوا يتناولون العشاء رجل المالى عاش فى

وقت ما في روسيا لا تعرفه كاتيا . وكان يجيد التحدث بالفرنسية . وكان يرتدي بدلة المساء وبلا قبعة . كان نحيلا ذا وجه عصبي مستطيل ذي جبين عريض مشى فيه الصلع ، وعينين جديتين لهما جفنان ثقيلان . وكان يجلس هادئا واضعا اصابعه الطويلة على اسفل قدح النبيذ . كانت كاتيا حين تعجب بشخص يشيع في داخلها دفء وحنان . وكان الليل التموزي يبدو وكأنه يمس كتفيها اصفى العاريتين . وكانت النجوم تتراءى من خلال أوراق الكرمة المتسلقة المعرشة ، والشموع تلقي ضوءا دافئا على وجوه الاصدقاء والفراشات الليلية على طرفي المائدة وعلى وجه الغريب الغارق في افكاره . واحست كاتيا بأنه مستغرق في افكاره وهو ينظر اليها . لعلها كانت حلوة جدا في ذلك المساء .

وحين نهضوا من وراء المائدة ، وساروا في الدرب القاتم المعرش باشجار طويلة متجهين الى نهاية المنتزه ، الى السطيحة ليطلوا منها على اضواء باريس سار الالماني الى جانبها وقال بصوت صارم مؤكدا انه لا يريد ان يعطي لكلامه معنيين :

– الا تعتبرين الجمال ، ايتها السيدة ، غير جائز وغير مسموح به ؟

كانت كاتيا تسير ببطء . ما اعذب ان يكون هذا الرجل قد بدا حديثا معها ، وان صوته لم يكن يطغى على حفيف اوراق الاشجار القاتمة . كان الالماني ينظر الى الامام ، وهو يسير الى يسارها مرسلا بصره الى اعماق الدرب ، حيث كان يلوح وهج المدينة المتلألئ . وتابع الرجل قوله :

– انا مهندس . وابي ثري جدا ، وانا اشتغل في مشاريع كبيرة ، اتعامل مع مئات الالوف من الناس . وارى واعرف الكثير مما تجهلينه . اعذريني ، هل حديثي مضجر لك ؟

ادارت كاتيا رأسها نحوه ، وابتسمت صامتة ، وعلى انعكاس الوهج البعيد لمح الالماني ابتسامة في عينيها فتابع قوله :

– نحن ، لسوء الحظ ، نعيش على ملتقى قرنين ، احدهما ، العظيم والبهي ، يزول ، والثاني يولد في ضجيج الآلات ، والشوارع العملية الصارمة المظهر والرتيبة ، واسمي هذا القرن بقرن الجماهير ، الجماهير الانسانية ، حيث تتحطم جميع الفوارق . ان

الانسان ليس الا يدين ماهرتين توجهان الآلات . هنا قوانين اخرى ، وحساب جديد للزمن ، وحقيقة اخرى . وانت ، يا سيدة ، الاخيرة من العصر القديم . ولهذا السبب يعتورني الحزن وانا انظر الى وجهك . والعصر الجديد ليس بحاجة الى وجهك مثل اي شيء لا فائدة منه ، ولا نظير له ، قادر على اثارة المشاعر التي تشتعل : الحب ، والتضحية بالذات ، والشعر ، ودموع السعادة .. جمال !.. اي شيء ؟ انه شيء مقلق ... شيء غير مسموح به ... وانا اؤكد لك ان الناس في المستقبل سيشرعون القوانين ضد الجمال ... هل صادف وان سمعت عن العمل على خط الانتاج المتحرك ؟ هو آخر ابتكار امريكي . يجب ادخال فلسفة العمل على الخطوط المتحركة الى الجماهير ... يجب ان تعد السرقة والقتل اقل اجراما من ثانية من الارتباك عند خط الانتاج ... والآن تصوري ان الجمال يدخل في قاعات الورش الجديدة ، ما يقلق ... فماذا يحصل ؟ تتشربك الحركات ، ارتعاش العضلات ، وتأخر الايدي لثوان ، تخلخل ... ومن ثواني الخطأ تتكون ساعات ، ومن الساعات كوارث ... ومصنعي بصير ينتج منتجات اقل جودة من المصنع المجاور ... ويفشل المشروع ... ويفلس بنك في مكان ما ... وتستجيب البورصة بهبوط حاد ... ويطلق شخص الرصاص على قلبه ... وكل ذلك لأن امرأة رائعة الجمال بشكل اجرامي سارت في الورشة تحف بقساتيها .

ضحكت كاتيا . لم تكن تعرف شيئا عن خط الانتاج . ولم تزر مصنعا قط ، ولم تر غير المداخن المسخمة التي تفسد المنظر الطبيعي ... وقد احبت كثيرا جمهور الناس – الحشد – في البولفارات الكبيرة ولم تتخيل ضررا فيه . وكان اثنان من معارفها على مائدة العشاء عند البركة من الاشتراكيين الديموقراطيين ، يعني ان شعورها مرتاح . اما كلام محدثها الذي يسير بطيئا مرفوع الرأس في عتمة الدرب الداكنة فقد كان طريفا وجديدا ، مثل اللوحات التكعيبية مثلا ، تلك التي كانت معلقة في غرفة الطعام عندها ... ولكن الفلسفة لم تكن تعنيها في ذلك المساء ...

قالت كاتيا :

– اظن ان قيتا فظيعا قد لحق بك من النساء الجميلات لكي تصل الى الكراهية الى هذا الحد .

وضحكت ضحكا خافتا ثانية متذكرة بفتور آخر لقاء معتم كهذا الليل ، فيه رائحة زهور واوراق وانسمة نجوم فى الفرجات بين رؤوس الاشجار – انه الحب الذى كان يدير الراس دورانا حلوا ، ليس حبا لهذا الرجل الطويل ، او ربما حبا له . فانه يثير فيها الرغبة . والشيء الذى بدا الى وقت قريب صعبا بل لا امل فيه ، قد اقترب بسهولة ، واستولى عليها بسهولة . . .

ليس من المعروف ما كان يمكن ان يحدث لها فى تلك الايام فى باريس . . . الا ان كل شيء قد تقطع فجاة . . . زارت مدافع الحرب العالمية . ولم تلتق كاتيا بالالمانى بعد ذلك اللقاء . . . فهل كان يعرف بدنو الحرب ام حدس ذلك ؟ واثناء الحديث اللاحق عند الحاجز الحجرى ، حيث كانا يتمتعان بالمنظر باضواء باريس المتناثرة فى الافق القاتم والمتالقة كالالماس ، كان الالمانى يبدا عدة مرات كلامه عن حتمية الكارثة بياس جاد . وكانما قد تملكته فكرة لا فرار منها فى ان كل شيء لا جدوى منه سواء اكان فتنة الليل او سحر كاتيا .

ولم تذكر ما قالت له . فعلى الاغلب انه كان هراء . ولكن ذلك لم يكن مهما . وقف مرتفقا على الحاجز يكاد يمس بخده كتف كاتيا ، وكانت كاتيا تعرف ان هراء الليل قد امتزج برائحة عطرها ورائحة كتفيها وشعرها . . . ولو انه وضع يده الكبيرة على ظهرها لما دفعتها عنها ، ام هذا ما يخيل اليها الآن . . . لا ، ان ذلك لم يحدث . . .

خفق الهواء فى خدها ، وعبث فى شعرها . وانقذفت شرارات من القاطرة ، وسار القطار فى السهب . ادارت كاتيا عينيها عن النافذة بنظرة غير مرئية ، وانحشرت فى زاوية تختها ، وشدت اصابعها الباردة .

واحست بتانيب الضمير . ما هذا ؟ لم يمض على معرفتها بمصرع قاديم اسبوع ، وها هى تقع فى اسوا من الخيانة . . . حلمت برجل لم يكن حبيبها . . . ان ذلك الالمانى قد قتل بالطبع ، كان ضابط احتياط . قتل ، قتل . . . كلهم ماتوا ، كل شيء هلك ، ودمر ، وتلاشى كتلك الليلة على السطيحة فى المنتزه ، فوق البركة ، اختفى بلا عودة .

زمت كاتيا شفتيها حتى لا تئن ، واغمضت عينيها ولفت الى صدرها لوعة حادة . . . كان فى العربة القذرة المضاءة

بشمعة شاحبة الضوء غير كثير من الناس . وكانت ظلال سوداء ساهرة تتقلب عاكسة يدا مرفوعة او لحية شعثاء او قدمين حافيتين متدليتين من التخت الاعلى . لم ينم احد رغم ان الساعة متاخرة ، وكان الركاب يتحدثون باصوات خفيضة .

– اقول لك ان هذه المنطقة اسوا المناطق . . .

– وماذا ؟ هل من المعقول انه لا امن هنا ايضا ؟

– انا اعتذر ، ما هذا الذى تقوله ؟ هنا ايضا ينهبون . هذا حرب ، فماذا يفعل الالمان ؟ انهم ملزمون على حراسة المسافرين . . . ما داموا قد احتلوا البلاد وجب عليهم المحافظة على النظام .

– اعذرونى ، يا سادة ، على التعبير الخشن ، ولكن الالمان يبصقون علينا . . . انهم لا يريدون ان يتدخلوا فى شؤوننا ويريدون ان ندبر شؤوننا بانفسنا . . . نعم ، ان اللصوصية والنهب فى شعبنا . . . الناس اوغاد . . .

ورد على ذلك صوت واثق :

– يجب ان يشطب على كل الادب الروسى ويحرق فى العالم باسره . . . ان الكتاب قد صوروا الناس بصورة جميلة . . . وربما لا يوجد رجل نزيه فى كل روسيا . . . اتذكر اننى كنت فى فنلنده ، وتركت اغراضى فى الفندق . . . فارسلوه الى مع رجل على فرس ، بينما النعال متقوبة . . . هذا شعب نزيه . ما اشد تنكيلهم بالشيوعيين ، وبالروس بشكل عام . فى مدينة «آبو» بعد قمع الانتفاضة احرق الفنلنديون وعذبوا رئيس الحرس الاحمر هناك . وكان يسمع صراخ هذا البلشفى الفنلندى حتى من وراء النهر .

– آوه ، يا آلهى ، حتى يكون عندنا نظام ما . . .

– اعذرونى . كنت فى كييف . . . مخازن فاخرة ، وموسيقى فى المقاهى . . . والسيدات يخرجن علنا وهن يتحلين بالالماس ، صيانة واثقة . . . ومصالح شراء الذهب وغيره تعمل جيدا جدا . . . والازدهار حياة الشارع . . . مدينة رائعة . . .

– الطبقة خماش للمنظارين تساوى رواتب نصف عام ، المضاربون اطبقوا على عنائنا . . . جميعهم ذوو جباه عالية ، وجميعهم فى بذل زرقاء من الجوخ . . . يجلسون فى المقاهى يتاجرون بالمليارات . . . خرجت فى الصباح فلم اجد فى المدينة علبة كبريت ،

وبعد اسبوع صارت العلبة بروبل . او خلوا الابر مثلا . اهدوا لزوجتى فى عيد ميلادها ابرتين وبكرة خيوط . وفى الماضى كنت اهدى القراط الماسية . . . والمتقلون يهلكون ، يشرفون على الموت . . .

– يجب ان يرمى المضاربون بالرصاص بدون شفقة . . .

– ايها السيد الرفيق ليس عندنا بلشفية . . .

– ما هى اخبار كييف ؟ هل حكم الهيتمان قوى ؟

– ما دام الالمان يسندونه . يقولون طلع مدع آخر باوكرانيا هو ماسيل فيتشيفالى . انه امير من هابسبورغ ، ولكنه يلبس الملابس الاوكرانية .

– يا مواطنون حان وقت النوم ، حبذا لو اطفأتم الشمعة .

– كيف تطفئ الشمعة ؟ اننا فى عربة قطار . . .

– بهذا الشكل آمن . . . كل النوافذ ترى من الخارج ، تراق .

صمت ركاب العربة فجأة . وتناهت ضربات العجلات على السكة بوضوح اشد . وتطاير الشرر من القاطرة فى ظلام السهب . ثم بح صوت بحنق شديد :

– من قال : «اطفئوا الشمعة» ؟ (صار الصمت متوحشا .) الذى «اطفئوا الشمعة» ، بينما هو يمد يده الى الحقائب ، دلوني على القائل ، وسالقيه من العربة .

اخذ احدهم يصرف باسنانه بضجر . وقال صوت يثير الهلع :

– عندما كنت مسافرا فى الاسبوع الماضى سرقوا من امرأة سرتين بالخطاف . . .

– كانوا من جماعة ماخنو بالتاكيد .

– جماعة ماخنو لا يلوثون ايديهم بسرتين فقط . يمكن ان يسرقوا قطارا بكامله . هذا ما يفعلونه .

– يا سادة ، لا يجوز ذكرهم فى الليل . . .

جرت احاديث احدها افظع من الآخر . . . وذكرت حكايات تبث القشعريرة فى الجلد . وظهر ان الاماكن التى كان يسير القطار فيها الآن غير متعجل اشد اوكار قطاع الطرق خطرا ، يتحاشاها حتى الالمان وحتى الحراس نزلوا فى المحطة السابقة . . . وفى القرى يتبختر الفلاحون بمعاطف السمور ، والفتيات بالحرير والمخمل ،

الملعنة ! لا يمضى يوم دون ان يحدث حادث : إما انهم يطلقون النار على قطار من رشاشة ، او يفكون العربات الاخيرة ، ويسرحونها ، او يفتح الباب فجأة والقطار يسير فى كامل سرعته ، ويدخل رجال ملتحون يحملون الفؤوس والبنادق المقطوعة المواسير قائلين : ارفعوا ايديكم ! ويتركون الروس كما ولدتهم امهاتهم . اما اذا وقع يهودى فى اليد . . .

– يهودى ! ما علاقة اليهودى هنا ؟ لماذا اليهودى مذنب فى كل شيء ؟ . . .

زعق رجل حليق فى بدلة زرقاء من الجوخ ، هو نفس الرجل الذى اعلن اعجابه بكييف .

ومن هذا الزعيق تكثف الرعب كليا . هدات الاصوات . والصقت كاتيا عينيها من جديد ، لا شيء يسرق منها الا الخاتم الزمردى . الا ان رعبا مرهقا قد استولى عليها ايضا . ولكى تتخلص من اضطراب القلب المزعج حاولت ان تتذكر ثانية سحر تلك الليلة التى لم تنم . ولكنها لم تسمح لغير قرقعة عجلات القطار فى الخواء الليل . . . كاتيا ، كاتيا . . . انتهى ، انتهى كل شيء . . .

. . . توقفت العربة بحدة ، وكانها وقعت فى زقاق مسدود . وازعقت الفرامل زعيقا حديديا ، وصلصلت السلاسل ، ورن الزجاج ، وسقطت بعض الحقائب من التخت الاعلى . والغريب ما فى الامر ان احدا لم يبدر منه حتى انة . قفز الركاب من اماكنهم وحدقوا ، وتسمروا . وكان واضحا بدون كلام ان مازقا قد وقع .

صفرت فى الظلام طلقات بنادق . وتحرك الرجل الحليق ذو بدلة الجوخ فى العربة وغاب واختفى . ووراء النافذة تراكض الناس هنا السمة تماما . تراءت اصوات طلقات والتمعت نارها فى العيون ، وضربت فرقعتها فى الآذان . . . وصاح صوت رهيب : «لا تطلوا من النوافذ !» وانفجرت قنبلة يدوية ، وارتجت العربة . وراحت اسنان الركاب ترتجف ارتجافا شديدا . وصعد اشخاص الى فسحة العربة . وضربوا الباب باخامص البنادق . ودخل زهاء عشرة رجال متدافعين يلبسون السدات فراء الاغنام ملوحين بالقنابل اليدوية وبنادقهم تضرب بعضها ببعض . وكانت الانفاس تتردد مسموعة فى الصدور .

– اجمع الاشياء ، واخرج الى الحقل .

- تحرك المحط ، والا . . .

- ميشكا ، فجّر البرجوازيين بقنبلتك اليدوية . . .

تحرك المسافرون . اندفع شاب اشقر ذو وجه شاحب خبيث الى الامام بكل جرمه ، ورفع قنبلة يدوية ، وجمد لحظة وذراعه مرفوعة . . .

ترددت اصوات : نخرج ، نخرج ، نخرج .

وخرج المسافرون من العربة ولم يعودوا يحتجون ولا ينطقون بكلمة واحدة . كان بعضهم يحمل حقيبة ، وبعضهم لم يحمل غير مخدة او سخان شاى . . . بل وابتسم احدهم ، وهو رجل ذو نظارة انفية ، ولحية صغيرة مائلة الى جانب ، شاقا طريقه بين قطاع الطرق .

كان الليل طريا ، والنجوم تتداح فوق السهب مثل غطاء فاخر . جلست كاتيا ، ومعها صرتها ، على كومة من العوارض الخشبية المتهرئة . ما داموا لم يقتلوا راسا ، فانهم لن يقتلوا الآن . واحست بوهن شديد ، وكأنها قد افاقت من غيبوبة لتوها . وفكرت : «وهل هناك فرق فى ان اجلس هنا على العوارض او اجوب يكاترينوسلاف وليس معى قطعة خبز . . .» وكانت تحس ببرود فى كتفيها . تنادت فى العربة سحب فلاحون اشداء الحقائب من الرفوف ، وقذفوها من النوافذ . حاول ذو النظارة الانفية ان يصعد المنحدر متجها الى العربة .

- يا سادة ، يا سادة ، عندى اجهزة فيزياوية هناك ، بحق الرب على مهل ، فانها سريعة الكسر .

اسكته بعضهم ، وامسكوا مشمعه من الخلف ، ودفعوه الى حشد الركاب . وفى تلك اللحظة انطلقت من الظلام كوكبة من الخيالة فى قعقعة وكيكبة . اندفع امامهم على بعد امتار رجل قوى بشكل منفعل فى قبعة عالية متواثبا على سرجه . تراجع المسافرون . توقفت الكوكبة عند العربة والخيالة يرفعون ايديهم بالبنادق والسيوف . صاح الرجل القوى ذو القبعة العالية بصوت ونان :

- بلا خسائر ، يا فتيان ؟

ردت اصوات :

- لا ، لا . . . نحن نفرغ الحمولة . . . ارسل لنا العربات .

استدار الرجل القوى ذو القبعة العالية بحصانه ، ودخل حشد المسافرين ، وامر متلاعبا بحصانه حتى ان الزبد تطاير من بوز الحصان فى عيون المسافرين المحلقة رعبا :

- اخرجوا هوياتكم . لا تخافوا . انتم تحت حماية جيش الاتمان ماخنو الشعبى . نحن لا نرمى غير الضباط والجندرمة-ورفع سوطه مهددا- والمضاربين باقوات الشعب .

ومرة اخرى تقدم الرجل ذو المشمع ، وعدل نظارته الانفية .

- اعذرنى . يمكننى ان اقدم لك كلمة شرف على انه لا يوجد بين الاصناف التى ذكرتها من الناس . . . لا يوجد غير اناس بسطاء مسالمين . . . اسمى اوبروتشيف معلم فيزياء . . .

قال الرجل القوى ذو القبعة بلهجة تعنيف :

- معلم ، معلم . وتتعامل مع مختلف الاوغاد . تنح جانبا . يا فتيان ، لا تمسوه ، انه معلم .

جلبت الشمعة من العربة . وبدا التدقيق فى الهويات . حقا لم يكن فى الجمع ضابط ولا جندرمة . كان الرجل الحليق ذو بدلة الجوخ يتحرك مشغولا اقرب الناس الى الشمعة . . . ولكنه لم يكن الآن فى بدلة الجوخ ، بل فى سترة فلاحية مهلهلة ، وقبعة جندى ذات حافة نازلة . ولم يكن مفهوما اين حصل على كل ذلك . لعله وضعها فى حقيبته . كان يربت على اكتاف اللصوص بمودة .

- انا مغن ، سعيد جدا بالتعرف عليكم ، ايها الاصدقاء . الفنانون يجب ان يعرفوا الحياة ، وانا فنان . . .

وسعل متنظفا حنجرته حتى قال له احدهم بغموض :

- سيعرفون اى فنان انت ، فلا تفرح قبل الاوان . . .

جاءت العربات على عجلات مغلفة بالحديد . القى الماخنوويون اليها الحقائب والسلال والصرر ، وصعدوا على الامتعة ، وصفر السواقون على الطريقة السهبية ، وانطلقت خيول «التروريكا» الشبعى ، واختفى طابور العربات فى السهب فى صفير وقرقعة . انطلقت كوكبة الخيالة ايضا . وكان بعض الماخنوويين يسير حول العربة . عندئذ اختار المسافرون وفدا بطريقة رفع الايدى البسيطة ليطلبوا اذنا من اللصوص بمواصلة السفر . تقدم الشاب الاشقر محملا بالقنابل . كانت خصلة الشعر البارزة من حافة قبعته

تغطى على عينه . بينمـــا كانت العين الاخرى الزرقاء تنظر بصفاء ووقاحة .

سأل وهو يتمعن فى كل موقف من راسه الى اخمص قدمــه :

— مـــا هذا ؟ الى اين تسافرون ؟ وفى اى واسطة ؟ آه ، يــا حمقى ... سائق القطار قد نزل من القاطرة هاربا فى السهب وهو الآن على بعد عشرة فراسخ . وانا لا استطيع ان اتركم فى الليل هنا ، فمـــا اكثر المتسكعين هنـــا فى السهب ... ايهـــا المواطنون ، اسمعوا امرى ... (ونزل من منحدر السكة ، وعدل من حزامه الثقيل . وهبط نحوه الآخرون ، ملقين بنادقهــم وراء ظهورهم) ايها المواطنون ، اصطفوا اربعة اربعة ... واذهبوا مع حاجياتكم فى السهب ...

ولما مر بكاتيا انحنى نحوها ومس كتفها قائلا :

— يا فتاة ... لا تحزنى ، لن اسيئ اليك ... خذى صرتك وسيرى الى جانبى خارج الصف .

سارت كاتيا فى السهب المنبسط ، وصرتها فى يدها ، وقد انزلت منديلهـــا حتى حاجبيهـــا . كان الشاب الاشقر يسير الى يسارهـا ناظرا من خلال كتفـه الى جمع الاسرى السائرين فى جمع حزين صامت . كان يصفر صفيرا خافتـــا من بين اسنانه . سأل كاتيا :

— من انت ؟ ومن اين ؟

لم تجب كاتيا ، وادارت وجهها . الآن لم تعد تشعر برعب ولا اضطراب ، بل بلا اكتراث فقط . بدا كل شىء لها وكأنه حلم من نوم . اعاد الشاب سؤاله من جديد .

— اذن ، فانت لا تريدين ان تحطى من نفسك بالتحدث مع قاطع طريق . مؤسف جدا ، يا سيدة ، يجب ان تنزلى من غرورك الارستقراطى . ولى ذلك العهد ...

التفت ونزع فجأة بندقيته من كتفه ، وصاح بخبث على شخص غير واضح كان يسير منزويا عن الاسرى :

— هاى ، يا وغد ، تتأخر ... سارميك !

اندفع الشخص داخل الجمع بسرعة . فضحك الشاب راضيا .

— والى اين سيهرب هذا الاحمق ؟ يبدو انه يريد ان يقضى بحبســة . هكذا اذن ، ايتها السيدة ... لا تريدين ان تتكلمى ، والصمتين ، تمىء الفطع ... لا تخافى . لست سكران . عندما اسكر ابيت وبسوء سلوكى ... لنتعارف — ورفع اصبعين الى حافة طاقيته معيا — انا ميشكـــا سولومين . الهارب من الجيش الأحمر ... وبالاحرى قاطع طريق بطبيعته . اذا اردت الحقيقة . رجل فاسد . لم تمشى فى وصلى ...

سألت كاتيا :

— الى اين ذاهبون ؟

— الى مقر الفوج فى القرية . نتحقق منكـــم ، ونستجوب . البعض سيرمى ، والآخر سيطلق سراحه . وانت ، كامرأة شابة ، لا حاجة الى ان تخافى من شىء ... وفضلا عن ذلك ، فانا معك .

— ارى انك اكثر ما يجب ان اخافه .

قالت كاتيا ، والقت نظرة جانبية خاطفة على الشاب ، ولم تتوقع ان تلذعه هذه الكلمات على هذا النحو . فقد توتر ، وتنهد تهدلت حافة من منخريه ، وتعبس وجهه الطويل الشاحب فى ضوء النجوم . وهمس «كلبة» ، وسارا صامتين . لف ميشكا لفافة اثناء سيره ، وراح يدخن .

— انا اعرف من انت ، ولو كنت ستنكرين . انت من فئة الضباط .

قالت كاتيا :

— نعم .

— زوجك فى عصابات البيض ، بالطبع .

— نعم ... زوجى قتـل ...

— لا استطيع ان اضمن لك انه لم يصرع برصاصى ...

وابدى اسنانه — القت كاتيا نظرة سريعة عليه ، وتعرفت . انتشعا ميشكا من مرفقها ، فكت ذراعها من قبضته ، وهــزت راسها .

— انا من جبهة القفقاس . ولم يمض علىّ هنا غير اربعة اسابيع ، طوال الوقت كنت احارب عصابات البيض . وكـــم من

ورصاصة نفذت من هذه البندقية في عظامهم الزرقاء .

هزت كاتيا رأسها مرة اخرى . سار الشاب بعض الوقت صامتا ، ثم راح يضحك وقال :

– ثم وقعنا في مأزق حرج عند محطة اومانسكايا . وانهزم فوجنا ، فوج فارلافسكي ، قتل ملـوض الفوج سوكولوفسكي ، ومضى آمر الفوج سايوجكوف مع حفنـة من المحاربين قدمـا ، وجميعهم جرحى جراحا عديدة ... ونفذت انا خلال الجبهة الالمانية الى الالمان . هنا الجو امرح . لا احد يقف فوقي . جيش شعبي ، نحن انصار ، يا سيدة ، ولسنا قطاع طرق . نحن نختار آمرينـا بانفسنا ... ونتخلص منهـم بانفسنا : نمسك بـالمسدس ونضرب ... شخص واحد فوقنا هو الاتمان ... اتظنين انـنـا نهبـنـا القطار لنصرف ما كسبناه على الخمرة ؟ لا ، ابدا . كل المغانم الى مقر الفوج . وهناك يجرى التوزيع . قسم الى الفلاحين ، وقسـم الى الجيش . والقطار هو قاعدة تموينها . نحـن جيش شعبي ، يعنى ان الشعب نفسه في حالة حرب مع الالمان . تلك هي المسالـة . نحن نفتك بملاكي الاراضي . ومن الخير للجندرمـة وضباط الهيتمان الا يقعوا في قبضتنا ، نقضي عليهـم بالسلاح البارد . اننا ندفع فصائل النمساويين والالمان الصغيرة نحـو يكاترينوسلاف . ها هو جوهر قضيتنا .

كانت النجوم في السهب تبدو بلا نهاية ، وفي الطرف الذى كانوا يتجهون اليـه من الافق بدت السماء تخضوضر قليـلا . كانت كاتيـا تتعثر اكثر فاكثر ، وتسمك الفاسها . اما ميشكا فكان لا يضايقه شيء ، يستطيـع ان يقطع الف فرسخ على هذا المنوال ، والبندقية على كتفه . كانت كاتيا تهتم الآن في شيء واحد : الا تبدى ضعفا ، والا تدع هذا المتباهي المتبجح يشفق عليها ...

– كلكم على حد السواء !

وتوقفت ، وعدّلت من وضع منديلها لتلتقط انفاسهـا ، وسارت من جديد على الافسنتين وجذور الصوالق :

– نحن ، النساء نلد ابناءنا ليقتلوهم . لا يحق لاحـد ان يقتل ، وهذا كل ما في الأمر .

قال ميشكا دون ان يفكر لحظة واحدة :

– سمعنا هذه الاغنية ، اغنية النساء القديمة . ومفوضنـا يطرح المسالة كالآتي : «انظروا الى الامر من وجهة النظـر الطبقية ...» عندما نصوب البندقية فانك لن تتصور ان امامك انسانا بل ظاهرة طبقيـة . مفهوم ؟ لا مجـال للشفقة هنا ، ان ذلك عداء للثورة محض . وهناك مسالة اخرى ، ايتهـا العزيزة ...

وتغير صوته فجاة بشكل غريب . صار خافتا وكأنه يستمع الى كلماته :

– لن اقضى العمر كله اسير في الجبهات ببندقيتي . يقولون ان ميشكا ، رجل ضائع ، سكير ، ستنتهى به الحال الى حفرة . صحيح ، ولكن ليس تماما ... لست مستعجلا على الموت . بل لا ارغب في ذلك البتة ... لم تصنع ، بعدُ ، الرصاصـة التي ستقتلني .

وازاح خصلة الشعر من على جبينه .

– ما هو الانسان الآن ؟ معطف عسكـري وبندقية ؟ لا ، ليس كذلك ... ما اكثر ما اود ان اريده في هذه الدنيا ! ولكنني لا اعرف بنفسي ما اريد ... والفكر : كومة من الفلوس ؟ لا . ان الانسان في داخلي يتعذب ... ولا سيما في وقت كهذا – ثورة ، وحرب اهلية . انني ابرى رجلّ ، وانا اتعذب من البرد ، ومن الجراح في سبيل طبقتي وعن وعي ... في آذار كان عليّ ان استلقي نصف نهار في حفرة ثلج تحت نيران رشاشة اثناء نوبة الخفارة ، الا يعنى ذلك انني بطل ازاء الجبهة ؟ ومن انا ، بيني وبين نفسي ؟ مليء بالكحول ، وحانق على نفسي والسكين اخرجـه من وراء حذائي ...

وانتصب ميشكا مرة اخرى مستنشقا هواء الليل الطرى . وبدا وجهه حزينا ورقيقا تقريبا . حشر يديه عميقـا في جيبي معطفه ، وصار لا يتحدث الى كاتيا ، بل وكأنمـا الى ظل يحرق ذاته :

– تعليـم ... اعرف وقد سمعت به ... الا رجـل متوحش ... اولادى سيكونون متعلمين ، اما انا الآن في حالتي الراهنة وبخلقي وعاداتي فانا شرير ... في ذلك موتى ... نحن

المتقلين لكتب الروايات . ما أكثر الكلمات الطريفة . ولكن لماذا لا يكتبون رواية عنى ؟ أتظنين ان المتقلين وحدهم يخرجون عن أطوارهم ؟ أنا في النوم أسمع صياحا ... فاستيقظ ، مستعدا لأن أقتل مرة ثانية ...

طلع من الظلام فرسان صارخين من بعيد : «قف ، قف ...» نزع ميشكا بندقيته . «قف ، يا ابن ! .. لا نعرف جماعتك !» ترك ميشكا كاتيا ، وسار نحو الفرسان ، وتشاوروا هناك طويلا .

وقف الاحرق ، وتهامسوا هامسين . جلست كاتيا على الأرض وأنزلت رأسها على ركبتيها . ومن الشرق ، حيث كان الفجر يخضوضر بوضوح اشتد البعث رطوبة ودخان روث محترق ، ورائحة قوية .

بدات تجوم ذلك الليل الذى لا ينقضى تشحب وتغور ، ومرة أخرى كان على كاتيا أن تنهض وتسير . وبعد قليل أخذت الكلاب تنبح ، وظهرت أكداس القش وشواديف الآبار ، وسقوف البيوت . ولاح الاوز النائم في المرج كقطع من الثلج ، وانعكس الفجر الوردى على سطح بحيرة . أقبل ميشا عبوسا :

— لا تذهبى مع الآخرين ، سأنزلك فى بيت على حدة .

قالت كاتيا «حسنا» وكأنما تسمعه من بعيد . ولم يكن يهمها أين تذهب . فقط أن تتمدد ، وتنام ...

رأت من خلال جفنيها المسبلين زهور عباد شمس كبيرة ، ووراءها مصاطب خضر رسمت عليها زهور وطيور . نقر ميشكا بأظافره على زجاج النافذة الصغيرة المحجب ، وفتح الباب ببطء في جدار البيت الابيض ، وأطل رأس فلاح أشعث . ارتفع شارباه الى فوق ، وتثاءب فمه مبديا أسنانا كبيرة . وقال : «حسنا ، ادخل ...»

دخلت كاتيا البيت وهى تترنح ، وكان الذباب يطن فيه مذعورا . أخرج الفلاح فروة خروف ومخدة من وراء حاجز وقال «نامى» ، ومضى . وجدت كاتيا نفسها على السرير وراء الحاجز ، حيل اليها ان ميشكا انحنى عليها ، وعدّل من وضع المخدة تحت رأسها . كان استغراقها فى الغيبوبة لذيذا جدا ...

... قرقعة العجلات . ظلت تقرقع وتدمدم . سارت عربات خيول عديدة . والشمس انعكست خلفها على نوافذ بيوت شامخة . سطوح فرميدية نصف دائرية . باريس . مرت عربات فيها نساء أنيقات . الجميع يصرخ بشىء ما ، ويتقلب ، ويومئ ... السماء والأرض بمظلات مدانتلة ... وتمسح العربات أكثر فأكثر . يا ألهى ! هذه مطاردة ... فى البولفارات فى باريس ! هذه هى . ظلال هائلة لخيول شعثاء فى الفجر المخضوضر . لا تستطيع ان تتحرك او تهرب ! كركبة حوافر ! صيحات ! وضيق نفس ! ..

... جلست كاتيا على السرير . هدرت عجلات وصهلت خيول وراء النافذة . ومن خلال باب الحاجز غير المحجوب بستارة رأت الناس يدخلون ويخرجون مدججين بالاسلحة ، وسمعت طنين أصوات فى البيت وجمجمة أحذية . وعند المنضدة تزاحم كثيرون يحصون شيئا عليها ، وانطلقت كلمات قوية . وكان النهار قد طلع ، واخترقت بعض الاشعة الداخنة من خلال النوافذ الصغيرة الى ظلال التبغ الأزرق الكثيف فى البيت .

ولم يلتفت احد الى كاتيا . عدلت ثوبها وشعرها ولكنها بقيت جالسة فى السرير . الظاهر ان قوات جديدة دخلت القرية . وكان واضحا من الدوى المقلق للمتزاحمين فى البيت انهم يعدون لشىء جلل . صاح صوت حاد متأثر فى نبرة نسائية وبلهجة آمرة :

— ليأخذه الشيطان ! استدعوا هذا الوغد !

وزادت أصوات وهتافات من البيت الى الفناء والشارع ، حيث كانت تقف عربات بخيولها الثلاثية ، وخيول مسروجة ، وتجمعات جنود وبحارة وفلاحين مسلحين .

— بتريتشينكو ... أين بتريتشينكو ؟ ... اجبر فى الحال ...

— اجبر انت ، أيها الخنزير السمين ... يا أخ ، نادِ القائد ... ولكن أين هو ، عليه اللعنة ؟ ... إنه هنا ، سكران نائم على عربة ... ألق عليه جردلا من الماء ... اسمع ، اذهب الى البئر بجردل — لا نستطيع ايقاظ القائد ... يا اخوان لن

نوقظه بالماء ، بل اطلق يوزه بالقطران ... صحا ، صحا ... قل له : الاتمان ساخط ... انه قادم ... قادم ...

وتدخل الى البيت نفس الرجل الضخم ذو القبعة العالية ، ونام قبل ذلك الحين ، على ما يبدو ، نوما عميقا ، حتى كان من الصعب ان ترى عيناه المنتفختان في وجهه المحمر المضروب ... شق طريقه الى المنضدة وهو يدمدم ، وجلس .

صاح صوت عال صارف متلعثم :

— ما هذا ، يا وغد ، تخون الجيش ! اشتروك !

— ماذا ؟ خنت وكفى .

لغط العقيد بصوت اجش عميق ، وكأنه خارج من تحت برميل .

غمغم الصوت المتقطع :

— انت ... انت ... سهوت على الالمان اثناء نومك .

— كيف ذلك ؟ لم امسه على شيء .

— اين نقاط حراستك ؟ سرنا طوال الليل ولم نجد نقطة واحدة ... لماذا الجيش في المصيدة ؟

— ما هذا الصياح ؟ لا احد يعرف من اين جاء الالمان ... السهب كبير ...

— الذنب يقع عليك ، يا حقير .

— حمار ...

— مذنب !

— لا تمسك بي !

وعم السكون البيت فجأة . ابتعد الواقفون عن المنضدة . صارع رجل لاهث الانفاس ، وارتطمت به بمسدس . تشبثت بها عدة ايد . وصدرت طلقة . صمت كاتيا اذنيها ، واسرعت في الارتماء على المخدة . تساقط اثار الجص من السقف . ومن جديد تعالت اصوات ، ولكن بمرح هذه المرة . نهض العقيد بتريتشينكو وهو يكاد يمس سقف البيت بقبعة من فراء الاغنام ، وخرج الى الشارع بمظلة مع جمهرة من الرجال .

بدأت حركة وراء النافذة . ركب المتمردون خيولهم ، وتحركوا في عربات . وفرقعت سياط ، وزعقت محاور ، وارتفع سباب

بلهش . وخلا البيت . وعندئذ ادركت كاتيا لماذا لم تستطع حتى ذلك الحين ان ترى الذى كان يصرخ بصوت نسائى آمر . كان رجلا نحيلا جالسا الى المنضدة ، وظهره الى كاتيا واضعا كوعيه على خاصرته .

كان شعره السبط الكستنائى الطويل يسقط على كتفيه الضيقين مثل كتفى غلام . وكانت سترته من الجوخ الاسود مشدودة بحزامين متصالبين ، وخلف الحزام الجلدى مسدسان وسيف . وكانت رجلاه المرتديتان حذاء طويلا انيقا مع مهماز متصالبتين تحت المنضدة . كان يكتب بعجالة ورأسه يهتز فيجعل شعره المجعد يتدلى على كتفيه ، والحبر يتناثر من تحت ريشته ، ويبلل الورق .

من الفناء دخل الفلاح الذى تنازل لكاتيا عن فراشه . دخل بحذر .

كان وجهه ورديا مستعطفا . وفي شعره بعض القش . جلس راشا بخفة على المصطبة قبالة الرجل الذى كان يكتب ، ووضع تحت مقعده كلتا يديه ، وحك قدمه الحافية بالاخرى .

— كل الوقت مشغول ، يا نستور ايفانوفيتش ، بيتصا فليسمح الله مشيلى للقفاء ... بالامس ذبحنا عجلا ، وكان القلب قد اقشعر الله سنأتى ...

— لا وقت لدى ... لا تعيقنى ...

— طيب ... (وصمت الفلاح برهة ، وكف عن الرمش ، وصارت عيناه ذكيتين ثقيلتين . تابع بهما يد الكاتب بعض الوقت) الآن ، يا نستور ايفانوفيتش ، لا تنوى ان تدخل في معركة في قريتنا ؟

— حسب الظروف ...

— نعم . القضية حربية ... ولكننى افكر فقط في انه لو حصلت معركة هنا ينبغى ان تتدبر امر الماشية ... هل تسوقها الى المزارع ؟

القى الرجل الطويل الشعر لمحة ، وحشر يده الصغيرة في شعره ، وهو يقرأ ما كتبه . حكّ الفلاح لحيته وما تحت ابطيه كليهما . وقال وكأنه تذكر لتوه :

— لستور ايلانوفيتش ، كيف لتصرف بالقماش ؟ لقد مضى الجرح وهو جيد ، انه جرح ميري عرضة للانفطار ... انها سنوات .

— قليل عليكم ؟ لم تشبعوا ؟ قليل ؟

— ليس بالقليل ، ولا تعرف كيف لشكرك عليه ... الم تعرف اننا ارسلنا اربعين مقاتلا من القرية اليك ... وذهب ابني ايضا ، قال لي ان عليه التضحية بالدم في سبيل قضية الفلاحين ... واذا كان قليلا خرجنا نحن الشيوخ الى المعركة ... حازب ومستلقي السائفة منا ... اما قضية القماش ، فاذا هاجمنا الالمان ، لا قدر الله ، او الجندرمة ... فانت تعرف تنكيلهم . اذن هل يوجد قماش في المعركة ام لا ؟

انتصب ظهر الرجل الطويل الشعر . واخرج يده من شعره ، وامسك بحافة المنضدة . وكانت انفاسه تتردد مسموعة . مد راسه الى الوراء . فتراجع الفلاح عنه على المسطبة بالحذر ، واخرج يديه من تحته ، وخرج من البيت خلسة .

ترنح الكرسي لدفعه طويل الشعر عنه بساقه . واخيرا رات كاتيا ، وهي ترتعش ، وجه هذا الرجل النحيل ببزته السوداء اصلق العسكرية التفصيل . كان يبدو مثل راهب متنكر . تطلعت الى كاتيا عينان بنيتان متفرستان محدقتان من محجريهما تحت حاجبين قويين . كان وجهه مجدرا بعض الشيء مصفرا حسن الملامح نسائيا فيه شيء ينم عن عدم النضوج والضراوة مثل وجه غلام . كل شيء ، ما عدا العينين ، الهرمتين الذكيتين .

ولو كانت تعرف انها امام الاتمان ماخنو لارتعشت اكثر . كان ماخنو ينظر الى امراة شابة جالسة على السرير في حذاء مترب ، ورداء حريري مدعوك ما زال انيقا ، وقد شدت راسها كالفلاحات بمنديل داكن ، غير قادر على ان يعرف مَنْ هذا الطائر الذي دخل عنده . انفرجت شفته العليا الطويلة عن ابتسامة عازبة كشفت عن اسنان متفرجة . وسال باقتضاب وحدة :

— من انت ؟

لم تفهم كاتيا فهزت راسها . غادرت الابتسامة وجهه وصار بشكل جعل شفتيها ترتجفان .

— من انت ؟ مومس ؟ اذا كان فيك سيفلس سأرميك بالرصاص ! هل تعرفين الكلام بالرومية ؟ مريضة ؟ ام بصحة ؟

قالت كاتيا بصوت لا يكاد يسمع :

— انا اسيرة .

— ماذا تعرفين ؟ هل تعرفين تلقيم الاطلاقات ؟ سنعطيك الادوات ...

اجابت بصوت اخفت :

— حسنا .

— ولكن لا تنتظري العشق في الجيش ... فهمت ؟ ابق ، ربما اعود مساء بعد المعركة ، ونلتقي [illegible] .

كان الكثير من القصص يدور بين الناس حول الانسان الغامض . فكان يقال انه حاول عدة مرات ، بينما كان يقضي الاشغال الشاقة في سجن الكاتوري ، ان يهرب وهرب ، ولكنه اصطيد في سقيفة لتزن الحطب لحارب الجنود بفأس . وقد حطمت كل عظامه باعقاب البنادق وصفد بالسلاسل ، حيث ظل فيها ثلاثة اعوام ، ساحبا كابن عرس محاولا ليلا ونهارا ان ينزع الاصفاد الحديدية عنه بلا نجاح . وفي السجن تعرف على الفوضوي ارشينوف-مارين وصار تلميذا له .

كان نستور ماخنو ابن تجار من قرية غولاي-بوله من منطقة ايكاترينوسلاف . وقد تعود على الضرب منذ ان كان صبيا يعمل في دكان لبيع السلع الصغيرة ، وكان آنذاك يدعى «ابن عرس» لفراسته وعينيه البنيتين . وقد طرد وهو صبي حين سكب — بعد غضب — على كبير مساعدي صاحب الدكان ماء فائرا . ولقد جمع له شرذمة صار يسطو بها على مزارع الفرعيات والبساتين ، ويبدي شقاوة ويعيش على هواه حتى اعطاه ابوه الى مطبعة . وقيل ، هناك رآه الفوضوي فولين الذي صار بعد ثمانية عشر عاما رئيس اركان لدى ماخنو والراس المفكر في جميع الاعمال . وقد اعجب به فولين في صباه فصار يعلمه مبادئ التعليم والفوضوية ، وارسله الى مدرسة فصار ماخنو معلما . الا ان ذلك غير صحيح ، اذ لم يكن ماخنو معلما قط ، والاصح من ذلك انه عرف فولين فيما بعد وقد تعرف على الفوضوية عن طريق ارشينوف اثناء السجن .

ومنذ عام ١٩٠٣ عاد ماخنو الى تصرفاته السابقة من جديد في غولاي-بوليه ، ولكن لا على نطاق مزارع القرويات والبساتين بل على ضياع الاعيان وامراء الباعة . مرة يسرق الخيول ، واخرى ينهب الاقبية ، وثالثة يكتب المذكرات للباعة يامرهم بوضع نقود تحت حجر . وكانت له في ذلك الوقت صداقة مسكر غريبة مع البوليس .

وصار ماخنو مرهوب الجانب ، الا ان الفلاحين لم يشوا به ، لان مضايقاته لاصحاب الاطيان اخذت تشتد كلما اقترب الزمن من ثورة ١٩٠٥ . وحين بدأت الضياع تحترق اخيرا ، واضحى الفلاحون يزرعون اراضي الاعيان انسل ماخنو الى المدن ليقوم بعمل كبير . وفي بداية عام ١٩٠٦ هاجم مع عصابة من فتيانه بيت المال في برديانسك ، ورمى ثلاثة من الموظفين ، وقبض على الخزنة ، الا ان رفيقه وشى به ، وارسل الى الاشغال الشاقة في اكاتوي . . .

وبعد اثنى عشر عاما ، حين حررته ثورة شباط ظهر في غولاي-بوليه من جديد حيث كان الفلاحون يطردون اصحاب الاطيان ويتقاسمون الارض غير مصغين الى اوامر الحكومة الموقتة الموارية . وذكرهم ماخنو بخدماته السابقة فانتخب نائبا لرئيس الادارة المحلية الذاتية في القضاء . واتخذ في الحال نهجا حادا لاقامة «النظام الفلاحي الحر» واعلن في اجتماع الادارة المحلية ان رجال الادارة برجوازيون وكاديت ، وعند احتدام النقاش اطلق النار في الاجتماع على عضو الادارة ، ونصب نفسه رئيسا ومفوضا للمنطقة .

ولم تستطع الحكومة الموقتة ان تفعل شيئا معه . وبعد دخول الالمان ، واضطر ماخنو الى الهرب ، وقضى بعض الوقت يجوب روسيا حتى وصل الى موسكو في صيف ١٩١٨ ، وكانت في ذلك الوقت تعج بالفوضويين . فكان فيها العجوز ارشينوف الذي كان يتابع بعينين حزينتين احداث الثورة التي كان البلاشفة بوجوهها بلعبة من القدر لا يفهمها ، وكان فيها فولين النظري الجبار واحد اعلام فوضوية — «علم النظام» — الذي لم تعرف لحيته ولا شعره التمشيط ، كما كان فيها بارون المشرح وعديم الضمير وارتين وتيير ويعقوب آل وكراسنوكوتسكي وغلاغزون وتسينتسيبر وتشيرنياك وكثيرون آخرون من عظماء الناس الذين لم يستطيعوا ان ينقذوا الى الثورة ، وقعدوا في موسكو بلا نقود ويجدول اعمال

واحد لاجتماعاتهم اليومية : «وضع التنظيم والشؤون المالية» . . . وفيما بعد اصبح بعضهم قادة الفوضوية الماخنوية ، والبعض الآخر يشترك في الانفجار الذي حصل في مقر لجنة موسكو البلشفية في شارع ليونتيفسكي الجانبي .

وليس من شك في ان وصول ماخنو قد اثر في الفوضويين المتراخين في مقاهي موسكو ، فقد كان ماخنو رجل عمل ، وصاحب حزم ايضا . ففكروا بان يسافر نستور ايفانوفيتش الى كييف ، ويقتل الهيتمان سكوروبادسكي وجنرالاته .

وعبر الحدود الاوكرانية في بيلينخين ومعه فوضوي مساعد له بعد ان راوغ الحقوقي الرهيب سابتكو الذي كان يراقب تلك الطرق حتى بفطنة . وتزيا ماخنو بزي ضابط ، الا انه بدل عن الذهاب الى كييف ، فقد شم رائحة السهوب الطليقة ، ولم يطب له العمل التآمري . فذهب الى غولاي-بوليه رأسا .

في هذه القرية ، مسقط رأسه ، جمع خمسة من الفتيان الموثوقين . وتربصوا في وهدة مسلحين بالفؤوس والسكاكين والبنادق المقطوعة على مقربة من ضيعة صاحب الاطيان رزنيكوف ، وفي الليل سطوا على البيت دون كبير ضجة وذبحوا صاحب الاطيان مع اسرته الثلاثة العاملين في شرطة المنطقة ، واضرموا النار في البيت . وحصل في هذه الغارة على سبعة بنادق ومسدس وخيول والسرجة وبعض بزات الشرطة .

وبعد ان تسلح جيدا وصارت له خيول لم يضيع الوقت واخذ مع خمسته يسطو على الضياع ويحرقها من جهاتها الاربع ، وجمع عصابة وراح ينطلق بجنون من طرف القضاء الى طرفه الآخر منظفا اياه من اصحاب الاطيان ، حتى عمد اخيرا الى قضية اشتهر بها شهرة واسعة .

كان ذلك في عيد الثالوث الاقدس ، وكان صاحب الاطيان ميرغورودسكي احد سلاطين السهوب يزوج ابنته لعقيد الهيتمان . وفي يوم العرس قدم بعض الجيران الذين لا يخافون ، في مثل هذا الوقت العصيب ، الجري على الطريق السهبي ، وجاء ضيوف من المقاطعة ومن كييف .

وكانت ضيعة ميرغورودسكي تحت حراسة قوية من فصيل الشرطة . وقد نصبت رشاشة في علية البيت . كما ان العريس نفسه جاء مصحوبا برجال فوجه الاشداء بسراويلهم الزرقاء العريضة التي يجب ان تمس اواسطها الارض على العادة القديمة ، ومعاطف من الجوخ القرمزي وطرابيش استراخان لها شراريب مذهبة تتدلى الى الحزام . وكانت السيوف المعكوفة تتدلى الى جنبهم جميعا وتضرب باحذيتهم المرفوعة المقدمات من جلد الماعز .

وكانت العروس قد جاءت قبل مدة غير بعيدة من انجلترا ، حيث اكملت تعليمها في مدرسة داخلية للاراتس ، وتتحدث الاوكرانية بلهجة لا بأس بها . وقد ارتدت الاكمام المطرزة والعقود والاشرطة والحذاء الطويل الاحمر . وكان ابوها قد تسلم من كييف ، وبناء على توصية خاصة ، روبا مخمليا مؤطرا بالفراء ، وهو صورة طبق الاصل للروب الذي كان يرتديه الهيتمان مازيبا في صورته الشهيرة . لقد كانوا يريدون ان يقيموا زفافا على الطريقة القديمة . ورغم ان شراب العسل المعتق كان من الصعب الحصول عليه في اوكرانيا الملتهبة فقد كان هناك الكثير منه لمأدبة عظيمة .

بعد القداس ساروا بالعروس عبر المتنزه الى الكنيسة الحجرية الجديدة . وكانت اشبينات العروس اللواتي يرافقنها ويغنين الاغاني في منتهى الجمال . وكانت هي تبدو وكأنها طالعة من اغنية اوكرانية . حتى قال اشابين العريس ، وهم ينتظرون عند السياج : «يبدو ان عهود اوكرانيا الطيبة قد عادت اليها ...» وبعد عقد القران نثرت على الزوجين حبوب الشوفان . وباركهما الاب البان في روبه المازيبي بايقونة قديمة من ميجيغوريه . وشربوا الشمبانيا ، وهتفوا بالانخاب ، وحطموا الاكواب وركب العروسان في سيارة الى القطار ، وظل الضيوف يأكلون ويشربون .

هبط الليل على فناء الضيعة الواسع ، حيث كان الخدم والجندرمة يرقصون الرقصات المعقدة . وكانت نوافذ البيت كلها تتألق ببهجة . وكانت الفرقة الموسيقية اليهودية التي جلبت من الكسندروفسك تعزف بكل قوتها . ورقص الاب البان رقصة «الهوباك» المجنونة وشرب ماء الصودا . ونشدت الفتيات والسيدات الطراوة في النوافذ المفتوحة . وعاد اشابين العريس - وجميعهم ضباط

[illegible]ون - الى موائد النواشف من الطعام مصلصلين بسيوفهم مهددين بالذهاب الى موسكو نفسها وقتل الروس الملاعين .

وفي ذلك الوقت ظهر بين الضيوف ضابط قصير القامة في بزة شرطة الهيتمان . ولم تكن اية غرابة في ان يأتي شرطي الى الضيعة في مثل هذا اليوم . دخل متواضعا ، وحيا بانحناءات صامتة ، ونظر صامتا الى الموسيقيين . الا ان بعضهم لاحظ ان البزة كبيرة عليه بعض الشيء ، ثم ان احدى السيدات قالت للاخرى ببلاهة في قلق : «من هذا ؟ يبدو مرعبا !» . ورغم ان الضابط الغريب كان يحاول ان يخفض بصره ، الا ان عينيه كانتا تلتهبان رغم ارادته ، كعيني شيطان ... ولكن ما اكثر ما يتوهم السكران من اوهام ...

عزف الموسيقيون التانغو بعد رقصات المازوركا والفالس . بقي اثنان او ثلاثة من ذوي القمصان الحمراء ممن ما يزالون واقفين في امكانهم الرقص مع السيدات . وطلب احدهم اطفاء الاضواء العليا . وفي الضوء الشاحب لاحت النغمات الضعيفة وكأنها آتية من اعماق السنين الخوالي . وتراخى الراقصون في حركاتهم وتهالكوا معبرين عن شهوات الموت .

وعند ذاك انطلقت رصاصة . وجمد حشد الضيوف . وانقطعت الموسيقى . كان ماخنو المتزي بزي ضابط شرطة واقفا وراء مائدة الطعام عند باب مفتوح الى النصف يطلق الرصاص مسددا على ذوي القمصان الحمراء . ووقع المقدم الاحمر الضخم صديق العريس على المائدة ثقيلا باسطا ذراعيه وقالبا المائدة . اطلقت النساء صيحات زاعقة . حاول آخر ان يستل سيفه ، عاجلته رصاصة وطرحته على وجهه على البساط ... وهاجم ثلاثة آخرون ماخنو فسقط اثنان منهم في الحال ، وقفز الثالث الى النافذة وصرع هناك كالارنب . ظهر في الباب المقابل رجلان في بزتي شرطة ايضا غريبان في مظهرهما تتدلى ناصيتاهما من تحت قبعتيهما ، وفتحا النار على الضيوف ايضا ، وركضت النساء من جهة الى اخرى وسقطن . ولم يستطع الاب البان ان ينهض من مقعده فتقدم ماخنو منه ، واطلق رصاصة في فمه . وصدرت طلقات في الفناء ايضا وفي المتنزه حيث تراكض الضيوف الذين قفزوا من النوافذ . واستطاع

القليلون الاختفاء في الأجمات وبين نبات الأسل في البركة . وذبح
الخدم والجندرمة بالجملة . ثم شدّ رجال ماخنو الخيول الى
العربات ، وظلوا حتى الفجر يحمّلونها الامتعة والسلاح . وطلعت
الشمس على الضيعة وهي تحترق .

وتركت هذه الغارة الجريئة اثرا قويا في غولاي-بوليه . وفي ذلك
الوقت كان الفلاحون يرزحون تماما تحت الالمان وتحت اصحاب
الاراضي العائدين النهمة ، وتحت نير رجال الشرطة السريعين في
تصرفاتهم الوحشية . وطلب اصحاب الاراضي تأجير الاراضي الى الفلاحين
غير مصدقين بهم ، وطالبوا ليس فقط بمحصول الصيف الحالي ، بل
وبإضافة خسارة العام الفائت من الحبوب . ولم يبق امام الفلاحين
الا ان ينوحوا على مصيبتهم . وظهر ماخنو ، واعلن الارهاب .
وسرت الشائعات في القرى بان انسانا قد ظهر .

تشجع الفلاحون . واضرمت النيران في الضياع . واحترقت
اكداس القمح في السهوب . وهاجمت فصائل الانصار بجرأة على
المراكب والصنادل المحملة بالحبوب المنقولة الى المانيا . وسرت
القلاقل الى الضفة اليمنى للدنيبر . وصدرت الاوامر الى القوات
النمساوية والالمانية لوضع حد للفوضى . وانتشرت مئات من
فصائل التنكيل في البلاد ، وعندئذ بادر ماخنو بمهاجمة القوات
النمساوية بفصيلته الصغيرة الحسنة التسليح .

في ذلك الحين لم يكن جيش الاتمان ماخنو كثير العدد . فان
نواته الداخلية المتماسكة كانت تتألف من مائتين او ثلاثمائة من
الرجال الجسورين . كان من بينهم بحارة من البحر الاسود ، وجنود
حاربوا في الجبهة ، وهم ممّن لم يستطع لسبب او لآخر الظهور في
قريته الاصلية ، والاتمانات الصغار المنضمون تحت لوائه مع
فصائلهم ، واناس لا عوائل لهم يحاربون انطلاقا لجسارتهم وحبا
للحياة المرحة .

وعندئذ انضم الى الجيش فوضويون فرادى هم من يسمون
بـ«المحاربين» الذين سعوا بعصابات جديدة تتنقل مرة على خيولها .
جاء الفوضويون الى مقر ماخنو على الاقدام مهلهلي الثياب جياعا في
احد جيوبهم قنبلة ، وفي الجيب الآخر مجلد كروبوتكين .
وقالوا للاتمان :

— سمعنا انك شخصية عبقرية ، فلننظر !
اجاب الاتمان :
— انظروا .
فقالوا :
— اذا كنت كذلك حقا ، فانك ستصنع صفحات من التاريخ
العالمي . الشيطان يعرف ، فقد تكون نجاة كروبوتكين التالي .
اجاب الاتمان :
— جائز .

واخذ الفوضويون يشربون مع الاتمان في طابوره ، ويحتسون معه
الخمور ، ويقولون له كلمات مدهشة كان يحبها كثيرا — حول
التاريخ والمجد . وشيئا فشيئا بدأ بعضهم يصعد الى المناصب
الادارية والقيادية . وصار لكل واحد منهم عربته من الاسلاب
المغنومة في المعارك : صندوق كونياك ، وبرميل صغير من
النبيذ ، وكومة من الملابس . وكان من بين هؤلاء الافراد
... السمون ، سكوروفيروف ، بوغولوبوف ، تشيريدنياك ،
الفارس ، فرانشوز ، وكثيرون غيرهم . وخلال فترات القعود
الطويلة كانوا يجمعون حولهم مجاميع كاملة من الفتيات المنطلقات ،
ويقضون ليالي اثينية مؤكدين للاتمان ان هذه الطريقة في معالجة
القضية الجنسية تعتق الحياة ، اما السيفلس فانه محض هراء ما
دامت الحرية المطلقة محققة . وسمى ماخنو فوضوييه بالتعابين
الراقصة . وهددهم اكثر من مرة بالاعدام رميا بالرصاص ، ولكنه
عاملهم كرجال قرأوا الكتب ويعرفون جيدا ما هو المجد العالمي .

لم يكن للجيش مقر قيادة دائم . وكان ينتقل حسب الضرورة من
طرف المحافظة الى طرفها الآخر على الخيول والعربات . قبل قيام
ماخنو بغارة او معركة كان يرسل الرسل الى القرى ، ويلقي هو
في مكان مزدحم خطابا لاهبا ، وبعده كان فتيانه يلقون القماش من
العربات على المحتشدين . وفي يوم واحد كان ينضم الى لواء جيشه
آلاف الفلاحين . وحين كانت المعركة تنتهي كان المتطوعون يعودون
بالسرعة نفسها الى قراهم ، ويخفون الاسلحة . وحين كانت المدفعية
الالمانية تمر بهم بحثا عن العدو كانوا يقفون امام بوابات بيوتهم ،
وكأنهم لم يفعلوا شيئا ، هازّين اجسامهم بكسل . كانت الفصائل

الألمانية والنمساوية وهي تبحث عن ماختو لا تجد شيئا دائما ، بينما كان هذا الشيطان الموجود في كل مكان دائما في مؤخرتهم . كان الانصار كالرحل القدامى لا يشتركون في اية معركة حاسمة ، بل ينتشرون على خيولهم وعرباتهم زاعقين صافرين مطلقين الرصاص ، ويجتمعون في مكان لم يتوقعوا فيه ، ويهجمون فجأة .

خلت القرية . خرج ماختو في اثر الجيش على عربة تجرها ثلاثة خيول ومفروشة ببساط . كان الوقت ظهرا . كانت فتاة يدبغ شعرها البكاء في تنورة محزومة الى فوق تكنس البيت بمكنسة من الافسنتين . وكان صاحب البيت جالسا قرب نافذة مفتوحة ينظر الى التلال التي اتجه نحوها المشاة والفرسان . وحيث يدور دولابا طاحونتين بوداعة ، وزفر زفرة ثقيلة ، لأن الحديث مع ماختو قبل قليل لم يدخل الهدوء الى نفسه .

ذهبت كاتيا الى البئر ، واغتسلت ، ورتبت هندامها . دعاها صاحب البيت الى الفطور ، فأكلت فطيرتين وشربت بعض الحليب . وجلست عند النافذة الاخرى ، وهي لا تعرف الآن ماذا تفعل وماذا تنتظر . كان الجو حارا جدا . وفي الشارع دجاج كثير يطوف بين الروث الطازج . وفي الحدائق امام البيوت كانت تتمايل زهور عباد الشمس الذهبي ، وتتفتح ثمار الكرز . والبواشق تحوم فوق القرية . تنحنح صاحب البيت ، وتنهد ، وقال للفتاة الباكية :

— كان من الافضل ان ترفعي التنورة اعلى . ليست مصيبة في انهم سرقوك ... لست الاولى .

اجهشت الفتاة ، والقت المكنسة ، وانزلت تنورتها على ساقيها البيضاوين الممتلئتين . نظر صاحب البيت الى المكنسة بعض الوقت .

— من هو ؟ قولي ، ولا تخافي ، يا الكسندرا ...

— لا اعرف ما اسم هذا اللعين ... ليس من ابناء قريتنا ... يلبس نظارة ...

اسرع صاحب البيت يقول وكأنه قد فرح :

— ها ! يلبس نظارة ... انه اخدعم ، فوضوي . — والتفت الى كاتيا — انها ابنة اخي الكسندرا ... ارسلتها الى الهرى لتجلب

الملح . . . أتعرفين أين يقع الهرى ؟ وعادت في الصباح وثيابها ممزقة . اللعنة ! ..

— كان سكران ، وهددني بالمسدس . فماذا في امكاني أن افعل ؟

قالت الكسندرا مولولة . ضرب صاحب البيت الارض بقدمه الحافية مهددا :

— اخرجي من هنا . انا نفسي لا اعرف هل سأبقى على قيد الحياة أو لا .

خرجت الفتاة راكضة . عاد الى النحنحة من جديد محدقا في التلال .

— ما العمل ؟ وهل نحن سعداء في اطعام هؤلاء اللصوص ؟ نطعمهم الخيول لعرباتهم . وهم يسوقونها بسرعة ثمانين فرسخا . هؤلاء الشياطين . والحصان ليس سيارة ، ويجب الاعتناء به . ان مواشينا كلها الآن مصابة . . . آه ، الحرب ! ..

اهتزت زجاجة المصباح المعلق فوق المنضدة ، ورن زجاج النوافذ رنينا خافتا . وكان الهواء الحار قد تنهد ، وسرى في الارض هدير بعيد . مد صاحب البيت نصف جسمه من النافذة بحركة حية ، وحدق طويلا في التلال ، حيث لاح فارس وحيد بالقرب من الطاحونتين ، ثم جمع اصابعه ، ورسم علامة الصليب امام الصورة الموضوعة في زاوية .

قال :

— المدفعية الالمانية تضرب جماعتنا — ثم حرك تحت قميصه الحائل اللون وقال — زمان !

رفع المكنسة ، والقاها في زاوية ، وخرج الى الفناء جامعا اصابع قدميه الحافيتين . وعاد الهدير يسري فوق القرية . لم تستطع كاتيا ان تطيل البقاء في البيت اكثر . وخرجت الى الظهيرة القائظة الفائحة بالروث .

رأت جمعا مضطربا من مسافري الأمس يسير في الشارع . سار في المقدمة معلم الفيزياء اوبروتشيف ناظرا من فوق نظارته الانفية ، كان يلبس معطفا مطاطيا وكالوشا ، ويبدو رثا وموضع ثقة . هتف بكاتيا :

— انضمي الينا !

اقتربت . كان المسافرون في مظهر مهروس ، وقد اعلت وجوههم . انتفخت عيون المواتين الكهلتين من ذرف الدموع . ولم يكن بينهم المضارب الذي لم يغير ملابسه .

قال اوبروتشيف بصوت مرح :

— اختفى احد اصحابنا دون اثر . والظاهر انه قد اعدم رميا . وجميعنا ينتظرنا نفس المصير ، يا سادة ، اذا لم تكن لدينا الجبرية الكافية . يجب ان نقرر على الفور : هل سننتظر نتيجة المعركة ، ام ننتهز فرصة عدم حراستنا من قبل احد ، على ما يبدو ، ونحاول ان نصل مشيا الى السكة الحديدية . . . انا احدد لكل متكلم دقيقة واحدة .

عندئذ تحدث الجميع دفعة واحدة . اشار البعض الى ان قطاع الطرق اذا لحقوا بهم في السهب فسيقضون عليهم بدون شك . وقال آخرون ان في الهروب نصيبا من الخلاص على اية حال . اما الفريق الثالث الذي كان واثقا من انتصار الالمان فقد اصر على انتظار نتيجة المعركة . وحين تعالى الهدير وراء التلال من جديد صمت الجميع ، وقلصوا عيونهم متاملين وحدقوا الى حيث لم يكن يرى غير اجنحة الطاحونتين تتحرك ببطء . القى اوبروتشيف خطبة محكمة سرد فيها كل التناقضات في وجهات النظر . حدقت السيدتان في فمه ، وكأنه واعظ . ولم يستقر المسافرون على رأي فظلوا واقفين في الشارع المقفر بين الدجاج والعصافير ، حيث لا احد يفكر في ان يشفق على روسي من ابناء قوميته . . . لا ابـــدا ! ها هي امـــراة حاسر الرأس اطلت من نافذة ، وتثـــاءبت ، واشـــاحت برأسهـــا . خرج فلاح بلا حزام في مظهر غاضب من وراء بيت ، ونظر من خلالهم والتقط قطعة من طين ، ورمى بها خنزيرا لاحد الجيران بكل قوته . وحامت فوق القريـــة براغيث بلا اكتراث ناظرة الى ابنـــاء المدن المنهوبين الذين لا يهتم بهم احد هنا .

ارتفعت سحابـــة من الغبار من وراء التل . اندفـــع فارس من الطاحونتين ، واختفى . اقترح احـــد المســـافرين العودة الى ادارة القرية ، حيث تقضي الجميع ليلتهم هناك . سارت السيدتان اولا . وحين ظهرت عربات «الترويكـــا» من وراء التلال منطلقـــة بالقصى

سرعتها انصرف الآخرون ايضـــا . بقيت كاتيـــا ومعلـــم الفيزياء في الشارع . وقد صلب المعلم يديه تحت الشمع بحزم .

كانت العربات اربعا او خمسا . دارت حول البحيرة ، ووصلت الى القرية . كانت تحمل الجرحى . توقفت الاولى عند نوافذ بيت . صاح سائق الخيول وهو رجل ضخم من الانصار في سترة جلدية ممزقة :

— ناديجدا ، جلبوا رجلك .

خرجت امرأة من البيت راكضة خالعة مئزرها عنهـــا واجهشت بصوت واطىء ، والقت نفسهـــا على العربة . نزل من العربـــة رجل شاحب الى حد الاخضرار ، وامسك برقبة الزوجة والقى راسـه الى الاسفل ، وسار نحو البيت بخطى رخوة منحني الجذع . انتقلت العربة الى بيت آخر ، حيث خرجت ثلاث فتيات في ثياب ملونة .

صاح السائق بهن مرحا :

— خذن صاحبكن ، يا حمامات . جرحه طفيف .

وبعد ذلك استدار بالعربة بحركة بطيئة وهو يفكر اين سينقل الجريح الاخير . كان ميشكا سولوميين يجلس في العربة مقلصا عينيه ، وقد لف رأسه بخرقة من قميص ممزقة واسنانه مصكوكة . وفجأة زعق السائق الخيول :

— اوه ، يا ربي . . . يكاترينا دميتريفنا ؟ . .

ولم تكن كاتيا تتوقع ذلك البتة . ضاقت انفاسها من القلق ، وهرعت الى العربة . كان الكسي كراسيلنيكوف يقف عليها فارجا ساقيه عريضا ساحقا احدى يديه على جنبه ممسكا العنان بالاخرى . كانت لحيته تلتوي على خديه ، وعيناه الوحشيتان تنظران بمرح ، وقد شد على وسطه قنابل يدوية ، وشريط رشاشة فوق سترته الجلدية ، ووراء كتفيه بندقية فرسان .

— كيف جئت الينا ، يا يكاترينا دميتريفنا ؟ في اي بيت تقيمين ؟ في هذا ؟ عند ميتروفان ؟ انه ابن عم لي ، من عائلة كراسيلنيكوف ايضا . انظري الى ميشكا . مسكين . شجت نصف رأسه شظية شرابنيل . . .

سارت كاتيا الى جانب العربـــة . كان الكسي ما يزال منفعلا بعد المعركة . تلمع عيناه واسنانه وابتسامته .

– مزقنا الألمان تمزيقا . . . الحمقى . . . القوا انفسهم على رشاشاتنا ثلاث مرات . وهم الآن منطرحون فى الحقل كله . . . الآن صار للانسان من الملابس ما يلبس به الجيش كله . . . تف . . . ميتروفان ! . . . اخرج من مغارتك ، واستقبل البطل الجريح . . . اما انت ، يا يكاترينا ميتريفنا فلا تغادرى هذا البيت . الحالة قلقة عندنا . . .

صدر من برج الجرس رنين دقيق بهيج . انفتحت ابواب الحدائق فى القرية كلها ، ورفعت الصفائح وركضت النساء فى الشارع ، وخرج الرجال الحذرون . وطلع عدد كبير من الناس من حيث لا يدرى احد ، وساروا مغنين متحدثين الى الدرب للقاء جيش ماخنو المنتصر .

جلب الكسى كراسيلنيكوف ، وكاتيا معه ، ميشكا شبه الميت الى فناء ميتروفان ، وارقده فى الظليلة على سرير الكسندرا . واخذت كاتيا تبدل ضماده . نزعت بصعوبة من شعره الخرقة التى جمد عليها الدم . لم يبد من ميشكا غير صريف الاسنان . وعندما بدأت كاتيا تغسل الجرح الرهيب فى الجهة اليمنى من الجمجمة ، تأوهت الكسندرا التى كانت تمسك بالحوض ، وترنحت . امسك الكسى بالحوض ، ودفعها . وقال لكاتيا :

– انظرى ، هناك فلقة عظم ناتئة . الكسندرا ، اجلبى كماشة السكر .

– غير موجودة . انكسرت .

امسكت كاتيا باظافرها فلقة العظم التى كانت ناتئة فى الجرح ، وسحبتها . صرخ ميشكا . لقد كانت فلقة بالتأكيد . وكانت اظافرها تنزلق لتنفذ اعمق ، وتخرجها .

زفر الكسى زفرة صاخبة وضحك قائلا :

– هكذا نقاتل ، على طريقة الفلاحين ! . .

شدت رأس ميشكا بقماشة نظيفة . ارقد تحت فروة خروف مبللا مرتجفا ارتجافا شديدا ، وفتح عينيه . انحنى الكسى عليه :

– كيف الحال ؟ هل ستكون على قيد الحياة ؟

قال ميشكا مبتسما ابتسامة ميتة :

– يوم امس تبجحت امامها ، وهذه نتيجة التبجح .

ونظر الى كاتيا . كانت تمسح يدها . تقدمت ابضنا وانحنت عليه . حرك ميشكا شفتيه :

– احرص عليها ، يا اليوشا* .

– ادرى ما اعرف .

– فكرت بان ارتكب عملا سيئا نحوها . . . يجب نقلها الى المدينة .

ومرة اخرى ثبت فى كاتيا بصره المجنون تقريبا . كان يقاوم الالم ووهج الحمى وكأنها شىء تافه ، مجرد هراء ومضايقة . فان صالة الموت تنشت فيه جميع زوايا الانفعالات والتناقضات ، وقد احس فى تلك اللحظة بانه ليس الفتى السكير الشرير ، بل ربما روسية كالطائر يصعد النداء العاصفة وانه فى الاعمال البطولية لا يقل صلاحا عن الآخرين ، وانه قادر على الاتيان بالاعمال الرائعة . . .

قال الكسى بخفوت :

– الآن دعيه ينام . لا بأس ، انه فتى متدفق الحيوية . سيتم برشفى .

خرجت كاتيا مع الكسى الى الفناء . ما تزال وكأنها فى حلم غامض غريب تحت سماء لا حدود لها فى هذا السهب العالى حيث يلوح دخان الروث الجاف القديم ، حيث كان رجل بعد وقفة طويلة يتنقل على فرسه مكشرا اسنانه للريح الطليقة ، والسمورات تطلق لها بلغا الظما بقدح مترع .

ولم تشعر بخوف . ان مصيبتها المطمورة فى اعماق النفس لا حاجة بها لأحد ، وحتى لنفسها فى هذه الاحوال . كانت على استعداد الى التضحية ، الى القيام بمأثرة دون اى تردد . ولو دعيت للموت لذهبت شهيدة ورفعت عينين صافيتين الى السماء . قالت :

– فاديم بتروفيتش قتيل . ولن اعود الى موسكو ، اذ ليس لى احد هناك . . . ولا شىء . . . لا اعرف ماذا جرى لأختى . . . عسى ان اسافر الى مكان ما ، وربما الى يكاترينوسلاف . . .

فرك الكسى ساقيه ، ونظر الى الارض ، وهز رأسه :

---

* صيغة تدليل لاسم الكسى . – المترجم .

— من المؤسف ان يقتل فاديم بتروفيتش ، فقد كان رجلا طيبا . . .

— نعم ، نعم — قالت كاتيا واغرورقت عيناها بالدموع — كان انسانا طيبا جدا .

— لم تسمعيني كلامي آنذاك ، بالطبع نحن نكافح من اجل هدفنا وانتم من اجل هدفكم . ولا حاجة الى التكدر في هذه المسألة . ولكن هل من الممكن ان يحارب المرء ضد الشعب ! ليس من المعقول ان تنتصر !.. هل رأيت الفلاحين اليوم ؟ ومع ذلك كان فاديم بتروفيتش منصفا على اية حال . . .

قالت كاتيا ، وهي تنظر الى غصن شجرة كرز مثقل متدل من وراء السياج :

— انصحني ماذا افعل ، يا الكسي ايفانوفيتش . انه يجب ان اعيش . . . — قالت واحست برعب فقد ضاعت كلماتها في خواء . ولم يجب الكسي رأسا :

— ماذا تفعلين ؟ سؤال من اسئلة السادة . وكيف ذلك ؟ انت امرأة مثقفة تعرفين لغات اجنبية ، وجميلة ، وتسألين فلاحا : «ماذا افعل ؟»

واكتسى وجهه تعبير الازدراء . وطقطق بالقنابل المعلقة في حزامه طقطقة خافتة . التمشت كاتيا . قال الكسي :

— ستجدين اعمالا في المدينة . وربما في حانة تغنين وترقصين وربما كموسس ، وربما في مكتب تطبعين على الآلة الكاتبة . لن تضيعي .

خفضت كاتيا رأسها ، واحست بانه ينظر اليها ، ومن نظرته تلك لم تستطع ان ترفع رأسها . وقد ادركت فجأة ، كما حصل الحال مع ميشكا ، لماذا كان الكسي يثبت بصره فوق رأسها بهذه الموجدة . لا وقت الآن للتصلح والشفقة . ان لم تكن منهم فهي عدو . انها سألت كيف عليها ان تعيش . القت هذا السؤال على محارب ما زال ملتهبا بالفروسية ، بازيز الرصاص ، بسكرة النصر . . . كيف عليها ان تعيش ؟ وبدا هذا السؤال غريبا لها الآن . فلو سألته مع مَنْ ؟ وفي سبيل اية حقيقة ينطلق على هذه العربة في السهب لرأت الطيبة تلمع في عينيه . . .

ادركت كاتيا ذلك ، ولجأت الى المكر مثل حيوان صغير ، لقد حاولت لاول مرة في هذا اليوم ان تدافع عن نفسها :

— لقد اسأت فهمي ، يا الكسي ايفانوفيتش . ليس ذنبي ان تقاذفني الارض كالورقة اليابسة . ماذا علي ان احب ؟ وبم اعتز ؟ لم يعلموني ذلك . فلا تسألني . علمني اولا . (كف عن الطقطقة بالقنابل . ومعنى ذلك انه ارهف السمع .) ذهب فاديم بتروفيتش الى الجيش الابيض خلاف ارادتي . لم ارد ان يفعل ذلك . وقد عاقبني لأن المس لا تضمر بغضا . . . انا ارى كل شيء ، وافهم كل شيء ، يا الكسي ايفانوفيتش . ولكنني في الهامش . . . هذا شيء فظيع . وفي ذلك يكمن عذابي كله . . . ولهذا سألتك ماذا افعل وكيف اعيش . . .

صمتت برهة ، ثم حدقت في عيني الكسي ايفانوفيتش تحديقة صافية ، فرمش . ولاح على وجهه بعض السذاجة والحيرة ، وكأنما قد احتيل عليه . رفع يده الى عثباله ، وحك .

قال ممطئا انفه :

— هذه مأساة . انت على حق . المسألة سهلة بالنسبة لنا . التي قتل الساتيا في قناه بيتي ، فاحرقنا البيت وخرجنا نحن . الى اين ؟ الى الاتمان . اما انت ، المثقفة . . . فحقا . . .

وتجهم مكر كاتيا ، وعزم الكسي ايفانوفيتش ، في الظاهر ان يحل المسألة اللعينة في هذه اللحظة : في سبيل اية حقيقة تناضل امرأة مثل كاتيا لا ارض لها ولا فرس .

لقد كان مضيعة للوقت الوقوف عند السياج تحت شجرة الكرز التي كانت تنظر اليها كاتيا . لقد كانت تود لو تقطع حبات سوداوين لتعلقهما قرطا ، ولكنها استمرت واقفة بهدوء امام كراسيلنيكوف ، الا ان ومضات الفكاهة كانت تومض في عينيها الواسعتين وقد اضاءتهما السماء .

قال الكسي ايفانوفيتش مقويا تأثير كلماته بايماء حاسم :

— اذا كنا نحن الفلاحين نطعمكم ، يا ابناء المدن فان الواجب يقضي ان تقفوا الى جانبنا . نحن الفلاحين ضد الالمان ، وضد البيض ، وضد الشيوعيين ، ولكننا في سبيل سوفييتات الريف الحرة . مفهوم ؟

هزت رأسها ، فتابع كلامه . أمـــا هي فوقفت على أطراف أصابعهـا ، ورفعت ذراعها اليسرى ، لأن كمها الأيمن مشقوق تحت الإبط ، وقطفت حبتين من الكرز ، وضعت واحدة في فمها ، وأخذت تدير الأخرى من عودها ، قالت وقد لفظت النواة :

– لو كنت قروية لكان كل شيء واضحا لي ، كم مرة سمعت : الوطن ، روسيا ، الشعب ، ولكنني لأول مرة أرى ما تعني هذه الكلمات . وأكلت الحبة الأخرى ناظرة الى الكمي إيفانوفيتش ، والى لحيته التي لاحت في النور ذهبية ، والى السترة الجلدية المفتوحة ، والى رجليه القويتين ، وتسلحه المخيف . قال وهو يزداد ارتباكا :

– الشعب ، الشعب ، أعجوبة صغيرة ، بالطبع . . . ولكننا لن نتخلى عما يخصنا . – وأمسك بقوة بالخابور الطالع من السياج وجرّبه ليتأكد من ثباته . – سنحارب بقســـوة ولو في العالم كله . . . ليتك تسمعين ما يقوله فوضويونا ، لا ما أقوله أنا . انهم أساتذة في فن الكلام . . . فقط . . . (وتحرك حاجباه ، ومرر عينيه على كاتيا بنظرة فاحصة .) ولكن المصيبة : انهم فســـاق وسكيرون دون تحفظ . . . أظن من الخير الا تدعى غيرتهم تقع عليك . . .

– لا أهمية لذلك ، – قالت كاتيا .

– كيف لا أهمية لذلك ؟

– القصة ليست صغيرة . ولا أسمح لأحد بأن يمسني .

– انت تتكلمين جيدا . . .

ارتجف حنك كاتيا ، وابتسمت ، ورفعت جسمها الى غصن الكرز ثانية . وأحست بأن حرارة الشمس تنفذ الى جسمهـــا وتلاعبه . وكان ذلك حلم يقظة . قالت :

– على أية حال ماذا تظن ان في وسعي ان أفعل عندكم ، يا الكمي إيفانوفيتش ؟

– في حقل التنويـــر . . . لدى الاتمان يتكوّن قســـم سياسي . . . ويقولون يريد ان يصدر جريدة .

– وأنت ؟

– أنا ؟ . . (وأمسك بالخابور مرة أخرى ، وهز السياج .) أنا محارب بسيط . سائق عربة رشاشة ، ومكاني في القتـــال .

وأنت ، يا يكاترينا دميتريفنا ، التي تطرح في البداية ، ولا تتخذي قرارا راسما . أنا سأعرفك بزوجة أخي ماتريونا . يعني نفسك الى عائلتنا . . .

– ولكن الاتمان ماخنو طلب الي ان آتي مســـاء لانظف الحافرة .

– ماذا ؟ ! – وأمسك الكمي في الحال حزامه بكلتا يديه تحت السترة الجلدية ، بل وان أنفه قــد تدلى . – الحافرة ؟ وبماذا أجبته ؟

قالت كاتيا هادئة :

– أجبته بأنني أسيرة .

– حسنا ، سيرســـل في طلبك – اذهبي . ولكنني سأكون هناك . . .

في تلك اللحظة هبطت الكستدرا السمينة من مدخل البيت ، وشررها يتطاير . صاحت وانطلقت لفتح الباب :

– انهم قادمون ، قادمون !

كانت صورنا تسمع من بعيد مع طلقات منفردة ، ووقع حوافر خيول . لقد عـاد الاتمـان مــع الجيش ، خرج الكمي وكاتيـــا الى الشارع . ارتفعت سحابة الغبار فوق الدروب . كان الفرســـان والعربات تنطلق على الاكمات مرورا بالطاحونتين .

دخلت مقدمة الجيش القرية . وأحاط الصبيان بها وتراكضت الكلاب . كانت بطون الخيول العرقة المزبدة الاشداق تعلـــو وتهبط . وقف رجال ماخنو على العربات مغبرين عرقين وطاقياتهم مائلة الى الوراء .

جاء ماخنو على عربة عليها بساط فارسي تتطاير حوافيه . كان جالسا على صندوق ذخيرة مترنحا ممسكا بقبعته القرانية قرب فخذه . وقد جمد وجهه الشاحب متوترا ، وشفتاه الجافتـــان المتشققتان مزمومتان .

وفي العربة التالية وراءه ركب ستة أشخاص في هيئـــة مدنية – يرتدون سترا وقبعات ناعمـــة وطاقيات تشبـــه . لقد أرسلوا جميعا شعورهم ولحاهم ، ووضعوا النظارات علـــى عيونهم . انهم الفوضويون من هيئة الاركان والقسم السياسي .

٨

عاشت داشا تليقينا خمسة اشهر وحيدة في غرف خالية . حين خرج ايفان ايليتش الى الجبهة ترك لها الف روبل ، الا ان هذه النقود لم تكف وقتا طويلا . ومن حسن الحظ ان اجنبيا حاذقا يدعى ماته قد نزل في شقة تقع تحت شقتها كان يقيم فيها موظف كبير من بطرسبورغ هرب مع عائلته في كانون الثاني . وكان هذا الاجنبي يشتري اللوحات والاثاث واي شيء كان .

باعت داشا له السرير العريض لشخصين ، وبعض المجوهرات ، والحليات الصينية . وتخلت بلا مبالاة عن الاشياء التي كانت تعبق بالرائحة القديمة والذكريات الماضية . لقد انتهى كل شيء من الماضي .

وقضت الربيع والصيف على النقود التي تسلمتها من بيع الاشياء . خلت المدينة . كانت الجبهة تمتد وراء نهر سيسترا على بعد ساعة ركوبا بواسطة قطار من بطرسبورغ . انتقلت الحكومة الى موسكو . وكانت القصور تطل على نهر النيفا بنوافذها المحطمة الغازلة . ولم تكن الشوارع مضاءة . ولم تكن لرجال الميليشيا رغبة كبيرة في الحفاظ على دعة البرجوازيين وهم الى زوال على اية حال . وفي الاماسي كان يظهر في الشوارع اناس وعيون لم يكن لهم وجود من قبل . كانوا يتطلعون في النوافذ ويتجولون في السلالم المظلمة محاولين تدوين قبضة الابواب . والعياذ بالله لو غفل بعض الناس ، ولم يقفلها بعشرات المزاليج والسلاسل . فقد كانت تسمع خشخشة ، ويدخل الشقة مجهولون قائلين : «ارفعوا ايديكم !» ويهجمون على الساكنين ، ويربطونهم بالاسلاك الكهربائية ، ثم يشدون الغنيمة بصبر غير متعجلين .

وظهرت الكوليرا في المدينة . وحين نضجت الاعناب عم الرعب . تساقط الناس في الشوارع والاسواق يتلوون من الالم وجرى التهامس في كل مكان . وتوقع الناس بلاء شديدا . وقالوا ان رجال الجيش الاحمر يضعون النجوم الخماسية معكوسة على قبعاتهم — وتلك علامة المسيح الدجال — وزعموا ان «الرجل الابيض» صار يظهر في الكنيسة الصغيرة المغلقة على جسر الضابط شميدت ،

وهذا يعني ان المصائب متوقعة من البحر . ومن الجسور كان الناس يشيرون الى مداخن المصانع الخامدة التي كانت تبدو في الشفق القرمزي مثل «اصابع الشيطان» .

واغلقت المعامل . وانضم العمال الى فرق التموين ، او ذهبوا الى الريف . وطلع العشب بين بلاطات الشوارع .

ولم تكن داشا تخرج من البيت كل يوم ، واذا خرجت ففي الصباح الى السوق حيث طلبت المضاربات الفنلنديات الوقحات في البود* الواحد من البطاطس بنطلونين . وكان غالبا ما يأتي رجال الحرس الاحمر الى السوق ، ويفرقون بقايا النظام البرجوازي باطلاق النار في الهواء : الفنلنديات مسح يطاطمهن ، والسيدات بسيرهن من ثياب الرجال ومشالح النوافذ . وصار الحصول على الطعام يزداد صعوبة من يوم الى يوم . واحيانا كان يسعفها ماته هذا بان يبادلها المعلبات والسكر بالاشياء العتيقة الثمينة .

كانت داشا تحاول ان تقلل من طعامها لتقلل من اتعابها . كانت تستيقظ في ساعة مبكرة ، وتخيط شيئا اذا وجدت خيوطا ، او تتناول كتابا مطبوعا في عام ١٩١٣ او ١٩١٤ ، وتقرأ لتجرد الا تدع عقلها يفكر . ولكنها كانت تفكر في اكثر الاوقات وهي جالسة في النافذة ، او بالاحرى كان فكرها يحوم حول نقطة داكنة ، حول آلامها النفسية قبل مدة ، يأسها ، حنينها ، فكأن كل شيء قد تكور الآن في هذه الكتلة الغريبة في عقلها ، مقابل مرض . وقد تحولت تحولا تدريجيا حتى اصبحت كفتاة في السادسة عشرة . انها قد اصبحت وكأنها انقلبت الى فتاة ، ولكن بلا لعب الفتاة .

وكان الصيف ينقضي . وانتهت الليالي البيضاء . وامسى الغروب وراء كرونشتادت اكثر كآبة . ومن النافذة المفتوحة في الطابق الخامس كانت تتداعى الى مسافة بعيدة الشوارع الآخذة بالاقفار عند هبوط المساء ، ونوافذ البيوت المظلمة . ولم تكن الاضواء تنار . ونادرا ما تسمع خطوات عابر سبيل .

وكانت داشا تفكر : ماذا سيكون بعد الآن ؟ متى ينتهي هذا الصمود ؟ عن قريب سيأتي الخريف والامطار . وتعول الريح

* بود يساوي ١٦،٣٨ كيلوغراما . — المترجم .

البارحة فوق السطوح من جديد . ولا يوجـــد حطب . والمعطف الفرائي قد بيع . وربما يعود ايفان ايليتش ! . . ولكن الوحشة تأتي من جديد ، ذبالات المصباح المحمرة ، الحياة التي لا فائـــدة منها .

ليتها تجد القوة ، وتحطم الجمود ، وتخرج من هذا البيـــت الذي تدفن فيه حية ، وتغادر هذه المدينـة المحتضرة !.. عندئذ لا بد ان يحصـــل شيء جديد في الحيـــاة . . . ولاول مرة في هذه السنة فكرت داشا بـ«الجديد» ، وجدت نفسها تفكـــــر بذلك ، واضطربت ودهشت ، وكأنما عـاد يلوح من خلال ستـار الجزع القانط ألق الرحابة البراقة ، لذلك الذي داعب آمالهـــا في تلك الباخرة على الفولغا .

ثم جاءت ايام الاسى على ايفـان ايليتش ، بدأت تشفق عليـه بطريقة جديدة ، اشفاق الاخت ، وتذكرت بأسف هموم الصابرة ، وطيبة قلبه التي لا تضايق احدا على اية حال .

عثرت داشا في خزانة الكتب على ثلاثة مجلدات بيضاء تضم اشعار بيـــرلوف . انها ذكرى خمدت كليا ، وقرأتها قبيل المساء ، في السكون ، حين كانت الخطاطيف تتطاير حول النافذة كالخطوط السوداء ، ووجدت في الاشعار كلمات عن اساها ، عن وحدتها ، عن الربيع القائمة التي ستصفر فوق قبورها . . . واغرقت داشا في احلامها ، وبكت . وفي الصباح اخرجت من الصندوق بين النفتالين الثوب الذي خاطته لزفافها ، وبدأت تعيد خياطتـــــــه . وكانت الخطاطيف تطير ، كما في الامس ، والشمس شاحبة الضوء . وفي السكون تراءت من بعيد ضربات نادرة ، واحيانا هيدة ، وكأن شيئا ثقيلا يسقط على الرصيف ، لعل بيتا خشبيا يحطم في شارع جانبي .

اخذت داشا تخيط على مهل ، وكان الكشتبان يخرج مرارا من اصبعها النحيلة وكاد يسقط ذات مرة من فوق النافذة ، وتذكرت يوم جلست مع هذا الكشتبان على الصندوق في رواق شقة اختها ، وهي تأكل المربى بالخبز . كان ذلك في عام ١٩١٤ . وكانت كاتيا قد تخاصمت مع زوجها ، وقد تهيأت للسفر الى باريس . كانت ترتدي قبعة صغيرة فيها ريشة صغيرة رقيقة . وبينما كانـــت

منه ابـابه التفتت ورأت داشـا قاعدة على الصندوق ، فقـالت : «داشينكا ، تعالي معي ، . . .» ولكن داشا لم تسافر . اما الآن . . . فهو تنتقل الى باريس . كانت داشا تعرفها من رسائل كاتيـــا : ... هزيلة عاطرة كعلبة عطور . . . راحت تخيط وتتنهد من الانفعال . ان تسافر ! . . يقولون ان القطارات معدومة ، ولا يسمح بالسفر الى الخارج . . . وددت لو تذهب مشيا ، تسير والحقيبة على ظهرها عبر الغابات والجبال والحقول والانهار الزرقاء المياه ، متنقلة من بلد الى آخر ، حتى المدينة الرائعة الانيقة . . .

وتساقطت الدموع من عينيها ، اية حماقة ، آه ، اية حماقة ! الحرب تجري في كل مكان . والالمان يطلقون النار على باريس من مدفع هائل . مجرد احلام ! امن العدل الا تتاح للانسان حياة عادلة مفرحة . . . «ماذا فعلت لهم ؟ . .» وقع الكشتبـان تحت الكرسي . والشمس من خلل الدمـــوع ، وانطلقت الخطاطيف بصفير فارغ . ما يهم هؤلاء بشيء ، فقط ان يترقو ذبـاب وبعوض . . . «ولكنني سأسافر على اية حال !» — قالت لنفسها وهي جاهشة . . .

ثم ترددت طرقات متقطعة ملحاحة على البـــاب في الرواق . ووضعت داشا ابرتها والمقص على افريز النافذة ، ومسحت عينيها بلفة خياطتها ، والقتها على المقعد ، وذهبت لتسأل من الطارق . . .

— هل داريا دميتريفنا تليغينا تعيش هنا ؟ . .

وبدلا من ان تجيب انحنت على فتحة المفتاح . ومن الجانب الآخر انحنى شخص على هذه الفتحة ايضا ، وقال صوت حـــذر : «لها رسالة من روستوف . . .» اسرعت داشا وفتحت البـاب . دخل رجل غريب في معطف جندي مدعوك ، وقبعة مشفوفة . خافت داشا ، وتراجعت ، ومدت يديها . قال الرجل بعجالة :

— بحق الرب ، يا داريا دميتريفنا ، الم تعرفيني ؟ . .

— لا ، لا . . .

— كوليتشيك ، نيكانور يوريفيتش . . . مساعد المحامي ، هل تذكرين سيستروريتسك ؟

انزلت داشا يديها ، وحدقت في وجهه النحيل المدبب الانف الذي لم يحلق منذ زمن . كانت الغضون عند العينين المتبهتين

المرهقتين تنم عن عادة الحذر ، والفم الغريب الشكل عن التصميم والقسوة . كان يشبه وحشا صغيرا يتوجس خطرا .

– أمن المعقول انك نسيت ، يا داريا دميتريفنا . . . كنت آنذاك مساعد المرحوم نيقولاي ايفانوفيتش سمو كوفنيكوف زوج اختك . . . كنت مغرما بك ، وقد صددتني صدا قويا . . . هل تذكرين ؟ – وابتسم فجأة بسمة منسية ، بسمة «ما قبل الحرب» ببساطة قلب . ولذا بداشا تتذكر كل شيء : الشاطئ الرملي المنبسط ، والغبش الشمسي فوق الخليج الدافئ الناعس ، وتذكرت نفسها «الشائكة» والعقدة الصبويـة على الفستان ، وكوليتشيك العاشق ، الذي كانت تزدريه من كل عقلها المتشائم . . . ورائحة اشجار الصنوبر العالية التي كانت تعق ليل نهار بعظمة على الكثبان الرملية . . .

قالت داشا بصوت مرتجف :

– لشد ما تغيرت .

ومدّت يدها لـه . امسكها كوليتشيك بخفة وقبلها . كان يبدو ، رغم المعطف العسكري القذر ، انه كان يخدم في سلاح الفرسان طوال هذه السنوات .

– اسمحي لي ان اقدم لك الرسالة . اسمحي لي ان اخلع حذائي في مكان ما . . . لقد وضعتها ، وارجو المعذرة ، في لفافة الساق – ونظر نظرة ذات مغزى ، ودخل وراء داشا الى غرفة فارغة حيث جلس على الارض ، واخذ يسحب حذاءه الطويل الملطخ بالقذر وهو يغضن وجهه .

كانت الرسالة من كاتيا ، وهي نفس الرسالة التي سلمتها كاتيا الى المقدم تيتكين في روستوف .

صاحت داشا من السطور الاولى التي قرأتهـا . وامسكت برقبتها . . . فاديم قتيل ! . وطوفت ببصرها في الرسالة مستعجلة عينيها . واعادت قراءتها بتمعن . وجلست على ذراع المقعد خائرة القوى . كان كوليتشيك يقف على اطراف متواضعا .

– نيكانور يوريفيتش ، هل رأيت اختي ؟

– لا . سلمت اليّ الرسالة قبل عشرة ايام من قبل شخص . وقد ذكر ان يكاتيرينا دميتريفنا غادرت روستوف منذ شهر . . .

– ياآلهي ! اين هي الآن ؟ ماذا حصل لها ؟

– مع الاسف لم يكن في الامكان الاستفسار عن ذلك .

– هل كنت تعرف زوجها ؟ فاديم روتشين ! . . قتيل . . . كاتيا تكتب . . . آه ، ما افظع ذلك !

رفع كوليتشيك حاجبيه بدهشة . كانت الرسالة تهتز بيدها النحيلة اهتزازا شديدا حتى انه تناولها ، ومرر عينيه على السطور التي كانت تتحدث عن فاليريان اونولي الذي روى لها مصرع زوجها . . . ارتفع طرف فم كوليتشيك الى الاعلى بحركة غاضبة :

– كنت دائما اعتقد ان اونولي قادر على السفالة . . . يستدل من اقواله ان روتشين قتل في ايـار . اليس كذلك ؟ انـه لغريب ! . . يخيل اليّ انني رأيته في وقت متأخر عن ذلك بعض الشيء .

– متى ؟ اين ؟

الا ان كوليتشيك مد انفه الكاسر ، وانغرس في داشا بنظرة يابسة شائكة . وقد استمر كل ذلك ثانية واحدة . كانت عينا داشا الملتهبتين بالانفعال واصابعها الباردة المتشابكة تقـول بوضوح انها لن تخونه ، ولو كان زوجها ضابطا احمر ، فليكن على ثقة من ذلك . سال كوليتشيك متفحصا من عيني داشا :

– لا يوجد في الشقة غيرنا ؟ (هزت داشا رأسها بسرعة : لا ، لا) اسمعي ، يا داريا دميتريفنا ، ما سأقوله لك يجعل حياتي متوقفة على . . .

– هل انت من ضباط دنيكين ؟

– نعم .

شبكت داشا باصابعها ، ونظرت بوحشة في النافذة – في الزرقة التي لا يمكن بلوغها .

– ليس صدق ما يخيفك . . .

– كنت واثقا من ذلك . . . اريد ان اسألك مبيتا عندك بضعة ايام .

قال ذلك بصرامة بل بتهديد تقريبا . اطرقت داشا رأسها .

– حسنا . .

— ولكن اذا كنت خائفة . . . (وانفرز متراجعـــا .) لست خائفة ؟ (وتقدم .) انا فاهم ، فاهم . . . ولكن لا شيء تخافينه . . انا حذر جدا . . . سأخرج في الليل فقط . . . لا احد يعرف انني في بتروغراد . . . (واخرج من بطانة القبعة هويـــة جندي) هذه . . . ايفان سليتشيف . جندي احمر . . . وثيقة حقيقية تخلصت منه ببندق واخذتها . . . تريدين ان تعرفي عن فاديـــم بتروفيتش . . . اظن ان هناك بعض البخيلة .

امسك كوليتشيك بيدي داشا وضغط عليها :

— اذن ، فانت معنا ، يا داريا دميتريفنا ؟ اذن ، شكرا . ان جميع المثقفين ، جميع الضباط النهايين المهذبين ينضمون تحت راية جيش المتطوعين المقدسة . انه جيش الابطال . . . وسترين ان روسيا ستنقذ . ستنقذها الايدي البيضاء . اما تلك البراثن الخشنة فلترتفع عن روسيا ! كفى عواطف . الشعب الكادح ؟ لقد قطعت منذ حين الف وخمسمائة فرسخ على سطح عربة ، ورأيت الشعب الكادح ؟ وحوش ! وانا اؤكد لك اننا وحدنا ، الزمرة القليلة من الابطال ، نحمل في قلوبنا روسيا الحقيقية . وسندق فالوثنا بالحربة على مدخل قصر كافيتشسكي .

واحست داشا بان سيل الكلمات يصم اذنها . . . تنشق كوليتشيك الهواء بفمه الاسود ، وتطاير الزبد من طرفي فمه على الاغلب انه اضطر الى لزوم الصمت وقتا طويلا وهو على سطح العربة .

لا اخفي عليك شيئا ، يا داريا دميتريفنا . . . انا مرسل الى هنا ، الى الشمال للاستخبارات والتجنيـــد . ان الكثيرين لا يتصورون حتى الآن قوتنا . . . نحن في صحفكم مجرد عصابات من الحرس الابيض ، حفنة ضئيلة ستمحي في القريب العاجل عن وجه الارض . . . فلا غرابة ان يخاف الضباط الانضمام الينا . . . ولكن اتعرفين ما يجري في منطقتي الدون وكوبان في واقع الامر ؟ ان جيش اتمان الدون يكبر مثل كتلة الثلج . وقد طهرت محافظة فورونيج من الحمر ، وستافروبول مهددة . . . ومن يوم الى يوم ننتظر ان يخرج الاتمـــان كراسنوف على الفولغـــا ، ويستولي على تساريتسين . . . حقا انه يتعاون مع الالمان ، ولكن ذلك شيء

مؤقت . . . ونحن رجال دنيكين نزحف على جنوب كوبان ، وكاللنا في استحراش . وقد استولينا على تورغوفايـــا وتيخوريتسكايا وفيليكوكنياجيسكايا . وقد مزق سوروكين تمزيقا . وجميع قرى القوزاق ترحب بجيش المتطوعين بحفاوة . وبالقرب من بيلايـــا غلينا خضنا معركة ضارية ، وزحفنا على تلال من الجثث حتى ان غاصت المطيح خوضا بالدم حتى الحزام .

شحبت داشا وهي تنظر في عينيـــه . وضحك كوليتشيك بغطرسة :

— اتظنين ذلك كل شيء ؟ ان ذلك بداية التنكيل . يشمل الحريق البلاد كلها . محافظات سامارا واورنبورغ واوفا ، والاورال كله في لهب . واحسن جزء من الفلاحين ينظم بنفسه جيوشا بيضاء . والفولغا الوسطى كلها في ايدي التشيكيين . والانتفاضة شاملة من سامارا الى فلاديفوستوك . ولو لا الالمان الملاعين لهبت اوكرانيا كلها هبة رجل واحد . ومدن حوض الفولغا الاعلى تشبه الابنية معبأة بالديناميت لا يعوزها الا ان يشعل الفتيل فيها . . . ولا الـــدم للبلاشفة من الحياة شهرا واحدا ، ولا اراهن على البلاشفة حتى بقشة .

وكان كوليتشيك يرتعش من الانفعال . ولم يعد يبدو وحشا صغيرا . حدقت داشا في وجهه المدبب الانف الملفـــوح بريح السهوب ، والمقسى بنار المعارك . لقد كان هذا حياة حارة دخلت صاعقة الى وحدتها الشفافة . شعرت داشا بتصدع شديـــد في صدغيها ، وخفقان في قلبها . وعندما بدأ يلف لفافة من الماخوركا مديرا لسانا صغيرة سألت داشا :

— ستنتصرون . ولكن الحرب لـــن تستمر الى الابد . . . فماذا سيكون بعد ذلك ؟

— ماذا بعد ذلك ؟ — ومص من سيكارته وقلص عينيه . — الحرب ضد الالمـــان حتى النصر النهائي . والمؤتمر السلمي الذي سنحتل فيه ابطالا عظاما . وبعد ذلك وبالقوى المشتركة للحلفاء والاوروبا كلها نعيد روسيا : النظام والقانـــون ، والبرلمانية ، والحريات . . . ذلك في المستقبل . . . ولكن في المستقبـــل القريب . . .

وفجأة امسك بالجهة اليسرى من صدره ، وتلمس شيئا من تحت معطفه ، واخرج كارتونة مقطوعة تصفيق هي عبارة عن غطاء علبة سكائر ، وادارها باصابعه ، ووخز وجه داشا بحدقتيه مرة اخرى .

— لا استطيع ان اجازف . . . والمقصود . . . عندكم تفتيش في الشوارع . . . سأعطيك شيئا . — ونشر الكارتونة بحذر ، واخرج منها مثلثا صغيرا مقطوعا من بطاقة زيارة خط عليه بالقلم حرفا : «و» و«ك» . . . وقال : خبئي هذا ، يا داريا بعبقريتنا ، واحرصي عليه كحرز مقدس ... وساعلمك كيف تستخدمينه . . . اعذريني . . . الا تخافين ؟

— لا .

— نعم الفتاة انت !

ووقعت داشا ببساطة ودون وعي مدفوعة بارادة جارفة في صميم مؤامرة ما يسمى «بالاتحاد الدفاع عن الوطن والحرية» التي شملت العاصمتين وعددا من مدن روسيا الكبرى .

كان سطولوك كولينتشيك — عميل قيادة دنيكين — اعوج لا يكاد لا يصدق : ان يكشف نفسه بصراحة ومن الكلمات الاولى لامرأة قليل المعرفة بها ، هي زوجة ضابط احمر . الا انه كان في وقت ما يعشق داشا ، والآن لم يستطع ، وهو ينظر في عينيها الرماديتين ، الا ان يصدق بان عينيها تقولان : «ثق بي» .

في ذلك الحين كان الحماس ، وليس التروي الهادئ ، هو الذي يحرك ارادة الناس . كانت زوبعة الاحداث لعصف والخضم الانساني يهدر ، وكل انسان يحس بانه منقذ السفينة الهالكة ملوحا بمسدسه وهو على السطح المهتز موعزا بان تدار الدفة يمينا او يسارا . وكل ذلك كان مجرد وهم . كان سراب يصوره الحرس الابيض يطوف حول روسيا الشاسعة الاطراف . وقد غشيت الكراهية على العيون . وكل ما كانوا ينتظرونه كان يظهر فورا في صورة بهارج السراب الخيالي .

وهكذا بدا هلاك البلاشفة الوشيك امرا غير مشكوك فيه .

فقد تبين ان قوات المتدخلين قد دخلت من الجهات الاربع لمساعدة الجيوش البيضاء ، وان مائة مليون فلاح روسي كانوا مستعدين ليدخلوا للجمعية التاسيسية ، وان عنق الامبراطورية الموحدة غير القابلة للتجزئة لا تنتظر غير الاشارة لتفرق السوفييتات ، وتعيد ، في اليوم التالي ، النظام والشرعية البرلمانية .

وكان الجميع يخدعون انفسهم ويتعلقون بالخيالات ابتداء من سيدات بطرسبورغ الهاربات الى الجنوب ومعهن تبديلة واحدة من الثياب الداخلية الى البروفيسور ميليوكوف الحكيم بالابتسامة المتعالية ينتظر نهاية الاحداث التي انتظمها بنفسه في رؤية تاريخية .

كان ما يسمى «بالاتحاد الدفاع عن الوطن والحرية» واحدا من المراهنين في الخيالات المطمئنة . وكان قد تأسس في بداية ربيع عام ١٩١٨ من قبل بوريس سافينكوف بعد انتحار الاتمان كاليدين المعنوي ، وخروج جيش كورنيلوف من روستوف . وكان الاتحاد بمثابة منظمة سرية لجيش المتطوعين .

وكان يرأسه سافينكوف المراوغ المتخفي الذي كان يجوب موسكو بشواربه المصبوغين ، ويرتدي السترة الانجليزية ، وقماشا اصفر ومعطفا بلون كاكي . وكان الاتحاد منظما على الطريقة العسكرية : هيئة اركان ، وفرق . والوية والدواج واستطلاع وكافة الخدمات . وكان العقيد بيرخوروف يدير مؤسسات هيئة الاركان .

كان تعبئة الى عضوية الاتحاد يجري في سرية شديدة ، والشخص الواحد لم يكن يستطيع ان يعرف غير اربعة اشخاص ، لذا يمكن في حالة الانكشاف غير اعتقال خمسة اشخاص ، ولا تكشف خيوط اكثر . وبقي عنوان المقر واسماء الزعماء سرية للجميع . وكان رئيس الفوج او الوحدة يذهب الى بيوت الراغبين في الانضمام الى الاتحاد ، ويستلم ويقدم النقود كعربون ، ويسجل في بطاقته اسمه وعنوانه بالشفرة . وكانت هذه البطاقات الحاوية على دوائر تحدد عدد الاعضاء وعلى عناوين ترسل اسبوعيا الى هيئة الاركان . وكان استعراض القوات يجري في البولفارات بالقرب من الحصن التذكارية ، وبالاضافة الى ذلك كان على اعضاء المنظمة ان يرتدوا معاطف عسكرية مزررة بطريقة خاصة او يشدوا شريطا في

موضع معين من المصنف . وكان الذين ينفذون الاتصال يبرزون بمثلث مقصوص من بطاقة زيارة عليه حرفان يعني الاول منهما كلمة السر ، والثاني المدينة . وعند اظهار المثلث يوضع على البطاقة التي قطع منها . وكانت لدى الاتحاد قوات كبيرة من الاستخبارات . وفي المؤتمر السري الذي عقد في نيسان تقرر وقف اعمال التخريب ، والتحول الى العمل في المؤسسات السوفييتية ، وبهذه الصورة نفذ اعضاء الاتحاد الى وسط جهاز الدولة . وانتظم قسم منهم في ميليشيا موسكو ، ودُسَّ في الكرملين ممثل لهم . كما تسللوا الى الرقابة العسكرية ، بل وحتى الى المجلس العسكري الاعلى . وكما يبدو شملت شبكاتهم الكرملين بقوة .

وفي ذلك الوقت كان استيلاء القوات الالمانيـــة بقيادة الفيلد.مارشال ايخهورن يبدو امرا محتوما . وبالرغم من ان الشعور الموالي للالمان كان قويا بين اعضـــاء الاتحاد – الوثوق فقط في الحراب الالمانية – فان الميل العام كان نحو الحلفاء . بل وان هيئة اركان للاتحاد حددت اليوم الذي سيهجم فيه الالمان على موسكو ، وهو الخامس عشر من حزيران . ولهذا السبب تقـــرر التخلي عن الاستيلاء على الكرملين وموسكو . والخروج بقوات الاتحـــاد الى قازان ، ونسف جميع الجسور ، ومشغلات الخزانات الماليـــة في ضواحي موسكو ، واثارة الانتفاضات في قازان ونيجني ، وكوستروما وريبينسك وموروم . والتوحد مع التشيكيين ، وتشكيل الجبهة الشرقية بالاعتماد على الاورال ومناطق ما وراء الفولغا الغنية .

صدقت داشا بكل ما قاله كوليتشيك : الوطنيون الروس ، او كما سماهم بفرسان الروح كانوا يحاربون في سبيل القضاء على المضاربات الفنلنديات الوقحات اللواتي يتاجرن بالبطاطس ، واضاءة شوارع بطرسبورغ اضاءة باهرة يسير فيهـا جمهور مبتهج انيق ، في سبيل ان يستطيع المرء في اية لحظة جزع ان يرتدي قبعـــة بريشة ، ويسافر الى باريس . . . ولكي يقضى على النطاطين قرب الحديقة «ليتني» ، ولا تعود الريح الخريفية تصفر على قبر ابن داشا .

لقد وعدها كوليتشيك بكل ذلك في حديثه وهو يحتسي الشاي . كان جائعا كالكلب اتى على نصف المؤونة من المعلبات ،

بل وآلاف الطفيليين مع الصبح . وعند هبوط الظلام اختفى دون ان يتحدث بعد ان اخذ مفتاح الباب .

ومضت داشا لتنـــام . اسدلت الستارة على النافـــذة ، واستلقت . وكما يحدث في ساعات الارق المرهقة تدفقت الافكار والصور والذكريات والحدوس المفاجئة ، والندامات الحارة متزاحمة يسابق بعضها بعضا . . . تقلبت داشا ، وحشرت يديها تحـــت ابطيها . واضطجعت على ظهرها ، وعلى بطنها . . . لفتهـــــا البطانية وانغرزت لوالب الاريكة في جنبيها ، ووقعت الاغطية على الارض . . .

كانت ليلة مزعجة طويلة كالعمر . انتعشت البقعة الداكنة في قلب داشا من جديد . وارسلت جذيراتها السامة في التلافيف القلبية . ولكن لِمَ كل هذه الندامات والشعور بالخطأ الفظيع ، [illegible] ! ليتها تلوم !

وبعد ذلك ، حين ازورقت الستارة على النافذة تعبت داشا من الدوران في دوامة الافكار الخيالية . وصحت . وبعد ان عادت اخذت تعاتب نفسها بصراحة ونزاهة من البداية حتى النهايـــــة . وضحكت على كل شيء في نفسها .

جلست على الفراش . وجمعت شعرها في عقصة . وبسطت ، والفت ذراعيها العاريتين النحيلتين على ركبتيهـــــا . وانشـــات تفكر . . امرأة وحيدة حالمة باردة لم تحب احدا . فلتذهبي الى الجحيم يا داشا . انت لا تثيرين شفقة . . . حسنا فعل النطاطون حين اطلقوا عليه عند الحديقة «ليتني» . لم يخيفوك الا قليلا . كان من الافضل ان يخيفوا اكثر . . . الآن اختفى . . . الآن طيري مـــع الريح ، يا روحي ، الى حيث يأمرون . وافعلي ما يطلبون منك . . . لا ارادة لك . انت واحدة من ملايين عديدة . . . قابلة سكينة والى القتال ! . .

لم يعد كوليتشيك يومين وليلتين . وكان قد جاء في غيابه عدة اشخاص جميعهم ضخام في ستر مهترئة كانـــوا يتحدثون على عتبة المطبخ ، ويقولون كلمة السر . وكانت داشا تدعهم يدخلون .

وبعد ان يعرفوا ان «ايفان سفيتشيف» غير موجود فى البيت كانوا لا يخرجون راسا . كان بعضهم يشرع فجأة فى الحديث عن مصائبه العائليـــة ، والبعض الآخر يطلب الاذن بـــان يدخن سيكارة ، ويخرج بحذر ولعومة تبغا سوفييتيا كريه الرائحة من علبة سكائر عليها رموز ويلعن بلعض «نواب السرطانات والكلاب» وهو يشدد على «الراء» فى الكلمات . وبنقلت ثالث فى صراحة فيقول ان زوروله البخارى مهيا فى جزيرة كريستوفسكى ، عند قصر بيلوسيلسكي- بيلوزيرسكـــى ، وقد استطـــاع ان ينتزع اشيـــاء ثمينـــة من الخزنة ، الا ان اطفاله يعانون السعـــــال الديكى . . . من سوء الحظ ! . .

والظاهر ان الجميع كانوا يميلون الى التحدث مع هذه المرأة الشابة الرقيقة النحيلة ذات العينين الواسعتين . وكانوا يقبلون يديها حين ينصرفون . وكان الشىء الوحيد الذى يدهش داشا هو سذاجة هؤلاء المتآمرين ، وكأنما هم ابطال مسرحية كوميديـــــة سخيفة . . . وكانوا جميعا تقريبا يستفسرون بعبارات حذرة : الم يجلب «ايفان سفيتشيف» المال ؟ وفى آخر الامر اضحوا واثقين كل الثقة من ان «حكاية البلاشفة الحمقاء» ستنتهى قريبــــــا جدا ، فسيحتـــل الالمان بتروغراد ، والأمـــــر لا يحتاج الى جهود» .

وجاء كوليتشيـف اخيرا ، جاء جائعـا مرة اخرى قذرا شديد الاستغراق فى افكاره . وسأل عمن جاء فى غيابه . فاطلعته داشا على ذلك بالتفصيل . فكشر عن اسنانه :

— السفلة ! جاءوا يطلبون الفلوس . . . ويسمون القسم حرسا ! يتكاسلون عن رفع عجيزاتهم الارستقراطية عن الكرسى ، ويرغبون فى ان يأتى الالمان ليحرروهـــم قائلين لهم : تفضلوا ، يا سادة ، ها نحن قد شنقنا البلاشفة ، وكل شىء على ما يرام . . . شىء فاضح ، فاضح . . . من بين مائتى الف ضابط لـم يبق من ابطـال الروح غير ثلاثة آلاف عند دروزدوفسكى ، وحوالى ثمانية آلاف عند دنيكين ، وخمسة آلاف عندنا فى «اتحاد الدفاع عن الوطن» . هذا كل شىء . . . فاين الآخرون ؟ باعوا ارواحهـــم وضمائرهم للجيش

الأحمر . . . وبعضهم يصنع صبغ الاحذية ، ويتاجر بالسكائر . . . وجميع ضباط هيئة الاركان تقريبا لدى البلاشفة . . . يا للعار ! . .

وأكل الطحين مع الملح ، وشرب ماء مغليا ، وذهب لينام ، وفى الصباح الباكر ايقظ داشا . لبست داشا ملابسها على عجل ، وخرجت الى غرفة الطعام فوجدته يتخطى سريعا بالقرب من المائدة متجهم الاسارير . صاح على داشا نافد الصبر :

— مثلا انت ؟ ايمكنك ان تجازفى وتضحى بالشىء الكثير ، وتقاسى آلاف المصاعب ؟ . .

— نعم ، — قالت داشا .

— الا لا اثق باحد هنا . . . وسلت الباء مقلقة . . . ويجب السفر الى موسكو ، فهل تسافرين ؟

رمشت داشا ، ورفعت حاجبيها فقط . . . فتقدم كوليتشيف نحوها بعجالة ، واجلسها الى المائدة ، وجلس قربها تماما وبمسها بركبته ، واخذ يشرح لها من يجب ان تقابل فى موسكو ، والكلمات التى تنقلها اليه عن منظمة بتروغراد . وغرز الكلمات فى ذاكرة داشا متحدثا بضراوة بطيئة . وجعلها تكرر . فاعادت الكلمـــــات طائعة .

نهض واقفا وفرك يديه بقوة قائلا :

— عظيم ! ذكيـة ! نحن بحاجـة الى امثالك بالذات . والآن ماذا عن شقتك ؟ قولى للجنة المساكن انك مسافرة الى لوغا لمدة اسبوع . وسأبقى هنـــا بضعة ايام اخرى ، ثم اعطى المفتاح الى الرئيس . . . حسنا ؟

ودار رأس داشا من كل هذه العجلة ، واحست مدهوشـة بانها مستعدة دون اعتراض الى ان تسافر الى حيث يشاء ، وتفعل ما يأمر به . . . وعندما ذكر كوليتشيف الشملة التفتت داشا الى الصوان من غضب القلب وهى تفكر : «صوان كريه موحش كالتابوت . . .» وتذكرت الخطاطيف التى اخرجتها ذات مرة بالفضاء الازرق ، وتصورت ان السعادة قد طارت من هذا القفص المترب الى حياة وحشية طليقة . . . قالت :

— الشقة ؟ ربما لا اعود اليها . فافعل ما يحلو لك .

كان من بين الذين جاءوا في غياب كوليتشيك شخص طويل القامة طويل الوجه متدلي الشاربين مؤدب اجلس داشا في عربة للدرجة الثالثة تهشم زجاج جميع نوافذها . انحنى عليها ، واسر اليها في اذنها بصوت عميق : «عندمانك لن تنسي» واختفى في الزحام . وقبيل تحرك القطار مر به اناس يتراكضون وتسللوا من النوافذ وصرروهم في امتالهم . وازدحمت العربة كلها . وركب الناس في الاماكن المخصصة للحقائب . وانسلوا تحت التخوت . وهناك انشلوا اعواد نقاب . ودخنوا الماخوركا بتلذذ تام .

سار القطار ببطء قرب المستنقعات الضبابية ومداخن المصانع المنطفئة ، والبرك المغطاة بالصوفة ، وتراءى من بعيد مرتفع بولكوفو في ضوء الشمس حيث كان الفلكيون المنسيون من العالم كله وغلازيتاب نفسه بسنه السبعين يتابعون تعداد النجوم في الكون . ومرت شجيرات الصنوبر الغضة والاشجار الكبيرة والبيوت الريفية . وفي المحطات لم يسمحوا لاحد بركوب العربة ووضعت الحراسة المسلحة . وحلت الطمانينة في العربة الآن رغم صخبها .

كانت داشا تجلس محصورة بين جنديين من جنود الجبهة . ومن التخت الاعلى دلى احدهم راسه مرحا وظل مشتبكا بحديث لا يكاد ينقطع .

— ثم ماذا ؟ — سالوا من التخت وهم يغصون بالضحك — وكيف انتم ؟

كان فلاح اعور نحيل متدلي الشاربين غير حليق الوجه ذو قبعة من القش يجلس مقابل داشا بين امراتين صامتتين غارقتين في التفكير . كان القميص الذي يرتديه من خيش الزكائب ، مشدودا حول عنقه بشريط . وقد تدلى من حزامه مشط وقطعة من قلم حبر النسخ . وتحت صدر قميصه اوراق .

لم تعر داشا انتباها الى الحديث في بادىء الامر . ولكن حديث الاعور كان يبدو جذابا جدا . وبالتدريج استدارت الرؤوس نحوه من جميع التخوت ، وعدات الضجة في العربة اكثر من ذي قبل . وقال الجندي ذو البندقية بثقة :

— لقد فهمتكم . بكلمة واحدة انتم من الانصار ، من جماعة ماخنو .

صمت الاعور قليلا مبتسما في شاربيه بخبث :

— اراكم قد سمعتم بالاخبار ، ولكن ليس بالشكل الصحيح . ووضع يده المعروقة تحت شاربيه منحرفة ، وكانه ليزيل ابتسامته ، وقال في شيء من المهابة :

— عند ماخنو تنظيم كولاكي . وهو يعمل في منطقة يكاترينوسلافل لا احد يملك هناك اقل من مائة فدان . اما نحن فشيء آخر . نحن انصار حمر . . .

سال ذو الوجه المرح :

— وماذا تفعلون ؟

— منطقة عملياتنا محافظة تشيرنيغوف . والقضية ليست انفصالية . مفهوم ؟ ونحن شيوعيون . نحن لا نفرق بين الالمان وملاك الارض البولوني ، وغايداماك الهيتمان ، والكولاك من قريتنا . . . يعني لا يجوز ان تخلطنا مع جماعة ماخنو . مفهوم ؟

— نعم ، فهمنا ، ولسنا اغبياء . فاكمل حديثك .

— تكملة الحديث ان عزائمنا قد خارت بعد القتال مع الالمان . وتراجعنا في غابات كوشيليف . وتوغلنا الى احراش لا يعيش فيها غير الذئاب . واسترحنا قليلا ، واخذ الناس من القرى المجاورة يفدون الينا . وقالوا ان الحياة صارت متعذرة عليهم وان الالمان اخذوا يطهرون المنطقة من الانصار بشكل جدي . وساعدهم الغايداماك الالمان في ذلك ، فما يمر يوم دون ان يهجموا على قرية ، ويقتلوا كلا من يشير اليه الكولاك . وقد استبد الضيق برجالنا من هذه الحكايات حتى ضاقت انفاسهم . وفي ذلك الوقت جاءت فصيلة اخرى ، واجتمع في الغابة جيش كامل ، حوالى ثلثمائة وخمسين رجلا . وانتخبوا رئيسا للجماعة وهو الملازم الثاني غرلتا احد الانصار من فيركييف . واخذنا نفكر في الاتجاه الذي ستكون فيه عملياتنا المقبلة ، وقررنا ان نراقب نهر ديسنا . وكانت الذخيرة الحربية الى الالمان تمر عبر هذا النهر . وذهبنا ، واخترنا مكانا تضطر فيه السفن الى الاقتراب من الشاطىء تماما . وكمنا هناك . . .

وسال شخص من فوق :

— عظيم ، وماذا بعد ؟

– هكذا . تتقدم السفينة فيصيح صوت فى الصف الامامى منا : «قف !» . ولم يطع القبطان امرنا فاطلقنا القذيفة . وبالطبع ترسو السفينة على الشاطىء . فنصعد على متنها فى الحال ، ونضع الحرس ، ونقوم بتفتيش الهويات .

قال الجندى :

– حسب الاصول .

– والسفينة محملة بالسروج والعتاد . ينقلها ضابطان برتبة عقيد ، احدهما رجل كهل ، والثانى شاب ذو فتوة . وبالاضافة الى ذلك توجد ادوية . وهذا ما نحتاج اليه . وتفت على ظهر السفينة احقق فى الهويات . لماذا بشيوعيين يتقدمان الىّ عما بيتر وايفان بتروفسكى من مقاطعة بوروزياسك . وعلمت فى الحال انه يجب الا اظهر الهنا من معارك . وعاملتهما بشكل رسمى وبجدية ، «هوبالكاد» . قدم بتروفسكى هويته لى ومعها مذكرة على ورقة سكائر جاء فيها : «الرفيق بيافكا ، انا القادر مع اخى تشيرتيفوف ، وسنسافر الى روسيا . فارجو ان تكون بلا رافة معنا حتى لا نثير انتباه المحيطين بنا ، لأن حولنا جواسيس . . . » حسنا . . . بعد ان دققنا فى الهويات ارهقنا العتاد والسروج والادوية ، وخمسة عشر صندوقا من الشنة لتقوية جرحانا . ويجب ان اقول الانصاف فى حق طبيب السفينة . فقد تصرف ببطولة . صاح : «لا استطيع ان اتخلى عن الادوية فان ذلك مخالف لجميع القوانين ، والعرف الدولى ايضا» . وقد اجبناه باختصار : «نحن ايضا عندنا مرضى . ومعنى ذلك ان العرف الانسانى لا الدولى يقتضى اعطاء الادوية ! . . .» واعتقلنا عشرة ضباط ، وانزلناهم الى الشاطىء ، وتركنا السفينة تمر . وعلى الشاطىء اخذ العقيد العجوز يبكى ويتوسل الا نقتله ، ويعدد خدماته العسكرية . وفكرنا : «لماذا نمسه ، انه سيموت بنفسه قريبا» . واطلقنا سراحه تحت تأثير الشهامة . اما هو فركض الى الغابة . . .

اوسل الذى كان يدلى براسه من التخت قهقهة فرح . واستمر الاعور فى حديثه حين انتهت نوبة الضحك :

– والشخص الآخر ، وهو موظف لدى هيئة عسكرية ، ترك فى انفسنا انطباعا حسنا . فقد اجاب على جميع الاسئلة بحماس ، وتصرف ببساطة ، فاطلقنا سراحه ايضا . . . اما الآخرون فاخذناهم

الى الغابة . . . وهنا رميناهم بالرصاص لأن احدا لم يرد ان يقول شيئا . . .

نظرت واشا الى الاعور مكتومة الانفاس . كان وجهه هادئا منخفضا عن حزن . كانت عينه الوحيدة الرمادية التى شهدت احداثا بمثلها الصغيرة تراقب بتفكير اشجار الصنوبر المارة من خلف النافذة . واستمر الاعور فى حديثه بعد وقت وجيز :

– لم نمكث طويلا على ديسنا . فقد التف حولنا الالمان ، فتراجعنا الى غابات دوروزدوف . ووزعنا الغنائم على الفلاحين ، حقا ان كل واحد منا شرب قدحا من النبيذ ، ولكننا اعطينا الباقى الى المستشفى . فى ذلك الوقت كان كرابيلياسكى يعمل اى يساوننا ومعه فصيلة كبيرة ، وكان الى يميننا ماروتيا ، وكانت مهمتنا المشتركة شق طريقنا الى تشيرنيغوف ، واحتلالها بهجوم . وربما ليت كان لنا اتصال جيد بين الفصائل . . . ولكن لم يكن ثمة اتصال حقيقى . فتاخرنا . وكان الالمان فى كل يوم يرسلون القوات والمدفعية والخيالة ضدنا . فقد كان وجودنا يزعجهم كثيرا . كانوا ما ان يغادروا قرية حتى تشكل فى القرية لجنة ثورية . ويعلق واحد او اثنان من الكولاك على جذع شجرة . . . وذات مرة ارسلونى الى فصيلة ماروتيا لجلب الورق . فقد كنا بحاجة ماسة اليها . . . كنا ندفع للسكان نقودا على المواد الغذائية . وكان النهب ممنوعا عندنا ومعرضا للموت . وكنت مريضا . وذهبت الى غابات كوسيليف . وهناك تحدثت مع ماروتيا عن شؤوننا ، وحصلت منه على الف روبل من عملة كيرينسكى ، وعدت راجعا . . . وبالقرب من قرية جوكوفكا . وما كدت انزل الى الوادى حتى هاجمنى اثنان من الخيالة . من دوريات اللجنة الثورية فى جوكوفكا . «الى اين ذاهب والالمان هنا ! . . .» – «اين ؟» – «انهم يقتربون من جوكوفكا» . فاتجهت . . . وخبات الفرس فى حرش ، ونزلت من العربة . واخذنا نتناقش ماذا نفعل ؟ لا مجال ابدا لمقاومة جماهيرية ضد الالمان ، فقد كانوا يزحفون بطابور كامل ومعهم مدفعية . . .

قال الجندى :

– ثلاثة مقابل طابور امر صعب .

– امر صعب تماما . فقررنا ان نخيف الالمان فقط . وزحفنا فى

حقل الجودار . ولرى امامنا جوكوفكا ، ومن غابة صغيرة يخرج طابور من مائتى شخص تقريبا ، ومدفعان وصف عربات ، وعلى مسافة اقرب الينا دورية من الخيالة . والظاهر ان شهرة الانصار جعلت مدبريها حتى الهسم ارسلوا ضدنا حتى المدفعية . استلقينا فى حدائق الخضروات . وكانت معنويتنا عالية . تضحك مقدما ، وتصير الدورية على بعد خمسين خطوة منا . واصدر امرى : «كتيبة ، ارمى !!» وطلقة وراءها اخرى . . . وانكفأ حصان . ووقع الالمانى فى القرامى . وانا صائح : النار ! وقفلنا بالترابيس ، وضججنا وهدرنا . . .

تقلبت عينا الرجل المطل براسه من التخت العلوى ، ووضع فمه بيده منعا لانطلاق ضحكة او انفلات كلمة تعليق . وضحك الجندى راضيا .

— عادت الدورية خببا الى الطابور ، واستدار الالمان . ودفعوا صفوفهم ، وانتقلوا الى الهجوم حسب الاصول . وفصلوا المدافع من عرباتها ، وانطلقت القنابل من عيار ثلاث بوصات على حدائق الخضروات . بينما كانت النساء يقلعن البطاطس منها . . . وتطايرت الارض وارسلت ترابها الى فوق . . . وتساؤلنا (ووضع الاعور قبعته على اذنه بظفره ، ولم يستطع ان يكتم ضحكة ، وقهقه الرجل من فوق التخت .) وتساؤلنا تفرقن من الحدائق مثل دجاجات مروعة . . . بينما تقدم الالمان من القرية بخطوات مدربة . . . وهنا قلت : «يا اولاد مزحنا ، والآن لنتراجع» . وزحفنا ثانية خلال الجودار الى منخفض وصعدت انا الى العربة واتجهت الى غابة دروزدوف دون مغامرات . وقد روى اهالى جوكوفكا فيما بعد ان الالمان تقدموا من حدائق الخضروات ، الى اسيجتها تماما ، وهم يهتفون «هورا!» . . . ولكن لم يجدوا احدا وراء الاسيجة . والذين راوا هذا المنظر انفجروا ضاحكين . . . احتل الالمان جوكوفكا ، ولم يجدوا احدا من اللجنة الثورية ولا من الانصار ، واعلنوا حالة الطوارئ فى القرية . وبعد يومين او ثلاثة جاءتنا اخبار الى غابة دروزدوف تقول ان قافلة المانية كبيرة دخلت جوكوفكا تحمل عتادا وخراطيش ، وكان العتاد والخراطيش اثمن شيء لنا . . . واخذنا نناقش ونقلب الامر ، واشتدت شهية الاولاد فقررنا الهجوم على جوكوفكا والاستيلاء على الخراطيش ، واجتمع حوالى مائة منا . وارسل

الاخرون منهم الى الطريق العام ليمنعوا الالمان من التراجع الى تيم نيغوف فى حالة نجاحنا ، وسار الآخرون طابورا نحو جوكوفكا . وعند هبوط الظلام زحفنا ، واستلقينا فى حقل الجودار قرب القرية . وارسلنا سبعة اشخاص فى استطلاع ليطلعوا على كل المواقع ويبلغونا ، وفى الليل نقوم بهجوم مباغت . استلقينا دون اية ضجة ومنعت التدخين . ونزل المطر رذاذا ، وغالبنا النعاس ، وكانت الارض وطئة . . . وظللنا ننتظر ، حتى بدا الظلام ينقشع ، وما من حركة . فما السبب ؟ ولعد النساء يبدان باخراج الماشية للرعى فى الحقل . ويأتى اصحابنا السبعة المستطلعون عائدين بادراجهم . . . واتضح ان هؤلاء الملاعين عندما وصلوا الى الطاحونة استلقوا ليستريحوا لفترة ، وناموا الليل كله ، حتى وصلت النساء اليهم مع الماشية . ولا مجال للهجوم بعد الآن ، بالطبع . . . ولقد تكدرنا عظيم التكدر حتى ضاقت بنا الارض . وكان يجب تشكيل محكمة وانزال العقاب بالمستطلعين . وقررنا بالاجماع رميهم بالرصاص . الا انهم اخذوا يبكون ، ويطلبون الرحمة ، واعترفوا بذنبهم كليا . كانوا فتيانا احرارا قد ارتكبوا خطأ لاول مرة . . . وقررنا ان نعفوهم ، ولكن اشترطنا على ان يكفروا عن ذنبهم فى المعركة الاولى .

قال الجندى :

— يحق العفو فى بعض الاحيان .

— نعم . . . واخذنا نتداول . اذا كنا لم نستول على جوكوفكا ليلا فسنستولى عليها نهارا . العملية جديدة ، وفهم الاولاد الامر الذى يجرى عليه . وتناثرنا جماعات صغيرة ، واتفقنا ان تلتقى الى الساحات . لم نزحف ، بل ركضنا على الادريج . . .

وصدر من الاعلى صوت ضاحك .

— وبدلا من ان نلتقى بالالمان التقينا بنساء يحملن سلالا ، كن خارجات لجمع الاعناب البرية . وكان اليوم يوم احد . وضحكن منا ضحكا عاليا ، قائلات : تأخرتم ، القافلة الالمانية خرجت منذ حوالى ساعتين فى طريق كوليكوفو . وهنا قررنا بالاجماع ملاحقة الالمان . ولو قتلنا فى المعركة جميعا . واخذنا معنا ارغفتها لنقوم بملء الصناديق ، واعطتنا النسوة فطائر وكعكا . وخرجنا وسار وراءنا جمع غفير من الناس ، جيش كامل ، اكثرهم بدافع الفضول . وهذا

ما فعلناه : وزعنا الخوازيق على الفلاحين والنساء واصطففنا في صفين ، وجعلنا بين كل شخص وآخر زهاء عشرين خطوة بحيث يكون بين كل مسلح شخص يحمل خازوقا او عصا لمجرد التخويف . وامتددنا الى حوالى خمسة فراسخ . وقد اخترت انا ١٥ محاربا من بينهم مستطلعينا الخائبين اولئك ، واخذت ضابطين من الذين جندناهما ، وهما من المعادين للثورة بشكل واضح ، ولكننا قلنا لهما : اذا برزتما ثقتنا سننقذ حياتكما . وركضنا ، بجماعتنا هذه ، امام القافلة الالمانية على الطريق العام . . . ونشبت معركة ، يا اخواننا ، دامت اكثر من يوم ويومين . . . (وهز ذراعه وكأنه لا يريد ان يكمل الحديث) .

سأل الجندى :

– وكيف كان ذلك ؟

– هكذا . . . انا والجماعة تركنا الطابور يمر ، وهجمنا على المؤخرة ، على طابور العربات . واستولينا على عشرين عربة من العتاد تقريبا . ملأنا الحقائب بالخراطيش ووزعنا البنادق على الفلاحين ، قدر ما تمكنا ، وتابعنا الهجوم على الطابور . ظننا اننا قد احطنا به فاذا بالالمان قد احاطوا بنا ، فقد زحفت الى ذلك المكان جميع اصناف السلاح على ثلاثة طرق . . . تجزأنا الى جماعات صغيرة ، ولزنا الى الاخاديد . ومن حسن حظنا ان الالمان قد انهوا العملية وفق كافة اصول المعركة الكبيرة ، والا لما خرج منا واحد حيا . . . لم يبق احياء من الانصار نحو عشرة اشخاص ، على ما اظن . حاربنا الى آخر طلقة . وبعد ذلك قررنا ان البقاء هنا مستحيل ، ويجب التسلل الى ما وراء دبسنا ، الى منطقة محايدة ، في روسيا . اخفيت البندقية ، وتظاهرت بانني اسير حرب ، وتوجهت الى نوفغورودسيفيرسكى . . .

– وانت الآن ، الى اين ذاهب ؟

– الى موسكو طلبا للتوجيهات .

وتحدث بيافكا بقصص اخرى عن حركة الانصار وعن حياة الريف . «نخرج من مصيبة ، وندخل في اخرى . تلك هي حياتنا ، دفعوا الفلاح الى ان يحيا حياة الذئاب ، ولم يبق امامه الا ان يقتل» .

وكان هو من تيجين ، وكان يعمل في مصانع بنجر السكر ، وقد فقد عينه في عهد كيرينسكي اثناء هجوم حزيران التعيس . وقد عبر عن ذلك قائلا : «كيرينسكي هو الذي فقأ عيني» . وفي خنادق الجبهة تعرف على الشيوعيين ، وكان عضوا في سوفييت تيجين ، وعضوا في اللجنة الثورية ، وعمل سريا في تنظيم حركة المقاومة .

ولقد اثرت قصته في داشا تأثيرا قويا . لقد كانت فيها صدق ، ولقد فهم ذلك ايضا جميع المسافرين الذين كانت عيونهم تتطلع الى فم المتحدث .

كانت بقية النهار والليل بطوله متعبين . كانت داشا تجلس طاوية ساقيها مغمضة عينيها تفكر الى حد وجع الراس ، الى حد التفرط . كانت هناك حقيقتان : حقيقة هذا الرجل الذى فقد عينه وعيني الجنديين من الجبهة ، وحاتين الصرالين الساخرين ووجهيهما البيضاوين المتعبين ، والحقيقة الاخرى هي الحقيقة التى يأتى بها كوليتشيك . ولكن لا وجود لحقيقتين . فلا بد ان واحدة منهما خاطئة ، مفزعة ، مهلكة . . .

وصل القطار الى موسكو في منتصف النهار ، ونقل حوذى عربة عجوز داشا بخبب نحو سريع عبر شارع مياسنيتسكايا القذر المقشور الجدران ، حيث كان الوحل يلطخ واجهات المخازن الفارغة . وادهش داشا فراغ المدينة ، فقد كانت تتذكرها ايام كانت آلاف الناس تسير ملوحة بالاعلام منشدة الاغانى في الشوارع الجليدية ، متبادلة التهانى بالثورة التى لم يرق فيها دم .

في ساحة اوبيانسكايا كانت الريح تدوم غبارا . سار جنديان بمعطفين عسكريين بلا حزام ، وبالتاعما مطربان . ونظر الى داشا شخص واهن طويل في سترة مخملية ، وصرخ بشيء لها ، بل وركض وراء العربة ، الا ان الغبار غشى على عينيه ، فتأخر . كان فندق «متروبول» مثلما بقذائف المدافع ، وكان الغبار يدوم هنا في الساحة ، وكان غريبا ان يرى المرء في الساحة القذرة حوضا من الورود الزاهية ، لا يعرف من غرسها ولم .

وكان شارع تفرسكايا اكثر حيوية . كانت الحوانيت مفتوحة هنا وهناك ، ومقابل سوفييتات المدينة ، وفي مكان نصب الجنرال سكوبيليف نهض مكعب خشبي هائل مكسو بقماش احمر وبدا هذا لداشا مرعبا . اشار الحوذي العجوز اليه بسوطه :

— رفعوا البطل من مكانه . انا اسوق منذ زمان في موسكو ، فأراه واقفا في مكانه . ولم يرق للحكومة الحاضرة . كيف سنعيش ؟ لا يبقى امامنا غير نسطلقي ونموت . يود التبن بسالق روبل . السادة تفرقوا ، ولم يبق الا الرفاق ، وهؤلاء يمشون على ارجلهم في الغالب . . . اوه ، دولة ! . . — وجذب العنان . — يا ليت ان يكون لنا ملك . اي ملك . . .

قبل ان تصل داشا الى ساحة ستراستنايا رأت يسارا تحت لافتة مقهى بومم وراء واجهتين صقيلتين شبانا عاطلين وشابات مسترخيات على الارائك ، وكان الجميع يدخنون ويشربون نوعا من المشروب . وعلى الباب المفتوح على الشارع وقف رجل حليق طويل الشعر اشعثه يدخن غليونا وقد اتكأ بكتفه . وبدا وكأنه قد اندهش من مرأى داشا ، فاخرج غليونه من فمه . ولكن داشا عبرته وظهر برج كاتدرائية ستراستنوي الوردي ، وتمثال بوشكين . رأت داشا الخرقة الناصلة اللون التي كانت قد علقت اثناء الاجتماعات العاصفة الصاخبة ما تزال متدلية من تحت مرفقه . وكان اطفال لحاف يتراكضون على قاعدته الغرانيتية . وعلى مصطبة جلست سيدة تضع نظارة انفية وتعتمر بقبعة تشبه تماما القبعة التي وضعها بوشكين وراء ظهره .

مرت سحائب مزبلة فوق بولفار تفرسكوي . وظهرت سيارة لوري محملة بالجنود . وقال الحوذي وهو يومئ اليها :

— جاءوا لينهبوا . اتعرفين فاسيلي فاسيليفيتش اوفسيانيكوف ؟ اول مليونير في موسكو . بالامس جاءوا اليه في سيارات لوري مثل هذه ، واخذوا كل ما في منزله . فاكتفى فاسيلي فاسيليفيتش بهز رأسه ، وخرج الى حيث لا يدري احد . يقول الشيوخ ان الناس نسوا الرب . . .

ظهرت في آخر البولفار خرائب منزل غاغارين . وفي اعلى الجدار وقف رجل وحيد في صدار يقلع الآجر بمعول ويقذفه الى الاسفل . وأن

يسار هيكل بيت محروق ينظر الى السماء الشاحبة بنوافذها الفارغة . وجميع البيوت المجاورة مثقبة بالرصاص كالغربال . قبل عام ونصف كانت داشا وكاتيا تسيران على هذا الرصيف وقد وضعتا على رأسيهما منديلين وبريين . وكان الجليد الرقيق يخشخش تحت اقدامهما ، والنجوم منعكسة على البرك المتجمدة . كانت الشقيقتان منطلقتين الى نادي المحامين للاستماع الى محاضرة استثنائية حول الاشاعات عن الثورة التي زعم انها بدأت في بطرسبورغ . وكان هواء الربيع يبعث النشوة كالسعادة . . .

هزت داشا رأسها تطرد الذكريات عنه ، وقالت لنفسها : «لا اريد . . . هذا ولى . . .»

خرجت العربة الى شارع اربات ، واستدارت يسارا الى شارع جالبي . وكان قلب داشا يدق بشدة حتى انها شعرت ان الدنيا اسودت في عينيها . . . وظهر بيت ابيض من طابقين ينتهي بعلية في هذا البيت كانت داشا قد عاشت مع كاتيا والفقيد نيقولاي ايفانوفيتش في عام ١٩١٥ . والى هذا البيت جاء تليغين بعد هربه من الاسر الالماني . وفيه التقت كاتيا بروشين وقد خرجت داشا من هذا الباب المقشر في يوم زفافها ، فاجلسها تليغين في عربة يجرها حصان رمادي وانطلقا في الضباب الربيعي بين الاضواء التي ما زالت ناضحة للقاء السعادة . . . كانت نوافذ العلية محطمة ، وتعرفت داشا على ورق الجدران في غرفتها السابقة . كان يتدلى مزقا . طار غراب من النافذة . سأل الحوذي :

— يمينا ام يسارا ؟

التجأت داشا الى الورقة تستطلعها . توقفت العربة عند بيت متعدد الطوابق . كان الباب الخارجي مسمرا بالالواح من الداخل ، وكان لا يجوز لداشا ان تسأل فبحثت طويلا في السلالم الخلفية عن الشقة رقم ١ — ١١٢ . كان وقع خطاها يجعل بعض الابواب تنفتح قليلا من سلاسلها . وظهر ان وراء كل باب كان يقف شخص يتنبه استكال على الخطر .

في الطابق الخامس طرقت داشا ثلاث طرقات وطرقة اخرى منفصلة ، حسب ما علموها . تردد وقع خطوات حذرة ، ونظر شخص من ثقب الباب الى داشا زافرا بانفاسه منه . وفتحت الباب

سيدة طويلة في منتصف العمر لها عينان جاحظتان مفزعتان زرقاوان زرقة ساطعة ، مدت داشا اليها المثلث الكارتوني صامتة . قالت السيدة :

— آه ، من بطرسبورغ . . . تفضلي بالدخول .

مرت داشا عبر مطبخ لم يستعمل منذ وقت بعيد على ما يبدو الى حجرات كبيرة مسدلة الستائر ، وفي شبه الظلمة لاحت معالم اثاث فاخر ، ولمع برونز ، الا ان هنا ايضا لا وجود لرائحة حياة ، دعت السيدة داشا الى الجلوس على اريكة ، بينما جلست هي الى جانبها متفحصة الضيفة بعينيها المرعبتين المشعتين ، قالت بصرامة وامرية :

— تحدثي .

جمعت داشا افكارها مجاهدة ، وبدات بنفس المجاهدة تنقل المعلومات المقلقة التي طلب كولينتشيف اليها ان تنقلها . شبكت السيدة يديهـــا الجميلتين المزينتين بالخواتم على ركبتيهـــا المضمومتين ، وطقطقت باصابعها ، وقاطعتها :

— يعني انكم لا تعرفون شيئا في بتروغـــراد ؟ — واهتز صوتها الخفيض في حنجرتها . — لا تعرفون انه في بيت العقيـــد سيدوروف جرى التفتيش الليلة البارحة . . . وعثروا على خطة الجلاء وبعض سجلات التجنيد . . . ولا تعرفون ان فيلينكين قد اعتقل اليوم عند الفجر . . .

ورفعت السيدة صدرها بحركة متشنجة ، ونهضت مـــن الاريكة ، وسحبت الستار المســدول على الباب ، والتفتت الى داشا :

— تعالي الى هنا : سيتحدثون اليك . . .

قال الرجل الواقف وظهره الى النافذة ، وفي صوته نبرة آمرة :

— كلمة السر .

مدت داشا اليه المثلث الكارتوني فقال :

— من الذي اعطـــاه لك ؟ (بدات داشـــا تشرح .) باختصار !

كان يمسح بيده اليسرى منديلا حريريا على فمه حاجبـــا به وجهه الاسمر او ربما المموه . وكانت عيناه غير واضحتي اللون والمزخرفتان بصفرة تتفرسان في داشا بنفاد صبر . قاطعهـــا عن بعد :

— اتعلمين انك في دخولك المنظمة تخاطرين بحياتك ؟

قالت داشا :

— انا وحيدة وحرة ، وانا لا اكاد اعرف شيئا عن المنظمة ، وقد عهد ليكاتورين يوريفيتش الي بمهمة . . . لا استطيع ان اظل مكتوفة اليدين ، اؤكد لك انني لا اخاف العمل ولا . . .

— انت ما زلت صغيرة .

قال ذلك بنفس الحدة ، ولكن داشا رفعت حاجبيها بتيقظ :

— عمري اربعة وعشرون عاما .

— هل انت سيدة ؟ (لم تجب .) في الظرف الراهن هذا مهم . (هزت راسها باثبات .) يمكنك الا تتحدثي عن نفسك . انا اعرف اوراقك كلها ، واثق بك . فهل يدهشك ذلك ؟

رفت عينا داشا ولم تقل شيئـــا . فان العبارات الحادة الواثقة ، والصوت الآمر ، والعينين الباردتين قد اوقفت بسرعـــة ارادتها الساذجة . واحست بنفس الارتياح الذي يحس به انسان وهو يجد طبيبا يجلس عند فراشه تلمع نظارتاه الحكيمتان : ها هو . هذا اليوم ستتصرف هكذا . . .

والآن راحت تتطلع بانتباه الى هذا الرجل الذي يضع منديلا على وجهه . كان ربع القامة يرتدي قبعة ناعمة ومعطفا بلون الكاكي مفصلا عليه تفصيلا جيدا ، وطماقين جلديين . وكان بلباســـه وحركاته الدقيقة يشبه اجنبيا ، وكان يتحدث بلهجة بطرسبورغية ، وصوت غير محدد واجش .

— اين نزلت ؟

— لم انزل في مكـــان ما . جئت من المحطـــة الى هنـــا راسا .

— لطيف جدا . الآن اذهبي الى مقهـــى "يوم" في شارع تشيرسكايا ، وتناولي طعامـــك هناك . وسياتي عليك شخص ستتعرفين عليه من دبوس رباطه على شكل جمجمة . وسيقول لك

كلمة السر : «يصحبك الله في الطريق الميمون» . عندئذ اريه هذا (وقطع المثلث الكارتوني واعطى نصفه لداشا .) اظهريه بحيث لا يراه احد . وسيعطيك تعليمات اخرى . اطيعيه طاعة مطلقة عندك فلوس ؟

واخرج من محفظة الجيب ورقتين من فئة الف روبل من عملة «الدوما» ، وقال :

– سيدفع حسابك . حاولي ان تحافظي على هذه النقود للطوارئ في حالة الانهيار المباغت ، وللرشوة ، والهرب . كل شيء يمكن ان يحصل لك . اذهبي ... انطلقي ... هل فهمتني جيدا ؟

– نعم .

اجابت داشا متلعثمة ، وهي تطوي الورقتين النقديتين على شكل مربع اصغر فاصغر .

– لا تذكري شيئا عن لقائي معك ، ولا اي شيء عن مجيئك الى هنا . انصرفي .

ذهبت داشا الى شارع تفيرسكايا . كانت جائعة تعبى ، ومرت امام عينيها اشجار بولفار تفيرسكوي والمارة القليلون المتجهمون . وكان كل ذلك تراه من خلال ضباب . وكانت ما تزال تشعر بالهدوء لكونها قد وضعت حدا لركودها المتقلب ، وجرفتها الاحداث غير المفهومة لها مثل دوامة عاصفة ، وحملتها الى حياة وحشية .

مرت بها امراتان في نعلين ليفين وكانهما طلاء على شاشة . والتفتتا الى داشا وقالت احداهما بخفوت :

– لا تستحي . لا تكاد تقف على رجليها .

وثم مرت امراة فارعة لها شعر وخطه الشيب يجمع في تسريحة تشبه عش غراب ، وقد احاطت بفمها غضون بالغة للغاية . وانطبعت حيرة كبيرة على وجهها الذي على ما يبدو كان جميلا في يوم ما . كانت تنورتها الطويلة السوداء مرقعة بقماش مختلف وكانه عن عمد ، وقد امسكت قصة من الكتب تحت شالها

التي كانت تجر طرفـــه على الارض . توجهت الى داشــا بصوت خفيض :

– عندي كتب روزانوف الممنوعة ، والاعمال الكاملـــة لفلاديمير سولوفيوف ...

وفي مكان ابعد وقف بضعة شيوخ يفعلون شيئا ما وهـــم يحنون على مصطبة حديقة ، ولما مرت داشا بهم رأت جنديين من الحرس الاحمر غارقين في نوم عميق على المصطبـــة متلاصقين بكتفيهما وقد فتحا فميهما ، ووضعا بندقيتيهما بين ركبتيهمـــا . وكان الشيوخ يشتمونهما همسا بكلمات بذيئة .

كانت الريح الجافـة تطارد الغبار وراء الاشجار . دق جرس ترام منفرد ، ومرفاتـــه المخلوعـة تضرب بلاط الشارع . كانت مجاميع رمادية من الجنود تتعلق بالدرابزين وعلى مكان الفرامل الى الخلف . وكانت العصافير تنط على راس تمثال بوشكين البرونزي لا يهمها شيء من امر الثورات .

استدارت داشا نحو شارع تفيرسكايا . واقتحمتها من ظهرها سحابة من الغبار ، وغطتها بقطع الاوراق ، ودفعت بها الى مقهـــى «بوم» – المعقل الاخير للحياة القديمة اللاهية .

في هذا المكان كان يجتمـــع الشعراء من كل المدارس ، والمتطيرون السابقون ، والمضاربون بالادب ، والشبان النشطاء الذين يكيفون انفسهم للزمن المضطرب ببساطة ومهارة والفتيات المسممات بالسام والكوكائين ، والفوضويون الصغار الذين يبحثون عن التسليات الحادة ، والزوار المنجذبون الى اكل الكعك .

ما كادت داشا تحتل مقعدا في المقهى المنهمر تحت تمثال نصفي لكاتب شهير حتى بسط احد الاشخاص ذراعيه ، واندفع خـــلال دخان التبغ ، وجلس على مقعد بجوار داشا مقهقها بتداوة كاشفا عن اسنان الاسد . لقد كان ذلك هو الشاعر الكسندر جيروف الذي كانت تعرفه منذ قبل .

– لحقت بك على ساحة لوبيانسكايا ... كنت على يقين من انك كنت في العربة ، يا داريا دميتريفنا . غاية مصادفة . من اين جئت ؟ هل انت وحدك ؟ مع زوجك ؟ هل تذكرينني ؟ كنت في يوم ما نحيفا . وكنت تعرفين هذا . اليس كذلك ؟

كانت عيناه لديقين . وكان لا ينتظر جوابا عن اى سؤال ، على ما يبدو . وكان على عهده فى الماضى – فى سورة من الانفعال ، سوى ان بشرته السقيمة قد ارتخت . كان انفه المعكوف العريض فى الاسفل يبدو كبيرا فى وجهه الطويل النحيل .

– كم عانيت خلال هذه السنوات ... شىء خيالى ... جئت الى موسكـو منذ وقت قصير ... انا من جماعة الشعراء التصويريين : سيرغى يسينين ، بورليوك ، وكروتشينيخ . لعلك تعلم ... هل مررت بكاتدرائية ستراستنوى ؟ هل رأيت الحروف الكبيرة على الجدار ؟ تلك جراءة عالمية ... حتى البلاشفة ذاهلون ... انا ويسينين عملنا طوال الليل ... صورنا فى شعرنا مريم العذراء وعيسى المسيح بصورة شائنة ... فمش كولى ... فى الفجر تراه مجزلان فطلت روحاهما فى الحال ... داريا دميترييفنا ، الا فضلا عن ذلك من الجماعة الفوضوية «الباشق الاسود» ... ستجذبك الينا ... لا ، لا محالة ... اتعرفين من هو زعيمنا ؟ مامونت دالسكى الشهير ... عبقرى ... كين الثانى ... الجسور العظيم ... لم يمض اسبوعان حتى تقع موسكو كلها فى ايدينا ... وبعدها عهد عظيم ! موسكو تحت الراية السوداء . قررنا ان نحتفل بالنصر . اتعرفين كيف ؟ نعلن عن كرنفال عام ... براميل النبيذ فى الشوارع ، وفى الساحات الموسيقى تعزفها جوقات عسكرية ... مليون ونصف مليون متنكر سيظهرون نصفهم عراة ، وليس فى ذلك ادنى شك . وبدلا من الالعاب النارية ستنفجر مخازن المدفعية فى جزيرة لوسينى . لم يشهد تاريخ العالم مثيلا كذلك .

وكان ذلك النظام السياسى الثالث الذى تعرفت عليه داشا خلال هذه الايام . والآن لم تشعر الا بالخوف . حتى انها نسيت جوعها . وانخرط جيروف بالتفاصيل بعد ان رضى بالاثر الذى خلفه .

– اهذا لا تشعرين بغثيان دم حين ترين ابتذال المدينة الحديثة ؟ ان صديقى فاليت ، الرسام العبقرى – وانت تعرفينه – وضع خطة لتغيير وجه المدينة كليا ... المقصود تهديم كل شىء والبناء من جديد ، ولكننا لن نلحق فى ذلك قبل الكرنفال ...

بالطبع تقرر تهديم بعض المبانى . المتحف التاريخى ، الكرملين ، وبرج سوخاريف ، وبيت بيرتسوف ... سنضع على طول الشارع سواتر من الالواح بارتفاع البيوت مرسومة عليها تصاميم معمارية على طراز لا مثيل له وفى منتهى الحداثة ... والشجرة باوراقها الطبيعية غير مقبولة . سنصبغ الشجر بالوان مختلفة مستخدمين الرشاشات ... فتصورى اشجارا تزيّنون سوداء فى بولفار بريتشيستينسكى ، وبولفار تفيرسكوى ليلكى بشكل متعرص ... فاقعة !... وتقرر ايضا اقامة اعمال تدليس لتمثال بوشكين على طول الشارع كله ... داريا دميترييفنا اتذكرين «التدنيسات المقدسة» ومكافحة المألوف» فى شلة المثقفين ؟ كانوا يهزأون بنا آنذاك .

وضحك ضحكة سريعة كالرجفة وتذكر الماضى واقترب من داشا ، ومس صدرها الناهد قليلا ، وهو يومئ .

– اتذكرين اليزافيتا كيفنا ؟ ذات العينين الشيطانيتين بعينى الخروف ؟ كانت تهيم بخطيبك الى حد الجنون . وعاشرت بيسونوف . وزوجها جادوف مقاتل فرقة بارز ... هو ومامونت دالسكى ورفقاؤنا الرئيسيان . كما ان انتوشكا ارنولدوف هنا ايضا ! فى عهد الحكومة المؤقتة سيطر على كل الصحافة ، كان يتناول شامبانيا ويعاشر الارستقراطيات ... كانت عنده مغارية من ... ذات جمال صارخ . كان ينام معها والمسدس فى يده ... سافر الى باريس فى تموز الماضى . وكاد ان يعين سفيرا ... الحمار !.. لم يتحقق ان يحول نقوده الى الخارج ، وهو الآن يتضور جوعا كابن كلبة . يا داريا دميترييفنا يجب ان تجارى العهد الجديد ... نصر انتوشكا ارنولدوف نفسه لانه اتخذ لنفسه شقة واسعة مريحة فى شارع كيروتشينايا ، واثاثا مذهبا ، ومعدات المطبخ ، ومائة زوج من الاحذية . يجب ان نحرق ونحطم ونمزق كل الخرافات ... حرية مطلقة متوحشة عذراء . هذا ما نريده ! ولن نكرر على هذا العهد ... ونحن نحقق تجربة عظيمة . وكل الذين يختبئون وراء رقاعة الطبقة المتوسطة سيهلكون ... سنسحقهم ... ان الانسان هو رغبة لا حدود لها ... (وخفض صوته ، ومال على اذن داشا .) البلاشفة تذارة ... كانوا جيدين اسبوعا واحـدا

فقط ، في اكتوبر . . . ثم التزموا رأسا بمبدأ الدولة . وروسيا كانت دائما بلدا ارثوذكسيا ، والفلاح الروسي فوضوي بأصله . . . البلاشفة يريدون تحويل روسيا الى معمل ، هراء . لن يستطيعوا ذلك . عندنا ماخنو ، وبطرس العظيم مجرد جرو امامه . ماخنو في الجنوب ، وماموتت دالسكي وجادوف في موسكو . . . سنحرق من الجانبين . اليوم ليلا سآخذك الى مكان سترين بنفسك اي نفاق . . . موافقة ؟ للعب ؟

منذ عدة دقائق جلس شاب شاحب ذو لحية مدببة الى الطاولة المجاورة . كان يتفرس في داشا من خلال نظارته الانفية من وراء الجريدة . صعقتها تصورات جيروف الخيالية فلم تحاول ان تحتج . وبدا لها ان هذه الافكار فوق الطبيعية كانت تتولد كالبروق في سحب دخان السكائر ، طافت وجوه غريبة متسمة الحدقات تطبق اسنانها على السكائر . . . ماذا كان في وسعها ان تعترض ؟ يمكن ان تولول شاكية لان قلبها يرتجف امام هذه التجاريب ، وبالطبع ستضيع ولولتها في هدير الضحك المجنون والهرجلة والتهريج .

كانت عينا ذي اللحية المدببة تتحسسانها في مزيد من الاصرار . رأت في رباطه القرمزي جمجمة معدنية صغيرة — دبوسا . فحزرت انه هو الذي يجب ان تلتقي به . رفعت جسمها قليلا ، الا انه هز رأسه هزة قصيرة مشيرا عليها بان تظل في مكانها . فخفضت داشا عينيها مفكرة ، اشار الرجل بعينه الى جيروف . فهمت ، وطلبت من جيروف بان يجلب لها شيئا تأكله ، عند ذاك اقترب الرجل ذو اللحية من طاولتها وقال دون ان يفتح شفتيه :

— يصحبك الله في الطريق الميمون .

فتحت داشا حقيبتها ، وارت نصف المثلث . فضمه الى النصف الثاني ، ومزق النصفين مزقا صغيرة .

سأل بسرعة :

— من اين تعرفين جيروف ؟

— منذ زمان ، في بطرسبورغ .

— هذا يلائمنا . يجب ان يعتبروك من جماعتهم ، اقبلي كل ما يقترح عليك . وغدا ، في مثل هذا الوقت ، تعالي الى تمثال غوغل في بالمار برتشيستنسكي . اين ستقضين الليلة ؟

— لا أدري .

— هذه المسألة اطيبها ايضا حتى . . . امضي مع جيروف —

— انا منهكة بشكل فظيع .

وامتلأت عينا داشا بالدمع ، وارتعشت يداها ، الا انها نظرت في وجهه غير الودود ، والى الدبوس ذي الجمجمة ، فخفضت بصرها مذعنة .

— تذكري : السرية التامة . ولو قلت شيئا ولو عرضا وجب التخلص منك ، فان الوقت حربي . . .

وشدد على كلمة «التخلص» . وشعرت داشا بان اصابع قدميها تنكمش . تقدم جيروف من الطاولة يحمل صحنين . تقدم منه الرجل ذو الدبوس ، وعوج فمه الدقيق بابتسامة ، وسمعت داشا قوله :

— فتاة حلوة . من هي ؟

— اتركها بسلام . ليست معدة لك ، يا بوركا .

وابدى جيروف له تثلمات اسنانه وكأنه يهدده او يبتسم له ، ووضع امام داشا خبزا اسود ونقانق وقدحا من سائل بني ، وقال :

— الآن ، قولي ان المساء غير مشغولة ؟

— لا فرق .

اجابت داشا . والتهمت النقانق بتلذذ مزعج

اقترح جيروف عليها الذهاب الى غرفته في فندق «الوكليو» على مسافة قصيرة في الجانب الآخر من الشارع .

— نامي قليلا واغتسلي ، وفي نحو الساعة العاشرة سآتي اليك .

والشقة مضطربا وركض من مكان الى آخر . فقد ظل حسب الذكريات القديمة يحتفظ بشعور الرجل في حضور داشا ببعض الشيء . كانت غرفته ذات ستائر من قماش مقصب ، وبساط وردي ، وكان سريره يبعث على الريبة حتى انه ادرك ذلك بنفسه ، واقترح على داشا الاستلقاء على الاريكة بعد ان رفع عنها الجرائد والمخطوطات والكتب ، وفرش مفرشا وقطعة من الفراء الاسود نزعت من معطف

ثمين ، وارسل ضحكة وخرج . خلعت داشا حذاءها . كان خصرها ورجلاها وكل جسمها يئن تعبا . فاستلقت واستغرقت في النوم حالا متدفئة بفراء سميك فيه وطيف خفيف من رائحة عطر وحيوان وتفتاليين . ولم تسمع كيف دخل جيروف ، وانحنى ونظر اليها ولا الصوت العميق الذي صدر في الباب من رجل ضخم حليق شبيه بروماني : «طيب ، خذها الى هناك ، وسأعطيها مذكرة» .

وكان المساء قد تقدم كثيرا حين تنهدت داشا واستيقظت . كان هلال اصفر فوق سطح البيت ينعكس مهشما على زجاج النافذة . وتحت الباب امتد خط من الضوء الكهربائي . وتذكرت داشا اخيرا اين هي ، ولبست جوربها على عجل ، وسوت شعرها وثوبها وذهبت الى المغسلة . كانت الفوطة من القذارة حتى ان داشا فكرت وهي تفرج اصابعها التي كان الماء يقطر منها ، ومسحت بطرف تنورتها من الجانب الآخر .

وداهمها احساس حاد بالوحشة من كل سوء الحظ هذا ، وخنقها الاشمئزاز فودت لو تهرب من هنا الى بيتها ، الى النافذة النظيفة تطير الخطاطيف خلفها ... ادارت رأسها ونظرت الى الهلال ميتا مشوها متدليا فوق موسكو ، لا ، لا ... ، لا مجال للعودة . السوء أن تصعد على الكرسي عند النافذة فوق جادة كامينواوستروفسكي المقفرة والاستماع الى الالواح تسمر على البيوت ... لا ... ليكن ما يكون ...

طرق الباب ، ودخل جيروف على اطراف اصابعه .

— حصلت على ترخيص . لنذهب ، يا داريا دميتريفنا .

لم تسأل داشا اي ترخيص هو ، ولا الى اين تذهب . وضعت قبعتها البيتية الصنع ، وتناولت حقيبتها التي فيها الالفان من الروبلات . وخرجا . كان ضوء القمر يغمر جانبا من جادة نفيسكي . ولم تكن المصابيح مشتعلة . سارت دورية ببطء في الشارع المقفر صامتة تضرب الارض بأحذيتها الطويلة .

انعطف جيروف الى بولفار ستراستنوي . كانت بقع من ضوء القمر ترقد هنا على الارض غير المستوية . وكانت الظلمة الحالكة تحت اشجار الزيزفون تبعث الرهبة في النفس . وبدا ان شخصا

قد مرق في هذا الظلام الى الامام . توقف جيروف ، وكان في يده مسدس .

وقف قليلا ثم صفر . فأجيب عليه من هناك . قال بصوت اعلى قليلا : «من جماعتكم» . فأجاب صوت واضح متكاسل : «العفو ، يا رفيق» .

انطلقا في شارع ماليا دميتروفكا . فقابلهما هناك شخصان في سترتين جلديتين عبرا الشارع بسرعة . ولكن بعد نظرة صامتة تركاهما يمران . عند مدخل نادي التجار حيث كانت تتدلى راية سوداء من الطابق الثاني فوق المدخل خرج اربعة من وراء الاعمدة وصوبوا مسدسات . تمتمت داشا . وقال جيروف غاضبا :

— ما هذا في الواقع ، يا رفاق ؟ تخويف عن عبث . عندي ترخيص من مامونت ...

— ارنا .

فحص الاربعة الترخيص في ضوء القمر وقد اخفوا خدودهم المبردة في ياقاتهم المرفوعة ، وسحبوا قليلا طاقياتهم على حواجبهم . وجمد وجه جيروف وكأن الحياة قد غادرته ، وارتسمت عليه ابتسامة . سأل احد الاربعة بفظاظة :

— ولمن ؟

— لهذه الرفيقة ، — وامسك جيروف بيد داشا ، — انها فنانة من بتروغراد ... يجب ان تكسى ... تدخل في جماعتنا ...

— حسنا ، اذهبا ...

دخلت داشا وجيروف في رواق مضاء بضوء باهت ، وقد وضعت رشاشة على الدرج . وجاء القومندان ، وهو طالب قصير منتفخ الخدين في سترة من بزة طلابية ، وطربوش ، فقلب الترخيص طويلا وهو يقرأه . وسأل داشا وعقا :

— ماذا تحتاجين من اشياء ؟

اجاب جيروف :

— امر مامونت بان تكسى من القدم حتى الرأس ، باحسن ما لدينا .

— ما تعني بعبارة «امر مامونت» ؟.. حان الوقت ان تعرف يا رفيق انه لا توجد اوامر هنا ... ليس هنا حانوت ... (وهنا

احس القومندان بان لحيته تحكه ، فقلص عينيه بشفقة ، وقال :
— حسنا . لنذهب .

اخرج مفتاحا ، وسار الى الامام الى مشجب المعاطف السابق ، حيث يوجد الآن مستودع دار الفوضوية .

— داريا ديمتريفنا ، اختاري ولا تخجلي . كل هذه الاشياء تعود للشعب . . .

واشار جيروف بشمعة مرتعشة من ذراعه الى مشاجب علقت عليها لفاعات من فراء السمور والقاقم والثعلب القطبي ومعاطف من فراء الارانب والقرد وعجل البحر . كما وضعت على المقاعد ، والقيت اكواما على الارض . وامتلأت حقائب مفتوحة بالفساتين والملابس الداخلية وعلب الاحذية . وبدا وكأن مخازن كاملة من الاشياء الفاخرة قد جلبت الى هنا . تثاءب القومندان غير مكترث بهذه الوفرة وقد جلس على صندوق .

— داريا ديمتريفنا ، خذي كل ما يروق لك . سأحملها لك . ونصعد الى الاعلى ، وهناك ستبدلين ثيابك .

ورغم كل ما يمكن ان يقال عن مشاعر داشا المعقدة ، فقد كانت قبل كل شيء امرأة . تورد خدها . قبل اسبوع ، عندما كانت تتهالك كزنبقة الوادي قرب النافذة ، تتخيل ان الحياة قد انتهت ولا شيء تنتظره ، ربما لم تكن تغريها اية كنوز في العالم . اما الآن وقد انفتح حولها كل شيء فان ما كانت تعتبره ميتا وجامدا في نفسها عادت اليه الحركة . ودخلت في تلك الحالة المنفعلة ، حيث الرغبات والآمال المتدفقة تنطلق مندفعة في الضباب المقلق للغد الآتي ، بينما الحاضر يرقد في ركام كمنزل مهجور .

ولم تتعرف على صوتها ، وادهشتها اجوبتها وتصرفاتها وهدوؤها الذي تقبلت به الفنتازيا التي تدور حولها . واحست بغريزة حفظ النفس التي ظلت غافية فيها حتى تلك اللحظة ان عليها الآن ان تنشر اشرعتها وتنطلق ملقية بالحمولة وراء حاجز سفينتها .

مدت يدها الى لفاع من السمور الرمادي .

— اعطني هذه ، من فضلك .

نظر جيروف الى القومندان فهز هذا حاجبه موافقا . تناول جيروف اللفاع ، والقاه على كتفه . انحنت داشا على حقيبة كبيرة مفتوحة — وللحظة احست بالتقزز من اشياء الآخرين هذه — وادخلت يدها حتى المرفق في كومة الملابس الداخلية .

— والحذاء ، يا داريا ديمتريفنا ؟ خذي حذاء طويلا للمطر ، والزينات المسائية في هذا الدولاب . ايها الرفيق القومندان اعطني المفتاح . . . الزينة بالنسبة للفنانة اداة الانتاج .

قال القومندان :

— خذا ما تشاءان ، لا يهمني .

صعدت داشا ووراءها جيروف يحمل الامتعة الى الطابق الثاني ، ودخلا غرفة صغيرة فيها مرآة حطمتها رصاصة . لمحت داشا بين الصدوع الشبيهة بنسيج العنكبوت على المرآة المغبشة امرأة منشغلة بارتداء جورب حريري ببطء . وضعت عليها قميصا رقيقا ، وارتدت سروالا داخليا مدنتلا ، وتخطت بحذائها الجميل وابعدت جانبا ثيابها الداخلية المرفوضة . والقت فراء على كتفيها العاريتين . . . ومن انت ، يا روحي ؟ مومس ؟ سالبة ؟ لصة ؟ ، ولكنك لطيفة جدا . . . اذن ، فان كل شيء لي في المستقبل ؟ لا باس ، سندبر الامر فيما بعد على نحو ما . . .

كانت القاعة الكبيرة لمطعم "المتروبول" التي اصابته قنابل في اكتوبر مغلقة لا تعمل ، ولكن الطعام والنبيذ كان يقدم في المقاصير . لان نصف الفندق كان يحتله الاجانب ، وهم في معظمهم الالمان ، واولئك المضاربون المستبتون الذين استطاعوا الحصول على جواز اجنبي — ليتواني او بولوني او فارسي . والمخمورون في المقاصير المغلقة يضجون كما في فلورنسا اثناء الطاعون . وكان يسمح لاهالي موسكو الاصليين بالدخول الى هناك بوساطة المعارف ، ومن باب خلفي . وهؤلاء في معظمهم ممثلون واثقون من ان مسارح موسكو لن تبقى حتى نهاية الموسم ، وان الهلاك المحقق سيصيب المسارح والممثلين معا . وكان الممثلون يضربون بالرهان .

كان مامونت دالسكي الممثل الدرامي «والتراجيدي» روح هذه المباذل الليلية . وكان اسمه الى عهد قريب لا يقل صدى عن اسم روسيه . كان رجلا ذا طبع وحشي جميل الطلعة ، مقامرا ، مجنونا شديد الطمع ، خطرا ، مهيبا ماكرا . وقد اضحى في السنوات القليلة الاخيرة لا يمثل الا نادرا ، وفي الجولات الفنية فقط . وكان يتردد على دور القمار في العاصمتين ، وفي الجنوب ، وفي سيبيريا . وقد رويت روايات عن خسائره الفادحة ، وبدا يشيخ . وكان يقول انه سيترك المسرح . وفي اثناء الحرب اشترك في صفقات لمقايضة في الاسلحة . وعندما بدات الثورة ظهر في موسكو ، واحس بوجود المسرح التراجيدي الجبار واراد ان يلعب فيه دورا رئيسيا في المسرحية الجديدة على غرار «اللصوص» لشيلر .

وبدا يتحدث بكل يقين ممثل عبقري عن الفوضوية المقدسة ، وعن الحرية المطلقة ، وعن نسبية المبادئ الخلقية وعن حق كل شخص في كل شيء . وبذر في موسكو الهياج في الافكار ، وعندما بدات بعض جماعات الشباب مدعومة باشخاص محكومين تصادر منازل الاغنياء جمع هو هذه الجماعات المتفرقة من الفوضويين ، واستولى على نادي التجار بالقوة ، واعلنه دارا للفوضوية . ووضع السلطة السوفييتية امام حقيقة واقعة . ولم يكن قد اعلن بعد الحرب على السلطة السوفييتية ، ولكن خياله ، دون شك ، كان يتخطى مستودعات نادي التجار والمباذل الليلية ، عندما كان يتحدث وهو واقف في النافذة ، امام الناس المتجمعين في فناء دار الفوضوية ، وبعد ايماءاته الرومانتية تتطاير على الناس في الفناء البناطيل والاحذية وقطع القماش ، وزجاجات الكونياك .

عندما دخلت داشا المقصورة في «متروبول» مع جيروف كان اول من رآته هذا الرجل بوجهه الكئيب وكانه صب من برونز ، وقد انطبعت عليه السورات والاهواء والحياة الصاخبة مثل نحات مشهور حفر عليه الغضون والتجعدات وخطوط الفم النامة عن الحزم والحنك والرقبة المحفوفة بالياقة الناعمة القذرة .

كان غطاء البيانو مرفوعا . وكان رجل حليق نحيل في سترة مغلية ، راسه الى الوراء يطبق اسنانه على سيكارة ، ويسدل رموشه على عينيه الندبتين ، يعزف على البيانو لحنا جاليزيا . والى

مائدة حفلت بعدد كبير من الزجاجات الفارغة جلس عدد من ذوي الصيت الواسع . وكان اضخم ، وهو رجل افطس الانف اسند ذقنه البارز على راحته حتى ان وجهه الناعم قد انضغط ، يرفع صوته بغناء كنائسي ممثلا القس . اما الآخرون ، وهم محاجج له وجه كالجرة ، وممثل كوميدي عبوس متهدل الشفة ، وبطل لم يحلق منذ ثلاثة ايام له انف مديب ، وعاشق في منتهى السكر ، ورجل عظيم ذو صيت ذائع خددت جبينه الخاديد عميقة في مظهر صاح كليا ، فقد كانوا ينضمون الى الغناء جماعيا عند الضرورة .

وكان الارشيدوق من كنيسة «المسيح المخلص» وهو رجل وسيم سري الشيب في شعره يضع نظارة ذهبية ثقيلة مهداة له من تجار موسكو يسير على البساط جيئة وذهابا ملوحا بكمي غفارته الكهنوتية مرددا اللازمة . وكانت اقداح البلور تهتز من نبرة صوته القوية ، كانت المقصورة مزينة الجدران بحرير داكن الحمرة ، وعلى الباب مسدول من القماش المقصب وحاجز تلالى المصاريع .

كان ماموتت دالسكي يقف متكئا على هذا الحاجز . وكان يمسك شدة من ورق اللعب . وكان يرتدي بدلة شبه عسكرية : سترة الجليزية التفصيل ، وبنطلون وكوب في مربعات ، وجزمته من الجلد ، وحذاء طويلا اسود . عندما دخلت داشا ضحك بخبث ، وهو يمسح العالما جنالزية .

قال الشخص الجالس الى البيانو :

– جمال صارخ . يجنن !

ارتعبت داشا وتوقفت . نظر الجميع اليها ما خلا دالسكي ، وقال الارشيدوق :

– جمال روسي صرف .

وقال الرجل الضخم :

– تعالي اجلسي معنا ، يا آنسة .

همس جيروف :

– اجلسي ، اجلسي .

جلست داشا الى المائدة . اخذ الجالسون يقبلون يديها بعد ان تقدموا وانحنوا بمهابة ، وكانها ماري ستيوارت . وبعد ذلك انتهى الغناء . وضع جيروف بعض الكفيار والمشهيات في صحن

داشا ، وجعلها تشرب مشروبا حلوا محرقا . كان الجو خانقـــــا دافئا ، وبعد الشراب المطاط ألقت داشا ذراعيها ووضعت يديهـــا العاريتين على المائدة . اقلقتها هذه النغمات الحزينة ، وكلمـــات الغناء القديمة ، ولم تصرف بصرهـــا عن ماموتت ، وكان جيروف قد حدثها عنه في طريقهما الى هنا . ظل على وقفته الجانبية عنـــد الحاجز ، وكان إمـــا في سورة من الحنق او سكران الى حد فقدان الوعي .

قال بصوت عميق ملأ ارجاء المقصورة :

— اذن ، يا سادة . لا يريد احد !

— لا احد . لا يريد احد ان يلعب معك ، نحن في غاية المرح دون حاجة الى لعب . فاتركنا على حالنا ، واعدنا .

قال ذلك ذو الوجه المخطوط بصوت عالي النبرة سريـــع ثم اختال :

— هيا ، ياشا ، اعزف الترتيلة السابعة .

ألقى ياشا الجالس الى البيانو رأسه الى الوراء تماما ، ووضع اصابعه على المفاتيح مغمضا عينيه . قال ماموتت :

— يلا فنوسى . . . بصقة على فلوسكم . . .

— ومع ذلك لا اريد ، فلا تلح ، يا ماموتت .

— اريد ان العب على طلقة . . .

بعد هذا صمت الجميع برهة . مرر البطل ذو الانف المحدب كفه على جبينه وشعره ، ونهض واخذ يزرر صداره :

— انا العب على طلقة .

امسكه الممثل الكاهن صامتا ، ووقع عليه بجسمه الثقيل ، واجلسه في مكانه . صاح البطل :

— انا اقسم بحياتي على ان في يد ماموتت الوغد ورقـــا معلما . . . لا يهم ، دعه يوزع الورق . اتركني . . .

الا انه عجز . وقال المحاجج ذو الوجه العريض من الاسفل بلهجة ناعمة :

— لا توجد قطرة واحدة من النبيذ . ماموتت ، هذه شناعة ، يا عزيزي . . .

عندئذ القى ماموتت دالسكي على طاولة التلفون حزمة الورق ومسدسا اوتوماتيكيا كبيرا . وامتقع من شدة الغيظ وجهه الضخم المنحوت . وقال مقطعا الكلمات :

— لن يخرج احد من هنا . سنلعب ، كما اريد . . . حزمة الورق هذه غير معلمة .

واستنشق الهواء بقوة من منخرين عريضين ، وتدلت شفته السفلى . وادرك الجميـــع ان اللحظة الخطرة قد حلت . مرر بصره على وجوه الجالسين الى المائدة . عزف ياشا باصبع واحدة نغم اغنية حالمة . وفجأة ارتفع حاجبا ماموتت الاسودان ، ولمعت الدهشة في عينيه العميقتي الغور . فقد وقع بصره على داشـــا . سرت برودة سريعة في قلب داشا من تلك النظرة . تقدم ماموتت منها بدون ترنح ، وامسك اطراف اصابعها ، ورفعهـــا الى شفتيه الجافتين المتشققتين ومسها دون ان يقبلها :

— تقولون انه لا يوجد نبيذ . . . سيكون جاهزا . . .

دق الجرس وهو ما يزال يتمعن في داشـــــا . دخل الخادم التتري ، وبسط يديه : لا توجد زجاجة واحدة ، شربت الخمرة كلها ، والقبو مغلق ، والمسؤول قد خرج . عندئذ قال ماموتت :

— انصرف .

وتقدم من التلفون وكان الظل الذي من المتفرجين صوبه نحوه . وادار رقما : «نعم . . . انا . . . دالسكي . . . ارســـل وودكا . متروبول . . . الـــى هنـــا . . . بسرعـــة . . . نعم . . . الرحلة تكفي . . .»

ووضع السماعة ببطء ، واتكأ بكل جسمـــه على الحائط ، وطوى يديه على صدره . مر ما لا يزيد عن خمسة عشر دقيقـــة . عزف ياشا على البيانو الفالس من سكريابين بصوت . ودار رأس داشا من هذه النغمات الاليفة الآتيـــة من الماضي . واختفى الزمن ، وارتفع القفاص الذهبي اللفني على صدر داشـــا بالعطش وتدفق الدم الى اذنيها . همس جيروف ، ولكنها لم تسمع .

كانت منفعلة تشعر بسعادة التحرر ، وخفة الشباب . وخيل اليها انها قد طارت مثل نفاخة افلتت من عربة اطفال ، اعلى فاعلى بسهل بدير الراس . . .

ضمه الرجل العظيم ذراعها العارية . وتمتم بابوة :

— لا تنظرى اليه بهذه الرقـــة ، يا عزيزتى ! . . مستمس عيناك . . . فى مامونت شىء شيطانى دون شك . . .

فى تلك اللحظة انفتحت فجأة دفتا الباب ، وظهرت وراء الحاجز اربعة رؤوس فى كيبيهات ، واربعة اكمام جلدية تضغط على مقابض لنابل يدوية ، وهتف اربعة من الفوضويين بتهديد :

— لا تتحركوا من اماكنكم ! ارفعوا ايديكم !

قال دالسكى بهدوء :

— دعوهم . كل شىء على ما يرام . شكرا ، يا رفاق .

وتقدم منهم ، ورفع جسمه من فوق الحاجز وراح يشرح لهم شيئا ما همسا . اوماوا بكيبيهاتهم ، وانصرفوا . وبعد دقيقة ترددت اصوات منفردة ، وصيحة مكتومة ، وهز الجدران انفجار اصم الرنين هزا خفيفا . قال مامونت :

— هؤلاء الجراء لا يستطيعون ان يؤدوا امـــرا دون اثارة ضجة .

ودق الجرس ، وفى الحال دخل المقصورة الخادم شاحب الوجه واسناله تصطك ، فامره مامونت :

— ارفع كل شىء . وضع اقداحا نظيفة للنبيذ . باشا ، كفاك تعذيبا لاعصابى . اعزف شيئا حيا .

وبالفعل ، ما ان فرش الخادم مفرشا نظيفا على المائدة حتى دخل الفوضويون ثانية ومعهم عدد كبير من الزجاجات . وضعوا على البساط زجاجات الكونياك والويسكى والليكـــور والشمبانيا ، واختفوا صامتين ايضا . ترددت حول المائدة هتافات الدهشـــة والانشراح . واوضح مامونت الامر قائلا :

— امرت بان يصادر ٥٠ بالمائة فقط من الخمر الموجود فى الغرف ، وان يترك النصف الآخر الى اصحابه . يمكن ان ترتاح ضمائركم ، فكل شىء على ما يرام .

عزف باشا لحنا احتفاليا . وتطايرت سدادات الشمبانيا . جلس مامونت الى جانب داشا . بدا وجهه المنار بمصباح الطاولـــة اكثر عظمة وشبها بوجه منحوت . سأل :

— اليوم رايتك فى «لوكس» . كنت ثائرة . . . من انت ؟

اجابت وهى تضحك من دوار فى راسها :

— لا شىء . . . طائشة . . .

وضع يده الكبيرة الحارة على كتفها العارية ، واخذ يحدق فى عينيها . ولم تهتم داشا . لم تشعر الا بالدفء تحت تلك اليد على كتفها الباردة . رفعت قدح الشمبانيا من ساقه الدقيقة ، وشربت حتى الثمالة . سألها :

— لمن لاحد !

— لست .

عندئذ همس فى اذنها بنبرة تراجيدية :

— عيشى ، يا طفلتى ، بكل جوارحك . . . من حسن حظك انك التقيت بى . . . لا تخافى ، لن اشوه شبابك بالحب . . . الاحرار لا يحبون ولا يطلبون حبا . . . عطيل نار موقدة من القرون الوسطى ، محكمة تفتيش ، محنـــة شيطانية . . . وروميـــو وجولييت . . . اوه ، انا اعرف انك تشتاقين اليهما سرا . . . ذلك هراء عتيق . . . نحن نهدم كل شىء من الاعلى الى الاسفل . . . نحن سنحرق جميـــع الكتب ، وسنهدم المتاحف . . . يجب ان ينسى الانسان القرون الماضية . . . الحرية فى شىء واحد : الفوضويـــة المقدسة . . . حريق الاهواء الهائل . . . لا ! لا تنتظرى الحب ولا السلام ، يا حسناء . . . انا احررك . . . احطـــم عنك الاغلال البالية . . . اعطى لك كل ما سيخطر على ذهنك فى الفترة ما بين عناق وعناق . . . اطلبى . . . اطلبى الآن . . . ربما سيفوت الاوان غدا .

ومن خلال هذيان الكلمات هذا كانت داشا تحس بكســـل شربها لدوار الهوى الثقيل الى جانبها . واستولى عليها الذعر كما يحدث فى الحلم ، حين لا اقوى على الحركة ، ومن ظلمة الحلم تتقدم نحوها وحش ملتهبتان ، ليلتقيها ارضا ، ويطاها ، ويسحقها . . . وكان افظع من ذلك ان رغائب قريبة لاذعة خانقة كانت تتولد فى داخلها للاستجابة له . . . واحست بكل كيانها كامراة . . . ولعلها كانت فى تلك اللحظة مضطربة وجميلة حتى ان الرجل العظيم مال نحوها ، وقال بحسد وهو يفرغ كاسها :

– مامونت ، انت تعذب الطفلة . . .

وثب دانسكي ، وكأنما اصيب بطائفة ، وضرب المائدة فلزت الاقداح وسقطت !

– سأرمي كل مَنْ يمس هذه المرأة !

واندفع الى طاولة التلفون ، حيث كان المسدس . واختفى جميع من كانوا الى المائدة ، متحين المقاعد . وانغمس باشا تحت البيانو . عندئذ تمنقنت داشا بيد ماموت الحاملة للمسدس ، دون ان تعرف كيف حدث هذا ، وتوصلت اليه بعينيها . امسك شعرها النحيل الى الاسفل من دفة كتفها ، ورفعها ، واطبق فمه على فمها ماسا اسنانها باسنانه . تأوهت داشا ، وفي تلك اللحظة دق التلفون ، ترك ماموت داشا تجلس على المقعد (القت عينيها بيديها) وخطف سماعة التلفون :

– نعم . . . ماذا تريد ؟ انا مشغول . . . نعم . . . أين ؟ في شارع ميامنيتسكايا ، جراهر ؟ تسيسة ؟ سأكون بعد عشر دقائق . . .

دس المسدس في الجيب الخلفي ، وتقدم من داشا ، وطوق وجهها بيديه ، وقبلها عدة قبلات لهمة ، وخرج بعد ان اشار بيده مرفقا كالروماني .

قضت داشا بقية الليل في «لوكس» ، ونامت كالميتة دون ان تخلع الفستان من التعاش اللفني المتعب . (نام جيروف في الحمام خوفا من ماموت .) ثم كانت تجلس حزينة حتى منتصف النهار قرب النافذة لا تتحدث مع جيروف ، او ترد على اسئلته . وفي نحو الساعة الرابعة خرجت . وانتظرت حتى الساعة الخامسة في بولفار بريتشيستنسكي ، في الساحة عند تمثال غوغول الطويل الانف ، حيث كان في الاسفل اطفال نحلاء يعملون بهدوء فطائر من التراب والرمل .

كانت داشا قد عادت ترتدي ثوبها القديم وقبعتها المصنوعة بيتيا . كانت الشمس تدفئ ظهرها ، الشمس المطلة على حياة بائسة . كانت للاطفال وجوه صغيرة شائخة من الجوع . والهدوء

يسود ما حولها والخواء . ما من كركبة لعجلات ، ولا اصوات ولية . لأن العجلات كلها قد ذهبت الى الحرب ، والسابلة يامتون ، وكان غوغول في مقعده الفرانيق ينحني تحت ثقل معطفه الشمع يلوث العصافير . مر رجلان ملتحيان دون ان يلحظا داشا : نظر احدهما الى الارض ، والآخر الى الاشجار ، وتوامت تنف من جانبهما !

– الدمار تام . . . فظيع . . . ما العمل الآن ؟

– ومع ذلك فقد احتملت ماماررا ، واحتملت اوفا . . .

– لا اصدق الآن بأي شيء . . . لن ينقضي هذا الشتاء ونحن احياء . . .

– ومع ذلك فدنيكين يتصرف في الدون . . .

– لا اصدق . لا شيء ينقذ . . . هلكت بابيل ، وهلكت روما . . . ونحن ايضا سنهلك . . .

– ومع ذلك لم يعتقلوا سافينكوف . ولم يعتقلوا لشيروف . . .

– لا اهمية لذلك كله . . . كانت روسيا ، والآن لا وجود لها . . .

ومرت ايضا تلك المرأة النصابية التي اخرجت من تحت شالها بالامس ، وهي خائفة ، مؤلفات روزانوف . اشاحت داشا بوجهها عنها . اقترب من مصطبتها عندئذ شاب يضع ابريس جيجة . تلفت فيما حوله ، وعدّل نظارته الانفية ، وجلس الى جانب داشا :

– قضيت الليلة في «متروبول» ؟

انزلت داشا رأسها ، وردت بحركة شفتيها بلا صوت : نعم .

– ممتاز . وجدت لك غرفة . انتقلي اليها مساء . لا تقولي لجيروف كلمة واحدة . والآن لندخل في الموضوع : هل تعرفين تيشي بالنظر ؟

– لا .

اخرج عدة صور فوتوغرافية ، ودسها في حقيبة داشا . وليث جالسا يمسك بشعر لحيته ويعضه . وامسك يدي داشا المستلقيتين على ركبتيها بلا حياة ، وعزّها :

— المسألة هي كالآتي . البلشفية هي لينين . هل تفهمين ؟ ونحن نستطيع ان ندحر الجيش الاحمر ، ولكن لن ننتصر ما دام لينين في الكريملين . مفهوم ؟ انه الطري . انه قوة ارادية ، واعظم خطر على العالم كله ، وليس علينا فقط . . . ففكـــري واجيبي بحزم : موافقة انت ام لا ؟

— اقتله ؟

سألت دانا وهي تنظر الى طفل عاري البطن يترنح معوج الساقين . تلوى وجه الشاب ، ونظر الى اليمين ، وتلفت عينيه ناظرا الى الاطفال ، وعاد يقضم شعر لحيته .

— لا احد يقول ذلك . . . واذا كنت تفكرين بـه فلا حاجة الى ان تتلفظـــي به بصوت عال . . . لقـــد قبلناك عضوا في منظمتنا . . . أمن المعقول انك لم تفهمـــي ما كان يقوله سافينكوف ؟

— انه لم يتحدث معي . . (ابتسم الشاب بسخرية .) آه . يعني ، ذو المنديل كان . . .

— خطفي صوتك . . . نعم ، الذي تحدث معك هو بوريس فيكتوروفيتش . . . لقد وضعت فيك ثقة هائلة . . . نحن بحاجة الى اناس جدد . فقد حدثت اعتقالات كبيرة . انت تعرفين بالطبع ان خطة التعبئة في قازان فشلت . . . وينقل عمل المركز الى مكان آخر . . . ولكننا سنترك المنظمة هنا . . . ومهمتك ان تراقبي خطب لينين ، وتحضري اجتماعات عامـــة ، وتترددي على المصانع . . . ولن تكونى وحيدة في العمـــل . . . سيخبرونك بتنقلاتـه من الكريملين ، وبالاماكن التي يتوقع ان يلقي فيـــها خطبـــه . . . واذا تعرفت على شيوعيين اطلبي الدخول الى الحزب . فـــان ذلك سيكون الافضـــل . تابعي الجرائد ، واقرئي المنشورات . . . والتوجيهات الاخرى ستحصلين عليها غدا في الصباح ، في هذا المكان . . .

ثم اعطاها العنوان السري ، وكلمة السر ، وقدم لها مفتاح الحجرة . وسار متجها نحو شارع اربات . اقربت دانا الصورة من الحقيبة ، واطالت النظر فيها ، ولكن حين بدا يتراءى لها — بدلا من هذا الوجه — الوجه الآخر الذي خرج من وراء الستار القرمزي

في الليلـــة الماضيـــة ، اغلقت الحقيبـــة بشدة ، وذهبت ايضا متجهـــة مزمومـــة الشفتين . حاول الطفل الصغير ذو الساقين المعوجتين ان يلحقهـــا ، الا انه وقع بجسمه الرخو على الرمل ، وبكى بحدة .

كانت حجرة دانا تطل على الفنـــاء في منزل خرب في شارع سيفتسيف فراجيك . والظاهر ان البيت كان مهجورا . طرقت دانا باب المنزل الخلفي وقتا طويلا حتى استقبلتها امرأة عجوز قصيرة القامة التياب لها جفنان مقلوبان تبدو من هيئتها انها مربية تعيش في بيت مخدوميها . ظلت وقتا طويلا غير فاهمة شيئا ثم سمحت لدانا بالدخول اخيرا ، وقادتها الى حجرتها ، واخذت تتحدث حديثا غير مفهوم .

— طار الصقور متفرقين : يوري يوريتش وميخائيل يوريتش وفاسيل يوريتش . اما فاسينكا * فقد بلغ السادسة عشرة في عيد القديس توماس . . . اغثنا اصلي لسكينة روحهم . . .

رفضت دانا ان تشرب الشاي ، وخلعت ملابسها ، ودخلت تحت اللحاف ، وفي الظلام ذرفت الدمع غزيرا وهي تسد فمهـــا بالوسادة .

وفي صباح اليوم التالي تلقت عند تمثال غوغل تعليمات وامرا بالحضور الى مصنع في الغد . وفكرت بالعودة الى بيتها ، الا انها عدلت عن ذلك وذهبت الى مقهى "بوم" ، حيث وجدت جيروف وقد ملئ بما يسألها اين اختفت ، ولمـــاذا انصرفت دون ان تأخذ اشياءها . "الا انتظر من ماهوت نداء تلفونيا فماذا اجيبه عنك ؟" — التفتت دانا بوجهها لئلا يرى خديها المحمرين . . . وفكرت مع نفسها وهي تحس بانها تكذب : "على كل حال تقضي التعليمـــات بان اتابع صحبتي لهم . . ."

قالت غاضبة :

— سآتي لأخذ الاشياء . وهناك سترى .

وعادت الى بيتها تحمل لفة فيها لفاع الفرو الثمين والملابس الداخلية وفستان الامس . وفكت اللفة في حجرتهـــا ، والقتهـــا على

---

* صيغة تدليل لاسم فاسيل . — المترجم .

السرير ، ونظرت اليها فتملكتها رعدة حتى أن اسنانها اصطكت ، واحست من جديد بثقل يده على كتفيها وببرودة اسنانـــــه . . .
وركعت داشا امام السرير ، واخفت وجهها في الفراء المعطر . وظلت تكرر متعوذة : «أي شيء هذا ، اي شيء هذا ؟» . . .

وفي الصباح لبست حسب ما اوصيت به : فستانا داكن اللون من القماش الرخيص جلبه اليها الشاب ذو الدبوس ، وشدت شعرها بمنديل على طريقة البروليتاريات (وكان عليها ان تتظاهر بانها خادمة سابقة في منزل احد الاثرياء اغتصبها سيدها) ، وركبت الترام الى المصنع .

لم يكن معها ترخيص . لغمز لها الحارس العجوز عند الباب قائلا : «ذاهبة الى الاجتماع ، يا فتاة ؟ ادخل المبنى الرئيسي» سارت على رصيف من الالواح الخشبية المتآكلة عبر اكوام من الحديد الصدئ ونفاية الصهر ، وعبر [illegible] ضخمة متعطلة . وكان المكان حولها خاليــــا ، والمداخن ترسل الدخان بهدوء في السماء الصافية .

اشاروا لها الى باب مفتوح في جدار . فدخلت الى قاعة طويلة اجرية . وكان الضوء الكئيب ينفذ اليها من خلال سقف من الزجاج المتسخ . وكان كل شيء اجرد عاريا . وكانت سلاسل الرافعـــات تتدلى من المنصات . والى الاسفل امتدت محاور التحويلات ، وتدلت احزمة النقل على بكراتها بلا حراك . واندهشت عيناها غير المجربة لمرأى مساند الآلات السوداء والاشكال الواطئة والطويلة والمتباعدة الاطراف لآلات السحج والتثقيب والتقوير والفريزة والمخـــارط ، والاقراص الحديدية لمكائن الاحتكاك . ولمحت داشا في شبه الظلمة وراء طاق عريض مطرقة بخارية ضخمة .

في هذه الورشة كانت تصنع الآلات والاجهزة التي كانت تملأ الحياة وراء جدران المصنع الطافحة بالضوء والدفء والحركة والمعنى والترف . هنا كانت رائحة البرايات الحديدية وزيت المكائن والتراب وتبغ الماخوركا . كان جمهور غفير من الناس يقف امام منصة من الالواح الخشبية ، وكان الكثيرون جالسين على مساند المخارط ، وعلى افاريز النوافذ العالية .

شقت داشا طريقها اقرب الى المنصة . التفت شاب ضخم ،

وكشف ابتسامته العريضة عن اسنانه البيضاء في وجهه ملطخ بالزيت ، واشار براسه الى لصقه ومد يده . صعدت داشـا الى الطنف عند النافذة . وحولها عدة آلاف من الرؤوس – وجوه عابسة وجباه متغضنة ، وافواه مطبقة . كانت ترى كل يوم هذه الوجوه في الشوارع وعربات الترام – وجوه روسية اعتيادية متعبة بنظرتها الساهمة . ذات مرة – وكان ذلك قبل الحرب – واثناء نزهة يوم الاحد حوّل اثنان من المحامين كانا بصحبتها الحديث الى هذه الوجوه بالذات : «خذي جمهور باريس على سبيل المثال يا داريا دميتريفنا ، انه مرح طيب القلب يطفح حبورا . . . اما عندنا فكل واحد يبدو كهم الاسارى . انظري الى هذين العاملين السائرين . لو [illegible] اليهما ، وقلت لهمـا نكتة . . . انهمـا سيتكدران ولا يفهمان . . . الشعب الروسي اخرق ثقيل الطبع . . .» والآن كان هؤلاء الذين لا يحبون النكتة يقفون كتلتين كثيفتين مشدودتين . انها نفس تلك الوجوه ، ولكنهـا قد عتمت من الجوع . نفس تلك العيون ، ولكن نظرتها ملتهبة نافدة الصبر .

نسيت داشا ما جاءت من اجله . فان انطباعات الحياة التي اندفعت اليها من النافذة العالية في شارع كراسنيه زوري قد حملتها في امواجهـا مثل طائر عصفت به العاصفـــة . واستسلمت لهذه الانطباعات بكل اخلاصها الكلي . لم تكن قط امرأة حمقاء ، ولكنها مثل الكثيرات قد تركت نفسها لتجربتها الصغيرة لا غير . وكان لديها الظمأ الى الحقيقـــة ، الحقيقة الخاصة . الحقيقة النسائية . الحقيقة الانسانية .

تكلم الخطيب عن الوضع في الجبهات ، وكان في خطابه القليل جدا مما يبعث على التشجيع . ان حصار القمح قد اشتد : قطع التشيكوسلوفاكيون قمح سيبيريـــا ، والاتمان كراسنوف قمح الدون . والالمان يفتكون دون رحمة بانصار اوكرانيا . وكان اسطول الحلفاء يهدد كرونشتادت وارخانغيلسك . «ولكن الثورة يجب ان تنتصر !» والقى الخطيب بالشعارات ، ودقها بقبضته في الهواء ، وامسك المحلقة ، ونزل عن المنصة . وصفقوا له ، الا ان التصفيق كان متراخيا ، فان الامور لــم تكن تستحق التصفيق . واطرقت الرؤوس ، واختفت العيون تحت الحواجب .

التقى عينا داشا بعيني الشاب الكبير الاسنان وابتسم لها ثانية بمرح !

— تلك هي المصيبة ، يا آنسة . يريدون ان يهلكونا جوعا كالفئران . . . ماذا ستفعلين ؟ . .

سألت داشا :

— وهل خفت ؟

— انا ؟ خفت خوفا شديدا (اخذ الناس يسكتونه بالهسيس : «اهدأ ، يا شيطان !») وانت ما اسمك ؟

نظرت داشا اليه — الصدر العضلي والقميص الاسود المفتوح ، والعنق الغليظ ، والوجه المرح ، والابتسامة ، والخصلات الجعداء المبللة بالعرق ، والعينين المستديرتين الشغوفتين بالنساء وكله ملطخ بالزيت . . .

قالت داشا :

— يا لك ! ما لك تكشر عن اسنانك ؟

— الفتني امي من المسطبة وانا طفل . حسنا ، تعالي معنا الى الجبهة بعد غد . هــا ؟ سنهلكهم حتما هنا في موسكو . . . سنخرج ومعنا الكوردبون ، يا حلوة . . .

تعلت على كلماته ضجة التصفيق . كان على المنصة خطيب جديد ، وهو رجل ربع القامة في سترة رمادية وصدار مجعد بتجاعيد افقية . احنى جمجمته الصلعاء الحمراء وقلب اوراقه . وقال بصوت ألثغ قليلا : «ايها الرفاق !» — ورأت داشا وجهه المهموم وعينيه المتقلصتين وكأنهما من ضوء الشمس . كانت يداه مستقرتين على الطاولة ، على الاوراق . وعندما قال ان موضوع اليوم سيكون الازمة الشديدة المخيمة على اوروبا كلها ، وعلى روسيا بشكل اصعب ، سيكون الموضوع عن المجاعة حبس ثلاثة آلاف شخص انفاسهم تحت السقف المسخم .

بدا بازاء عامة ، وتحدث بصوت متسق ساعيا الى ايجاد تجاوب مع المستمعين . وابتعد عن المنضدة غير مرة وعاد اليها . وتحدث عن الحرب العالمية التي لا تستطيع ولا تريد ان تنهيها جماعتان من الوحوش اطبقت احداهما على عنق الاخرى ، وتكلم عن المضاربة

البورجوازية على المجاعة ، وعن ان الحرب لا يمكن ان تنهيها الا الثورة البروليتارية . . .

وعرج على الكلام عن وجود طريقتين لمكافحة المجاعة : هناك التجارة الحرة التي تجلب الثراء الفاحش للمضاربين ، وهناك احتكارية الدولة . وتراجع جانبــا ثلاث خطوات عن المنضدة ، وانحنى نحو المستمعين ، ووضع ابهامي يديه وراء صداره من الجانبين ، وبرزت يديه الكبيرتين ورأسه العريض الجبين الى الامام راسما خطوطا سبابة منطلقة بالعصر :

— . . . لقد وقفنا ، وسنقف بدا بيد مع الطبقة التي ناهضتنا بها العرب : مع التي الحقنا بها البورجوازية ، مع التي تتحمل كل ثقل الازمة الراهنــة ، يجب ان نقف الى جانب احتكار الحبوب حتى النهاية . . . (عند هذه الكلمات صدرت عن الشاب ذو الاسنان الكبيرة بحجة تأييد .) امامنا مهمة ضرورة الانتصار على المجاعة ، او على الاقل ، تخفيف وطأتها حتى المحصول الجديد ، والدفاع عن احتكار الحبوب ، الدفاع عن حق الدولة السوفييتية ، الدفاع عن حق الدولة البروليتارية . يجب ان نجمع كل فائض الحبوب ونعمل على ان تنقل كل الاحتياطات الى المناطق التي تحتاجها ، وتوزيعها بصورة صحيحة . ان هذه المهمة الاساسية هي الحفاظ على المجتمع الانساني ، والعمل الجسيم ، في الوقت ذاته ، وذلك لن يتم الا بطريق واحد هو النهوض بالعمل على نحو مشترك مشدد . . .

صدرت عن شخص آهة متأججة مساء في السكون الشامل ، آهة انسان جوبهت بهذا الصمود العنيدي الذي كان يقودهم اليه هذا الرجل ذو السترة الرمادية . كانت جبهته تطل على المستمعين ومن تحت تقوس الحاجبين تحدق عيناه النافذتان بلا رحمة .

— . . . لقد وقفنا وجهــا لوجه امام تحقيق مهمة ثوريــة اشتراكية ، وجوبهنا بمصاعب خارقة — انهــا عهد كامل من اقسى حرب اهلية . . . ونحن لن ننتصر على المجاعــة وعلى اعداء الثورة الذين يستغلون هذه المجاعة الا بتحطيم الثورة المضادة ومواصلة السير على السياسة الاشتراكيــة في قضية المجاعة ، في مكافحة المجاعة . . .

وارتفعت يده من وراء الصدار ، وضربت الهواء وكأنها تقضي على عدو غير مرئي ، وتدلت لحى القاعة :

— ... عندما يتحدث العمال الذين يبلغنهم شعارات المضاربين عن بيع الحبوب الحر ، وعن استيراد وسائل التموين نرد عليهم قائلين : ان ذلك يعني السير في ركاب الكولاك ... ولن نسير في هذا الدرب ... سنعتمد على الكادحين الذين انتصرنا بهم في اكتوبر ، وسنسعى الى تحقيق قرارنا بتطبيق الضبط البروليتاري بالغلات بين فئات الشعب العامل . ان امامنا مهمة تاريخية ، وسنحققها ... والمراسيم الاخيرة عالجت قضية الحبوب ، اكثر قضايا الحياة جذرية . وكلها تتضمن ثلاثة افكار توجيهية : الاولى : فكرة المركزية او توحيد الجميع في عمل مشترك واحد تحت قيادة المركز ... نعم ان هناك من يبدو لنا ان احتكار الحبوب يخرق في كل خطوة بواسطة الذين يشترون بالجملة والمضاربين . وكثيرا ما نسمع من المثقفين : ولكن المشترين بالجملة يقدمون لهم العون ، ويطعمونهم جميعا ... نعم ، ولكن المشترين بالجملة يطعمون على **طريقة الكولاك** ، وهم يتصرفون تماما بالطريقة التي تعزز وتقيم **وترسخ الى الابد** سلطة الكولاك ...

وباشارة من يده قطع ما لن يحدث بعد الآن .

— ... شعارنا الثاني توحيد العمال . انهم هم الذين سيخرجون روسيا من الوضع اليائس والصعب للغاية . يجب تنظيم فصائل العمال ، تنظيم الجياع من الاقضية الجائعة غير الزراعية ! اننا ندعوهم الى مساعدتنا وتتوجه مفوضيتنا للتموين اليهم . اننا نقول لهم : «**الى الزحف الصليبي في سبيل الحبوب**» .

ارتفع التصفيق بعنف شديد . ورأت داشا كيف تراجع الخطيب بعد ان حشر يديه في جيبه ، ورفع كتفيه ؛ وظهرت بقع ملتهبة على وجنتيه . وارتجف جفناه ، وكان جبينه نديا .

— ... اننا نقيم دكتاتورية ... اننا نستعمل العنف ازاء المستثمرين ...

وغطى التصفيق على هذه الكلمات . لوّح بيديه ليسكتهم ... وفي الصمت استمر :

— ... «يا ممثلي الفقراء ، اتحدوا» — ذلك شعارنا الثالث . ان امامنا مهمة تاريخية : يجب ان نزود بالوعي الطبقي الطبقة التاريخية الجديدة ... في جميع العالم تتحد فصائل عمال المدن وعمال الصناعة حتى آخر رجل . ولكن لم تجر حتى الآن تقريبا محاولات نقابية متفانية نزيهة لتوحيد الذين يعيشون في القرى ، في الانتاج الزراعي الصغير ، في الانحاء النائية ، في الجهالة وقد يخدعهم ظروف الحياة كلها . هنا تواجهنا مهمة ان تسمح في هدف واحد ليس فقط الكفاح ضد المجاعة ، بل والكفاح في سبيل كلية نظام الاشتراكية العميق والمهم . هنا امامنا معركة تستحق ان نهبها كل القوى وان نبذل كل الجهود ، لان هذه المعركة في سبيل الاشتراكية ، لان هذه المعركة في سبيل النظام الاخير للشغيلة والمستثمرين .

ومسح جبينه بكفه سريعا :

— ... على مسافة غير بعيدة عن موسكو ، وفي محافظات متلاصقة هي كورسك واوريل وتامبوف ما يزال لدينا الآن ، حسب تقدير الاخصائيين الحذرين ، ما يصل الى عشرة ملايين بود من الحبوب الزائدة . فدعونا ، ايها الرفاق ، ان نتضافر بالجهود المشتركة . فان الجهود المشتركة وحدها ، وتوحيد جميع الذين يعانون اكثر من غيرهم في المدن والاقضية الجائعة هما الامران اللذان يساعداننا . وذلك هو الطريق الذي تدعوكم اليه السلطة السوفييتية : توحيد العمال ، توحيد الفقراء وفصائلهم المتقدمة لبث الثورة في الاقاليم ، من اجل الكفاح في سبيل الحبوب وضد الكولاك ...

وصار يمسح جبينه اكثر فاكثر ، وزايل الرنين صوته ؛ لقد قال كل ما اراد ان يقوله . تناول ورقة من المنضدة ، ونظر فيها ، وجمع بقية الاوراق :

— وهكذا ، يا رفاق ، فاننا اذا استوعبنا كل ذلك ، وفعلنا كل ذلك فان النصر حليفنا بالتأكيد .

وفجأة اضاءت وجهه ابتسامة صافية طيبة . وفهم الجميع انه ختم ، رجلهم ! فهتفوا ، وصفقوا ، وضربوا الارض باقدامهم . نزل

من المنصة زاكضا ضاما راسه بين كتفيه . وهتف الشاب الكبير الاسنان بالقرب من داشا بصوت كخوار الثور :

— عاش ايليتش ! . . .

كل ما كان في وسع داشا ان تقوله هو انها رأت وسمعت شيئا آخر . . . حين عادت من الاجتماع جلست على السرير في حجرتها ، ونظرت بعينين مشعتين الى زخرفة ورق الجدران . وكانت على المخدة مذكرة من جيروف : «مامونت ينتظرك في «متروبول» في الساعة الحادية عشرة» . وعلى الارض عند الباب مذكرة اخرى : احضري في الساعة السادسة عند تمثال غوغول . . .»

اولا ان هذا «الشيء الآخر» كان خلقيا بشكل صارم ، بمعنى انه سام . . . تحدث عن الخبز ، من قبل كانت تعرف ان الخبز يمكن ان يشترى ويتبادل . وسعره معروف : البود الواحد من الطحين بينطلون غير مرقع . ولكن تبين ان مثل هذا الخبز ترفضه الثورة بحنق . فانه خبز قذر . الموت افضل من اكل مثل هذا الخبز . واليوم رفض ثلاثة آلاف جائع الخبز القذر .

رفضوه باسم . . . (وهنا اختلط كل شيء في رأس داشا البائس من جديد .) باسم المهانين والمضطهدين . . . او كيف قال ؟ ان نهب كل القوى ، ان نبذل كل الجهود . ان نهب الحياة في سبيل الفضيلة والمستضعفين . . . وهذا هو السبب في صرامتهم التراجيدية . . .

كان كوليتشيف قد قال لها : من جميع جهات العالم تمتد الايدي للامتداد بالمساعدة ، بالحبوب . . فقط على شرط ان يقضى على النظام السوفييتي . . . اقضوا عليه وسيكون الخبز . . . باسم اي شيء ؟ باسم انقاذ روسيا . ولكن ممن تنقذ ؟ تنقذ من انفسنا . . . ولكنهم لا يريدون ان تنقذ «بهذا الشكل» . وقد رأت ذلك بنفسها . . .

اوه . يا لرأس داشا البائس ! انت دخلت الى السياسة في وقت متأخر ، يا داشا . قالت لنفسها : «انتظري ، انتظري» . ووضعت يديها وراء ظهرها ، وسارت في الحجرة ناظرة الى قدميها .

«اي شيء يمكن ان يكون اسمى من ان يهب الانسان حياته للمهانين والمضطهدين ؟ . بينما يقول كوليتشيف ان البلاشفة يبيدون روسيا ، والجميع يقولون ذلك . . .» واغمضت داشا عينيها محاولة ان تتصور روسيا التي يجب ان تحبه اكثر من نفسها . تذكرت لوحة سيروف : حصانان على منحدر رابية ، ووشاح سحابة على الشفق ، وسقف اشعث من القش . . . «لا ، ذلك عند سيروف . . .» ولاح خلف جفنيها المغمضين الفتى المكشر الكبير الاسنان مرحا ومتوحشا . . . مرة اخرى ذرعت داشا حجرتها . . . «ما هي روسيا اذن ؟ لماذا يجذبها الناس الى جهات شتى ؟ انا سخفاء ، لا افهم شيئا . . . آه ، يا الهي !» واخذت داشا تنقر صدرها باصابعها المضمومة ، ولكن ذلك ايضا لم يسعفها . . . «هل اذهب الى ليتين لاساله ؟ اوه ، يا للشيطان ، انا من معسكر آخر . . .»

وكل هذه التناقضات الرهيبة ، وبلبلة النفس جعلتها تضع قبعتها على عينيها في نحو الساعة السادسة ، وتتجه الى تمثال غوغول ، وما هي لحظة حتى ابتعد الرجل ذو الدبوس عن شجرة :

— تأخرت ثلاث دقائق . . . كيف ؟ هل كنت هناك ؟ استمعت الى ليتين ؟ حدثيني خلاصة . . . كيف وصل ، ومن كان بصحبته ، وهل كانت المنصة محروسة ؟

صمتت داشا قليلا لتستجمع افكارها :

— قل لي : باسم اي شيء يريدون قتله ؟

— هكذا ؟! من اين اخذت هذا ؟ لا احد يقول ذلك . . . اللي ، اذن . . . يعني انه اثر فيك ؟ بالطبع . . . لهذا السبب هو خطير .

— ولكنه قال اشياء عادلة .

مد رقبته ، وابتسم ابتسامة مخيفة لذيذة في عيني داشا ، وسأل بتملق :

— ربما من الافضل ان تتركي ذلك ؟

صمتت داشا . ولكن رقبته شمطت وكأنها من مطاط ، وترافص اللمعان على نظارته الانفية ناقذا الى حدقتي داشا . فهمست :

— انا لا اعرف شيئا . . . لم اعد افهم شيئا . . . يجب ان اكون مقتنعة ، يجب ان اقتنع .

صمت الرجل ذو الدبوس صافرا بصوته قائلا :

– ليتني عميل القيادة العامة الالمانية .

ثم مضى زهاء نصف ساعة ليشرح لداشا خطة الالمان الجهنمية : انهم يرحلون البلاشفة مقابل مبالغ طائلة في عربات مختومة ، والبلاشفة يقوضون الجيش ، ويغررون بالعمال ، ويقضون على الصناعة الوطنية والزراعة ... وبعد شهر او آخر سيحتل الالمان روسيا دون قتال .

– ان البلاشفة الآن يؤججون الحرب الاهلية ، ويصرخون معلنين ان هناك حصارا على الحبوب ، وفي الوقت ذاته يقتلون رميا بالرصاص المضاربين بالجملة – منقذينا ... انهم يخطفون المجاعة عن وعي ... لقد رأيت اليوم كيف راح عدة آلاف احمق يثبتون عيونهم على فم لينين وهو يتكلم ... ذلك شيء يمزق النفس ... انه يخدع الجماهير ، الملايين ، الشعب كله ... انه في المفهوم المادي «محرض كبير» ... ومن الناحية الاخرى ... (ومال الى اذن داشا ، وهمس بلهجة واحدة) الدجال ! هل تتذكرين التنبؤات ؟ التواريخ تتطابق ، الشمال يشن الحرب على الجنوب . وتظهر فرسان الموت من الحديد ، وهي الدبابات ... وتسقط في ينابيع المياه نجمة الشر . انها نجمة البلاشفة الخماسية الاطراف ... وهو يتكلم للناس كما يتكلم المسيح ، ولكن كل شيء على الضد ... واليوم حاول ان يقربك ، ولكننا لن نتخلى عنك ... سأنقلك الى عمل آخر .

وبقي السؤال الثالث غير مجاب . (عادت داشا الى حجرتها ، واستلقت على الفراش ، وغطت عينيها بمرفقها .) . وفجأة قرفت من التفكير ... «هل انا شخت ، وبلغت المائة عام ؟ وهل انا قبيحة الوجه ؟ سأطلق لحريتي العنان ... لأذهب الى «متروبول» اذا اردت ... ولمن اخفي كل ما لا يريد ان يختفي واختنق في صدر صياح السعادة ؟ ولمن احفظ ركبتي الى حد العذاب ؟ واية مداعبات اتوقع ؟ حمقاء ، حمقاء ، جبانة ... افتحي نفسك ، ادفعي ... لا شيء يهم ، فليذهب الحب الى الشيطان ، وانت الى الجحيم ...»

لقد كانت تعرف انها ذاهبة الى «متروبول» . واذا كانت مترددة ، فلأن وقت ذهابها لم يحن بعد – كان الظلام قد بدأ يخيم – وتلك الساعة السامة لتدفق الافكار . في البيت دقت الساعة التاسعة

ببطء مثل ساعة برج . ووثبت داشا من السرير بسرعة ... «لا اريد ان اقلق هذا القلق المهين !..»

خلعت ملابسها على عجل . وركضت بقميصها الداخلي الى الحمام ، حيث تراكم حطب وصناديق واشياء اخرى . ووقفت تحت الدش . وسقط الرشاش البارد على ظهرها . وشهقت انفاسها من البرد . وعادت الى حجرتها مبللة واخذت المفرش من السرير ، ونشفت نفسها واسنانها تصطك .

وحتى في تلك اللحظة لم تستقر على قرار ! كانت تنظر تارة الى الثوب القديم المرمي على ارض الحجرة مباشرة ، وتارة الى الفستان الملقى على ظهر الكرسي . وادركت مرة اخرى ان ذلك جبن ، مجرد تأجيل . وعندئذ اخذت ترتدي ملابسها . ولم تكن في الحجرة مرآة ، والحمد لله ! القت المعطف الفراني على كتفيها ، وخرجت الى الشارع كاللصة . كان الظلام قد اشتد . سارت خلال البولفارات . كان الرجال يلاحقونها بعيونهم مندهشين ، ومعها ملاحظاتهم غير المشجعة البتة . ومن وراء شجرة تقدم انسانان في معطفين من معاطف الجنود وهما يترنحان ، وهتفا : «الطيلية ، الشارع ، الى اين ذاهبة ؟»

توقفت داشا عند ساحة نيكيتسكايا وانفاسها متقطعة وقلبها يخفق . مرت عربة ترام مضاءة تجر اخرى وراءها وهي تقرع جرسها بحدة ، وكان الناس يتعلقون على الدرجات . كان احد الركاب يمسك الدرابزين النحاسية باليد اليمنى ، وحقيبة مسطحة من جلد التمساح باليد اليسرى ، وحين مر بها اذلر وجهه الحليق الغارق نحوها . لقد كان ذلك عاموزنت ، امسكت داشا ، وركضت للحاق بالترام ، ورآها ، ارتفعت الحقيبة في يده ارتفاعا واهنا ، فك يده الاخرى من الدرابزين وقفز والترام سائر في اقصى سرعته ، فاذا به يترنح ويسقط على ظهره محاولا ان يتشبث بالهواء وارتفع على طالة السنفم لحظة ، ثم اختفى جذعه تحت العربة التالية ، وسقطت الحقيبة عند قدمي داشا . ورأت داشا ركبتيه ترتعشان مرتعشتين ، وسمعت صوت عظام تتهشم ، وارتطام حذاء على البلاط . صرخت فرامل الترام ، وتناثر الناس من العربة .

تطلى على عينيها لغشاء أسود ، ولا الطريق لامعا كالكفن ، وسقطت دائما على الارض وذراعاها وخدها على الحقيبة ، وفقدت الوعى .

٩

بدأ تحول جيش المتطوعين الى الهجوم ، وهو ما سمى بـ«حملة كوبان الثانية» بعملية ضد محطة تورغوفايا . كان الاستيلاء على هذا الملتقى للخطوط الحديدية مهمـــا للغاية ، لأنه يقطع شمال القفقاس كله عن روسيا . فى العاشر من حزيران زحف هذا الجيش المؤلف من تسعة آلاف رجل من المشاة والخيالـــة بقيادة دنيكين العامة لتطويق محطة تورغوفايا بأربعة طوابير .

كان دنيكين فى طابور دروزدوفسكى . وكان التوتر فى غاية الشدة . فقد كان الجميع يدركون ان نتيجة المعركة الاولى تقرر مصير الجيش . انطلق طابور دروزدوفسكى المحتمى بنيران مدفعه الوحيد المشحون بقذائف شظايا يحاول عبور نهر يغورليك سباحة تحت قصف مدفعية الطرف الآخر . كان النقيب توركول آمر الفوج فى الصف الاول يتخبط فى الماء كالكرة شارقا بالماء ولاعنا . دافع الحمر باستماتة ، ولكنهم لقلة مهارتهـــم جعلوا العدو المجرب يطوقهم ، اكتسحت المواقع الاماميـــة من قبل طابور بوروفسكى جنوبا ، ومن قبل خيالة اردبلى شرقا . تركت وحدات الحمر التى اختلط بعضها ببعض وطوابير العربات الضخمة محطة تورغوفايا ، وانفلتت لتنسحب شمالا . ولكن هنـــا ايضــا سدّ طريقهم طابور ماركوف من ناحية شابليفكا . وصار انتصار المتطوعين كاملا . وطوف قوزاق اردبلى بالسرايا فى ارجاء السهب يطعنون الهاربين ، آخذين الاسرى وعربات المتاع .

وهبط الظلام . وهدأت المعركـــة . وضع دنيكين يديـــه السميكتين وراء ظهره ، وراح يذرع رصيف المحطة ذهابا وجيئة . وكان طلاب المدارس العسكريـــة فى ضحك ومزاح — شأن الذين خرجوا سالمين من خطر مميت — يحملون أكياس الرمل ويضعونها على العربات المكشوفة ، ويثبتون الرشاشات على القطار المصفح

سيصبح ارتجاليا . ومن حين لآخر كانت قذيفة مدفـــع تهز الهواء منطلقة من قطار مصفح للحمر يقع شمالا وراء شابليفكا . وكانت آخر قذيفة منطلقة من هناك قد سقطت بالقرب من جسر على نهر مانيتش ، حيث كان الجنرال ماركوف يمتطى حصانا رماديا . انه لم ينم ولم يذق الطعام ولم يدخن منذ يومين ، وكان منزعجا من ان احتلال شابليفكا لم يجر كما كان يريد . وظهر ان المحطة كانت تحتلها فصيلة قوية للحمر مع مدفعية وقطارات مصفحة . ولقد حارب طابور الجنرال الذى التف حول المحطة يوم امس ، الحادى عشر من الشهر ، واليوم كله بعناد ودون ان يحقق نجاحا . فان التوفيق السريع قد خانه فى هذه المرة . وكانت الخسائر فادحة ، ولم يتراجع البلاشفة الذين كانوا يحتلون شابليفكا الا فى المســاء ، وبسبب الوضع العام على ما يبدو .

انحنى قليلا على سرجه ، وراح يتمعن فى المعالم المبهمة لبعض الجثث المتجمدة فى الاوضاع التى لحقهم الموت فيها . كانت تلك جثث ضباطه ، وكل واحد منهم كان يعادل فى المعركة فصيلـــة كاملة . الى ذلك لمنتهى الحماقة ، ان يُقتل ويُجرح مئات من احسن مقاتليه بسبب من تراخى فكره .

سمع انينا وزفرات مفرخشة كأنها تصدر من انسان يستيقظ من كابوس ، نوعـــا من النحيب . ونهض ضابط من الخندق قرب الجسر ، ثم وقع على بطنه على المتراس . توجع وتشبث فى الارض ورفع رجله بصعوبة ، وخرج ، وتقوس فى اجمة كبيرة صافية ، فى الشفق المنطفئ . ادار رأسه الحليق ، وأنّ ، وسار متعثرا ليرفع بصره الى الجنرال ماركوف . رفع يده بالتحية ثم انتزعها :

— يا صاحب السيادة ، اصابتنى صدمة .

— ارى ذلك .

— اصبت برصاصة فى ظهرى .

— هذا . . .

— انا مصدوم من الظهر فى الرأس من مسدس مصوب نحوى من مسافة قريبة . . . حاول قتلى المتطوع فالريان اونولى . . .

سأل ماركوف بحدة : ما اسمك ؟

— الملازم روتشين . . .

وفي تلك اللحظة ، وللمرة الاخيرة انطلق المدفع ذو البوصات الست من القطار المصفح للحمر المتراجع الى الشمال . واندفعت القذيفة بزئير فوق السهب الداكن . ونفر حصان الجنرال الرمادي اذنيه مستثارا ، وبدأ يقعو على وركه . دوت القذيفة من السماء ، وانفجرت على بعد خمس خطوات من ماركوف .

وحين انقشع الغبار والدخان ، راى قاديم بتروفيتش روتشين الذي لفه الانفجار الحصان الرمادي منطرحا على الارض وقوائمه تضرب الهواء ، والى جانبه انطرح جسد صغير هامد ، رفع روتشين جسمه قليلا وصرخ :

— يا اسعاف ! قتل الجنرال ماركوف !

بعد ان احتل جيش المتطوعين محطة تورغوفايا تحول شمالا الى محطة فيليكوكنياجيسكايا بهدف مزدوج : مساعدة الاتمسان كراسنوف في تطهير دائرة سالسك من البلاشفة ، وتامين مؤخرته من جانب تسارتسين بشكل اضمن . احتل جيش المتطوعين محطة فيليكوكنياجيسكايا دون خسائر كبيرة ، الا انه لم يستطع توسيع هذا النجاح ، لان فصيلة من خيالة الحمر تحت قيادة بوديوني اجتاحت في معركة ليلية وحدات اوديل القوزاقية واصابتها بضربة قوية ، ولم تمكنها من عبور نهر مانيتش .

وكاد قطار المتطوعين المصفح الاول ان ينسحق بالقرب من المحطة ، فقد لاحظ الراكبون فيه قاطرة تسير رافعة علما ابيض فظنوا انها تستسلم ، فكفوا عن اطلاق النار . الا ان القاطرة ، اندفعت دون ان تخفض سرعتها مطلقة صفيرها بلا انقطاع . وفي اللحظة الاخيرة فقط قرر مَنْ في القطار المصفح ان يطلقوا عليها بعض الطلقات النارية من مسافة قريبة . ولكن الاصطدام قد وقع ، وتحطمت عربة مصفحة ، وانقلبت القاطرة . وكان النفط قد سكب عليها وعلقت عليها القنابل . ولبضع دقائق توجهت كل انظار المقاتلين الى هذه اللقطة من فلم امريكي .

سلم دنيكين المنطقة الى قيادة الدون ، واوكل امر القضاء على البلاشفة المحليين الى فصائل قوزاق القرى ، واستدار ثانية

جنوبا للاستيلاء على محطة مهمة هي تيخوريتسكايا التي تربط الدون بكوبان ، والبحر الاسود بقزوين . صار الطغاة اخطار جسيمة وكانت في طريقه قريتان كبيرتان من قرى الاغراب هما بيستشالوكوبسكويه وبيلايا غلينا ، وكلتاهما كانت جزء مليء بنقلة . ولقد هزتا بشكل سريع . وكان جيش كالنين يتقدم بسرعة محمومة قرب تيخوريتسكايا . وكان جيش سوروكين يفيق في ذلك الوقت ، من حالة الذعر ويبدأ بالضغط من الغرب ، بينما افادت وحدات الحمر التي تحشدت عند مانيتش لتشكيلاتها ، وتحولت من المؤخرة الى الهجوم . وتدفقت مفارز المتطوعين من قرى كثيرة .

وكان في وسع دنيكين ان يعتمد على شيء واحد : انعدام التنسيق في عمليات الطرف الآخر . ولكن ذلك ايضا يمكن ان يتغير في كل لحظة . ولهذا عمد الى العجلة ، وكان في بعض الاماكن يقوم هو نفسه بالهجوم على القوات التي كانت مسترخية في اعياء تام . كان المشاة يتنقلون في عربات ، وكان القطار المصفح المرتجل نفسه يسير في مقدمة الجيش .

وبالقرب من قرية بيستشالوكوبسكويه حارب الاهالي كلهم الى جانب الجيش الاحمر . ولم يكن جيش المتطوعين قد راى مثيلا لتلك الضراوة من قبل . وكان السهب يهتز من القصف من الصباح حتى الليل . واخرج فوجا بوروفسكي ودروزدوفسكي مرتين من القرية . ولم يهجر الحمر القرية حتى آخر انسان الا بعد ان راوا انفسهم محاصرين من جميع الجهات غير عارفين بقوى العدو وعداته . والآن تحولت جميع الوحدات وجميع الفصائل وحشود اللاجئين الى بيلايا غلينا .

وفي هذه القرية كانت في وسط عشرة آلاف متطوع معسكر فرقة ديميتري شيليست الحديدية . ودعى جميع الراشدين الى حمل السلاح . وعززت المتاريس . وظهر التنظيم والالهام الشعبي لاول مرة . وفي الاجتماعات العامة نودي بالنصر او الموت .

ولم ينفع ذلك . فقد كان العدو عليما جابه الشجاعة والاستماتة بالعلم ، وحسب الحساب لكل صغيرة ، وسار وكأنه

على رابطة شطرنج ، مباغتنا المؤخرة دائمـــا . حقا ان بداية هجوم البيض لم تكن موفقــة . فان العقيد جيرالل الذى كان يقود فوج دروزدوفسكى قاد رجاله فى الظلام الى الضيعة التى تقف عندهـــا صفوف الحمر الامامية ، فجوبه بنيران مباشرة ولكنه هجم ووقع صريعا ، وتراجع رجال دروزدوفسكى وانطرحوا على الارض . ولكن فى نحو الساعة التاسعة صباحا شق كوليبوف طريقه الى بيلايـــا غلينا من الجنوب ومعه رجال كورنيلوف وفوج دروزدوفسكى للخيالة وسيارة مصفحة . وتقدم بوروفسكى من ناحية المحطة المستولى عليها . وبدأت معركة فى الشوارع . واحس الحمر انهم محاصرون فاضطربت صفوفهم . واخترقت المصفحة حشودهم . واشتعلت النار فى صفوف القش . وانطلقت الابقار والخيول وسط النـــار والطلقات والصياح .

وتراجعت فرقة شيليست الحديدية عبر الطريق الوحيد الذى بقى مفتوحـا . كان دنيكين واقفا على فرسه عند كشك السكـــة الحديدية . كان يصرخ غاضبا واضعا كفيه حول فمه ليقطعوا الطريق على المنقهقرين . ووراء فلول الفرقة الحديدية خرج الانصار والاهالى جميعـــا . وانطلقت خيالـــة ارذيل للحاق بالهاربين . كمـــا ان حراس القائـــد العام لم يكبحوا جماحهم فسلوا سيوفهــــم وعدوا لطماتهـــم . وتقلب ضباط الاركان على سروجهـــم ، وجروا على خيولهـــم وكأنهـــم فى طراد الوحوش قاطعين الرؤوس والظهور . وبقى دنيكين وحده ، فخلع قبعتـــه وراح يهوى بهـــا وجهـــه المنفعل . ان هذا النصر كشف الطريق امامه الى تيخوريتسكايـــا وبكاترينودار .

فى الغسق سمعت طلقات قصيرة فى القريـــة . فى افنية البيوت ، الهـــم رجال دروزدوفسكى ينتقمون لمقتـــل جيرالل باعدام اسرى الجيش الاحمر رميا بالرصاص . كان دنيكين يحتسى الشاى فى كوخ مملوء بالذبـــاب . وكـــان رغم احتباس الهواء فى الليل يرتدى سترتـــه السميكـــة ذات الكتافتين العريضتين ، المزررة حتى الرقبة . وكان عنـــد كل طلقـــة يلتفت نحو النافذة المظلمـــة ، ويمرر منديلـــه المفعوك على جبينـــه وعلى جانبى انفه .

قال لمرافقه :

— فاسيلى فاسيليفيتش ، يا عزيزى ، اطلب الى دروزدوفسكى ان يأتى الىّ . لا يجوز ذلك ، على اية حال .

صفق المرافق بمهمازيه ورفع يده بالتحية وخفضها واستدار وخرج . اخذ دنيكين يصب الماء من السماور الى ابريق الشاى ، صدرت الطقطقة الجديدة على طرية شديدة حتى ان الزجاج اهتز . لم يدّ صوت فى الظلام . فاض الماء المغلى عبر الحافة مع قطع من الشـــاى . فغطـــى التـــوز ايفانوفيتش الابريق ، وهمس : « اى ، اى ، اى ! » فتح الباب بحدة ، ودخل رجل فى الثلاثين من العمر تجسد الضحرب عليـــه سترة مدعوكـــة ذات كتافيتين ناعمتين مدعوكتين ايضـــا من كتافيات الجنرالات . انعكس ضوء مصباح الكيروسين على عدستى نظارته الانفية انعكاسا باهتا . كان ذقنه المربـــع غير الحليق لاتره الشعر ، ووجنتاه الغائرتان ترتجفان . توقف الرجل عند الباب . نهض دنيكين من المصطبة ثقيلا ، ومد له يده .

— تفضل اجلس ، يا ميخائيل غريغوريفيتش ، لعلك تريد شايا ؟

— شكرا جزيلا ، ليس لدىّ وقت .

كان ذلك دروزدوفسكـــى الذى رقى الى جنرال قبل فتـــرة قصيرة . كان يعرف لماذا استدعاه القائد العام فكان ، على عادته عند مواقع التأنيب ، يكبح غيظه بصعوبة . احنى رأسه ، ونظر الى جانب .

— ميخائيل غريغوريفيتش ، اريد ان اتحدث اليك بشأن هذه الاعدامات ، يا عزيزى . . .

— ليس لدى قدرة على امساك ضباطى — قال ذلك بصوت عال بعربية مزعجة تقرب من نوبة الهستيريا ، وقد ازداد شحوب وجهه . — ان فخامتكم يعرف ان البلاشفة عذبوا العقيد جيرالل تعذيبا وحشيـــا . . . الضباط الخمسة والثلاثون . . . الذين جلبتهم من رومانيـــا . . . عذبوا وشوهوا . . . البلاشفة يقتلـــون ويعذبون الجميع . . . نعم ، الجميع . . . انقطع صوتـــه ولهثت انفاسه .) لا استطيـــع ان امسكهـــم . . . انا ارفض . . . اذا كنت تعتبرنى

غير صالح لجيشك ان تتسلم استقالتي ، بحق الرب . سأتشرف بأن أكون جنديا .

قال دنيكين :

— اى ، أى ، اى ، ميخائيل غريغوريفيتش ، لا يصح ان تضطرب على هذا النحو . . . لا علاقة هنا باستقالتك . . . اقهمنى يا ميخائيل غريغوريفيتش ؟ الله يرى الاصرار لزيد بأنفسنا مقاومة العدو . . . وستنتشر الاشاعة عن هذا الرمى في كل مكان . فلماذا نلحق الاذى بجيشنا بأيدينا ؟ هل انت موافق معي ؟ أليس هذا حقا ؟ (لزم دروزدوفسكي الصمت .) انقل ذلك لضباطك لكيلا تتكرر مثل هذه الوقائع .

— حسنا !

واستدار دروزدوفسكي ، وصفق الباب وراءه .

ظل دنيكين يهز رأسه طويلا مفكرا على قدح من الشاى . وصدرت الطلقة الاخيرة من بعيد ، وهدأ الليل .

كانت العملية ضد تيخوريتسكايا ضمن خطة انفاذ الجيش مواقعه على جبهة طولها مئتين فرسخا . وكان من الضروري مقدما تنظيف رقعة من الفصائل المتفرقة والانصار . وقد عهد ذلك الى الجنرال الشاب بوروفسكي . فاستطاع في يومين من المعارك ان يقطع مائة فرسخ ، ويحتل عددا من القرى . وكان ذلك في تاريخ الحرب الاهلية أول ما سمى بـ«الغارة» على مؤخرات العدو .

وانتشر جيش المتطوعين على الرقعة المطهرة من الحمر . وفي الثلاثين من حزيران اصدر دنيكين امرا تفسيرا : «ان تحتل محطة تيخوريتسكايا غدا في الاول من تموز ، بعد تحطيم العدو المتمركز في منطقة تي توفسكايا — تيخوريتسكايا . . .» وفي الليل تحركت الطوابير شامة تيخوريتسكايا في كماشة عريضة . واخذ البلاشفة بعد مناوشات قصيرة يتراجعون الى مواقع معززة .

في هذه المرة لم تكن تلك المقاومة المستميتة التي ابديت قبل اسبوع من الزمن . فان سقوط بيلايا غلينا اثارت اضطرابا . اوقف هجوم سوروكين . والآلاف من الضحايا الذين صرعوا في

المعركة الدامية لم يأتوا بجدوى . وتقدم العدو بدقة الآلة ، وصفعت الهيئة قوى جيش المتطوعين اضعافا مضاعفة . وقيل ان الضباط يعدون الى دنيكين من كل انحاء روسيا كالسحب ، وانهم لا يرحمون احدا ، وانهم ما ان يطهروا منطقة حتى يأتي اليها الالمان . وكان كالنين الذي يقود تشكيلة تيخوريتسكايا قابعا في قطاره في محطة تيخوريتسكايا كالمشلول ، وعندما راى جحافل الدنيكيين يزحفون من الجهات الاربع لنبط عزمه ، وامر بالتراجع .

بدأت المعركة في نحو الساعة التاسعة صباحا ، وتراجع الحمر الى نصف دائرة معززة . اوصد كالنين باب مقصورته ، واستلقى رافضا معتقدا ان معركة اخرى لن تحدث اليوم ، بينما استمر جيش المتطوعين في تعميق تطويقهم للعدو متقدمين في حقول القمح النامي الكثيف . وفي منتصف النهار اتصل جناحاهم بالاطراف ، وخرجوا الى المؤخرة من الجنوب . هجم فوج كورنيلوف على المحطة ، واستولى عليها دون خسائر ، واختفى عمال السكة الحديدية . واختفى كالنين ، وبقيت قبعته وحذاؤه في المقصورة ، وفي مقصورة مجاورة عثر على رئيس هيئة اركانه ، رئيس هيئة الاركان العامة ، المقدم زفيريف المصدوع الجمجمة . كما وجدت زوجته مطروحة على الفراش ورأسها متدلى في شالها ، وصدرها مصاب بطلقة ، ولكنها ما تزال تتنفس .

وبعد ذلك لم يبق لطوابير المتطوعين غير الانطباق على الجيش الاحمر الذي فقد قيادته ، وقطع عن القاعدة والطرق . وحتى المساء ظلوا يضربونه بالمدافع والرشاشات . وماج الناس واضطربوا ، والزوبعة الرصاصية تلذع وجوههم وظهورهم . ونهض الرجال الذين فقدوا صوابهم من الخنادق ، وهجموا بالحراب ، والموت يترصدهم في كل مكان . وعند المساء سد كوتيبوف الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحا باتجاه الشمال ، وفتكوا بالنار والسلاح الابيض بجماعات الحمر المتجهة الى سدة الخط الحديدي . وعند هبوط الظلام اختلط كل شيء في حقل القمح الكثيف — البيض والحمر . كان الاسرى يتراكضون بين سنابل القمح كطيور السلوى ، ويجمعون الضباط ، ويشتبكون في معركة بعد اخرى . في احد الاماكن رفعوا السنابل على الحراب من الخنادق . وصرخ كوتيبوف وضباطه فقوبلوا

بالرصاص وبحاصلة من الشتائم البذيئة في منتهى الضراوة . انطلق منحنيا على رقبة حصانه . وكان امر قائد الجيش العام يقضي بعدم رمي الاسرى ، ولكن احدا لم يأمر بأخذهم اسرى .

في الصباح طاف دنيكين في ساحة المعركة بنفسه . كان القمح ، على امتداد البصر ، مسحوقا ومائلا بسنابله ارضا و متناثرا . وكانت براعم الجيف تطوف في السماء اللازوردية . نظر دنيكين الى خطوط الخنادق المتلوية عبر الحقول - خلال الروابي القديمة والمنخفضات - تبرز منهـا الاذرع والارجل والرؤوس الميتة ، والجثث مرميـة كالزكائب . وكان في مزاج شاعري رائق ، التفت نصف التفاتة ليقترب المرافق منه ، وقال مفكرا :

- ولكن هؤلاء جميعا روس . فظيع . لا اشعر بتمام الفرح بانتصارنا يا فاسيلي فاسيليفيتش ...

كان النصر تاما ، دحر جيش كالنين المؤلف من ثلاثين الف رجل وهلك وشتت . ولم يستطع الخروج الى يكاتيرينودار غير سبعة من القطارات العسكريـة للحمر . وقطع جيش سوروكين . وفصلت تشكيلتان منفردتان لقوات الحمر كليا : التشكيلـة الشرقية في منطقة ارمافير وجيش تامان على ساحل البحر الاسود . وحصل جيش دنيكين على غنائم هائلة : ثلاثة قطارات مصفحة ، ومدرعات ، وخمسين مدفعـا ، وطائرة وعربات من البنادق والرشاشات والقذائف ، ومجموعة كبيرة من مختلف الاشياء .

وكان اثر النصر مذهلا . امر الاتمان كراسنوف باقامة صلاة الشكر في كتدرائية نوفوتشيركاسك ، والقى خطبه امام القوات ليس باسوا من صديقه الامبراطور غليوم . فقد دنيكين ربع جيشه خلال ثلاثة اسابيع ، ومع ذلك ففي الايام الاولى من شهر تموز تضاعف جيشه : فقد جاء اليه سيل موصول من المتطوعين مـن اوكرانيا ونوفوروسيا وروسيا الوسطـى . ولأول مرة بدأت تتشكل وحدات من اسرى الجيش الاحمر .

بعد استراحة يومين قسم دنيكين جيشه الى ثلاثة طوابير وقام بهجوم واسع على ثلاث جبهات : الى الغرب ضد سوروكين ، والى الشرق ضد تشكيلة ارمافير ، والى الجنوب ضد بقايا جيش كالنين التي تدافع عن مشارف يكاتيرينودار . وكانت المهمة تطهير كل المؤخرة

قبل الهجوم على يكاتيرينودار . ودُرس كل شيء وخطط وفـق قوانين اعلى فن عسكري . الا ان دنيكين لم يحسب حسابـا لظرف واحد هام : انه لم يكن يتصدى لجيش معاد في وسعه ان يقيم وزنه ووسائله ، بل لشعب مسلح ، لقوى غير مفهومة لديه . ولم يدر ان في هذا الجيش الشعبي تنمو ، مـع انتصارات جيش المتطوعين ، الكراهية وروح الاجماع . وان زمن الاجتماعات العاصفة التي كان يطرد فيه امراء الوحدات غير المرغوب فيهم ، ويتقرر الهجوم باغلبية الاصوات قد ولى ، وحل محله ضبط جديد للحرب الاهلية ما يزال فجا ، ولكنه يتعزز مع كل يوم .

كان كل شيء يُنبئ بنصر عاجل سهل . ابلغ رجال الاستطلاع عن حركة قوات سوروكين المذعورة باتجـاه يكاتيرينودار وراء كوبان . الا ان ذلك لم يكن صحيحا تماما . كان رجال الاستطلاع على خطأ . فقد فر وراء كوبان الهاربون من الجيش وعصابات عديدة ، وسارت قوافـل اللاجئين . اما تشكيلـة سوروكين المؤلفة من ثلاثين الف رجـل فقد تنظفت من غير القادرين على القتـال ، ورصت صفوفهـا وازدادت ضراوة . وتركت جبهـة باتايسك ضد الالمـان . وانتظر الحمر لقاء جيش دنيكين وجهـا لوجه في ارض مكشوفـة . فاذا بجيش المتطوعين الذي اسكرته الانتصـارات واقترب من الهدف كان يهلك عن بكرة ابيـه في معركة دامية مع قوات سوروكين دوحـم بها سريعا واستمرت عشرة ايام .

اجاب سوروكين عن سؤال اللجنة التنفيذية المركزية لمنطقة كوبان-البحر الاسود بعجرفة نابليونية : «لا حاجة بي الى محرضين ، افعال قطاع الطرق الدنيكينيين تنطق لصالحي . وشجاعـة قواتي التاريخية تحطم كل حواجز الثورة المضـادة» . اوقف سوروكين النظر في قواتـه في الايـام الاولى من هجوم دنيكين ، وبدا وكأنه افاق من سبات السكر . وانطلق ليل نهار في طول الجبهة ، في قطار ، في عربة ترولي ، على فرس . واستعرض القوات ، ورمى بالرصاص ، بيده ، اثنين من امراء الوحدات على الملأ بسبب موقفهما المتهاون من اللحظة الراهنة ، ووقف على ركابيه ، وتحدث

بكلمات بذيئة عن اعداء الشعب ، طفحت مع الزبد من شفتيه المعوجتين حتى ان رجال الجيش الاحمر قاطعوه بخوار كخوار جواميس اثارتها سحابة من ذباب الماشية . ونشط عمل المحاكم العسكرية والشعب الخاصة ، وادخل عقوبة الموت على اهمال البندقية ، واصدر اوامر للجيش تقول : «ايها المقاتلون ! ان حثالة العالم كله ينظرون اليكم بامل ، وهم يقدمون لكم شكرهم العظيم . فانتم تنهضون للقيا فجر التاريخ الدامي بعيون مفتوحة وصدور قوية . ان الطفيليين ، والحشرات الزاحفة ، لصوص دنيكين ، وكل السفلة المعادين للثورة ، يجب ان يكتسحوا بالنار والرصاص . السلام للحثالة ، والموت للمستثمرين . عاشت الثورة العالمية !»

وكان هو الذي يكتب هذه الاوامر في حالة الانفعال . وكانت تتلى على السرايا . وكان فلاحو اوكرانيا ، وعمال مناجم الدون ، والمقاتلون في جيش القفقاس ، والاغراب والقوزاق – كل هذا الخليط المهلهل الصاخب الطليق العنان – يسمعون هذه الكلمات الفخمة كالمسحورين .

ووضع بيلياكوف رئيس الاركان ، وهو عسكري ذكي مجرب ، خطة للهجوم ، والاصح ان يشق الجيش كله ، بالافواه الثلاثين ، الحصار ، ويخرج الى ما وراء كوبان . ذلك ، على الاقل ، ما كان يراه رئيس الاركان الذي لم يكن له اي امل في نزال ناجح مع دنيكين . وعينت منطقة محطة كوريتيفسكايا (ما بين تيخوريتسكايا ويكاترينودار) لتكون نقطة الاقتحام . وبعد احتلال كوريتيفسكايا لن يكون من الصعب مجابهة طابوري دروزدوفسكي وكازانوفيتش المقطوعين جزئيا من القوات الرئيسية ، والانعطاف الى يكاترينودار ، اما بقية الامر فعل المصادفة ! . . على هذا النحو فكر رئيس الاركان . كان وضعه حرجا للغاية . كان بكل كيانه ، في نومه ويقظته ، يكره الحمر الا ان المنصب اللعين ربطه بالبلاشفة . وكان وقوعه في يدي دنيكين – الذي كان ينظر بيلياكوف اليه باعجاب حسود مثير – يعني الموت ! كما ان ارتياب سوروكين في قلة حماسه الثوري وكرهه لدنيكين يعني الموت ايضا ! وكان امله الوحيد هو طموح سوروكين الشديد ، ولو انه

امل خيالي ، مثل كل احداث ذلك الزمن . ولكن من الممكن التعويل على ذلك : دفع سوروكين الى الدكتاتورية بكل الامكانيات ، ثم انتظار ما يخبئ القدر ! . .

وعلى اية حال فقد استعد للهجوم بكل نشاط : تدفقت على محطة تيخوريتسكايا احتياطات الذخيرة وعلف الماشية ، وانزلت القنابل ، ومضت طوابير ضخمة من العربات في السهب ، واتخذ الجيش مواقعه في منطقة تيخوريتسكايا في الجنوب الشرقي لكي يهاجم محطة كوريتيفسكايا ، ومحطة اخرى الى الشمال منها هي فيسيلكي في آن واحد .

في فجر الخامس عشر من تموز فتحت مدافع الحمر للميدان نارا حامية على كوريتيفسكايا ، وبعد ساعة انطلق مئات الفرسان على الحاضرة والمحطة في موجة اثر موجة . واعملوا الطعن في البيض بسيوف صافرة ، وداسوهم بالخيول ، ولم يأخذوا اسرى الا اولئك الذين القوا بنادقهم قبل ان يقتربوا منهم . وسارت وحدات المشاة طوال الليل واخذت يتخندقون في كوريتيفسكايا على الفور ، لا في نصف دائرة ، كما حصل في بيلايا غلينا ، بل في حلقة بيضوية كاملة .

نهضت الشمس البيضاء في نقاب من الغبار والحر . وكان السهب كله يموج بالحركة : الفرسان يعدون على افراسهم ، وافواج المشاة تدب ، وعجلات البطاريات تقرقع ، وتردد سحاب العربات ، وطلقات ، وصهيل خيول ، وصيحات مبحوحة بالاوامر . وامتدت طوابير العربات حتى الافق . وكان النهار حارا كالفرن . في منتصف الطريق ترك سوروكين ضباط اركانه ، وانطلق على فرس مبيض من الرغوة وطاف بين قواته . وتبعه المدفع الرشاش والمراسلون والزنجية مثل كلاب الصيد ينقلون اوامره الى الوحدات .

كان قد فقد قبعته اثناء العدو ، ورمى سترته الجركسية عنه . فكان في قميص حريري قرمزي طوى ردنيه الى اعلى من مرفقيه ، وسروال وكوب ازرق شد بحزام جلدي مزين بقطع معدنية شدا محكما . وكان وجهه المسود من العرق والغبار يرى في كل مكان

باسنانه المكشرة . وكان قد غير ثلاثة خيول ، انه انتقد مواقــع البطاريات والخنادق حيث وحدات المشاة تتخندق في الارض السوداء كالمناجذ ، وانطلق في السهب الى نقاط المراقبة ، وعدا الى طوابير العربات التي بنات تصل ولفرغ حمولتها من القنابل . ودعا امراء الوحدات اليه بالمنارة من مفرقته ، واصغى الى تقاريرهم منحنيا على سرجه ملتهبا رعيبا ذا عينين معتوهتين . كان مثل قائد فرقــة موسيقية ضخمة يقمد على اوتار موسيقى معركة مقبلة . ترك عند المحطة حصانه اللاهث ، وهرع الى قسم البرقيات ، وضرب برجله جثة مطروحة عند العتبة مشجوجة الجمجمة ، جثة ضابط ايض ذي كتافيتين ، وخامره ، وهو يقرأ الشريط الخارج من الجهاز بسرعة ، الاحساس بانفصـال غارم عسكر : هجرت قوات دروزدوفسكـي وكازالوفيتش محطة ديتسكايا جذويا ، واقتربت بسرعة لتشتبك في معركة .

كان رجال دروزدوفسكي يركبون العربات . مئات العربات ظلت طوال النهار تنطلق في السهب في سحب من الغبار الحار . اما رجال ماركوف الذين اصبحوا تحت قيادة الجنرال كازالوفيتش لقد نقلوا مع مدفعيتهم في قطارات ، فسبقوهم ، وفي فجر السادس عشر نزلوا من العربات واندفعوا راسا يهاجمون كورينيفسكايا .

كان الجنرال كازالوفيتش واقفا على هيكل بئر قرب كشـك السكة الحديدية يراقب بهدوء الحركات المقتدرة لصفوف الضباط تزحف دون ان تطلق نارا . لاح استغراق هازئ على وجهه الدقيق الرشيق بشاربيه الطويلين اللذين وخطهما الشيب ولحيته المشذبة (مثل لحية الامبراطور السابق) واطلت ابتسامة باردة الشرية الهوى من عينيه الجميلتين . وكان شديد الثقة بنتيجة المعركة حتى انه لم يرد ان ينتظر فرقة دروزدوفسكي لحظة واحدة . كان يتنافس على المجد مع دروزدوفسكي المصاب بمرض الغرور ، والحذر ، والبطيء الحركة مما يلحق غالبا الضرر بالامر . كان يحب الحرب بنطاقها الواسع ، وبموسيقى المعركة ، ومجد الانتصارات الدائم .

خرج قرص الشمس الهائل من وراء الروابي البعيدة ، وكانت فيه ضراوة تموز . وكان نور الشمس يبهر عيون البلاشفة . لعلعت الرشاشات ، ومزقت الطلقات العسكرين الملتهب . وكان من الممكن

رؤية صفوف العدو الكثيفة تخرج من الخنادق . جرى رجال فرقة ماركوف الى الامام ، لم يحن احدهم راسه امام الرصاص . وحين الجانب الآخر زحلت للقائهم آلاف عديدة من الشخوص الصغيرة . رفع كازالوفيتش المنظار الى عينيه . غريب !

امر جندي التلفون الجالس عند البئر :

- ثلاث قنابل شرابنيل على الرفاق !

قذفت النار بطاريتان مختفيتان وراء سدة السلك الحديدي . انفجرت على ارتفاع واطىء فوق صفوف العدو نفثات الشرابنيـل القطنية ، وتفرقت الشخوص ، ثم ضمت صفوفها وتابعت هجومها . الآن صار الميدان كله يهتز من الطلقات . واخيرا زارت مدافع البلاشفة . وابتسم كازالوفيتش في دهشة ، وارتعشت ذراعـه الممسكة الحاملة للمنظار . استلقى رجال ماركوف ، وتخندقـوا بسرعة . وشحبت بشرة وجهه المسفوعـة . وثب من هيكل البئر ، وجلس مقرفصا منكبا على جهـاز التلفـون ، وطلب الجنرال تيمانوفسكي . وصاح في السماعة :

- الصفوف منبطحة . اخرق جناح العدو الايسر ، مهما كلف الامر . . . كل ثانية من الوقت ثمينة .

وفي الحال ظهر رجال ماركوف - احتياطات تيمانوفسكي - من وراء السدة . ونزلوا المنحدر وتراكضوا جماعات وصفا وراء صف ، متحمسين منفعلين ، واختلوا في القمـح العالي المشائك الحبوب . ركض تيمانوفسكي وراء الصفوف بعد ان امسك بسيفـــه ، كان شابا متورد الوجنتين ، شاحبه الصن دائما في قميص كتاني قذر عليه كتافيتان سوداوان من كتافيات الجنرالات ، وقد صرح ظاليته العالية الى الوراء . وجرى شيء غير مفهوم : كان البلاشفة قـد تعثروا برجال آخرين ، وانقضت كل اللحظات التي كان يجب ان يحطموا فيها بالتاكيد . الآن امتلأ السهب كله بشخوصهم الزاحفة . كانت رشاشات المتطرفين تضرب بجنون ، فكانت موجات جديدة تحل مكان الصرعى .

كانت سرايا تيمانوفسكي تركض واحـــدة وراء الاخرى ، وحرابها منكسة الى الارض ، في نهايـــة حقل القمح . . . شده كازالوفيتش قامته كالوتر ، على هيكل البئر . وكان يرى في مجال

الرؤيا الضيق في المنظار اغلبية رجال ماركوف الضارية . ما اشد الجهد ! ويتساقطون ويتساقطون ! وحول منظاره الى الراكضين ، وفجأة رأى افواهـا فاغرة ، ووجوها عريضـة ، وقبعات بحـارة ، وصدورا بزرقة عارية ... بحارة بلاشفة ... وفجأة اختلط كل شيء ، وتكور في زحام واحد . انه قتال في الحراب . وجمـدت الابتسامة السقيمة على شفتي كازانوفيتش الرشيقتين ... لم يصمد رجال ماركوف . تراكضت بقية السرية الاولى الى حقل القمـح ، واستلقت . وتراجعت السرية الثانية وانطرحت ارضا .

عندئذ وثب من هيكل [illegible] ، وركض خلفها الى الحقل ، وراءه الرجال . واستطاع ان ينهض الصفوف صائحا : الهيب ، يا سادة ، هيب !! ودفعهم في هجوم بالحراب . الا ان النار كانت من الشدة بحيث ان الرجال راحوا يتساقطون بكثرة ، وانطرحت الصفوف من جديد ... ايمكن ان تكون هذه معركة خاسرة ؟

في نحو الساعة التاسعة صباحا ترددت من الغرب قصف مدافـع دروزدوفسكي . وظهرت في السهب مصفحة كالسلحفاة الرماديـة تترنح في سيرها . صرخ رجال دروزدوفسكي بالهجوم بشكل نظامي ودون عجالة . ونهض رجال كازانوفيتش للمرة الثالثة . والآن كان المتطوعون يتقدمون في جبهة عريضة ، على شكل هلال . ان البلاشفة لا يمكن ان يتحملوا هذه الضربة .

ظهر فارس بين خنادق البلاشفة ، عدا بجنون ملوحا بنصل لامع . وصعد رابية ، وكبح حصانه . كان الفارس يرتدي قميصا قرمزيـا مطوي الكمين ، ورأسه ملقى الى الوراء . صرخ ، ولوح بالسيف مرة اخرى . فاذا بسيل من الخيالة يتصدى لصفـوف دروزدوفسكي المهاجمة . كانت خيولهم الصغيرة الهائجـة تكاد تنطبق على الارض . وتوقف اطلاق النار . ومن بعيد كان يسمع صليل السيوف ، والعويل ، ووقع الحوافر . اندفع الفارس ذو القميص القرمزي من الرابية ، واطلق العنان لفرسه ، وانطلق بالعصى المسرعة في المقدمة . ارتفعت سحابة سوداء من الغبار مغطية ساحة المعركة . ولم يصمد رجال دروزدوفسكي وماركوف لضربة الخيالة ، وتراكضوا هاربين ، وتوقفـوا وتخندقـوا وراء نهير كوربيل .

شد ايفان ايلينتش تليغين رأسه بشاش من محفظة الاسعاف الموسومة به ، وهو يقلص عينيه ويرتجف من الالم .

كان خدشا خفيفا ، والعظام لم تصب ، ولكنه كان يحس بألم شديد ، وكأن لولبا يدور في جمجمتـه كلهـا ، وكان قد وهن من الجهد حتى انه ظل راقدا على ظهره في حقل القمح وقتا طويلا بعد [illegible] .

وكان غريبا ان يسمع صرير الجنادب الوادع وكأن شيئا لم يحدث . انتهى الصراع الدامي والصيحات وهدير المعركة الحديدي . ولدى الجنادب المختفية في شقوق الارض ، والنجوم الكبيرة في ليل جنوبي ، وبعض السنابل المتدلية بلا حراك ما بين عينيه والسماء . وقبل وقت كان احد الجرحى يئن على مسافة قريبة ، والآن قـد هدأ .

السكون شيء رائع . خف الالم اللاذع في رأسه . وبدا وكأن مصدر الالم مبعثه عتمة الليل المهيبة عنه . ولمعت في ذاكرته صور ساطعة من اليوم الذي تمزق وتكور مختلطا بقصف المدافـع ، وصيحات الافواه المفتوحة بوحشية ، ونوبات الكراهية ، حين تركض فلا ترى غير الحراب الحادة والوجه الشاحب للرجل الذي يصوب النار عليك . الا ان الذكريات نفذت في ذهنه بألم ، وحزت جمجمته حتى انه توجع ، وحاول ان يفكر في شيء آخر ...

في اي شيء كان من الممكن ان يفكر ؟ امـا في هذه الحقب الرهيبة لحدث طويل لا تستوعبه المخيلة — الثورة والحرب — واما في حلم عن السعادة بعيد مغلق دونه ، حلم عن داشا ؟ واخذ يفكر فيها (في الواقع لم يكف قط عن التفكير فيها) يفكر في انهـا محطة وحيدة ، غير مجربـة ، وعديمة المقدرة ، وخيالية ... عينان [illegible] . اما القلب ، فمثل قلب الطائر ، مذعور ، خافق ، فتية ، طفلة ...

لمس ايفان ايلينتش بيده المرتعشة على حفنة تراب حار ، وعصرها . واسبل جفنيـه . افترقت معه واتفقـنا من انه الفراق النهائي . حمقاء ... لا احد تنزعه عيناك القاشيتان ... ولا احد سيخلص في حبه لك اكثر مني ، حمقاء ... تقاسين مرارات مريرة لا تنتهي ...

تحدرت الدموع من خلال رموش ايفان ايليتش – فان الجرح قد اوهنه . اخذ جندب يصرصر قرب اذنه . وبدا الحقـــل المدمر المداس فضيا من ضوء النجوم . وغطى الليل على كل شيء بجنحه ... رفع ايفان ايليتش جسمه ، وقعد محتضنا ركبتيه . كل شيء كان كالحلم ، كما في الطفولة . واشتاق القلـــب ، وبكى ... نهض ، وسار محاولا الا تهز خطواته راسه .

كانت كوروبيفسكايـــا على بعد فرسخ من هنـــا . هناك نيران منفردة . وعلى مسافة اقرب ، في الوهدة ، كان لسان مــن اللهب يتراقص فوق الارض بلا دخـــان . واحس ايفـــان ايليتش بالعطش والجوع ، فتحول باتجاه النار .

في كل الحقل كانت شخوص سوداء تسير الى هناك . منهم الجريح جرحا خفيفا ، ومنهم الضائع من وحدة ممزقة ، ومنهـــم من يسحب اسيرا . وتنادوا ، وتردد سباب مبحوح ، قهقهة قوية ... وعند النار التي تحترق فيهـــا عوارض خشبيـــة استلقى رجال كثيرون .

وشم ايفان ايليتش رائحة خبز . كان جميع هؤلاء الذيــن لطخهم الغبار يمضغون الخبز . كانت بالقرب من النار عربة فيها خبز وبرميل صغير تغرف منه الماء امراة نحيلة بادية الاعياء تشد راسها بمنديل ابيض .

ارتوى ايفان ايليتش ، وحصل على قطعة من الخبز ، واتكا على العربة ، واكل ناظرا الى النجوم . كان الناس عند النار قـد هداوا ، واستغرق الكثيرون منهم في نوم . اما اولئك الذين كانوا ياتون من الحقل فما زال الغضب يعتمل في نفوسهم . كانوا يشتمون ويتوعدون في الظلام ، ولو ان احدا لم يصغ اليهم . كانت الممرضة توزع الماء وقطعا من الخبز .

سحب شخص ذو لحية سوداء عار حتى الحزام اسيرا ، وطرحه عند النار .

— هذا هو ابن الكلب ، الطفيلي ... استجوبـــوه ، يـــا اصحابي ...

وضرب الرجـــل المطروح بحذائـــه ، وابتعد ساحبـــا بنطلونه ، وصدره المخطط يعلو ويهبط . عرف ايفان ايليتش

انه تشيرنوغوتوف . فاستدار . هرع بعض الاشخاص الى الاسير المطروح ، وانحنوا عليه .

— من المتطوعين ... (نزعوا عنه كتافيتيه ، والقوهما في النار .)

— انه صبي صغير ، ولكنه حقود !

— جاء ليحارب في سبيل اموال آبائه ... يبدو انه مـــن الاغنياء ...

— عيناه تلمعان ، الوغد ...

— لماذا تنظر اليه ؟ دعوني ...

— انتظر ، ربما عنده اوراق . لناخذه الى مقر الاركان ...

— خذوه الى الاركان ...

صاح تشيرنوغوتوف مندفعا :

— لا ! كان طريحا مجروحا . تقدمت منـــه ، – انظروا الى حذائه – فاذا به يطلق النار علي مرتين . لن اعطيه لاحد .

وصرخ بالاسير صرخة اكثر وحشية :

— اخلع الحذاء !

نظر ايفان ايليتش بطرف عينـــه مرة اخرى . كان راس الاسير الصبوي الحليق المدور يلمع في ضوء النار . وكانـــت سحنته مكدرة ، وحدقتا عينيه الكبيرتين تروحان وتجيئـــان ، وللفص انفه الصغير قشورا كثيرة . كان يبدو انه فقد صوابه كليا ... وثب ناهضا بحركة حادة ، وكانت يده اليسرى تتدلى بلا حياة في كمه المشقوق المدمى . وصدر صفير خفيـــف من بين اسنانـــه ، بل ومد عنقـــه ... تراجع تشيرنوغوتوف امام هذه الصورة الحية الرهيبة من الكراهية ...

ارتفع من بين الجمع صوت كثيف :

— آها ! الا اعرفه . كنت اشتغل في معمل ابيه للتبغ . ان اباه اونولي صاحب معمل في روستوف ...

ارتفعت اصوات :

— نعرفه ، نعرفه .

احنى فاليريان اونولي جبينه ، وهز راسه ، وصرخ ببحـــة [illegible] :

— وشعاء سلسلة ، اوغاد حمر ! سأصلحكم على ابوازكم ! الم نقتل ولنشنق منكم الكفاية ، يا كلاب ! أهذا قليل ؟ سنشنقكم جميعا ، يا اوغاد اوباش . . .

وفقد رعيه ، وامسك تشيرتوفرنوف من لحيته الكثة ، واخذ يضربه على بطنه العارى بحذائه . . .

ابتعد ايفان ايليتش عن العربة فى الحال . صدرت الاصوات متوعدة ، وغطت صرخة حادة الغيظ المتصاعد . ارتفع فوق الجمع جسم فالبريان اوارل مبسوط الذراعين راقصا ، وطار فى الهواء وسقط . . . وارتفع عمود من الشرر عاليا فوق النار . . .

فى السهب الذى مسه البرد قبيل الصباح ترددت طلقات متوانية ، وكأنها وقع سياط ، وسرى هدير المدافع مهيبا . ذلك طابورا دروزدوفسكى وبوروفسكى عادا الى الهجوم مرة اخرى من وراء نهير كبريلى ، ليحولا التوفيق الى جانبهما بجهد مستميت .

فى تلك الليلة تلقى القائد سوروكين امرا من يكاترينودار من اللجنة التنفيذية المركزية المجتمعة بلا انقطاع بأن يكون قائدا عاما لجميع القوات الحمراء فى شمال القفقاس .

وقد ابلغه بذلك رئيس الاركان بيلياكوف الذى اندفع الى عربة القائد العام للجيش ومعه الشريط البرقى ، والقى رجل القائد من على التخت وقرأ الامر على ضوء قداحة بنزين . لم يكن سوروكين قادرا على ان ينتزع نفسه من النوم ، فرمش بعينيه ، وسقط على الوسادة الحارة ، اخذ بيلياكوف يهزه من كتفيه :

— أصحُ ، يا صاحب الفخامة ، الرفيق القائد العام الاعلى . . . سيد القفقاس ، هل فهمت ؟ البصر والله . فهمت ؟

عندئذ فهم سوروكين اهمية النبأ الهائلة برمتها ، مصير الساحل كله ، المطبوع بنقاط وشرطات فى الشريط الورقى الضيق الملتوى فى اصابع رئيس الاركان . عدّل بنطاله بسرعة ، والقى عليه سترته الجركسية ، وشد حلاق مسدسه ، وسيفه .

— اعلن الامر على الجيش فورا . وهيىء لى الفرس . . .

فى الفجر ، وبعد ان اعاد ايفان ايليتش تقميط واسمه سار بين العربات باحثا عن مقر فوجه . وفى تلك اللحظة انطلق فى الشارع من جانب المحطة رهط من الخيالة ونهايات قلانسهم القوزاقية ترفرف فى الريح ، كان البراق فى المقدمة وخلفه اثنان : سوروكين يهز مقوة حصانه الطويل العرف ، والقوزاقى يحمل شارة القائد الاعلى على رمح . واندفع الفرسان باتجاه الطلقات ملتفين بالغبار مثل اشباح الليلة .

ومن العربات المحملة بالندى ارتفعت رؤوس ناعسة ، وظهرت لحى ، وصدرت اصوات مبحوحة . ولكز البراق العادى فرسه بعيدا فى السهب بوتّق معلنا ان القائد العام الاعلى قريب ، انه هنا ، فى المعركة ، تحت الرصاص . . . وصدح البوق : «تا — تا — تا ، سنسحق العدو ، قدما الى النصر والمجد . . . البطل لا يعرف الموت : بل المجد الخالد . . . تا — تا — تا . . .»

وجد ايفان ايليتش الضابط غيمزا فى كوخ طينى محطم النوافذ . ولا احد غيره من ضباط الاركان . كان غيمزا يجلس محدودبا على مصطبة ضخما كئيبا ويده الحاملة لملعقة خشبية تتدلى بين ركبتيه المنفرجتين . وعلى المنضدة طاسة من حساء الكرنب الى جانب حقيبة مكتنزة — الى جهاز رئيس الشعبة الخاصة .

كان غيمزا يهوم ناعسا . لم يتحرك بل ادار عينيه نحو ايفان ايليتش :

— جريح ؟

— بسيط . . . مجرد خدش . ظللت نصف الليل راقدا فى ظل النبع . . . فقدت جماعتى . . . اية شربكة هذه . . . اين الفوج ؟

قال غيمزا :

— اجلس . هل تريد ان تأكل ؟

ورفع يده بصعوبة ، وقدم الملعقة . هجم ايفان ايليتش على طاسة الحساء نصف البارد ، بل التهم ذلك بانين الجوع . اكل برهة وهو صامت .

— طرد رفاقنا يوم امس بشكل جيد ، يا رفيق غيمزا حتى لم تكن ثمة حاجة الى انهاضهم . هاجموا بالحراب على بعد للشمالة الا لإصالة خطوة .

قال لميمزا :

— كفى ألفا . — وضع تليغين الملعقة . — هل سمعت بالأمر الذى اذيع فى الجيش ؟

— لا .

— عين سوروكين قائدا عاما اعلى . مفهوم ؟

— وماذا فى ذلك ؟ شيء جيد . . . هل رايته يوم امس ؟ الملاك الفنان لحصانه فى صميم النار . القميص القرمزى ، وهو على مرأى من كل الناس . والمقاتلون ما ان يروه حتى يهتفوا له : «هوراء» . لو لا هو يوم امس لما عرفت ماذا . . . دخنا كثيرا يوم امس ! كان كقيصر .

قال لميمزا :

— نعم ، انه قيصر . من المؤسف انني لا استطيع ان ارميه .

انزل تليغين الملعقة :

— هل انت . . . تهزل ؟

— لا ، لا اهزل . على كل حال انت لا تفقه فى هذه الأمور — ونظر الى ايفان ايليتش نظرة ثقيلة لا ترمش — ولكن ، الا تثق بى ؟ (نظر تليغين فى عينيه بهدوء .) حسنا . اريد ان اعهد اليك بمهمة صعبة ، يا رفيق تليغين . . . اظن انك انسب شخص . . . يجب ان تسافر الى الفولغا .

— سامع .

— ساكتب كل التفويضات اللازمة . اعطيك رسالة الى رئيس المجلس العسكرى . واذا كنت لا تنجح ، ولا تسلمها فمن الافضل ان تنتقل الى البيض . لا تعد الى هنا . مفهوم ؟

— حسنا .

— لا تسلم نفسك حيا . احرص على الرسالة اكثر من حرصك على حياتك . واذا وقعت فى ايدى الاستخبارات افعل كل ما تستطيع لعمله ، ابتلع الرسالة . . . فهمت ؟ — تحرك لميمزا وضرب الطاولة بجمع يده حتى ان الطاسة قفزت . اعلمك سيكون فى الرسالة ما يلى : الجيش يؤمن بسوروكين . وسوروكين الآن بطل . والجيش يذهب وراءه الى حيث يشاء . . . وانا اطلب ان يرمى سوروكين

بالرصاص . . . على الفور قبل ان ياخذ بزمام الثورة . هل استوعبت ذلك ؟ ان هذه الكلمات هى موتك . يا تليغين . . . فهمت ؟

وصمت . ذبت ذبابات على جبينه .

قال تليغين :

— حسنا ، سيكون ذلك .

— اذن ، فسافر ، ايها العزيز . . . لا اعرف اى طريق يجب ان تسلك . الطريق عبر ستافروبول كريست ، الى استراخان طويل . . . الافضل لك ان تتسلل على طول الدون الى تساريتسين . . . وبالمناسبة يمكنك ان تستطلع الوضع عند البيض ، فى المؤخرة . . . دبر لنفسك كتابين ضابط ، وانطلق . . . ماذا تريد : كتابين نقيب ام مقدم ؟

وضحك . ووضع يده على ركبة تليغين ، وربت عليه للاطفال :

— نم ساعة او ساعتين ، اما انا فسأكتب الرسالة .

١٠

اخيرا حصل قاديم بتروفيتش روتشين على اجازة لمدة ثلاثة اسابيع . كان تعبا للغاية ، مريضا تمزقه التناقضات . يخدم فى ذلك الوقت فى حامية المتطوعين فى محطة تيليبكوكتياجيسكايا . لم تكن هناك معارك كبيرة ، فان جميع قوات الحمر قد انسحبت جنوبا لتقاتل قوات دنيكين الرئيسية . وهنا ، فى القرى الواقعة على نهرى قابيتش وسال وقعت قلاقل ، الا ان فصائل التشكيل القوزاقية للاتمان كراسنوف هدات العقول الثائرة بيد ماهرة : تارة بالاقناع ، وتارة بالجلد ، وتارة بالشنق .

انسحب قاديم بتروفيتش من الاشتراك فى التشكيل متعللا بالصدمة التى اصيب بها . وكان يتفادى حسب الامكان الذهاب الى حفلات الضباط التى كانت تقام احتفالا بانتصارات دنيكين . والغريب ان جميع رجال الحامية كانوا ، كما كانوا فى الجيش المحارب ، ينظرون الى روتشين بحذر ، وبعداء خفى .

كان ثمة شخص قد اشاع اشاعة عن «صبغته الحمراء» فلصق هذا النعت به .

في الخنادق بالقرب من شابليفكا صوب المتطوع اوتسول النار عليه . كانت روتشين يتذكر تلك اللحظة بوضوح : هدير ينبعث من القطار المصفح ، صياح آمر السرية : «استلقاء !!» وانفجار ، ثم طلقة متأخرة من مسدس ، ضربة كضربة عصا على القفا ، وعينا اوتسول تطفحان بفرح ضار .

رجل واحد كان يمكن ان يصدق بكلمة الشرف التي يقولها روتشين ، وهو الجنرال ماركوف . الا انه قد قتل . وفورد فاديم بتروفيتش الا يثير مرة اخرى هذا الامر المشكوك فيه في اتهام الصبي .

وكان يعذبه التفكير في مصدر كل هذه الكراهية له . الم يكن واضحا حقا انه مخلص ، وانه نزيه ، وان افعاله تسترشد بفكرة واحدة فقط ، هي عظمة روسيا ؟ انه لم يأت الى هذه السهوب الرهيبة من اجل رتبة جنرال . .

كانت تنقص روتشين الرؤية الصافية الصلبة للاشياء . كان فكره يلون العالم والاحداث بالشكل الذي كان يراه بنفسه افضل واكثر اهمية . وكان يصرف النظر عما لا يروق له ، ويتغاضى عن المزعج من الاشياء . وكان يتصور العالم نظاما كاملا . وكان مبعث ذلك في اكبر الظن روح الارستقراطية الغريزية ، والكثير من اجيال ملاك الارض المتنعمين . فان تلك السلالة المنقرضة كانت تضع الهناء الذاتي الرائع فوق كل اعتبار ، وتفرضه على كل شيء ، وعلى كل طرف . لا يهم اذا سيط فلاح في اسطبل ، فانه سيصيح قليلا ، وبعد العصا سيندم ، وسيكون ذلك افضل له ، للنادم ولناصحه السلام . ولا بأس لو تبطل السندات ، وتباع الضيعة بالمزاد العلني . يمكن ان يعيش الانسان في جناح ، في اجمات الارقطيون وعنب الثعلب ، بدون مآدب صاخبة . فان ذلك اهدأ للنفس عند الشيخوخة ، في القلب الظن . . . ولم يستطع القدر بكل جهده ان يقلق مالك الارض الطيب المزاج . ونشأت عنده نظرة ناعمة خاصة : ان لا يرى في اي شيء غير الرائع والسامي !

كان لدى فاديم بتروفيتش ايضا هذا الافتقار الى النظرة

الانتقادية للاشخاص والافعال . (حقا ان احداث الشهور الاخيرة قد اصابت رومانسيته بضربات شديدة ، او بالاحرى لم يبق منها الا مزق .) وصار عليه الآن ان يقلص عينيه باستمرار . ولهذا السبب اضحى يتجنب نادي الضباط ، مثلا .

ان هؤلاء الناس - حفنة من الضباط وطلاب المدارس العسكرية - كان يجب ان يرتدوا ، حسب فهمه ، ملابس بيضاء كالصليبيين : فقد شهروا السيف على الغوغاء المتمردة ، على القادة السود - خدم واتباع المسيح الدجال او الالمان - الشيطان يعرف لمن - (بهذه الشحنة من الافكار خرج روتشين الى منطقة الدون .)

ولكن كان من التأبي ان يسمح في مقاصف الضباط ثناء صاخبا على راقي الاقداح ، اطراءات على الشجاعة في قتل الاخ لاخيه . ان هذه الوجوه الشابة والانيقة في وقت سابق لـ«الصليبيين» قد شوهها الظمأ الى القتل ، الى التنكيل ، الى الانتقام . ها هم يقفون وبايديهم اقداح من الكحول المركزة ينشدون لحن الموت لمن كان اوضع الناس ، لمن قد رمي بالرصاص ، واحرق ، وبدد مع الريح ، مثل تبغ التبن . ولو جمع كل الدم المراق بارادته العاجزة لاغرقه الشعب حيا في تلك البحيرة العميقة من الدم . . .

وبما لحن الموت هذا (وروتشين يقلص عينيه على الخصوص بالذات) الفكرة الوحيدة لدى زملائه . . . تطهير روسيا من البلاشفة ، الوصول الى موسكو ، رنين الاجراس . . . دخول الجنرال كورنيلوف الكرملين على فرس ابيض . . . كل ذلك مفهوم . ولكن ماذا بعد ؟ الشيء الرئيسي ؟ وكان حتى الحديث عن الجمعية التأسيسية امام الضباط يعتبر غير لائق . يعني مرضا بالموت ؟

ما الذي جذب هؤلاء الناس الى القتال والموت ؟ ويقلص روتشين عينيه . . . لم تعد البطولة تعريض الصدور للرصاص ، واحتساء الكحول في عربات القطار المدفأة . فقد اضحى ذلك قديما باليا ، هذا يمارسه الشجعان والجبناء على حد سواء . واصبح مألوفا التغلب على خوف الموت . فقد صارت الحياة رخيصة .

كانت البطولة هي التخلي عن النفس باسم المعتقد والحقيقة ، ولكن هنا ايضا تتقلص العين انقباضا ، تتقلص بلا نهاية . . . بأي حقيقة يؤمن زملاؤه في الفوج ؟ بأي حقيقة آمن هو نفسه ؟ في تاريخ

روسيا التراجيدى العظيم ؟ ولكن ذلك كان واقعا وليس حقيقة . الحقيقة فى الحركة ، فى الحياة ، ليست فى تقليب صفحات كتاب مترب ، بل فى ما يجرى نحو المستقبل .

باسم اى حقيقة (اذا استثنينا رنين اجراس موسكو ، والفرس الابيض ، والازهار على الحراب وغيرهـــا) ينبغى قتل الفلاحين الروس ؟ ان هذا السؤال بدأ يتسرب الى وعى فاديم بتروفيتش ، ويرتشح مثل ارتشاح الماء من القاء حجر . ومن هنا بدأ انشطاره المعذب . كان فرويا بين زملائه ، «صبغة حمراء» ، «بلشفيـــا تقريبا» .

وظل حديثه الاخير مع كاتيا يلح عليه أكثر فأكثر ! ويدفع الدم الى اذنيه خجلا . عصرت يديها ، وتقطعت انفاسها انفعالا ، وكأنما رأت احجارا تتساقط فى هاوية من تحت قدمى فاديـــم بتروفيتش . «يجب ان تفعل شيئا آخر تماما ، يا فاديم ، فاديم !!»

وكان ما يزال غير منهى' لأن يقر لنفسه ان كاتيا كانت على حق كما يبدو ، وانه قد ضل ضلالا ميئوسا منه ، وانه كلما تمادى فى الامر قل فهمه للسر فى تنامى قوة «الغوغاء المتمردة» بسرعة كابوسية ، وان من الحماقة العظيمة القول فى حميا الغيظ بـــان البلاشفة يخدعون الشعب ، لأنه لم يعرف بعد هل البلاشفة هم الذين دعوا الى الثورة ، ام الشعب هو الذى دعا البلاشفة ، وانه الآن لا يتهم احدا غير نفسه .

كانت كاتيا على حق فى كل شيء . حملت من الحياة القديمة الى هذه الاوقات العصيبة القلقة عاطفة واحـــدة . كنزا واحدا — الحب والحنان . وتذكر كيف سارت فى شوارع روستوف وعلى رأسها منديل ، وفى يدها صرة هى رفيقة حياته الوديعة ... حبيبـــة ، حبيبة ... ان يضع رأسه على ركبتيها ، ويضم الى وجهه يديها الرقيقتين ، ويقول فقط : «كاتيا ، انا منهوك ...» ولكن المرأة السخيفة تبخث فاديم بتروفيتش . كانت قامته النحيلـــة تظهر فى شارع القرية الشرب ، فى الصف ، فى نادى الضباط ، وكأنه قد شد فى حصد حديدى ، وقد اشتعل الشيب فى رأســه المرفوع باباء ... وكانوا يقولون عنه : «يا رب ، يرفع الله ، يتصور نفسه من حراس الامبراطور ، وهو وغد من المشاة ...»

وكان قد ارسل لكاتيا رسالتين قصيرتين ، ولكنه لــم يتلق جوابا . عندئذ قرر ان يكتب الى المقدم تيتكين . الا انـــه حصــل على الاجازة فى ذلك الــوقت ، فسافر فى الحـــال الى روستوف .

استأجر عربة الحصان من المحطة عند الظهر . كانت المدينة قد تغيرت تغيرا لا تعرف به . كان شارع سادوفايا نظيفا جدا ، والاشجار مشذبة ، والنســـاء انيقات ، وكلهن فى ملابس بيضاء يتنزهن فى الجـــانب الظليل ، وينعكسن على واجهات المخـــازن الزجاجية اللامعة .

تلفت روتشين وهو فى العربة يبحث بعينيه عن كاتيا . ما هذا ؟ كان النساء خارجات من حلم منسى ، فى قبعات عليها ريش على الطراز القديم ، وقبعات بنامــا ، وقفازات بيضاء ... اقدامهن البيضاء تطرق الاسفلت الذى يغسله بوابون جهماء ، وما مـــن لطخة دم على تلك الجوارب البيضاء . من اجل كل هذا تعسكـــر الوحدة فى فيليكوكنياجيسكايـــا ! من اجل هذا يطارد دتيكين البجاوى الحمر منذ اربعة اسابيع ! تلك هى الحقيقة البـسيطـة «رائعة النهار» ، حقيقة الحرب البيضاء !

وابتسم روتشين ابتسامة مرة . فى مفارق الطرق كان الالمان يحضرون فى بزاتهم المألوفة الخضراء الرمادية الى حد الغثيان . وفى قبعاتهم القشبة ، وكأنهم فى بيوتهم ! واذا باحدهم يرفع النظارة الاحادية الزجاجة من عينه ، ويقبل يد حسناء فارعـــة فى لباس ابيض ...

— يا حوذى ، اسرع !

كان المقدم تيتكين واقفا عند باب بيته . واقتربت عربـة فاديم بتروفيتش فقفـــز منها ، ورأى تيتكين يتراجع وعينـــاه تحوران ، وتتجعلقان . ارتعشت يده السمينة ، ولوحت لروتشين ، وكأنما يحلم .

— مرحبا ، يا مقدم ... أحقا انك لم تعرفنى ؟ انـــا ... بطل الحرب ، كيف كاتيا ؟ فى صحة ؟ لماذا لا ...

هتف تيتكين بصوت نسوى :

— يا للسماء ، انت حي ؟ يا عزيزي ، فاديم بتروفيتش !
واندفع على روتشين ، واحتضنه ، وبلل خده بالدمع .

— ما الذي حصل ؟ اخبرني بكل شيء ، يا مقدم ! . .

— لذبها اعلمها انك حي . . . والمسكينة يكاترينا دميتريفنا ، كم قاست !

واخذ تيتكين يروي له بشكل مشوش كيف انها ذهبت الى اولوك ، وانه ، لسبب غير معروف ، اكد لها ان روتشين قد قتل ، وتحدث عن شقاء كاتيا ، ورحيلها .

فقال روتشين بلهجة حازمة ناظرا الى الارض :

— اذن . . . اين رحلت يكاترينا دميتريفنا ؟

بسط تيتكين ذراعيه ، وعبر وجه الطبيب عن رغبة حارة في المساعدة .

— اتذكر . انها قالت لي انها مسافرة الى يكاترينوسلاف . . بل اتصور انها كانت تريد ان تعمل في محل للحلويات . . . من الياس ان تلجا الى محل الحلويات . . . انتظرت ان تكتب ، ولكن لم تكتب سطرا واحدا ، وكانها انطمست في الماء . . .

رفض روتشين الدعوة لاحتساء قدح من الشاي ، وعاد الى المحطة راسا . كان قطار يكاترينوسلاف يغادر في المساء . ذهب روتشين الى صالة انتظار الدرجة الاولى ، وجلس على اريكة بلوطية عادية ، واستند على كوعه ، وغطى عينيه في كفه . وبقي ساعات طويلة بلا حراك . . .

زفر شخص زفرة تفريغ ، وجلس الى جانب فاديم بتروفيتش وقتا طويلا ، كما يبدو . وقبل ذلك جلس كثيرون . كانوا يجلسون قليلا ثم ينصرفون . اما هذا فقد بدا يهز رجله وفخذه بشكل جعل الاريكة كلها تهتز . ولم ينصرف ، ولم يكف عن الاهتزاز . فقال روتشين دون ان يرفع يده عن عينيه :

— اسمع ، الا تستطيع ان تكف عن هز رجلك ؟ . .

اجاب الرجل باستعداد :

— اعذرني ، عادة سيئة . — وجلس بعد ذلك ساكنا .

الهل صوته لفاديم بتروفيتش : صوت مالوف جدا ، له صلة بشيء بعيد ، بذكرى طيبة . افرج روتشين اصابعه دون ان يرفع يده عن عينيه ، ونظر الى جاره بعين واحدة . لقد كان ذلك تليغين . كان قد مد رجليه المحتذيتين حذاء طويلا قذرا ، ووضع ذراعيه على بطنه ، وراح يهوم ملقيا قفاه على متكأ الاريكة العالي . كان يرتدي سترة ضيقة تضغط على الابطين ، وكتافيتي مقدم جديدتين . وقد بدت على وجهه النحيل الحليق الملوح ابتسامة رجل يستريح بعد تعب مضن . . .

كان اقرب انسان الى روتشين بعد كاتيا ، اخا وصديقا عزيزا . كان يشع منه نور سحر الشقيقتين : داشا وكاتيا . . . ومن الذهول كاد فاديم بتروفيتش ان يهتف ، كاد ينقض على ايفان ايليتش . الا ان تليغين لم يفتح عينيه ، ولم يتململ . ومرت ثانية . وادرك ان امامه عدوا . وكان فاديم بتروفيتش قد عرف منذ نهاية ايار ان تليغين في الجيش الاحمر ، وانه انضم اليه بمحض ارادته ، ويعتبرونه ضابطا ممتازا . وكان متنكرا على ما يبدو ، رابضا في ملابس ضابط قتله بيده ، في رتبة مقدم (بينما لم يكن الا نقيبا في الجيش القيصري) . . . واحس روتشين باشمئزاز مباغت ازاء ، من ذلك الذي ينتهي لديه في العادة بنوبة من الكراهية الحادة : لا يمكن ان يكون تليغين هنا لغير جاسوس . . .

كان يجب الاسراع بابلاغ الكومندان . ولو كان ذلك قبل شهرين لما تردد روتشين لحظة واحدة . الا انه التصق بالاريكة ، ولم يجد في نفسه القوة . ثم ان الاشمئزاز بدا وكانه ينزاح عنه . . . ايفان ايليتش ضابط احمر ، وها هو الآن الى جانبه ، كما كان من قبل نعسا طيبا . . . لم يقدم على ذلك من اجل المال ، ولا من اجل الرغبة . ذلك حرام ! انه وهو الرجل الرصين الرابط الجاش اقدم على ذلك لانه اعتبر ذلك قضية عادلة . . . شانه شاني . . . انى به ليكون زوج داشا ، واخو كاتيا واخي انا . بعد ساعة مطروحا على كومة من القاذورات عند سياج ، بلا حذاء . . .

واطبق الذعر على خناق روتشين ، فانكمش بكل كيانه . . .

ما العمل ؟ النهض ، وانصرف ؟ ولكن ربما يعرفه تلبطين ، وصاب بالذهول ، ويهتف . كيف ينقذه ؟

جلس روتشيف وافان ايليتش جنبا الى جنب على الاريكة البلوطية ساكتين وكانهما تالمان . وكانت المحطة خالية في تلك الساعة . اغلق الحارس الابواب المؤدية الى الارصفة . عند ذاك تكلم تليغين دون ان يفتح عينيه :

— شكرا ، فاديم . . .

ارتجفت يد روتشين بشدة ، نهض ايفان ايليتش بعجلة ، وسار نحو المخرج الى الساحة بمشية عادية دون ان يلتفت . وبعد دقيقة اندفع روتشين في اثره . دار حول ساحة المحطة ، حيث كان الباعة السمر البشرة يهومون عند بسطاتهم تحت حزم السمك المدخن ، في الشمس البيضاء التي اذابت اسفلت الشوارع . . . كانت الاوراق محترقة على الاشجار ، والهواء كله يلتهب مفعما بغبار المدينة .

«لو اعانقه . فقط اعانقه» وطافت امام عيني روتشين دوائر حمراء من الحر . واختفى تليغين وكان الارض قد ابتلعته .

في الساعة التي انطفأ فيها شفق السهب ، وغفا روتشين على تخت العربة العلوي في نومة عادية على دمدمة عجلات القطار كانت تلك المرأة التي يبحث عنها ، زوجته كاتيا التي كانت تهفو اليها روحه المعذبة المريضة من الغم والكراهية ، قد سارت في السهب في عربة ، كان كتفاها ملفوفتين في شال ، والى جانبيها جلست الحسناء ماتريونا كراسيلنيكوفا . صلصل حديد العربة ، ونخرت خيول ، وكان عدد كبير من العربات يمتد في السهب من الامام ومن الخلف ، تحت جنح الظلام لنيلة متجهة .

كان الكسي كراسيلنيكوف قد اطلق العنان ، وجلس على مقدمة العربة ، وسيميون يحط على جنب العربة . واوراق الارقطيون والبرسيم تضرب في حذائه . كانت في الجو رائحة خيول والفستق ، وكانت كاتيا تفكر في عيبه الفقاعة . وكانت الريح تبرد كتفيها ، والسهب بلا نهاية ، والطرق بلا نهاية ، وعلى مر القرون كانت تسير

الخيول وتصرف العجلات ، والآن تعاود سيرها على ظلال مضارب الرحل القدامى . . .

السعادة ، السعادة حتى مستديم ، منطقة السهوب ، ساحل الاوروبي ، امواج لطيفة ، سلام ، رخاء .

حدقت ماتريونا في وجه كاتيا ، وابتسمت ، وكركبة الحوافر من جديد ، كان الجيش يخرج من الحصار ، امر الاتمان ماخنو بالسير بهدوء ، وهبطت كتفا الكسي الثقيلتان ، يبدو ان النعاس قد غلبه . قال سيميون بصوت خافت :

— لا اريد التخلص منكم . . . فلماذا ترددون ؟ سيميون ، سيميون . . . (تنهدت ماتريونا تنهيدة قصيرة ، واستدارت ، وحدقت في السهب .) لقد قلت لالكسي منذ الربيع : ليس العزيز علي هو شريط البحارة ، بل القضية هي العزيزة . . . (صمت الكسي .) لمن الاسطول الآن ؟ لنا ، نحن الفلاحين . فماذا يحدث لو تفرقنا عنه جميعا ؟ اننا نكافح من اجل قضية واحدة . انتم هنا ، ونحن هناك . . .

سألت ماتريونا :

— وماذا يكتبون لك ؟

— يكتبون : من الضروري العودة الى المعمورة ، والا فسأعتبر هاربا ، خارجا على قانون الثورة . . .

عرفت ماتريونا كتفها ، كانت تضطرم لهفا . ولكنها ضبطت نفسها ، ولم تجب بشيء . وبعد فترة من الوقت رفع الكسي جذعه على مقدمة العربة ، وتنحنح ، واشار الى الظلام بسوطه :

— قطار يكاترينوسلاف السريع . . .

نظرت كاتيا ، ولكنها لم تر القطار الذي كان يحمل فاديم بتروفيتش نائما على تخت علوي في احدى المقاصير ولم تسمع في صفير مبحوح بعيد ، فاثار في نفسها حزنا حادا . . .

اتجه فاديم بتروفيتش من المحطة الى محل الحلويات راسا مستفسرا عن كاتيا . دخل في المقاهي الحارة التي يملأ الذباب والقذارة الشرقية ، والشاش الذي يغطي الحلويات . وقرأ اللافتات

البقتية : «فرساى» ، «الدورادو» ، «الركن المريح» . ومن ابواب هذه المطاعم الصغيرة المشبوهة نظر اليه رجال سمر الوجوه مشدوديون بعيون جاحظة مثل بياض البيضة مستعدون ، عند الحاجة ، ان يصنعوا كبابا من اى شىء كان . وقد استطعم هنا ايضا ، ثم اخذ يطوف على كل المخازن واحدا واحدا .

كانت الشمس تلذع بلا هوادة . وكان عدد غفير من اخلاط الناس يضج ويزدحم فى الممرات المعرشة الثنائية تحت اشجار الدردار فى جادة يكترينينسكى . ودقت عربات ترام صغيرة مهلهلة اجراسها . قبل الحرب بدات تقام هنا العاصمة الجديدة لجنوب اوكرانيا . واوقفت الحرب نموها . والآن ، والمدينة تحت حكم الهيتمان وحماية الالمان انتعشت من جديد ، ولكن بطريقة مختلفة : فبدلا من الدوائر والبنوك والمستودعات التجارية فتحت دور القمار ، وحوانيت المبادلة ، ومحلات الكباب وشراب الليمون . وحل محل صخب العمل والحركة التجارية اللغط الهستيرى لباعة العملة الاجنبية المتراكضين بوجوه غير حليقة ، والقبعات منحسرة على اقفيتهم متنقلين فى المقاهى ومفارق الشوارع ، وصيحات تمتد عاليا من ماسحى الاحذية ، وباعة صبغ الاحذية—الصناعة الوحيدة فى ذلك العهد—ومضايقات المشردين الخبثاء ، وعويل الفرق الموسيقية من «الاركان المريحة» ، والازدحام الارعن للجمهور العاطل الذى كان يعيش على بيع وشراء النقود المزيفة ، والبضائع غير الموجودة .

جلس فاديم بتروفيتش على مسطبة تحت شجرة اقاسيا يائسا من البحث اللامجدى منصرفا معذبا ، يمر به جمهور الناس : نسوة انيقات وغريبات فى ملابس مصنوعة من الستائر ، وفى ازياء قومية اوكرانية ، نساء ذوات عيون مخططة ندية من الحر ، على خدودهن المبودرة خطوط من العرق ، ومضاربون مضطربون يشقون طريقهم كالمجاذيب ، باذرع ممدودة خلال هذه الجمهرة من النساء ، وموظفون هيتمانيون متلطفون ببلاهة يشدون على قبعاتهم اشارة ثلاثية الشعب ، وافكارهم مشغولة بالصفقات المالية ونهب املاك الدولة ، وقوزاق هيتمانيون ضخام عراض الاكتاف لهم رقاب الثيران ، وهايداماكيون متوربون عليهم قبعات ضخمة قرمزية

لامعة ، وقفاطين بلون السماء الزرقاء ، وسراويل عجيبة فضفاضة مثل المثقفين الاوكرانيين الاستقلاليين والرومانسيين الذاليين يحتون الى لبسها لرتقى من الزمن ، وسار فى الزحام ضباط العالى مصنون ينظرون فوق الرؤوس بابتسامة استخفاف ...

نظر روتشين واعتمل الغيظ فى قلبه . «او يلعب كيروسين من هذه السفالة وتحرق ..» ضرب فى كشك مكشوف قنعا من قشور الفواكه ، وسار مرة اخرى من باب الى باب ، الآن فقط اخذ يدرك لا جدوى هذا البحث . ان كاتيا فى مكان ما ، هنا ، فى هذا الزحام نصف المجنون ، وحيدة ، بلا نقود ، للبطه الخمرة ، ويلة ، حدائها العصبية (وتذكر فى ذعر حاد ومرة بعد اخرى قارورة الشم التى كانت تحملها فى شقة موسكو) ... تمسها الايدى اللزجة لباعة العملة والقوادين ، واصحاب المطاعم ، وتتفرسها العيون الخبيثة ...

وضاقت انفاسه ... سار فى الزحام مباعدا بين مرفقيه غير راد على الصيحات ولا على السباب . وفى المساء استاجر غرفة فى فندق يتمن باهظ ، وهى عبارة عن خص معتم لم يكن يتسع الا لسرير حديدى عليه فراش مهلهل . وخلع حذاءه ، واستلقى ، وبكى صامتا بلا دموع ضاما راسه الاشيب بين يديه .

عبر تيليجين حدود منطقة الدون مشيا ، واخفى كتالجتى المقدم فى كيس متاعه ، واستقل القطار الى تساريتسين ، ومنها ركب باخرة ضخمة مكتظة من سطحها الاعلى حتى قعرها بالفلاحين والجنود المقاتلين والهاربين من وحداتهم ، واللاجئين . وفى ساراتوف اظهر وثائقه الى اللجنة الثورية ، وركب باخرة الجر الى سيزران ، حيث كانت الجبهة التشيكوسلوفاكية .

كانت الفولغا مقفرة ، كما فى الازمنة شبه الاسطورية ، حين وصل فرسان جنكيز خان الى شاطئها الرملى ليرووا خيولهم من هذا النهر العظيم . سار النهر العريض الصقيل بين الشطآن الرملية العالية ومروج الفيضان ، التى نما فيها الصفصاف . وكانت القرى القليلة مهجورة . والى الشرق امتدت سهوب منبسطة ، فى موجات

الحر ، في السراب . ومرت انعكاسات السحب على الماء عائمة ببطء . ودواليب الباخرة وحدها كانت تضرب الماء اللازوردي في السكون بهمة .

كان ايفان ايليتش يرقد على سطح السفينة الحار تحت برج القبطان . كان حافيا وفي قميص قطني غير محزم ، وقد نما شعر اشقر على خديه . كان يتمتع ، كالقط في الشمس ، بالسكون والرائحة الرطبة لزهور المستنقعات ، ورائحة عشب السهب الجافة الآتية من الصلصال الواطئة ، ودفقات النور اللانهائية . لقد كان ذلك ذروة الراحة .

كانت الباخرة تحمل السلاح والذخيرة لانصار الافخيمية السهبية . وكان جنود الجيش الاحمر الذين يصاحبون الحمولة مسترخين من الهواء الطلق ، بعضهم نائم ، والبعض قد نال قسطه من النوم فراح يغني الاغاني ناظرا الى الرحاب المائية . وكان آمر الفصيلة الرفيق حقيدين ، وهو من بحارة البحر الاسود ، يؤنب الجنود عدة مرات يوميا على انعدام الوعي ، فكانوا يجلسون ويستلقون بالقرب منه واضعين خدودهم على ايديهم .

كان يقول لهم بصوت مبحوح :

— يجب ان تفهموا يا اخوان ، اننا لا نقاتل دنيكين ، ولا نقاتل الانسان كراسنوف ، ولا نقاتل التشيكيين ، بل نقاتل البرجوازية الدموية كلها في نصفي الكرة الارضية ... يجب ان نضرب البرجوازي في العالم كله ضربة مميتة ، قبل ان يجمع قواه كليا ... نحن ، الروس (وقد نطق بهذه الكلمة في وضوح وتفخيم) موضع عطف اشقائنا العميق ، بروليتاريي جميع الاقطار ... وهم ينتظرون منا شيئا واحدا : ان نقضي على الطفيليين عندنا ، ونهب لمساعدتهم في النضال الطبقي ... هذا مفهوم ، يقولون كلام ، يا اخوان . لا يوجد من هو اشجع من الجندي الروسي في العالم ، اذا استثنينا بحار الاسطول الاحمر . ولهذا فان امامنا جميع الفرص . مفهوم يا ارباب الحسن ؟ انا اتحدث بديهيات . اليوم نخوض معارك قرب سامارا ، وبعد مدة غير طويلة سنخوض معارك في جميع القارات ...

اصغى الجنود وابصارهم معلقة على فمه ، وايدي بعضهم ملامسة بهدوء :

— نعم ... اختلط الحابل بالنابل ... في العالم كله !

الى اليسار امتدت جبال خفالين زرقاء . نظر الرفيق حقيدين في المنظار . وبدت بلدة خفالينسك المسترخية الناعسة اكثر وضوحا من وراء كتل الاشجار . وكان على الباخرة ان تتزود بالنفط منها .

والقى القبطان الاشيب عند مدير الدفة . تفرع النهر الى عدة فروع ملتويا حول جزيرات الصفصاف العريضة وكان مجرى الملاحة صعبا . تقدم حقيدين من القبطان :

— لا يرى شخص واحد في البلدة . ما الخبر ؟

قال القبطان :

— يجب التزود بالنفط حتما ، ومهما كلف الامر .

— ارس ، اذا كان ذلك ضروريا .

وحين اقتربت الباخرة من جزيرة كادت اغصان القصب تمس اللفة الدواليب فاخذت تصفر وتستدير . وفي تلك الاونة ارتفعت اصوات حادة من الصفصاف الكثيف في الجزيرة :

— قف ! قف ! الى اين سائر ؟

سحب حقيدين المسدس من قرابه ، وتراجع الملاحون من حاجز الباخرة . وماج الماء تحت دواليب الباخرة .

وارتفعت اصوات :

— قف ، قف !

وخشخش الصفصاف ، واندفع بعض الناس الى الشاطئ ، وظهرت وجوه حمراء منفعلة . والقوارب متوجهة مسرعة الى البلدة . وكان من المتعذر فهم اي شيء من الضجيج . وامطر حقيدين الجميع بوابل من شتائم البحارة . ولكن كل شيء اتضح بدون حاجة الى ذلك . تصاعدت ادخنة من الرصيف في البلدة ، وانطلقت رصاصات على النهر . لقد كان الحرس الابيض يحتل خفالينسك ، وتبين ان الناس في الجزيرة هم بقية الحامية الهاربة ، وجزء منهم من انصار المنطقة . كان بعضهم مسلحا ، ولكن لم تكن لديهم ذخيرة .

انطلق الجنود الحمر الى المقاصير لجلب البنادق ، واحتل خفيدين لنفسه مكان القبطان ، وراح يشتم في عرض النهر كله بشتائم جعلت الناس في الجزيرة يهدأون في الحال . وظهرت البسمات على الوجوه . وبسورة الحماس اراد خفيدين ان يهاجم البلدة من الباخرة هجوما مباشرا وفي الحال ، الا ان ايفان ايليتش اوقفه . واثبت له في نقاش قصير بأن من غير الممكن القيام بالهجوم دون اعداد ، وان من الضروري ان تصاحبه حركة الثقافية ، وان خفيدين لا يعرف قوة العدو ، فقد تكون لديه مدفعية .

كزّ خفيدين على اسنانه ، الا انه وافق . تحركت السفينة حركة خلفية مع تيار النهر تحت الرصاص ، واقترب من الناحية الغربية من الجزيرة ، حيث البلدة محجوبة بغابة . ورست هناك . تناثر الناس من الجزيرة على الشاطئ الرملي . وكانوا حوالي خمسين شخصا مهلهلين شعثا .

وصاحوا :

– اسمعوا ما نقول لكم ، يا شياطين ،

– زاغاركين قائم لنجدتنا مع انصار بوغاتشيفسك .

– منذ ثلاثة ايام بعثنا اليه رسولا .

وذكروا ان البرجوازيين في البلدة استولوا بهجوم مسلح مباغت على مقر السوفييت والتلغراف والبريد ، ووضع الضباط كنافياتهم ، وهجموا على الترسانة ، واخذوا الرشاشات ، وتسلح طلاب المدارس والتجار والموظفون ، بل وان شماس الكنيسة خرج الى الشارع ببندقية صيد . ولم يكن احد يتوقع هذا الانقلاب ، فلم يلحقوا في اخذ بنادقهم .

– تفرق الرفاق وحدالنا ، خانونا ...

– نحن نركض كالخراف .

فلم يكن من خفيدين الا ان قال :

– آه ، يا لكم ، يا جنود البر ...

عقد الجميع على الشاطئ اجتماعا عسكريا مشتركا . وانتخب تليغين سكرتيرا . وطرحوا هذا السؤال : هل يسترجعون خفالينسك من البرجوازيين ام لا ؟ وقرروا استرجاعها . ثم السؤال

الثاني : هل ينتظرون انصار بوغاتشيفسك ام يستولون على البلدة بقواهم ؟ وجرى نقاش حول ذلك . بعضهم صار يصرخ : يجب الانتظار لان لدى انصار بوغاتشيفسك مدفعا ، والآخرون قالوا ان الانتظار غير ممكن ، لان سفننا للبيض ستأتي من سامارا بين لحظة واخرى . وضجر خفيدين من النقاش ، وهز ذراعه ضيقا .

– كفى كلاما ، يا رفاق . نقرر بالاجماع ان تكون خفالينسك بايدينا في المساء ، سجل المحضر ، يا رفيق تليغين .

في تلك الأونة ظهر فرسان على المرتفع في الضفة اليسرى . في البداية لاح اثنان ، ثم اربعة ، ولما راوا الباخرة انطلقوا عائدين ، ثم تغطت الضفة كلها بالفرسان حالا ، ولمعت في الشمس سنابك عريضة مصنوعة من المناجل . وبدا اهل خفالينسك يصرخون :

– آي ... من انتم ؟

ردوا عليهم من الضفة الاخرى :

– فصيلة زاغاركين ، من جيش بوغاتشيفسك للفلاحين ...

تناول خفيدين الميكروفون ، وصاح موترا عروق رقبته :

– يا اخوان ، جئناكم باسلحة ، انزلوا الى الجزيرة ... سنستولي على خفالينسك ...

صاحوا من هناك :

– حسنا ... عندنا مدفع ... اجلبوا الباخرة الى هنا ...

كان الفرسان على الشاطئ احدى فصائل جيش الانصار للفلاحين ، الذي كان يقاتل في سهوب سامارا ضد النواحي التي اعترفت بسلطة حكومة سامارا المؤقتة .

وقد تكون هذا الجيش بعد احتلال التشيكوسلوفاكيين سامارا مباشرة ، وكانت مدينة بوغاتشيفسك – التي كانت من قبل تسمى نيقولايفسك – مركزا لتشكيله . وقد اجتمع هناك جميع ذوي الرؤوس الحارة الذين كانوا يحبون ركوب الخيل ، وجميع الذين حررهم مشترى الارض الشهير شيخوبالوف الى رقعة

ضيقة من الارض ، وكل الذين يتنافسون على الارض مع قوزاق الاورال الاغنياء ، وكل الذين طلحت نفوسهم التى ولدت فى السهوب الشاسعة ، حيث تتماوج سنابل القمح طليقة ، والفلاح يسير وراء المحراث الثقيل يحث الثيران البطيئة .

كان العدو يظهر فى كل مكان مثل سراب السهب . وكانت الاجتماعات تعقد فى القرى ، والفلاحون الاغنياء ، وضباط الصف فى الجيش القيصرى والمحرضون المتنكرون القادمون من سامارا يصرخون انه لا يوجد قانون يجيز للفلاح الفقير ، والعامل الزراعى ، والمتشرد الذى لا ارض له ان يحكم الناحية ، وينتزع الارض والحبوب من الفلاحين الموسرين . وكان الاجتماع يقرر ارسال الرسل الى القرى المجاورة لحفر الخنادق والتخندق فيها . وكانت ناحية كاملة تنهض فى الحال ، ويخرج اهلها السلاح من اماكن سرية ، ويشقون اخاديد بالمحراث للحدود ، ويحفرون خنادق لمشوات القراسيع .

وفى بعض المناطق كانوا يعلنون جمهورية تابعة لحكومة سامارا . وتعهد حراسة المنطقة الى الفرسان ، ويجند الشباب فى حالة هجوم الحمر فقط ، وكان الفرسان يتسلحون بالمناجل التى تربط مقابضها بالعصى الطويلة . وكانت الجيوش الكولاكية هذه رهيبة . كانت تظهر بصورة مفاجئة من اعشاش السهب وتهجم فى سحب الغبار على صفوف الجنود الحمر ورشاشاتهم . وكانوا يقاتلون الاهالى : الاخ اخاه ، والاب ابنه ، والعراب عرابه ، ولهذا كانوا يقاتلون بلا شفقة ولا خوف . وبعد ان يحطموا الحمر يتسلح الفرسان بالرشاشات والبنادق ، ولكنهم لا يتخلون عن المناجل .

لم تبق مدونات ولا ارشيفات عسكرية من هذه الحرب الفلاحية الكبيرة فى سهوب سامارا التى ما تزال تتذكر حملات ايميليان بوغاتشيوف ، الا اذا جلس اب وابن فى عيد دينى ومعهما جردل من النبيذ يتناقشان عن المعارك السابقة واحدهما يؤنب الآخر عن الاخطاء الاستراتيجية . فيقول الاب :

— هل تذكر ، يا ياشكا ، كيف اخذتم تضربوننا بالمدفع قرب كولديبان ؟ فاقول لنفسى : انه بالتأكيد ابنى ياشكا

هنا . ابن كلبة ... لم الطخ الابنه فى حينها ... واوقعتنا فى قلوبكم الرعب ... من حسن حظك انك لم تقع فى يدى فى ذلك الحين ...

— هذا تبجح .. نحن الذين انتصرنا ...

— لا باس . ستسنح فرصة ، وسنختلف من جديد .

— وليكن ، سنختلف ... كنت كولاكا وبقيت على وجهة نظرك الدموية .

— لنشرب ، يا بنى !

— لنشرب ، يا ابت !

اقتربت الباخرة من الضفة اليسرى . والقى الممشى الخشبى ، وصعد الى المدينة زاخاركين آمر فصيلة بوغاتشيفسك . وهو شخص ذو انف معكوف مثل منقار النسر . وكان شديد القوة كثير العضل حتى ان الالواح ترقصت تحت قدميه . وكانت السترة الناحلة التى يرتديها مفتوحة تحت الابطين ، والسيف المعكوف يضرب حذاءه العالى . وكان اشقاؤه الكبار ، وهم فلاحون من ناحية اوتيف افراد فرق .

وصعد وراءه ستة من الانصار — هيئة الامرية — فى ملابس غيرة الدهشة غير العادية : الخضان ناحلة الطول ، عفرة ، مقطرة ، ومفتوحة الياقات ، بعضهم فى احذية لبادية شكلت عليها مهاميز ، وبعضهم فى احذية ليفية . وكانوا مسلحين باسلحة شتى : الشرطة رشاشات ، قنابل يدوية فى احزمتهم ، حراب المانية عريضة ، بنادق مقطوعة .

التقى زاخاركين وخليدين على برج القبطان ، وتصافحا مصافحة قوية . وقدمت السكائر . عرض خليدين الموقف العسكرى باختصار . قال زاخاركين :

— انا اعرف من يصطاد فى الماء العكر فى خفاليتسك . انه كوكوشكين ، رئيس الادارة المحلية الذاتية ... اود ان امسكه حيا .

قال خليدين :

— والمدفع ؟ هل هو فى حالة جيدة ؟

— يشتغل ، ولكن على العيان ، بلا جهاز تسديد ، تسدد

من خلال الماسورة ، ومع ذلك فهو يقصف . اذا اطلق هدّم برج جرس او مطحنة ماء كليا !

– حسنا . وما رايك ، يا رفيق زاخاركين ، بالانزال وحركة الالتفاف ؟

– نلقى بالخيالة الى الضفة الاخرى . هل تستطيع الباخرة ان تحمل مائة مقاتل ؟

– ببساطة ، على مرتين .

– الآن ، فالامر مضبوط . عندما يحل الظلام تنزل الخيالة فى مكان فى اعلى البلدة . ولنصب المدفع على السفينـــة . ونبدا الهجوم عند الفجر .

عهد خفيدين الى ايفان ايليتش قيادة جنود الانزال من المشاة الذين اوكل اليهم مهاجمة الارصفة من الامام . وفى الغسق سارت الباخرة بحذر وبدون ضوء الى الفرع الجانبى من الفولغا بمحاذاة جزيرة . وفى السكون لم يكن يسمع غير صوت الملاح الذى يقيس عمق الماء .

وفى اثر الباخرة سارت فصيلة بوغاتشيفسك على الشاطئ . وزعت الاسلحة على رجال خفالينسك ، فاستلقوا على الرمل . سار تليغين بحذاء حافة الماء ، متأكدا بنفسه من ان احدا لا يدخن او يشعل نارا . وكانت طرطشة الماء على الرمل خفيفة لا تكاد تسمع ، وفى الجو رائحة زهور المستنقعات ، وطنين بعوض ، وران الهدوء على الرجال المستلقين على الرمل .

امسى الليل اكثر ظلاما ونعومة ، وتناثرت النجوم فى السماء . وتصاعدت من الشاطئ السهبى رائحة الافسنتين الجافة ، وشدَت طيور السلوى . وظل ايفان ايليتش يسير بمحاذاة الماء مغالبا النعاس .

وحين اخذ الليل يتجاوز نصفه ، فقدت السماء ظلامهـــا المخملى ، ومن بعيد ، وراء النهر تراءى صـــوت ديك الفجر ، وتقدمت دواليب على الماء المغطى بنقاب خفيف من الضباب . وخفت الباخرة . عاين ايفان ايليتش قرص مسدسه ، واحكم شد حزامه على بنطلونه ، وسار بين النائمين ، مطبطبا على ارجلهم بعصـــا صغيرة وقائلا :

– رفاق ، استيقظوا .

نهض الرجال مسرعين مهتاجين ، مرتجفين من رطوبة الهواء والنعاس عالق باجفانهم ، فلم يدركوا فى الحـــال ما عليهم ان يعملوا ... ذهب الكثيرون منهم ليشربوا الماء من النهر منزلين رؤوسهم فيه . اصدر تليغين اوامره بصوت خفيض . وكان يجب ايجاد تغطية ، فاخذ المقاتلون يخلعون ثيابهم ، ويعبئونها رملا ، ويصفونها على طول جانب الباخرة . وعملوا صامتين ، فلم يكن فى الامر مزاح .

بدأت الدنيا تتنور . وانتهت الاستعدادات ، ونصب مدفع جبل صغير صدئ فى مقدمـــة الباخرة . وصعد على ظهر الباخرة خمســـون من المقاتلين ، واستلقوا وراء زكائب الرمل . ووقف خفيدين على الدفة :

– السير قدما فى اقصى سرعة !

ماج الماء تحت الدواليب . ودارت الباخرة بسرعـــة حول الجزيرة ، واتجهت نحو البلدة فى المجرى الرئيسى . لاحت انوار صغيرة صفراء هناك . وفى الخلف برز خط جبال معتم تحت جنح الليل . والآن صارت اصوات ديكة الفجر تصل اعلى من ذى قبل .

وقف ايفان ايليتش بالقرب من المدفع . وكان لا يستطيع ان يتصـــور انهم بعد قليل سيتوجب عليهم اطلاق النار فى هذا السكون المسترخى . قـال احد اهالى خفالينسك بصوت رقيق ، وهو رجل وديع يشبه الذى انفلت ميال لصيد السمك ، طرح لان يكون مسددا :

– يا عزيزى الرفيق الآمر ، ماذا لو تســـدد على البريد مباشرة ؟ بدقة تامة ... انظر ، هناك ضوءان اصفران ...

صاح خفيدين فى الميكروفون :

– التسديد على البريد ! تهيأ ! المدفع ! على العيان !

قرفص المدفعى ، ونظر عبر ماسورة المدفع ، ووجهها نحو الضوئين . ووضع قذيفة . واستدار نحو تليغين :

– ايها الرفيق العزيز ، تنح قليلا ، فمن الممكن ان ينفجر هذا المدفع ...

هتف خفيدين :

– نار !
انطلق المدفع الى الوراء وصدرت منه فرقعة ونور ساطع ، ومر الهدير على الماء ، وتردد الصدى في الجبال . توهج انفجار بالقرب من الشوكين الاصفرين ، وتردد صدى آخر في الجبال .
صاح خليدين وهو يدير الدفة :
– نار ، نار ! من الجانب الايسر نار سريعة ! طلقات ، طلقات على الاوغاد !
وطبطب بقدميه ، واحتد ، وزعق بكلمات شتماء . وانطلقت من جانب الباخرة طلقة اعتباطية . اقترب شاطىء خفالينسك بسرعة . عبأ المدفعي بعناية ، واطلق من جديد . وكانت ترى الشظايا تتطاير من زريبة . وبدت بوضوح الآن معالم البيوت الخشبية ، والحدائق وابراج الاجراس .
وفي الاسفل عند الارصفة انفتت تومض ومضات نار من بنادق . وفجأة صدر الصوت الذي كان تليفين يخشاه : لعلع رشاش بسرعة ووضوح . انطبقت اصابع رجليه كالعادة ، وكأن شرايين جسده كله قد تقلصت . قرفص تليفين عند المدفع ، مشيرا للمدفعي الى مبنى طويل على منحدر .
– حاول ان تسدد على ذلك الطرف الذي فيه اجمات ...
قال المدفعي :
– آه ، هذا البيت جيد ، ولكن لا بأس .
وانطلق المدفع للمرة الثالثة . وسكت الرشاش لحظة ، ثم انطلق في مكان آخر الى الاعلى من مكانه الاول . استدارت الباخرة دورة حادة . واندفعت بسرعة نحو الرصيف . وضرب الرصاص في الاعلى – على المدخنة والصارية .
صاح خليدين :
– لا تنتظروا الوصول الى الرصيف ، اقفزوا – عبورا ، يا فتيان !
صرف وفرقع حاجز الرصيف . قفز تليفين اولا ، واستدار نحو رجال خفالينسك الذين كانوا يزحفون عبر الحواجز .
– ورائي ! عبورا !
ركض على الالواح الى الشاطىء . وتبعه الرجال هاتفين .

واطلقوا النار ، وركضوا ، وتعثروا . كان الشاطىء خاليا . لاح وكان بعض الاشخاص يندفعون الى بساتين كثيفة الاشجار . وانطلقت رصاصات من فوق بعض السطوح . وعلى مسافة بعيدة جدا على التلال لعلع رشاش على فترات متقطعة ، ثم صمت ، وبعد ذلك اطلق نيرانه مرة او مرتين . ان العدو لم يشتبك في المعركة .
وجد تليفين نفسه في ساحة منعرجة . جمع الرجال متلفتا تحت الالماس . كان باطنا قدميه الحافيتين يلذعانه . فلا بد انه قد جرحهما في حجر . وكان في الجو رائحة غبار . وكانت البيوت الخشبية مغلقة الصفاقات . وما من حركة حتى في اوراق الليلك والاكاسيا . وفي احد الاركان بيت من طابقين له برج من طراز رخيص نشرت على حبل في شرفته اربعة ازواج من السراويل الداخلية . فكر تليفين مع نفسه : «مستشرق» . كانت البلدة تبدو غاطسة في نوم عميق . والقتال والتراكض والصياح مجرد احلام .
سأل تليفين عن مركز البريد والتلغراف ومحطة الماء ، وارسل الى كل منها فصيلا من عشرة رجال . سار المقاتلون ، متوتري الاعصاب متوثبين الى الوراء يرفعون بنادقهم عند كل خشخشة . ولم يكتشف العدو في اى مكان . بنات الزرازير تصدح ، والحمامات تطير من فوق السطوح .
احتل تليفين بفصيلته مقر سوفييت البلدة ، وهو مبنى ابيض ذو اعمدة مقشرة . كانت الابواب مفتوحة ، والسلاح مكوما في الرواق . خرج تليفين الى الشرفة ، فراى تحته حدائق كثيفة ، وسطوحا لم تطل منذ زمان ، وشوارع ترابية ضيقة مقفرة . سكون ريفي . وفجأة تردد من بعيد ناقوس خطر . ارتفع فوق البلدة صوت ناقوس مكروب سريع رنان . ومن المكان الذي انطلق منه الصراخ النحاسي للنجدة بدأ اطلاق نار سريع ، وانفجارات تتبادل بدوية ، وصيحات . وكركبة خيول ثقيلة ، وعويل . انهم جنود زاخاركين للانزال كانوا يسدون الطريق على العدو المتقهقر الى الجبال ، ثم مر فرسان في شارع جانبي يضربون الارض بنعال خيولهم المعدنية ، وعاد السكون الى كل شيء من جديد .
نزل ايفان ايليتش نحو الباخرة على مهل ، وابلغ بأن البلدة قد احتلت . واستمع خليدين الى البلاغ ثم قال :

– السلطة السوفييتية اعيدت . وليس لنا ما نفعله هنا بعد الآن . يجب ان نواصل السير – وربت بمودة على ظهر القبطان العجوز الذى كان كالميت من الخوف وقال : – وانت ايضا شم رائحة البارود . هكذا ، يا اخ . . . اغلق اليك القيادة ، فتسلم الخفارة .

نام تليغين حتى المساء تحت دمدمة المحرك وخرير الماء . نشر الغروب شفقه الاحمر الشفاف على النهر . وغنت اصوات مختلفة خافتة فى مؤخرة السفينة الداخلة فى الرحاب المقفرة . كان الجمال العقيم للاحول المسائى يخيم على الشاطىء فى النهر ، ويقبض فى العين والقلب .

هتف خفيادين :

– ما هذه الكآبة ، يا اخوان ؟ غنوا اغنية مرحة .

وكان قد نال قسطه من النوم ايضا ، وشرب قدحا من الكحول ، وصار يتمشى الآن على السطح الاعلى رافعا بنطاله الى فوق .

– لو نستولى على سيزران ايضا ؟ ماذا تقول ، يا رفيق تليغين ؟ كنا سندهش الجميع لو فعلنا ذلك . . .

وافرج عن اسنان بيض مقهقها . وكان لا يهاب الاخطار ، ولا يعبأ بكآبة الغروب على الفولغا ، ولا برصاصة قاتلة تنتظره فى مكان ما ، فى معركة او من وراء منعطف . . . الظمأ الى الحياة والقوة الحامية كانا يفوران فيه . وكانت الواح السطح تهتز تحت عقبيه العافيين :

– انتظر قليلا وسنستولى على سيزران وسامارا ، وستكون الفولغا لنا .

وتغشى الغروب بنقاب رمادى . وسارت الباخرة بدون ضوء ، غطى المساء على الشطئان فتوارت . لم يعرف خفيدين كيف يصرف قوته فعرض على ايفان ايليتش ان يلعب الورق :

– اذا لا تريد ان نلعب بفلوس ، فلنلعب على ضربة على الانف . . . فقط ان تكون الضربة معتبرة .

جلسا فى مقصورة القبطان يلعبان الورق على ضربة على الانف . واحتد خفيدين ، وصار يرفع الرهان حتى وصل الى ثلاث مائة

ضربة على الانف ، ومن شدة الاستثارة كاد يغش فى اللعب ، الا ان ايفان ايليتش كان حاد البصر : «لا ، يا اخ ، انت لا تلعب مع صبى» وربح . جلس تليغين على مقعد جلسة مريحة ، وبدا يضرب خصمه باوراق متسخة . حتى صار انف خفيدين احمر كالبنجر فى الحال .

– اين تعلمت ذلك ؟

– تعلمته فى الاسر عند الالمان . لا تدير بوزك . مائتان وستة وتسعون .

– اسمع . . . لا تضرب اشد من ذلك . . . والا . . .

– تكذب . . . فى الضربات الثلاث الاخيرة يمكن بشدة .

– اذن ، اضرب ، يا وغد .

الا ان تليغين لم يلحق ان يضرب . دخل القبطان الى المقصورة ، وفكه يرتجف ، وقبعته فى يده ، وقطرات العرق تقطر من صلعته الرمادية .

قال فى يأس :

– افعلوا ما تشاؤون ايها السادة الرفاق ، فانا مستعد لكل شئ . . . لن انقلكم ابعد من ذلك . . انه موت محتم . . .

القى خفيدين وتليغين الورق ، وخرجا الى سطح الباخرة . فى الضفة اليسرى الى الامام كانت انوار سيزران الكهربائية تشتعل متألقة كالنجوم ، وكانت سفينة ديزل ضخمة شديدة الاضاءة تسير ببطء بمحاذاة الشاطىء . وكانت العين المجردة تستطيع ان ترى فى مؤخرتها علما ضخما هو علم القديس اندريه الابيض ، ومعالم مدافع متميزة ، وشخوص ضباط يتمشون على ظهر السفينة . . .

همس خفيدين :

– لا استطيع ان اتراجع ، يا رفاق . يجب العبور ، مهما كلف الامر . علينا ان نسير حتى بالوروكى ، وهناك نقف ونفرغ حمولتنا . . .

وامر بان ينزل جميع البحارة الى اسفل الباخرة ويتاهب للقتال ، ورفع على الصارية العلم الثلاثى الالوان . واطفئت الانوار المميزة . واخيرا لاحظ من فى السفينة باخرة الجر ، وصدرت

مدارات قصيرة لزمرها بتخفيض السرعة ، وارتفع صوت لطيف من الميكروفون هناك :

— لمن السفينة ؟ الى اين ذاهبة ؟

اجاب خليفدين :

— باخرة النهر «التاجر كالاشنيكوف» متجهة الى سامارا .

— لماذا تأخرتم في اضاءة الانوار ؟

— خوفا من البلاشفة . — وانزل خليفدين الميكروفون ، وقال لتليغين بصوت غليظ : — لو كان لدي لغم الآن ... ارسلت في طلبها من استراخان : ابعثوا الغاما ... انهم للبلد الاكثرات من السوفييتيين ...

بعد صمت اجابوا من السفينة :

— سيروا الى غايتكم .

لمس القبطان قبعته بيد مرتجفة ، وكشر خليفدين ولاحق بعينيه ناظرا الى انوار السفينة ، ثم بصق ، وذهب الى المقصورة ، حيث كسر اعواد ثقاب وهو يريد اشعال سيكارة .

صاح على تليغين :

— تعال ، واكمل شرباتك ، يا عفريت !

وبعد ساعة صارت سيزران الى الخلف ، انزل تليغين في قارب الباخرة بالقرب من باتراكي . وفي محطة باتراكي استقل قطار الساعة الثانية عشرة ، وفي الساعة الخامسة بعد الظهر نزل من محطة سامارا متجها الى شقة الدكتور بولافين . وقد عاد الى بزته المجعدة الممزقة بكتافيتين مقلم . صار يضرب على حذائه بنفس العصا التي ايقظ بها الانصار ليلا قرب خفالينسك ، ويقرأ في طريقه بفضول شديد اعلانات المسارح ، والنداءات والاعلانات ، كشيء لم يره منذ زمان . وكانت كلها مكتوبة بلغتين : الروسية والتشيكية ...

نهض دميتري ستيبانوفيتش بولافين رافعا قدحا من شراب الليمون في يده ، واخرج ورقة من صداره ، وحرك شفتيه وقارا ، وبدا كلامه بصوت معتبر عميق اتخذه في المدة الاخيرة لمنصب نائب الوزير :

— ايها السادة ، اسمحوا لي ايضا ...

كانت المأدبة مقامة تكريما لممثلي المدينة بمناسبة المسيرة المظفرة لجيش الجمعية التأسيسية نحو الشمال . وكانت سيمبيرسك وقازان قد احتلتا . وتبين ان البلاشفة فقدوا حوض الفولغا الاوسط نهائيا . وبالقرب من جيليابنسك كانت فلول جيش الخيالة الاحمر ، وعددها ثلاثة آلاف وخمسمائة ، تستميت لتنفذ من الحصار . وفي قازان التي احتلها التشيكيون بهجوم مباغت استولى على اربعة وعشرين الف بود من الذهب تبلغ قيمتها اكثر من ٦٠٠ مليون روبل — اي اكثر من نصف احتياطي الدولة من الذهب . وكانت هذه الحقيقة جسيمة وبعيدة جدا عن التصديق ، حتى ان العقول ما تزال غير مستوعبة كل عواقبها غير المحدودة .

كان الذهب في طريقه الى سامارا . ولم يكن احد قد ادعى حقا في ملكيته بعد ، الا ان التشيكيين قرروا ظاهريا تسليمه الى لجنة سامارا لاعضاء الجمعية التأسيسية . كان لتجار سامارا رأيهم الخاص في مصير هذا الذهب ، ولكنهم لم يعلنوه . وكانت المشاعر نحو التشيكيين المنتصرين قد وصلت الى ذروة الحماس .

كانت المأدبة حافلة كثيرة الحضور والحركة . وكان الكابتن تشيتشيك قائد الجيش التشيكي وبطل الاحداث محاطا بباقة ضاحكة من سيدات مجتمع سامارا ، ومن بينهن كواكب مثل اوجاروفا وكورولييا وشيخوبالوفا ، مالكات الطواحين ذات الطوابق الخمسة وصوامع الحبوب وشركات البواخر ، واقضية كاملة من الاراضي السوداء الخصبة . سيدات متألقات باللآلئ بحجم البندق وفساتين ان لم تكن على الموضة كليا ، فانها في حينها قد استوردت من باريس وفينا . وكان تشيتشيك ، مثل كل الابطال ، بسيطا بشكل فظ وودودا . حقا ان جسمه البدين يستشعر شيئا من الحرارة ، والياقة الضيقة لسترته الحسنة التفصيل منغرزة في رقبته الحمراء ، الا ان وجه الفتى المطعم بالدم بشاربيه الاصهبين القصيرين وعينيه اللامعتين كان يبدو وكأنه يطلب قبلة تطبع على كلا خديه المتوردين . وكانت الابتسامة الساحرة لا تزايل شفتيه ، وكأنما قد انكر على نفسه اي مجد ، وكان مجتمع السيدات امتع له بالف مرة من هدير

اهمية نقطة التحول لم يحسب لها الحساب الكافي ... وانا اقصد بذلك الستمائة مليون روبل ذهبي الموجودة الآن في ايدينا ... (وقف شعر شاربي مسيو جالو ، وهتف : «برافو !» رافعا القدح في يده . وتوهجت عينا بيكولوميني كعيني الشيطان .) لقد انتزعت من البلاشفة العمة الذهبية . ايها السادة ... وهم ما يزالون قادرين على اللدغ . ولكن ليس لدغا مميتا . في امكانهم ان يهددوا ولكنهم لا يخيفون اكثر مما يخيف المتسول الذي يلوح بعكازته ... ولا ذهب عندهم الآن . لا شيء غير آلة طباعة ...

فتح بريكين التاجر من ارومسك فمه فجأة وضحك من هذه الكلمات ضحكا عاليا ، وهو يمسح ذقنه بفوطة منشيا : «آه ، قضايا ، قضايا ، يا ربي !»

وتابع الدكتور بولافين قوله ، وقد رن صوته رصينا وواثقا ، وهو امر لم يكن من قبل :

— ايها السادة الممثلون الاجانب ، ايها السادة الحلفاء ... الصداقة صداقة والفلوس فلوس ... بالامس كنا بالنسبة لكم منظمة اوبرا كوميدية تقريبا ، تشكيلا موقتا ، مثل كدمة لا بد ان تخلفها ضربة ... (تعبس تشيتشيك ، وابدى مسيو جالو وبيكولوميني علامة استياء ... وتبسم تميتري ستيبانوفيتش ابتسامة ماكرة .) اليوم يعرف العالم كله اننا حكومة وطنية . نحن حراس رصيد الدولة من الذهب ... الآن نستطيع ان ننطق ، ايها السادة الممثلون الاجانب ... (ونقر المائدة بانامله بغضب .) انا الآن اتكلم كفرد بين افراد في دائرة ضيقة من الاصدقاء ، ولكنني ارى مقدما كل جدية الافكار التي انطق بها ... انا استشرف تحرك البواخر بالاسلحة والاعتدة الى الموانئ الروسية ... ونهوض الجيوش البيضاء الجبارة ، وسيف العقاب الصارم ينزل على عصابة قطاع الطرق الذين يعيثون في روسيا . وستمائة مليون تكفي لذلك ... ايها السادة الممثلون الاجانب ! ارجو تقديم العون الواسع السخي للمناضلين الشرعيين للشعب الروسي !

ومس القدح بشفتيه وجلس مقطب الحاجب ناضحا بانفه . وصفق الجالسون حول المائدة تصفيقا حارا . وهتف التاجر بريكين :

— شكرا ، يا اخ ... هذا صحيح ، يا اخ ، هذا يتفق وافكارنا : الحياة بلا اشتراكية ...

نهض تشيتشيك ، ورفع حزامه على بطنه بحركة قصيرة :

— سأتكلم باختصار ... لقد قدمنا وتقدم حياتنا في سبيل سعادة الروس . انوالنا بالدم ... عاشت روسيا عظيمة جبارة ، حرة !

وهدرت المائدة كلها بعاصفة من التصفيق . وصفقت ايدي النساء بحرارة وسط الزهور . ونهض مسيو جالو . وكان رأسه مدفوعا الى الوراء بعظمة . وقد اضفى شارباه الكثان نوعا من الرجولة على وجهه ، وقال :

— ايها السيدات والسادة ! كنا نعرف جميعا ان الجيش الروسي النبيل العالم بمجد آبائه مخدوع بعصابة البلاشفة بشكل خبيث . وقد بثوا فيه الافكار المناهضة للطبيعة ، والغرائز البهيمية ، ولم يعد الجيش جيشا . ايها السيدات والسادة ، لا اخفي عليكم انه قد مر وقت كانت فرنسا مترددة في اعتقادها باخلاص الشعب الروسي ... وقد انزاح هذا الكابوس ... واليوم نرى هنا اننا كنا على خطأ ، واي خطأ ، ان الشعب الروسي معنا من جديد ... والجيش يعترف باخطائه ... والعملاق الروسي مستعد من جديد الى تعريض صدره لرصاص عدونا المشترك ... وانا سعيد في تقق الجديد ...

وعندما هدأ التصفيق نهض بيكولوميني واهتزت كتافيتاه الكثيفتان . ولكن لما كان جميع الحاضرين لا يعرفون الايطالية ، فقد صدق الجميع بانه هنا ، وتقدم التاجر بريكين من شخصه الاسمر الصغير وقبله . ثم القى ممثلو رأس المال خطبهم . وتكلم التجار بشكل غامض منمق ، مشيرين على الاكثر الى سيبيريا ، من حيث يجب ان يأتي الخلاص ... واخيرا طلب من الاتمان دوتوف ان يقول كلمة صغيرة ، فاعترض قائلا : «لا ، انا عسكري ، ولا اعرف كيف اتكلم ...»

ومع ذلك فقد نهض ثقيلا في الصمت الذي خيم في الحال ، وتنهد :

— يا سادة ! اذا ساعدنا الحلفاء فخير على خير ، واذا لم

يساعدوا قائدنا سندبر امرنا مع البلاشفة بقوانــا في حال مــن الاحوال ... فقط ان تكون هناك فلوس ... وانتم ، يا سادة ، تدموا لنا العون المادي ...

وجار بريكين بحماس غامر :

— خذلنا ، يا اخوان ، خذلنا باحشائنا ، نحن لا نبخل بشيء .

ونجحت المأدبة . وبعد الجزء الرسمي قدمت القهوة السوداء مع الكونياك الاجنبي والليكيور ، وكانت الساعة متاخرة . وخرج دميتري ستيبانوفيتش على الطريقــة الانجليزيــة ، اى دون ان يستأذن .

عندما وصل دميتري ستيبانوفيتش الى بيته في سيارة فتح الباب الخارجي ، فتقدم منه ضابط بسرعة :

— اعذرني ، هل انت الدكتور بولافين ؟

القى دميتري ستيبانوفيتش نظرة على الغريب . كان الشارع مظلما ، فلم يتبين غير كتافيتي المقسم . حرك الدكتور شفتيــه واجاب :

— نعم ... انا بولافين .

— جئت اليــك في أمر مهــم جدا جدا ... انــا افهــم ان هذه الساعة ليست للزيارة ، ولكنني جئت ودققت الجرس ثلاث مرات .

— غدا في الوزارة من الساعة الحادية عشرة .

— ارجوك ، اليوم . سأغادر في باخرة ليلية .

صمت دميتري ستيبانوفيتش مرة اخرى . كان في الغريــب شيء ملحاح مقلق الى اقصى حد . هز الدكتور كتفيه :

— اطرك اذا كان الامر يتعلق بمعونة ، فان ذلك ليس مــن نطاق مسؤولي .

— لا ، لا ، لا حاجة بي الى معونة .

— اذن ... ادخل .

اتجه دميتري ستيبانوفيتش من الباب الداخلي الى المكتــب اولا ، وفي الحال اغلق الباب المؤدي الى الغرف الداخلية . فقد كان الضوء فيها ، والظاهر ان احدا من اهل البيت لم ينم بعد . ثم جلس الدكتور الى المكتب ، واشار على الزائر بالجلوس على كرسي

قبالته ، ونظر بجهامة الى اضمامة من الاوراق للتوقيع ، وشبــك اصابعه .

— اية خدمة استطيع ان اؤديها ؟

ضم الضابط قبعته على صدره ، وقال برقة موجعة :

— اين داشا ؟

القى الدكتور راسه الى الوراء فاصطدم قفاه بظهر الكرسي . الآن فقط تفحص وجه الزائر . قبل عامين كانت داشا قد ارسلت اليه صورة فوتوغرافية لها ولزوجها . اذن ، فقد كان هو . شحب الدكتور فجأة ، وارتعش الانتفاخان تحت عينيــه . فاعاد السؤال بصوت مبحوح :

— داشا ؟

— نعم ، انا تليغين .

وشحب هو الآخر وهو ينظر في عيني الدكتــور . تمالــك دميتري ستيبانوفيتش نفسه ، وبدلا من ان يحتفي احتفاء طبيعيا بصهره الذي كان يراه لاول مرة في حياته ، رمى ذارعيه بحركــة مسرحية ، واصدر صوتا غامضا ، وكانه مشروع ضحكة :

— اذن ... انت تليغين ... كيف انت ؟

ولا بد ان المفاجأة جعلته لا يقدم يده لايفان ايليتش . ووضع نظارته الانفية على انفه (لم تكن نظارته السابقة المصنوعة ذات الاطار النيكل ، بل نظارة معتبرة ذهبية) واسرع ، لسبب ما ، يفتح جرارات مكتبه المملوءة بالاوراق .

تابع تليغين حركته متمعنا غير فاهم شيئا . وقبل دقيقــة كان مستعدا لان يقص عليه كل شيء عن نفسه باعتباره قريبا ، اما ... وفكر الآن : «الشيطان يعلم ، ربما الكشفلني ... وربما اضعه في موضع حرج . فهو وزير ، على كل حال ...» انزل راسه ، وقال بصوت خافت تماما :

— دميتري ستيبانوفيتش ، انا لم ار داشا منذ اكثر من نصف عام ، ولا تصل رسائل ... لا اعلم ماذا جرى لها .

— تعيش ، تعيش ، وبخير !

قال الدكتور ، وهو ينحنى الى الارض حتى الجوارات السفلى من مكتبه .

— انا فى جيش المتطوعين ... احارب البلاشفة منذ شهر آذار ... والآن اوفدتنى القيادة الى الشمال فى مهمة سرية .

استمع دميترى ستيبانوفيتش وعلى وجهه تعبير وحشى للغاية ، ولكن ابتسامة ساخرة مرت فى شاربيه لمجاة حين سمع «مهمة سرية» :

— اذن فى اى فوج تخدم ؟

— فى فوج سوتدانسكى .

واحس تليفين بان الدم يتدفق فى وجهه .

— اها ... اذن ، يوجد مثل هذا الفوج فى جيش المتطوعين ، هل ستمكث عندنا كثيرا ؟

— ساغادر الليلة .

— رائع . والى اين بالذات ؟ اعذرنى ، هذا سر عسكرى ، فلا اصر ... بعبارة اخرى فى شؤون استخبارات !

ورن صوت دميترى ستيبانوفيتش رنينا غريبا حتى ان تليفين جفل واحتفز ، رغم ثقته الشديدة . الا ان الدكتور وجد فى تلك اللحظة ما كان يبحث عنه .

— زوجتك فى صحة جيدة ... خذ ، اقرا ما تسلمته منها فى الاسبوع الماضى ... وفيه ما يخصك ايضا (القى الدكتور امام تليفين بعض الاوراق المكتوبة بخط داشا الكبير . وطافت امام عينى تليفين هذه الكلمات الثمينة غير المتقنة شكلا) اعذرنى ، ساتركك لدقيقة . ولكن خذ راحتك .

خرج الدكتور مسرعا واغلق الباب وراءه . وكان آخر ما سمعه ايفان ايليتش كلماته التى رد بها على احد من اهل البيت .

— ... لا شىء ، زائر ...

سار الدكتور من غرفة الطعام الى دهليز صغير معتم ، حيث كان يوجد تلفون من طراز قديم . ووقف ووجهه الى الحائط وادار نبضة التلفون ، وطلب بصوت خافض رقم الاستخبارات ، ودعا الى التلفون سيميون سيميونوفيتش عفيادين شخصيا .

كانت رسالة داشا مكتوبة بقلم نسخ ، والحروف تتضخم بحجمها اكثر فاكثر كلما مضت فى الكتابة ، وسطورها تميل الى الاسفل :

«بابا ، لا اعرف ماذا سيحصل لى ... كل شىء مشوش ... وانت الشخص الوحيد الذى استطيع الكتابة اليه ... انا فى قازان ... يبدو اننى سأتمكن من الرحيل بعد غد ، ولكن هل ساصل اليك ؟ اريد ان اراك . ستفهم كل شىء ، وستغفر ما تقتصحنى به ... لقد بقيت حية بمعجزة ... لا ادرى وربما كان من الخير الا اعيش بعد الذى حصل ... كل ما قالوه لى ، واوحوا به الىّ كذب وعبارة عارية لتنة ... وحتى ليكانور يوريفيتش كوليتشيلف ... لقد وثقت به وجئت الى موسكو بتحريض منه . (ساروى عنه لقائنا بالتفصيل .) حتى كوليتشيك اعلن لى يوم امس بالحرف الواحد : «الناس يرمون بالرصاص ، ويدفنون فى الارض اكواما ، وقيمة الانسان رصاصة من بندقية ، والعالم غارق بالدم . بينما يجب ان اعاملك . ان آخرين لا يقولون حتى ذلك ، بل ياخذون المراة للفراش راسا» . ولقد قاومت ، يا ابى ، ثق بى ... لن استطيع ان اكون مجرد طعم بعد قدح من الخمرة . فلو اعطى هذا الشئ خير آخر ما تبقى لدىّ فان النور سينطفىء فى عينى ، وساعلق نفسى فى حبل . حاولت ان اكون نافعة . فى ياروسلافل عملت ثلاثة ايام تحت النيران كممرضة اسعاف ... وفى الليل سقطت على الفراش ويدى وثيابى ملطخة بالدم ... واذا باحدهم يوقظنى ، ويحاول ان يرفع تنورتى . فاقفز ، واصرخ . انه حبى ، ضابط ، لن انسى وجهه ابدا ! ويشد جنونه ، ويسقط علىّ ، ويلوى يدىّ صامتا ... الخسيس ! يا ابى ، وارميه بطلقة من مسدسه . لا اعرف كيف حصل هذا ... يبدو لى انه سقط ، لم اره ، لا اتذكر ... واخرج راكضة الى الشارع . حريق . المدينة كلها تحترق ، القذائف تنفجر ... كيف لم اصب بالجنون فى تلك الليلة ! عندئذ عزمت على الهروب ، الهروب ... اريد ان تفهمنى ، تساعدنى ... اريد ان اهرب من روسيا . وعندى مخابيه ... ولكن ساعدنى على الانفصال عن كوليتشيك . انه

يلاحقنى فى كل مكان ، اى يجرنى خلفه فى كل مكان ، وفى كل ليلة يحدثنى نفس الحديث . ولكن ، لن اريد ذلك ولو يقتلنى ...»

وتوقف ايفان ايليتش عن القراءة ، وتنفس ، وقلب الصفحة ببطء :

«بالمصادفة وقعت فى يدى مجوهرات كبيرة ... لقد رايت بام عينى شخصا يسحقه الترام عند بوابة نيكيتسكيه ، مات بسببى ، وانا اعرف ذلك ... وحينما افقت من الاغماءة رايت فى يدى حقيبة من جلد التمساح : لعل احدهم دسها فى يدى حين انهضونى ... وفى اليوم التالى فقط تملكنى الفضول ، وفتحت الحقيبة ووجدت فيها حلى من الالماس واللؤلؤ . وهذه الاشياء قد سرقها ذلك الشخص من مكان ما ... وكان ذاهبا للقاء معى ... افهمت ؟ سرقها من اجلى ... بابا ، انا لا احاول ان ادخل فى تفسيرات قانونية ... لقد ابقيت هذه الاشياء عندى ... وفيها الآن خلاصى الوحيد ... ولكن اذا ثبت لى انى لصة ، فاننى سابقيها معى على اية حال ... تتملكنى الرغبة فى الحياة بعد ان رايت الموت بهذه الكثرة ... لم اعد اؤمن بصورة الانسان ... ان اولئك الرجال الطيبين ذوى الكلمات الرنانة الرائعة عن انقاذ الوطن ، ما هم الا اوغاد ، وحوش ... آه ، ما اكثر ما شاهدت ! عليهم اللعنة ! والمهم ان ما حصل كالآتى : زارنى نيكانور بوريفيتش زيارة مفاجئة فى ساعة متاخرة من الليل ، يبدو انه جاء من بتروغراد مباشرة ... وطلب ان اغادر موسكو معه ، وتبين ان منظمتهم «اتحاد الدفاع عن الوطن والحرية» قد كشفت من قبل اللجنة الاستثنائية ، واعتقل كثير من اعضائها فى موسكو . وهرب سافينكوف وجميع اركانه الى الفولغا . وكان عليهم ان يقوموا بانتفاضة هناك فى ريبينسك وياروسلافل وموروم . وكانوا على عجالة شديدة فى ذلك . فان السفير الفرنسى لم يعد يعطيهم اية نقود ، وطالب بان يثبتوا قوة منظمتهم بالفعل . وكانوا يأملون بان جميع الفلاحين سينحازون الى جانبهم . وقد اكد نيكانور بوريفيتش ان ايام البلاشفة معدودة ، وكان يجب على الانتفاضة ان تشمل الشمال كله ، وشمال الفولغا كلها ، وتتحد مع

تشيكوسلوفاكيين . واكد كوليتشيك ان اسمى وجد فى قوائم المنظمة ، وان البقاء فى موسكو خطر ، فرحلت معه الى ياروسلافل .

وكان كل شىء معدا هناك : كان جميع الرؤساء فى القوات ، فى الميليشيا ، فى الترسانة من رجال منظمتهم ... ووصلنا فى المساء ، وفى الفجر استيقظت على اصوات طلقات ... فهرعت الى النافذة ... وهى تطل على الفناء ، وملاصقا جدار آجرى لكراج ، وكومة قاذورات ، وبعض الكلاب تنبح فى البوابة ... ولم تتكرر الطلقات ، وهدأ كل شىء ... الا فى البعيد ، لقد ترامى صفير موتوسيكلات وهدير محركاتها ... ثم بدأ قرع الاجراس فى المدينة ، فى كل الكنائس ... وفتحت البوابة فى فناء بيتنا ، ودخلت جماعة من الضباط ، يضعون الكتافيات . والاضطراب مرتسم على وجوههم كلها ، وهم يلوحون بالاسلحة . وكانوا يسوقون شخصا بدينا حليقا فى سترة رمادية ، بلا قبعة ولا ياقة ، وسرواله غير مزرر . وكان وجهه احمر حانق . ضربوه على ظهره ، فاهتز راسه من جانب الى آخر . وبدا عليه الغضب الشديد . بقى اثنان يمسكانه عند الكراج . وابتعد الآخرون ، وتشاوروا . وفى تلك اللحظة خرج من المدخل الخلفى لبيتنا العقيد برخوروف رئيس جميع قوات الانتفاضة المسلحة ... وكنت اراه لاول مرة . ادى الجميع التحية العسكرية له . انه رجل ذو ارادة جبارة — عينان سوداوان فاترتان ، ووجه نحيل ، وقامة منتصبة ، ويداه معقودتان ، فى احداهما عصا . وادركت فى الحال : انه الموت لصاحب السترة الرمادية . لقد برخوروف ينظر اليه من تحت حاجبيه ، ورايت اسنانه تتكشف فى لمار . اما الرجل فظل يشتم ويهدد ويطالب . عندئذ هز برخوروف راسه ، واصدر امره ، وانصرف فى الحال . فقفز الاثنان اللذان كانا يمسكان بالرجل البدين ... فخلع الرجل سترته فجأة ، ولفها ، والقاها على الضباط الواقفين امامه فوقعت فى وجه واحد منهم تماما — وظل يصرخ وهو يلعنهم . وهز قبضتيه ، ووقف فى صداره المخطط شخصا هائجا . عندئذ اطلقوا الرصاص عليه ، اهتز بكل جسمه مادا يديه الى الامام ، ومشى ، ووقع . وظلوا يطلقون الرصاص عليه بعض الوقت ، وهو مطروح . لقد كان ذلك المنظر البلشفى بالمسرح ... لقد رايت اعداما ، يا ابى ! والآن لن انسى مدى

الحياة كيف تثبت في الهواء ... واكد لي نيكانور بوريفيتش ان ذلك شيء جيد ، فان لم يقتلوه لقتلهم هو ...

وما حصل فيما بعد لا اتذكره بشكل جيد : ان كل ما حصل كان استمرارا لهذا الاعدام ، كل شيء كان مشبعا بارتعاشات جسد انسان ضخم لم يرد الموت ... طلبوا مني ان اذهب الى بناية صفراء طويلة ذات اعمدة ، وفيها صرت اطبع على الآلة الكاتبة الاوامر والنداءات . وانطلقت الموتوسيكلات ، وثار الغبار ... ودخل اناس مستثارون ، وغضبوا ، وامروا . وكانوا يتصايحون على كل شيء ، ويسكون رؤوسهم . ما بين فزع وآمال مبالغ بها . ولكن حين كان برخوروف يحضر بجلبابه الفاسيتي ، ويلقي كلمات قصيرة يهدأ كل الضغط . وفي اليوم التالي سمعت طلقات مدفعية وراء المدينة . كان البلاشفة قادمين . كان اهل المدينة يتجمهرون في دالرتا من الصباح حتى الليل ، فاذا بها تفرغ فجأة . وبدت المدينة كالميتة . الا سيارة برخوروف تهدر وهي منطلقة بسه ، والفصائل المسلحة تمر ... كانوا ينتظرون طائرات فيها فرنسيون ، وقوات من الشمال ، وبواخر محملة بالقذائف من ريبينسك ... ولم تتحقق الآمال ، واحاط بالمدينة طوق معركة ، وانفجرت القذائف في الشوارع ... وسقطت ابراج الاجراس القديمة ، وتهدمت البيوت ، وشبت الحرائق في كل مكان ، ولم يكن احد ليطفئها ، وغطى الدخان وجه الشمس ، وحتى جثث القتلى بقيت في الشوارع ، واتضح ان سالينكوف اقام مثل هذه الانتفاضة في ريبينسك ، حيث كانت مخازن المدفعية . الا ان الجنود قمعوا الانتفاضة ، وكما ان القرى المحيطة بياروسلافل لم تبد اي استعداد للمساعدة ، وان عمال ياروسلافل لم يريدوا الجلوس في الخنادق ، ومحاربة البلاشفة ... وكان افظع الاشياء وجه برخوروف — كنت التقي به في كل مكان في هذه الايام . — انه الموت يتجول في سيارة بين خرائب المدينة . وكل ما حصل كان يبدو تجسيدا لارادته . ابقاني كولتشيك عدة ايام في سرداب . ولكنني اشعر بذنبي ايضا في كل شيء ، يا ابي . لو بقيت في السرداب لجننت . ارتديت منديلا عليه علامة الصليب ، وعملت حتى الليلة التي حاولوا فيها الاقتحام ... وقبل سقوط ياروسلافل بيوم واحد هربنا ، نيكانور

بوريفيتش وانا ، في قارب الى ما وراء الفولغا ... وسرنا اسبوعا كاملا متخفين عن الناس . وكنا نقضي الليل تحت اكوام الدريس ، ومن حسن الحظ ان الليالي كانت دافئة . ولقد تهرأ حذائي ، ودميت قدماي . وقد حصل نيكانور بوريفيتش على حذاء لبادي لي من مكان ما ، وربما سرقه من على سياج ، ولا اتذكر في اي يوم رأينا في غابة بتولا رجلا يرتدي معطفا ممزقا ، ونعلين من الليف ، وقبعة مهلهلة ، كان يسير جهما سريعا وباستقامة ، كالمعتوه ، معتمدا على عصا ، لقد كان ذلك برخوروف ، وقد هرب هو ايضا من ياروسلافل ، فزعت منه حتى انني انضغطت في العشب ... ثم وصلنا الى كوستروما ، ونزلنا في بيت عند موظف يعرفه كولتشيك ، وعشنا هناك حتى استولى التشيكيون على قازان ... وكان نيكانور بوريفيتش يعتني بي دائما كما يعتني بطفل . وانا اشكره على ذلك ... ولكن الذي حدث انه راى المجوهرات ، ونحن في كوستروما — كانت ملفوفة في منديل جيب في معطفي التي كانت احملها في جيب سترته طوال الطريق . ولم اتذكرها الا في كوستروما . واضطررت ان اروي له الحكاية كلها . وقلت انني اشعر انني مجرمة بضميري . فطلع بهذا الخصوص بنظرية فلسفية كاملة ، منتهيا الى انني لست مجرمة بل رابحة بطاقة نصيب الحياة . ومنذ ذلك الحين تغير سلوكه نحوي ، وصار معقدا جدا . كما انه ايضا اننا كنا نعيش في بيت ريفي حياة نقية هادئة ، ونشرب الحليب ، ونأكل عنب الثعلب وتوت العليق . وقد زاد وزارو ، وذات مرة بعد الغروب ، وكنا في الحديقة ، اخذ يتحدث عن الحب بشكل عام ، وانني قد خلقت للحب ، واخذ يقبل يدي ، وشعرت بانه لا يشك في انني سأستسلم له بعد لحظة على تلك المصطبة تحت الاقاسيا ... وهنا بعد كل ما حصل ، افهم ، يا بابا ؟ لكي لا اشرح له كل شيء قلت له شيئا واحدا : «لن يحصل بيننا شيء ، فانا احب ايفان ايليتش» . ولم اكن كاذبة ، يا بابا ...»

اخرج ايفان ايليتش المنديل ، ومسح وجهه ، ثم عينيه ، وتابع القراءة :

«انا لم اكذب ... انا لم انس ايفان ايليتش . فلم ينته

كل شيء لم معه بعد ... انت تعرف اننا افترقنا في آذار ، غادر الى القفقاس للالتحاق بالجيش الاحمر ... انه امر قديم ، بشكل حقيقي ، واعلم انه ليس حزينا ... وقد انقطعت علاقتنا ، الا ان الماضي يربطنا ربطا قويا ... ولم انقطع الماضي ... اما كوليتشيف فقد عالج الامر ببساطة كبيرة ! استلقى لننام سوية ... آه ، يا بابا ، ان ما كنا نسميه حبا في وقت من اوقات ليس الا حماية للنفس ... اننا نخشى النسيان والتحطيم ... وهذا السبب في ان النظر الى عيني مومس في الليل شيء مرعب ... انها ليست الا ظل امرأة . ولكن انا ، انا حية ، واريد ان احب ، وان اتذكر ، اريد ان ارى نفسي في عيني المحب . واحب الحياة ... ولو تملكتني رغبة للحظة في الاستسلام ، اوقعت في اسر تلك اللحظة ... ولكنني الآن لا اشعر بغير الغيظ والنفور والرعب ... في الفترة الاخيرة حصل شيء في وجهي ، في قوامي ، ازددت جمالا ... وانا الآن كالعارية ، وفي كل مكان عيون جائعة ... اللعنة على الجمال ! . ابي ، اوصل لك هذه الرسالة لكيلا يقال شيء ، حتى نلتقي ... لم احطم بعد ، فافهمني ...»

رفع ايفان ايليتش رأسه . سمع وقع خطوات حذرة وهمسا لعدة اشخاص وراء الباب المؤدي الى الرواق . وادير مقبض الباب . قفز سريعا ، ونظر الى النوافذ ...

كانت نوافذ شقة الدكتور تعبر عالية عن الارض ، على طريقة مدن الاقاليم . وكانت النافذة الوسطى مفتوحة . وثب تليغين اليها . كان ظل انسان يستلقي طويلا كالفرجار ، وظل آخر اطول خارج منه هو ظل بندقية .

كل ذلك حدث في جزء من الثانية ، ادير مقبض الباب الداخل ، ودخل الى غرفة المكتب دفعة واحدة رجلان في هيئة اعتيادية متلاصقين كتفا بكتف ، يرتديان قبعتين لهما حافتان لاتنثنيان ، وقميصين مطرزين ، والى الخلف منهما لاح وجه غلياديين الاصهب اللحية الشاحب . وكان اول ما رأى تليغين حين اندفعوا الى الحجرة ، ثلاث فوهات لثلاثة مسدسات مصوبة نحوه .

وقد حدث ذلك في الجزء التالي من الثانية . وادرك وهو العسكري الخبير ان التراجع امام خصم قوي سليم تصرف غير

حكيم ، نقل مسدسه «البراونينغ» الى اليد اليسرى ، وانتزع من جرابه تحت السترة قنبلة يدوية صغيرة لفت عليها رسالة غيرزا ، وتدفق الدم الى وجهه ، وهتف بصوت حاد متوتر :

— القوا السلاح !

وكان هذا الهتاف مفهوما للغاية ، كما ان هيئة ايفان ايليتش كلها كانت مهيبة جدا حتى ان الرجلين ارتبكا ، وتراجعا قليلا الى الوراء ، وتنحى ذو الوجه الشاحب جانبا . ان ثانية اخرى قد كست ... رفع تليغين القنبلة اليدوية فوقهم :

— القوا ...

وهنا حصل ما لم يتوقعه احد من الحاضرين ولا سيما تليغين ... بعد صيحته الثانية مباشرة ارتفعت صرخة سقيمة ، صوت نسائي في ذعر بالغ صادر من وراء الباب من خشب الجوز الواصل بين غرفة المكتب والغرف الداخلية ... وانفتح الباب ، ورأى تليغين عيني داشا المتسعتين واصابعها الرقيقة متشبثة بعضادة الباب ، ووجهها النحيل المرتعش كله انفعالا :

— ايفان ! ..

وظهر الدكتور بالقرب منها ، وامسكها من جنبيها ، وجرها ، وصفق الباب ... وكل ذلك بدل خلقا خطط تليغين الهجومية الدفاعية ... الدفع نحو الباب من خشب الجوز ، ودفعه بكتفه بكل قوته ، وفرقع الباب ، وهرع الى غرفة الطعام ... كان ما يزال يمسك في يده سلاح القتال ... كانت داشا واقفة عند المائدة ممسكة عند الرقبة بلبتي روبها المخطط ، وحنجرتها متحركة ، وكأنها تبتلع شيئا (وقد لاحظ ذلك باشفاق شديد .) تراجع الدكتور ، وكان مذعور المظهر اشعث الشعر .

— النجدة ! غليادين !

لم بصوت مذعور . وكضت داشا هارعة الى الباب من خشب الجوز ، وادارت المفتاح فيه :

— يا الهي ، ما افظع ذلك !

الا ان ايفان ايليتش فهم كلماتها بشكل آخر : فظيع حقا ان يرى الى داشا ومعه هذه الاشياء . اسرع في وضع المسدس والقنبلة اليدوية في جيبه . عندئذ امسكت داشا يده قائلا «لتذهب» . وجذبته

الى الدهليز الصغير المظلم ، وعشه الى غرفة ضيقة ، حيث كانت تشتعل شمعة على مقعد . كانت الغرفة عارية ، ليس فيها غير تنورة داشا معلقة من مسمار ، وسرير حديدى عند الجدار عليه مطارح مجعدة .

همس تليغين :

— انت هنا وحدك ؟ قرأت رسالتك .

وتلفت ، وارتجفت شفتاه المنفرجتان عن ابتسامة . لم تجب داشا ، وجذبته نحو النافذة مفتوحة .

— اهرب ، اهرب حالا . فقدت صوابك ! . .

كان الفناء يرى من النافذة فى غير وضوح ، وظلال وسطوح المبانى النازلة الى النهر ، والى الاسفل انوار الرصيف النهرى . وكانت نسمة رطبة تهب من ناحية الفولغا وفيها رائحة مطر حادة . . . وقفت داشا ملاصقة ايفان ايليتش بجسمها كله ، ورفعت وجهها المذعور ، وفتحت فمها قليلا . . . وتمتمت محدقة فى عينيه :

— اعذرنى ، اعذرنى . اهرب دون ابطاء ، يا ايفان .

وكيف ينتزع نفسه منها ؟ انغلقت دائرة الفراق الواسعة . تخلص من الف موت ، وها هو ينظر فى الوجه الوحيد . انحنى وقبلها .

ولم تستجب له شفتاها الباردتان ، بل ارتعشتا فقط .

— لم اخنك . . . كلمة شرف . . . سنلتقى ، حين تتحسن الحال . . . ولكن اجر ، اجر ، اتوسل اليك . . .

لم يحبها بهذه القوة ، حتى فى الايام الهانئة فى القرم . امسك دموعه ، وهو يحدق فى وجهها :

— داشا ، تعالى معى . . . انت تفهمين . سأنتظرك وراء النهر . غدا فى الليل . . .

هزت راسها ، وتأوهت بيأس :

— لا ، لا اريد .

— لا تريدين ؟

— لا استطيع .

قال :

— حسنا ، فى هذا الحال سأبقى .

وتراجع الى الحائط . . . تأففت داشا ، ونشجت . . . وفجأة

اندفعت نحوه بحدة ، وامسكت يديه ، وعادت تدفعه نحو النافذة . فى الخارج صرف باب الفناء وحسحس رمل تحت اقدام حذرة . ضغطت داشا راسها الدافىء بقوة على يدى ايفان ايليتش . . .

وقال لها ثانية :

— قرأت رسالتك ، فهمت كل شىء .

عندئذ كفت للحظة عن جذبه ، وطوقت عنقه ، والصقت وجهها كله فى وجهه :

— انهم الآن فى الفناء . . . سيقتلونك ، سيقتلونك . . .

كان شعرها المتناثر يبدو اشقر فى ضوء الشمعة . فبدت لعينى ايفان ايليتش فتاة صغيرة ، طفلة ، تماما كما تخيلها فى تلك الليلة ، حين كان مستلقيا فى حقل القمح جريحا قابضا على كومة من التراب فى قبضته ، مفكرا بقلبها الابى القلق الهش .

— لماذا لا تريدين ان تذهبى معى ، يا داشا ؟ سيعذبونك هنا . فانت ترين اى اناس هؤلاء . . . مهما تكن المصائب سيكون من الافضل ان اكون معك . . . يا طفلتى . . . انت ، على اى حال ، معى فى الحياة والموت ، انت مثل قلبى القلق فى صدرى .

قال ذلك بخفوت وسرعة من زاويته المعتمة . القت داشا راسها الى الوراء ، ولم تترك يديه . وطفرت الدموع من عينيها .

— ساكون وفية لك حتى الموت . . . اخرج . . . افهمنى . انا لست التى تحبها . . . ولكن ساكونها .

ولم يعد يسمع شيئا آخر ، فقد اسكره فرح جنونى بدموعها ، بكلماتها ، بسرتها النابع من القلب . فضمها ضمة قوية جعلت عظامها تطرقع . وهمس :

— حسنا . فهمت كل شىء . وداعا .

ودفع بصدره الى افريز النافذة ، وبعد ثانية انسل من النافذة كالظل ، ولم يسمع غير وقع اقدامه الخفيف على سطح الزريبة الخشبى .

اخرجت داشا راسها من النافذة ، ولكن لا شىء كان يرى : ظلام ، وانوار صفراء صغيرة فى البعيد . وضغطت بكلتا يديها على موضع القلب من صدرها . . . لا صوت فى الفناء . . . ولكن ها هما شخصان يخرجان من الظل ، وانحنيا ، وعبرا الفناء فى خط منحرف .

وصرخت داشا بصوت حاد رهيب جعل الشخصين يدوران في عدوهما ويتوقفان. انهما على ما يبدو التفتا نحو نافذتها. وفي تلك اللحظة رأت تليغين يتسلق حافة السطح الخشبي في نهاية الفناء.

انطرحت داشا على وجهها على السرير. وبقيت بلا حراك. ثم نهضت بحركة مندفعة اخرى، وتلمست نعلها الذي وقع من قدمها، وركضت الى غرفة الطعام.

رأت فيها الدكتور وغليادين واقفين على استعداد للقتال. الطبيب ممسك بمسدس صغير نيكلي، وغليادين بمسدس «ناغان». اسرع الاثنان يسألان داشا دفعة واحدة: «كيف؟..» ضمت قبضتيها، ونظرت نظرة مجنونة في عيني غليادين الصفراوين. وقالت هازة قبضتها امام انفه الشاحب:

— وغد! سيرمونك في الرصاص في يوم ما. وغد!

ارتعش وجهه الطويل، وازداد شحوبا، وتدلت لحيته ميتة. ابدى الدكتور له اشارة، الا ان غليادين كان يرتعش بكل كيانه حنقا.

— لا تهزي قبضتك عليّ، يا داريا دميتريفنا... انا لم انس بعد كيف تطاولت عليّ وضربتني بنعلك على ما اذكر... انزلي قبضتك... وعلى العموم انصحك بأن لا تزدري بي.

قاطعه الدكتور مشيرا في الوقت ذاته بالتأشير له ولكن بحيث لا تراه داشا:

— انت تضيع الوقت، يا سيميون سيميونوفيتش.

— لا تقلق، يا دميتري ستيبانوفيتش. لن يفلت تليغين منا...

صرخت داشا مندفعة نحوه:

— لن تجرا! (فاحتمى غليادين بكرسي حالا.)

— سنرى: تجرا ام لا... احذرك، يا داريا دميتريفنا بان «شعبة الامن» مهتمة جدا بك شخصيا... وبعد حادث اليوم لن اتكفل بشيء. من الممكن ان يعترضك ازعاج.

قال الدكتور غاضبا:

— يبدو انك اخذت تلقي الكلام جزافا. هذا شيء زائد عن الحد...

— كل شيء يتوقف على العلاقات الشخصية، يا دميتري ستيبانوفيتش... انت تعرف مراعاتي لك، وميلي القديم نحو داريا دميتريفنا...

شحبت داشا فجأة. وتشوه وجه غليادين كله من التكشيرة التي ظهرت عليه، وكأنه انعكس في مرآة مشوهة. تناول قبعته، وخرج منتصبا عليائه لكيلا يبدو مضحكا من الخلف. قال الدكتور، وهو يجلس الى المائدة:

— غليادين هذا رجل مخيف.

سارت داشا في الحجرة مطقطقة باصابعها. وتوقفت امام ابيها:

— اين رسائلي؟

كان الدكتور يحاول ان يفتح علبة سكائره الفضية، فارسل نفيخا من خلال اسنانه، وتناول سيكارة اخيرا، ودعكها بين اصابعه السميكة التي ما زالت ترتجف.

— هناك... الشيطان يعرف... في غرفة المكتب، على البساط.

خرجت داشا، وعادت في الحال تحمل الرسالة، وتوقفت امام دميتري ستيبانوفيتش ثانية. كان يحاول ان يشعل سيكارة، الا ان اللهب كان يتراقص قرب نهاية السيكارة.

قال والقى عود الثقاب على الارض:

— لقد قمت بواجبي. (صمتت داشا.) يا عزيزتي، انه لقاتل وفضلا عن ذلك فهو يتجسس... والحرب الاهلية، كما تعلمين، ليست قضية بسيطة، وقد اقتضى التضحية بكل شيء... ولهذا اعطينا السلطة. والشعب لن يغفر الضعف. (اخذت داشا تمزق الرسالة الى مزق صغيرة في غير عجالة، وكأنها غارقة في افكارها.) انه يأتي — وذلك واضح وضوح النهار — لكي يستقي متى ما يريد، واذا سنحت الفرصة يقتلني... هل رأيت كيف كان مسلحا؟ بقنبلة. في عام ١٩٠٦ رأيت بأم عيني كيف قتل حاكم المحافظة بلوك بقنبلة في منعطف شارع موسكانيلنايا... ليتك شاهدت ماذا تبقى منه — جثة بلا رأس وقطعة من لحية. —

وارتعشت يدا الدكتور من جديد، فالقى السيكارة التي لم تشتعل

وتناول اخرى ، وتابع قوله : — منذ البداية لم احب صاحبك تليغين . لطيف انك قطعت علاقتك به . . . (وصمتت داشا عن هذا الكلام ايضا .) بدا بحيلة بدالية جدا . سأل اين انت . . .

— ان امسكه غفيادين . . .

— ليس من شك في ذلك ، فان لغفيادين استخبارات ممتازة . . . لقد عاملت الفلاحين معاملة سيئة . . . انه رجل كبير . . . والتشيكيون يقدرونه جيدا ، وفي القيادة ايضا . . . والفترة تقتضينا ان نضحي بالشخصي . . . لخير البلاد . تذكرين الامثلة الكلاسيكية . . . وانت ابنتي ، اذا كان راسك محشوا بالخيالات — ضحك وسعل — فانه ليس راسا بليدا . . .

قالت داشا بصوت مبحوح :

— ان امسك غفيادين ايفان ايليتش ، فستفعل كل شيء لانقاذه .

القى الدكتور نظرة سريعة على ابنته ، ونخر من انفه ، دعكت داشا مزق الرسالة بقبضتها .

— ستفعل ذلك ، يا ابي !

— لا — صاح الدكتور ضاربا المائدة بكفه — لا ! حماقة ! اتصرف لمصلحتك . . . لا !

— سيصعب عليك ذلك ، ولكن ستفعله ، يا بابا .

صرخ الدكتور :

— انت طفلة ، انت حمقاء ! تليغين وغد ومجرم ، ستحكم عليه المحكمة العسكرية بالرمي .

رفعت داشا راسها ، وتوهجت عيناها الرماديتان بشكل لا يطاق حتى ان الدكتور عقد حاجبيه تاخرا . رفعت قبضتها والاوراق المدعوكة فيها ، وكانها تهدد ، وقالت :

— لو كان جميع البلاشفة مثل تليغين فانهم على حق .

— حمقاء ! . . حمقاء ! . . — ووثب الدكتور على قدميه محمرا مرتجفا ضاربا الارض — يجب ان يشنق البلاشفة مع صاحبك تليغين ! على جميع اعمدة التلغراف . . . ان نسلخ جلودهم وهم احياء !

الا ان طبع داشا كان ، على ما يبدو ، احد من طبع دميتري

ستيبانوفيتش ، ولكنها امتقعت فقط ، وابتعدت عنه تماما مثبتة فيه عينيها غير المحتملتين ، وقالت :

— وضيع ، ما هذه العربدة ؟ انت لست ابي ، بل شخصا مجنونا فاسدا !

والقت في وجهه مزق الرسالة . . .

في تلك الليلة استدعي الدكتور الى التلفون فجرا ، ومن السماعة صدر صوت هادئ خشن بعض الشيء :

— احيطكم علما بان جثة غفيادين نائب رئيس الاستخبارات واحد مخبريه قد اكتشفتا توا قرب رصيف ساموليتسكايا ، وراء مخزن الطحين . . .

وسقطت السماعة . فتح دميتري ستيبانوفيتش فمه مبتلعا الهواء ، وانهار قرب التلفون في نوبة قلبية عنيفة .

١١

بعد ان حطم جيش سوروكين قوات دروزدوفسكي وكازانوفيتش احسن قوات جيش المتطوعين ، غير الخطة الاولية في الخروج الى ما وراء كوبان ، وبدلا من ذلك تحول شمالا قرب قرية كورينيفسكايا ، وبدا بالهجوم على محطة تيخوريتسكايا ، حيث يوجد مقر قيادة دنيكين .

ظلت المعركة الضارية محتدمة عشرة ايام . وقد اكتسح رجال سوروكين ، وقد حفزتهم النجاحات الاولى ، جميع العقبات امام محطة تيخوريتسكايا . ولاح الآن وكان ما من شيء يستطيع ايقاف الزحف السريع ، اسرع دنيكين بتجميع القوات المبعثرة في كوبان ، وكانت الضراوة من الشدة بحيث ان كل اشتباك كان ينتهي بقتال بالحراب .

الا ان تحللا قد اصاب جيش سوروكين بنفس هذا الاندفاع . واشتد الخصام بين الافواج الكوبانية والافواج الاوكرانية . كان الاوكرانيون وجنود الجبهة القدامى يدمرون القرى الكوبانية الواقعة في طريق الهجوم دون ان يفرقوا بين القرى المؤيدة للبيض والقرى المؤيدة للحمر .

وسادت البلبلة . كان اهالي القرى ينظرون بذعر الى الجحفل الزاحف من وراء نهاية السهب في سحب من الغبار . كان دنيكين ، على

اقل تقدير ، يدفع ثمنا للعلف ، اما رجال سوروكين هؤلاء فلا يعرفون الا شيئا واحدا : ان يكتسحوا كل شيء . فكان الشبان يمتطون خيولهم وينضمون الى دنيكين ، والشيوخ مع النسوة والاطفال والماشية يولون الى الوهاد المنخفضة .

وهنا نرى كاملة شدة جيش سوروكين . وكانت الافواج الكوبانية تصيح : «انهم يرسلوننا للقتل ، والاغراب ينهبون اراضينا !» وكان بيلياكوف رئيس اركان الجيش يدور بشدة في دوامة الاحداث ، متلمسا رأسه ليتأكد من انه ما يزال بين كتفيه . ولا عجب ! فان الاستراتيجية قد ذهبت مع الريح . وكان كل التكتيك في الحراب العادية والضراوة الثورية . وحلت محل الضبط حركة عاصفة لا تكبح لمجموع القوات . وكان من الفظاعة النظر الى القائد العام الاعلى سوروكين ، فقد كان يتغذى على الكحول والكوكائين في تلك الايام ، فكانت عيناه محتقنتين ، ووجهه مسودا ، وصوته مبحوحا ، يندفع كالممسوس في المقدمة على اكتاف الجيش .

وحدث ما لا بد منه . فان جيش المتطوعين الذى مرسه ضبط حديدي ، ويخضع ، كالآلة ، لارادة قيادة واحدة ، ورغم الدمار وتراجعه اخذ يتحول الى الهجوم المضاد مرة بعد اخرى متشبثا بكل تلعة ملائمة من الارض متخيرا الاماكن الضعيفة لدى الخصم ببرود واقتدار . وفي يوم ٢٥ تموز ، تفجر اليوم العاشر الاخير من المعركة بالقرب من فيسيلكي ، على بعد خمسين فرسخا من محطة تيخوريتسكايا .

كانت مواقع قوات دروزدوفسكي وكازانوفيتش اسوأ حتى من الايام السابقة . لقد استطاع الحمر هنا ان ينفذوا الى المؤخرة ووقع المتطوعون في نفس الكيس الذى وقع فيه البلاشفة قرب بيلايا غلينا . ولكن جيش سوروكين لم يكن كما كان منذ تسعة ايام ، فقد فترت الهمم ، وبثت صلابة العدو عدم الثقة والتشكك واليأس : فمتى يأتي النصر والراحة ؟

بعد الساعة الثالثة بعد الظهر انطلق جيش سوروكين بهجوم على طول الجبهة . وكانت الضربة قوية . وكانت المدافع تقصف في كل مكان على طول الافق . وسارت الصفوف الكثيفة بقاماتها ، ولم تستلق . وبلغ التوتر ونفاد الصبر والضراوة ذروتها ...

وبهذا الشكل بدا هلاك جيش سوروكين . ابيدت الموجة الاولى من المهاجمين بالنار والحراب ، واختلطت الموجات التالية تحت النار بين الجثث والجرحى والساقطين . وحين وقع ما كان من غير الممكن تخيله ولا ادراكه ولا ايقافه : فجاة ارتخى التوتر . ولم يعد هناك ما يكفي من القوة والحماس .

واستمرت عزيمة العدو الباردة تنزل الضربات المحسوبة مضاعفة الارتباك ... واخترق الافواج المرتبكة رجال ماركوف وفوج الخيالة من الشمال ، وخيالة اردلي من الجنوب . وزحفت المدرعات اللاهثة للنار ، وتحركت طارات البيض المصفحة . وعندئذ بدا التراجع والهروب والذبح . وفي نحو الساعة الرابعة تغطى السهب كله بجيش سوروكين المتراجع جنوبا وغربا ، والمقتص عليه كقوة موحدة .

التقى بيلياكوف رئيس الاركان قائد الجيش العام في السيارة بالقرية . كانت عينا سوروكين المحمرتان جاحظتين ، وفمه مزبدا . وكان ما يزال ممسكا بيده السوداء مسدسه الذى افرغ رصاصه . انطلقت السيارة المثقبة بالرصاص المسوقة بسرعة جنونية بين الجثث ، واختفت وراء التلال .

وتراجع الجزء الرئيسي من جيش سوروكين المهزوم الى يكاترينودار . والى هناك ايضا اخذ جيش تامان (المجموعة الغربية من القوات الحمراء) بقيادة كوجوخ يتراجع من شبه جزيرة تامان . وكانت جميع القرى في طريق المهزومين تهب منتفضة . والآف الاغراب يهربون — مع متاعهم وماشيتهم — تحت حماية جيش تامان خوفا من انتقام القوزاق . وقطعت خيالة الجنرال بوكروفسكي البيضاء طريق التراجع ، وبلورة الحماس استطاع جيش تامان ان يحطمها ، ويبعثرها ، الا ان تراجعه نحو يكاترينودار لم يعد ممكنا على اية حال ، فاستدار كوجوخ بجيشه ومع قوافل اللاجئين بحدة نحو الجنوب ، الى الجبال المقفرة الوعرة املا ان يشق طريقه الى نوفوروسيسك ، حيث كان اسطول البحر الاسود العائد للحمر .

الآن لم يعد شيء يوقف دنيكين . فبعد ان طهر الطريق بسهولة مدفعية قواته الى يكاترينودار التي كانت تحتلها فلول جيش شمال القفقاس الذى لم يعد له وجود ، واحتل المدينة بهجوم شديد خاطف .

وهكذا انتهت «الحملة الجليدية» التي بدأها كورنيلوف قبل ستة اشهر بحفنة من الضباط .

واضحت يكاترينودار عاصمة البيض . وطهرت مناطق البحر الأسود الغنية بسرعة من كل عناصر الهياج والعصيان . واعاد الجنرالات الذين كانوا ، الى حين قريب ، يطلبون العمل من قمصانهم ، تقاليد الدولة العظيمة بنشاتها الامبراطوري القديم .

ان الطريقة الضيقة السائدة في خوض الحرب عن طريق الحصول على السلاح والعتاد في معركة او في غارة على البلاشفة لم تعد ، بالطبع ، ملائمة للخطط الموسعة الجديدة . كانت هناك الحاجة الى المال ، والى سيل واسع من الاسلحة والذخيرة ، والى تهيئة التموين العسكري لحرب كبيرة ، قواعد جبارة للهجوم على قلب روسيا .

فقد انتهى عهد الصراع المحلي الاهلي ، ودخلت الى اللعبة قوات خارجية جبارة .

وظهر امام القيادة العليا الالمانية خطر مفاجيء خاص عقب انتصارات دنيكين الاولى في حزيران . كان البلاشفة اعداء مربوطي الايدي والاقدام باتفاقية بريست - ليتوفسك . وظهر دنيكين كعدو لم يعرف بعد ولم يدرس . وبعد انتصار جيش - سوروكين خرج دنيكين الى بحر آزوف ونوفوروسيسك ، حيث كان يوجد الاسطول الحربي الروسي كله منذ اوائل ايار .

ولم يكن الالمان مهتمين من ناحية البحر الاسود . وكانوا مطمئنين ما دام الاسطول في ايدي البلاشفة ، فقد كانوا يردون على كل عمل عدائي من جانبه بعبور الحدود الاوكرانية . الا ان وقوع خمس عشرة مدمرة ومدرعتين في يدي دنيكين كان يعني خطرا جديا في تحويل البحر الاسود الى جبهة للحرب العالمية .

في العاشر من حزيران قدمت المانيا للحكومة السوفييتية انذارا نهائيا يقضي بان ينقل اسطول البحر الاسود كله خلال تسعة ايام من نوفوروسيسك الى سيباستوبول ، حيث كانت ترابط حامية المانية قوية . وهددت المانيا ، في حالة الرفض ، بالهجوم على موسكو .

في ذلك الحين كتب رئيس اركان القوات النمساوية المحتلة رسالة من اوديسا الى وزير الخارجية في فينا :

«ان المانيا ترمي في اوكرانيا الى هدف اقتصادي سياسي محدد . انها تبتغي ان تضمن لنفسها والى الابد طريقا آمنا الى ما بين النهرين والجزيرة العربية عن طريق باكو وفارس .

والطريق الى الشرق يمر في كييف ويكاترينوسلاف وسيباستوبول ، ومنها يبدأ الاتصال البحري بباطوم وترابيزوند .

ولهذا الهدف تنوي المانيا الابقاء على القرم لها كمستعمرة او باي شكل آخر . انهم لن يضيعوا من ايديهم ثالبة شبه جزيرة القرم الغنية . وفضلا عن ذلك ، ومن اجل الاستفادة الكلية من هذا الطريق يجب ان يكون لديهم خط حديدي رئيسي ، ولما كان تزويد هذا الخط والبحر الاسود بالفحم من المانيا غير ممكن ، فان من الضروري لالمانيا ان تستولي على اهم مناجم الدونباس ، وكل ذلك ستضمنه المانيا لنفسها بطريقة او باخرى . . .»

حين سلم الانذار النهائي الى موسكو في العاشر من حزيران حل لينين - دون تردد كما هو دائما - هذه المسألة الصعبة «غير القابلة للحل» بالنسبة للكثيرين . وكان الحل كالآتي : محاربة الالمان في الوقت الحاضر ما تزال غير ممكنة ، ولكن تسليم الاسطول اليهم غير ممكن ايضا .

وغادر موسكو الى نوفوروسيسك ممثل الحكومة السوفييتية الرفيق فاخراميف . وفي حضور موفدين من اسطول البحر الاسود وجميع امراء السفن عرض الرد البلشفي الوحيد على الانذار النهائي : ان يرسل مجلس مفوضي الشعب برقية مفتوحة الى اسطول البحر الاسود يامره بالتوجه الى سيباستوبول ، والاستسلام الى الالمان ، ولكن اسطول البحر الاسود لا ينفذ هذا الامر ، ويغرق سفنه في مرفأ نوفوروسيسك .

وكان الاسطول السوفييتي - المؤلف من مدرعتين وخمس عشرة مدمرة ، وغواصات وسفن مساعدة ، والمشلول بموجب معاهدة بريست - ليتوفسك - يرسو في مرفأ نوفوروسيسك .

نزل موفدو الاسطول الى الساحل ، واستمعوا الى فاخراميف بوجوم ، فقد كان يعرض الانتحار . ولكن لا بد مما ليس منه بد . والطريق مسدود . فلم يكن لدى الاسطول فحم ولا نفط . كان الالمان يحجبون موسكو ، ودنيكين يقترب من الشرق ، وفي الطرقات

الحالية تلوح حظائرات الغواصات الالمانية فى اشرطة من الزبد ، وفى
الازرقاق السماوى تلمع القاصفات الالمانية . وتناقش الموفدون
طويلا وبحرارة . . . ولكن لم يكن ثمة غير مخرج واحد ، هو الغرق
السلمى . . . ومع ذلك فقد قرر الموفدون ، وهم امام هذا المصير
الرهيب ، ان يطرحوا مصير الاسطول على تصويت جميع افراده .

وبدأت فى مرفأ نوفوروسييسك اجتماعات عامة حضرها الاف
الناس . وصعب على البحارة ان يفهموا ، وهم ينظرون الى المدرعتين
العملاقتين الفولاذيتين الرماديتين : «فوليا» و«سفوبودنايا روسيا»
الراسيتين ، والى المدمرات السريعة الحركة المؤللة
بالمجد الحربى ، والى الابراج والصوارى المعقدة المتشابكة ، الشامخة
فوق المرفأ ، فوق جماهير الناس — صعب عليهم ان يتصوروا ان ملك
الثورة الرهيب هذا ، وطن البحارة العائم سيغطس الى قاع البحر دون
ان يطلق رصاصة واحدة ، ودون ان يقاوم .

لم يكن بحارة البحر الاسود رجالا يمكن ان يقرروا تدمير
انفسهم بهدوء بال . صرخ الكثيرون منهم بكلمات جنونية ، ودقوا
الصدور ، وشقوا قمصانهم البحرية عن صدور موشمة ، ووطأوا
باقدامهم قبعاتهم ذات الاشرطة . . .

وعلى طول الساحل ماجت جماهير غفيرة من البحارة والجنود
واهل الساحل الآخرين من الفجر حتى المساء ، حين تضرج الغروب
المياه الخليقية الكئيبة التى لم تعد لهم الآن ، مياه البحر اللعين .

وكان قادة السفن والضباط ينظرون الى الامر نظرة مغايرة :
فان الجزء الكبير منهم كان يميل سرا الى الذهاب الى سيباستوبول ،
والاستسلام للالمان ، واما الجزء الصغير برئاسة قائد المدمرة
«كيرتش» الملازم الاول كوكيل فقد ادرك حتمية الهلاك ، واهميتها
الهائلة برغمها بالنسبة للمستقبل ، فكان يقول :

«يجب الانتحار ، واغلاق سفر تاريخ اسطول البحر الاسود
لبعض الوقت دون تلويثه . . .»

وفى تلك الاجتماعات الهائلة الهائجة كالزوبعة كان يتخذ قرار
فى الصباح وآخر فى المساء . وكان اكثر النجاح من نصيب الذين
كانوا يلقون قبعاتهم على الارض ويصرخون :

«ايها الرفاق ، ليذهب الروس الى الجحيم ليغرقوا هم

انفسهم . اما نحن فلن نتخلى عن اسطولنا . سنحارب الالمان لآخر
نقطة . . .»

ويرتفع الهدير فى المرفأ : هورا !

وبدأت بلبلة قوية بشكل خاص حين قدم من يكاترينودار قبل
اربعة ايام من انتهاء الانذار رئيس اللجنة التنفيذية المركزية
لجمهورية البحر الاسود روبين وممثل الجيش بيريبينوس . وهو
شخص عملاق ذو هيئة رهيبة يحمل فى حزامه اربعة مسدسات ، وكانا
يقنعان كلاهما — روبين بخطبة مستفيضة ، وبيريبينوس بصوته
الهادر وتلويحه بالسلاح — بانه لا تسليم الاسطول ولا اغراقه ممكن ،
وان الذين فى موسكو لا يفهمون ماذا يقولون ؛ وان جمهورية البحر
الاسود ستقدم للاسطول كل ما هو بحاجة اليه من نفط وقنابل
ومواد غذائية كثيرة . وصرخ بيريبينوس :

— ان امورنا فى الجبهة ماشية (واتبع ذلك ببعض اللعنات)
وفى الاسبوع القادم سنغرق ابن الكلبة دنيكين ورجاله فى نهر
كوبان . . . فلا تغرقوا السفن ، يا اخوان . فنحن نحتاج فى الجبهة الى
ان نشعر بان فى مؤخرتنا اسطولا جبارا . اما اذا اغرقتموها ، فانا
اعلن باسم الجيش الثورى لكوبان والبحر الاسود كله اعلانا قاطعا
باننا لن نطيق هذه الخيانة . واننا من الآن سنوجه اربعين الف
حربة ضدكم ، وسنقطعكم بالحراب لآخر رجل ، يا اخوان . . .

وبعد هذا الاجتماع تخلخل كل شيء ، ودارت الرؤوس . واخذ
البحارة يغادرون السفن على غير هدى ، وتكاثرت فى الجمع عناصر
غريبة كانت فى النهار تصرخ باعلى الاصوات : «لنحارب الالمان حتى
آخر قطيرة» وفى الليل يقتربون جماعات من السفن المهجورة
مستعدين الى الاقتحام ورمى البحارة فى الماء ولينهبوا .

فى تلك الايام عاد سيميون كوتيلنيكوف الى المدمرة
«كيرتش» .

كان سيميون ينظف رأس البوصلة النحاسى . كان البحارة
جميعا مشغولين منذ الصباح كاشطين وغاسلين ومنظفين المدمرة
الراسية على مقربة من احد الحواجز . كانت الشمس الحارة تلمع
فوق التلال الساحلية المصلوعة . . . وكانت الاعلام مرتخية فى الجو
الساكن . كان سيميون يفرك القطعة النحاسية بحماس محاولا الا

ببطء باتجاه المرفأ . كان البحارة ينظرون المدمرة قبيل ملاكها .

في المرفأ كانت المدرعة «فوليا» ترسل الدخان من مداخنها الهائلة . وكانت المدافع المكشوفة الاخلية تلمع في الشمس . وكان الدخان الاسود يتصاعد نحو السماء . وكان الخليج الصقيل ينعكس في مياهه السفينة والدخان والتلال البنية مع مصانع الاسمنت عند سفوحها .

قرفص سيميون على عقبيه العاريتين ، وراح يحرك القطعة النحاسية . وكان في الحراسة في تلك الليلة . وكان يشعر بالمرارة لدى التفكير في عبث مجيئه الى هنا . وعدم الاستماع الى اخيه وماتريونا . . . سيضحكون منه الآن : «آه انك احسنت في محاربة الالمان . . . خنتم الاسطول ، يا اخوان . . .» فماذا يرد على ذلك ؟ يقول : تنلقت «كيرتش» بيدي وصفقتها واغرقتها .

خرج من «فوليا» قارب بخاري ، واتجه نحو السفن ملوحا بالاعلام . رفعت المدمرة «ديرزكي» مرساتها ، وسحبت «بيسبوكوينى» وجرتها ببطء الى المجرى الخارجي . تحركت وراءها المدمرات «بوسبشنى» و «جيلوى» و «جاركى» و «غرومكى» سائرة على الماء الصقيل ببطء اشد وكأنها مريضات .

ثم حدث توقف في الحركة . بقيت في المرفأ ثماني مدمرات . ولم تلحظ فيها اية حركة . كانت كل الانظار الآن متجهة نحو جسم «فوليا» الفولاذي الضخم الرمادي القاتم ذي الخطوط المعدنية على السطح . حدق البحارة فيها بعد ان القوا من ايديهم مسحاتهم وخرقهم وخراطيم المياه . كان علم قائد الاسطول عميد البحرية تيخمينيف يرفرف بكسل على المدمرة «فوليا» .

كان البحارة على ظهر المدمرة «كيرتش» يتحدثون باصوات خليضة وبقلق :

انظروا . . . «فوليا» ذاهبة الى سيباستوبول . . .

— يا اخوان ، امعقول انهم اوغاد الى هذا الحد ! . . امعقول انهم بلا ضمير تورى ! . .

— لو تذهب «فوليا» فيمن يؤمن الانسان بعد هذا ، يا اخوان ؟ . .

— الا تعرف تيخمينيف ! عدو لدود ، ثعلب ماكر !

— ذاهبة ! آه ، الخونة ! . .

وراء «فوليا» كانت ترسو المدرعة «سفوبودنايا روسيا» ملتصقتها . الا انها كانت تبدو ناعسة هادئة ، وقد تغطت كلها بالمظلة ، وما من شخص يُرى على ظهرها . اتجهت اليها من الساحل زوارق فيها الناس يجذفون بسرعة جنونية . وفي المرفأ الساكن ترتفع الطلقات صفارات عرفاء الملاحين وقرقعت الونشات على «فوليا» ، وصعدت الى فوق السلاسل المبللة ، والمراسي المغرينة . واخذ انف السفينة يستدير ، وتحركت الصواري المتشابكة والمداخن والابراج على خلفية سطوح المدينة المبيضة .

— ذهبوا . . الى الالمان . . . آه ، يا اخوان . . . لستسلمون للاسر ! . . اى شيء فعلتم ؟ . . . .

خرج الى برج القيادة في المدمرة «كيرتش» قائدها ذو الانف الكبير المسلوخ في وجه سودته الشمس . وتابعت عيناه الفاترتان حركات «فوليا» ، والمعنى من على برج القيادة . وامر :

— ارفعوا اعلام الاشارة . . .

هتف البحارة بحيوية في الحال :

— سمعا ، اعلام الاشارة ترفع !

وانطلقوا الى الصندوق الذي فيه اعلام الاشارة . وارتفعت على صاريه «كيرتش» اعلاما زاهية الالوان ، ورفرفت في السماء اللازوردية . وكانت تشكيلتها تعني :

«الى السفن المتجهة الى سيباستوبول . العار لخونة روسيا ! . .»

لم ترد «فوليا» على الاشارة بالاشارة ، وكأنها لم تلحظ شيئا . . . سارت «فوليا» بلا رجال مجللة بالعار منزلقة بين السفن الحربية التي بقيت محافظة على كرامتها . . . وفجأة صاح البحارة : «اخلت الاشارة !!» . ارتفع مدفعان ضخمان على برج المؤخرة ، واستدار البرج نحو المدمرة . . . امسك قائد «كيرتش» الدرابزين وهو على برج القيادة ، واتجه بانفه الكبير المقشر لملقاه الموت . الا ان المدفعين تحركا ، وهدآ .

التفت «فوليا» حول حاجز الامواج مزيدة سرعتها ، وسرعان ما اختفى جانبها الانوف وراء الافق لتظهر بعد سنوات عديدة في

بنزرت البعيدة مجردة من السلاح صدئة مثقلة بالخزي الى الابد .

اصر تيخمينيف قائد الاسطول على رأيه ، ونفذ الأمر الشكلي لمجلس مفوضي الشعب . استسلمت المدرعة «فوليا» وست مدمرات الى العدو في سيباستوبول . وسرح بحارتها وضباطها .

وتفرق البحارة كل الى طيته ، الى بيوتهم ومواطنهم وقالوا ، بالطبع ، ان ايديهم لم تطاوعهم لاغراق السفن ، والاكثر من ذلك انهم ارتعبوا من الاربعين الف من جنود البحر الاسود الحمر الذين هددوا بطعن كل نوفوروسييسك بالحراب .

وبقيت المدرعة «سفوبودنايا روسيا» وثماني مدمرات في ميناء نوفوروسييسك . وفي اليوم التالي انتهى اجل الانذار النهائي . وحلقت الطائرات الالمانية عاليا فوق المدينة . وفي المجاري الخارجية ظهرت منظارات الغواصات الالمانية بين الدلفين القافز . وتردد ان الالمان اقاموا انزالا في تيمريوك ، على مسافة غير بعيدة . اما في ساحل نوفوروسييسك فظلت الاجتماعات العامة الصاخبة منعقدة ليل نهار . وراح اشخاص مدنيون يصيحون بالحاح متزايد :

— يا اخوان ، لا تهلكوا انفسكم ، لا تغرقوا الاسطول . . .

— الضباط وحدهم يريدون اغراق الاسطول ، وجميعهم باعوا انفسهم لدول الوفاق . . .

— في سيباستوبول القيتم الضباط في الماء في شهر كانون الاول ، فماذا تخافون الآن ؟ نظموا مذبحة ! . .

وكان احد الدعاة يتبع هؤلاء الصائحين مباشرة ، ويشق قميصه من صدره !

— يا رفاق ، لا تصغوا الى الاستفزازيين . لو سلمتم الاسطول الى الالمان فانهم سيطلقون النار عليكم من هذه المدافع . . . لا تقدموا السلاح للامبرياليين . انقذوا الثورة العالمية ! . .

وعليك ان تشغل ذهنك لتعرف الى من تصغي ! ويحل محل الداعي جندي من يكاترينودار مدجج بالسلاح ، ويهدد ايضا بالاربعين الف حربة . . . وفي ليلة الثامن عشر من حزيران لم يعد الكثيرون من البحارة الى سفنهم : اختفوا ، وتفرقوا ، ولاذوا في الجبال . . .

وطوال الليل ظلت المدمرة «كيرتش» تتكلم بالاشارات الضوئية . فردت «سفوبودنايا روسيا» بانها من حيث المبدأ مستعدة

لاغراق نفسها ، الا انه لم يبق من بحارتها الاصليين غير اقل من مائة ، ومن الصعب تشغيل البخار ، والابتعاد عن المرفأ .

واعلنت المدمرة «حاجي — بيه» ان اجتماعا صاخبا ما يزال جاريا عليها ، وجاءت فتيات من المدينة وصعدن كحول ، والظاهر انهن مخمورات ، ومن الممكن ان تنهب السفينة . وفي المدمرة «كاليا كريا» لم يبق الا القائد وتكنيكي السفينة ، وفي «فيدونيسي» لم يبق غير ستة اشخاص . ووردت اشارات مماثلة من المدمرات «ليتينانت بارانوف» و«سميتليفي» و«ستريميتيلني» و«برونزيتيلني» . وبحارة «كيرتش» و«ليتينانت شيستاكوف» وحدهم هم الذين بقوا في كامل طاقمهم .

وفي منتصف الليل تقدم زورق من «كيرتش» ، ونادى صوت جهوري منه :

— ايها الرفاق البحارة . . . يتحدث اليكم مراسل جريدة «اخبار اللجنة التنفيذية المركزية» . . . وصلت برقية لتوها من موسكو من الادميرال سابلين تقول : لن يغرق الاسطول في اي حال من الاحوال ، ولن يذهب الى سيباستوبول . انتظروا التعليمات التالية . . .

انحنى البحارة على الحاجز ، وحدقوا صامتين في الظلام حيث كان الزورق يتأرجح . وظل الصوت يبرهن ويقنع . . . خرج الملازم الاول كوكيل الى برج القيادة ، وقاطعه :

— اطلعني على برقية الادميرال سابلين .

— مع الاسف ، بقيت في البيت ، يا رفيق ، الآن استطيع ان اجلبها . . .

عندئذ قال كوكيل بصوت عال ممددا الكلمات لتكون مسموعة :

— ليبتعد الزورق مائة متر عن ميمنة السفينة . لا تقترب اكثر . . .

صاح الصوت من الزورق بلهجة وقحة :

— المعذرة ، يا رفيق ، اذا انت لا تريد ان تسمع امر المركز ، سابرق بذلك .

— في حالة الامتناع سأغرق الزورق . سأصعد الى السفينة . ولن اكون مسؤولا عن تصرف البحارة .

لم يرد من الزورق على ذلك . ثم جذفت المجاذيف بحذر . وغابت معالم الزورق فى الظلام . وضحك البحارة . وضع القائد يديه وراء ظهره ، وراح يذرع برج القيادة محدودبا نحيلا ، حانيا كأنه فى قفص .

فى تلك الليلة لم ينم الا القليلون . استلقوا على ظهر السفينة مبللة بالندى ، وبين الحين والآخر كان راس يرتفع ويتفوه بكلمة ، وطار النوم من العيون ، وجرى الحديث باصوات خافتة . وشحبت النجوم ، وارتفع الفجر من وراء التلال . وجاء من الساحل ضابط الصف البحرى اليشسكى قائد «الليتنانت شميتاكوف» واعلن ان البحارة يغادرون لا المدمرات وبواخر الجر والقوارب البخارية ، بل والسفن التجارية ولم يبق اى بحار ، وغير معروف كيف تسحب السفن الى المجارى الخارجية .

قال قائد «كيرتش» :

— يا ضابط الصف البحرى اليشسكى . ان المسؤولية تقع على عاتقنا . ستغرق السفن مهما كلف الأمر .

هز ضابط الصف البحرى اليشسكى رأسه . ودون صمت . ثم انصرف . وعندما انتشر الشروق فوق الخليج ، ابتعدت «الليتنانت شميتاكوف» ببطء عن المرسى ساحبة وراءها «كابتن باراتوف» ، واخذت تجرها الى المجرى الخارجى ، الى مكان الاغراق . ورفعت المدمرات اعلام الاشارة على الصوارى :

«اهلك ولكن لا استسلم» .

وسرعان ما اختفت وراء الضباب الصباحى . وبدت السفن كلها الآن خاوية . وكانت طيور النورس تحلق فوق العملاقة «سفوبودنايا روسيا» الفولاذية . وارسلت «كيرتش» دخانها . وفى الساعة المبكرة من الصباح هرع الناس الى الساحل ، وراح خلال الامواج يتقاطر سود كالذباب . وبدأ تزاحم بالقرب من السفن ، وصعد واحد فوق كتف الآخر ، وسقطوا فى الماء .

وكان سيميون كراسيلنيكوف واقفا فى الحراسة على معبر السفينة . وبعد الساعة الخامسة خرج من الجمع رجل قصير القامة محمر من الانفعال فى سترة سوداء بحرية بلا كتافيات وضرب سلم السفينة الاعلى بكعبيه . وكان وجهه المحمر عرقا بفمه الصغير الملتوى .

نادى على سيميون محلقا بعينيه الزرقاوين المرحتين المدورتين فى البحار الذى سد عليه الطريق بحربة :

— هل الملازم الاول كوكيل موجود ؟

وتلمس جنبيه وصدره ، واخرج وقدم تفويضا يحمل اسم ممثل السلطة السوفييتية المركزية الرفيق شاخوف . انزل البحار الحربة مداهم السحنة :

— تفضل ، يا رفيق شاخوف .

خف كوكيل للقائه ، واخذ يحدثه عن الوضع الميئوس تقريبا ، وقد تكلم بالتفصيل وعلى مهل . وكان شاخوف يقلب عينيه بنفاد صبر :

— بسيطة ، والمعنا لى اصعب من ذلك . . . لقد تحدثت الى البحارة ، ان معنويتهم عالية . . . ساحصل لكم على باخرة الجر ، وكل ما هو ضرورى . . . وتنظم اجتماعا . . . ، وندبر الامر كاحسن ما يمكن . . .

وطلب قاربا بخاريا ، وذهب به الى «سفوبودنايا روسيا» . ومن هناك اخذ يتنقل به من سفينة الى اخرى . وقد رأى سيميون جسمه القصير يتدلى من سلالم البواخر التجارية ، ثم رآه ينزل الى البر ، ويغيب فى الزحام ، حيث ارتفعت صيحات ، وارتفعت ايد . وفى احد الاماكن ارتفعت آلاف الحناجر : «هوراء» .

نادت الرصيف بضعة قوارب محملة بالبحارة ، وتوغلت فى المرفأ الى باخرة صغيرة مسدلة ، وسرعان ما خرج من مدخنتها دخان كثيف ، ورفعت مرساتها ، واتجهت نحو «سفوبودنايا روسيا» . ولمع شراع فى قارب . استدارت «الليتنانت شميتاكوف» وسحبت المدمرة الثانية .

فى نحو الساعة العاشرة ازدحم الجمهور عند معبر «كيرتش» . وبدا المزاج ينقلب الى اسوأ ، شق بعض الاشخاص المهلهلى الثياب طريقهم الى حاجز المدمرة ، وكان لدى كل واحد سجق وخبز وشحم خنزير . كشروا عن اسنانهم ، وغمزوا للبحارة مظهرين زجاجات من الكحول . عند ذلك امر كوكيل برفع المعبر ، والاقلاع . ابتعدت «كيرتش» عن تلك الضربات اللعينة الى وسط المرفأ ، ومن هناك راقبت سحب المدمرات .

واخيرا استطاعت الباخرة الصدئة التي بدت كالقشرة الفارغة ان تسحب «سفوبودنايا روسيا» لاهثة نافثة الدخان ، فمرت بعظمة بآلاف المشاهدين . وخلع الكثيرون اغطية رؤوسهم ، وكانهم يشيعون جنازة . ومرت «سفوبودنايا روسيا» بالطوافات والبوايه والمرفا ، وتوغلت في اعماق المجرى الخارجي . وكان الناس يتوقعون الطائرات الالمانية مرة اخرى الا ان السماء والبحر كانا هادئين . ولم تبق في المرفا الا المدمرة «فيدونيسي» .

وبدأ الاضطراب في الحشد من جديد ، وتجمعت نقاط الرؤوس السوداء على الرصيف الذي ترسو فيه «فيدونيسي» . تقدم منها قارب بمحرك وشراع ليسحبها . فقذف الجمهور القارب بالحجارة ، وانطلقت عدة طلقات من مسدس . صاح رجل اشيب الراس بعد ان صعد على عمود كهربائي :

— يا قاتلي اخوتكم ، خنتم روسيا . . . خنتم الجيش . . . يا اخوان ! . . . ماذا تنتظرون ؟ . . يبيعون آخر اسطول . . .

وهاج الحشد فالعبت الحجارة . قفز بعض الاشخاص من فوق حاجز «فيدونيسي» ، عندئذ تقدمت «كيرتش» من الساحل مسرعة ، ودق جرسها دقة التهيؤ للقتال ، واستدارت المدافع نحو الجمهور ، وصاح قائدها في المكروفون :

— الى الوراء ! سأطلق النار !

تراجع الجمهور ناكصا باعقابه ، وتصايح الذين ديسوا ، وتعالى غبار ، واقفر الساحل ، اسرع القارب الى الرصيف ، وسحب «فيدونيسي» .

تبعتها «كيرتش» ببطء الى حيث كانت جميع السفن تتارجح على المجرى الخارجي تارجحا خفيفا . نظر سيميون الى طيور النورس المحلقة عاليا فوق الجزء الخلفي من السفينة ، ثم اخذ ينظر الى قائد السفينة الذي كان يمسك دارابزين برج القيادة بكلتا يديه .

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر ، دارت «كيرتش» حول الجانب الايمن من «فيدونيسي» ونطق القبطان بكلمة واحدة فقط . فانطلق طوربيد من جهاز الاطلاق كظل اسود ، وانشق خط مزبد على سطح الماء المموج قليلا واصاب جسم «فيدونيسي» من الوسط تماما ، فارتفع ، وتحطم الى نصفين . وتطاير جبل الشحت

من الماء والزبد من اعماق البحر ، وسرت فرقعة بعيدا في البحر ، وحين سقط جبل الماء لم تعد «فيدونيسي» على سطح الماء . لا شيء الا الزبد . وهكذا بدأ الاغراق .

فتحت فرق النسف سمامات كينجستون والمنزلقات في المدمرات ، وخلعوا كل كوى الاضاءة في الطبقة السفلى ، وقبل ان يغادروا السفينة الغارقة الى القارب امرقوا فتيل المفرقعة لينسفوا بعيدة من عشرة لوطال الطوربيدات والسلندرات . اختفت المدمرات سريعا تحت الماء العميق . وبعد خمس وعشرين دقيقة كان المجرى الخارجي خاليا .

تقدمت «كيرتش» باقصى سرعتها نحو «سفوبودنايا روسيا» واطلقت الطوربيدات ، رفع البحارة قبعاتهم ببطء . اصاب الطوربيد الاول مؤخرة السفينة . وترنحت المدرعة مغمورة بسيول الماء ، وسقط الثاني على الجانب ، في الوسط . ومن خلال سحابة الزبد والدخان كان الصاري يرى متارجحا . كافحت المدرعة ، كالكائن الحي ، اكثر عظمة وسط البحر الثائر والانفجارات الهادرة . ونزلت الدموع من عيون البحارة ، ولطخ سيميون وجهه بكفيه . . .

رجف جسم القائد كوكيل كله في تلك اللحظات ، ولم يبق منه الا انفه الكبير ، متجها نحو السفينة الهالكة . وانفجر الطوربيد الاخير ، وانقلبت «سفوبودنايا روسيا» على الكيل . . . وقامت بجهد اخير ، وكانها ترتفع عن الماء ، وغاصت سريعا الى القاع في دوامة من الزبد .

غادرت «كيرتش» مكان الهلاك الى توابسيه باقصى سرعتها ، وبعد الصباح الزل بحارتها الى زوارق . وبعد ذلك ارسلت «كيرتش» هذه البرقية :

«الى الجميع . . . انا هالكة بعد ان اغرقت جزءا من سفن اسطول البحر الاسود التي اعتبرت هلاكها انجى من عار الاستسلام الى المانيا . المدمرة «كيرتش» .

فتحت المدمرة صمامات كينجستون ، وفجرت المحركات ، وغرقت على عمق خمس عشرة قامة .

تشاور سيميون كراسيلنيكوف مع رفاقه على الساحل : الى اين التوجه الآن ؟ وعرضت اقتراحات ، واتفقوا على الذهاب الى

استراخان ، الى الفولغا ، حيث قيل ان خاخوف يشكل اسطولا اهريا حربيا لمحاربة البيض .

كان جيش تامان تحت قيادة كوجوخ يحاول شق طريقه المفتوى الى اعلى كوبان سالكا الدروب الجبلية او بلا دروب ملاحقا من قبل العدو ، محدقا بالقرى القوزاقية المنتفضة .

كان الطريق يمتد عبر نوفوروسييسك التي احتلها الالمان بعد اغراق الاسطول . وصلت طوابير تامان بصورة مفاجئة ، ومرت القوات خلال المدينة منشدة الاناشيد ، ولم يفهم الالمان نيتها ، فانطلقوا الى السفن ، واطلقوا القذائف من المدافع البحرية على الطابور الاخير ، وعلى القوزاق السكارى المحتشدين الذين كانوا في اعقابه .

وللحيطة انسحب الالمان من المدينة ، وبعد ان شق كوجوخ طريقه محاربا وغادرها ، احتلها القوزاق ومن بعدهم قوات البيض النظامية . وتعرضت المدينة للنهب الشامل .

وشنق البحارة والجنود الحمر ، واهل المدينة المعدمون على اعمدة التلغراف دون محاكمة ، وحمل الحوذية ثلاثة آلاف جثة في تلك الايام الى البحر . واضحت نوفوروسييسك ميناء للبيض .

بلغ جيش تامان توابسيه سالكا الساحل الذي تفشت فيه المجاعة ساحبا وراءه قوافل خمسة عشر الف من اللاجئين . ومن تلك المدينة اتجه صوب الشرق ، وتعقبه رجال دنيكين ، وكانت جميع الممرات الجبلية والمرتفعات الى الامام يحتلها المنتفضون . وكانت في كل يوم معركة ضارية ، ولكن الجيش سار مريقا دماءه متناقصا بالمناوشات والموت جوعا ، نازلا الى الوهاد ، صاعدا الممرات الجبلية والتلال الشديدة الانحدار ، متضائلا ، شاقا طريقه .

وذات يوم جلبوا الى كوجوخ جنديا احمر اسيرا اطلق سراحه الجنرال بوكروفسكي ومعه رسالة كتبت بصراحة عسكرية :

«انت ، ايها الوضيع ، دنست جميع ضباط الجيش والاسطول الروسي لانك قررت الانضمام الى سفلة البلاشفة واللصوص والصعاليك . كن على علم بان النهاية آتية لك ولجميع صعاليكك ، امسكناك ، ايها الوضيع بأيد قوية ، ولن نتركك مهما كان . فاذا اردت الرأفة ، اى ان ينتهى الامر بارسالك الى سرايا المحكومين ،

فانا آمرك بتنفيذ امرى التالي : الق جميع سلاحك اليوم ، وسر بالعصابة المنزوعة السلاح الى مسافة اربعة او خمسة فراسخ غرب محطة بيلوريتشينسكايا . وحين ينفذ ذلك ابلغنى فورا في كشك السكة الحديدية الرابع . . .»

كان كوجوخ ، وهو يقرأ الرسالة ، يشرب الشاى من علبة سلبت من المعلبات ، ونظر الى الجندى الاحمر الحافى ذى القميص غير المحزم ، الواقف امامه واجما . وقال له :

«تفو انت ، يا اخ . كيف تسلم لى مثل هذه الرسائل ؟ اذهب الى وحدتك . . .»

في تلك الليلة وجه كوجوخ للجنرال بوكروفسكي ضربة شديدة . اكتسحه وطارده بالخيالة ، واقتحم بيلوريتشينسكايا وخرج من الحصار . وفي نهاية ايلول وصل جيش تامان بالقرب من ارمافير التي كان يحتلها الدنيكيون ، واستولى عليها بهجوم عاصف ، والتقى بفلول جيش سوروكين في قرية نيفينوميسكايا .

كان سوروكين ، بعد ان فقد تماسكه في الجيش بعد اندحاره عند تيخوريتسك ويكاترينودار ، وصحا من سكرة المجد العسكرى ، واصابته الاخفاقات ، يتراجع اكثر فاكثر نحو الشرق ، دائرا كتائبه في دوامة ما كان يسمى قبل حين قرقا والوية والوايا . والآن اصبحت هذه جماعات تهرب عند الطلقات الاولى من العدو . وكان الجنود يدمرون كل شيء في طريق تراجعهم . وكانت تشغلهم فكرة واحدة ، هي ان يتخلصوا من الموت المسلط فوق رؤوسهم ، والهروب الى اى مكان . وكانت اعداد هائلة من الجنود الفارين يجوبون سهوب تيريك ، على الطريق القديم المتعرب الذى تمالت جنبه الروابي المغطاة بالافسنتين .

خرج بعد معركة يكاترينودار زهاء مائتى الف من القوات واللاجئين . والذين بقوا قتلوا وشنقوا وعذبوا من قبل القوزاق . وفي كل قرية قوزاقية كانت الجثث تتدلى من اشجار الحور الهرمية ، وصاروا ينتقمون من الحمر الآن بلا رأفة ، غير خائفين من عودتهم ، وفي انحاء الاقليم كله كانوا يسمون بالنار حروف اسم البلاشفة .

كان سوروكين وليد الثورة . وكان يفهم بغريزة الحيوان ارتفاعاتها وهبوطاتها . ولم يوجه التراجع ، فقد كان ذلك عبثا .

فان العلوية نفسها كانت تسعى نحو الشرق ، وتتوقف حين يضعف اصرار البيض عن المطاردة .

ولم يبق له الا ان ينظر بوحشة فى نافذة عربة القطار الزاحفة فى السهوب اللافحة ، خلال روابى لشعوب البلازغيين والسيلت والتوتونيين والسلاف والخزر القدامى . . . وكان حرس خاص يحرس قطاره لان الذين كانوا يمرون به كانوا يهتفون :

— يا اخوان ، الامراء خانونا ، وباعونا ليشربوا بثمننا ، اقتلوا امراء وحداتكم ، مثلما قتلنا امراء وحداتنا .

وكان رئيس الاركان بيلياكوف يأتى الى المقصورة ويتحسر ، وبينما يقول بحذر كلمات غامضة عن استحالة الاستمرار فى القتال . «للثورة مراحلها — كان يكرر ذلك باستمرار ، مصورا كله على جبينه المريض — انقضى النهوض الثورى ، والآن تغلب ضدلنــا القوى المعنوية . نحن لا نقاتل الضباط فقط ، بل الشعب كله . يجب انقاذ مكاسب الثورة فى الوقت المناسب . . . على الاقل بسلام مهادن . . .»

وكان يستشهد بامثلة مقنعة من التاريخ .

فكان سوروكين يكتفى بالرد على ذلك : «ايكم تريد ان تشترينى ، يا وغد ؟» لو وقع دنيكين الآن فى يده لاكله حيا . ولكن الغيظ اكثر ما يحتدم فى قلبه على رفاقه اعضاء اللجنة التنفيذية المركزية للبحر الاسود الذين هربوا من يكاترينودار الى بياتيغورسك . كانوا لا يعرفون سوى ان «يبحثوا عن اجراءات تكبح نزعات سوروكين الدكتاتورية . . .» لم ينفذوا الاوامر الملحة ، وتدخلوا فى كل شيء ، وانسلوا بصاحبهم ماركس الى قلب القائد العام .

وظهرت زينكا الشقراء مرة اخرى فى عربة صالون سوروكين ، وذلك باهتمام من بيلياكوف . وكانت زينكا ، كما كانت ، وردية مغرية ، سوى ان صوتهـا قد جثى بعض الشيء ، وقد سرقت بلوزاتها الحريرية وفيشارلها فى طابور العربات . وصار سلوكها مع القائد العام اكثر استقلالية من ذى قبل .

وفى الليل ، حين كانت تسدل الستائر فى الصالون ، وتستولى على سوروكين نشوة السكر السوداوية ، كانت زينكا تعزف على البلالايكا قليلا ثم كانت تتفوه بنفس الهراء الذى يتفوه به

بيلياكوف : عن نهاية الثورة الوشيكة ، وعن سيرة نابليون اللامعة ، الذى استطاع ان يقيم جسرا من الارهاب اليعقوبى الى الامبراطورية . وكانت عينا سوروكين تاخذان باللمعان ، ويخلق قلبه دافعا الدم الحار الى نعالمه ممزوجا الى النصف بالكحول . . . وكان يزيح الستارة ، وينظر فى النافذة ، فى ظلام الليل ، حيث كانت تتراءى له التماعات خياله المحموم .

وضعف ضغط البيض ، وثبتت الجيش الاحمر اخيرا بالضفة اليسرى لكوبان الاعلى ، وتخندق هناك . وفى تلك الاثناء عاد دميترى شيليست قائد الفرقة الحديدية مع سيارات لورى من تساريتسين عبر سهوب غوليكى . وقد جلب معه مائتى الف خرطوش وامر القوات القفقاسية بالتحرك نحو الشمال لمساعدة تساريتسين التى يحاصرها الجيش الابيض للاتمان كراسنوف .

ورفض سوروكين تنفيذ الامر رفضا قاطعا . وثارت الافواج الاوكرانية التى ضجرت من القتال فى ارض الاغراب ، وانسحبت من الجبهة ، غير مكترثة باستمالات وتهديدات سوروكين . وشيليست وحده ، من مواليد بولتافا ، استطاع ان يوقف جزءا من القوات . وقد تحدث اليهم بتعقل وعلى مهل ، كفلاح للفلاحين ، وامتدحهم وامتدح نفسه . ورأى الاوكرانيون انه ليس شخصا اعتياديا ، بل احد كبارهم ، واطاعوه . وقادهم دميترى شيليست الى المعركة ، فحطموا طابورا قويا من الضباط قرب نيفينوميسكايا . وقد كرهه سوروكين كرها شديدا من جراء ذلك .

عناد بالنصر ، وبيده قائدا لجزء من الجبهة ، وفى امس اليوم اصدر امرا سريا بتجريد وحداته من السلاح ، ورمى شيليست وجميع امراء وحداته بالرصاص . عرف شيليست بهذا الامر السرى فترك الجبهة مع فرقته الحديدية التى اكملها بالاوكرانيين ، وسار عبر السهوب الملحية والرمال الوعثاء الى تساريتسين منفذا امر المجلس العسكرى الثورى للجيش العاشر . عندئذ اعتبره سوروكين خارجا على القانون ، والزم كل جندى احمر باطلاق الرصاص عليه ، وحظر على كل شخص ، مهما كان ، ان يجهز الفرقة الحديدية بالعلف . الا ان شيليست خرج ، ولم ترتفع يد واحدة لاطلاق الرصاص عليه ، وحين كان يعوزه العلف فى الطريق كان يدخل القرية ، ويخلع لبعته .

وسلف ، والشموع في عينيه ، من لجنة القرية التنفيذية التي والشوفان والقمح ، ويشرح بأنه ليس خائنا ، بل الخائن قاطع طريق الابيض ، هو القائد العام سوروكين .

وسرعان ما وقعت ضربة أخرى على غرور سوروكين : لقد طمع كوجوخ من وراء الجبال ، بعد ان اجتاز هانكا ، واحتل ارمافير على الماشي ، بعد ان التقى البيض وراء كوبان . وكان التامانيون ينفذون اوامر سوروكين على مضض ، او يهملونها تماما . وصار جيش تامان الذي تمرس في اصعب مسيرة العمود الفقري في جيش سوروكين المهلهل واتخذ مواقع قوية في خط ارمافير - نيفينوميسكايا - ستافروبول .

كان الفصل خريفا ، وجرت معارك ضارية دامية في سبيل الاستيلاء على مدينة ستافروبول الغنية . وكان جيش تامان يقاتل في المقدمة في كل مكان .

لما ظهرت للدنيكيين قوة جديدة - النسر الابيض شكورو السفاح النذل الذي شكل عصابة من الاوباش .

نقل سوروكين مقر قيادته الى بياتيغورسك . ولم يعد يظهر في الجبهة ، وحلت الظلمة جديدة ، وامتدت سلطة موسكو الى القفقاس ، وقويت على مر الايام ، وبدأ ذلك حين قررت لجنة الاقليم الحزبية تشكيل المجلس العسكري الثوري . ولم يعارض سوروكين موسكو ، واضطر الى الخضوع ، وتألف المجلس العسكري الثوري من عناصر جديدة ، وانتقلت سلطة القائد العام الى الهيئة العسكرية العليا ، وادرك سوروكين ان حياته تحت الخطر ، فأخذ يكافح بجنون .

كان في اجتماعات المجلس العسكري الثوري يجلس كئيبا صامتا ؛ وحين يتكلم كان يصر على كل كلمة . وكان ينجح في الحصول على ما يريد ، لأن الوحدات المخلصة له كانت متمركزة في بياتيغورسك . وكانوا يخافونه ، وليس بدون سبب . وكان يبحث عن فرصة لاظهار سلطته ، ووجدها . اعلن مارتينوف قائد الطابور الثاني في جيش تامان في مؤتمر القوات في ارمافير انه يرفض تنفيذ الاوامر العسكرية للقائد العام . عند ذاك طلب من المجلس العسكري الثوري ان يرمى مارتينوف . واتهم بتشجيع الفوضى التامة في الجيش .

وكان من المستحيل انقاذ مارتينوف ، فاستدعى الى بياتيغورسك ، واعتقل ، ورمي بالرصاص في الساحة امام الملأ . وهبت العاصفة في افواج تامان ، واقسموا على الثأر له .

تشكلت هيئة اركان جديدة للقائد العام ، وابعد بيلياكوف كليا ، ولم يدافع سوروكين عنه . سلم رئيس الاركان الامور والاموال وذهب الى شقة صديقه السابق للاستيضاح . كان سوروكين يذرع الحجرة واضعا يديه وراء ظهره . كان مصباح نفطي يشتعل على المنضدة ، حيث كان يوجد طعام لم يمس ، وزجاجة فودكا قد شرب منها قليلا . وكان جبل ماشوك الكثيف الاشجار يبدو وراء النافذة قاتما في الشفق الجاف . . .

رمق سوروكين الداخل بنظرة مريضة ، وتابع سيره . جلس بيلياكوف الى المائدة ، ونكس راسه . توقف سوروكين امامه ، وهز كتفه :

- هل تريد فودكا ؟ آخر قدح - وتبعه بحدة ، وصب قدحين بسرعة ، ولكنه لم يشرب ، وعاد يذرع الحجرة . - انتهت حياتك ، يا اخ . . . وتستحق ان ترحل من هنا . . . لن ادافع عنك . . . غدا ساعين لجنة للتدقيق في شؤونك . فهمت ؟ وبكل احتمال سترميك . . .

رفع بيلياكوف وجهه اليه رماديا مهزولا ، ومرر كفه على جبينه ، وسقطت يده ، وقال :

- انت تافه . . . انسان زهيد . من العبث انني فتحت لك كل قلبي . انت وغد . . . بينما اعتبرتك نابليون . . . قملة ! . .

تناول سوروكين قدحه ، واصطكت اسنانه على زجاجة ، وشرب . ومشى واضعا يديه في جيبي سترته الجركسية . ثم توقف بغتة :

- لن يكون هناك تدقيق . فارحل الى الشيطان . واذا كنت لم اطلق الرصاص عليك الآن ، فاعلم ان ذلك من اجل خدماتك . . . والعمر ذلك . فهمت ؟

انفتح منخراه لاستيعاب الهواء ، وازرقت شفتاه ، وارتجف كيانه كله كابحا غيظه .

كان بيلياكوف يعرف سوروكين حق المعرفة . اخذ يتراجع نحو الباب لم يصارف بصره عنه . وصفق الباب وراءه بسرعة . .

وخرج من الباب الخلفي عبر الفناء ، واختفى من بياتيغورسك في نفس الليلة .

ظل سوروكين يشرب الكأس تلو الأخرى ساعة بعد ساعة ، وفكر الليل بطوله . ان صديقه السابق سممه بقطرة من الازدراء ، الا ان السم كان قطيعا ، والعذابات لا تطاق . . .

غطى وجهه بيديه . ان بيلياكوف على حق ، على حق . . . كان في حزيران لاابيولي الطراز واذا به يؤول الى اجتماعات في الهيئة العسكرية العليا ، والتطلع الدائم الى الحزبيين في موسكو . . . لم يقل بيلياكوف كلمات من عنده . . . فذلك ما يقوله الناس في الجيش ، في الحزب . ودنيكين ، آوه ، دنيكين ! وتذكر مقالة صغيرة في جريدة للبيض في يكاترينودار ، مقابلة صحفية مع دنيكين ، وتلفتت الذكرى الى العماق نفسه يسمها : «ظننت ان امامي اسدا ، ولكن تبين من الاسد كلب جبان ، يلبس فروة اسد . . . وهذا ، على اية حال ، لا يدهشني ، فان سوروكين كان وما يزال ضابطا قوزاقيا جاهلا برتبة صغيرة» . آوه ، دنيكين ! انتظر . . . وسيأتي وقت . . . تندم فيه .

وعصر سوروكين يديه ، وصرف باسنانه . لو يندفع الى الجبهة ، ويسوق الجيش كله ، ويقتحم ، ويطارد ، ويسحق القساط بسنابك الخيول ، ويحرق القرى من الجهات الاربع ، ويندفع الى يكاترينودار . . . ويأمر بان يمثل دنيكين امامه : ان يؤخذ من سريره بملابسه الداخلية . . . «الست انت ، يا انطون ايفانوفيتش تجرأت على الكتابة في الجريدة حول الضابط القوزاقي ذي الرتبة الصغيرة ؟ انه امامك ، صاحب المهابة . . . الآن هل تقطع من ظهرك سيورا ، ام لجلدك الف وخمسمائة جلدة ؟»

وأن سوروكين لاهثا عنه هذيان الحلم الثقيل . . . كان الواقع مختلفا ، مبهما ، متنذرا مهينا . . . وكان يجب البت في الامر ، ان رئيس الاركان وصديقه القديم قدم له اليوم آخر خدمة . . . تقدم سوروكين من النافذة ، حيث كانت نسمة خفيفة تحمل الهليل الجاف للسهوب المغطاة بالافسنتين . ولاح في السماء الكئيبة شريط قرمزي قاتم لفجر الصباح الذي لم يسطع بعد ، ومرة اخرى ظهر جبل ماشوك الضخم الليلكي . . . وتبسم سوروكين بسمة حازمة . شكرا ، يا بيلياكوف ، على اية حال . . . لا بأس . ليذهب التردد والتخلخل الى

الشيطان . . . وفي تلك الليلة قرر سوروكين ان «يقامر بآخر رصيده» .

بعد ايام قليلة ، وترددات طويلة صوت المجلس العسكري الثوري لجيش القفقاس اخيرا الى جانب القيام بهجوم . نقلت قواعد المؤخرة الى سفياتوي كريست ، وتمركز الجيش في نيفينوميسكايا ، ومنها كان عليه ان يتحرك نحو ستافروبول واستراخان ليتصل بالجيش العاشر الذي كان يحارب بالقرب من تساريتسين . وكانت هذه هي نفس الخطة التي حملها دميتري شيلبست من تساريتسين .

وعهد الى جيش تامان باحتلال ستافروبول . وتحرك كل شيء : قواعد المؤخرة تحركت الى الشمال الشرقي ، والوحدات الاساسية نحو الشمال الغربي . وشد المرشدون السياسيون والدعاة اوتار اصواتهم وهم يرفعون معنوية الوحدات ، طارحين الشعارات المثيرة . وخرج رؤساء الطوابير الى الجبهة . وخلت بياتيغورسك ، ولم يبق فيها غير الحكومة – اللجنة التنفيذية المركزية لجمهورية البحر الاسود وسوروكين باركانه وحرسه . وفي معمعان الحركة لم يلحظ احد ان الحكومة قد تركت لحسن نية القائد العام .

وفي المساء ، اثناء عودة سوروكين الى داره بصحبة مرافقه اطلق العنان لحصانه ، وانعطف من متنزه المدينة نحو الجبل ، وصدم بحصانه رجلا مكور الكتفين عريض المنكبين في سترة جلدية . ترنح الرجل ، وامسك بوركه حيث كان يتدلى مسدس . غضن سوروكين حاجبيه بحنق ، وعرف انه غيمزا . وكان يجب ان يكون في الجبهة . . . انزل غيمزا يده عن غلاف مسدسه . وبدت غريبة نظرة عينيه نصف المغلقتين تحت الحاجبين . . . مثل نظرة بيلياكوف في آخر حديث . . . وفجأة لاح صف اسنان ابيض ضيق على وجه غيمزا الحليق المسود مثل انف الحذاء . وجب قلب سوروكين : وهذا ايضا يضحك ! . .

لكز سوروكين حصانه بساقيه بقوة حتى انطلق الحصان نافرا واندفع به على الحجارة المرنة الى الاعلى وسط قطيع من الاغنام عائد من المرعى ثاغيا مزعجا الالية ناثرا رائحته في الجو . كان ذلك في ليلة الثالث عشر من تشرين الاول . استدعى سوروكين رئيس حرسه ، فهمس هذا ، وهو ينظر في النافذة : ان غيمزا بالفعل قد

وصل اليوم الى بياتيغورسك ، وطلب من اللجنة التنفيذية المركزية استدعاء سريتين من الجبهة للحراسة ... الحق الاحمق يلهم ، ايها الرفيق سوروكين ، ضد من تتخذ هذه الاجراءات ... » .

وبينما كانت نجوم الخريف تتألق بكل بهائها فوق بياتيغورسك الهاجعة النائمة ، وفوق جبل ماشوك دخل حرس سوروكين بهدوء وبلا جلبة الى شقة روبين رئيس اللجنة التنفيذية المركزية وشقتي فلاسوف ودونايفسكي العضوين فيها ، والى شقة كرايني عضو المجلس العسكري الثوري ، وشقة روجانسكي رئيس اللجنة الاستثنائية ، واخرجوهم من اسرتهم ، وساقوا بهم من المدينة والحراب مصوبة الى ظهورهم ، الى ما وراء سدة السكة الحديدية ، وهناك رموهم بالرصاص دون ان يقدموا لهم اية حجج .

وكان سوروكين في تلك الاثناء واقفا على متبسط عربته في محطة ليرمنتوفو . وقد سمع الطلقات — خمس ضربات في سكون الليل ، ثم سمع الطاسا ثقيلة ، واقبل رئيس الحرس لاهثا تنفتبه . فسأله سوروكين ماذا ؟ فرد رئيس الحرس «قضي عليهم» وعدد اسماء المقتولين .

تحرك القطار . الآن كان القائد العام يخف الى الجبهة على جناحين . ولكن نبأ الجريمة الشنعاء طار اسرع منه . فان بعض الشيوعيين من اللجنة الاقليمية الذين حالفهم حظهم في الامس خرجوا في سيارة من بياتيغورسك قبل سوروكين وفي الثالث عشر من الشهر دعوا الى انعقاد مؤتمر جمهوري في نيفينوميسكايا . وبينما كان سوروكين يظهر امام وحدات جيشه مهيبا مثل حاكم شرقي محاطا بمئة من الحرس والنافخين بالابواق يعلنون قدومه ، وحامل راية القائد العام يعدو في المقدمة ، اعلن المؤتمر الجمهوري في نيفينوميسكايا بالاجماع ان سوروكين خارج على القانون ، وقرر اعتقاله فورا ، وجلبه الى قرية نيفينوميسكايا ، وتقديمه للمحاكمة .

اعلن رجال جيش تامان ذلك للقائد العام وقد فتحوا ابواب عرباتهم المدفعية . عاد سوروكين الى المحطة ، وطلب استدعاء قادة الطوابير ، ولم يأت احد . ومكث في المحطة حتى هبوط الظلام ، ثم امر بأن يقدم الحصان له ، وعدا مع رئيس الحرس في السهب .

شاع اضطراب كبير في المجلس العسكري الثوري ، حيث لم يبق منه غير ثلاثة اعضاء . فان القائد العام قد اختفى في السهوب ، والجيش بدلا من ان يهاجم طالب بمحاكمته واعدامه ... الا ان الارتال المؤلفة من مائة وخمسين الف رجل ظلت تدور . وكان من المستحيل ايقافها ... وفي الثالث والعشرين من تشرين الاول بدأ هجوم جيش تامان على ستافروبول صاحبه هجوم مضاد قام به البيض . وفي الثامن والعشرين اعلن جميع قادة الطوابير ان هناك نقصا في القذائف والعتاد ، واذا لم تجلب لهم في الغد فان النصر غير مضمون . اجاب المجلس العسكري الثوري بأن لا توجد قذائف ولا عتاد . «فاحتلوا ستافروبول بالسلاح الابيض ...» . وفي ليلة التاسع والعشرين عبر طابوران صاعقان زحفا على قرية تتارسكايا تحت حماية المدفعية التي كانت تقصف بالقذائف الاخيرة ، وكانت هذه القرية تبعد خمسة عشر فرسخا عن ستافروبول ، حيث كانت تمتد جبهة البيض . اطلق على السهب قمر نحاسي كبير بمثابة اشارة لان الصواريخ لم تكن موجودة ... وصمتت المدافع ... سارت صفوف التامانيين نحو خنادق العدو الامامية دون ان تطلق طلقة ، واندفعت فيها . وفي الحال ارتفعت ابواق الفرق الموسيقية ودقت الطبول . وسقطت موجات كثيفة من تلك الطوابير المهاجمين على خط الاستحكام الرئيسي على انغام الموسيقى بدلا من الرصاص والقنابل اليدوية ، سابقة للموسيقيين ، مشتبكة بالسنان تحت نيران الرشاشات . تراجع البيض الى التلال ، ولكن حتى هذه التلال احتلت بعد لا يكبح . هرع العدو الى المدينة ، ولاحقته وحدات القوزاق الحمراء . وفي صبيحة الثلاثين من تشرين الاول دخل جيش تامان الى ستافروبول .

وفي اليوم التالي شوهد القائد العام سوروكين في الشارع الرئيسي بصحبة رئيس الحرس ، كان يسير على جواده بهدوء . الا انه كان شاحب الوجه مطرق العينين . وحين رآه الجنود الحمر فغروا افواههم ، وتراجعوا عنه قائلين : «من هذا الابليس من العالم الآخر ؟ ...» .

ترجل سوروكين عن فرسه عند مبنى السوفييت ، حيث علقت على الباب لافتة نصف مقلوبة كتب عليها : «مقر اركان الجنرال

شكورو ، وكان يجتمع في المبنى النواب واعضاء اللجنة التنفيذية الذين بدوا احياء . وصعد السلم بجسارة ، وسأل الجندي الذي جفل منه : «اين ينعقد الاجتماع ؟» وظهر في القاعة عند طاولة الرئاسة ، ورفع رأسه بشمم ، وخاطب المجتمعين المندهشين الباهتين :

«انا القائد العام ، وقواتي حطمت عصابات دنيكين ، واقامت السلطة السوفييتية في المدينة وفي المنطقة ، ان مؤتمرا عسكريا اعتباطيا في تيفيتوميسكايا قد اعلنني بوقاحة خارجا على القانون ، فمن اعطاه الحق في ذلك ؟ انا اطالب بتعيين لجنة للتحقيق في جرائمي المزعومة . ولن اتخلى عن سلطة القائد العام قبل انتهاء اللجنة من التحقيق ...»

ثم خرج ليمتطي جواده . الا ان ستة من جنود الفوج الثالث من جيش تامان هجموا عليه فجأة عند السلم ، ولووا ذراعيه ، ووضعوهما وراء ظهره .

كافح سوروكين بضراوة وصمت . ضربه آمر الفوج فيسلينتكو بقبضة سوطه على رأسه صارخا : «هذا جزاء قتلك مارتينوف ، ايها السافل ...»

واقتيد سوروكين الى السجن . وقلق رجال تامان خوفا من ان يهرب من السجن ، وان يتملص من المحاكمة بطريقة ما . وفي اليوم التالي ، حين جلب سوروكين للاستجواب رأى غيمزا قاعدا الى طاولة كرنيس ، فادرك انه الموت . عند ذاك تفجر في نفسه مرة اخرى الظمأ الى الحياة ، فضرب على الطاولة ، متفوها بفاحش السباب :

– انا يجب ان احاكمكم ، يا قطاع الطرق ! خرق الانضباط ، الفوضى ، ثورة معادية مخفية ... سأنكل بكم ، كما نكلت بمارتينوف الوغد .

كان فيسلينكو عضو المحكمة جالسا الى جانب غيمزا مبيضا كالورقة ، وقف ووضع يده وراء ظهره ، واخرج مسدسا اوتوماتيكيا كبيرا ، وسدده نحو سوروكين مفرغا كل مشطه فيه .

لم يتحقق التقدم اللاحق من ستافروبول الى الفولغا . فان خيالة شكورو الدنيوية قد نفذت الى المؤخرة ، وقطعت جيش تامان عن القاعدة ، عن قرية نيفينوميسكايا ، وركز دنيكين كل قواته

محاصرا ستافروبول . وجلبت من كوبان طوابير كازانوفيتش ودروزدوفسكي وبوكروفسكي ، وخيالة اولاغاي ، وفرقة كوبان الجديدة للخيالة التي كان يقودها مهندس التعدين السابق الذي بدا الخدمة برتبة ضابط صغير في الحرب العالمية ، وهو الآن الجنرال فرانغل .

وحارب جيش تامان ثمانية وعشرين يوما . وهلكت الافواج للسير الافواج في الطوق الحديدي للعدو الغني بالسلاح . وبدأت الامطار ، ولم تكن ثمة معاطف ولا احذية طويلة ولا عتاد . ولا مكان يتوقع ان تأتي المساعدة منه . فان الجزء الباقي من جيش القفقاس ، المقطوع عن ستافروبول قد تراجع الى الشرق .

وترامى التامانيون من جهة الى اخرى في الطوق . وكانت ضرباتهم رهيبة مريقة للدماء . وسقط القائد كوجوخ صريع الحمى التيفوئيدية . وقتل وجرح احسن امراء وحداته ، عن بكرة ابيهم تقريبا . وفي اواسط تشرين الثاني استطاع التامانيون اخيرا خرق الجبهة . ولم يبق من جيش تامان البطولي غير فلول هزيلة حافية عارية . غادرت ستافروبول وانسحبت باتجاه الشمال الشرقي ، الى بلاغوداتنويه ، ولم تلاحق . فقد بدأت الامطار واوقف طقس الخريف السيء هجوم البيض اللاحق .

١٣

قبل عام ، في تشرين الاول طالبت الشعوب الساكنة في روسيا بانهاء الحرب . وارتفعت ملايين التوجعات والصرخات بسقوط الحرب ، وبسقوط البرجوازية التي تطيل للحرب ، وبسقوط الفئة العسكرية التي تخوض الحرب ، وبسقوط اصحاب الاطيان الذين يغذون الحرب – واندمجت هذه التوجعات والصرخات في طلقة مؤثرة قصيرة وجهها الطراد «افرورا» على القصر الشتوي .

من كان يقدر ان يتنبأ بان هذه الطلقة التي خرقت السقف المزين بالتماثيل الرصاصية والمزخرفات السوداء لذلك البيت الكريه ، نفذت الى المخدع القيصري الفارغ بسريره الذي لم يبرد بعد ، الذي كان كيرنسكي يتقلب عليه حارقا الارق المستبد ، من كان يقدر ان يتنبأ ان هذه الضربة التي بدت ختامية ، صوت

الثورة الذى يعلن الحرب على القصور ، والسلام للاكواخ ، ستجوب البلاد الشاسعة كلها من طرف الى آخر منداحة كالصدى ، متشددة ، متعاظمة ، متنامية ، وتتفجر كالصاعقة .

من كان يتوقع ان البلاد التى ألقت السلاح من توها ، ستعود لترفعه من جديد ، وترتفع طبقة على طبقة : الفقير على الغنى . . .
من كان يتوقع ان ينبثق من حفنة ضباط كورنيلوف جيش دنيكين الهائل ، وان تمرد تطارات التشيكوسلوفاكيين سيشعل بالحرب الف فرسخ فى حوض الفولغا ، وينتقل الى سيبريا ، ويتنامى الى ملكية كولتشاك ، وان حصارا سيطبق على البلاد السوفييتية بطوق خانق ، وان سدس العالم على الخرائط الجغرافية المطبوعة من جديد ، على الكرات الارضية فى كل بلدان العالم سيرسم كمكان فارغ — غير ملون — بلا اسم ومعلم بخط اسود عريض ؟ . .

من كان يتوقع ان روسيا العظيمة المقطوعة عن البحار ، وعن محافظات الحبوب ، وعن الفحم والنفط ، روسيا الجائعة البائسة التى اجتاحتها حمى التيفوئيد لا تغلب ، ستمسك على اسنانها ، وترسل ابناءها مرة بعد اخرى الى المعارك الرهيبة . . . قبل عام كان الناس يهربون من الجبهة ، وبدت البلاد وكأنها تتحول الى مستنقع فوضوى لا شكل له ، ولكن ذلك لم يكن صحيحا ، فقد ظهرت فى البلاد قوى التماسك الجبارة ، وطلع فوق صخائر الحياة حلم العدالة . وظهر الناس خارقون لم يكن لهم مثيل من قبل ، وجرى الحديث فى كل مكان عن اعمالهم بدهشة وفزع .

وهزت الفتن البلاد السوفييتية من الداخل . فى وقت واحد مع الانتفاضة فى ياروسلافل (التى انتشرت الى موروم وارزاماس ورووستوف فيليكى وريبنسك) تمرد فى موسكو "الاشتراكيون الثوريون اليساريون" . وفى السادس من تموز ذهب اثنان منهم الى السفير الالمانى الكونت ميرباخ ومعهم هوية عليها توقيع مزور لدزرجينسكى ، واثناء الحديث اطلقا الرصاص على السفير ، وقذفا قنبلة . وقد اقتلت السفير الرصاصة الاخيرة التى اصابت علباءه حين هرب من الحجرة . وفى مساء ذلك اليوم طهر بحارة وجنود مسلحون فى منطقة تشيستيه برودى وبوكلار ياروزه ، وراحوا يوقفون السيارات والسابلة ، ويفتشونهم ، ويأخذون السلاح والنقود ، ويسوقونهم الى دار موروزوف فى شارع جالبى تريوخسفياتيتلسكى حيث يوجد مقر قائد قوات الانتفاضة . وفى تلك الدار رقم فيليكس دزرجينسكى نفسه رهين الاعتقال ، وكان قد جاء اليها بحثا عن قاتل ميرباخ . وظلت الاعتقالات تجرى الساعة كلها وجزءا من الليل ، واحتلت دائرة التلغراف . الا انه لم يكن يجرؤون على القيام باعمال حاسمة ضد الكريملين . وكان المنتفضون حوالى الفين ، وقد اقاموا جبهة من نهر ياروزه الى تشيستيه برودى .

وحمت الكريملين فى تلك الليلة التحصينات والاسوار القديمة . وكانت القوات مرابطة فى معسكرات فى حقل خادينسكوييه ، وكان جزء منها فى اجازة بمناسبة عيد ايفان كوبالا . وصار الجو داخل الكريملين عصبيا ، وقبيل الصباح امكن جمع زهاء ثمانمائة من المقاتلين ، وثلاث بطاريات ومدرعات . وفى الساعة السابعة صباحا قامت القوات بهجوم ، وقصفت بالمدافع دار موروزوف ، مقر الانتفاضة . وحصل الكثير من الضجيج ، والقليل من الضحايا ، فقد هرب "جيش" الاشتراكيين-الثوريين اليساريين عن طريق الشوارع الفرعية والافنية الخلفية باتجاه غير معروف . واختفى من موسكو قائده بوبوف ، الشاب ذو الشفتين الغليظتين والعينين الضبابيتين ، وبعد عام ظهر عند ماخنو كرئيس للاستخبارات ، واشتهر بالقسوة المرعبة .

وقضى على العصيان فى موسكو وعلى الفولغا . الا ان العصيان كان يبزغ فى كل مكان : تمرد ضد البلاشفة ، وضد الالمان ، وضد البيض . ثارت القرى على المدن ونهبتها . وطوحت المدن بالسلطة السوفييتية ، وبدأ عهد الجمهوريات المستقلة ، وكانت تنهض وتتفجر مثل الفطر ، وكان بعضها صغيرا يمكن ان تقطعه على فرس ما بين فجر وفجر .

وبذلت السلطة السوفييتية قصارى جهودها لتذبح الفوضوية . وفى تلك الآونة وجهت اليها ضربة فظيعة ؛ ففى الثلاثين من آب ، وبعد اجتماع عقد فى مصنع ميخلسون اطلقت الاشتراكية-الثورية اليمينية كابلان النار على لينين ، وجرحته جرحا بليغا . (وكانت من منظمة الرجل ذى الدبوس — الجمجمة) .

وفى الحادى والثلاثين ظهرت فى شوارع موسكو فصيلة من الذين يرتدون الجلد الاسود من رأسهم حتى القدم ، وسارت فى طابور وسط الشارع حاملة معها راية على عودين كتب عليها كلمة واحدة : «الارهاب» . . . وظلت الاجتماعات العامة منعقدة فى مصانع موسكو وبتروغراد ليلا ونهارا . وطالب العمال بأكثر الاجراءات حزما .

وفى الخامس من ايلول ظهرت صحف موسكو وبتروغراد بعنوان مشؤوم :

الارهاب الاحمر

". . . يطلب من جميع السوفييتات على الفور اعتقال الاشتراكيين-الثوريين اليمينيين ، وممثلى البرجوازية الكبيرة والضباط ، واعتبارهم رهائن . . . وعند محاولة الهرب او القيام بالمقاومة اللجوء فورا الى اعدامهم الجماعى بدون قيد او شرط . . . فان حاجتنا تدعو الى تأمين مؤخرتنا فورا والى الابد من الاوغاد البيض . . . لا يجوز اى تأخير فى القيام بالارهاب على نطاق جماعى . . ."

فى تلك الايام كان يجرى تقنين فى الكهرباء فى المدن ، وكانت احياء كاملة بلا نور . وكان سكان الشقق الموسرة ينظرون بلوع الى الشعيرات الضاربة الى الحمرة الآخذة بالترجرج فى مصابيحهم الكهربائية . . . وكانت فصائل العمال المسلحة تدخل الى هذه البيوت الضخمة اضاءة احتضار . . .

واقتحم عام ١٩١٨ مندفعا كالزوبعة الوحشية فوق روسيا . وكان الناس كأنما فى سحب الحريق الجهنمية . وكانت الجبهة فى كل مكان : فى الشمال الاقصى ، وفى الفولغا قرب قازان وفى حوض الفولغا الاسفل قرب تساريتسين . وفى شمال القفقاس ، وعلى حدود المناطق المحتلة من قبل المانيا . ولآلاف الفراسخ كانت الخنادق تمتد وتمتد . ولم يدخل الخريف الزاحف الفرحة على قلوب المقاتلين ، وكثيرون فكروا ، وهم ينظرون الى السحب الآتية من الشمال ، بقراهم حيث كانت الريح تقلع القش من السطوح ، والقراص ينمو فى الافنية ، وتتعفن البطاطس فى حدائق الخضروات . وما من نهاية ترى للحرب .

والمستقبل حافل بالليالى الدامسة وعود الاضاءة القديم يضىء البيوت التى ينتظر اهلها عودة الآباء والابناء وما من عودة ، ويسمعون روايات عن امور رهيبة تجعل الاطفال يبكون وهم على الرفوف فوق المواقد .

بعد القضاء على التمردات ، وكرد على الوضع الخطير جندت اللجنة المركزية اصلب الشيوعيين فى موسكو وبتروغراد وايفانوفو-فوزنيسينسك ، وارسلتهم الى الجيش . واتجهت قطارات الشيوعيين الى الجبهات معطلة فى طريقها تخريبات الطرق الحديدية المتعمدة وغير المتعمدة . ونفذ الارهاب الصارم الى الجيش . وتكونت من الفصائل الممزقة افواج تخضع لارادة واحدة هى ارادة المجلس العسكرى الثورى . وصارت الشجاعة والبسالة الزاما لكل واحد . واعتبر الجبن مستوى الخيانة . وتحولت الجبهة الحمراء الى الهجوم . واستولى بضربة قصيرة على قازان ، ومن بعدها سامارا . وهربت فصائل البيض مذعورة امام الارهاب الاحمر . وبالقرب من تساريتسين ، حيث كان ستالين عضو اللجنة العسكرية الثورية للجيش العاشر حدثت معركة هائلة دامية ضد جيش القوزاق البيض للاتمان كراسنوف الذى كانت القيادة العامة الالمانية تموله وتحرضه . . .

ولكن كل ذلك لم يكن الا بداية لكفاح عظيم واستعراضا للقوى قبيل الاحداث الرئيسية لعام ١٩١٩ .

ادى ايفان ايليتش تليغين المهمة التى اوكلها له ليمزا ، وعين اثناء المعارك قرب قازان آمرا لفوج . وكان من اوائل الذين شقوا طريقهم الى سامارا . وفى يوم خريفى حار سار على حصان هزيل اشعث على رأس فوجه فى شارع دفوريانسكايا . ومر بالساحة التى فيها نصب الكسندر الثانى الذى كانوا يغطونه على عجل مرة اخرى بالالواح الخشبية . . . وهذا هو البيت التالى بعد المنعطف . . . وخفض ايفان ايليتش رأسه . فقد كان يعرف ماذا سيرى . ومع ذلك فقد عصرت الوحشة قلبه . كان زجاج نوافذ شقة الدكتور بولافين فى الطابق الثانى محطما كله . وكان يرى جيدا من على صهوة حصانه الباب من خشب الجوز ، الذى ظهرت منه داشا حينذاك ، وكان ذلك فى حلم ، وغرفة المكتب ، ودولاب الكتب المقلوب ، وصورة منديليف المعلقة على الجدار بانحراف وقد تهشم زجاجها . . . اين داشا ؟ ماذا حصل لها ؟ لا احد - بالطبع ، كان يستطيع ان يجيب عن ذلك .

الكسي تولستوي

درب الآلام

ثلاثية

الكتاب الثالث

صباح غانم



دار التقدم

موسكو

ترجمة غائب طعمة فرمان

А. Толстой

ХОЖДЕНИЕ ПО МУКАМ

Трилогия

Книга третья

ХМУРОЕ УТРО

На арабском языке

طبع في الاتحاد السوفييتي

$T \frac{70302-694}{014(01)-76} 594-75$

«لنعش منتصرين او لنمت امجادا»

سفياتوسلاف *

١

كان شخصان – رجل وامراة – جالسين عند نار موقدة. وريح باردة تهب على ظهريهما من منخفض فى السهب ، صافرة فى سيقان القمح التى تساقطت حبات سنابلها منذ زمن بعيد . كانت المراة تضع قدميها تحت تنورتها ، حاشرة كفيها فى كمى معطفها من القماش السميك . وكان لا يرى من تحت منديلها الصوفى النازل على عينيها غير أنفها المستقيم وشفتيها المزمومتين بعناد .

لم تكن النار كبيرة ، مجرد اقراص مجففة من الروث جمعها الرجل مؤخرا من حول ابقار جاءت تشرب الماء من المنخفض . وكان اشتداد الريح يضايقهما .

— من الاروح جدا الاستمتاع بجمال الطبيعة تحت قرقعة الحطب فى موقد ، وانت تنظرين فى النافذة ساهمة . . . يا الهى ، ما اوحش السهب ! . .

قال الرجل ذلك بصوت خافض وبارتياح خبيث . ادارت المراة نحوه حنكها ، الا أن شفتيها لم تنفرجا ، ولم تجبه . كانت متعبة من السفر الطويل ومن الجوع ، ومن افاضة هذا الرجل فى الحديث ، ولفاذه يتباه الى اعمق بواطن افكارها . دفعت راسها الى الوراء قليلا ، ونظرت ، من تحت منديلها المنزل ، الى الغروب الخريفى الكابى من وراء التلال التى لاتكاد تلحظ . ويمتد خطـــا نحيلا لا يغطى السهب الخالى المقفر .

---

* امير دولة كييف عرف بشجاعته الفائقة . (الناشر) .

– سنشوى البطاطس الآن ، يا داريا دميتروفنا ، فرحة للقلب والجسد . . يا ربى ، ماذا كنت تفعلين لو لم اكن معك !

وانحنى ، وشرع يختار امتن اقراص الروث ، ويقلبها بين يديه ، ويضعها بعناية على النار . جوّف جزءا من الجمر ، وشرع يدفن البطاطس فيه ، مخرجا اياها من جيوب معطفه العميقة . كان له وجه محمر يرتسم عليه مكر شديد – بل وخبث – ذو انف لحيم مفلطح فى ارنبته ، ولحية هزيلة ، وشاربين نحيلين ، وشفتين متمفقتين .

– انا افكر فيك ، يا داريا دميتروفنا . تنقصك الوحشية وروح التشبث ، بينما حضارتك سطحية ، يا عزيزتى . . . انت تفاحة محمرة حلوة ، ولكن غير ناضجة .

كان يقول ذلك ، وهو منشغل بالبطاطس التى سرقها من حديقة خضروات ، اثناء مرورهما بعزبة فى السهب . وكان منخرا انفه اللحيم اللامع من الحرارة يرتعشان بنباهة ومكر . كان هذا الرجل يدعى كوزما كوزميتش نيفيدوف . وقد اضجر داشا ضجرا شديدا بثرثرته وحدسه للافكار .

وكانا قد تعرفا قبل بضعة ايام فى قطار كان يسير بجدول مواعيد غريب ، وخط سير عجيب ، ثم اخرجه القوزاق البيض عن الخط .

وقد بقيت العربة الاخيرة ، التى كانت داشا تسافر فيها ، على السكة ، الا انها تعرضت لنار رشاشة فهرب كل من كان فيها هائما فى السهب ، فقد كان لامحالة من نهب المسافرين والتنكيل بهم ، كما جرت العادة فى ذلك الوقت .

وكان كوزما كوزميتش قد وضع بصره على داشا وهما فى العربة ، فقد اعجبته بشىء ما ، رغم انها لم تنجذب الى الاحاديث الصريحة . والآن ، وهما فى السهب المقفر عند الفجر تشبثت هى به . كان الوضع حرجا . فقد كانت الطلقات والصيحات تسمع من المكان الذى انقلبت فيه العربات على المنحدر ثم شب لهب طرد ظلالا داكنة من مجاميع الارقطيون القديمة واجمات الافسنتين اليابسة التى مسها الجمد . فكيف كانت تجد طريقها فى هذا السهب الشاسع ؟

وبينما كان كوزما كوزميتش يسير الى جنبها فى الفجر المخضوضر ، حيث كانت تتسرب رائحة دخان موقد كان يناقش على هذا النحو : «فضلا عن أنك فزعة فانت ، ايتها الحسناء ، تعيسة ، كما يبدو لى . وانا رغم التقلبات العديدة ، لم اعرف التعاسة قط بل ولا حتى الضجر . . . كنت كاهنا ، ولكننى جردت من لباس الكهنة لحبى للتفكير الحر ، واودعت الدير . وها انا اضرب «فى الارض» كما يقول التعبير القديم . فاذا كان الانسان بحاجة ، لكى يسعد نفسه ، الى فراش دافئ لا محالة ، والى مصباح هادئ ، ورف من الكتب وراء ظهره فانه لن يعرف ما تعنى السعادة . فانها لمثل هؤلاء الناس الغد دائما ، ولكنهم فى يوم ما لن يجدوا غدا ولا سريرا . فلن يبقى لديهم سوى حسرة ابدية . . . ها انا اضرب فى السهب ، وانفى يشم رائحة خبز طازج . ومعنى ذلك ان فى تلك الناحية ضيعة . ثم سرعان ما تسمع نباح الكلاب . يا الهى ، ما اروع الفجر ! والى جانبى رفيق سفر فى هيئة ملاك يئن ويثير شفقة قلبى ، والرغبة فى الانطلاق . فمن انا اذن ؟ انا اسعد انسان . فى جيبى كيس ملح دائما ، وفى حدائق الخضروات توجد بطاطس دائما . ثم ماذا ؟ عالم زاه تتصادم فيه العواطف . . . لقد فكرت كثيرا جدا ، يا داريا دميتروفنا بمصير مثقفينا وينبغى ان اقول لك ان هذا كله ليس شيئا روسيا . . . ولهذا ذرته الريح ، فاصبح يبابا ، مع الاسف . . . اما انا ، الكاهن المخلوع ، فانال مبتغاى من الصبوات ، وانوى أن استمر فى ذلك زمنا طويلا . . .»

ولو لا هو لهلكت داشا . فلم يكن يخيب فى حال من الاحوال . عندما وصلا عند مطلع الشمس الى عزبة تقف فى السهب الأجرد الخالى ، اسطبل خيولها فارغ ، وسقف فنائها الطينى محروق ، لقيهما عند البئر قوزاقى اشيب حانق يحمل بندقية . صاح وقد لمعت عيناه الوضاءتان المجنونتان من تحت حاجبين معقودين : «انصرفا !» استطاع كوزما كوزميتش ان يضلل هذا العجوز بخفة قائلا «وجدت من تصيح عليه ، يا جد . آه ، آه ، يا ارضى العزيزة ! نحن تجرى ليلا ونهارا هاربين من الثورة ، وقد تقرحت اقدامنا ، وتشقق لساننا من العطش . فاعمل معروفا ، واقتلنا ، فطريقنا مسدود ، على اية حال» . وظهر ان العجوز لم يكن فظا ، بل دامع العينين . وقد

جند ابناء فى فيلق ماموتتوف ، وتركت كنتاه العزبة الى القرية ، ولم يفلح الارض فى تلك السنة . ومر الحمر ، واخذوا الحصان لقصف التعبئة . ومر البيض وفعلوا الشيء نفسه مع الدواجن . فبقى وحده فى عزبته ، وليس لديه غير قطعة مـن الخبز المخضوضر ، وبعض التبغ المتبقى من السنة الماضية . . .

استراحا فى بيته ، وفى الليل واصلا السير متجهين صـوب تسارتسين التى كانت اسهل طريق للنفاذ الى الجنوب . كانـا يسيران ليلا ، وينامان نهارا وغالبا فى اكوام الدريس المتخلفة من العام الماضى . وكان كوزما كوزميتش يتحاشى الاماكن الآهلة . ذات مرة اطل من تل على قرية قوزاقية تمتد بيوتها البيضاء عـلى جانبى بركة طويلة ، فقال :

– ان تجمع من الناس فى هذه الايام قد يكون خطرا ، لاسيما للذين لا يعرفون ماذا يريدون . ان ذلك غير مفهوم ومثير للريبة الا يعرف الفرد ماذا يريد . ان الانسان الروسى حار ، يا داريا دميتروفنا ، ومغرور ، ولا يحسن تقدير قواه . اعطيه مهمة – تبدو اكبر مـن طاقته ، ولكنها مهمة عظيمة – فستريه ينحنى لك اجلالا . . . ولكن حاول ان تنـزل الى قريـة فسترهـم يمطرونـك باسئلة . فماذا ستجيبهم . ايتها المثقفة ؟ بأنك لم تستقرى على راى فى موضوع واحد ؟ . .

قالت داشا بخفوت :

– اسمع ، اتركنى وشأنى .

ورغم ممانعتها اعتزازا وكراهة فقد استطاع كوزما كوزميتش ان يستقصى منها كل شىء : عن ابيها الدكتور بولافين ، عن زوجها الآمر الأحمر ايفان ايليتش تليغين ، عن شقيقتها كاتيا «الفاتنـة الوديعة النبيلة» . وذات مرة استيقظت داشا فى غسق صاف مـن نوم مريح على القش . وذهبت الى الجدول ، واغتسلت ، ومشطت شعرها ، الذى تبعثر تحت المنديل المحروق . ثم اكلت ، وانشرحت وقالت فجأة ومن تلقاء نفسها وبدون ان تسأل :

– . . . ساقول لك كيف حدث ذلـك . . . لم استطـع ان اعيش فى بيت ابى اكثر من ذلك . . . انت تعتبرنى طفيلية ، ولكن دعنى اقول لك ان رأيى فى نفسى اسوأ من رايك بكثير . . . ولكننى

لا استطيع احتمال الشعور بأننى مهانة وبأننى اسوأ من الجميع . . .

تمطق كوزما كوزميتش ، وقال :

– مفهوم .

تلعمت داشا عينيها على النار ، وقالت :

– لا ، لم تفهم شيئا . . . ان زوجى جازف بحياته ليرانى لحظة واحدة . انه انسان قوى الشكيمة شجاع شديد العزيمة . . . اما انا . . . فهل تستحق مخلوقة مثلى ان يجازف امرؤ بحياته مـن اجلها ؟ وبعد هذا الحادث ضربت راسى فى افريز النافذة . وكرهت ابى . . . لانه المذنب فى كل شىء . . . فاى رجل حقير تافـه هو ! وعزمت على السفر الى يكاترينوسلاف ، والبحث عن اختى كاتيا ، فقد كان فى وسعها ان تفهمنى وتساعدنى . ان كاتياى هذه ذكيـة مرهفة كالوتر . لا تضحك ، ارجوك . فانا اريد ان افعل شيئـا استبداديا شريفا ضروريا . . . ولكن لا اعرف بم ابدا . انما ارجوك الا تثرثر الآن عن الثورة . . .

– لست عازما على الثرثرة ، يا روحى . بل اصغى بانتباه والصبر يعطف .

– اترك هذا المنطق . . . فى ذلك الوقت كان الجيش الأحمر قد اقترب من سامارا . وهربت الحكومة – كان شيئا مقرفا . . . وطلب ابى بان اسافر معه . وجرى بيننا نقاش . واظهر كل واحـد منا ما فى قرارة نفسه . وارسل ابى فى طلب الحراس : مستشفى ، يا عزيزتى اه وبالطبع ، لم يأت احد . فقد هرب الجميع . وخرج ابى الى الشارع وليس معه غير محفظته للاوراق . اما انا فهتفت له مـن النافذة بآخر كلماتى . . لا يكره الانسان احدا كرهه لوالـده ! وبعد ذلك لففت راسى بالمنديل . وارتميت على الاريكة التعب ! وبذلك انقطعت كل حياتى الماضية . . .

وهكذا سارا فى السهب مارين بالقرى التى اثارتها الحـرب الاهلية ، لا يكادان يلتقيان بالناس ، ولا يعرفان ان احداثا دموية كانت تجرى فى تلك الاماكن . كان جيش الدون القوزاقى العظيم المؤلف من خمسة وسبعين الف نفر قد عاد لمحاصرة تساريتسين بعد اخفاقات أب .

قال كوزما كوزميتش ، وهو يحفر فى الرماد ليخرج البطاطس :

— اذا كنت منهوكة ، يا داريا دميتروفنا يمكننا ان نستريح في هذه الثيلة ، فليس بنا حاجة الى الاستعجال . لكننا اخترنا مأوى سيئا . فان الريح الهابة من المنخفض لن تدعنا ننام . من الافضل ان نسير بهدوء تحت النجوم — ما ابدع العالم ! — ورفع وجهه الأحمر الماكر ، وكأنه يتأكد من ان كل شيء على ما يرام في مملكة السماء — اليست تلك معجزة من المعجزات ، يا حلوة ، ان يسير مخلوقان في الكون ، يتابعان بذهن مدقق ، تعاقب الظواهر ، وكل ظاهرة ادهش من الاخرى ، يصلان الى استنتاجات لا تلزمهما بشيء ، يشبعان جوعهما وعطشهما ، ولا يكرهان ضميرهما على شيء . . . لا ، لا نستعجل ان تنتهي الرحلة بسرعة .

واخرج كيس الملح من جيبه ، ووضع بطاطسة على كفه وقلبها نافخا على اصابعه ، وشطرها وناول داشا شطرا .

— طالعت كمية هائلة من الكتب ، وتقلت على ذهني بلا نظام ، حررتني الثورة من سجن الدير ، وقذفتني الى الحياة بشكل خال من الرقة تماما . واعطاني رئيس ميليشيا منطقة ساراتوف ، وهو رجل ذكي جدا بقيت محبوسا عنده اسبوعين ، بطاقة هوية كتبها بخط يده : المهنة : طفيلي . التعليم : علم زائف . العقيدة : بلا مبدأ . وهكذا ، يا داريا دميتروفنا ، عندما وجدت نفسي بلا شيء غير كيس ملح في الجيب ، حرا تماما ، ادركت معجزة الحياة ، وبدات المعارف غير المجدية التي تربك ذاكرتي تشبه بوالكثير منها بدا مفيدا ، حتى من حيث القيمة التبادلية . . مثلا دراسة كف الانسان او قراءة الكف . فانا مدين كليا لهذا العلم في الحصول على احتياطي الدائم من الملح .

لم تستمع داشا اليه . ان شيئا ما ، ربما هو صفير الريح الخفيف في اعواد القمح ، كالحنين الشريد ، جعلها تود كثيرا لو تبكي ، فكانت تلوي عنقها دائما لتنظر الى الغروب الموحش . استولى عليها اليأس من تلك الرحلة اللامتناهية التي كان عليها ان تقطعها بحثا عن ايفان ايليتش ، بحثا عن كاتيا ، بحثا عن نفسها هي . ولعلها كانت ستجد في الزمن القديم لذة في اشفاقها على نفسها في عجزها هذا ، في ضآلتها ، في ضياعها في السهب البارد . . . لا ، لا ! تناولت داشا قطعة البطاطس من كوزما كوزميتش وقضمتها

باكية اياها مع دموعها . . . وتذكرت كلمات من رسالة كاتيا التي ارسلتها الى بتروغراد «الماضي مات . انقضى الى الأبد . يا داشا» .

— والى جانب الانقطاع التام عن الحياة ، فان الاستعجال المدمر النفع ، الانشغال بالتوافه احدى نواقص مثقفينا ، ياداريا دميتروفنا . . . الم تلاحظي مرة كيف يمشي ذوو المهنة الحرة ؟ كيف يطأ ليبرالي الارض بساقيه الرفيعتين في نفاد صبر ، وكأنه يسير على نار . . . الى اين ، ولماذا ؟

ان هذا الرجل المزعج كان لا يكف عن الكلام مظهرا نفسه .

— لا ، يجب ان نواصل السير بالطبع . لنذهب .

قالت داشا وشدت منديلها الصوفي على رقبتها بكل قوتها . نظر كوزما كوزميتش اليها متقصيا . وفي ذلك الحين لمعت ومضات في ظل المنخفض الدامس ، وترددت طلقات .

ما كادت الرصاصات الاولى تنطلق حتى ردت الحياة للسهب المقفر الذي تلاشى فوقه خط من الغروب في السحب البعيدة . ثم تلحق داشا ان تقفز ، وهي تمسك بطرفي منديلها . واسرع كوزما كوزميتش الى اطفاء النار بقدميه ، الا ان الريح اشتدت ، فتطايرت الشرر . فاشتد فرسانا منطلقين . كانوا منحنين على رقاب افراسهم يسيطرونها مبتعدين عن الطلقات من المنخفض .

ومر كل شيء متدفقا ، وهدا . ولم يبق الا قلب داشا يخفق بجنون . انقذ صراخ يتقاطر من المنخفض ، وفي اللحظة التالية انثال من هناك رجال مسلحون . كانوا يتحركون بحذر ، منبسطين في السهب . التفت اقربهم نحو النار ، وصاح بصوت فتي متكسر «الى ، من انتما ؟» رفع كوزما كوزميتش يديه فوق رأسه ناشرا اصابعه خوفا . تقدم شاب في معطف جندي . «ماذا تفعلان هنا ؟» وادار بوجهه ذي الحاجبين الداكنين ، المتهيئ لكل طارئ نحو الجالسين عند النار «جاسوسان ؟ من البيض ؟» ودفع كوزما كوزميتش بالحصى بمنخسه دون ان ينتظر جوابا : «هيا ، حدثني ونحن سائرون . . .» .

— لسنا الا . . .

— ما هذه «الا» ! الا ترى اننا في معركة !

لم يحتج كوزما كوزميتش ، وتابع سيره مع داشا تحت

كان ايفان غورا منطرحا على وجهه كبيرا طويلا وقع حالما خرقت الرصاصة قلبه ، باسطا ذراعيه ، وكأنه يحتضن الارض كلها ، لا يريد ان يعطيها للعدو حتى في موته .

اجتمع الرجال القدامى من فوج كانشالين من الذين عرفوا ايفان غورا منذ ان كان جنديا احمر ، ثم آمر سرية ، اجتمعوا ليلا في العراء ، وتشاوروا في دفن المفوض في مكان بارز مشهود ، على رابية عالية تطل على شاطئ مانيتش .

كانت الروابي في ذلك المكان كثيرة متناثرة ، ولكن هذه الرابية مرتفعة كالتل . ولعلها في الزمن القديم قد رفعت لخيمة الخان لترى من الاعلى الى مسافة بعيدة ارعال الخيل الغفيرة العديدة في السهب . ولربما في زمن اوغل في القدم دفن السكيثيون تحتها زعيمهم مع جواده وزوجته المحبوبة ، ووضعوا في الاعلى اغصان الصفصاف صفوفا وغرزوا سيفا برونزيا ضخما موجها حده الى السماء . كانوا يعبدونه كاله الغضب والسعادة .

عبّروا المفوض ايفان غورا النهر حاملين اياه بايديهـــم ، ووضعوه فوق الرابية على العشب الربيعي ، ومشطوا شعره ، وغطوا جثمانه الطويل براية الفوج .

كان الليل ساجيا ومنيرا بضوء القمر . ووقف ايفان ايليتش عند قدمي المفوض وسيفه مجرد ووقف عند رأسه بابوشكين مفوض السرية الاولى ، والشيوعي من بتروغراد . ومر المقاتلون الحمر به فردا فردا مودعين ، وكل واحد يحييه ببندقيته .

— وداعا ، يا رفيق ...

وحين ودعه الجميع ، وحان وقت انزال المفوض في قبره ، صعد لاتوغين الى الرابية ثانية وصاح :

— اليوم قتل اعداؤنا الالداء افضل رفاقنا ... لقد علمنا ، لاى شيء اعطيت لي هذه البندقية ... لنقاتل في سبيل الحق ! من اجل هذا هي في يدي ... وقد كان هو نفسه رجل حق ، وجعلنـــا حق الجذر ... لقد علمنا : اذا كانت امك قد ولدتك ، فقد صرخت في الدنيـــا ، وليس لك من قضيـــة غير الكفـــاح من اجـــل الحق ... وانا ارجو من آمر الفوج والمفوض بابوشكين ان يقبلا مني

طلبه انتمائي الى الحزب ... وانا اقول ذلك باخلاص ، امام هذا الجثمان ، امام الراية .....

. . . .

دفن المفوض ، وفي ساعة متأخرة من الليل دعت داشا ايفان ايليتش من المخبأ ، وقالت وهي تفرقع باصابعها :

— اذهب اليها ، ارجوك ، وخذها .

وقادت ايفان ايليتش الى الرابية . وكان الليل قد احلولك قبيل الفجر ، اختفى القمر : والريح السهبية تصفر قرب الاذن .

— تعذبنا انا وانيسيا ، ولكنها لا تصغي لشيء ....

كانت اغريبينا جالسة على تلة قبر ايفان غورا على الرابية وقد خفضت راسها بعبوس ، وقبعتها وبندقيتها بالقرب منها . وكانت انيسيا تجلس على مبعدة منها .

همست داشا :

— انها كالمتحجرة ، والشيء الاهـــم انتزاعهـــا من هناك وجلبها — واقتربت داشا من اغريبينا — انظري ، ان آمر الفوج ايضا يطلب منك .

لم ترفع اغريبينا راسها . كانت كلمات الناس تمر بها كالريح المتطايرة فوق القبر . انزلت انيسيا وجهها على ركبتيها وهي ما تزال جالسة على مبعدة ، سعل ايفان ايليتش وقال :

— هذا لا يجوز ، يا اغريبينا ، قريبا سيطلع الفجر ، وسننتقل جميعا الى الضفة الاخرى ، فهل تبقين وحدك .. ليس ذلك صحيحا ...

تمتمت اغريبينا بصوت باهت ، دون ان ترفع راسها :

— قبلئذ لم اتركه ، والآن ايضا ... الى اين اذهب ؟

همست داشا ثانية مشيرة الى جبينها :

— اتفهم ؟ .. راسها مضطرب ...

— انتظر ، يا اغريبينا — وجلس ايفان ايليتش مطرقـــا بالقرب منها — انت لا تريدين تركه ... احقا هذا كل ما تبقى من ايفان ستيبانوفيتش ؟ سيعيش في ذاكرتنا ، وبلهمنا الشجاعة .. افهمي ذلك .. انت زوجته ، يا اغريبينا ... وفي رحمك بذرته ما تزال تنمو ...

رفعت اغريبينا يديها وضمتهما بالقرب من وجهها وانزلتهما :

انفرجت شفتا داشا ، وتدنت منه بحركة اندفاع ، كما يحدث ذلك معها دائما ، وقبلته من خده الخشن . فوجئ الجندي بذلك ، فنظر الى داشا رامشا . . . ونهض ، وامسك بالبندقية ، وابتعد ملقيا حزام البندقية على كتفه . وقال مهددا :

– اتركي ذلك ، فانه لن يساعدك ، ايتها المواطنة .

سألت داشا بلهفة :

– ما الذي يساعدني اذن ؟ انت وجدت ما تفعله . اما انا فلم اجد . . . لقد هربت من تلك الحياة كالمجنونة ، هربت لأجد سعادتي . وانا احسدك . . ليتني اشد الحزام على معطف عسكري مثلك !

وقد استبد بها الاضطراب حتى انها الفت المنديل من رأسها ، وعصرت نهايتيه بقبضتيها بكل قوتها .

– كل شيء عندك واضح وبسيط . . . من اجل اي شيء تحارب ؟ لكني تستطيع المرأة ان تنظر الى هذه النجوم دون ان تبكي . . . وانا ايضا اريد مثل هذه السعادة .

كانت تتحدث ، وهو يصغي دون ان يحاول ايقافها ، وقد اربكته هذه العاطفة غير المفهومة . وفي تلك اللحظة خرج من الكوخ آمر الفصيلة ، ونادى بصوت عميق :

– هاي ، الحربينا ، اجلبي الوافدين هنا .

كان قائد الفوج وآمر الفصيلة ، وكلاهما في معطف عسكري وقبعة ذات حافة نائتة ، يجلسان عند طاولة في الكوخ واضعين مرفقيهما امام سراج نفطي . وكان قائد الفوج ذو العينين اللامعتين المتباعدتين يضع غليونا بين اسنانه . وكان وجه الثاني قد لفحته الريح فاضحى كقشرة شجرة . طلب آمر الفصيلة من داشا وكوزما كوزميتش الواقفين عند الباب ان يقتربا قليلا .

– لماذا كنتما في السهب في مواقع القوات ؟

وكانت عيناه تحدقان في عيونهما . ومن تلك النظرة احست داشا بوهن مفاجئ ، وتمتمت بشفتيها الجافتين :

– سيتحدث هو . فهل يمكن ان اجلس ؟

وجلست ماسكة بحافة المصطبة ، ناظرة الى السراج يرف في تجف من فخار . وبدا كوزما كوزميتش يتحدث منشطا وهو

يحرك نفسه بعصبية ، كيف وجد داريا دميتريفنا في السهب ، وكيف سارا نحو الدون مفكرين في الغالب بمواضيع سامية . وتحدث بتفصيل عن هذا الجانب من رحلتهما لاهثا مستعجلا حتى لا يقاطع . الا ان الآمرين ظلا جالسين وراء المنضدة مثل عملاقين .

– انه لشيء عظيم ، ايها المواطنان الآمران ، ان يفكر الانسان بامور عظيمة . ماذا اريد ان اقول بذلك ؟ شكرا للثورة على انها حررتنا من الاشياء التافهة الكئيبة ان الانسان ، المخلوق المساوي للاله ، المعد لتحقيق المهمات الرفيعة يحرك مثل اورفيوس الحياة في الصخر باوتار مزهره ، ويطوع جنون الطبيعة الوحشية – كان هذا الانسان يلطخ اوراق النقد وفكره بضوء فتيلة دافقة بحثا عن سبل احذق لخدع جاره . . . شكرا لكم لتحطيمكم معيشتنا التعيسة ، وتبا للعنة على ذكراها ! . . لم يبق شيء يلطخ ، وعقليك . اردت ام لم ترد ان تدير فكرك الى المواضيع الرفيعة . . . وهذا هو اثبات لا خلاص هذا (واخرج كيس الملح) . . . هذا هو الشيء الوحيد الذي املكه في الدنيا ، ولا احتاج الى شيء آخر . البقية اما ان اطلبها او اسرقها . ولكن اريد ان اناقشكما ، ايها المواطنان الآمران . . . انتم تحاربون في سبيل سعادة الانسان ، ولكن الانسان غالبا ما تنسونه ، وهو عندكم يسقط بين السطور . . . لا تفصلوا الثورة عن الانسان ، لا تجعلوا منها فلسفة تجريدية ، لان الفلسفة دخان يختفي بعد ان يتخذ شكلا غريبا . . ان ما يقسم اهتمامي في مصير هذه المرأة هو التي تصفحت فيها رواية شاعرية بدايتها ، وهي ، بالمناسبة ، ما اجده في كل انسان اذا نظرت اليه بحب استطلاع ، وبتعطش . . . لانه الكون نفسه يظهر امامكم في معطف مهلهل وحذاء مستهلك .

قال قائد الفوج نافثا الدخان :

– حديث ماكر .

وقال آمر الفصيلة بعده :

– ارني اوراقكم .

تناول الهويتين من كوزما كوزميتش وداشا ، وقدم السراج ، وانحنى كثيرا ، وبلل اصبعه وورق الهويتين بعناية ، وكان قائد

يريد فقط ان يصور الشيء الكبير المحسوس الذى حصل لها فى السهوب ، ولكنها لم تستطع التعبير عنه) وحين وصلنا الى هنا بدا وكأننا عائدون من مهرجان . واليوم اعلنت اننى خطيبتك ، وقد اعلنت ذلك عن قصد . . فانتهى كل شيء . . . فماذا بعد ؟ انجاب الاطفال . . . سنبنى بيتا ، وعن قريب ستكون سيمور العالم ، ثم نوريا . . . انا عرفت كل ذلك ، وقد خلفته فى الجانب الآخر . . . كان ذلك فى بطرسبورغ ، وكان ذلك فى موسكو ، وكان فى باريس ، والآن يبدا من جديد فى قرية فلاديميرسكويه .

وكان مثل هذا الضيق فى يديها المطروحتين على ركبتيها ، وفى رأسها المنكس بمفرقه الواضح وشعره الكستنائى الداكن كالرماد . حتى قلص الكبرى عينيه بشدة . . . طار طائر النار هذا ، وافلت من يديه . . . قال خافت الصوت :

— انت حمقاء جدا ، يكاترينا ديميتريفنا ، مبلبلة الفكر . . . اتريدين ان تخوضى فى الدم مثل اخى سيميون ؟ استغربت من احاديثك هذه . . . لا ، مع ذلك ، لن اتركك تذهبين . . .

١٣

سافر ايفان ايليتش وداشا الى القوج ونزلا فى بيت مطل بالثلج فى مزرعة . وكانت غرفة استقبال تنيغين المزودة بتلفونات وصندوق للنقود وراية موضوعة فى ترابها على مقربة فى الجانب الآخر من الرواق . ولكن هنا توجد مملكة داشا وحدها : موقد دافئ لم يستخدم للطهى ، الا ان داشا كانت تغتسل فيه متمددة على القش داخله . كما علمتها القوزاقيات ، وسرير عليه وسادتان قاسيتان وبطانية خفيفة (كان ايفان ايليتش يتغطى بمعطفه) ، ومائدة مغطاة بقماش نظيف كانا يتناولان الطعام عليها ، ومرآة صغيرة معلقة على الحائط ، ومكنسة عند عتبة الباب ، وعلى كوة فى تجويف الموقد المجصص تقف القطة والكلب من الخزف الصينى .

قبل عامين كانت داشا وايفان ايليتش وهما فى غمرة الحب والانطلاق قد اقاما فى وضع كهذا ايضا . ولم يغب عن ذاكرة داشا تلك المساء الاول الذى قضياه فى شقتهما الجديدة بنوافذها

المفتوحة على شارع كامينو اوستروفسكي المضمخ بطراوة العطر ، وكانت تحس بصفاء وعدوء طهريين . وكان ايفان ايليتش يجلس عند النافذة فى الغسق ، وقد احست انه مرتبك الى حد العذاب ، فقررت ان تاخذ المبادرة بنفسها عارفة ان ذلك سيدخل سرورا عظيما الى قلبه ، فقالت : «لنذهب ايفان» . ودخلا غرفة النوم حيث كانت باقة كبيرة من الميموزا فواحة برائحة عذبة موضوعة فى علبة على الارض . ففتحت داشا باب الدولاب ، وخلعت ثيابها وراءه ، وعبرت الغرفة حافية ، واندست تحت البطانية ، وسالت بلهجة سريعة «ايفان ، هل تحبنى ؟»

كانت داشا لا تعرف شؤون الحب ، ولو انها انشغلت فيها اكثر من اللازم . وما حدث فى ذلك المساء بينها وبين ايفان ايليتش خيب ظنها . انه لم يكن ذلك الشيء الذى كتب من اجله هذا العدد الضخم من القصائد والقصص الغرامية والموسيقى ، تلك القوة السحرية التى تثير النشوة والدموع ، تلك القوة التى كانت تحس بها وهى جالسة وحيدة فى شقة كاتيا الفارغة تعزف على البيانو «الستينوى» الاسود ، فاذا بها تقطع الموسيقى فجاة ، وتنهض ، وتشبك اصابعها ، ولو لم يكن جسدها كله فى تلك اللحظة باردا شفافا كالزجاج لخنقها ، فى اغلب الظن ، ذلك الذى يعتمل فى نفسها ويفور .

وبعد ذلك بقليل من الوقت حملت داشا . وقد احبت ايفان ايليتش كثيرا ، ولكنها اخذت تبعده عنها ، ثم بدات الاشهر الرهيبة — المجاعة وظلام خريف بتروغراد ، والحادث الوحشى عند فتاة لبياجى الذى انتهى بولادة قبل الاوان ، وموت الطفل ، والرغبة الوحيدة فى ان تفارق الحياة ، ثم الفراق .

والآن بدا كل شيء من جديد . كان شعورهما اكثر تعقيدا واعمق من ذلك العشق القديم الاثيرى الذى بدا معه كل شيء الغازا واحاجى ، كما فى صندوق سحرى شديد التزويق فيه هبات غير معروفة . لقد عانى الاثنان اشياء كثيرة ، ولم تتح لهما الفرصة بعد لان يعطى احدهما للآخر تجربته . كان حبهما الآن — ولا سيما بالنسبة لداشا — مثقلا ومحسوسا كالهواء فى اوائل الشتاء ، حين تكون عواصف تشرين الثانى قد ولت وبواكير الثلج تحمل فى

غدا . يمكنك ان تستلقى هنا . اخرجى الى الرواق وستجدى مطبخا . وتامى هناك بهدوء .

سارت داشا وورائها كوزما كوزميتش – الذى يبدو ان الآمرين لم يعودا يهتمان به – عبر الرواق ودخلا مطبخا فارغا دافئاً . نصح كوزما كوزميتش داشا بان تصعد وترقد على سطح الموقد : «دفئى عظامك ، ونامى فى ليلة مقدار ما نمته فى اسبوع . دعينى ، اساعدك ، يا عزيزتى . . .»

صعدت داشا الى سطح الموقد بصعوبة ، وفكت منديلها ، ووسدته خدها ، وغطت جسمها بالمعطف ، ساحبة رجليها . كان المكان مريحا وفيه رائحة آجر دافئ ودخان خبز . صرصر جدجد . . . ساكن المواقد الدائم . ولم يدع داشا تنام رأسا . لفشاها النوم بسنة رقيقة ، والجدجد يصرصر مطرزا نومها بخيط رمادى . . .

وتخيلت ان بندول الايقاع يدق ، وانها تجلس الى البيانو ، وقد ارخت يديها خدرا . وقلبها يخلق مذعورا من الانتظار ، ولكن لم تسمع خطوات المحبوب ، المعبود – لا شىء غير صرصرة الجدجد – يطرز نومها خيطا وراء خيط . . .

وتردد صوت فى داخلها «ابا للهدوء ، يا للهدوء . عادت الى وطنها ، داشا المسكينة . . . ولكنك لم تعرفى وطنك قط داشا ، داشا . . . آه ! لا تعيقنى . . . ولكن هذا قائد الفرقة . بالطبع ، يضرب بعصاه ، والآن ستصدح الموسيقى . . .» والصرير من جذبه . . .

استلقى كوزما كوزميتش على مصطبة تحت الموقد . انه هو ايضا لم يأته النوم رأسا . تمتم متمطقا :

– صدقوا ، صدقوا . . . قلوب بسيطة . . . لو كنت فى مكانهم لما صدقت بهذه السرعة . لماذا ؟ لانك لا تعرف نفسك . . . الانسان جاهل . . . صدقوا ، لان الاقوياء من الناس بسطاء دائما . . . وفى ذلك قوتهم . الآن اعطونا حريتنا . صدقوا . ولكن هل انتم بحاجة الى انسان مفكر ؟ هل الثورة بحاجة اليه ؟ نعم ! ها انا ذا . . . داريا دميتريفنا . . . انا اسأل : هل الثورة بحاجة الى انسان مفكر ؟

٢

كان ايفان ايلينتش تيليغين قد تلقى مهمة جديدة بعد عملية ساماراا .

كان الجيش الاحمر العاشر قد استنزف ذخيرته القليلة فى معارك آب قرب تساريتسين . وكان المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية يرد بتأخير بالغ وبلا رغبة على الطلبات فى امداد تساريتسين بما هو ضرورى للوقوف امام الهجوم الحتمى الجديد لجيش الدون . الا انه كان فى موسكو رفيق سلاح لقائد الجيش فوروشيلوف ارسل الى هناك لمهمة خاصة هى التغلب على التأخير غير المفهوم والبيروقراطية المكتبية لمؤسسات التموين التابعة للمجلس العسكرى الاعلى . وقد استطاع هذا الرجل ان يرسل كمية صغيرة من الشحنات الى جبهة تساريتسين .

وقد عهد الى ايفان ايليتش بتحميل صناديق الذخيرة ومدفعين فى سفينة شحن فى مدينة نيجنى ، وايصالها الى تساريتسين . وهنا قد وجد نفسه مرة اخرى ، كما كان فى هذا الصيف وكما كان منذ سنوات ، يعوم على الفولغا الكمونى الواسع الجبار . كانت السفينة البنية الواطئة تضرب بدواليبها الماء الراكد . وكانت الضفاف ترى دائما فى الامام ، وكأن النهر ينتهى عندها ، بينما كان اتساع جديد للنهر ينفتح بعد عطفة مرخية عميقا رقراقا تحت شمس الخريف . فى تلك الشهور كانت الفولغا قد طهرت من البيض ، ومع ذلك فقد كانت السفينة تسير بعيدة عن الضفاف ، كلما ظهرت قرية كبيرة بسورها المعتمة فوق الضفة العالية ، او لاح من خلال اوراق شجرة صفراء برج جرس على رابية جرداء ، حيث كان من السهل الاطلاق من رشاشة .

كان عشرة من بحارة البلطيق يتحدثون ويضحكون بالقرب من المدفع عند مؤخرة السفينة . وهناك كان ايفان ايليتش غالبا ما استلقى على جنبه متأوها متهالكا ضاحكا على حكاياتهم حتى تدمع عيناه . وكان مصغيا بسيطا سريع التصديق ، وهو النوع الذى يحتاج اليه البحار الذى يحب من يصغى اليه .

كان شاريغين الكومسومولى الطويل المهيب وهو احدث البحارة سنا ، ينقضم من جرس السفينة كل يوم ، ويدقه ليدعوا الجميع الى فوق . وكان البحارة يجلسون فى دائرة ، ويخرج من باب العنبر الميكانيكى العجوز الذى ، قيل ، انه فقد نقودا غير قليلة فى الثورة ، ويطلع الوقاد جسمه حتى الوسط من الباب نفسه ، وهو رجل فى ودى متبرم . وتخرج الطباخة من المطبخ وهى تمسح يديها . وكان شاريغين يجلس على لفة من الحبال ، ويبدأ حديثا تثقيفيا بصوت واثق مغرور . لم يستطع لصغر سنه ان يقرأ كثيرا ، ولكنه قدر ان يفهم الشىء الرئيسى . وكان تحت طاقيته البحارية شعر مجعد داكن ، وله عينان جميلتان وضاءتان ، الا ان لانفه عيبا ، فهو قصير مرفوع كان يبدو غريبا على وجهه .

لم تكن مهمته سهلة . كان البحارة يفهمون الثورة فهم رجال انفصلوا منذ زمن بعيد من مزارعهم ومن المحراث المبدالى ، عن قارب الصيد فى الساحل . وقد ادوا خدمة الاسطول الثقيلة ، وحين دقت الساعة القوا ضباطهم فى البحر ، ورفعوا علم الثورة العالمية . وكانوا قد راوا العالم ، وطافوا فيه . وكان شيئا عريضا مفهوما لهم كرجال البحر . فى الماضى كان كل ما يملكه البحار فى صندوقه الصغير . اما الآن فلا يوجد حتى هذا الصندوق ، الآن كل ممتلكات البحار هى بندقية وشريط عتاد للرشاشة والعالم كله . . . فلو كان هذا عهد ستيبان رازين لامال كل واحد منهم طاقيته ذات السطح الاحمر على اذنه ، وسار على مشيته يجوب رحاب العالم ، تاركا وراءه وهجا يتصاعد الى عنان السماء . . . «اى ، يا عبيد القيصر ، يا ارقاء الارض ، ايها التعساء ، يا رعاع الحانات ، اقتسموا الارض ، واقتسموا الذهب ، ان كل شىء لكم ، فانعموا ! . .» ولكن الثورة البروليتارية طالبتهم ببرنامج اكثر تعقيدا وطالبتهم بضبط المشاعر .

كان شاريغين يقول لهم بصوته الواثق :

– الثورة ، ايها الرفاق ، هى علم . والمرء لن يبزها ولو كان سليمان الحكيم ، ولا بد من ان يخطأ . ولكن ما هو الخطأ ؟ من الافضل ان تقتل اباك وامك من ان تقع فى الخطأ . فانه يقودك الى وجهة النظر البرجوازية ، كما يغرى الطعم الفارة الى المصيدة . واذا

ما وقعت فيها فابحث حيث انت ، والطم ذنبك . فان كل خدماتك قد شطب عليها ، فاصبحت عدوا . . .

ولم يكن البحارة قادرين على الاعتراض على ذلك بشىء فانت بدون علم لن تستطيع ان تقود حتى سفينة فكيف ان تقضى على الثورة المضادة . واحيانا كان احدهم يحطمن ركبته بيديه الضخمتين الموشمتين ، ويسال : – حسنا ، قل لى اذا : بدون موهبة لن تستطيع ان تركب موقدا فى حمام ، وبدون موهبة لا تستطيع المراة ان تصنع عجينا . فهل الموهبة ضرورية ام لا ؟

– انظروا ، ايها الرفاق ، الى اين يسوقنا لاتوغين ؟ الموهبة ؟ ان الموهبة شىء متاصل فينا ، انها شىء خطير ، وقد تقود الشخص الى الموضوعية البورجوازية ، الى الفردية . . .

فلوح لاتوغين بيده مبديا يأسه :

– هراء ! عليك اولا ان تمضغ هذه الكلمات ، وتبتلعها وتبرزها ثم تستخدمها . . .

قال الوقاد ناظرا من باب العنبر بصوت اجش :

– الموهبة . الموهبة ! يصبغ اظافره ، ويلبس بنطلونا مرقطا ، ويضع سلسلة فى رقبته . . . هذا هو صاحبنا . . . الموهبة !

عندئذ ارتفع لغط بين البحارة . وقال الوقاد بصوته الاجش «انتم بحاجة الى عشرة اعوام تقضونها بالقرب من الموقد» واختفى فى ستر السكان تلافيا للعواقب . وكان شاريغين يهدئ دائما الضجة الصاخبة ويقول : «بالفعل ، يوجد بيننا رفاق يصبغون اظافرهم ، ولكنهم قلة ، ولن ينتهوا الى نهاية حسنة . كما ان هناك من المستعمر الاشتراكيون الثوريون . ولكن غالبية البحارة قد وهبت نفسها للثورة كلية . ويجب ان ننمى ما يخص الموهبة ، ويجب ان نخضعها . وسنصرع فيما بعد ، من يبقى على قيد الحياة . اما انا شخصيا فلا احسب حسابا لذلك . . .»

وهز شاريغين خصلات شعره الاجعد ، وليمضى الوقت كان لا يسمع هناك سوى خرير الماء تحت راس السفينة . لقد اثرت صرامة الكلمات فى المستمعين تاثيرا قويا . فان الانسان الروسى ضعيف ازاء كل ما هو احتفالى : فاذا شرب يتمادى حتى يفقد

قبعته ، واذا حارب يحارب بجنون فلا تستطيع ان توقفه . والموت رهيب في الايام الاعتيادية ، في المطر الشديد ، اما في المعركـــة الحامية ، من اجل قضية عظيمة فان الموت يصقب النفس فـــلا يحس الانسان الروسي بخوف ، وعوه فقط ان يحس الحياة بحرارتها كما هي في العيد . فاذا اصيب برصاصة عدو أو طعن بنصلـــه اللامع ، فمعنى ذلك انه تعثر ووقع باسطا رجليه ويديه في سهب واسع ، وقد لمل راسه باقوى خمرة في العالم .

واعجب البحارة قول شاريفين بانه لا يحسب ان يبقى حيا . كما غفروا له الخطبة المثيرة وتلك الصبيانية بنفسه . بل حتى انه الموضوع بدا مقبولا . وبدا يحدثهم عن احتكار الدولة لتجارة الحبوب ، عن الصراع الطبقي في الريف ، عن الثورة العالمية . واطبق الميكانيكي الاشيب الشاربين عينيه نصف اطباق ، وشبك اصابعه على بطنه ، وهز راسه مؤكدا لا سيما في المواضع التي يتعثر فيها لحن شاريفين ، ويبدأ بالتعبير بشكل مبهم . وكانت الطباخة اليسيا نازاروفا التي اخذوها الى السفينة من استراخان في الرحلة السابقة لا تجلس قط مع الرجال . فكانت واقفة على جانب تنظر الى الشواطئ المتلاشية . كانت السكينة والرصانة تنعكسان على وجهها الفتي الذي اتعبته الآلام ، وكان جبينها بارزا وشعرها رماديا جميلا قد ضفر بضفيرة حول راسها ، الا ان غصة كانت تصعد الى حلقومها احيانا فتبتلعها بصعوبة .

وكان تليغين يشترك في هذه الاحاديث ايضا . متحدثا عن الشؤون العسكرية ، وكان يرسم بالطباشير على سطح السفينـــة مواقع الجبهات :

— ان الثورة المضادة ، كما ترون ، ايها الرفاق ، تسير على خطة واحدة : تطويق روسيا الوسطى ، وقطعها عن التمويـــن بالحبوب والوقود ، ثم تحطيمها . والثورة المضادة تقوم في المناطق البعيدة عن المركز ، وفي الاراضي الغنية . ففي كوبان ، مثـــلا ، مليون ونصف مليون قوزاقي ومثلهم من الفلاحين المحروميـــن للارض . والعداوة بينهم مستميتة . وقد ادرك دنيكين ذلـــك جيدا ، فاندفع الى النار بجرأة مع حفنة من الضباط المتطوعين ، وحطم جيشا قوامه مائة الف رجل . كان يقوده الوغد سوروكين

الذي كان يجب ان يرمى بالرصاص منذ البداية على فوضويتـــه وميله للخيانة ، والآن يبني دنيكين لنفسه مؤخرة قوية مساعدا القوزاق على ذبح الحمر في كوبان . ان دنيكين عدو ذكي وخطير .

وكان البحارة ينظرون الى تليغين وافواههم منتفخة ، والعروق الزرق تبرز من تحت البشرة السمراء . بينما كان الميكانيكي يهـز راسه دائما مؤكدا كلام تيليغين «بالضبط ، بالضبط ...»

— ووجهة الزعيم كراسنوف اضيق بكثير ، لأن من الصعب اثارة القوزاق خارج حدود الدون . انتم تعرفون المثل القائل : يبدو القوزاقي مرتاحا لأنه يأكل مريا وينام مرتاحا . القوزاقي جرئ حتى يدافع عن بيته . ومع ذلك فان ثورة كراسنوف المضادة هي الآن بالنسبة لنا اكثر خطرا من كل شيء . واذا تراجعنا عن الفولغـــا ، وغدونا شاريتسين فان كراسنوف ودنيكين سيلتقيان بكل الثورة المضادة في سيبيريا . ومن حسن حظنا انه لا يوجد تفاهم كامل بين كراسنوف ودنيكين . وقوزاق الدون يسمون المتطوعين بـ«الموسيقيين الجوالين» بينما يسمي المتطوعون قوزاق الدون بـ«البغايا الالمانيات...» ومع ذلك علينا ان نكون يقظين ، وان نعارض خطة الثورة المضادة بخطتنا الكبيرة ، وهي ، بالدرجة الاولى ، تنظيم الجيش الأحمر تنظيما صحيحا ، لكي لا يكون مجرد انصار يتنقلون في عربات .

نظر شاريفين الى تليغين في حسد ، واعلن :

— هذا صحيح ... وهكذا ، يا رفاق ، نعود الى النقطة التي بدأت منها ... ما هو الضبط الثوري ؟ ..

وفي احدى هذه المحادثات مدت اليسيـــا نازاروفا يدها الى الامام فجأة ، كالعمياء ، وقالت بصوت متساوق ذي نبرة خطيرة حتى ان الجميع التفتوا نحوها ، وصاروا يصغون اليها :

— اعذروني ، يا رفاق ... احب ان اقول لكم ... احدثكم بهذه الشؤون ...

في الصباح الباكر ، عند الفجر ذهبت اليسيا نازاروفا لتحلب البقرة . ولكن ما كادت تفتح زريبـــة الابقار — وجاءها من الظلام خوار البقرة المطالب بالحلب — حتى سمعت طلقات من السهب . فوضعت اليسيا الجردل ، وعدلت المنديل على راسها . وكان قلبها يخفق . وحين التفتت من باب الحديقة ارتخت رجلاها ، ولكنها فتحت الباب .

كان جمع من الناس يركضون فى شارع القرية وراء عربة رشاشة يركبون فيها اثناء سيرها . وانطلقت الطلقات تسمع فى مكان الرب وأكثر ترددا ، من ناحية السهب ، ومن ناحية البركة ، ومن طرف الشارع العريض ، ومن الطرف الآخر . ولم تتمكن العربة التى كانت تقل رفاقا من سوفييت القرية ان تختفى . فقد حاصرتها الخيالة ، وداروا حولها كالكلاب حين تهاجم كلبا ، واطلقوا النار ، وطعنوا بالسيوف .

صمدت انيسيا باب الحديقة ، ورسمت علامة الصليب ، وذهبت لتجلب الجردل . الا انها استدركت فجأة ، واندفعت الى البيت ، حيث كان ينام طفلاها بتروشا واليوشا . ايقظتهما وهى تسند على راسيهما ، وتهمس فى اذنيهما . والبستهما ملابسهما ، واخرجتهما الى الفناء وراء زريبة الابقار ، حيث كان يوجد تل من الرماس الروث المجفف قد صف كبيت النمل ، ومن الداخل فارغ . رفعت انيسيا بعض الرماس الروث ، وطلبت من الطفلين ان يدخلا الى داخل التل ، ويجلسا هناك دون ان يصدرا صوتا .

والآن صار الشارع كله يغلى بكركبة حوافر الخيل ، وصيحات الناس ، وقرقعة السلاح . واخيرا اخذوا يضربون باب انيسيا باخامص البنادق قائلين : «افتح !» وحين فتحت انيسيا الباب امسكها قوزاقيان لمعتهما الخمرة المنزلية . «اين سينكا الازاروف ، اين زوجك ، تحدثى ، او نذبحك فى مكانك» . ولم يكن زوج انيسيا قوزاقيا ، بل من الاغراب ، وقد انضم الى الجيش الاحمر . كانت لاتعرف اهو حى الآن ام لا . وهكذا قالت انها لا تعرف اين زوجها . فقد اخذه بعض الناس فى الصيف . كف القوزاقيان عن انيسيا واندفعا الى البيت ، وقلبا كل شىء فيه وحطماه . وحين خرجا امسكا مرة اخرى بانيسيا ، وجراها فى الشارع الى سوفييت القرية ، حيث كان الزعيم يعيش فى السابق .

وكانت الشمس قد ارتفعت عاليا بينما اغلقت القرية بواباتها ونوافذها ، وكأنها ما تزال نائمة . وامام السوفييت فقط كان القوزاق يروحون ويجيئون خيالة ومشاة يسوقون فلاحين وقوزاقا بعضهم مشدود الوثاق ، والبعض الآخر مدمى . وفيما بعد عرف ان قائمة قد وضعت باسماء جميع الذين صوتوا فى الربيع الى جانب السلطة السوفييتية ، فاخذوهم جميعا .

كان يجلس فى بيت الزعيم ضابط ناعس خيطت على كمه جمجمة وعظمتان . والى جانبه الضابط القوزاقى زميف المعروف جيدا لدى الجميع ، والذى كان قد هرب من القرية قبل ستة اشهر ، وكان الجميع قد نسوا حتى ذكره ، وها هو الآن بشاربيه المتدليين مشكلا شخصا احمر كالنحاس . وحين دفعوا انيسيا الى البيت كان زميف يصيح على المعتقلين ، وكان عددهم اكثر من خمسين شخصا تحت الحراسة :

— هل ساعدتكم السلطة السوفييتية ، ايها الاوغاد الحمر البطون ؟ حدثونا الآن ماذا علمكم مفوضو موسكو ؟ ...

وكان الضابط ينظر فى القائمة ، ويقول بهدوء لكل من كانوا يحضرونه نحو المنضدة :

— هل تعترف باسمك واسم عائلتك ؟ حسنا . هل انت متعاطف مع البلاشفة ؟ لا ؟ هل صوت فى شهر ايار ؟ لا ؟ اذن ، انت تكذب . اجلدوه . التالى . القوزاقى روديوف — وكان يرفع عينيه الناعستين كعينى خروف ، ويقول — قف باستعداد ، وانظر الىّ ! هل كنت عضويا فى المؤتمر الفلاحى ؟ لا ! وحرضت داعيا الى السوفييتات ؟ لا . مرة اخرى ؟ اذن ، انت تكذب على المحكمة العسكرية . الى اليسار ! التالى ...

وكان القوزاق يمسكون بالناس ويدفعونهم من على مقدمة البيت ، ويطلقونهم ارضا ، ويسحبون سراويلهم ، ويعرونهم . ويجلس احدهم على الرجلين المرتجفتين ، والآخر يضغط على الراس وعلى الكتفين ، ثم يخرج اثنان آخران قضيبى التنظيف من بندقيتيهما ، ويتوالان بالضرب على المطروح معدين صفيرا فى الهواء .

ولم يعد الضابط يستطيع ان يتكلم بصوت هادئ ، فقد كان الذين خارج النوافذ يولولون ويصيحون . وكان يحيط بمكان التعذيب جمهور من القوزاق خيالة ومشاة من الفصيلة المغيرة ، ومن القوزاق المحليين الذين خرجوا من بيوتهم للقاء الفصيلة صائحين : «المسيح قام ! ...» كما كانوا يزعقون ويشتمون : «اجلدوهم حتى العظام ! اضربوهم الى آخر قطرة من الدم ، حتى يتذكروا سلطتهم السوفييتية !» .

واخيرا لم يبق فى بيت الزعيم غير انيسيا ومعلمة شابة . وقد

جاءت الى القرية برغبتها ، وحاولت جاهدة ان تنور اهل القرية . لقد كانت تجمع النساء ، وتقرأ لهن بوشكين وليف تولستوى ، وتصطاد الخنافس مع الاطفال – تصطاد الخنافس فى مثل تلك الاوقات !
صرخ الضابط زمييف بها :
– انهضى ! إنتها السحنة اليهودية !
نهضت المعلمة ، وظلت تحرك شفتيها لبعض الوقت دون ان تنطق بشىء :
– انا لست يهودية ، وانت تعرف ذلك جيدا ، يا زمييف . . . وحتى لو كنت يهودية ، فاننى لن اجد فى ذلك جريمة . . .
وسأل الضابط :
– هل انت فى الحزب الشيوعى منذ زمان ؟
– لست شيوعيــة . انا احب الاطفال ، واجد من واجبى تعليمهم القراءة والكتابة . . . تسعون بالمائة من سكان القرية لا يعرفون القراءة والكتابة ، فتصور . . .
قال الضابط :
– اتصور . . وسنجلدك الآن .
شحبت وتراجعت . وصرخ زمييف بها : «اخلعى ! » واختلج وجهها الحلو ، واخذت تفك ازرار معطفها ذى المربعات ، وخلعته ، وكأنها نائمة . . .
– اسمع ، اسمع – ولوحت بذراعها على الضابط – ما هذا منك !
ومن وراء النافذة ارتفع صوت نحيل بشكل لا يطاق . بينما كان زمييف ماضيا فى اوامره «اخلعى سروالك ، إنتها الفاجرة ! »
وصاحت به المعلمة «ايها الوغد !» وتأججت عيناها ، واحمر وجهها بحمرة الحنق :
– اقتلونى ، يا وحوش ، يا اغوال . . . لن يمر هذا بسلام .
عند ذلك امسكها زمييف ، ورفعها قليلا والقاها ارضا . ورفع قوزاقيان تنورتها ، وضغطا على رأسها وقدميها ، وخرج الضابط من وراء الطاولة على مهل ، وتناول السوط من قوزاقى . واطلت بسمة ساخرة على وجهه الرمادى . ثم رفع السوط ، وانزله بقســوة على مكان الحرمة منها . ومال زمييف من كرسيه الى الامام وصاح بصوت

عال : «واحد ! » واخذ الضابط يسوط . والفتاة صامتــة . . . . خمســة وعشرون . كفى ذلــك – قال الضابط والقى السوط – الصبى الآن ، اشتكينى لزعيم المنطقة !» وكانت راقدة كالميتة .
رفعها القوزاق ، وحملوها الى الرواق . وحان دور انيسيا .
شد الضابط حزامه القفقاسى ، واشار برأسه اشارة خفيفــة الى الباب . وجن جنون انيسيا حقدا وحاولت ان تتخلص ، حين جروها . امسكت بشعر بعضهم ، وتشبثت ، وعضت ايديهم ، وركلتهــم بركبتها . واطلقت نفسها حاسرة الرأس ممزقة الثياب ، وهاجمت القوزاق ، وفقدت الوعى حين ضربوها على رأسها . مزقوا الجلد على ظهرها بقضبان لتطبق البنادق ، والقوها عند مقدمة البيت ، ظانين ان هذه المرأة الخبيثة قد ماتت .
واعادت فصيلة النقيب تيشايف التأديبية النظام فى القرية ، واقامت زعيما ، وحملت عدة عربات من الخبز وشحم الخنزيــر المقدد وبعض الاشياء الاخرى المنهوبة ورحلت . وبقيت القرية طوال النهار ساكنة لم يوقد فيها موقد ، ولم تخرج ماشية . وفى الليــل اندلعت النار فى عدة بيوت للاقراب ، ومنها بيت انيسيا .
وخاف الجيران اطفاء الحريق ، لانه عندما اندلعت النار الاولى فى طرف القرية خرج بعض القوزاق بافراسهم الى هناك ، وسمعت طلقات . وقد احترق بيت انيسيا كذلك . وفى الصباح فقط استدرك الجيران : اين ولداها ؟ ان ولدى انيسيا ، بيتروشا وانيوتا ، اللذين ظلا الى الليل جالسين فى تل اقراص الروث قد احترقا مع البقرة والاغنام والدواجن .
والتقط الجيران انيســا التى كانت تئن مغميا عليها عند بيت الزعيم ، واخذوها الى بيتهم ، وارقدوها هناك ، واعتنوا بها . وبعد عدة اسابيع اخذت تلهم ، لقد حدثوها عن ولديها . ولم يعد لانيسيا شىء تفعله فى القرية . وهذا ما قالته للناس الطيبين . وكان الفصل خريفا ، ولا اخبار من زوجها . وقد زهدت فى العيش . فتنقلت من قرية الى قرية ، متسولة تحت النوافذ . وبلغت الخط الحديدى ، ووصلت اخيرا الى استراخان ، حيث اخذت طباخة على السفينة ، لان الطباخ قد نزل الى الشاطىء فى المرة السابقة ، ولم يعد .

. . . .

روت انيسيا لازاروفنا هذا الحديث من حياتها ، ثم قالت :
– شكرا لكم ، يا رفاق . انتم تعرفون مصيبتي الآن ، فشكرا لكم .

ومسحت عينيها بالمئزر ، ونزلت الى مطبخ السفينة . وظل البحارة طويلا جالسين في صمت جاهم يحتضنون ركبهم بايديهم المعروقة . انصرف ايفان ايليتش عنهم ، واستلقى في ناحية ، وفكر كأنما حسرته «وهكذا تلتقي بانسان ، وتمر به ساهيا ، بينما هو امامك مملكة كاملة من غرائب داخلية . . .» .

وبالتدريج تحول من قصة هذه المرأة العجيبة الى همومه هو . وكان يخفيها عميقا في طيات نفسه عن الجميع ، وعن نفسه بالدرجة الاولى . وكان قليل الامل في ان يلتقي مرة اخرى بداشا . حقا ان الانسان الحي يتحمل من الجراح والمصائب ما لا يتحملها اي حيوان . ولكن ما ارحب الارض ! واين يبحث عن داشا في سيل الملايين النازحين الى الشرق . ثم ان الاحمق العجوز ، الدكتور بولافين ، قد يذهب معها الى الخارج .

وتذكر ، وهو يهز راسه ويتحسر رثاء ، ميول داشا نحو الراحة النفسية ، نحو الاناقة ، وتوقد عاطفتها الباردة قليلا ، مثل فوران نبيذ مثلج . «لم تكن تقوى على ذلك . لقد نمت في دفيئة . فاذا بها تصادف تيارا قويا يهز العالم . . . مسكينة ، مسكينة . . . رفضت ان تعيش بعد وفاة ابنها في بطرسبورغ وكانت تنطفئ في الظلمة الباردة . . .» .

وكان ايفان ايليتش لا يعرف ما حصل لها بعد بطرسبورغ الا من قراءته لرسالتها على عجالة . لا شك في ان داشا قد قاست كثيرا بعد بطرسبورغ . وفهمت الكثير . . . بابة عاشقة جذبته في ذلك اليوم الى النافذة ، وهي تنقذه من الملاحقين : «سابقى وفية لك مدى الحياة ، اهرب ، اهرب . . .» وقد التصقت به رائحة شعرها الكتاني الدقيق . . . انه لم ينس ذلك ولن ينساه . يا لها من امراة عجيبة معبودة . . . «اوه كفاك ذكريات . . .» .

وبدا الجو يسيء . وعتمت الدولغا ، ونهضت من الشمال كالحواجز سحب باردة موحشة ، وصفرت الريح في الصواري

الصبورة . ومرت كاميشين ، وهي بلدة خشبية مهملة بحدائقها المتربة على التل . وبعد كاميشين تماما بدات جبهة تساريتسين .

٣

كانت السحب المترعة بالبرد تعوم فوق تساريتسين . وكانت الريح تصعد الغبار ، وكالدوامات تفرش به البيوت الخشبية المتلاصقة التي كان بعضها يواجه النهر وبعضها الآخر يدير له ظهره ، ناعضة فوق المنحدرات الوعثاء بين المراحيض والمصانع . كان ايفان ايليتش يصعد شارعا مرتفعا قلعت الامطار حجارته . وكان الكورنيش ، والارصفة الصارفة ، وشوارع المدينة ايضا خالية من الناس . وفي الساحة فقط ، حيث كانت الكاتدرائية الرخامية الضخمة تلوح خلف نقاب من الغبار ، تقابلت معه فصيلة مسلحة . كان افرادها من الكهول والشبان المرتدين كيفما اتفق يسيرون محنيين ظهورهم للريح في مقاومة جامحة .

وكانت تسير في المقدمة عجوز نحيلة بادية الغضب في قبعة من قبعات الجيش الأحمر ، وقد القت بندقيتها على كتفها ، مثل الجميع . وحين حاذت ايفان ايليتش سألها عن مقر القيادة . القت العجوز نظرة شزراء عليه ، ولم تجب ، ومرت الفصيلة كلها في عجلة تثير الغبار .

كان على ايفان ايليتش ان يذهب الى قيادة الجيش ، ويبلغ وصول السفينة بحمولتها من الذخيرة ، ويقدم ورقة الشحن . ولكن اين يجد هذه القيادة ! لا شيء حوله غير حوانيت مغلقة بالالواح ، ونوافذ خالية من الحياة ، ولافتات الرقع يحديدها وتخيل اليك انها ستسقط في اللحظة التالية . وفجأة اعترض سبيله عسكري صاح اليه وهو يالم من خلال اسنانه ، وشتم غاضبا . اعتذر ايفان ايليتش ، والقى عليه نفس السؤال عن القيادة . فاذا به يتبين ان الرجل الذي امامه هو سيرغي سيرغييفيتش سابوجكوف ، قائد فوجه السابق . وقال سابوجكوف :

– ما لك مندفع كالمجنون . سلام .

هم ايفان ايليتش بان يعانقه ، الا ان سابوجكوف تنحى قائلا :

– دعك عن هذا . حقا . تمسك بالهدوء . من اين جئت ؟
– جلبت سفينة الى هنا .
– يا للعجائب ! انت حي ترزق ؟ خذاك يتعقلان من العافية ! هذا هو الصنف الروسي ! تريد مقر القيادة ؟ انه هنا . اين نزلت ؟ بالطبع ، لم تنزل في مكان ما . حسنا . سانتظرك .
ودخل مع تليغين في مدخل بيت آجرى يبدو من بيوت التجار . واشار الى حجرات القيادة في الطابق الثاني :
– اسمع . يا ايفان . انا منتظرك . . .
كان ايفان ايليتش قد شاهد مقر قيادة سوروكين وجيوش الجبهة الجنوبية ، حيث لا يستطيع المرء ان يعثر على الحجرة التي يريدها ، فقد كان الجميع يكذبون وكانهم على القال ، وفي كل مكان دخان التبغ ، وكاتبات الآلات الطابعة يضربن على آلاتهن بقعر ، والمرافقون يتنقلون من باب الى باب مهيبين بسناطيل ركوب الخيل . اما هنا فكان الهدوء . وقد وجد الباب المطلوب حالا . كان ضابط الخفر يجلس عند نافذة مترية لا يكاد النور ينفذ من خلالها . وقد رفع وجهه المضنى العليل وثبت بصره في تليغين دون أن يحرك جفنيه المحمرين . واجاب :
– لا يوجد احد . القيادة في الجبهة .
– اسمح لي ان اتصل بالقائد . يجب تسليم الحمولة بسرعة .
رفع الضابط الخفير جسمه برخاوة وجل الابله الارق ، ونظر في النافذة . فراى سيارة قد وصلت من توها .
– انتظر .
قال ذلك بهدوء ، وتابع تصنيف المراسلات والتقارير في عدة اضبارات ، وكان بعضها مكتوبا بالقلم الرصاص لا يتبين الانسان من محتوياتها سوى عظمة نفس كاتبيها المبهمة البسيطة .
دخل اثنان يرتدي احدهما معطفا استراخانيا ، ويتدلى منظار من رقبته ، وعلى جنبه سيف خيالة تقيل في محمل من الجلد الخشن ، والثاني في معطف من معاطف الجلود الطويلة ، وقبعة من تلك التي يرتديها عمال بطرسبورغ في ايام الشتاء ، وكان لا يحمل سلاحا . كان وجها الرجلين داكنين من الغبار . قال الخفير :
– صلح الخط المباشر مع موسكو .

توقف الرجل ذو المعطف الاستراخاني في الحال ، وكان فتيا له عينان بنيتان مستديرتان مرحتان «شيء ممتاز !» اما الآخر ذو المعطف الذي لطخه الوحل فقد اخرج منديلا ، ومسح به وجهه النحيل ، محاولا ان يزيل اكبر قدر من الغبار من شاربيه الاسودين . واحس تليغين بأن عينيه اللامعتين بجفنيهما المرتفعين الرقيقين تثبتان عليه بصرهما .
قال الخفير :
– الرفيق جاء ببلاغ لكم .
وكان ايفان ايليتش يرى هذين الرجلين لأول مرة فلم يعرف من هما ، فتردد قليلا . ومال الضابط الخفير نحوه وقال :
– تحدث ، يا رفيق ، هذا هو المجلس العسكري للجبهة .
اخرج تليغين اوراقه ، وابلغ . تبادل الرجلان النظرات بعد ان سمعا بان سفينة محملة بالذخيرة قد وصلت من توها . تناول الرجل في معطف الجندي ورقة الشحن ، بينما راح الثاني يمرر عينيه على سطورها من وراء كتفه متلهفا ، بل ان شفتي فمه الصغير تحركت ترددان ارقام كمية العتاد والقنابل واشرطة الرشاشات . . .
سأل الرجل في المعطف العسكري :
– كم عددكم في السفينة ؟
– عشرة بحارة من بحارة البلطيق ، ومدفعان للميدان .
وتبادلا النظرات ثانية . وعاد نفس الرجل يقول :
– املأ الاستمارة . في الساعة الخامسة بعد الظهر عليك ان تكون مع طاقم السفينة امام قائد الجبهة – وادار بحركة متمهلة يد جهاز التلفون الذي صرف صريفا جافا ، واتصل بشخص ما ، وهمس له ببعض الكلمات ، ووضع السماعة ، وقال : – ايها الرفيق الخفير ، جهز على الفور اكبر عدد ممكن من العربات . وللتفريغ استعن بعمال صنع المدافع . تأكد من التلبية ، وابلغني .
وذهب كلا الرجلين الى الغرفة المجاورة . واخذ الخفير يدير يد التلفون ، وراح يكرر بصوت مكتوم : «السم النقل . . . الرفيق احمد . . . لا يوجد ؟ اتل ؟ اعطني خفيرا آخر . مقر قيادة الجبهة يتكلم . . .» جلس ايفان ايليتش ليملأ الاستمارة . وكان الامر واضحا : الحضور امام القائد ، يعني الذهاب الى الخنادق رأسا .

استرخى ايفان ايليتش على السفينة ، واذا به يشعر الآن ، وهـو يخرش بالقلم الذي يحشر على الورق ، بحركة الارادة المألوفة التي تكررت كثيرا خلال هذه السنوات ، حتى كان يتراجع الى الخلف كل ما هو ساكن ذاتي' شخصي في الانسان ويتضاءل حرصه على حياته ، وسعادته ، ليحل في محله بقوة غير منظورة ايفان ايليتش آخـر انسان يبالي قاس عازم .

كان ما يزال لديه وقت كثير حتى تحل الساعة الخامسة . سلم تليغين استمارته وخرج الى الممر . نهض سابوجكوف بسرعة من الاريكة الخشبية .

– هل فرغت ؟ لنذهب الى مكان ما .

ونظر بابتسامة ساخرة الى تليغين الداخل . وكان سابوجكوف على حاله عصبيا متوترا ، وكأنه يعرف ما لا يعرفه الآخرون ، الا ان مظهره الخارجي قد تغير كثيرا . فقد اضحى وجهه الوردي صغيرا مثل وجه عجوز . اوضح له تليغين بان عليه ان يعرج الى رصيف النهر ، ويجمع طاقم السفينة ، ويفرغ الصناديق .

– مؤسف . ولكن ما العمل ؟ لنذهب الى الرصيف . مضت ثلاثة اشهر ، يا ايفان . وبلغ بي الامر في المستشفى الى حد انني كنت اكتب «يوميات مثقف سابق» . ولم اعد اشرب ، يـا اخ ، نسيت . . .

كان سابوجكوف متأثرا جدا في لقائه بايفان ايليتش . خرجا من البناية . ودفعتهما الريح في الشارع نحو الفولغا المعتم المتنفس بامواج مزبدة طويلة .

– اين الفوج ، يا سيرغي سيرغييفيتش ؟ لماذا انفصلت عنه ؟

– لم يبق من فوجنا شيء في الواقع . لا وجود الآن لهـذا الفوج في الجيش الحادي عشر .

نظر تليغين اليه صامتا . وفي نظرته ذعر . بدا سابوجكوف يروق حاجبا عينيه عن الغبار بيده .

– التقينا في ضيعة بيسكوبني . هل لك علم بمأسـاة الجيش الحادي عشر ؟ ان القائد العام سوروكين فعل من الامـور ما يستحق عليه اكثر من ثلاثة اعدامات ، ابن الكلب ذاك . فقد اخفى عن الجيش امر المجلس العسكري الثوري لتسارتسين القاضي

بقطع الجبهة والالتقاء بالجيش العاشر . ولم ينفذ هذا الأمر الا من قبل فرقة شيلست وحدها ، واتجهت نحو تسارتسين ، وهذا فقط لان سوروكين اعتبر شيلست خائنا وامر باعدامه رميا بالرصاص . وتمرد الامر . انقطعنا عن مينيرالنيه فودي . وانقطعنا عـن ستافروبول ، حيث هلك جيش تامان . وفي حالة ذعر ترك سوروكين احتياطات الذخيرة في تيخوريتسكيا . وكانت خيالة الجنرال شكورو تضغط علينا من الجهة اليمنى وخيالة فرانغيل من الجهة اليسرى . فتراجعنا شرقا في سهوب بلا ماء . . . ولم يبق من فوجي غير سرية واحدة . وكنا ننام اثناء سيرنا ، لنتخلص من العدو ، وشققـنـا طريقنا عبر مستنقعات ، ولم يكن لنا طعام ناكله ، ولا ماء نشربه . . . لا شيء في ذلك السهب اللعين غير الرياح القارصة ! احيانـا كان يسقط انسان وفرسه متجمدين وتغطيهم الرمال . . . ووصلنا الى ضيعة بيسكوبني . فلم نجد فيها انسانا ولا دجاجـة ، وحتى الكلاب اكلتها القوزاق . اما البيوت فكانت ابوابها مفتوحة . . ووجد الشبان حليبا فشربوه بكل قوة عطشهم . فهمت ؟ واذا بهم يتلوون على الارض ، ولم يبق احياء منهم غير حوالي ثلاثين شخصا . . . وفي الفجر طوقونا طبعا بالرشاشات ، وقضوا علينا . . .

وبينما كان ايفان ايليتش يصغي كان يسرع خطاه حتى تعثر .

– وانت ، كيف ؟

– الشيطان يعلم . لقد اسعفني الحظ . . . جرحت منذ البداية ، في بطني ، واصيبت اعصابي او شيء من هذا القبيل ، وفقدت الوعي . . . ومنذ تلك الساعة بدات اعيد النظر في الكثير مـن الاشياء . وبينما كنت منبطحا تحت الجدار غراقي ، وحملوني الى كومة قش ، وغطوني بالقش . . . يعني احتموا بي في مثل هـذا الوقت . . – اؤكد لك اننا لا نعرف شعبنا ولم نعرفه قط . . . يقول الناس عني انه وحش همجي . بينما يقول ميريجكوفسكي انه رعاع ورعاع المستقبل ايضا . . . هل تذكر حديثنا في عربة القطار ليلا ؟ كنت سكران ولكنني لم انس شيئا . اين كان يكمن الخطأ ؟ الفلسفة والمنطق في حاجة الى هدف يصححهما . مثلما يحتاج التصويب الى هدف منظور . وهذا الهدف هو معرفة ضيقة لتجارب الحياة . . . ان الثورة شيء ، وعساولتيل كانت شيء آخر !

— سيرغى سيرغيفيتش ، وماذا حدث بعد ذلك ؟ . .

— بعد ذلك . . . خرجت من التقش ليلا . في الغميمة كانوا يغنون الاغاني . يعنى ان المنتصرين قد سكروا . اصطدمت بجثة مقطوعة القوائم ، وباخرى . وفهمت كل شىء . . . واخذت حصانا ، وانطلقت في السهب ، حيث قضيت عدة ايام مؤلمة . . . والتقطتنى فصيلة من خيالة بودونى ، وهو فارس في سهوب سالسك . . . واوصلونى الى محطة كويرلى ، ومن هناك الى هنا . وهنا بقيت طويــــلا في المستشفى . . . وبقى دفتر الخدمة والوثائـــــق في معطفى ، في التقش . . . اتذكر معطفى ؟ انك لن تحصل على مثله الآن . . .

— اسمع ، وهل قتل غيمزا ايضا ؟

— فقدنا غيمزا منذ زمان مع صف من العربات . وقد اصيب بحمى تيفوس شديدة . . .

— يؤسفنى امر غيمزا .

— الجميع ماسوف عليهم ، يا ايفان . لا ، انا اكذب . ليس ذلك اسفا . . . لقد تعودت على الفوج ، وليس من اللائق ان ابقى وحدى حيا . . انا لا اجد مكانا لى ، يا ايفان . ذهبت الى مقر القيادة ، وطلبت سرية على الاقل . . . انا افهمهم جيدا . فانا رجل غير معروف لهم ، وليس لدى غير البطاقة العسكرية . . . تكلم عنى في القيادة ، ارجوك . . .

— بالطبع ، يا سيرغى سيرغيفيتش . . .

— ان احسن شىء هو ان تضمنى الى الفصيلة ، كلمـــــة شرف . . مساعد على الاقل ، جندى الاتصـــــال . . . انظر ما فعــل القــدر بنا . . . هـــل تذكـــر كيف كنبنـــا الاشعار في شقتك ، واخفنا البرجوازيين ؟ كل شىء لا يذهب سدى ، وكل شىء يخلف اثرا . عبثت ونسيت . . . واذا بك تجد نفسك امام لوحـــة جبارة يقف لها شعر رأسك . اسمع ، هل تذكر كيف عثرت عليك في زريبة عند الالمان ؟ كانت غارة عظيمة ! ثم حين كسرت سيفى . . . لطيف جدا اننا نلتقى من جديد . . . انت تبدو في صحة ممتازة ، يا ايفان . لقد تعلقت بك ، او شىء من هذا القبيل . . . اسمع ، واين زوجتك ؟

وانقطع حديثهما . فقد لحقت بهما العربات التى انطلقت مسرعة نحو الرصيف .

. . . .

هبط غروب هائل كئيب وراء سطوح المدينة ، مـــن خلال دوامة الغبار ناشرا حمرته الضموية في السحب المتحركة . وتحرك تلع الليل دائرا فوق الفولغا . وكانت العربات المحملة التى يحرسها العمال المسلحون قد اقلعت منذ وقت بعيد . والمقر الشـــاطئى : ابتعدت السفينة عن المرسى ، وسارت مع التيار ثم ارست دون ان تشعل الاضواء .

وجلس البحارة يسترهم المحزمة وراء حاجز المرسى محجوبين من الريح صامتين لا يدخنون ، ومعهم القنابل اليدويـــة واكياس الاطعمة والبنادق . وقد عرفوا من احاديث العمال ماذا كان يجرى في هذه المدينة الخالية المضاءة بغروب دام كدر . وكانت الامور لا تبعث على الفرح .

كان ايفان ايليتش ينتظر الخيول لتفريغ المدفعين ، وينظر في ساعته قلقا ، وقد تلفن عدة مرات الى مقر القيادة . واتضح ان الخيول قد ارسلت ، وامروا الفصيلة بان تاتى مع المدفعين الى المحطة . خرج ايفان ايليتش الى سطح المرسى متغلبا على قوة الريح المطبقة على الباب . فوجد انيسيا نازاروفنا امامه .

— لماذا انت هنا ؟

سكتت مطبقة شفتيها ، وخفضت رأسها ازاء نظرته . كان شال مهلهل مرقع ، يبدو حاميها الوحيد من البرد ، مشدودا على كتفيها ، ووراء ظهرها كيس من الجنفاص . قال ايفان ايليتش :

— لا ، لا ، لا . انزلى الى السفينة ، يا انيسيا . لست بحاجة لك في فصيلتى .

بينما كان الرجـــال يسحبون المدفعين عبر المعبر الخشبى الى رمل الساحل ويشدونهما الى الخيول . انطفأ الغروب في السحب واتشح النهر بالضفاف الداكنة . سارت الفصيلة نحو المدينـــة وهى تحث الخيول المشـــدودة الى المدفعين . اقبل شاريغين نحو ايفان ايليتش ، وقال بصوت خفيض :

— ماذا سنفعل مع انيسيا ؟ الرفاق يطلبون ان تبقى مع الفصيلة . . .

وفى اللحظة التالية ابتعد لاتوغين عن عجلة المدفع ، وتقدم نحو ايفان ايليتش من الجهة الاخرى :

— ايها الرفيق القائد ، انها بمثابة ام لنـــا ، انت تعرف ما الجبهة . . . يمكن ان تأتى بشىء وتساعد وتغسل قميصا . . . انها امرأة قوية الشكيمة ، ولو كانت عادئة المظهر ، ظلت متعلقة بنا تعلق الكلبة ، ما العمل . . .

وكانت اتيسيا وراء ايفان ايليتش ، كانت تسير مع العصيلة مطرقة الراس ايضا . قال شماريغين :

— لنقل انها ممرضة غير متدربة . . . شىء رقيق . . .

وهز ايفان ايليتش راسه : «صحيح . الا ايضا اردت ان ابقيها» . عاد لاتوغين ثانية الى عجلة المدفع ، وامسك بها ، وصاح بالخيول التى كانت تجاهد بكل قوتها لتصعد المرتفع «هيا ، يا لطاف ، اصعدى !» وكان الرمل المتطاير من المرتفع يتناثر على العصيلة ، ويدور مجنونا . واخيرا سارت العجلات على ارض الشارع . كانت البيوت التى لا تكاد تبين مظلمة وما من نافذة مضاءة فيها ، وكانت الاسلاك على الاعمدة تطن طنينا شديدا ، وتطقطق اللافتات . وكان ايفان ايليتش يسير مبتسما . «ها انت قد تلقيت درسا ، وضربت على انفك ، اى ، ياقائد ، لا اراك مراعيا شعور الناس ، صحيح . ولا اعتراض عليه . . . استلقيت على جنبك من نيجنى حتى تساريتسين ، مصغيا الى الثرثرة ، ولم تعرف اى اناس هؤلاء الفتيان . . . انظر اليهم يمشون مشية البحارة المتمايلة ، والريح تعبث بالاشرطة على قبعاتهم . . . لماذا ربطوا مصيبة اتيسيا ومصيرها البائس بمصيرهم بدون مناقشة ، وفى ساعـــة كهذه ، حين امروا بترك الحياة السهلة على السفينة ، والزحف خلال الزوابـــع الرمليـــة الباردة ، فى هذا الظلام ليحاربوا ويموتوا ؟ هل هم بواسل الى هذه الدرجة ؟ لا ، كلا ، انهم يبدون اناسا اعتياديين للغاية . نعم ، لست بالقائد ذى الشأن ، يا ايفان ايليتش . . . الجاهل . . . القائد الجيد هو الذى يحفظ فى اصعب الاحوال نفسية كل مقاتل مهما كانت معقدة . . .» .

واستبد به قلق شديد من حديثه الاخير مع سابوجكوف ، ومن حادثة اتيسيا التى قد تبدو غير ذات اهمية . ووجه اللـــوم

لنفسه ، قبل كل شىء ، واتهم نفسه بالانانيـــة ، واللامبالاة ، والارتخاء وكمد الذهن . . . فى مثل هذا الوقت جعل خديه يشتعلان ، وحتى سيرغى سيرغييفيتش لاحظ ذلك . . . وبينما هو يفكر وقع على فكرة اخرى ، واحس فجأة بالدفء ، وبان قلبه يهنأ بلحظـــة عذبة . فقد كان وراء كل هذا التدقيق مع النفس فكرة خفية ، هى ارجاع حب داشا السابق لنفسه . . . ثم نخر فى هبـــة غبار بعيدة من وراء منعطف ، فطرد من ذهنه هذه الافكار غير المناسبة كليا .

فى المحطة تلقى ايفان ايليتش امرا بتحميل المدفعين فورا ، واتخاذ مواقع المدفعية فى منطقة محطة فوروبونوفو . وقد سلم له الملاحظ الامر ، وهـــو شـــاب فاره ذو عينين رهيبتين سوداوين قريبة من الاذان ، وشعر نام على خديه . ارتبك ايفـــان ايليتش بعض الشىء ، واخذ يشرح له بانه ليس مدفعيا ، بل من المشاة ، ولا يستطيع ان ياخذ على عاتقه مسؤولية قيادة بطاريـــة ، قال الملاحظ بخفوت وتهديد :

— هل مفهوم لك الامر ، يا رفيق ؟

— مفهوم ، ولكننى اوضح لك ، يا رفيق . . .

— فى اللحظة الراهنة ليست القيادة بحاجة الى توضيحات . هل تدرى تنفيذ الامر ؟ . .

«اوه ، يا للشيطان ، كيف يتحدثون هنا» فكر ايفان ايليتش مع نفسه ، ووجد نفسه يؤدى التحية العسكريـــة : «حاضر !» واستدار ، وسار الى السكة .

كانت الامور فى هذه المدينة لا تشبه الامور فى اية مدينـــة اخرى . ففى محطات المدن الاخرى مثلا ، اذا كنت تريد الذهاب الى اى مكان كان عليك ان تسيـــر خلال جمـــوع من البرجوازيين المتنكرين المستلقين جنبـــا الى جنب والجنود الهاربين والفلاحين والنساء مع اكياس يخرج منها قبل ذلك او يقبع فيها خنزير . اما هنا فلا يوجد احد ، بل تبدو الارض مكنوسة رغم ان الغبار الذى تطلقه الريح خلال النوافذ المحطمة كان يغطى بطبقة كثيفة الملصقات على الحيطان ، وحانوت المرطبات الذى تركه صاحبـــه منذ زمان ، وحتى الاحاديث كانت تدور هنا بطريقـــة خاصـــة —

باختصار وتحفز » كما يتحدث الانسان واصبعه على الزناد .

تسلم ايفان ايليتش قاطرة وامرا بالشحن بسرعة دون جهد زائد ودون صياح . تلقى الى مقر القيادة وسألهم عن سابوجكوف فاجابوا : «حسنا ، خذه على مسؤوليتك . . .» وكان الطاقم قد بدأ بشحن المدفعين على عربتى شحن على ضوء المصابيح المتأرجحة . وقف ايفان ايليتش يتمعن فى وجوه البحارة . هذا هو غافين من مدينة توفقورد بوجهه القاسى ذى التجاعيد العميقة ، والشعر الأسود الساقط من تحت طاقيته على جبينه حتى جفنيه ، وهذا بايكوف الهزل المتكبر ذو اللحية العريضة المغبرة التى تبدو معلقة فى وجهه الصغير ، والرأس المستدير القوى كالجوزة ، وهو من الشمال ، وكان رفاقه التسعة قد امسكوا بعجلتى المدفع دافعين اياها على اللوحين المنحدرين ، بينما كان بايكوف يجلس مقرفصا تارة ، وناشرا من الجانب الآخر تارة أخرى مرددا : «يتحرك ، يتحرك ، يا اولاد . اضغطوا . هيا . . .» بل ان احدهم لكزه بركبته : «اضغط انت ، يا رجل ! . .»

وهذا لاتوشين من نيشني نوفغورد بوجهه العريض المنم عن جسارة ، والانف المعوج الذى لا بد انه انكسر فى عراك ، الرجل الشديد البأس المتوسط القامة ، الذكى ، الخطر عند الشجار و«الشرس» مع النساء . . . وهذا زادوريفتر . . .

وتقدم منه شاريغين :

— ايفان ايليتش ، اتعرف اين تقع فوروبونوفو ؟

— لا اعرف شيئا هنا .

— انها قريبة . عند تساريتسين تماما . وهناك تقع الجبهة . . يقولون ان البيض يضغطون . . . بالمدافع والدبابات يتبعونها على عربات .

والطائرات . . . كما ان وراء القوات حوالى مائة الف من القوزاق

كان شاريغين يتحدث بخفوت وانفعال ، لمعت عيناه الزرقاوان ، وارتعشت شفتاه الجميلتان وهو يبتسم . لجهم تيليغين .

— الم تجابه بكل هذا فى المعارك الجدية ، يا شاريغين ؟

فتوهج وجه شاريغين ، وصعد الدم الى انفه الصغير ، واحمر تماما . فتابع تيليغين قوله :

— اتستحى ان تقلق من سماع الاهوال . . . كل ذلك لاثارة الذعر . . . هل اهتممت بطعام الفصيلة ؟

— حاضر !

ورفع شاريغين كفه الى طاقيته بالتحية ، وهو ما لا يفعله بانفه . وتألق وجهه ، وكان فتى طيبا سريع الانفعال ، ولكن لا بأس ، سيجتاز الامتحان . ذهب ايفان ايليتش الى عربة البضاعة التى كانوا يربطونها وراء العربات المكشوفة الحاملة للمدفعين ، فرأى سابوجكوف يركض على رصيف المحطة منفعلا ، وقد تأبط كيسه وسبقه .

— ايفان ، تحدثت عنى ؟

— كل شىء على ما يرام . ينا سيرغى سيرغيفيتش . . . اركب .

صعد سابوجكوف الى عربة البضاعة . وكانت انيسيا تجلس فى ركن منها على كومة من امتعة البحارة .

انزل المدفعان قبل الفجر على مسافة قريبة من فوروبونوفو ، وهى محطة على الخط الحديدى الغربى ، ونصبا تحت تصرف احدى كتائب المدفعية . وهناك عرف تيليغين وفصيلته ان الاوضاع فى الجبهة صعبة جدا . وكان خط الاستحكامات يمتد بالقرب من فوروبونوفو بشكل قوس يمتد حوالى عشرة فراسخ عن تساريتسين ابتداء من عند محطة كوترباك شمالا ، وانتهاء عند ساريبتا جنوب تساريتسين . وكان قوس الاستحكامات هذا يمثل خط الدفاع الاخير . وفى المؤخرة ووراءه تمتد سلسلة واطئة من التلال ، وابعد منها ينحدر سهل حتى المدينة نفسها . وكان التراجع يعنى النزول الى امواج الفولغا الثلجية .

كانت الريح بالامس قد بددت السحب ، وجمعتها عند حافة السهوب فى دجنة حالكة . طلعت الشمس خالية من الدفء . وكان السهل البنى المسطح يمور بعدد جم من الناس : بعضهم يحفر

الارض ، والآخر يدق الاوتاد ، ويمد الاسلاك الشائكة ، ويقصم اكياس الرمل . ومن تساريتسين كانت تأتي قطارات البضاعة محملة بالناس ، فينزلون منها ، ويتفرقون ، ويختفون في الارض . وكان آخرون يخرجون من تحت الارض ويتجهون نحو المحطة متعبين . وكان يبدو وكأن كل سكان المدينة القادرين على حمل رفش قد سبقوا الى هنا للعمل ، ارادوا ام لم يريدوا . . .

جاء فريق من هؤلاء ، حوالى خمسة عشر شخصا من مختلف الفئات من كلا الجنسين ، الى موقع بطارية تليفين يترأسهم مهندس عسكري عجوز ضئيل البنيان .

وقد هتف بصوت اجش مطلما شاربيه الاشيبين من لفاع وبري سميك ملفوف عليه :

– ايها المواطنون ! ان مهمتكم بسيطة . اريد ان تقيموا متراسا ارتفاعه نحو ١٤ ذراع . خذوا التراب من هنا ، والقوه هناك حتى يصل الى هذه العلامة على الوتد . . . تفرقوا خطوة ، وانكبوا على العمل بهمة !

وصفق بيديه العصفورتين المورودتين من البرد ليشجعهم ، وخرج من الحفرة بسرعة . شيعه الناس بنظرات مشبعة بالحنق . هزت امراة وجهها المستدير في اثره :

– اخجل ، يا غريغوري غريغوريفيتش ، اخجل !

وبقي الآخرون واقفين ، حاملين الارفاش بشكل يوحي بأن هذه الارفاش بالذات هي الادوات الفظيعة للدكتاتورية البروليتارية. ولم يشرع بحفر الارض غير فتى غليظ الشفة بارز الحنجرة كان مسرورا جدا في ان يكون في المواقع الحربية ، الا انهم عسوا به في الحال :

– اخجل ، يا بيتيا ، اترك العمل حالا . .

وشرعوا يتحدثون جميعا مخاطبين شخصا ذا وجه اصفر عصبي كان حتى ذلك الحين يقف مقمشا المبنى ، مترنحا بعض الشيء . وكان معطفه الرسمي لموظف وزارة المعارف قد شد بحبل في تحد .

– لماذا صمت ، يا ستيبان الكسييفيتش ؟ . . انتخبناك . . . وننتظر منك . . .

رفع جفنيه باستشهاد ، واختلج خداه .

– سأتكلم ، يا سـادة ، ولكن ليس مـع غريغوري غريغوريفيتش . . يجب ان نلبس الحداد جميعـا على غريغوري غريغوريفيتش . . .

وفي تلك اللحظة انقذفت حجارة من المتراس ، وظهر فوق الحفر بوز حصان يعض الشكيمة باسنانه ، ومن الاعلى انحنى من السرج فارس عريض المنكبين ، محمر الخدين ، ملتح يضع على رأسه قبعة كوبانية . فلعص عينيه ، وسأل ساخرا :

– الا تستطيعون ، ايها المواطنون ، ان تقرروا اتعملون ام لا ؟

عندئذ تقدم ستيبان الكسييفيتش قليلا الى الامام بمعطفه المشدود بحبل ، ورفع رأسه الى الفارس ، واجاب برقة مقنعة ، كتلك التي نستعمل مع الاطفال في الدرس :

– يا رفيق ، انت الرئيس الكبير هنا ، على قدر معرفتي . . . (هز الفارس رأسه مرحا ، وربت بيده المقفزة على حصانه الواقف يخفر على حافة الحفرة) . يا رفيق ، باسم فريقنا الذي جند الليلة بالقوة على اساس قوائم لا يعرف احد عنها شيئا ، اعلن عن احتجاجنا القاطع . . .

فقال الفارس الملتحي ، ولكن بلهجة مهددة هذه المرة :

– اها !

– نعم ، نحن نحتج ! – وتقطع صوت ستيبان الكسييفيتش – انتم تضطرون ناسا غير قادرين على العمل العضلي ، على ان يحفروا الخنادق . . ان ذلك اسوأ اوقات التحكم . . انتم تمارسـون العنف ! . .

واختلج خداه كلاهما ، واغمض عينيـه ، لأنه تكلم كثيرا جدا ، وتأرجح وجهه الاصفر المرتوع . . . نظر الفارس اليه وقد تقلصت عيناه ، وارتعش منخراه الكبيران ، وانطبق فمه بقوة . نزل من الفـرس ، وهبط الى الحفرة ، وضرب بطرف الركوب ضربة واحدة ، وقال :

– بالضبط . نحن نضطركم للدفاع عن تساريتسين ، اذا انتم لا تستطيعون ذلك اختيارا . فلماذا يضايقكم هنا ؟ . . هيا ليعطني احدكم رفشا .

ودون ان ينتظر مدّ يده الكبيرة بقفازها البني ، فاسرعت تلك المرأة الممتلئة المستديرة الوجه لتقدم رفشها اليه ، وكانت طوال الوقت لا تصرف عنه عينيها الذاهلتين .

– لا حاجة لأن نتشاجر . ان ذلك سـوء تفاهم محض – وغرس الرفش ، وقلع التراب ، والقـاه بقوة على المتراس في الاعلى – نحن نحارب ، وانتم تساعدونـنـا . وعدونا واحد . . . فالقوزاق لا يرحمون احـدا . سيسلخون جلدي . وسيجلدونكم واحدا واحدا ، ويقتلون بعضكم بالسيوف . . .

كان يضطرم بالعافية والقوة كمـا يضطرم الموقد . التقط بعض الارفاش من التراب . والقى نظرة سريعـة على الواقفين . «هيا» وربت على كتف الفتى ذي الحنجرة البارزة ، وعلى آخر لطيف المظهر ابيض قليلا له رموش بلون القش . «هيا ، لنريهم كيف يكون العمل» . ابتسم الشابان بارتباك ، وشرعا يحفران ويلقيان التراب . وهز الاخرون اكتافهم ، ثم اخذوا الارفاش وبداوا العمل . وقالت السيدة ذات الوجه المستدير : «وانا ايضا ، اسمحوا لي» وتعثرت برفشها . فامسكها الآمر الملتحي ولا بد ان قبضته كانت قوية ، فقد احمرت وبدا عليها المرح . وخشي ستيبان الكسيليتش ان يظل وحيدا ، فقال بصوت عال :

– ولكن كيف ذلك يا رفاق . الثورة ، والعنف ؟ الثورة قبل كل شيء هي ضد العنف .

اجاب الملتحي بصوت رنان :

– الثورة تطبق العنف ضد اعداء الشغيلة ، وتحقق هي نفسها عن طريق هذا العنف . مفهوم ؟

– . . . ولكن هذا ضد الاخلاق . . .

– . . . تطبيـــق البروليتاريـا العنف عليكم ليتحــرر العالم كله من العنف .

– اسمح . اسمح . . .

– لا ، – قال الرئيس بقوة – لا اسمح لك . لقــد اخذت تشاكس ، وذلك تخريب . خذ الرفش . . . يا رفـــاق ، بعض

يستطيع ان آمل بان المتراس سيكون جاهزا في الساعة الحادية عشرة . الى اللقاء . . .

كان البحارة يستمعون الى هذا الحديث من بعيد ، ويغالبون الضحك . وعندما غادر رئيس مدفعية الجيش العاشر انبروا على المتطوعين للمساعدة ولكيلا تتراخى همتهم .

٤

كان فوج بيتر نيقولايفيتش ملشين يتراجع مع الفرقة كلها على طول الجهة اليسرى من الدون صادا ليل نهار الوحدات الامامية للطابور الثاني التابع لجيش الدون المجهز بشكل جيد ، والمؤلف على الطريقة النظامية . كان رجال فوج ملشين قد انهكتهم المعارك والمسيرات الليلية ، بلا طعام ساخن ، ولا نوم ولا راحة . وكان قوزاق كراسنوف يعرفون جيدا كل وهدة ، وكل منخفض مائي في تلك السهوب ، ويحصرون الخصم في الاماكن الملائمة لهجومه . في الفجر بدات وحدات مشاتهم في اطلاق النار لصرف الانظار ، بينما كانت خيالتهم تشق طريقها خلال الوهاد والمنخفضات من الجانبين ، وتهاجم بشكل مباغت وبضراوة وصفير وصياح .

وكان ملشين يقول للمقاتلين «الصمود ، يا رفاق ، هو اهم شيء . قوتنا في التلاحم . ونحن لا نهاب هؤلاء البراميث ، فنحن نعرف الغاية التي نقاتل من اجلها ، والموت هين لنا . القوزاقي جريء ولكنه طماع ، وهو يريد غنيمة ، ولا يريد ان يفارق حياته ، ويحرص على فرسه اكثر من اي شيء آخر» .

سارت سرية ايفان غورا كحراسة للمؤخرة مغطية طابور العربات ، حيث كان الجرحى في كل عربة فيـــه . وكان من غير الممكن تركهم ، وما من مكان يتركون فيه . فقد كان القوزاق لا يأخذون اسرى . خيالة كانوا اومشاة ، وكانوا يجردون كل من نجا من المعركة ممن ذوي النجوم الحمر من ملابسهم ويذبحونهـم بالسيوف . وبعد ان ينتشوا من ذلك ينصرفون ناظرين الى الجثث المقطعة بقناعة ، ماسحين سيوفهم باعراف خيولهم .

لم يكن في الدون قط مثيل لتلك البغضاء الضارية التي ظهرت

فى القرى القتية . . . فقد جاء اليها معرضون من نوفوتشير كاسك ، وطاف الزعيم كراسنوف بنفسه فى بعضها . وبقرع الجرس جمعوا «حلقة انقاذ الدون» وحسب العادة القديمة خلعوا القبعات والحنوا ودعوا القوزاق الى شحذ السيوف وامتطاء الخيول : «حانت ساعتك ، ايها الدون الحر ، فانهض . . . سنزحف على تساريتسين كالسحابة القوزاقية الرهيبة ، ونقضى على وكر الشيوعيين اللعين ، ونطهر الدون من الجرثومة الحمراء . . . انهم لا يريدون ان يعيش الدون غنيا مرحا ! انهم يريدون ان ينتزعوا خيولنا وماشيتنا ، ويعطوا ارضنا الى الفلاحين القادمين من تولا واريول ، ويأخذوا زوجاتنا الى فرشهم ، ويرسلونا نحن ، القوزاق العمالقة ، ملح ارض الدون ، الى المناجم الى الأبد . . . لا تدعوهم يلوثون معابد الله ، ونافحوا عن محراب وطننا . لا تضنوا بالحياة . . . وسيقدم زعيم جيش الدون العظيم تساريتسين لكم لمدة ثلاثة ايام بلياليها» .

كان امر السرية ايفان غورا المديد القامة المكور الكتفين ذو الوجه المسود من السهر ، قد تعود فى تلك الايام على رؤية خيالة القوزاق يلوحون من بعيد فى الافق ، وعرف عاداتهم ، فلم يكن يأمر رجاله بالانبطاح دون فائدة ، بل كان يطلب اليهم ان يسيروا دون ان يلتفتوا الى الوراء .

سار طابور العربات فى المقدمة فى صف متراص عربة وراء عربة ، يعقبه الجنود فى مشية ثقيلة مهلهلى الثيـــاب ، نحيلين ، مطأطئى الرؤوس . وكان ايفان غورا نفســـه يسير فى المؤخرة كالثمل . قبل نصف عام كان رجلا قويا ، الا انه اصيب فى هذا الصيف بجرح فى رأسه اثر ضربة بالفأس فى زريبة حين كان يصادر الحبوب ، ثم اصيب بارتجاج الدماغ فى معركة قرب محطة ليخايا . كان يسير نشيطا تارة ، ويطفو فى السير تارة اخرى . وامام عينيه الغائمتين تتراءى ذكرى لطيفة ما : الناس يجلســـون على جذوع الاشجار فى غسق الصيف ، وخطاف يطير محوما فوق رؤوسهم . . . او اعشاب خضراء وعليها وسادة عليها اغريبينا ضاحكـــة . . . وكان يطرد من ذهنه هذه الاحلام ، ويتوقف ، ويعدل وضـــع

البندقية على كتفه ، ويفتح جفنيه الثقيلين ، وينظر الى السائرين ، والى العربات بجرحاها المتقلبين ، والى السهب المنبسط المحروق الداخل فى روحه ، يندلع على امتداد البصر ، بنى الاديم موحشـــا متماوجا لا شجرة فيه ولا عمود تلغراف . ويتعثر ، ويهز رأسه . . . آه ، لطيف ان يسير الآن بجوار عربة ، ويضع يدا على حافتها ، ويغفو لحظة فى السير !

وها هم ثانية الفرسان الصغار فى طرف السهب ، وطلقات من هناك . ويصفر الرصاص ببراءة .

— انتباه ، يا رفاق ! يا مَن فى العربات ، لا تناموا ! . .

كانت فى العربة زوجته اغريبينا جريحة فى ذراعها . ووراء هذه العربة سارت داشا وكوزما كوزميتش .

ارتفعت فى الظلام صيحات ممطوطة . وتوقف طابور العربات . ومالت داشا على حافة العربة فى الحال ، ووضعت رأسها على يدها . ومن خلال تهويمتها سمعت ايفان غورا يقترب ، ويتكلم بصـــوت خافت مع اغريبينا الجالسة فى تلك العربة . . .

— اتمنى لو ادخن . . انني اكاد اسقط .

— لماذا توقفنا ؟

— استراحة حتى الساعة الخامسة .

— من قال لك ؟

— جاء مراسل .

— الق رأسك علىّ ، يا ايفان ، واغف .

— وهل هناك فرصة ؟ . . انظرى الى فتياتنـــا . . . كيف هدّهم التعب . . . وانت لماذا لا تنامين ، هل تؤلمك يدك ؟

— تؤلمنى .

صرفت العربة صريفا خفيفا . جلس نحوه اغريبينا . وزفر بصوت مثل حصان متعب .

— يقول المراسل : ان العدو يعبر الدون ومعه قوة هائلة ! ووراء الافواج يسير الرهبان مع الرايات ، والعربات تحمل براميل الفودكا . والقوزاق يهجمون وهم سكارى ، جزارين تماما . . .

— كلْ شيئا من الخبز ، يا ايفان .

اخذ يمضغ ببطء ، ويبتلع بعسر ، ثم تمتم :

— نحن على مقربة من الدون تماما . وعلى مسافة قريبة يوجد معبر . وقد اخذه القوزاق الى الضفة الأخرى . ولهذا السبب توقفنا . على ما اظن .

اهتزت العربة مرة اخرى . وانفصل ايفان غورا عنها ، وانصرف بخطوات ثقيلة . وهدأ كل شيء ! الناس والخيول . وكانت داشا تنفخ في كمها . . . مستخلى عن كل شيء من اجل لحظة مثل هذه من التحابب المكظوم مع من تحبه . اوه ، يا للقلب الحاسد الغيور ! عم كنت تفكرين من قبل ؟ وماذا كنت تنتظرين ؟ كان حبيبك العزيز على مقربة منك ، ولكنك لم تهتمي به وفقدته الى الأبد . . . ادعيه الآن ، واصرخي : ايفان ايليتش ، ايفان ، فانيا . . .

. . . ايقظها كوزما كوزميتش . كانت ترقد منطوية تحت العربة . كانت طلقات تتردد من بعيد ، وكان فجر اخضر ينتشر في الرحاب . وكان البرد شديدا جعل اسنان داشا تصطك ، واخذت تنفخ في اصابعها .

— داريا دميتروفنا ، خذي حقيبتك بسرعة ولنذهب . . . هناك جرحى . . .

ترددت الطلقات في الاسفل عند النهر حادة في سكون الصباح . نهضت داشا بصعوبة ، وقد تخدرت تماما من النوم القصير على الارض الباردة . عدّل كوزما كوزميتش عليها شارة الاسعاف ، وركض في المقدمة ، ثم عاد :

— اسرعي ، يا عزيزتي ، اسرعي . . . جماعتنا على مسافة قريبة . الا تسمعين انينا ؟ لا ؟

ركض ثم توقف مادا رقبته ، وتفحص ما حوله . لم تلق داشا بالا لذهابه ومجيئه ، ولكنها كانت تشمئز من جبنه هذا .

— عزيزتي ، انحني . الا تسمعين صفير الرصاص ؟

وكان كل ذلك توهما منه . فلم يئن جرحى ، ولم يصفر رصاص . وتوهج ضوء الفجر . والى الامام لاح نقاب ابيض . وكان النهر قد فاض على الضفاف . كان ذلك الضباب الخريفي الواطئ ينفرش فوق النهر . وعلى شجيرات الصفصاف العارية عند الشاطئ . وكان ايفان غورا يغوص فيه الى الوسط ، وكأنه يغوص

في حليب . وعلى مسافة ابعد جندي آخر في قبعة عالية وثان وثالث يلوحون حتى الحزام . كانوا يمدون ابصارهم الى ضفة الدون اليمنى العالية التي لم يصل اليها الضباب . وهناك ، وراء النباتات السوداء تصاعدت غيوما كثيرة من الدخان في الهواء الراكد .

وقد رآها كوزما كوزميتش ايضا . فبدا وكأن الغبطة قد غمرته . واتسعت عيناه وقال :

— انظري ، يا داريا دميتروفنا ، انظري ماذا يجري ! انهم جاءوا مع الجيش ليتهيأوا . مائة الف عربة . . . هؤلاء كالقبائل الرحل القديمة ! انظري : خيول غير مشدودة ، وعربات ! وعند النيران يضطجع رجال ملتحفون ومكاكينهم وراء جزماتهم . . انظري ، يا داريا دميتروفنا . . منظر يرى مرة واحدة في العمر . . .

ولم تر داشا عربات ولا خيولا ولا قوزاقا يضطجعون عند النيران . . ومع ذلك فقد احست برهبة . استدار غورا واشار لهم بيده ان يجلسوا في الضباب ، والتزم كوزما كوزميتش وكأنه مستغرق في قراءة رواية شيقة :

— حبذا لو ترى ذلك لمثقفينا . هنا ؟ حلم لا يروى . . . ارادوا دستورا ، وهذا هو ! ارادوا ان يحكموا الشعب الروسي . . . اي ، اي ، اي . . . اختلقوا الروايات عنه ، صبور وكسول وخانع . . . اي ، اي ، اي . . وهذا هو . . . يقف الى حزامه في الضباب رهيبا ذكيا ، يفهم كل مصيره ، وعيناه نافذتان في معاقل العدو . . . اي ، انظري الى هذه الجموع . . . لقد شحذت اسلحتها ، ولبست قفازها . . . لن تجدي ذلك في اي كتاب تاريخي . . .

وفجأة توقفت طلقات بنادق ورشاشات . وتوقف كوزما كوزميتش في نصف جملته . كان ايفان غورا واقفا في المقدمة فادار راسه . وانهبد انفجاران كامدان عند النهر في الاسفل ، وفي الحال اصطبغ الضباب بوهج ارجواني ، وتنامت صيحات بعيدة وتتابعت الطلقات من جديد .

— يبدو ان اصحابنا احرقوا المعدية على الضفة الاخرى — قال كوزما كوزميتش ذلك واطلع راسه من الضباب — مذبحة ، هناك ، مذبحة . . .

وركض ايفان غورا وصف من جنوده نحو الشاطئ منحنين ، واختفوا في الاجمة . انتشر الشروق عريضا على السهب . وشف الضباب واهتز وتمزق بين اغصان الصفصاف العارية . وارتفعت فجاة سيحات رهيبة فوق الشاطئ ، فوق نقاب الضباب عند النهر حتى ان داشا ضغطت قبضتيها على اذنيها . وانبطح كوزما كوزميتش على الارض .

ضربات ، وصلصلة ، وطلقات ، وعويل ، وطرطشة مياه ، وانفجارات قنابل يدوية .

ثم ظهر ايفان غورا من الاجمة . سار مبتلعا الهواء ، زافرا بقوة . وكان راسه خاليا من الطاقية ولكنه كان يحمل قبعتين قوزاقيتين عليهما شارتان حمراوان . تقدم من داشا وقال :

— سارسل نقالة ، فاركض سريعا الى النهر . هناك رفيقان يحتاجان الى تضميد . . .

ونظر الى القبعتين ، ورمى واحدة منهما ، ووضع الاخرى على راسه بحركة عصبية .

— اراد الاوغاد تطويقنا على القوارب . . . اذهبي ، لا تخافي . قضينا على الجميع هناك . . .



كانت شواطئ الدون تضج بين قريتي تيشنس - تشيرسكايا وكالاتش . فقد كانت افواج جيش الدون العظيم بخيالتها ومشاتها تعبر النهر على ثلاثة جسور عائمة وفي المعديات والزوارق . كانت الخيالة تسير بتشكيلة الزحف ، وهي في بزات جديدة ، وقبعات مائلة وخصلاتها التقليدية بارزة منها على الجبين ، حسب العادة ، والاعلام الصغيرة الملونة على رؤوس الرماح . والماء يتناثر من بين الواح الجسور من تحت حوافر الخيول الفتية التي كانت تحدج الدون الرمادي المياه بعيون زائغة .

كان المشاة من الشباب الغض يجتازون النهر بزوارق طويلة ، وقد فغروا افواههم ، وهم ينظرون الى التجمع الضخم للقوزاق والخيول والعجلات ، ويقفزون من الزوارق الى الماء ، ويتسلقون

الشاطئ العالي ، ويصطفون وبنادقهم عند اقدامهم ، ويخلعون قبعاتهم . وكان الشمامسة بخصلاتهم المتطايرة يصرخون كالوحوش ويرفعون بمباخرهم ، بينما كان القساوسة الذين يبدون كالاجراس الذهبية بحللهم المزهرة يباركون القوات .

كان الجنرال مامونتوف يراقب العبور وهو واقف تحت راية القائد العام على رابية امام ضباط القيادة والحراس . وكان منظورا جيدا من قبل الجميع في بزته العسكرية القوزاقية السوداء ، على صهوة برذون لطفي كان يضرب الارض بحوافره . كانت القوات تسير منشدة الاناشيد على قرع الطبول ، وخصل شعر الخيول على السوالجانات القوزاقية تتطاير في الهواء ، وكان هدير المدافع يسمع في شمال السهب المغلف بغبار القوات السائرة .

رفع القائد يده التي يتدلى منها السوط ، محتجبا عن الشمس ، ونظر الى الطائرات وهي تطير واجنحتها مائلة قليلا الى الوراء ، وعدها ، وراقبها حتى اختفت هابطة نحو الافق . مرت بالرابية المدافع الثقيلة التي انزلت لتوها من السفينة ، وقد رسموا على دروعها ومواسيرها خطوطا للتمويه . ومرت عربات تجرها خيول صغيرة مختلفة الالوان قصيرة القوائم شعث الاعراف وسواقها الملتحون يسوطونها بجنون . وقبل ان يهدا الغبار جاءت الدبابات الضخمة من الواح التدريع الموشمة وقد ارتفعت انوف جنازيرها المسننة . وعدها القائد . عشرة من الاهوال الفولاذية ستسحق الاوغاد الحمر في شوارع تساريتسين . نزل من الرابية وعدا بفرسه بمحاذاة الشاطئ ورايته الزرقاء السوداء تخفق وراءه مرفوعة بذراع حاملها .

وحملت القوارب قوات جديدة ، وسارت المعديات تحمل عربات العلف ومختلف الامتعة . وبالقرب من المعبر وقفت عربات مختلفة الاشكال منها عربات كبيرة تستخدم في حمل الحزم من الحقل . والقوزاق الموقرون والقفون بينهما بهدوء ينتظرون المعدية ، او سائرون او جالسون عند النار يدخنون . كان هؤلاء هم التجار الذين ارسلتهم القرى القوزاقية الى قواتها . وكانوا يقومون بالشؤون المعيشية وياخذون المغانم من النقود والماشية والحبوب والعلف او الاشياء الاخرى الضرورية من الملابس والبطانيات

والحشايا وتخشد الريش والمرايا والسلاح . ومن هذه المغانم كانوا يزودون قواتهم بالعتف والاغذية وبالملابس والسلاح اذا اقتضت الحاجة ، ويسجلون الاشياء الباقية فى قوائم ويضعونها على العربات ، ويرسلونها الى القرى بمعية الاولاد والنساء .

مرّ مامونتوف بضيعة ريتشكوف ، حيث احرق نصف البيوت ، والاهراء قد اسودت من الرماد ، واستدار بمحاذاة الخط الحديدى ، وانتظر قدوم القطار المصفح من الجبهة اليمنى .

كان جيش الدون المؤلف من اثنى عشر فرقة خيالة وثمانى فرق مشاة يهاجم بخمسة طوابير .

سارت الطوابير الخمسة كلها بزحف سريع نحو آخر خط لاستحكامات الدفاع عن تساريتسين . وكان الجيش العاشر الذى فقد الاتصال مع الوحدات الشمالية والجنوبية يتراجع متراصا فى جبهة تزداد ضيقا . واستنفدت فرقه الخمس بتعدادها القليل آخر الذخيرة وآخر القوى .

كان المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية الذى كان عليه ان يقدم مساعدة حاسمة للجيش العاشر مشلولا فى تلك الايام بالذات بفعل خيانة سرية حسنة الحبكة انعكست فى التاخير الشديد لجميع التحركات ، وفى الاصرار على ان الكفاح فى سبيل تساريتسين امر ثانوى ليس له اهمية وعلى ذعر مجلس تساريتسين العسكرى .

وتركت تساريتسين لتدافع عن نفسها ضد القوزاق بقواها الخاصة .

فى تلك الايام اصدر المجلس العسكرى للجيش العاشر امرين : اولهما بتسيير جميع السفن والصنادل والقوارب والمعديات من تساريتسين الى شمالها منعا حتى للتفكير فى تراجع القوات الى الضفة اليسرى من الفولغا . اما الثانى فكان يخص الجيش ، ويقضى بعدم التخلى عن المواقع المحتلة حتى صدور الاوامر . والتراجع عقابه الاعدام رميا بالرصاص .

مرّ النصف الاول من النهار هادئا فى بطارية تليغين . وترامى هدير المدافع وراء الافق ، الا ان السهل كان مقفرا . وكان

البحارة يحفرون ملجا . ذهبت انيسيا الى المحلة ، دون استئذان ، وعادت بعد حوالى ثلاث ساعات تحمل كيسين تنوء بهما : فى احدهما خبز وفى الآخر بطيخ . افرغت الكيسين وفرشتهما على الارض بين المدفعين ، وقطعت الخبز ، وقطعت كل بطيخة الى اربع قطع ، وقالت : «كلوا !..» وانتحت جانبا بسيطة راضية تنظر الى البحارة الجياع يلتهمون البطيخ . كان البحارة ياكلون دون ان يمسحوا خدودهم ، وهم يغدقون فى الثناء :

— عظيمة انت ، يا انيسيا ...

— من العسير ايجاد امرأة مثلك .

— ... امرأة نادرة حقا ...

وقال شاريغين الرصين الذى يدلى بدلوه فى كل حديث :

— انها صاحبة المبادرة ، وذلك المهم فى الموضوع .

رفع البحارة رؤوسهم من قطع البطيخ ، واطلقوا ضحكة صاخبة . عبس شاريغين ، ونهض ، وتناول الرفش قائلا :

— اقترح ، ايها الرفاق ، ان نحفر لانيسيا ملجأ منفصلا ، لان من الضرورى الحرص على مثل هؤلاء الناس ، يا رفاق ...

ضحك البحارة ، وراحوا يحفرون خندقا صغيرا لانيسيا فى منخفض وراء البطارية لتختبئ به عند اطلاق النار . ولم يكن هناك من عمل آخر . افرغت القنابل من السفينة ، وصفت صفوفا بالقرب من المدفعين ، ونقلت البنادق . واقام سابوجكوف الاتصال مع نقطة قيادة الكتيبة . استلقى البحارة فى الاخدود يتدفأون فى الشمس ، ولسان حالهم يقول : نحن على استعداد لاستقبالك ، يا جنرال مامونتوف .

جلس ايفان ايليتش على عربة المدفع ، ولوى نصلا جافا وكسره . ولم يكن يدخل فى مناقشات كبيرة ، فقد كان يعتز بهذا العالم الصغير من الناس الذين جاءوا من مختلف الانحاء ، والذين يختلف بعضهم عن الآخر ولكنهم ربطوا مصائرهم مع بعض . فهذا سيرلى سيرغيفيتش الذى يبدو وكأنه لا ينسجم مع احد ويفيض دائما بافكار حادة اصبح فى الحال ضروريا للجميع ، وقد وجد مكانه فورا ، واستقر عند عجلة المدفع يتنفس بعمق . وشاريغين—

الشاب الطموح الذى لا يتميز بالذكاء ، ولكنه صلب ذو روح صافية بلا ظلال – ينام على جنبه هادئا ، وقد وضع قبضته تحت خده . وتمدد زادوفيتر على الرمل بعظمة محولا الى الشمس وجهه الجميل الخشن التقاطيع . انه فلاح ماكر جسور مدبر اذا كتبت له الحياة فسيعود الى بيته ليدير شؤونه . ولاتوغين مارد آخر من غابات سيبيريا يشخر شخيرا جبارا وقد غطى وجهه بطاقيته . انه اكثر تعقدا بكثير وبلا مكر – فهو ليس بحاجة اليه – وهو نفسه لا يعرف بعد اى سماء سيتسلق ومعه مسدس وقنبلة يدوية .

اوكل اثنـــا عشر رجلا حياتهـــم الى ايفان ايليتش ، وسلمه المجلس العسكرى البطارية فى مثل هذه اللحظـــة الحرجة . . . صحيح انه كان يعرف شيئا فى الرياضيات ، ومع ذلك فقـــد كان عليه ان يعلن لهم بثبات انـــه لا يصلح لقيادة البطارية . . .

– اسمع ، يا غاغين ، هل يعرف احد منكم حساب زوايا التسديد ؟ اذ ليس عندنا مقياس المسافة . . .

كان غاغين واقفا على سلمة الخندق يتطلع الى السهب من فوق المتراس ، فالتفت وسال كئيبـــا مثبتـــا نظرة سوداء فى تليغين :

– مقياس المسافـــة ؟ وما حاجتك الى مقياس المسافة ؟ سيبلغوننا بالتلفون من نقطة القيادة عن الزواية والتسديد .

– صحيح .

– كلنا نعرف الزوايـــا والتسديدات والمسافات ، ولكن ليس هذا هو الأمر ، يا رفيق تليغين . . . ستكون المعركـــة رهيبة دون مقاييس المسافات ، بل بالحقد . اعمل المستحيل ، واضرب حتى آخر قذيفة . هذا ما ينبغى ان تفكر فيه . . . تعال هنا ، سأريك شيئا .

صعد تليغين اليه على السلمة . اشتد هدير المدافع ، وكأنه قد اقترب . وكان الافق فى الغرب والجنوب ملفعا بعتمة داخنة . نظر تليغين الى الاتجـــاه الذى يشير اليه اصبع غاغين ولاحظ فى السهل مجموعة من الرجال تزحف من الشمال ، وصفا مـــن العربات .

قال غاغين وهو يشير براسه الى دخان هائل يرتفع بشكل مظلة فى الجنوب صوب ساريتسا :

– رجالنا يتراجعون . منذ مدة طويلة وانا ارى الافا والافا يركضون فى هذا الاتجاه . . . هل ترى الانفجارات ؟ انها لم تكن من قبل . انهم يضربون بالمدافـــع الثقيلة . توقع ظهور الجنرال هنا فى صباح الغد .

تفقد ايفان ايليتش مرة اخرى اجهزة البطاريـــة ، واحصى القذائف والخراطيش . لم يكن هناك غير مشعلين لكل بندقية ، وقلقه بشكل خاص موقع البطاريـــة المكشوف . كانت الخنادق المحفورة حديثا تلوح من الموقع على مسافة ما يقرب من اربعمئة متر ، ولكن لم تكن تبدو فيها اية حركة ، بينمـــا كانت وحدات القوات الحمراء تمر الى مسافة ابعد بكثير . جلس تليغين بالقرب من سابوجكوف . كان وجه سابوجكوف متقضبـــا ، وكان النوم لم يعد سهلا عليه .

– اعذرنى ، يا سيرغى سيرغييفيتش ، على ازعاجك ، صلنى بأمر الكتيبة . . .

فتح سابوجكوف عينيه الغائمتين :

– ولماذا ؟ لقد اعطيت الاوامر بعـــدم اطلاق النار ، وسيبلغوننا اذا اقتضى الأمر . . . ما الذى يقلقك ؟ – وتحرك نحو المجلة وتثاءب بتصنع واضح : احسن ما تفعله ان ترقد وتشبع نوما .

عاد ايفان ايليتش الى السلمة ، ووقف طويلا بلا حراك واضعا يديه على المتراس . كانت شمس برتقالية داكنة هائلة تغوص فى العتمة التى اثارتها حوافر الافواج القوزاقية التى لا عد لها فى مكان ما وراء الافق . تحرك ظل الليل على الوادى ، ولم يعد من الممكن تبين حركة القوات فيه . وصارت السماء فى الشفق تحت نجمـــة المساء الصافية كبلاد خيالية عند بحر اخضر ، وقد اصطفت هناك ابراج صينية ، ثم انفصل واحد منها ، وعام ، وتحول الى حصان ذى ذراعين ، ثم الى امراة تلوى ذراعيها . . .

وبدا وكان المرء ما ان يخرج من الحفرة ، ويحرك قدميه ، مثلما يحدث فى الاحلام ، حتى يجد نفسه قد طار الى تلك البلاد

الرائعة . والا فما معنى ظهورهـــــا لك في ساحة المعركـــة المميتة .

قال سميرغى سيرغيليتش ، وقد وضع يده على ظهره :

— دعك من هذا . فانه مثالية محض ، يا ايفان . أن تحدق في الاشباح ، على تنف سيكارة ؟ لقد صرفت في المستشفى علبة التبغ . فأنا احرص عليه لأدخنه قبيل الموت . . .

وكان على عهده يتحدث بلهجة ساخرة ، رغم ان حزنا يختفي في الغضون القاسية عند فمه ، وفي عينيه الغائمتين . لفـــا سيكارتين ، وشرعا يدخنان . دخن تليغين دون ان يمص الدخان ، بينما راح سابوجكوف يعبه شاهقا .

سأل تليغين بخفوت :

— لماذا تضرب على وتر الموت ؟...

— اصبحت اخاف الموت . . . اخاف ان تصيبني رصاصة في الراس . فانها لن تقتل في مكان آخر . اما في الراس فأخافها . الراس ليس هدفا ، فقد صنع لشيء آخر . انني اشفـــق على المكارى . . .

— كلنا تخاف ، يا سيرغى سيرغيفيتش ، فقط لا يحسن التفكير في ذلك . . .

— وانت هل اعتصمت بالمكارى مرة واحدة ؟ انت لا تعرف الا ان سابوجكوف فوضوي ، وسابوجكوف يحب الفودكا . . . بينما ارى انا من خلالك ، وكأنما من زجاج ، حتى آخر تلافيف دماغك . واستطيع ان انقل رسائلك الى الاحياء ، بينما انت لا تستطيع ان تنقل شيئا عنى . . . وهذا شيء مؤسف جدا . انـــا احسدك ، يا ايفان .

— على اى شيء تحسدنى بالذات ؟

— انت انسان مكشوف : الواجب ، والحب المخلص ، والنقد الذاتي ، خادم في منتهى الوفاء ، وفتى طيب . وستعبدك زوجتك حين تستقر . وحياتك بسيطة ، لأنك انسان من طراز قديم .

— شكرا على الشهادة .

— اما انا فآسف لأن غيمزا لم يرمني بالرصاص في ذلك الصيف . لقد انتظرنا الثورة ونحن نرتعش من اللهفة . وقذفنا

في العالم بحزمة من الافكار : ذلك هو العصر الذهبي للفلسفة والحرية المنشودة . فاذا بها كارثة ، افظع كارثة . . .

وضرب بكفه فوق عينيه ضربة ازاحت طاقيته على علباته :

— كنت اود بهذا الخصوص ان ادلى ببيان الى البشرية ، — لا اكثر ولا اقـــل — بيان خبيث للغايـــة وليس للخير — لصاحب الخير الى الشيطان — بل للشر . ولكن لا توجد نسخـــة مكتوبة ، لم اكتبها بعد . . . ارجو المعذرة .

وكان الظلام قد خيم . وعلى الافق اشتعل حريق وتصاعدت الوهجات الحمراء الداخنة واتسعت ولاسيما الى الجنوب في ناحية ساريتسا . فقد كانت المزارع تحترق ضيئة الطريق للعدو المهاجم بسرعة . كان تليغين الآن يسمع باذن واحدة : هناك بعيدا في الغرب كانت الصواريخ الخضراء تنطلق ثلاث دفعة واحدة ، وكأنها افاع تطل برؤوسها البراقة من وراء الافق .

الا ان سيرغى سيرغيليتش واصـــل كلامه بعناد وبصوت مرتعش دون ان يعير التفاتا الى هذه الاضاءات ، مما جعل جلد ايفان ايليتش يقشعر بين لحظة واخرى .

— ام اننا نعيش لكى نأكل ؟ في هذه الحال لتحطـــم الرصاصة جمجمتى ودماغى الذى كنت اعتبره ، وانا في تمام الخطأ ، يعادل الكون كله ، لينفجر مثل فقاعة صابون . الحياة ، ولعلك تدرى ، هي حلقة من الكاربون زائدا حلقة من الازوت ، زائدا مادة اخرى تافهة . ومن الجزئيات البسيطة تنشـــأ اشياء اكثر تعقيدا ، ثم معقدة جدا ، ومن ثم معقدة بشكل رهيب . . . وبعدها انفجار ! ويبدأ الكاربون والازوت والتفاهة الاخرى بالتحلل الى ابسط حالة . وهذا كل شيء ، كل شيء يا ايفان . . فما علاقـــة الثورة هنا ؟

— اى هراء تقول ، يا سيرغى سيرغيفيتش ؟ الثورة هى التي ترفع الانسان فوق الابتذال .

— اتركني وشأني ! ثم انني لا اتحدث معك . فانت لا تفقه في الثورة كثيرا . الثورة انتهت ، خنقت ، فانظر ابعد مـــن انفك . . . ان روسيا السوفييتية الآن في حدود ما قبل ايفان

الرهيب . وقريبا ستكون جميع الطرق بيضاء من العظام . وستنتصر حلقات الكاربون والازوت ، واعنى بذلك اولئك الذين سياتون فى الصباح على خيول .

صمت تليغين منتصبا فى وقفته ، ويداه وراء ظهره ، وفى الظلام كان من الصعب تبين تقاطيع وجهه الحمراء من الوهج .

— ايفان ، لا تستاهل الحياة ان تعاش الا من اجل مستقبل ضياف . وحرية عظيمة كاملة ، حين لا يعاق الفرد باى شخص او باى شيء من ان يشعر بانه معادل للكون كله . وكم من امسيات تحدثت فيها عن هذا مع رجالى ! كانت النجوم التى فوقنا هى نفس النجوم فى زمن هوميروس العظيم . والنيران التى كانت تحترق هى نفس النيران التى اضاءت الطريق خلال الوف الاعوام . واصغى الفتيان الى حديثى عن المستقبل وصدقوا بى ، وفى عيونهم التمعت النجوم ، وانعكس ضوء النيران على حراب القتال . . . وهم جميعا يرقدون الآن فى السهوب . . لم اقد رجالى الى النصر . . . يعنى ، خدعتهم !

على بعد حوالى مائة وخمسين خطوة الى اليمين ترددت صيحة حارس تبعها حديث خافت . التفت تليغين متفحصا . لا بد ان احدا من الجماعة تقدم من غاغين الواقف فى الحراسة فى الجانب الآخر .

— وماذا لو كان هذا المستقبل ، يا ايفان ، مجرد حكايـــة اسطورية رويت فى سهوب روسيا النائية ؟ وانه لا شيء ؟ واذا كان الأمــــــر كذلك فان الرعب يجتـــــاح العالم . — وتقـــــدم سابوجكوف من تليغين تمامـــــا ، وقال همسا — وقد جاء الرعب وحتى الآن لم يصدق احـــــــد بذلك عن حق . والرعب اخذ من توه يمتحن قوة المقاومة . ان اربع سنوات من ابادة البشر ليست شيئا اذا قيست بما هو آت . ان تدمير الثورة عندنا وفى العالم اجمع هو الشيء الاساسى . . . وبعد ذلك التعبئة الشاملة العامة للفردية . رؤوس حليقة وغل فى اليد . . . وفـــوق رقات العالم الرمادية يسيطر الرعب المنتصر المنتفخ . . . من الافضل لى ان اقتل فى الحال بضربة حارة من سيف قوزاقى . . .

قال تليغين :

— انت بحاجة الى راحة وعلاج ، يا سيرغى سيرغيليتش .

— لم اكن اتوقع جوابا آخر منك ! . .

نزل غاغين الى الحفرة بصحبة عسكرى طويل مكور الكتفين . فرح تليغين فرحا غامرا بالتهاء حديث ثقيل لا يطاق . كان القادم منتطقا بالوحل وذيل معطفه ممزق ، ومن الغريب انه كان يرتدى قبعة قوزاقية . وقد تكلم بصوت كثيف ، وكانه ظل اسبوعـــا غائصـــا الى رقبته فى مستنقع :

— مرحبا ، ايها الرفيق الآمر . كيف الحال عندكم ، هـــل لديكم تنالف ؟

اجاب تليغين :

— مرحبا ، ولكن من انت ؟

— انا من سرية فى فوج كاتشالين . وقد امرنا باتخـــاذ مواقعنا امامكم . انا آمر السرية .

— لطيف جدا . لقد بدأت انقلق : الخنادق حفرت ، ولكن لا توجد لدينا نقاط حراسة .

— وها قد جئنا واتخذناها . كما جلبنا جرحى . وسنضعهم فى القطار . اردت ان اطلب خبزا من الملاحظ فقال : غدا وسيكون غدا . بينما السرية لم تتناول شيئا منذ ثلاثة ايام . . . الا يوجد لديكم ؟ على الاقل قطعة لكل فرد ، ليشموا رائحته . . . سنرده لكم غدا . وقد نهدى لكم بقرة .

سمع تليغين من يناديه ، فالتفت . كانت اليسيا قد اقتربت كالظل وسمعت الحديث ، فقالت :

— ادخرت خبزا يكفى لثلاثة ايام . يمكن ان نعطى لهم . . . فى الغد ساحصل على كمية اخرى .

ضحك تليغين ضحكة قصيرة :

— حسنا اعطى للرفيق آمر السرية اربعة ارغفة .

لم يكن آمر السرية يتوقع ان يقدموا له الخبز بهذه السهولة . فتساءل «حقا ؟» وشكر . وتناول الخبز الذى جلبته انيسيـــا ، ووضعه تحت ابطه ، الا ان الخجل منعـــه من الانصراف حالا . وجاء البحارة يتمطون بعد النوم ووقفوا يحدقون فى هذا الرجل الموحل المهلهل الثياب . فاخذ يحدثهم عن مآثر الفوج الذى ظل

عشرة ايام يخترق الحصار دون ان يفقد مدفعا واحدا ، ولا عربة جرحى ، الا انه كان يتكلم بتشوش وغموض حتى ان بعض البحارة اشاح بيده وانصرف .

قال لاتوغين ، وهو ينظر اليه ببرود :

– خذ قسطك من النوم اولا ، ثم حدثنا . . . ولكن الا تعرف لم هذا الضوء الساطع هناك ؟ – واشار بيده ناحية ساريبتا .

اجاب ايفان غورا :

– انا اعرف . لقد التقيت في المحطة برجل من هناك . . . ان الجنرال دينيسوف يقتحم ساريبتا . يقولون : في الحرب مع المانيا لم تكن النيران بمثل هذه الشدة . المدفعية تمحو كل شيء . والقوزاق يتدفقون من المنخفضات . . . يا للهول . والزبد يسيل على لجامهم . . . يا للهول . . . انها مذبحة . انهم لا يأخذون اسرى . لم يبق من فرقة مروزوف الا نصفها . والعدو يندفع نحو الفولغا حتى يطلع اليها ما بين ساريبتا وتشابورنكي . عندئذ سينتهي الامر !

وهز راسه للبحارة ، وخرج من الحفرة . سأله ثليغين :

– من هو قائد فوجكم ؟

اجاب غورا وقد اختفى في الظلام :

– ميلشين بيتر نيقولايفيتش . . .

٦

ظلت فرقة مروزوف تتقهقر ببطء تحت ضغط الطابور الخامس طوال الليل واليوم التالي نحو ساريبتا ، وقرية تشابورنكي الواقعة على بحيرة . كانت مئات الجثث تتناثر في السهل . لم يترك الجنرال دينيسوف العصر يلتقطون انفاسهم . وكان كل هجوم يصد يعقبه هجوم جديد في الحال . وكانت قنابل الشرابنيل تعول وتنفجر فوق الخنادق . والانفجارات تهز الارض ، وزوابع التراب تنهال على المقاتلين . وعندما تصمت مدافع القوزاق ، كان المقاتلون يخرجون من الخندق وجوههم التي شوهها الحنق والالم ولطخها الدم .

ظهرت مجموعات عديدة من الخيالة من وراء التلال والوهاد وانتشرت في عدوها كالطفح البركاني ، وتصاعد الغبار من تحت حوافر الخيل . . . لوحوا بسيوفهم ، وولولوا على العادة التتريـة القديمة . فلو جبن مقاتل وركض مذعورا أمام الانثيال العاصف للخيول الصهباء العريضة الصدور والفرسان السمر المطبقين على اعراف خيولهم في اندفاع لارواء سيوفهم بالدم الحار فان مثل المقاتلين سيتحطم ويطعن بالسيوف ويداس بحوافر الخيل . . .

ثبت جناحا فرقة مروزوف بعزم وقد دفعا الى حدائق ساريبتا واطراف قرية تشابورنكي الا ان الوسط التوى نحو الفولغا دون ان ينكسر ، تماما مثلما تنوء اليد تحت ثقل ضاغط . وهنا بالذات ، في الوسط ، على الخطوط الامامية كان يوجد قائد الفرقة والمفوض السياسي والمرافق والمراسلون المقرفصون وراء اجسام خيولهم المطروحة . وكان القائد يستعيض عن القتلى والجرحى بالامتدادات المتضائلة بالتدريج والتي كان يسحبها من الجناحين . الا انه لم يطلب احتياطات من قائد الجيش حيث لم يعد هناك شيء يأخذه في ساريتسين .

واليوم صباحا حصل حادث مؤسف في الخط الرئيسي للدفاع . فان افراد الفوجين الاول والثاني من الفلاحين الذين عبئوا من المزارع والقرى القريبة قد خرجوا من الخنادق فجأة ، ورفعوا بنادقهم فوق رؤوسهم ، وذهبوا للاستسلام للبيض . وفي قيادة الفوج الاول احاط بعض امراء الوحدات في مطبخ الميدان بكوميسار الفوج والشيوعيين ورموهم بالرصاص . وفي نفس الوقت حدث الشيء ذاته في الفوج الثاني حيث رمي بالرصاص قائد الفوج والكوميسار وبعض الشيوعيين . وبقيت سريتان فقط على الوفاء ، ولم تستجب للاستفزاز ، وفتحت النار على الخونة الذين كانوا يركضون رافعين رايات بيضاء نحو مواقع البيض للاستسلام . ولما رأى جنود ماشتروف هذه الجموع من بعيد ظنوا انهم مهاجمون ففتحوا نارا حامية عليهم . وارتبكت فلول الافواج الفلاحية والقت السلاح وارتدت الى الوراء ، وحوصروا ، واقتيدوا . وصارت الجبهة مكشوفة لخمسة فراسخ تقريبا .

وفى تساريتسين صدرت صفارات الانذار فى مصنع السلاح والمصنع الميكانيكى وجميع مصانـــع نشر الاخشاب . وكان الشيوعيون الذين ارسلهم المجلس العسكرى يطوفون الورش ويقولون :

– اتركوا العمل ، ايها الرفاق . واحملوا السلاح ، وانقذوا الجبهة .

ولم يكن فى المصانع من العمال غير الشيوخ والعجزة والاولاد القاصرين . فتركوا العمل ، وخبأوا المعدات ، واوقفوا الالات ، واطفأوا الافران ، وهرعوا الى المستودعات حيث كان يحفظ ما لديهم من اسلحة . واصطفوا وراء البوابة ، واتجهوا نحو محطة القطار .

هرولت الزوجات والامهات من البيوت الصغيرة فى الضاحية ، ودمعمن فى ايديهم صرر الطعام الصغيرة ، وسارت نساء كثيرات الى المحطة وراء الفصائل التى كانت تسير فى صفوف متخلخلـــة وكثيرات منهن صاحبتهم ابعد من ذلك ، الى المواقع نفسها . وهناك ظلت الامهات والزوجات واقفات طويلا على التلال حتى جاء قائد الجيش وتوسل اليهن ، وهو يضع يده على قلبه ، بان يعدن الى بيوتهن ، لانه لا حاجة اليهن هنا ، بل هن مصدر اعاقـــة ، لأنهن يجعلن من انفسهن وهن واقفات على مكان مرتفع هدفا واضحـــا لمدفعية مامنتوف .

وقبل ان ينتهى النهار سد" ثلاثة الاف عامل من عمـــــال تساريتسين الثغرة على الجبهة ، حيث بدأ البيض ينفذون منها ، وقذفوا بهم الى الوراء متكبدين خسائر فادحة .

كان ذلك حين كانت فرقة مروزوف تتحمل ضغطا لا مثيـل لاستماتته من الخيالة والمشاة . وقد دفع بوسط الفرقـــة الى الفولغا تقريبا . وكانت القذائف تنفجر فى شوارع ساريتســـا ، واحترقت قرية تشابورنكى ، وانتشر اللهيب فى سطوح القش ، واحترق القصب على ضفاف البحيرة فى السهب .

كان قائد الفرقة يتفحص السهل بالمنظار . كانت الشمس تغوص فى الافق . راى الخيالة القوزاق يتجمعون ويتفرقون ببطء دون محاولة للاخفاء . وقد عرفت عينه المجربة من تحفز الخيول بأن

هذه وحدات جديدة متهيئة لآخر هجوم ، واذن فبحلول المغيب ستكون فرقة مروزوف كلها وعلى راسها قائدها قد بدات مسيرتها الاخيرة عبر صفحات التاريخ .

انزل المنظار ، واخرج غليونا مسودا ، ووضع فيه معيدين تشكيلتهم قبضة من تبغ سارانوف ، واخذ يبحث عن علبة الكبريت متلمسا جيوب معطفه . ولم يجدها . تلفت يمنـــة ويسرة . كان المقاتلون يستلقون على بعد خطوات الى الأمـــام امام اكوام من التراب . كانت بقعة سوداء تنتشر على قميص احدهم ، وكان الآخر يشخر كأبله حاكا خده على مقبض البندقية .

القى قائد الفرقة الغليون على الارض بحـــــذر فتدحرج فى الالسنتين ، وتناول المنظار ثانية . فارتجفت يداه بشكل لا ارادى .

كانت تحشدات جديدة ضخمة من الخيالة ترى الى الجنوب الغربى . . . فقد ظهرت من مكان ما بينما كان يملأ غليونه . طلعت عدة الاف من الخيالة من وراء التلال مثيرة الغبار الـــذى اضاءته الشمس المائلة . قال القائد لنفســه : ان قوة كهـــذه يمكن ان تحطمنا وتدوسنا بصفعة واحدة ! ابعد قائد الفرقة عينيه عن المنظار لحظة . سكن كل شيء فى الخنادق ، وتوتـــر . ونهض المقاتلون ، ضاغطين على البنادق . وقبل ان يفتح قائد الفرقة فمه ليقول لهم كلمة حادة ترامى هدير المدفعية من بعيد فعاد الى منظاره مرة اخرى . اى شيطان هذا ! ارتفع زهاء عشرين انفجارا فى السهل قرب خيالة القوزاق المتحشدة . واسرع القوزاق يعدون متحولين الى جبهة عريضة للهجوم ، ولمعت راية الزعيم فى الوسط . واستدار القوزاق ليواجهوا هذه الكتل المندفعة من الخيالة . تراجعت العصبة الكثيفة من القوزاق وقد مدت حرابها ، ثم اصطفت ، وانطلقـــت خيولها الى الامام . واندفعت كلتا الكتلتين من التلال ، وتقاربتا واختلطتـــا . وارتفعت سحابة هائلـــة من الغبار فوق ذلك المكان .

قرب قائد الفرقة عدسة منظاره ، وراى مشاة العدو ينهضون بتعثر من الارض التى كانوا ينبطحون عليها .

وقال قائد الفرقة لنفســه : «اها ! لهذا السبب اذن الح" رئيس المجلس العسكرى فى التلفـــون على الصمود لآخـــر قطرة من

ثم . . . يعنى وصلت فرقة دميترى شيلست الفولاذية . . .» .

وفى اثر الخيالة التى هاجمت القوزاق انقضت من وراء التلال صفوف كثيفة من مشاة الفرقة الفولاذية . وابعد من ذلك ، عند الافق لاحت من خلال الغبار جمال وعربات وجموع من الناس . انها قوافل الفرقة التى كانت تجر وراءها ، كما اتضح بعد قليل ، كميات هائلة من القمح . وبراميل الكحول مع مئات النازحين وقطعـــان المواشى .

وسقط قوزاق كثيرون فى المعركة . وتراجعت الخيالة البيضاء المحطمة نحو الغرب ، واختلط مشاة العدو بين صفوف الفرقـــة الفولاذية وفرقة مروزوف وتحطم قسم منهم . واستسلم القسم الاخر . ولما انتهى كل شىء — وقد استمرت المعركة نحو ساعة — ركب قائد الفرقة جواده ، وسار به فى السهل المزروع بجثث القتلى من الرجال والخيول . وكان الدخان لا يزال يتصاعد هنا وهناك وتتردد انين الجرحى الذين لم يلتقطوا . التقى قائد الفرقة بجماعة من الخيالة ، كان يتقدمهم رجل يرتدى ملابس كوبانية ويضع صفوفا من الرصاص على صدره ، وخنجرا كبيرا عند خصره بينما تدلت نهاية منديله الصوفى على كتفيه . وقد حث حصانه الاسود وتقدم من قائد الفرقة واوقف حصانه فجاة ، وقال بصوت حاد آمر :

— مرحبا ، يا رفيق ، مع من اتحدث ؟

— مع قائد فرقة مروزوف الدونية . مرحبا ، يا رفيق ، ومن انت ؟

اجاب الفارس بضحكة مقتضبة :

— من انا ؟ تمعن فىّ . انا ذلك الرجل الذى اعتبره قائد الجيش العاشر خارجا على القانون ، واراد ان يرديه بالرصاص فى تيخوريتسكيا ، ولكننى جئت الى تساريتسين ، وفى الوقـــت المناسب ، كما يبدو .

لم يعجب قائد الفرقة كثيرا بهذا الكلام المتباهى الطويل ، فتعبس ، وقال :

— اذن ، انت دميترى شيلست . . .

— اعتقد ان هذا هو اسمى منذ الطفولة . والآن ارنى اين يمكن ان اتحدث بالتلفون هنا مع المجلس العسكرى .

— لقد تحدثت اليه . والمجلس العسكرى على علم بكـــل شىء .

اجاب دميترى شيلست بعجرفة :

— لا يهمنى ما تحدثت به . دعهم يسمعون صوتى . ولكن حصانه الاسود لفزة جعلته ينطلق كالمجنون .

٧

فى ساعة متاخرة من المساء ارسل ايفان ايليتش مذكرة الى العقيد ميلشين : «يا بيتر نيقولايفيتش ، انا هنا ، واود كثيرا ان اراك . . .» فرد ميلشين مع نفس المراسل : «سعيـــد جدا . ساتى حالما ادبر امرى . عندى اشياء كثيرة احدثك بهـــا . بالمناسبة هل تعرف من عندى الآن ؟»

ولكن القلم انكسر . او انه كان يكتب فى الظلام فلم يتبين ايفان ايليتش الكلمات الاخيرة ، رغم انه اشعل بضعة اعواد من الثقاب . . .

ولكن ميلشين لم يات . وبعد منتصف الليل اخذت الصواريخ تشق السهب . وتلقت البطارية امرا بالاستعداد .

قال ايفان ايليتش لرجاله :

— والآن ، يا رفاق ، يجب اعتبار المعركة قد بدات . يعنى كونوا حريصين حتى لا تنفجر قذيفة واحدة عبثـــا . . . ثم انكم على علم بامر قائد الجيش القاضى بعدم التراجع خطوة واحدة دون امر خاص بذلك . يعنى كل شىء يحدث فى المعركة . . . (وفكر مع نفسه . . «اللعنة كيف اسقت بى "يعنى" هذه») فى عام ١٩١٥ وضعوا غلطتنا رشاشات ، لأن الجنرالات لم يكونوا يثقون بان الفلاح سيريق دماءه فى سبيل مولانا القيصر . . . وعلى الرغم من انهم كانوا يلعنون نيقولا فى الخنادق ، ولكن روسيا ، على اية حال ، هى بلادهم . . . ولم يكن فى تلك الحرب ارهب من هجوم الحراب الروسية . . .

وفجاة سال لاتوغين ببحة :

— يا آمر ، ما معنى هذا الهراء ؟ . . ها ؟

الا ان ايفان ايليتش تابع كلامه وكانه لم يسمع شيئا .

— والآن لا توجد وشاشات وراء ظهورنا . وخيانة الثورة هي المخلع من الموت بالنسبة لكل واحد منا ، يعني لكي تنجو بجلدك . . . يجب ان تفهم أمر قائد الجيش على النحو التالي : الا تضعف في الساعة الحاسمة حتى تشتعل الارض تحت اقدامك . يقولون هناك الناس لا يعرفون الخوف . ان ذلك كلام فارغ . . . فان الخوف موجود ، وهو يرفع رأسه . وعلينا ان نحطم رأسه . . . فالعار اقوى من الخوف . . وأنا اقول ذلك ، يا رفيق لاتوخين ، لأن هناك رفاقنا لم يتمرسوا بعد في معارك خطيرة . . . وهناك رفاق ذوو اعصاب ضعيفة . وقد يصاب احنك الناس بالارتباك ، ولهذا فلو اصبت ، انا الآمر ، بالضعف وخرجت من البطارية ، مثلا ، آمركم يرمي بالرصاص في الحال . وانا من ناحيتي ارمي بالرصاص مثل هذا الرجل . يعني هذا كل شيء . . . امنع التدخين حتى يحل الصباح . . .

سعل مرة أخرى ، تمشى وراء المدفعين بعض الوقت . وكان يريد ان يقول اشياء كثيرة ، ولكنه لم يستطع . . .

— لا مانع من الاحاديث ، يا رفاق .

ناداه لاتوخين مرة اخرى :

— يا رفيق تليغين — واقترب تيليغين منه واضعا يديه خلف ظهره — قبل انخراطي في الجيش طوفت في الدنيا . . . عاريا حافيا مشاكسا . وعملت حمالا في المواني ، وكسرت الحطب للتجار ، ونظفت المراحيض ، واشتغلت سائسا في اسطبل الاسقف ، والتقاتلت مع لياليه بسبب سوء الطعام . واشتبكت مع اللصوص في وقت ما . . . رأيت كل شيء ! أوه ، كنت احمق ، شقيا ، وكانوا يضربونني . . . احيانا حتى اكاد اموت . . .

قال بايكوف :

— من اجل النساء ، في الغالب ؟

وانفجر صاروخ بعيد فلمعت في ضوئه الشاحب اسنانه الصغيرة وسط لحية كثيفة .

— ومن اجل النساء ايضا . . . ولكن ليست هذه هي المسألة . المسألة انك ، يا رفيق تليغين ، لم تقل لنا الشيء

الاهم . حمت حول الموضوع ولم تصب لبه . . . الواجب الثوري ، هذا صحيح . ولكن لماذا اخذنا هذا الواجب على عاتقنا طواعية ؟ هلا اجبت على ذلك ؟ لا تستطيع ؟ طبعا . لقد اكلت طعاما آخر . اما نحن فقد ذقنا الويل ، وسلبت ارواحنا . ويبدو ان ما من حيوان يستطيع ان يتحمل ما تحملناه . لو كنت في مكاننا لدليت عنقك منذ زمان ، وجررت الحمل . انتظر ، لا تتكدر . فنحن تعاملت انسانا لانسان . لماذا قضت امي حياتها كلها تخدم الناس ؟ ما الذي يجعلها اسوأ من ملكة اليونان ؟

تأمله بايكوف ثانية :

— يا لها من شطحة ! رأينا ملكة اليونان في عام ١٩١٣ في اليبا . ما الذي ذكرك بها ؟

— ولماذا عاش ابي عيشة الخنزير ، حتى ضربه الجندرمة في المعتقل حتى الموت ، وبصقوا عليه ؟ لماذا يسمونني ابن الكلب ؟

قال شاريغين ، وقد نهض من ركبتيه وكان جالسا في مكانه عند القذائف !

— هذا لا يصح . انت تتحدث حديثا غير منظم ، يا لاتوخين . ما شأن ابن الكلب هنا ، وما علاقة ملكة الاغريق ؟ . كل ذلك بناء فوقي . ولكن الجوهر في الصراع الطبقي . عليك ان تعرف مكانك : من انت ؟ بروليتاري ام عنصر لا طبقي . . .

صاح به لاتوخين :

— اذهب الى الشيطان ! انا ملك الطبيعة . هل هذا مفهوم لك ام ما زلت غرا ؟ كنت قد طالعت كتابا جاء فيه ان الانسان ملك الطبيعة . ولهذا السبب اقف عند هذا المدفع . ان ملك الطبيعة يعيش فينا . الواجب ، الواجب ، الخوف الخوف ! انا اليوم سأضرب بمدفعي الرب نفسه لا الجنرال ماموتوف . ذلك هو بناؤك الفوقي ! سأقضم عظامه باسناني . . .

صاح سيرغي سيرغيفيتش من مكمنه عند تلفون الميدان :

— سكوتا ، يا رفاق ! ابلغكم ان نجاحا كبيرا قد حققناه قرب ساريتسا . حطمنا فوجين من الخيالة ، وفوجا من مشاة القوزاق . وانه قتل الف وخمسمائة واسر ثمانمائة .

وسرى نبأ النجاح قرب ساريبتا فى الجبهة . وفى هذه الاثناء كانت وحدة من وحدات الجيش العاشر – فرقة بودونى للخيالة – تشق طريقها من سهوب سالسك الى تساريتسين ، وكان قد تطلبها هجوم الطابور الخامس . كانت المسيرة قاسية ، وقد اصاب لاعياء الناس والخيول . ثم استطاع احدهم فى محطة صغيرة ان يتصل بالمصادفة تليفونيا بمقر قيادة مروزوف وسمع صوتا مرحا يهتف بالسماعة مطعما كلامه بعبارات لاذعة : «هل انتم نائمون ؟ ولا تعرفون اننا قطعنا فرقتين من خيالة الاوغاد طعاما للكلاب ؟ تعالوا لتحصوا الاسرى» ولدى سماع هذا النبأ العظيم ، وان كان مبالغا فيه كثيرا اوقفت الفرقة قوافلها تحت الحراسة ، وقامت بمسيرة مائة فرسخ صوب الشمال لملاقاة اوغاد الجنرال دنيسوف .

الا ان النجاح قرب ساريبتا كان محليا على اية حال ، ولم يخفف الوطاة فى مواقع تساريتسين الرئيسية ، بل جعلها اصعب . واستفاد ماومنتوف بسرعة من الحادث السار بخصوص فوجين الفلاحين الهاربين ويعيد فى الليل تنظيم طوابير للهجوم ، ومنذ الفجر حول كل ثقل الهجوم الى هذا القطاع من الجبهة الاقل حصانة والممتد خمسة فراسخ الذى كانت تحميه حفنة ضئيلة من فصائل العمال .

كان السهل الذى دخلته نخبة قوات الدون مقطوعا بمنخفضين عميقين ضخمين يقطعان الجبهة من الغرب الى الشرق ويمتدان حتى المدينة نفسها . واخذت الخيالة القوزاقية تسير فيها مقتربة من خنادق الحمر . وكان السهل كله يبدو مغطى بكتل من التراب تبدو مثل بيوت النمل . ذلك زحف المشاة . وامامهم تزحف دبابات هائلة بجنازيرها العمياء . وكانت الطائرات تحوم حول البطاريات وعربات المؤونة الممتدة عبر السهب من تساريتسين والى تساريتسين ، وتلقى قنابل صغيرة كالمكسرى تنفجر بقوة رهيبة .

كان قطار مامنتوف المصفح يرسل دخانا فى الافق . وكان السهب كله الى يساره ويمينه مملوءا بعربات الريفيين التى كانت تتحرك فى اعقاب القوات فى كتل متلاصقة . وكان تجار القوزاق يرون المدينة بقبابها ومداخن معاملها وادخنة الحرائق فى الضواحى .

آه ، كم كانت العيون تلمع تحت الحواجب الكثيفة لهؤلاء الناس اللواحين برائحة الدخان وشحم الخنزير والقطران !

وفوق السهب كانت القذائف تنطلق مخترقة الهواء عادرة مطرقة مواقع الحمر بنواقير من التراب . وقفز الخيالة من المنخفضين العميقين زاعقين واندفعوا الى الخنادق خلال الاسلاك الشائكة لا يلوون على شىء بضراوة عارمة بحيث ان رصاصة لو اصابت قوزاقيا ولاح فى عينيه ظل الموت فانه سيمضى فى عدوه شاقا الهواء بسيفه حتى ينهار على السرج ، ويبسط ذراعيه وكأنه يقهقه بجنون وينضرج من حصانه المذعور .

زحفت صفوف المشاة ثم اندفعت الى الامام . واشتبكت الخيالة والمشاة فى عراك عند خنادق الحمر . وقد امر مامونتوف جميع القوزاق فى ذلك اليوم بشد شريط ابيض حول قبات طاقياتهم خوفا من ان يخطىء رجاله فيطعن بعضهم بعضا فى معمعان المعركة . وازداد القتال فظاعة واستماتة لأن المتحاربين فى كلا الجانبين كانوا من الروس . بعضهم فى سبيل حياة جديدة غير مشهودة والبعض الآخر فى سبيل ان يبقى القديم على حاله .

وفى كل مرة كانت موجات الهجوم تتراجع مصطدمة بقطارات الحمر الصغيرة المدرعة . وكانت هذه القطارات المصنوعة على عجل فى مصانع تساريتسين – اما من صهريجين للبنزين او من عربتين للبضاعة مكشوفتين بينهما قاطرة – تسير على طرق خلف الجبهة . وكانت احيانا تنفذ برشاشاتها ومدافعها الى قلب المعركة . وكانت تعتصر من قاطراتها القديمة الصغيرة آخر ما تبقى لديها من قوة ، وتنطلق وسط الانفجارات وسحب البخار المنبعثة من جوانب القاطرات التى اخترقها الرصاص ، وتجوب الفرق المحطمة حاملة الماء والخبز والذخيرة الى الخنادق .

– استلق !

وعلى مقربة حدث انفجار شديد جعل الضوء يشحب ، والجسم ينضغط ، وتساقطت على الفور كتل التراب على الظهور والرؤوس والايدى التى ارتفعت لتقيها .

— الى المدفع . . الى الاماكن !

صاح تليغين ، ووثب ، ولمح بشكل مبهم ومن خلال الغبار مدفعا محطما برزت احدى عجلتيه الى الاعلى ، والرجـــال يقفزون نحوه قفزا . . . «كلهم سالمون . لاتوغين ، بايكوف ، غاغين ، زادوفيتر . . اين شاريغين ؟ . . هنا . . . سليم . . المدفـــع الثاني سليم . بيتشيكين ، فلاسوف ، ايفانـــوف . . . يهز راسه . . .» .

وصرخ سابوجكوف بصوت مبحوح طالعا من الخندق المتهدم وفي يده سماعة تلفون :

— ابعد الى اليسار ، ستة وثمانون ، التسديد ستـــة صفر ، البطارية ، نار !

ويكرر تليغين الأمر ساعلا غبارا . ويلقى شاريغين القذائف الى بايكوف ، الذى يعاين فتيلة الانفجار ، ويقذفهـــا الى غاغين المعبى . ويفتح زادوفيتر المغلاق ، ويقوم لاتوغين بالتسديد ، ثم يرفع يده :

— نار !

تهتز ماسورتا المدفعين ، وتنطلق القذائف . . . جمدت حركات الرجال السريعة ، مثل شريط سينمائى قد اوقف . . . وهذا ما حصل . انقذف غاز ضار ، ومض بريق ، على مقربة .

— استلق !

وتكرر كل شيء . الهدير ، وزوبعة التراب ، والاختناق ، وكان الغيظ قويا حتى ان العروق تبدو وكأنهـا ستنفجر . ولكن ما العمل اذا كان الجانب الآخر لا يبخل بالقذائف ، اما هنا فلم يبق منها الا القليل ، بينمـــا يجلس فى نقطة المراقبة للكتيبة غبى لا يستطيـــع ان يحدد بالضبط موقع مدفعيـــة العدو الثقيلة .

جرح لاتوغين فى هذه المرة . وقد جلس يصر باسنانه ، بينما كانت انيسيا تتحرك الى جانبه رقيقة خفيفة — لا يعرف احد اين تروح ومن اين تجيء — وخلعت سترته وقميصه التحتانى بسرعة ، وضمدت كتفه ، وقالت وقد قرفصت امامه «تعال ، يا عزيزى ،

ساخذك الى نقطة الاسعاف» . ولكنه دفعها عنه وهرع الى المدفع وهو عار الى النصف مدمى يصر باسنانه . وكأنه يقضم غضبـــة بالفعل .

واخيرا تفجر الحنق الذى لا يطاق والذى اعيا الجميع ساعات طويلة منذ بداية هذه المعركة غير المتكافئة . وكان سابوجكوف قد اجاب من توه على سؤال آمر الكتيبة حول عدد القذائف المتبقية وكان ينتظر الرد . كانت دموع قذرة تنحدر على وجهه من عينيه الملتهبتين ، وكان بين الحين والآخر يرفع السماعة من اذنه ، وينفخ فيها . وقد حدث شيء مفاجيء فى الهواء نفسه . لقد خيم سكون ، وامتلأت الآذان بالطنين . زحف تليغين على بطنـــه الى المتراس قلقا . وكان ذلك فى اللحظة المناسبة . . . لقد بدأ الهجـــوم الحاسم . وكانت العين تميز الكتل الداكنة للخيالة القوزاق والمشاة تلمع بينها هنا وهناك رايات مذهبية . انهم القساوسة الذيـــن تقدموا فى السيارات لمباركة القوات فى الميدان المكشوف ، على مرأى من بطاريات الحمر .

طلع البحارة على المتراس زاحفين على بطونهـــم ، وكانت انفاسهم ثقيلة . وقال بايكوف ليثير ضحكهم :

— لنضرب الملائكة ضربا مباشرا !

ولم يضحك احد . وقال لاتوغين بحدة وبلهجة آمرة :

— يا آمر . دعنا نخرج المدفعين الى الارض المكشوفة . لماذا نحن كالفئران فى حفرة . . .

— لن نستطيع ذلك دون خيول ، يا لاتوغين .

— نستطيع . . .

وصاح شاريغين :

— لا تجادل الآمر اثناء المعركة . هذه فوضوية !

ودوت صرخته المباغتة هذه صبيانية غريبة حتى ان البحارة التفتوا اليه متجهمين لغرف الرمل بكلتا يديه ، واخذ يفرك به وجهه بكل قوته . وعاد الى مكانه ووقف بلا حراك سوى ان رموشه الطويلة كانت ترف فوق خديه المتوركين .

نزل تليغين من المتراس ، واقترب من المدفع ، وامسك عجلته .

– لاتوغين على حق ، يا رفاق . . على العموم تعالوا نحفر هنا .

هرع البحارة الذين كانوا يتابعون حركته صامتين الى الارفاش واخذوا يحفرون منحدرا فى الحفرة فى اسهل موضع لاخراج المدفع الى مكان مكشوف .

صاح سمايوجكوف بصوت متوتر مبحوح :

– يا تليفين . الآمر يسال هل يمكن بوجالنـــا ان تخرج المدفعين الى مكان مكشوف ؟

– ممكن !

قال تليفين ذلك بهدوء وثقة . كان لاتوغين يعمل برفشه ، رغم ان كتفه الجريحة كانت تسبب له الما محرقا والدم يسيل منها خلال الضمادة . ثم لكز بايكوف فقال :

– احب المتقلبين . ها ؟

واجاب بايكوف :

– سيتعلمون حمل الماء بالمنخال . سيتعلمون شيئا من الفلاحين .

وفجأة تمزق السكون بهدير عاصفة نارية . اندفع تليفين الى المتراس . وامتلأ السهل كله بالقوات المتحركة . ولقطـــع طريقها انطلقت من اليمين وعلى خط غير عال القطارات المصفحة التابعـــــة للآمر اليابيف الذى اشتهر فى ذلك اليوم وهى تعوى وتلهث وتنفث دخانا صعدا . وكان ايفان ايليتش يركز انتباهه على اقرب استحكام لسرية من فوج كاجالين كانت تتخـــذ موقعها وراء الاسلاك الشائكـــــة ، لا فى خنادق ، بـــل فى حفر ، وكانوا قـــد جلبوا اليهم المــــاء توا فى برميل ، الا ان الحصان فزع ، واستدار وقلب البرميل ، وانطلق مع العربة . وشاهـــد تليفين ايفان غورا ، ذلك الرجل الطويل الغريب الاطوار الذى زاره يوم امس . كان يركض خلال الخنادق مقرفصا ، يبدو انه يوزع آخر ما تبقى من ذخيرة .

والى يسار موقع السرية (ويسار بطارية تليفين) وعلى بعد اقل من نصف فرسخ كان يمتد المنخفض الذى يشق الجبهة حتى المدينة نفسها . وكان المنخفض طوال النهـــار تحت القصف ، وكانت موجات القوزاق تتدفق منه بعيدا من هذا الموقع . والآن

فهم ايفان ايليتش وهو يراقب القلق الظاهر بين مقاتلى ايفان غورا ان القوزاق لا بد أن يتوغلوا فى المنخفض ، ويهاجمـــوا الخنادق من المؤخرة ، والبطارية من الجناح ، فيثيرون المتاعب . وهذا ما وقع بالفعل . . .

لقد طلع الخيالة من المنخفض قرب الاستحكامات مباشرة وانتشروا ، واخذ جزء منهم يلتف على مؤخرة ايفان غورا ، وانطلق الآخرون نحو البطارية . فاندفع تليفين نحو المدفعين . كان البحارة يدفعون المدفع من الحفرة الى الاكمة لاهثين شاتمين : لقد انطمست عجلتاه فى الرمل .

قال تليفين باعدا ما يمكن :

– انهم القوزاق ! ادفعوا !

وامسك بالعجلة بقوة جعلت ظهره يقرقع :

– قنبلة شظايا ! بسرعة !

وتردد زعيق القوزاق الوحشى وكان جلودهم تسلخ وهم احياء . استلقى غاغين تحت عربة المدفع ورفعها على كتفيه : «بالله يا شباب الله واخرجوا المدفع من الرمـــــل » ووضعوه على الاكمة ، فانتصب ماللا منكس الماسورة . تناول غاغين قذيفة فى يديه الكبيرتين ، ووضعها فى المدفع ، وكأنه فى غير عجلة مـــن امره . . . كان حوالى ثلاثين فارسا ينطلقون نحو البطارية ، منحنين على اعراف خيولهم ، هازين سيوفهم . وحين قابلهم لهيب طويل ، وانفجرت قنبلة شظايا ، شبت بعض الخيول ، واستدارت اخرى ، الآن عشرة من الفرسان صعدوا الاكمة غير قادرين على كبح جماحها ،

وفى تلك اللحظة تلبد الحنق المحتدم . فقد ارسل لاتوغين العارى حتى الوسط صيحة مبحوحة ، وبادر فى الهجوم بخنجر معقوف ، وفارســه فى سترة قوزاقية سوداء تحت حزامهــا المزين . . . ووقع زالدوفيتر تحت حصان فشق بطنه بغيظ ، وما كاد فارسه يقع على الارض حتى عاجلـــه بطعنة خنجر . وتفادى غاغين ضربة سيف ، وامسك بتلابيب ضابط ضخم – وجره الى الارض ، وطرحه ، وشد خشه عليه . امـــا الآخرون فكانوا يطلقون النار من بنادقهم ، واقفين وراء المدفــــع . وراح تليفين يضغط على زناد مسدسه ببطء وهدوء ، كمـــا كان يحدث له دائمـــا فى مثل هذه الاحوال

(فان الانفعالات تأتي فيما بعد) . كان الاشتباك قصيرا ، وبقي اربعة من القوزاق مطروحين على الاكمة ،وهرب اثنان ثم وقعا تحت النيران .

وصمد الهجوم الاخير كما صمدت الهجمات السابقة في ذلك اليوم . ولم يتمكن العدو من خرق جبهة الحمر ، سوى ان مشاته توغلوا عميقا في اضعف مكان بين فرقتين للحمر . وحل المساء . وكانت ماسورات المدافع حامية ، والخيول متعبة ، وكلت حدة الخيالة ، وصار من الصعب دفع المشاة الى الهجـــوم . وانتهت المعركة ، وسكتت الطلقات في السهل الذي خلا الا من رجـــال الاسعاف الذين كانوا يرحلون لالتقاط الجرحى .

واتجهت نحو البطاريات والخنادق براميل المـــاء وعربات الخبز والطبيخ ، وعادت محملة بالجرحى . وكانت الخسائر فادحة في جميــــع وحدات الجيش العاشر . ولكن الافدح من ذلك كان استنفاد جميع الاحتياط في ذلك اليوم ، بينما لم تعد المدينة قادرة على مد الجبهة بشيء .

وعاد قائد الجيش الى عربة ركاب كانت واقفة وراء محطة قروبونوفو . وترجل ببطء ونظر الى الرجلين القادمين اليه ، وهما رئيس مدفعية الجيش – ذلك الرجل الضخم الملتحي المورد الخدين الذي كان قد جاء وتحدث الى المنفذين في بطاريـــــة تليغين – والبابيق قائد القطارات المصفحة الذي كان يبدو كطالب منفعل عائد من المتاريس . وقد ابتسما للقائد ، سعيدين بعودته من الخطوط الامامية ، حيث كان قد اشترك عدة مرات في ذلك اليوم في المعارك بالسلاح الابيض ، وكان معطفه متقبا ، ومسنـــده قربينته المعلقة على كتفه مهشما .

دخل قائد الجيش في العربة ، وطلب ماء . وشرب عـــدة اقداح ، ثم طلب سيكارة . اشعلها ولمعت عيناه الجافتان فوضع السيكارة على حافة المنضدة ، وقرب منه مجموعة من البلاغات ، وانكب عليها . . . اجل ، ان الخسائر لفادحة ، فادحة للغاية ، ولم يبق ليوم الغد سوى القليل من الذخيرة ، بل النزر اليسير ،

لنحو خريطة ، وانحنى الثلاثة عليها . ورسم قائد الجيش بالقلم خطا – كان قد خرق خلال ذلك اليوم في بعض المواقع فقط – ولكن ليس بالقدر الكبير ، بل وقد التوى عند ساريبتا نحو البيض ، الا ان خط الجبهة في القطاع الذي وقع فيه يوم امس الحادث المؤسف لفوجي الفلاحين ، قد مال بشكل حاد نحو تساريتسين فتباطأ القلم في يد قائد الجيش . وقال القائـــد : «والآن دعونا نتأكـــد مرة اخرى . . .» كانت التقارير مضبوطة . وتوقف القلم على بعـــد سبعة فراسخ من تساريتسين ، في قاع المنخفض تمامـــا ، ثم استدار بشكل حاد عائدا نحو الغرب راسما اسفينا . فالقى قائد الجيش القلم ، وضرب بكفه على هذا الاسفين :

– هذا يقرر كل شيء .

وعبس رئيس المدفعية ، وحول عينيه ، وقال بعناد :

– آخذ على عاتقي تقطيع هذا الاسفين اذا حصلت في الليل على مزيد من الذخائر .

وقال رئيس القطارات المصفحة :

– المعنويات في الوحدات عالية . سيصمدون اذا اكلـــوا وناموا ساعة او ساعتين .

واجاب قائد الجيش :

– الصمود لا يكفي . بل يجب تحطيم العدو ، بينما خط الجبهة غير ملائم لذلك . قل لي هل القطار جاهز ؟ اذن فالـــا واذهب .

وجلس دقيقة اخرى مشلولا بالاعياء ، ثم نهض ، وطوق كتفي رفيقيه وقال :

– اتمنى لكما التوفيق .

عاد رئيس المدفعية ورئيس القطارات المصفحة الى نقطة المراقبة اى الى برج الماء لخط السكة الحديدية البارز لوحده ، والذي كان طوال اليوم عرضة لضرب مركز من الارض والجو . صعدا الى حيث تقع التلفونات في الاعلى ، ووجدا العشاء في انتظارهما وهو عبارة عن قطعتين من الخبز الجاف ونصف بطيخة غير ناضجة .

كان رئيس المدفعية رجلا موفور الصحة بشوشا ، وقد غمته هذه الحصة الشحيحة من الطعام .

قال وهو واقف عند فتحة في جدار آجرى :

– بطيخ سيىء . اذا كان البطيخ يقطع بالسكين فهو ليس بطيخا . يجب كسر البطيخ بضربة من قبضة اليد .

وبصق الحب ، وقلص عينيه ونظر الى السهل المكشوف المسطح تحت الشمس الغاربة وقال :

– لو ان طاسة من الفطائر الحارة لشبعت . ما رأيك يا فاسيل ؟ يبدو ان امرا سيصدر في هذه الليلة بالانسحاب .

– كيف الانسحاب ؟ تسليم الطريق الدائرى ؟ هل جننت ؟

– واين كنت انت ، حين سمحت للعدو بفتح ثغره ؟ اين كانت قطاراتك المصفحة ؟

كان رئيس المدفعية وهو يتكلم يرفع الى عينيه بين الحين والآخر اصبعين منفرجتين ، او يخرج من جيبه علبة كبريت ويمسكها بيده الممدودة ويحدد الزوايا والمسافات بدقة تصل الى خمسين خطوة .

ولكن جنودهم من سلاح الهندسة ساروا خصيصا وراء صفوف المهاجمين ، فاستطاعوا ان ينسفوا الخط في عشرات الاماكن .

فكرر رئيس المدفعية بعناد :

– ومع ذلك كان لا يجوز السماح بدق اسفين . . . اسمع ، الا تلاحظ شيئا ؟

كانت العين الحادة المجربة وحدها قادرة على ان تلاحظ ان السهل البنى الممتد نحو الغرب لم يكن هادئا خاليا من الناس ، بل ان فيه حركة حذرة . فقد كانت تجاعيد الارض كلها ، وكل الاكمات الشبيهة بالآلاف من كتل النمل تلقى ظلالا طويلة ، وكانت بعض هذه الظلال الطويلة تغير مواقعها ببطء .

قال رئيس المدفعية :

– انهم يعبرون القنوات . يزحفون . . . خذ المنظار . . . اتلاحظ وكأن اشرطة صغيرة تلمع ؟ . . .

– ارى بوضوح . . . وانها كتافيات ضباط . . .

– مفهوم ان كتافيات الضباط هى التى تلمع . . . انظر كيف يزحفون . . الظر ، كالعناكب ! . . وما اكثر كتافيات الضباط . . لا ترى العين غيرها . . .

– غريب !

– منذ ثلاثة ايام نبهنا ستالين على ان نتوقع ذلك ، وهذا ما حصل ، بالفعل . . .

نظر الباييف اليه . وخلع قبعته ، ومرر اظافره على رأسه ، ومشط الشعر المتلبد من العرق ، فانطفأ البريق فى عينيه الرماديتين ، ونكس رأسه ، وقال :

– مفهوم لماذا هدأوا اليوم فى ساعة مبكرة . . . كان يجب ان نتوقع ذلك . . . سيكون يوما شاقا !

وقصد الى التلفون بسرعة ، واخذ يتلفن . ثم امال قبعته على جبهته ، واندفع على السلم الحلزونى .

وظل رئيس المدفعية يراقب السهل حتى غابت الشمس . وبعد ذلك اتصل بالمجلس العسكرى ، وقال فى السماعة بخفوت ووضوح :

– يا رفيق ستالين . فى الجبهة اراه ضباط يحل محل القوزاق .

فجاءه الرد :

– اعرف . سيصلك قريبا مظروف .

وبالفعل بعد مدة قصيرة سمع فرقعة موتسيكل . وترددت صرير على السلم ثم انسل فى الفتحة بصعوبة رجل ثيابه من الجلد الاسود . ولم يكن رئيس المدفعية قصير القامة ، اما سائق الموتسيكل هذا فقد كان اطول منه :

– من رئيس مدفعية الجيش هنا ؟

ولما سمع «انا» طلب منه الهوية . واشعل عود الثقاب وقرأ حتى احترق العود كله ولسع اظافره . عند ذلك فقط قدم له المظروف بشك بالغ . ونزل عائدا الى الاسفل .

كان فى الظرف قصاصة ورقة صفراء ، كتب فيها رئيس المجلس العسكرى بيده :

«آمركم ان تحشدوا فى الليل وقبل حلول الفجر ، كـــل المدفعية (وهناك خط تحت «كل») والذخيرة المتوفرة فى القطاع الممتد خمسة فراسخ بين فروبولوفو وسادوفايا على ان يجرى التحرك بكل سرية ممكنة» .

ظل رئيس المدفعية يقرأ ويعيد قراءة هذا الأمر المفاجئ والمخيف . كان يحمل فى طياته اكثر من المجازفة ، وتنفيذه صعب بشكل لا يصدق . فقد كان يعنى حشد كل البطاريات السبع والعشرين (٢٠٠ مدفـــع) فى قطاع صغير جدا هو قطاع الثغرة . لماذا لو ان العدو لن يزحف على هذا المكان بالذات ، بل يوجه ضربته يسارا او يمينا ، او وربما ضرب – وذلك اخطر – على الجناحين ، فى ساريبتا وغومراك ؟ عندئذ سيكون التطويق ، الهزيمة !

جلس رئيس المدفعيـــــة الى التلفون فى حالة من الارتباك النفسى العميق ، واخذ يتلقن الى امراء الكتائب مشيرا عليهــــم بالطرق التى يسلكونها ، والاماكن التى ينقلون فيها جميع قوائهم الهائلة الضخمة : آلاف الناس والخيول وعجلات الجيش والعربات والخيام . وكل ذلك يجب أن يتحـــــل ويرسل وينقل ، ويفرغ ، ويوزع بين المواقع . ثم يجب حفر الخنادق للمدافع . ومد الاسلاك الشائكة وكل ذلك خلال بضع ساعات قبل الفجر .

ودون ان يتحول عن التلفون صاح على الرجال فى الاسفل بان يجلبوا الفانوس ، ويبلغوا جميــــع المراسلين باعداد الخيول . فك ياقـــة قميصه السميك ، وراح وهـــو يسند على راسه الحليق ، ويملى اوامر قصيرة يتسلمها المراسلون ، فيهرولون من برج الماء ، ويمتطون الخيول ، وينطلقون فى جنح الليل . كان رئيس المدفعية ذا دهاء ، فقد امر بان تشعل نيران فى مواقـــع البطاريات بعد ان ترفع هذه البطاريات من اماكنها ، وان تكن هذه النيران غير كبيرة لتبدو طبيعية حتى يظن العدو بان الحمر فى الليلة الباردة يدفئون اقدامهم الحافية على النار .

ثم قرأ الأمر مرة اخرى ، وفكر بان من غير الصحيح تماما تعرية الجناحين ، وقرر ابقاء ثلاثين مدفعا قرب ساريبتا وغومراك . وحين اجابه امراء الكتائب بان الخيـــــول جاهزة ، وان القذائف والمعدات الطبية قد شحنت ، واشعلت النيران هنا وهناك حسب

الاوامر جلس رئيس المدفعية فى سيارة قديمة تسير على خليط من الكحول والكيروسين ، وتقرقع بجسمها مثل عربة غجر ، واتجه بها الى مقر القيادة فى تساريتسين .

سار مقرقعا فى المدينة المظلمة الخالية ، وتوقف عند دار تاجر ، وركض على السلم غير المضاء الى الطابق الثانى ، ودخل غرفـــــة كبيرة ذات نوافذ قوطيـــــة وسقف بلوطى لا يضيؤها غير شمعتين تقف واحدة على منضدة طويلة تناثرت عليها الاوراق . اما الثانية فيرفعها قائد الجيش فى يده عاليا ، حيث كان واقفا عند الحائط امام الخريطة . والى جانبه رئيس المجلس العسكرى يعلم بالقلم الأحمر على مواقع القوات للمعركة فى الغد .

ورغم ان الغرفة لم يكن فيها غير هذيــــــن الشخصين – الصديقين القديمين – فان رئيس المدفعية قد تقدم حسب الاصول العسكرية ، وابلغ عن سير تنفيذ الامر . انزل قائـــــد الجيش الشمعة ، والتفت اليه . وابتعد رئيس المجلس العسكرى عن الخريطة وجلس الى المنضدة . قال له رئيس المدفعية :

– سيتم نقل عشرين بطارية قبل الفجر الى القطاع الاوسط كما وضعت سبعة بطاريات على الجناحين قرب ساريبتا وغومراك .

واشعل رئيس المجلس العسكرى غليونه ، وطرد الدخان من وجهه ، وسأل بخفوت وصرامة :

– اى جناحين ؟ ما شأن ساريبتا وغومراك هنا ؟ الأمر لم يتحدث بكلمة واحدة عن الجناحين . انك لم تفهم الأمر .

– لا ، ابدا . فهمت الأمر .

– جاء فى الأمر (وارتعش جفناه السفليان وتقلصت عيناه) جاء فى الامر بوضوح : تركيز جميع المدفعية ، كلها حتى آخر مدفع فى القطاع الاوسط .

نظر رئيس المدفعية الى قائد الجيش ، الا ان هذا رد على نظراته بنظرة جادة صارمة .

قال رئيس المدفعية بحرارة :

– تكن هذا الأمر ، ايها الرفاق ، رهان على الحياة والموت .

واكد رئيس المجلس العسكرى :

– بالضبط !

ووافقه قائد الجيش .

— ولكن ماذا سيحدث لو اننا نجمع قبضة قوية فى القطاع الاوسط ، ونكشف الجناحين تماما ؟ اين الضمان فى ان البيض سيزحفون على القطاع الاوسط فقط ؟ وماذا لو شنوا المعركة فى مكان آخر ؟ المشاة وحدهم لن يصمدوا للهجوم . فقد انهكوا خلال اليوم . وسيكون الوقت متأخرا لاعادة تنظيم البطاريات من جديد . . . وهذا ما اخشاه . . القطارات المصفحة لا يعتمد عليها بعد الآن ، وسيضطر المشاة على اية حال الى التراجع هذه الليلة عن الطريق الدائرى . . . وهذا ما اخشاه .

نقر رئيس المجلس العسكرى باصبعه على المنضدة مرة ثم اخرى وقال :

— لا تخش ! لا تخش ! لا تتردد ! اليس من الواضح لك ان البيض لا بد سيلقون بكل قواهم غدا فى القطاع الاوسط بالذات ؟ . . ان ذلك تمليه بالضرورة نتائج العمليات الحربية يوم امس . ان اكبر فشل لهم كان بالقرب من ساريبتا ، ولن يرغبوا فى ان ينسوا بانفهم هناك مرة اخرى ، فهم يعرفون حركة لواء بوديونى فى مؤخرتهم . ولنجاحهم بالامس فى القطاع الاوسط تتلخص فى انهم تمكنوا من التوغل فى خطوطنا الامامية . واخيرا فقطاع فروبوتوفو — سادوفايا هو انسب مكان لهم اذكله منخفضات ، كما انه اقصر طريق الى تساريتسين . وانت نفسك ابلغتنى عن وضع لواء الضباط فى محل القوزاق . فاستخلص استنتاجا من ذلك . ان لواء الضباط هو اثنا عشر الفا من المتطوعين الضباط النظاميين المتمرسين بالقتال . والجنرال مامونتوف لا يرمى هذه القوات للفرجة . . . ان لدينا جميع الاسس للاعتقاد بان الهجوم سيكون فى القطاع الاوسط بالذات .

وقال قائد الجيش :

— التقارير المسائية تؤكد ذلك ايضا . البيض سحبوا من القطاعين الجنوبى والشمالى اربعة عشر او خمسة عشر فوجا ، وهم يسيرونها الآن عبر السهب . . . هذا بالاضافة الى لواء الضباط . . .

قال رئيس المجلس العسكرى :

— وبهذا الشكل ، يقدم العدو بنفسه الظرف المواتى لنا لنكسر قواه الرئيسية اذا ما كنا حازمين وجريئين غير مترددين ، ومهمتنا غدا لن تكون رد الهجوم بل القضاء على نواة جيش الدون . . .

ابتسم رئيس المدفعية ابتسامة عريضة ، وجلس وضرب ركبته بقبضته ، وقال :

— يا للجرأة ، يا للجرأة ! لا مجال للاعتراض . سأصليه نارا حامية تجعله يركض مهرولا حتى الدون .

حرك رئيس المجلس العسكرى الشمعة نحو الخريطة التكتيكية ، واخذ رئيس المدفعية يوضح نيته فى وضع البطاريات واحدة لصق الاخرى فى عدة صفوف .

قال له قائد الجيش :

— لا تتخندقوا . ضعوا المدافع على اكمات مكشوفة . وقدموا المشاة لصق المدافع تماما . اذهب لتبلغ الى امراء الوحدات .

وبعد عدة دقائق بدأت حركة صامتة عجلى على طول خط الجبهة الممتدة اربعين فرسخا . وفى السهل المظلم ، تحت السماء المرصعة بالنجوم حيث كانت المجرة تلمع ذلك اللمعان الذى لا يحدث الا فى ليال نادرة من الخريف انطلقت الخيول بالمدافع ، ومدافع الهاون . وسارت المدافع الثقيلة تجرها ثمانية ازواج من الخيول ، واندفعت العربات ذوات العجلتين . وتحركت وحدات المشاة من اماكنها دون ان يلاحظها العدو وتراجعت فى شبه دائرة دفاعية متماسكة .

والتقى البوالون نوبة استيقاظ فى السهب الاشيب المغطى قشرة من الجليد مستنفرين الافواج القوزاقية الى المعركة . واطلت الشمس من وراء سهوب الفولغا . وهدرت المدافع من بعيد ، وطقطقت الرشاشات . وكانت جبهة الحمر صامتة وكلها فى الظل ، والشمس قبالتها . وكان الامر قد صدر لجميع البطاريات بانتظار الاشارة ، وهى اربعة انفجارات عالية لقنابل الشرابنيل .

بدأ هجوم البيض بزوبعة من النيران من خط الافق . والتصق كل ما هو حى بالارض منكمشا مترقبا وقد اصبح كل نتوء ، وكل حفرة غطاء وملجأ . ومن خلال الهدير كانت فى بعض الاحيان

تتردد صيحة وحشية ، وتتطاير كتل الارض صوية مع عجلة من عربة او معطف عسكرى داخن . واستغرق القصف التمهيدى خمسا واربعين دقيقة . وحين استطاع الناس ان يرفعوا رؤوسهم كان السهل كله يموج بالقوات المتحركة . كان الضباط يسيرون فى عدة خطوط شاهرين حرابهم بلا عجلة او توقف . ووراءهم سار اثنا عشر طابورا من كتائب الضباط وبين كل طابور وآخر فاصلة ، وكانهم فى استعراض . ورفرفت عاليا رايتان لخوجيف . وكانت الطبول تقرع قرعا صاخبا ، وتعول النايات . والى الخلف من المشاة ماجت كتل سوداء لعدد لا يحصى من القوزاق .

– انظر يا ايفان ايليتش ، ها هم الاعداء الطبقيون ! . . ها هم المحاربون ! يا سلام !

– انظر الى ملابسهم . . واحذيتهم . . . مشبعون باللحم . . .

– من المؤسف ان تمزق هذه الملابس . . .

– يا رفاق ، كفوا عن المزاح ، وانتبهوا .

– نحن نمزح لنبعد الخوف عنا ، يا رفيق تليغين . . .

. . . حثت الصفوف المتقدمة خطاها . وكانت على بعد خمسمئة خطوة . . . وكان من الممكن تبين وجوههم . . . يالها من وجوه بشعة بعيونها الغائرة الشاخصة من الحقد ، بوجناتها الناتئة متحفزة لتلتقم اشداقها بصيحة الحرب «هورا !» .

اطل رئيس المدفعية بجسمه من فتحة الجدار الاجرى لبرج الماء ، ومدّ ذراعه الى الخلف ليعطى جندى الاتصال اشارة قنابل الشرابنيل الاربع ! وانتظر دقيقة اخرى . فقد كان يجب ان تعبر الصفوف والطوابير السائرة باتزان على وقع الطبول والنايات خط الطريق الدائرى لسكة الحديد . . . ومرت دقيقة اخرى . . . المهم الا يتحول هؤلاء الشاطئين من الخطو الى الركض . . .

– . . . يا رفيق آمر السرية لا استطيـــع اكثر . . . بالشرف . . .

– عد الى الخندق ، يا ابنى . . .

– احس بالغثيان . . . دعنى ابتعد فقط . . .

– سأقتلك ، يا ابنى . . .

– ارجوك . . يا رفيق ايفان غورا !

– امسك البندقية !

. . . قرر رئيس المدفعية فى نفسه بان يدع هذه الصفوف المتقدمة تصل الى العمود . . . لقد اصبحت الصفوف الامامية تلتوى وتتموج ، ورجالها يتعثرون فى خطاهم . . . (؟) عينيه يرى بوضوح ذلك العمود المائل بقطعة من الاسلاك الشائكة . . . ذلك العمود الذى كان عليه ان يقرر مصير الهجوم كله ، مصير هذا اليوم ، مصير تساريتسين بل ومصير الثورة . . . عليه اللعنة ! . . ثم ان رجلا – فى حذاء اصفر – كان اول من تخطى وراء العمود . وفتح رئيس المدفعية قبضته وراء ظهـــره ، وافرج اصابعه ، وتراجع عبر الفتحة ، وهتف لجندى الاتصال «اشارة ! . .»

انفجرت اربع قنابل شرابنيل عاليا كسحابات قطنية فى السماء الصافية فوق الطوابير الزاحفة . وهز الهواء هدير هائل لم يسمع مثله احد . واهتز برج الماء الاجرى . والقى جندى الاتصـــال بالساعة ، وسد الاليه . وبدب رئيس المدفعية بقدميه وكأنه يرقص ولوح بذراعيه ، وكأنه يدير فرقة موسيقية . . .

صار السهل الذى كانت تزحف فيه منذ لحظة الكتائـــب الرمادية الخضراء فى خطاها الموزونة والمنظمة اشبه بفوهة بركان ضخم متأجج . وكان من الممكن ان تتبين العين من خلال الغبار والدخان ، الصفوف المهاجمة ترتد كالمصعوقة والصفوف الخلفية يختلط بعضها ببعض . ومن الشمال انطلقت القطارات المصفحة فى مؤخرتهم على الطريق الدائرى . ونهضت سرايا الحمر من الخنادق ، وانطلقت فى هجوم معاكس . اختطف رئيس المدفعية السماعة من جندى الاتصال وصاح : «انقلوا النار الى العمـــق ! . .» وحين قطعت العاصفة النارية خط التراجع على البيض شقت صفوفهم سيارات اللورى وعليها الرشاشات ، وبدأ السحق .

٨

كانت داشا جالسة فى فناء صغير على صندوق كتب عليـــه «فوريخ» . ويداها على ركبتيها وقد غسلتهما من توها فكانتا حمراوين من الماء المثلج . اغمضت داشا عينيها ، واشرعت وجهها لشمس

تشرين الاول . كانت العصافير المتخمة الحواصل تنفش ريشها وتزقزق وتتباهى بعضها على بعض ، على اغصان عارية ، حيث كان ينتهى ظل السطح . وكانت منذ حين فى الشارع تلتقط الشعير وروث الخيول الذى يتناثر كثيرا امام المنزل الابيض ذى الطابق الواحد . وقد افزعها قدوم العربات فطارت الى شجرة بتولا . كانت زغردة العصافير تبدو لداشا موسيقى مريحة للغاية وكأنها تقول : مهما يكن فما زلنا نعيش .

كانت داشا فى معطف ابيض مبقع بالدم وقد شدت منديلا بقوة حتى حاجبيها . فى المدينة لم يعد قصف المدافع يهز زجاج النوافذ ، ولم تسمع الانفجارات المدوية لقنابل الطائرات . فقد انتهى فزع اليومين السابقين بزغردة العصافير . ولو امعن المرء التفكير فى الامر لشعر بالكثير من مدى ازدراء هذا المخلوق الحقير المتخم الحواصل للانسان . . . يزغرد العصفور : انى صغير ولكنى حكيم ، انقر الروث ، واقفز من غصن الى آخر وراء عصفورة ، وازغرد للشمس الآفلة ، ثم انام حتى الفجر ، وتلك هى كل حكمة الحياة . . .

سمعت داشا صوت عربات تتوقف خلف البوابة . . . لقد جلبوا جرحى جددا ، وادخلوهم الى المنزل . كانت متعبة بحيث لم تستطع حتى فتح جفنيها اللذين ينسل ضوء وردى من خلالهما . سيدعوها الطبيب اذا اقتضت الحاجة اليها . . . ان هذا الطبيب رجل لطيف فى صوته غلظة وفى نظراته رقة . قال لها «اخرجى الى الفناء حالا . يا داريا دميتريفنا ، فان حالتك صعبة ، واجلسى فى مكان ما . وسأوقظك عند الضرورة . . .» كم من اناس طيبين فى هذه الدنيا ! وفكرت داشا مع نفسها : لو انه يخرج الآن للتدخين لتقص عليه ما لاحظته على العصافير ، فقد بدت لها ملاحظاتها عميقة المغزى . . . وما العيب اذا كان الطبيب قد اعجب بها ؟ وارسلت داشا زفرة ثم اخرى اعمق . . . كل شيء يمكن تحمله حتى الذى لا يطاق اذا قابلتك نظرة حنون . . . ولتكن عرضية ، لان التقاءك بها ترفع روحك المعنوية ، وتقتك بنفسك فيعود الانسان حيا من جديد . . . وذلك ، ايتها العصافير ، لا تفهمينه ! . .

وبدلا من ان يخرج الطبيب طلع من السرداب الذى يقع المطبخ

فيه رجل ذو وجه مصفر عصبى وعينين مأساويتين . كان يرتدى معطف بزة مصلحة التعليم الشعبى ، ولكنه فى هذه المرة لم يكن محزما بحبل . صعد بضع درجات من السلم الآجرى ، ومد عنقه النحيل متسمعا . فلم يسمع غير زغردة العصافير وقال :

— فظاعة . كابوس ! هذيان !

وضغط كفيه على اذنيه ، ثم رفعهما فى الحال . كانت الشمس الواطئة تضئ جانب وجهه بأنفه الدقيق الغضروفى وشفتيه المكتنزتين .

— لا تبدو نهاية لذلك ، يا الهى ! . . — ثم سأل داشا فجأة — هل اصبت بهلوسة صوتية فى وقت ما ؟ اعذرينى ، نحن لم نتعرف على بعض ، ولكننى اعرفك . . . كنت قد التقيت بك قبل الحرب ، فى بطرسبورغ ، فى «الامسيات الفلسفية» . كنت آنذاك اكثر شبابا ، ولكنك الآن اجمل واكثر جاذبية . . . الهلوسة الصوتية تبدأ من بعيد ، وتكون حينذاك بلا صوت ، ولكنها تقترب بسرعة مريعة . ويشمو طنين متنوع الاصوات لا وجود لمثله فى الطبيعة ، ويملأ الدماغ والاذنين . وانت تعين ان لا شيء هناك ، الا طنين فى الواقع ، ولكن هذا الطنين فى داخلك انت . . . النفس كلها متوترة . ويبدو لك انك لن تعودى بعد قليل قادرة على تحمل هذه الاعراق الجهنمية . عندئذ تفقدين الوعى ، فينقذك ذلك . . . وانا اسائل : متى النهاية ؟

كان يقف امام داشا قبالة الشمس مطقطقا باصابعه الرقيقة واحدة بعد الاخرى .

— على ان احفر الطين فى مكان ما ، وامزجه واصلح الموقد ، لانهم انزلونا الى السرداب باعتبارنا عناصر طفيلية . . . ان ابى اشتغل طوال حياته مديرا لمدرسة ، وبنى هذا البيت من ماله . . . تقولين ذلك لهم ! وفى السرداب يتكدس آجر معروف ، وهناك نافذتان تطلان على الرصيف ، وهما متربتان جدا بحيث لا يتسرب النور منهما . وكتبى مكدسة فى ركن . . وامى مصابة بمرض قلب ، وهى فى الخامسة والخمسين من العمر ، واختى مشلولة الرجلين من الملاريا . والشتاء على الابواب . . . آه ، يا الهى !

وفكرت داشا مع نفسها بانه مثل روح «العسكر» في مسرحية «الطائر الازرق» على المسرح الفني ، وانه سيكسر كل اصابعه العشر .

– من لا يعمل لا يأكل ! . . . لقد تخرجت من كلية التاريخ والاداب وكنت احصل على الدكتوراه . . . ودرّست ثلاثة اعوام في مدرسة للبنات في هذه المدينة المنحوسة ، في هذا الجب المغضوب عليه ، حيث انا مكبل من يدي ورجلي بمرض امي واختي . . . ثم هذا هو حصاد الحياة كلها : من لا يعمل لا يأكل ! انهم يضعون في يدي رفشا ، ويجبرونني بالقوة على حفر الخنادق ، ويهددونني حتى اخضع للثورة ، لهذا الاستهتار بحرية الانسان ! لسيطرة القوة البدائية ! . . . وانتهاك الفكر ! . . . انا لست ممن الاعيان ولا برجوازيا ، ولست من «المائة السوداء * » . . وجسمي يحمل ندبة من ضربة حجارة في مظاهرة للطلاب . . . ولكنني لا اريد ان اخضع للثورة التي دفعتني الى سرداب . . ولم اكن اصقل عقلي لكي انظر عبر نافذة صغيرة مترّبة في سرداب الى اقدام المتضجرين السائرين على الرصيف . . . انا لا املك الحق لاقضي على حياتي بالقوة ، فان لي اما واختا . . وحتى في الحلم لا اجد مكانا الجأ اليه ، واختفي فيه . . . «لنحمل المشاعل المتوقدة !» ولكن الى اين نحملها ، ولم تبق في الدنيا كهوف معزولة . . .

وكان يتحدث بكل ذلك بسرعة غير اعتيادية ، وعيناه تائهتان . اصغت داشا اليه بلا دهشة ولا عطف ، وكان هذا الرجل العصبي الذي طلع من مطبخ في شبه سرداب تتمة ضرورية لرعب تلك الايام من الدوي والحرائق والاموات الجرحى .

وسأل مباغتة بصوت اعتيادي مدمدم :

– ما الذي جاء بك اليهم ؟ التهور ؟ الخوف ؟ الجوع ؟ اود ان اقول لك انني راقبتك خلال هذين اليومين وتذكرت كيف كنت انظر اليك بعين الاعجاب الصامت في «الامسيات الفلسفية» في بطرسبورغ ، وانا لا اجرؤ على ان اتقدم منك واعرفك بنفسي . . . انت تقريبا

---

* عصابات ملكية رجعية معادية للثورة . (المترجم) .

«السيدة المجهولة» * لالكسندر بلوك . . . (وفكرت داشا على الفور : لماذا «تقريبا» ؟) الاميرة التي يجب ان تطرز بالذهب تلبس مثلا لفرا ويداها حمراوان ، وتنقل الجرحى . . فظاعة ، فظاعة ! . . هذا هو وجه الثورة . . .

واشتعل الغضب في قلب داشا فجأة حتى انها زمت شفتيها ، ولم ترد بكلمة واحدة على هذا العصابي الاصفر الشاحب ، ودخلت البيت صدمتها ، بعد الهواء الطلق في الفناء ، رائحة اليودوفورم والجسد الانساني المعذب .

كان الجرحى يرقدون في كل حجرة على اسرة متلاصقة مصنوعة من الواح خشنة . ورأت داشا الطبيب في غرفة العمليات ، نفس الغرفة التي كان معلم مدرسة البنات يكتب رسالته فيها قبل اخراجه منها . كان الطبيب يمسح بالفوطة ذراعيه المشعرتين المشمرتين الى ما فوق المرفق . وحين رأى داشا غمز لها بعينيه البنيتين .

– هل تأخرت قليلا ؟ اما انا فقد اجريت هنا عملية طريفة : قطعت لشاب حوالي خمس اذرع من امعائه الدقيقة ، وبعد شهر سأشرب معه الفودكا . ثم انهم جلبوا امرأ آخر مصابا بصدمة حادة . . . حقنته بالكافور ، والقلب يعمل ولكنه ما يزال فاقد الوعي . . . راقبي نبضه ، فاذا بدأ ينخفض احقنيه مرة اخرى . .

القى الفوطة على كتفه ، وقاد داشا الى سرير خشبي . كان ايفان ايليتش تليغين ممددا على ظهره . كانت عيناه متقلصتين بشدة ، كان ضوءا قويا مسلط عليهما . وكانت شفتاه المشرودتان مضمومتين . امسك الطبيب بيده اليسرى الموضوعة على صدره ، وجس النبض ، وهز اليد هزة خفيفة :

– أترين ؟ لقد كانت متجمدة وكأنها متشنجة . . . الصدمة تتجلى احيانا بصورة غريبة . . . انها لم تدرس الدراسة الكافية . . . ومظاهرها تشبه مرض الصرع لدى الصغار الرضع . . . الجهاز العصبي المركزي لا يتمكن من الصمود امام هجوم مباغت . .

وقطع الطبيب كلامه ، لانه هو نفسه اصيب بصدمة مباغتة

---

* «السيدة المجهولة» هي قصيدة رمزية كتبها الشاعر الروسي الكبير ا . بلوك (١٨٨٠ — ١٩٢١) . (المترجم) .

ولو كانت خفيفة . اذ ركعت داريا دميتريفنا على ركبتيها بوقسة امام السرير ، وضغطت وجهها كله على ذراع الأمر ، حتى تركها الطبيب .

٩

استيقظ فاديم بتروفيتش روتشين في ساعة متأخرة في غرفة الفندق الوضيعة بشباكها القذر المغطى بجريدة مصفرة ، وكان يلتحف بطانية خفيفة في سرير قصير . سيغادر القطار في ساعة متأخرة من الليل ، وكان امامه نهار طويل خاو . ولم تبق في علبة السكائر غير سيكارة واحدة . دعكها ، واشعلها ، واخذ ينظر الى يده النحيلة المعروقة ببشرتها المنكمشة من البرد . لم يؤد بحثه عن كاتيا الى نتيجة . . . انه لم يجدها ، والاجازة قد انتهت ، وكان يجب ان يعود الى فوجه في كوبان .

بعد يومين سينزل من عربة القطار ، ويستقل عربة ، ويسافر في السهب دون ان يتحدث الى ضابط الصف الجالس على مقعد السائق . وفي الشارع العريض في القرية ستغطس عجلات العربة في البرك المملوءة بماء المطر الخريفي الذي لا جدوى منه . وسينزل من العربة الى الوحل ، ويأمر بان تحمل حقيبته الى الكوخ ، ويذهب هو الى ادارة القرية حيث مقر القيادة ليقابل آمر الفوج اللواء شكيمكن .

وسيجد هذا الاحمق المنعم يطالع مقطوعات شعرية للرمزيين : «الدائرة الملتهبة» لسولوغوب او «اللآلئ» لغوميليف . وبعد تقديم التقرير سيتسلم فاديم بيتروفيتش مفرزة ، وقد يتسلم سرية ، وتبدأ الاعمال الرتيبة : التدريب العسكري ، وزيارة نادي الضباط حيث سيسألونه عن الفتيات ، والسكر والعربدة ويتفكهون على نحوله وشعره الشائب وهيئته المتجهمة . وفي الامسيات يذرع حجرته من ركن الى ركن . وفي الساعة العاشرة سيخلع له الجندي المرافق حذاءه في صمت . وهذا احتمال واحد ، اما الثاني فقد يكون الفوج في الجبهة ، في القتال . . .

وتراءى له نفس السهب المقفر تظلله طبقات من سحب الشمال ، وفيه مداخن المواقد المتبقية بعد الحرائق ، والعربات

المغروزة في الوحل وعليها الجرحى ، والخيول النافقة ، وفي الطرف الآخر من هذا السهب خندق فيه ناس ، راقدون بين القاذورات والخرق المدماة . . . وتخيل نفسه متفائلا دائما ، ثم قدريا ذائع الصيت ومثالا للكراهية الباردة التي ليست في نفسه ، والتي لم يعد يشعر بها منذ زمان . فليس في نفسه غير النفور والغثيان لدى التفكير في الناس .

قعد على السرير محاولا ان يزرر قميصه ، ومد يده يبحث عن تبغ في بنطلونه الذي سقط على الارض واستلقى ثانية شابكا يديه وراء رأسه .

«لا يمكن البقاء في هذا المزاج على اية حال» قال لنفسه بصوت ، ولم يكن ذلك صوته ، ولم يعجبه ، وارعبته الطريقة التي قاله بها . . . «لماذا لا يمكن ؟ وما هذه «على اية حال» لا يمكن ؟ كل شيء ممكن ! حتى شد طرف الحزام على قبضة الباب والطرف الآخر حول الرقبة . . . هيا ، يا روتشين ، كن نزيها . . . يالك من شاعر . . . انت ولد مثل الآخرين» .

واخذ يتذكر بغيظ وانتقام آلاف اللقاءات هنا في يكاترينوسلاف . . . نساء على وجوههن آثار التعب بسبب الاجلاء وبقايا بائسة من العفة ، يتجولن من فندق الى آخر يعرضن مختلف الاشياء «العزيزة كالذكريات» ، وجنرالات يطبطبون على شهرك كلمات تحبب ، حليقي الوجوه جدا ، مفعمين بالصحة ، ومضاربين وتجار متخصصين في بيع وشراء فواتير شحنات البضائع الحكومية في السكك الحديد ، واقطاعيين صاخبين هاربين من عزبهم ، فكانوا يرقصون في غرف الفنادق مع زوجاتهم الحمقاوات وبناتهم الطويلات المنمشات التعيسات يستدينون ويأكلون في المطعم بشرف ، ويعلمون الطباخين طهي أكلات غرائبية ويسمون الثورة شغبا ، وبشكل عام ، يقضون الوقت وسط ابهج الآمال التي لم تزايل الاعيان الروس حتى في احلك الاوقات . وتذكر غليظ الناس في جو الفندق ، الذين فقدوا الوضع الاجتماعي بسرعة بالغة ، فلم يكن من الممكن تمييزهم الا من ازرارهم المعلمة والمطلية رؤوسهم ، فهذا مدع عام امسك بشباب وقح ومضارب محظوظ ،

يحاول ان يقنعه بشراء ساعة عاطلة . اما هذا الرجل الاشيب الساعل ذو العصا فرئيس دائرة المالية ، والظاهر انه قد بدد اشياءه الثمينة ، فهو ينظر بحسد الى الصفقات الكبيرة ، والى الايدى السريعة التى تتعامل بالنقود .

والمضاربون الشطار فى بدلاتهم الفاخرة يدخلون راكضين من الابواب الامامية ، ويتجمعون جماعات ، ويتهامسون بعصبية واصابعهم وعيونهم لا تستقر ، ثم يندفعون ثانية الى الشارع وكانهم آلهة التجارة والنجاح . وفى البهو يمكن ان تعرف عن حركة الشحنات الحكومية ، وعن صهريج زيت صناعى قد فقد ، وعن سعر الدولار الذى يصعد ويهبط عدة مرات فى اليوم فى تبعية مباشرة لهجمات الفرنسيين والالمان المضادة فى الجبهة الغربية . ولكن هذه امور جدية ... والمضاربون الصغار فى البهو يتنحون جانبا ، وتتركز عيونهم المتراقصة من الانفعال على رجل «كبير الشان» .

وكان مثل هذا الرجل يدخل وقورا متمهلا يرتدى معطفا طويلا جدا وسدارة مخملية تنحدر على يافوخه ، وفى يده مقلة ، ولحيته تنسدل على رقبته . فتبدو مصروفة لا تمس ولا يمكن لصاحبها ان ينزع منها شعرة واحدة ويلويها الا فى حالة التركيز الفكرى فقط ، وتعكس عيناه صورة لحياة فكرية مجهدة منزهة من الاشياء التافهة ، لرجل مفكر يوازن ويبحث ويجد تلك العناصر التى تسبب هبوط او ارتفاع خلاصات الطاقة العالمية ، اى العملة الصعبة .

وفى البهو وفى الشوارع القريبة من الفندق تجرى اللعبة - وهى محرمة رسميا من قبل سلطات الهيتمان وقيادة الاحتلال الالمانى . واللاعبون فى حركة دائبة على الرصيف من باب الفندق حتى اقرب مفترق طرق . وهم يشترون ويبيعون مستعينين بالنظرات المتفرسة ، وحركة الاصابع ، وبعض الكلمات . ولا يملك احد منهم عملة صعبة ، فهى مخفية وكميتها فى المدينة غير معروفة بشكل عام . وهم يلعبون على فرق السعر ، وتسوى الحسابات بالعملة الهيتمانية . وفى دقيقة واحدة تتكون ثروات ، وفى دقيقة اخرى يصبح الغنى مفلسا . ويذهب المحظوظ مع بطانته الى المقهى حيث يأكلون الكعك مع قهوة بذور البلوط . اما الخاسر فيتسكع على الرصيف يائسا ، وريح تشرين الثانى التى تكنس قصاصات

الورق والاوراق الساقطة تعصف باذيال معطفه الطويل المشربة .

ان نزلاء هذا الفندق المزدحمين على الارصفة وفى حوانيت التبغ والمقاهى والمطاعم ، والمتاجرين فيما بينهم حيث يغش احدهم الآخر كانوا جزءا من القطيع الصاخب الجشع الذى كان يجأر ويثغو فى كل المدن المنتزعة من الثورة ، حيث يجد الحرية فى ان يزدرد ويشرب ويتسافد ويغش ويدخل فى مضاربات ... وكان ينبغى ان يحمى هذا القطيع بالحراب والمدافع ، وتنتزع له مدن جديدة ، وتقام له روسيا عظيمة موحدة غير قابلة للتقسيم مطهرة من الاقة البلشفية .

ردد فاديم بتروفيتش بصوت مسموع مرة اخرى : «وضاعة . وضاعة وكذب ... حسنا وماذا لو هربت من الجيش ؟» .

واخذ يفكر فى ذلك مرغما لاول مرة فى حياته الاعنة الخلقية ، كاشفا فى نفسه باستمتاع حاد مكامن الدناءة والخسة ... بل وضحك واسنانه مصكوكة ... لقد كانت افكاره كابداع فجائى ، كالاثم الاول ...

«من اجل اى قدسيات ، يا صاحبى ، جريت فى دروب الحياة ممسكا عنان نفسك ؟ واعتبرت نفسك رجلا لائقا ، عضوا فى مجتمع لائق ، بل وغادرت الفوج الى الجامعة لتوسيع افقك الفكرى ... فى صباك كان يخيل اليك انك شبيه بالمريد بولكونسكى . واعطاك الدافع الخلقى الرضا ، وكان ذلك كافيا تماما : فقد شعرت بانك طاهر . كنت تدير وجهك باشمئزاز عن كل ما هو مشكوك فيه وغير نظيف كما تديره من حفرة قاذورات . وكانت لك ثلاث علاقات فقط مع نساء متزوجات ، قطعتها عندما كانت هذه العلاقات فى ذروة الصفاء ، حين اخل الفضول المضطرب مكانه للقبل الرطبة المعتادة ... وهذه هى الحصيلة العامة : الى اين قادتك الحياة اللائقة وراسك المرفوع بعزة ؟ الى رفات نار ! الى هيكل محترق لانسان !»

ولما وصل فاديم بتروفيتش الى هذه النتيجة بدا بتقليب منهجى لامكانيات الهروب من الجيش . الفرار الى خارج البلاد ؟ ان

الحرب تجتاح العالم بأسره . وفي كل مكان يبحث المخبرون عن الاجانب المشتبه بهم ، ويسوقونهم الى السجون ويشنقونهم هناك . . . وفي جميع العالم تحمل البواخر الشبان المتحمسين . . . وهؤلاء يزعقون «عن قريب سنقضي على الالمان الخنازير ، ونعود الى فتياتنا المرحات . . .» وفي المحيط يصيبهم طوربيد ، ويتخبط الشبان المرحون في الماء المثلج حول رقعة من الزيت . . . في اوربا طوابير الشبان في البسة الكاكي المخاطة كما تخاط الاكفان على الاموات يندفعون مطيعين بصفوف متراصة وفي يأس قانط للقاء الرشاشات وقاذفات القنابل ومدافع الهاون وقاذفات النار ، النار من امامهم ، والنار من خلفهم . فالسفر الى الخارج يسقط من الحساب . . . من الممكن التسلل الى اوديسا ، والحصول على جواز مزور ، والعمل نادلا في مطعم كباب . . . ولكن احدا من الناس سيكتشفه ويقول مندهشا : «اي ، اي ، اي . روتشين ، أ هذا انت يا صاحبي ؟» أم لعله يضارب بمقادير صغيرة ، او حتى يسرق ؟ ان ذلك يحتاج الى رصيد كبير من الحيوية . ام يعيش على مصاحبة النساء ؟ ولكنه ليس شابا . . . «حسنا ، ولنفرض انني عشت بطريقة ما حتى النصر النهائي : الاشتراكيون قد شنقوا جميعا ، والفلاحون يجلدون ، والانجليز قد صفحوا عنا ، وتبدأ بشعور من التقصير في جمع جيش وراء الفولغا لسحق الالمان . ثم اوزع السلاح ، وفي يوم من الايام ينقلب الجنود على الاسياد الضباط ، ابطال «الحملة الجليدية» . وتبدأ الحكاية من جديد ، وكاتيا المسكينة التي لم اجدها حتى الآن ستنادي لآخرة مرة في مكان ما في محطة قطار محطمة النوافذ ، وسط النائمين والهاذين والموتى : «فاديم ، يا فاديم . . .» ثم ان هناك امكانية اخرى ! ان اشنق نفسي . . . في الحال . . . أذلك شيء رهيب ؟ ابدا . . . ولكن من المقرف ان اقوم بهذا الجهد على نفسي . . .»

كانت يداه باردتين كالثلج ، وقد احس ببرودتهما بقفاه . ولم يستطع ان يستقر على قرار . وكأن اشخاصا صغارا يدبون في نفسه كالذباب ويتناهبون ارادته وروحه . . . وحين يأخذ الظلام بالهبوط سينهض ، ويلبس بنطلونه ، ويذهب ماشيا الى محطة القطار ، ولربما يشتري سيكاير احتياطا للطريق . . وسيمضي في

العيش ، فان سيفــا لن يمس مثل هذا الرجل ، ولا تصيبه رصاصة ، ولا تلسعه قملة تيفوس . . .

كان صوتان رجوليان غاضبان يتجادلان بمجالة منذ وقت بعيد وراء الجدار ، فيترددان اليه من خلال باب وضعت امامه خزانة . وكان صاحب احدهما يبدأ كلامه دائما بعبارة «اسمع ، يا سيد يابريكاكي ، لو كنت الرب . . .» ولكن الآخر لم يدعه يكمل فكان يقول : «اسمع يا غابل انت . لست ربا بل حمارا ! يجب ان يكون المرء مخبولا ليشتري اسهم «كروب شتالفيركه» قبل نصف ساعة من صدور الجريدة . . .» — «اسمع ، انا لست ربا ! . . .» «اسمع يا غابل ، لو جمعت كل ما عندك لما استطعت تغطية خسائري . انت جيفة . . .»

كانت هذه العبارات تقتحم اذني فاديم بتروفيتش بالقوة . فكر مع نفسه «اللعنة ، ليتني ارمي الباب بالرصاص . . .» ثم بدأ جرى واصوات متعجلة وراء الباب الآخر المؤدي الى ممر الفندق : «يجب استدعاء طبيب . . .» — «ما الحاجة الى طبيب انه بارد . . .» — «ما هذا وكيف حصل ؟» — «حصل كما حصل ، هذا لا يعنيك . . .»

خفتت الاصوات ، وتردد رنين مهمازين .

— اعفرني ، يا حضرة رئيس الشرطة ، ارجوك ، هل صحيح انه ابن اخ امبراطور النمسا ؟

— صحيح ، كل شيء صحيح ، هيا ، يا سادة ، افرغــوا الممر .

وبعد ذلك تحدث شخصان بصوت خفيض عند الباب تماما :

— ليس هذا انتحارا على الاطلاق . مرافقه اطلق عليه النار . انه بلشفي .

— كيف يمكن ان يكون ضابطا نمساويا وبلشفيا ؟

— لا يهم . انهم في كل مكان . ليست فقط فينا ، بل برلين نفسها في ايديهم منذ الامس . . .

— يا الهي ، يا الهي . انا لا استطيع ان استوعب ذلك .

— نعم ، يجب الفرار . . .

— الى اين ؟

— الشيطان يعلم . ربما الى جزيرة ما . . .

— صحيح . . . بالأمس سمعت ان فى اندونيسيا الهولندية جزرا تنبت فيها اشجار الخبز . ولا حاجة هناك الى ملابس . ولكن كيف الوصول الى هناك ؟

وبعد ذلك دخل صبى الغرفة بسرعة دون ان يطرق الباب ، انه منظف الاحذية فى الفندق ذو الانف الافطس ، والفم الباسم من الاذن الى الاذن . . .

— طبعة استثنائية ، الثورة فى المانيا . . . يا مسافر ، ادفع ثلاثة روبلات . . .

والقى الجريدة على صدر رونشين دون ان يلحظ عينى هذا المسافر المفتوحتين المفزعتين ، ولا وجهه الشاحب كوجه الاموات .

— سآخذ الفلوس من الحزيز الشباك . اقرأ الجريدة ، يا مسافر .

وخرج من الغرفة وثبا . اخذ قلب فاديم بتروفيتش يدق بعنف ، الا ان ورقة الجريدة الصغيرة المطبوعة بصورة غير واضحة ظلت مطوية على صدره وقتا طويلا . . . ثورة فى المانيـــا ! . . الجنود على سطوح العربات ، المحطات المحطمة ، الجماهير المنشدة باصوات وحشية ، الخطباء الهاتفون من على قواعد النصب التذكارية قارعين الهواء بقبضاتهم : الحرية ، الحرية ! وكان الحرية تعوض عن خبزهم ، عن الوطن ، عن الشعور بالواجب والهدوء الموزون للدولـــة التى تكونت عبر قرون ! الثورة — المـــدن المملوءة بالقاذورات ، القتيات الشعثاوات فى البولفارات . . . والشوق ، شوق الانسان الذى ينظر من النافذة الى السطوح الناحلة للمدينة ، حيث لم تعد سرا . . . وحتى الشمس ارتفعت الى علو شاهق لا يطال . . . شوق الانسان الساعى بجهود جهيدة الى ان يحمل نفسه عبر الحياة وان يحمى استقلاله وعزته وشجاه .

وفطن فاديم بتروفيتش اخيرا الى انه يتكلم بصوت مسموع . لقد كان ذلك يشبه هذيانا والعينان مفتوحتان . نشر صفحـــة الجريدة . كان نبأ اندلاع الثورة فى المانيا مطبوعـــا على عرض

الصفحة كلها بحروف كبيرة . لقد بدأت اثناء المفاوضات على الهدنة فى غابة كومبيان ، حين جاء المفوضون الالمان الى قطار الجنرال فيغان الواقف على خط مسدود للمدافع .

وقد سألوا : ما هى اقتراحات الفرنسيين ؟ ولم يدعهـــم الجنرال الى الجلوس ، ولم يمد لهم يده ، واجاب بشراسة باردة : «ليست لدى اية اقتراحات . يجب حمل المانيا على الركوع» .

وفى ذلك اليوم اطيح بالحكام الذين جلبوا العار لالمانيا ، وتشكل فى برلين سوفييت نواب العمـــــال والجنود . وغادر الامبراطور غليوم مقر القيادة فى سبا سرا ، وهرب الى هولنده ، وعلى الحدود قدّم سيفه الى ضابط فى الجيش الهولندى .

بعد بضع دقائق كان فاديم بتروفيتش مرتديا معطفـــه المشدود بحزام شدا محكما ، وقبعته ، واعاد قراءة الجريدة مرة اخرى واقفا عند النافذة . ثم دس فى جيبه اوراق النقد المجعدة ، وخرج الى الشارع .

راى رجلا ركينا يسير امام الفندق وكأنه قد خرج لتوه من حالة القوص من عمق سحيق . كان وجهه الاحمر منتفخا ، وعيناه بارزتين من محجريهما . وكان يكرر وهو يحرك شفتيه الغليظتين المسفوعتين : «ابيـــع سندات كروب شتالفيركســه ، ابيـــع ، ابيع . . .» وكان يقلب عينيه على السابلة بامل مجنون فى ان يجد من هو اكثر حماقة منه . . .

اخذ الجنود النمساويون يدفعونه ويضغطونه نحو الحائط . وكانوا قد جاءوا جماعات لا نظامية ، وقـــــد القوا بنادقهم وراء ظهورهم وسبطاناتها الى الاسفل . . . وكان ذلك احد مظاهـــر الثورة : الامتناع عن قتل الانسان منذ يومها الاول . . . وعلى الرصيف الى جنب هذا الجمع سار ضابط نحيل ذو شاربين حريريين فتيين ، ووجهه الرقيق الذى توتـــرت قسماتـــه يشـــخ بترفع ، وعلى كتافيته اليسرى شريط احمر . ان هذا الفتى الذى اوصل الى الفوج فى زمن الحرب لم تتح له الفرصة ، على ما يبدو ، لأن يزهو فى بزته العسكرية الجديدة ساحبا قراب سيفه المعدنى

على ارصفة فيننا المرحة بنسائها اللعوبات الفاتنات . وقد كُتب له وهو فى ريعان الصبا وبشاشته ان ينتخب الى لجنة الجنود ، وها هو يقود سريته إلى محطة القطار للجلاء تحت نـار النظرات الشامتة الهازئة المتقاطرة عليه من الجانبين . . . بينما تجتـــاح فيننا الفوضى والمجاعة ، ويقيم العمال المتاريس .

تابع روتشين ببصره طويلا هؤلاء الاوربيين المتشامخين . وقد خامره ايضا شعور الشماتة محدثا نفسه : «لم تمكثوا طويلا فى اوكرانيا ، تأكلون الوز وشحم الخنزير . . . يبدو ان اتفاقية بريست انقلبت عليهم فى منقلب وعر . .» الا انه تعبس فى الحال : «ولكن ما شأنك بذلك ؟ انهم يخلدون الى الدعة فى موسكو . أما انت ، فاذهب الى خندق عفن ، مع اصحابك المعادين للثورة . . .» وازداد عبوسه لأنه نطق بهـــذا التعبيـــــر الأخير لأول مـــرة وبهدوء وسخرية . . . ففى هذا التعبير بالذات كان يكمن سبب تمزقه الروحى . لقد كانت كاتيا ابعد بصرا منه حين قالت عند تشاجرهما العنيف فى روستوف «لو كنت مؤمنا من كل قلبـــك بعدالة قضيتك فاذهب واقتل . . .» ولكن كلمة المعادى للثورة تعنى الوغد السافل وفق كل المفاهيم التقليدية للمثقف النزيـــه الذى يحترم نفسه . . . فحاول ان تعيش مع ذلك . . .

ضم يديه فى جيبى معطفه وسار متصعـــــــدا فى بولفـــار يكاترينينسكى العريض ، وكانت مشيته ايضا متعبة ولحد سافل ، مشية شاحطة متثاقلة . مرّ بصالون حلاقة فوجد نفسه ينظر دون ارادته الى هيئته فى مرآة ضيقة معلقة الى جانب الباب . واطلت ابتسامة خبيثة معوجة على وجهه الشاحب شحوب الموتى . دخل ، وجلس على مقعد الحلاقة دون ان يخلع معطفه ، وطلب ان يحلق ذقنه . وهنا، فى هذا الصالون ايضا ، كان كـــل شىء يدفعه الى الغثيان : المكان الواطئ الدافئ الذى لصقت عليه باعمال اوراق جدران رخيصة ، والحلاق نفسه وقد وضع المشط فى شعره المملوء بالقشرة . ويداه القذرتان الرقيقتان الفواحتان برائحـــة حلوة كريهة .

تحدث الحلاق وهو يطرق زبد الصابونة متباطئا فى بدء دعك ذقن فاديم بتروفيتش :

— وكأن الحياة كانت بلا متاعب لتغرق فى متاعب اخرى . . . حاربوا اربع سنوات ، والآن عندهـــم ثورة . . . فبـــم كانوا يفكرون ؟ لماذا لم يسألونى ؟ — وفتح الموسى ، واخذ يشحذها بعنف — هناك سياسة كبرى ، وهناك شغلنا الصغير الهادئ ، فارجو لك ان تعرف الفرق بينهما — واخذ يفرك خدى فاديـــم بتروفيتش بالزبد الحار — انت اليوم اول زبون لى . ان الناس يفقدون عقولهم . فاذا كان الامبراطور غليوم قد فرّ الى هولندة فان احدا فى بلدتنا لا يريد ان يحلق ذقنه ! دعنى اقـــول لك السبب . انهم جميعا يخافون البلاشفة ، ويخافون فصائل ماختو ، انهم يريدون ان يرسلوا ذقونهـــــم ، ليشبهوا البروليتاريين — وسحب الموسى على ذقن زبونه بشحيط — اعذرنى ربما لا تحب ان يمسك الحلاق بارنبة انفك ؟ هناك من الزبائن من يطلب ذلك . لقد تدربت فى كورسك ، وكان استاذنا يعمل حسب الموضـــة القديمة . فكان يدخل اصبعه فى فم الزبون . اما بالنسبة للاعيان فكان يستخدم الخيارة . فكان يتقاضى على الحلاقة بالاصبع عشرة وبالخيارة اثنى عشر . وكان ذلك ثمنا طيبا . ساحلق لك مرة اخرى ، عندنا متسع من الوقت . قبل ان تأتى بلحظات مرّ علىّ رجل مجنون . هل تعرف بابريكاكى ؟ انه مالينا الكبير . عنده اضطراب اعصاب ومن المستحيل ان تحلق له ، فان على خديـــه بثورا ، وحتى لمسها بالفرشاة يسبب ألما فظيعا له . واليوم ، والحمد لله ، قد انتشرت فى جسمه كله . اراد ان يدخل السلوان الى قلبى بقوله : ان الالمان مزمعون على الخروج من اوكرانيا ، وان البلاشفة بداوا الهجوم بالقرب من بيلغورود ، بينما اعلنت حكومة اوكرانية جديدة فى بيليا تسيركف : حكومة مديرين . فى الماضى كان عندنا «مجلس رادا» وكانت سوفييتات ، وهيتمان ، ولكن لم تكن لدينا بعد حكومة مديرين . وعلى راســـه بيتلورا وفينيتشنكو . وكلاهما كان من زبائنى فى كييف عام ١٦١٦ . وبيتلورا كان يشتغل محاسبا فى اتحاد الزيمستفو . وفينيتشينكو كاتب وقد شاهدنا مسرحياته . ليس فيها شىء مميز . . . تصور ان امرأة تخدع رساما ، فيتكلم معها كلمات ضخمة . وفى تلك اللحظة يأتى اليها عشيقها ، فتستقبله فى غرفة مجاورة . وتصور

ان الرسام لا يقدر ان يدخل عليهما الحجرة ، كما انه لا يريد ان يطرد هذه الساقطة ، فيعمد الى عض يده ليقطع وترها ، ويصير مشوها نكاية بهذه المرأة . كنت احلق للمينتشينكو وكان وجهه رخوا منقبا . . . يقول بابريكاكى ان حكومة المديرين اصدرت نداء تدعو فيه الفلاحين الى الاطاحة بالهيتمان سكوروبادسكى . . . وكان الهيتمان هذا بلا متاعب ! – وحلق الحلاق وجه فاديم بيتروفيتش للمرة الثانية ، وقلص عينيه ناظرا نظرة غير راضية الى شعره الأشيب غير المشذب ، وقال : اسمح لى بان احلق لك شعرك على طريقة à la boxe ثم لعلك ترغب فى صبغة شعر ؟ بقى عندى شىء من صبغة شعر اجنبية من صنف «جناح الغراب» . فما حاجة الانسان الى هذه الليفة الشيباء ؟ (فقال روتشين من خلال اسنانه : «احلقه كله») ، سمعا – وطقطق الحلاق بمقصه بالقرب من اذنه ، وكأنه يسترسل فى منطلق جديد – اتعرف ، ياحضرة الضابط ما هو احد احلامى ؟ ان اجد فى الدنيا بلدة صغيرة هادئة ، ولو كانت نائية تنيرها مصابيح الكيروسين . . . وهل ترانى بحاجة الى زبائن كثيرين ؟ عشرة زبائن ، وعندما افرغ من العمل اشعل غليونى واجلس عند الباب ، هدوء ومسكينة وعجائز مسالمون يمرون بك فتنهض وتنحنى لهم بالتحية فيردون عليك بمثلها . لا احد يفكر بالناس الصغار ، يا حضرة الضابط ، فقد شطبوا من الحساب . نحن لا نحسب فى الوجود ، حتى تنمو لك هذه الليفة . انظر باية عينة جئت ، وماذا صنعت منك : صورة بهية !

نظر روتشين الى نفسه فى المرآة . كانت جمجمته اللامعة حسنة الشكل رحيبة للافكار النبيلة السامية ، والوجه ضيقا بانحدار لطيف من عظمى الوجنتين البارزين بالكاد الى الذقن غير المفرط فى بروزه ، وغير المستكين ايضا . كان حاجباه الداكنان معقودين على قصبة الانف فتباعدا نحو الصدغين بنزوة ملطفين من صرامة العينين الذكيتين الصغيرتين اللتين تبدوان داكنتين من حدقتيهما المتسعتين . لا شىء فى هذا الوجه يخجل صاحبه منه . الا ان الفم ، على ما يبدو ، قد افسد الامر كله . فى الامكان ان تكذب العينان ، فانهما كاذبتان كاتمتان ، الا ان الفم لا يتقبل التمويه . انظر اليه

دائم الحركة ، بلا شكل ، كاليرقانة . . . الشيطان يعرف ما هذا ! لست فاوست ، يا فاديم بتروفيتش . . . نهض ، والقى على راسه قبعته الميدانية القذرة المثقوبة برصاصة مائلة قليلا الى جانب ، ودفع اجرة سخية وخرج . . . ما زال لم يستقر على قرار . . . الا انه لم يعد يشعر بارتخاء فى رجليه ، ولم يعد يعثر بطرفى حذائه على بلاط الشارع . تلك حصيلة الذهاب الى صالون حلاقة ! ان قطرة صغيرة من الحب قد تسربت فى يأس نفسه الكئيب .

اضيئت الاضواء فى النوافذ . وكانت الريح تعصف فى اشجار الحور الجرداء الضائعة ذراها فى الظلام . وشع مصباح نير بوقاحة فوق باب مطلى لمطعم "كابريه «بى – با – بو» بين جذوع الاشجار فى الجانب الآخر من الشارع . وكان هذا المقصف مشهورا بالشواء على الطريقة الجورجية . واحس فاديم بتروفيتش بعصرة فى معدته ، وهو يفكر فى الطعام ، فانه لم يتناول طعاما منذ يوم امس . كان ذلك احساسا بالجوع قويا قاهرا استولى عليه ، وازاح من طريقه جميع التعقيدات السايكولوجية . استدار روتشين نحو الباب المضاء بعزم . طلعت مخلوقة فى تنورة بيضاء من وراء شجرة ، وحاولت ان تسد عليه طريقه ، وتابعته بهسيس متوسل : «يا عزيزى الضابط ، دعنى اوفر لك متعة . . .»

كان مكانا واطئ السقف طويلا زينه منذ وقت ليس بالبعيد جدا الرسام اليسارى المشهور فاليت الهارب من بتروغراد ، وكان سقف «بى – با – بو» اسود مرصعا بنجوم كبيرة من الورق الابيض . وعلى الجدران السوداء طيوف آجرية اللون وصفراء برتقالية منشورة الاطراف تبدو وكأن عاصفة قد اكتسحتها – هى تخاطيط مستطيلة لرجال ونساء . وكانت هذه الصورة الجدارية جديدة جدا بالنسبة للكابريه . فقد كان الرعب ، لا الحساسية ، هو الذى يسوق هذا التلطيخ العارى فوق الجدران . وقد قال الرأسمالى الذى مول هذا المشروع – وهو بابريكاكى نفسه – قال ذات مرة «اقطعوا اطرافى عن جسدى لو كنت افهم هذا التصبيغ ، فهو يقرفنى ، بينما يجد اعجابا من الجمهور . . .» .

تناول ووتشين غداءه ، وشرب نبيذا . وكان القطار يغادر في الساعة الرابعة ، فعزم ان يمكث في المطعم حتى الثالثة ، وسيرى كيف تسير الأمور ... كان يشعر بالدفء ، وبشيء من الطنين في رأسه .

وكان النادل - وهو تترى من مطعم «يار» الراحل في موسكو ، وصاحب قديم - غالبا ما يقبل عليه ويرفع الزجاجات من جردل الثلج ، ويقول وهو ينحني ليصب الشراب :

- اعذرني ، يا خاديـــــم بتروفيتش ، فانا اجئ اليك باستمرار ... هل تذكـــر موسكـــو ... آه ، انت ترى كيف نعيش هنا . . . ان هؤلاء الاوباش يتراءون لي حتى في النوم . . .

كان المطعم غاصا بالناس ، ورغم جو القلق في المدينة ، حيث كانت طلقات منفردة تتردد في الاطراف وفي ظلام الشوارع الخلفية ، فيحاول الخيالة الهيتمانيـــون من الحرس ان يصموا اذانهم عنها ، اثناء مرورهم مصعدين الى قصر الحاكم ، ورغـــم الذعر في السوق السوداء اليوم . لم يكن برنامج الترفيه قد بدأ بعد . وقد جلس الى البيانو على المسرح الصغير شاب طويل ذو رقبـــة ممدودة يمسك المساعد ، وشعر زنجي منتصب ، مائل الى قفاه . وكان يعزف لحنا من اوبريت .

كان يحيط بمائدة ووتشين جو من الضجيج والسكر . كان بعض اصحاب العقارات من ضاقوا من السام في حجرات فنادقهـــم بين بناتهم الخائبات يتنفســـون عن همومهـــم وراء اباريـــق الخمرة .

صرخ رجل له خدان ناعمان :

- اؤكد لكم ان نهاية الالمان قد حانت الآن ! وفي عشيـــة العام الجديد سيكون فيلق الحملة الانجليزي في موسكو ، وسنشرب الويسكي الاسكتلندي . لا يطلو شر من تلج ! - وقهقـــه الرجل الطيب فاغرا فمه مظهرا اسنانا جيدة - اذن ، فالنصر للثورة الالمانية !

ورفع شخص آخر يده طالبا الانتباه . وكان شديد الهزال ذا عينين تلمعان بسخرية من داخل محجريهما الرماديين :

- اللورد مستشار الخزانة يجلس في مجلس اللوردات على لفة من الصوف ، كما هو معروف . . . الا ان نبلاء سيمبيرسك

كانوا يفخرون بالعمود المرمري في فناء جمعيتهم للتأكيد على ان ما من شيء مزعج يستطيع ان ينال من السادة النخبة النبالية حتى آخر الدهر . . . ولهذا كانوا يهومون مرتاحين تحت ظلة الاوفليون . . . لقد انتهى تاريخ النبلاء الروس . . . وليس لنا ما يكفينا من لفة الصوف . . . تماما كما انتهى تاريخ امنا روسيا ، ايها السادة . . . تزولت آخر صفحة من قصة مدينـــة غلوبوف ، وقذف الكتاب في زاوية ، ولم يحدث هذا خلال الزوبعة والعاصفة ، كما قال احـــد الاذكياء الكبار ، وفي يوم النبي اعتيادي ، بعصـــف الرب واطفأ القنديل . . . لقد بعت ارضي الصغيرة في عام ١٩١٤ ، ومنذ ذلك الحين وانا مواطن عالمي . . . ذلك اضمن شيء . . .

- ذلك جيد بالنسبة لك ، يا سيد ، فقـــد انهيت جامعـــة اكسفورد . اما انا فاين اولي ببناتي الثلاث ؟ اين ؟

تساءل الرجل الطيب المورد الخدين ، ونخر ، ومد يده الى ابريق الخمرة واضاف قائلا :

- اما بشأن نهاية روسيا ، فانا لا اوافق ايضا . ذلك من اثر تعليمك الانجليزي . . استطيع انا ان اعمل مساعد مأمور ، او رئيس عمال ، واستطيع ان احرث بنفسي ثلاثة افدنـــة ، ولكن سنؤمن بروسيا .

وصب شيئا من الخمرة ، والتفت في الحال بثقله الى الرجل الثالث الجالس الى المائدة ، وسأل :

- اين اذهـــب بهن ؟ نشأن فارعات مسطحات منمشات سريعات التأثـــر كأنهن من السيدات بطلات قصص تورجينف ، وذلك كله في زماننا ! وامهن مسؤولة عن كل ذلك . ولكن الذنب يقع علي ايضا ، وانا اعترف بذلك نادما . كانت الكبرى تريد الالتحاق بدورات النساء العليا ، ولكننا اقنعناها بالعدول ، وهي فضلا عن ذلك كســول . . . والجذابة الصغرى الى المسارح ، وكان من الممكن ان تكون ممثلة من الدرجة الأولى ، واؤكد لك ذلك . . . وصرفناها عن ذلك بجهد كبير ، بل واستخدمنا التهديد . . . وباختصار كنت الأب المستبد . وذلك في زماننا هذا ! وكل ذلك بسبب من قلة الثروة . . . والانجليزي ينظر ثلاثة اعوام الى الامام وهو جالس على لفة الصوف - ان هذا صحيح . . . اما نحن فكنا نفكر من

فصل الى فصل ، كما يقولون — وشرب من قدحه محركا خديه ، واضاف بشكل مفاجئ — ولكن بشكل عام لن نضيع . . .

وكان ثالث الجالسين شديد السكر بحيث لم يكن يستطيع الا ان يصرف بأسنانه ، ويأكل الزهور — زهور الاسطر الصغير — يقتطعها من مزهرية على المائدة . ولم يكن يصغي الى شيء ، مثبتا عينيه الكدرتين في المائدة المجاورة حيث جلست عليها فتاة على قدر كبير من الجمال لها عقصة كبيرة بريشة من شعر شاحب الشقرة ، وشاب ضخم في لباس شبه عسكري . كان يبكي بصمت واضعا ذقنه على راحة يده ، لا يعير التفاتا الى احد ، وكان كل الموجودين هنا طيوف حقا . غمضت الفتاة وجهها المستدير الازرق العينين في ضيق ، ومسدت على يده ، وامسكتها ، وراحت تقبلها ، واحنت رأسها على مقربة من الشاب ، وهمست له بعجالة وهلع . هز الشاب وجهه الضخم هزا بطيئا ، وسمع روتشين صوته الكامد الهامد الشبيه بصوت دمدمة النيام :

— اتركيني ، زينا ، اتركيني . . لم اعد اريد شيئا ، لا اياك ولا اباي . .

وكان في امكانه ان لا يقول شيئا آخر ، فقد كان مفهوما بدون ذلك بم ستنتهي الليلة بالنسبة لهذا الشاب . . . كانت الفتاة تشبه كائنا بشيء ما ، لا بوجهها ، بل بعذوبة حركتها الهادئة . . . ستنتهي حياتها ايضا في مكان ما بين مرضى التيفوس في محطة قطار على مفترق طرق . . . جاء فتيان ، وجلسا على عجل الى مائدة شاغرة ، وحجباهما ، كان لكليهما خصلة شعر مشذبة نازلة حتى حاجبيه ، واسنان مسوسة ، وخواتم من الالماس في اصابعه القذرة . قال احدهما للآخر مباهيا «ضربت ماشكا بقضيب حديدي ضربا موجعا ، ودست عليها حتى قرقعت عظامها الساقطة . . . » .

— هل تسمح لي بالجلوس الى مائدتك ، ايها الضابط ؟

هز روتشين رأسه دون ان ينطق بكلمة . فجلس الى مائدته رجل في نظارة من النيكل دافعا قدمين ضخمتين تحت المائدة . كان يرتدي بزة عسكرية خضراء رمادية ضيقة عند الصدر لضابط

الماني من فصائل «الاندشتورم» المتطوعة . قال للنادل وهو ينطق الكلمات الروسية بعسر :

— ارجوك ان تطعمني ، منذ وقت طويل وانا لم آكل ، ثم بيرة ، بيرة !

ونفخ خديه النحيلين مظهرا كيف سيشرب البيرة ، وضحك ، ثم نظر بشيء من الدهشة الى روتشين العبوس مصوبا اليه عينين مادتين زرقاوين كعيني غراب الزرع :

— هل يتكلم حضرة الضابط الالمانية ؟

— نعم .

— اذا كنت اضايقك بحثت عن مائدة اخرى بكل سرور .

— انت لا تضايقني .

وكان جواب روتشين في هذه المرة اكثر لطفا . كان للضابط الالماني وجه من تلك الوجوه الالمانية التي تمتاز بالضيق وصغر الفم مع انبعاج خفيف فيه ، وتظل تحتفظ بمسحة الطفولة والتورد الرقيق حتى الشيخوخة . كان انفه مرفوعا ، وكأنه بدافع من التطلع الحسن النية الى كل انسان . قال :

— من قبل كانوا لا يسمحون لنا ، نحن الجنود ، بارتياد المطاعم ومنذ يوم امس اصبح الانضباط الالماني اكثر معقولية .

ابتسم روتشين ابتسامة معوجة ، فابرخ الضابط الالماني لتحديد فكرته على وجه الدقة رافعا كالاستاذ اصبعا طويلة الاظفر :

— الانضباط لا بد ان يكون معقولا واذ ذاك يكون على شاكلة النظام الاجتماعي ، وشرطا ضروريا للتطور . ومثل هذا الانضباط المعقول يولد من الحركات الاجتماعية العميقة . ولكن اذا لم يكن كذلك ، وكان من وسائل الاكراه فاننا لن نسميه انضباطا .

وهز رأسه مرحا ، منهيا فكرته الغامضة قليلا هذه .

سأل روتشين :

— اتجلون الى المانيا ؟

— نعم . ان وحدتنا انتخبت لجنة فاصدرت هذه اللجنة قرارا مدنيا تماما من حسن الحظ رغم انه لم يتخذ دون مقاومة .

– انت تعرف ما تعنى العبارة الروسية : لا احد يمسكك من رجليك .

– معرفتى بالروسية ليست قليلة . اعرف انهم حين يقولون لك ذلك فمعنى ذلك «اذهب الى جهنم وبئس المصير» . . .

– وليكن ذلك . . . يبدو انك ذكى فما حاجتنا الى التظاهر ؟ كنا اعداء . وافترقنا اعداء .

– اها ، حسنا – وفكر الالمانى وهز رأسه وقال :

– من ناحيتى سيكون نكران ذلك من العبث بل وعدم اللياقة .

وانفرجت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة مرة اخرى منهيا هذا الموضوع . احضر له الطعام والبيرة . ابدى اعتذاره لأنه سينقطع عن الحديث بعض الوقت . واقبل على الشواء غير متعجل ، بل وماضغا قطع اللحم والخبز والطماطم المشوية بنوع من التبجيل .

– الجيد .

قال ذلك شاعرا بان روتشين لا يصرف عنه عينيه الداكنتين الحاقدتين . وأتى على كل ما فى الصحن ، ومسحه بقطعة صغيرة من الخبز ، ووضعها فى فمه ، وشرب القدح الكبير من البيرة الباردة مسبلا جفنيه نصف اسبالة .

– الألمان يهتمون بالطعام اهتماما جديا جدا . جاعوا كثيرا ، وسيجوعون طويلا حتى تحل مشكلة الطعام حلا نهائيا .

وارتفعت اصبعه الطويلة الى الاعلى مرة اخرى .

– فى فجر التاريخ ، حين انتقلت البشرية من الجمع البدائى لهبات الطبيعة الى التدخل القسرى فى الطبيعة اصبح الطعام حصيلة العملية الصعبة الخطيرة للحصول عليه . وصار الطعام عملا مقدسا ، الأكل يعنى امتلاك حياة اخرى ، قوة اخرى . ومن هنا تأتى فكرة امكانية رقى الطبيعة ، اى السحر . . . وطقوس الطعام السحرية هى فى اساس كل العبادات الباطنية . انهم يأكلون جسد الله . . . وقد سجلت حوارا طريفا مع عالم روسى عن اصل قرص الفطائر . وايام المرفع هى عيد اكل الشمس . وقد طلسموها برقصات دائرية ، ثم اكلوا صورتها ، وهى قرص الفطيرة . وهكذا ترى ان السلاف فى معتقداتهم كانوا دائما يطمحون الى ذرى عالية جدا .

وضحك ، وفك الزر المعدنى لسترته العسكرية ، واخرج دفتر ملاحظات سميكا ذا كعب جلدى متهرئ . نفس ذلك الدفتر الذى اخرجه فى عربة القطار قبل شهرين ليقرأ لكاتيا روتشينا فقرة من امبان مارتسلين . وضع الدفتر على المائدة ، وقلب بحذر اوراقه المملوءة بملاحظات ومقتطفات وعناوين مكتوبة بخط دقيق .

قال وقد وضع اصبعه على صفحة :

– انظر .

الا ان روتشين لم ينظر الى تلك السطور الصغيرة ، بل الى ما خطته يد كاتيا فى الاعلى : «يكاترينا دميتربيفنا روتشينا ، يكاترينوسلاف ، شباك البريد» .

فسأله بصوت اجش :

– من اين لك هذا ؟

وتدفق الدم الى وجهه . فرفع يده الى ياقة قميصه العسكرى . وخيل للالمانى ان الضابط الروسى سيطرح مسدسه باليد الاخرى حالا ، على عادة سنى الحرب . . . الا ان عينى الضابط المخيفتين لم تعبرا الا عن المعاناة والتوسل . . . قال له الالمانى باكثر ما يكون من اللطف :

– يبدو انك تعرف هذه المرأة معرفة جيدة جدا . استطيع ان احدثك شيئا عنها .

– معروفة لى . .

– أوه ، تلك قصة من القصص المحزنة .

– ولماذا محزنة ؟ هل قتلت هذه السيدة ؟

– لا استطيع ان اقول ذلك عن ثقة . واود ان آمل بمصير افضل . . . خلال سنى الحرب ادركت ان الانسان هو مخلوق يملك قوة بقاء خارقة ، رغم ان من السهل جرحه ، وانه سريع التأثر بكل الم . . . وهذا يحدث . . .

ورفع اصبعه من جديد ، الا ان روتشين قال وقد تلوى وجهه :

– قل لى اين رأيتها ، وماذا حصل لها ؟

– تعارفنا فى عربة قطار . . . وكانت يكاترينا دميتربيفنا قد فقدت لتوها زوجها الذى تحبه بحرارة . . .

— كان ذلك افتراء مقصودا ! . . فانا حي ، كما ترى . . .

القى الضابط الالماني ظهره على كرسيه ، وتكور فمه الصغير ، وصارت عيناه الشبيهتان بعيني غراب الزرع مستديرتين ، وضرب كفيه على المائدة :

— انا ادخل هذا المطعم لاول مرة ، واجلس الى هذه المائدة ، واخرج دفترا . . . واذا بالاموات يستيقظون ! انت زوج تلك السيدة ؟ لقد حدثتني عنك ، وكنت انا ايضا اصورك آنذاك في الصورة التي انت فيها . . . لا ، يارفيق روتشين ، يجب الا ، الا . . .

وتلعثم ، واطبق شفتيه الرقيقتين ، ونظر من فوق نظارته نظرة صارمة متفحصة في عيني فاديم بتروفيتش المغرورقتين بالدمع . وظهرت قطرات العرق على انفه المرفوع بحسن نوية :

— نزلت من القطار قبل يكاترينوسلاف ، فكتبت عقيلتك عنوانها لي . وقد اصررت انا على ذلك ، اذ لم ارد ان افقدها كطائر عابر . وخلال الطريق استطعت ان اشعرها ببعض البشاشة . انها ذكية جدا ، وعقلها الصافي والقليل التطور متعطش للافكار العلمية الرفيعة . وقد قلت لها : «ان الحزن هو نصيب ملايين النساء في وقتنا هذا . ويجب ان يحول الحزن والشقاء الى قوة اجتماعية . . . ليلهمك الحزن الصمود» ، سألتني «وما حاجتي الى هذا الصمود ؟ وهل تراني اريد ان اعيش اكثر ؟» قلت لها : «نعم ، انت تريدين ان تعيشي . ليس هناك اعم من الرغبة في الحياة . واذا كنا لا نرى من حولنا غير الموت والشقاء والحزن فاننا يجب ان نفهم باننا نحن انفسنا ملومون لأننا لم نزل حتى الآن سبب ذلك ، ولم نحول الارض الى مسكن رائع سعيد للانسان ، تلك الظاهرة الرائعة . خلفنا صمت ابدي ، وامامنا صمت ابدي ، وليس لنا غير فترة قصيرة من الزمن علينا ان نعيشها لتملأ سعادة هذه اللحظة كل فراغ الصمت اللانهائي . . .» لقد قلت لها ذلك لادخل السلوان الى نفسها . . . وفي هذا الشهر نزلت من القطار ، واقمت الى وحدتي . وفي الليل تلقينا اخبارا تقول ان القطار الذي كانت زوجتك تستقله قد اوقف من قبل شرذمة من الماخنويين ، ونهب ، واقتيد جميع المسافرين الى جهة غير معلومة . هذا كل ما اعرفه ، يارفيق روتشين . . .

بدأ برنامج الترفيه على المسرح الصغير . دفع البيانو والموسيقي ذو الشعر الناتئ الى ما وراء الكواليس . وظهر دون ليماندو عريف الحفلات الموسكوفي الذائع الصيت ، وهو رجل حسن المظهر لا يجوز عمره ذو عينين مصبوغتين يرتدي سترة «سموكين» وقبعة قش قاسية انزلها على حاجبيه .

— اهنئكم ، ايها السادة ، بالثورة الالمانية — وصافع نفسه بنفسه بشدة — كنت قبل برهة في محطة القطار . وقد قلت لضابط الماني : مرحبا ، كيف الحال ؟» فقال لي : «حسن جدا وانت كيف حالك ؟» قلت : «كذلك حسن جدا . ها هو شهر تشرين الثاني ، وقبعة القش باردة فيه ، بينما تركت قبعتي الشتائية في موسكو ، والآن لا اعرف متى ساحصل عليها» فيقول لي : «اشتر لك قبعة شتائية» قلت : «ادخرت الف مارك للقبعة ، اما اليوم فقد اعطوني مقابلها خمسة روبلات» فيقول متعجبا : «آي ، آي ، آي» . قلت له : «آي ، آي ، آي» . وهكذا تحدثنا عن هذا وذاك ، بينما كان جنوده يصعدون على سطوح العربات . قلت له «هل انتم راحلون ؟» قال «راحلون» . قلت «نهائيا ؟» قال «نهائيا» . قلت : «مع الأسف الشديد» . قال «ما في اليد حيلة» . قلت : «بأي معنى : ما في اليد حيلة ؟» قال «بمعنى العلم من كل معنى» . قلت «آي ، آي ، آي ، بينما كنا نأمل ان ذلك لن يحصل عندكم» . وهنا غنى الجنود الجالسون على سطوح القطار الغنية «التفاحة» الروسية فانصرفت . . . وكان الظلام من حولي ، والريح تصفر ، وفي الشوارع الجانبية طلقات نارية ، وكان علي ان ابدأ البرنامج . لقد تأخرت عن موعدي ، وقلبي يرتعش ، فالتقت الغني

ودق البيانو وراء الكواليس ، فقفز العريف محركا رجليه :

آه ، يا تفاحة
الليل مظلم
قال ابن اتوجه ؟
معقول ان اعرف . . .

وادار روتشين ظهره الى المسرح ، ونظر في عيني هذا الالماني العجيب ، وسأل :

– هل تستطيع ان تبلغنى فى اى منطقة يعمل ماخنو الآن ؟

– تقول تقاريرنا الاخيرة ان ماخنو بدا يضغط بشكل خطير على الوحدات النمساوية المتراجعة وعلى الوحدات الالمانية فى بعض الاماكـــن . ومقـــر قيادة ماخنـــو عاد من جديد الآن الى غولاى-بوله . . .

١٠

فى بداية تشرين الثانى كان فوج كوتشالين فى الاحتيـــاط للتعزيز والاستراحة . ولم يبق منه بعد انتهاء المعارك غير ما بين مائتين وثلاثمائة مقاتل . وكان بيتر نيقولايفيتش ميلشين الـــذى عهد اليه اللواء كمفاجأة له نفسه قد نحت فى المجلس العسكرى ، وباقتراح منه عين تليغين آمرا لفـــوج كوتشالين ، وكان تليغين يرقد فى المستشفى ، كما عين سابوجكوف مساعدا له ، وايفان غورا مفوضا للفـــوج . وضمت بطاريـــة تليغين الى مدفعيـــة الفوج .

كانت اياما رطبة تفوح برائحة دخان المواقد ورائحة الكلاب المبللة ، وكانت الرطوبة تقطر من السطوح المعتمة ، والارض تتحول الى وحل ، وكان المقاتلون ، وهم يعودون من التدريـــب يجلبون باحذيتهم كتلا ضخمة من الوحل ، وكانت معنويات الجميع عالية . وكان الموسم الرهيب فى نهايته ، فقد دفع جيش الدون بعيدا وراء شاطئ الدون الأيمن . وترددت الشائعات عن ان الاتمان كراسنوف فى نوفوتشيركاسك ضرب راسه فى الحائط يأسا بعد ان علم بهزيمته الماحقة الثانية هذه قرب تساريتسين .

كان المقاتلون ، بعد انتهاء يوم من التدريب العسكـــرى والدراسة السياسية ومحو الأمية ، يتفرقون عند هبوط الظلام فى القرية منكمشين من البرد ، بعضهم الى معارفهم ، والبعض الآخر الى «الصديقة الجديدة» . اما الذين لم يكن لديهم معارف ولا صديقة فقد كانوا يقضون اوقاتهم فى السمر منشدين الاغانى ، او فى اغواء الفتيات بالالاعيب الهازلة جالسين فى مكان جاف . وما كان يبتدئ بالنكات والضحك غالبا ما ينتهى بالنقاشات الحادة فى بعض الاحيـــان لأن اعصاب الجميع كانت متوترة .

كان اثنان من بحارة بطارية تليغين العشرة قد جرحا جرحـــا خطيرا وقتل ثلاثة . وبقى خمسة . ونزل البحارة فى بيت قوزاقى جيد كان قد تركه صاحبه الهارب . وكانت انيسيا تعيش معهم وقد سجلت فى الفوج اسميا كجندى غير محارب . وكانت تصطف اسوة بالمقاتلين الآخرين وتتمرن على الرمى وتحضر التثقيف السياسى . وصارت ترتدى بزة نظيفة لجندى أحمر ، سوى انها لم ترد ان تحلق شعرها المجعد الجميل . وقد رأت الكثير من الفظائع والموت ، وفى عهد تشرين الاول المضنى خوّضت فى مصيبتها التى لا تعوض ، كما يخوض الناس الى اذقانهم فى مخاضة نهر . ولم تظهر تجاعيـــد جديدة على وجهها الذى عاد اليه الشباب ونقى ، واتزع خديهـــا فناء الجنود فى المؤخرة ، والتصبت قامتها ، وصارت مشيتهـــا مطمئنة ، وتجددت بكليتها . وفى الليالى حين كان البحارة يشخرون بقوة فى المسكن غير المدفأ كانت هى تغسل ملابسهم خفية ، وترفوها وتصلحها ، وفى بعض الاحيان كان عملها يمتد حتى يصدح بـــوق الاستيقاظ ممدودا فى الفجر الرمادى .

كما بقى فى الفوج كوزما كوزميتش نيقيدوف فى منصب غيـــر رسمى هو كاتب الفوج . وفى اصعب الأيام ، اليوم السادس عشر والسابع عشر ، ابدى شجاعة بل واستماتة خاصة حين كان يخرج الجرحى من النار . وقد لاحظ الجميع ذلك . ولم يتقاعس فيمـــا بعد ، حين انتقلت بقايا فوج كوتشالين الى الهجوم المضاد . كما لم يتاخر وراء الدون ، حين بُدل الفوج ، وحول الى المؤخرة .

ذات مرة التقى به ايفان غورا عند مطبخ الميدان مبللا قذرا نحيلا متلملا فدعاه باصبعـــه :– ماذا عسانى افعل معـــك ، يا نيقيدوف ؟ لا استطيع ان افهم اى شخص انت ؟ قس مجرد من مسوحه ، وفى سن محترمة . . فما الذى يجعلك تتعلق بنا ؟

تنشق كوزما كوزميتش لأن قطرة من المطر سقطت من على انفه المقشر ، وتطلع الى المفوض بعينيه الصهباوين المرحتين :

– هذه طبيعتى ، يا ايفان ستيبانوفيتش . اتعلق بالناس . . . الى اين اذهب ، وعن اى مجتمع انسانى آخر ابحث ؟ فانا رجـــل مفكر .

– ولكن ليس هذا هو الموضوع . اسمع . . .

– اما بخصوص مؤنة الفوج (واشار كوزما كوزميتش الى القصعة المملوءة التي كان يحملها) فان هذه الشوربة من شحم الخنزير قد اكتسبتها بنزاهة . ولا تراني قد حرصت على سلامة جلدي . . . اما البنطال والحذاء فقد حصلت عليهما بنفسي من العدو في ساحة المعركة . . . وانا لا اطلب شيئا ، ولا اثقل على احد . وفي المستقبل ايضا آمل ان اكون نافعا . اليست الضرورة بحاجة الى انسان ذكي ؟ بلى . . وليس في فوجكم كاتب متعلم . . . وانا فضلا عن ذلك اكتب باللاتينية والاغريقية ، وقد انفع في مواضع اخرى . . .

فكر ايفان غورا مع نفسه : «حقا لماذا لا نستفيد من انسان ، اذا كان ذكيا ويريد العمل ؟ . .»

قال :

– الموضوع ان اسلك يقلقني . نخشى ان تبث الافكار الشبابية . . .

قال كوزما كوزميتش :

– نعم ، مر وقت كنت فيه اركض وراء المحراب ، ولا حاجة الى ان اخفي شيئا . . . كنت نادما فيه . لا ، لا تخشوا شيئا من تحريضي ، فانا مع الله في نزاع . . .

سأل ايفان غورا :

– في نزاع ؟ ها ؟ حسنا ، تعال الى منزلي في المساء للتحادث . .

وعند هبوط الظلام ظهر كوزما كوزميتش في منزل المفوض الذي كان جالسا عند النافذة وهو في معطفه وقبعته ، يقرأ جريدة محركا شفتيه . طوى ايفان غورا الجريدة ، ونهض واغلق الباب :

– اجلس . . . هناك شيء غير جميل قد حصل . هل انت قادر على ان تضم لسانك وراء اسنانك ؟ بالمناسبة ، سيكسرون وضعك اسوأ اذا بدأت بالكلام الزائد : فانا اعرف كل شيء ، حتى ما يحلم به المقاتلون اثناء نومهم . . .

واخذ يقطع شريطا ضيقا من حاشية الجريدة البيضاء ، ونخر ، وهو يحاول لف الشريط باصابعه التي لم تكن تطاوعه في ثنيها .

– حصد الناس ، وخزن القمح . اما درسه فقد تأخر بعض الشيء بسبب الاوضاع العسكرية . . الا ان الناس يثقون بنا ، وهذا الشيء الرئيسي – انهم يريدون الاعتقاد بأن السلطة السوفييتية اصبحت متينة . . . حسنا . . .ولكن عن قريب سيحل عيد الحجاب المقدس . . .

ورفع ايفان غورا بصره الى كوزما كوزميتش قليلا ، واختلج منخر انفه الكبير في ارتباك . . .

– عن قريب عيد الحجاب المقدس . . . والخرافات ما زالت حية في الناس . . . ولا تستطيع محوها بمرسوم في يوم واحد . . . انها تقتضي وقتا طويلا ، كما يمكن ان يقال . . . بينما الفتيات غير راضيات ، وهن ينتظرن العيد ، ولا احد يرسل لهن الخطابات ، بالامس كنت في قرية سياسكويه . اوقفت النساء عربتي ، وصرن يبكين ويشتمن ويضحكن . . . التعاطف مع السوفييتات كلي ، ولكن هذا العيد يصعب عليهن . . . القرية غنية ، والحبوب كثيرة ، ولم تفرض عليهم حتى الآن ضريبة فائض الحبوب . . . ويجب التعامل معهم بذكاء ليقدموا الحبوب عن وعي بالامر . ولكن كيف يمكنك ان تقوم بالدعاية بينهم ، اذا كانت النساء قد امسكن بعنان العربة وهن يصرخن : هيئ لنا قسا . . . وقد اخجلتهن قائلا لهن : كفاكم من قساوستكم وقد رأيتهم يلوحون بمباخرهم امام الجنرال ماميتوف . فيقولون لي : «اولئك كانوا قساوسة بيضا ، وقد طردناهم بانفسنا من القرية . . ولكن اعطنا قسا احمر . . نحن بحاجة الى عقد حفلات زفاف ، وفتياتنا تعبن من الانتظار ، وعندنا مائة وخمسون طفلا يصرخون في المهود ، وهم لم يعمدوا بعد . . .» الخ . . لقد ظل رأسي يوجعني في اليوم التالي . . . الى هذا الحد ازعجتني النساء . هل استطيع ان ارسل لهن قسا ؟ ولكن يجب حل المسألة . انهن بعد التفكير الطويل قد يرسلن في طلب القس القديم من نوفوتشيركاسك . . . وسيكون ذلك تصادما . . . انت ، يا كوزما كوزميتش ملم في هذه الامور ، فانقذني ، خذ عربة ، واذهب الى القرية وتكلم مع النساء . . ولكن وكأنني لا اعرف شيئا . انا

رأيت اولئك الفتيات . قطاعة : انهن ناضجات – واشار ايفان فورا الى صدره – ان القضية انسانية . . فهل تذهب ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

– بكل سرور .

وهز رأسه مكورا شفتيه .

– انت رفيق مضجر في الحديث ، يا شاريغين . دماغ ناشف يجعل المرء يفقد عقله .

واخذ لاتوغين قبعته ، وارتداها مائلة ، وحافتها الناتئة على اذنه ، وتحرك على المصطبة ، الا انه لم ينهض منها ، وحرك مقلتيه ، ونظر الى اتيسيا .

كانت تجلس مقطبة الجبين من جهد الانتباه ، مثبتة بصرها كما هي الحال دائما في ساعات الدراسة في اي شيء كان ، وليكن مسمارا في الحائط . فان عقلها غير المتعلم كان يجد عسرا في تقبل الافكار المجردة ، فقد كانت مثل كلمات من لغة غريبة ، لم تكن تنفذ الى احاسيسها الحية الا اجزاء وومضات متقطعة . كانت كلمة «الاشتراكية» تثير فيها تصور شيء جاف مهسهس ، مثل شريط احمر تلامس زغبه ايد خشنة ، وقد حلمت بهـــذا الشريط ، وكانت «الامبريالية» عندها مثل الملك بنو خذنصر الذى رأته في صورة شعبية رخيصة التصق بها فضلات الذباب وقد وضع التاج على رأسه ولبس رداءا صبغ بلون قرمزى زاه . وكان الملك قد القى صولجانه وكرته الملوكية عند مرأى يد تكتب على الجدار كلمات تنبئ بهلاكه .

الا ان اتيسيا كانت محبة للعمل ، وقد بذلت جهدها للتغلب على هذه التصورات الناقصة .

وكانت تحس بنظرة لاتوغين عليها ، الا انها لم تصرف بصرها عن المسمار في الجدار ، ولكنها اطبقت ببطء ، ركبتيها المتباعدتين .

سأل شاريغين :

– لماذا انا مضجر في حديثي ، يا لاتوغين ؟ المقالـــة التي تتدارسها منشورة في «ازفستيا» ، افلا تعجبك ؟ اذا كنت مقاتلا في

سبيل الثورة وجب عليك أن تتمثل بدقة ، وانت تحشو بندقيتك ، الوضع الراهن والمهمات العامة ايضا .

وحين قال شاريغين ذلك نقل نظرة داكنة من عينيه الزرقاوين الجميلتين الى اتيسيا ، فتابعت هي النظر الى المســـمـــار . وقال بايكوف بصوت رفيع ، دون ان يضحك :

– ولكن ما نفع الصدار للذئب ، فانه سيمزقه في الاجمات ، على اية حال . والعلم خال من المتعة بالنسبة لرجل شاطر .

رد لاتوغين فورا بدون نبرة هزء ايضا :

– كلام لبق ! ولكن ليس صحيحا تمامـــا . لا ، ليس العلم خاليا من المتعة بالنسبة لرجل شاطر . انا احترم العلم ، اذا كان الاطفال يخرجون منه . ولكن الامر الخالي من المتعـــة الا يعرف الانسان اين يبدأ الفيل من رجليه واين رأسه . . . ولكن كفاك اهانة لي . ان كلمة حقيقية ، كالمرأة ، تعانقك وتحرقك ، وتجعلك ترتعش حتى في الجسم . بهذه الكلمات تحدث معي ، يا شاريغين . . . بينما انا اعرف على لغة واحدة : «البروليتاريا العالمية والاشتراكية . . لقد تحديت الموت في سبيلهـــا . وانا اريد ان يحدثوني عنها ، ولكن بالطريقـــة التي اصغي اليها واصدق بها : ايـــة شجرة ابدأ بتكسيرها لاصنع بيتا ، وفي اي موجة انتزه في قميص الحريري . . . او ، او اضرب على رأسك بكرة ارضية لتعرف كيف تتحدث عـــن الثورة العالمية .

نظرت اتيسيا الى وجهه القوى المريض بعينيه المتباعدتين مثل عيني ثور اصيل . نظرت وقالت لنفسها بوحشـــة ان فقدها لعينيها خير من النظر بهذه الصورة .

لم يكن غاغين ، ولا زادوريفيتر ، ولا بايكوف يوافق على سلوك لاتوغين . كانوا يتحادثون بلطف وهدوء تحت خرخرة المطـــر الهاطل على السطح القشي . حقا ان شاريغين كان في بعض الاحيان ، بسبب من حداثة سنه وعدم استيعابه العلم بعد ، يعبر عن افكاره بطريقة ثقيلة خائفا من استعمال الكلمات البسيطـــة ، وكانـــه يخشى ان توقعـــه في مأزق . وكان يشعر بحرية اكثر مع الكلمات الاجنبية المجربة ، ومع ذلك فلم يكن يحسن بلاتوغين ان يهزأ برفيق مخلص ، فضلا عن ان الجميع كانوا يدركون ان احتدامـــه وتبجحـــه

يرجعان الى سبب آخر بالطبع ، ولم يكونوا يوافقون على هذا السبب ايضا .

قال غاغين له :

— المقرض يهى' فصيلة تموين ، فاذهب اليه واسأله ان يضمك اليها . قالت ضجر لانك لا تفعل شيئا ، لا احد ينتظر منك خيرا . لقد طال وقوفك ، يا فتى . . .

هز بابكوف لحيته ، واخذ يضحك . كما ان زادوريفيتر حدس ما يلمح اليه غاغين . ففتح فمه بأسنانه القوية وقهقه . وتدفق الدم الى وجه اليسيا ، حتى انفجرت الدموع من عينيها . تناولت معطفها ، واستدارت ولبسته ، وتحزمت عليه بقوة ، وخرجت من الكوخ . وشعر الجميع بالحرج تماما . طوى شاريغين الجريدة ببطء ، وهو يبتسم ابتسامة هازئة . وقال للاتوغين :

— لنذهب ، ولنتحدث .

لقلص هذا عينيه ، وقال :

— لنتحدث .

وخرج الاثنان الى الفناء في الظلام ، تحت رذاذ دقيق يدغدغ الوجه . واحس شاريغين ان لاتوغين ينتظر بداية الحديث وعلى فمه ابتسامة هازئة ليرد عليه ردا لاذعا لئيما . . . كان شاريغين يريد ان يطرح بهدوء تام مسالة خرق الانضباط الرفاقي وضرورة التحرر من التركة البرجوازية الفاسدة . . . ولكنه قال بدلا من ذلك ، وبعد ان استنشق بمنخريه نفسا عميقا من رطوبة الليل .

— اترك انيسيا وشانها . . . ليس هذا لطيفا . . . انها قذارة ، ومشاكسة . . .

قال ذلك وصمت . اما لاتوغين الذى لم يتوقع مثل هذا المنقلب فقد وقف امامه بلا حراك . ولم يستطع ان يجد ما يصلح ان يرد به . لا «من طلب منك ان ترعانى ، ايها الضر ، ايها البكر ، ايها العفيف ؟ » ولا «كثيرون سالونى عن هذه الامور ، ولكن القليلين خرجوا منى سالمين . . . «لقد تبين تماما انه ، اى لاتوغين ، انسان قذر . . . انبعث فى نفسه احساس حارق بالمهانة . . . ولو حدث ذلك فى الماضى لأخرجه عن اطواره . . . . فلعص عينيه ، وصك على اسنانه . . . مستحيل !

قال :

— نعم ، نعم . تقريعك هذا يعنى انتى اريقت دمى عبثا ، يعنى ما زلت كما كنت صعلوكا ، قاطع طريق ، ابن كلبة ؟ حسنا ، شكرا لك ، يا كومسنيا . . .

واتجه نحو المخرج ، وضرب بشدة باب السياج بقبضته .

عادت الحياة الى ايفان ايليتش تليغين ببطء . (كان الى جانب اهتزاز الاعصاب مصابا فى عدة اماكن بشظايا الفولاذ الصغيرة من انفجار قنبلة) .

فى اول الامر كان فى غيبوبة مستديمة . ثم حل محلها نوم مع فترات متقطعة من اليقظة حين كانوا يقدمون له الطعام . وبعد ذلك اخذ يحس بحالة هنيئة من السكينة . كانت عيناه معصوبتين بضمادة . وكان يرقد فى غرفة منفردة سدت نافذتها باحكام . واحيانا كان يسمع خطوات خفيفة ، وهمسا — ليس اعلى من خشخشة الاوراق — ورنين معلقة ، وحفيف ثوب . وكانت بالقرب من رأسه ساعة صغيرة تدق بلا انقطاع تارة اكثر وضوحا ، وتارة اكثر خفوتا . وكانت الاحاسيس الآتية اليه من العالم الخارجى محدودة بهذه فقط ، وبحضور غير مرئى لمخلوق حذر . ما ان يزفر زفرة حتى تسرى حركة خفيفة فى الهواء ، فينحنى «هذا» المخلوق فوقه . بل ويحس رائحة رقيقة طرية .

وبين الحين والآخر كان يتدخل مخلوق غليظ تفوح منه رائحة عرق قوية ، ويتبغ بشكل رئيسى :

«ما هو نبضه ؟ » .

ويهمس المخلوق الرقيق بالجواب همسا لا يكاد يسمع ، فيقول الغليظ بانشراح :

«رائع . الرجل قوى . . . يجب ان تراعى بشكل اساسى : الهدوء الكامل ، دون اى مهيجات خارجية . . .»

لمفم تليغين فى ذهنه ببطء : «انت نفسك مهيج خارجى . . . اخرج ، ولا تلتطن . . . اما انت ، ايتها الحنون ، فانحنى وعدلى شيئا ما ، ولكن الاحسن ان تسندى على يدى . . ما ان فكرت بذلك فى سرى حتى انهضت وسندت على يدى . من هذه الممرضة ، ومن اين وجدتم مثل هذه المحبوبة ؟ »

وكان الكلام ممنوعا عليه . ولكن لا يمكن ان يمنعوه من التفكير . منذ سنين عديدة لم يحدث له ان خلا لنفسه بدون ملامات ولا هموم . وكان ذلك مكافأة كبيرة على كل السنوات الصعبة من الخدمة النزيهة . لم يفعل شيئا تنقصه النزاهة ، وضميره ينام هادئا مثل قط داخل الفرن في يوم مطير . وكانت افكاره تهيم في عالم نصف واقعي . واكثر الاحيان يتذكر شمس الشمال الضبابية ، كتلك التي كانت في بطرسبورغ في يوم بارد . تسكب الضوء على اسفلت الرصيف الضارب الى الزرقة ، حيث تجرجر الريح اذيالها . . . . ما اكثر ما مرت به من افكار وما اكثر ما شهد في بطرسبورغ . . . . والآن تمر امام جفنيه المطبقين نافذة بيت خشبي ، والشمس تضرب باهتة على الزجاج المحبب ، ووراء الزجاج شيء يتراءى له . . . الا ان الذكرى انطفأت واختفت ، ولم تبق الا كآبة الهوى من تماس الذكرى به .

وكانت تتردد في ذاكرته باستمرار كلمات طال عليهما النسيان من الغنية لا يعرف اين سمعها بالضبط ، وربما في اوفيا دريفنيا ، في بيت ريفي وراء نهر كرستوفكا . كانت لجرية مكسال نحيلة تغني بصوت خفيض في ازرقاق الغسق النيلي ، وهي تعزف على الاوتار : «لك ان تذهب يمينا وشمالا ، ثم تجوب البيت كله عبر دهاليزه المظلمة ، لتجد بابا الى اليمين ، ووراء الباب علية ، وكلما كنت تبحث عنه لن تجده ابدا . . . » .

غنت لهم — للرجال الذين جلسوا امامها صامتين — عن الشوق الابدي الذي لا تكون الحياة بدونه . . . ابحث ، ابحث ، وانظر الى العلية ، فلعله هناك ؟ آه ، انتم ، يا حمقى ، يامن يلوح عليكم خمار البارحة ! عمن تبحثون ؟ تسيرون في الشارع الطويل عند غروب شمس الشمال ، والريح الخفيفة تسوق الغبار تحت ارجلكم ، وتبحثون . اين تلك النافذة ذات الزجاج المحبب ؟ وهل على افريزها تجلس احلى فتاة على الارض ، في ثوب قطني ، وقد طوقت ركبتيها ، وراحت تقرأ كتابا ، والكتاب يتحدث عنك ، يا من تبحث . كل ذلك هراء ، فانتم تبحثون عن انفسكم . . . .

في السكون والظلام ، وتحت تكتكة الساعة كان ايفان تغمغم يهوم ويحلم : مع عودة الحياة اليه استيقظ في نفسه حب النفس

المختفي في اعماقه ، والذي ينكره مبدئيا . وفي هذا العالم نصف الخيالي كان يبدو وكانه يجمع ذكرياته ، اطيبها وابراها واحبها — تلك التي يفقدها الانسان في طريق حياته ، وبلا عودة في الغالب ، وقد اقبل حب النفس عليه ، مع اقبال العافية . فكان يأكل بشهية ، ويتمدد بلذة خفية عن الممرضة .

ذات مرة ، بعد ان نام نومة مريحة ، واكل عصيدة القمح اراح رأسه جيدا على الوسادة ، وقال فجأة بصوت عال :

— ياممرضة ، هل من الممكن ان نتحادث قليلا عن اشياء صغيرة ؟

انحنت الممرضة عليه بسرعة ، وهمست مذعورة ، وضعت شفتيه براحتها :

— شش ! ششى !

وحين رفعت يدها عاد يقول بوقاحة هذه المرة :

— اذن ، قصي علي شيئا ما . . . . ان لك يدا لطيفة صغيرة . كم عمرك ؟ ما اسمك ؟

ارسلت بضع زفرات قصيرة ما بين النشيج والغصة . . . واضطرابها . . . وكان هو يريد ان يقول لها : «استيقظت . . . ابتعد عني . . . اذا كان الانسان لا يحب نفسه ، فانه لا يقدر ان يحب احدا . . . فما نفعه بعد ذلك ؟ فمثلا ان السفهاء والاوغاد لا يحبون انفسهم . . . انهم ينامون نوما سيئا ، وكل جسمهم يهرشهم ، مرة يختنقون بالغيظ ، ومرة يلتهبون من الرعب . . . يجب ان يحب الانسان نفسه ، وان يحب في نفسه ما يمكن ان يحبه الآخر فيه . . . لاسيما المرأة ، امرأته . . . » .

الا ان ايفان ايليتش لم يقل شيئا من هذا . وخرجت الممرضة من الغرفة ، وبعد قليل عادت مع الطبيب عدو المهيجات الخارجية ، الذي صار يطنطن باوقح طريقة :

— اراك تبدي وقاحة ، ايها الرجل ! لا يجوز . . . اسمح لك بقليل من الكلمات الضرورية للغاية . . . يجب ان ارسلك الى الفرج في احسن شكل . . . وواجبك ، يا حلو ، ان تصبح انسانا صحيحا في اسرع وقت ممكن . . اعطيه منوما ، يا ممرضة . . .

قال كوزما كوزميتش :
— قف ، يا صاحبي ، ودعني انزل هنا ، وسادخل الى القرية ماشيا .
— ولماذا ماشيا ؟
— لا تعلمني . سادخل اليها كالحاج . هل فهمت ؟
— انت وشانك ...

واوقف لاتوغين حصان المدفعية المخصي الممتلىء ، على الطريق المتآكلة بالقرب من سدة عليهـا اشجار صفصاف معوجة بدأت اوراقها تتساقط . كانت قرية سباسكويه على الجانب الآخر من بركة مسطحة . وكانت مستودعاتها باكوام الدريس الطرى تقترب من الشاطىء . وكان الدخان يتصاعد من المداخن متلويا فوق سطوح القصب التي تكلل على البيوت الصلصالية واطئة باعثة للدفء .

قال لاتوغين :
— القرية كلها تقطر الخمر .

وارسل زفرة عميقة ، واخذ ينظر الى الوزات التي كانت تسير على السدة ممتلئة بيضاء مهيبة . لاحظ ذكر الوز في المقدمة عربة واقفة وفيها رجلان فتوقف مستغضبا ، وتوقفت وراءه زهاء خمسين وزة . وزوزت الوزات فيما بينها تتشاور ، وتهادت منحدرة على بطونها على منحدر السدة الى الماء ، وعامت فيه ، وكأنما تدفعها نسمة خفيفة على الماء المعشوشب الى السبخة .

قال لاتوغين :
— كل وزة تزن خمسة عشر رطلا ، البهيمة ما اشهى ان تسلق ، يا امى العزيزة !

قال كوزما كوزميتش :
— اذهب ، يا صاحبي — ومد له يده على عجل — وقل للمفوض يجب ان ابقى في القرية لالقي نظرة ولارى ما يجرى هنا ، وبعد اسبوع تعالوا مع لصيلة التموين ، ستكون كل الامور على ما يرام .
— ستغرق في الخمرة هنا ، يا كوزما .
— انا ، يا اخ ، لا ارفعهـا الى فمي . والآن ، استدر ، استدر ، والا فسيرانا الناس ...

ادار لاتوغين العربة ، وضرب الحصان العريض الكفل بسطوح يابسا ، فركضت العربة به دون ان يلتفت . اما كوزما كوزميتش فقد سار على السدة الى القرية . كان يرتدى معطفا مخضرا من القنم ، قصى فى وقتها من مسوح قس وقد تحزم عليها بمنديل من القطن . وحمل وراء ظهره كيسا من الخيش من النوع الذى يحمله الجنود الحمر ، ووضع على رأسه قبعة جندى عالية يعود تاريخهـا الى زمن الحرب الامبريالية المنحوسة . وباختصار ، كان مظهره بائسا .

الريف موحش فى اواخر الخريف . فان اشجار الكرز والتفاح قد القت اوراقها ، فهى الآن مطروحة مبللة من جمد الليل على رقع الارض التى انتلعت منها الخضروات . اما عباد الشمس الذى يغرى الشمس لتنعكس على نوافذ البيوت الصغيرة فلم تبق منه غير سيقان متعفنة . والوحل منتشر فى كل مكان حتى عتبات البيوت . وصفاقات النوافذ الناصلة الالوان تصرف وتصطفق من الريح الثلجة ، ولا احد يريد ان ينظر من النافذة ، فان كل ما يستطيع ان يراه هو غراب يحط على السياج منتظرا بوعى ان تقذف ربة البيت فى الفناء شيئا يؤكل .

«يعيشون فى سبـات ، يدمدمون ويهرشون . والعواطف نائمة ، والرغبات خارج الخيال ... ولكن كل انسان مخلوق على صورة وشبه ارسطاطاليس او بوشكين . ان لكم عيونا ايضا يمكن ان تروا بها عجائب الارض التى لا يمل منها ... ولكل واحد منكم راس بين كتفيه وهو اعجب العجائب ... (وهنا هز كوزمـا كوزميتش قبعته العالية على راسه) اذا قارنته بالكون ، فان هذا الراس لا شىء بالنسبة له اطلاقا . الا ان الكون كله ، من الناحية الاخرى ، موجود فى هذا الراس . فانه ، اى الراس ، ينفذ الى الاسرار الغريبة من رب الانجيل .. ولهذا فما الحاجة الى ان ينظر الانسان من الشباك الى غراب ؟» .

سار كوزما كوزميتش يفكر بمثل هذه الافكار منطلقا من المنحدر ، مارا بالاسيجة الواطئة والبيوت التى تثقل عليها سطوح القصب حتى التقته فتاة ترتدى حذاء طويلا ومعطفا قصيرا من فراء الاغنام ، وتحمل دلوين مملوءين وازنتهما على كتفهـا

بمرقاع من الخشب . كانت عريضة الاكتاف رصينة غير ودود .

– اسمك ناديجدا ؟ ام انا مخطئ ؟ مرحبا .

توقفت الفتاة ، وادارت اليه ببطء وجهها العريض .

– نعم ، ناديجدا . ولكن من اين تعرف ؟

– اقرأ ما في القلب .

– لا تقرأ مثل هذه الاشياء عندنا . سر في طريقك .

قال كوزما كوزميتش :

– مادمت قد طردتني فانا عائد الى السهب أعد حدبات القبور . ياله من طريق طويل لاسيما حين يسير المرء وحيدا . اوه ، يا الهي ، ما اطوله !..

ارتجفت شفتا الفتاة ، ومشت منصرفة ، الا انها توقفت ثانية ونظرت بريبة الى وجه هذا الرجل الباسم الماكر جدا . وبسط كوزما كوزميتش ذراعيه امامها :

– اذا رغبت في النوم نمت على كومة قش ، واذا جعت سرقت شيئا ما ... وليس هذا ما اريده ، يا فتاتي الحلوة ... الانبياء ساروا حفاة على الاحجار الحادة ، وظلوا يبشرون برسالاتهم ... والقديسون وقفوا على الاعمدة ، واقتاتوا على الجراد .. وهل تعرفين ما هو الجراد ؟ جنادب ... ولأي شيء تعذبوا ؟ اجيبيني ... اراك تفكرين ... (تقدم منها ، ومط شفتيه) لقد احبوا الانسان ... كل انسان هو معجزة . اما انت ، يا ناديجدا ، فمعجزة مزدوجة ... انا ارى انكم قد درستم القمح ، وفطرتم الخمرة ، واقنية بيوتكم تفوح منها رائحة لحم الخنزير المشوي ... عندكم من كل شيء ما يكفي ... ولكن لا فرح عندكم ... لا ضوء عندكم ...

سألت الفتاة ناظرة حولها وقد تراخت :

– الملك تبيع الكيروسين ؟

– انا لا ابيع شيئا ، ولا اطلب صدقة . جئت لأمرح عندكم واجعلكم تمرحون .

صمتت الفتاة برهة ، وعادت تنظر اليه بعينيها الطويلتين الرماديتين كالسحابة . انحنت لتضع الدلوين على الارض ، ووضعت المرقاع عليهما .

– الغم قائم عندنا في القرية ، ولا احد يستطيع ان يدخل المرح عليها .. باي شيء تريد ان تدخل المرح ؟

– حين اقول فمعنى ذلك ان لي وسيلة .. انا قس مجرد من مسوحه ...

فغرت الفتاة فمها ، وكان فما غضا له اسنان بيضاء منتظمة ، حتى ان كوزما كوزميتش راوح في مكانه ببهجة . وانجلى الجفاء من على وجهها وكأنما اطارته هبة ريح .

ندت منها آه التعجب ، ووضعت يديها تحت نهديها اللذين انفرج عنهما المعطف الفرائي . ثم أحت ثانية ، واهتز ردفاها :

– اذن ، تعال الى البيت ... سيتحدث ابي معك قليلا .

قال كوزما كوزميتش :

– لا ، لا اذهب ... تعالوا انتم الي ... هكذا ، يا سوداء الحاجبين ...

وغمز ، وهز كتفيه بمرح ، وسار في الشارع باحثا بعينيه عن افقر بيت .

حل اليوم الذي رفعت فيه الضمادة عن عيني ايفان ايليتش . وقد جرى ذلك عند هبوط الظلام . وكانت الممرضة تهمس للدكتور مذعورة وراء الباب ... فكرر الطبيب : «سخافة .. الرجل ليس نباتا ضعيفا . افعلي ما قلت لك ..» واستدارت الممرضة نحو السرير ، وانحنت حتى ان شعرها الناعم مس انف ايفان ايليتش ، ورفعت الضمادة ، ولأول مرة سمع بدلا من الخشخشة والهمس صوتها ضعيفا متقطعا .

– استلق هادئا ، ارجوك ، وتعود على الضوء .

وفتح عينيه بشيء من الخوف بعد فترة طويلة قضاها في الظلام . كان كل شيء مغبشا . وكان ضوء شاحب ينفذ الى الغرفة . وكانت البطانية التي تغطي النافذة قد سحبت من احد طرفيها . وكانت الممرضة تجلس الى طاولة صغيرة عند نهاية السرير – لم يستطع ان يتبين وجهها – فقد كانت تنحني بانخفاض ، وتفعل شيئا بضمادة من الشاش .

ظل ايفان ايليتش على استلقائه يبتسم . فوق رأسه سقف منحدر ، ولا بد ان يكون هناك سلم مؤد الى العلية . اما هذا فهو شباك ذو زجاج محبب . ولا افضل من هذا المكان . . . وفي الحال طافت في ذهنه ذكرى مكان آخر ، وكأن احدا ازال جلدة غضة عن جرح ، مكانا داخنا واعدا متفجرا ، حيث وقع امامه انفجار خاطف مصفر اللون . . . وابعد ايفان ايليتش هذه الذكرى عنه قائلا لنفسه : «لا حاجة اليها ، لا اريد» وقد كادت تسحق دماغه . . . وعاد يسمع تكتكة الساعة من جديد مقطعة فترات متساوية من الحياة بلطف وبلا الم . . .

نادى ايفان ايليتش :

— ايتها الممرضة . . انا لا اراك بشكل جيد .

هزت رأسها ، وتدحرجت اللفافة من على ركبتيها ، وانفلتت ، فعادت تلفها من جديد . كانت حركاتها خفيفة ، فلا بد انها ما تزال في ريعان الشباب . . . ومحتكة ايضا ! ومهما جاهد ايفان ايليتش ان يتفرس فيها تكاثفت طبقات الظلام ، والآن لا يتميز وبشكل مبهم غير مريولها من القماش الخشن ، ومنديلها الذي يغطي كتفيها مثل منديل ابي الهول .

وفكر ايفان ايليتش مع نفسه :

«مفهوم ، مفهوم . . . لا بد ان المسكينة مجدرة الوجه او قبيحة بشكل كبير . . انها بالطبع تشعر بانني ممتن لها — وتنهد ايفان ايليتش — ما اكثر اولاء من الرقيقات والوفيات ، الصديقات في الحياة والموت . . . وهي ذكية ايضا ، على ما يبدو . فان جميع غير الجميلات ذكيات . . . واياهن يجب ان يتزوج الرجال واياهن يحبون . . . بينما الرجل يبذل كل شيء في سبيل ان يكون على وسادته وجه وسيم لامرأة لها رموش الدمى تهمس له بكل صنوف السخافة والوضاعة . . . اما داشا فشيء آخر ، لم احبها من اجل جمالها . . . — واغمض ايفان ايليتش عينيه ، ووضع قبضته تحت خده — هذا كذب . لقد احببتها ، يا رجل ، من اجل جمالها الاخاذ . . وهذا ما لم ترده هي . . .» .

نهضت الممرضة دون ان تحدث حركة ، وهي تظن انه نائم ، وخرجت وظلت غائبة وقتا طويلا . ثم صرف الباب صريفا لا يكاد

يسمع . ولاح ضوء اصفر كامد . فتح ايفان ايليتش جفنيه قليلا دون ان يبدي حركة . ورأى داشا تدخل في مريول ابيض ومنديلها . كانت تحمل مصباحا صغيرا من التنك ، حاجبة ناره بكفها الوردية الشفافة . ولم يندهش ايفان ايليتش من رؤية داشا ، سوى انه لم يصدق بان هذه هي داشا .

وضعت داشا المصباح على الطاولة ، وخفضت الذبالة . وجلست والتفتت تنظر الى ايفان ايليتش . كان وجهها نحيلا مثل وجه فتاة اصيبت بالتيفوئيد . ولاحت غضنة في طرف فمها المنتفخ قليلا . كان ضوء المصباح لا يظهر غير خدها وعين واحدة وادعة وبسمة انعكست نقطة ضوء المصباح على حدقتها . كانت تبدو وكأنها قد عزمت على ان تجلس طويلا ، وقد اسندت مرفقها على ركبتها ، وانزلت حنكها على جمع يدها الصغيرة المقبوضة — ان داشا وحدها كانت تستطيع ان تجلس هذه الجلسة .

. . . في ذلك المساء في بطرسبورغ ، عندما جاءت الى «المجمع المركزي لمكافحة العرق» الذي كانت شقيقة تليغين مقرا له ، يوم ان رآها لاول مرة بدت له رائعة كالربيع . كانت وجنتاها ترتعشان ، وكان الدفء ينبع منها وهي في ثوبها من القماش الاسود السميك . وقد ملأ عطر رقيق الغرفة التي كان الشعراء المشتركون في «التدنيسات العظيمة» يجلسون فيها على الالواح التي وضعت على كتل خشبية . انزلت داشا حنكها على جمع يدها منسية الى قصائد متحذلقة ، ماسة بطرف خنصرها شفتيها الورديتين المنتفختين قليلا . . . وفيما بعد نقل ايفان ايليتش الى غرفته المقعد التي جلست عليه . . .

كل ذلك شع في ذاكرته بين خفقتين من القلب . وكان يدق في صدره دقات متعالية مثل حارس يطرق الباب في منتصف الليل : استيقظ ! الا ان هذه المرأة الجالسة على مقعد عند قدمي السرير لا يمكن ان تكون داشا . وكان يرمقها بتمعن من خلال شقي جفنيه دون ان يتحرك . . . لا بد انها لاحظت ذلك فقد دفعت جسمها كله الى الامام . . .

ناداها : يا ممرضة ، يا ممرضة !

وترقع جسمه قائما عينيه على سمعها . . . اندفعت دائمـــا نحوه بصيحة مذعورة خائفة سعيدة . . . امسكها من كتفيها ، ومن ظهرها ، وكأنما يخشى ان يغيب الطيف عنه . . . انها دائمـــــــا حقا : نحيلة هشة حية ! ضغط وجهها عليه ، واحس بارتجاف شفتيها ، واهتزاز جسدها كله . . . امسك رأسها ، وابعده عنه لينظر فى وجهها الحبيب الجديد ابدا ، الجميل ابدا بشكل غير متوقع ، وراحت هى تكرر وعيناها مغمضتان :

— أنا معك ، كل شىء بخير ، كل شىء بخير . . .

اخذ يقبلها من فمها ، ومن طرفى فمها حيث رسمت عليه المعاناة خطين صغيرين ، ومن عينيها ، همست له :

— والآن اهدأ ، اهدأ ، يا عزيزى ايفان ، لن افترق عنك . معك الى الابد ، الى الابد . . .

ما ان حل المساء حتى كانت القرية كلها تعرف ان فى بيت الارملة الفقيرة آنا تريخجيلنيا يجلس الرجل الذى لحق ناديجدا فلاسوفا فى الشارع ، وقال لها : «جئت لأجعلكم تمرحون . أنا قس من جانب الحمر . . .» وصدقت بذلك جميع النساء ، المسنات ان فى بيت الارملة الفقيرة آنا تريخجيلنيا يجلس الرجل الذى لحق ناديجدا فلاسوفا فى الشارع ، وقال لها : «جئت لأجعلكم تمرحون . انا قس من جانب الحمر . . .» وصدقت بذلك جميـــــع النساء ، المسنات منهن والشابات . وقد شعرت ناديجدا بوجع فى لسانها من كثر ما رددت كيف انها كانت تحمل ولوين ، وأن قلبها اعلمها ، واذا به يناديها باسمها : «ناديجدا !» (كانت الصحفيات يقاطعنها قائلات : «ياالهـــى ، من اين عرف اسمك ؟») «هذا مـــا يسمى بقراءة ما فى القلب . . .» كما ان وجهه روسى ، احمر وكان كـــل جلده قد سلخ ، وشعره يصل الى كتفيه ، وعليه ملابس رثة ، ولكنه لم يكن يبدو جائعا ، بل مرحا كل كلامه احازير . . .

وضحك الرجال ، وهم يسمعون ثرثرة النساء : «دعونا نأمل بالا يحرق هذا العارف بقراءة ما فى القلب القرية من جهاتها الاربع . . . لو كان قسا من صحيح لاتجه الى اغنى بيت فى القرية . . . والا

نحن الصراصير لا تجد مـــا تأكله عند تريخجيلنيا . . . لا ، يبـــا نسوة ، يجب ان يؤخذ الى سوفييت القريـــة ، وليظهر هويانـــه صالح . . . فقد يكون جاسوسا من قطاع الطرق ؟ هكذا . . .»

عندئذ قالت زوجة لزوجها «كفاك تحريك لســـــان ، الناس يضحكون منك» فأيدتها النســـــاء الاخريات بالاجماع . وصاحت الزوجة وعيناها تلمعان جسارة «قبل الثورة كنا نطيعكم ، ولم نسر غيرا كثيرا من اوامركم . ان عقولنا ليست اقل ذكاء من عقولكم ، — وهم اكثر منكم . . . ثم خاطبت النساء قائلة : يـا عزيزاتى ، انظرن الى ابنتى ناديكا ، ان صدرها يكاد يشق بلوزتها . . . وهى تنظر فى المرآة ، وتقول لى : لماذا يضيع عمرى هدرا ؟ فهـــل اقول لها : انتظرى الى عيد الحجاب المقدس المقبل ؟ فاقول لزوجى مجددا : لماذا لا يريد ان يأتى الى بيتك ليأكل لحم الخنزير ؟ وهل كان المسيح يأتى الاغنياء فقط ؟ انه ذهب الى بيت آنا الفقيرة ، لأنه قس احمر ، ولا حاجة به الى لحم خنزيرك ، وهو يفكر بحظنا التعيس» .

اكتفى الرجل بهز ذراعه ، وانصرف . وفى المساء احتشدت النساء قرب بيت آنا ، واوفدن اليه موفدات . وقبل ان تدخـــل الموفدات الى البيت عرفن من فتاة صغيرة ، هى جارة آنا ، ان آنا تريخجيلنيا سخنت اليوم حمامها منذ الصباح (وهو مبنى صغير يقع وراء البيوت على ساحل البحيرة) وان القس استحم هناك ، وانها اعطت له قميصا نظيفا كان لزوجها المتوفى ، وان القس الآن يستعد ، بعد الحمام ، لشرب «القسمين» مع آنا (وكان اهـــل القرية يشربون هذا الشراب بدلا من الشاى) .

كـــان القس يجلس على المصطبة مرتديـــا قميصـــا ازرق ... وقد وضع يديه على الطاولة . ولم تكذب ناديجدا ، فقـــد كان وجهه احمر يمكن ان يثير الخوف ، وقد اطبق شفتيـــــه ... كالقب . وكانت الارملة تقلى البيض على نار من اعواد ، وكان لهب ازرق يطل خارجا من مدخنة سماور بالية منقبة .

دخلت الموفدات الثلاث البيت ، وسلمـــن بالحنان ، وجلسن على المصطبة اقرب الى الباب . ولم يقلن شيئا ، الا ان عيونهن لاحظت كل شىء .

وفجأة سأل كوزما كوزميتش بصوت عال :

– قلن : ماذا وراءكن ؟

وتقلبت عيـــــون الموفدات . واجابت احداهن ، وهى ام ناديجدا ، بصوت معسول :

– يقولون ان العادات قد الغيت ؟ بينما نحن معها ، يا ابانا . الزفاف يحدث مرة واحدة ، بينما الحياة طويلة . اليس كذلك ؛

اجاب كوزما كوزميتش :

– كلما طالت الحياة كثر خيرها خيرا . فماذا خبركن ؟

– ولكن لا تخف عنا . فنحن سوفييتيات . انتخبنا سوفييت القرية ، وصوتنا الى جانب السلطة السوفييتية . واغلقنا الكنيسة بالختم ، وقدمنا القس الى «اللجنة الاستثنائية» المحلية لحيازته رشاشة .

قال كوزما كوزميتش :

– اها ! ان ذلك القس كان ذا خطر .

– ولو تعرف كيف كان يهددنا ، فيقـــــول : «يا اعداء المسيح ، سارمى اجتماعكم برصاصة رشاشة «مكسيم» مـــن النافذة . . .» على هذا النحو كان يخيفنا . كانت فتياتنا العرائس يصوتن ، بالطبع ، مع الجميع ، ولكن حين اقترب عيـــد الحجاب المقدس اردن ان يعقد قرانهن فى الكنيسة . وقد عاندن ، واجمعن امرهن . وانت تعرف ان الفتيات اذا اجتمعن على امر فلن تستطيع ان تنتزع واحدة منهن . . . فقل لنا الآن : «ما العمل ؟ سمعنا انهم نزعوا مسوحك ، اهذا صحيح ؟

اجاب كوزما كوزميتش :

– مؤكد .

– وما السبب ؟

– بسبب من حرية رايى . فانا فى نزاع مع الرب .

وتبادلت الموفدات نظرات ملمة . وهمست ام ناديجدا فى اذن واحدة ثم الاخرى ، فهمست هاتان لها ايضا . فقالت بصوت اكثر جسارة :

– اذن ، سيكون القران باطلا ؟

– ولماذا ، اذا كانت الفتيات راغبـــات . . . ساعقـــد قرانهن واسجلهن فى سجل الزواج . عنـــد ذاك حتى المجلس

السوفييتى لن يستطيع فسخ القران . وساضع التاج فوق راس العروس ، وكانها مثكــــة الدينارى ، واطوف بالعروسين حول المذبح ، واسالهما الاسئلة المطلوبة ، واقول الاشياء التى تقال فى مثل هذه المناسبة ، وسنعقد الفرح بلا معصية ولا نقيصة . . فماذا تردن بعد ؟

قالت احدى الموفدات :

– وصغارنا ايضا لم يتعمدوا حتى الآن ، وليس لهم يوم قديس يتبركون به .

– كم عددهم ؟

– كثير . يمكن ان تعدهم .

– وهل هم لا يرضعون جيدا ، لأنهم بلا تعميد ؟

وتبادلت الموفدات النظرات ثانية ، وهززن اكتافهـــن ، ووضعت الارملة المقلاة على الطاولة ، ولدى عودتها الى الموقد نظرت بحزن الى كوزما كوزميتش ، وهو يغرف البيض بالملعقة ، وياكل بتلذذ مغمضا عينيه باستمتاع .

سالت موفدة اخرى :

– وهل سيكون التعميد معترفا به ؟

– تمام الاعتراف ، كما فى عهد الامير فلاديمير .

– وكيف ستعمل وانت بلا شماس ولا مرتلين ؟

– وما حاجتى اليهم ؟ ساقوم بالامر وحدى باصوات مختلفة .

عندئذ تقدمت منه ام ناديجدا ، وجلست بالقرب منــــه ، وسالت وهى تدق الطاولة بحد كفها :

– وهل ستاخذ فلوسا كثيرة ؟

وتاخر كوزما كوزميتش فى الجواب . حتى ان المراة تثاقلت انفاسها ، واخذت يداها ترتعشان . ومدت الموفدتان الاخريـــان عنقيهما ، وهما جالستان عند الباب .

– لن آخذ منكن فلســا واحدا . انا لم آت الى هنا مـــن اجل ذلك . ادفعـــوا فقط لكاتب سوفييت القرية لقاء كتابـــة الوثائق .

وبدا اقتراح هذا الرجل مغريا من جميع النواحى . ولكن الشىء الرهيب ايضا انه قد يكون زائفا . . . قبل شهر ونصف ،

عندما كانت القرية ما تزال تحت حكم الاتمان ماموئتوف حدث ايضا ان جاء رجل ينقل خفين على قدمين حافيتين ، وقد نمت لحيته حتى عينيه . واتجه الى بيت كان يستريح بالقرب منه الناس عند الغسق ، ووقف حتى التفه الناس ، ثم جلس بالقرب من العم العجوز اكيم ، وظن انهم سيقدمون له لفافة تبغ ، الا ان احدا لم يفعل ذلك ، عندئذ وضع رجلا على رجل وسر فى اذن اكيم : "الا تعرفنى ، ايها الجندى القديم ؟" فاجابه «لا ، ابدا» فهمس له بصوت اخفت «اعلم اذن ، اننى الامبراطور نيقولا الثانى ، ولست انا الذى اعدموه فى بكاترينبورغ ، بل شخصا آخر . وها انا اسير فى الارض خفية حتى يحين الوقت الذى اكشف فيه عن نفسى . . .» وكان العم اكيـــم ثقيل السمع ، فلم يسمع كل شىء ، فكان عليه ان يرفع صوته ، والناس ليسمعوا بلها . فقد جروا هذا الامبراطور فى الحال الى السدة ليغرقوه فى البحيرة . الا ان الذى انقذ حياته هو انه راح يصرخ : «ما هذا . يا اخوان ؟ كنت امزح . . .»

قالت ام ناديجدا :

– لا يبدو انك من المهوسين بالرب . ثم اتهم ، ليســـوا موجودين الآن – وفكت معطفها لأنها شعرت بالحرارة – فلماذا لا تأخذ فلوسا ؟ ماذا فى فكرك ؟ وكيف يصدق الانسان بك ؟

– أنا احب الملح . اعطونى قبصة فى كل بيت اعقد قرانا له او اعمد له طفلا – ووضع كوزما كوزميتش الملعقة ، والتفت الى الارملة قائلا – قدمى السماور ! ها انتن ترين – واشـــار للموقدات الى آنا النحيلة بوجهها الداكن المرتخى وصدرهـــا المسطح وتنورتها المرقعة المعكوفة – انها صدقت بى ، وستذهب معى الى اى مكان . اما انتن ، الشبعات ، الناعمات ، فدائما تبحثن عن موضع السفالة فى الانسان ، وترين فيه محتالا . انتن كولاك ، وانا اشعر بالضيق معكن . واذا تملكنى الغضب ، فسارحل عند الفجر بحثا عن الحظ فى مكان آخر . . .

وضعت آنا السماور على الطاولة ، ورأت الموقدات انهـــا تبتسم ، وكانت السعادة تغمر وجهها المجدر المنهوك من الغـــم والدميم . القت ام ناديجدا نظرة خاطفة عليها كنظرة الصقر ، ومدت يدها الخشنة الى كوزما كوزميتش :

– مقبول ! لا تغضب ، ولا حاجة بك الى الذهاب بعيدا ، فانت ستجد كل شىء هنا .

فى الصباح صعد كوزما كوزميتش الى برج الجرس وقرع الجرس الكبير ، فانداح الرنين النحاسى فى القرية وهرع الشيوخ والعجائز الى النوافذ للتطلع . ثم قرع قرعة ثانية وثالثة ، وامسك الحبال المشدودة بالاجراس النحاسية الصغيرة ، واخذ يدق دقات صغيرة متسارعة ، ثم قرعة عالية من الجرس الكبير . وقبل ان تستطيع اطراف الاصابع ان تصل الى الجبهة لترسم علامة الصليب كان الناس يسمعون دقة اخرى ، وكان القس المجرد من مسوحه يعزف لحنا راقصا .

خرج بعض اهالى القرية المحترمين الى خارج بيوتهم ينظرون الى برج الجرس بدون رضا . . .

– القس يعبث . . .

– يجدر أن يجر من هناك من شعره ، ويطرد . .

– يطرد ! . . انه هو الذى سيطردك . . .

– ومع ذلك فان قرعه كان موزونا . . . دعوه يدخل المسرة الى الناس لخاطر الفتيات ، لخاطر النساء . .

وتهيأ اهل القرية كلها – المدعوون منهم وغير المدعوين – الى اقامة الافراح . كان النهار مشمسا ، والجمد على الارض . وفى الجو رائحة خبز طازج ولحم خنزير مشوى . وبدات فى فناء احد البيوت حركة غير اعتيادية ، واصوات طيور داجنة ، وتطايـــر الدجاج والوز من خلال الابواب الخارجية . . . فى بيت كان العريس حليقا مرتديا حلته متزويا على المصطبة فى ركن الايقونة لم يأكل ولم يدخن . وفى بيت آخر كانت العروس تزين . وكانت العجائز اللواتى شعرن بالهن ضروريات فى مثل هذه الامور قد علمتها ان تنتحب بطريقة مستحبة :

ليس هذا صوت وزة تئز على الشاطئ ،
بل نحيب فتاة حسناء فى حجرتها .

وكانت الجدة تندب بصوت شائخ فتنضم اليها اخرى ملقية ضعها المتغضن على راحتها بتفجع :

وداعا ، وداعا ، يا شمسى الحسناء .
ان ابى الذى اعالني
ووالدتى التى انجبتنى
زوجانى ، وباعانى .
باعانى ، باعانى
الى طرف ناء غريب . . .

ولكن لم ترد اية عروسة ان تنتحب ، بل كان ذلك يحزنها .

— فى زمانكم ، ياجدتى ، كانوا يرسلونكم الى طرف غريب ، اما نحن فطرف واحد : سوفييتى .

وكانت روائح الطهى وخبز الفطائر تنبعث من كل مكان ، وكانت النساء يتراكضن حاملات الدلاء والمكانس . وكان الخطابون يتنقلون من بيت الى بيت ، ورائحة الخمر تلوح منهم قوية ، واجتمعت الشبيبة فى فناء الكنيسة ، وعزف عازفان على اكورديون . . .

فى ذلك الحين جاء رئيس سوفييت القرية ستيبان بيتروفيتش لديوشكاشى قادما من البريد ، وهو من عجزة الحرب وحائز على وسام صليب القديس جيورجى اربع مرات . لم يعر التفاتا الى رنين الاجراس ، وكانه لا يسمعها ، وفتح باب سوفييت القرية ، ودخل ، وبعد قليل من الوقت خرج الى مقدمة البيت يحمل مطرقة وورقة ودق الورقة على الباب باربعة مسامير ، واخرج من جيبه ختما ملفوفا فى قصاصة جريدة ، وزفر فيه ، ودمغ به على امضائه . وكان مكتوبا فى الورقة :

«يا مواطنى قرية سباسكويه ، بمناسبة قيام الثورة فى المانيا تقرر عقد اجتماع عام فى الساعة الحادية عشرة من هذا اليوم» .

وتوافد الناس على سوفييت القرية . ولما رأى كوزما كوزميتش من فوق برج الجرس ان ساحة الكنيسة قد خلت كف عن قرع اجراسه ، ونزل من البرج . وقال شيخ الكنيسة ، وهو والد ناديجدا ، وكان فى قفطان ازرق ذى شرائب . قال صفق غطاء صندوق الشموع فى اسى :

— ان ابن الكلبة ستيبان لديوشكاشى هذا ظل يلاحقنى

اسبوعا كاملا فى العام الماضى يطلب منى مائتى روبل ليسقف بيته بالالواح . وها هو الشيطان ذو الرجل الواحدة ينتقم ! خرب الرفاق .

— ماذا جرى ؟

— حدثت ثورة اخرى فى مكان ما . فى المانيا كما يبدو . وقد حشد الناس لاجتماع عام . انــــه لا يستطيع ان يصبر بلا سياسة ! اى احمق هو . يا آلهى !

كان ستيبان بتروفيتش يخطب فى الناس من على مقدمة سوفييت القرية ، وهو يهز الهواء بقبضتيه ويدق الواح الارضية بقدمه الخشبية . كان وجهه مشدودا ، وفمه فاغرا ، وشارباه خشنين . قال عندما شق كوزما كوزميتش طريقه فى الزحام ليكون اقرب الى الخطيب :

— ان الوضع الدولى يتطور لصالح السلطة السوفييتية . والالمان يمدون لنا يدهم البروليتارية . وذلك عون كبير لثورتنا ، ايها الرفاق . لقد التقيت بالمان ، وكنت فى المانيا . واستطيع ان اقول لكم شيئا واحدا ، هو ان الالمان يعيشون فى تقتير ، ولكل قطعة خبز حسابها . ولكنهم يعيشون احسن منا . ويجب التفكير فى هذه الحقيقة ، يا رفاق . ان قرية المانية مثل قريتنــا مزودة بانابيب لمياه الشرب ، واقنية لنقل السماد الى حدائق الخضروات ، وتلفون ، وانابيب غاز تصل الى كل شقة ، وصالون حلاقة ، ومشرب للبيرة فيه منضدة بليارد . اما المدارس فلا حاجة الى الحديث عنها ، كما لا حاجة الى الحديث عن انعدام الامية . . . ويوجد فى كل بيت دراجة ، وغرامفون . . .

سرى طنين فى الحشد ، وصفق احد ، فتبعه الجميع مصفقين .

— ان ساقى قد قطعتها قنبلة المانية فى بروسيا الشرقية . الا اننى ، فى اللحظة الراهنة ، ارتفع فوق اعتباراتى الشخصية . . .

صرخ صوت عال فتى :

— تكلم اوضح !

— انا لا الوم الشعب الالمانى على فقدى لساقى ، بل الوم الامبريالية العالمية . . . وهى التى يجب ان تقطع رقبتهـا بكل

تصميم ... ونحن ، الروس ، قد عرفنا ذلك من قبل ، ولكن الالمان قد فهموه اخيرا . اننا في هذا الاجتماع ، ايها الرفاق ، نهتف لكلا الشعبين : عاشت الثورة العالمية . . .

هتف صوت شاب : هورا !

وصفق المجتمعون مجددا .

– لانتقل الى الشؤون المحلية ... في مدرستنا يتسرب الماء من السقف كما يتسرب من منخل . وقد اتخذ قرار بشأن ذلك . وانا اتساءل : هل جمعت الفلوس ، واشتريت الالواح ؟ لا . بينما لديكم الفلوس لتنفقوها على الافراح ، ولديكم فلوس للقس . ورنين الاجراس يزعج الناس في دائرة سعتها عشرة فراسخ ... الاجل هذه الوقائع يمد الالمان لنا يدهم البروليتارية ؟ اقترح اتخاذ قرار تمنع بموجبه اقامة الافراح ودق الاجراس الا بعد ان تجمع النقود لاصلاح المدرسة ، واجرة عمل المدرسة ، واثمان الدفاتر والاقلام ، وتغطية مبلغ اجمالي هو اربعة آلاف وتسعمائة وسبعة روبلات وسبعة كوبيكات .

وترك خطاب الرئيس اثره ، واخجل الناس ، وهذا هو الاهم ، وخطب بعده عدة خطباء كرر جميعهم كلماته ، ولم يضيفوا اليها سوى انه ما دامت الاستعدادات للافراح قد بدأت فلا داعي لتضييع الوقت ، ويجب جمع النقود على الفور ، ولكن ليس على اساس اسهام الجميع ، بل على ان تدفعها تلك العوائل الست عشرة الغنية التي تقيم الافراح . واتخذ الاجتماع العام قرارا بذلك .

ولما علمت العرائس بالقرار اثرن صراخا شديدا ، ووجهن الى آبائهن وامهاتهن كلمات حادة جعلت الآباء يعدون الفلوس ويحملونها الى سوفييت القرية . قدم ستيبان بتروفيتش وصولات بها ، ولم يقل الا «سيروا في طريقكم» .

وكاد المساء يحل حين ساروا بالعرائس الى الكنيسة . وتعجب الناس مما طلعن به من فاخر الثياب : معاطف لها ياقات فرائية ، وبراقع مؤطرة بالفضة والذهب ، واحذية عالية الكعوب بدت فيها العرائس وكأنهن يسرن على اطراف اصابعهن . وحين

خلعن عنهن معاطفهن عند مدخل الكنيسة كشفن عن حلل نفيسة والوان نادرة المثال مختلفة الالوان ، ضيقة من الخلف حتى لتكاد تنشق ، وعريضة في الاسفل كالباقة ، والاعناق عارية ، اما نادجدا فلاسوفا فقد كانت يداها ايضا عاريتين حتى الابطين .

«انظروا ، انظروا ، امن المعقول انها اولغا تمركوخاستوفا ؟» «انظروا الى ستشكا ، كيف هي !» ، «من اين لهم هذا ؟» ، «معروف . ذهبت هي وابوها الى نوفوتشركاسك خمس مرات في عربة يجرها ثور ناقلة معها الطحين ودهن الخنزير .. وبادلتها مع سيدات نوفوتشركاسك . . .» .

وقال بعض العارفين :

«لقد شاهدت حفلات راقصة عند حاكم الولاية . . ولكن اين هذه من تلك ! ..»

«حفلات راقصة . . . في نوفوتشيركاسك احتفل بمرور ثلثمائة سنة على آل رومانوف ، واجتمعت سيدات المجتمع في الكاتدرائية ، نزلن من العربات ، وسرن على الابسطة ، ولكن لا تقارن بهؤلاء . . . .» .

خرج كوزما كوزميتش برداء القس الاعتيادي لا برداء القداس ، وعلى رأسه طاقية قس متسخة لغطي صلعته . (لأن القس القديم لم يكتف بالهروب من الاعتقال ، بل استطاع ايضا ان ينهب خزانة اردية الكنيسة) . نقل كوزما كوزميتش بصره بين العرائس ، كلهن جميلات ناهدات موردات الخدود ! وبدا العرسان بوجوههم البلهاء اصغر منهن . تنحنح كوزما كوزميتش راضيا ، وفرك يديه المتثلجتين ، واتم مراسيم القران سريعا مرحا تارة يتمتم في بربرة عجلى ، وتارة يقلد صوت الشماس العالي ، وتارة يترنم ، ولكن كل شيء كما يجب حسب الاصول كلمة بكلمة ، وحرفا بحرف .

وبعد ان انتهى من مراسيم القران طلب من العرائس والعرسان ان يتبادلوا القبل ، والقى فيهم كلمة :

– في الايام الماضية كانوا يحدثونكم حكايات واعظة . ولكنني سأروي انا لكم قصة من الحياة . قبل الثورة بخمسة عشر عاما كانت لي ابرشية في قرية نائية . وكنت آنذاك اعيش في قلق

كبير ، يا مواطنى الاعزاء . وأنا رجل روسى غير عادى ، وكل شىء لا يوافق مزاجى ، وليس كما ينبغى ، واتأذى منه . بينما اجد نفسى معنيا بكل شىء . فانا ابحث عن العـــدل . وحدثت حادثة انهت شكوكى . جاءنى شيخ طاعن فى السن ضرير يقوده صبى . اخرج من تحت لفافة نعله ورقة من فئة ثلاثة روبلات هرمة ايضـــا ، ودعكها وتلمسها ، ووضعهـا امامى وقال «خذ لك لتصلى جناز الاربعين على روح امراتى العجوز» قلت له : «ايهـــا الجد ، خذ الروبلات الثلاثة ، وساصلى على عجوزك بدون مقابل . . . هل جئت من مكان بعيد ؟» «نعم ، سرت عشرة ايام» «كم لك من العمر ؟» «ضيعت الحساب . ولكن اظننى تجاوزت المائة» «وهل لك اولاد ؟» — «لا احد ، كلهـــم ماتوا . وكانت العجوز حية ، وقد عشنـــا سوية ستين عاما ، وتعود احدنا على الآخر . وقـــد اشفقت على ، واحببتهـــــا . ثم ماتت . . .» — «وهل تعيش على التسول ؟» — «نعم . . . اصنع معروفـــــا . خـــذ الروبلات الثلاث ، واقرأ جناز الاربعين . . .» قلت «حسنـــا ، قل لى الاســـم» — «اى اسم ؟» — «اسم العجوز» تفرس فى بعينيه الضريرتين : «ما اسمها ؟ نسيت . غاب عن بالى . . . عندما كانت شابة كنا نسميها الشابة ، ثم سميناها ربة البيت ، وفيما بعد صرنا نسميها العجوز ، وظلت على ذلك . . .» «وكيف اصلى عليها بدون اســم ؟» وقف العجوز طويلا متكئا على عصاه . وقال : «نعم ، نسيت . ذلك من الضنك ، كنا نعيش فى عسر . حسنا ، انا ذاهب ، وسابحث ، فقد يكون هناك اناس ما يزالون يذكرون . . .» وقد عاد هذا الشيـــخ فى الخريف ، واخرج من لفافة نعله نفس الروبلات الثلاثـــة وقال : «عرفت . فى القرية تذكرها شخص : انها ابنة بيتر» .

كانت العرائس الست عشرة جميعا واقفات منكسات الرؤوس مطبقات الشفاه . وكان الازواج الشبان الحمر الوجوه توترا بسبب ضيق ياقات القمصان يقفون الى جانب زوجاتهم بلا حراك . بينما سكن الناس مصغين .

— ان الروسى قد نشـــــا جاهلا لا يتذكر اسمـــــه . كان السادة يعيشون حياة الاسيـــــاد ، والتجـــــار يغرفون الفلوس ، ونحن القساوسة نطوف بالمباخر . اما انتم وانتن يا

اهل الصبا والجمال فما كان من الممكن فى تلك الازمنة الملعونة ان تشعروا بالدم الحار يجرى فى عروقكم ، بل تذوون كالزهور وسط الحماض قبل ان تتفتحوا .

وقطع كوزما كوزميتش خطبته ، وكأنه يفكر ، وخلــــع طاقيته ، وحك صلعته . سالت ناديجدا فلاسوفا بصوت خافض :

— والآن هل يمكن الانصراف ؟

— لا ، انتظرى . . . وها انا فى منحدر حياتى وفقت فى ان ارى العدل . . انه ليس كالعدل الذى وصفه نيكراسوف . هـــل قرأتموه ؟ لا . . . وليس كالعدل الذى كنت احلم به ، وانا عند النهر فى ساعة المساء اصطاد السمك وحيدا جالسا قرب النار ، ضاربا البعوض على رقبتى . العدل كفاحى ، متوعد ، متصلب . . . واقول لكم بصراحـــة اننى كثيرا ما خفتـــه . . . فحين تلعلـــع الرشاشات ، ويهجم عليكـــم الفرسان بالسيوف ينتهـــى وقت التفلسف (سرى بين الحاضرين ضحك مكتوم) . الكـــم لن تجدوا العدل هناك — واشار الى قبة الكنيسة — ولا حولكم . ان العدل هو انت نفسك ، ايها الانسان الشجاع . فلتكن لديك الرغبة والجراة . . . لماذا تنظرون الى ؟ ام لعل حديثى غير مفهوم ؟ جئتكم لاعلمكم كيف تفرحون . سترقصين اليـــوم يا اولغـــا وناديا وستيفنـــا وكاترينا — وكان لدى كل اسم يشير بيده الى صاحبتــــه — حتى تئن الواح الارضيـــة ، وحتى تترعرع عيون نيكولاى وفيدور وايفان تومع عيون المسحورين . . وهذا كل شىء . . . انتهت الموعظة . . .

وادار كوزما كوزميتش ظهره للناس ، ودخل حجرة الخزانة .

عاد مفوض الفوج ايفان غورا من تساريتسين وقد قالوا له هناك ان فصائل التموين التى ارسلت من بتروغراد وموسكو لـــم تكن دائما على مستوى المهمة الموكلة اليها . وبين رجالها اناس غير مجربين اخنقهم الجوع ، واخرجتهم عن توازنهم رؤيتهم الناس يأكلون الرز فى القرى . وقد اختفت احدى هذه الفصائل دون اثر ، ووجدت فصيلة اخرى فى محطة فوروونيج فى عربة بضاعة مختومة عثر فيها على جثث ثلاثة من عمـــــال بتروغراد شقت بطونهم ،

وحشيت بالحبوب ، والصقت على جبهة احدهم رقعة كتب فيها «كلوا حتى الشبع» .

وعد المفوض الرفاق في تساريتسين بالمساعـــدة . ولدى عودته الى القرية انشأ يختار الرجال للفصائل مجريا احاديث اولية معهم . وعين لاتوغين وبايكوف وزادوبيفيتر للسفر الى قريـــة سباسكويه ، ودعاهم للحضور الى كوخه الذي كان من قبل خاويا غير مدفأ ، ولكن الآن ، وبعد عودة افروسينيا من المستشفى ، كانت ارضه مكنوسة ، وعند العتبـــة فرشت حصيرة ، ووضعت فوطة مطرزة على الطاولة ، ولم يكن يفوح بالتبغ الرخيص الحامض بل برائحة خبز طازج . طلب من الرفاق ان يمسحوا احذيتهم جيدا لدى الدخول وقال :

— اجلسوا . ماذا عندكم من اخبار سارة ؟

اجاب لاتوغين :

— وانت ماذا عندك ؟

— اسمعوا اذن . يبدو ان قتياننا لا يذهبون لجمع الحبوب عن رغبة .

— وما دخل الرغبة هنا او عدم الرغبة ؟ اذا وجب ان يذهبوا فسيذهبون . وانت تتطلب الرغبة !

— ولكن القضية دقيقة جدا .

كان ايفان غورا يجلس وظهره الى النافذة ، فخاطب زادوبيفيتر الذي كان يدق الطاولة باظافره جهما :

— انت ، ياحارث الارض ، ما رايك في هذه الامور ؟

— كم تريد ان ناخذ من الحبوب من سباسكويه ؟

— كمية كبيرة نوعا ما . اربعة آلاف وخمسمائة بود * من مائة واثنين وستين بيتا ، مـــع التفريق بين الغنـــي والفقير بالطبع . . .

— اشك في انهم سيعطون مثل هذه الكمية .

— ولهذا السبب ارسلكم ، لكي تجعلوهم يعطون . ارسلكم بلا سلاح ، ايها الرفاق .

---

* البود يساوي ١٦,٣ كيلوغراما . **المترجم** .

غمغم لاتوغين :

— لا حاجة له .

لمز بايكوف وقال :

— بدونه سنبرهن بصورة اقوى . نحن ذاهبون الى اصحابنا لا الى اعداء .

قال ايفان غورا عابسا :

— الى اصحابنا والى الاعداء .

قال زادوبيفيتر :

— اسمع ، يا مفوض . انا لست اتراجع ، ولكن ليس من عملنا ان نتسلل الى اهراء الآخرين . فان ذلك مقرف .

— وانت ، ما رايك ، يالاتوغين ؟

— لا تحاول ان تنفذ الى سريرتي ، يا ايفان . . . سنجلب الحبوب ، وكفى .

— وانت ، يا بايكوف ؟

— انا من البحر الابيض ، واحترم الجماعة .

— يارفاق ، لهذا السبب دعوتكم — ووضع ايفان غورا يديه الكبيرتين على الطاولة ، واخذ يتحدث بصوت هادئ ، كما يتحدث الاب مع ابنائه — ان احتكار الحبوب هو شريان الثورة الحيوي . اذا الغي الاحتكار الآن فسيصبح الكولاك سيدا مهما بذلنا من عرق ودم . وهو ليس صاحب الحانوت السابق ذا السماور المنتفخ ، بل كولاكا متمكنا واسع الحيلة متمرسا .

صاح زادوبيفيتر :

— كولاك . . . كولاك ؟ قل لي ان في استمارتي بقرتين ، فمن انا ؟

— ليست مسالة ابقار ، ولكن لمن ستكون السلطة ؟ ان كولاك القرية يفكر في ذلك ليل نهار . فقد سرح شغيله ، وذبح ابقاره ، ولم يحرث الارض في الخريف . وهو يهتف في الاجتماعات العامة ، ويصوت للسلطة السوفييتيـــة . انه سريع الحركـــة كالبرغوث .

— حسنا ، يا ايفان . . . لو اعود الى البيت ، واشتري بقرة اخرى او ثورين فماذا اكون ؟

– هل دخلت الى الجيش الاحمر عن رغبة ام كراهية ؟
– عن رغبة ، بالطبع .
والحقه زادوبفيتر فقال ايفان :
– اذن ، فلن تشترى ثيرانا .
– ولماذا ؟ لا اعرف لماذا ينبغى الا اشترى ثيرانا .
– يجب ان تكون اهتماماتك اوسع . فانت لم تحمل البندقية من اجل هذين الثورين . . .
قال لاتولجين :
– ولكن سيشترى الثيران . فلماذا تعذبه ؟ تابع حديثك .
هز ايفان غورا راسه مبتسما :
– لا اريد ان ادخل فى جدال ولكننى اؤمن بالانسان . . . ولكن ، حسنا . . . ما هى مهمة هذه الطبقة ؟ مهمة الكولاك هى الاستيلاء على تجارة الحبوب . ان الثورة فتحت عينى الكولاك وهو الآن لايحلم بدكان فى القريـــــة ، او بحانوت بـــل بسيلوات حبوب وسفن . . . ولو استطاع ان يمتطى الثورة فانك ستعمل له ، يـــــا زادوبفيتر ، حتى تتفصد عرقا ودمـــــا ، وستكون ثيرانك له . انه يفكر ايضا بتحويل الاحتكار لصالحه . ذات مرة دخلت قرية مع فصيلة تموين ، وبذلنا قصارانا فلم يعد ذلك نفعا . العداء فيما حولنا وكل كلمة تقولهـــا لا تترك اثرا . كان بابولين مصاص دمائهم فى معطف رث من فراء الاغنام ، وحذاء لبادى مرقع يبدو ناعما رقيقا لا يلتقط بعض شعر لحيته . . . فكرت مع نفسى : اى شىء هذا ؟ . . ذهبنا الى اهرائه فلـــم نجد حبوبا ، وحفرنا هنا وهناك بالطبع ، ولكن لم نعثر على شىء . وفى زريبة الحيوانات لم نجد غير حصان هزيل ، وجلدين من جلود الابقار معلقين من السقف . فما الذى فعل ؟ ان ابـــن الكلب هذا عرف بمجيئنـــا فطاف على الفلاحين قائلا : «آه ، آه . . . الجندرمـــة القيصريون لم يعذبوكم مثلما تعذبكم السلطة السوفييتية . انا لا يهمنى شىء . استطيع ان انتقل الى ابنتى فى المدينة ، فقد تزوجت رئيس اللجنة التنفيذية هناك ، اما انتم فلا اعرف كيف ستقضون هذا العام . ان البلاشفة يأخذون كل شىء ، وحتى القش الذى على سطوح بيوتكم سيأخذونه للجيش الاحمر . . . والله يحسب

المحسنين ، فاذهبوا ، يا اخوان ، الى اهرائى ، وخذوا ما فيها من حبوب ولا تبقوا على حبة . سنعيش ، وستحاسب فيما بعد . . .»
ومع ذلك فقد اخذ منهم وصولات ، ولكنه ظل محسنا . . . ولم يعطنا شيئا ، بينما ستعود حبوبه من الفلاحين مضاعفة . قسيكون صغيرا ، ولكن امثاله كثيرون فى كل مكان . وليس القضاء عليه سهلا . وهو منذ الف عام يتحكم بما يدخل فى فم الفلاح من طعام ، ويعرف اى خيط يمد ولاى انسان . نعم ، يا اصحاب ، ان احتكار الحبوب قضية رئيسية بعيدة النظر . حقا انها صعبة . ولكن ما هو السهل ؟ ان حراثة الارض البكر صعبة دائما . والسهل فقط هـــو العزف على البلالايكا . واذا كان الفلاح لا يفهم هذه السياسة الكبيرة فانت الملوم فى ذلك بالدرجة الاولى . اذهب الى بيت مزرعة الثرى وقـــل له : «افتح اهراءك» . ان كـــل حبة فيها عزيزة كالدمـــع ، ولكن كل حبة فيه مقدســـة لقضية مقدسة .

– اين مفاتيح سوفييت القرية ؟
– عند الرئيس . . .
– واين الرئيس ؟
– ما يزال هناك يمرح . . .
نزل لاتوغين وبايكوف وزادوبفيتر من العربـــة ولم يعرفوا ماذا يفعلون . وانصرف الذى سألوه . راقبوه طويلا وهو يتوغل فى الشارع . وكأن الارض نفسها قد ابتلعته . وانفغرت عن هاوية . جلسوا على مقدمة سوفييت القرية ، ولفوا اللفائف ، ودخنوا . كانت تهب على وجوههم ريح باردة تسوق السحب . ونزلت حبات لاذعة من الثلج وكان منخلا يتخللها ، وسرعان ما امتلأت بالثلج اخاديد الطريق الاسود ، واستحال الجو اكثر اغبرارا .
قال زادوبفيتر :
– حين اسمع المفوض يتحدث احس بيدى تريد ان تمسك سيفا . ولكن الواقع ان هذه القرية مثل كل القرى . اين اولئك الاعداء ؟ اسمع عزف الموسيقى الصاخب !

على بعد عشرة بيوت منهم ظهر جمع صغير من الناس لا بد انهم كانوا من غير المدعوين الى العرس ، او الذين ضاق بهم المكان . وترامت من هناك اصوات اكورديون تمده الى اقصاه ايد ثملة ، وطبطبة اقدام .

قال لاتوغين :

– انت تريد ان تبلل اصابع قدميك فقط ، بينما يجب الغطس الى القاع ، ايها الرفيق العزيز . ان الثورة تتطلب التعميق ، وقد تحدث المفوض عن ذلك .

– التعميق ، التعميق ! والى اى حد ؟ اننا نقلب كل شيء ، ولكن يجب ان يعيش الناس ، ويبذروا الحب ، وينجبوا الاولاد . فمتى سيكون ذلك ؟

– الشيطان يعرف ، متى . لا توجه السؤال الىّ .

كان لاتوغين حالقا يقضم القش . غضن زادوفيتر جبينه ، وفكر فى كلمات المفوض يوم امس مستغرقا فيها غير منقطع عنها على طريقة اهل الريف . قال بايكوف :

– اذا بقينا فان قضيتنا تظل جامدة لا تتحرك ، يا اولاد ، فهل نذهب للبحث عن رئيس السوفييت ؟

ورفع جسمه ، فقال له لاتوغين :

– لا نذهب .

– يعنى كيف ؟ ولماذا ؟

– ليس من المستحب ان اشرح لك السبب .

عندئذ قال زادوفيتر بتصميم :

– اذا كان لا بد من الذهاب ، فلنذهب سوية . هيا الى الرئيس .

– لا اذهب .

– يجب ان تخضع .

– كفاك ، يا لاتوغين – قال بايكوف بمصالحة – لن نقترب من المائدة ، ولن نشرب قطرة واحدة . سننادى على الرئيس من الرواق .

وذهبوا للبحث عن الرئيس . وكان ستيبان بيتروفيتش تديوشكاش قد امسك نفسه يومين وفى اليوم الثالث اخذ يفكر بان القرية قد تخلت منه . نظف الوحل من رجله الخشبية ، ولبس بنطالا اسود دون ان يحشره فى راس حذائه ، وفتل شاربيه ، وسار مهيبا فى جولة فى القرية .

«الحمد لله . . . تفضل ، ياستيبان بيتروفيتش . . .»

فكان بين معانقة من رب بيت ومصافحة ودية من رب بيت آخر : «للرئيس مكان الصدارة !» وكانوا يجلسونه فى الركن تحت الايقونة ، وكانت الخطابة تجلب له العصيدة الكثيفة المالحة على طبق صغير ليدفع فدية . فكان يدفع روبلا واحدا (لا اكثر) ، ويقبل قدحا مملوءا بالفودكا ، ويتمزز بقطعة من السمك الجاف . كان على خطأ فى ظنه بان الاحتفالات ستنتهى فى اليوم الثالث ، فان اليوم الثالث لم يكن الا بداية للاحتفال الكبير ، والرقص والغناء والعناق والاحاديث القلبية ، والمشاجرات ، والمصالحات .

لم ما الذى هؤلاء الناس ! وكم تحملوا خلال هذه الاعوام العصيبات فى عهد القيصرية ، حين بداوا يستدعون فى اخر المطاف من كانوا فى سن الاربعة والخمسين ، ولم يبق الا النساء يحرثن الارض . واذ كان ما فى الشمال كانت المرأة تسوق محراثا يجره حصان واحد ، اما فى هذه الاماكن فقد كن يحرثن بمحراث ثقيل يجره زوجان او ثلاثة ازواج من الثيران ، وما تزال النسوة يتذكرن ذلك الخريف حتى الآن . ومات الكثيرون من الناس من الانفلونزا الخطيرة ، واحترقت القرية مرتين . وما كاد الرجال يرجعون من الحرب العالمية حتى بدات التعبئة لجيش كراسنوف والابتزازات الثقيلة ، وايوء القوزاق . والقوزاق ، كما هو معروف ، خلاف الابدق . يظهر القوزاقى لك فى ساعة وكانه صاحبك الودود ، ولكن ما ان ينتظر سرجه حتى ينقلب الى قوزاقى اصيل لا يتورع عن طعن خنزيرك بمزراق اذا رآه فى الشارع . وكل ذلك اصبح فى الماضى . وصارت السلطة لنا الآن ، والضرائب والاتاوات الغيت ، واضيفت قطع اراض جديدة ، وكان الناس يريدون أن يمرحوا بلا قيد .

وكان ستيبان بيتروفيتش يجلس فى كل بيت وقتا كافيا لارضاء رب البيت ، ثم ينتقل الى بيت آخر فيه ولمية . وكان يتحدث فى ركن الايقونة احاديث رصينة مع ابوى الزوجين واميهما عن الحرب الاهلية المندلعة الآن فى شمال الدون قرب فورونيج

وكامنيفسين حيث كان كراسنوف يمزق الجيش الثامن والتاسع . « . . ولهذا ، ايها الحمر العزيز ، والحماة العزيزة والخطابون الاعزاء ، لا يجوز لنا ان نغفو ، حتى لا نؤخذ على غرة ! بل يجب ان نساعد السلطة السوفييتية . . . » وكان يتحدث عــن الشؤون المحلية ، وعن هذا وذاك ، فكان اصحاب البيت يدهشون مــن سعة اطلاع ستيبان بتروفيتش ، انه يعرف ما يوجد في هذى هنا ، وما تضم زريبة ذاك ، وما يخفى ثالث من اشياء .

وصعب عليه اكثر فاكثر الانتقال من بيت الى بيت على رجله الخشبية ، وان يبدأ من جديد الشيء نفســــه : تبادل التحيات والجلوس . وفي احد البيوت تناول فجأة صحن العصيدة من يــد الخطابة واكلها كلها ، وكانت مالحة فقط ، واخرج من جيب معطفه العسكري اوراقا نقدية مدعوكة ، هي كل ما تبقى له ، وحشرهــا في يد الخطابة ، وجرع قدحا كبيرا من الخمرة البيتيــة ، وصاح بالعروس التي ظلت ترقص لليوم الثالث في الوغرة الحارة وضيق المكان رقصة الكادريل لعشرة ازواج من الراقصين :

«ستيبانيدا ، ارقصي اقوى !»

وفي ذلك الوقت اخبروه بان ثلاثة من الجنود الحمر يسالون عنه . فقال : «ادعوهم الى هنا» اجابـــوه : «دعوناهم ، فلـــم يقبلوا . . .»

اسند ستيبان بتروفيتش يديه على المائدة ، وانحنى رأسه ، ووقف برهة ، وطلع شاقا طريقه بين الناس ، وخرج الى الرواق حيث وجد بالفعل ثلاثة رجال يبدو عليهم الجد .

سال بصوت ثابت :

— من انتم ؟

— لفصيلة التموين ! . .

اجاب لاتولدن بلهجة تهديد متوقعا ان يجفل رئيس السوفييت على اقل تقدير . الا ان ستيبان بتروفيتش — الذى كانت تفوح منه رائحة قويــة لطيفة جعلت بايكوف يقترب — لم يجفل البتة — جئتم في اللحظة المناسبة ! انا انتظركم منذ زمان . . . يا ناس ! — صاح ستيبان بتروفيتش في الباب الموارب الذى كان ينبعث منه الضجيج ورنين الاواني وطقطقة الاقدام — اوقفوا الموسيقى

موقتا ! — وفي هذه المرة ترنح بشدة حتى ان بايكــــوف اسنده بمسكة من يده — يا رفاق ، جئتم التــــم الى سوفييـــت قرية سباسكويه ، لا الى اى مكان آخر !

وامسك بعضادة الباب ، وصاح في داخل البيت بتصميـــم تـــم :

— ايها المواطنون ، الى الاجتماع جميعا !

وخرج من الرواق الى الفناء ، حيث كان ثلاثة فلاحين كهول متكئين على عربة محلولة من خيولها يغنون اغنية قوزاقية باصوات متنافرة ، واثنان متعانقان يبرهن احدهما للآخر على شيء ما ، بينما كان شخص آخر يدور محاولا ان يجد باب الخروج ليذهـــب الى بيته ، وهنا ايضا ، وخارج البوابة حيث كان الناس يرقصون على الاكورديون كرر ستيبان بيتروفيتش طلبـــه في الذهاب الى سوفييت القرية دون تلكؤ .

وكان يقول وهو يسير ضاربا رجله الخشبيـــة على الارض المتجمدة بحدة :

— الافراح افراح ، والعمـــل عمـــل . القوائـــم جاهزة ، والاحتياطات قد عرفـــــت وسجلت . . . ارسلـــوا برقية الى ستاريتشيف اذكروا فيها ان الحبوب سلمت كاملة — وعندما حاول باشوف وزادوبتير ان يقنعه بتأجيل الاجتماع ولو الى الغد حتى يصحو الناس من سكرهم على الاقل راح ستيبان بتروفيتش يكرر — من يكون ذكيا وهو سكران ، فان نفعه مزدوج ! لا حاجة لكـــم للتفتيش . غدا سيكون الامر اصعب . يجب الا ندع احدا يفكر في الامر مرتين .

وبينما كان الناس يتوافدون الى سوفييت القرية وضـــع ستيبان بتروفيتش امام الرفاق من فرقــة التمويـــن السجلات والقوائم ، واخذ يهمس بحماس :

— لدينا ثلاثة بيوت من الكولاك : كريفوسونتشكا وهـــو لص ، في عام ١٩٠٧ نهب البريد ، وقتل الساعي ، واخفى الفلوس عشرة اعوام ، وبعد مرور فترة طويلة على الجناية بنى لنفسه عريا من الآجر ، ومخزنا ، واثناء الحرب جمع المال من صفقات الجلود . على قرية سباسكويه وحدها لحو نصف الماشية . والآن يسعى الى

تكوين جمعية تعاونية ، وينقل اليهــا مخزنه ، وستاكتشف هذه الحيلة سريعا . . . انه يقول عن نفسه انه مسلول ، وانه يرى النور فى الليالى . . . انه رجل خطير . اما البيت الكولاكى الآخر فهو بيت ميليفودوف ، وكان هذا متعهد مناجم عاد الى القريــة قبيل الحرب ، وصار يدير حانة سرية مع محل للرهون . . . انه عنكبوت مراب وغد امتص القرية كلها قطعة قطعة . وقــد عرفنا انه هـــو الذى ارسل الى القريــة الشخص الذى زعم انــه الامبراطور نيقولا الثانى وذلك ليعرف مزاج الناس . . . والكولاكى الثالث هو ميكيتنكو تاجر المواشى ابـا عن جـد ، وكانت له صنادلـــه على الدون ؛ وبالاضافـة الى هذه البيوت الثلاثة يوجـد حوالى عشرة بيوت من ذوى قرباهـم والانساب والاصدقاء المقربين . كما ان هناك فلاحين حذريـن يقولون : «من يدرى بم ينتهى هذا كله ، ولمن ستكون السلطة ، والذى لا يدخل فى خصومة مع احد هو الذكى من غيره» . اولئك من جبهة الاعداء . . . اما هؤلاء فهم جميعا من جماعتنا — ومرر اصبعـه السميكة على القوائم قائلا : — الوضع فى القرية حرج . اما ان يقتلونى ، واما ان اقص جناح بعضهم .

تجمهر الناس على سوفييـت القريــة صاخبين وسكارى ، وتزاحم الجمهور وتماوج وهدر . كان بايكوف يتطلع من النافذة فترنم مع نفسه باغنية بحرية :

طيور النورس تحوم على الرمل ،
امارة على منين البحار ؛
وما دامت لم تقع على سطح الماء
فالبحر عاصف الجو . . .

وقال بصوت عال لرفاقه :

— هيا الى واجهة البيت سريعا ، والا فسيحصل اضطراب . . .

اندفعت الى بيت آنا لفتاة من الجيران صغيرة منمشة زرقاء العينين عارفة بكل شيء ، وقالت سريعة الكلام تعب الهواء مع كلماتها :

— آه ، لو تعرفين ماذا يحصل فى سوفييت القرية ! الفلاحون يقتعون اوتاد السياج . . .

وبنظرة واحدة من عينين لا ترمشان المت بكل شيء . رأت آنا فى فستان قرمزى كانت قد ارتدته مرة واحدة فى حياتها حين كان زوجها حيا ، وحذاء له حاشية ، وجوربين ابيضين ، وكانت تجلس حاسرة الراس على حافة السرير حيث استلقى القس المجرد من مسوحه عاكفا ركبتيه ، وقد لبس قميصا نظيفا اعطته لــه آنا مرقطا بنقاط سود . وكان يمسك بيد آنا . . .

صاحت آنا بها خجلة :

— ما لك تندفعين الى ابواب الناس !

فوثبت الفتاة خارجة من البيت ، ولم تقل كلمة واحدة مـن الخوف . الا انها جعلت كوزما كوزميتش يستيقظ . وكان قــد تعب خلال الايام الاخيرة ، فقد شرب واكل كثيرا ، وتحدث اكثر . ولم يفوت الفلاحون كلمة واحدة من موعظته ولم يكونوا قد فهموا بعض الاقسام منها ، الا ان ذلك لم يزدها الا قيمة . وكان فى كل بيت يضطر الى ان يتحدث عن الشيء الذى اثر فيهم اكثر مــن غيره : عن العدل . وحين كانت المائدة تخلـــو الا من الشيوخ والاجلاء كان احدهم ممن ارخت الخمرة افكاره يدفع الطعام والفتات بكمه ، ويبتدره قائلا :

— ازعلتنا ، يا كوزما كوزميتش . . . كيف تقول لا يوجد عدل ؟ . . عند ذلك سيكون العالم غابة وحشية .

وكان شخص آخر يقاطعه : — شبابنا — ويشير براسـه الى الطرف الآخر من البيت ، حيـث كانـت التنورات والضفائر والشرائط والوجوه المنفعلة تدور — لا تمكن السيطرة عليهم . انهم يقولون الآن ان كل شيء ممكن : لا وجود لله ولا للقيصر ، وآباؤنا وامهاتنا حمقى ، لطيف هذا . . . فاى شيء يمسـك اولادنا الآن ؟ اين الرابط الذى يشدهم ؟ وعلاوة على ذلك تقول : لا يوجد عدل . . .

فيتدخل شخص آخر ذو لحية فى الحديث :

— حين ياتى من انسان اقوى ، فان هذا سيكون فى الاعلى ،

وسيكون عادلا ايضا ، وسنكون نحن مرة اخرى مثل اجمة متندية . . .
سأل كوزما كوزميتش :
– هل انت قوى ؟
– انا قوى . . . ولكن الروبل اقوى منى . . تلقيت منه الضربات طوال حياتى .
– وهل شكوت الى احد ؟
– والى من اشكو ؟
– وهل ذهبت للاضرحة المقدسة فى ديركييلو – بيشورسكيا ؟
– لا ، لم اذهب .
– اذن ، لا يوجد عدل ؟
– كيف لا يوجد ؟ كنت اغلى من الغيظ . وقد عدت من الحرب ومعى بندقية ، ووقفت على الحد الذى يفصل ارضى ، وقلت : هل اعتبرتمونى مقتولا ؟ اعيدوا لى افدنتى الثلاثة ! . .
– ومن اعادوها ؟
– بالطبع . . .
– اذن ، يوجد عدل ؟
– اى عدل هذا بتخويف الناس بالبندقية ؟ لا ، يا اخ انا لا اريد ان اوذى احدا ، ولا اريد ان يؤذينى احد . هذا هو العجوز اكيم . وحيد فريد...لم يعد قادرا على العمل ، ويعيش على عطايا الناس ، يقدمون له قطعة خبز مرة . اين ذهب كل ما عمله ؟ كان له كوخ صغير ، فاستولى عليه ميلوفيدوف لقاء ديونه . . . واعمالى اين تذهب ؟ كدحت خلال خمسين عاما ما يكفى لبناء اربعة بيوت آجرية ، بينما هذه ثيابى ممزقة عند الكوعين . . . اعمالى كالحمام تطير منى ، وتحط على سقف شخص آخر ، لا على سقفى . . . جميل قولك : «ان العدل هو انت نفسك ، ايها الانسان الشجاع» . انا ، يا كوزما كوزميتش لا اخاف الموت ، وما ازال قادرا على حمل عشرين بودا على ظهرى ، ولكننى لا استطيع ان انال العدل . لو كان هناك عدل لقدر الانسان حسب عمله لا

حسب ما يملك من الفلوس . . . كيف يمكن تحقيق ذلك ؟ شكرا للسلطة السوفييتية منذ ذلك . . .
– ذلك بالذات قانون السلطة السوفييتية ، يا عجيب . . .
– يعنى ، ما زال فى الطريق الينا .
واحزن كوزما كوزميتش انه على الرغم من كل دهائه لم يستطع ان يجيب هذا الرجل بشىء . فقد كان تجاذب الحديث مع المثقفين اسهل بكثير من تجاذبه مع الفلاحين ، وفى جميع الاحاديث حول الموائد التقط ما يشبه الرضا مشوبا بعدم الارتياح والامتعاض والترقب . وبدا وكأن هؤلاء الناس ينتظرون على نحو غامض شيئا جذريا تأتى به الثورة ، ويستعجلون مجيئه سريعا .
وفى ليلة اليوم الثانى جرجر نفسه الى بيت آنا وهو فى حال سيئة تماما ، وجلس على الارض الى جانب المصطبة ، وطبطب على وجهه بكفيه ، وغطى وجهه بيديه ، وضحك وهو يردد : «احس بضعف ، يا آنا ، صرت عجوزا ، يا آنوشكا» .
قادته آنا الى الحمام على شاطئ البحيرة دون ان تتفوه بكلمة ، وغسلته بنفسها وسخنت جسمه بالبخار . وكان الهرم لا يبدو الا على وجه كوزما كوزميتش ، اما جسمه فابيض املس ، واستولى الحنان على آنا حتى رأته يقفز على الرف كالسمكة ويقول «على بالليفة . . .»
وبعد الحمام هدأ ونام حتى الضحى منتظم الانفاس . ولما استيقظ شرب حليبا وقال «اعذرينى ، يا آنوشكا ، ولا تعتبى على ، رأسى يوجعنى . . .» وغفا ثانية . وحين ايقظته الفتاة الجارة كان مرحه المألوف قد عاد اليه .
– ما الذى جاء بالفتاة الصغيرة ؟
– اجتماع عام ، كما يبدو ، جاء جنود من الجيش الاحمر لجمع الحبوب ، وعلا الهرج .
– انهم جماعتنا ، يارب !
اخذ كوزما كوزميتش يلبس ثيابه على عجل . نظرت آنا اليه من تحت حاجبيها صامتة . وفى تلك البرهة انفتح الباب مرة اخرى ، وادخلت تلك الفتاة الصغيرة رأسها فقط :
– انهم يتعاركون . المصابون كثيرون ! عادت فلاسوفا

بزوجها الى البيت مضرجا بالدم . . . ملأت الشارع صراخا ، وهي تشتمك . . . واخذ ميتروفان كريفوسوتشكا يشد حصانـــه ، فمنعوه ، جروه وراء البوابة ، واخذوا يضربونــــه بقسوة . . - يا ويلي !

واختفت مرة اخرى . وسار كوزما كوزميتش في اثرها الى الباب ، فصرخت آنا بصوت مرعب :

- لن اتركك !

وقلت عند الموقد طويلة نحيلةقرانعة كتفين شبيهتين باكتاف الرجل ، ودفعت راسها الى الخلف وكأنما تضم ظهرها . ضغط كوزما كوزميتش على يدها بكل قوته :

- آنا ، لا تكوني حمقاء ! والا سامسك بقضيب النار . . . اهدئي . ساعود بعد قليل . لنتفد مع الرفاق . قاعدي لنا فطائر ، اسمعي . . . كفى عن هذا ، اقول لك !

قالت بجهد من خلال اسنان مصكوكة :

- طيب ، يا ابانا . . .

كانت الجارة الصغيرة تريد شيئا ارعب بكثير مما شاهدت ، وهي تركض نحو سوفييت القرية وتعود ناشرة الخبر في البيوت . الا ان الاجتماع كان صاخبا حقا . لم تثر مسألة اعطاء الحبـــوب نقاشات كبيرة : «فاللازم لازم» . واصغى الناس بهدوء الى الرئيس وهو يقرأ قائمة الحصص العادلة ، وجعلوه يكررها . وبدات في الجمع احاديث قصيرة وحركة ، واخذ بعض الناس يتزاحمـــون ليقتربوا من واجهة البيت ، وآخرون يتدافعون الى الشمال نحـــو حديقـــة الخضروات المجاورة ، المحاطـــة بسيـــاج من الاغصان المضفورة .

صاح ميكيتنكو بصوته الطاغي المعروف للجميع : «اليس هذا صحيحا ؟» فردت عليه اصوات كثيرة «صحيح ، صحيح !» واندفع الى واجهة البيت رجل ملتح ممزق الكم ، والقى قبعته تحت رجليه ، واخذ يلقي مظالم قديمة :

- اين ذهبت كل اتعابي ؟ الى هؤلاء . وهل عليّ ان اركع على الاقدام امامهم لقاء كسرة خبز ؟ وهل هذه هي السلطة السوفييتية ؟

دفعه شخص آخر ممتقـــع الوجه من الغيظ ، واخذ يتفوه كلمات افظـــع . عند ذلك اندفـــع قسم من الذيـــن كانوا واقفين على بعـــد مقتربين من السيـــاج ، وانتزع الاعواد ، وهاجـــم المجتمعين من الخلف . نزل لاتوفين وزادوبغيتشـــر وبابكوف من واجهة البيت ، ودخلوا بين الناس مفرقين اياهم ، منتزعين الاعواد من ايديهم ، صائحين : «بلا فزع ، كل شيء على ما يرام . واللعنة على الشيطان . . . الاجتماع مستمر . . .» .

وكانت المشاجرة قصيرة ، فقد كان المهاجمون قليلين ، بعضهم اختفى ، والبعض الآخر لوحق في الشارع . وبقي بعض الناس منطرحين على الأرض المغطاة بالثلج . . .

سار كوزما كوزميتش عبر اسيجة حدائق الخضروات تقصيرا للطريق ، واضاع طريقه ، ووجد نفسه في بيت لا يعرفه . ورأى نسوة كانت احداهن تنتحب ، والأخريات يستمعن اليها . وحين وقع بصرهن على كوزما كوزميتش اخذت يتحدثن . وتقدمت فارفارا فلاسيوفا ام لاديجدا نحوه طاويه كمي معطفها الجنفاصي الطويلين وقد بدا عليها الغيظ ، وتحركت الاخريات وراءها . قالت فارفارا :

- لهذا السبب لم تأخذ فلوسا منا ، ايها القس المجرد من مسوحه ! . . بينما نحن ، حمقاوات ، صدقنا به . . . جعـــل القرية كلها تسكر . . . انتزع كل شيء منا . . . شوش عقول جميع الحمقى ، هذا المشوش . . . يا نســـا للشيوعيين . . لا تحلقن فيه ، بل اضربنه حتى الموت .

رد كوزما كوزميتش متراجعا :

- لا يجوز لكنّ ضربي . . . ستأسفن ، يا نسوان . . لا تلمسنني !

- وهل اسفت انت علينا ؟

خلعت النسوة المناديل من رؤوسهن هائجات واخذن يتكلمن دفعة واحدة ، متهمات القس المجرد من المسوح بالاجحـــاف في تعيين الحصص ، وبسفك الدماء في سوفييت القرية ، وبانه هـــو

الذى جعل رب البيت المقتدر لا يجد مكانا له الآن فى القرية . كما انه المسؤول فى ان ينحر ويتركل هذا العدد الكبيـــر من الوز والخنانيص فى هذه الايام ، لقد كان المذنب فى كل شىء . وحصرته النساء على السياج . وذهبت جهود كوزمـــا كوزميتش عبثا فى سحرهن من جديد ، مكرها نفسه على الابتسام ، متمتما : «هيه ، اعلنتن عن غضبكن ، وكفى . . . لنتكلم بهدوء . . .» كانت فارفارا فلاسوفا اول من جذبت شعره من جانبى اذنيه ، وتتابعت ضربات النساء على ظهره المحنى . وفكر ان افضل طريقة هى ان ينطرح ، ويغطى وجهه بيديه . كانت اضلاعه تطقطق ، وتمنى فى سره : «فقط ان لا يضربننى بشىء صلب . . .» واذا به يسمع صوتـــا قويا : «اضربنه بالعود ، هذا المسخ !» حاول كوزما كوزميتش ان يقفز ، الا ان غشاوة غطت على بصره . وفجأة رفعوا ايديهن عنه . فنذاك سمع توجعه واجبر نفسه على ان يمنع نفسه عنه . رفعته ايد واسندتـــه الى السياج . مسح كوزمـــا كوزميتش الثلج والقش من عينيه ورأى آلا ووراء تنورتهـــا وجه الفتاة الصغيرة المتمش يبدو عليـــه التحمس . كمـــا رأى لاتوغين وزادوريفيتر وبايكوف .

سأل لاتوغين :

– هل انت حى ؟ ليجلب له بعض الناس قدحا من الخمرة البيتية الآن . انك ، يا كوزما ، فعلت الكثير هنا . . . ، واتخذ الاجتماع قرارا بشكرك على الدعوة ضد الكنيسة . . .

– لا يمكنك ان تتصورى ، يا داشا ، الى اى حد كنـــت غبنا ، انـــانا كئيبـــا طوال المدة التى اعقبـــت افتراقنا فى بتروغراد . نعم ، كنت ذلك الرجل . . . ان لنا حياة لا شعورية ، انها كالعلة تعذبك وتضحك على نار بطيئة . . . وتفسير ذلـــك سهل بالطبع . . . انت كلمت عن حبى ، وانا . . .

ادارت داشا رأسها اليه بحركة سريعة ، فقرأ فى عينيهـــا الرماديتين النديتين الرهيبتين دائما انه على خطأ ، فانها لم تكف عن حبه . وخدرته تلك النظرة لحظة ، ثم انفرج فمه عن ابتسامة لا تنم عن ذكاء كثير ولكنها فرحة على اية حال . واصلت داشـــا

وضع الاشياء فى سلة صغيرة ، وهى اشياء حصل عليها ايفـــان ايليتش صباح اليوم كجرايات من الالبسة بعد ان طاف على عدد من المؤسسات .

كانت اشيـــاء ضروريـــة ومفيـــدة : جوارب ، وبعض القطع الصغيرة من القماش يمكن ان يفصل منها فستان ، وملابس داخلية جميلة جدا من البسته لا تصلح الا لصبية ، مع الاسف ، الا ان داشا كانت من الهزال والنحافة بحيث كانت تبدو صبية . وكانت من بين الاشياء الحلية طويلة ، وكان ايفان ايليتش معتزا بها اعتزازا لا يقل عن اعتزازه لو انه استولى على بطارية للعدو . وكانت هناك اشياء تدعو الى التفكير فيما اذا ستكون نافعـــة فى حياة التنقل التى تنتظرهما . وقد اعطيت لايفان لايليتش بدلا من الطارش واخذها من احد المستودعات . انها قطة وكلب من الصينى ، وبعض عاقصات الشعر من الجلد . ودزينة من بطاقات البريد عليها مناظر من القرم ، وكورسيه من قماش جيد للغاية له اذنيات من عظم الحوت ، كبير جدا حتى ان داشا استطاعت ان تلفه على نفسها مرتين .

– داشنكا ، انا اتكلم عن وداعنا فى محطة القطار . . . لقد قلت لى شيئا مثل : «وداعا الى الابد . . .» وربما اخطـــات فى سمعى . . كنت ايضا مغموما جدا . . . وكنت انت هشة شاحبة بعيدة المنال ، عازفة عن الحب . . . .

– اية فظاعة !

قالت داشا ذلك دون ان تلتفت ، وكانت تلف القطـــة فى جورب سميك لكيلا تنكسر فى الطريق . وكانت داشا دائما غير مكترثة بالاشياء ، ولكنها تعجبت بسبب ما بهاتين التحفتين مـــن الفخار الصينى : القطة الحلوة ، والكلب النائم باذنيه الكبيرتين ، وكأنهما قد سعيا اليها سعيا ليقيما لها عالما صغيرا من البسمات الرزينة فى هذه الحياة الكبيرة الرهيبة المتهدمة التى كانت تخيم عليها سحب منذرة من الافكار والاهواء . . . .

– وعلى اية حال لماذا بتروغراد بهذه الصورة عنك . . . حملتها وعشت معها . . كنت تصاحبيننى كطلسم . وعزمت على ان اعيش وحيدا عازبا . . .

وحاول ان يسير فى الغرفة بحيث تكون داشا مركز دورانه . وكانت قد خلعت منديل راسها . وكان شعرها المتلوى ذو الشقرة الشاحبة مضفورا فى قفاها بشريط من الستان الاحمر (اعطوه لها من مستودع ادارة المدفعية) . كانت داشا تارة تنحنى على السلة الموضوعة على مقعد ، وتارة تنزل ذراعيها على جنبيها ، وتفكر فى شىء ما . كانت ترتدى مريول ممرضة ابيض اتقن من اى فستان تفننوا فى تفصيله ، وقد شدته من خصرها (عن غرض ، شأنه شأن الشريط) . . .

– غريب ، يا داشنكا . كان الخطر والموت من قبل يبدوان امرين غير مهمين . فليقتلوا ، ذلك لا يهم . فى الحرب لا يدل ذلك على الشجاعة مطلقا ، بل مجرد سوداوية . . . اما الآن فحين افكر فى الماضى اشعر احيانا بالرهبة . . . اريد ان اعيش الف عام لكى المسك ، وانظر اليك . . .

– حلوة ستكون بعد الف عام . . . اسمع ، يا ايفان ، ماذا سنفعل به على اية حال – وبسطت الكورسيه مرة اخرى ، ووضعته على صدرها – يمكن ان تدخل فيه ثلاث نساء . وربما لا ناخذه ؟

– وما اذا لو سمنت ؟ سينفعك .

– انا لا البس كورسيهات ابدا ، الست فقدت عقلك . اسمع ، لو رفعنا منه العظام ، وشققناه فمن الممكن ان يصنع منه صدار لطيف . .

استغل ايفان ايليتش انشغال كلتا يديها فتقدم من ظهرها ، وجذب داشا اليه بلطف :

– اصحيح ما تقولينه ؟ قوليه مرة اخرى .

– صحيح ، بالطبع . . . انت رجل الوحيد على هذه الارض ، وانا بدونك لا شىء . . . جئت لابحث عنك . . ايفان ، فكر ، على اية حال – وصررت كتفيها ، وتنحت قليلا – يجب ان يكون هناك تناسب فى القوى . انك ستحطمنى يوما ما . . . اسمع ، ماذا نسينا ؟ فات الوقت الآن على كل حال . . . .

– قولى وساطير حالا . . .

– لطيف لو نحصل على اسفنجة . .

– توجد اسفنجة .

وهرع ايفان ايليتش الى معطفه ، واخرج من جيبه اسفنجة وبعض الاشياء غير اللازمة .

– هذه هى اشياء ، يا داشا . لم يستطع احد ان يشرح لى لاى غرض هى ، ولكننى اخذتها على اية حال .

– انها شىء لطيف يا ايفان . هذه قطعة من المطاط لتدليك الوجه . يا لروعتك ! ان هذه ضرورية جدا لى .

اعدت داشا السلة ، وتقدمت من ايفان ايليتش الذى كان جالسا على طرف التخت ، متهيئا فى كل لحظة الى الوثوب . رفعت داشا وجهه ، وحدقت فى عينيه باهتمام :

– لقد قطعت على نفسى عهدا . لن انتظر شيئا فى حياتى الجديدة . وانا لست سولفيج * ، ولا اريد ان احدق بعد الآن فى ضباب البحر . بل ان احب فقط ، واعمل . . . . خذنى كما انا سيئة او حسنة . ولكننى زوجة وفية لك . . . لنبدأ بداية جديدة فى كل شىء . . .

دخل الدكتور دون ان يطرق الباب على عادته ، ومعه آخر عدد من جريدة واخذ يعلن الانباء العسكرية بصوت راعد :

– ان الادميرال كولتشاك ، ذلك الرجل الذى طرد الادارة من اومسك ، واقام للعمال حمام دم قد نصب نفسه الحاكم الاعلى لروسيا بدون تواضع ! . . . واعترف به الفرنسيون والانجليز . . . ما رايك فى هذا ؟ ان له جيشا قوامه ستمائة الف رجل وسيتنازل على ما يبدو عن الشرق الاقصى لليابانيين بلطف ! ثم اسمع الشىء التالى : ان الاسطول الانجليزى والفرنسى المتحد قد ظهر فى ممرات سيباستوبول ونوفوروسيسك المائية . . . حلفاء ! انظر انهم ساعدونا ليربح الحرب بدمائنا ! – ومط الدكتور شفتيه بحنق ، وتابع قوله – تدخل ، تدخل على المكشوف تماما ! يا داريا دميتريفنا لا تنظرى الى بهاتين العينين الرهيبتين . . . خذى

* سولفيج – شخصية نسائية من دراما ابسن الشاعرية «بيرجينت» . المترجم .

زوجك ، وتعالا الى غرفتى لتناول حساء البورش . . . انت تذكرين الرجل الذى كان يرقد عندنا مصابا بجراح حراب . لقد ارسل لى كيسا من الكرنب وبزة ولحم خنزير . . . مع الاسف ، يا ايفان ايليتش ، مع الاسف انك تاخذ منى مثل هذه الممرضة الرائعة على مراى منى . . . بالمناسبة سنشرب اليوم الفودكا ، وليذهب جميع المتدخلين الى الجحيم . . . .

١١

احتاج فاديم بيتروفيتش الى شىء قليل ليتغلب على تردده ، وكان هذا الشىء القليل هو وقوعه على اثر لكاتيا . فان اثر قدم امرأة حافية على رمل شاطىء يجعل رجلا يؤلف فى مخيلته قصة كاملة عن تلك – الرائعة – التى مرت من هنا على ضجيج امواج البحر الكبير . شبت فيه عاطفة الغيرة المعذبة ، متغلبة على افكاره اليائسة ، وجزعه القاهر ، وصار كل شىء يبدو له بسيطا واضحا .

غادر يكاترينوسلاف فى تلك الليلة ذاتها (بعد الحديث مع الضابط الالمانى) . ترك الحقيبة فى الفندق ، ولم ياخذ معه غير تبديلة من الملابس الداخلية ، وحقيبته الظهرية . وفى الطريق خلع كتافيته كضابط ، وعقدة شريط القبعة ، وخلع الشارة من كمه الايسر ، والقاها من النافذة ، ومع هذه القاذورات ذهب لهب الريح كل ما كان يبدو له حتى تلك الليلة فى «بى – با – بو» ضروريا لاحترام النفس . اخرج سالفيه ، وحشر كفيه وراء حزامه وجلس على التخت فى العربة المظلمة الفارغة تقريبا . وقد افعم قلبه فرح وحشى . انها الحرية ! كان القطار ينطلق به الى كاتيا ، ومهما حدث لها ، فانه سيجد طريقه اليها ، ولو تقطع جسده اربا اربا .

فى يكاترينوسلاف حذر ناظر المحطة من ان قطاع الطرق عادوا الى طغيانهم فى منتصف الطريق الى روستوف ، وهذا هو آخر قطار يتجه شرقا ، وليس من المؤكد حتى ما اذا كان سيسير على الخط الاسفل عبر غولاى – بوله ، او على الخط الاعلى عبر يوزوفكا ، وفى المحطة نفسها تحدث الجابى الاقدم الى المسافرين الذين احاطوا به عن قطاع الطرق الذين ينطلقون فى السهب على العربات بحثا عن

الغنائم ، ويضرمون النار فى ضياع اصحاب الارض الذين ما يزالون لحماقتهم قابعين فيها ، ويهاجمون بجراة المستودعات العسكرية ومصانع التقطير ، ويحومون حول المدن .

وقال الجابى الاقدم بصوت جهورى :

– لا باس لو ان الاتمانات بلا رئيس ، ولكن لهم رئيسا ، وماخنو اتمان على جميع الاتمانات . رجل له شعبية – وله دولة كاملة وعاصمة هى غولاى – بوله ، وهو لا يضيع وقته فى الصغائر . انه يدع القطارات تمر دون عراقيل ، ولكن يفتشها بالطبع ، ينزل من يشاء ، ويطلق النار عليه فى البقعة امام ملوحة الخط الحديدى . فى السفرة الاخيرة ، ونحن نقترب من الرصيف رايت ماخنو يقف تحت الجرس وهو يدخن سيغارا . قفزت من العربة ، واقتربت منه ، واديت له التحية . ومع ذلك فقد قال لى بلطف : «انزل يدك . فانا لست قيصرا او ربا لك . . . هل معك شيوعيون ؟» اجبته «لا ، على الاطلاق» – «او حراس بيض ؟» ، – «لا ، مجرد مسافرين محليين» – «وهل تنقل تحاويل نقدية ؟» وشعرت بان صدرى يتمزق . قلت له : «تعال ، وتاكد بنفسك . عربة الامتعة والبريد فارغتان» – «حسنا ، اذن ، مر بالقطار» .

وكانت التوقفات فى المحطات الصغيرة مؤلمة ، سكون دمدمة العجلات ، الركود ، الانتظار المرهق ، وكان فاديم بتروفيتش يخرج الى فسحة العربة ، فلا يرى احدا على الرصيف المظلم ، ولا على الخطوط ، لا شىء غير ضوء شاحب لفتيلة مغروزة فى زيت يتراءى للنظر من نافذة المحطة ، وشخصين يريان جالسين هما الجابى والمختص بالبرقيات مستعدين للجلوس هكذا طوال الليل ، وقد وضعا انفيهما فى ياقتيهما . والذهاب اليهما ، والاستفسار بلا فائدة . فان القطار يتحرك حين يعطى الطريق له من المحطة المجاورة ، وقد تكون تلك المحطة خالية من كل شخص حى .

استنشق فاديم بتروفيتش الهواء البارد ، وقد توتر كل جسده ، وتصلب . . . لم يكن فى هذا الظلام الخريفى ، فى روسيا الشاسعة المترامية الاطراف غير نقطة واحدة حية – قطعة من اللحم الحار يشعر بحب عارم نحوها . . . كيف كان من الممكن ان يتملكه ذلك الاحساس المعتم فى لحظة من لحظات الرغبة العاتية فى الانتقام

والتنكيل ليدفعه الى ان يتخلى عنه يدى كاتيا المتشبثتين به فى أعلى درجات القنوط ، ويتركها بفظاظة وحيدة ، فى مدينة غريبة . ومن أين ستأتيه تلك الثقة التى تجعله ، بعد ان يجدها ، وبدون ان ينطق بكلمة واحدة (تلك هى الطريقــة الوحيدة المقبولة) يرمى نفسه نحوها ليقبل قدميها بجوربيها المرفوين للغاية ، على الاكثر ، ويحصل مع ذلك على الغفران منها ؟ ان مثل تلك الخيانات لا تغتفر بسهولة !

وبينما كان فاديم بيتروفيتش مسترسلا وحده فى افكاره فى فسحة العربة ، متمتما فى غضب ، محركا حاجبيه ، خرج الجابى من المحطة ، ووقف عند العربة غير مكترث بما قد يقطع القطار من مسافة ... سأل فاديم بيتروفيتش هل سيطول الانتظار ؟ لم يجد الجابى الرغبة حتى فى هز كتفيه . كانت الريح تهز الفانوس المسود الذى كان يمسكه فى يده فيكشف عن اطراف معطفــه الاســود المتطايرة . وفجأة انطفأ الضوء الشاحب فى نافذة المحطة ، وصفق باب . وتقدم المختص بالبرقيات وظل الاثنــان يطيلان النظر فى ملوحة الخط الحديدى .

همس المختص بالبرقيات :

– اطفئه !

رفع الجابى الفانوس الى وجهه المشورب المنتفخ ، ونفخ على الذبالة الساخنة وصعد فى الحال مع المختص بالبرقيات الى فسحة العربة ، وفتح الباب فى الجانب الآخر من العربة .

– اخرج – قال الجابى لفاديم ونزل على عجل وهرول .

قفز روتشيبن فى اثره . تعثر بالخط ، ووقف على كومــة من العوارض . وصعد الى حقل كانت الظلمة اخف قليلا فيه ، فلاح شخصان سائران . لحق بهما . قال المختص بالبرقيات :

– فى هذا المكان حفر . اللعنة على الظلام ! كانوا يرفعون الرمل . وانا دائما اختفى هنا .

وتبين ان الحفر كانت تقع الى اليسار قليلا . نزل روتشين فيما يشبه الخندق مقتفيا اثر صاحبيه . وبعد قليل جاء شخصان آخران هما سائق القطار والوقاد ، واوصلا الشمتالم ، ثم نزلا الى الحفرة ايضا . زفر الجابى زفرة ثقيلة :

– سأترك هذه الخدمة . لقد ضجــــرت . اية مواصلات هذه !

قال المختص بالبرقيات :

– صمتا . الشياطين آتون .

الآن كانت كركبة حوافر الخيول تسمع من السهب ، ومعها قعقعة عجلات العربات .

سأل الجابى المختص بالبرقيات :

– من الذى يعبث فى هذه الاتحاء ؟ جاكى الموت ؟

– لا . ان هذا فى غابة ديبريفسكى الآن . بل اظنها ماروسيا ، لا وليست هى ايضا . فمن عادتها ان تجرى بالمشاعل ... لا بد انه انسان صغير من هذه النواحى .

قال سائق القطار بصوت مبحوح :

– لا ، ابدا . انه ماكسيرتا من اعوان ماخنو ... اللعنــة عليه ...

زفر سائق القطار ثانية :

– عندى يهودى فى العربة الثالثــة ومعه حقائب ... لم اخبره ، مسكين ...

كانت كركبة الخيول تقترب ، وكأنها الريح قبيل العاصفــة الرعدية . اخذت العجلات تدمدم على البلاط قرب المحطة . وارتفعت صيحات : هيا ، هيا اه . وسمع صوت تحطم زجاج ، وطلقة ، وزعيق قصير ، وضربــات على الحديد ... اخذ الجابى ينفخ فى شاربه المكورتين :

– لا بد ان يفعلوا ذلك . ان يكسروا زجاج النوافذ ، على عادة السكارى ...

لم يستمر كل هذا الشغب طويلا . وصــدر صوت يائس مركبوه . وصرفت العربــات ، وحمحمت الخيــول ، وقرقعت العجلات ، وانطلقت عصابة الاتمان مبتعدة فى السهب . عند ذلك خرج الجالسون فى الحفر ، وعادوا على مهل نحو القطار المظلم ، وصعدوا الى اماكنهم . اشعل المختص بالبرقيات قنديل الزيت ، واخذ يتصل بالمحطة المجاورة ، وتفقد السائق والوقاد القاطرة ليتأكدا من ان قطاع الطرق لم ينتزعوا شيئا مهما منها ، وصعد

روتشين الى العربة . وتمتم الجابى وهو يسحق بقدميه هشيم الزجاج المحطم على الرصيف :

– وهذا ما حصل . قتلوا المسكين ... فلو اخذوا الحقائب وحدها . ولكنهم يريدون دائما ازهاق روح انسان .

ومضت فترة اخرى من الوقت طويلة وغير معلومة ، وصفر الجابى اخيرا صفرة قصيرة ، واعولت القاطرة كالساخطة فى السهب الخاوى ، واتجه القطار نحو غولاى – بوله .

وضع فاديم بيترولفيتش مرفقه على الطاولة المطوية ودفن وجهه فى يديه ، وراح يركز ذهنه كله فى حل المشكلة : ان كاتيا غادرت روستوف فى اليوم التالى مباشرة ، بعد ان ابلغها اونول النذل عن موته . ومعنى ذلك فان لقاءها مع الضابط الالمانى فى القطار جرى بعد يومين ... ولنفرض ان هذا الالمانى سرّى عنها بدون اى محاولة للتطمع فيما يأتى ... لنفرض انها كانت فى ذلك اليوم فى حاجة ماسة الى من يبعث فى نفسها السلوان . ولكنها بعد يوم واحد من فقدها لمن تحبه كتبت فى دفتر رجل غريب ، وبشكل متقن جدا ، عنوانها ، واسمها ، واسم ابيها دون ان تنسى ان تضع الفواصل بين العبارات . ان ذلك للغز ! السماء قد اطبقت عليها ، وزوجها المحبوب مطروح فى مكان ما ، كالجيفة . ان من الطبيعى ، على ما يبدو ، ان تصاب بيأس قاتط فى الايام الاولى من ذلك . يظهر انها اعطت عنوانها على عشباك الليريد» . ومعنى ذلك انها كانت تجد بصيصا من الامل ... فاى لغز !

– ايها المواطن ، ارنى اوراقك – وجلس الجابى مقابل روتشين ، ووضع الفانوس المسخم بالقرب منه – حين نتجاوز غولاى – بوله يمكنك ان تنام باطمئنان .

– سانزل فى غولاى-بوله .

– اها .. ذلك يزيد الامر ضرورة ... انسا الذى سيسالوننى : من احمل من الركاب ..

– ليست لدى اية اوراق ...

– وكيف يكون ذلك ؟

– قطعتها ورميتها .

– عندئذ يجب ان ابلغ عنك ...

– بلغ ، عليك اللعنة ...

– ولم هذه اللعنة فى مثل هذا الوقت ؟ .. هل انت ضابط ؟

كانت افكار روتشين مشدودة متوترة ، فاجاب من خلال اسنانه :

– فوضوى .

– نعم ، مفهوم ... تقلت الكثيرين من اخوانك من يكاترينوسلاف . – وتناول الجابى الفانوس ، وامسكه بين رجليه ، واطال النظر ، حيث كانت الشرارات التى ترسلها القاطرة تتطاير وراء النافذة المظلمة . وقال بخفوت : – انت رجل مثقف ، فعلمنى كيف اتصرف ؟ فى السفرة الماضية تكلمت ايضا مع فوضوى ، وهو رجل رصين اشيب وعق ، قال لى : «نحن لسنا بحاجة الى السكك الحديدية ، سنلغيها كلها بحيث تكون نسيا منسيا . فان السكك الحديدية تولد العبودية والراسمالية . سنقسم كل شىء على الناس بالتساوى ، والانسان يجب ان يعيش على الطبيعة ، وبلا سلطة ، كالحيوان ...» شكرا على ذلك ! ... انا اشتغل على القطارات منذ ثلاثين عاما ، وقد بنيت من ذلك بيتا صغيرا ، فى تاغانروغ ، حيث توجد زوجتى العجوز مع معزة وشجيرتى خوخ فى الحديقة . وذلك كل ما املك . فما حاجتى الى هذه الطبيعة ؟ ان ارعى المعزى على المنحدر ؟ قل لى هل كان هناك نظام فى الحكم السابق ؟ كان هناك استغلال ، وانا لا انكر ذلك . تأخذ عربة من الدرجة الاولى نجد الهدوء والاحتشام . بعضهم يدخن سيغارا ، وبعضهم يهوم بمهابة ووقار . فتحس ان هؤلاء مستغلون ، ولكن لا تسمع سبابا صريحا . اعوذ بالله ... فترفع يدك بالتحية ، وتمر فى العربة بهدوء ... اما فى الدرجة الثالثة فالفلاحون ، بالطبع ، متكومون واحدا فوق الآخر ، ولا مجال للخجل ... كل ذلك كان موجودا ، بالتأكيد ... ولكن كان لديك ايضا دجاجة محمصة ، ولحم خنزير مقدد ، وبيض ، اما الخبز فانت تأكل الارغفة ، يا صاحبى ؟ – وصمت ناظرا الى الشرر وراء النافذة – هذا محور يحترق فى عربة الامتعة . بسبب انعدام الزيت ، حتى ان العقليات فى طريقها الى النهاية بدون تدخل الفوضويين ... والآن قل لى ماذا سيحصل الآن ؟ استبدلوا القيصر برادا ، والرادا

بالهيتمان ، والهيتمان بمن سيستبدلونه ؟ بماخنو ؟ اراد احد الحمقى ان يصب سكين محرات ، فوضع الحديد على النار حتى ذوب نصفه واتلفه ، فقال لنفسه : لاصنع فاسا ، فاذاب نصف الباقى ايضا ، ولم يبق الا ما يمكن ان يصنع منه مثقبا ، فاخذ يطرقه بمطرقته طرقا شديدا حتى لم يبق شيء . . . . وهكذا . . . لا نظام ، ولا خوف ، ولا سلطان . . . ستصل الى غولاى - بوليه وترى كيف يعيش الناس فى ظل «النظام الفوضوى الحر» . شيء واحد يمكن ان اقوله : انهم يعيشون فى سكر ومتعة لم يسمع احد بمثلها منذ قديم الزمان . وقد اعلنت المنطقة كلها «بستان عنب» . وما اكثر المومسات اللواتى تقلتهن الى هناك ! . نعم ، كلامى بلغة الشيوخ ، فاعذرنى ، ايها الرفيق الفوضوى : ان روسيا ضاعت . .

اخذ الكثيرون من الفلاحين الميسورين الذين انضموا فى الصيف الى فصائل الالمان يفكرون الآن فى العودة الى قراهم . حملوا العربة بكل ما وقع من نصيبهم بالعدل من الغنائم ، وحولوا العملات المعدنية المختلفة الى العملة القيصرية ، وشدوا المشمع بقوة على اشيائهم ، وربطوا سخانا فى المحور الخلفى . وخرج بعضهم سرا ، وآخرون ذهبوا علانية الى الاتمان : «وداعا ، يا سيد ، لست جنديا عندك بعد الآن» - «ولم ذلك ؟» «مشتاق الى بيتى . لا اجد لى رغبة فى طعام او شراب او نوم . وحين تقتضى الحاجة مرة اخرى ، ادعنا وسنأتى» ، وشدوا الخيول الجيدة ، وخرجوا الى الضياع ، والقرى والنواحى التى تخلصت من ايواء الجنود الالمان .

وفكر الكمى كراسيلنيكوف ايضا فى ذلك . تشاور مع ماترينا زوجة اخيه ، بل ومع كاتيا وروتشينا ايضا فيما اذا كان من المبكر العودة الى البيت ؟ العلهم سيجدون فى انتظارهم منغصات . . فان من المتعذر التسلل الى قرية فلاديميرسكويه سرا ، وقد تلقى عليهم مسؤولية قتل العريف الالمانى . والالمان قوم جادون . ومن ناحية اخرى فانهم حين يجدون النار قد اتت على كل شيء سيضطرون الى بناء البيت ، وتنظيم المرافق . وكل ذلك يجب ان يجرى الآن ، فى الخريف .

كان نصيب الكمى كراسيلنيكوف من غنائم جيش ماخنو خمسة خيول فتية قوية ، وثلاث عربات من الاشياء والاقمشة

ومختلف المتاع . وكل هذه الاشياء جمعتها ماترينا اكثر مما جمعها الكمى . فقد كانت تحضر الاجتماعات غير هيابة ، حيث كانت تسائل الاتمان او ماخنو نفسه بقسم الغنيمة ، وكانت دائما مهندمة جميلة مهتاجة فكانت تاخذ ما تريد . وحين كان احد الفلاحين يتهيأ للجدال معها كان هدير الضحك ينفجر فى كل مكان حين كانت تنتزع منه الشيء المتنازع عليه سواء أكان شالا او معطفا فراليا او قطعة من القماش الجيد . وكانت تقول : «انا امرأة ، وانا احوج الى ذلك . فانك ستبيعه لتشرب بثمنه ، ايها القس ، ستأتى به الىّ ليلا . . .» كما كانت تبادل وتقايض . وكانت تحتفظ فى العربة ببرميل من الخمرة لهذه الغاية .

تقلب الكمى الافكار فى راسه ، ولم يستقر على راى ، حتى وصل نبأ سار ، وهو ان سكوروبادسكى الذى تخلى عنه الالمان وقواته نفسها قد تنازل عن الهيتمانية ، وان رجال بيتلورا دخلوا كييف ، واعلنوا فيها «الجمهورية الاوكرانية الديموقراطية» . وفى نفس الوقت تحرك الجيش الاحمر الاوكرانى من الحدود السوفييتية . وكان الامر الاخير يوحى بالثقة التامة .

فى الليل ، ودون علم احد جلب الكمى الخيول من السهب ، وايقظ ماترينا وكاتيا ، وطلب ان يعد الفطور بينما هو يشد الخيول الى العربات . واكلوا حتى الشبع قبل ان يخرجوا فى السفر الطويل . وقبل انطلاق الفجر ساروا خلال طريق وعر فى الضباب قاصدين بيتهم فى فلاديميرسكويه .

كان من الصعب ان يرى المرء فى كاتيا وروتشينا المسافرة على عربة فى سترة من فراء الغنم ، وحذاء طويل ملطخ ، والريح قد لسعت خديها ، وتركتهما كالخوخ ، ان يرى فيها تلك السيدة الناعمة المتبينة عند اقل صدمة تصيبها فى الحياة ، الى ان تلملم اطرافها مثل قطيطة مسكينة . كانت ، وهى نصف مستلقية على القش ، تسوط الحصان حتى لا يتأخر عن الخيول الثلاثة التى كان الكمى يسوقها على عربته فتندفع بين الحين والآخر فى عدو . اما العربة الاخيرة فكانت تسوقها ماترينا التى لم تكن تتقى احدا ماشيا كان او راكبا .

كان المهب مقفرا . وكان الثلج يلوح في ثنايا الوهاد وقد حملته رياح كانون الاول من الهضاب الطباشيرية . وفي الافق كانت ترتفع اهرامات بلون الصدأ هي ما تخرجه المناجم . والحياة لم تبدأ بعد في المنطقة التي هجرها المحتلون . وقد انضم الكثيرون من عمال المناجم والمصانع الى فصائل الحمر ، وهم الآن يحاربون قرب تساريتسين ، وهرب كثيرون الى الشمال ، حيث كانت وحدات الجيش الاحمر الاوكراني تتشكل عند الحدود السوفييتية . وقد نما العشب في الطرقات ، والاعشاب في حقول الذرة المهملة ، حيث كانت اضلاع صفراء لفرس ميت تبرز من خلالها هنا وهناك . ولم يكن في تلك المنطقة غير النادر من البيوت .

كانت ماتريونا تردد قائلة لاخي زوجها : «ابتعد عن الناس ، ولا تنتظر منهم خيرا» . فكان الكسي يكتفي بالضحـــــك «آوه ، ثعلبة . . . كنت امرأة عذبة . . . والآن اصبحت مفترسة ، يـــا عزيزتي ماتريونا . . .» .

وكان لكاتيا وقت وافر للتفكير ، وهي تهتز في العربة ، وتقضم القش . كانت تدرك حق الادراك انهما يحملانها الى قرية للاديميرسكويه كغنيمة لالكسي ايفانوفيتش ، ولربما هي اغلى كل ما كان له محملا على العربات الثلاث . ومن هي غير اسيرة من العالم المحطم ؟ سيقيم الكسي ايفانوفيتش على وكام بيته بيتا جيدا ، ويفصله عن الناس الآخرين بسياج قوي ، ويخبئ في السرداب كل نفائسه ، ويقول بحزم : «كاترينا ديميتريفنا ، لم يبق الآن الا شيء واحد — الاخير — وانت صاحبة الكلمة . . .» .

كانت الحياة بكليتها تبدو لها كمدينة احرقتها الحرب : اكواما من الرماد ، ومداخن مواقد محروقة . مات الاحباء ، ولا خبر عن الاعزاء . قبل فترة تلقت ماتريونا رسالة من زوجها سيميون مرسلة من سامارا . كتب فيها ، فيما كتب ، انه ذهب الى العنوان المذكور في الشارع الذي كان يسمى دفوريانسكيا سابقا ، ولم يجد هناك دكتورا يدعى بولياقين ، ولا احد يعرف الى اين ذهب مع ابنته . ولم يبق لكاتيا غير شخصين يشفقان عليها ويحبانها مثل لطيفة البيت هما الكسي وماتريونا . فهل من المعقول انها كانت قادرة على ان ترفض لهما امرا ؟

كان لا بد لها ومنذ زمن طويل ان تصير عجوزا محت الدموع بريق عينيها بعد ان عانت تلك السنين الطويلة الغاصة بالاحداث كقرن من الزمن . الا ان خديها كانا يتوردان اذا مستهمـــا الريح الباردة فقط . وكانت تحس بدفء كدفء الشباب ، وحـــتى في فروتها . وكان هذا الاحساس بالشبـــاب الـــذي لا يزايلهـــا يعصبها بالاسى . فهل شاخ قلبهـــــا ؟ لم هـــو ايضـــا ليس كذلك ؟

وقد قالت لها ماتريونا غير مرة : «ان الرب قد ربطها بهما ، والرب وحده سيحل هذا الرباط» . ولم يفرض عليها الكسي مثل هذه الاحاديث فقط . ولكنه في بعض المناسبات جازف بشدة لينقذ كاتيا من اذى مباشر متصرفا كرجل ازاء امرأة يحرص عليها لنفسه . وما كان في وسع كاتيا ان ترفضه ، فما كان لها ان تجد الكلمات لتبرير جحودها . ولكنها كانت تود الا يحدث ذلك اطول فترة ممكنة . كان الكسي ايفانوفيتش رجلا جذابا — كان الشمس تشع دائما في وجهه المفتوح الغليظ قليلا — وكان قويا رابط الجأش ، مستقيم الظهر ، عريض الصدر ، شعره الغزير كالطرة ، وكان جريئا متعقلا في ساعة الخطر . يعامل كاتيا بطيبة ورقة مشوبة بالدعابة . ولكن كاتيا ، حين تفكر في اليوم الذي لا بد ان تصبح فيه قريبة منه ، كانت تغمض عينيها وينكمش جسمها كله . وكانها تود ان تدفن نفسها في القش على العربة .

ذات مرة ، في وقت الغداء ، انعطفوا عن الطريق الى جدول كان في تلك البقعة مجمع ماء صغيرا عليه اظلال طاحونة مائيـــة والعشب يلامس . ذهبت ماتريونا لتجمع حطبا للنار ، وسارت كاتيا الى الجدول لتغسل القدر . وبعد قليل من الوقت جاء الكسي والقى قبعته والفازية على العشب ، وجلس عند الماء قرب كاتيا ، وبلل وجهه بالماء ، ومسحه في طرف فروته . . .

— ستجمدين يديك . . .

وضعت كاتيا القدر على العشب ، ورفعت جسمها من على ركبتيها ، وقد احست بيديها تجمدان حتى العظام ، نفضت عنهما قطرات الماء واخذت تمسحهما ايضا بفروتها .

قال الكسي متوترا خشنا متحمزا :

- اظن ان الناس كانوا يقبلون يديك هاتين فى العهد القديم .

حدجته بنظرة صافية وكأنها تسأله : ماذا حصل ؟ لم تكن كاتيا تعرف قط قوة جمالها ، وتعتبر نفسها ببساطة قلب حلوة ، واحيانا حلوة جدا ، وتحب ان تكون موضع اعجاب ، مثل طائر صغير ينفش ريشه (حين تبدأ الشمس الوردية تشع على الندى الشاحب ناهضة بين جذوع الاشجار) . ولكنها لم تكن عارفة بجمالها الذى جعل الكسى ايفانوفيتش الآن يصرف عنها عينيه بعد ان لمعتا لمعانا جافا .

- اريد ان اقول : عندى قنينة زيت عباد الشمس فى العربة ، فادهنى به يديك ، والا فستتشقق البشرة . .

وبدت ابتسامته الهازئة المعتادة تطل على شفتيه الطريتين تحت شاربيه الاجعدين الخشنين ، زفرت كاتيا مستروحة ، ولكن انها لم تفهم تماما كم كان قريبا فى هذه المرة ذلك الشىء الذى لم تكن تريده . كان الكسى ، بعد ان ذهبت ماترينا لجمع الحطب ، يحدق فى كاتيا الجالسة قرب الماء ، اما بتأثير النعاس وهو مستلق على القش فى العربة المتأرجحة ، واما من سكون السهب الجاثم . وقد جاء اليها مثل صبى سمع فجأة صوت العصا تهوى على الواح الغسيل عند النهر ، فحدس ان الجارة بروسكا تغسل الغسيل رافعة تنورتها وربلتا ساقيها تبدوان بيضاوين شهيتين ، فاذا به ينسل اليها خفية خلال نبات الارقطيون والقراص مستنشقا بنهم جميع الروائح التى استحالت فجأة روائح مثملة . ولكن فى هذه الحال لم يكن الخوف هو الذى اوقف الكسى ايفانوفيتش ، فان تخويله لم يكن من السهل . بل ان كاتيا بنظرة عينيها الجميلتين الهادئتين قالت له : ليس هذا جميلا ، ولا لائقا .

وكان يسيطر على نفسه فى مواقف اصعب من هذه المواقف التافهة ، ومع ذلك فقد كانت يداه ترتجفان وكأنما بعد جهد بذله فى رفع حجر طاحونة . تناول القدر من على العشب .

- هيا اذن ، لنطبخ عصيدة - واتجها نحو العربات - يكاترينا ديميتريفنا ، لقد تزوجت مرتين فلماذا لم ترزقى بطفل ؟

- هى الظروف ، يا الكسى ايفانوفيتش . . . زوجى الاول لم يرغب فى ذلك ، وانا كنت حمقاء .

- والمرحوم فاديم بيتروفيتش لم يرد ايضا ؟

قطبت كاتيا حاجبيها ، واشاحت بوجهها ، ولم تجب .

- كنت اريد ان اسألك منذ زمان . . . ان تجربتك كبيرة . . . كيف بدأت هذه الاشياء الحلوة ؟ هل قبل زوجاك ، اقصد خطيباك ، يديك ؟ تطرقا وحاما حول الامر ؟ كيف يجرى هذا الامر عند السادة ؟

وصلا الى العربات . القى الكسى على الارض عدة الفرس التى كانت على العربة ، القاها بكل قوته ، وتناول قوس العريش من تحت العربة ، واسنده الى العريش ، واخذ يشد القدر الى نهايته . . .

- انت من الطبقة الراقية ، وانا من بيت فلاحى . . . وقد التقينا فى طريق ضيق . وليس لك من عودة الى الوراء . . انتهى الامر . والشىء الذى لم نقلبه راسا على عقب بعد ، سنقلبه حتى النهاية قريبا . . . وليس لك من مخرج غير ان تجدى سيدا جديدا . . .

- هل اسأت اليك فى شىء ، يا الكسى ايفانوفيتش ؟

- لا ، ابدا . . . انا الذى اريد ان اسىء اليك ، ولكن كلماتى لا تكفى . . . فلاح . . . احمق . . . كم انا احمق . . . انا اعرف ، اعرف . . ان كل ما تفعلينه هو ان تنتهزى فرصة لتهربى الى الخارج . . . احسن مكان ملائم لك . . .

- كيف لا تخجل من ذلك ، يا الكسى ايفانوفيتش ! هل فعلت شيئا استحق عليه هذا الاتهام ؟ . . . انا مدينة لك بكل حياتى ، ولن انسى ذلك ابدا . . .

- ستنسين . . . ارأيت كيف تخاف ماترينا الناس ؟ وانا ايضا لا اثق بالناس . . . منذ عام ١٩١٤ وانا اسبح بالدم . اصبح الانسان اليوم حيوانا . ولعله كان من قبل ايضا ، ولكن لم نكن نعرف . كل واحد ينتظر ان يلقى الآخر من على سرجه . وانا ايضا حيوان ، ام لعلك لا ترين ، ايتها الحمامة الوديعة . . انا اريد ان يعيش اطفالى فى بيت آجرى ، وان يتكلموا بالفرنسية احسن منك . . باردون ، ميرسى . . .

جاءت ماتريتا تحمل بين ذراعيها عساليج وجذامات ، والقتها تحت القدر المتدلى من طرف العريش ، وامعنت النظر فى الكسى وكاتيا .

— لا يحق لك ان تكدرها . يا الكسى — قالت بصوت خافت — هل رويت الخيول ؟

استدار الكسى ، واتجه نحو الخيول . واخذت ماتريتا تدسع الحطب تحت القدر :

— انه يحبك . كم خطبت له من الفتيات ، وهو لا يريد . . . وانا لا ادرى ماذا يحصل لكما . صعب عليكما كليكما . . .

انتظرت ماتريتا ان تقول كاتيا شيئا . اخرجت كاتيا الحبوب المدقوقة وشحم الخنزير صامتة ، وبسطت قماشة على الارض ، واخذت تقطع الخبز .

— لماذا تصمتين ؟

زادت كاتيا من اطراقة راسها ، وهى تقطع الخبز . وتحدرت الدموع على خديها .

كانت سهوب بكاتيرينوسلاف الخصبة الممتدة نحو البحر الاسود وبحر آزوف منطقة جديدة . لقد كانت من قبل تدعى بالسهب الوحشى ، حيث كان السكيثيون القصار البدناء الطوال الشعور ينطلقون على خيولهم السمناء خلال اعشاب تصل الى اكتافهم ، والتجار الاغريق المعتمدون على حراسة موثوقة يتنقلون من الفيودوسيا الى تاناياس ، والقوط الرحل بعرباتهم الضخمة ما بين البحرين يسوقون قطعانهم من الماشية . والى هذه المنطقة ايضا اندفعت من حدود الصين الشمالية جحافل هون المتعددة اللغات مثل سحب الجراد ناشرة الرعب الشديد حتى ظلت هذه السهوب مقفرة قرونا عديدة ، ونصب الخزر خيامهم المخططة فى طريقهم من دربند ليحاربوا روسيا الدنيبرية ، وطافت فيالق البولوفتزيين بقطعانهم الهائلة من الخيول والجمال ، وهم فى قفاطينهم الحريرية الخوارزمية حتى وصلوا الى استحكامات سفياتسلاف ، وبعد ذلك

يزمن وطأتها جحافل التتر بخيولهم الخفيفة متجمعين لشن الغارات على موسكو .

ومضت موجات الاقوام ، ولم تبق الا حدبات القبور ، وعلى بعضها اصنام حجرية ذات وجوه مسطحة وايد صغيرة مطوية على البطن . واخذت سهوب بكاتيرينوسلاف تستوطن بزراع الحبوب الاوكرانيين والروس والقوزاق النازحين من الدون وكوبان والمستعمرين الالمان . وكانت جديدة عليها القرى الكبيرة والضياع التى لا تعد وهى بلا عادات متوارثة ، ولا الحان قديمة ، ولا بساتين زاهرة ، ولا مروج مروية . لقد كانت منطقة قمح واصحاب اراضى اغمار حسنى الاطلاع على اسعار القمح فى الخارج . كما كانت غولاى — بوله جديدة ايضا . بلدة صغيرة كئيبة ممتدة على طول نهير غايتشور المستنقعى والناضب المياه بين الحين والآخر .

كانت المسافة بين محطة القطار وغولاى — بوله سبعة فراسخ عبر السهب . استأجر روتشين عربة «حنطور» اوصلته الى السوق الكبيرة الممتدة فى مرجة . وفى السوق اخذ قاديم بيتروفيتش يماكس على دجاجة محمصة مع امرأة وقحة تجلس منفرجة الساقين على عربة بين الحوالج التى جلبتها من القرية للبيع . وكانت هذه المرأة التى لم تكن تجيد عملها تعتد فتدفع بضاعتها الى انف المشترى تارة ، وتنتزعها من يده تارة اخرى ، وتشتمه بصوت عال متلفتة فى كثير من الحركة مخافة ان ينشل شىء من عربتها . طلبت خمسة روبلات ثمنا للدجاجة المحمصة ، ثم عدلت عن طلبها فى اللحظة التالية فلم ترد ان تبيعها بالفلوس ، بل بلفة من الخيوط . قال روتشين لها :

— خذى الفلوس منى ، يا حمقاء . يمكنك ان تشترى الخيوط . هناك يبيعونها .

— لا استطيع ان اترك العربة . اعد فلوسك الى جيبك وابتعد عن البضاعة . . .

وبعد ذلك شق طريقه الى رجل فى زى عسكرى غزير الناصية ، مدجج بالسلاح كان يسير فى السوق ويهز على كتفه

لفتين من الخيوط . القى نظرة كدرة على روتشين ، وحرك شفتيه المتورمتين قائلا :

— لا اقايض الا بالكحول .

وعلى هذا النحو لم يستطع روتشين شراء الدجاجة . كان اكثر ما يجرى فى السوق هو تجارة المقايضة ، والابتزاز الخالص ، حيث السعر يتحدد بالحاجة ، فكانت الابرتان تقايض بخنوص وبشىء آخر زيادة . اما البنطلون الخالى من الرقع فكان يخوّل البائع مص دم المشترى . كان مئات من الناس يتاجرون ، ويصرخون ويشتمون آخذين طريقهم بين مجموعـــة كبيرة من العربـــات ، وفى نفس المكان كان الحلاقون يقتعدون مقعدا او حتى عجلة وقد نشروا ادواتهم امامهم ، وكان المصورون المتجولون ومعهم آلات تصوير وتحميض آنية تقف على ثلاثة ارجل يقدمون للزبون بعد خمس دقائق صورته الفوتوغرافية مبللة ، وكان عازفو الكمان العميان محاطين بالمستمعين غير متورعين من مد ايديهم فى جيب احمـــق يتثاءب . . . وكان جميع هؤلاء الناس مستعدين ان يقلعوا من اماكنهم فى اقصر وقت ، ويتفرقوا ويختبئوا اذا ما بدا تراشـــق جدى بالنار وهو امر لم تكن اية سوق فى غولاى — بوله تسلم منه .

اخذ فاديم بيتروفيتش طريقه بين العربات . فوجد نفسه فى جمع متهلل قرب دوارة . اناس ذوو شوارب فى بزة الفرسان ، وفى سترة البحارة ، وفى معاطف الخيالة القصيرة مسلحون بالقنابــــل اليدوية ومختلف الاسلحة الباردة والحارة . كانوا يجلســـون فى اعتبار ويدورون على احصنة خشبية لها اعناق ممدودة بصورة خيالية واقدام طائرة . وكان احدهم يردد بصوت عالى النبرة متعجرف : «اسرع ، اسرع» . وكان شخصان فى ثياب رثة يديران الدوارة بكل ما لهما من قوة ، وعازفان على الاكورديون يعزفان لحن «التفاح» محركين المنفاخ بضراوة ، وكانما ليستوعبا كـــل ما فى نفوس احرار ماخنو من سعة وجراة . صاح الذين كانوا ينتظرون دورهم : «كفاية ، انزلوا !» فزار الدائرون على الاحصنة «اسرع !» . وهنا طارت قبعة احدهم من على راسه ، وفى نشوة الانشراح جرد شخص سيفه ، وضرب به الهواء وكانه يقطع به راس عدو موهوم . وعندئذ اندفع الواقفون فجاة وجذبوا الجالسين على الاحصنـــــة والدوارة

دائرة . وحدث هرج ، ودمدمت قبضات مع صفير صافرة ، ثم دارت الدوارة من جديد ، وتخوصر الفرسان الجدد على الاحصنة بمناخيرها المتسعة المحمرة .

ابتعد فاديم بيتروفيتش اذ لم يجد هنا احدا متعقلا كان من الممكن ان يتحدث معه . اشترى من بائع متجول قطعة فطيرة فيها جبنة هشة ، وسار . وهو يمضغها فى شارع عريض مصفـــوف بالبلاط . لم تبق لديه الا فلوس قليلة ، واذا قيس الامر على ما دفعه ثمنا للفطيرة فانها لن تكفيه اسبوعا واحدا . كان ينظـــر بسهوم الى البيوت الآجرية ذات الطابقين من تلك التى يبنيهـــا التجار ، والى حوانيت الحنطة ، والدكاكين ، والى اللافتات الزاهية . كان يمضغ ويفكر بسهوم ايضا : ان توافه الحياة لم ترعبه كثيرا بعد ان وثب الى الحرية الفائقة .

قابله رجل يركب دراجة عجلتهـــا الامامية متخلخلة . ثـــم عسكريان يركبان فرسين يرتديان سترتين جركسيتين بلا اكمام وقبعتين مائلتين من فراء الاغنام . وكان راكب الدراجة الصغيـــر النحيل يرتدى بنطالا رماديا وسترة مدرسية وكان شعره السبط يكاد يصل الى كتفيه من تحت قبعة مدرسية زرقاء ذات طليلة مؤطرة بالابيض زرقاء . وحين حاذى فاديم بيتروفيتش راى بدهشـــة وجهه الناحل المعدوم الحاجبين . حدج روتشين بنظرة نافذة ومالت المجلة فى تلك اللحظة ، وتماسك راكبها بصعوبة مفضيا وجهـــه الاصفر المشيبس ، ومر به .

بعد دقيقة ادار احد الفارسين فرسه ، وخب به نحو روتشين ، وانحنى على سرجه متمعنا فيه بحدقتين متحركتين . سال روتشين :

— ما الخبر ؟

— من انت ؟ ومن اين ؟

— من انا ؟ — واشاح روتشين وجهه من رائحة البصـــل والخمرة البيتية القوية — انا رجل مستقل قادم من يكاترينوسلاف .

سال الفارس بلهجة تهديد :

— من يكاترينوسلاف ؟ ولاى غرض انت هنا ؟

— جئت لابحث عن زوجتى .

— تبحث عن زوجتك ؟ ولماذا خلعت كتافيتيك ؟

اجاب روتشين باكبر قدر مستطاع من الهدوء وهو يكظم غيظه :

— اردت ذلك ففعلت . لم استأذن منك .

— انت تره بجراة .

— وانت ايضا لا تخوفني ، فانا لست من الخائفين .

طوق الفارس ببصره في وجه روتشين باحثا عن جواب . ورفع قامته فجاة ، ولاحت ابتسامة وقحة على وجهه المستطيل المشوه باختلال التناسق ، ولكز حصانه بمهمازيه ، وعدا نحو راكب الدراجة . استمر روتشين في سيره متعثرا من الانفعال .

ولكن اولئك الثلاثة لحقوا به في الحال . صاح راكب الدراجة ذو السترة المدرسية بصوت عال يوخز الاذن :

— لا يريد ان يتكلم معنا ، ولكن سيتكلم مع لوفكا .

ضحك الفارسان ضحكا صاخبا ، واطبقا على روتشين بفرسيهما من الجانبين . ومر راكب الدراجة متقدما الى الامام مديرا الدواستين بكل ما لرجل سكران من حول ، وردد الفارسان «امش ، امش» مجبرين روتشين على ان يهرول تقريبا بين الحصانين . وكان من العبث التخلص او الاحتجاج . توقفوا في نفس الشارع عند بيت آجري ذي حديقة صغيرة وطاتها الاقدام . كانت نوافذ البيت مطلية بالطباشير ، وفوق الباب يتدلى علم اسود تحته قطعة من الخشب الابلكاش كتب عليها : «المركز الثقافي التعليمي للجيش الثوري الشعبي للاتمان ماخنو» .

كان الغيظ قد غشى على ذاكرة روتشين حتى انه لم يتذكر كيف دفع الى البيت ، واقتيد عبر ممرات مظلمة الى حجرة تناثر فيها البصاق والقذارة لها رائحة شديدة الحموضة تكتم الانفاس . ودخل في الحال رجل مبتسم لامع الوجه يترنح قليلا لبدانته يرتدي سترة قصيرة من تلك التي كان يرتديها في الاقاليم المعروفون من الموسيقيين والمغنيين الكوميديين .

— اذن ، ما الامر ؟

سال الرجل وجلس عند طاولة مهزوزة بعد ان ازاح اعقاب السيكائر من عليها .

قال له ذو الوجه المعوج الذي صحب روتشين :

— امرنا الاتمان ان نعرف هل هو وغد ام شيء آخر .

— اخرج الآن ، يا رفيق كاريتنيك (وبعد ان خرج هذا) اجلس الآن .

قال روتشين منفعلا للرجل المبتسم البدين ذي السترة القصيرة :

— اسمعني . انا اعرف انني وقعت في ايدي الاستخبارات ، وانا اوضح لك من انا ولماذا انا هنا ، فليس لي ما اخفيه . . . . . جئت لكي . . .

— انظر الي" — قال الرجل ذو السترة دون ان يصغي اليه — انا ليفا زادوف ، ولا داعي للكلب علي" ، ساستجوبك وسترد على استجوابي .

وكان اسم ليفا زادوف معروفا في الجنوب بما لا يقل عن الاتمان ماخنو نفسه . فقد كان ليفا (لوفكا) جزارا ، ورجلا شديد البطش بشكل مذهل حتى زعم ان ماخنو حاول غير مرة ان يقتله ، ولكنه كان يعفو عنه لولائه . وكان روتشين قد سمع عنه ايضا واحس لاول مرة بالدم يجمد في عروقه . كان يقف امام الطاولة لوفكا زادوف يجلس اجعد الشعر غزيره ، مورد الخدين ، متلذذا بسلطانه على رجل بث فيه الرعب .

— اذن ، تكلم ، هل انت من ضباط دينيكين ؟

— نعم ، سابقا . . .

— سابقا ؟ اي ، اي ، اي . . . من اين انت قادم ؟

— من يكاترينوسلاف الى غولاي — بوله ، ها انا اقول لك . . .

— اي ، اي ، اي . . . . . لماذا تقول لليفا انك قادم من يكاترينوسلاف ، بينما جئت من روستوف .

— لا ، جئت من يكاترينوسلاف .

واخذ روتشين يبحث عن تذكرة السفر بعجالة ، وسرت البرودة في جسمه ثانية ، فقد يكون قد رماها . وتبين ان التذكرة في جيب القميص مع صورة فوتوغرافية باهتة مدعوكة لكاتيا . قدم التذكرة الى لوفكا ، فقلبها هذا وقتا طويلا ، ودققها في الضوء . لقد كانت التذكرة صحيحة على اية حال ، وهذا ما حير لوفكا قليلا ، وكان قد توصل ، على ما يبدو ، الى اعتقاد ، بل وعقد الحكم .

وطيرت المذكرة الامر كله . وكف لوفكا عن تكشيرة السخرية ، وارتعشت شفتاه الغليظتان بزراية :

– ما الذى جعلك تتوقف فى غولاى – بوله اذا كنت تحمل معلومات استخبارية الى قيادة دينيكين ؟

– انا لا احمل معلومات استخبارية . . غادرت الجيش منذ شهرين ، وتركت الخدمة ، ومزقت الهوية العسكرية . وقد جئت الى هنا كرجل غير مرتبط . . . .

لم يصرف لوفكا عنه عينيه السوداوين . وبذل روتشين كل جهده ليكبح انفعاله ، ويجيب اجابة مروى بها ، وهو تحت هذه النظرة الخالية من اى شىء معقول وانسانى ، فانشأ يتحدث (بتبسيط وسهولة ادراك) عن الاسباب التى دعته الى الهروب من الجيش . . .

قاطعه لوفكا بصوت عادىّ :

– لو تكذب علىّ ايها الوغد ، مرة اخرى لفعلت بك ما لم يفعله احد . . . .

وبحركة سريعة لصوصية انتشل من روتشين صورة كاتيا ، وتمعن فيها مبتسما مثل رجل عليم بالنساء ، ونقر عليها باظفره وقال :

– من هذه الكلبية ؟

– زوجتى . . . جئت من اجلها . . . اعطنى الصورة . .

– ستوضع فوق جثتك الدامية – وغطى لوفكا الصورة بيده البدينة – والآن ، هيا حدثنى عن معلومات استخبارية . . .

صاح روتشين :

– لن اقول كلمة اخرى لك بعد !

– ستقول لى ، فالناس ينطقون عندى .

ورفع لوفكا جسمه قليلا . وضرب قاديم بيتروفيتش على وجهه مثلما يضرب القط بمخلبه . واخطأ التسديد فوقعت الضربة على الصدغ . ووقع روتشين مغشيا عليه .

كان اعداء الجمهورية السوفييتية يتصورون انها محكوم عليها بالسقوط فى اقصر وقت تحت ضرباتهم . الا ان هذه

الجمهورية نظمت كل طاقة العقل والعلم ، وجميع قوى الشعب الروحية والمادية لتتحول هى نفسها الى الهجوم . وكانت خطة البلاشفة العسكرية هى اخضاع كل شىء لمهمات الدفاع ، دون التراخى ساعة واحدة فى القيام بالتغيرات الاجتماعية العميقة ، مطبقة بشجاعة المبادئ التى كان تحقيقها خارج نطاق عمل اليوم ، ومن ثم : انشاء جيش احمر قوامه ثلاثة ملايين رجل ، وتنظيم حماية فى الشمال ، والقيام بهجوم فى سيبيريا وجنوب الاورال ، وتشديد العمليات الهجومية بشكل رئيسى ضد قوزاق كراسنوف على الدون ، وضد دينيكين فى شمال القفقاس .

واقامت جمهورية روسيا السوفييتية الواقعة تحت ضغط الجيوش البيضاء من كل الجهات جبهة طولها اكثر من خمسة عشر الف كيلومتر ، اضيفت اليها بعد ذلك جبهة معقدة ومشربكة هى الجبهة الاوكرانية .

واشتد اوار الحرب الاهلية بشكل خاص فى اوكرانيا الغنية التى احدث الاحتلال القريب العهد والحكم الهيتمانى وعودة اصحاب الاراضى الانتقامية تصدعا عميقا بين الفئات المختلفة من سكانها ، فانجذب العمال وعمال المناجم فى الدونباس والفلاحون ذوو الاراضى الصغيرة والعمال الزراعيون الى السلطة السوفييتية ، بينما انحاز الفلاحون الاغنياء والبرجوازية الى المديرية المستقلة ورئيسها الاتمان بيتلورا خائفين من اللجان الثورية ، ولجان فقراء الفلاحين ، واللجان التنفيذية ، والمفوضين ، ومصادرة فائض الحبوب . وكان بيتلورا موضع تأييد ايضا من المثقفين الذين كانوا يرددون على موضوع الثورة السوفييتية بكل ضخامته : «اشرجو» ، ايها الموسكوفيون الملاعين !» وغطت الرومانطيقية القديمة للسراويل الفضفاضة بعرض البحر الاسود ، والعباءات القوزاقية ، والسيوف المعقوفة ونواصى الشعور الطويلة على الحقائق التاريخية الحزينة حول التضحيات الدموية للشعب الاوكرانى الذى ناضل خلال ثلاثة قرون فى سبيل استقلاله .

طرد بيتلورا الهيتمان ، ونبوا المديرية فى كييف ، واعلن جمهورية مستقلة ، وبدأ يخوض نضالا ميئوسا منه ضد الثورة البروليتارية . وكانت له بعض الفرق المؤلفة من جنود الهيتمان

الذين انحازوا الى جانبه ، ومن الغاليسيين الثابتين المنضبطين الذين كانوا يؤمنون بتحقيق الحلم القديم في اتحادهم مع اوكرانيا الحرة ، ومن مختلف اصناف المغامرين الذين كانوا يطعمون انفسهم من النهب الحربي . ولكن لم يكن لبيتلورا القدر الكافي من الذكاء والدهاء يجعله يقترح لاوكرانيا الفلاحية المجزأة الى فئات ، والهائجة شيئا ملموسا غير المراسيم الفخفاخة . كما لم تكن له احتياطات .

في كانون الاول الفت حكومة اوكرانيا السوفييتية السرية في بلدة سودجا من مقاطعة بولتافا . وقد ارسل رئيس المجلس العسكري لتساريتسين فوروشيلوف قائد الجيش العاشر الى سودجا لينضم الى الحكومة . وشكل مجلس عسكري ثوري في البلدة .

وفي ذلك الوقت بدأ الجيش الاحمر الاوكراني النظامي الهجوم في الغرب باتجاه كييف ، وفي الجنوب نحو خاركوف ويكاترينوسلاف . وكان هذا الجيش قد تشكل عند كورسك قبل هذه الاحداث بوقت طويل ، وغالبية رجاله من الفلاحين الاوكرانيين الهاربين الى هناك من المحكمة والاعدام ، وكان يتألف من فرقتين . ولما كانت الفرقتان ليستا بالقوة الكافية تماما فقد عول على تأييد فصائل الانصار . وكان جيش الاتمان ماخنو اكثرها قوة .

كان ماخنو يلهو ، كان يجوب المدينة كلها على دراجة عارضا نفسه في بزة مدرسية حصل عليها بعد الغارة على بردياتسك ، او يغني الاغاني على الاكورديون مترنحا في الشارع مع مرافقه كاريتنيك ، او يأتي الى السوق مضروبا منتفعا باحثا عن المشاحنات ، الا ان الجميع كانوا يتحاشونه عارفين البساطة التي يخرج فيها مسدسه من جيب بنطاله . وكالعادة حين رآه رجاله الجسورون الذين لا يخافون الله ولا الشيطان على مقربة من الدوّارة نزلوا من احصنتهم الخشبية ، وانسلوا متوارين . فتسنى للاتمان ان يركب وحده الدوارة بصحبة كاريتنيك ويدور بها حتى يصاب بالدوار .

وشاع في غولاي – بوله كلها ان الاتمان اخذ في الفترة الاخيرة يكثر من الشرب ، حتى ليخشى ان يبيع الجيش ويشرب بثمنه . ولكن القليلين من الناس فقط حدسوا انه يضمر مكيدة .

وكان ماكرا كثيرا مراوغا مثل وحش تعرض مرارا لمخاطر الصيادين .

كان ماخنو يكسب الوقت . في تلك الايام كان عليه ان يتخذ قرارا كبير الاهمية . لقد فرغت يكاترينوسلاف من الالمان والهيتمان ورجاله الذين كان يحاربهم . وولى اصحاب الاراضي هاربين . وكانت المدن الصغيرة قد نهبت . وكان اعداء جدد يزحفون عليه من ثلاث جهات : المتطوعون من القرم وكوبان ، والبلاشفة من الشمال ، ورجال بيتلورا الذين احتلوا يكاترينوسلاف لتوهم يأتونه من الدنيبر . فمن هو الاقوى من هؤلاء ؟ والى اية جهة يحول عربات الرشاشات ؟ كان يجب اتخاذ القرار دون تأخير . كان الجيش يقل افرادا ، وتظهر مظاهر الزعزعة عليه . وكان الجنود من الفلاحين ذراع الحبوب يقولون : «من حسن الحظ ان البلاشفة قادمون الى اوكرانيا والآن يمكن ان نتفرق الى بيوتنا ، ومن لم يسأم بعد فليضع النجمة الحمراء على طاقيته» اما نواة الجيش «المائة السوداء المسماة على اسم كروبوتكين» رجال السيف الشجعان الذين انصرفوا عن كل عمل من اجل الحياة الحرة ممتطين ظهور الخيل ، فقد كانت تصيح :

«. . . لئن اراد الاتمان بيعنا للبلاشفة لقطعنا رأسه امام الجبهة ، وكلو . . . ها هو بيتلورا قد استولى على يكاترينوسلاف ، اما نحن فليس لنا الا الانتظار . . . لقد طعامنا ، واصبحنا حفاة عراة ، وبعد قليل سنعوي في السهب مع الذئاب . . . يا اخوان ، الى يكاترينوسلاف !»

ظل البحار تشوغاي الموفد من القائد العام للجيش الاحمر الاوكراني ثلاثة ايام في غولاي – بوله ينتظر بثبات اعصاب ان يصحو ماخنو الى نفسه ويتحدث معه . وفي هذه الايام قدم من خاركوف الفيلسوف الشهير عضو امانة الاتحاد الفوضوي المسمى «الناقوس» ليتحدث الى الاتمان ايضا . وكان اعضاء المجلس العسكري السياسي لماخنو ، والفوضويون المحليون ، والمستشارون المقربون يحسدون الاتمان اينما استطاعوا ، ويغفرون له عن غيرة حتى لا يصغي الى احد ، وان يتمسك بالحرية العليا الشخصية

كان ماخنو يدرك انه ما لم يتخذ قرارا حازما ملائما للجيش فان قضيته ومجده سينتهيـــــان . والآن كان امامـــه خياران : اما الميل نحو البلاشفة ، والعمل بمــــا يأمر به القائد العام ، ثم الانتظار ، في آخر المطاف ، الساعة التي سيزمونه فيها عقابا على تصرفه الفردي . واما قتل الموفد تشوفغاي ، واثارة انتفاضة فلاحية في اوكرانيا ضد كل سلطة . ولكن هل الوقت مناسب لذلك ؟ ربما يكون على خطا . . . .

وكانت هذه الافكار سرية جدا حتى كان من الخطر ان يفضي بها حتى الى الكلبين الوفيين : لوفكا وكاريتنيك . وكان يحس بالضيق من هذه الافكار . كان الجيش ينتظر ، والموفد تشوفغاي والفوضوي الشهير الشيخ الجليل القادم من خاركوف ينتظران . وكان ماخنو يشرب الخمرة ، دون ان يفقد توازنه ، ويتحامق ويعبث لغاية مقصودة ، فقد كان بصره حادا وسمعه مرهفا ، فكان يعرف كـــل شيء ، ويرى كل شيء ، وكان الغيظ يغلي في داخله .

كان ماخنو قد امر باعتقال الرجل الغريب الذي كان يرتدي معطف الضابط ، والذي ادعى بانه قادم من يكاترينوسلاف ، وطلب ارساله الى لوفكا . وبعد ذلك بوقت قصير حضر ماخنو نفسه الى المجلس الثقافي التعليمي ودخل مع دراجته الى الحجرة التي كان يجري فيها الاستجواب . بعد الضربة الخاطفة التي وجهها لوفكسا زادوف الى روتشين جلس لوفكا وراء الطاولة ، ووضع قبضة فوق قبضة ، واسند حنكه عليهما . نظر ماخنو الى الرجل المطروح على الارض ، واسند الدراجة :

– ماذا فعلت معه ؟

– ربت' عليه فقط – اجاب لوفكا بذلك .

– احمق . . هل قتلته ؟

– لست جراحا ، فكيف لي ان اعرف ؟

– هل استجوبتـــه (هز لوفكـــا كتفيـــه) هل هـــو من يكاترينوسلاف ؟ ماذا يقول ؟ من استخبارات دينيكين ؟

وكان ماخنو يحدق بلوفكا تحديقة شديدة غير محتملة حتى ان عيني لوفكا احتجبتا تحت حاجبيه .

– لا بد ان لديه معلومات ، اين هي ؟ انت تلعب مع الموت . .

– بدأت من توي ، يا نستور ايفانوفيتش . . لم اكن اعرف ان الوغد بهذه الدرجة من الضعف .

اخذ روتشين يئن في تلك اللحظة ، وطوى ركبتيه . قال لوفكا فرحا :

– لا شيء ، اعصاب .

امسك ماخنو الدراجة ، فوقع بصره على صورة كاتيا ملقاة على الطاولة ، اختطفها وتمعن فيها :

– اخذتها منه ؟ من هي ؟ ذوجته ؟

كانت لنستور ايفانوفيتش ذاكرة جيدة ، مثل جميع الناس ذوي الارادة القوية والتركيز والتمكك والتجربة الكبيرة في الحياة . فقد تذكر على الفور رؤيته لكاتيا لاول مرة (حيث جعلها تطلق اظافره) وتفشّل الكسي كراسيلنيكوف وكل المعلومات التي استقاها عن هذه المرأة الجميلة . وضع الصورة في جيبه ، وقاد الدراجة ، وتوقف . فقد رأى وجه روتشين تعود اليه الحيوية ، وفمه ينفتح قليلا .

– اجلبه الي' . سأستجوبه بنفسي . . .

فكرة واحدة ترسخت في ذهن نستور ايفانوفيتش في ايام اللهو هذه ، وهي ضرورة الخروج بالجيش الى يكاترينوسلاف ، واجتياحها بالقوة ، ورفع راية الفوضوية على دوما المدينة . ان مثل هذه الغنيمة ستقوي عزيمة الجيش وتلاحمه فان يكاترينوسلاف مدينة غنية تكفي منتوجاتها من الانسجة والاشياء الاخرى ولاية كاملة ، بحيث يمكن ان تلقي على القرى والارياف من عربات القطار والعجلات قطع الاقمشة والاجواخ ، وينثر السكر بالارفاش ، ويغدق على الفتيات بالاشرطة والجمائل والجوارب والاحذية : «هذه لكم ، ايها الفلاحون ، هدايا من الاتمان ماخنو ! هذا هو النظام الحر اللاسلطوي ، بلا اصحاب اطيـــان ولا برجوازيين ، بـــلا سوفييتـــات ولا لجـــان استثنائية . . .»

اما سائر الاشياء فلم يجد لها حلا بعد . والآن ، وبعد ان القى نظرة على صورة كاتيا وجد الحل فجأة . ولقد قفز الى ذهنه مثل عفريت الزنبرك في علبة من لعب الاطفال . ولكنه لم يبد اي شيء يدل على ان كل شيء فيه كان يرقص طربا . . . ركب الدراجة ، وســـار في الشارع الى بيت طويل ذي نوافذ كبيرة في مقدمته اشجار حور عارية .

كان هذا البيت مدرسة كانت تستخدم مقرا للقيادة . وكان مرافقوه وهو نفسه يعيشون في غرفة واحدة .

بعد مضي ساعة جلبوا روتشين اليه . كان لوفكا يسير امامه ، وخلفه رجل من رجال ماخنو يضع على راسه قبعة فرائية صنعت من ياقة معطف قسيس ، عليها شريط اسود مائل كان يدفع روتشين من ظهره بماسورة مسدسه . كان ماخنو جالسا على اريكة صغيرة غطيت بقماش خشن تشقق حتى برزت القوالب من تحته . صاح بصوت عال :

– ما هذا ؟ كأنكما تقومان بدور الجندرمة في العهد القيصري ؟ اترك السلاح ! اخرج .

ودفع بوجهه الاصفر الهزيل من اسفل الى فوق يشير الى الرجل بالخروج (فامتثل هذا في الحال ، وضرب الارض بحذاءه ، وخرج) نهض ماخنو من الاريكة ، وضم قبضته اليابسة وضرب لوفكا على وجهه ، وشفتيه وانفه .

زعق :

– جزار ! سكير ! مصاب بالسفلس ! تلوث الفكرة ! وتلوثني !

لم ينتظر لوفكا زادوف اشتعال الغضب في صدر الاتمان ، اذ كان يعرفه جيدا ، بل حشر راسه بين كتفيه السمينتين وحمى نفسه بيديه من الضربات ، ولاذ خلف الباب ، واغلقه خلفه .

خلع ماخنو قبعته . كان جبينه عرقا . وجلس ثانية على الاريكة . ولو كانت لديه مسبحة لبدا مترهبنا متزمتا كليا .

– تفضل بالجلوس – واشار بيده الطويلة الى مقعد ليجلس عليه روتشين – لو نظر الى زميلك فان ذلك لا يغير من الامر شيئا . انه عار ، عار ان تهان الكرامة الانسانية . خذ سيكارة ، ودخن . هل انت من الاستخبارات ؟

– لا . .

قال روتشين بصوت لا رنة فيه وتبسم ابتسامة ساخرة ، وتناول سيكارة .

– من ضباط جيش المتطوعين ؟

– عرفت ، وانتهيت منه . على اية حال لن تصدق بما سأقول لك فلا داعي للكلام .

– الناس لا يكذبون علي – قال ماخنو بنفس الصوت العالي ذي النبرة المتميزة التي كان من الصعب تمييزه بعلامات النوتة . وخيل لروتشين انه يشبه صوت طائر جارح وكرر ماخنو : «الناس لا يكذبون علي» وكانت عيناه الجافتان الجامدتان تعكسان قوة ارادة بالغة حتى كان ليصعب النظر اليهما ؛ وما كان في مقدور انسان ان يتحمل نظرتهما دون ان ترقرق عيناه بالدموع . ومع ذلك فقد تحملها روتشين . احس براسه يتصدع بعد حادث الامس ، وغالب هذا الالم ، وجمع كل قواه للمناوشة الاخيرة .

– اذا كنت بحاجة الى معلومات عن جيش المتطوعين فلك ان تسال . ولكن معلوماتي قديمة . خرجت في اجازة منذ شهرين . وفي هذا الربيع قمت بعمل غير صحيح ، نهبه حياتي . . . انست كثيرا رمي بالرصاص . سواء بهذه الطريقة او باخرى . الآن او فيما بعد فانني لن افلت من رصاصة ستكون من نصيبي بسبب للتخلي . .

لاحت في عيني ماخنو واختفت ومضة من السخرية . . . «انه لا يصدق بي . . .» ومص فاديم بتروفيتش نفسا عميقا من سيكارته ، ووضعها على حافة المنضدة ، ودس يديه في حزامه : «ستصدق بما اقوله لك . . .» .

– قبل كل شيء : كيف انضممت الى معسكر البيض ؟ تدحرجت مثل تفاحة على منحدر . . . حسنا ، كنا مثقفين روسا ، بعض : ملح الارض ، وقد قرأنا ميخائيلوفسكي وكانت وكروبوتكين وحتى بيبل الى جانب الكتب الاخرى المهذبة . وانا اتذكر كم ليلة مؤرقة قضيتها في مثل هذه الاحاديث مع الكس بوروفوي * (وحدث ما توقعه عند ذكر هذا الاسم ، فقد غامت عينا ماخنو في الحال كالحيوانيين ، ولكن للحظة واحدة لا غير) كنا منعمين بالتوقعات الحماسية ، ثم جاءت ثورة شباط ! وانتهى كل ذلك بشيء حامض

* الكسي بوروفوي : منظر فوضوي في ذلك الوقت ؛ معروف بين الفوضويين المحيطين بماخنو .

المذاق : فبدلا من العيد الضخم رأينا البولفارات تتناثر فيها قشور بذور عباد الشمس ، والبحارة والجنود والهرج ، ولم نر بلادا عظيمة بل لغطا ، وعصيدة دخن بلا ملح . . . .

تململ ماختنو على الاريكة ، وفجأة ودون ان يفطن الى ذلك ، جلس وكأنه في اجتماع عمال سري في عيد اول ايار ، محتضنا ركبتيه الهزيلتين . بل ولاح في عينيه ما ينم على الانتباه .

– وظهر ان المثقفين خارج الموضوع . اما في اوكتوبر فقد امسكونا من مخانيقنا كالقطط الصغيرة ، والقونا في المزبلة . . . وهذا كل شيء على وجه التفصيل وجيش المتطوعين مزبلة عموم روسيا . انه خال من كل شيء النشالي وحتى لا يمكن ان يكون فيه شيء مرمم . ولكنه قادر على ان يدمر ، بل وبشكل عملي . . . ومن المؤسف انني وعيت كل ذلك في وقت متأخر . . . ولكنني سعيد في انني وعيت . . ذلك هو الامـــر ، يا نستور ايفانوفيتش . . . (وقد خرجت تسميته باسمه واسم ابيه بشكل طبيعي) . . وما كان لي ان اظل على قيد الحياة ، ولم ارد ذلك . . ولكن هناك مخلوقا اغلى عندي من كل الفلسفات ، واغلى من ضميري . . . وهـــو الذي اوقفني . . .

– اهو هذه ؟

سأل ماختنو فجأة مشيرا الى الصورة .

– نعم هي .

– خذها ، فانا لست بحاجة اليها . . .

اخفى روتشين صورة كاتيا في جيب قميصه . وتناول عقب السيكارة ، ودخن . ولم تكن يداه ترتجفان . ولم يفقد سيـــاق الحديث :

– مزقت الهوية العسكرية ، وجئت الى هنا مقتفيا اثرها . وما دمت قد عدت الى الحياة من جديد ، فمرحبا بالعودة الى الفلسفة والايديولوجية . فنحن لسنا من ارباب الحرف . . . والشيء الوحيد الذي اتقبله . . . بشكل مجرد كليا ، بالطبع ، بشكل مجرد . . . هو الحرية المطلقة ، الحرية الفائقـــة . . . ولتكن جنونيـــة ، مستحيلة ، ومع ذلك . . . يجب ان يموت الانسان في سبيل شيء وراء حدود الخيال .

قال ماختنو خافت الصوت :

– على اية حال اعطني الاستخبارات التي لديك ، اين خبأتها ؟

توقف روتشين ، وادار رأسه ، وهز ذراعه بوهن ويأس . ظل ماختنو وقتا طويلا على الاريكة لا يريم حراكا . وفجأة وثب ، واخذ يفتش في كومة من الاشياء في ركن الحجرة – اسلحة واسرجة وعدة وحقائب ورقية . . . ووجد بعض المعلبات ، وزجاجتين من الكحول ، ووضع كل ذلك على المنضدة ، ثم اخذ يدير المفتاح ليفتح علبة سردين . قال :

– سآخذك الى القيادة . زوجتك في السرية السادسة عنـــد كراسيلنيكوف في ضيعة بروخلادني . وسيأتي موفد من البلاشفة بعد قليل الى هنا . ادخل في ظنه انني متواطئ مع جيش المتطوعين . ان مهمتك ان تضلله . مفهوم ؟ هل تلعب الورق ؟

وبهت فاديم بتروفيتش في هذه المرة عن حق وظل يرمش بعينيه فقط دون ان يحاول حتى ان يفهم كيف انقلبت الامور هذا المنقلب ، ومـــا معنى هذا كلـــه . كسر ماختنو مفتاح علبـــة السردين ، واخرج من جيبه مطواة من عـــرق اللؤلـــؤ لها عدة شفرات ، واخذ يستعملها في فتح علب من الاناناس ، ومعجـــون اللحم الفرنسي ، وسراطين البحر ، ففاحت روائحها القويـــة في الحجرة .

– لدي دائما الوقـــت الكافي لرميك ، ولكنني اريد ان استخدمك – قـــال ماختنـــو وكأنـــه يرد على افكار روتشين الشاردة – هـــل انـــت من ضباط الاركان ام مـــن ضباط الجبهة ؟

– في الحرب العالمية كنت في اركان الجنرال ايفرت . . .

– والآن ، ستكون في اركان الاتمان ماختنو . . . في الاشغال الشاقة في عهد القيصرية رفسوني من رأسي ، ومن قدمي ، والقوني على الارض الآجرية . . . بهذا الشكل يتمرّس زعماء الشعب . . مفهوم ؟

رن التلفون في صندوق اصفر كان على الارض بين النفايات . رفع ماختنو ، وصرخ في السماعة بصوت الطائر الجارح :

– انا في الانتظار ، في الانتظار !

كان الموقد تشوغاى رجلا بطئ الحركة قويا جدا فى سترة من قماش خشن مستهلكة ولكنها نظيفة . وطاقية لا ظليلة لها مسرحة على علباته . وكان يجلس ممسكا الورق بشكل لا يدع الآخرين يختلسون النظر اليه . وكان يراقب بعينيــــه اللامعتين الجاحظتين كل حركات لستور ايفانوفيتش . وكان وجهه الساكن العريض عند الوجنتين ذو الشاربين الاسودين خاليا من التعبير ، ولكن الكرسى المقوس كان يرسل تحت ثقله صريفا بين الحين والآخر . فكان هذا الشخص الذى لبس سروال بحـــارة حشوه فى نهايتى حذاء عريض قصير لو جلس بين سبع تماثيل برنزية ذات اعناق منتفخة لسجدت له .

كانوا يلعبون لعبة «الماعز» وهى لعبة ابتكرت فى الجبهـــات لكى تلهى الرجال بالضحك عن جراحهم ومخاوفهم . وكان نستور ايفانوفيتش قد اقترح على ضيفيه حالما دخلا ، ودون ان ينهض من المنضدة ويصافحهما ان يلعبوا لعبة «التسعة» بالنقود (وكانـــا دعاهما لاجل ذلك) . ووزع الورق بسرعة حتى لتعذر على العيون ان تلاحق حركة يديه ، ووضع على المنضدة ورقة من فئة الف روبل ، وغطاها بعلبة سراطين البحر . الا ان تشوغاى تناول ورقتيه ، ووضعهما تحت لمس العلبة . فسأل ماخنو :

— انت خائف !

اجاب تشوغاى :

— لا ، لا يمكن ان تلعب معى بالنقود . تعال نلعب لعبة «الماعز» .

جلس ماخنو باسطا ساقيه ، واضعا الورقة تحت الطاولة . مديرا ظهره الى الباب تاركا وراءه مكانا فارغا (وهذا ما لاحظـــــه تشوغاى فى الحال) ، وكان روتشين يجلس الى يساره ، بينما جلس الى يمينه ليـــون تشورنى — عضو امانـــة اتحـــاد «الناقوس» — وهو شخص اشعـــث الشعر لا يحدس عمـــره ، ضئيـــل الجسم ، جاف جدا ، الاى عظـــم القفص حتـــى لكان صدره بلا رئتين بشكل يخيل اليك انه يعيش بروحه فقط . وكانت قشرة الرأس والشعرات الشيب تتناثر على سترته المدعوكة ، ومـــن السراح فكره ترك اوراقه كلها مكشوفة للآخرين .

وكان فى مجيئه الى هنا قد استعد الى صراع قاس مع تشوغاى الذى كان ينوى اغتصاب ماخنو وجيشه — القاهرة الحافلـــــة بالامكانيات التى لا تنضب . وكانت افكار ليون تشورنى معبـــأة كالديناميت فى عشية من القصدير . وكان مرتبكا بعض الشئ لانه بدلا من ان يدخل فى معركة عامة مع البلشفى صار عليه ان يلعب لعبة «الماعز» . فكان يلقى الاوراق المخلوطة ، او يرفعها تحت الطاولة . حتى خسر اللعبة اربع مرات متتاليات . وجعل ماخنـــو يصيح عليه بنـــداء الظافر «الماعز ، الماعز . . المنتن» ضاحكا باسفل وجهه فقط .

وكان ماخنو ، بعد كل لعبة ، يمد يده بحركة كحركة القرد الى زجاجة الكحول ويصب فى الاقداح والكؤوس متأكدا من ان الجميع يشربون بالتساوى . وكان الحديث حول المنضدة فارغا للغاية ، وكانهم فى الواقع اصدقاء اجتمعوا فى مساء سيئ الطقس يضرب المطر فيه النوافذ السوداء ، وتهز الريح اشجار الحور العارية امام البيت متغلغلة فيها صافرة معولة وكانها روح شريرة .

كان ماخنو يتحين الوقت . وكان تشوغاى ايضا يتحينه بهدوء مستعدا لكل المصادفات ، لا سيما حين ادرك من بعض تلميحات المضيف ان الشخص الرابع الجالس حول المنضدة الصموت البادى الوقار الاشيب وتحت عينيه كدمات زرق هـــو ضابط فى جيش دنيكين . وكانت كل الدلائل تشير الى ان ليون تشورنى لا بد ان يكون اول من فرغ صبره ، فقد اخرج منديل جيب قذر ، وكوره فى يده بعصبية ، وراح يدفعه الى انفـــه وعينيه بعد كل كاس من الكحول . وهذا ما حدث فعلا .

— بدأنا الجدل مع جماعتكم البلاشفة منذ ان كنا فى باريس — بدأ القول متمتما ، محركا اوراقه باتجاه تشوغاى — ولم ينتـــه الجدل ، ولم يثبت احد حتى الآن انه ليمشى على حق . انشاء دولة عمال وفلاحين بدلا من الدولة الاقطاعية البرجوازية ! . . . ولكن الدولة دولة ! استبدال سلطة بسلطة . خلع قفطان الاعيان وارتداء قميص الفلاحين ! وسيكون عندذاك مجتمع بلا طبقات !

وضحك ضحكة ثقيلة ضاغطا منديله على شفتيه الجافتين . ولم يظهر على وجه تشوغاى ما ينم عن الاعتراض ، سوى الـــه

تغرس في علبة سراطين البحر ، وقربها منه ، وتناول ما استطاع ان يتناوله بالشوكة :

– ترى ، ماذا تقترح ؟ الفوضوية ، ام النظام ؟

– التهديم – همس ليون تشورنى له وقد سلبت الخمرة صوته ، وتصلبت خصلات لحيته الرمادية كسبلة كلب الحراسة – تهديم المجتمع المجرم باسره ! تهديما لا رحمة فيه ، حتى يسوى ارضا فلا يبقى منه حجر على حجر . . . بحيث لا تخرج من البذرة اللعينة دولة او سلطة او راسمال او مدن او مصانع مرة اخرى . . .

– ومن سيعيش عندكم في هذا المكان المقفر ؟

– الشعب !

– الشعب – صرخ ماخنو مادا عنقه نحو تشوغاى – الشعب الحر !

قال تشوغاى :

– اذا بدانا بالصراع فلا بد ان ننتهى باطلاق النار – وتناول الزجاجة وصب للجميع (دفع ليون تشورنى كاسه فانسكبت) – في امكانك ان تهدم ، فذلك لا يحتاج الى دهاء . ولكن كيف تنوون ان تعيشوا بعد ذلك ؟

قال ليون تشورنى متوجسا ان يتصدى نستور ايفانوفيتش للجواب :

– ان مهمتنا هى التهديم المريع التام الذى لا يرحم ، وهى تستنفد كل طاقة وحماس جيلنا . انت اسير ، ايها البحار ، اسير تفكير مقصوص الجناح جبان . كيف للشعب ان يعيش حين تهدم الدولة ؟ هاها ، كيف له ان يعيش ؟

فقال له ماخنو في الحال :

– اعذرنى ، يا رفيق تشورنى . المشاريع الصغيرة لا انوى ان اهدمها ، كما لا اهدم الفرق الجماعية ، ولا اهدم استثمارات الفلاحين . . . .

– اذن ، فانت جبان كهذا البلشفى .

– اوه عبثا اتهامك اياه بالجبن – قال تشوغاى وغمز لنستور ايفانوفيتش مشجعا (كان وجه هذا احمر كالجمرة) – ان

نستور ايفانوفيتش لم يبخل بدمه ، وهذا شيء معروف . . . لن يتخل عنه لكم بالسهولة التى تتصورها . . . . سنحارب عليه .

– تحاربون ، ابداوا ، حاولوا .

قال ليون تشورنى بهدوء غير متوقع ، وارتخت خصلات لحيته على خديه . واخذ يلتهم معجون اللحم بنهم وسرحان الفكر . القى تشوغاى على روتشين نظرة من طرف عينه . كان روتشين يدخن بخلوبال رافعا عينيه الى السقف . كشف نستور ايفانوفيتش عن اسنانه الكبيرة الصفراء بضحكة صامتة . وفكر تشوغاى مع نفسه : «ان في الامر تواطؤا ، على ما يبدو» . ومع المقعد تحته ، كان على تشوغاى ان ينفذ امر القائد العام باقناع ماخنو في القيام بعمليات مشتركة ضد يكاترينوسلاف بوجه خاص ، ولكنه الآن ، بالاضافة الى ذلك ، يجد كل مبررات للتخوف من الاستنتاجات التنظيمية الخطيرة في حالة الدخول في جدل غير موفق مع هذه الفوضوى الذى التهم ، في الغالب ، مئات من الكتب السميكة . كما لم يعجبه صمت الضابط الدينيكينى الذى يبدو – من بوزه – انه من المثقفين ايضا . ولكن تشوغاى لم يصدق بانه من ضباط الاركان لدى ماخنو .

ثبت طاقيته على يافوخه بشكل الوى .

– اريد ان اسالك سؤالا .

قال ليون تشورنى من فم مملوء :

– تفضل .

– قال الرفيق لينين : بعد نصف عام سيكون في الجيش الاحمر ثلاثة ملايين رجل . فهل تستطيع ، يا ليون تشورنى ، ان تعبئ في مثل هذه المدة ثلاثة ملايين ؟

– انا واثق .

– يجب ان يفهم من هذا ان لديكم الجهاز لهذا الغرض ؟

– هذا هو جهازى .

قال ليون تشورنى مشيرا بالشوكة الى ماخنو .

– جيد جدا ، لنتوقف عند هذه الشخصية . بعنى ، تستطيعون ان تجهزوا نستور ايفانوفيتش بما يكفى ثلاثة ملايين مقاتل من الاسلحة والذخائر ، الى جانب المعدات والاطعمة والملبس

بالطبع . ان مثل هذا الجيش يحتاج الى نصف مليون راس من الخيول وحدها . يجب ان يلهم انكم تملكون كل ذلك ؟

دفع ليون تشورني عنه العلبة التي افرغها ، وانكمش جبينه في غضون صغيرة :

— اسمع ، يا بحار ، لا تخيفني بالارقام . ان وراء ارقامكم فراغا . محاولات بائسة في لم شعث روسيا القديمة المزقة بتخييطها بخيوط مهترئة . انها قومية متسترة ! ثلاثة ملايين جندي في الجيش الاحمر ! اوه ، لكم غلت ! عبئوا ثلاثين مليونا . ومع ذلك فان الثورة الحقيقية المقدسة ستمر بملايينكم من الفلاحين — المالكين المزينين بالنجوم الحمر . . . ان جيشنا — وهنا شدد تبغشه — هو الانسانية ، وذخيرتنا هي حنق الشعوب المقدس ، تلك الشعوب التي لم تعد تطيق اي تنظيم للدولة ، ولا راسمالية ، ولا دكتاتورية البروليتاريا . . . الشمس ، والارض ، والانسان ! ولنقذف الى نار عظيمة جميع المؤلفات من ارسطاطاليس الى ماركس ! جيش ! خمسمائة الف حصان ! ان خيالكم لا يرتفع اعلى من شارب رقيب اول . خذها هدية . اننا سنسلح مليار ونصف مليار انسان . وما دامت لنا اسنان واظافر واحجار تحت اقدامنا فاننا سندمر جيشكم . وسنحول المدنية وكل ما تتشبثون به مرتعصين الى كومة من خرائب ، ايها البحار . . .

«اها ، شيخ خفيف اللسان» فكر تشوغاي مع نفسه وهو يرى ماخنو الذي ركز كل انتباهه في البداية ينزل كتفيه ، وينطفئ التورد في خديه اللذين نفورا . وكف عن الفهم ، فان المعلم حاد عن الادراك السليم .

عندئذ قال تشوغاي :

— عندي سؤال ثان لك ، يا ليون تشورني . . .

— هات . . . .

— الذي فهمته من كلامك انكم لم تستعدوا للتعبئة العامة . ولكن كل امر يحتاج الى ما يبدأ به : القنبلة تحتاج الى فتيل ، والنار الى عود ثقاب . لعل اي شيء تعولون انتم ؟ اين ملاكاتكم ؟ الاتمان ماخنو ؟ (تقلبت حدقتا ليون تشورني ، فقد كان يبحث عن

امبرلة) جيشه ذو روح قتالية عالية ، صحيح ، ولكن نسبة الموضويين ليست كبيرة . انه ليس جيشكم .

واختلس نظرة جانبية الى ماخنو ليتأكد من انه لا يمد يده في جيبه ليخرج مسدسه . لا ، لقد رآه جالسا في هدوء . اخذ ليون تشورني يبتسم ابتسامة ازدراء :

— يبدو ان حديثنا وصل الى نقطة تقتضيني ان اعلمك الالف باء ، ايها البحار .

— سيكون لطفا منك .

— ان العالم الخارج على القانون هو ما نعتمد عليه ، وهو ملاكاتنا . ان الخروج على القانون هو التعبير الاكثر احتراما عن حياة الشعب . . . ذلك يجب ان يعرف ! والخارج على القانون العدو اللدود لكل تنظيم للدولة ، بما في ذلك اشتراكيتكم . يا عزيزي ، وفي الخروج على القانون دليل على قدرة الشعب على الحياة . . . الخارج على القانون لا يتصالح ولا يهاب ، يهدم من اجل التهديم . وتلك هي العفوية الشعبية الاجتماعية الحقيقية . افرك عينيك .

وخلال هذا الدفق الحماسي من الافكار سار ماخنو على اطراف اصابعه الى الباب ، وفتحه قليلا ، والقى نظرة على الممر ، ثم عاد الى المنضدة . صار روتشين الآن ينظر الى العجوز العجيب بحب استطلاع متسائلا مع نفسه : ألعله يتحامق عن قصد ؟

صاح ليون تشورني :

— اراك ترف برموشك مذعورا ، ايها البحار . ان فضائلك قد ارتبكت ! فاعلم اذن : اننا كسرنا اقلامنا ، واقرغنا الحبر من محابرنا . فليرق الدم ! لقد آن الاوان ! والكلمة تتحول الى عمل . ومن لا يلهم في هذه الآونة الضرورة العميقة في الخروج على القانون كحركة عفوية ، ولا يتجاوب معها ينفيه الى معسكر اعداء الثورة . . .

اخذ ماخنو يقضم اظافره مقلصا عينيه . وفكر روتشين مع نفسه : «لا ، ان العجوز يعرف ما يقوله» . مال تشوغاي نحو المنضدة ، ووضع عليها مرفقه ، ورفع اصبعه ، ليكون لليون تشورني ما يركز عليه .

— السؤال الثالث : حسنا لنقل انكم عبأتم هذه الملاكات ، وعملت هذه عملها . قلبت الاشياء راسا على عقب . . . ولكن الا ترى

ان هذا الشعب لا بد ان يصل الى نهاية ؟ لا بد . والخارجون على القانون – فى راينا هم لصوص – ، الناس فاسدون ، لا يستطيعون العمل . انهم لا يعملون . ولِمَ يعملون ، وهم ياخذون كل مـــا يريدون . وماذا سيكون عندئذ ؟ مرة اخرى لا بد ان يكون هناك من يعمل لهم . لا ترى ذلك ؟ ولكن لم يبق شىء ينهبونه او يحطمونه ، يعنى لن يكون امامكم الا ان تسوقوا اللصوص الى تجاويف الارض وتقضون عليهم ؟ اليس كذلك ؟ اجبنى عن هذا السؤال . . .

ساد الصمت فى الغرفة ، وكان المتحادثين ركزوا كل انتباههم على الاصبع التى رفعها تشوغاى ثم عكفها . نهض ليـــون تشورنى ضئيلا (كان يبدو فى جلسته اطول قامة) عنودا كالفكرة الفلسفية . وقال ملتفتا نحو ماخنو مادا ذراعه نحو تشوغاى :

–ارمه ! ارمه . . . انه مخبر عميل . . .

وثب ماخنو فى الحال الى المكان الفارغ من الغرفة نحو الباب ، وحك تشوغاى باظافره فى حركة سريعة سطح المسدس المتدلى من حزامه تحت سترته . وتراجع روتشين عن المنضـــــدة ، وتعثر ، وجلس على الاريكة . ولكن سلاحا لم يشهر : فقد كان كل واحد يعرف انه لو اخرج سلاحه فلا بد له ان يرمى . برقت عينا ماخنو من التوتر . وتكلم تشوغاى بلهجة ارشادية :

– عبثا ، يا جـــد . . . اللجوء الى طريقـــة رخيصة ليس بالجدل . . . وانت تستحق هذه على اتهامك لى بالعمالة (ولوح بقبضة كبيرة جعلت وجه ليون تشورنى يرتعش فى الم) . ولكن لن ارد عليك رفقا بعمرك الضعيف . . . يا جد ، يجب ان تستخدم الالفاظ بعناية اكبر . . .

وفى هذه المرة ايضا لم يقف ماخنو فى صف المعلم . . غض ليون تشورنى بصره ، وكانه يريد ان يختفى فى خصلات لحيته ، وتناول معطفه بياقته البالية التى كانت من فرو القندس فى يوم ما ، وقبعة مخملية بنفس التهرؤ ، ولبسها وخرج متحملا الخيبة برجولة .

قال ماخنو وهو يعود الى المنضدة ، ويمسك بالزجاجة :

– الا تواصل الشرب ؟ يا رفيق روتشين ، اذهب الى الخفير ليخصص لك سريرا شاغرا .

ادى روتشين التحية ، وخرج . وسمع وهو خارج الباب صوت ماخنو يقول لتشوغاى :

– هؤلاء ينادون : «الاتمان ماخنو» واولئك «الاتمان ماخنو» فماذا تقول انت للاتمان ماخنو ؟

١٢

ما ان وصل الكمى كراميلتيكوف الى قريته فلاديميرسكويه وسار فى رماد بيته المدرور بالثلج ، وشم رائحة الدخان الآتى من بيت الجيران ، وراى الوزات سمانا ، والبرد مـــا يزال فى اوله ، ناشرات اجنحتها موزوزات ، واكلسات مرتفعات قليلا عن الارض ، فى المرجة المكسوة بطبقة رقيقة من الجمد ، حتى ادرك الى اى حد كان ضيقا بحياة قطاع الطرق .

فليس من عمل الفلاح ان ينطلق فى السهب فى عربة رشاشة بين الضياع المحترقة . بل عمله ان يفكـــــر دائما حول الارض ويشتغل . اجتهد وسترَ امنا الارض تهب نفسها لك . وكان كل شىء يدخل الفرحة الى قلب الكمى ايفانوفيتش : الافكار المتعلقة باقتصاد بيته ، وحتى افكار نساها اثناء اقامته عند ماخنو ، والنهار الناعم الرمادى ، ونثار الثلج البطىء المتقطع ، وسكون القرية ، ورائحة الدخان المالوف . وكان الكمى فى سيره يلتقط من حين لاخر صليحة صدئة من صفائح السطح ، ومسمارا ، وقطعة حديد محترقة فيكومها فى كومة واحدة . لم يكن معتزا بما كسبه محمولا فى ثلاث عربات ، بل كان معتزا بانه سيبنى ويقيم استثمارته الفلاحية غير مدقق فى كل ويل . ستكون امامه اعمال لا تحصى ولا تعد منذ اول وتد يدقه على الارض الخربـــة حتى ذلك اليوم التى ستخرج ماتريونا فيه خبز قمحه شذى الرائحة من الموقد قائلة : «موقد جديد يخبز بشكل رائع» . وهذا ايضا كان يدخل الفرحة الى قلب الكمى . لا باس فان عرق الفلاح سيعوض . . . .

وجد ، وهو ينبش الرماد بطرق حذائـــــه . فاسا احترق مقبضها . وقلبها بين يديه طويلا ، وهز راسه بابتسامة ساخرة ، لقد عرفها انها نفس الفاس ! ومنها بدات كل المصائب . وتذكر

كيف ان اخاه سيميون ، وقد سمع صيحة ماترينا الشاكية وثب مسعورا من البيت . وكان الكسى قد غرس الفاس فى قرمة فى الرواق عند الباب . ولو لم يقع بصر سيميون عليها لما حدث اى شىء ، فى الغالب . . .

«آه ، سيميون ، سيميون – والقى الكسى الفاس الصدئة على نفس الكرمة – لو كنا معا لقمنا بالعمل اسرع واقوى . . . نعم ، يا اخى ، اخذت كفايتى من الضوضاء والضجيج . . .»

والقى نظرة على الارض مفكرا فى رسالة سيميون التى تلقاها وهو فى فولاتو-بوله . كتب اخوه هذه الكلمات : «قل لزوجتى ماترينا ان تصون نفسها – رجاء – من كل لهو ، فانها ليست بحاجة الى ذلك ، وليس الوقت وقته . . . وحين اُقتل ستكون حرة . . انه وقت عصيب يجعل المرء يعض على اسنانه . وانا اراكم فى الحلم فقط . لا تنتظروا مجيئى قريبا ، فان الحرب الاهلية تبدو بلا نهاية . . .»

وعز الكسى نفسه . . اللعنة عليها ، ومع ذلك فان المرء لا يستطيع ان يذهب ببصره بعيدا . ومرة اخرى اخذ الكسى ينظر الى الادخنة الهادئة تتصاعد هنا وهناك وراء الاسيجة ووراء الحدائق الجرداء ، وفوق الاكواخ المغطاة بالقصب والقش . كان الفلاحون يتهيئون لقضاء الشتاء فى الدفء . وهم على حق ، فان الجيش الاحمر سياتى الى هنا ان لم يكن بعد اسبوع ، فبعد اسبوعين . كيف ان الحرب الاهلية لا تبدو لها نهاية ؟ لعل سيميون يهذى ! ومن سياتى الى هنا اذن ؟ «آه ، سيميون ، سيميون . . . انك بالطبع تروح وتجىء على سفينة الغام فى بحر قزوين ، والدم يتصاعد الى عينيك ويغشيهما . . .» .

ومع ذلك فان الكسى كان يستشعر اضطرابا داخل نفسه . اخرج علبة التبغ وقطن ، اللعنة . ليس له ورق لفه . . . فى هذا الصيف قال احد المطببين ان جيش ماخنو يضم الكثيرين من ذوى الاعصاب المتوترة . تراه فى مظهره الخارجى رجلا معافى ، يلتهم محولا من العصيدة . اما اعصابه فهى كامعاء قطة مشدودة على كمان . ودمدم الكسى مع نفسه «آوه ، اعصاب . من قبل حتى لم نسمع بها» . ووصل الى مدخنة موقد بارزة محروقة ، وحاول ان

يهزها ليرى هل هى ثابتة فى مكانها . دفعها بكتفه ، فترنحت . . . «اعصاب . . .» .

نزل الكسى مع كاتيا وماترينا فى بيت ارملة من اقاربه . وكان المكان ضيقا وغير مريح . بيضت ماترينا الموقد ، وطلت الارض الترابية بطبقة من الطين الرمادى ، وعلقت ستائر من الدنتلا على النوافذ الصغيرة المغبرة . واشترى الكسى طحينا وبطاطس وكمية كافية من العلف للخيول ، ملء عربة من هذا وملء عربتين من ذلك . ولم يماحك مع احد فى سعر ، ولم يبخل بالفلوس ، وحتى حين كان الناس يلحفون بطلب الملح ، اللى كان اغلى من الذهب ، كان يعطيهم قليلا منه . وكان يعرف ان اهل قريته يعتبرون انه قد حصل على فلوسه بطريقة سهلة ، كما كان يعرف ان العربات الثلاث من الامتعة والخيول الخمسة ستظل طويلا تجلب الموجدة له .

وكان الاصعب من ذلك التغلب على معارضة اهل قريته فى بناء بيت له . وكان قد فكر فى تفكيك جناح فى ضيعة الامير كان يقع فى مجمع للاشجار الجرداء على مرتفع ، وكان مهدما مهملا ، وكانت دار الامير قد خربت ، ولم تبق الا النوافذ المحطمة فارغة بين الاعمدة التى تساقطت قشرتها . وكان هذا الجناح الذى كان يقيم فيه القيم سليما ، ولم يكن صعبا تفكيكه ونقله الى مكان بيته المحروق .

الا ان الفلاحين كانوا ما يزالون تحت خوف ما ، ولم تكن فى القرية اية سلطة . فقد طردوا ادارة الهيتمان ، والبيتلوريون ما يزالون متشبثين بالمدن فقط على نحو ما . والحمر لم ياتوا بعد . ولانهم تعودوا على السلطة فان غيابها كان يبث فيهم شيئا من الخوف . فقد يحاسبهم احد على افعالهم فيما بعد ، ولهذا قرروا انتخاب عمدة . ولكن لم يرد احد ان يصير عمدة . كان الاغبياء والاذكياء يكتفون بهز اذرعهم قائلين : «لا ، لا ، وما حاجتنا الى ذلك . . .» ولم يرغب اهل القرية فى ان يضعوا فى هذا المنصب عمدا ليس له ما يفقده . وقد سرت شائعة من الجانب السوفييتى عن هؤلاء المعدمين الوادعين الذين ينقلبون ، اذا تسلموا السلطة ، الى مماركين اشداء .

ووجدت النساء الشخص الملائم . اقترحت واحدة للاخرى ، وتهامسن فى القرية كلها بان الرب نفسه امر بان ينتخب الجد افاناسى عمدة للقرية . وكان هذا العجوز يعيش بطمأنينة مع كنتيه (فقد قتل ولداه فى الحرب مع الالمان) ولم يكن يشتغل فى الحقل . فكان يقضى وقته فى رعاية الطيور الداجنة ، وما حول البيت ، ويزعق على كنتيه . وكان يهتم بالصغائر ، متسقطا للعثرات . وكان فى الزمان القديم يخدم عند الجنرال سكوبيليف .

ووافق الجد افاناسى على منصب العمدة فى الحال قائلا : «شكرا على تقديركم ، ولكن لا تتراجعوا . ساحملكم على اطاعتى» . فكان يتجول فى القرية متفحصا متسقطا العثرات فى لحيته الرمادية المشطورة شطرين مثل لحية الجنرال سكوبيليف ، ومعطفه من جلد الاغنام محزم فى اسفله بحزام ، وبعصاه العالية من خشب الجوز .

وكان الكمى يرفع قبعته له كلما التقى به ، وينحنى احتراما . وكان الجد افاناسى يظلل عينيه بحاجبيه المخيفين ويسأل :

— طيب .. كيف الحال معك ؟

— لا بأس ، شكرا ، يا افاناسى افاناسيفيتش ، ما ازال اتعذب فى نفس المكان .

— الا تستطيع ان تسوى امورك مع الفلاحين ؟

— املنا الوحيد فيك ، يا افاناسى افاناسيفيتش . . . وودت لو تزورنا مرة . . .

— الا يكون ذلك شرفا كبيرا عليك ؟

ومع ذلك فقد استمال الكمى العمدة افاناسى . ارسل ماترينا الى كنتيه لتشترى وزة سمينة لقدر الامكان ، وتقول لهما انهم سيحتفلون غدا بيوم ميلاد ، وانهم لن يدعوا احدا ، لان المكان ضيق ولكنهم سيكونون سعداء فى استقبال الطيبين . وكان الجد فضوليا الى جانب صفاته الاخرى . فما كادت ظلمة الشتاء تغمر القرية حتى ذهب الى الحقل ودخل الكوخ المدفأ تدفئة قوية ، وارضيته مفروشة بقطعة من بساط من العتبة حتى المائدة المثقلة بغالى الطعام . وكانت الصابيح والفتائل الدهنية الموضوعة

فى علب المعلبات تشتعل فى كل مكان ، اما هنا ، فوق المائدة فاضئ مصباح كيروسين .

دخل الجد افاناسى جهما كما تقتضى السلطة ، ورأى وهو يخلع قبعته ماترينا الجميلة بشفتيها المضمومتين وعينيها السوداوين الخبيثتين ، والمرأة الاخرى — صاحبة يوم الميلاد — الجميلة ايضا التى كانت تدور عنها احاديث شتى فى القرية . وكانت كلتاهما — ماترينا وكاتيا — ترتدى فستانا من فساتين اهل المدن الاولى احمر والثانية اسود . فك الجد افاناسى لفاعه ، وخلع معطفه ، ودفع لحيته على الجانبين بحركة سريعة . وقال فى كبرياء راضية :

— أهلا ، احترامى للمجمع اللطيف .

وجلس الاربعة الى المائدة . تناول الكمى من تحت المصطبة زجاجة فودكا قديمة ، وبدا حديث لطيف .

— افاناسى افاناسيفيتش ، دعنى اعارفكما . صاحبة يوم الميلاد ، خطيبتى ، ارجو ان تعجبك وتكون عند مرضاتك .

— هكذا ، اذن ! بالتأكيد . النساء يحببن الحنان . من اين هى ؟

اجاب الكمى :

— ارملة ضابط . كنت مرافقا لزوجها المرحوم . . .

— هكذا ، اذن — مضى الجد فى تعجبه . وكان لديه ما يحدث به النساء فيما بعد ، ورغب هو نفسه ان يتباهى فقال — عندما حصلت على نيشان غيورغى بالقرب من بلافنا ، جعلنى الجنرال سكوبيليف مرافقا له . . . كان يرسلنى تحت قصف القذائف والرصاص . . . كان يقول : اخرج على حصانك ، افاناسى . . . آه ، كم كان يحبنى . . . يعنى ، خطيبتك من طبقة الاعيان . . . سيصعب عليها عمل الفلاحين بعض الشىء . . .

— لا تقوى على عمل الفلاحين ، يا افاناسى افاناسيفيتش . الحمد لله على ان لدينا الكفاية من الفلوس لاستخدام الايدى العاملة .

— بالطبع . . . اذن ، لنشرب نخب صحة الخطيبة ، المر من اجل الحلو — شرب الجد قدحه وتنحنح ، ولكنه بشدة شاربيه الاصفرين بيده — كنتاى تحملان اكياسا زنتها عشرات الكيلوغرامات . وفى

البداية ، عندما خرج الزوجان الى الحرب ، واضطرت الحماتوتان الى القيام بعمل الرجال كانتا تتشكيان «اوى ، ظهرى انكسر» وتئنان «اوى ، يداى ، رجلاى !» فاكاد انفجر من الضحك — وضحك الجد فجأة ضحكة بلهاء — انا اعرف كيف ادارى النساء . كان سكوبيليفى يدعونى : ملك النساء . . .

نهضت ماترينا فجأة كاتمة ضحكتها ، وذهبت الى الموقـــد وراء الستارة لتخرج الوزة المحمصة . وكانت كاتيا تجلس هادئة متواضعة غاضة بصرها . قال الكمى بحرارة وهو يصب الخمرة :

— ليس هذا مصــــدر المرارة والازعـــاج ، يا افاناسى افاناسيفيتش . يمكننى ان اقيم الزفاف ولو يوم غد ، ولكن هل استطيع ان اسكن زوجة شابة فى هذا الخن ؟ انها وماترينا تنامان على تخت واحد ضيق ، وانا على الارض العارية . . . المزعج ان اهل القرية ينظرون الينا وكأنهم ينظرون الى غرباء . . . . لماذا عاندوا ؟ ان ذلك الجناح يقف بمفرده بلا فائدة . والمصادفة هى التى سلمته من الحرق . ومن بحاجة اليـــه ؟ أينتظرون ان يعود الامير الى هنا ثانية ويشكرهم ؟

— هناك مثل هذا الظن .

قال الجد افاناسى وهو يكسر فخذ الوزة .

— الشيطان سيعود الى هنا قبل ان يعود صاحب الاطيان . . . حسنا ، استطيع ان اشترى هذا الجناح من المجمع ، واكــــون مسؤولا عن كل شىء . . . (حدجت ماترينا الكمى بعينيها . وضرب الكمى المائدة) اشتريه ! . . . انا رجل قليـــــل الصبر . . . لا بأس . . . من اجل هذا اللقاء . اعطينى ، يا ماتريــــنا ، الشىء الملفوف فى خرقة تحت المخدة . (عقدت ماترينا حاجبيها ، وهزت راسها) هاتى ، هاتى ، ولا تبخلى . . فليس هناك شىء اغلى من الحياة .

اعطته ماترينا . فك الكمى الخرقة واخرج ساعة منقوشة دقاقة لها سلسلة من الفولاذ ، وهزها ، ووضعها على اذنه .

— حصلت عليها مصادفة ، وكأنما كنت اعرف لمـــن ساهديها . احملها موفقا ، يا افاناسى افاناسيفيتش .

— ما هذا ، ألتقدم رشوة لى ؟ — سأل الجد افاناسى بصرامة ، الا ان يده ارتجفت حين وضع الكمى الساعة فى كفه .

— لا تزعلنا ، يا افاناسى افاناسيفيتش . انا اهديها لك من صميم قلبى . . . عندى حوالى عشرين من مثل هذه التوافه ، وقد وضعتها ماترينا جميعها بالكحول . وهذه احسنها لانها تدق . وبدلا من سماع الديكة عند الصباح اضغط على هذا اللولب تدق لك ، فتلبس حذاءك اللبادى ، وتخرج لتفقد الماشية . . . .

— اها — قال الجد افاناسى وفتح فمه ذا الاسنان القليلة — اها ، الان محترفك كلتى ! الآن ، لا تستطيعان ان تناما الى الضحى ، السمينتان .

لف الجد رقبته المعروقة بلفاحه ، ولبس معطفه مترنحا ، وخرج . خفضت ماترينا ذبالة المصباح فوق المائدة ، وجمعت وكاتيا الصحون وحملتهـــا الاثنتان وراء الستارة . وظل الكمى جالسا الى المائدة . وقال بصوت لا رنة فيه :

— أهذه الخمرة القديمة قوية ، ام لاننى لم اشرب منـــذ زمان ؟ ماترينا ، لطيف لو تخرجين لتتفقد الماشية .

لم تجب ، وكأنها لم تسمع . وبعد برهة نظرت الى كاتيا ، وابتسمت ابتسامة حازمة .

قال الكمى مرة اخرى :

— انا لا افهم . . . اما انك تأنفين منا ، واما انك ساذجة كليا . . .

حدجت ماترينا كاتيا بنظرة نارية تأمرها بالا ترد عليه ، وترفع عندها .

— على الاقل ابكى . . . انا لاول مرة ارى من امثالك ، يا ربى . . . اعلنتها خطيبة لى ، وهى لا تحرك شعرة فى راسها . . . تجلس منكسة عينيها . . . لا هذا ولا ذاك . . . حورية ماء ، والله ، ماترينا ! — هتف الكمى — انها لا تفهم ان الاطفال يشيرون اليها باصابعهم . جلبها الكمى على عربة ، وقد ربحها من ماخنو فى لعب الورق . . . هذا لا يعنيها . . . اما انا — وصاح بجنون — دعوهم يعرفون الآن انها خطيبتى !

شحبت كاتيا ، وذهبت وراء الستارة ومعها فوطة وصحن ، جذبت ماتريتا كتفها بقوة .

– نحن نعرف الآن من اى طرق نمسك الحياة . . . قتلت اول رجل فى عام ١٩١٤ – وارســـل الكسى ضحكة مقتضبة – رايت المانيا يزحف ، ورفع الله فاطلقت عليه رصاصة اصابته وسقط على جنبه ، وانتظرت لارى روحه تطير منه ، انا قتلت الكثيرين ، ولكن لم ار روح احد منهـــــم . . . اوه ، كفـــى ، شكـــرا عن المعرفة . . . سنبنى بيتا على العظام : الاول خشبى ، والثانـــى آجرى ، والثالث تحت سقف ذهبى . . . عبثا ، يا يكاتريتـــا ديميتريفنا ، عبثا ان تسلكى هذا السلوك معى . انا لا امسكك بالقوة ، اذا كنت لا اروق لك ، اذا كنت هولة يمكنك ان تذهبى الى حيث تشائين . خطيبة ! انا لا اتوقع اية متعة من خطيبتى هذه .

مست ماتريتا بشفتيها خد كاتيا ، وامسرت فى اذنها : «احمق سكران ، فلا تلقى بالا له . . .» علقت كاتيا الفوطة على حبل ممدود ، وخرجت من وراء الستارة . كان الكسى يجلس بانحراف على المائدة وقد وضع ساقـــا على ساق ، ودلى يده الكبيرة المنتفخة . نظر الى كاتيا بعينين غائرتين . جلست كاتيا على مقعد قبالته . كانت نظرة الكسى صاحية متفرسة ، فخفضت كاتيا بصرها .

– الكسى ايفانوفيتش ، كان يجب ان نتحدث منذ وقـــت طويل . . . انا اعتبرك انسانا طيبا ، يا الكسى ايفانوفيتش . لم اجد منك غير الطيبة الاصيلة طوال حياتنا المتنقلة . ولقد تعلقت بك . ولكن ما اعلنته اليوم لا يدهشنى . كنت اتوقع هذا منذ زمان . . . ان شيئا ما حصل لك منذ مجيئنا الى هنا . . . يـــا الكسى ايفانوفيتش . انت هنا انسان آخر . . . .

تنحنح الكسى منظفا حنجرته ، ثم سال :

– ما يعنى «انسان آخر» ؟ ثلاثين عاما كنت شخصا واحدا ، والآن صرت شخصا آخر ؟

– ان حياتى ، يا الكسى ايفانوفيتش ، كانت كنوم لا يقظة فيه . . وهذا ما اقوله لك . . كنت حيوانا بيتيا لا نفع فيه . . آه ، نعم ، كنت محبوبة . ولكن ماذا فى ذلك ؟ شىء من الاشمئزاز ، وشىء من القنوط . . . وحين احدقت بنا الحرب ، كان ذلك يقظة

لى : الموت ، والدمار ، والعذابات ، والنازحون ، والمجاعة . . . ولم يبق للحيوان البيتى العديم النفع غير ان يولول ويموت . . . وكان ذلك سيحدث لو لم ينقذنى فاديم . . . كان يقول لى وكنت اصدق بان حبنا هو معنى الحياة كله . . . ولكنه كان لا يبحث الا عن الانتقام والتدمير . . . الا انه كان طيبا ؟ انا لا افهم . . . (ورفعت راسها ، ونظرت الى ذبالة المصباح القصديرى المنخفضة فوق المائدة) وقتل فاديم . . . عندئذ التقطتنى .

– التقطتك – قال الكسى بابتسامة هازئة غير صارف عنها بصره – وربما تتصورين نفسك قطة . . .

– كنت اياهـــا ، يا الكسى ايفانوفيتش . ولكننى الآن لا اريد . . . لم اكن طيبة ولا شريرة ، لا روسية ولا اجنبية . . . حورية ماء . . . – وارتفع طرفا شفتيها بمعاينة ، وتجهم وجه الكسى – وظهر انى لست الا امراة روسية . . . وساءل عن ذلك الآن . . . لقد رايت معكم الكثير من المصاعب والفظائـــع . . . وتحملت ولم اقل اف . . . انا اتذكر احد الامسيات . . . كانت تمد العربات محلولة ، وجاء الخيالة . . . واجتمع حول القـــدر الفائر اناس محتدون صاخبون .

– تتذكر ا ماتريتا ، هل تسمعين . . .

– وظلوا يتجمعون حول القدر الفائر . . . وتحدث كل واحد من ضرباته المجيدة ، كيف بتر راسا ، وهجم ثانية وتشابك فى المعركة . . . يبدو انهم لفقوا الكثير من ذلك . . . ولكن شيئا كبيرا قويا كان فى ذلك .

– ماتريتا ، انها تتذكر المعركة مـــع الالمان قرب ضياع لبرخنى . . . كان قتالا جسورا . . .

– واتذكـــر كيف وثبت من عربـــة الرشاشـــة . . . كنت اتاكد ان اتقدم منك – وصمتت كاتيا قليلا وكان حدقتيهـــا الشحمتين كانتا تريان شيئا بعيدا – هذا ما كان . . . وعندما سافرنا الى هنا قلت لنفسى : ان امامى حياة واسعة . . . وليست الا قطعة صغيرة من الارض . . . هنا لا يوجـــد غير الخنازير والدجاج وحديقة الخضروات ، وراءها سياج اصم وايام رمادية لا رحمة فجر فيها . . . (ولمست كاتيا جبينها ، وكان عقلها البائس

الصمت الزمهريرى الخفيف رائحة بطبيخ مقطع . وكان ايفان ايليتش يعرف كل شىء ، ويجيد كل شىء ، ويستطيع ان يجد جوابا لكل شىء ، وحلا لكل ريبة . ومن جديد تراءى الصندوق السحرى المزوق امام عينى داشا ، ولكن لم يكن يحوى احاسيس فائقة مستقلة ، ولا الغازا واحاجى ، بل كانت فيه هبات وافراح حياة قاسية واتراحها .

شىء واحد لم يكن مفهوما لها فى ايفان ايليتش ، وقد اضحى يفهمها ، وهو تكتمه . لقد كان ايفان ايليتش كلما اويا الى فراشهما فى المساء يستغرق فى افكاره ، كف عن النظر الى داشا . كان يتنحنح وهو يخلع حذاءه على المصطبة . واحيانا كان يقول لها وهو يخلع حذاءه «داشونكا ، عزيزتى ، نامى ، يا حبيبتى» . ويذهب حافى القدمين عبر الرواق البارد الى غرفة المكتب ، ويعود على اصابعه ويضطجع على حافة السرير حذرا من ان يمس تحته . ويغفو فى الحال متغطيا بمعطفه حتى راسه .

اما فى النهار فقد كان بادى المرح منشرحا مورد الخدين يروح ويجىء ، ويقبل داشا على خديها وعلى راسها الاشقر الدافىء الحبيب .

— مرة اخرى ، مرحبا ، يا زوجة الآمر . . . خبرينى ، هل شؤونك آخذة فى الانتظام ؟

وكان يسال عن ذلك ثلاثين مرة فى اليوم . وكان المفوض ايفان لورا قد اقترح على داشا تنظيم مسرح للفوج من بين المواهب المحلية .

ورفضت داشا فزعة : «يا ربى . . انا لا افهم شيئا من ذلك . . .» ربت ايفان لورا على يدها قائلا :

— ستقدرين على ذلك ، يا عزيزتى ، تعلمى من الاخطاء . لقد نهضت باشياء اصعب ، فقط ان نتخلص من هذا الروتين اليومى . اعثرى على شىء ثورى حماسى يجعل عيون المقاتلين تلتهب .

وكان المفوض عجولا على المسرح جدا . وكان فوج كاتشالين تساريتسين للتموين يستعد الى الخروج الى الجبهة قريبا . وكان الذى اعيد تعزيزه وكسوته من الاحتياطات الضئيلة لدى ادارة

المقاتلون رغم التدريبات المتعبة والساعتين من التثقيف السياسى اليومى قد بدأوا ، وقد شبعوا فى المزارع ، يتمايلون من فرط ما جمعوا من قوة . وعقد اجتماع .

وخطب سيرغى سيرغيفيتش سابوجكوف فيه ، وقد وجد الفرصة ، بعد سنوات عديدة من الصمت ، ليقذف الى العالم بمجموعة من الافكار تفجرت فيه . تحدث عن التحول الثورى فى المسرح ، وتحطيم كل الحدود بين خشبة المسرح والمتفرجين ، وعلى مستقبل المسرح تحت السماء المكشوفة او فى حلبات السيرك الضخمة التى تتسع لخمسين الف متفرج ، حيث ستشترك افواج كاملها ، وتطلق المدافع ، وترتفع البالونات الهوائية ، وتندفع الشلالات الحقيقية ، وتقوم الجماهير لا الممثلون الافرادى بتمثيل الشخصيات البطولية .

— اين انتم ، يا مسرحيى المستقبل ؟ — سال سابوجكوف رجال الجيش الاحمر باسطا ذراعيه ، وكانه يهم بالطيران حتى روافد السقف . وكان هؤلاء يستمعون اليه بمرح رغم غموض الكثير من كلماته التى كان ينطقها بعجالة واحدة فى ذيل الاخرى — اين انتم ، يا دراماتى عصرنا العجيب ؟ اين انتم ايها الشكسبيريون الجدد ؟ والسوفكلوسيون الذين نزلوا من قواعدهم المرمرية ليشاركونا مهرجان الفن ، ومهرجان الابداع ؟ احقا ان الانسان كان فى يوم ما مكشوفا امامكم كما هو مكشوف الآن ؟ احقا ان التاريخ قذف فى يوم ما مثل هذه الثروات الضخمة من الافكار ؟

وبالطبع كان التهيب يستولى على داشا تماما بعد امثال هذه الخطب . ولكن التراجع كان متعذرا .

سافرت مع سابوجكوف الى تساريتسين لجلب الكتب والجنفاص والاصباغ . واستطاعا الحصول على شىء من ذلك . وقدم سيرغى سيرغيفيتش لها الكثير من النصائح المفيدة وما يزيد عليها من النصائح الحمقاء . وتقرر انتقاء الممثلين دون اى تدقيق ومماحكة . والبدء فى اجراء التمرينات على تمثيلية «اللصوص» لشيلر .

وكان تليغين فى غبطة عظيمة لا ترجع الى لهفته لتمثيل «اللصوص» المقبل بقدر ما ترجع الى شعوره بان داشا وجدت اخيرا

ما تعمله وتنجذب اليه ، وتروح وتجيء ، وتتحدث الى رجال الجيش الاحمر ، وتغضب ، واحيانا تبكى من الانزعاج ، وهى الآن (كما بدا له فى بساطة قلبه) لا تعود الى التركيز الشديد على همومها الشخصية وحدها .

وبامر من اللوج ضم الى الفرقة الدرامية الغريبينا وانيسيا ولاتوغين (الذى ذهب الى المفوض بطلب ضمه الى هذا العمل) وكوزما كوزميتش وبايكوروف وبعض العازفين على الاكورديون والبلالايكا والمغنين من رجال الجيش الاحمر .

وفى المساء قرات داشا التمثيلية فى السقيفة فى ضوء بقية من شمعة . وكانت وجوه الممثلين فى الضوء الباهت لا تكاد تبين من خلال البخار الطالع مع الانفاس . وكانت الريح المتصاعدة ترسل الثلج من خلال خصاص بوابة السقيفة . قرات داشا بصوت واضح صاف محاولة ان تتمثل - بمقدار ما تسعفها ذاكرتها - الطريقة التى كان يقرا بها بيسمونوف فى عهده : يد واحدة وراء طية سترته السوداء وصوت منفصل عن الحياة ، وكلمات مثل قطع الثلج ، تزدردها بنهم سيدات الادب المتنفسات بعسر وهن جالسات حوله على مقاعد وثيرة . . .

وادركت داشا وهى فى منتصف القراءة ان التمثيلية لا تحظى باعجاب ، رغم الحذق الكثير الذى اجرى عليها . وقرب النهاية استعجلت تماما ، وعندما فرغت منها ، وبعد فترة من الصمت الثقيل قالت :

- هذه هى «اللصوص» شيلر التى يجب ان نمثلها . . .

اخذ الرجال يدخنون ، وقال احدهم ، وهو لاتوغين ، بصوت خافت :

- تمثيلية ذهنية .

عندئذ اخرج كوزما كوزميتش عقب شمعة من جيبه ، واشعلها ، وجلس الى جانب داشا .

- ايها الرفاق ، اطلعتنا داريا ديميتريفنا على النص والآن سأقرؤه لكم .

وتناول الكتاب منها ، واخذ يقرا بصوت عال ملونا صوته ووجهه حسب جميع الشخصيات ، فمرة يصور الاس الابدى للكونت

العجوز مور ، ومرة يهمس بازيز ، وقد تسطع انفه ، وتقلبت عيناه : «. . . كنت الآن مغفلا يستحق الاشفاق لو لم استطع انتزاع ابنى المحبوب من قلب الوالد ، ولو كان مشدودا اليه بسلاسل من حديد . . آه ، ايها الضمير ! يا فزاعة الطيور الممتازة . . . ليسبح من يقدر على السباحة ، وليغرق من يجد نفسه ثقيلا . . .»

وتراءت للمستمعين فى عين خيالهم ذلك الثعبان ، فرانس مور ، وهنا تحشرج صوت كوزما كوزميتش ، فغرس يده فى شعره دافعا اياه الى صلعته ومط شفتيه بشكل رهيب ، والتمعت عيناه بحقد نبيل : ايه ، ايها الناس ! ايها الناس ! يا ذرية التماسيح الكاذبة الخبيثة ! قبلة على الشفاه ، وخنجر فى اليد ليغرز فى القلب . . الى جهنم وبئس المصير ! التهب كالنار يا صبر الرجل النبيل ، وانقلب ذئبا ايها الحمل الوديع . . .»

اهت انيسيا نازاروفنا اهة خافتة ، ومال لاتوغين بكل جسمه نحو الشمعة التى كانت تضىء الكتاب السحرى التى كانت اظافر كوزما كوزميتش تدب على صفحاته . وفى عتمة السقيفة كان يهدر كارل مور نفسه - الرجل المتمرد المفهوم بالنسبة للمستمعين والذى اثار قلقهم . فيا لهما من كلمات استطاع ان يعبر بها عن المسادات التى لحقت به . انهما لتمثيلية تنفذ الى الاعماق !

وحين وصلت الشمعة الى نهايتها ، ونطق كوزما كوزميتش مبوحا بآخر كلمات كارل الذى كان يتذكر ، وهو يسير الى الاعدام الرهيب ، الكادح المياوم البائس اخذت انيسيا والغريبينا تحركان ميرتهما بكمى معطفيهما وقال لاتوغين «قطعة صادقة من الحياة» ، واتفق الجميع على ان كارل ما كان ينبغى له ان يقتل عبثا وبتأثير الغضب اماليا التى يحبها ، وكان يجب ان ياخذها الى العصابة ويعيد تربيتها . ولا بد من تعديل شيلر فى هذا الموضع ، والا فان رجال الجيش الاحمر لن يعجبوا بمثل هذه التمثيلية الجيدة بسبب هذه الغلطة التافهة . بل وقد تترك آثارا سيئة على المقاتلين . وتقرر فى نفس الجلسة الا تقتل اماليا ، بل يقول لها كارل «اذهبى الى البيت ، ايتها التعيسة» فتبكى بكاء مرا ، وتخرج .

وعهد بدور اماليا الى انيسيا ، ودور كارل الى لاتوغين ، وارادوا اسناد دور فرانتس النذل والوغد الى بايكوف ، ولكنهم خافوا ان لا يضبط نفسه فيكون اضحوكة لدى المتفرجين ، لان الجنود ما ان يروا لحيته حتى ينفجروا ضاحكين . وتقرر ان يمثل كوزما كوزميتش دور فرانتس ، ولكي يبدو اصغر عمرا الزم بحلق وجهه تماما . وعهد الى رجل ذى صوت كثيف من رجال الجيش الاحمر دور العجوز الكونت ماكسيميليان فون مور . وتناهبت الغريبينا والمقاتلون الشبان بقية الادوار . ودخل شخص يحمل فتيلة علبة كيروسين ، واضيئت السقيفة بالفتيلة المشتعلة الداخنة ، وبداوا التمرينات قبل ان يتفرقوا .

ولم تعد داشا الى البيت الا قبيل الصباح ، وظلت تحكى طويلا لايفان ايليتش ، فضحك مقهقها وهو جالس على السرير حافيا واضعا معطفه على كتفيه . . .

— لاتوغين يمثل دور كارل مور ؟ (وتخر وجعجع ماسكا بطنه) سأموت من الضحك . . . ولكن اتعرفين لماذا اخذ الملعون دور كارل مور ؟ انه يغازل انيسيا . . . بينما انذره شاريغين بان يفرق كبده . . . وكوزما كوزميتش ؟ فرانتس . . . هذا مسكن . . . اى ملابس سيرتدون ؟ يتبخترون فى القمصان العسكرية ؟ سارسل المسؤول عن الميرة ، فى الضيعة انحصر محام من بتروغراد وحده مع حقائبه . . . وربما نحصل على السترة الطويلة والفراك . . .

— انت تجعجع بشكل لا يجعل فى رغبة فى ان احكى لك . اتركنى — وانسلت داشا الى السرير ورقدت لصق الحائط ، وادارت ظهرها لزوجها ، وعندئذ حشر البطانية تحتها بحذر ، وغطى قدميها بالمعطف ، لان الموقد قد برد ، والبرد تسرب الى البيت . وقالت داشا ناعسة :

— كل شىء سيكون على ما يرام .

واخذ الهرج لا يتحدث الا عن المسرح . والقى سابوجكوف محاضرة عن الادب الالمانى فى عهد «العاصفة والهجوم» فشبه العباقرة العاصفيين — شيلر وغوته وكلينغر — بالنسور الفتية التى ايقظتها بروق الثورة الفرنسية العظيمة . وامطر سابوجكوف بالاسئلة حتى اضطر الى ان يعلن عن سلسلة من المحاضرات عن

تاريخ نهاية القرن الثامن عشر . وقضى ليالى كثيرة مستغرقا بسراج ، محركا قلمه ، عاصرا ذاكرته قائما بدخان التبغ لانعدام الكتب والمراجع . وكانت الاسئلة تتساقط عليه فى المحاضرات كالانهيار الجبلى ، لقد كان رجال الجيش الاحمر يريدون معرفة كل شىء . فما ان يذكر شيئا حتى يسال عنه بالتفصيل . وما كاد يتطرق الى الديسمبريين حتى طلب منه ان يقص كل ما يعرفه عنهم .

وكانوا يستمعون اليه لساعات عديدة مغالبين التعب ، وكان بعضهم يهوّم فى غفوة ، ثم يهز راسه نافضا النعاس عنه . وكان يجذبهم الحديث عن الازمنة الغابرة ، والبلاد الاجنبية ، حيث كان الناس مثلهم وضعوا طربوشا احمر على راس رمح ، واندفعوا وحدهم ضد العالم كله ، وابتكروا ، وهم الجياع الحفاة ، تكتيكيا حربيا جديدا يحقق لهم النصر . وحين انتصروا اُوثقوا من ايديهم وارجلهم من قبل الذين لم يفطنوا الى ان يقطعوا رؤوسهم فى الوقت المناسب .

وهتف سابوجكوف بصوت متقطع مبحوح :

— آوه ، ماكسيميليان روبسبير ، كان فى وسعك ان تنتصر ، وكان فى وسعك ان تنقذ الثورة ! وقد هبت يوم حتفك ، حين انزلت راية الكومونة السوداء من فوق بلدية باريس . . .

وكانت الديكة تصيح فى الافنية حين اقبل المفوض ايفان فورا ، ودمدم :

— يا رفاق ، بعد ثلاث ساعات سينفخ فى بوق الاستيقاظ ، فاطمت داشا وهى تقوم بالتلقين :

— توقف ! يا رفيق فاتين ، انت تمثل شخصا ميتا . فلماذا تسعل متعمدا ؟ من اين لك هذه الطبيعية المفرطة ؟ مثل بصورة اكثر حرارة ، ضع نفسك فى الدور . . . كل شىء من جديد . . .

عثرت داشا بين الكتب التى جلبت من تساريتسين على مجلة مسرحية فيها مقالة لكوغل بعنوان : «استخدم كل ما هو تحت يدك» وقد امتلأت بالنقد اللاذع للمسرح الفنى . وقد اشار المؤلف الى تقاليد ممثلى الدراما الروس العظام الذين كانوا ياخذون بالالباب والقلوب بعبقريتهم الوحشية . عندئذ كان المسرح معبدا وثنيا ، والستارة غطاء سحريا لتانيتا * . واسفاه ، ان لسل

* ربة القمر عند الهون القدامى .

ممثلى الدراما العبقريين قد انقرض ، وآخر ذرية له ، ماهولست دالسكى ، بدل جزمة الممثل التراجيدى التقليدية بشدة من الورق . وذهب اولئك العظام الذين كانوا يهزون النفوس ليحل محلهم المخرج ، السيد المتعلم الذى صار يعرض للجمهور المحترم مزاليا ، وستائر مهزوزة ، وابوابا حقيقية ، وطنين البعوض بدلا من نفس انسانية مضطربة امام قاعة المشاهدين . ويهتف كاتب المقال : «لا ، ان المسرح الحقيقى هو قول العواطف الاشعث !» استقت دانشا من هذه المقالة بعض المعلومات العملية التى ساعدتها فى التمرينات .

كان لاتوغين وانيسيا جالسين فى ناحية ينتظران دورهما . كان وجه انيسيا خلال هذه الايام القليلة قد بدا عليه التحول ، فليس من السهول تقمص نفس انسان آخر . وفقدت انيسيا شهيتها ، واضحى الطعام يثير غثيانها . فكرت طويلا ، كيف تجعل اماليا قريبة الى نفسها ، ووجدت المنفذ حين رأت فى الكتاب صورة تلك الآنسة فى فستان عريض (تصور اماليا حزينة وقد وضعت خدها على يدها) . ظلت انيسيا تمعن النظر طويلا فى الصورة موصلة الزفرات ، وتصورت : عندما كنت واقعة فى مصيبتى التى هى ادح منها بكثير كنت اهيم متعثرة متنقلة من قرية الى اخرى ولا ارى النور من خلال الدموع ، امد يدى من اجل قطعة بائسة من الخبز . . . لا ، ان الصورة غير صحيحة . لو كانت اماليا ، الرافلة بالحرير والمخمل ، قد تحملت مصيبة انيسيا لكانت يداها معوجتين فى كميها القصيرين المدنتين ، ولكانت الدموع فى عينيها !

وعلى هذا الشكل ، وشيئا فشيئا انقلبت اماليا فون اديلوريف محبوبة كارل مور الى انيسيا . بالامس اثناء التمرينات صمت الجميع حين خلعت انيسيا قبعتها العالية بنجمتها من القماش الاحمر ومست بيدها شعرها المتناثر ، وجلست على مقعد ، وتكلمت وكانها تمس شغاف القلب :

«آه ، بحق الرب ! بحق الرحمة الكاملة ! لم اعد بحاجة الى الحب . . . ولا اطلب منك الا الموت . . . انا مهجورة ، مهجورة ! اتفهم انت رنين هذه الكلمة الرهيب : «مهجورة . . .» .

وصباح اليوم ، اثناء التدريب فرض رئيس القسم على انيسيا

مهمة اضافية جزاء على انشراحها التام . واضطر المفوض الى التدخل ، فاستبدل ذلك بتوبيخ شديد . وهى الآن جالسة هادئة الى جانب لاتوغين وفى عينيها الزرقاوين الواسعتين حلم ، وشفتاها تبتسمان تارة ، وترتعشان اخرى ، وهما تلفظان الكلمات بلا صوت .

قال لها لاتوغين بصوت خافت :

— كانت فى قريتنا فتاة ذات عينين صافيتين تدعى صاشا ، وكنت آنذاك فى الرابعة عشرة ، وهى فى السابعة عشرة . لست ادرى هل كانت مشيتها تلفت النظر ام شىء آخر ؟ كانت الفتيات يأتين من الحقل وهن معهن فى شال صغير وبلوزة كنارية اللون تحمل كباشة ، فكانت تبدو وكانها ستعانقك فى اللحظة التالية . . . وزوجوها شيخا هرما ، وذوت فتاتى صاشا . . . وانت تستغربين لماذا اخواتنا متلهفون (تورد خدا انيسيا قليلا وهو يتكلم ، وكانه يغازلها) نحن نبحث عن حياة جديدة غير معروفة من قبل ولم يجربها احد ، يا عزيزتى انيسيا . نحن جميعا نفكر فى واحدة لا ترى حتى فى الحلم . . .

— لا توجد مثل هذه النساء .

— انت لا تعرفين ! ان مثل هؤلاء النساء يعشن فى جزيرة مرجانية فى المحيط الهادى .

نظرت انيسيا الى وجهه العريض بعينيه المتباعدتين النور وارتعش شىء فى داخلها مرة اخرى . وسرت رقة حارة ندية فى جسدها . ولكنه لم يكن فى هذه المرة حنينا انثويا خاشعا — فقد انقضى ذلك بفضل الزمن — بل كانت تحس الآن بمرح . ضحكت ضحكة مقتضبة وقالت :

— وهل كنت هناك ؟

— لا يهم ذلك . . . ذلك مكتوب فى سجل البحر .

— فى اى سجل للبحر ؟

— فى كتاب بحرى عن مختلف العجائب .

— انت تكذب ، يا لاتوغين ، والاستماع اليك لا يريح .

— اسمعى انت ، وانا سأمضى فى كذبى . . ولكن سأقول لك الحقيقة ، فكرت ذات مرة ، يا انيسيا ، بان اقدم على عمل سيىء

تحولك ، ولكن احد الاشخاص تحدث معى ، مرغوا الفى ، كمـــا يفعلون مع قطة . . آه . . لا بأس . . . الانسان ملك الطبيعة . شكرا على الدرس .

نظرت اتيسيا اليه ثانية ، ولكن بدهشة ، وكان لاتوغين قد رفع صوته حتى ان داشا نقرت بالقلم : «يا رفاق ، لا تعرقلوا التمارين» .

تابع لاتوغين كلامة همسا :

– فى منطقتنا كربيتشى توجد جماعة من طائفة الطواشية ، انهم يخصون انفسهم لانهم لا يستطيعون السيطرة على النفس ، وقد حكى لى احدهم قائلا «انا احلم بطائر النار . احلم ولكن حين افتح عينى لا اجد غير التعاسة الشوهاء . . .» وهم يأتون باعمال منكرة ، ويسرطون زوجاتهم حتى حافة الموت . . . ويذهب احدهم الى بيطاره – الحمامة البيضاء – قائلا : «لقد روحى . .» فيطفئ هذا روحه كما يطفئ الشمعة . . . «عش ، ايها المخصى ، بخير وسلام ، والله معك . . .» لا ، يا اتيسيـــا ، سنستحم بالنعم ، وتسلق بالصودا الكاوية ، ولكن سنصيد طائر اليمن ، ولو طار الى آخر الدنيا . . .

دقت داشا بالقلم :

– ايها الرفيقان ، كارل ، اماليا ، المشهد الاخير ، غيروا ترتيب المسرح . . . .

حين لاح فجر الصباح القرمزى الزمهريرى وراء ادخنة الضيعة قفز فارس من فرسه قرب البيت الذى اتخذ مقرا لقيادة الفوج ، وترك فرسه المكسو بقشرة من الجمـــد ، واخذ يطـــرق الباب بضراوة . فتح ايفان ايليتش بنفسه الباب له ، فسلمه الجندى طرفا . وفى ذلك اليوم ذاته جمعت كل العربات من الضياع المجاورة ، وبدأ الفوج مسيرته .

بدأ تطويق جيش الدون لتساريتسين للمرة الثالثـــة على التوالى منذ شهر آب . وفى هذه المرة وضع الجنرال مامونتوف

تساريتسين داخل كماشة من الجناحين . وعلى بعد خمسين فرسخا الى الشمال من المدينة خرقت افواج الخيالـــة الثلاثة للجنرال تاتاركين الجبهة بضربة مباغتـــة ، وطلعت على الفولغـــا قرب ضاحية دوبوفكا .

وبعد يوم بدأ هجوم خيالة الجنرال بوستوفسكى جنوبا بالقرب من ساربيتا . وكانت وحدات من فرقة دميترى شبلست الفولاذية تدافع عن ساربيتا . ولم يكن شبلست نفسه موجودا ، فقد تشاجر مع المجلس العسكرى الذى حظر عليه الاستقلال بالتموين والتفرد بالامر . ولخشيته من الاعتقال سافر الى موسكو ليقدم الشكوى . كانت الفرقة الفولاذيـــة فى لوران . كان البعض يقول ان الرئيس شبلست سيعود كقائد جيش ، والبعض الاخر ان الرئيس اعتقل ، ويجب الذهاب الى تساريتسين «فى كتلة واحدة» لانقاذه ، ولكـــن الغالبية صدقت بما راج عن هروب الرئيس الى استراخان ، حيث اخذ يجمع جيشا من المتطوعين . غادر حوالى الف وخمسمائة مقاتل خيال الجبهة وعبروا الفولغا ، وساروا بمحاذاة الضفة اليسرى الى استراخان . وتفككت الفرقـــة الفولاذيـــة ، واستولى الجنرال بوستوفسكى على ساربيتا ، وصار يهدد تساريتسين من الجنوب .

كان المجلس العسكرى للجيش العاشر ، فى توقعـــه لهذه الضربات الجانبية ، اخذ قبل اسبوع منها يركز جماعة ضاربة مؤلفة من لوائين للخيالة : لواء الدون – ستافروبول ولواء سيميـــون بوديونى . الا ان هذين اللوائين لم يجدا الوقت الكافى للالتحام لحصل الاختراق ، وتحمل لواء الدون – ستافروبول الضربة كلها على نفسه . وكان بوديونى يحث الخيول ليل نهار لنجدته .

ووجه فوج كاتشالين الى مكان تمركز الجماعة الضاربة . ظل الفوج يسير طوال بقية النهار ، والليلة التالية – بعد توقف قصير – ميمما نحو وهج كدر كان يلوح فى الظلام القارس . وكان الوهج يحجب ضوء الفجر ، فارتفعت الشمس الى يمينه ، ولم تظهر الا قليلا بين السحب الرقائقية المتوهجة كالنحاس .

كان تليغين وايفان غورا وسابوجكوف يركبون الخيول ، ووراءهم كانت العربات الحاملة للجنود الحمر ، والمدافع وعربات المتاع تمتد صفوفا عديدة فى السهب الثلجى . وكانت خيالـــة

الاستطلاع تلوح على مسافة بعيدة . سمع الآمران والمفوض ، وقد اخذتهم الدهشة ، اصوات القصف المدفعي الغاضبة آتية من مكان ليس بالبعيد كثيرا . اطلقوا فرسانهم وخلفوا الفوج وراءهم ، واقترب احدهم من الآخر وتوقفوا ، واخرجوا الخارطة من الحقيبة ، واخذوا ينظرون فيها . كان المكان الذى امر الفوج بالتوجه اليه ما يزال بعيدا ، ولكن سماع قصف المدافع بهذا الشكل كان يدل على ان الجبهة قد اقتربت . ولم يكن لهم معها اى اتصال ، لا هاتفيا ولا بواسطة السعاة من راكبى الخيول . وكان من الممكن ان ينقلب هذا الغموض الى هلاك .

قال ايفان لغورا :

— هذا السهب الملعون ، نحن فيه كالذباب الزاحف على مفرش مائدة . ومن حسن الحظ ان القوزاق لم يكتشفونا بعد .

قال تليغين :

— وكيف لم يكتشفونا ؟ ان لهم سعاتهم ، وهم يراقبوننا منذ خروجنا من الضياع .

انزل سابوجكوف قبعته حتى حاجبيه ، وارتد نحو رجال الاستطلاع .

وصلت العربات الامامية تجرها خيول شعثاء الاعراف من العرق ، لاهثة الانفاس . امر ايفان ايليتش الجنود الحمر الذين قفزوا منها بان يهرعوا لينادوا ويلوحوا للذين تأخروا ليتقاربوا ويتراصوا . وشق طريقه بين العربات فرأى كوزما كوزميتش ، وقد شد عنقه حتى اذنيه بالخرق ، يسوق الحصان ، وكانت داشا تجلس على كومة الديكور على العربة ، وهى ترتدى قلنسوة ومعطفا ابيض من جلد الغنم ، ووجهها شديد التورد ناعما كوجه الطفل . هتفت بشىء له وهى تقلص عينيها من نصاعة الثلج ، الا انه لم يتبين شيئا مما قالته بسبب صريف العربات ، وضجيج الاصوات . ثم رأى المريبينا جالسة مع ثلاثة جنود حمر ، وهى الاخرى اخذت تهتف بشىء ما مشيرة الى السماء بيدها المقفزة . ماذا كانت تريد من هناك ؟ القى ايفان ايليتش راسه الى الخلف ، وهو على سرجه فرأى بوضوح طائرة تلوح كالطائر الاسود ،

وتطير اسفل من سحابة رقائقية كانت اشعة الشمس المغبشة تنتشر تحتها .

ثم رآها الجميع . ضرب ايفان ايليتش حصانه وشق طريقه بين العربات صائحا : «تفرقوا !» . صاح ايفان لغورا الضخم بصوت كثيف فارجا ساقيه على الركاب : «اطلقوا النار على الطائرة !» انطلقت عربة مارة بايفان ايليتش تحمل داشا وقد لاح الرعب فى عينيها ، وكوزما كوزميتش يسوط الحصان باطراف العنان . وبدا اطلاق نار مضطرب . فاخذت الطائرة بجناحيها المعكوفين وهدير محركها الضارى تصعد وراء السحابة ، وتناثرت من بطنها بيضات اندفعت صافرة الى الاسفل ، وانفجرت على الثلج الابيض كالاجمات السوداء .

كان الكثيرون من رجال الجيش الاحمر يلتقون بهذه التجربة الفظيعة لاول مرة . تراكضت بعض العربات بعيدا فى السهب . وارتفع صوت البوق الممطوط ليجمع الصف المشتت . وظل الفتيان ينظرون طويلا الى السحابة فى خوف .

ثم بقى عليهم ان ينتظروا القوزاق انفسهم . سارت العربات متلاصقة فى صفوف متراصة . رفعت الاغطية عن المدافع التى كانت تسير بطيئة فى مربع مسدود . وفى الغروب لاحت معالم القرية الى الامام ملونة بلون ليلكى . اقبل سابوجكوف يعدو من تلك الجهة مع رجلين من رجال الاستطلاع . وتقدم من تليغين وايفان لغورا منفعلا مرحا ، وخلع طاقيته ، ومشط شعره المبلل بيده .

— كل شىء على ما يرام . لا يوجد احد فى الضيعة غير النساء والاولاد . وبعدها ، على بعد خمسة فراسخ توجد قرية فيها قوزاق ،

قاطعه ايفان لغورا غاضبا :

— قوزاق ، قوزاق ، يا لها من اخبار مطمئنة ! ولكن اين قواتنا ؟

— اقول لك لا اعرف . . . تركت قواتنا القرية ، كما انها لم تكن فى الضيعة .

قال ايفان ايليتش :

— يجب احتلال الضيعة . ولكن لن اتقدم بعدها خطوة واحدة حتى اتصل بالجبهة .

احتلوا الضيعة فى الغسق ، وكانت تمتد على حافة خندق مغمور بالمياه . اخذ الجنود الحمر يدقون على صفاقات النوافذ صائحين فى ترحيب : «يا اصحاب البيت ، اخرجوا !» ودخلوا البيوت المعتمة الدافئة . ولكنهم لم يجدوا غير امرأة مع طفل وراء الموقد فى احد البيوت ، وعجوز تدمدم من الخوف وراء موقد فى بيت آخر . وكان جميع الرجال قد هربوا الى القرية القوزاقية . امر تليغين بأن يتخندقوا . وسد طرفا الشارع بالعربات المتلاصقة . وكان تليغين قد ارسل سابوجكوف قبل زوال ضوء النهار مع جماعة من المتطوعين فى استطلاع فى العمق ليتصل بالجبهة خلال الليل .

مر الليل فى توجس . ورغم ان القوزاق ليسوا عشاق القتال فى الليل ، الا انه كان من الممكن توقع اية حيلة منهم . كان ايفان ايليتش وايفان غورا يقطعان الضيعة من طرف الى آخر ، ويسيران على الجليد الذى ما يزال غير متماسك ليعبرا الى الجانب الآخر من البركة . كانت السماء ملبدة بالغيوم ، وهدأ القصف المدفعى فى الشمال الشرقى . وهبت الريح حاملة الرطوبة ، وخفت حدة القرس ، ولم يعد الثلج يخشخش تحت الاقدام .

دمدم ايفان غورا وعيقا وهو يسير الى جانب تليغين :

– مصيدة ، وقعنا فى مصيدة حقيقية . لم نستطع ان نسير بالفوج الى المكان المعين له . . . عار ! انهم يبحثون عنا ، ونحن نبحث عنهم . يا لها من لبخة ! من الملوم ، من ؟

– دع عنك . لا لوم على احد .

– ايا سيبالوف اولا ؟ اياى ! وهذا حق . مفوض ضاع فى السهب مع فوجه ، آه ، لبخة ! . .

انطلقت طلقة منفردة بصوت رنان . توقف ايفان غورا بغتة ، وسمع دقات قلبه . وفجأة بدأ اطلاق نار عاصف ، ثم هدأ فجأة كما بدأ ، ولم تبق الا وشوشة الناس وهم يتبادلون الحديث وقد خرجوا من بيوتهم والنوم عالق فى اجفانهم . قال ايفان ايليتش :

– الفتيان متوترو الاعصاب . شباب لم يقع تحت النيران . تعال ندخن .

قبيل الفجر دخل البيت برهة متخطيا ارجل النائمين فى حذر ، ووصل الى الموقد بالتلمس . بحثت يد داشا عنه فى الظلام ، ومست خده ، فالصق كفها الدافئة على شفتيه .

– لماذا لا تنامين ؟

– اتعرف فيم افكر ، يا ايفان ؟ اذا طال مكوثنا فى الضيعة فاننا فى آخر الامر سنمثل «اللصوص» فى العراء ، بل ونحن فى المعاطف ، فليس هذا المهم . . .

– بالطبع ، يا داشونكا . . .

– قمنا بالعمل فى حماس ، وسيكون من المؤسف ان يضيع كل شىء هباء . . . .

– صحيح . . . لهذا سانحقق فى الامر ، فقد تكون هناك سلبقة . . . نامى ، يا حبيبتى . . .

وخرج الى الشارع ثانية ، واستنشق نفسا عميقا من الريح الرطبة . لم يستطع ايفان ايليتش حتى الآن ، بعد تلك السنوات المديدة من الاشتياق ، ان يعود ذهنه على انها قريبة منه ، واقفة تحت معطف من فراء الغنم على الموقد ، فى هذا البيت الواطىء .

«انها لا تنام من القلق . . . لم تقل كلمة واحدة . . . ولكنها سرت فمدت يدها لى . . . اية امرأة مدهشة هى ! . .»

وتاثر ايفان ايليتش تاثرا شديدا بتحسسها اياه فى الظلمة ، وانطباق كفها على شفتيه ، حتى احس بأن وجهه يلتهب فى الريح . . . أمن المعقول انه مخطىء على اية حال ؟ «لا ، يا عزيزى ، هذه سخافات . فاتركها . . . . انها صديقتك ، نعم ، نعم ، نعم . . . وزوجة . نعم ، نعم ، نعم . . . فكن سعيدا بذلك . . .»

انه لن يستطيع ان ينسى ابدا تلك الامسيات المظلمة فى بطرسبورغ ، حين كان يهرع الى البيت حاملا فطيرة ، او شيئا من الحلوى حصل عليها لداشا ، فلا يوحى لها بغير النفور والنعر . . . يعنى انه كان ينطوى على شىء من هذا . وما زال كذلك . ولكن ، يا الهى ، كم احب هذه المرأة ، وكم حن اليها !

اقبل ايفان غورا من الظلمة ، وقد حشر يديه عميقا فى جيبى سترته .

– وكيف لو امسكوا بسابوجكوف ؟

– من المحتمل جدا . . سنرسل في الفجر بعثة استطلاعية أخرى .

– كان يجب ان افعل ذلك في وقت ابكر من ذلك ، ابكر بكثير – واخرج ايفان غورا يده من جيبه ، وضرب جبهته بقبضته – لم تثبت اهليتك لما اوكل اليك ، ايها الشيوعي ! حتى اذا خرجنا من هذه الحادثة بسلام فانني لن اغفر ذلك لنفسي . . . لو كان الامر بيدي لقدت مثل هذا المفوض الى ما وراء عنبر الغلال ، وودعته الوداع الاخير !

– ايفان ستيبانوفيتش ، انا ملزم بنفس القدر اذا كان الامر كذلك .

– دع عنك ! حسنا ، لنذهب ، وندخن . . . .

سار سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف مع خمسة من المستطلعين المتطوعين في السهب على امل العثور على اية دلائل تشير الى الجبهة . الا ان السهب كان خاويا داميا لا ينفذ فيه البصر . استعملوا اعواد الثقاب واستهدوا بالبوصلة . تعبت الخيول تعبا شديدا ، وهي لم تطعم ، واخذ الحصان الذي وضعت عليه الرشاشة يعرج ، ويجذب العنان . امر سابوجكوف بان يترجلوا ، ويفكوا اللجام وحزام السرج . اخرجوا القمح من الاكياس المشدودة على السروج ، وسكبوا منها مقادير في قبعاتهم واخذوا يطعمون الخيول ، مولين ظهورها وجه الريح .

– ايها الرفيق الآمر ، وجدت تفسيرا لاخفاقنا في الاتصال بالجبهة – قال شاريغين مختارا كلماته بروية ، كما هو دائما – الجبهة متركزة . . . (وتثلج وعسر عليه تحريك شفتيه) لعل مددنا جناحينا في منطقة العمليات والقوزاق متمركزون . . . ربما هذا ممكن ؟

– آوه ، القوزاق ، القوزاق ، ذرية التماسيح الكلابية الخبيثة ! الى جهنم وبئس المصير !

قال لاتوغين ذلك بلهجة جادة . انفجر بالضحك الفتيان الشبان الثلاثة الذين جندوا من القرى القوزاقية . اجاب شاريغين راسا :

– ليس الوقت ملائما دائما للمزاح ، يا رفيق لاتوغين ، يجب كبح البذاءة في الامور الجدية .

قال سابوجكوف بصوت خافت :

– كفى ، يا اولاد ، لا تتشاجروا .

صلصلت الخيول بشكائمها ، وهي تمضغ حبات القمح بقرقشة . وكانت الريح وراء ظهور المستطلعين تصفر في مواسير البنادق .

– امضغ ، ولا تعبث يا وباء !

صاح لاتوغين حين اخرج قرصه بوزه من القبعة واخذ يحشى له راسه .

قبل هذا بوقت قصير حين كان المحاربون الحمر مجتمعين عند البئر في الضيعة نادى سيرغي سيرغيفيتش سابوجكوف على من يريد التطوع في مهمة استطلاعية ، فكان شاريغين اول من جاء اليه قائلا «انا اذهب معك» وفي نفس الوقت لم يحجم ليضيف منفعلا : «لا تظن ايها الرفيق الآمر ، انني قادم لا لاظهار شجاعتي ، بل عن وعي ، ككومسومولي . .»

وسمع لاتوغين هذا الكلام وهو يسوق خيول المدفعية الى البئر فضحك مع رجال آخرين من الجيش الاحمر ، ورأى وجه شاريغين الاحمر المنفعل . . . «آخ ، ايها الشيطان الافطس ، انت لاذاب ، لن تتفوق علي» وهز كتفيه ، وتقدم من سابوجكوف :

– الا اكون زائدا عليكم ، يا سيرغي سيرغيفيتش ؟ في وسعي ان اذهب الى البطارية ، واستأذنها بالخروج .

وكان طوال الطريق يتحارش بشاريغين ، ويضحك الجنود الحمر . والآن لعنه بالبذاءة . فوبخه الآمر . هكذا ! سكب لاتوغين بقية القمح في كفه ، والقاها في فمه .

– يجب ان نمسك اسيرا ، والا فسندور في السهب بلا فائدة . . . عندئذ سنعرف اين تتمركز الجبهة . . .

قال شاريغين مؤكدا :

– حقا ! اقتراح معقول .

– الى الخيول ، ايها الرفاق !

لبس سابوجكوف قبعته ، والجم حصانه ، وشد حزام السرج

متمتمتا ، وقفز على السرج . وقبيل الفجر اشتد الصقيع ، ولم يكن الليل على حلكته السابقة . وكشف النور المخضوضر المبشر بالصباح من حواف السحب الكدرة . وانطلق الفتيان فى عدو منكبين على سروجهم .

— قفوا ! ها هم ! — قال لاتوغين ، واخرج بندقيته من فوق راسه موقعا قبعته — انهم ستة . . . سبعـــــة ! — وفى تلك الكدرة المخضوضرة لم تستطع الا عيناه ، عينا بحار ، ان تتبينا شبحـــــا ممسوح الملامح كلا — لا ، ليس هنا . اللعنة — همس للمستطلعين الذين اقبلوا عليه — ليس فى هذه الجهة . . . اولئك هم ، يتوحون بالكاد . . .

وبينما كانوا ينزلون الرشاش من على ظهر الحصان على عجل ترددت كركبة خيول ، ولاحت اشباح خيالة متضخمة غير واضحة .

صاح لاتوغين بصوت وحشى :

— القوا اسلحتكم ، واستـــسلموا ، ايها المســـــاق ! وضرب حصانه بماسورة بندقيته بطريقة غريبـــة على راكبى الخيول ، وانطلق . فاندفع شاريغين فى اثره ليلحق به . زعق سابوجكوف بصوت حاد «قف ، قف !» توقف القوزاق برهة — وكانوا من رجال الاستطلاع ايضـــــا ، على ما يبدو — ثم اداروا خيولهم ، واخذوا يبتعدون . اطلق لاتوغين عدة طلقات من على سرجه . جنح فرس كان يرفل فى المؤخرة فمال براكبه وسقط (اما الآخرون فكانوا على مسافة بعيدة فلا تكاد العين تراهم) . دار لاتوغين وشاريغين حول الفارس الذى قفز من فرسه . نادى لاتوغين وهو يتصــــارع مع الفارس قرب الفرس الساقط : «تعالوا ، يا رفاق !» وعندما اقبلوا عليه كان راكبا فوق القوزاقى وكانه راكب فرســــا ، وقد لوى يديه . «ليس كبيرا ، ولكنه رجل ركين . . .» كان القوزاقى منبطحا على وجهه ، وخده مصرغ فى الثلج ، يشخر مغلقا عينيه فى غضون .

امروه بالنهوض ، ودفعوه ، وقلبوه على ظهره . اخذ القوزاقى يشتم شتائم مقذعة بذيئة وكانه يحرضهم على قتله باسرع وقت . امتقع سابوجكوف ، وضربه بغمد سيفه : «انهض !» رفع القوزاقى راسه قليلا ، ونظر اليه نظرة وحشية ، ونهض مترنحا . كان رجلا

قصير القامة منحدر الكتفين ، ذا لحية عريضة كانهالة ملطخـــة بالثلج .

صاح سابوجكوف به :

— امسك لسانك ، يا بذى اللسان ، يا خانق الدجاج ، امامك آمر الفوج ، فاجب عن اسئلتى .

مد القوزاقى ذراعيه المشدودتين فى حزام وراء ظهره ، ونظر الى الواقفين امامه بعينين مستديرتين صفراوين مديرا لحيته . وفجاة لمح شقتيـــه . وقال لواحد من المحاربين الحمر مورد الوجنتين منهير للضحك :

— انا اعرفك . انت ايـــسن عم كوركين ، الا تستحـــى من نفسك ؟

— يوه ، وانا ايضا اعرفك ، ياكوف فاسيليفيتش . . .

— مرحبا ، ياكوف فاسيليفيتش ، على الرحب والسعة — قال لاتوغين ، وضحك المحارب الاحمر ثانية غير ضابط لنفسه — يا ذا اللحيـــة العجيب ، نحن نبحث عنك طوال الليل . . . اين فوجك ؟ ومن اى فيلق هو ؟

تحاه سابوجكوف ، واخرج خارطة ، وشرع بالاستجواب . كان القوزاقى يرد كارها ، ثم فكر على ما يبدو بان فى الامكان ان يكسب الوقت فى الحديث ، وان الحمر الملاعين سيبردون قليلا ، وقد يجد مخرجا ، فاخذ يتحدث . ومن كلامـــه عرفوا ان الجنرال تاتاركين قد خرق الجبهة ، وان لواء الدون — ستافروبول اوقف نجاح تاتاركين عند حده ، وان معركة دامية تدور رحاها الآن قرب دوبوفكا حيث تتجمع قوات البيض والحمر على السواء .

وعثروا على راس الخيط اخيرا . وقرروا ارسال القوزاقى الى الفوج مع واحد منهم ، اما الآخرون فيجب ان يتوجهوا الى دوبوفكا غير مشفقين على خيولهم من التعب ليبلغوا القائد بوصـــــول فوج الاحتياطى . وهنا فقط تساءلوا : اين شاريغين ؟

نادى لاتوغين :

— ميشكا ! هل غطرت مع الخيول ؟

كان حصان لاتوغين يقف وقد وطا العنان . ومن تحت بطن حصان آخر دلى عنقه النحيل لاحت ساقا شاريغين معكوفتين بشكل

غريب . كان شاريغين يحتضن قربوس سرجه ضاغطا وجهه عليه .

— ميشكا ! — وامسك لاتوغين كتفه بفزع ، وجذبه اليه — يا اخ ، ماذا دهاك ؟

مال شاريغين الى الوراء ، وسقط عليه ثقيلا . كان وجهه بلون التراب ، ومعطفه مشبعا بالدم من صدره حتى حزام الخراطيش . القاه لاتوغين على الارض برفق ، وعرى بطنه الابيض ، وضغط بكفه على جرح دام من اثر طعنة .

— انت الذى طعنته بالسيف ؟ آخ ، ياكوف ، ياكوف ...

خلع لاتوغين معطفه وسترته ومزق قميصه من ياقته ، ولفه كجديلة ، واخذ يشد بطن شاريغين بحيوية وخفة .

— سيرغى سيرغيليتش ، يجب نقله الى الضيعة .

— ولكن كيف ؟

— ما هذه «كيف» ! ... استطيع ان آخذه وحدى ، واسوق الاسير ايضا .

نضح عرق من وجه شاريغين الشبيه بوجوه الموتى ، ودبت الحياة فى عينيه المقلوبتين ، وعاد اليهما الوعى والاستغراب والذعر مما فكر فى نفسه : ماذا حصل له لينهار جسمه الفتى القوى الذى لم يعرف المرض قط ...

— يا رفاق ، يا احبائى ، ماذا علىّ ان افعل الآن ؟

— عليك بالثلج ، يا عبيط .

وغرف لاتوغين الثلج ، ووضعه على شفتيه .

وخلال انشغالهم بشاريغين ، وانزالهم الوشاشة من فوق الحصان الذى اخذ يعرج تنورت الدنيا تماما ، وساقت الريح السحب الواطئة المهلهلة الناثرة مطرا خفيفا مثلجا . ولشدة انغماسهم لم يلاحظوا حشودا ضخمة من الخيالة آتية من الجنوب مع غمائم من الضباب .

دمدم السهب بوقع الحوافر . مرت طوابير متماوجة من الخيالة تعدو ، وعربات مدافع ورشاشات تجرها الخيول . نظر المستطلعون اليها ماسكين خيولهم من مقاودها . فات الاوان ولم يستطيعوا التراجع .

واكتشف امرهم ، فانفصل حوالى عشرين فارسا من مقدمة الطابور العابر ، وانطلقوا ليلحقوا بهم . التفت سابوجكوف فرأى لاتوغين وقد بدا عليه الجد والشحوب يستل سيفه ببطء ، وحرك المحارب الاحمر الضحوك تربازس بندقيته بلا غاية ، وغضن وجهه كله ، وكأنما من الم ...

هتف الفارس الذى كان فى المقدمة بشىء ما ، واشار الى رجال الاستطلاع . كان فى قبعة مائلة من فراء الاغنام ، وعباءة قوزاقية سوداء واسعة عند الكتفين تغطى حصانه الصغير حتى اعلى ذيله . اطلق سابوجكوف النار . الا ان لاتوغين اسرع فسقط عليه من السرج ، وامسك يده :

— اللعنة لا ! لا تطلق ! انهم جماعتنا !

واقترب الخيالة . ارتمى الذين جاءوا من الجانبين على خيولهم وهم يطوقون رجال الاستطلاع . اندفع الرجل الطويل ذو العباءة مصطدما بسابوجكوف ، وهزه من صدره بقوة الملتت كلتا قدميه من الركاب .

— اعمى ! من انتم ، ومن اى وحدة ؟

وتقلبت عيناه السوداوان ، ووقف شعر شاربيه ، وما كاد يمسك نفسه من ان يضرب سابوجكوف المرعوب بمقبض سيفه .

— نحن من فوج كلاتشالين للمشاة . نحاول ان نتصل بالجبهة .

— لا داعى لمحاولتك والجبهة بالقرب من انفك . — اجاب الرجل ذو الشاربين وقد برد غيظه واعاد سيفه الى غمده فى قرقعة — اركب حصانك وتعال معنا .

— معنا جريح ...

— آوه ، يا رب . هل فوجكم كله بمثل هذه البلاهة ؟ ضع الجريح على الحصان مع هذا الشاب الركين — واشار الى لاتوغين — وما هذا البطل ؟

— اسير قبضنا عليه .

— اعط الاسير لنا . (تلعثم سابوجكوف ليقول ان الاسير يجب ان يرسل الى الفوج) آه ، يصعب علىّ التكلم معك . سيتحدث

معك رئيس الاركان ، يجب ان يكون لك ادراك – وعدل العباءة بكتفه ، وانطلق بعدو سريع ، وكان الفرس يتخطر مرحا تحته ناثرا الثلج بحوافره اللامعة . وخب الجميع وراءه بمن فيهم لانوغين بسنده شاريفين ، والاسير القوزاقى المحلول اليدين الذى دفن عبوسه فى لحيته المريضة خجلا وحزنا .

اندهش الخيالة بشدة من سؤال سابوجكوف : من هؤلاء الفرسان المنطلقون بسرعة فى طوابير زاحفة ، وهم الآن يلوحون اشباحا مبهمة من غلالة الضباب والمطر ؟

– الا تعرفهم ؟ انهم لواء سيميون ميخائيلوفيتش بوديونى .

– هل استرحت قليلا ، يا داريا ديميتريفنا ؟ لماذا يبدو القلق على وجهك ؟ منذ الصباح لم تأكلى ؟ أما . . . حلبت ملء جردل من الحليب . صدقينى بودى ان اجلب منه شيئا لك ، ولكن المحاربين الحمر شربوه كله . وفتتنا الخبز ، واكلناه ثلاثتنا . وهكذا ملأنا بطوننا .

كان كوزما كوزميتش يتفجر بعنفوان الحياة ، وكانت داشا لا تستطيع النظر الى وجهه الحليق تماما بشكل يبدو خاليا من اللياقة : حنك صغير كثير الحركة وفم مكشوف اجرد ، كأنه نفسه يتوسل ان يغطى . استيقظت داشا فى وقت متأخر فلم تجد احدا فى البيت ولا فى الفناء . كانت فى الهواء رائحة من الرطوبة المصاحبة لذوبان الثلج ، ورائحة اسطبلات ، وكانت غمائم من الضباب معلقة على السطوح القصبية . رآها كوزما كوزميتش من الفناء المجاور فعبر السياج بحيوية واخذ يرقص حولها ماسحا يديه الصغيرتين القذرتين .

– اولا ، ان كل شىء بخير وعلى ما يرام ، يا داريا ديميتريفنا . . . وزوجك فى الجانب الآخر من البركة . اما انت فقد كنت تغطين بنوم عميق فلم تسمعى بالتراشق بالنار . اراد القوزاق ان يجسوا نبضنا ، فرددنا عليهم ردا حاذا جعلهم يتراجعون الى قريتهم لا يلوون على شىء . ما زلنا نحفر الخنادق . ذهبت الى البطارية فعرفت ان كارل مور لم يعد حتى الآن من الاستطلاع . مرت اليسيا ومعها برميل ، وقد تغير وجهها ، فشفتاها مزمومتان ، وانفها مذبب ، ولم ترغب فى الكلام معى . هذا ملخص الاحداث

الخارجية . اما بخصوصك فخذى جردلا ، واغرفى الماء الدافىء من المرجل ، ولنذهب لنحلب البقرة . فليس هناك مهدىء للروح والجسد احسن من لمس حلمات البقرة لا سيما بالنسبة لمتفائلة حالمة .

ضحكت داشا ، الا انه اصر قائلا :

– شيللر هو شيللر ، ولكن اصحاب ضيعتنا رحلوا دون ان يسقوا ماشيتهم او يطعموها ، او يحلبوها . وهذا ليس بالاصول . اذهبى واجلبى الجردل .

– ولكننى لا اقدر على حلب البقرة ، يا كوزما كوزميتش .

– جواب نموذجى . لم تكونى تقدرين على شىء ، يا داريا ديميتريفنا . لم تكونى تقدرين على امساك الابرة ، وكدت تفقدين زوجك الى الابد بسبب عدم مقدرتك هذه . ولكن سنحلب الحليب ، واعلمك كيف تصنعين رقائق الحليب ، وكيف تقلين البيض على شظايا الخشب وسيأتى ايفان ايليتش جائعا كالذئب ، فتقدم له زوجته الجميلة المقلاة والشحم المقدد ينش فيها تشيشا مجنونا . فينكب عليها ، واذا بك تقدمين له الرقائق ! ثم تبلسين قبالته وتنظرين اليه بابتسامة هادئة ، فتبدو له ملغزة كابتسامة الجوكنده . هؤلاء هن زوجات فرسان الجيش الاحمر !

واصر كوزما كوزميتش على رأيه ، فان اية فكرة تخطر له تبدو كشوكة فى رأسه ، والافضل ان توافقه عليها . طوت داشا تنورتها فى الزريبة نصف المظلمة ، وقرفصت تحت البقرة فلم تضربها هذه بقرنها ولم تركلها . غسلت داشا الضرع بالماء الدافىء ، واخذت تسحب الحلمات المحرشفة . كما علمها كوزما كوزميتش المقرفص خلفها . وكانت تخشى ان تنقطع الحلمات ولكنه كان يردد : «اسحبى اقوى ، ولا تخافى» . ادارت البقرة المريضة رأسها وتملت داشا بشفتيها الصاخب ونفسها الحار الطيب . ورنت خطوط الحليب الدقيقة وهى تسقط على الجردل وتذكرها بالطفولة . لقد كان ذلك عالما ابكم «واطئا» و«طيبا» لم تحس داشا بوجوده قبل هذا . وهذا ما قالته لكوزما كوزميتش همسا . فهمس لها ايضا وراء ظهرها :

– فقط الا تقصوى ذلك لاحد ، فانهم سيضحكون منك قائلين : داريا ديميتريفنا كشفت فى زريبة الابقار عالما مجهولا . هل تعبت اصابعك ؟

– بشكل فظيع .

– اتركى ... (وقرفص فى مكانها) .. بهذه الطريقة ، على هذا النحو ... اى ، اى ، اى ، هؤلاء هم المثقفون الروس ! كانوا يبحثون عن الحقائق الازلية فوجدوا بقرة ...

– وانت ؟

– انا ؟ وترك الحلب من شدة الانزعاج .

– تجلس تحت بقرة وتتفلسف .

– يا عزيزتى ، من الافضل الا تحاولى الدخول فى جدل مع قس سابق .

وتناول الجردل وخرج مع داشا من الزريبة الى البيت ، حيث اخذ يقطع قطعة خشب الى شظايا .

– التفلسف هو تجول الافكار . كان يوهان جورج هامان المدعو بالساحر الشمالى يؤكد ان «وجودنا ووجود الاشياء الاخرى خارجنا لا يخضعان للبرهنة ابدا ، ويتطلبان الايمان فقط ...» ايعنى اذا لا يوجد ايمان لا يوجد عالم ايضا ؟ لا انا ولا انت ؟ وان هذه ليست شظيــــة بل لا شىء ؟ افعلى هذا الـ«لا شىء» ستقلى البيض ؟

ووضع شظايا الخشب على افريز الموقد واخرج من الموقد بعض الجمرات ، واخذ ينفخ فيها .

– ولكن فلسفة الحياة شىء آخر ، يا داريا ديميتريفنا . ادرسى الحياة واعرفيها واستوعبيها ... فالحياة بدون تدخل العقل الرفيع تسير فى طريق خبيث ، ان وجودى حقيقة ، لا ذرة للشك فيها ، وهى بالنسبة لى مهمة للغاية . ولما كنت محبـــا للمعرفة والاستطلاع فاننى اريد ان ارى كل شىء ، وافهم كل شىء . ولن يمضى وقت طويل حتى اعرف كل ما يدور حولنا وفى داخل نفوسنا ، هذا ليس ظاهرة عفوية بل تحت توجيه العقل البشرى . ولكننى لا استطيع التحدث مع مفوضنا عن ذلك . غير انى اود ان اتحدث مع شخص آخر فى لباس مدنى ، واجلس معه ساعة من الزمن ...

داريا ديميتريفنا ، اخرجى الى الفناء ، فهناك صومعة مؤنـــة فى آخره ، لاحظتها قبل حين ، بل وكسرت القفل على بابها ، اجلبى من هناك شيئا من الطحين ، حفنتين منه ...

وأعد الفطور . وبدلا من ايفان ايليتش الذى كانت داشا تنتظره من لحظة الى اخرى دخل البيت جندى احمر يحمل بندقية وكيس خراطيش مملوءا :

– امر الآمر بشد الخيول على العربة وتحميلها ... وجمع المتاع !

واستنشق من انفه ، ودفع طاقيته على علبائه ، وتقدم من الموقد ممسكا بندقيته ، واخذ من المقلاة ما استطاع ان يمسكه من الرقائق الحارة ، وتبسم خجلان ، وخرج .

صاحت داشا :

– يا رفيق ، يا رفيق . ماذا حصل ؟

– كيف ماذا حصل ؟ انظرى الى الشارع .

وفى تلك اللحظة حدث انفجار بقوة شديدة فبدا قريبا جدا وكأنه فى الفناء المجاور ، حتى ان الزجاج تطاير متهشما فى كلتا النافذتين الصغيرتين .

كانت خطة الهجوم على تساريتسين فى كانون الاول قد وضعها الاختصاصيون العسكريون فى مقر قيادة دينيكين . وقد اشار البارون فرانغل وهو من اصغر الجنرالات سنا الى الاهمية الهائلة للسيطرة على تساريتسين . وصادق الاتمان كراسنوف على الخطة . وارسلت لمساعدة جيش الدون فرقـــة تحت امرة ماى-مايفسكى بقيت بلا مهمة بعد هزيمة الحمر فى شمال القفقاس ، وقد عززت بأحســن الوحدات القتالية من جيش كورنيلوف وماركوف ودروزدوف ، سار ماى-مايفسكى عبر الدونباس لتغطية مؤخرة جيش الدون الذى كان مكشوفا للضربات من الغرب ، من ناحية اوكرانيا ، ولم يترك على الحدود الشمالية غير قوات دفاع قوية ، زحفت خمسون الفا من القوات المنتخبة من جيش الدون نحو تساريتسين .

وفى نفس الوقت كان المقر العام لقيــــادة الجيوش الحمراء للجمهورية يضع خطة لمجابهة الهجوم . فكان على الجيش الثامن الاحمر والجيش التاسع الاحمر المرابطين على الحدود الشماليـــة

لمقاطعة الدون ان يدخلا فيها من كلا جانبي الدون ، ويدفعا قوزاق كراسنوف البيض الى حراب الجيش العاشر . وبالجهود المشتركة للجيوش الثلاثة يسحق جيش الدون في سهوب تساريتسين . وبعد ان يدحر تنعطف الجيوش الحمراء في جهة مقابلـــة تماما وتتحرك غربا ، نحو الدنيبر ، وتطهر اوكرانيا من البيتليوريين .

في هذه الخطة اغفل شيء رئيسي ، وهو ان خطوط ودوائر الخارطة الحربية ، وشبكة الاشارات والارقام كانت تطوى تحتها صراعا طبقيا يغلي بقوانينه الخاصة واحتمالاته ، وان هذه الدوائر والخطوط مختلفة في نوعيتها . فبعضها كان يمكن ان يصب قوى جديدة في الافواج والالوية والفرق الحمراء ، وبعضها الآخر كان يضعفها .

ولم توجه خطة مقر القيادة العام الجيوش الحمراء في الاتجاهات التي تقتضيها الاستراتيجية العليا للحرب الاهلية ، فان تحركها من الشمال الى الجنوب الشرقي عبر الدون وخوبر ومدفيديتســـا وخلال القرى القوزاقية ذات الميول العدائيـــــة قد اضعفت قوة الهجوم ، واطالت مدته ، واعطت للعدو امكانية المناورة واعادة التنظيم .

ومثل هذه كانت الخطوات العثرة التي اتخذتها فيما بعـــد الخيانة المصرية في داخل المجلس العسكري الاعلى للجمهورية الذي صادق على تنفيذ الخطة الفاشلة التي وضعها مقر القيادة العام . فان الخطأ الذي كان يبدو في الوهلة الاولى خافيا ومن الصعب تلمسه قد كبر خلال ستة اشهر فصار خطرا جديا .

بدأ هجوم كانون الاول المضاد للجيوش الحمراء ، وقد جرى في منطقة ابعد كثيرا في شرق الدونباس ، حيث كان النـــاس في مناطق المصانع والمناجم ينتظرون الجيش الاحمر بنفـــاد صبر ليقوموا بانتفاضة . الا ان فرقـــة ماي-مايفسكي قد بدأت تدخل المنطقة من الجنوب ومعها مدكات البنادق والمشانق . ووقع الجناح الايمن للهجوم الاحمر تحت الخطر . وتوقف الهجوم ، ومن جديد تحمل الجيش العاشر قوة الضربة كلها للمرة الثالثة منذ شهر آب .

كان العدو اكثر عددا واحسن تسليحا واغنى تموينا . وكان لديه اندفاع عارم لكســر الهجوم ، وبدت القوتان غير متكافئتين

بشكل كبير . وارسلت تساريتسين الى الجبهة التعزيزات الاخيرة ، وحتى خمسة آلاف عامل ، كل ما كان في وسعها ان تجمعه ، وجاءت النجدة من الابداع الثوري .

في عام ١٧٩٢ ابتكر الشعب الفرنسي الجائع الحافي المسلح بمزاريق مصنوعة بيتيا نار المدفعية الصاعقـــة ليدحر القوات المدربة للائتلاف الاوربي ، وخلافا لكل القواعد الحربية قام بهجوم كاسح للمشاة ضد تشكيلات المربعات الشهيرة للملك فردريك .

وابتكر الشعب الروسي اشكالا جديدة لتنظيم وحدات الخيالة . وكان من بينهـــا لواء سيميون بوديونى الذي خرج من سهوب سالسك ، ولم تكن قوته تكمن في البسالـــة وحدها . فقد كان القوزاق البيض يجيدون ايضا شق الراكب الى نصفين . لقد كان لواء بوديوني محبوكا بالولاء والانضباط ابتداء من حامل الرايـــة ذي الشاربين الطويلين وحتى حارس العربات الملتحي . وقد تشكلت كل كتيبة وطرزة من سكان قرية واحدة . وصار المحاربون الذين كانوا في يوم ما يصطادون الجنادب سوية في السهب وهم صغار يسطرون الخيول جنبا الى جنب . الابناء وابناء الاعمام في الصفوف ، والآباء والاعمام في عربات الحمولة والرشاشات . ومنذ اليوم الذي خرج فيه سيميون بوديوني من قرية بلاتوفسكايا بفصيلـــة من حوالى ثلثمائة فارس وحتى اليوم لم تحدث حالة هروب واحدة ... ثم اين يذهب مثل هذا المحارب ؟ لا يمكن ان يعود الى قريته او ضيعته . فان ذلك يعني العار والمثول امام محكمة .

وكان في اللواء محكمتان حسب عرف لم يدون في نظامـــه الداخلي : محكمة رسمية عسكرية ، ومحكمة رفاقية غير رسمية . كانت المحكمة العسكرية تحاكم المحارب المذنب سواء على جبنه في المعركة ، او عدم اطاعته للامر ، او وضع يده على مال الآخرين . وبالاضافة الى المحكمة العسكرية كان المحاربون انفسهم يحاكمون المذنبين في الحالات الخاصـــة . كانوا يجتمعون في مكان بعيد عن الانظار ، ويبدأون محاكمتهم لهذا الشخص . وكان يحدث ان تبرئ المحكمة العسكرية ساحة المتهم آخذة بعين الاعتبار هذا الظرف او ذاك . بينما كانت المحكمة الرفاقية تحاكمه بصرامة اشد ، وتصدر حكمها عليه ، فلا تستطيع ان تسأل احدا عن مصيره .

وكان نظام القتال هو الآخر قائما على قاعدة جديدة غير مدونة ايضا في اي من قواعد الميدان . كانت الكتيبة تنظم نفسها في صفين للهجوم باكتساح . في المقدمة يسير المحنكون من الطاعنين بالسيوف ذوي الايدي الثقيلة وهم في العادة فرسان لهم تجربة كبيرة . وكانت ضرباتهم من القوة بحيث ترسل فرس العدو يوثق وعقبيه الجزء الاسفل من جسم راكبه . ويأتي وراءهم فرسان ماهرون بالتسديد من المسدسات والبنادق ، وكل واحد يحمي في القتال الرفيق الذي يتقدمه . ويندلع الاولون ، وهم تحت حماية نار رفاقهم ، ليغرسوا سيوفهم في العدو بجرأة ودون تلفت الى الوراء ، ولم يحدث قط ان استطاعت خيالة للعدو حتى ولو كانت اقوى عددا بمرتين او ثلاث ان تصمد لهجوم البوديونيين المركز ، المؤلف من حلقات ذكية منفصلة متلاحمة فيما بينها .

كانت الضيعة تحترق في عدة اماكن . وتكور الدخان بين السقوف المتلاصقة ، واندلع اللهيب ناثرا الشرر وتنف القش المحترق تحت السحب العائمة على انخفاض . وكانت الحمائم تحوم وتقع في النار . وكانت الماشية ترسل الخوار في الزرائب . حطم ثور اسيل السياج ، وتحرر طليقا مندفعا في الشارع في خوار ، وخرجت النساء من البيوت المحترقة راكضات يحملن اطفالهن على ايديهن باحثات لهن عن ملجأ . ومن ناحية القرية القوزاقية وراء التلال ظلت المدافع تقصف بلا انقطاع .

وفي منتصف النهار ظهرت من هناك صفوف القوزاق المشاة الاولى كنقاط صغيرة مبثوثة على امتداد واسع ، وهي تنوي الاحاطة بالضيعة المحترقة ومحاصرتها ، ودفع فوج كاتشاليي المتخندق في خنادق حفرت على عجل والقاءه في النار . وكانت هذه الخنادق تبدأ من دكان الحدادة في طرف الضيعة ، وتمتد على حافة البركة ، حيث الجليد الممزق بالقنابل اليدوية ، وتلتوي نحو الطاحونة الهوائية على الرابية .

سار تليغين وايفان غورا على فرسيهما بمحاذاة الخنادق تتبعهما الحربينا مرافقة المفوض مرتدية قبعة مائلة من فراء الغنم على غرار ما تعلمته من القوزاق . كانا يتوقفان

تارة بالقرب من مفرزة متخندقة الى وسطها في اخدود ضيق ومتجهمة في مثل هذا الطقس ، او بالقرب من حظيرة للرشاشات . ايفان ايليتش مورد الوجه ذو عينين بشوشتين ، وايفان غورا مسود الوجه ناحل من متاعب الليل ، الا انه الآن قد هدأ حين اتضح الموقف . عدل تليغين جلسته على السرج ، ومرر يده المقفزة على شفتيه ، وكأنما يمسح الابتسامة منهما ، وتكلم مستغلا الصمت بين هدير الانفجارات :

– ايها الرفاق . لديكم الفرصة لانزال خسائر دامية في العدو . اطلقوا النار بهدوء ودون فزع وبانتقاء : رصاصة لكل رجل . انا والمفوض ننتظر مثل هذا التسديد منكم . انتقلوا الى الهجوم المضاد بالحراب في تعاون واندفاع . . . آمركم بالا تتراجعوا مهما تكن الظروف .

هز المفوض ايفان غورا راسه ، وهتف :

– عاش الرفيق لينين ! ولتسقط الراسمالية العالمية !

وبعد هذا الكلام ذهبا الى الجماعة التالية من المحاربين .

وبعد ان فرغا من الجولان في الجبهة كلها ترجلا من فرسيهما عند الطاحونة الهوائية . خلال ذلك الوقت عرف رجال الاستطلاع ان قوات كبيرة من القوزاق قد دخلت القرية اثناء الليل . وكان من الممكن الاستدلال من الطريقة المتهورة التي هجموا فيها ان ظهور فوج كاتشاليي في الضيعة قد فاجأهم بينما هم منهمكون في تنفيذ مهمة اخرى ، وانهم – على ما يبدو – قد عزموا على تنظيف الطريق من الحمر بضربة واحدة .

كانت الريح تصفر تحت سطح الطاحونة والتروس الخشبية تصر ، وفي الجو رائحة بيتية للطحين والفئران . تنهد ايفان غورا بحرة ، واخذ يطل براسه من حين لآخر بين الالواح المخلوعة لعله يرى سيرغي سيرغييفتش يلوح في السهب الذي الى الشرق . صاح تليغين بالتلفون في الاسفل ثم صعد السلم الشديد المرتقى ، وقال منفعلا وهو يرفع المنظار :

– نحن نعيد عملية تساريتسين .

– اية عملية لعينة هذه ! نحن محاصرون كالاغنام . . . اؤكد لك انه قتال ، فهذه هي الساعة الثانية .

— ليس من السهل قتل سيرغي سيرغييفيتش . . .
— لماذا انت بشوش بهذا الشكل ؟
— يجب ان نحارب بروح بشوش ، يا ايفان ستيبانوفيتش .
انتشر الدخان المنبعث من القش المحترق في اماكن درس الحبوب واطئا فوق الارض باتجاه المهاجمين . والآن صار من الممكن تبين شخوص متفرقة تتراكض . تراجعت النقاط الامامية للحمر الى الخنادق وهي تطلق النار . واستعدت جبهة قرى كاتشاليق كلها ، وكانت تحيط بالقيمة المحترقة مثل حذوة حصان معوجة . هتف تليغين :
— اها ! اتخذوا وضع الاستلقـــاء . عصبيون لم يتحملوا الموقف . هؤلاء الاوغاد ! انظر ، انظر الى المطوف تستلقي . . . ايفان ستيبانوفيتش ، اذهب بحق الرب واخبر الجنود بلهجة اكثر جدية بالا يطلقوا النار . . . لا رصاصة واحدة بدون امر مني .
. . . .
هتف بايكوف بتخوف مقصود :
— يا للمغوض ! الحظيرة في اماكنها !
ونهض طاقم الحظيرة التابعة للمدفع الاول والمؤلفـة من بايكوف وزادوريفيتر وغاغين وانيسيا المساعدة ووقف كل واحد في مكانه . ظهر ايفـــان غورا من وراء حائط طيني لكوخ محترق تتبعه اغرببينا على بعد خطوة وراءه . سارا نحو المفرزة التي كانت تغطي البطارية . اخذ ايفان غورا يتحدث الى الجنود الحمر . بينما وقفت اغرببينا الى جانبه متوترة كالسوط حاملة مسدسا في يدها المسبلة .
وترامى صوت ايفان غورا الدافق :
— . . . لا تطلقوا رصاصة واحدة بدون امر خاص ، ايها الرفاق . احذركم من ان المخالفة تعني رمي المخالف في مكانه . . .
هز بايكوف لحيته المبيضة من قطرات المطر :
— يا اخوان ، اياكم من هذه الفتاة حاملة المسدس ، فانها ترمي دون ان يرف لها جفن . . .
اجابت انيسيا :
— لماذا تضحك منها ؟ اغرببينا رفيقة اصيلة . . .

تحول ايفان غورا الى الحظيرة بادى الجد حتى ان طاقمها قد جمد . وسارت اغرببينا خطوة بخطوة وراء زوجها ، وكانها مربوطة به . كان المدفع الاول يقف فوق تركيب غريب من الواح متصلة بعضها ببعض وعجلات عربات ، وحوله تناثرت مناشير وفؤوس وقطع من الخشب . نظر ايفان غورا الى هذه الغرابة ، ورمشت جفونه وسأل :
— ما هذا ؟
اجاب بايكوف :
— من اختراعنا ، ايها الرفيق المفوض ، شبيه ببرج سفينة دائر .
— وما الغرض من عجلات العربات ؟
— لتدوير المدفع بسرعة . ابتكار حاذق . . .
— هكذا اذن — وواصل ايفان غورا سيره واغرببينا وراءه . اشار بايكوف اليها بحاجبه قائلا :
— انا وهي في فرقة مسرحية واحدة ، يا رفاق . انا لا اخاف من المفوض ، ولكن اخاف منها . . . عيناها مستديرتان كعيني الفارة ، وخاليتان من الرافة . . . آه ، يـــا نسوان ، لاى شيء القاتل ؟

— اوصلتها له ، يا داريا ديمتريفنا . . . لم يسمحوا لي بالدخول الى الطاحونة . . . هز راسه لي من الاعلى وقال : «احقا ان داشينكا نفسها قد صنعتها ؟» قلت «بنفسها ، ولكن الفطائر باردة مع الاسف . . .» فقال : «انا احب الفطائر الباردة اكثر . . . اشكر لها الف قبلة . . .»
— كل هذا من اختراعك .
— والله ، لا . . . هل سمعت بما حدث ؟ . . . صاحبنا ايفانوف — القصد الطبيب — استولى عليه الخوف ، كالطفل ، حتى اصيب بقيء واسهال . . . واغتاظ المفوض قائلا «اعصابه تحتاج الى تقوية !» وامر بخلع ملابسه وصب الماء عليه عند البئر . . .

اسمعي زعيقه ، انهم يصبون عليه الدلو الثالث . . . شيء مضحك ! انا ايضا جبان ، يا داريا ديميتريفنا . . .

كانت داشا تذرع الغرفة من النافذة الى الباب وكأنها في قفص . وقد صلت مواد التضميد ، وفاحت في جو الغرفة رائحة الفينول واليودوفورم . وكان كوزما كوزميتش يحوم حولها :

– تعلق بي حلم ما بقتاً يراودني كل ليلة تقريبا . احلم بان في يدي بندقية وقلبي يخفق كالخرقة ، وانا اطلق النار . اضغط على الزناد بكل قوتي ، وكأنني اضع كل نفسي في هذه البندقية الملعونة ... ولكن البندقية لا تطلق ، والزناد يتحرك ببطء شديد ، ويخرج من فوهة البندقية دخان باهت . والشخص الذي اطلق عليه النار بلا وجه ، او لا استطيع رؤية وجهه ابدا ، وهو يتحرك ويتسع . . اوه ! فظاعة ! . . .

– لِمَ هذا السكون ؟

سألت داشا وطقطقت باصابعها ، وتوقفت بالقرب من النافذة . . . بدأت بواكير المساء تهبط ، وخمدت نيران الحرائق ، ولم تعد تسمع الانفجارات وصفير القذائف الممزق للاعصاب ، وسكتت طلقات البنادق . تقدمت صفوف القوزاق زاحفة ، واوشكت على محاصرة الضيعة كليا . ابتعدت داشا عن النافذة وعادت تذرع الغرفة قائلة سيكون ثمة جرحى كثيرون ، فكيف سنعالج الامر ؟

– المفوض سيرسل افريسنا ، وتلك مساعدة كبيرة ، وطلبت منه انيسيا ايضا وقلت له «ان مكانها ليس الى جانب المدفع . ومناسبة محض ان تكون الى جانب المدفع . . . .» . . . لنعد الى حديثي ، ما رأيك في حلمي ؟

– قل الصدق ! هل ايفان ايليتش سالم ؟ وكل شيء بخير ؟

– اخرج رأسه لي من ثغرة في السقف ، والابتسامة تملأ وجهه . وهو على ثقة مطلقة في النصر . . .

– آها !

وهزت داشا رأسها . كان يجب ان تجبر نفسها على عدم التفكير في هذه الآلاف من الرجال الزاحفين كالوحوش . فانها لا تفهم في ذلك ، على اية حال . . . وبذلت قصارى جهدها لتحول

فكرها ، وكأنها تجر غولا خرافيا مربوطا بحبل ، الى هذه الاشياء هنا ، الموضوعة على المنضدة ، الى الضمادات والقناني والادوات الجراحية . . . اليود قليل ، وذلك شيء مريع ! واطاعها فكرها بسلاسة ، ولكنه سرعان ما انسل الى هناك ، دون ان تلحظه ، وكأنما من خلال كوة غير منظورة ، موسعا عينيه كبحيرتين . . . آه ، ما حاجة هؤلاء الناس الملحة الى ان يقتلوا كل الابرياء ، كل الطيبين ، كل المحبوبين ؟ اي شيء يمكن ان يكون اكثر فظاعة في الانسان من الكراهية ؟ وقد احدثت الكراهية بداشا وضايقتها منظرة متصلبة لتغرز فيها حربة متمسكها باصابعها المرتعشة . . . .

– لا ، هذه وقاحة صرف . نعم – قالت داشا ذلك ، وروعت النظرة الوحشية من عينيها المتسعتين كوزما كوزميتش – لماذا تنظر اليّ ؟ انا اشعر بالغثيان مثل طبيبنا تماما . . . لا استطيع تحمل الكراهية ... الانني تربيت على الرقة ؟ وليكن ذلك . . .

واخذت تنقل القناني واللفائف من مكان الى آخر بلا هدف :

– ثم انا لا افهم : لماذا بدأت تقص عليّ مثل هذا الحلم ؟ . . .

– آها ، داريا ديميتريفنا . الحلم تحقق . . . هناك كراهية مطهرة كالحب . . . كراهية كنجمة الصباح على جبين عال . . . وهناك كراهية راسخة في الاحشاء ، وحشية ، متحجرة . . وهي التي يجب ان نتخلص منها . . . وانا ايضا قد خفت منها في عام ١٩١٤ . . . يقال ان بعض الروس كانوا في خارج البلاد حين اعلنت التعبئة ، فهرعوا الى آخر قطار . . جباة العربات الالمان يصفقون الابواب على ايدي الاطفال الصغار ... اما حلمي ، الذي لا اجد في نفسي الرغبة لاقصه على المفوض او على اي شخص آخر غيرك ، وفي مثل هذه اللحظة ، فيعني انني عاجز ، وان رحلتي على الارض قد انتهت – وتنشج فجأة – بندقيتي لا تطلق النار ، بل تنفس فقط .

– انا اكرههم ! – صرخت داشا فجأة ، واخذت تضرب صدرها باصابعها المضمومة الاطراف – لقد شاهدتهم وانا اعرف

تلك الوجوه : عيون قتلة محترفين ، ووجنات عليها بثور العرامة وذقون غائصة ... اوغاد ! . . متبلدو الاحساس ، جهلاء ... ومثل هؤلاء لا مكان لهم تحت الشمس ! . .

— اعذرني ، اعذرني ، داريا ديميتريفنا . من الافضل ان ترى هل غلى الماء في المرجل ؟

ذهبت داشا الى النافذة مسرعة . في المســـاء الرمادي كان الجنود الحمر يمرون راكضين منحنين وقد وضعوا بنادقهم في تأهب للهجوم . بل ولمحت وجوههم المتوترة الى حد التقشف . تعثـــر احدهم وكاد يسقط الا انه شمر لذراعيه ليوازن نفسه ، ومــر راكضا ، ثم التفت مكشرا عن اسنانه .

. . . .

ارتفع صاروخ فوق السهب ، ونثر اضواء خضراء ساطعـــة اضاءت لدى سقوطها البطيء الظهور الرمادية المضغوطة في الخنادق . وشخوص القوزاق الناهضة على مسافة قريبة لا تتجاوز مائتي ذراع . كان شخص يجري بينهم وهو يدير سيفه فوق راســــه . انطفأت الاضواء . وفي لحظة الظلام الدامس بدا هتاف ظل يتعالى كريـــح الزوبعة : «هوررررا !»

خلع تليغين قبعته ، ومرر كفه على شعره المبتل . لقد تم كل ما كان من الممكن التفكير فيه والتنبؤ به وانجازه . والآن بدأت المعركة النفسية . كان العدو اقوى باربع مرات ، في الغالب الظن ، اذا ما اخذت بعين الاعتبار تجمعات احتياطياته التي كانــت تلوح بالكاد من خلال المنظار .

طلع ايفان ايليتش حتى كتفيه من ثغرة في السطح وهو يراقب الوضع ، وفجأة طوقت الضيعة بنيران الطلقات . ودار كل شيء في عيني ايفان ايليتش ... تجمعت زمر من الرجال هنا وهناك في الخنادق . . . اخذ يبحث عن قبعته مفكرا «من الاسف ان تضيع مثل هذه القبعة ! . .» هبط الى الاسفل على الفور ، ونزل مـــن الرابية الى الخنادق .

ارتد هجوم القوزاق الاول في كل مكان تقريبا وبالقرب مــن دكان الحدادة فقط كانت المعركة مشتدة ، كما توقع ايفان ايليتش ، فقد نشب هناك اشتباك ، وتعالت صيحات وحشيـــة ، وتفجرت

قنابل يدوية . وصل راكضا الى حائط السقيفة الطيني ، حيث كان يوجد الاحتياط . ولكنه لم يجد احدا ، فان المحاربين الحمـــر لم يضبطوا انفسهم ، وتصرفوا من تلقاء انفسهم ، وانطلقـــوا الى دكان الحداد لتقديم العون . كما هرع الى هناك ايفان غورا في عدو وئيد منحنيا تحت ثقل كيس من القنابل اليدوية . . .

هتف ايفان ايليتش :

— يا مفوض ! ما هذا ؟ فوضى ! لا يجوز ذلك !

لم يلتفت ايفان غورا اليه الا بالله الصارم الطالع من تحت الكيس . . . وبعد خطوتين رأى ايفان ايليتش داشا تدخـــل الرابية وهي تسند محاربا يقفز على رجل واحدة . توقف ايفان ايليتش ، ورفع يده المنفرجة الاصابع وقال «اها . . . هذا ما جئت من اجله . . .» واستدار وعاد راكضا الى البطارية .

— هل كل شيء على ما يرام في البطارية ؟

— كاحسن ما يكون الحال . مرحبا ، يا ايفان ايليتش .

— ايها الرفاق ، اطلقوا قذائف الشرابنيل على الاحتياطيين !

صعد ايفان ايليتش على سطح قريب ، والعرق المنظار على عينيه . كان الاحتياطيون الذين لاحظهم قبل حين من الطاحونـــة يقتربون بكتل متراصة . صاح من السطح :

— نار سريعة !

اخذت قذائف الشرابنيل تنفجر واحدة تلو الاخرى في عتمة السماء الرصاصية . تماوجت صفوف المهاجمين ، ولكنها واصلت تقدمها . وظلت قذائف الشرابنيل تنفجـــر فوق الرؤوس اوطأ فاوطأ ، الا ان الصفوف ظلت تتقدم . ارتفع صاروخ ، وتدلى كالافعى ، كالرؤوس النارية فوق صفوف الجنود الصغار كجنود اللعب القصديرية ليضيء عظمهم الماثور وكأنه يقول لهم مشجعا «تقدموا الآن ، يا اخوان ، زاحفين على عظام البلاشفة . . .» وما كاد الصاروخ ينطفئ حتى ارتفعت الى اليمين في الشرق ثلاثة صواريخ متتالية وهبطت كاضواء حمراء كمذرة منحوسة شاملـــة السماء كلها . وصاح تليغين :

— اجيبوا بثلاثة صواريخ حمراء متتالية !

في عتمة المساء سار رجال بوديوني في قاع وهدة مسطحة ، ووثبوا على الجناح الايسر للمهاجمين مباغتة وبقوة شديدة مزقت صفوف القوزاق المشاة واكتسحتها في برهة قصيرة من الزمن ، وبدأ الشيء الرهيب الذي يخشاه المشاة لدى التقائهم بالخيالة ، والذي لا منجى منه ، وهو الطعن في الراكضين . وكانت اضواء الصواريخ المنطلقة من القبيعة تضيء السهب حيث لا مكان ينجي من الموت بتصيل صافر . القى الرجال اسلحتهم وهم يركضون ، وغطوا رؤوسهم بايديهم . وكان الظل الاسود للفرس وراكبه يلحق بهم ، ويقف الفارس البوديوني على الركاب مرنا ويميل جانبا ، ويطعن بكل سعة كتفه فيتدحرج جسم القوزاقي تحت حوافـــر حصانه .

ولما رأى بوديوني ان قوات القوزاق قد دحرت في كـــل الميدان وهي تولي هاربة اوقف فرسه ، ورفع سيفه صائحـــا : «الى !» واستدار مع خمسين فارسا اقبلوا عليه ، وانطلق نحو القبيعة . كان حصانه سريع العدو . اندفع سيميون ميخائيلوفيتش بوديوني على فرسه دافعا جذعه الى الوراء على السرج ، مرخيا يده الممسكة بالسيف قرب الركاب لتستريح ، وقد انزل على عليائه قبعته الفضية اللون من فراء الاغنام لكي تطري الريح وجهه العرق ، وتتخلل شاربيه بحرية . وكان الفرسان الذين ينطلقون وراءه مضطرين الى همز خيولهم للحاق به . ساروا على حافة البركة التي كانت نجوم الصواريخ الساقطة تنعكس على البقع المتحررة من الثلج فيها . فر بعض الناس مبتعدين عن الفرسان ، وانبطحوا على الارض . لم يلق سيميون بوديوني بالا اليهم ، واشار بسيفه الى دكان الحدادة ، حيث ما يزال القتال ناشبا بين القوزاق ورجال كاتشالين . فكان هذا الجانب او ذاك يهجم بالسيوف مرة بعد اخرى ، ثـــم يتراجع ويستلقي على الارض .

انتشر فرسان بوديوني الخمسون كالمروحة واطلقوا العنان لخيولهم ، وعيونهم مصوبة نحو القبيعة الفضية اللـــــون الفائرة امامهم ، واندفعوا من التلة عند البركة مهاجمين القوزاق المشاة ، وما من صلية رشاشة ، ولا انهمار رصاص ، ولا حراب مصوبة كانت في وسعها ان توقف اندفاع الخيول الناخرة من شدة الجهد .

واعملوا الطعن في كل من وقع في ايديهم ، ولم يوقف سيميـــون بوديوني فرسه الا في شارع القبيعة .

اسرع تليغين للقائه . لم يجبه سيميـــــون ميخائيلوفيتش بوديوني راسا . بل مسح نصل سيفه بمنديل ، ورمى المنديل على الارض ، واعاد السيف الكبير ذا المقبض النحـــاسي الى غمده ، ورفع كفا مستقيمة الى صدغه بالتحية وقال :

— مرحبا ، ايها الرفيق . مع من اتكلم ؟ مع آمر الفوج ؟ انا آمر اللواء بوديوني قائد الجماعة . آمرك بان تبقى سرية واحدة لحماية العربات والجرحى وان تتقدم بالوحدات الاخرى ومع المدفعية الى القرية فورا ، ونحتلها ، وننظفها من القوزاق البيض .

— سمعا ، وسينفذ الامر .

— لحظة ، يا رفيق . . .

ووثب من على صهوة حصانه ، وحشر كفه تحت حزام السرج ، وضرب باصابعه منخري الحصان الذي جاهد ليمسك بكمه ، وعاد الى ايفان ايليتش :

— هل الخسائر كثيرة ؟

— ليست كبيرة .

— هذا شيء جيد . اذن كان في امكانكم ان تصمدوا بقواكم الخاصة وبدوننا ؟

— نعم ، كان في امكاننا ان نصمد . فان الذخيرة كافية .

— هذا شيء جيد . يمكنك ان تنصرف .

— زالت الآلام في منطقـــــة البطن تماما ، يا انيسيـــا كونستانتينوفنا ، بل ولا احس ببطني . . . هذا سوء تركيب . . ان عضوا مهما للغاية كالبطن يترك مكشوفا بلا حماية . . . الفـــرق السيف اقل من بوصة واحدة فاحدث مثل هذا التخريب . . . مثـــل هذا التخريب . . . . اعطيني شيئا من الماء . . .

كانت انيســا تجلس بالقرب منه متعبـــــة صامتة . وكان المستشفى الآن يحتل بيتا آجريا من طابقين في القرية . ولم يبق فيه غير الذين اصيبوا بجراح خفيفة والذين كان من الصعب نقلهم

من هنا . اما الآخرون فقد ارسلوا الى تساريتسين قبل عدة أيام . كان شاريغين يحتضر . وكان لا يريد ان يموت ويتأسف كثيراً لمفارقته الحياة . حتى ان انيسيا تعذبت معه أيضاً . وقد كفت عن السخرية عنه . واكتفت بالجلوس على مقربة من سريره . والاصغاء اليه .

نهضت انيسيا لتغرف قدح ماء من الجردل وتقدمه له ليشربه . كان وجهه ملتهباً وعيناه الكبيرتان الزرقاوان تتبعان انيسيا ولا تنصرفان عنها . وكانت هي ترتدي كما ترتدي النساء اي مريولا ابيض . وكان شعرها الذهبي الذي غالبا ما كان يحلم به قد ضفر في ضفيرة واحدة لفت حول رأسها . كان يخاف ان تنصرف فلا يبقى امامه الا ان يدفن رأسه تحت المخدة . ويمسك اسنانه . ويسمع الدم ينبض في صدغيه بلا انتظام . وكان يتحدث بلا انقطاع . وكانت افكاره تتوهج مثل فتيلة قنديل موشكة على الانطفاء — مرة تلعق الحوافي . ومرة ترتفع وتضيء بسطوع . ثم تخفت وترف .

— لم تكوني في ذلك الوقت جميلة . يا انيسيا كونستانتينوفنا . وكنت تبدين اكبر من عمرك بمرتين . . . تسندين خدك على يدك . وتنظرين دون ان تبصري شيئاً . فقد كانت غشاوة المصيبة تغطي على بصرك . . . مع ذلك فانا لست من المشفقين . فقد مسحت الشفقة من نفسي . . . المشفقون من الناس هم اكثرهم نيباً . يجب ان يشفق الانسان مرة في حياته . . . وكفى ! وينتهي الامر . . . يجب ان يوضع القلب على السندان . ويلقى على الجمر المتوهج . ومرة اخرى تحت المطرقة . . . على هذا النحو يجب ان يكون الكومسومولييون . . . عندما كنا على ظهر السفينة دعوت الى اجتماع سري . وقلت للرفاق انه لا يليق بالمقاتلين في سبيل الثورة ان يسكروا . . . عند ذلك بدأ لاتوغين الحديث حول غاسلات الاواني . . . آه . لاتوغين . لاتوغين ! . . . لا يليق هذا بك مطلقاً . يا انيسيا كونستانتينوفنا . . . الثورة اوقفتك على قدميك . فصرت تفتحين جمالا . ولكن ليس له . . . ان ذلك طريق مسدود . ويجب ان تطرح هذه المسألة وتناضل في سبيلها . . .

لعقت ذبالته حوافي الحياة . وقاست الظلام الدائم . وخفت . مرر شاريغين لسانه على شفتيه الجافتين . قربت انيسيا قدح الماء منه . وعاد يتكلم مرة اخرى :

— انا اعرف من اجل اي شيء اموت . ذلك لا يثير اي شك في نفسي . . . اود ان تتذكريني . . . انا من بتروغراد . من جزيرة فاسيليفسكي . . . كان ابي نجاراً . وقد تعلمت في المدرسة المهنية . وعملت معه . . . كان يسحج فاسحج معه . ويسحج فاسحج معه . وكلانا صامت لا يتكلم . . . وذهبت للعمل في مصنع البلطيق لبناء السفن . . . وهنا تكشف لي الشيء الرئيسي : لاي شيء انا موجود . . . وبدأت حمى الافكار . وعدم الاصطبار . وجذبني العلو . ولم تعد لي القوة على البقاء ساعة واحدة في الاسفل . . . ثم جاءت الحرب واستدعيت الى الاسطول . وصككت على اسناني داخل نفسي من الغيظ . كيف لا يمكن ان تفهمي . يا انيسيا كونستانتينوفنا التي رأيت انسانا حياً . ابتدعناه نحن . واكتسيناه . وصنعناه . . كيف نتركك تجوبين الارض ثانية منكسة الرأس ؟ . . . لمَ الثورة اذن ؟ لن يكون ذلك صحيحاً . . . يجب ان تكوني ممثلة . . . كنت كل مساء احوم حول هذه السقيفة واشاهد واسمع . . . «آه . بحق الرب . بحق الرحمة . . . انا مهجورة . مهجورة . . .» ستهتز الجبهات كلها بتمثيلك . . . ستنتهي الحرب الاهلية وتصبحين ممثلة عالمية . . . عليك ان تسيري في هذا الطريق . . . ولا تضعفي . . . انه سيغني لك . ولكن لا تصغي اليه . يا انيسيا كونستانتينوفنا . اود ان ابرهن لك انه لاحق لك في حياة شخصية . . . عزيزتي . . . لماذا اديرت رأسك ؟ سأستريح قليلا . واجمع افكاري . فانني اريد ان اقول شيئاً آخر . . . فقد اغفلت دليلا مهماً . . .

وتقلب رأسه على الوسادة . ثم هدأ وصمت صمتاً طويلا حتى ان انيسيا انحنت قريباً منه . كانت مقلتاه لا تلوحان من خلال جفنيه نصف المسبلين . ثم يهتز قلب انيسيا لاحاديثه . بل تتقلب عينيه في جزع . وصار مفهوما لها كل ما جاهد ليعبر لها عنه بكلماته الحارة المشوشة . في اغلب الظن ان طفليها الصغيرين قد لاداها على هذا النحو آنذاك . وقد انزعتهما النار التي تلظت في

كومة الدريس حولهما ، حيث كانا يجلسان متقاربين . ولم تكن اليسيا حتى هذا الحين تسترجع في ذاكرتها وجهيهما الطفوليين خاللة من ذلك . وها هي الآن تراهما يطوفان في عين خيالها كالاحياء ، بتروشكا في سنه الرابعة ، والصغيـــرة انيوتا . وكلاهما ذو شعر جعد وخدين ممتلئين وفـم ضاحك ، وانف صغيـر . . . والآن هذا هو الثالث قد ناداها . وسترعه ، وترافقــه حتى نهاية حياته .

اخذت اليسيا تمسد بنعومة شعره المتلبـــد . اختلجت رموشه ، ورات بقعا زرقاء تنتشر على صدغيه .

١٤

كان القائد العام دينيكين يلعب في مســاء كل جمعـــة لعبة الورق «الفينت» مع يكاترينا الكسييفنا كفاشنينا قريبته البعيدة من ناحية امه . وكانت لعبة «الفينت» هذه قد بدأت منذ العقـــد الاخير من القرن الماضي ، حيث كان انتون ايفانوفيتش يدرس في الاكاديمية ، ويستأجر غرفة في شقة يكاترينا الكسييفنا الحسنة الترتيب – على الذوق البطرسبورغي – الواقعة في الطابق الارضي في الشارع الخامس في جزيرة فاسيليفسكي . ولم يبق على قيد الحياة من اللاعبين الاربعة في ذلك الحين الا هو وهي ، وقد التقاهما الزمن العصيب في يكاترينودار ، حيث اصبح انتون ايفانوفيتش ، بارادة الله ، على راس قوات البيض المسلحة ، بينما كانت يكاتريـنــا الكسييفنا التي هربت من بتروغراد في بداية عام ١٩١٨ تعيش عيشة متواضعة في هذه البلدة مع ابنتها التي كان اسمها ايضـــا يكاترينا الكسييفنا ، الصغرى .

وقد عرض عليها القائد العام غير مرة تحت هذا العذر او ذاك ان يمدها بالعون ، الا انها كانت ترد قائلة «الافضل الا يكون هذا بيننا ، يا انتون ايفانوفيتش ، فان الفلوس تضيع الصداقة» . وكانت تعيل نفسها بتصحيح مسودات مطبوعات وكالة الاستعلامات في بيتها ، كما انها كانت تحتفظ هي وابنتها ببعض الاشياء الثمينة الصغيرة لليوم الاسود .

وكان مساء الجمعة مقدســـا ، ولم يكن احد ، حتى الجنرال لعبة «الفينت» التقليدية . ففي الساعة الثامنة مساء كانت عربة رومانوفسكي رئيس الاركان ، يجرؤ على انتزاع القائد العام من يجرها حصان واحد ولها ظليلة جلدية مرفوعة تقف امام بوابة بيت خشبي صغير متواضع في الجزء السهبي البعيد من البلدة . ويأمر القائد العام الحوذي الملتحي الذي يعلق على صدره نياشين القديس جيورجي ، بان يعود لياخذه عند منتصف الليل ، ويدخل البوابة بخطوات خافتة ويصعد الى مقدمة البيت الصغيرة ، حيث يبدو الباب وكانه ينفتح له من تلقاء نفســه .

وكان المخبرون الذين يرسلهم رئيس الاستخبارات كـــل جمعة الى هنا يحاولون الا يقع بصر القائد العام عليهم . كان احدهم يجلس على سقف البيت مختفيا وراء مدخنة الموقد ، والثاني وراء شجرة الحور الهرمية في الجانب الآخر من الشارع ، واثنان آخران وراء القاذورات في الفناء . وكان دينيكين كرجل عسكري لا يطيق المخبرين . وذات مرة ، والورق في يديه ، روى هذه القصة عـــن القيصر الراحل نيقولاي الثاني بخصوص هذه الضرورة المؤسفة . كان هذا القيصر يهوى النزهات المنفردة في المتنزه في تسارسكويه سيلو . وكان المخبرون قد بثوا منذ الصباح وراء احواض الزهور والاجمات على طول الدروب التي يمكن ان يسلكها القيصر . وفي فصل الشتاء كان الثلج يتساقط فيحجب الرؤية عنهم . وذات مرة بينما كان القيصر يتمشى سمع وراءه صوتا يهمس مكتوما : «الرقم السابع مر» واغتاظ نيقولا غيظا بالغا لان المخبرين سموه «السابع» فطرد رئيس البوليس السري ، وبعد ذلك صار يسمى «الرقـــم الاول» .

وكان دينيكين يدخل الرواق الصغير المضاء بشمعة وينزع كالوشيه الجلديين بعقبيهما المزطرين بالبرنز ، ويخلع بنفســـه دائما وبدون معونة احد معطفه العسكري الجوخ العريض ببطانتــه القرمزية ، ويصفف شعره الشائب المسرح الى الخلف بلمعتـــه الرصاصية ، ويتقدم لينحني على يد يكاترينا الكسييفنا . ويأخذ بين يديه يد ابنتها الصغيرة النحيلة الجميلة ، ويربت عليهمـــا بلطف ، ويتوجه بتحية مقتضبة ناعمة : «مرحبا ، ايها السادة» الى

اللاعبين الآخرين وهما مرافقـــه الامير لوبانوف-روستوفسكى ، وفاسيلى فاسيليفيتش ستروبه الرئيس السابق لقسم فى احدى الوزارات ، وهو رجل عجوز لطيف المعشر من بطرسبورغ .

وفى غرفة الاستقبال تكون الطاولة قد اعدت ، ووضعت عليها شمعتان ، وصف الورق بشكل مروحة على الجوخ الاخضر ، وحتى قطع الطباشير والمماسح المستديرة كانت تقليديـــة كتلك التى كانت فى الاعوام المثيرة فى جزيرة فاسيليفسكى .

وكانت يكاترينا الكسييفنا البادية المرح دائمـــا ، القصيرة القامة جدا ، الممتلئة بافراط فى الجزء الاسفل من جذعها تقبـــل متهادية نحو الطاولة بثوبها الاسود الملبوس كثيرا ، ووجههـــا المستدير ضاحك ، وفمها الكبير يهمس بلطافة ، وكان الكرسى القديم المعوج يصرف تحتها دائما من جراء تململها ، وكانت تضع تحته مصطبة صغيرة لتضع قدميها عليها . وقبل سحب الورقة التى تحدد شريكها فى اللعب كانت تخمن ، وفى كل مرة كان يصادف ان يكون القائد العام شريكها . وكانت تصفق مرحة امام انفها :

— ها قد حزرت ، كما رايتم ، ايها السادة . . . كانيا ، شريكى فى اللعب انتون ايفانوفيتش مرة اخرى . . .

فيقول فاسيلى فاسيليفيتش بصوت كئيب :

— ممتاز !

ويجلس مختارا لنفسه طبشورة وممسحة .

وفاسيلى فاسيليفيتش بارد الدم ملم بكل شىء ، شكوكى حاضر البديهة ذو وجه نحيل صارم بدا عليه الهرم المبكر ، وكان منافسا خطرا للغاية فى لعبة «الفينت» يعامل هذه اللعبة بلياقـــة صارمة مثل جميع البطربورغيين . وعاد يقول :

— ممتاز ، كما قال مستشار حكومى وهو يتخلى عن اوراقه الرابحة .

وتاخذ اصابعه الناعمة باظافرها الصدئيـــة بتمشيط الورق بسرعة .

وكان اللاعب الرابع ، الامير لوباتوف روستوفسكى ، رغم شبابه ، شغوفا بالفينت ايضا . وكانت واجباته كمرافق لقائد عام تقتصر على ذلك وعلى بعض المهمات الشخصية . وكان هناك اشخاص

آخرون من نمط حديث يقومون بالاعمال التنفيذية . وكان الامير ، مثل جميع آل لوبانوف روستوفسكى ، قبيحا له جمجمة مستطيلة صلعاء ، وجبهة ضخمة وقسمات وجه لا تلفت النظر . وكان الامير رفيع التهذيب ، اذا انفلتنا نقيصة وحيدة ، وهى دفع رجليـــه الطويلتين تحت الطاولة كما لو كان متضايقا من امتلاء مثانته . ولم يحدث قط ان اعرب عن رايه ، واذا سئل عن شىء اجاب ببلاهة غير متوقعة ، لانه كان يدرك جيدا انهم لن يتوجهوا اليه بامر جدى ، وكان خدوما . وفى هذا الصيف ، وقبل ان يجرح ويعطـــى ابدى شجاعة فى المعارك .

كانوا يلعبون وكانهم يادون طقوسا . وكانوا لا يتطرقون الى السياسة او الحرب فى تلك الساعـــات التى يقضونهـــا فى هذا البيت . فكان لا يسمع غير «ديناري . . . كوبه . . . من غير ورقة رابحة ، اثنتان من غير ورقة رابحة» . فرفعت الشمعة ، وارسلت الدخان سيكارة موضوعة على حافة منفضة زجاجية . واخيرا :

— اذن ، هل تستسلم ، يا يكاترينا الكسييفنا ؟

— مؤسف ، آه ، مؤسف ، يا انتون ايفانوفيتش . . .

وكانت يكاترينا الكسييفنا الابنة جالسة فى الغرفة على اريكة صغيرة مغلفة بقماش البلش ، تحوك وتبتسم دون ان ترفع رأسها . . . كان وجهها وعيناها ، وشعرها بلا لون ، وكان فى الحناءة جيدها الرقيق ، وفى يديها الجميلتين ظما الى الحنان لا ينبل . كانـــت يكاترينا الكسييفنا الصغيرة سريعة التعرض للحب ، فى عامهـــا السادس والعشرين ، وكانت كل علاقاتها العاطفية تنتهى نهايـــة محزنة ، احدهم جاء يودعها على عجل ، ويرحل الى الجبهة ، والثانى بوغتت بان له عشيقة ، وقد اعلن عن ذلك دون شفقة وهى الآن والعـــة فى غرام لوبانوف-روستوفسكى الدميـــم ، واللطيف مع ذلك .

وكان يغازلها مازحا ، وكان ذلك يسر القائد العام الذى كان يعامل يكاترينا الصغيرة معاملة الابنة تقريبا . وكانت تحلم على الطريقة القديمة بان ينسى الامير علبة سيكائره وفى صباح اليوم التالى ، وبغياب يكاترينا الكسييفنا الام ، يظهر امام شباك البيت راكبا فرسه ، ويدخل البيت ، ويحييها صافقا مهمازيه (وهى فى فستان

سوفى اسود ذى ياقة بيضاء وكفتين بيضاوتين فى طرفى الكمين) ، وبعثلر ، وتجمد احدى نكاته على شفتيه قبل ان يكملها ، ويتلوص فى وجهها ، وبنهم . ويدخلان غرفة الاستقبال ، والانفعال يعتمل فى نفسيهما . . . وفجأة يمسك عضد ذراعها ، ويجذبها اليه ، ويقول بادى الانفعال «لم اعرفك ، لم اعرفك ، انت مختلفة تماما ، انت شذية الرائحة . . .» وبهذه الكلمة كان تحليق خيالها ينقطع . كانت يكاترينا الكسييفنا تحوك وتبتسم دون ان ترفع عينيها الى الامير الجالس بين الشمعتين . كان يكفيها ان يكون موجـــودا فى الغرفة . وانها تشم رائحة تبغه الطيب . . .

كان ذلك هو العالم الصغير المقتطع من روسيا القديمة ، والذى كان القائد العام يستريح فيه ايام الجمع من المتاعـــب الثقيلة .

اليوم جاء القائد العام متأخرا خلافا لعادته ، وقد بدا عليه الاستغراق وشىء من الذهول . وبينما كان يخلـــع كالوشيه وطأ رجل قطة كانت تحوم عند قدميه . وزعقت القطة بصوت كريه . اختطفها لوبانوف-روستوفسكى ، وحملها الى المطبخ . ضحكـــت يكاترينا الكسييفنا الام . وقال فاسيلى فاسيليفيتش «توجد قطط لا تطاق» . وانتظر الجميع ان يدخل دينيكين غرفة الاستقبال . الا انه علق معطفه غارقا فى افكاره ، وظل واقفا ، جاذبا شعر لحيته الشبيهة بالاسفين فى شكلها . عندئذ بدا الجد على جميع الوجوه . واستمر الصمت المقلق حتى جاء الامير واعلن ان القطة فى حالـــة جيدة . قال دينيكين :

— اها . . . هذا حسن . . . دعونا لا نضيع الوقت .

ولعب اسوأ من المعتاد ، ملقيا الورقات التى لا ينبغـــى القاؤها ، متلفتا طوال الوقت نحو النوافذ رغم انها كانت مغلقـــة بالصفاقات . نهضت يكاترينا الكسييفنا الصغيرة بهدوء ، والقت معطفها على كتفيها ، وخرجت الى الفناء لتتأكد من ان الحراس فى اماكنهم . اصطكت اسنان المخبر الذى كان جالسا على السطح وراء المدخنة حيث كانت الريح اللاذعة تصفر ، والى الاعلى كان الهلال الكدر يغوص فى السحب كالمجنون ثم يظهر ، وصاح المخبر :

— ايتها الآنسة ، اجلبى لى شيئا من الفودكا بحق الرب . .

وفى حوالى العاشرة وصلت سيارة . وضع القائد العام اوراقه ، ولمعت عيناه المجهدتان . دخـــل الجنرال رومانوفسكى طويلا مورد الخدين متشامخا يرتدى معطفا من معاطف الضباط وقد اسدل على صدره طرفا قلنسوته القوزاقيـــة . خلع الجنرال قبعته ، وضرب مهمازيه بطريقة جافة ، وانحنى انحناءة عامـــة للجميع :

— انتون ايفانوفيتش ، جئت لآخذك .

— اذن ، فقد حصل ؟

— بالضبط ، يا انتون ايفانوفيتش .

اسرع دينيكين يقول :

— ساعود ، يا سادة ، فاعذرونى ، فانهـــا الظروف — وفى الرواق لم يستطع ان يدخل يده فى كم معطفـــه الا بعد محاولات — اهل ، يا اميـــر ، عنـــا ، والعب بعض الوقت . . . اذن ، لا اتوادع معك ، يا يكاترينا الكسييفنا . . .

عاد اللاعبون الى الطاولة ، ولكن رغبتهم فى اللعب قد زالت . تنهدت يكاترينا الكسييفنا الام تنهيدة مكبوتـــة . عقد فاسيلى فاسيليفيتش حاجبيه الكثيفين ، ورســـم على المفرش الجوخ بالطباشير مشانق صغيرة وعفاريت . وجلس الامير على الاريكة قرب يكاترينا الكسييفنا الابنة ، فتألقت ، وتركت حياكتها . بدأ الامير ، وهو يهز ساقه ، يحدثها بانه اكتشف هنا قارئة بخت مدهشة ، ويود ان يأتى بها الى انتون ايفانوفيتش .

— انها تأخذ شعرة من راسك وتحرقها من الشمعة فيظهر الزبد من فمها . . . .

— ماذا تنبأت لك ؟

— تنبأت بسفر على الحصان ، وباننى ساجرح ثلاث مرات ، ولكن كل شىء سينتهى بزفاف . .

وحرك رجليه ، وتمايل وكان احدا كان يهزه من وراء كتفه ، واخذ يغص بالضحك . توردت رقبة يكاترينا الرقيقـــة واذناها ، وقالت يكاترينا الكسييفنا الام ، وهى تمسح عينيها :

— كل شىء مقلق حقا ، واعصاب الجميع متوترة . . . يـــا الهى ، لم نتصور قط اننا سنكون بهذه الحال . . .

— نعم ، نعم ، كنا نتصور الدليل — اجاب فاسيلى فاسيليفيتش . ورسم فأسا ومقصلة — روسيا بلاد عجيبة . . .

ووفى القائد العام بوعده ، فحين دقت الساعة الانجليزية الصغيرة بعلبتها دقا خفيفا معلنة الحادية عشرة برزت السيارة خلف النوافذ ، وعاد انتون ايفانوفيتش دينيكين يخلع كالوشيه ، ويقول :

— كنت اعرف ، يا يكاترينا الكسييفنا انك قد هيأت اليوم ديكا روميا مع الكستناء . . . اذن ، ارجو ايها الامير العزيز ان تخرج من سيارتى زجاجة شمبانيا . .

كان بادى الحيوية ، يفرك يديه ، الا انه رفض اقتراح اكمال اللعبة ، «اتركوها ، انا ويكاترينا الكسييفنا سنستسلم مقدما ، منقذين شرفنا فقط» . بل وتناول سيكارة من علبة سيكائر فاسيلى فاسيليفيتش الذهبية ، وشرع يدخن . وهذا شىء لم يحدث معه قط . واستعجلوا فى اعداد العشاء ، ودخل الجميع غرفة الطعام الصغيرة ، حيث كانت شمعتان تضىء بضوء رقيق ، وعلى الطريقة القديمة ، اوراق الحيطان الرخيصة . وعلى المائدة صفت اوان مثلمة عليها معجون اللحم والمشهيات . وكان الشىء الوحيد المفقود هو سمك الجلكى مع صلصة الخردل ، وهو الطبق المفضل لدى انتون ايفانوفيتش . كما لم تكن ايضا الطمأنينة المعتادة ، حين كان اللاعبون بعد انتهاء اللعب يتحلقون حول المائدة متابعين الجدل «اؤكد لك انه كان عليك ان تلقى البستونى . . .» او «يا سيدتى كنت اعرف ان فى يديه آسا وملكا وملكة بينما كنت تضربين قدمى من تحت الطاولة . . .»

احس الامير ببعض التوتر فلفت الانتباه اليه بشهامة اذ اخذ يتكلم عن بواب فى بطرسبورغ كان يملك قوة غامضة لمعالجة وجع الاسنان ، والحروق والالتهاب الجلدى ، وبالمناسبة ، انه تنبأ بالحرب الالمانية ، وهو ينظر فى صحن فيه ترسبات القهوة . ولم يكن ذكر الحرب فى محله تماما . فاسرع فاسيلى فاسيليفيتش فى تناول القارورة ، وصب الفودكا قائلا :

— يتعين علينا ان نشرب نخب الا تحرم روسيا من البوابين المدهشين . . .

وفى ذلك الوقت جلب الديك الرومى . القى القائد العام ظهره على المقعد ، وراقب ببصر حاد دخول هذا الطبق ، ووضعه على المائدة بين الاوانى المتزاحمة ، وقد تصاعد البخار منه الى ضوئى الشمعتين فتمايلا تمايلا خفيفا .

قال القائد العام واقتطع لنفسه الجناح :

— فى روسيا فقط توجد مثل هذه الديك الرومية .

نهض الامير ، وفتح زجاجة الشمبانيا دون ان يحدث صوتا ، وصبها فى اقداح الشاى . خلع انتون ايفانوفيتش فوطة الطعام من وراء ياقته ببطء ، وتناول القدح ، ونهض ممسكا بمقعده ، وقال :

— ايها السادة ، لا استطيع ان امنع نفسى من اخباركم باخبار سارة . . . بان القوات الفرنسية قد نزلت صباح اليوم فى اوديسا ، واحتلت القوات اليونانية خيرسون ونيكولاييف . ان معونة الحلفاء التى انتظرناها طويلا قد جاءت اخيرا . . .

فى يكاترينودار هبطت طائرة انجليزية نزل منها رجل غريب جدا حتى ان الدوائر الحاكمة وذات النفوذ لم تعرف ماذا تعتبره : أهو عميل سرى لكليمانصو ، او مجرد مغامر ، او ربما شخصية خطيرة الشأن . وكان اسم عائلته فرنسيا : جيرو ، واسمه بيتر بتروفيتش ، وكان يتكلم الروسية بلهجة جنوبية ، وبطلاقة ، ويحمل جواز سفر اوروغوانيا ، رغم ان هذه الحقيقة لم تكن تشير الى قوميته ، بقدر ما تشير الى قدرته على التغلغل بدهاء . وكان قد جاء من باريس على ظهر باخرة افرغت فى نوفوروسيسك حمولة من البنادق والذخيرة ومعدات اخرى . وكانت الوثائق التى قدمها لأمر المدينة العسكرى فى غاية الضبط ، وهى رسائل توصية من نواب فى البرلمان ، ورسالة من وزير الشؤون الكنسية ، ورسالة اخرى من كونتيسة فرنسية يصعب تلفظ اسمها ، وبطاقة صحفية من جريدة «لو بتى باريزان» واخيرا عروض عملية من دوائر مختلفة اخذت فى ذلك الوقت تطلع كالمطر على الاحتياطات الضخمة من كل اصناف البضائع والحمولات السريعة التلف المورودة الى فرنسا من كل انحاء العالم .

وجد القائمون بالامر انفسهم امام حقيقة واقعة مهما قلبوا الفكر : فهذا رجل قادم من باريس الى يكاترينودار النائية التى ما تزال تحتفظ بآثار معارك آذار والصيف ، وكأنه نازل من السماء ، رجل انيق اللباس ، اوروبى بكامل قيافته ، فى سترة قصيرة لها ياقة من فراء القنديان الامريكى ، ولفاح زاهى الالوان يغطى صدره كله ، يحمل حقيبتين جديدتين ، وآلة تصوير معلقة على كتفه . وكان ينتعل حذاء اصفر بديعا ذا تعليق سميكين بارزين لم يستطع حتى الامر نفسه ان ينتزع بصره عنه ، فكيف بجمهور الناس فى الشوارع ، حيث سار بيتر بيتروفيتش جيرو وراء قوزاقى يحمل حقيبتيه رافعا رأسه بقبعته الرمادية الفاتحة المسالة بأناقة .

انزلوا هذا الاجنبى فى احسن فندق ، وفى غرفة «البوكس» بعد ان افرغوها من المسافر المضارب باكريكاكى وفتاته . وفى اليوم التالى قام جيرو بزيارة الجنرال دينيكين .

اضطرب انتون ايفانوفيتش دينيكين ، وارسل اليه الجنرال رومانوفسكى الى غرفة الاستقبال معتذرا بان القائد العام قد المت به وعكة خفيفة ولكنه سعيد من وجود ضيف بارز فى بلدته .

فذهب جيرو لزيارة البروفيسور كولوغريفوف احد اساطين دوما الدولة ، والذى يحيط دينيكين هنا بجو الافكار السياسية تحت اسم «المجمع الوطنى» . وكان البروفيسور كولوغريفوف يعرف باريس جيدا ، ويحبها فابقى جيرو العزيز عدة ساعات متذكرا بنشوة الغداءات فى المطاعم الصغيرة والترفيهات الليلية فى مونمارتر . وتذكر رائحة البولفارات ، وعلى الرغم من بطنه المترهل ولحيته الشعثاء الكثة فقد لاحت على وجهه بشاشة فتية .

— شير أمى* هذا لا يحتاج الى القول . ثم تلك الرائحة الفريدة الخاصة بالنساء الفرنسيات ! . . . انا مستعد ان اقبل الاحجار فى شوارع باريس . نعم ، نعم ، وارجو الا يبدو ذلك غريبا لك ، فانك واجد فى كل روسى وطنيا متحمسا لفرنسا . . . وهذا ما يجب ان تكتب عنه ! . .

---

* يا صديقى العزيز — كما تنطق بالفرنسية . (المترجم) .

وتقرر جمع حلقة محددة من ممثلى «المجمع الوطنى» فى بيت احد الافراد ، والاستماع اثناء الفطور الى ما يتحدث به السيد جيرو عن السياسة الدولية .

— شير آمى ! — هتف البروفيسور كولوغريفوف وهو يلوى ازرار سترة الضيف علامة على الالفة — انك ستجد اناسا ادركوا قبلكم فى اوروبا الخطر المريع لآلة قرم اللحم الحمراء . . ان البلشفية هى حقد الطبقات الواطئة المخرب لكل شىء ، وضراوة حثالات البشرية . . . انكم تزدون انحناءة الاحترام الى الاشتراكية ، ولا يسلم من ذلك حتى احسنكم واكثركم ذكاء . هراء ! وابتذال ! توجد اشتراكية ، ولكن لا يوجد اشتراكيون ، لان الاشتراكية غير قابلة للتحقيق . . . وستثبت لكم ذلك ! وروسيا مدعوة بارادة التاريخ الى ان تكون حاجزا ستتحطم عليه الموجات الابدية الفوضوية . وبهذا تدفع لذلك جلودنا ، ونعطى الامكانية لتطور عادى للحضارة الاوروبية . . . ومن اجل ذلك ، من اجل انقاذ اوروبا والعالم اجمع من الشبح الاحمر نبسط لكم ايدينا ، فمدوا لنا يد المساعدة . . . نحن مستعدون للقيام بأية تنازلات ، فان روسيا تتحمل كل تضحية . . . وهذا ما يجب ان تكتب عنه . . .

وافتقد الفطور كثيرا من التفاصيل ، فلم يكن فى يكاترينودار شىء من الاطعمة الرهيفة الملائق ، لا شىء غير شحم الخنزير المقدد والوز ولحم الخنزير ، وانت لا تستطيع ان تطعم الباريسى لقم العجين واللحم ! واقترح فون ليزه عضو «المجمع الوطنى» والمعروف بذوقه الرهيف قائمة طعام تتألف من حساء اللحم والفطائر ، وطبق مثلوث من سمك البربوط بالنبيذ الاحمر ، وطبق ثالث ، هو دجاجة مسلوقة فى مثانة خنزير بدون اية قطرة من الماء . وحصلوا على نبيذ جيد عن طريق المضارب بابريكاكى . وفى تمام الساعة الواحدة اجتمع ستة اشخاص من ضمنهم بيتر بيتروفيتش جيرو فى شقة شرلغين عضو دوما الدولة ومحرر وناشر صحيفة «رودنايا زيمليا» . وكان الفطور رهيفا حقا . وحين قدمت القهوة المصنوعة من الشعير المحمص ، اخذ جيرو يدلى ببياناته :

— سأمدكم ببعض الكلمات عن باريس ، ايها السادة . . . انتم على معرفة جيدة بها . كان الاجانب يتركون فيها كل عام اكثر

من اربعة مليارات فرنك ذهبا . فلا عجب ان تدير الرؤوس الابخرة المتصاعدة من شوارعها ، ومن ذلك رؤوس الحالمين الناظرين الى سيول السيارات اللامعة من علو نوافذ المليات . والآن ، واسفاه ، لا وجود للحالمين في باريس ، فان جثثهم تتفسخ ملوثة الهواء على نهر سوم ، وفي شمبانيا ، وفي فردين . لم تعد باريس مدينة المرح ، حيث يرقص الناس في الشوارع ، ويقهقهون بكل حناجرهم على لحية الملك ليوبولد ، او على غراميات الغراندوق الروسي الفاشلة . ان باريس وفرنسا قد فقدتا مليونا ونصف مليون رجل صرعوا في الحرب . وباريس مملوءة بالصبيان الذين يحترفون اللواط . وعلى سطيحات المقاهي لا يجلس الا الشيوخ الكئيبون الذين لا يثيرون الاهتمام حتى بين المومسات ممن يتقاضين للخلوة بهن عشرين فرنكا . وتسير سيارات الاجرة التي بعجت في مارنه مترقعة على الارصفة المهشمة . وما يزال الجنود الامريكيون المرمون كالخيول المستريحة يقبلون في المطاعم والمقاهي الفاخرة . النساء ! اوه ، النساء دائما في المقدمة . قطعن فساتينهن الى حد الركبة والغين الملابس الداخلية .

اصوات حول المائدة :

– اوضح اكثر ، ارجوك .

– في المساء تخرج النساء الى المسرح والمطعم متغطيات من الخارج فقط بما لا وزن له ، وبعبارة ادق ان فساتينهن ليست الا قطعتين ضيقتين من القماش ربطت بهما تنورة قصيرة . . وكل رشاقتهن في سيقانهن العارية ، وسيقان الباريسيات فاتنة . فما الحاجة الى الملابس الداخلية ، اذن ؟ اللعنة ! لقد تحملنا الحرمانات في الخنادق من اجل شيء ما . ولكن كل هذه الاشياء تراقه . ان باريس اليوم هي المدينة المنتصرة ، وهي كئيبة ، شوارعها غير مكنوسة جيدا ، الا انها مشحونة كلها بالاحاديث المقلقة ذات الوجهين . كسبت باريس الحرب العالمية ، وهي تستعد لتكسب الثورة المضادة على مستوى العالم .

قال ثلاثة ممن حول المائدة «برافو» بصوت خافت . وامتنع الرابع عن التعليق لانه كان مشغولا بصنع كرة من فتات الخبز .

اما الخامس فهز كتفا واحدة بحركة غامضة الحقها بابتسامة غامضة ايضا .

– باريس اليوم مغارة نمر هائج . وكليمانصو متعطش للانتقام . وقبل ان يعقد الصلح – وهذا لا يحدث قريبا – ستعاني المانيا جميع اهوال حصار الجوع . وستقلع انيابها وتقلم اظفارها الى الابد . وقد قال كليمانصو في حديث شخصي له «سأقتل لدى الالمان حتى الامل في ان يصبحوا اكثر من بلاد بلا مقام . وكمية البازلاء والبطاطس التي يملكونها لا تقيهم الا من الموت جوعا» . ولكن كليمانصو ، ايها السادة ، كان قبل خمسين عاما يعاني من ذل الرعب امام كومونة باريس الى جانب ذل العار في سيدان . وذات مرة ، في حفلة فطور للصحفيين استغرق في الذكريات ، وتحدث عن الاثر الذي خلفته في نفسه رؤيته لقطع عمود الامبراطور العظيم المقلوب في ساحة فاندوم . وكان الكومونيون قد اطاحوا بهذا العمود بمعونة عدد كبير من الحبال والرافعات . فقال «لم يقلقني التهديم بل الفكرة التي حمست العمال الفرنسيين للقيام بذلك . ان خطرا مميتا يزحف على الحضارة . وفي الامكان ابعاده ولكنه سيعود ، وسيعود في اليوم الذي يوضع فيه السلاح في يد الشعب . وسيكون ذلك يوم ثأرنا لسيدان . يوما سيتعين علينا فيه ان نحارب في جبهتين» . ايها السادة ، لقد تبين ان كليمانصو كان على حق . الى باريس يعود المسرحون من الجيش . وقد مروا بفظائع فردن وسوم ، واقامة المتاريس والقتال في الشوارع بالنسبة لهم مجرد تسلية . انهم في كل الحانات يجمعون حولهم المستمعين ويصرخون بانهم قد خدعوا . فالذين حاربوا تسلموا اشرطة ونياشين وسيقانا اصطناعية ، اما الذين حاربوا من اجلهم فقد كسبوا المليارات من النقود الصافية . . . . والبرجوازيون الذين دمرهم التضخم النقدي يقرعون الانخاب مع المتطرفين . وضواحي باريس مضطربة . والمصانع معطلة ، وقوات حامية باريس يشوبها الغموض . وفي المانيا فوضى الثورة ولا يكاد الاشتراكيون الديمقراطيون يتحملون ضغطها . وهنغاريا ستعلن السوفييتات ان لم يكن اليوم فغدا . . . وانجلترا تعاني من شلل الاضرابات ، وحكومة لويد جورج تجاهد فقط لان تسوق المركب بين الصخور

على الجانبين ، وانظار الجميع مصوبة نحو كليمانصو ، فهو وحده يدرك ان الضربة القاضية على ثورة اوربا كلها يجب ان توجه فى بلادكم ، فى موسكو . ان الصيادين الايطاليين حين يخرجـــون الاخطبوط من الشبكة يقرضون بالاسنان مثانته الهوائية فترتخى اطرافه بمصاصاتها المنطبعة عاجزة عن الحركة . . .

تشعشت شعور الجالسين حول المائدة ، وعرقت نظاراتهم فخلعوها . وحين توقف جيرو ليقضم نهاية سيغار جديد انهالت الاسئلة عليه :

– كم فرقة فرنسية ارسلت الى اوديسا ؟

– هل ينوى الفرنسيون التوغل فى عمق البلاد ؟

– هل يعرفون فى باريس عن الاخفاقات الاخيرة فى هجوم كراسنوف على تساريتسين ؟ وهل ستقدم المساعدة لكراسنوف ؟

– هل تم تقسيم مناطق النفوذ فى روسيا ؟ وبالمناسبة هل ينوى ان يساعد بشكل جدى جيش المتطوعين ؟

اطلق جيرو دخانا ازرق بجلده :

– ايها السادة ، انتم تسالوننى وكأننى كليمانصو نفسه . انا صحفى ، وقد ابدت عدة صحف اهتماما بالمسالة الروسية ، فارسلتنى اليكم . ان مسالة المساعدة المباشرة بالقوات تتعقد . ولويد جورج لا يريد ان يثير الاعصاب بلا فائدة . فلو ارسل الى نوفوروسيسك مجرد كتيبتين من المشاة الانجليز فانـــه سيخسر دوزينتين من الاصوات فى الانتخابات التكميلية الى البرلمـــان . ومعلوماتى الاخيرة هى كالآتى : اسرع لويد جورج بالسفر الى باريس على طائرة ، مفضلا هذه الطريقة فى التنقل جوا لاحتمال وقوع انفجار فى البحر لان المانش قد امتلأ مرة اخـــرى بالالغام العائمة بسبب العواصف ، وقبل ايام لليلـــة اعرب فى مجلس العشرة عن الافكار التالية : ان الامل فى انهيار سريع للحكومـــة البلشفية لم يتحقق ، وهناك معلومات تقول ان البلاشفة اقوى الآن من اى وقت مضى ، وان نفوذهم بين الشعب قد قوى ، وحتى الفلاحون ينحازون الى جانب البلاشفة . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان روسيا البلشفية قد عادت الى حدودها الطبيعية فى زمن دولة موسكو – سوزدال فى القرن الخامس عشر وانها لا تشكل خطـــرا

جديا على احد فانه ينبغى ان يقترح على حكومة موسكو ان ترسل من يمثلها الى باريس ، ليمثل امام مجلس العشرة على غرار ما فعلت الامبراطورية الرومانية حين استدعت زعماء المقاطعات البعيـــدة الخاضعة لروما ليقدم هؤلاء تقارير عن اعمالهم . . . هذا هو ، ايها السادة ، وضعنا فى الغرب . . . هل لديكم اسئلة اخرى ؟ . .

وبعد عدة ايام من هذا الطور (والذى ادخله البروفيســـور كولوغريفوف فى الحوليات) اعلن الآمر العسكرى فى تقريره للقائد العام :

– مقابل فندق «سافوى» تماما ، يا صاحب السيادة ، فتح محل مشتريات لا يقبل الا الذهب والماس ، ويدفع لقاءها اثمانا عالية للغاية من عملة الدون . . . ونوعية النقود مشكوك فيها ، لان الاوراق النقدية جديدة . . .

قال دينيكين غاضبا ، وهو ينظر فى الواح الطبعة التجريبية للنشرات العسكرية :

– انت تشك دائما ، يا جنرال فيتاليفيتش ، ها انت مرة اخرى جلدت يهوديا دون علمى ، بينما ظهر انه لم يكن يهوديا على الاطلاق ، بل صاحب اراض من مقاطعة اورال . . . بين سكان هذه المقاطعة يوجد اناس شعرهم اسود ، بل وحتى من اهم شبه بالغجر . . . آه ، يا لك ! . .

– اعتذر ، يا صاحب السيادة ، حصل التباس . . . لنعد الى محل المشتريات هذا – الترخيص مسجل باسم المضارب بابريكاكى من سكان يكاتيرينوسلاف ، بينما اتضح لنا ان صاحبه الحقيقى الذى وظف فيه راسمالا مشكوكا فى قيمته هو (وهنا انحنى الآمر الانحناءة التى تسمح بها ممنطقتـــه) الفرنسى بيير بيتروفيتش جيرو . . .

القى دينيكين الالواح على الطاولة :

اسمع ، ايها العقيد ، لعلك تريد ان تفسد علاقتنا بفرنســا بسبب صغائر ، بسبب سلاسل وخواتم صغيرة ! وماذا فعلت ايضا مع هذا المحل ؟

– ختمت على القاصة . . .

– اسرع على الفور ، وفض الختم ، واعتذر . . . بحيث . . .

— حسنا .

وسار الأمر على اطراف اصابعه ، وغاب بكرشه وراء الباب . وبعد ذلك ظل القائد العام ينقر باصابعه على المنشورات العسكرية وقتا طويلا وشارباه الاشيبان يرتعشان .

— شعب ماكر !

قال ذلك ، ولم يكن واضحا اى شعب يقصد به : شعبه ام الشعب الفرنسى . . .

١٥

فى ضيعة بروخلادنى كانت فى انتظار فاديـــم بيتروفيتش روتشين خيبة امل جديدة . رأى الباب الخارجى للبيت الذى عاشت فيه كاتيا مع عائلة كراسيلنيكوف مفتوحا على مصراعيه ، وقد غطى الثلج النقى على آثار الاقدام كلها ، وتكوم على عتبة البيـــت المهجور كومة تقبتها قطرات الذوبان .

ولم يستطع احد ان يقول لفاديم بيتروفيتش روتشين الى اين رحل كراسيلنيكوف مع المواشى . لم ينفوا ان شخصا يدعى كراسيلنيكوف كان يعيش هنا ، ولكن لا احد يعرف من اين هو ، ولا القرية التى جاء منها ، فان ناسا كثيرين من شتى الاوزاع قــد جاءوا الى الاتمان ماخنو .

فى البيت رائحة موقد بارد ، وعلى الارض قاذورات ، وقــد تسرب الثلج من النافذة المحطمة . وعند الحائط تختان عاريان . ولم يبق من كاتيا الراحلة ولو مجرد ظل على الحيطان المقشرة . وبعد الجهود الكثيرة تقاطع طريقاهما ، ولكنه جاء متاخرا .

جلس فاديم بيتروفيتش على تخت قد صنع من الواح غير مسحوجة . ايا من التختين كان تخت الزوجية ، هذا او ذاك ؟ الكمس رجل جميل وقح . . . «بكيت موكفى . امسحى الآن عينيك» قال لها بلهجة غير فظة — فقد كان اذكى من ان يكون غليظا مع سيــدة محترمة — قال بمرح وبشكل قاطع . . . وهدأت القطيطـــــة ، واستجابت وخضعت . وبشىء من الخجل والاحتشام تركته يفعل بها كل ما يشتهى . . . وفى القلب الظن لم تقطع الحائط براسها !

التصقت به والتفت حوله مسلوبة الارادة وبلا عاطفـــة كما يلتف اللبلاب الشاحب ذو الازاهير المرة حول جذع شجرة . . .

دار فاديم بيتروفيتش فى البيت ، واطنا عليا لمارقـــة للمعلبات . تخيل فالت فاسق ، كذب ! — عاد فاديم يقول لنفسه — لا بد ان كاتيا صارت ، ولم تستسلم ، وبقيت وفية طاهرة ! انه لجبان ، ومبتذل ! ايظن انها ستظل نقية وفية اخلاصا لذكراه ؟ من الافضل ان تجيب : هل ستقتل الاثنين لو رايتهما على هذا التخت الصارف ؟ ام ستنظر اليهما من العتبة ، وترى عينى كاتيا ، عالمك المفقود ، وتقول : «اعذرانى . يبدو انتى زائد هنا . . .» وهذا هو امتحانك فى الالم . . تلك هى المحنة الرهيبة اخيرا . . . والآن لا تقدر ان تتحمل اكثر ؟ لا . تقدر . تقدر ! ستظل تبحث عن كاتيا . تبحث . وتبحث . . .

كان كاريتنيك ذو الوجه المعوج الذى يصاحب فاديم ينتظره فى العربة . خرج روتشين من باب البيت الخارجى ، وصعــد الى العربة ، ورفع ياقة معطفه محتميا من الريح . كان سائق ماخنو الشخصى وحارسه والصادع على الفور باوامره القصيرة . هو الذى يسوق العربة . كان رجلا طويلا صموتا يكنى بالاخرس العظيم . له وجه قد استطال جزؤه الاسفل ، وكانه منعكس على مرآة معكوفة . وقد ساق الخيول الاربعة بعنف شديد حتى ان الراكب لا يكاد يستقر فى جلسته متشبثا بكلا جانبى العربة .

قال كاريتنيك رافعا الكلفة وهو ينط ويتمايل ويتخبط فى العربة :

— كلى تكشيرا ، ايها الراس الاغبر . اذا امر الاتمان وجدنا زوجتك من تحت الارض . آه ، يا ربى ، كان ذلك شىء يقلق ! النساء مصبوغات من الخارج فقط ، ولكنهن من عجينة واحدة . بلاه . . . ابصق عليها . لن ترحل عنه . ملأ الكمس كراسيلنيكوف ثلاث عربات من الغنائم . . . كان فتى الضربة الاولى فى النهـــب والسلب ، ومن حسن حظه انه غادر فى الوقت المناسب . . .

ردد فاديم بيتروفيتش مع نفســـه ، وهو يدفن وجهه حتى حاجبيه فى ياقته المرفوعة : «انت تقدر ، تقدر ليست هذه الا بداية لمحنك . . .»

دخلت العربة فولاى – بوله منطلقة فى شارعها المرصوف بالحجارة دون ان تقلل من سرعتها . واوقف الاخرس العظيم الخيول الاربعة العرقة عند مقر القيادة . وكانوا يتوقعون روتشين هناك . وسرعان ما استدعى لمقابلة الاتمان . كان ماخنو يرأس اجتماعا للمجلس العسكرى الكبير فى غرفة صف غير مدفاة ، حيث كان امراء الوحدات يجلسون على المقاعد المدرسية الصغيرة باوضاع غير مريحة . وكان نستور ايفانوفيتش ماخنو فى سترة سوداء مشدودة بحزامين اصفرين متصالبين يسير امام المقاعد كالفهد . وكان وجهه وهو صاح ، يبدو اكثر تحولا . وكان يضع يديه وراء ظهره ممسكا باليمنى يده اليسرى المرتخية كالسوط . وبرهة من الوقت اوقف فاديم بيتروفيتش بنظرة حادة . وقال له بصوت نافذ :

– ستسافر الى يكاترينوسلاف . وتقدم التفويض الى اللجنة الثورية . وتراقب خطة الانتفاضة نيابة عن قيادتى . اذهب .

رفع روتشين يده الى قبعته بتحية قصيرة ، واستدار ، وخرج . وكان لوفكا زادوف ينتظره فى الممر .

– كل شىء على ما يرام . التفويض معى – وطوق كتفى فاديم بيتروفيتش ، وقاده فى الممر ، ودفعه بردفه الى احد الابواب – عليك ان تخلع معطفك . وساعدى لك معطفا آخر بطيات عند الخصر – ودون ان يرفع ذراعه عن كتفه فتح الباب بثلاثة مفاتيح – انه عائد لى شخصيا ، ومبطن بالفراء الفاخر . يجب ان تكسب صداقة ليفا . فمن يكن صديقا لليفا يكسب ورقة رابحة .

وادخل روتشين فى غرفة لها نفس الرائحة الحامضة الموجودة فى المركز الثقافى ، واستمر فى المفاخرة بنفسه وباشيائه المتناثرة فى ارجاء الغرفة ، وقدم لفاديم بيتروفيتش معطفا جيدا حقا سوى انه مثقب ببعض ثقوب الرصاص على الصدر والظهر . واندس تحت التخت وهو يلهث ليدفئه ، واخرج كومة القبعات واختار واحدة من فراء الحمل لها قمة قرمزية ، والقاها الى روتشين عبر الغرفة واثقا من ان هذا سيتلقفها وهى طائرة . ثم اخذته نوبة البذخ فاختطف من الحائط سيفا قفقاسيا مزينا بالفضة : «وليكن ذلك . تقلده ، انه عائد الى احد الفرسان . . .» ثم اخذ يهتم بنفسه . شد على كل من معصميه ساعة ذهبية بسوار – وحزم

سترته بحزام عليه مسدسان «موزر» وتقلد سيفا له غمد تساقطت قشرته ، بعد ان جرب حده باصبعه مقدما : «عذا . . . لعمل اليومى . .» وادخل رجليه فى كالوشين مطاطيين عاليين : «من يستطيع ان يقول انى لست فارسا ، على حد تعبير الناس فى اوديسا الام . . .» وفوق ذلك كله لبس فروة خروف : «التذهب ، ايها الهر الصغير ، سارافقك . . .»

واوصلهما الاخرس العظيم بعينه الى محطة القطار وقال لوفكا بحضوره ، وبحيث لا يسمعه هذا :

– انه رجل ذو قوة نادرة ، من المحكومين . هرب الاتمان معه من السجن القيصرى . كن حذرا معه . الوحش لا يحب ان ينظر الناس اليه طويلا . . حتى انا اخافه . .

وانشرح لوفكا فى العربة راضيا عن نفسه ، منشرحا متوردا .

– اسعدك الحظ ، يا روتشين ، اعجبتنى لسبب لا اعرفه .

. . انا احب الارستقراطيين . . . قبل ايام تعين على ان اقتل ثلاثة اخوة امراء من آل غوليتسين . . . تصرفوا بروعة . . .

طلب لوفكا ان يجلب الى مقصورة العربة بعض الكحول والاطعمة الخفيفة من بوفيه المحطة ، واستمرت نفس الاحاديث . خلع لوفكا فروته ، وفك حزامه . وقال وهو يقطع شرائح سميكة من شحم الخنزير :

– انا لا افهم ، لا افهم كيف لم تسمع بى من قبل . اوديسا حملتنى على الايدى . فى بحبوحة من الفلوس والنساء . . . كان الامر يقتضى قوة عملاقة كقوتى ، آه ، الشباب ! كل الجرائد كتبت : زادوف شاعر ساخر . آوه ، امن المعقول انك لا تذكر ؟ سيرة حياتى طريفة . انهيت المدرسة المتوسطة حاصلا على الميدالية الذهبية . ابى سائق عربة بسيط من بيريسيب . بينما وصلت انا الى ذروة المجد رأسا . هذا شىء مفهوم فأنا جميل بشكل الهى – لم يكن هذا الكرش موجودا – وجرىء ، ووقح ، ولى صوت فاخر ذو نبرة عالية . وسيل من المعانى الشعرية اللاذعة . ثم انسا التى ادخلت فى الموضة السترة القصيرة ، والاحذية الطويلة المصقولة بالورنيش : الفارس المتجول الروسى ! كانت

الملصقات تملأ جدران اوديسا كلها . . . ولم يبخل زادوف بشيء ، وكان يهب كل شيء بسهولة ! الفوضوية هي الحياة ! وانا منطلق في دوامة من الدم . فلا تعتصم بالصمت ، ايهـــا الهر الصغير ، وكن اكثر رقة مع لوفكا ، ام ما زلت غضبان ؟ احبني . الكثيرون يستمتع لونهم حين اتكلم معهم . . . والذي اكون له صديقا يصير وفيا لي حتى الموت . . . الناس يحبونني حبا جما .

كان فاديم بيتروفيتش يحس بدوار في راسه . فبعد الصدمة التي تلقاها في صباح اليوم لم يكن امامــــه الا ان ينبح كالكلب في برية على ضوء قمر شاحب . وكانت المهمة المفاجئة — الامــــر المقتضب الغامض — امتحانا جديدا لقواه . وكان يدرك ان ايـــة خطوة خاطئة او مشبوهة ستكلفه حياته . ومن اجل ذلك بعثــوا لوفكا معه . ما هذه اللجنة العسكرية الثورية التي يجب ان يلحب اليها لمراقبة الخطة ؟ وما هي خطة الانتفاضة هذه ؟ التفاضة من وضد من ؟ كان لوفكا يعرف ، بالطبع . حاول روتشين عدة مرات ان يوجه اليه اسئلة استدلالية . ولكن لوفكا اكتفى بان رفع حاجبيه الى الاعلى وجعله عينيه تبدوان كالزجاج ، وتابع ثرثرته ، وكانه لم يسمع شيئا ، واكل وتمطق ، دون ان يمسح شفتيه ، واحمر وفك ياقة قميصه المطرز .

احتسى فاديم بيتروفيتش قدحا من الكحول ايضـــا ، وراح يمضغ شحم الخنزير بلا تذوق . وكبت بكل قواه نفوره من هذا الرجل المرعب المضحك البغيض . . . فمثل هؤلاء لم يصادفهم حتى في الروايات التي قراها . وردد مع نفسه : «يا له من متباه ، منطلق في دوامة من الدم . . .» وسرى الكحول في دمه ، وارتخت الكماشات التي كانت تضغط على دماغه ، دخلت لامبالاة وانفة محل الامـــر الآلي تقريبا والعديم المفعول تقريبا «تقدم ، تقدم» .

وقال للوفكا :

— على كل حال ، كف عن التباله معي . لقد اعطاني الاتمان توجيها معينا ، وانا رجل عسكري ، ولا احب الالغاز فخبرني : ما اللجنـــة ؟

وتجمدت على فم لوفكا ابتسامته . وكانت يده المنتفخـــة بسلاماتها الكبيرة تتصل بالزجاجة فوق القدح :

— انصحك بان تقلل من اسئلتك وتقلل من استفهاماتك . فكل شيء قد نعلم .

— يعني انا لست موضع ثقة . . اذن ما الغاية ؟

— انا لا اثق باحد . . . وحتى بالاتمان لا اثق . . . هيـــا نشربه . .

وفتح لوفكا فمه حتى مست حافة القدح حد اسنانه السفلى ، وجرع الكحول ببطء . وفاحت من الكحول عفونة حلوة ، كرائحـــة لعم لبنيّ مع سكر . . . هز شعره الغزير المشبع بالكهربة ، واخذ يقتطع فخذ الدجاجة .

— لو كنت في مكانك لما قبلت هذه المهمة . ولا يهمك ان يكون الاتمان الآمر . . . فهو يحب ان يستغفل . ستقع في ورطة ، ايها الهر . . .

فرك روتشين وجهه براحتيه بقوة ، وضحك .

— انتصحني بان اتملص ؟ ربما اذهب الى دورة المياه ، واقفز من القطار ، وهو منطلق ؟ اعتقد نصيحتك ، كصديق ؟

— قلت لك ، وعليك ان تستخلص . . .

— تفاهة . . . أتظنني اخاف الموت ؟

— وما الداعي الى الظن اذا كنت انفذ من خلالك واراك دودة العلة . . . اخف اسنانك والا خلعتها . . . هيا ، صب قدحا . . .

زفر روتشين زفرة عميقة بعسر :

— اتعرفني ؟ لا ، يـــــا زادوف ، انت لا تعرفني . . . لو وضعت امام الحائط لترمى ، ايها الوغد ، لصرت تقبع قبــــاع الخنزير . . .

كان لوفكا يهم بنهش فخذ الدجاج فاطبـــق فمه بشدة حتى ارتطمت اسنانه السفلى بالعليا وارتخى وجهه العـــــرق . وقال بامتعاض !

— العكس هو الذي حصل حتى الآن . آخرون غيري قبعـــوا قباع الخنازير . . . العلك انت الذي تنوي القضاء عليّ ؟

— لو كنت وقعت في يدي قبل ثلاثة اشهر . . .

— لا تراوغ ، ايها الضابط الابيض ، واكمل جملتك .

— الا تنتظر ، ايها الجزار ؟ . .

– انا فى انتظار ، فاكمل . . .

وتكلما بعجالة . والآن كان كلاهما يتنفس تنفسا ثقيلا ، واقدامهما تحت التخت ، واحدهما يتفرس فى حدقتى الآخر متوترا ، ترقصت الشمعة ملتصقة على المنضدة الصغيرة المبسوطة ، واخذ الضوء يخفت . ولاحظ روتشين ان وجه لوفكا يربد ثم قال لوفكا له بصوت كامد الرنين :

– لنخرج الى الممر . . . لنخرج فى المقدمة .

– لا اخرج . . .

– هيا . .

– لا تأمر ، انا لن امتثل . . .

لم يبق الا بصيص ازرق فى نهاية الذبالة مثل نفس تحتضر على الموت . والظاهر ان لوفكا كان يدرك ان التدرق فى المقصورة الضيقة سيكون الى جانب روتشين المعروق الصغير اذا هاجم أحدهما الآخر فى الظلام . . . جار بصوت كصوت الثور :

– انهض . . . الى الممر !

سحب باب المقصورة ، ورف بصيص الشمعة ، والتهب . ودخل تشوغاى .

– مرحبا ، اخوان – وانفرج فمه عن ابتسامة ساخرة تحت شاربيه الصغيرين ، وتنقلت عينـــاه الجاحظتان من لوفكا الى روتشين – انا ابحث عنكما فى القطار كله .

وجلس الى جانب روتشين ومقابل لوفكا . وتناول الزجاجة الفارغة ، وهزّها ، وشمها ، ووضعها .

– ما سبب هذه الجهامة على وجهيكما ؟

– لم نتوافق بطبعينا .

قال لوفكا مشيحا وجهه عن نظرته الساخرة .

– وانت تصحبه على شاكلة مفوض ؟

– لست انا على شاكلة شىء ما ، بل اعلى . . ولكن لماذا تسأل ؟

– وهذا على الاكثر يقتضيك ان تفهـــم اى عمل مسؤول نصحب الرفيق اليه . اما الطبع فيجب ان تسيطر عليه . والآن ،

يا اخ ، اخرج من المقصورة ، فانا اريد ان اتكلـــم معه بدون حضورك .

كان تشوغاى يجلس متماسكا ، وذراعـــاه مطويتان على بطنه ، وفخذاه متباعدان ، وكان وجهه يبدو فى ضوء الشمعة ورديا وكأنه من فخار ، وكانت قبعته الصغيرة ذات الاشرطـــة تقف على عثنونه باعجوبة . انتظر بهدوء ان يتحمل لوفكا الاهانـــة ، ويخضع .

نخر لوفكا وعقا معصرا ونظر الى روتشين نظـــرة متوعدة ، ونهض صاخبا ، ولمع حذاؤه الطويل الصقيل عند الباب ، وخرج ، رد تشوغاى الباب :

– ما الذى جعلك فى غير وفاق معه ؟

– شىء تافه – قال روتشين – شربنا نحن الاثنان .

– جوابك صحيح . ولكن اريد ان اقول لك ، يا اخ ، انك قد دخلت تحت تصرفى ، فيجب ان تجيب عن كل سؤال اطرحه .

انتقل تشوغاى ليجلس قبالته ، وبالقرب من الشمعة نشر ربع صفحة من الورق موقع بتوقيع ماخنو ومطبوع على الآلة الكاتبة بحروف متلاصقة وباخطاء لغوية وبلا علامات ترقيم ، وقد ذكر فيه ان روتشين قد وضع تحت تصرف هيئة الاركان العسكرية الثورية لمنطقة يكاترينوسلاف .

– اهذا مقنع لك ؟ (هز روتشين رأسه) هذا شىء جيد . فسر لى : ما الذى جاء بك الى هذه الجماعة ؟

– اهذا استجواب تقتضيه الشكليات ؟

– نعم . . حزرت . لا يجوز وضع ثقتك فى شخص لا تعرفه ، ولا سيما فى امر مهم كهذا الامر . هل توافقنى على ذلك ؟ (هز روتشين رأسه) قمت ببعض التحريات عنك . . . ليس هناك شىء مطمئن : فانت عدو ، عدو لدود ، يا اخ .

تنهد روتشين ، والقى بظهره على التخت . كان ليل دامس كالابدية ينطلق وراء النافذة السوداء ، التى انعكس ضوء الشمع على زجاجها . واحس روتشين بطمأنينة ، وراح جسمه يهتز اهتزازا خفيفا . لقد بدأ استجوابه الثالث ، والاخير على ما يبدو ، والنهائى خلال فترة لا تتجاوز ثلاثة ايام تقضاها بلا نوم تقريبا . ومهما يكن من شىء

فاى حقيقة كان فى وسعه ان يقولها عن نفسه ؟ قصة معقدة مشربكة عن انسان قذفه اناس مجهولون خارج بيته القديم الذى ولد فيه ، وخارج شارعه ، ومملكته . ولكن اهذا الذى حصل ؟ اليس هو الذى امسك نفسه من تلابيبها ، وقذفها فى القمامة ؟ ما الذى اخافه على وجه التحديد ؟ وما الذى كرهه على وجه التحديد ؟ وهل كان بيته القديم ومملكته المريحة القديمة ضروريين حقا لسعادته ؟ اوليس هما شبحين من صنع خياله المريض ؟ ولو ينبش ذاكرته لن يجد فى افعاله خلال هذا العام شيئا معقولا ومبررا ، فى هذه المقصورة لا توجد محكمة فيها هيئة محلفين ومحام دفاع رائع يهز ناصيـــة شعره الرومانطيقية . فقد كان عليه ان يقوم – وجها لوجه – بشىء مستحيل تقريبا : ان يقول الحقيقة ، لا عن افعاله كانسان صغير ، فان ذلك غير مهـــم ، وليس لهـــا شـــان فى هذا الحديث ، بل عن نفسه كانسان كبير . . . انه هنا المتهم والحاكـــم فى آن واحد . . . كما ليس مهما الاستنتاج العمل من هذا الحديث اذا كان الامر قد مس هذا الانسان الكبير .

قال تشوغاى :

– ما بالك تغمغم . تكلم بصوت مسموع .

– لا ، انا لست عدوا . فان ذلك زيادة فى التبسيط – قال روتشين ضاغطا علياه على متكا التخت – ان للعدو هدفا ، ولؤما وسوء طوية . . اريد ان اسالك . . . .

– هيا .

– هل انا لازم لكم كاخصائى عسكرى ؟

صمت تشوغاى برهة متفحصا وجهه بظلاله العميقة والتجاويف فى خديه .

– ولكن كيف ستجيب انت عن السؤال ؟

– اظن اننى لازم ، وعلى الاخص لكم ، لا للالمان .

– من الافضل ان تخاطبنى بالمفرد ، فذلك يسهل الكلام .

– حسنا ، سافعل .

– زعم الالمان انهم جندوك فى صفوف جيش المتطوعين ، ولكنك لوضرى صادق ، وملائم من حيث المنشا ايضا .

– كل ذلك كذب . . . منشئى غير ملائم مطلقا . كما اننى

انضممت الى جيش المتطوعين بمحض ارادتى ، وغادرته بمحض ارادتى .

– هل صرت تشعر بالعار ؟

– لا . . . ولكن لماذا تلقننى ؟ لا تحسبنى احاول التشبث بقشة ، فانا فى الحضيض منذ زمان . . . حبذا لو يؤمن الانسان بالتكفير عن الخطايا الثقيلة ! . . . ولكن حتى هذه السلوى لا املكها . . .

– هل قمت باعمال منكرة كثيرة ؟

– كان ، كان . . . طوال حياتى طالبت نفسى بالصفاء ، ولكن صفائى لم يكن صافيا . . . كل شىء كذلك ، فـــقد تقلبت ظهرا على بطن ، وصار من الابيض اسود .

– اروِ لى سيرتك ، يا اخ ، حسب الاصول .

– تخرجت فى جامعة بطرسبورغ . . . حقوقيا . . . آه ، انت تريد ان تعرف المنشا . . . كنت صاحب اطيان ، من اصحاب الاطيان الصغار . . . بعد وفاة والدتى بعت آخر ما تبقى مـــن الميراث : البيت ، والبستان والقبور وراء السياج ، وتركـــت الخوخ . . . ثم ماذا بعد . . . كنت ليبراليا ، مثل جميع الذين لهم شىء من التعقل (وغضن فاديم بيتروفيتش وجهه باشمئزاز) وطبيعى اننى كنت اتعاطف مع الثورة المقبلة ، وحتى فى زمن الاضرابات ، عام ١٩١٢ ، على ما يبدو لى ، فتحت نافذة التهويـــة وصرخت بكوكبة مارة من خيالة البوليس : «جزاوون ، جلاوزة . . .» وبهذا او نحوه كان ينحصر نشاطى الثورى . . . ولم تكن بى حاجة الى الاستعجال ، فقد كنت احيا حياة لذيذة . . . (وفى هذه المرة اهتز نشاربا تشوغاى) لا ، لاتتعجل احتقارى . . . فانا اتحدث بصدق ، فانا على الاقل لم ارفع فى الحفلات كاس الشمبانيا لاشرب نخـــب الشعب الروسى المعذب . وفى عام ١٩١٧ كدت اجن فى الجبهة خجلا وعارا . وقد قضيت عامين ونصفا فى الخنادق دون ان اعلن عن نفسى . ولم البس ملابس داخلية حريرية لاتقى القمل .

– جدارة .

– لاتسخر . فلاداعى لذلك . . . (وغضن فاديم بيتروفيتش جبينه ، وخددت وجهه النحيل ظلال عميقة) والآن اجبنى : ما هو

الوطن بالنسبة لك ؟ يوم حزيرانى فى الطفولة ، وازيز النحل فى زيزفون ، وانت تحس بالسعادة تنصب فيك كجداول من العسل . . . والسماء الروسية فوق الارض الروسية . . وهل من المعقول اننى لم احب ذلك ؟ امن المعقول اننى لم احب الملايين من ذوى المعاطف العسكرية الرمادية تنزل من القطارات ، وتسير الى خط النار للقاء الموت ؟ . . . لقد عقدت اتفاقا مع الموت ، ولم احسب اننـــى ساعود من الحرب حيا . . . الوطن كان انا نفسى ، انسانا كبيرا ابيا . . فظهر انه لم يكن ذلك ، بل شيئا آخر . . . انه الآخرون . اجبنى : ما هو الوطن ؟ ما هو بالنسبة لك ؟ اراك صامتا . . . انا اعرف ماذا ستقول . . ان الناس يسألون عن ذلك مرة واحدة فى الحياة ، وذلك اذا فقدوه . . . آه ، انا لم افقد شقـــة فى بطرسبورغ ، ولا مستقبل كمحام . . . بل فقدت فى نفسى الانسان الكبير ، بينما لا اريد ان اكون انسانا صغيرا . . يمكنك ان تطلق النار علىّ لو رايـــت ارتباكا ولو فى كلمـــة واحدة من كلماتـــى . . . وتصرف ذوو المعاطف الرماديـــة على طريقتهم الخاصة . . . فماذا تبقى لى ؟ لقد كرهتهم ! . . واطبقت على دماغى كماشة من رصاص . لا ينضم الى جيش المتطوعين غير الانتقاميين والشناوات المسعورين المتعطشين للدم «من اجل القيصر ، من اجل الوطن ، من اجل العقيدة ترفع اصواتنا هورا . .» فننطلق بعربة غجرية الى مطعم «يار» لناكل فطائر السمك . . .

— انت ، يا اخ ، كمكة متهيئة للدخـــول الى فرن — قال تشوغاى ، وبدا المرح فى النظرة المجهدة لعينيه الجاحظتين — نحنة ان تتحدث مع مثقفين ! من اين لك هذه الشربكة الدماغية ؟ انتم ، على اية حال ، روس ، اذكياء على ما يبدو . . اذن فهى التربيـــة البرجوازية . انت الذى ضيعت نفسك ! انت لا تعرف حتى هل انت موجود ام لا . . آه ، ايها الدينيكيون ! سليتنى . . . . كيف سنتفق انا وانت ؟ هل تريد ان تعمل لا من اجل ان تبقى فى الحياة ، بل ليرضى ضميرك ؟

— ساعمل ، اذا كنت تضع المسألة بهذا الشكل .

— بدون رغبة ؟

— قلت ساعمل ، اذن ساعمل .

تناول تشوغاى الزجاجة الفارغة ثانية ، ورجها ، ونظر تحت الطاولة المبسوطة ، ورمى ببصره الى الشبكة التى توضع عليها الحقائب .

— لندع صاحبك ابن الكلبة ذاك — وفتح الباب ونادى — يا مفوض ، اين اخفيت الكحول ؟ — وغمز لروتشين غمزة ذات معنى — لا تتساهل معه ، واذا حدث اى شىء صوب المسدس اليه . انه اسوأ رجل لدى الائتمان .

نزل روتشين وتشوغاى ولوفكا الذى انتفخ بالشرب خلال الليل الى المحطة الاخيرة قبل الجسر . كان الضباب الطالع من الدنيبر يغطى يكاتربناسلاف فى الجانب الآخر من النهـــر . كان الثلاثة متكمشين من البرد الرطب صامتين . واخيرا تحرك القطار وذهب عبر الجسر ومصدات عرباته تصطدم احداها بالاخرى . ظهرت على الرصيف المصنوع من الواح مصفوفة امراة ملفوفة بمنديل صوفى لا يبدو منها غير عينيها السريعتى الحركة . مرت بالواقفين ثم عادت ثانية ، ثم ثالثة وهى تباطىء سيرها . قال تشوغـــاى وهو لا يوجه كلامه اليها ، بل غفلا :

— ترى اين يمكن ان نشرب الشاى ؟

توقفت المراة فى الحال واجابت :

— يمكن ان اجلبه لكم ، ولكن لا يوجد سكر .

— عندنا سكر لا .

عندئذ ازاحت المنديل الصوفى عن وجهها ، وبدا وجهها حلو القسمات بشكل مذهل ، فتيا له غمازة على الخد المدور ، وفم صغير بارز الشفتين .

— من اين انتم ، يا رفاق ؟

اجاب لوفكا بغضب :

— ما هذا السؤال ، من اين انتم ؟ قفى عنـــد حدك ، ولا تتآمرى ! دلينا على الطريق .

رفعت الفتاة حاجبيها دهشة ، الا ان تشوغاى قال لها «انهم نفس الاشخاص الذين تريد ان تستقبلهم» . فخرجت من رصيف القطار وقادتهم عبر دروب وقفت على جانبيها عربات محطمة عديدة . ولم يصادفهم كائن حى فى طريقهم عبر منبسطات الفرملة ، وتحت

العربات حتى وصلوا الى عربة بضاعـــة . طرقت الفتـــاة ، ونادت :

– هذا انا ، ماروسيا . اتيت بهم .

سحب شخصا باب العربة بحذر ، واطل وجه ناحل صـــارم شاحب ذو عينين سوداوين كفحم الانتراسيت . قال الرجـــل بخفوت :

– ادخلوا بسرعة ، فانتم تدعون البرد ينفذ الى الداخل .

انسل الثلاثة ورائهم ماروسيا الى العربة . جذب الرجل شقى الباب سوية . كان الدفء يشيع فى العربة من موقد حديدى محمى ، وكان الضوء المرفرف فى علبة قديمة لطلاء الاحذية يلقى اضاءة باهتة على وجه صارم القسمات هو وجه رئيس اللجنة العسكرية الثورية ، وعلى شخصين غير واضحين فى نهاية العربة .

عرض تشوبغاى التفويض ، كما ان لوفكا اخرج ورقة صغيرة . جلس الرئيس القرفصاء قرب الضوء ، وظل يقرا وقتا طويلا . ثم قال وهو ينهض :

– حسنا . هذه الليلة الثالثة ونحن فى انتظاركم . اجلسوا

– ونظر بمؤخر عينه الى حذاء لوفكا الطويل الصقيل – الاتمان ماخنو لا يبدو مستعجلا .

بادر لوفكا بالجلوس على المقعد الوحيد عند منضدة مـــن الواح خشبية . واتخذ تشوبغاى مجلسه على كتلة خشبية ، وتراجع روتشين واتكأ على جدار العربة . هذا اذن مقر اركان البلاشفة . . . عربة فارغة ، ووجوه صارمة تبدو من سحناتها انها وجوه عمال سكك حديد متوجسين .

تكلم الرئيس بصوت متوازن :

– نحن مستعدون . والشعب متحفز . ويجب ان نبدا على الفور . . . وهناك معلومات تقـــول ان البتلوريين قد تشمموا شيئا ، لقد انزلوا فى المدينة يوم امس مدفعية ثقيلة . وهـــم ينتظرون قوات من كييف . لا يوجد خونة بيننا ، ولهذا يمكن ان تكون المعلومات متسربة من غولاى-بوليه فقط .

قال لوفكا بلهجة متوعدة :

– اياك ، اياك . . فكر فيما تقول !

وفى تلك اللحظة تحرك الشخصان خارجين من الظلمة . وتابع الرئيس كلامه بنفس الصوت المتوازن :

– كل شىء عندكم يجرى على المكشوف . وهذا لا يجوز ، يا رفاق . . . فى يكاترينوسلاف بدات اعتقالات . . . انهم الآن يعتقلون لا على التعيين ، الا انهم اعتقلوا رفيقا لنا بالفعل . . .

– انه ميشكا كريفوماز ، الكومسومولى .

قالت ماروسيا ذلك بصوت رنان فيه شىء من التكسر الانثوى ، وكانت تقف بالقرب من قاديم بيترفيتش وقـــد القت منديلها على كتفيها .

– واستجوبه ناريفوروودنسيف رئيس استخباراتهم نفسه . ومعنى ذلك انهم فى حالة انذار . . . .

– ضربوا ميشكا كريفوماز بقضيب من المطاط على جبينه ، وطلعت عيناه ، المسكين – قالت ماروسيا بسرعة ، ونشجت من انفها فجاة – بتروا اصبعين من اصابعه ، وشقوا بطنـــه ، ولم يش بشىء .

وضع لوفكا سيفه بين رجليه ، وقال بازدراء :

– عمل رخيص . اتقولين انه ناريفوروودنسيف ؟ سنتذكر ذلك . ومن المدعى العام هنا ؟ ومن هو رئيس البوليس ؟

– سنخبركم بالاسماء والعناوين . . .

اوقف الرئيس ماروسيا :

– لنلتزم بالنظام ، يا رفاق . سيقدم قديوك تقريرا لنا عن قوات العدو (واشار الى رجل ركين حشر فى حزامه ردنا فارغا من سترته المتسخة) وساقدم انا تقريرا عن عمل اللجنة الثورية . وساعطى الكلمة لكم عن ماخنو . والمسالة الرابعة حول المتاشفة والفوضويين والاشتراكيين الثوريين اليساريين . ان هؤلاء الاوغاد يتشممون طعاما طيبا ، وهم كالذباب يتهيئون للعراك من اجل مقاعد فى السوفييت والآن ، ابدا ، يا قديوك .

بدا قديوك كلامه بصوت صلب عن احداث الماضى فاشار الى الخطط الدموية للبرجوازية العالمية ، الا ان الرئيس قاطعه فى الحال : «لست انت فى اجتماع عام ، فقدم الحقائق المجردة» وظهر ان الحقائق المجردة خطيرة جـــدا : فقـــد كان للبتليوريين فى

بكاتريتوسلاف حوالى الفى رجل من المشاة ، وستة عشر مدفعا من بينها اربعة مدافع ثقيلة . وفضلا عن ذلك كانت توجد وحدات لجيش المتطوعين تتألف من العناصر البرجوازية والضباط لديها عدد كبير من الرشاشات . وحتى كييف كانت مستعدة لتقديم التعزيزات .

واتضح من التقرير الثاني ان اللجنة العسكرية الثورية تستطيع ان تعتمد على ثلاثة آلاف وخمسمائة عامل سيقفون الى جانب المنظمة البلشفية دون تردد ، وعلى دفق من الشبيبة الفلاحية من القرى المجاورة ، حيث جرى نشاط تحريضي فيها . الا ان السلاح قليل : «يمكن القول ان عشر العدد مسلح ، والبقية بايد فارغة» .

وحين راى الرئيس تململ تشوغاى ، وتدلى شفة لوفكا السفلى رفع صوته وقد التمعت عيناه بلون فحم الانتراسيت .

— نحن لا نصر ، اذا كان الاتمان ماخنو يخاف ان يهاجم المدينة بنفسه ليبق فى غولاى-بوله ، فقط ان يعطينا السلاح والذخيرة .

احمر لوفكا ، وضرب الارض بسيفه :

— لا تشوش دماغى ، يا رفيق ... نحن لا نتاجر فى السلاح ... الاتمان يستطيع ان يشتت الاوغاد البتليوريين كالذباب بحركة واحدة من ذراعه ....

عندئذ قال تشوغاى :

— لا تحتد ، يا رفيق لوفكا ، اصمت لحظة . ايها الرفاق ، اننا توصلنا الى اتفاق مع الاتمان ماخنو . انه الآن خاضع للقائد العام للجيش الاوكرانى . وجيشه الشعبى — الذى هو الآن الفرقة الخامسة — سيهاجم بكاتريتوسلاف بأمر من القائد العام ، وهذا الامر موجود فى جيبى . فلننتقل الى تنسيق العمليات ... ان معنا اخصائيا عسكريا . يا رفيق روتشين ، اقترب ، ارجوك .

سافر تشوغاى فى نفس الليلة عائدا الى ماخنو فى غولاى-بوله . وقد اخذ لوفكا معه لكيلا ينظر العمال شزرا الى وجهه

الممتلىء ، وحذائه الصقيل ، وكالوشيه العاليين ، كما لم يرد ان يبقى هذا الاحمق وحيدا مع روتشين .

الحقوا ماروسيا بروتشين للاتصال والمراقبة . لم تكن الخطة العسكرية للجنة الثورية صالحة على الاطلاق ، وقد اعلن روتشين ذلك فى الحال وبكل صراحة . اقترحت اللجنة الثورية ان يقوم هو بتفقد المدينة ، ويضع خطته . فكان فى كل صباح يعبر مع ماروسيا الدنيبر المتبخر على زورق وسط كسر الجليد ، وينزلان على الشاطىء الايمن فى ضاحية ماالديروفكا ، ويطلبان من احد الفلاحين الذاهبين الى السوق توصيلهما الى المحطة ، ومن هناك كانا يصلان الى المركز مشيا او فى عربة ترام .

كانت المحطة بجسرها للخط الحديدى تقع فى الجهة الجنوبية ، ومنها كانت جادة بكاترينيسكى العريضة تمتد عبر المدينة كلها محفوفة باشجار الاقاسيا والحور الهرمية ، وعلى جانبى الجادة كانت تقف ابنية جديدة ضخمة لامعة النوافذ . هى ابنية البنوك والفنادق والبريد والبرق ودوما المدينة ، وكانت الجادة تصعد فى مرتفع شديد نحو المدينة القديمة المحيطة بساحة الكاتدرائية . وهناك كانت تقع تكنات الجنود .

علم فاديم بيتروفيتش ماروسيا ان تعد الخطوات ، وتحدد الزوايا بعينيها ، وتحفظ بشكل خاص النقاط المهمة لاطلاق النار ، وكان بين الحين والآخر يدخلان مقهى ، ويخططان خطة على ورقة ، وتطويها ماروسيا على هيئة ظرف وتدعكها فى كفها ، لتدسها فى فمها وتبتلعها فى حالة اعتراض الشرطة لهما . الا ان احدا لم يختلس نظرة اليهما قط ، رغم ان الخامل وحده يمكن ان تغيب عن لحظه ماروسيا الجميلة بمنديلها الزاهى المشدود على الطريقة الاوكرانية ، وروتشين بقبعته ذات القمة القرمزية . الا ان الناس هنا كانوا فى شغل شاغل عنهما . فان السلطات البتليورية التى اعلنت نفسها جمهورية ديموقراطية شربكت نفسها بين لجان من شتى الاصناف الممكنة : جماعة «النضال» والاشتراكيين ، والصهيونيين ، والفوضويين ، والقوميين ، وانصار الجمعية التاسيسية ، والاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الشعبيين واعضاء الحزب الاشتراكى البولونى والمتشددين والمتوسطين ، ولجان لها برامج واخرى بلا برامج .

وكان جميع هؤلاء الطفيليين يطالبون بالعلنية وبالمقرات والمال ، ويهددون بحرمانها من ثقة الجمهور . وزادت الطين بلة دوما المدينة التي كان يرأسها بابريكاكي الصغير (لان بابريكاكي الكبير ، وهو اكثر ذكاء ، قد هرب الى دينيكن) . سارت دوما المدينة على سياسة الحكم المزدوج ، بل واصرت على تاليف فوج خاص يحمل اسم حاييم سولومونوفيتش غيستوروى عمدة المدينـــة الراحل . والمفهوم ان السلطات البتليورية لم يبق لها الا مجال واحد للنشاط تطلق فيه يديها ، وهو الاغارة ليلا على العمال الشيوعيين في شققهم وحتى هذا كان يقتصر على الذين يعيشون على الضفة اليمنى .

وبعد يوم من التطواف كان روتشين وماروسيا يعودان باقصر طريق عبر الجسر الى الضاحية في الضفة اليسرى ، قاصدين بيتا ابيض صغيرا يقع على راس منحدر على الدنيبر .

كان الفرن في البيت متوقدا دائما ، ورائحة اقراص الروث المجفف المستعمل للوقود تفوح بتكهتها الخاصة المريحة في ارجاء البيت . وكانت والدة ماروسيا تدخل ومعها شمعة سميكة من تلك الشموع المستخدمة في عربات القطار (كان والد ماروسيا يشتغل في السكك الحديدية) وتمس الفرن بيدها ، وتسأل بصوت خافت :

— هل البيت دافىء ؟

— دافىء ، يا ماما .

— هل تتعشيان ؟

— نحن جائعان كالكلاب ، يا ماما .

وتتنهد وتقول :

— تعشينا ، انا وابوك . فاذهبا لتتعشيا . فالشبان جائعون دائما .

وكانت تمشي ببطء الى ما وراء الحاجز وكان فكرها مشغولا بشيء حزين يعز عن الوصف ، وتتناول الملقط وتنحني من الجهد ، وتغمغم : «بحق المسيح اطلع سليما صحيحا» وتخرج من الفرن قدرا حديديا كبيرا فيه حساء «البورش» . وكان الاب يجلس على السرير في وضع غير مريح مدخنا غليونه . وكان وزوجته يحاولان ان يصرفا انتباههما عن روتشين (كانا يسميانه فيما بينهمـــا بـ«السري» ولكن حين كان روتشين يطلب شيئا ما كشيء من الماء

او عقبة تفاح — كان والد ماروسيا يثب من السرير بسرعة ، والام تتهيأ متحفزة لتلبية الطلب) .

كان روتشين وماروسيا يحتسيان «البورش» صابين اياها من القدر في صحنين متلمين . وماروسيا لا تكف عن الحديث ، فقد كانت انطباعات اليوم تنطبع بادق تفاصيلها على الغضارة الشفافة لذاكرتها .

كانت امها تقول وهي واقفة عند الموقد :

— بحق المسيح . كفاك كلاما . فالطعام لا يؤدي فائدته مع الكلام .

— ماما ، طوال النهار كنت صامتة — وتنظر ماروسيا الى روتشين بعينيها الصغيرتين الزرقاوين بصفاء والمذهولتين ، اريد ان اقول لك انني كثيرة الكلام بشكل مريع ، حتى انهم لم يريدوا ان يقبلوني في الكومسومول . فاين الشكلم اذا كان الانسان يحب الهذر ؟ واجتزت الامتحان ، حين لزمت الصمت سبعة ايام بلياليها .

وكانت ماروسيا ، بعد العشاء تلقي المنديل الصوفي عليها ، وتهرع الى الاجتماع الحزبي . وكان روتشين يشكر على حســن الضيافة ، ويذهب وراء الحاجز ، الى حجرة ضيقة وواطئة السقف بحيث كان يستطيع اذا رفع ذراعه ان يمس سقفها الخشن . وكان يحشر يديه تحت حزامه ، ويسير جيئة وذهوبا بين النافذة المغلقة بالصفاقة ، وصوان ماروسيا المصنوع من خشب الصنوبر . وكان يحل حزامه ويخلع قميصه ، ويجلس الى النافذة ، ومن خلال الصفاقة يصغي الى كتل الجليد ترسل خرخرتها الناعمة الصماء من بعيد اثناء تحدرها على الدنيبر . واهل البيت وراء الحاجـــز اووا الى مضاجعهم ، وفي صمت البيت الصغير كان لا يسمع غير فرقعـــة التجمعي في الفرن ، وصرصرة الجدجد ، وهو يحز خشبة صغيرة على منشار ضئيل . وكان فاديم بيتروفيتش يحس براحة وطمأنينة على نحو غير متوقع ، ولم تكن تطوف في راسه غير افكار بسيطة عن الحياة اليومية .

وكان لا يريد ان ينام قبل ان تعود ماروسيا ، فكان لكي يطرد النعاس ينهض مرة اخرى ، ويذرع الحجرة ، وقد اعجبتـــه

كثيرا هذه الحجرة الصغيرة للغاية ، المطلية جدرانها بالكلس . كانت اشياء ماروسيا فيها قليلة : تنورة معلقة بمسمار ، ومشط ، ومرآة صغيرة على كومودينـو ، وبعض الكتب المأخوذة عن المكتبة . . . وعند الحائط سرير حديدي قصير تنازلت ماروسيا عنه لروتشين ، وفرشت لنفسها لبادة على الارض .

صفق الباب في الرواق ، وصر باب المطبخ ، وظهرت ماروسيا موردة الخدين من البرد ، وحلت منديلها وقالت :

— لطيف انك قد انتظرتني . هل تعرف الاخبار ؟ سيكون ماخنو هنا بعد ثلاثة ايام . وغدا يجب ان تقدم الخطة . . اما هذه الليلة فساحرة ! ساكنة والسماء مزدهرة بالنجوم .

كانت ماروسيا مغمورة جدا بالشؤون المهمة والانطباعات المختلفة ، وبسيطة القلب كثيرا حتى انها كانت تفرش لنفسها على الارض ، وتخلع ملابسها بحضور فاديـم بيتروفيتش دون خجل . وكانت تقلف تنورتها وبلوزتها وجوربيها حسبما اتفق ، وتجلس على اللبادة لحظة محتضنة ركبتيها :

«آه ، متعبة» وتضرب الوسادة بجمع يدها ، وتستلقي ساحبة اللحاف حتى رأسها . ولكنها سرعان ما كانت تخرج وجهها بالغه الصغير والغمازة وهو ما يزال محتفظا بتورده ، وتخفي ذراعيها العاريتين فوق اللحاف :

— حي شديد ! اسمع هل انت نائم ؟

— لا ماروسيا ، لا .

— اصحيح انك كنت ضابطا ابيض ؟

— صحيح ، ماروسيا .

— اليوم تجادلت . . . وبعض الرفاق لا يثقون بك . عندنا مثل هؤلاء ، متعنتون . . . يرتابون حتى بامهاتهم . . . ولكن كيف لا تثق بانسان اذا كنت صادقا مع نفسك ! انا افضل ان اكون مخطئة على ان اسيء الظن بكل شخص . انا اقول لهم مع من ستقومون بالثورة اذا كنتم تسيئون الظن بكل من حولكـم ؟ . . نحن نقوم بثورة عالمية . . . والثورة قوة خاصة . هل تفهمون ذلك؟ تصوروا ماذا كان عساي ان افعل بدون الثورة ؟ ان الصق العلب في مشغل للكارتون لمدة اثنتي عشرة ساعة يوميا . . . والتسلية

الوحيدة ان اتمشى بدور عباد الشمس ايـام الاعياد في بولفار بكاتيرينسكي . . او ربما اقتر لاحصل على حذاء طويل الرقبة ، فيا له من مكسب ثمين ! واقول لهم : كيف لا تثقون به يـا رفاق ؟ هب انه ، وهو المثقف ، قد اخطأ وخدم طبقته ، ولكنه انسان . . . والثورة تجذب اناسا من اصناف اخرى ايضا . هل يستطيع ان يتحول عن طبقته العفنة ؟ يستطيع . . . انه ينحاز الينا عن وعي ، ويقاتل في سبيل قضيتنا العمالية . . . لا بد ان تكونوا متعنتين اذا كنتم لا تؤمنون بذلك . . . حسنا ، لقد اقنعت الكثيرين .

كان روتشين مستلقيا على السرير القصير منكمشا ينظر الى ماروسيا التي كانت تشمر ذراعيها العاريتين تارة ، وتطويهمـا بحرارة تارة اخرى . وكانت الحجرة الواطئة تبـدو وقد امتلأت بنضارة عذرتها ، وكان غصنا من الزنبق الابيض قد جلب اليها .

— والامر يختلف اذا كان يتعلق بوجوب اعادة تكويـن المثقفين الفكري . . وسنعيـد تكوينك انـت ايضا . . لماذا تضحك ؟

— انا لا اضحك ، يا ماروسيا . . . منذ سنين عديدة وانا لم اشعر بانني نافع لقضية خيرة مثل شعوري في هذا الوقت . . . انا افكر الآن بان اخرج مع الفصيلة الاولى للاستيلاء على الجسر .

— آه ، احقا ما تقول ؟

وخرجت ماروسيا من تحت اللحاف بخفة ، وجلست قربه على حافة السرير :

— الآن ، اؤمن بانك معنا عن حق . . . بينما ظللت اجادل واجادل لانني لا املك دليلا صريحا على اية حال .

في نهار السادس والعشرين انطلق خمسون فارسا بتلبوريا على الجسر الحديدي عبر الدنيبر طارقين صفائحه الحديدية بسنابك خيولهم ، وهجموا على محطة البضائع ، واعملوا سيوفهم في العمال الذين كانوا يحرسون قطارا من اربع عربات اقيمت عليها متاريس من اكياس الرمل ، وتفرقوا على الخطوط مطلقين النار على العربات.

وقد حصل كل ذلك بعجالة واحتراس . وكان يتوقع ان توجه هذه الغارة الى مقر قيادة اللجنة العسكرية الثورية . الا ان البتشيوريين خافوا من المكائن فى الحيز الضيق بين العربات ، وخرجوا الى مكان مكشوف باسرع ما يستطيعون ، وعادوا من حيث اتوا .

وضعوا رشاشـــات فى الجانب الآخر من الجسر ، وراحوا يطلبون من كل عابر ابراز هويتـه . واشتد التوتر ، وتواردت معلومات من احياء المدينة عن غارات تفتيشية شاملة . وفى ذلك اليوم لم يات فلاحو الضـــواحى فرادى ، بل جماعات من عشرة اشخاص حزموا معاطفهم من فراء الاغنام بقوة ، ولم يحملوا شيئا من متاع . وقد شكلت اللجنة العسكرية الثورية فوجا منهم وكانت التشكليات قصيرة . اذ كان كل واحد منهم يسأل :

– لماذا جئت ؟

– جئت . اعطونى سلاحا .

– وما حاجتك الى السلاح ؟

– يجب اتشاء سوفييتات ، والا فستبدأ الهرجلة من جديد .

– وهل تعترف بالسلطة السوفييتية بدون تحفظ ؟

– ليس عندى تحفظات ...

– انضم الى السرية الثانية ...

ولكن السلاح لم يكن كافيا حتى جاء تشوفلســاى عند الظهر بصورة مفاجئة فى قاطرة تجر عربة واحدة ، جالبا معه ثلثمائــة بندقية تمساوية مع العتاد . وخفف ذلك الوضع قليلا . واخيرا ، وفى ساعة متاخرة من المســاء اخذ جيش ماخنو المرتقب طويلا يقترب ملعلعا قارعا السهب .

وكان اول من وصل الى العاصمة «فرســان كروبوتكين» – رجال الاتمان البواسل – وجميعهم متساوون فى الطول ، وقد احتلوا المدرسة فى الحال ، وقذفوا منهـــا الكتب والمقاعد الدراسيــة والمعلمة ، واخذوا يدقون ابواب البيوت بطريقة تسلطية ، ودخل بعدهم زهاء مائتى عربة وعربة رشاشة تحمل المشاة . وبعد هؤلاء جميعا توقفت قرب المدرسة مركبة سفر كبيرة ، لعلها كانت تعود الى مطران ، تجرها اربعة خيول ، وقد جلس الاخرس العظيم على مقعد السائق ، ونزل منها ماخنو ولوفكا وكاريتنيك بعظمة .

وسارع الاتمان فطلب ان يجتمع به اعضـــاء اللجنـــة العسكرية الثورية فى الحال . وخلال ذلك الوقت كان عدد غير قليل من العمال المنفعلين قد تجمهر قرب عربة اللجنـــة العسكريـــة الثورية . وصاحوا برئيسها :

– يا ميرون ايفانوفيتش ، اذهب بنفســك والق نظرة ، ليست هذه قوات سوفييتية ، بل قطاع طرق ... استمع الى العمة غابكا ، فانها ستروى لك ماذا فعلوا بها ...

قالت العمة غابكا وهى تذرف الدمع :

– ميرون ايفانوفيتش ، انت تعرف احوالى ... اقتحم اثنان ... وصارا يطلبان حليبا ، وشحم خنزير ... ذبحـــا خنزيرا ... وطلبا ان اخرج الى الفناء ، واداهمـــا على الخنزير والدواجن والتهم اللعينان كل شىء ، عسى ان يصابا بالزحار ...

واضطر الرئيس ان يشرح لهم بصوت حاد ان الامر ما دام قد وقع – اذ هم الذين دعوا ماخنو وقواته – فان مجال التراجع قد فات ، ولم يبق امامهم الآن الا مهمة واحدة : الاستيلاء على المدينة اجتياحا ، ونقل السلطة الى السوفييتات . ثم صاح بالعمة غابكا بجفاء :

– لا يكفيك خنزيران ؟ سنهديك قطيعا من الخنازير ... كفى عن اثارة الناس ...

فى الاجتماع سلك ماخنو سلوكا غريبا – لغة ابدى وقاحة وجبنا . طلب بان يعين قائدا عاما لجميع القوات ، وفى حالة الرفض هدد بان يعود الجيش نفســـه من حيث اتى . وكرر القول بان السلطة السوفييتية لا تملك قوة قتالية اخرى ، وانها يجب ان تحرص على هذه القوة ، والا تبددها بهجمات متهورة . وكان يفرض اظافره ، ويحشر يده تحت سترته بين الآونـــة والاخرى ويهرش جلده . واتضح ان اكثر ما يخشاه هو مدافع بيتليورا الستـــة عشر .

عندئذ قال تشوفلساى له :

– حسنا ، اذا كنت تخاف من هذه المدافـــع فاننى ذاهب الليلة الى المدينة لاتحدث مع آمر المدفعية .

– كيف تتحدث معه ؟

— هذا شيء يخصني ...

— تكذب !

— لا ، لا اكذب . من هو آمر مدفعيتهم ؟ مارتينينكو ، وهو من جماعتنا في اسطول البلطيق ، كان مدفعيا في المدمرة «فانكوت» وهو من ابناء منطقتي . او لعله من اقربائي او ربما عرابي ... وهو لن يطلق النار علينا ...

— تكذب ! — كرر ماخنو ناسيا اظافره بكمه . والظاهر انه قد صدق . فقد هدأ فجأة ، واتخذ قراره :

— حدثنا عن خطتكم للهجوم .

وعرضت اللجنة العسكرية الثورية هذه الخطة له : تعبر فصيلة من العمال المسلحين بالقنابل اليدوية الى الضفة الاخرى ليلا ، ويتسلل هؤلاء واحدا واحدا الى جسر السكك الحديدية ، وفي الفجر يهاجمون رجال الرشاشات المستحكمين عند راس الجسر ، ويستولون على الرشاشات . ويضمون تحت النيران الشوارع المؤدية الى الجسر . وحين تندلع انفجارات القنابل اليدوية يتحرك نحو الجسر القطار المصفح (ذو العربات الاربع) بعماله المسلحين وجزء من فوج الفلاحين المؤلف حديثا ، ويهاجم محطة المدينة . وفي اثناء ذلك يبلغ اعضاء القيادة اللجــان البلشفيــة في المناطق مستخدمين في ذلك عناوين وتلفونات معروفة لهم وحدهم ، فتقوم هذه اللجان بالانتفاضة في المدينــة ، وتوزع على المجتمعين عند المحطة الاسلحة التي يجلبها القطار المصفح . وفي ذلك الوقت تنقل القيادة عملياتها الى هناك . ويخترق فرسان ماخنو المدينة من خلال جسر المارة ، ويعبر المشــاة الدنيبر بطابورين من يمين الجسر وشماله ، ويلتقون في اماكن محددة في جادة يكاترينينسكي ، ومن هناك يقومون بهجوم الى الاعلى للاستيلاء على مؤسسات المدينة والثكنات. ان نجاح الانتفاضة يتوقف على السرعة والمباغتة في الهجوم ، ولهذا يجب أن تحدد هذه الليلة موعدا للهجوم .

قال ماخنو :

— الرجال تعبوا من المسيرة ، والخيول محطمة الحذوات ، ويجب دق حذوات جديدة لها .

فرده رئيس اللجنة العسكرية الثورية على ذلك :

— يمكن ان يستريح الرجال بعد ان نستولي على المدينة ، اما الخيول فيمكن ان توضع بعد ذلك حذوات سوفييتية لها .

وقال تشوغاي :

— هل عسكرت على مرأى من المدينة كلها لتستريح ، ايها الاتمان ؟ سيقذفون عليك غدا من مدافعهم من عبــار الصمت بوصات . باختصار : اما ان تبدأ اليوم ليلا واما ان ترحل ...

جمد الدنيبر في تلك الليلة ، الا ان الجليد لم يكن مأمونا ، وخلال الليل كله اخذ العمــال يجرون الالواح الى ضفــة النهر لاستخدامها في العبور قالعين اياها من مصاريع البوابات ، واسيجة بكاملها . كما عمل على قدم المساواة معهم جميع اعضاء اللجنــة العسكرية الثورية ورئيسها .

وكان رجال الاتمان وحدهم يتجولون على الشاطئ مدججين بالسلاح بأبهة خائفين من تصببهم بالعرق ، وأحدهم يغمز للآخر نحو اضواء المدينة القليلة في الجانب الآخر من النهر . لقد كانت يكاترينوسلاف كبيرة وغنية .

قبل حوالي ساعتين من بزوغ الفجر نزل اربعة وعشرون رجلا الى الجليد بقيادة روتشين . وكان كل شيء قد اوضــح سلفا . وتشقق الجليد في الالتصاقات بين كتل الجليد ، فاضطروا الى مد الالواح التي كانوا يحملونها في ايديهم . ومرة واحدة فقط ... وميض في الضفة الاخرى بالقرب من الكتلة السوداء الغامضــة للجسر المشبك ، وانطلقت رصاصة منفردة . استلقى الجميع ، ومن بعدها اخذوا يزحفون متباعدين بعضهم عن بعض قدر الامكان.

خرج روتشين في النقطة التي حددهــا بالضبط بالقرب من مركب غاطس . ومن تلك النقطة كان زقاق صغير يصعد في التل ، وقد صعد فيه ، واستدار نحو الجهة الخلفيــة للفناء الذي عين مكانا للالتقاء — وهو فناء مستودع للبضائع خال الآن . ارسلت انوار المحطة ضوءا باهتا . كانت المدينة كلها تغط في نوم عميق . مشى روتشين بعض الوقت يسير بمحاذاة السياج بخطوات خفيفة مكررا عبارة واحدة منغمة وبلا معنى واضح . ونظر باستمتاع الى

السياج العالي عارفا انه يستطيع بلا جهد ان يقذف عبره جسمه العديم الوزن . اخذ الرفاق يتوافدون واحدا واحدا كالاشباح ، امر الجميع بان يقفزوا الى الفناء ، ويصلوا الى البوابة . وعاد ثانية يسير بخطو خفيف .

اجتمع ثلاثة وعشرون رجلا من الرجال الاربعة والعشرين ، وضل واحد طريقه او امسكه رجال الدورية . وثب روتشين ، وتعلق بيديه على حافة السياج ، مجربا بروزى حذائه على الواحه ، وقفز الى الجهة الاخرى ، ولكن ليس بالسهولة التى تصورها ، ونزل على آجر مهشم .

كان العمال واقفين عند البوابة صامتين يحدقون فى روتشين وهو يتقدم منهم . وكان البعض جالسا على الارض ، واضعا وجهه فى ركبتيه المرتفعتين . لم يبق وقت طويل على بزوغ الفجر . وكانت لحظات الانتظار الاخيرة هذه حاسمة واحفل بالارهاق ، لا سيما بالنسبة للذين يخوضون قتالا لاول مرة . كان روتشين يلمح بغير وضوح الافواه المطبقة بجهد عازم ، واللمعان الجاف فى العيون التى لا ترف . لقد كانوا فتيانا مخلصين يفكرون بنقـاء وصفاء ، وصبا ثقال الايدى . وقد اقسموا بمحض ارادتهم على امر خطر لا تعرف مغبته ، فى سبيل الثورة العالمية ، على حد قول ماروسيا فى تلك الحجرة البيضاء الصغيرة المضاءة بشمعة . وداهمه احساس بنشوة خاطفة ، وعادت اليه نفس الخفة ، وغص بالعاطفة المؤازرة . وكل شىء يختلف عما كان يحسه من قبل ، كل شىء جديدا عليه . قال وقد قطب حاجبيه :

– يا رفاق ، اذا قمنا بهذه المهمة بهدوء ، فسيحالفنا النجاح فيما بعد ايضا . وعلينا الآن يتوقف نجاح الانتفاضة بكاملهـا (نهض الذين كانوا جالسين على الارض ، واقتربوا) واكرر مـرة اخرى : الامر لا يتطلب دهاء كبيرا . والشىء الرئيسى هو السرعة والهدوء . والعدو يخاف من ذلك اكثر من اى شىء آخر . يخاف من الانسان لا من السلاح . . . اذا كنت تشعر – وصعّد النظر فى شاب ذى رقبة جرداء قوية – اذا كنت ، ايها الرفيق . . . – وراودتـه رغبة لا تكبح ، فوضع يده على كتف الشاب ، ومس رقبتـه الدافئة – اذا كنت تشعر ببرودة فى قلبك ، فان العدو يشعر بنفس

البرودة . . . اذن ، فالذى هو احق من الآخر هو صاحب الغلبة .

هز الشاب رأسه وضحك :

– قولك صحيح ، سيغلب من له ذكاء اكثر . . . انهم بلهاء ونحن الاذكياء . . . فنحن نعرف من اجل اى شىء . . . – وفجأة ارخى رقبته المنتفخة ، والتوى فمـه الجميل – نحن نعرف فى سبيل اى شىء نموت .

وسأل شخص آخر ، وهو يشق طريقه :

– خبرنى : اذا القيت قنابل اليدوية فهل سأصبح بعد ذلك بلا سلاح ؟

اجابه شخص بهمس اجش :

– وبيداك ما نفعهما ؟ مغفل !

قال روتشين :

– يا رفاق ، اعيد عليكم العملية كلها مرة اخرى . سننقسم الى جماعتين . . .

وراح ينظر ، وهو يتحدث ، الى فجر الصباح يبزغ اخيرا فى الظلام الحالك وراء الدنيبر . . . كانت سحب كثيفة تحجبه . لا معنى الآن فى ارهاق الرجال اكثر .

عدّل حزامه وقال :

– حان الوقت . لننقسم . افتحوا البوابة .

فتحت البوابـة بحذر ، وخرجوا واحدا واحدا ، متسللين ووصلوا الى نهاية السياج . ومن تلك النقطـة كان الجسر يرى بشكل واضح فى منبسط النهر المتجمد . وامامه كانت تلوح معالم مبهمة لحدبة الخندق فى راس الجسر مع رشاشاته والطاقم النائم ، على ما يبدو . وكان ثمـة خندق ثان مماثل فى الجانب الآخر من السدة .

– تناولوا القنابل اليدوية ، واركضوا . . .

وركض الثلاثة والعشرون دفعة واحدة ، كما يركض لاعبو الكرة . ركضوا صامتين بكل قواهم . اتجه نصفهم نحو الخندق مباشرة ، والثلاثة عشر الآخرون انحرفـوا يمينـا نحـو السدة . جاهد روتشين الا يتأخر ورأى كيف تقفز اشبـاح طويلة فى السنن المحزمة عبر سدة السكة الحديد نقزات عالية .

ستدار فى اثرها . وادرك ان خطأ قد وقع ، فانهم لن يلحقوا فى الوصول الى الخندق الثانى ، وان اشارة الانذار ستصدر ، صدر انفجار خلفه ، وزعقت اصوات وحشية ، وتفجرت مرة بعد الاخرى قنابل يدوية ... واحتل الخندق الاول ، صعد السعة لمير مفتقت يعب الهواء الجارح بفمه المفتوح . كان الرجال الثلاثة عشر امامه ينطلقون بوثبات جبارة ... واقتربوا .. واستقبلهم لهب الرشاش مثل فراشة مسعورة . واحس روتشين وكان خفقة ريح خفقت على راسه ، وفكر فى نفسه «يا رب ، اصنع معجزة . ذلك يحدث . والا سنهلك ...» ورأى الشاب ذا الرقبة الجرداء يلقى قنبلة يدوية دون ان ينحنى ، ووثب الثلاثة عشر كلهم الى الخندق احياء . ورأى اجسادا تتخبط وتلهث . وقع شخص ملتح فى كتفية ضابط جسمه الى الاعلى متلفتا ، وراح يطعن بسيفه فى غضب كل من يمسك به . اطلق روتشين النار ، وتهاوى الضابط الملتحي ، ولوى راسه . وفى اللحظة التالية زحف آخر فى معطف من معاطف الضباط والمسا صارخا . امسكه روتشين ، فاطلق الضابط يديه ، واطبقهما على رقبته قائلا «وغد ، وغد !» وفجأة ارتخت اصابعه :

– روتشين ! ...

اللعنة ، من هذا ؟ يبدو انه من قيادة ايفرث . لم يجب روتشين وضربه بمسدسه على صدغه .

واحتل هذا الخندق ايضا . وادار العمال الرشاشة . صفرت قاطرة وراء الدلبير . ودب القطار المصفح مدمدما على الجسر ليحتل المحطة .

. . . .

كانت الشمس قد ارتفعت منذ وقت طويل ، وراحت تلهب بحرارتها . عبر القطار المصفح الجسر ثانية نافثا دخانا اسود ، حاملا الناس والسلاح الى المحطة المحتلة . شيعه الرجال من خنادقهم بالصياح . وسارت الامور سيرا حسنا . قبل وقت طويل عبر مشاة ماخنو جليد النهر كالنمل ، وزحفوا على الضفة الشديدة الانحدار ، واجتاحوا نقاط الشرطة ، وانتشروا فى الشوارع . وكانت الطلقات تتردد بلا فتور تارة على بعد وتارة على مقربة دانية .

– ساشكا ، اذهب الى المحطة ، واعثر على القائد العام ، وقل له اننا هنا منذ الخامسة صباحا . تجمدنا ولم ناكل شيئا ، دعهم يرسلون من يحل محلنا .

قال روتشين ذلك لصاحب الرقبة الجرداء الذى كانت الخدوش الدامية تغطى وجهه الرجولى الفتى الامرد الا من شعيرات زغبية ملتفة . وكانت هذه الخدوش آثارا تركها عليه مسدس الرشاشة القوى ، وهو يفارق الحياة .

اندفع ساشكا خفيفا وهو يرتجف فى سترته الخفيفة طالعا الى مكان مكشوف رغم صفير الرصاص المتكرر فى الهواء . صاحوا به «ستقتل ، يا احمق ... ساشكا ، اجلب لنا سيكائر ...» وعاد سريعا ، وقرفص امام الخندق والقى علبة سيكائر الى رفاقه ، وقدم لروتشين مذكرة عليها ختم ما زال طريا : «انتظروا . سارسل ، ماخنو» .

وقال لروتشين :

– تحية لك من ماروسيا .

فغر فاديم بيتروفيتش فمه من المفاجأة ، ورمق ساشكا الطرفس بنظرة خاطفة من مكانه فى الخندق .

– انها فتاة مليحة ، يا رفيق روتشين . اسعدك الحظ ...

– اين رأيتها ؟

– انها نشيطة فى المحطة ... لولاها لما وصلت الى ماخنو ، ما اكثر الناس هناك ، يا فتيان ! لا يلحقون فى توزيع الاسلحة ، يكاد يخوسلاف لنا .

. . . .

اتخذ ماخنو المحطة مقرا لقيادته . جلس الاتمان فى صالة الدرجتين الاولى والثانية وراء منصة المشرب يشغلها الاصطناعى . وازاحوا كل ما عليها من اوان ، لوقعت على الارض ، واخذ ماخنو يكتب الاوامر . وكان كاريتنيك يدمغها بالختم . وكان من يتسلمها ينطلق بها فى الحال . وكان رجال منفعلون لا يفتأون يدخلون طالبون العتاد والتعزيزات ومطابخ الميدان والسيكائر والخبز ورجال الاسعاف ... ذات مرة جاء آمر وحدة استولى عليه الغيظ لانه شق طريقه الى البنك التجارى الصناعى ، ولم يبق بينه وبين

بأنه غير خطوتين ، الا ان النقص في العتاد اجبره على القعود بعض الارض من الشكدور . تقدم من الاثمان ، وامسك بقنبلتين معلقتين في حزامه ، وضبطهما على المنصة للتخويف ، وقال :
– ماذا تفعل هنا ، تصلي للرب ؟ قدم العتاد لنا ، يا كذا ويا كيت ! . .
وكان ماخنو لا يعطي الاوامر الا لمن يطالب بها . ارتجف فكاه ليثير الخوف ، وتظاهر بانه صاحب الامر والنهي . ولكنه في واقع الامر كان مشوش الفكر كليا . تقلب ورقة ، ورسم صلبانا على خارطة المدينة ، في الاماكن التي عجمت او تراجعت فيها القوات . ليس في هذه المدينة الملعونة مجال للتحرك ، والشوارع كلها ضيقة ، والعدو في الاعلى والاسفل وعلى الجانبين . . . حملق ماخنو في الخارطة ولم ير لا هذه الشوارع ولا تلك البيوت . وفقد القابليـــة على تعيين الاتجاه . وصارت اللعبة خبط العشواء . فلا عجب في انـه كان يعتبر المدن اشياء ضارة . آفة جميع الآفات .
وفضلا عن ذلك كان يقلقه الغموض في علاقته بمارتينينكو . اكد تشورغاي ان مارتينينكو لا يريد ان يطلق النار على جماعته . وقد يكون تشورغاي قد التقى به هذه الليلة ، او انهما اتفقا من قبل . حقا ان كل شيء عادي في مستودع المدفعية ، ولكن طاقم المدفعية قد هرب ومارتينينكو نفسه قد سكر غاية السكر من دقة الموقف دون شـــك . لم يكن في المحطـــة غير مدفعين من مستودعه وقد تركهما البيتليوريون . وسُر ماخنو الذي لم يستول على مدافع قط ، وطلب ان يخرجا الى الجادة ، وجذب بنفسه حبل الاطلاق ، وطلعت على وجهه ابتسامة متغضنة حين هدر المدفع – حتى الناس انحنوا على الارض – وانطلقت القذيفة صافرة فوق اشجار الحور .
واتخذت اللجنة العسكرية الثورية مقرا لها في ساحة ملحقة بالمحطة . وكانت النيران قد اوقدت هناك ، وقف حولها العمال الذين جاءوا من مختلف مناطق المدينة . وكان اعضاء اللجنة العسكرية الثورية يعرفون الجميع تقريبا بوجوههم والمنطقة التي جاءوا منها . نادوا العمال باسماء المصانع والورش – عمال التعدين ، والطحانين والدباغين وعمال النسيج – فترك هؤلاء النيران ، واصطفوا كل

خمسين رجلا او نحوهم على حدة . واذا كان بينهم شخص مناسب عينوه آمرا واذا لم يكن تسلم احد اعضاء اللجنة قيادتهم . ووزعوا البنادق ، وفي نفس المكان عرضوا على غير العارفين بها كيفيـــة استخدامها . كانت تستند للفصيلة مهمة قتالية ويرفع الآمـــر البندقية ويهزها :
– الى الامام ، يا رفاق . . .
ويرفع العمال ايضا هذه القطعة الثمينة التي وقعت في ايديهم اخيرا :
– في سبيل سلطة السوفييتات ! . . .
وسارت الفصائل نحو جادة يكاترينينسكي للقتال .

. . . .

شق روتشين طريقه نحو القائد العام وابلغه بالتفصيل عن احتلال التعزيزات عند راس الجسر ، وعن الخسائر في الرجال : اربعة جرحى وواحد قتل تحت الاقدام . سلط ماخنو ، وهو يقضم القلم ، نظرة قاسية الى حد العجرفة وشبه بلهاء على وجه روتشين النحيل الناحل .
– حسنا ، سنكافئك بساعة فضية – قال ماخنو ذلك ، ودفع خارطة المدينة الموضوعة امامه الى حافة المنصة – انظر الى هنا – وخط بالقلم خطا بين الصلبان – الهجوم لا يتقدم ، وتحـــن وصلنا الى هنا – شارع ، زقاق ملتو ، بولفار ، . وابعد مـــن ذلك ، الصلبان تبدأ بالانعطاف . . . اريد ان اعرف لماذا نراوح هكذا ، وكأننا غطسنا في روث ؟ – صرخ بصوت حاد كصوت طائر – اذهب واعرف جلية الامر – وخربش على قطعة من الورق بعض الكلمات ، ونفخ كاريتنيك على الختم ، ومد الختم من تحت مرفقه ، ودمغ به الامضاء – يمكنك ان ترمي الجبنـــاء . اعطيك الحق في ذلك . . .
خرج روتشين الى الساحة حيث فصائل العمال ما تزال تصطف في صفوف غير مستقيمة ، وترتفع الاصوات بالاوامر . وهتافات النصر . دار رأسه من الدخان المتصاعد من النيران ، وكان على بعضها قصاع تطبخ فيها العصيدة . فطاف في ذاكرته قدر الحساء الحديدي الذي كانت ماروسيا تقفز من وراء المائدة وتختطفه من

بدى امها ، واحمنان ماروسيا وهى تقضم قطعة الخبز الشذى .

وخرج وراء روتشين . ساشكا وشخصان آخران يحملون البنادق . كان احد الشخصين مجدر الوجه مرحا ضخما كالقدر الكبير يدعى تشيج ، وكان الثانى فتى جميلا له وجه قاس وعين مخشنة وقد انزل طليلة طاقيته السوداء على حاجبيه ، وكان يبتسم طوال الوقت . انه عامل سكرة يسمى نفسه روبرت . واضطروا الى ان يتسللوا انسلالا فى جادة بكالوريتينسكى محتمين وراء بروزات البيوت ، منتقلين من مدخل الى مدخل . وكان الرصاص ما يزال يلعلع . وكان البولفار خاليا ، ولكن الوجوه الفضولية كانت تلوح وتختفى وراء العشايا التى تغطى النوافذ فى كل مكان . وعلى مدخل محل للمصنوعات جلس رجل يرتدى فروة خروف ، دفع وجهه الصغير الذى انحله البؤس الى الوراء وكانما رفعه مع لحيته الشائبة نحو السماء القديمة هامسا : ما هذا . يا ربى ؟

سأل تشيج :

– ماذا تفعل هنا ؟

اجاب الرجل مكروبا :

– ماذا افعل ؟ انتظر ان يقتلونى .

– اذهب الى بيتك .

– ولماذا اذهب الى بيتى ؟ سيقول السيد يابوبكاكى ايهما اغلى : حياتك التعيسة ام محلى ؟ . . . الذن ، فالافضل ان اموت بالقرب من المحل . . .

وما كادوا ينصرفون حتى اخرج الحارس لحيته من بروز الباب :

– يا شباب ، ابعد من عنا يقتلون الناس . . .

وحين وصلوا الى المنعطف اصابت صلية رشاشة تجصيص الحائط فوق رؤوسهم . استداروا الى شارع جانبى وظهورهم محنية ، وضغطوا اجسامهم على تجويف بوابة . وتطروا لاهثى الانفاس وراوا على الرصيف عند مفترق الطرق سبع جثث وبنادق مرمية . فلا بد ان فصيلة من العمال قد وقعت هنا تحت النار . ضحك روبرت بمرارة وقال مقطعا الكلمات فى غيظ :

– انهم يطلقون النار من علية فندق «استوريا» ، اقترح القضاء على هذه البؤرة .

وبدا الاقتراح معقولا . كان فندق «استوريا» الـذى كان روتشين قد نزل فيه شهرين واقعا فى الجانب الآخر من البولفار ، وكان لا بد من الوقوع تحت النار اذا اريد الوصول اليـه . ضغط روتشين رفاقه على البوابة بذراعيه المبسوطتين :

– التسلل واحدا بعد واحد . . وعلى فترات وبسرعة ، ولا حاجة للمخاطرة ابدا .

انحنى روتشين حتى كاد يمس الارض ، وركض الى المفرق ، واستلقى وراء جثة . انطلقت طلقتان من علية الفندق ، وثب ، واندفع فى خط متعرج كالحية نحو اشجار العور فى منتصف البولفار . لعلعت النار متلاحقة من العلية ، ولكن بعد فوات الاوان ، بعد ان وصل الى المنطقة «الميتة» . اتكأ على جذع شجرة حور وخلع قبعته ومسح بها وجهه ، وعبّ الهواء وصاح :

– ساشكا ، اركض . . .

واضطروا الى طرق باب الفندق الزجاجى بالقنابل اليدوية حتى ازاح شخص من الداخل الصوان ، وفتح الباب ، دفع روبرت البواب الضخم الذى صاح فيه «الى اين ، ايها الشيطان ؟ . . .» وانطلق وفى يده قنبلة يدوية . كان بهو الفندق غاصا بالمقيمين الذين نزلوا من جميع الطوابق . ولكنهم حين راوا الشاب المشوق الحلو الملامح وفى يده قنبلة يدوية ، ووراءه ثلاثة آخرون مسلحون راحوا يصعدون السلم صامتين لاهثين منضغطين على السلالم . عرف روتشين الكثيرين منهم وهو يصعد الدرج . كما انهم عرفوه ايضا ، ولو كان من الممكن ان تقتل النظرات لكان قد وقع صريعا مائة مرة من نظراتهم . ولكن واحدا منهم فقط ، وهو نفس ذلك الرجل السمح صاحب الاطيان الذى ينوء بثلاث بنات غير متزوجات ، كان خارجا من غرفته متاخرا بعد ان تناول وجبة من الطعام البارد ، فرأى روتشين ، فكاد ياخذه بالاحضان نافثا عليه رائحة نبيذ الماديرا :

– عزيزى ، فاديم بيتروفيتش . هذا انت ، بينما بناتى يخرجن زاعمات ان بعض البلاشفة اقتحموا . . .

ولكن الكلمات جمدت على شفتيه حين رأى ساشكا الضخم والخدوش الدامية على خديه ، والسمكرى الذى يغطى عينا واحدة بطلبلة طاقيته ، وتشيبج البادى المرح المتورد ولو كان مظهره لا ينم كثيرا عن تلطف طبقى .

كان السمكرى يعرف جميع مداخل الفندق ومخارجه . وحين صعد الى الطابق الثالث اتجه الى سلم جانبى ارتقاه الى العلية . كان الباب الحديدى الى هنا مواربا . وهمس السمكرى «هم هنا !» وفتح الباب على سعته ، واندفع بعرامة شديدة حتى كأنه كان ينتظر تلك المحلة طول حياته . وحين وصل روتشين الى نافذة الروشن منحنيا فى الظلام الشاحب تحت روافد السقف ، كان روبرت يغرز حربته برجل فى معطف فرائى منبطحا بالقرب من رشاشة :

— كنت اقول انه صاحب الفندق نفسه !

عندما نزلوا من العلية اضطرب الفتى فجأة ، واصطكت اسنانه ، وجلس على درجة ، وغطى وجهه بطاقيته . اخذ ساشكا بندقيته منه ، وقال بغلظة : «لا تتصور اننا سننتظرك !» وقال تشيبج له «آه ، يا لك ، وتسمى نفسك روبرت ...» ، فقز وانتزع بندقيته من ساشكا ، وركض نازلا الى الاسفل قافزا الدرجات . تركه فاديم بتروفيتش مع تشيبج لحراسة الفندق . وارسل تذكرة مع ساشكا الى مقر القيادة ليرسلوا فصيلة الى «استوريا» وعاد وحده الى البولفار .

كان النهار فى اواخره . وقد احتلت فصائل العمال البريد والتلغراف ودوما المدينة والخزانة . وقد طاف روتشين فى كل هذه الاماكن ، وارسل من كل منها مراسلين الى مقر القيادة . وكانت جميع الدلائل تشير الى ان القتال قد طال . واستنفد مشاة ماخنو الدفعة الاولى من الحماس ، وبداوا يضجرون من القتال فى ظروف المدينة ... فلو كان القتال فى السهب لكانوا الآن قد قسموا الغنائم منذ وقت طويل وطبخوا الطعام فى القدور ، وتحلقوا ، ليتفرجوا على الراقصين المتحمسين يرقصون رقصة «الكوباك» الاوكرانية باحذية جيدة انتزعوها من اقدام القتلى . وكان البيتليوريون ، من جانبهم ، قد افاقوا من حالة الارتباك ، وبعد

ان تراجعوا الى منتصف الجادة تخندقوا ، واخذوا فى بعض الاماكن ينتقلون الى الهجوم المضاد .

لم يعد روتشين الى المحطة الا عند هبوط الظلام . الا انه لم يجد ماخنو هناك ، فقد انتقل مقر قيادته الى فندق «استوريا» ، وذهب روتشين الى هناك . وكان روتشين لم يصب طعاما منذ يوم امس ، ولم يشرب غير قدح من الماء . وكانت قدماه متخدرتين من التعب ، والمعطف يثقل على كتفيه كالرصاص .

لم يسمحوا له بالدخول الى الفندق . كان باب الفندق محروسا برشاشتين ، وكان فرسان ماخنو يتجولون على الرصيف حازين بمهاميزهم وشعورهم طويلة مسبلة على جباههم على الموضة الشائعة فى غولاى — بوليه . وكان احدهم قد القى معطفا من فراء الظربان فوق سترته الفروسية المبطنة وقاية من الاصابة بالبرد ، ولف آخر على عنقه لفاعا من فراء السمور . طلب الفارسان من روتشين ابراز هويته ، ولكن تبين ان كليهما لا يعرف القراءة ، وهددا بانهما سيقتلانه فى مكانه اذا اصر على الدخول . فقال لهما روتشين واهن الصوت «اذهبا الى الشيطان ، انتما واتماتكما» وعاد الى المحطة ثانية .

وفى المحطة دخل روتشين المشرب المحطم نصف المظلم حيث كانت التماعات النيران تسقط من خلال النوافذ العالية ، واستلقى على الريكة من خشب البلوط ، وغفا فى الحال ، رغم الصيحات وصفير القاطرات والطلقات . ولكن لُتفا مشوشة من احداث اليوم ظلت تنفذ اليه من خلال الارهاق الشديد . . . انه قضى يومه بنزاهة . . . لا ، ليس تماما ، على ما يظن . . . لماذا ضرب ذلك الرجل على سنقه ؟ مع انه قد استسلم . . . لكى يغطى على آثار الجريمة ؟ نعم ، نعم ، نعم . . . وتراءت له اوراق اللعب على المنضدة ، واقداح النبيذ المسخن . . . والوصولى الكابتن فيدنيابن — القتيل — باسنانه المتآكلة ، وفمه المبلل مثل عجيزة دجاجة ، المضموم وكأنه متهيئ لقبلة لقائد الجيش الجنرال ايفرت ، الجالس الى لعبة ورق . . . اوه ، اللعنة عليه . . كان محقا فى ضربه . . . .

تصارع النوم ودقات قلبه المرتاعة . فتح روتشين عينيه ، ورأى وجها رصينا قاتما بضوء النور الاحمر المشتعل من النافذة .

زفر واستيقظ ... كانت ماروسيا تجلس الى جانبه ، وهي تمسك على ركبتيها قدحا من الماء المغلي وقطعة خبز ، وقالت :

— خذ ، اشرب وكل .

. . . .

في تلك الليلة تسلل تشوغاى ورئيس اللجنة العسكرية الثورية الى مستودع المدفعية ، الذى لم يبق فى حراسته الا الرجال المتعاطفون مع السلطة السوفييتية ، وايقظا مارتينينكو ، وقال تشوغاى له ما يلى :

— جئنا لتوبيخك ، يا رفيق ، فانك تتصرف امسرا تصرف . . . اما ان تنحاز الى بتليورا بشكل صريح ، ولكن لن نتركك حيا ، واما ان تهيىء المدافع للانطلاق . . .

— هذا ممكن . . . فى الصباح سارسل لكم المدافع . . .

— ليس فى الصباح ، بل الآن . . . آخ ، مارتينينكو ستشبع من النوم فى الآخرة . . .

— حسنا ، فليكن الآن . . .

وفى اليوم التالى كانت جميع نوافذ يكاترينوسلاف تهتز من قصف المدافع . وفى جادة يكاترينينسكي تطايرت فى الهواء البلاطات واغصان الحور ومزق اكشاك البولفار ، وهجمت فصائل العمال وفوج الفلاحين ومشاة ماخنو على البيتليوريين وقد حمستهم هذه الموسيقى ، ودفعوهم الى منتصف الطريق الى المرتفع . عندئذ وفى وجه مخاطر كبيرة شق مندوبون عن مختلف المنظمات الحزبية واللاحزبية وكذلك باير تكاكي الصغير طريقهم الى اللجنة العسكرية حاملين الاعلام البيضاء ، وعرضوا الوساطة لاحلال الهدنة فى اسرع وقت ممكن ، وانهاء الحرب الاهلية .

كان ميرون ايفانوفيتش يجلس الى منضدة فى بهو «استوريا» مكور الكتفين فى معطف صغير تقطعت ازراره وكبيه لقرة ، وقد قال للموفدين ، وهو يمضغ خبزا يابسا وفمه خال من اى قطرة من اللعاب :

— ليس من مصلحتنا نحن ان تهدم المدينة . وانا اقترح انذارا نهائيا : على جميع الوحدات البيتليورية ان تلقى السلاح فى مدة لا تتجاوز الساعة الثالثة نهارا ، وان تكف الشرائم المعادية

للثورة عن اطلاق النار من عليات المبانى . وفى حالة الامتناع ستقوم مدفعيتنا فى الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة بفتح نيرانها على المدينة بخطوط متقاطعة .

وكان الرئيس يتحدث ببطء ، ويمضغ ببطء اشد ، ووجهه مسود من السخام ، واصيب الموفدون باليأس ، وتشاوروا طويلا هامسين ، وارادوا ان يجادلوا . ولكن فى تلك اللحظة نزل الدرج المرمرى الى البهو اناس صاخبون فى ملابس زاهية ومتنوعة يتقدمهم شخصان يحملان فى ايديهما رشاشتين من طراز لويس ، ووراءهما دوزينة من شبان ارتسمت على وجوههم الوقاحة ، وكل واحد مزود بسلاح ، وفى الوسط رجل طويل الشعر ذو عينين لعينتين .

اختطف الموفدون ورقة الانذار النهائى من يدى الرئيس ، وهرعوا خارجين الى البولفار فى الهواء الطلق تحت الرصاص المتطاير .

رفضت القيادة البتليورية الانذار النهائى . وفى الساعة الثالثة والدقيقة الواحدة استشاط الاتمان ماخنو غيظا ودق بالمسدس على الطاولة التى كان المجلس العسكرى الثورى يجتمع حولها وطلب ان تقصف المدينة بلا رحمة وبخطوط متقاطعة . واشفق على المدينة اعضاء المجلس العسكرى الثورى والعمال الذين ولدوا وعملوا فيها . ومع ذلك فقد كان من المتعذر اظهار الضعف ، فتقرر تخويف البرجوازيين . وهدرت مدافع مارتينينكو الاربعة عشر بعد الظهر . وتطايرت هنا وهناك قطع الآجر والتجصيص من جدران البيوت الكبيرة المرتفعة كمدرج . وتراكض ممثلو اللجان الاقتران من البتليوريين الى المجلس العسكرى الثورى . ولم تنقطع هجمات فصائل العمال . واخذ البتليوريون يتراجعون فى ناحية البولفار الى التل .

وفى ليلة اليوم الرابع للانتفاضة اعلن المجلس العسكرى الثورى السلطة السوفييتية فى المدينة .

. . . .

قضى المجلس العسكرى الثورى الليلة كلها فى تأليف الحكومة . وكما توقع ميرون ايفانوفيتش فى تلك المرة فى العربة

كون الفوضويون والاشتراكيون الثوريون اليساريون تكتلا مع الاتمان ماختو ، وتحت حمايته اقتحموا الاجتماع ، وصاروا يتصارعون بضراوة على كل منصب ، ولسبب ما كان جميع الاشتراكيين الثوريين قصار القامة ، وان كانوا اقوياء البنيان يبدو عليهم الارتياح بعد نوم جيد . وكان النقاش معهم صعبا جدا .

كان كل واحد منهم يشب وعلى فمه ابتسامة طرية ويبادر بمخاطبة الاتمان قائلا بانه ، اى ماختو ، زعيم حقيقى واستراتيجى عظيم ، وثار تتطهر كل شيء ، ومكنس من معدن حديدى . . اما نشيانه فغاية فى الروعة وبواسل متفانون !

وكان ماختو يزم شفتيه الشاحبتين ويصغى مكتئبا يهز وجهه الذى اضر به السكر . رفع اشتراكي ثورى متصلب صوته بقوة حتى نفذ من خلال الابواب التى تفتح وتغلق الى الرواق حيث ازدحم رجال ماختو وجمهور من شتى الانواع لا احد يعرف كيف نفذوا الى الفندق .

— ايها الرفاق البلاشفة عم نتجادل معكم ؟ انتم الى جانب السوفييتات ، ونحن الى جانب السوفييتات . . . واختلافنا تكتيكى محض . نحن نرث جهازا برجوازيا لادارة المدينة . وانتم تريدون ان تجعلوه سوفييتيا خلال يوم واحد . ونحن نعلم ان جهاز المدينة لن يعمل مع الشيوعيين ، والتخريب واقع لا محالة ، والمجاعة والخراب محتومان . بينما هم يرغبون فى العمل معنا . وهناك قرار لدوما المدينة . ولهذا السبب نؤيد ترشيح الرفيق فوتين لمنصب مفوض التموين . واقترح غلق باب النقاش ، واجراء التصويت . . .

كان الفوضويون حتى تلك اللحظة يتصرفون بغموض يسار ويازدراء فاذا بهم قد تصرفوا تصرفا مفاجئا جعل الاتمان يدير رقبته الهزيلة .

ورشح ممثلهم ، وهو طالب فى طربوش قانى الحمرة ، بايريكاكى الابن لمنصب المفوض .

— سنصر عليه بكل الوسائل التى نملكها . . . ان بايريكاكى الابن هو شريكنا فى المعتقد ، فوضوى متعلم ، وخبير بالمالية ، وسيكون فى ايدينا سلاحا طيعا مفيدا للشعب الثائر

الحر . . . اقترح عدم اجراء النقاش ، والتصويت برفع الايدى فقط .

كانت ماروسيا وفاديم بيتروفيتش يجلسان عند الحائط على مقعد واحد . تهيجت ماروسيا وراحت تعصر يديها فى حنق ، وتنهض لتهتف بصوت متكسر عال : «هذا عار !» او «اين كنتم بينما كنا نحارب ؟» وعادت الى جلستها ووجنتاها متوهجتان . كانت لا تملك غير صوت استشارى .

وكانت قد نحفت وتلوحت بشرتها خلال تلك الايام . وكانت تشعر بالحر وهى فى معطفها المفتوح القصير من فراء الغنم ، وشعرها مسترسل . وفى الفترات بين خطاب وآخر كانت تحدث روتشين بعجالة عن تنقلاتها . . . عملت فى البداية فى لجنة تموين الفصائل بالخبز والماء المغلى . . . ثم نقلت الى فصيلة الاسعاف ، واخيرا عينت مراسلة . . . وكانت تنطلق شاربة فى عرض المدينة وطولها . . . وتعرضت للرصاص «مائة مرة» وعرضت لروتشين نقوبا فى حاشية التنورة . . .

— ولو لم اكن خفيفة الحركة لكنت فى عداد الموتى . كنت اسمع من يناديني ، فالتفت فاذا بقنبلة تنفجر فى البقعة التى كنت واقفة عليها قبل لحظة . بينما انا مختفية وراء شجرة حور . . . وامتلكنى الذعر حتى اننى احس بارتجاف ركبتى حتى الآن .

وكانت حيوية ماروسيا يمكن ان تكفى لعشر انتفاضات وبينما كانت تتحدث ظهر فى الباب وجه ساشكو المخمش . وشق طريقه بصعوبة ، واومأ لماروسيا باصبعه . فهرعت واسر هو لها بشيء ، فبسطت ماروسيا ذراعيها .

هدر تشوغاى معترضا على المرشحين :

— ايها الرفاق ، نحن لم نجتمع للجدل والنقاش ولم نجتمع لتقديم البراهين . بل اجتمعنا لنحكم ، والحكم لمن لديه القوة . . .

نفد على ماروسيا الانتظار ، فهرعت نحو الطاولة ، واعلنت :

— فى المدينة يعم نهب شامل . . . فاستمعوا الى الرفاق . . . هم يمنعونهم من الدخول الى هنا . . . وقد لووا ايديهم . . .

عندئذ ترامى من وراء الباب ضجيج ولغط واصوات زاعقة ،

واقتحم الغرفة صاشكو وبعض العمال ببنادقهم . وتكلموا دفعة واحدة !

— ما هذا الامر ؟ لقد بثت الشرطة فى الفندق . من الخير ان تذهبوا ، ان تلقوا نظرة . . . والبولفار كله محاط ، وفتيان ماختو يقتحمون المخازن . . . وينقلون البضائع بالعربات .

مد ماختو شفتيه ، وكانه يهم بقضم شىء . . . ونهض من وراء الطاولة ، وخرج . تراجع فتيان ماختو فى الممر والابهو حتى راوا الاتمان يكشر عن اسنانه الصفراء كاسنان كلب هرم . ولم يكن مضطرا الى ان يذهب ابعد من ذلك . فقد راى اشباحا تروح وتجىء فى الجانب الآخر من الجادة عند نوافذ مخزن كبير . وما كاد يغادر باب الفندق حتى ظهر لوفكا على الرصيف .

سال لوفكا وقد ترنح :

— ما المسالة ، ما سبب الهيهبة ؟

صاح ماختو :

— اين كنت ، ايها الوذيل ؟

— اين كنت . . . اثلمت حد سيفى . . . ستة وثلاثين قتلت بهذه اليد وحدها . . . ستة وثلاثين . . .

— حافظ على النظام فى المدينة — زعق ماختو ، ودفع لوفكا من صدره بقوة ، وعبر البولفار راكضا نحو المخزن وتبعه لوفكا وبعض الحراس . ولكن الذين كانوا هناك حدسوا ان عليهم ان يتفرقوا ، فاختفت الاشباح عند النوافذ . ولم يبق الا عدة اشخاص كانوا يركضون على مسافة بعيدة ومعهم صرر ضـــاربين الارض بخطى ثقيلة . ومع ذلك فقد باغت الحرس احد فتيان الاتمان فى المخزن ، وهو ذو شاربين كبيرين ، واخرجوه من المخزن . فدمدم متباكيا بانه لم يات الى هنـــا الا ليرى كيف نهب البرجوازيون الملاعين دم الشعب . حدق ماختو فيه وكيانه يرتجف . وحين جاء فصوليون آخرون متراكضين من ناحية الفندق هز يده فى وجه الرجل .

— هذا عميل معروف للمعادين للثورة . . . لن ندعك تمضى فى عملك القذر بعد الآن . . . اقتلوه واكلوا شره . . .

اعول ذو الشاربين وسلا «لا تفعلو . . .» جـــــرد لوفكا سيفه ، وجار ، ورفع سيفه عاليا وهوى به على عنقه بلهاث . . .

وقال متباهيا ، وتراجع :

— سبعة وثلاثين .

اخذ ماختو يضرب بقدمه فى حنق جنونى الجسد المرتعش المخضب ببركة من الدماء .

— سيكون ذلك عبرة لكل انســـــان . . . فوضى النهب قد انتهت . . . — واستدار بحدة نحو الجمهور الذى ارتد عنه . وقال — يمكنكم ان تعودوا الى منازلكم بهدوء .

. . . .

غفت ماروســيـــا على المقعد فجـــاة ، واسترخت على كتف روتشين ، وارتخى راسها بشعره المرسل على صدره ثمينا فثمينا ، كانت الساعة قد تجاوزت السادسة صباحا . وكان خادم الفندق العجوز الجهم الذى استبدل بذلته الفراك بسترة منزلية مستهلكة ذات جديلتين بمناسبة اقامة السلطة السوفييتية ، يقدم الشاى وقطعا كبيرة من الخبز . وكان قد تم تشكيل الحكومة ، الا ان قضايا ملحة كثيرة بقيت معلقة . فمثلا قدم عمال السكك الحديديـــــة منذ يوم امس استفسارا يسالون فيه عمن سيدفع لهم اجورهم وباية مقادير ؟ فاقترح ماختو الذى ايده الفوضويون هذه الصيغة : ليحدد العمال انفسهم اثمان التذاكر ، ويجمعوا النقود بانفسهم ، ويدفعوا الاجور لانفسهم . . .

ولكن ما كاد النقاش يشتد حتى اهتز فجاة زجاج النوافذ فى القاعة التى تلون هواؤها بلون دخان السكائر الازرق . وتراعى صوت انفجار اصـــــم . وبربر مارتينيتكو الذى كان نائمـــا فى الاريكة . واهتز الزجاج ثانية فاستفاق مارتينيتكو : «اللعنـــة عليهم ، حماقة . . .» واخذ يضرب سدارته على راســـه الحليق . وتناهت هبدة ثالثة ثقيلة . انزل تشوفاى وميرون ايفانوفيتش قطعتى الخبز اللتين كانتا فى يديهما ، وتبادلا النظرات فى قلق . واقتحم الباب لوفكا واحد الفرسان يهز راســـه العامر كالدب . وقال اللازمن ودفع يده فوق اذنه :

— هلكنا . هلكت كتيبة الفرسان كلها . . .

صاح لوفكا عازا غدبه :

– قريب ديفكا ! وانت تقضى الوقت فى الكلام ، يا اتمان ! .. العقيد ساموكيش يزحف بست كتائب ... ويقصـــف المحطــة بالمدفعية الثقيلة ...

. . . .

راقب سكان جادة يكاترينينسكي رحيل جيش ماخنو من جميع النوافذ بتشف وعلى المكشوف ودون حاجة الى الاختفاء وراء الحشايا كما فعلوا من قبل . انطلق الفرسان ضاربين خيولهم بالمقـــارع يمينا وشمـــالا . ورفعت الريح فوق اكتافهم معاطفهم وعباءاتهم القوزاقية وسترات الفرسان القصيرة والاغطيـــة الحريريـــة ... وكانت الخيول المثقلة بالعدول تتعثر على الرصيف المغلف بطبقة من الجمد ، ويتدحرج الحصان وفارسه والغنيمة هالكـــة تحت السنابك ... فكان الواقفون فى النوافذ يصيحون "اها ! .. واحد آخر !" وكانت العجلات تعدو محملة بالاشياء المنهوبة . وعربات الرشاشات ذات الخيول الاربعة تنطلق مكتسحة كل شيء فى طريقها بسرعة تقدح الشرر من تحت العجلات ، وكان المشاة الذين لـم يستطيعوا الصعود الى العربات يركضون وراءها .

وكان كل ذلك يصعد متطلقا فى الجادة مصحوبـــا بعويل وحشى وهدير وفرقعة ، متجها الى منطقة التلال من المدينة ، لان العقيد ساموكيش قد احتل جسر السكة الحديد ومحطـــة القطار ، وقيل ان الاتمان ماخنو الذى كان قد خرج راكضـــا من المجلس العسكرى الثورى ضبطب بقدمه فى غيظ شديد عاجز ، بكى ، والقى نفسه فى عربة الرشاشة التى جلبها لوفكا له الى الفندق ، وغطى راسه بمعطفه من فراء الفنم خجلا او حتى لا يعرفه احد ، وخرج من المدينة اللعينة الى جهة غير معلومة .

وبينما كان جيش الاتمان هاربا من المدينة دون ان يطلق رصاصة واحدة اصطدم بغتة بنقاط الحراسة الامامية التابعـــة للبيتليوريين ، فاختلطت صفوفه من الذعر ، واستدار بخيوله نحو الدنيبر ، الى هلاك محقق . كان الشاطئ فى تلك الناحية شديد الانحدار . حطم رجال ماخنو الاجمـــات والاسيجـــة دافعين من العربات ، وانزلقوا على جليد النهر . ولكن جليد النهر كان رقيقا ، فاخذ يلتوى ويتصدع واخذ الرجال والخيول والعربات يتخبطون

فى الماء الاسود وسط كتل الجليد . ولم يخرج الى الضفة اليسرى الا جزء صغير من جيش ماخنو ، فلول ضئيلة .

فى تلك الليلة طلب عمال كثيرون من افراد الفصائل العودة الى بيوتهم ليتدفأوا ، ويغيروا احذيتهم ويحتسوا شيئا ساخنا . ولم يبق تحت الســلاح غير فصائل الدورية ومحاربى فوج الفلاحين الذين لم يكن لهم مكان يذهبون اليه . فاضطر هذا الفوج ان يتلقى كل الضربة التى وجهتها وحدات العقيد ساموكيش البتليوريـــة فى الظروف غير المتساوية . وحوصر الفوج بالقرب من ساحة محطة القطار ، وابيد بكامله تقريبا فى معركة بالحراب ، ولم يستطع الا نفر قليل ان يتسللوا ويهربوا من خلال الافنية الخلفية ، ويعودوا الى قراهم ، ويحكوا عن الموقعة الرهيبة التى قتل فيها ثلثمائة من الفتيان الطيبين الذين جاءوا الى يكاترينوسلاف ليقيموا السلطـــة السوفييتية .

واسرع ميرون ايفانوفيتش وتشـــوغاى عضـــوا المجلس العسكرى الثورى ليجمعا فصائل العمال والدوريات . ولم يكونا يؤملان الاحتفاظ بالمدينة ، بل كانت مهمتهما اتاحة الفرصة لجميع الذين اشتركوا فى الانتفاضة بالانسلال عبر جسر السابلـــة الى الضفة اليسرى من النهر . واختفت الفصائل المجموعة وراء زوايا البيوت ، والحجارة المقلوبة والمتاريس تطلق نيران الرشاشات على البتليوريين المهاجمين . ومن كل الانحاء تراكض مئات العمال مع زوجاتهم واطفالهم الى الجسر وعبره ... وكان بعضهم يحمل فى يديه متاعا هزيلا كان من الممكن ان يتخلى عنه دون اسف ... وكانت الطلقات تصـــوب عليهم من السطوح ومن الاسفل ، من الشاطئ .

كان آخر من تراجعوا تشوغاى وميرون ايفانوفيتش ورودتشين وماروسيا وساشكا وتشيبع وعشرة رفاق آخرين . تراكضوا من زاوية الى اخرى ، ومن مكمن الى آخر ساحبين رشاشـــة . وكانت قبعات رجال ساموكيش الرمادية تظهر بين الحين والآخر غير بعيد عن مداخل البيوت . وبقى اصعب عمل ، وهو النزول الى الجسر حيث لم تكن توجد اية حماية غير الجثث والصرر المتناثرة ... دار تشوغاى الرشاشة واستلقى وراء درعها مبقيا ساشكو بالقرب

منه ، وصاح بالآخرين «اركضوا خفافا . . .» وركضوا جميعا تحت لعلعة الرشاشة التي بدت وكأن ماسورتها مستذوب من حدة النار .

تعثرت ماروسيا في وسط الجسر ، وسارت بتثاقل وبلا ثقة . . . لحق روتشين بها ، واسندها . نظرت اليه بدهشة تريد ان تقول شيئا ، ولكنها اكتفت بالنظر اليه فقط . قصد روتشين نصف قعود ، وحملها في يديه كما يحمل الطفل . كانت ماروسيا تضغط جسمه عليه اكثر فاكثر . وها هي نهاية الجسر ، واذا بفاديم بيتروفيتش يحس وكأن عصا حديدية تصيب فخذه ، جاهد لكي يبقى على قدميه حتى لا يسقط ماروسيا من يديه ولا يصيبها بأذى . جاء تشوغاي راكضا من الخلف . فقال له روتشين «سأتركها تسقط . . امسكها . . .» وفي الحال وثبت القبعة من على راسه ، وبدت الدنيا تغيم في عينيه . وكان ما يزال يسمع صوت تشوغاي :

— ساشكو ، لا يجوز تركه . . .

١٦

لم تمثل مسرحية «اللصوص» الا في شباط ، اثناء فترة استراحة قصيرة نالها فوج كاتشالين . وكانت قد تخلفت في الماضي المسيرات الطويلة في الصقيع والزوابع الثلجية ، حين كانوا لا يرون امامهم ، بدلا من المبيت الدافئ ، غير الشفق الكئيب تحت السحب ، ولا يجدون في السهوب الثلجية جذامات من الحطب يشعلون النار بها ليدفئوا اجسادهم المتجمدة ، كما تخلفت في الماضي المعارك الطاحنة ، والانذارات الصباحية ، والمناوشات القصيرة الضارية مع القوزاق . كان مامونتوف مع فلول افواجه الممزقة بعيدا وراء الدون . فقد تحلل جيشه . ولم يعد موضع ثقة . لقد ضيع عبثا عشرات الالوف — زبدة قوات الدون — في ثلاث هجمات على تساريتسين .

بعد ان احتل رجال كاتشالين قرية قوزاقية كبيرة استسلمت دون قتال شعروا بالفرح ، وشبعوا ونالوا غايتهم من النوم في

دفء ، والربيع على الابواب ، ولربما ستنتهي هذه الحرب الطويلة بحلوله .

انهكت داشا مسيرة متعبة استغرقت شهرا ونصف شهر ، ولم يدر بخلدها قط ان تشغل نفسها بهذه التمثيلية من جديد ، فقد تبددت اللوازم المسرحية ، وجرح عدة اشخاص من الفرقة ، كما ان كتاب المسرحية نفسه قد ضاع . وكانت داشا تود لو تقضي ولو بعض الامسيات في دفء مع ايفان ايليتش ، وتجلس الى جانبه دون كلمات ولا افكار غارقة في السكينة الهادئة عند الغسق على الاغنية المستديمة للجدجد تحت الموقد .

وكان عليها ان تغسل البياضات وتصلحها ، وترسل حذاء ايفان ايليتش اللبادي ليرقع ، وتصلح من عينتها ، والا فان زوجها وجميع الخلق ، ومن بينهم هي نفسها ، قد نسوا انها امرأة . في المساء الاول خرجت داشا واغريبينيا من الحمام فوق البرك المتجمدة ، وكان الصقيع الخفيف يداعب خدودهما الحارة المبخرة ، فيا لها من سعادة ! هيأت داشا اغريبينيا ، واعدت العشاء . كما ان ايفان ايليتش وايفان غورا عادا من الحمام ايضا وجلس الاربعة حول المائدة ، وصحم الرجلان من السرور ، فقد كان في الجو رائحة حساء الكرنب ، كما ان رائحة طيبة اخرى كانت تنبعث من السماور ! قال ايفان غورا :

— هكذا ، يا ايفان ايليتش ، راحة بعد الاعمال . . .

ولم تحظ داشا بالراحة . ففي اليوم التالي ، وقبل الساعة التي يعود فيها ايفان ايليتش عادة جاءت انيسيا ومعها كتاب شيللر وعليها سيماء الجد والتحفظ ، وتكلمت رافعة عينيها الحالمتين :

— ضجرة انا ، يا داريا دميترييفنا . . . ام لعلي قد فسدت . . . كل الناس يبدون اعتياديين ، اما انا ففاسدة . . . ولقد ظهر ذلك علي منذ الصغر . . . ثم ، فيما بعد ، بالطبع تزوجت في سن مبكرة ، وانجبت اولادا . . . ثم التحقت بي محنتي ، انا في الرابعة والعشرين يا داريا دميترييفنا . وستنتهي الحرب فالى اين اذهب ؟ اعيش مع فلاح في كوخ ريفي ، واحدق في السهب الخاوي ؟ انا بعد كل ما رأيت وسمعت بحاجة الى شيء آخر . . .

ولهد صدر انيسيا تحت معطفها ، وغمضت عيناهـــا نصف المماضة .

– لقد قرأت هذا الكتاب كلـــــه ، ولم اتشرق عنــــه فى المعارك . . . قـــد اكون قليلة الوعى جاهلـــة وغير متعلمة ، ولكن فى الامكان ان يصلح ذلك ، يا داريا دميتريفنا ، فان اصواتا كثيرة تتردد فى داخلى . . . انا لا اعرف شيئا عن نفسى ، ولكننى اعرف عن الناس . . . عيناى تغرورقان بالدمع حين افكر فى اننى نادرة حتى على ان اروى شيئا عن الكومسمولة العاليـــا هذه . . . واذذاك ستنهض حية من هذا الكتاب . وقد حدثنى المرحوم شاريغين عن ذلك . . . يا داريـــــا دميتريفنا ، اليوم وجدنا مكانـــا ، فى المدرسة يسع لحوالى للثمانمائة شخص . . . كما يوجد نجارون عندنا ، ويمكن الحصول على خشب وجنفاص . . . فما الذى يمنعنا عن تمثيل «اللصوص» ؟ نحن نتذكر ادوارنا . . . اليوم تذكرها الاولاد ، ويودون لو تتاح لهم فرصة للضحك . . .

وجاء ايفان ايليتش ، واعجب بالفكرة بالطبع : «فكرة رائعة ! ستمكث هنا اسبوعا . . . وسيكون ذلك عيدا ممتازا للاولاد ! . .» كان ايفان ايليتش انسانا عجيبا . لا شىء يمكن ان يضعف مـــن استبشاره بالحياة . وما دامت داشا الى جانبه فمعنى ذلك انطلاق تام نحو السعادة . . . مثل تلك الايام الحزيرانية البعيدة الزرقاء النشاعية على السفينة . . .

وهكذا لم يكتب لداشا ان تسمع فى الفيض الى دقات قلب حبيبها ، وتتسلل حذرة كانسلال القطة الى افكاره الخفية . . . ولكن هل كان من الممكن ان يكون لديه شىء خفى ؟ ثم ما حاجة داشا الى ذلك ؟ ان ايفان ايليتش رجل بسيط كريم يهب كل ما لديه الى آخره . ووجهه المتيبس من الصقيع والريـــــح بسيط كالشمس . . . آه ان كـــــل شىء سيكون مختلفا لو ان داشـــا ستحمل حياة جديدة ، لحمـــــا من لحمه فى الظلام الغض لجسدها النحيل . . .

بدأت فرقة التمثيل تتمرن . وأية عذابات كانت ! بكت داشا فى صمت . وكان الممثلون يخجلون من تبادل النظرات فيما بينهم ، واظهروا غلظة وقساوة . وبحت اصواتهم من البرد . . . وأبدى

سابوجكوف العون بإلقائه محاضرة عن نشأة التمثيل بشكل عام حيث اثبت ان التمثيل متأصل حتى بين بعض الطيور والحيوانات ، فالثعلبة – مثلا – حين تصيد فارا ، تقوم معه امام صغارها بعرض حقيقى ، فتقفز ، وتنقلب على ظهرها ، وتسير على قدميها ، وتدير ذيلها . . . وتنشطت الفرقة ، وسار الامر سيرا حسنا بعض الشىء . وضعوا خشبة مسرح فى المدرسة ، وطلـــوا الجنفاص ، واعدوا اضواء مقدمة المسرح من القناديل المشتعلة بالسلاء . وعثروا فجأة بين الامتعة فى العربات على ستر الفراك ومعاطف السهرة ، وهى الاشياء التى صادرها ايفان ايليتش من محام عابر بينما كانوا فى المزرعة .

واخيرا جاء اليوم الموعود : ما ان غربت الشمس حتى طاف فى القرية جندى على حصان رمادى تابع للمدفعية (وهذا ابتكار لايفان ايليتش) ، ونفخ فى البوق النحاسى ، واتشأ يصيح : «ايها المواطنون والرفاق ، بعد قليل سيبدأ عرض «اللصوص» لشيللر . . .» .

وهرعت القرية كلها الى المدرسة ، واقتحم الناس مقدمـــة المبنى والمدخل الى القاعة حتى دخلوا اليها وعيونهم جاحظة وقـــد فقدوا فى الزحام قبعاتهم وازرار معاطفهم . . . والذين لم يتسســن لهم حضور العرض زايلهم الندم بسرعة . اذ كان يطل على القرية هلال فى اوائله فى الســماء الزرقاء قبيل الربيع . وارتفعت اصوات الاكورديون امام المدرسة وادهش رجال الجيش الاحمر بغنائهم المحبوب القوزاقيات اللواتى قبلن بالوضع منذ وقت قصير : «طار الملاك فى سماء منتصف الليل . . .» وجرى تعارف وقيلت نكات و«الغزل للعيون ، والقبل للشفاه . .» او من مثل «يريد العسكرى ان يتزوج ، والزواج ليس بعطسة ، ويمكن ان يؤجل . .» .

فى البداية اخذ الجمهور فى القاعة يهدر ضاحكا حين اكتشف ان العجوز المموه بالمكياج بخصلات شعره من الكتان ، والرداء المصنوع من مسوح راهب هو الجندى الاحمر فانين . . . فصاح المتفرجون : «انه هو اعيا ، فانين ، ابد شطارتك ، ولا تخف ! . . .» وحينما ظهر من وراء الكواليس رجل فى ملابس فضفاضة وذيلين يرتدى جوارب نسائية – وقد برزت اسنانه كلها وتباعدت عيناه – يدلف بخطى زاحفة ذات نمط خاص ، وفح فحيح الافعى «يـــا

ابى ، انا هنا ، ابنك الوفى ، فرانتس» عرف الجمهور على الفور ايضا انه كوزما كوزميتش ، فانفجر ضاحكا . . .

كانت داشا وراء الكواليس تمسك بمشطيها وتردد لسابوجكوف :

– هذه النهاية ، الفشل المريع ، كنت اتوقع ذلك . . .

الا ان الممثلين تغلبوا على المرح الذى شاع فى القاعة . تعرف الجمهور على الجميع ، واخذ يصغى . تقدم لانوغين من القناديل الساخنة الداخنة ، فاضاءت من الاسفل وجهه الضخم الذى الصقت به لحية من صوف الغنم ، وحاجبيه الكثين المعوجين ، وطوى يديه على صدره بقوة جعلت سترة السهرة السوداء التى كانت تعود للمحامى فى وقت ما تتفتق ، وقال بصوت قوى :

– «آه ، لو كان فى مستطاعى ان ادعو الى الانتفاضة الطبيعة كلها والهواء والارض والمحيط ، وارمى بالحرب ضد عشيرة بنات اوى هذه كلها . .» .

وبدا الجمهور حالا فاهما الاتجاه التى تتجه اليه المسرحية .

ولم يغير الديكور ، ولم تجر تبديلات تلفت النظر . وقبل بداية كل مشهد كان سيرغى سيرغييفيتش يطل برأسه من بين الستارتين وعلى وجهه ابتسامة ، وكانه على علم بشىء ما خاص يقول :

– المشهد الثالث ، تصوروا القلعة المترفة للكونت مور ، ومن النافذة يأتى عبق الحديقة ، واماليا الجميلة تجلس فى غرفتها . . .

ويختفى وجهه الذى اضاءته القناديل ، وتنفرج الستارة . وما من احد كان يريد ان يقر بان هذه الجميلة الحانقة بتنورتها المرقشة ومنديلها الزاهى اللون المربوط بعقدة على صدرها ، الفتاة المورّدة الجعداء الشعر الواسعة العينين هى اليسيا نازاروفا من السرية الثانية .

تكلمت بصوت واطئ وارتجاف وكانها تصدح ودقت الطاولة بقبضتها لفرانتس «ابتعد عنى ، ايها العاطل . . .» وسارت التمثيلية مثل قصة اسطورية ساحرة من تلك التى كان الجد

يرويها فى الطفولة ، فى امسية شتائية ، وانت تصغى مطرقا برأسك من الموقد . . . .

وكان كوزما كوزميتش يخاف اللحظة التى تصفعه فيها اماليا على خده . فقد كانت يدها رغم استغراقها فى الحلم يد محاربة فى الجيش الاحمر . وقد همس كوزما كوزميتش لها : «اخف . . .» ، ولكنها صاحت بكل قلبها «آه ، ايها الكاذب المشين !» ورفعت ذراعها وكان كل ثقل الحياة الماضية قد هبط عليها وضربت فانقذف كوزما كوزميتش على الكواليس . ولكن احدا لم يضحك . وصاح بعض المتفرجين «يستحق . . .» وصفق الجميع لان كل واحد منهم ود لو يضرب هذا الوغد تلك الضربة .

ثم قطعت القلادة من رقبتها ، والقتها وسحقتها بحذائها :

– «البسوا انتم الذهب والفضة ، ايها الاغنياء ! واتخموا بطونكم وراء الموائد الفاخرة ، واريحوا اطرافكم على اريكة اللذة الناعمة ! كارل ! احبك . . .» .

ابتسم سيرغى سيرغييفيتش وهو يسحب الستارة وراءه وقال بدلالة كبيرة : «فاصل . . .» تقدمت اليسيا وراء الكواليس من داشا ، وانضغطت عليها وضمت وجهها فى صدرها مرتعشة ارتعاشة خفيفة متشعرة :

– لا تمدحينى ، يا داريا دميتريفنا ، لا حاجة لذلك . .

وبعد ذلك سار التمثيل بانسياب ، فى الفصل الاول عرق الممثلون عرقا شديدا ، وخف التوتر من عضلاتهم المتوترة ، وصارت اصواتهم المشدودة السائبة ، ولم يعودوا يعبأون اذا لم يسمعوا همس سيرغى سيرغييفيتش الصافر وهو يلقنهم ، فلم يتورعوا من ان يبتكروا كلاما من عندهم اكثر مضاضة مما لدى شيللر ، او على اية حال اكثر افهاما .

وسر الجمهور سرورا كبيرا بالعرض . كان تليغين يجلس فى الصف الاول جنب المفوض ، وقد دمعت عيناه عدة مرات ، وكان ايفان غورا المفروض فيه ان يكون رابط الجاش ينشج من انفه بصوت عال ، وكانه يشترك فى عملية حربية موفقة . وكان الممثلون مسرورين بشكل خاص ، فلم تكن لديهم الرغبة فى خلع ملابسهم وازالة المكياج ، وكانوا يودون لو يقيمون عرضا ثانيا

غير منتفتين الى صياح الديكة في القرية كلهـــا معلنة اقتراب الفجر .
وانتهى المهرجان . وهدأت الاغاني والاكورديونات ، ولـم يسمع غير باب حديقة يصفق هنا وهناك . وحتى الديكة كفت عن صياحها . وهجعت القرية . وسارت اليسيا ببطء في الشارع والى جانبها لاتوغين وقد القى معطفه على كتف واحدة ، فقد كان ما يزال يشعر بالحر .
— نعم ، يا اليسيا ، نعم ، شيء عجيب . . . تسيرين في غلافك هذا ، في معطفك ، ولكنني اراك من خلاله . . . . الكلمات الاعتيادية غير ملائمة ، ولا اريد ان اقولها لك . . . .
سارا في نهاية القرية ، الى حيث كان السهب في المدى البعيد يندمج في الظلام . وقد تسلق الهلال عاليا في السماء التي دكـن لونها . وما زالت القناديل تتراءى امام عيني اليـسيا مشتعلـة ، ووراءها في الظلمة الحارة المكتومة تنقت كل كلمة تقولهنها صدى قويا . وتصاعدت اليها زفرات عميقة ، وكان في قوتها هذه شيء نسوى قويد لا قرار له . وقد طاب لها ان تستمع الى لاتوغين : . . .
— عرفت الكثيرات ، يا ملاكي . . . الى الشيطان بهـن جميعا . . . انا لم اصادف مثلك . . . لقد اجننتي حبك ، فان شئت اسمعى ، وان شئت لا . . .
وتوقف وتوقفت . وعانقها ، وسقط معطفه من كتفـه على الثلج . وقبل شفتي اليسيا الباردتين قبلة قوية طويلة . وابعدها عنه ، ونظر في وجهها الذى بدا غير مكترث بوجنتيـه المحمرتين بحمرة البنجر . بينما هي لم تنظر اليه . كانت عيناها المطليتان تحدقان في الهلال .
— ذلك هو عذابي . . . آوه ، لا بأس . . .
رفع معطفه من الارض ، وتابعا سيرهما من جديد . . .
في تلك الليلة لم تنم داشا ايضا . اسندت كوعها على الوسادة وراحت تقول :
— انا افهم ان ذلك لا يمكن تحقيقه الآن . . . ولكن اسمع . عندنا اليسيا وعندنا لاتوغين ، وكوزما كرزميتش موهبة حقيقية . . . سيكون باغو . . . سنمثل «عطيل» . . . سنضيف الى الفرقة عناصر

جديدة ، غدا اصدر امرك في الفوج . . . وسترى . سنخصـــص امام الفرقـــة ، امام الفيلق . . . ولكن من الضروري ، اولا : الاحتفاظ بديكورنا . تحدث مع المفوض ليخصص لنا عربات خاصة . . . ، هل رأيت كيف استمعوا ! تكون لدى انطباع بان المتفرج اسفنجة تمتص الفن . . .
— انت على حق .
اجاب ايفان ايليتش . كان يسير واضعا يديه وراء ظهره في قميص محلول وقد خلع حذاءه الطويل الرقبة وانتعل خفين خفيفين — كانت داشا قد اشترتهما من قوزاقية ، وفي كل مرة كان يحجب ضوء القنديل على الطاولة بجسمه الضخم الاسود ، وكان ذلك لا يريح داشا لسبب ما . وحين اقترب من النافذة الصغيرة استدار ، وانار الضوء وجهه الباسم القوي الاحمر الذى بدا وكأنه من البرنز ، ودق قلب داشا بقلق .
— انت على حـــق . . . الروسي يحب المسرح . . . الروسي يملك ولعا خاصا بالفن . احتياجـــا غير اعتيادى ، تعطشا . . . انظرى . شهر ونصف من المعارك ، والناس قد انهكوا ، ولم يبق منهم غير الجلد والعظم ، والكلب نفسه يمكن ان يلعلس . . . فما حاجتهم الى شيللر ؟ ولكن اليوم اقبلوا على العرض كما يقبل الناس على العرض الاول في المسرح الفني في موسكـــــــو . . . ثم خذى اليسيا ! . . انا لا افهم . انها ممثلة بالفطرة . . . ايـــة حركات واية رهافة . . . اية عواطف ! وهى فضلا عن ذلك حسناء .
وحجب الضوء مرة اخرى وهو يهز ذراعيه ، وقالت داشا :
— ايفان ، الا يمكنك ان تكف عن السير في الغرفة ؟
وكان في صوتها ضيق لم يسمعه منذ زمن بعيد . كانت وهي ترتفق الوسادة تتفرس بعينين غائمتين . توقف ايفان ايليتش على الفور ، وتقدم من الفراش ، وجلس على حافته . وبان عليه تخوف مكشوف .
— ايفان — وقعدت هي على الفراش — ايفان ، منذ زمان وانا اريد ان اوجه اليك هذا السؤال — ومررت اصبعها على عينيهـــا بسرعة — ذلك شيء صعب ، ولكن لا استطيع الاصطبار اكثر من ذلك . . .

ورأت من وجهه انه فهم اى سؤال سيكون ، ومع ذلك فقد قالته لانها قد رددته مع نفسها الف مرة :

– ايفان ، الم تعد تعتبرني امرأة كليا ؟

اخذت كتفاه ترتفعان ، وغمغم بشيء غير مفهوم ، وامسك براسه . حدقت داشا فيه تحديقة ثاقبة ، وكان ما يزال لديها امل ما . . . امن الممكن ان يكون ذلك حكما صادرا عليها ؟

– داشا ، داشا الى هذا الحد انت لا تفهمين . . . على اية حال يجب ان تكوني شهمة .

– شهمة ؟ (ذلك هو الحكم ! . . .)

– ان حبي لك كبير يا داشا . . . يمكنك ان تكرهيني . . . رغم انني في الحقيقة لا اعرف لاى شيء ؟ . . . وربمـــــا هو نفور عضوى . . . وانا افهم ذلك جيدا . . . لقد احببتك لمدى الحياة . . ولا يهم ، واقولها لك بكلمة شرف ، ان يكون ذلك صعبا على او يسيرا . انت معى مثلمــــا قلبى معى . . . فلا تقلقى ، وكونى سعيدة . . .

كانت داشا تصغى ، وهى تهز راسها . تغضن وجهه ، وقال بجهد :

– لا ادرى لماذا كنت اتخيل دائمـــــا قدميك الصغيرتين المسكينتين : كم ضربتا فى الارض بحثا عن السعادة ، وكل ذلك بلا جدوى ، بلا جدوى . . .

اطلعت داشا من تحت البطانية قدميها العاريتين النحيلتين وقفزت على الارض الترابية ، وركضت واطفات القنديـــــل على الطاولة .

. . . .

بعد ان عاد ايفان غورا من العرض مع اغريبينا اشعل شمعة محترقة الى النصف واستعرض الاوراق المختلفة التى تراكمت خلال اليوم وكان من عادته ان يهيىء كل شيء قبل ان ينام . جلســـت اغريبينا على مصطبة قرب الباب ، فى ناحية دون ان تخلع معطفها ولا قبعتها .

قال ايفان غورا متثائبا حاكا رقبته :

– وانت ايضا لم يكن تمثيلك سيئا . لم اسمع ماذا صايت على المسرح . كان دورك صغيرا جدا . . . ولكـــــن اليسيـــا ، اليسيا ! – وازال الفه نحو الشمعة . وابتسم ابتسامة ذات معنى ، واخذ يتصفح الاوراق – ربما ذلك لانها اثارت ثورتها – على حد تعبيركن – بشكل مفرط . انها تشعر ان هناك رجلا . . . يجب ان تصان ، ان تصان . وماذا تظنين ؟ ما اكثر ما رفعت الثورة من امثالها ! وفى ذلك تكمن المسألة كلها . . . كـــل شيء مخطط على ذلك . . لا ، ليس الشعب جاهلا . . . الشعب غنى بالمواهب . . . ونحن نقاتل ببذخ تام . . . نحن بحاجــــة الى آلات . . . هاك ، اقرلى . . . – ومر بيديـــه على احدى الاوراق – امسترلينـــــا على دبابة بايدينا العزلاء . . . تلك ملحمة . . . لو كان لى ابن لوشمت على صدره : تذكر ولا تنس من انت مدين اليه بالسعادة ، لا تنس الذين ترقد عظامهم فى اعشاب السهب . . .

استندت اغريبينا على الحائط ، واغمضت عينيها ، واطبقت شفتيها ، وراحت تتذكر امضى شيء على نفسها يخطر على بالها . كيف كان ايفان غورا يرقد ليلا فى السهب بلا حراك ولا نفس ، ولم يكن يهمها آنذاك احى هو ام ميت . كان فى بندقيتها آخر مشط من الرصاص . . . ولم تود الرحيل مع الآخرين ، ولم تتركه وحيدا فى هذا السهب ليلا . . . ومن المؤسف ان عظامها منذ ذلك الحين لم ترقد بيضاء هناك . . .

– لماذا لا تاوين الى فراشك ، يا اغريبينا ؟

وحجب ايفان غورا الشمعة عن عينيه براحة يده ، ونظر . كانت الدموع تنزل من عينى اغريبينا المطبقتين ، وغالبا ما تقطر من رموشها الطويلة ، بينما ارتفع حاجباها الاسودان عاليا . . . جمع الاوراق فى حقيبة الميدان ، واقترب من اغريبينا ، وقرفص امامها :

– ما هذا ، يا بلهاء ؟ . . . لعلك متعبة ؟

– اوشم صدره ، علمه ، علمه عن العظام البيض . . .

– ماذا وراءك ، يا اغريبينا ؟

اجابت بصوت يائس لفتاة صغيرة :

– انا فى الشهر الثانى . . . وانت لا ترى شيئـــا . . . لا تعرف الا شيئا واحدا : اليسيا ، اليسيا . . .

فجلس ايفان غورا عند قدمى الرببينا ، وانفتح فمه من تلقاء نفسه كما ينفتح فم الابله . . .

— الا تكذبين ، يا فتاة ؟ اية سعادة هذه ، احقا انك حامل ؟ يا عزيزتى ، يا حلوة . . .

وعندما قال ذلك قالت بصوت خافض ، صوت امرأة :

— دعك عني ، اغرب عن وجهى . . .

ومالت نحوه ، وطوقته ، وهبطت بثقلها عليه وهى ما تزال تنشج ، وفى كل مرة يزداد نشيجها تقطعا ووهنا .

انهار الدحار الاتمان كراسنوف للمرة الثالثة قرب تسارتسين حيوية فى الجبهة الجنوبية كلها حيث كانت تتسلط بجيوشها الثلاثة — الثامن والتاسع والثالث عشر — على الدون والدونباس . كان القوزاق المعادون يبدون وكأنهم على استعداد لنبذ العداء ، وتعليق سروجهم فى السقيفة — ومحطا للدرق الحمام — ولف البنادق فى الخرق المزيتة ، ودفنها عميقا فى الارض . فاى شيطان ظن ان العيش متعذر فى ظل البلاشفة ؟ فالارض لم تذهب عنهم ، ها هى ترسل البخار على الاكمات الجرداء تحت شمس الربيع ، وايديهم ما تزال معهم ، والخيول تنشد الاطواق ، والثيران تسأل عن النير . . .

كان القائد العام فى سيربوخوف يستعجل الهجوم ، وكانت خطة القائد العام الاولية الناقصة قد تغيرت بعض الشىء ، وجرى تعديل فى تشكيلات الجيوش اثناء المسيرة ، فبدلا من الزحف على طول الدون الى الجنوب الشرقى اضطرت الجيوش الحمراء الى ان تستدير الى الجنوب الغربى نحو دونيتس فى الوعورة وفى موسم تسوء فيه الطرق . ولكن الوقت كان قد فات للقيام بذلك ، فان طريق الثورة الرئيسى — الدونباس البروليتارى — قد اغلق باحكام . ذلك لان فرقة ماى — مايفسكى قد شقت طريقها الى الدونباس اثناء الشهرين اللذين انقضيا فى المكوث فى البقعة ، وعززت بوحدات قوية من جيش المتطوعين اخذت من شمال القفقاس بعد ان شتت الجيش الاحمر الحادى عشر على رمال استراخان . والآن كان يقف على الضفة اليمنى من الدونيتس خمسون الفا من قوات

البيض المختارة بقيادة ماى — مايفسكى وبكروفسكى وشكورو .

بدأ الربيع دفعة واحدة . فتحت الشمس الشعثاء ذابت الثلوج ، وامتلأت منخفضات السهوب بماء ازرق ، وانتفخ نهر دونيتس ، وجرت فيضانات لا مثيل لها . ولما كانت خطوط السكة الحديد فى تلك الاتجاه تسير بخطوط طول ، فقد لزم الامر ان تجرى اعادة تشكيل الوحدات فى الارض الترابية ، فى وعورة الطريق . ولصقت العربات العسكرية بالوحل اللزج متخلفة عن وحداتها . وكل هذه المصاعب اوقفت وابطأت اعادة تشكيل الوحدات . وكان البيض قد احتلوا المعابر على نهر دونيتس الطافح على مساحة عريضة . وتحول الهجوم الى معارك مطولة . وفى ذلك الوقت بالذات اندلعت فجأة فى المؤخرة فى قرية فيشينسكيا المتصالحة انتفاضة قوزاقية دموية عنيدة دبرها عملاء دينيكين . وتقلت طائرات البيض اليها المحرضين والمال والسلاح .

وبناء على امر القائد العام تابع الجيش العاشر وحده ، وكان يشكل الجناح الايسر ، التحـــــرك نحو الجنوب على طول الطريق الحديدى العام دافعا ومحطما فلول وحدات كراسنوف .

وسار الجيش العاشر لملقاه حتفه .

فى الظهيرة ، وفى السهب حيث كانت تهب ريح حلوة كان يؤذى العين النظر الى البرك والجداول وبحيرات الربيع ، فقد كـــانت الشمس تلتهب عليها ، وفى السماء النيلية الشفافة كانت عصائب الطيور تصفـــق باجنحتها ، وتحلـــق الغرانيق زاعقـــة بصوت الابواق . فكان الـــناس يرفعون رؤوسهم وهم على درجة العربة يشيعونها بابصارهم ! . . . الى اين ، ايها الاحرار ؟ الى اوكرانيا ، بوليسيه ، الى فولين ، وابعد من ذلك ، الى المانيا وراء الرين ، الى الاوكار القديمة . . . ايه ، يا غرانيق ، بلغى التحية للطيبين ، وحدثيهم ، وانت تضعين ساقا حمراء على السقف كيف طرت فوق روسيا السوفييتية ، ورأيت الجليد قد تشقق فيها ، ومياه الربيع تطفح على الحوافى ، ربيع لا مثيل له فى اى صقع بضراوته وعصفه وخصوبته . . . .

كانت ناشا والفريبينا وانيسيا غالبا ما يجتمعن الآن على فسحة العربة تعبات من الشمس والريح . وكان القطار يتجه جنوبا ، والربيع مقبل للقياء . وكان المقاتلون قد خلعوا معاطفهم واكتفوا بالقمصان وحدها غير مزرورة عند العنق . وبين الحين والآخر كانت تترامى فرقعة وهدير من وراء الافق الى الامام ، حيث كانت الوحدات الامامية للجيش العاشر تطرد من الضياع العصابات الاخيرة من القوزاق ، واحتلت فليكوكنياجسكيا دون صعوبة كبيرة . وبعد ان تجاوزها قطار فوج كوتشاليف افرغ حمولته على ضفة نهر مانيتش ، واخذ يحتل مواقعه في الجبهة .

تمتد سهوب سالسكيه منبسطة خالية مثل منبسط اخضر متجمد من البحر ، وفي الربيع يغدق عليها نهر مانيتش مياها كدرة تغطي عيدان القصب . وهنا ، في الازمنة الغابرة ، كانت السهام تطير على مانيتش من ضفة الى اخرى ، وكان الرُحّل الاسيويون يتقاتلون مع السكيثيين والالانيين والقوط . ومن هنا جعل الهونيون الارض القراء حتى شمال القفقاس . وهنا كان الكالميكيون يستمعون وهم جالسون عند خيامهم اللبادية الى القصة المأثورة عن بطولات ماناس . وكانت السهوب باذخة في الربيع . فقد كانت الارض التي ارتوت بالماء تتعجل التدثر بالاعشاب والزهور ، وكانت الغروبات المسائية البليلة تورّد حوافي السماء باتجاه البحر الاسود ، والنجوم الكبيرة تسطع حتى حافة الافق ، وكانت الشمس النهارية تخرج من وراء تزوين مثل درع فارسي .

نزلت قيادة فوج كاتشاليف في المبنى الوحيد الصالح للسكنى في هذا القفر ، في بيت طيني مغطى بالقصب وراء سياج زريبة خيل مهملة . ولم يكتشف اثر للعدو في مكان قريب ، وتوغل رجال الاستطلاع بعيدا في الجنوب باتجاه تيخوريتسكيا ، وفي الغرب نحو روستوف . وكان من الصعب اقناع المقاتلين بانهم لم ياتوا الى هنا ليصطادوا السمك بالقنابل اليدوية ، ولا يضيعوا العتاد الغالي بالتسديد على الوز في الشفق المسائي . فان امامهم نضالا صعبا ، لان الجيش قد قذف في مؤخرة العدو ، وهذا العدو ليس بسيطا ، كما انه لم ينهزم بعد .

ذات مرة عاد ايفان غورا من قيادة الفرقة ، واستدعى ايفان ايليتش ، وسار الاثنان صامتين على الشاطئ ، وجلسا عند الماء ، واشعلا سيكارتين : كانت الشمس الحمراء المسطحة تنحدر محجوبة بالابخرة المتصاعدة من الارض ، وكانت الضفادع تنق على مانيتش كله نقيقا عاليا خبيثا .

قال ايفان غورا :

– الخبيثات ، يضعن البيض .

– اها . ماذا عرفت هناك ؟

– الوضع السابق . قلق . الجميع مدركون ، وليس من الممكن عمل اي شيء . ان امر القائد العام القاطع هو الهجوم على تيخوريتسكيا . ما رايك في هذا ؟

– ليس النقاش عمل ، يا ايفان ستيبانوفيتش ، بل تنفيذ الامر عمل .

– انا اسالك ماذا تفكر فيه بينك وبين نفسك ؟

– ماذا افكر ؟ . . . وانت الا تنوي رميّ بالرصاص ؟

– تفو ، يا عبيط . . . الجميع يجيبون بهذا الجواب . . . انتم جبناء جميعا . . .

ودفع ايفان غورا طاقيته وحك راسه ، ثم شعر بان جنبه يحكه : انقلعت كتلة من الارض من الشاطئ تحت قدميه ، وسقطت في الدوامات المائية الكدرة بطرطشة خافتة . نقت الضفادع بضراوة عارمة ، وكانها تود ان تسكن عشيرتها الزلقة رحاب الارض كلها .

– اذن ، فانت تعتبر ايعاز القائد العام صحيحا ؟

– لا ، لا اعتبره .

اجاب ايفان ايليتش بخفوت وثبات .

– اها ! لا ! حسنا . . . . لماذا ؟

– نحن هنا قد انقطعنا تقريبا عن الاحتياطات ، عن قواعد التموين . وسيقطع العدو في مكان ما الخيط الرقيق الذي يربطنا بتساريتسين . وعندئذ سنقع في المصيدة . ان الامر كله لا يبدو ركينا .

– الآن ؟ . . .

— ان هجومنا ابعد الى الجنوب ، على تيخوريتسكيا يعني ان نكون كالقط وهو يضع رأسه في بوز الحذاء . ولن يحصل من ذلك اى خير . يمكن ان افهم المغزى لو ان جيشنا أرسل تظاهرا لاخراج قوات البيض من الدونباس بأى ثمن . . . .

— وبعد . . .

— ولكن ذلك متعة غالية الثمن : ان تحشم جيشا لمجرد التظاهر . . . .

— وما هو استنتاجك ؟

نفخ ايفان ايليتش خديه ، والقى في الماء سيكارته المنطفئة الملفوف تبغها بورق الجرائد :

— لم اضع استنتاجا ، يا ايفان ستيباتوفيتش . . .

— انت تكذب ، يا اخ ، تكذب ، تكذب . . . حسنـــا ، اسكت . كـــل شيء مفهوم من دون ان تقول شيئـــا . . . ذات مرة حكيت لى ، يا ايفان ، عن مفوضـــك غيمزا ، وكيف ارسلك . . . الى القائد العام في تبليغ سرى عن الخائـــن سوروكين . . . وعلى هذا . . . (وتلفت ايفـــان غورا وخفض صوته) اشعر وكانني اود الآن لو اسافر بنفسي لا الى القائد العام في سيربوخوف ، بل الى موسكو مباشرة . . . هناك وعند متدس اما في القيادة العامة او في المجلس العسكرى الاعلى . . . نعم ، ولا يمكن غير ذلك ، فانها الحرب . . . ولنحن نثق كثيرا . . . فاذا كان لنا ومن لف لفنا افكار سامية ، وقلوب كبيرة فاننا نظن ان العالم كله فاضل اذا استثنينا البرجوازيين ، فلنضرب باخلاص ذات اليمين وذات الشمال . . . لقد تمعنت في فلاديمير ايليتش في بتروغراد : انه له عينا روسية متقلصة فاحصة . . .انه متحمس ومفكر ، يضع يديه خلف سترته ، ويسير جيئة وذهابا ، وفجأة يوجه جبينه وعينه نحو الشخص ، ويفهم كل شيء . . . هذا مـا ينبغي . . انا وراءك اراقب كل حركة ، وكل كلمة تقولها . . . اما انت فلا تراقبني ، بل تثق بي ثقة عمياء . . . سأقدم لك مهمة مؤذية . ما عليك الا ان تصمت وتنفذ .

— لا ، لا انفذ .

— منذ لحظة قلت : ليس النقاش عمل . حسنـــا ، ماذا ستعمل ؟

— احاول ان اوقظ ، ان اقنع . . .

— تقنع ! متلف . . . يجب ان ترمى ! . . . آه ، يـــا الهي . . .

وضع ايفان غورا يديه الكبيرتين على طاقيته ، على رأسه مستندا مرفقيه على ركبتيه . انه لم يخبر تليغين بالشيء الاهم ، بالبرقية التي قرئت يوم امس في الاجتماع الحزبي للفرقة ، برقية رئيس المجلس العسكرى الاعلى للجمهورية مرسلة من موسكو — ردا على الاستفسار المقلق لقائد الجيش العاشر — برقية متعجرفة مهددة تؤكد بشكل قاطع على التوجيهات التي اعطيت من قبل .

— واليك آخر الاخبار : على جناحنا الايمن تتركز اربع فرق للجنرال پوكروفسكي جلبت من الدونباس ، وفيلـــق الجنرال كوتيبوف يزحف للقائنـــا ، وقد قطع علينـــا الطريق الى تيخوريتسكيا بالفعل . حزر خطة القائد العام . . . وعلى الجناح الايسر تتجمع خيالة الجنرال اولاغاى . . . والى الوراء على بعد اربعمائة فرسخ يوجد غواء .

قال ايفان ايليتش :

— وهذا ما سيحسم كل شيء . اذا تريد رأيي فهو ان يجلى على الفور جميع المرضى ، وترسل جميع الاشيـــاء الزائدة الى المؤخرة لتكون اخف . لن نستطيع الاحتفاظ بمانيتش . . .

لم يرد ايفان غورا بشيء . صمت قليـــلا ثم بصق في النهـــر بحنق :

— ان مثل هذه الاحاديث كان من الممكن ان توصلنـــا انا وانت الى محكمـــة عسكرية . . . . كفى ان يقال لك : مت على مانيتش فتموت . . .

— لم ارفض ذلك قط ، ولا ارفض على ما يبدو .

في اليوم الثاني من ايار ظهرت دوريات الجنرال كوتيبوف وراء النهر . في بادىء الامـر كانـت مجموعـات صغيرة حذرة من

الخيالة . كانوا يستكشفون السهب ، فتارة يتوقفون قليلا ، وتارة ينطلقون باقصى سرعتهم تحت الرصاص على البرك اللامعة ، وظلوا يتجمعون اكثر فاكثر ، ويقتربون من الجبهة بجراة اشد ، ويترجلون مرقدين خيولهم ، ثم اخذوا يطلقون النار على النقاط الامامية .

وفي الثالث من ايار اقتربت قوات كوتيبوف الرئيسية وسط هدير قصف المدافع وخلال تركزها في منطقة الخط الحديدي اخذت تهاجم ساحل مانيتش بوثوق وبموجات متعاقبة . وحلقت طائرات استطلاعية ذات جناحين مختلفة عن الطائرات الروسية وعن الالمانية . وتقدمت لوريات تحمل عوامات الجسور نائرة الماء والوحل . وفي نفس اليوم اخترقت النهر الوحدة الضاربة من قوات كوتيبوف في الموقع الذي تحتله فرقة موروزوف . الا انها ابيدت في معركة بالحراب .

ومع هبوط الليل تراجعت الصفوف وتخندقت ، ولم تشتعل النيران في اي مكان . وهدا التراشق ، وخيم على السهل ليل هادىء رطب عبق بالزهور . ونقت جوقات الضفادع الرنحة وكان لا شيء مهما قد حصل . وتوهم بعض الرجال النائمين وآذانهم على الارض انهم يسمعون حفيف العشب الخفيف ، والظلام الدامس المتحرك ببراعمه الرقيقة القوية .

استمر الاجتماع طول الليل في مخبأ الاركان عند ايفان ايليتش . كانوا ينتظرون بنفاد صبر امر الفرقة بالهجوم ، فقد كان واضحا للجميع ان عدوا كهذا العدو لا يجوز ان يترك ساعة واحدة للتناور دون عقاب ، وتوجيه الضربات في الاماكن التي يريدها على الجبهة النحيلة للجيش العاشر الممتدة الى ما يقرب من خمسين فرسخا ، والمكشوفة من الجناحين ومن المؤخرة . وتحدث امراء الوحدات عن مزاج وحداتهم . ان رجال الجيش الاحمر متهيجون ولا ينامون ويتهامسون في الخنادق بانه لو كان هذا في عام ١٩١٨ لهرع الفوج كله لاجتماع عام مهددا بانه سيمزق آمره اذا لم يصدر امرا بالزحف الى الامام ! فهناك لحظات من اليأس والحنق يبدو وكان في الامكان اكتساح كل شيء في الطريق .

دخل الى المخبأ موشكين وهو آمر سرية ، وكان قد عبر لتوه

نهر مانيتش وغطس فيه حتى رقبته من الضفة التي توجد فيها حظيرة من سريته . كان عاملا من عمال التعدين في تساريتسين ، وقد هوى الفن العسكري هوى الصياد .

– والحصة المخبأ لطيفة ، يا رفاق . – قال ذلك مقلصا عينيه من دخان التبغ الكثيف بحيث ان الشمعة لم تكسه ترف . وخلع حذاءه الطويل قافزا على هذه الرجل ثم على الاخرى ، وسكب الماء من باطن الحذاء ، وتابع قوله : – جرح رجالي واحدا من الكاديت . واردت ان اجلبه معي ، ولكنه مات مع الاسف . . . فتى صغير ، غر ، ولكنه مملوء بالضغينة . ظل يصرخ «اوغاد ، اوغاد ! » حتى ان فتياننا ذهلوا . . . مزود يرتدي الجوخ والحذاء الطويل والاحزمة . . . شتان بينه وبين القوزاقي ! القوزاقي احمق ، ريفي ، من اخواننا ، اذا ضربته رد لك الضربة مثلها ، ولكن . . . اما هؤلاء ذوو الايدي البيض فلا يرافون باحد . . . العصبة متكونة من ضباط فقط ، وآمر العصبة عقيد . . وكل واحد منهم يشد ساعة في معصمه . . . لقد قلت لرجالي : يا صعاليك ! اخرجوا الساعات من ادمغتكم ولا تزحفوا على مواقع البيض من اجل الساعات . ساكسر اسنانكم . . .

وضحك موشكين كاشفا عن اسنان جيدة ، واثارت الطيبة وجهه القبيح المجدور الذكي .

– الوضع كالآتي ، يا رفاق : ترامت من السهب ضجة لا نزال نسمعها منذ زمان منذ هبوط الظلام . فارسلت المستطلع ستيبكا تداليليف ، وهو ليس انسانا بل روحا قدسيا . . . وزحف وجاء وقال ان مدفعيتهم قد اقتربت ، ويبدو ان المشاة محملون على عربات . . . استعدوا ، يا رفاق . .

احس ايفان ايليتش بالدوار من الدخان ، فخرج من المخبأ الى الهواء الطلق لبرهة من الوقت . كان هلال حاد الطرفين كالمنجل منير بشكل نافذ يطل وسط النجوم الوامضة . وكانت ثلاثة شخوص نسائية تجلس على سياج من ثلاثة الواح . اقبل ايفان ايليتش نحوها .

– طلب الى الجميع ان يناموا في الخنادق فقط . انا لا افهم ،

– لا نستطيع النوم .

قالت داشا ذلك من اعلى الحواجز منحنية نحوه .

وبدت ثلاثهن جميعا – داشا وانيسيا والمريبينا – وصيعات العيون لحيلات غير اعتياديات . . . ولم يقدر ان يتبين امن يبتسمن له او يتعبسن بطريقة خاصة .

قالت المريبينا :

– نحن ننتظر هنا انتهاء اجتماعكم .

وقالت انيسيا :

– اما انا فاسمح لى بالبقاء معهما ، ايها الرفيق آمر الفوج .

– انزلن الى الارض ، لماذا قعدتـــن فعود الدجـــاج ؟ الرصاص يتطاير ، الا تسمعن ؟ . . .

قالت داشا :

– فى الاسفل روث وبراغيث ، اما هنا فالريح رخاء . .

وقالت المريبينا :

– ليس هذا رصاصا ، بل خنافس بيضا ، فلا تخدعنا .

وانحنت داشا ثانية :

– الضفادع خرجت عن اطوارها ، ونحن جالسات نستمع . . .

التفت إيفان ايليتش الى النهر ، وفى هذه اللحظة فقط انجذب انتباهه الى الزفرات والانات الايقاعية للهفة والانتظار ، وها هو المنتصر ، المغنى المنفرد الكبير الفم ، بطول ثلاث بوصات ، وذو العينين الزرقاوين الجاحظتين يبدأ غناءه ويغرد بثقـــة بان النجوم نفسها تسمع ثناءه على الحياة . . .

– لطيف ، برافو – قال إيفان ايليتش وابتسـم – حسنا ، اجلسن ، ولكن اذا ما حدث شىء أسرعن بالدخول فى الخندق فورا . . .

– وجذب كتف داشا نحوه ، وهمس فى اذنها – بديع . . . حقا ؟ انت بديعة جدا . . .

وهز زراعــه ، وسار نحو المخبـأ . وحين عادت النساء الى الانفراد قالت انيسيا بخفوت :

– وددت لو تطول الجلسة العمر كله . . .

المريبينا :

– السعادة تكسب بالدم . . . ولهذا فهى غالية . . .

داشا :

– يا فتاتى ، كم رأيت فى حياتى من اشياء ، وكل شىء قد مــر دون ان مسّنى . . . كنت طوال الوقت انتظر شيئـــا غير اعتيادى ، شيئا فريدا . . . عذبنى قلبى الاحمق وعذب آخرين . . . الافضل ان يحب المرء لليلة واحدة ، ولكن بشكل جيد . . . ان يفهم كل شىء ، ويمتلىء بكل شىء ، ان يعيش مليون عام فى ليلـة واحدة . . .

ومالت برأسها الى كتف انيسيا ، وفكرت المريبينا مع نفسها ثم مالت هى ايضا على انيسيا من جانبها الآخر . وظللن جالسات هذه الجلسة طويلا على الحواجز ، وظهورهن الى النجوم .

. . . .

كانت الطائرات الجديدة تصحح مرمى مدفعية كوتيبوف بتحليقها فوق الانفجارات بعد ان تلقى على الحمر بعض القنابـل ، وترتفع فوق السهب كالعقبان باتجاه الافق ، نحو البطاريات التى اخذت عند الفجر تقصف مانيتش بشدة .

ولتخويف العدو طارت من الفرقة طائرة وحيدة مرتفعة فى الجو ، وهى طائرة قديمة بطيئة السرعة كانت قد ادت خدمتهـــا كاملـــة الحرب الامبرياليــة ، ورمت فى تساريتسين ترميما بدائيا .

وكان من المرعب النظر اليها بهيكلها الخشبى وبجناحيهـا المرقعين خلافا لكل قوانين علم الطيران . تقرقع وتكاد تنطفىء مارة فوق الرؤوس . الا انه كان يديرهــا فالكا تشيرداكوف الشهير فى الجبهة الجنوبية كلها والمعروف جيدا عند الطيارين البيض . وفالكا رجل ضئيل الجسم كالقـرد اعرج مائل الكتف محطم العظام كأنما مشدود بعضها الى بعض بالغراء . كانوا يسألون «فالكا ، احقا ما يشاع عنك من انك فى عام ١٩١٦ اسقطت طيارا المانيا مجربا ، وفى اليوم الثانى طرت الى المانيا لتلقى الورود على قبره ؟ » فكان يرد بصوت موصوص : «وماذا فى ذلك ؟ » وكانت طريقته معروفة : حيث يفقد لديه شريط الرشاشة كان يهوى على العدو من فوق ويضربه بجسم طائرته . «فالكـــا ، وكيف لا تسقط انت ؟» – «ماذا لو سقطت ؟ غير مهم . . . » .

حين رأى الرجال طائرته تحلق فوق السهب على انخفاض سروا جميعا ، رغم انه لم يكن ما يسر به . كانت القذائف العالية الانفجار تنفجر على كلتا ضفتي مانيتش حاصرة رجال الجيش الاحمر في الخنادق . كان هناك ست بطاريات للعدو على الاقل تهدر بلا انقطاع ضد بطارية واحدة للحمر . وكانت صفوف العدو تقترب بوثبات سريعة وحماس واندفاع لا يكبح .

طار فالكا تشيرداكوف فوق الرؤوس وجناحا طائرته يترنحان ، وهبط على مسافة غير بعيدة ، ونزل من الطائرة ، وسار بالقرب منها يعرج ، هرع جنود حمر اليه . كان زيت الطائرات يغطي وجهه كله .

– اعندي فرجة ؟ – قال ذلك غاضبا ، واخرج من الطائرة حقيبة الادوات والقطع الاحتياطية – ابعدوا طائرات العدو عني . اريد ان اعمل .

وبالفعل كان العدو قد لاحظه ، فراحت ثلاث من طائراته تحوم فوق المكان محلقة بعلو شاهق لان الجنود الحمر اخذو يطلقون النار عليها . تساقطت القنابل تترى ورفعت نوافير من التراب . وكان فالكا يصلح انبوب الزيت وهو لا يلقي التفاتا لما حوله . وانفجرت قنبلة على مسافة قريبة جدا حتى ان طائرته تمايلت ، وتساقطت على جناحيها كتل من الارض . عند ذاك رفع بصره الى السماء ، وهدد باصبعه ، وحين فرغ من التصليح صاح بالجنود الحمر :

– هيا ، تعالوا ، وادبروا المروحة – وصعد الى الطائرة واستقر في مكانه . – كيف تديرون ، يا رفاق ؟ ليست هذه ضفيرة امرأة ، هيا ، لا تخافوا من العرق !

اخذ المحرك يعطس ، وارسل صوتا مصما ، وهدر وقفز الجنود الحمر مبتعدين ، وتدحرجت الطائرة على السهب متمايلة متوثبة الى مسافة بعيدة حتى بدا وكأنها لن تترك الارض ، ثم ارتفعت . حلق فالكا صاعدا في الجو ، واخذ يتقلب لكي يختلط في خزان الوقود الخليط الوسخ من البنزين والكحول بشكل جيد ، وسم في الجو انشوطة عريضة ، وهوى بكل سرعته على العدو . الا ان الطائرات الثلاث اخذت تبتعد مسرعة رافضة القتال .

بعد ان طار فالكا تشيرداكوف فوق الجبهة بالقدر الذي اعتبره كافيا هبط على الارض مرة اخرى وارسل مذكرة الى تليقين :

«شاهدت ثماني سيارات ركوب جديدة في الجبهة . انه دينيكين مع الاجانب . تلك حقيقة ، فالتفتوا الى ذلك . حطم مدفعان للعدو . اطلقت النار على طابور للمشاة . انا ذاهب الى القاعدة للتزود بالبنزين . . .»

كان دينيكين في الجبهة . وقد انقضى اكثر من عام بقليل منذ ان كان يهتز في عربة مصابا بالتهاب القصبات وملتفا ببطانية من فراء النمر في قافلة من سبعة آلاف من مقاتلي جيش المتطوعين تحت قيادة كورنيلوف . شقوا لهم طريقا دمويا الى يكاترينودار ، والآن كان دينيكين دكتاتورا مطلق الصلاحية على الدون الاسفل كله وعلى كوبان الغنية كلها وعلى تيريك وشمال القفقاس .

اخذ دينيكين معه في هذه الجولة في الجبهة الى الجنرال كوتيبوف ممثلين عسكريين انجليزيا وفرنسيا ليشعرا بالحرج الشديد والخجل على اوديسا وخيرسون ونيقولاييف التي اعطيت للبلاشفة بشكل مشين . لو كان الجيش الاحمر النظامي اخرج من هناك الفرنسيين واليونانيين لهان الامر ! بل ان الفلاحين الانصار قتلوا بالسيوف لواء يونانيا كاملا في نيقولاييف على مرأى من المدمرات الفرنسية . وتراجع المنتصرون في الحرب العالمية امام الفلاحين الروس ، فزعا على ما يبدو ، وبعد ان سلم الفرنسيون خيرسون جبنا اجلوا فرقتين من اوديسا . . . شيء لا يقبله العقل ! خافوا من شيوعيي موسكو . عزم انتون ايفانوفيتش على ان يرى الاوروبيين الامجاد رأى العين كيف يحطم جيشه الشيوعيين حاملا شعارا من اكليل الغار والسيف .

وكان يضمر في نفسه مساءة اخرى من قرار مجلس العشرة في باريس عن تعيين الاميرال كولتشاك الحاكم الاعلى لروسيا كلها ، واني لهم كولتشاك ! في عام ١٩١٧ نزع عنه سيفه الذهبي ، والقاه من سلم الاميرالية في البحر الاسود . وقد ذكرت ذلك الصحف في جميع العالم تقريبا . وفي ذلك الحين كان الجنرال دينيكين سجينا في

سجن بيخوفسكيا ، وقد صمتت الصحف عن ذلك . وفي عام ١٩١٨ يهرب كولتشاك الى امريكا الشمالية ، ويدرس فن الالغام في اسطولهم الحربي ، والصحف تنشر صوره الى جانب نجوم السينما . . . ويهرب الجنرال دينيكين من سجن بيخوفسكيا ، ويشترك في الحملة الجليدية ، ويتسلم عند جثة القتيل كورنيلوف عبء القيادة الثقيل ، ويحتل مساحات اكبر من فرنسا . . . فتكتفي صحيفة باريسية هزيلة بنشر ثلاثة اسطر عن ذلك ، مع صورة متخيلة له بسبلتين : «الجنرال دينيكين» ! بينما يعين كولتشاك حاكما لروسيا ، وهو دعي شهير ، مصاب بهستيريا وجنون العظمة مولع بالكوكايين !

لم يكن التون ايفانوفيتش يؤمن بنجاح سلاح كولتشاك . في كانون الاول كان بيبلايف وهو احد جنرالات كولتشاك الحديث الرتبة قد استولى على بيرم ، فاذا بكل الصحف الاجنبية تزعق : «قبضة حديدية تطل على موسكو البلشفية» . وحتى التون ايفانوفيتش نفسه قد صدق بذلك برهة ، وتحمل لنجاح بيبلايف على مضض . الا ان موسكو قد ارسلت الى كاما (كما ابلغت الاستخبارات) المفوض ستالين ، نفس الشخص الذي حطم في الخريف كراسنوف مرتين قرب تساريتسين ، واسرع بتدابير جذريـــة في تنظيم الدفاع ، وسدد لبيبلايف الشهير ضربة اخرجته من بيرم الى الاورال . وبهذه النتيجة كان لا بد ان ينتهي دون شك هجوم كولتشاك الحالي على الفولغا ، الذي يجري دون استعداد حازم ، وبطريقة خادعة مصحوبـة بهرج عالمي لا يصدق وهدير التصفيـــار من قبل تجار سيبيريـــا السكارى . - تكتيكنـــا يختلف قليلا عن التكتيـــك الذي استخدمتموه واستخدمناه نحن والالمـــان في الحرب العالميـــة . الصفوف اقل كثافة ، وبفواصل كبيرة جدا . وكل حضيرة تنفذ مهمة مستقلة .

قال دينيكين ذلك واقفا على سيارة جديدة مكشوفة انيقة من نوع «فيات» واشار بيده المقفزة بقفاز ابيض من الشمو الى لواء الفريق تيلوف ، وهو يقوم بحركة انتشار حاذقة وكانما هو في استعراض .

وكان الى جانب القائد العام يقف الفرنسي في سترة من الجوخ الناعم السماوي اللون ، وبنطلون عسكري فاخر مثلها ، وعلى رأسه

كبيه مخملية صغيرة غاطسة ومائلة بشكل حاذق ولها شريط مذهب ، ومن تحت المنظار الذي كان يحدق فيه برز شاربان صغيران ناعمان ، وعلى جانبه زمزمية من الالمنيوم للكونياك . الى هذا الحد كان الفرنسي مزودا باسباب الارتياح ! كما كان الانجليزي واقفـــا على موطئ السيارة ينظر في منظار ايضا ، ولكنه اقل رهافة وابسط ملبسا في لباس كاكي له جيوب عريضة محشوة بصور فوتوغرافية وتبغ وغلايين وقداحات ، وطاقيته المسطحة كالفطيرة ، المفرطة في نزولها على الانف كانت موضع نقاش من قبل الحاشية الروسية الواقفة على مسافة تنم عن الاحترام . «مهما تقل فان الانجليز لا يعرفون كيف يلبسون البزة ، انهم من النوع البلدي ! والامر مختلف مع طاقية الفرسان ! ثم كيف كان فرسان جلالتها يرتدون القبعات ؟»

كان كوتيبوف الوعق يمتطي صهوة حصان كالميكي صغير قرب السيارة ، رجل وخطه الشيب راسه عريض المنكبين في فروة خروف محلولة الازرار ، وبمناسبة الاستعراض ارتدى قفازين وشد مهمازين . كانت عيناه الصغيرتان ملتهبتين فقد جاء اليوم الخامس وهو ما يزال يضرب مانيتش اللعين ، وكان يدرك جيدا ان هذه الحركة الاستعراضية التي يقوم بها لواء تيلوف امام هذين المدللين ما هي الا باليـــه متكلف اللواء غاليا .

شرح دينيكين قائلا :

- ان خاصية هذه الحرب هي قدرتها الكبيرة على المناورة ، ومن هنا تنبثق كل الاهمية التي تكتسبها الخيالة عندنا . وهنـــا لدى الافضلية الحاسمة : نيريك وكوبان والدون تقدم لي مائة الف خيال نظامي . . .

- او لا - لا - لا - لا . . .

ترنم الفرنسي بذلك رخي البال غير تارك المنظار من فوق عينيه .

- والحمر لا يملكون خيالة ، وليس لديهم القوة التي ينشئونها منها باستثناء لواء بوديوني الذي سبب متاعب كثيرة للاتمان السابق كراسنوف المسكين . . .

قال الانجليزي من خلال اسنانـــه دون ان يترك المنظار ايضا :

— يجب ان يكون لك مائة الف سرج ولجام .

— نعم ، هنا تكمن المسألة كلها .

قال دينيكين ذلك بصوت جاف ، وامسك نفسه رغم انه كان يود كثيرا ان يقول الحقيقة كلها لهذين الحليفين في هذه اللحظـــة بالذات ، وسط قوائه ، وتحت هدير المدافع (كانت السيارة تقف على بعد فرسخ واحد فقط من البطاريات) . ان يقول لهم انهم تافهون ، وان سياستهم برمتها قصيرة النظر وجلة وبخيلة في غاية التقتير ... فقد اثبت لهم مثل عملية حسابية بسيطة ان البلشفية اخطر عليهم من مائتين وخمسين فرقة المانيـــــة ... فقدموا السلاح بالقدر الذى احتاجه ، ايها السادة ، اذا كنتم تخشون ارسال جنودكم الى روسيا ... سنتحاسب بعد ذلك ، فى موسكو !

— اذا لم يكف ما عندى من السروج فسادع القوزاق يجلسون على ظهور الخيول عارية .

قال دينيكين ذلك دون ان يضبط نفسه ان لم يكن بحدة فليس بزيادة فى الطيبة ، والتفت الى المترجم ، وقال :

— ترجم ما تعنى كلمة عارية ليفهمها كلاهما .

ولكن المترجم ، وكان شابا على النمط الجنوبى مطواعا الى حد الفرق عب الهواء بفمه فجأة ، بدلا من الجواب . وفى تلك اللحظة هتف كوتيبوف جاذبا رأس حصانه ، وغامزا اياه :

— ايها السادة ، اسرعوا ، تحت السيارة !

مع هدير المعركة لم يلاحظوا كيف طارت فوق السيارة طائرة صفراء مترنحة ، بل ولم يسنح الوقت لاى واحد منهم لاطلاق النار عليها ، فقد حلقت فى زاوية حادة طلع منها فالكا تشيرداكوف الضئيل الخشن الشعر ، والقى قنبلتين يدويتين احداهما على غطاء «الفيات» الفاخرة مباشرة ، والثانية على مقربة ... ثم كشف فى تكشيرة عن اسنانه البيض ، وحلق عاليا .

ومــــع ذلك استطاع الجنرال دينيكين والانجليزى والفرنسى الانزلاق تحت السيارة ، وقد صعب ذلك على انتون ايفانوفيتش بشكل خاص بسبب كرشه ومعطفه الثقيل . ولم يصبهم الا الذعر ، وتطاير افراد الحاشية فى جميع النواحى كالرشاش ، كما استطاع كوتيبوف نفسه ان يتنحى .

هاجم جيش المتطوعين بعنف لا مثيل له ، وبقى الكثيرون منهم يرقدون منطرحين على السهب . الا ان صفوفا جديدة متزايدة ظلت تزحف نحو ماتينتش ، كانوا يظهرون هنا وهناك تحت النار المتوازية المنطلقة من الرشاشات الخفيفة ويركضون منحنين ، ويتجمعون على الضفة الاخرى من النهر . امر تلبفين اخراج راية الفوج من المخبأ ، وخلع الغلاف منها .

لقد حلت اللحظة الحاسمة . كانت مدفعية البيض توجه نيرانها على احتياطات كاتشالين ، وتطايرت هناك اسدال كثيفة من التراب ، ومن الضفة الاخرى كان ينهمر وابل غزير من الرصاص . واندفعت صفوف المتطوعين الاخيرة دون ان تنبطح على الارض . وتوقفت نار الرشاشات فجأة ، وتقفز مئات الرجال فى النهر ، بضراوة غلى بها الماء ، وخوضوا فى الماء الى صدورهم والى رقابهم هازين البنادق ، وسبحوا وتقفزوا من الماء مصابين بالرصاص ، وتخبطوا وغرقوا ، بينما انزلق على جثثهم آخرون جدد وجدد ... لم يكن عرض النهر هنا يزيد على ثلاثين ذراعا ... لم يعد فى مستطاع اية نيران من الرشاشات ايقاف هؤلاء الرجال المسعورين الزاعقين الى حد الجنون . ولكن عبثا كان صياح الفريق تبلوف وهو يقف وسط القصب فى الضفة الاخرى ملوحـــا بسيفه : «الى الامام ، الى الامام !» ظانا ان زخم الهجوم المفزع سيترك الحمر فى حالة ذعر فيتقهقرون ، ويفرون .

كان رجال فوج كاتشالين ينتظرون هذه اللحظة طيلة اليوم ، والذين اكل القلق قلوبهم ، وعانوا انفعالهم تقسوا فى توتر خانق . حين بدأ الهجوم صاح امراء الوحدات والشيوعيون بالجنود الحمر ممسكين اياهم من قمصانهم او بنطاليلهم لئلا يخرجوا قائلين «اطلقوا ، اطلقوا ...» وترددت شتائم مريعة فى الخنادق . اذ لم يكن بالعدد القليل منهم من شارك وهو فتى او فى سن الشباب فى مناوشة بقبضات الايدى فى الشتاء على الجليد ، على الجسر او فى وسط الشارع شادا حزامه بقوة ، مرتديا قفازات جلدية . لقد كانت فى دمائهم الرغبة القديمة فى العراك بالقبضات . «آه ، اوغاد ، آه ، اوغاد» ويملأ الحنق افئدتهم ... «اتركنى ، يا ... ابن !! ...» وكان لاتوغين اول من قفز من الخندق شاكا حربته صارخا صرخة وحشية .. وانطلق الجنود الحمر وراءه منحدرين على الساحل الصعب للقاء المهاجمين «هورا» .

هورا ، هورا ! . . . » قبرد الاولاد يهتاف مثلـــه «هورا ، هورا ، هورا ! . . . » . كان هجوم رجال كاتشالين بالحراب لا يكبح في جماحه . بعد ان صدوا الذين وصلوا الى الشاطئ من الاعداء ، خوضوا في الماء ، وقاتلوا في وسط النهر ، ضاربين باخامص البنادق ، ملقين القنابل اليدوية ، متقاتلين مع العدو بالسلاح الابيض . . . وكيف يستطيع الضباط ابناء الاعيان ذوو الاجسام المتأنقة ان يصمدوا ، مهما تكن روح القتال عندهم ، ضد فتيان الريف الاقوياء ، وعمال مناجـــم الدونباس ، وعمال التفريغ والشحن على الفولغا ، وقاطعي الاخشاب الذين كانوا يظهرون فجأة من تحت الماء ويقفزون على اكتافهم . وتعالت فوق النهر المضطرم المحمر بالدم اصوات اللغط وقعقعة السلاح وهدير القنابل اليدوية المتفجرة . ودحر البيض ، وارجعوا الى الوراء ، فاخذوا يخرجون على الجانب الآخر من النهر . انزل الفريق تبلوف تعزيزات جديدة . عندئذ تناول المفوض ايفان غورا من حامل الراية راية الفوج المصنوعة من الحرير القرمزي بنجمتها الذهبية ، والمثقبة برصاص المعارك السابقة ، ورفعها عاليا ، وركض بخطوات ثقيلة نحو مانيتش محاطا بالشيوعيين .

والى الاعلى في مجرى النهر ، حيث اخذ الماء ينزل بمستواه ، وتلوح فيه رؤوس القصب كان تليفين قبـــل بدء الهجوم قد وضع الاحتياط تحت قيادة سابوجكوف . وحين تناول ايفان غورا الراية ترك تليفين نقطة القيادة ، ووثب على فرسه ، وعدا به الى مرج مغمور بالماء . وعندما وصل الى القصب صاح بالجنود الحمر الذين ظلوا نصف نهار باركين في الوحل كالخنازير البرية :

— يا رفاق ، العدو يهرب ، لا تدعوه يفيق على نفسه !

عبر مائة وخمسون مقاتلا تحت غطاء القصب الى الجانب الآخر من النهر جارين بايديهم رشاشات ثقيلة ، تاركين احذيتهم في الطين اللزج زاحفين تارة وسابحين تارة اخرى ، وخرجوا الى جناح رجال كوتيبوف واخذوا يضربونهم . وتقررت نتيجة المعركة . تراجع البيض من مانيتش ، واخذوا يتراجعون تحت غطاء من النيران ويفرون . وعلى مسافة بعيدة من جناحهم الايمن ، المنتشر فوق السهب كالحمم الخفيفة هبت لمساعدة فوج كاتشالين الخيالة من القطاع المجاور لقطـــع الطريق عليهم .

خرجت فلول لواء تبلوف من الحصار ، ولم يقع تحت حراب المقاتلين الحمر غير شراذم منفصلة من البيض متخلفة . واضحت الملاحقة ابعد من ذلك خطرة . امر تليفين سابوجكوف بتسوية خط الجبهة والتخندق ، وذهب بفرسه الى حيث كانت راية الفوج تلوح على بعد نصف فرسخ في السهب . وكان يراقبها منذ زمن كيف عبرت النهر ، وتقدمت الى الامام ، وتوقفت ، وفجأة ارتخت ، وارتفعت من جديد ، ورفرفت وتحركت الى الامام .

غطت سحب سوداء الشمس الآفلة ، ودكن السهب بسرعة ، ولمعت في الافق مدافـــع كوتيبوف ، وصفرت القذائف متجهـــة الى مكان ما ، وهدأ كل شيء . وغطى الليـــل ميدان المعركـــة الدامية .

ظل تليفين يبحث عن المفوض ايفان غورا طالما كان في الامكان رؤية الاشياء . والمقاتلون الحمر الذين التقى بهم اختلفوا فيما قالوا عنه . كان الجميع قد رأوه يعبر النهر حاملا الراية . ولكن الراية بعد ذلك كانت في يد آمر السرية موشكين . ولكن حتى موشكين هذا قد جرح . واخيرا تبين ان الراية في يدي شاب متين البنيان ، جاء لاتوغين وغاغين الى تليفين . وقد بقيا وحدهما حيين من طاقم المدفع ، بعد ان حطمت القذائف مدفعهم تماما ، وقد اكمل خدمته الوطنية .

قال لاتوغين محركا شفتيه بصعوبة :

— كم كان ذلك رهيبا . ان تذكره يبعث الذعر .

وقال غاغين الصموت عادة بصوت خافت ايضا :

— حتى الآن من الخطر الاقتراب من اي واحد من الفتيان . انهم يتلمسون ، كما لو باضلاعهم . . واذا نظرت اليهم يبدو وكأنهـــم يطعنونك بحربة . . .

— الملك تبحث عن ايفان ستيبانوفيتش ، يا ايفان ايليتش ؟

— نعم ، نعم ، هل رأيته ؟

— تعال .

ساروا نحو النهر ملتفين حول الجثث . ومن الظلام ترامت هنا وهناك انات وتمتمات . وكان رجال الاسعاف يتنادون فيما بينهم باحثين عن الجرحى . وميز ايفان ايليتش همس كوزما كوزميتش اللاثغ . كان لاتوغين يمشي في المقدمة فتوقف فجأة ، وقرفص .

– انت الآن عزيزة علينا عزة مضاعفة ... وسيكون طفلك ابن الفوج .. فكرى بالمهمة التى تحملينها – ومسد على شعرها – تناولى البندقية ، ولنذهب ...

احنت الغريبنا راسها بحداد الى المكان الذى جلست بالقرب منه طوال الليل . ونهضت ، وتناولت بندقيتها وتبعتها ونزلت من الرابية .

استمرت المعارك الدامية على مانيتش الى منتصف ايار ، وهدات . حنق الجنرال دينيكين لجهود كوتيبوف العقيمة فى خرق جبهة الجيش العاشر ، وللخسائر الفادحة للغاية ، فاستدعاه الى يكاترينودار . وتكلم البارون ايفانوفيتش فى مكتبه وبحضور رومانوفسكى المتعالى المزدرى ، وكانت لبرته مرتفعة وفى غير وجهه حتى ملقيا القلم السميك على الاوراق الموضوعة امامه :

– قل لى : هل نحن نقاتل ام نقوم باستعراضات بهلوانية للسادة الحلفاء ؟ لسنا العبيد الذين كانت تلقيهم روما لمصارعة الاسود ، يا صاحب السيادة ! ما الداعى لكل هذا التهور ؟ فضيحة ! عملية غير متحضرة البتة ، حرب عصابات !

كان كوتيبوف يعرف دينيكين جيدا ، وفهم السبب فى فورانه هذا . صمت جهما ، ونظر بطرف عينه الى باقة الزهور الصغيرة بالقرب من المحبرة .

– تفضل ، اقرا ، وابتهج – وتناول دينيكين الورقة الاولى من ضمة الاوراق – خرقت جبهة الجيش التاسع الاحمر بخسائر تافهة ، وخرقت بشكل ممتاز ... ونحن نحتل منطقة القوزاق المنتفضين . والظاهر اننا سنحتل قرية فيشينسكيا بعد ايام ... الا انه كان من الممكن ان تتحول العمليات على دونيتس الى هجوم واسع ، لو لم يستخدم ذلك العدد الكبير من قواتنا على مانيتش . انا خجل ، يا سادة ، من استراتيجيتنا ... العالم كله ينظر الينا ... ولدى الناس هناك حساسية مرتفعة جدا ، كونوا على ثقة ... تفضلوا هنا ...

وبحث عن نظارته الانفية بين الاوراق وسار مع كوتيبوف ورومانوفسكى الى طاولة من خشب البلوط حيث بسطت خرائط عسكرية .

كانت الخطة هى ان يقوم الجنرالان بوكروفسكى واولاغاى بعد فراغهما من تركيز قوات خيالة كبيرة على جناح الجيش العاشر باختراق مؤخرته وتحطيم قوة الخيالة البلشفية ، والاستيلاء على محطة فيليكوكنياجيسكيا ، والانتهاء خلال اربعة او خمسة ايام من محاصرة الحمر كليا على مانيتش .

اخرج دينيكين من جيب جانبى منديلا قطنيا نظيفا فواحا بماء الكولونيا ، واخذ يمسح به نظارته الانفية ، وارتعشت قليلا اصابعه القصيرة بجلدها الجاف اللامع .

– ان جيش المتطوعين يحل قضايا السياسة العالمية . وقد اخذ الغرب يفهم ذلك بعد سقوط اوديسا وخيرسون ونيكولاييف ... ويجب ان نقوم بضربات خاطفة ماحقة . والنشاء فى هذه الحرب يتحول الى ناقلات الاسلحة ... وقد كنت دائما احذر من المجازفة ، وانا لا احب الالعاب المغامرة . ولكننى ايضا لا احب الخسارة ... واذا نجاحاتنا فى الدونباس لا تكتسب نطاق هجوم عام فى عمق البلاد ولا تنتهى بموسكو فسأضع رصاصة فى صدغى ، ايها السادة ...

دق رومانوفسكى الوسيم طرف سيكارته على علبة سيكائره الفضية بابتسامة متشامخة . والقى الجنرال كوتيبوف نظرة جانبية من تحت جبينه المغضن الواطئ وحدس من اين لالبارون ايفانوفيتش هذا الافق فى الافكار . اذن ، فانهم ينفخون له ذيله بقوة ، يوبخونه . ولكن كوتيبوف كان جنرال ميدان لا جنرال اركان . اى ان قضايا الاستراتيجية كانت تبدو له ضبابية جدا ومتعبة ، وكان عمله ان ينحر العدو فى مكانه . قال :

– سنفعل كل ما فى وسعنا ، يا صاحب المقام الرفيع . اذا امرت بان نحتل موسكو هذا الخريف فسنحتلها ....

ظل رجال كاتشاليين خلال ثلاثة ايام يشقون طريقهم نحو الطريق الحديدى دون ان ينالوا جرعة من ماء او قطعة من خبز . لقد صدر فى

الحادى والعشرين من ايار امر بالتراجع . وتراجع الجيش العاشر من مانيتش شمالا الى تساريتسين شاقا الحصار بجهود وضحايا ضخمة . وكانت ريح جافة تهب ، وتسطع الافسنتين على الارض ، وكان السهب رماديا ، والافق البعيد كدرا حيث كان خيالة اولاغاى تقف كقطعان الذئاب .

وكانت خيول العربات تسقط هالكة ، والجرحى والمرضى من الرفاق ينقلون الى عربات كانت مكتظة بدونهم ، وكان ذوو الجراح الخفيفة والممرضات يسيرون وراء العربات متعثرين . وكانت الشفاه تتورم وتتشقق من العطش . وكانت العيون الملتهبة المتقنعة اتقاء الريح الشرقية تبحث فى الافق عن معالم مضخة الماء التابعة للسكة الحديد . ومن منخفضات السهب العريضة لم تفح حتى رائحة رطوبة ، بينما كانت المياه هنا تصل الى الوسط قبل مدة قصيرة . فليت هناك بعض القطرات من ذلك الماء لتبل الافواه السوداء !

فى احد هذه المنخفضات حين نزلت العربات على منحدر معشب وقعوا فى كمين ، وارتفعت الطلقات من مكان قريب ، وهجم القوزاق على العربات المضطربة حاثين خيولهم ، طالعين من مخبأ لا يعرفه الا الشيطان ، مؤملين غنيمة سهلة . انحدر زهاء خمسين من النهابين القتلة على المنحدر شارعين لحاهم . الا انهم رجعوا بنفس الخفة ، حين اخذ الرصاص يتصدى لهم من وراء كل عربة . فقد كان كل جريح مزودا ببندقية ، وحتى داشا اطلقت النار مقلصـــــة عينيها بكل قوتها .

استدار القوزاق بافراسهم ، ولم يقع الا واحد منهم تدحرج مع فرسه . وتراكضوا نحوه آملين ان يأخذوا منه زمزمية الماء . وتبين انه يضع كتافيتين فضيتين . سحبوه من تحت الفرس القتيل فراح يكرر مذعورا : «استسلم . . . استسلم . اعطيكم معلومات قودونى الى الآمر . . .»

انتزعوا منه زمزمية الماء ، كما وجدوا زمزميتين اخريين فى عدل السرج .

— اجلبوه حيا الى هنا !

صاح آمر السرية موشكين الذى كان يجلس فى العربة مكسور الذراع مضمد الراس .

وقف الضابط الاسير امامه فى هيئة استعداد . كانت له سحنة رذيلة قلّ ما صادف ان راى مثلها : وجه مترهل ذو فم رخو وعينين ميتتين ، وكانت رائحته حريفة ثقيلة .

— هل انت نظامى ام من رجال العصابات ؟

— من وحدة غير نظامية مساعدة .

— أتقومون بالانتفاضات فى مؤخرتنا ؟

— نحن بموجب امر الجنرال اولاغاى نقوم بتعبئة الذين انهوا مدة الخدمة . . .

وسارت العربات من جديد ، وسار الضابط الى جانب العربة . وكان يرد بأحر استعداد وطواعية وبدقة . كان يعرف كيف يشترى حياته ، والظاهر انه كان من رجال الاستطلاع ذوى الدراية . سار بعض المقاتلين الحمر بالقرب من العربة ليسمع ما يقوله . واخذ الرجال يتبادلون النظرات حين تحدث عن دوتيشس فى رد على سؤال عن تراجع الجيش الاحمر التاسع ، وكيف ان فيلق الجنرال سيكريتوف للخيالة قد احدث ثغرة بين الجيشين التاسع والثامن ، وراح يغير على مؤخرات الحمر .

— تكذب ، تكذب . لم يحدث هذا .

قال آمر السرية موشكين ذلك فى غيظ وتوق ، ودون ان ينظر اليه .

— ابدا . هذا صحيـــــح . ارجو المعذرة : لدى نشرة القيادة العليا . . . .

نزلت انيسيا نلازاروفنا من العربة ، وسارت ايضا مع جماعة المقاتلين الحمر بالقـــرب من الاسير . قرا موشكين اوراق النشرة المرفرفة بالريح . وانتظر الجميع ما سيقوله . كانت انيسيا طوال الوقت تبعد الرفاق بيدها الضعيفة لتقترب من الاسير اكثر . فكانوا يقولون لها : «ما هذا ؟ لا يوجد شىء يلفت النظر . . .» كانت قدماها متقلتين ، وراسها موجعا ، وعيناها كأنما ذر فيهما رمل جاف . لم تستطع الوصول الى الاسير فتعلقت برفاقها ، وتعثرت وامسكت بمنال الفرس ، واوقفت العربة . لم يدرك احد فى الحال ما هى مقبلة عليه . اتلعت رقبتها ، ونظرت الى الاسير بعينيها الشاحبتين الواسعتين على كل وجهها المسود الناحل . وقالت :

— انا اعرف هذا الرجل ! يا رفاق ، ان هذا الرجل هو الذى احرق ولدى حيين ، وضربنى ضربا مميتا . . . وجلد فى قريتنا تسعة وعشرين رجلا حتى الموت . . . .

اكتفى الضابط بابتسامة ساخرة ، وهز كتفا . واطبق المقاتلون الحمر فى الحال ، ونقلوا ابصارهم بينه وبين انيسيا . قال موشكين :

— حسنا ، حسنا ، سنتحقق من ذلك . اذهبى ، وانطرحى على العربة ، يا عزيزتى ، اذهبى . .

كررت انيسيا ، وكانها فى اغماءة :

— يا رفاق ، يا رفاق ، لا يجوز ان يترك حيا . انا افضل على ذلك ان تقطعوا قلبى . . . فتشوه . . . اسمه نيميشايف ، وهو يتذكرنى . . . انظروا ، لقد عرفنى !

صاحت فرحة مشيرة اليه باصبعها .

امتدت عشرات الايدى ، ومزقت سترة الضابط القوزاقيـــة المشبعة بالعرق ، ومزقت قميصـــه ، وقلبت جيوبه ، وصدقت انيسيـا ، فقد وجدوا هوية عسكرية باسم آمر السرية نيقولاى نيقولاييفتش نيميشايف .

ظل يكرر مدلهم السحنة :

— انا لا اعرف شيئا ، لا افهم . المرأة تكذب ، تهذى ، انها مصابة بالتيفوس .

عرف المقاتلون الحمر مأساة انيسيا ، وتراجعوا فى صمت حين تناولت انيسيا البندقية من احدهـــــم ، واقتربت من نيميشايف ومست كتفه بيدها ، وقالت :

— لنذهب .

تلفت بوحشية فى وجوه المقاتلين الحمر الرصينة وزفر واراد ان يقول شيئا لموشكين الذى استدار عنه ماضيا فى قراءة النشرة . وامسك الاسير بجانب العربة ، وكان فى ذلك انقاذا له . الا انهم فصلوه عنه ، ووخزوه فى ظهره :

— اذهب ، اذهب . . .

عندئذ سار فى السهب مذهولا ، غاوزا راســه بين كتفيــه ، متعثرا كالاعمى . وسارت انيسيـــا على بعد عشر خطوات وراءه ، ورفعت البندقية الثقيلة ، وضغطت الاخمص على كتفها :

— التفت نحوى .

التفت نيميشايف خفيف الحركة متهيئا للقفز ، واطلقت انيسيا النار فى وجهه ، ولم تلق نظرة اخرى ، وعادت الى رفاقهـــا دون ان تلتفت . وكان هؤلاء ينظرون بلا حراك وبجهامة وهم يشهدون عملية اعدام محققة .

وقالت انيـــيا :

— يا صاحب البندقية ، خذها .

وسارت نحو العربـــة الاخيرة ، وصعدت اليها ، واستلقت ، وامتطت بدثار الفرس .

١٧

كانت كاتيا تصحح الاملاء فى الدفاتر المدرسية . كانت هذه الدفاتر المقطوعة والمخاطة من انواع مختلفة من ورق الجدران (كانوا لا يكتبون الا على الجانب الخلفى منها) انجازا هائلا فى حياتها البائسة ، ومن اجلهـــا سافرت بمفردهـــا الى كييف . كان الوصول الى مفوض الشعب لشؤون التعليم سهلا . حين علم المفوض بشخصيتها وبالسبب الذى جاءت من اجله ، امسكها من مرفقيها ، واجلسها فى مقعد ، وسكب شاى الجزر من سخان شاى مسود موضوع على طاولة فاخرة ، وقدمه لها مع نصف قطعة من الملبس ، وسار على البساط جيئـــة وذهابــا ملقيا على كتفه معطفا فرانيا مرتديا حذاء لباديا ، وراح يبسط لها برنامجا للتعليم الشعبى بدير الرأس .

— خلال عشر او خمس عشرة سنة سنكون بلادا متعلمـــة ، وستتيسر كنوز الثقافة العالمية لجماهير الشعب — قال ذلك بابتسامة خيالية ماسا لحيته — امامنا عمل جبار فى محو الامية ، ان هذا العار يجب ان يمحى ، انها قضية شرف لكل مثقف . . . يجب ان يظهر الجيل الجديد بالتعليم من دور الحضانة ورياض الاطفال حتى الجامعة . . . نحن البلاشفة ، لن يعيقنا احد ولا اى شىء من التحقيق عمليا ما كان احسن ممثل مثقفينا يحلمون به فقط . . .

ووعد مفوض الشعب كاتيا بعشرة آلاف دفتر وبكتب مدرسية وادبية واقلام والواح كتابة ، ولوحات للصفوف . وخرجت منه عبر فوج مرمرى ، وكانهـــا تحلـــم . ولكن بعد ذلـــك حصلت مصاعب

وتعقيدات . وكلما اقتربت كاتيا من الدفاتر والكتب المدرسية صارت هذه اكثر بعدا عن الواقع . واصبح الناس الذين يتوقف عليهم امر تسليمها الدفاتر والكتب المدرسية اكثر مواربة وسخرية او جهامة .
وعادت كاتيا يائسة الى غرفتها فى الفندق ، حيث السرير بلا حشية ، والمصباح الكهربائى العالى فى السقف يبدو محترقا ويكاد يلفظ انفاسه . وجلست فى معطفها على اريكة متخلخلة .

ذات يوم دخل عليها الغرفة دون استئذان رجل ضخم فى قبعة شعثاء وسترة محزمة جيدا ، ودخل الموضوع رأسا ، وسألها بصوت اجش :

– ما تزالين هنا ؟ انا اعرف قضيتك . اريني الاستشهادات التى لديك .

وراح يفحص الوثائق وهو واقف تحت المصباح المحمر . نظرت كاتيا بوثوق الى وجهه الفكه القوى الجميل . قال :

– اوقاد . مخربون محتالون ... غدا تعالى فى ساعة مبكرة لمقابلتى فى لجنة المدينة . سنفعل شيئا . نفكر فى شىء ... الى اللقاء .

وبواسطة هذا الرجل حصلت كاتيا من المستودعات على ورق الجدران ، واقلام وعلى مكتبة كاملة مصادرة من صاحب معمل سكر ذواقة جمال كان اصلها باللغة الفرنسية . ولعل اتعب شىء لها كان طريق العودة بهذه الكنوز فى عربة بضاعة كان يندفع اليها فى كل محطة فلاحون ملتحون مخيفو العيون يحملون اكياسا . ونساء هائجات منتفخات كالابقار بكل ما يحملن من المأكولات يخفينها تحت الستر والتنورات .

وظهر ان لكاتيا شيئا من القوة . ليست هى قطيطة لا حول لها – ذات ظهر هش وعينين جميلتين – ترسل صوتها الرائى عند اسرة الآخرين .

وجدت فى نفسها شيئا من القوة منذ ذلك المساء الذى اعلن فيه الكسى خطيبته لها فى غير توفيق . نظرت كاتيا فى النعمة المعدة لها كزوجة صاحب حانوت ربطى ، وتراجعت كرجل يرى فى الطريق قبرا محفورا له ، فيتوقف ، ويهتز اشمئزازا . لقد بدت لها عينا الكسى النهمتـان المترعتان بالخمرة قبرا ! الكسى رب البيت والزوج !

واضطرب كل شىء فى داخل كاتيا ، وتمرد ، وكان ذلك بالنسبة لها اكثر الاشياء مفاجأة وابهاجا . مثل الاحساس بالقوة بعد مرض طويل ، كما كان مفاجأة قرارها فى الفرار الى موسكو ، حيث يكون الجو اكثر دفئا . كما وجدت فى نفسها الحيلة لتخفى كل ذلك . فلم يلاحظ الكسى وماتريونا سوى انها ابتهجت ، وانها بدأت تعمل وتغنى .

اضحى الكسى الآن يغمز باستمرار سواء عند الغداء او العشاء (وكان لا يرى فى البيت فى غير هذه الاوقات) :«خطيبتنـــــا هذه مرحة ...» . وكان هو يبدو مبتهجا بحصوله على قرار من اجتماع القرية فك جناح ضيعة الامير . ونقل خشبه وآجره الى قطعة ارضه .

حين استولى الجيش الاحمر على كييف فى بداية كانون الثانى مرت وحدة عسكرية بقرية فلاديميرسكويه وكان الكسى اول من هتف للسوفييتات فى اجتماع عام . ولكن الامور اتخذت اتجاها آخر بعد وقت قصير .

جاء الرفيق ياكوف الى القريـة . فصادر الدار الحسنة البناء التابعة لقس القرية ، ونقل القس وزوجته ليعيشا فى الحمام . ودعا الى اجتماع عام ، وطرح القضيـة على الشكل التالى : «الدين افيون الشعوب . ومن يعارض غلق الكنيســة يعارض السلطــة السوفييتية ..» وفى ذلك الاجتماع ودون ان يعطى كلمة لاحد اجرى التصويت . وختمت الكنيسة بالشمـــع . وبعد ذلك عزل العمال الزراعيين والمعدمين من الفلاحين والفلاحات – وكانوا زهاء اربعين فى القرية – عن سائر الفلاحين الآخرين . ونظم من هؤلاء الاربعين لجنة الفلاحين الفقراء . وتكلم بحنق دافق فى اجتماع لها فى بيت القس :

– الموجيك* الروسى وحش جاهـــل . عاش الف عام فى الروث . ليس له ولا يمكن ان يكون له غير الحقد المكلوم والجشع . ونحن لا نثق بالموجيك ولن نثق به ابدا . سنشفق عليه ، ما دام سائرا معنا ، ولكن بعد قليل سنكف عن ذلك . انتم – بروليتاريو الريف – يجب ان تتسلموا السلطة بقوة ، ويجب ان تساعدونا على قص جناحى الموجيك .

* فضلت استخدام اللفظة الروسية لرفع الالتباس بينها وبين كلمة فلاح التى انها لفظة اخرى مختلفة الدلالة . (المترجم) .

واغاظ ياكوف القرية كلها ، وحتى اعضاء اللجنة ، وكل كلمة تقال في القرية يعرفها الجميع ، وسرى تهامس في البيوت :

«لماذا يقول ذلك ؟ لسنا وحوشا ، بل روسا ، ونعيش في وطننا ، ولجاة لا تجوز الثقة بنا .. ثم كيف تقص اجنحتنا ؟ قصوا جناح الكسي كراسيلنيكوف ، فهو لص . قصوا جناح كوندراتنيكوف ، ولينشبيوروف . ذلك حق ، لانهما مصاصا دماء معروفان . . . فكيف يكسر جناحي على قميصي البالي ؟ لا ، ليس الامر كذلك ، خطأ . . .» وكان آخرون يقولون : «يا رب ، هذه هي السلطة السوفييتية ! . .»

وعندما كان ياكوف يخرج من الفناء لشأن من شؤونه السيئة قذرا لم يحلق وجهه منذ زمن بعيد ، في معطف جندي ممزق ، وقبعة مخلوعة الظليلة — ولكنه في حذاء طويل جيد ، على اية حال ، والمعطف يخفي جيد اللباس — كان الجميع يراقبونه من النوافذ ، وكان الفلاحون يهزون رؤوسهم في حيرة كبيرة ، وينتظرون ماذا سيحدث بعد ؟

في آذار حين بدأ نقل الروث من توه الى الحقل دعا ياكوف الى اجتماع عام ، وطالب مهددا مرة اخرى بتهمة معاداة الثورة بتسجيل رؤوس الخيل كلها ، ومصادرة الخيول الزائدة ، واقامة استشارة جماعية على الدور في ضيعة الامير . . . وقطع هذا الشيطان القذر ايصال الروث ، والحراثة الربيعية !

وبعد ذلك بوقت قصير وصلت الى القرية فرقة تموين ، وعرف في الحال ان ياكوف قدم لاعضائها قوائم لفائض الحبوب ضخمة بحيث قيل انهم بسطوا ايديهم مندهشين . وطاف ياكوف بنفسه على البيوت ومعه الشهود مؤشرا بالطباشير على الابواب الكمية التي ستؤخذ من هذا البيت او ذاك .

وكان الفلاح يصرخ «في حياتي كلها لم تقع عيني على مثل هذه الكمية» وهو يحاول ان يمسح الرقم بكمه . وكان ياكوف يقول لاعضاء الفرقة : «فتشوا في سردابه . . .» كان الفلاح يخاف ان يرسم علامة الصليب بحضور ياكوف ، فكان يشق فروته وهي عليه ذارفا الدموع : «لا شيء هنا ، يا الهي . . .» فيأمر ياكوف «حطموا موقده ، فقد خبأ شيئا تحت الموقد . . .»

وتلفت جهود القرية الى الصفر ، وتلفت منهما حتى تقاوي القمح . استدعى ياكوف الكسي كراسيلنيكوف الى مكتبه في اللجنة ،

واغلق الباب الذي دقت عليه بالمسامير صورة رئيس المجلس العسكري الاعلى للجمهورية ، ووضع المسدس على الطاولة بالقرب منه ، ونظر ساخرا الى الكسي المتجهم .

— حسنا ، هل نتبادل الحديث ؟ اعندك حبوب ؟

— من اين لي الحبوب ؟ في الخريف لم احرث ولم ابذر .

— والى اين سقت الخيول ؟

— وزعتها على الضياع ، على المعارف .

— واين اخفيت الفلوس ؟

— اية فلوس ؟

— المفهومة .

جلس الكسي مطرق الرأس ، سوى ان اصابع يده اليمنى كانت تنطوي وتنبسط دلالة على السماح والاخذ . قال :

— سيكون هذا غير لطيف . حسنا ضريبة ، انها مفهومة . . . ولكن ذلك مثل امساك الانسان من رقبته ، وتخليعه لقميصه . . . .

— سنضطر الى تحويلك الى اللجنة الاستثنائية . . .

— ولكنني لا ارفض . الواجب هو الواجب . ساجلب الفلوس .

عندما وصل الكسي الى البيت اندفع الى السرداب رأسا ، واخرج من هناك محفظات السفر وزكائب وصرر القمشة . في احدى المحفظات كان يخبئ الفلوس القيصرية وفلوس الدوق ، وقد حشرها في الجيوب تحت القميص ، واعطى محفظة اخرى لماتريونا مملوءة بعملة كيرينسكي ، فانها ستقط متاع لا تساوي شيئا قائلا :

— خذيها الى اللجنة ، وقولي ليست عندنا غيرها . واذا لم يصدقوا ، وجاؤوا الى هنا ليرفعوا غطاء السرداب لا تقاومي . القي الساعات والسلاسل في البئر . وضعي القماش في العربة ، وغطيها بالتبن ، وفي الليل خذي حصان الجد الالماني ، وانقليه الى ضيعة دمبتييف . سانتظرك هناك .

— الكسي ، الى اين تنوي الذهاب ؟

— لا ادري . لا اعود في وقت قريب . وحين اعود سنتسمعانني للتاكما بطريقة اخرى .

سحبت ماتريونا منديلها الصوفي الى حاجبيها ، ولفت باطرافه محفظة نقود كيرينسكي ، وذهبت الى اللجنة . اغلق الكسي الباب

بالمزلاج . والتفت نحو كاتيا التي كانت واقفة قرب الموقد . كانت عيناه شامتتين ، ومنخراه منتفخين .

— ضعي عليك ملابس ادفأ ، يا يكاترينا دميتريفنا . معطفا فرائيا وجوربين صوفيين . . . وفي الداخل ملابس دافئة . . ثم اسرعي . . ليس لنا وقت نضيعه . . . .

ونظر الى كاتيا موسعا عينيه ، وبدا وكأن شررا يقدح من حول حدقتيه ، واهتز طرفا شاربيه القاسيان الكثانيان فوق اسنان عارية .

اجابت كاتيا :

— لن اذهب معك لاى مكان . . .

— اهذا جوابك ؟ لا يوجد جواب آخر ؟

— لن اذهب .

تقدم الكسي منها ، وابيض منخراه المنتفخان .

— لن اتركك وحدك ، فلا تأمل ذلك . انا لم اخطفك يا كلبة ليفسدك شخص آخر . . . صيدة من حلوى . . . انا لم امسسك حتى الآن ، وستأتين ، ايتها البهيمة ، حين الوى يديك وقدميك . . .

وامسك كاتيا بيدين حديديتين ، وشخر — اذ ضغطت كوعها على تفاحة آدم من رقبته — وحملها بخطوتين الى السرير ، جمعت كاتيا القوة التي لا تعرف كيف واتتها ، وخلصت نفسها مرددة : «لا اريد ، لا اريد ، وحش ، وحش . . .» ووثبت ، ولكنه سقط عليها من جديد . وكان يشعر بالثقل والعجز وهو في فروته المحشوة بالنقود . واخذ يضرب كاتيا خبط عشواء . خبأت كاتيا رأسها ، وراحت تكرر بكراهية وخشية من خلال اسنانها المصكوكة «اقتلني ، اقتلني ، وحش ، وحش . . .»

تحرك المزلاج في الباب ، وصاحت ماترينا من الرواق «افتح ، يا الكسي ! . . .» تراجع عن السرير ، وامسك بوجهه . اخذت ماترينا تدق بقوة اشد ، ففتح الباب . قالت ماترينا وهي تدخل :

— احمق ، ارحل باسرع وقت . انهم قادمون الى هنا .

نظر الكسي اليها لحظة ، وادرك ، ولاح وجهه اكثر استيعابا للامر . جمع صرر القماش والزكائب وخرج ، وركب الحصان الوحيد المتبقي في البيت ، وانصرف من الفناء الخلفي عبر ثغور السياج

الخارجي ، وهبط يعدو نحو النهير ، وعبر الى الجهة الثانية . واختفى وراء الحرش .

بعد وقت قصير اخرجت ماترينا من الصندوق تنورة وبلوزة ، والقتها على السرير ، حيث كانت كاتيا ترقد ممزقة الثياب .

— البسي ، واذهبي الى حيث تشائين . انا اخجل من النظر اليك .

فتش ياكوف والشهود بيت الكسي من السرداب الى العلية ، الا انهم لم يجدوا الذى كان مخبئا في العربة . وفي الليل جلبت ماترينا الحصان ، وغادرت الى الضيعة . ظلت كاتيا جالسة طوال الليل دون ان تخلع معطفها في البيت المظلم البارد منتظرة بزوغ الفجر . وكان عليها ان تقلب الفكر جيدا بكل الامور . ستغادر ما ان يطلع الفجر . الى اين ؟ وضعت كوعيها على الطاولة وضغطت على رأسها ، واخذت تنشج . مضت الى الجردل عند الباب ، وشربت من المغرفة . الى موسكو بالطبع . ولكن من بقي هناك من المعارف القدامى ؟ كلهم قد تبعثروا . . . وغفت على الطاولة ، وحين اخذتها رجفة قوية واستيقظت ، كانت الدنيا قد تنورت . لم تعد ماترينا حتى الآن . سوت كاتيا المنديل على رأسها ، ونظرت في المرآة على الحائط . يا للفظاعة ! وذهبت الى اللجنة .

انتظرت وقتا طويلا على المدخل الخلفي تنتظر ان يستيقظ الناس في بيت القس . واخيرا خرج ياكوف يحمل جردل الماء القذر ، ودلقه على كومة ثلج وسخ ، وقال لكاتيا :

— كنت انوى استدعاءك . . . تعالي . . .

وقاد كاتيا داخل البيت ، وطلب اليها الجلوس ، وبحث في جرار الطاولة بعض الوقت .

— ستشرعين بالرصاص زوجك او لا اعرف من هو بالنسبة لك .

ردت كاتيا بسرعة :

— انه ليس زوجي . . ارجو فقط ان توفر لي الفرصة للخروج من هنا . اريد السفر الى موسكو . .

كرر ياكوف ساخرا :

— «اريد السفر الى موسكو» وانا اريد ان انقذك من الوحل .

ظلت كاتيا جالسة عنده حتى المساء راوية له كل شيء عنها ،

وعن علاقتهما بالكمس . وكان ياكوف يخرج بين الحين والآخر مدة طويلة ، ويعود ليجلس مستلقيا ويدخن . قال :

– تقضى توجيهات مفوضية الشعب للتعليم بضرورة فتح مدرسة في القرية . انت غير ملائمة كثيرا ، ولكن على الاقل لنجرب ... وواجبك التالي ان تخبريني بكل ما يحدث في القرية . وستتفق فيما بعد على تفاصيل هذه المراسلة . واحذرك من العقاب الشديد اذا اخللت تشرتزين بذلك . وانصحك بان تنسى موسكو في الوقت الحاضر .

وهكذا اضحت كاتيا معلمة دون توقع . خصص لها بيت صغير فارغ قرب المدرسة . وكان المعلم السابق العجوز قد مات فيه في تشرين الثاني لاصابته بالتهاب الرئتين . وكان البلشفيون الذين اتخذوا المدرسة في وقت من الاوقات مقرا لوحدة عسكرية قد استهلكوا جميع الكتب والدفاتر وحتى الخارطة الجغرافية بلف سيكائرهم باوراقها . وكانت كاتيا لا تعرف باى شيء تبدأ ، وذهبت لتستشير ياكوف . الا انه لم يعد في القرية . فقد غادرها فجأة مثلما جاء اليها بعد ان تلقى برقية مرسلة بيد رسول خاص ، ولم يلحق ان يخبر احدا غير الجد افاناسي الذي راح الآن يتردد على لجنة فقراء الفلاحين خائفا ان يفقد نفوذه :

– خبر الرفاق بان لا يتهاونوا مع الفلاحين الموجيك ، ساعود واتحقق ....

وهدأت القرية بعد مغادرة ياكوف لها . وكان الفلاحون لدى مجيئهم الى بيت القس يجلسون قليلا عند مدخله ، ويقولون لاعضاء اللجنة :

– قمتم باشياء واشياء ، يا رفاق . وكيف تتحملون المسؤولية عنها ؟ اى ، اى ...

وكان اعضاء اللجنة انفسهم يعرفون ماذا تعني «اى ، اى ..» وان القرية هادئة في الظاهر فقط . ولم يعد ياكوف وسرت شائعة عن الكس كراسيلنيكوف تزعم انه جمع فصيلة في القضاء وتسلل الى الاتمان غريغوريف . وسرعان ما اخذت القرية كلها تتحدث عن غريغوريف هذا ، الذي اصدر مرسوما ، وهب للقضاء على السلطة السوفييتية . وعاد الناس من جديد ينتظرون تغيرات .

وعند العاملون في سوفييت القرية كاتيا بمساعدتها بشيء ما : اصلاح المواقد ، ووضع الزجاج . وقامت كاتيا نفسها بغسل ارض المدرسة والنوافذ ، وصفت المقاعد المدرسية المخلخلة . وكانت امرأة صافية الضمير ، وفي الامسيات كانت تبكي وحدها في بيتها الصغير لانها كانت تخجل من خداع الاطفال ، اى شيء كانت تستطيع ان تعلمهم دون كتب ودون دفاتر ؟ واى اصول الصلاح يمكن ان تلقنهم ، بينما كانت تعتبر نفسها غير صالحة كليا .... وجاء اليوم حين ارتفعت اصوات الصبيان والصبيات مرحة في بكرة الصباح قرب المدرسة . واضطرت ان تجمع رباطة جاشها كلها . مشطت شعرها بنعومة ، وشدته بعقصة قوية ، وغسلت يديها جيدا ، وفتحت باب المدرسة ، وابتسمت ، وقالت للصبيان والصبايا الصغار الذين رفعوا اليها انوفهم الصغيرة :

– على الرحب والسعة ، يا اطفال .

– مرحبا ، يكاترينا دميتريفنا .

صاح الاطفال باصوات صافية رنانة مرحة حتى احست بنفحة من الشباب تمر على قلبها . اجلست الاطفال على المقاعد ، وصعدت المنصة ، ورفعت سبابتها وقالت :

– يا اطفال ، ها هنا بلا كتب ولا دفاتر ولا شيء نكتب به فساعدتكم انا ، واذا استعصى عليكم فهم شيء اسألوني .. اليوم سنبدأ بروريك وسنيوس وتروفور ...

كانت ادوات كاتيا المنزلية ضئيلة جدا . فلم ترد ان تأخذ شيئا من بيت الكمس ، كما انه صعب عليها ان تلتقي بماتريونا بوجهها النحيل الكئيب . كانت في بيتها مكنسة من المساليح قرب العتبة ، وقدران فخاريان على الرف ، وحوض خشبي قديم للماء . وكانت سلوتها حديقة صغيرة محاطة بسياج فيها شجرتا كرز ، وشجرة تفاح وعنب الثعلب ، ووراء السياج يمتد حقل .

وعندما ازهرت شجرتا الكرز احست كاتيا وكأنها في السابعة عشرة من عمرها .

وكانت في العادة تهيئ دروسها في الحديقة ، وتقرأ الروايات الفرنسية من مكتبة صاحب معمل السكر ، وكثيرا ما تتذكر باريس في السديم الازرق للاعوام الماضية . في عام ١٩١٤ كانت تعيش في

ساحية لباريس فى شقة فى الطابق العلوى تحت سقف متحن لها شرفة تطل على شارع هادئ ضيق ، فوق سقف بيت صغير عاش فيه بلزاك فى وقت من الاوقات . وكانت نوافذ مكتبه لا تطل على الشارع ، بل على الحدائق المتحدرة نحو السين . وفى زمانه كانت هذه منطقة ريفية . وحين كان دائنوه يظهرون من جانب الشارع كان هو يبتعد عنهم عبر الحدائق الى السين . والآن صارت تلك الحدائق ملكا لامرأة امريكية ثرية . وفى الامسيات ، حين كانت كاتيا تخرج الى الشرفة كانت تسمع الطواويس تصيح باصوات ربيعية حادة . فكان يبدو لكاتيا - التى جاءت الى باريس بعد انفصالها عن زوجها - فى وحشة وانعزال ان الحياة قد بلغت نهايتها .

احب الاطفال كاتيا . وكانوا فى الدروس يصغون اليها بانتباه شديد وهى تروى قصصا من التاريخ الروسى تبدو كالحكايات . وبالطبع كانت مسائل الحساب وجدول الضرب والاملاء اكثر صعوبة بالنسبة للاطفال ، وبالنسبة لكاتيا نفسها ، ولكنهم تغلبوا على ذلك بالجهود المشتركة . وصارت معاملة اهل القرية لها افضل بكثير ، فقد عرف الجميع ان الكسى كاد يقتلها . وكانت النساء يحملن اليها الحليب والبيض والخبز . فكانت كاتيا تقتات على ما يحملنه اليها .

كانت كاتيا تصحح الدفاتر وهى جالسة تحت شجرة التفاح القديمة المغطاة بالصوفة . وكان صبى صغير ينشج منذ وقت طويل وراء السياج الواطئ الواهن ايضا .

- يا عمة كاتيا ، لن افعل ذلك مرة اخرى .

- لا ، يا ايفان غافريكوف ، انا زعلانة عليك ، ولا اتكلم معك يومين .

كان ايفان غافريكوف ذو العينين الزرقاوين البريئتين كثير المشاكسة . كان يجر الفتيات من ضفائرهن فى الدروس ، وحين يخوه على ذلك تتظاهر بالاغفاء ، وهوى تحت المقعد . ومشاكساته الاخرى لا حد لها .

- لا ، لا ، يا غافريكوف . انا ارى تماما انك لن تندم على افعالك ، وانك جئت الى عندنا لانه لا شئ لك تفعله .

- حتى الآله ، لن افعلها مرة اخرى . . .

دخل شخص البيت من الشارع ، ونادى صوت ماترينا كاتيا .

ماذا كانت تريد ؟ عدوت كاتيا عن غافريكوف بسرعة ، ودخلت البيت . استقبلتها ماترينا بنظرة مفترسة غير طيبة .

- هل سمعت ؟ الكسى فى مكان قريب . . اسمعى ، يا كاترينا ، لن اريد ان يتكرر ما حدث من قبل ، انت لست منا . . . انه سيقتلك على اية حال . . اضحى وحشا يسفك الدماء ! وانت مذنبة فى كل شئ . . . قبل برهة قال شخص ان الكسى قادم على عربات . . . ارحلى ، يا كاترينا عن هنا . ساعطيك عربة وللودا .

كان لفاديم بيتروفيتش الوقت الكافى لمختلف الافكار خلال مكوثه فى المستشفى فى خاركوف . لقد وجد نفسه فى الجانب الآخر من خط النار . وكان هذا العالم الجديد غير جذاب فى ظاهره : ردهة غير مدفأة ، والثلج الرطب يتساقط وراء النوافذ ، والطعام ردئ - حساء رمادى اللون مع سمك - واحاديث المرضى اليومية عن الطعام والتبغ البيتى وعن الحرارة وكبير الاطباء . ولا كلمة عن المستقبل غير المعروف الذى كانت روسيا تعدو نحوه ، ولا عن الاحداث التى تهزها ، والصراع الدموى الذى لم ينته والذى كان المشتركون فيه - هؤلاء المرضى والجرحى ذوو الرؤوس الحليقة والمباذل القطنية المتسخة - يقضون اوقاتهم نائمين اياما بكاملها ، او لاعبين على الاسرة بقطع الداما التى صنعوها بانفسهم ، او ان يغنى احدهم اغنية شجية بصوت خافت .

لم يجتنب الناس فاديم بيتروفيتش ولكنهم لم يحسبوه من جماعتهم . فلم يكن امامه غير ان يحادث نفسه . لقد تراكم فى نفسه الكثير مما لم يقلب الفكر فيه ، ولم يبت الراى ، وانتفضت عنه ذكريات جمة ، مثلما تنقطع من كتاب صفحة فى اشوق موضع . لقد قبل فاديم بيتروفيتش هذا العالم الجديد دون تردد ، لان ذلك قد حدث فى وطنه ، والآن كان عليه ان يفهم كل شئ ويشروى فى كل شئ .

ذات مرة جلب كبير الاطباء اليه جرائد موسكوفية . وقد قراها فاديم بيتروفيتش بعينين مختلفتين كليا ، دون ان يهزا بها بخبث مقنعا ، كما كان يفعل . . . لقد انتشرت الثورة الروسية فى المجر وفى المانيا وفى ايطاليا . وكانت سطور الجرائد مفعمة بالجراة والثقة والتفاؤل . ان روسيا المسحوقة بالحرب ، بالصراع الداخلى ،

والمقسمة مقدما بين الدول الكبرى تأخذ بقيادة السياسة العالمية ، ولتصبح قوة يعتد بها .

اخذ فاديم بيتروفيتش يفهم الطمانينة اليومية لرفقائه ذوى المباذل الرمادية . فقد كانوا يعرفون اى قضية قد انجزت ، وانهم قد اسهموا فى العمل . . . ان طمانينتهم دائمة ثقيلة اليدين والقسمات تاملية استغرقت خمسة قرون ، وما اكثر ما حدث فى تلك المدة . . . ان تاريخ الشعب الروسى والدولة الروسية عجيب وله خاصيته . والافكار الجبارة غير المتخذة اشكالها تطوف فيه من قرن الى قرن ، افكار ذات نطاق عظيم عن الحياة الحقة . وتتحقق بدايات خارقة جريئة تقلق العالم الاوربى ، وتتطلع اوربا بذعر وحنق الى هذا الغول الشرقى الضعيف والجبار . والفقر والغنى غنى لا حد له ، المولد من بطونه المعتمة توهجات بكاملها من الافكار والنظريات على نطاق البشرية كلها .

واخيرا ان روسيا بالذات تختار طريقا جديدا لم يجربه احد من قبل ، ومنذ الخطوات الاولى يسمع العالم وقع خطاها على هذا الطريق . . .

وطبيعى ان فاديم بيتروفيتش لم يكن وهو بهذه الافكار ، ليعبأ لجداول المياه القذرة وراء النوافذ تحمل فى الشوارع ثلج آذار ، او للمستخدم السوفييتى النكد المتلفع ذى الحذاء الطويل المتهرئ يحمل كيس الطعام وصفيحة كيروسين وراء ظهره ليشترك فى اجتماع احدى الهيئات التى لا حصر لها . ولم يكن ليكترث بالحساء الذى يجرعه ، ولا بما فيه من سمك . لقد كان يضطرم بنفاد الصبر ليعاون بنفسه فى هذه القضية باقرب وقت .

بدأت اوكرانيا تتطهر من البتليوريين . وقبل مدة قصيرة استولى الجيش الاحمر على يكاترينوسلاف . وما زال بتليورا متشبثا بيبليا تسيركوف ، الا انه اخرج من هنا اخيرا ، فعبر الحدود مع فلول وحداته الى غاليسيا . وكانت موجة واسعة من انتفاضات الانصار قد سبقت قوات الجيش الاحمر المهاجمة . وكانت لسعة نطاقها تصعب على التعداد والسيطرة . كانت تندلع كالحرائق فى القرى والاقضية التى يمزقها صراع ضار بين الفلاحين ممن يملكون قطعا صغيرة من الارض

وبين الكولاك الاقوياء . وكان هؤلاء واولئك يشكلون الفصائل الخيالة والمشاة التى كانت تشتبك فى معارك دموية بكل ضراوة . وكان العملاء السريون للبتليوريين والدينيكيين والبولونيين والمنظمات سرية اكثر غموضا يجوبون فى كل مكان متخفين ومستفزين . وكانت السلطة السوفييتية تقام فى المدن وعلى طول الخطوط الرئيسية للسكك الحديدية ، وعلى جانبى هذه الخطوط كانت الحرب مستمرة على مدى انطلاق قذيفة من قطار مصفح .

واخيرا تلقى فاديم بيتروفيتش التعيين الذى انتظره طويلا — فى اركان لواء للطلبة العسكريين كان تشورغاى مفوضا له . وخرج من المستشفى فى اواسط آذار ، وهو ما يزال يعرج ويتكئ على عصا ، وسافر الى وحدته فى كييف .

كانت عصابة زيلينى التى انفصلت عن الاتمان غريغوريف تقترب من كييف نفسها على مئات من عربات الرشاشات محطمة سوفييتات القرى ومتصيدة الشيوعيين . وقد خلف زيلينى وراءه على طول الطرق التى سلكها اناسا سلخت جلودهم ، وآخرين ارغموا على الجلوس على قرم حادة الاطراف . وكان يحرق اعضاء لجان فقراء الفلاحين احياء فى الاهراء ، ويسمر اليهود بالمسامير على الابواب ، ويبقر بطونهم ، ويخيط قطة بها . وضعت خطة القضاء على هذه العصابة بمساهمة روتشين فى مقر مفوض الشعب للشؤون العسكرية . ولم تكن القوات المخصصة لها كثيرة . خرج مفوض الشعب للشؤون العسكرية لاوكرانيا من كييف على سفينة ليوجه العملية فى مكانها .

كان الدنيبر ما يزال ممتلئا بالمياه . دارت دواليب السفينة فى مياه صافية لا يعكرها غير دوامات دائبة . ولم يستطع ضجيج الدواليب ، ولا اصوات الطلبة العسكريين ان تغطى على تغريد البلابل على الضفاف المطرزة بالخضرة المعطارة اللزجة فى بوادر الاوراق والزغب والصفرة الفاقعة . وكان سطح السفينة حارا من وهج الشمس التى نهضت فوق منبسط الفيضان . كان فاديم بيتروفيتش يقف عند العاجز ينظر فى الماء المتلألئ .

لقد عاش فصول ربيع كثيرة ، ولكن لبد الحياة لم يفر هذا الفوران فى اعماقه قط . . . . وفى وقت هو اقل الاوقات ملاءمة وابعدها عن القبول . . . . كان راسه قائما بهواجس غير صافيـــة . . . من الخير الا تبحث فى جيبك عن سيكارة ، ايها الرجل الجاد ، ولا تقطب حاجبيك ، ولا تتلطف عنك المفاتن المقبلة . . . هذا هو انبشاش الربيع ، يرتفع فوق مياه الفيضان ، فوق الجزيرات ، فوق البيوت الريفية الغريقة وقد نفذت فيه الشمس الهائلة المتدلية . وضوءها يرقد على الماء ، وعلى الاشجار وانعكاساتها الشاحبة الرجراجة ، وعلى ظهور الابقار الداخلـــة فى الماء حتى ركبهـــا ، وعلى ربوة معشوشبة صعد اليها احد الثيران ليتمعن فى اعجوبة الربيع الفريدة البكر .

من الغريب ، ومن الغريب جدا ان كاتيا لم تخطر على بال روتشين الا قليلا طيلة هذا الوقت ومنذ ان كان فى يكاتريتوسلاف . وكانها رحلت مع ماضيه ، فقد كانت مرتبطة كليا بالحياة التى يتتقدها الآن بشدة . . . حين كان فكره يعود الى كاتيـا كان يعود لمســه الى روتشين ذاك الذى رآه مرة فى مرآة الحلاق . حينذاك لم يكن له من النفور ما يكفى لاطلاق الرصاص على الصورة والبصق عليها عشر الاقل . بينما فى امكانه ان يفعل ذلك الآن .

قبل ربيعين كانت عاطفته نحو كاتيا تبدو وكانها تملأ الكون كله ، كل الكون خارج جبينه المجعد ، جبين رجل مبلبل ومتكدر بشكل مميت . آنذاك كان بحاجة الى حب كاتيا ، لا سيما فى ساعة وحدته فى فندق يكاتريتوسلاف ، حين كان ينظر الى مقبض الباب الذى كان من الممكن ان يشنق نفسه منه . . . . والآن : لا حاجـــة له بها ؟ وكيف ذاك ؟ فى روستوف خان كاتيا للمرة الاولى ، وفى يكاتريتوسلاف للمرة الثانية ؟

تطلع الى الشفاف المارة ، واستنشـــق بكـل صدره الهواء البليل المضمخ بالعسل ، ولم يشعر بتانيب ضمير ولا بندم . لا ، لم تحدث خيانة فى يكاتريتوسلاف . . فقد صفى هناك حسابه مع الماضى . . . وكانت ماروسيا . . . ترنمت باغنية قصيرة بريشـة عاطفية عن الحياة الجديدة ، عن هذا الفيضان الربيعى ، عن السعادة التى لا تسبر ولم تفق .

جار الثور الواقف على التل المعشوشب ، وضحك الطلبة العسكريون عند مؤخرة السفينة ، وجار واحد منهم محاكيا . اغمض روتشين عينيه رخى البال . أحقا ان الموت بأس ؟ لقد كان موت ماروسيا وضاء . لقد كان موتها بمثابـــة هتاف راحل للباقين : احبوا الحياة ، امسكوا بها بكل عنفوان ، واجعلوا منها سعادة ! . . .

انه لم يؤجل جهوده للبحث عن كاتيا . وبناء على طلبه ارسل من مفوضية الشعب العسكريـة الى اللجان التنفيذيـة فى اقضيـة يكاتريتوسلاف وخاركوف استفسار عن الكسى كراسيلنيكوف الا انه لم ترد حتى الآن معلومات عن مكان وجوده . ولم يكن فى وسع فاديم بيتروفيتش الآن ان يقوم باكثر من ذلــك . لقد كانت هذه الساعات القليلة على ظهر السفينة هى وقت الفراغ الوحيد المتاح له منذ شهر ونصف من العمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم .

تقدم منه تشوغاى ومفوض الشعب للشؤون العسكرية ، كان الاخير رجلا نحيلا فى سترة محزمة من الجنفاص له وجهـه محمر من الشمس وعينان نديتان كعينى السكران ، رغم انــه لم يشرب الخمرة قط ، ويكره السكارى حتى كاد يطلق النار على آمر اللواء ، وهو رجل طيب ، حين وجده فى بيته مع زجاجة من الفودكا . . . اشار الى الضفة العالية حيث لاح برج جرس ابيض وقال :

– هذه قريتى . . . كانت جدتى حين تسمع صفير سفينة – كانت عجوزا لا تهدا – ترسلنى فى الحال مع منخل مملوء بالاجاص والكمثرى والجوز الى الرصيف لابيعه . . . ولكن لم اطلع تاجرا . . .

قال تشوغاى :

– اما جدتى فكانت تقية . كانت تتردد دائما على الاماكن المقدسة ، وحتى بلوغى العاشرة كانت تاخذنى معها للتسول . . .

قال مفوض الشعب دون ان يصغى :

– ثم اعطونى الى دكان حدادة لاتدرب . ومن المحتمل انه ما يزال هناك ، اسفل برج الجرس . وما زلت احب رائحـــة فحم الخشب ، والغاز المتصاعد منه . وحين نلت كفايتى من الضرب على القفا سافرت الى كييف لاشتغل فى مستودع القاطرات . . . هذا مـــا حصل . . ثم رحلت الى خاركوف ، الى مصنع ميكانيكى . . .

قال تشوغاى دون ان يصغى :

– كنت ماهرا فى الغناء من انقى فى غناء الكنيسة . كنت اذا غضبت فى مكان ما ، او الطخ وجهى بالدم ارفع عينى . وانشد «الصلوات» . . . ثم كان يحدث ان اتخاصم مع جدتى على كوبيك .

وكرر تشوبغاى فى سهوم :

– اتخاصم مع جدتى على كوبيك . . . .

ونظر الى الشاطئ الذى لنا الآن براس دار الدتيبر حوله نحو لجة مغمورة بالماء . وتفرست عيناه الجاحظتان . وضرب بيده على قبعته ذات الشريطين ، وسار سريعا الى جسر القبطان .

وصاح بالقبطان الذى كان عجوزا جاف العود متدلى الشاربين :

– هاى ، يا جد . ابتعد نحو المروج !

– لا يمكن ، يا رفاق ، نحن نسير فى الجزء الصالح للملاحة ، بينما الماء ضحل فى الميسرة .

– لا تسر فى الجزء الصالح – وضرب تشوبغاى على غلاف مسدسه – استدر استدارة احد ! . . .

استدارت السفينة حول الراس . وشيئا فشيئا تكشفت على الضفة المنحدرة قرية كبيرة لها برج جرس عال وطواحين وبيوت بيضاء ، وبساتين واطئة ذات خضرة غضة .

كان مفوض الشعب يقول لروتشين :

– انظر الى ذلك البيت الصغير الذى يرى وحده هناك ، يلوح بالكاد . انه البيت الذى ولدت فيه .

صاح تشوبغاى بلهجة جادة :

– هيا . يا رباه ، ادر الدفة الى اليسار بحدة !

كان جمع كبير من العربات يقف على الشاطئ ، وزوارق كثيرة عنده . وكان الناس يتزاحمون نحوها قافزين فيها ، بينما لحق احد الزوارق ان يجذف . نزل تشوبغاى السلم ، وسترته ترفرف ، وهبط الى ظهر السفينة . ازت طلقات من الشاطئ والزوارق مصوبة على السفينة فى ان واحد تقريبا ، ولعلعلت الرشاشات من السفينة . وتناثر الناس من الزوارق الآتية وانغمروا فى الماء . واضطرب الجمهور الواقف على الشاطئ مندفعا الى عربات الرشاشات ، وعدا بها مثيرا الغبار ، صاعدا فى الاعلى الى الشارع العريض . ودق جرس البرج دقات الانذار .

لم يستمر التراشق والعدو لغير بضع دقائق . وخلا الشاطئ . صعد تشوبغاى السلم وعيناه الجاحظتان تلمعان بمرح :

– انه زيلينى ! تسلل الى هنا ، ابن الكلبة . يا فاديم بيتروفيتش يا لها من خطة للمحاصرة هذه ! حسنا ، يا مفوض الشعب ! لا بد من ان نقوم بالزال . . . .

واضطربت عصابة زيلينى فى طوق الحصار مثل قطيع من الذئاب ، وضغطت اخيرا على سدة السكة الحديد تحت نار القطار المصفح ، وابيدت فى حرش كثيف للجوز اندفعت اليه عربات العصابة آملة ان تحدث ثغرة . وكان الحقل كله قد حفر منذ ما حفرا متفرقة فطلعت العربات الرباعية من حرش الجوز مزبدة مذعورة بالرصاص والقنابل اليدوية . ارتدت الخيول التى فى المؤخرة الى العربات ، وكسرتها وقلبتها . واندفع قطاع الطرق نحو الاجمات حيث كان الموت بانتظارهم . ولم يحاول احد منهم ان يلتمس الرافة . وجدوا الاتمان زيلينى تحت كومة من عساليج العام الماضى ، واخرجوه من هنا من قدميه ، ودهش الطلاب العسكريون لانهم تصوروه عملاقا يثير الذعر ، فاذا به نحيل مجذوب لا يستحق شفقة ، سوى ان عينيه الصغيرتين الناصلتين اليفيشتين كانتا تنمان عن اصله اللانبرى . لووا يديه ورجليه ليحملوه الى كييف حيا .

ومع ذلك فان احدى فصائله قد اخترقت الحصار فى ناحية ، واتجهت نحو الشرق . ارسل مفوض الشعب لملاحقتها فوجا مؤلفا من الخيالة فارس ومعهم تشوبغاى وروتشين . وبدأت ملاحقة طويلة طورة . كان قطاع الطرق يغيرون خيولهم فى الضياع ، بينما صار الحمر فى اثرهم دون تغيير الخيول . وتبين ان قطاع الطرق يتجهون نحو قرية فلاديميرسكويه حسب ما رواه الفلاحون فى قرية كان قطاع الطرق قد مروا بها قبل يوم واحد وصادروا الخيول فيها ، ونهبوا كل ما استطاعوا اخذه فى عجالتهم .

وقال الفلاحون لتشوبغاى وروتشين عند البئر حيث كان الفرسان يسقون خيولهم :

– اقضوا عليهم باسرع وقت ممكن ، يا رفاق . نصارحكم باننا ضجرنا من العمليات العسكرية . ونحن نعرف اتمانهم جيدا ،

وهو من قرية فلاديميرسكويه ويدعى اليوشكا كراسيلنيكوف . لقد كان فلاحا صالحا ، ولا جدل فى ذلك ، ولكنه فسد ، واضحى غريبا . . .

وهكذا وقع فاديم بيتروفيتش فجأة على اثر الكمى الذى كان يلاحقه للاسبوع الثانى ، وقع على اثر كاتيا . واضطرب اضطرابا شديدا . لم يعد يفصله عن كاتيا غير مسيرة يوم واحد . فى اية حالة سيجدها ؟ معذبة متغيرة بشكل لا تعرف فيه ؟ بحيث لا يستطيع ان يفعل سوى ان يضع راسها الشائب على صدره . . . . الشائب ، الشائب . . . «حسنا ، يا كاتيا ، استريحى الآن ، سنعيش ، ويجب ان نعيش . . .» لا ، لا ، لا يعقل ان تكون قد اصبحت زوجة الكمى الشنيعة ! والاكثر احتمالا ان يتوقف حصانه فى نهاية مسيرة اليوم على قبر كاتيا . . . وربما ذلك افضل لها . . . وتكون صورة كاتيا طاهرة غير ملوثة . . .

سار الفوج بسرعة فى الطريق المترب . وكان فاديم بيتروفيتش يترنح على السرج . واهتزت صورة كاتيا وغامت فى ذاكرته الكالحة . سيعيدها الى حياته مهما تكن الحالة التى يجدها فيها .

كانت البيوت المحترقة فى قرية فلاديميرسكويه ما تزال ترسل الدخان ، والاطفال ما يزالون يأتون لينظروا بذعر الى برك الدماء التى لم يمتصها الرماد بعد ، والنساء مازلن فى مخابئهن فى بيوت الآخرين مرتجفات منتفخات الوجوه بالدموع حين اقتحم تشوغاى وروتشين القرية فى تشكيلتين من طرفيها . ولكن كراسيلنيكوف لم يكن هناك . فقد نبهه احد الناس فخرج مع شقاته قبل نصف ساعة تقريبا من ظهور الحمر بعد ان نكل باعضاء لجنة فقراء الفلاحين ، واعمل وشقاته القطن بسيوفهم فى سبعة عشر رجلا . وجعلوا الجد المانانى ثامن عشرهم لمجرد اظهار الشقاوة .

كان حنق الفلاحين عليه شديدا جدا حتى ان القرية طلعت عن بكرة ابيها تقريبا ، واحاطت بالفرسان ، الذين كانت خيولهم تترنح تحتهم متعبة . وصاح الفلاحون :

— الحقوا به ، اقتلوا الكمى . فان قواه ضعيفة ، ولا يملك عتادا . . . لم يذهب بعيدا . نحن نعرف اين ذهب اولئك الاوغاد . . . تستطيعون ان تمسكوهم بايديكم دون سلاح .

سال تشوغاى :

— وهل تعطوننا خيولا مستريحة ، يا رفاق ؟

— نعطيكم . . . لاجل ذلك نعطيكم .

— كم ؟

— يمكن ان نجمع خمسين حصانا او نحوها . . . اتركوا خيولكم لنا ، وسنتبادل بعد ذلك . . . يا الهى ، انه لا يتركنا نعيش .

وبينما كانوا منشغلين بجلب الخيول ، ووضع السروج عليها تقدم فاديم بيتروفيتش من النساء وئيد الخطو . ولما رأين ان الرجل يريد ان يسأل عن شىء اقبلن نحوه . فسأل فاديم بيتروفيتش :

— كنت اعرف كراسيلنيكوف فى الحرب الالمانية . كان له اخ متزوج . اما هو فيبدو لى انه كان اعزب . . . فكيف هو الآن ؟ متزوج ؟

لم تكن النسوة يعرفن بعد ما يرمى اليه فقلن لهوفات :

— متزوج ، متزوج . . .

— اى متزوج هو ! انها لم تكن زوجته . . . .

— حسنا ، كان يعيش معها فقط . .

— ليس كذلك . . . ايها الرفيق العسكرى ، ساحكى لك . . . لقد كسب هذه المرأة من ماخنو فى لعبة ورق ، وجلبها معه الى هنا ، واراد ان يتزوجها . . طبعا قالت له : لازوجنى . ولكننى لم اتعود على عيشة الفلاحين . . . فقد كانت من الاعيان ، جميلة شابة . . . بينما الالمان احرقوا بيت الكمى فى الربيع الماضى . . فانشأ يبنى له بيتا . . . ثم حصلت الامور مع ياكوف . . .

تدافعت امرأة ثالثة لتقترب من فاديم بيتروفيتش ، وكانت اكثر معرفة :

— اسمع . ايها الرفيق الآمر ، لقد ضربها ضربا شديدا ،

ولكن الشيطان اللعين لم يستطع ان يقتلها . . وهى منذ شهر آذار تشتغل معلمة عندنا .

– هكذا ، اذن – قال فاديم بيتروفيتش ، وسعل – وهل هى الآن فى القرية ؟

اخذت النسوة يتبادلن النظرات . عندئذ قالت امرأة رابعة اقتربت لتوها :

– اخذها معه تحت التبن فى احدى العربات ، ولا نعرف ان كانت ميتة ام حية . . .

كان صبى صغير ينظر بعينين مفتونتين الى روتشين – الى سيفه ذى المقبض النحاسى ، والى حذائه المترب ذى المهماز ، والى الساعة الكبيرة فى معصمه ، والى المسدس المتدلى . وقد القى رأسه الى الخلف كليا لينظر الى وجهه ، وقال بصوت غليظ :

– انهن يكذبن ، يا عم . نحن لا يعرفن شيئا عن العمة كاتيا . انا اعرف كل شىء .

وقالت صبية قبيحة نحيلة على شفتها قرحة كانت تقف وراءه :

– صدق به ، يا عم . هذا الصبى يعرف كل شىء .

– حسنا ، ماذا تعرف ؟

– ماتريونا اخذت العمة كاتيا الى محطة القطار ، لم تكن العمة كاتيا راغبة فى الذهاب ، فبكت بكاء شديدا ، وكذلك ماتريونا . . . ثم قالت العمة كاتيا لى : «قل للاطفال اننى ساعود . . . » وعندما دخل الكسى القرية مع عرباته غادرت ماتريونا والعمة كاتيا من طرف القرية الآخر ! وعندما صعدنا الى التل الزلزالى من العربة . . .

صاح تشوفاى :

– الى الخيول ! . .

ولم يتح لفاديم بيتروفيتش الوقت ليسمع الحديث الى نهايته . غادرت الفصيلة الفرسية على خيول مستراحة وعربات رشاشات . كان فلاح قصير داكن البشرة ، من اولئك الذين اضطروا الى قضاء اليوم بطوله جالسين فى البئر غاطسين الى سررهم فى الماء والطين يخب بحصانه الى جانب تشوفاى وروتشين رافعا مرفقيه . وقد امتطى حصانه بلا سرج بالهيئة التى كان فيها حافيا ممزق

القميص مفشى كله متفوش اللحية . قاد الفصيلة فى حركة التفاف الى غابة لاشجار البلوط ، كانت الطريق الوحيدة للشقاة فى هذه الاتجاه .

وصلوا قبل انقضاء النهار ، واخذوا يحيطون بالغابة تاركين مخرجا واحدا للشقاة ليقعوا فى كمين . كانت الشمس الواطئة تنفذ باشعتها من وراء الاوراق اللامعة الى جذوع الشجر المعوجة . كان الحصان الذى يمتطيه فاديم بيتروفيتش كثير الحركة ، يهز رأسه ويتوقف ويعض ركبته ، ويضرب بطنه برجلـه . القى فاديم بيتروفيتش المقود اخيرا ، وامسك القربينة بكلتا يديه على اهبة الاستعداد . كانت اشعة الشمس المبقعة بسحب البعوض الذهبية تشعشع الغابة وتشرطها . فكان يصعب تبيان اى شىء الى الامام وعلى الجانبين ، حيث كان الطلبة العسكريون المترجلون يزحفون يمينا ويسارا فى صف نحيل وهم يطأون العساليج المخشخشة بحذر خلال الاجمات النامية والسرخس الطويل .

ايه الدليل الى انهم سيقعون فى مكان ما هنا على كوخ حارس الغابة ، وعلى الطريق الوحيد الذى من الممكن ان يسلكه الشقاة للنفاذ الى قلب الغابة . وفجأة ظهر للعيان سقف مغطى بالصوفة له حافة كالسرج على بعد خطوات من روتشين ، توقف فاديم بيتروفيتش محدقا من تحت الاعشاب الكثيفة . وصفر صفيرا خافتا . كانت الاغصان تتكسر بخشخشة اشد وعلى مسافة اقرب تحت اقدام الطلاب العسكريين . همز الحصان من جديد ، ومر خلال الاحراش ، وشاهد الكوخ المتروك فى فرجة صغيرة من الغابة كانت تقف بالقرب منه بضع عربات محلولة منها خيولها ، وتتناثر اسمال وخرق . لقد رحل الشقاة من هنا .

امسك فاديم بيتروفيتش قربينته فى هيئة استعداد ، واخذ يدور حول الكوخ بحذر . وكان الكسى كراسيلنيكوف يتراجع امامه بحذر ايضا من ركن الى آخر ، وهو ينوى الاستيلاء على حصان هذا الفارس . تلفت روتشين ، وتوقف عند الحائط الجانبى . بينما وقف الكسى عند الحائط الامامى بنافذته المحطمة وبابه المخلوع . ولكى يقوم بكل شىء دون ان يحدث ضجة امسك بسكينه فقط بهيئة استعداد . وحينما خرج روتشين من وراء الركن ، هجم الكسى عليه

بسكينه الا ان روتشين استطاع ان يحمي نفسه بقربينته . وثب الكسي الى الوراء فارتطم ظهره بحائط الكوخ بشدة . وسقط السكين ، نظر الى فاديم بيتروفيتش ، وكأنه ينظر الى ميت يبعث حيا . وزعق زعيق الهول ، وركض منحني القامة ، هازا ذراعيه بارتباك .

– الكسي !

صاح روتشين ، وجذب المقـــود وانطلق في اثره . وصل الكسي الى شجرة ، والقى ذراعيه حولها فجأة ، وضغط وجهه على جذعها . وثب روتشين من على السرج ، وراح يطلق الرصاص في تسديد مباشر تقريبا على ظهر الكسي العريض المهتز .

– كانت تعيش هنا ؟

– اجل .

انحنـــى روتشين ، وتخطى العتبة الى كوخ صغير مائل ذى نافذة صغيرة واحدة واطئـــة جدا حتى ان الارقطيون في الخارج كان يغطيها تماما . رأى روتشين دفاتر مصنوعة من ورق الحيطان وبعض الكتب موضوعة على منضدة صغيرة واطئة ايضا في الضوء المخضوضر قرب النافذة . وكان احد الدفاتر مفتوحا وبالقرب منه محبرة وريشة . يعني ان كاتيا لحقت فقط ان تهرب بنفسها . قرفص روتشين امام المنضدة . غطى الطفل الصغير فمه بيده خلسة واخذ يكبت ضحكة ، ويشير لروتشين بعينيه الى الموقد .

كان غراب قيقلا صغير ذو عينين مستديرتين بلهاوين يجلس امام فتحة الموقد . ولعله سقط من المدخنة حيث كان عشه . ولما رأى الغراب الانظـــار مصوبة نحوه قفز داخل الموقد خافقـــا بجناحيه ليحيي نفسه . قال الطفل :

– انها اربعة غربان قيقلا هناك . وسأصطادها كلها . . .

قلب فاديم بيتروفيتش الدفاتر الموضوعة على المائدة لوجد دفتر يوميات كاتيا المدرسية ، حيث كانت تسجل فيه الدروس وبعض الحوادث المعينة . وكانت كل يومية تقريبا تنتهي بما يلي : «شاغب ايفان غافريكوف مرة اخرى . . . » او «انقطـــع على نفسى عهدا بالا اكلم ايفان غافريكوف ثلاث ايام . . . » او «مرة اخرى

سار ايفان غافريكوف على حافة السطح ليخيف البنات . انـــا في يأس تام . . . »

سأل روتشين :

– من ايفان غافريكوف هذا ؟

– انا .

– ولماذا تشاغب ، وتزعج يكاترينا دميتريفنا ؟

زفر ايفان غافريكوف زفرة عميقة ، واكتست عيناه الزرقاوان براءة تامة .

– يحصل . . . انـــا مجتهد في الدراسة . . . انظر في دفاتر الخط للبنات : خربشة . وهذا هو دفتري . مستندهش . وانا اعرف جدول الضرب كله . هل تريد ان تسأل ؟

وقلص عينيه بكل قوته .

– اصدق بك .

جلس فاديـــم بيتروفيتش على الارض وقد طوى رجليـــه ، وواصل تقليب دفتر اليوميات . فلم يعثر فيه على كلمة عن كاتيا . ولكنه احس وكأن شباب كاتيا الدائم ورقتها النقية الواثقة بالآخرين ينهضان من كل صفحة فيه ، وتراءت له يداها بعروقهمـــا الخفيفة الزرقة ، وعيناها الدافئتان الصافيتان . . .

قال ايفان غافريكوف :

– تسعة في تسعة تساوى واحدا وثمانين . اليس صحيحا ؟

– شاطر ، شاطر . . . اسمع ، الم تقل لك الى اين سافرت ؟

– الى كييف .

– ربما تكذب ؟

– وما حاجتي الى الكذب ؟

– قد تكون لديها رسائل ودفاتر اخرى مخبأة في مكان ما ، الا تعرف ؟

– كل شيء هنا . . . سآخذ هذه الى البيت الآن ، طلبت مني ان احرص علـــى الدفاتر ، والا فان الفلاحين سيلفون باوراقهـــا سيكالرهم .

قرأ روتشين في صفحة الدفتر الاخيرة :

« . . . لا ادرى لماذا انا مؤمنة بانك حية ، وستلتقـــى يوما

ما ... تصورى اننى خرجت من ليل طويل طويل ... واود ان احدثك عن عالمى الصغير الذى اعيش فيه . توقظنى الطيور وراء النافذة . فاذهب الى الجدول للاستحمام . ثم فى طريق العودة اشرب الحليب عند العمة اغافيا . صرت مدينة لها بروبل وستين كوبيكا ، ولكنها ستنتظر . ثم يتوافد الاطفال ، وندرس . ولا شىء يعيقنا ، وليست لنا اية هموم . تبين ان الانسان لا يحتاج ابدا الى ما كان يبدو لنا ضروريا ، ولم نستطع العيش بدونه . اشعر بالخجل الشديد حين اقول انى احس وكاننى قد عدت الى السابعة عشرة . وانا اعرف ، يا داشنكا ، انك تفهمين ما اريد ان اقول ... يضايقنى فقط بعض الاحيان الصبى العزيز على ايفان غافريكوف ... انه فريد فى ... »

وانقطعت الرسالة عند هذا الحد لنفاد الفراغ فى الدفتر . جذب فاديم بيتروفيتش الصبى ايفان غافريكوف ، وحصره بين ركبتيه :

– ها ! ماذا تريد ان اهدى لك ؟

– طلقة .

– لا توجد عندى خرطوشة فارغة ...

– اطلق رصاصة ، لتخرج الى الفناء .

نهض فاديم بيتروفيتش من الارض ، واطبق الدفتر ، واخذ يحشره وراء قميصه .

– سآخذ هذا الدفتر ، يا ايفان .

– لا ، ستربطنى .

– سارى العمة اغانيا قريبا ، واخبرها باننى اخذته ، ... لنخرج الى الفناء لاطلق ...

١٨

كانت الشمس فى الهواء الساكن تشوى شوارع تساريتسين المقفرة ، حيث كانت اكوام القاذورات تتكدس عند مداخل البيوت بابوابها المفتوحة على مصراعيها . كان اهل المدينة مختبئين . وعلى منحدرات الفولغا فقط كانت العربات المثقلة بالممتلكات الحكومية

وارشيفات المؤسسات تندفع بضجيج . لقد كانت المدينة تعيش ساعاتها الاخيرة . وفى مشارفها كان الجيش العاشر الذى استنزف كثيرا بعد مانيتش لا يكاد يصمد لضغط جيش شمال القفقاس الحديث التشكيل بقيادة الجنرال فرانغل .

كانت محطة التلغرافات ما تزال تعمل ، ولكن المدينة اضحت بلا ماء ولا كهرباء . وتوقفت المصانع . وفك كل ما يمكن ان يؤخذ منها وخلع وجمع وحمل الى رصيف النهر . ولم يبق فى المناطق العمالية غير الاطفال والشيوخ . فلم تكن بروليتاريا تساريتسين التى تحملت ضحايا فادحة فى الدفاع عن المدينة خلال الشهور العشرة الاخيرة تنتظر رأفة من البيض . فمن كان ما يزال ذا مقدرة انخرط فى الجيش ليقاتل والآخرون سافروا على سطوح العربات وعلى ظهور السفن وبطونها . وكان الناس يرحلون شمالا الى مكان ما . وكانت مستودعات الاخشاب على ضفة الفولغا تحترق ، وهدير المدافع يشتد ويقترب اكثر فاكثر .

كانت كل حياة المدينة تتركز فى محطات القطار وارصفة النهر . وامتلأ شاطئ الفولغا بالاكياس والصناديق وقطع الآلات والمخارط ، وكان مئات الناس المتصببين عرقا يقلبون هذه الاشياء فى صياح وسباب ، ويجرونها على خشبات الصعود الى السفن . وكان آلاف الناس يقفون بانتظار الصعود الى السفن فى صفوف كثيفة او يستلقون صامتين جياعا يحدقون خلال الغبار الساكن الى الماء المزيت الملتمع فى اشعة الشمس . وكانت الفولغا العريضة فى نهاية حزيران قد ضحلت حتى ان الجرف الرملى فى الضفة الاخرى قد اقترب الى حد لا مثيل له ، فكان الناس يخوضون فيه عراة ويسبحون فيه . كما كانوا يسبحون فى هذه الضفة ايضا فى الماء الفاتر بين المبانى على الشاطئ ، ووسط النفايات العائمة ، ولكن حتى من صوب النهر لم تهب طراوة .

كانت المراكب المسلوخة القذرة ترسو على الارصفة واحدا تلو الآخر ، وكانت ترتفع منها صيحات هاذية . كانت سطوح المراكب غاصة بالنازحين ومقاتلى الجيش الاحمر الاحياء وسط الجثث ، والمصابين بالتيفوس المتوجعين المتمتمين الهاذين . كانت عشرات المراكب والمقطورات تحتك بعضها ببعض وهى تنتظر

التفريغ والشحن ، وتصفر صفيرا مبحوحا . وقد جاءت جميعا من الجنوب ، من استراخان وتشورني يار .

كان رجال الاسعاف الملطخون بمقسم الكلس يركضون على ظهور المراكب ، ويتخطون عبر المرضى الراقدين ، ويرفعون جثث الموتى ، ويلقونها على الشاطئ ليوفروا مكانا للاحياء . كان الكلس يتناثر ، وحامض الكاربوليك يرش . وقد صدرت الاوامر بوضع الجثث في اكشاك بيع المرطبات والكفاس * . وبدات الجثث تنتفخ من الحر ، وتشققت السقائف الخشبية المقامة على عجل ، ورائحة النتانة الخانقة بشكل خاص كانت تحمل الناس على مغادرة شاطئ تساريتسين . وكانت طائرات فرانغل تطير فوق المدينة كالظلال من خلال نقاب الغبار . وكانت تلقي قنابلها على النهر .

كان الناس يتسللون عبر نقاط حراسة الرصيف ، وزكائبهم تعلق بحراب الجنود الحمر ، ويهرعون الى ظهور المراكب . وكانت الصناديق والزكائب تتطاير الى هناك مقرقعة . فكان المركب يثقل حتى يصل الماء الى مقربة من حاجزه .

بين هذا الجمع كانت عربة تقف على الشاطئ بالقرب من خشبات الصعود تماما وقد استلقت فيها انيسيا وداشا . وقد جلبهما كوزما كوزميتش من الجبهة بموجب امر صارم لآمر الفوج بان تجلى المرأتان لا عن طريق السكة الحديد ، بل في سفينة قطعا ، ولو كلفه ذلك حياته . قال تليغين له :

— يا رفيق نفيدوف ، انك لم تقم قط بمهمة اكثر مسؤولية . انزلهما في مكان الارساء ، واعتن بهما قدر وسعك . اسرق او اقتل ، ولكن عليك ان تطعمهما جيدا . . . ستكون مسؤولا عن حياتهما . . .

كانت المرأتان مستلقيتين في العربة على القش كقطيعتي الخرق ، مثل هيكلين . وكانت انيسيا قد عادت الى وعيها ، ولكنها كانت واهنة بحيث لا تستطيع ان تفتح فمها . فكان كوزما كوزميتش يضطر الى ان يباعد بين صفي اسنانها باصبعه ليجعلها تشرب الماء الدافئ من زجاجة . وكانت داشا التي اصيبت بالتيفوس بعد انيسيا تهذي متمتمة دون انقطاع بصوت خافت غاضب .

---

* مشروب شعبي روسي غير كحولي . (المترجم) .

مرت عدة مراكب دون ان يستطيع كوزما كوزميتش ركوبها . توسل والدموع في عينيه ، ولجأ الى مختلف الحيل ، طالبا من الناس مساعدته في حمل المرأتين الى ظهر المركب ، ولكنهم في ذلك الوضع الصعب لم يكلفوا انفسهم حتى الاستماع اليه . اتكأ على العربة ، وحدق بعينين ملتهبتين في ذلك السراب ، في انعكاسات الشمس المحمرة من خلال الغبار على النهر الدافئ الوغر ، والى المراكب الصاعقة بنفاد صبر محملة بالجثث . وترامى من جديد هدير المحركات المتوعد ، واثارت القنابل التراب في هذه المرة على مسافة قريبة ، وغطى الغبار الشاطئ كله . القى الكثيرون انفسهم في الفولغا ، وسبحوا الى مركب مقبل صائحين : «القوا الحبال . . . » الا ان الحبال لم تلق لهم ، فظلت الرؤوس تحوم طويلا قرب المركب مثل بطيخ اسود .

والآن لم يبق الا المركب الاخير تقريبا ، وهو مقطورة صفراء واطئة ذات مراوح الدواليب المعوجة . لم تتجه نحو رصيف الرسو ، بل بالقرب منه ، الى رصيف خال من الناس . ادار كوزما كوزميتش العربة على الرمل العميق ، وكان الاول في الوصول الى الرصيف عدوا وركض عليه ملوحا بذراعيه باستماتة :

— هاي ، يا قبطان ، يا رفيق — صاح بعجوز مربد الهيئة من العهد القديم كان يقف على قنطرة القبطان — معي زوجة قائد الجبهة واخته لاجلو بهما ، والتهاون في الموضوع يعرضك للرمي . ارسل لي اثنين من البحارة ليحملا المرأتين الى المقطورة . . .

وترك وجهه المنفعل وكلماته الحاسمة مفعولها . تخطى وثاث جهم قذر عار الى النصف حاجز المقطورة ، ونزل الى خشبة الصعود . كان يرتدي بنطلونا مهلهلا :

— اين هما ؟

— لا تستطيع حملهما وحدك ، يا رفيق .

— وكيف لا . . .

تقدم الوقاد من العربة ، والقى نظرة الى المرأتين الراقدتين ، واشار الى انيسيا :

— اهذه زوجة قائد الجبهة ؟

— نعم ، هي . . . واذا حصل لها مكروه عوقب الجميع بالرمي . . .

قال الوقاد هادئا :

—لا تحاول ان تغشني ، انها طباختنا انيسيا .

— ربما فقدت عقلك ، يا رفيق . . اية طباخة هي ! . . .

— لا تصرخ بي يا مغفل .

واخرج انيسيا بسهولة من العربة ، والقاها على كتفه ، وعدل وضعها .

— ساعدني في اخذ هذه ايضا . . .

حمل كلتا المراتين بين ذراعيه ، وسار الى المقطورة . انعكفت الالواح تحت ثقله حتى مست الماء .

سحب كوزما كوزميتش وراءه كيس الخبز وشحم الخنزير المقدد ، وحقيبة الادوية وهو في غاية الرضا . . . .

في صباح الثالث من تموز اخرج ستيبان الكسيبيفيتش ، وهو معلم مدرسة ، من مطبخ السرداب الى الفناء الصغير حشايا ووسائد ومقاعد وثيرة مفروشة بقماشة خضراء ، ورزمـا من الكتب والمخطوطات . وحمل وهو يترنح اضمامة ملء ذراعيه من البناطيل والستر المتربة والتنورات والفساتين الصوفية ، والقى كل حمله على الارض ، وفتح فمه ماسحا سيول العرق بكمه . كان مبللا بالعرق بكليته : شعره الاصفر ولحيته ، وبنطلونه من قماش القنب ، وقميصه المتسخ ، الملتصق مع حمالة البنطلون بدفتي كتفيه المكورتين .

كانت امه المترهلة المرتدية ثوبا اسود تضرب سجادة بعصا وهي جالسة على كرسي من الخيزران واخته المشلولة ذات الجبين البارز بحيث يبدو سائر وجهها صغيرا منكمشا تستلقي متمددة في كرسي على عجلات في ظل شجرة اقاسيا ، وكان الحر شديدا حتى ان العصافير نفسها كانت تفتح مناقيرها .

قال ستيبان الكسيبيفيتش :

— ماما ، هذا كل شيء ، على ما يبدو . ولن استطيع اكثر

من ذلك ! يا الهي ، كم سادفع الآن لقاء قدح من البيرة المثلجة !

— يا ستيبان ، ليست عندنا قطرة من الماء . يتعين عليك يا عزيزي ، ان تتناول الجردل وتذهب لملئه .

— مستحيل ، يا ماما ! الا يمكن الاستغناء عن ذلك ؟ اها ! تلك هي اللعنة حقا !

ووقع ستيبان الكسيبيفيتش في يأس حاد . ان جلب الماء يعني النزول الى شاطئ الفولغا ، حيث مـا تزال اكوام الرماد والجثث المحروقة التي احرقت في اكشاك المرطبات والكفاس ، ويعني الدخول في النهر الى الصدر ليصل الى ماء انظف ، واغتراف جردل من الماء ، وحمله على المرتفع خلال الرمل السميك في هذا الحر الجهنمي .

— لو استخدمنا احدا من الناس لدفعت ، على ما يبدو عشرة روبلات على الجردل الواحد . ان قلبي اثمن ، حسب ما اظن . . .

— افعل ما تراه صائبا . . .

— نعم ، ولكنك ، يا ماما ، تفضلين ان اجهد نفسي بهذه الجرادل . . . .

لم تجب الام ، وتتابعت ضرباتها الضعيفة على السجادة . اخذ ستيبان الكسيبيفيتش يتنفس بعسر ، وهو ينظر الى وجهها الممتلئ المخطط بخطوط العرق . سال خافت الصوت :

— اين الجردل ؟ اين جردلك هذا ؟

صرخ بالجملة الثانية بصوت قبيح ، حتى ان اخته المريضة قالت متضرعة وهي في مكانها تحت الاقاسيا :

— لا حاجة ، يا ستيبان .

— لا ، لازم ، لازم ! ساجلب لكما الماء ، وساجلب لكما القصريات ! وحتى آخر حياتي ساعمل مثل البغل الذي يجر عربة الماء ! وليذهب الى الشيطان مستقبلي ، وتدرجي في الحياة ، واطروحتي ! كل شيء قد انتهى وتحطم ! فراغ مقمل ، جثث محروقة ، مقبرة ! . . . لا دينيكين ولا غيره يستطيع ان يبعث شيئا ! . . .

واخذ يفرقع اصابعه المبللة بالعرق ، كما فعل ذات مرة امام داشا . وعزم ان يتخلص من جردل الماء بطريقة او باخرى . وفجاة دق جرس برج الكاتدرائية الكبير رنانا بعد صمت دام اكثر من عام .

دق ، وسرى فوق المدينـــة المهجورة صوت متهلل مهدئ لكل المخاوف . وتوقف ستيبان الكسيفيتش في منتصف الجملة ، ورف هدوء مفاجئ على وجهه الناحل المرتعش ، بل لاح عليه قليل من البله بسبب ابتسامته . قالت الام :

– ستيبان ، على اية حال ينبغي عليك ارتداء اللباس الجيد والذهاب لحضور القداس ايضا .

– انه لا يؤمن ، ملحد يا ماما .

قالت الاخت الجالسة تحت الاقاسيا بحنق خافت .

– ولنيكن . على الاقـــل ليتظاهـــر ، فلا يحسبوننـــا من الحمر .

صاح ستيبان الكسيفيتش بنكد :

– ما هذا الكلام . يا ماما ؟ ما كدنا نتحرر من مسرات البلاشفة حتى اخذت تدفعينني الى مستنقع البرجوازية الصغيرة .. تماما ، بالضبط ! – وكشر باتجاه الاقاسيا ، حيث كانت اخته تغمض عينيها لكيلا تسمعه . وتابع قوله : – من يعتبرني احمر ؟ اصحابك آل شافيردوف ، وبريس ... السوقة ، التافهون ... يا الهي ، ان النزول الى مستواهم يعني الشطب على نفسك ذاتها ! لم تكن لنا حاجة اذن الى التعلم والتفكير والتمني ! انا اكره البلاشفة ، لا لانهم حصروني في السرداب ، ولا لانهم اخذوا جميع الفحم من محطة اسالة الماء ، بل لانهم داسوا على حريق الذاتية ... انا احب التفكير كما يملي ضميري ، عبقريتي . وانا احب قراءة الكتب التي تلهمني . ولكن لا احب ان اقرأ كارل ماركس ، ولو كان على حق الف مرة ... انا هو انا ! ... وبنفس القدر تماما لن اقبل ، يا امي ويا اختي ، يد صاحبكما دينيكين ... لنفس الاعتبارات تماما ...

وبعد ان قال ستيبان الكسيفيتش كل ذلك بايماءات قوية جدا في شمس حرارتها اربعون درجة مئوية ، قام بلا توابط كلي ايضا بسحب سترة طويلة وبنطلونا من كومة الملابس ، ونزل الى السرداب . وظهر بعد نصف ساعة في ملابسه الكاملة وفي قميص منشى ماسكا بيده قبعة رسمية وعصا . وبعد ذلك لم ينطق احد في الفناء بكلمة واحدة . خرج ستيبان الكسيفيتش الى الشارع وسار في الجانب الظليل الى ساحة الكاتدرائية .

كانت اشجار الاقاسيا الواطئة حول الكاتدرائية رمادية من الغبار ، وقد جلس تحتها بعض الاشخاص في ثياب مهلهلة . نظر اليهم الى المعلم اثناء مروره نظرة دعابية مصعدا بصره من الاسفل ليتفرس في عينيه .

وقال بصوت عميق واضح :

– الوجه المدهش يزهو بعدد من التغيرات السحرية .

وراء السياج كانت كوكبة من الخيالة القوزاق تقف مترجلة في قمصان كاكية ، بينما استلقت على العشب المصفوع حظيرة من طلاب المدارس العسكرية في بزة الاستعراض التامة ، والمعاطف على الاكتاف ، والقصعات والارفاش مقربة ... وكان جمع من المدنيين يقف على درجات الكاتدرائية . وقع بصر ستيبان الكسيفيتش على تاجر الخردوات شافيردوف المجامل المتنمق في قميص روسي مطرز ، ومعه زوجته واطفاله ، وعلى بريس وهو صاحب مطبعة صغيرة ضئيل الجسم مهمل الهندام كثير الحركة ، يهودي متنصر ، ومعه زوجته واطفاله الستة . احنى ستيبان الكسيفيتش راسه لهما بلا اهتمام ، ودخل الكاتدرائية الطرية الهواء ، وجعلوه يمر دون اعاقة لسترته الرسمية بل وتنحى بعضهم ليتسع له الطريق .

على الرغم من ان اثار الاهمال ما زالت تلوح على الكاتدرائية (في عهد البلاشفة استخدمت مستودعا للاطعمـــة) فقد كان زجاج النوافذ الضخمة مهشما ، وبقيت على الجدران المسلوخة كتابات من مثل «٦٤ كيس بطاطس ... المتسلم (غير مقروء)» الا ان لألاء الشموع العديدة على منصة الايقونات المذهبة ، والبخور المتصاعد الى القبة ، وترديدات الشماس المنداح صداها كزئير الوحش تحت عقود السقف ، واصوات الجوقة الطفولية الخالية من الحرارة ، كل ذلك قد ترك خليطا من الانطباعات في نفس ستيبان الكسيفيتش ، فقد احس بالمهابة على مالوف العادة وفي نفس الوقت وبحكم العادة ايضا عانى من الشعور بالنقمة ، فان ذيل المعطف البارز باستقلال ذات قد انكمش بين رجليه من تلقاء نفسه .

الى الامام ، كان الرؤساء العظام ، اصحاب السطوة يقفون ووجوههم الى المحراب : عشرة جنرالات قصار وطوال ، ممتلئون ونحاف ، في قمصان عسكرية ناصعة البياض ، وكتافيات ذهبية

وقضبة عريضة ناعمة . وكان كل واحد منهم يمسك قبعته بيده اليسرى المطوية ، ويمسح بثلاث اصابع يده اليمنى على صدره مع ترديد الشماس : «انتصل للرب ! » . وفي المقدمة ، وعلى بساط مفصول وقف جنرال متوسط القامة في قميص كاكي فضفاض ، وبنطلون طويل ذات شريط في موضع الدرز . كان شعره نصف الاشيب الممشط الى الخلف يبدو محكوكا عند القفا . وكان يرفع يده الصغيرة الممتلئة الشديدة البياض مرات اقل بكثير من الجنرالات الآخرين ، ويرسم علامة الصليب عريضة بطيئة ، واضعا اضمامة اصبعيه وسبابته بقوة على غضون جبينه المنحدر قليلا .

وعرف ستيبان الكسيفيتش انه دينيكين . تفحصه بنهم ، دون ان يرفع عن شفتيه الدقيقتين ابتسامة التشكك اللاذع ، ولكن عن غير وعي تماما في هذه المرة . كان احد الضباط يراقبه باهتمام ، وقد انسل مقتربا ووقف الى جانبه . كان ستيبان الكسيفيتش منغمرا باحساساته المتناقضة . وقد جذبته بشكل خاص يد دينيكين البيضاء تلك ، ومن لا يعرف يدي الجنرال ، ورخاوتهما المتباطئة بشكل خاص . والمرء مهما حاول لن يستطيع ان يجعل ليده هذه الاهمية الفريدة ، وهذه المحاولات غير المجدية تجعل يد الجنرال مضحكة ، ولا سيما حين يمدها الرئيس اليه منلطفا لتصافحها ، او حين يعطي اهمية لاصابعه الرخوة الشبيهة بالسجق ، وهو يوزع الورق على اللاعبين ، او حين يحشر الفوطة وراء ياقته . كل ذلك لا يقبل النقاش . ولكن يد دينيكين البيضاء امسكت بخناق التاريخ نفسه ، وحركتها ترسل الجيوش مندفعة الى المعركة الدامية .

وانفعل ستيبان الكسيفيتش انفعالا شديدا بهذه الافكار حتى لم يلحظ كيف انتهى القداس ، وصعد الى المنبر قسيس قصير القامة يضع نظارة ، واخذ يتكلم ، وهو ينظر الى دينيكين :

— ان الامر التاريخي لزعيمنا المحبوب القائد العام للقوات البيضاء لجنوب روسيا ، الفريق انطون ايفانوفيتش دينيكين قد طبع باحرف من نور في قلب كل ارثدوكسي . والقائد العام يبدأ امره بالكلمات التالية : «بالنظر لان هدفي الاخير هو الاستيلاء على موسكو ، قلب روسيا ، فانني آمر ببدء الهجوم العام في هذا اليوم ، الثالث من تموز . . . » ايها السادة ، ان ذلك وكان السماء انشقت

فوقنا ، وصوت القديس ميخائيل يدعو عسكره الابيض الطاهر . . .

احس ستيبان الكسيفيتش بدغدغة في باطن الفم ، وصغره يعلو ويهبط بسرعة تحت القميص المنشى المبلل ، واستولى عليه الانشراح . ورأى دينيكين يرفع كفه الى جبينه ببطء . وادرك ستيبان الكسيفيتش فجأة انه يجب ان يقبل تلك اليد . . . وبعد بضع دقائق حين كان دينيكين اول من قبل الصليب ، وسار على الممر المفروش ببساط بسيطا ذا لحية رمادية مشذبة مثل شيخ لطيف ، غمرت النشوة ستيبان الكسيفيتش فتقدم منه مندفعا ، تراجع دينيكين ، وحجب بيده وجهه الذي تلوى بتقطيبة بائسة . وهرع الجنرالات لحجبه في الحال . وامسك شخص ستيبان الكسيفيتش بمرفقيه من الخلف ، وجذبه الى الاسفل بقوة شديدة حتى انحنت ركبتاه :

— اسمعوا ، كنت اريد . . .

قلب الضابط الذي امسكه عينيه في وجهه :

— كيف جئت الى هنا ؟

— اردت ان اقبل يده فقط . . .

— اين اذن الدخول ؟

وواصل الضابط دفع ستيبان الكسيفيتش نحو الجمهور دون ان يطلق قبضتيه عنه . وبالقرب من باب الخروج الجانبي دعا الضابط بهزة من راسه طالبين فتيين من طلبة المدرسة العسكرية يحملان بندقيتين :

— خذا هذا الى آمرية الموقع . . .

«كما ترى ، ايها العزيز المبجل ايفان ايليتش ، اننا وصلنا الى كوستروما نفسها . وتم اجازف ان انزل في الطريق في اي مكان ، وحتى نيجني نوفغورود لم تبد لي مكانا مأمونا من ناحية الحوادث الطارئة الحربية . فنزلنا في ضاحية من كوستروما ، في بيت خشبي على اللولغا في حديقته الغبراء واشجار الحور . وكل شيء كما يجب . . . والبلدة صغيرة طليقة تقع على تلال مثل روما ، نجدها ساكنة وناتية وهذا ما نحتاجه فعلا .

داريا ديميتريفنا تتماثل للشفاء ، ولو ببطء ، وهى ما تزال ضعيفة جدا ، وانا احملها كالطفل الصغير من السرير واخرج بها الى الفناء . وشهيتها ، على ما يبدو ، مثل شهية الذئب ، رغم انها لا تستطيع الكلام ، ولكنها عندما تريد ان تأكل تشير بعينيها . . . ولم يبق فيها غير عينيها ، على ما اعتقد – وجهها صغير كقبضة اليد ، وغالبا ما تبكى من الضعف – بلا صوت سوى الدموع تسيل على خديها . ظلت ثلاثة اسابيع تقريبا فى حالة هذيان واغماء ، طوال رحلتنا على الفولغا ، وكان هذيانها مضطربا موجعا ، وروحها تصارع بلا انقطاع اشباح الماضى . هناك كنز ما ، جواهر او شىء من هذا القبيل حصلت عليه بعد جريمة مزعومة ، قد لعب دورا كبيرا فى هذياناتها ، مهما بدا ذلك غريبا . وكان كل الهذيان يتلخص فى ان داريا ديميتريفنا كانت تتحدث بصوتين : احدهما كان يدين ، والآخر كان يبرر ، وهو صوت نحيل مولول . وما كنت اكتب لك عن ذلك لولا اكتشاف عرضى غير اعتيادى . . .

لقد انتابنى الجزع والذعر غير مرة ، وانا اراعى بثبات الامر الذى اصدرته باطعام مريضتينا جيدا ، وقد جعلت ذلك مهمتى الاساسية . ان الزمن عصيب . والناس اما يفكرون بمذاهب كبيرة ، ويحسون بمشاعر لا تقل عن الكرة الارضية رحابة ، واما يخلصون جلودهم بكلبية عارية . وكلتا الحالتين تفتقران الى الرحمة الحياتية : هناك من تستطيع ان تجذبه ، وهناك من تستطيع ان تخيفه . ولكنك غالبا ما تفشل فى تليين القلوب والتماس عشرة ارطال من الخبز بدموع الجوع وحدها .

بادلت كل التوافه الزائدة مما اخذناها معنا بالخبز والبيض والسمك . وكم من مرة وقعت فى اغواء بيع معطف داريا ديميتريفنا السميك الذى هربت به من سامارا فى الخريف . ولكننى امسكت نفسى ، لا بسبب الادراك السليم ، وانا انظر الى الخريف ، بل لان هذا المعطف قد شهد دائما فى هذيان داريا ديميتريفنا كمتهم غير مفهوم لى . ومعنى ذلك اننى اضطررت الى اللجوء الى الحيل ، الى خداع النفوس الميالة الى التصديق ، والى السرقة المحضة . ومرة اخرى تعلمت قراءة الكف . اصادف امرأة ريفية على رصيف النهر تحمل كيسا فاتزلف معها وابحث عن نقطة ضعف . وهى موجودة دائما ، فان

لتجربة الحياة شأن كبير . وادير الحديث حول عدو المسيح ، والناس فى الفولغا يتحدثون عنه كثيرا الآن ، ولا سيما الى الشمال من قازان . وهل تحتاج الى الشىء الكثير لتخيف امرأة بلهاء ؟ لا احتاج الا الآن انال ثقتها ، حتى يكون نصف كيسها لى . . .

يوم امس فقط ، فى صباح الاحد انشغلت فى توضيب ملابس داريا ديميتريفنا . يبدو اننى فى كوستروما الشخص الوحيد الذى يملك بكرة خيوط كبيرة ، وهو امر لا يستهان به ، حتى ان الناس يجيئون الينا ليخيطوا زرا فى بنطلون او ليرقعوا . . . وانا آخذ على ذلك مختلف المأكولات دون خجل . كنت جالسا على مدخل البيت ، وقد نشرت معطف داريا ديميتريفنا ، وبطانته من الفانيلة المربعة كما تعرف ، على ما اظن . فيدور فى ذهنى : اخلع البطانة ، واصنع منها تنورة رائعة ، لان تنورتها القديمة مهلهلة كالمنخال . . . والبطانة الجديدة اصنعها من قماش اخضر . وسحرتنى هذه الفكرة فسألت انيسيا كونستانتينوفنا ، فقالت هى ايضا ستكون تنورة جيدة ، فاخلعها . . .» فاخذت اخلع البطانة ، فاذا بالجواهر تندلع من هناك ، قيمة كبيرة ، اربعة وثلاثين حجرا . . . وهكذا فان الهذيان تحول الى حقيقة ! وفى نفس اليوم عرضت الجواهر على داريا ديميتريفنا ، وفجأة اراها تتذكر ! ظهر فى عينيها استعطاف وفزع ، وفى شفتيها شىء تريد ان تقوله . . . لقد نسيت الكلام . . . انحنيت الى شفتيها المستقعتين ، فتمتمت بالكلمة الاولى خلال مرضها كله «خذها ، ارمها . . .» .

انا بدون اشارتك ، يا ايفان ايليتش ، لا اجرؤ على ان افعل شيئا . لا ادرى من اين لها هذا الكنز ولماذا يبدو كريها لها بهذا الشكل . وانا لا اعرف كيف اتصرف : فانا اخاف من الاحتفاظ به فى البيت ، واعتبر رميه امرا غير معقول . حلفت لداريا ديميتريفنا باننى ركبت زورقا ، وسبحت لمنتصف الفولغا ، والقيت الجواهر فيها . فهدأت فى الحال ، ولاح لمعان فى عينيها ، وكأنها تخلصت اخيرا من شىء ازعج .

اعذرنى ، يا ايفان ايليتش ، على كتابتى لك عن كل شىء بمثل هذا الاسهاب . ولكننى دائما كثير الكلام ثرثارا . اعلمنا بطريقة من الطرق عن صحتكم ، وهل تقضى الشتاء هنا ، فى كوستروما ، ام تسافر

الى موسكو ؟ وانا باق على عهدى مخلصا الى آخر العمر لك ولداريا ديميتريفنا . كوزما نيليدوف . . .»

— جلبت البريد معي — قال سابوجكوف ، وصعد الى العربة المصنوعة من الاغصان المضفورة واتخذ مجلسه على القش الى جانب تليغين قائلا — اعتزلك ، يا ايفان .

— كل ذلك محزن ، يا سيرغى سيرغيفيتش . لو كان الامر بارادتى لبقيت آمر فوج كوتشاليتي ، اناس جدد ، وهموم جديدة ، وليس ذلك كله في ميسورى .

— لماذا تجعل من نفسك عجوزا ؟

— سينتهى ذلك ، تعبان بعض الشيء . . .

راح الحصانان يعدوان على الطريق الريفية . كان جانبا العربة المضفوران يهتزان ، والى اليسار تلوح غابة بلوط والى اليمين ، في حقل محصود كانت اكوام الحصاد المتصالبة لا تكاد تلوح في الغسق ، وفي الجو رائحة قش القمح . وكانت نجوم المسطس تتلألأ .

— من سيكون رئيس الاركان في لوائك ؟

— سيعينون شخصا ما .

انحرفت الطريق القريبة الى الغابة حيث كانت تهب رطوبة خفيفة ، وبدأ الحصانان يحمحمان . سأل تليغين :

— لا توجد رسالة لى ، بالطبع ؟

— اوه ، اعذرنى ، يا ايفان . لك رسالة .

كان ايفان ايليتش يجلس محنى الظهر متعبا غافيا ، وفجأة دفع جسمه الى الامام :

— اوه ، يا سيرغى سيرغيفيتش ! اين هى ؟

نبش سابوجكوف في حقيبته وقتا طويلا . اوقفا الحصانين ، واشعلا اعواد الثقاب فهمست وانطفأت . اخذ تليغين الرسالة ، وكانت من كوزما كوزميتش ، فقلبها باصابعه . قال سابوجكوف همسا :

— سميكة . كتابة كثيرة .

سأل تليغين همسا ايضا :

— وماذا في ذلك ؟ أهو شيء سيء ؟

وقفز من العربة ، وسار الى حافة الغابة ، واخذ يكسر المساليج بعجالة ، واشعل عود ثقاب ، ونفخ في المساليج .

— خذ حزمة من القش ، وستشتعل في الحال .

وحمل سابوجكوف اليه حزمة من قش القمح راكضا ، وابتعد عنه . واشتعلت حزمة القش على الفور . فرفض تليغين وراح يقرأ الرسالة . راقبه سابوجكوف بذرا ، ويمسح عينيه بكمه ، ثم يعود للقراءة ثانية . القضية واضحة ، اذن . نشق سابوجكوف من انفه ، وصعد الى العربة ، واشعل سيكارة . كان العجوز الجالس على مقعد السائق يريد ان يعود الى البيت باسرع وقت فقال :

— اخشى ان نتأخر على القطار ، والطريق بعد هذا سيكون وعلا جدا ، ثم علينا ان نعثر على مكان نخوض فيه . . . نحن نضيع الوقت . . .

لم يعد سابوجكوف ينظر الى تليغين ، حين تقدم من العربة ، ومالت العربة بثقله حين تسلق عليها ، وحط على القش . انطلق الحصانان عدوا . كان درب المجرة يمتد فوق راس سابوجكوف على مسافة ثلاثة ملايين سنة ضوئية . فرقعت العجلة الخلفية المتراخية ، الا ان العجوز السائق لم يعر لها التفاتا ، فلتتكسر اذا كتب لها ان تتكسر . فما في اليد حيلة . . .

قال تليغين بصوت مكتوم :

— ما اعظم قوة نفسها . . . صراع دائم من اجل اعادة القوى ، من اجل النقاوة ، والكمال . . . انا مندهل تماما . . .

— هل هى حية ؟

— اجل ، وما تظن ؟ انها في كوستروما ، وتتماثل للشفاء . . .

التفت سيرغى سابوجكوف نحوه بقوة ، وضحك الاثنان . دفعه سابوجكوف بقبضته فدفعه تليغين ايضا . ثم قص عليه محتوى الرسالة بالتفصيل . تاركا قضية الجواهر فقط . انها تقص الجواهر التى كتبت لابيها عنها في الصيف الماضى ، حين كانت تصارع من اجل الحياة بصورة مغامرة ومحطمة نفسها في الوقت ذاته . والظاهر ان داشا في ايام حيرتها تلك خاطت الجواهر في المعطف . ولم تذكرها مرة واحدة لايفان ايليتش . ومن الواضح انها قد نسيتها وليس هذا بغريب عنها . نسيتها ثم تذكرتها في حالة هذيانها ، وقولها جازمها ، اوهمها

جعل انفاس تليغين تحتبس . . . بالطبع هناك الكثير من الغموض يكتنف هذه القضية ، ولكنه لم يحاول قط ان يتوغل في فهم داشا الى النهاية .

– هناك شيئا واحدا واضحا لى ، يا سيرغى سيرغييفيتش ، هو ان اكون اهلا لحب امرأة مثل داشا ، مثلا ، انه مكسب كبير في الحياة .

– نعم ، اسعدك الحظ كثيرا ، كنت اقول ذلك دائمـا . .

– آه ، كم يجب ان يرتفـع الانسان دائمـا ، يا سيرغى سيرغييفيتش ! وقد يسقط . . وانت ايضا أمن المحتمل ان تسقط ؟

– فضيق شيء آخر . . .

– أمن المعقول انك لا تتحرق دائما الى العثور على امرأة مثل داشاى ؟

– النساء لا يلعبن مثل هذا الدور في حياتى . . . انا انظر الى هذه الاشياء ابسط بكثير . . . دون متاعب . . . .

– كفاك حديثا معادا ! انا اعرفك . . . . سيرغى سيرغييفيتش ، حياتنا شامخة : النصر او الموت ، وكل شيء منحصر في ذلك . ولحن مدبرو امورنا ، بل ونحن نحيا بكل ما في هذه الكلمة من معنى ! وفى العلاقة مع النساء يجب ان تبعد كل الصغائر . . . ويجب الحرص على الحب . . . وكن على يقظة دائما ! هل جربت ان تحـدق في عينين محبتين ؟ تلك اعجوبة الحياة . . .

لم يجب سيرغى سيرغييفيتش . وبالتدريج انسحبت طاقيته الى قفاه كلنيا . ومرة اخرى نظر الى درب المجرة . وقال :

– في مكان ما في ذلك الجانب هناك ثغرة في الكون ، مكان اسود بلا نجوم ، له شكل راس حصان . . . وهو في الصورة الفوتوغرافية مخيف جدا . وسيأتى زمن نفهم فيه ببساطة تامة ووضوح ان الفضاء اللانهائى لا يثير الرعب . وكل ذرة من جسمنا هى الاخرى نظام نجمى لا يحصى . وفى هذا وفى ذلك لانهائية . ونحن انفسنا لانهائيون . وكل شيء فينا لانهائى . وانا وانت نقاتل في سبيل اللانهائيـة وضد النهائية . . . .

لاحت الى الامام ملامح مبهمة لاشجار ضخمة ، ولكنه تبين انها اجمات واطئة عند الشاطئ . وفاحت طراوة النهر . وانحدرت العربة على المنحدر . وتهيب الحصانان ، وجمحا بصوت عال ، وخوضا في الماء الضحل . قال العجوز :

– عسى ان لا نقع في حفرة .

الا انهم عبروا النهر الصغير بسلامة . وعندما وصلوا الى الجانب الآخر قفز العجوز من مقعده بخفة صبى ، وركض الى جنب العربة هازا اللجام ، صائحـا على الحصانين . انطلق الحصانان على المرتقـى الرملى وتوقفـا لاهثين . صعد العجوز الى مقعده . لم تبق الا مسافة قصيرة للوصول الى المحطـة . التفت العجوز وقال :

– لن يحصل على شيء من كل هذه الامور ، فقط ان يقتل الناس عبثا . واهل قريتنا يقولون : اننا في كل الاحوال لن نرجع الارض التى اخذناها ، ولن تجدى القوة معنا . لا يشبه الامر الآن ما كان في عام ١٩٠٦ ، فالفلاح قوى ، ولا يهاب شيئـا . في قريـة كولوكولتسيفكا – واشار بسوطه الى الظلام – القوا منشورات من الطائرة ، وقرأها الفلاحون . يعنى انه يريـد ان يشترى الارض من جديد . وصل الى هذا الحد . لم يعد يأمل بان نهبها له بلا ثمن . . . لا باس ، سننتظر : سيرحل من حيث اتى . . . آه ، دينيكين ، دينيكين !

. . . .

في الصباح وصل تليغين وسابوجكوف الى مقر قيادة الجبهة الجنوبية في كوزلوف ، مملكة التفاح . تلك هى امنا روسيا ! بيوت صغيرة ذات سطوح كالحة ، والجيرانيوم في النوافذ الصغيرة ، وعمود متطاير من الغبار من تحت عجلات عربة متضعضعة وهى تنط على الطريق غير المستوى المرصوف بالحجارة على جانبيها اعمدة التلغراف الموحشة التى تعلقت على اسلاكهـا مزق الطائرات الورقيـة ، وكان مبنى بالآجر بطلبلبـة ، وقد دقت على ابوابـه خشبتان متصالبتان ، وفتاة حافية القدمين تعبر الطريـق ملطورة وهى تجر اخاها الصغير المعوج الساقين ، المترنح ، وحطام مهمل لبرج جرس صغير مهدم بالقرب من مسقف عام في ساحة قذرة كانت من قبل سوقا ، وهى الآن خواء . ووراء الاسيجة المتزعزعة نصف المحطمة اشجار التفاح المثقلة بالثمار المحمرة والخضراء بلون الشمع . وفوق

البساتين والسطوح يطير سرب مرح من الزرازير تظهر جميعا بطون اجنحتها .

يبدو ان الناس هنا كان من الممكن ان يعيشوا خارج الزمن الف سنة اخرى لو لم يقع هذا الحدث غير الاعتيادى ، الثورة . وعلى كل حال لا يوجد هنا ما يحزن عليه ، فان الحياة زهيدة . فقط ان الناس ناموا كثيرا .

قال سابوجكوف ، وهو يهتز الى جانب تليغين فى العربة المؤجرة :

— فقط فكر ان الفوانى وراء البحر تتحول الى نقود ، والانسان ينضغط فى آلة هائلة ليكون ملائما للانتاج ، والبضائع تنهال من المعامل كما فى هذيان حمى ، ولزم الامر قتل عشرة ملايين انسان لتباع جميع البضائع فى فترة وجيزة . مدنية ! اما هنا فالطائرات الورقية تتدلى من اسلاك التلغراف . انظر الى ذلك الرجل فى النافذة هناك يحك رأسه الاشعث والنوم عالق فى عينيه . . . . ونحن من هذه البقعة ذاتها نقفز الى ما لا مثيل له ، تحقيق حلم الانسانية جمعاء . . . تلك هى امنا روسيا ! انعم عيشا ، يا ايفان . . الجو مضمخ برائحة تفاح قوية ، مثل رائحة التبن قتية . . . حبذا لو اعيش الى ذلك الوقت ! لشعر انى سأؤلف كتابا . . .

اوصلهم الحوذى الى مقر قيادة الجبهة ، وكانت طقطقة الآلات الكاتبة تتسرب من كل نوافذ المقر .

عرف تليغين وسابوجكوف اثناء انتظارهما لدورهما فى المقابلة ، كل الانباء الحربية . وكان الوضع العام كالآتى : القوات العسكرية للقائد العام دينيكين تواصل الهجوم نحو موسكو بثلاث تشكيلات ، بعد توقف قصير . وجيش شمال القفقاس بقيادة فرانغل يتقدم على طول الفولغا قاطعا وسعط روسيا عن مناطق الحبوب — ما وراء الفولغا وسيبيريا — (وكان الجيش العاشر قد استطاع فى تموز ان يفلت منه بعد ان ضحى بكاميشين) والاتمان سيدورين على راس جيش الدون ، الذى اعاد تنظيمه بوغايفسكى اتمان الدون الجديد المشمول برعاية دينيكين يضغط باتجاه فورونيج يتقدمه فيلقان صداميان للخيالة بقيادة مامونتوف وشكورو . وجيش المتطوعين بقيادة ماى — مايفسكى الجنرال الموهوب ، وان كان سكيرا دائما ، يقوم بهجوم على جبهة عريضة منطلقا اوكرانيا من القوات الحمراء وفصائل الانصار ومسلطا

فى نفس الوقت قبضته ، المتمثلة بفيلق الجنرال كوتيبوف على اوريل وتولا وموسكو .

ان نجاحات دينيكين العسكرية واضحة وتموينه جيد ، واقواجه من المتطوعين رغم تطعيمها الكثير بفصائل الفلاحين تقاتل بثقة واقتدار . الا ان الشعور السائد فى مؤخراته يزداد اضطرابا يوما بعد يوم (وهو يستهين بذلك بصورة خطرة) . فكوبان يريد الانفصال والاستقلال الكامل ، وقد اضطر دينيكين لتثبيت سيادة الدولة الكبرى هناك ، الى شنق عضوين بارزين جدا فى رادا كوبان . وفى تيريك مصادمات دامية ، وقوزاق الدون حين اعلن الزحف على موسكو صاروا يقولون : «لقد كان الدون الهادى" لنا ، وسيظل لنا ، فليستول دينيكين وحده على موسكو» . والقضية الفلاحية فى المناطق التى يستولى عليها جيش المتطوعين تحل ببساطة عسكرية : بالعقاب بالجلد . وحكام الولايات ورؤساء الاقضية والجندرمة القيصرية يعادون الى مراكزهم والفلاحون يحضرون سبطانات بنادقهم كما كانوا يفعلون فى عهد الالمان وفى السنة الماضية ، وينتظرون الجيش الاحمر . اما ماخنو فبعد ان تحايل فقتل بنفسه منافسه الرئيسى الاتمان غريغوريف اعلن على الملأ اقامة نظام فوضوى فى كل مقاطعة يكاترينوسلاف ، وجمع زهاء خمسين الف من قطاع الطرق ، وهدد بان يقتلع من دينيكين روستوف وتاغانروغ والقرم ويكاترينوسلاف واوديسا . . . وظهر اتمانات خضر وهم نوع خاص من الاتمانات — هاربون مهووسون كانوا يهاجمون دينيكين فى كل مكان اينما وجدت غابات وتلال .

عدل الجيش الاحمر خط الجبهة بعد النكسات القاسية للجيشين الثالث عشر والتاسع والتراجع البطولى للجيش الثانى عشر من دنيستر فروغ . ومعنويته تتحسن ، وقدرته القتالية تزداد لسبب رئيسى هو تدفق الشيوعيين الضخم من بتروغراد وموسكو وايفانوفو والمدن الشمالية الاخرى . وكان الرجال يتوقعون امر القائد العام بالهجوم المضاد من يوم لآخر .

بعد ان ثبت تليغين تعيينــــه الجديد كآمر لواء مستقل ، وسابوجكوف كآمر فوج كوتشالين عاد الاثنان فى نفس اليــوم ، واستغرقا الطريق كله فى مناقشة الاخبار التى عرفاها ، وقد اتفق كلاهما على ان خطة دينيكين الضخمـــة مبنية فى الفراغ ، وانه لن

يستطيع ان يعيد فى روسيا ما استطاع ان يحققه فى كوبان فى العام الماضى . فلن كوبان استطاع ان يدحر سوروكين . اما هنا فعليه ان يتنازل لينين نفسه ، والبروليتاريا الاصلية ذات التقاليد الموروثة ، ثم ان الفلاح هنا عنيد معروف من احفاد الذين طردوا نابليون بالمذراة.

. . . .

— الراية الى الامام ! ارفع الغلاف !

تقدم حامل الراية الى الامام ومعه لاتوغين وغالجين الواقفان الى جانبه للحراسة . مسلسم تلبغين الفوج الى آمره الجديسد سيرغى سيرغييفيتش سابوجكوف . وكان بادى الجد مستغرق الفكر مقطب الجبين ، وحتى التورد المالوف قد زال عن وجهه الملوح . كانت فى يده ورقة خط فيها خطبة .

— يا رجال فوج كوتشالين !

قال ذلك ونظر الى المحاربين الحمر الواقفين بهيئة استعداد والسلاح فى ايديهم . وكان يعرف كل واحد منهم ، ويعرف ايا منهم باى جرح اصيب ، واى هم يشغل باله . لقد كانوا رجاله الاقربين :

— ايها الرفاق ، لقد قطعنا معا اكثر من الف ميل فى زمهرير الشتاء وحمارة القيظ . . وتكللتم بالمجد مرتين قرب تساريتسين . . . ولا تراجعتم لسبب لا يخصكم كبدتم العدو ثمنا باهظا لقاء نصر مؤقت واه . وكانت لكسم افعال مجيدة كثيرة ، لم تذكر فى بلاغات مضخمة ، وقد ضاعت التقارير عنها فى خضم الانباء العامة . . . ولا باس فى ذلك (ونظر تلبغين بطرف عينه الى الورقة الموضوعة فى راحته المطوية) احذركم من ان امامكم اعمالا اخرى كثيرة . فان العدو لم يندحر بعد ، ولا يكفى دحره بل تجب ابادته . . . فى هذه الحرب يجب ان يحرز النصر المؤزر ، ولا يجوز غير ذلك . ان الانسان يتنازل وحشا ، ويجب ان ينتصر الانسان . او لنضرب مثلا آخر : حين تطلع سنابل القمح تكون غضة رخوة ، ولكنها تشق الارض السوداء ، تشق الصخر . وفى البذرة النابتة تكمن كل قوة الحياة الجديدة التى ستاتى ولا يمكن ايقافها . . . لقد خرجنا فى صباح غائم بارد الى القتال فى سبيل نهار وضاء ، بينما اعداؤنا يريدون ليلا داكنا ليل السقاوات . وسيطلع النهار ، ولو تمزق العدو غيظا (ونظر ثانية الى الورقة مشغول البال وعركها) اعترف لكم ، ايها الرفاق ، اننى لست

فرحا ، وسافتقدكم كثيرا . انه لشىء كبير ان نقضى سنة كاملة معا حول النيران هنا وهناك . سأغادركم مودعا رايتكم القتالية . . اود واطلب تكون دائما ان تقود فوج كوتشالين المجيد للانتصارات . . .

وخلع ايفان ايليتش طاقيته ، وتقدم من الراية ، وامسك بطرف قماشها الناحل المثقب بالرصاص ، وقبله . ولبس قبعته ، وادى التحية العسكرية ، واغمض عينيه ، وقلصهما بقوة جعلت كل وجهه يتقلص .

. . . .

كان راس ايفان ايليتش يضج بعد التوديعات التى اقامها له سابوجكوف بالتعاون مع امراء الوحدات . جلس فى عربة القش مضفورة متابطا كيس المتاع (الذى كان يحتوى على قطة وكلب دائما الخرخبين الى جانب الاشياء الاخرى) وتذكر بعذوبة الخطب الحارة التى قيلت حول المائدة . وبدا وكأن ليس فى الامكان ان يحب الناس بعضهم بعضا اكثر من هذا الحب . تعانقوا وتبادلوا القبل وتصافحوا بقوة . آه ، يا لهم من اناس طيبين اصفياء مخلصين ! نهض امراء الوحدات الشبان وشربوا نخب الثورة العالمية بكلمات بسيطة بل ومقتبسة ، ولكنها قيلت بثقة . وواتت احد امراء الكتائب ، وهو رجل متواضع عادى ، رغبة مفاجئة فى ان يحتل المائدة ، فصعد عليها ، ورقص رقصة قوزاقية عارمة بين عظام البط المقضومة وقشور البطيخ ، وضحك ايفان ايليتش بكل قوته ، اذ تذكر ذلك .

توقفت العربة عند مشارف القرية ، وتقدم ثلاثة هم لاتوغين وغالجين وزادوريفيتش ، وحيوه ، وقال لاتوغين :

— اعتمدنا انك لن تنسانا ، ومع ذلك فقد نسيتنا .

واكد غالجين :

— نعم ، لقد انتظرناك .

— انتظروا ، انتظروا ، يا رفاق ، عم تتحدثون ؟

وضع لاتوغين قدمه على عجلة العربة وقال :

— انتظرناك . عشنا سنة واحدة سوية ، ووهب بعضنا بعضا حياته . . . حسنا ، اذن وداعا اذا كان سيان لديك .

وكان صوته حانقا مرتجفا .

— انتظر ، انتظر .

ونزل تليغين من العربة . قال زادوريفيتر :

– ماذا نفعل هنا مع المشاة ؟ انهم صنف آخر ! هل ستعفر اقدامنا بالغبار الى الابد ؟

وقال غاغين وقد لمعت عيناه :

– نحن من رجال المدفعية البحرية ، فهل تجد مثلنا ؟

قال لاتوغين :

– عندما كنا فى نيشنى كنا اثنى عشر ، فبقينا ثلاثة ، وانت الرابع . . . فاذا بك تجلس فى عربة ، ومع السلامة . اما نحن فلسنا بشرا ، نحن ذوى المعاطف الرمادية ، نحن من سواد الناس . . . كنا معك ثم مضينا . . . ولكن ما الفائدة من الكلام معك وانت سكران ؟

قال زادوريفيتر :

– عندك الآن لواء ، يا ايفان ايليتش ، وستكون تحت قيادتك مدفعية ثقيلة .

صاح لاتوغين :

– لتذهب ومدفعيتك الى جهنم . يمكن ان انظف المراحاض اذا اقتضت الضرورة ! ولكن يعز عليّ ان افقد انسانا ! وثقت بك ، يا ايفان ايليتش ، واحببتك . . . وانت تعرف ماذا يعنى ان تحب انسانا ؟ فاذا انا بالنسبة لك غريبا . حسنا ، لننه الحديث . . . سنتفهم البقية فى الطريق . . .

– يا رفاق ! – وحتى خمار البارحة زايل ايفان ايليتش من هذه الاحاديث – كنتم متسرعين فى ادانتى . هذا ما نويته بالضبط : ان استجلكم جميعا فى مدفعيتى حال وصولى الى اللواء .

تالق زادوريفيتر وقال :

– شكرا على هذا .

اما لاتوغين فقد ضرب الارض بحذائه المهلهل غيظا :

– انه يكذب ! لقد لفق هذا الآن – ثم قال بلهجة اخف ، وان هدد تليغين باصبع معوجة – النية وحدها لا تكفى ، يا رفيق ، لا تستطيع ان تذهب بها بعيدا . ولو اشكر على ذلك ايضا .

ضحك تليغين ، وضربه على ظهره :

– يا لحدة طبعك ! كما انك لست شخصا منصفا . . .

– ليذهب الانصاف الى الجحيم . فانا لا اتوق ان اخدع الناس ، ومن الممكن التسامح معك لسبب واحد ، لانك بسيط . ولهذا السبب تعبك السماء . حسنا ، لا تزعل ، واصعد الى العربة – ثم امسكه من كوعه بقوة ، وقال – اتعرف كيف يلقى الانسان نفسه على سيف العدو من اجل رفيقه ؟ الم يحدث ذلك ؟ – وادار عينيه الرصاصيتين المتسعتين الباردتين والمشوبتين عاطفـــــة فى وجه ايفان ايليتش وعينيه – الم تكذب ؟ ها ؟ الم تكذب ؟

قطب ايفان ايليتش ، وهز راسه قائلا :

– حسنا ، كذبت . وانتم فعلتم خيرا حين ذكرتمونى . اشرتم على بمخرج . . .

– الآن ، تقول الشىء الصحيح . . .

دندن لاغين :

– اتركه . . . لا تتشبث به . . . عدت لتكون ملك الطبيعة .

ودعهم ايفان ايليتش دون ان يقول كلمة اخرى ، وصعد الى العربة ، وظل وقتـــا طويلا فى الطريق يبتسم مع نفسه ، ويهز راسه .

كانت المسافة الى مقر اللواء المنفصل يمكن ان تستغرق فى الطائرة ساعة واحدة ، وعلى الحصان اكثر من اربع وعشرين ساعـــة بقليل . ولكن ايفان ايليتش سافر بالسكة الحديد اربعة ايام متنقلا من قطار الى آخر ضجرا الى حد الغيبوبة فى المحطات القفرة الخالية من الطعام ، وبالطبع لم يجد عربة الصالون المنفصلة التى وعدوه بها وعدا قاطعا ، واضطر ان يقطع المرحلة الاخيرة من الطريق فى عربة مواشى مملوءة الى النصف بطباشير لا احد يعرف لاى غرض يرسل فى مثل هذا الوقت . وفضلا عن ذلك وجد على احد الرفوف مسافرا له وجه سمين كالجرة يرتدى نظارة الفية . وكان طوال الوقت يردد مع نفسه مقاطع من اوبريت اوفينباخ : «لحم خنزير مقدد من تولوز ، من تولوز . . . سيكون مالحا بلا لبيد . . .» وحين بدا الظلام يعتكر اخذ ينشغل باكياسه ، ناقلا اشياء من هذا الكيس الى ذاك ، مخرجا اشياء ليشمها ويحشرها ثانية .

كان ايفان ايليتش تعبا الى حد الاعياء وجائعا فاخذ يتشمم مميزا بين روائح مختلف الماكولات . وحين بدا هذا الوضيع يدق بيضة

مسلوقة ناخرا من انفه ويقشرها ويأكلها لم يصطبر ايفان ايليتش فقال :

— اسمع ، يا مواطن ، بعد قليل سيقف القطار ، فما عليك الا ان تنزل فى الحال مع اكياسك هذه .

اوقف هذا تحريك فمه فى الظلام على الفور ، ولم يبد حركة ، وبعد قليل شم ايفان ايليتش رائحة سجق قوية قرب انفه ، ابعد ايفان ايليتش اليد الممدودة غير المرئية بحركة حانقة .

قال هذا الرجل بصوت ناعم عالى النبرة :

— لم تفهمنى جيدا ، ايها الرفيق العسكرى . لم ارد الا ان تنال شيئا من الشراب والطعام . آه ! — وتأوه ، واحس تليغين بالفه ثانية ان السجق يمد اليه — اليوم ليس عندنا غير المبادئ ولا شئ غير المبادئ . ولكن ما علاقة المبادئ بسجق اوكرانيا ؟ مع الثوم وشحم الخنزير . وعندى خمرة . جرعـــة واحدة لكل واحد منـا — وسكت منتظرا ، ولزم تليغين الصمت — لعلك تحسبنى مضاربا او مشتغلا فى السوق السوداء ؟ ارجو المعذرة ! انا فنان . ربما لست بمستوى كاتشالوف ولا يوريف ولا ماموتت دالسكى رحم الله روحه السوداء . كان ممثلا تراجيديا عظيما ! فتصور نفســه ، البهيمة ، زعيم الفوضوية العالمية ، وراق له ان ينهب بيوتات موسكو . وفى القمار كان من الصعب ان يكسب المرء فى اللعب معه ... لقبى العائلى باشكين- رازدوروسكى لقب لــه صيت فى الاقاليم . واسمى يبرز فى عناوين مضخمـــــة ... — وانتظر ، لعـــل تليغين يهتف : «آ ! باشكين- رازدوروسكى ، بالطبع ، فرصة سعيدة ..» ولكن تليغين ظل صامتا . — مثلت موسمين فى موسكو ، فى مسرح ارميتاج ومسرح كورش ... واخذ فلاديمير ايفانوفيتش نيميروفيتش-دالتشنكو يحوم حولى . فاقول لــه «لا ، دعنى ، يا فلاديمير ايفانوفيتش امثل حتى ارتوى ، ثـــم خذنى ...» وفى عام ١٩١٨ افتتحنا الموسم بـ«موت دانتون» فى مسرح كورش ، ومثلت انا دور دانتون ، اسد مزمجر ، شخصية بارزة ، شفتان بارزتان ، ثور ، وحش ، عبقرى ، جشع ، حساس ... ياله من تمثيل ! نجاح رائع ! بينما لا يوجد وقود ، والظلام يسود موسكو ، ولا بيع فى شباك التذاكر . فتشتتت الفرقة . وكنا خمسة تحولنا الى الاقاليم لنمثل «موت دانتون» كيفمـا اتفق . فى موسكـو منعنـا

لوناتشارسكى مفوض الشعب للتعليم من التمثيل ، فاخذنا حريتنا فى الاقاليم . وفى الفصل الاخير حملنا المقصلة على خشبة المسرح ، فقصلت راسى عن جسدى ... والتذاكر تباع بسرعة ! ولا احسبك تصدق حتى تسمع الجمهور يهتف : «اقطع راسه مرة اخرى ...» ومثلنـا فى خاركوف وكييف وكان الحمر مـا يزالون هناك ، ثم فى اومان ، فى حقيبة الحريق . وبعد ذلك فى نيقولاييف ، وخيرسون ، ويكاترينوسلاف . وقادنا الشيطان الى روستوف على الدون . ومثلنا ، وكان النجاح هائلا . حتى ان احد الضباط اخذ يرمى من مقصورته على روبسبير ... وفى اليوم التالى استدعانى عمدة المدينة ، وضربنى على وجهى حسب الطريقة القديمة قائلا : «ادع الله ليبارك القائد العام دينيكين ، لــو كان الامر بيدى لشنقتـــــك ... اخرج من روستوف حالا ...» نعم ، حال الفن صعب الآن ... تتنقل من اقليـم لآخر الى آخر كالغجر .... وديكورنا قد اضحى مزقا ، ومن العيب ان تضعه على مسرح ... وفى كوزلوف لم يسمحوا لنا فى شحن المقصلـــة باعتبارها شيئا لا تعرف الغاية من استعماله .... تفضلوا ! ليقطع راسى بفاس ! هل لديك علبة كبريت ؟ فى امكانى ان اريك : راسى موضوع فى كيس . صنعه خازن ادوات التمثيل فى مسرح «مالى» فى موسكو . انه عبقرى ... ثم تاتى الرقابة . تاخذ النص اليها فيظل الرفيق يقرا ويقرا ... وتشرح له ان هذه حقيقة تاريخية ... فيعود لتقليب الصفحات ... «اين الاثبات على انها حقيقة تاريخية ؟» فتقدم له عرضا للوناتشارسكى يبدى فيه اعجابه ... فيقرؤه ايضا ويقول «الا تستطيـــع ان تبتكر شيئـــا امرح من هذا ؟» وهكذا يخدش اعصابك ... انا لا اعرف ماذا سيحصل لنا الآن ... نحن ذاهبون للتمثيل فى مدينة «س» ، فى قيادة اللواء المنفصل .

سال تليغين بصورة غير متوقعة له :

— واين فرقتك ؟

— فى العربة المجاورة مع الديكور . وروبسبير فى القاطرة ، وهو الممثل تيتسكى . لا بد انك قد سمعت به طبعا . احسن روبسبير فى الجمهورية .... اضمن على ذلك . انه يحصل على الكحول من تحت الارض . عبقرى ! يركب القاطرة حالا فنسافر باطمئنان .. ما رايك ، ايها الرفيق العسكرى ، الا ناكل قليلا ؟ ... لا ترفض .

– الآن ، لا ارفض .

– سأكون ممتنا جدا – ونبس باشكين-رازدوروسكي في الاكياس هامسا ومدمدما : «اين حشرته . . .» ووقعت في يد تليغين بيضة وقطعة سجق وبقسماطة وتابع باشكين-رازدوروسكي قوله – حين ننتهي من التمثيل في مدينة «س»، سنسافر الى موسكو . . . شكرا . . . كلانا تجوالا ! في مصر نيغليني ، وفي فناء الدار رقم ٥ ، اقام احد الارمن محلا لتناول الاطعمة الخفيفة . انه عبقري ! تجد النقانق واللحم المقلي مع البطاطس ، وكل ما تشاء . ورجال الميليشيا يفتشون كل يوم . ما السبب ؟ لان جميع المترددين عليه تفوح منهم رائحة الكحول . ويفتشون ، ولا يستطيعون ان يجدوا كحولا ، ولن يجدوا . . . انه يحتفظ بصفيحة في العلية في الطابق الرابع مربوطة في انبوب الماء الفارغ . فينزل الكحول الى الاسفل ، الى محل الطعام حيث توجد حنفية ومغسلة اعتيادية ، ولك ان تفتح الحنفية ، وتصب لك قدحا من الكحول ، وتكون مرتاحا .

قال تليغين وهو يمضغ السجق بتلذذ شاعرا بعذوبة من جرعة الكحول :

– سأحاول ان ارتب كل وسائل الراحة ، استريحوا وتمرتوا ، ولا تستعجلوا ، وقدموا لنا عرضا جيدا . ستكونون ضيوفي في مدينة «س» ، انا آمر اللواء . . . .

فتعجب باشكين-رازدوروسكي !

– آووو ! اذن فهذا انت . . . وانا طوال الوقت انظر اليك ، واقول هذا هو حتفي ! كم ارعبتني ! اتكلم واتكلم ولا افهم لماذا لم ارم من القطار . . . يا عزيزي ، سنمثل لكم ، سنمثل من كل القلب ، كفنانين حقيقيين .

. . . .

نزل تليغين من العربة يحمل كيس متاعه . كان مصباح كيروسين مهشم يضيء بالكاد بضعة اشخاص عسكريين على الرصيف .

– مرحبا ، يا رفاق – حيا ايفان ايليتش وتقدم منهم – اتنتظرون آمر اللواء ؟ هذا انا ، تليغين . اعذروني على هيئتي هذه . . .

وصافحهم ونظر بدهشة الى احدهم ، وهو رجل اشيب قصير القامة جاف العود صارم ذو قيافة جيدة . . . وحينما ساروا عبر

المحطة الى ساحة مظلمة حدجه مرة اخرى من وراء كتفه بنظرة من طرف عينه ، ولكنه لم يستطع ان يتبين وجهه . اجلسوا ايفان ايليتش في عربة ، فسارت به وقتا طويلا في حقل دامس تفوح منه رائحة القاذورات . وتوقفت العربة عند بيت طويل كالسقيفة له سطح عال . وقد اعدت فيه لايفان ايليتش غرفة فارغة حديثة الطلاء . وقد وضعت على افريز النافذة شمعة مضاءة وصحن طعام غطي بصحن آخر . القى كيس المتاع على الارض ، وخلع قميصه العسكري ، وتمطى ، وجلس على سرير ضيق مفروش بفراش نظيف ، واخذ يخلع حذاءه الملطخ بالطباشير .

دق الباب دقة خفيفة . وفكر ايفان ايليتش بانزعاج : «كان يجب ان اطفئ الشمعة في الحال . انهم سيأتون ، وتبدأ الاحاديث ، والساعة قد تجاوزت الرابعة الآن ، اللعنة . . .» ثم اجاب :

– نعم ، ادخل . . .

ودخل بسرعة ذلك الرجل العسكري القصير القامة الاشيب ، واغلق الباب من دونه ، وبحركة قصيرة رفع كفه المستقيمة الى صدغه مؤديا التحية العسكرية .

وقف تليغين عن ساق الحذاء الطويل الذي كان قد خلعه الى النصف ، وتفرس في هذا الشبيه . . . وقال :

– اعذرني ، يا رفيق . حصل بعض الحرج على الرصيف ، ولكنني قررت ان اوجل التعارف والقضية كلها الى الغد . . . اذا كنت لست مخطئا ، فانت رئيس اركاني ؟

اجاب العسكري باقتضاب ، وهو ما يزال واقفا عند الباب :

– بالضبط . . .

– اعذرني ، ما اسمك ؟

– روتشين ، فاديم بيتروفيتش .

اخذ تليغين يجول ببصره فيما حوله في عجز من امره .

وفتح فمه وابتلع عدة جرعات من الهواء .

– اها . . . يعني . . . – واختلج وجهه ، فتحول الى الهمس :

– فاديم ؟

– نعم .

– افهم . . افهم . . . غريب جدا . . . انت من الحمر . . . انت رئيس اركاني . . رحمتك يا رب !

قال روتشين بنفس الصلابة والجفاف :

– ايفان ، لقد عزمت ان اتحدث اليك الآن ، لكي لا نكون في موضع محرج غدا .

– اما .. تتحدث ...

لبس ايفان ايليتش بسرعة حذاءه المخلوع الى النصف ، ورفع قميصه من الارض واخذ يلبسه . انزل فاديم بيتروفيتش جبينه ، وتابع حركاته ، وكانت يراقبه بلا اى نفاد صبر ، ولا قلق .

– اخشى ، يا فاديم ، ان احدنا لا يفهم الآخر بعض الشيء .

– سنتفاهم ...

– انت رجل ذكى ... نعم ، نعم ... لقد احببتك بحرارة ، يا فاديم ... انا اتذكر لقاءنا قبل اكثر من عام في محطة روستوف ... لقد اظهرت شهامة كبيرة ... لقد كان لك دائما قلب حار ... آه ، يا الهي ، يا الهي ...

وشد حزامه ، ولوى ازراره ، وفتش في جيبه اما عن قرط ذعوله ، واما ليؤجل قليلا حتمية حديث ثقيل ...

– يبدو انك تعتبر اننا قد تبادلنا الاماكن ، وان عليّ ، بدورى ، ان ابدى عاطفة كبيرة ... ان مثل هذه العاطفة موجودة لدى نحوك ، عاطفة كبيرة جدا .. كنا مرتبطين مع بعض اكثر من اى انسانين آخرين ... ولكن ، فاديم ، ماذا تفعل هنا ؟ ولماذا انت هنا ؟ حدثنى ...

– لاجل هذا جئت ، يا ايفان ...

– جيد جدا ربما تظن اننى قادر على ان اخفى شيئا ... انت رجل ذكى ، فلنتفق : اننى لا استطيع ان افعل لك شيئا ... نحن هنا مختلفان جذريا ...

وتجهم تليغين ، وصرف بصره عن روتشين . اما هذا فقد سمع وابتسم .

– وراءك شيء ما ... وذلك مفهوم ... والاشاعة حول موتك داخلة في هذه الخطة على ما يبدو ... حدثنى ... ولكن احذرك من اننى ساعتقلك ... آه ، كيف يحصل هذا ...

وهز تليغين يده علامة يأس منه ، ومن نفسه ومن حياته كلها التى اضحت الآن محطمة . تقدم فاديم بيتروفيتش منه بحركة سريعة ، وعانقه ، وقبله من شفتيه بقوة :

– انت رجل طيب ، يا ايفان ... نفس بسيطة ... وانا سعيد بان اراك بهذه الصورة ... احبك ، لنجلس – وجذب تليغين الى السرير ، وكان ما يزال في عناده – لا تتصلب . انا لست من الاستخبارات ، ولست عميلا مدسوسا .. فاطمئن ، انا في الجيش الاحمر منذ كانون الاول .

لم يكن ايفان ايليتش قد تخلص تماما من عزمه الذى هز كيانه حتى النخاع ، ولم يزل بين الشك واليقين ، فنظر في وجه روتشين الداكن المفرح ، القاسى والرقيق معا ، ونظر في عينيه السوداوين الذكيتين الجافتين . وجلس الاثنان على السرير ويداهما ما تزالان متشابكتين . واخذ فاديم بيتروفيتش يقص كل ما قاده الى هذا الجانب ، الى بيته ، الى وطنه .

وكان تليغين قد قاطعه في بداية القصة :

– واين كاتيا ؟ هل هى حية وفي عافية ، واين هى الآن ؟

– آمل ان تكون كاتيا الآن في موسكو ... تفاوتنا مرة اخرى ، وصلت الى كييف في وقت متاخر ، قبيل الاجلاء .. ولكن وجدت اثرها ...

– وهل هى تعرف انك حى ، وانك معنا ؟

– لا ... وهذا الذى يخرجنى عن اطوارى ....

١٩

مضى شهران .

ولم يكن من الممكن ايقاف هجوم جيوش الجنرال دينيكين ، وكان كولتشاك حاكم روسيا الاعلى يضغط على الاورال بآخر جهد مستميت . وفي منطقة البلطيق انهالت النوائب على الجيش الاحمر السابع الذى تقهقر عبر الوحول اللزجة امام الجنرال يودنيتش فاقدا بسكوف ولوغا وكاتشينا ، فاصدر هذا الجنرال امره في قواته «باقتحام بتروغراد ...» .

وقطعت الجمهورية السوفييتية كليا عن مناطق الحبوب والوقود . وكانت المواصلات لا تكاد تكفي لنقل القوات والذخيرة ، كانت سماء تشرين الاول تبكي على الارض الروسية ، وعلى المدن الجائعة المشلولة ، حيث كانت الحياة تخمد في انتظار شتاء اكثر بعدا عن التفاؤل ، وعلى مداخن المصانع الخامدة والورش المهجورة ، التي تركها عمالها الى مختلف الجبهات ، وعلى مقابر القاطرات والعربات المحطمة ، وعلى السكون العريق للقرى ذات السقوف القشية ، حيث لم يبق الا القليل من الفلاحين ، وحيث عادت المسارج ، كما كانت في زمن الاجداد ، وعاد النول اليدوي يدمدم في بعض البيوت .

في ذلك الفصل الردىء الطقس اخترق الجنرال ماموتتوف جبهة الجيش الاحمر للمرة الثانية وتوغل بفيلقه القوزاقي في غارة عميقة محطما المؤخرة قاطعا جميع المواصلات .

كان تليغين وروتشين والمفوض تشيسنوكوف (وهو رجل جديد ارسل قبل فترة وجيزة الى اللواء ليحل محل مفوضه الذي اصيب بالتيفوس) منكبين على خارطـــة مقطعـــة لصقت باللعـاب . كان تشيسنوكوف عاملا من موسكو انهكت صحته الاشغال الشاقة في العهد القيصري ، وانحله الجوع ، وشاب قبل اوان الشيب . راح يمسد جبهته الصلعاء ، وكأنه يحس بألم فوق حاجبيه ، ويقرأ للمرة العاشرة امر القائد العام عن العمليات .

كان تليغين يمص غليونه . وكان في المدة الاخيرة قد ترك لف السيكاير ، وتعلق بالغليون الذي اهداه لـه لاتوغين وكان هذا قد حصل عليه من ضابط ابيض اثناء الاستطلاع . واصبح الغليون تسرية ووسيلة للتهدئة في اللحظات الصعبة — وما اكثرها في الايام الاخيرة — وكان اذا لم ينظفه مدة طويلة يصفر صفيرا مريحا كصفير السماور الموضوع على المائدة في امسية باردة .

اتضح لفاديم بيتروفيتش من النظرة الاولى كل ما ينطوي عليه الامر من هستيريا يائسة فكان ينتظر ان ينهي المفوض تأملاته في كتابة هيئة الاركان هذه متكئا على الجدار المصنوع من كتل الخشب ، وكانت عيناه تلمعان بخبث من تحت جفنيه نصف المطبقين .

كانوا في بيت الضيعة الذي اتخذ مقرا لهيئة اركان اللواء على بعد حوالى عشرة فراسخ من الجبهة . ولم يبق في كلا الفوجين اللذين تسلمهما تليغين في آب ، اي قبل شهرين ، غير ما يقل عن ثلثمائة مقاتل ، اما الذين يرسلون للتعزيزات فقد كان من الصعب ان يسموا مقاتلين . فقد كانت القيادة العامة تشكلهم على عجل ، وبالدرجة الاولى من الهاربين من الجندية ، ملتقطة «الخضر» من المدن والقرى ، التي كانوا يأوون الآن اليها خوفا من امطار الخريف . وكانوا يحشرون دون اعداد ولا تمرين في سرايا التعزيزات ، ويرسلون الى الجبهة ، حيث كان عليهم ان ينفذوا مهمات حربية لا تتحقق بدقة الا في حركة القلم الاحمر على خارطة العمليات في مكتب القائد العام الهادىء المهيب .

— انا لا افهم — قال تشيسنوكوف ونظر الى ظهر الورقة ، رغم انه لم يكتب عليها شيء — انا لا افهم الفكرة العامة . . .

اجاب روتشين :

— وليس هناك شيء لتفهمه . انه امر اكاديمي للجبهة . يبدو ان القائد العـام اكل في فطوره بيضتين وشرب كوبـا من الكاكاو ، ودخن سيكارة جيدة ، وتقدم من الخارطة . وكان رئيس اركانه ينتظر ان يزول في احد الايام هذا الكابوس اللعين في غمضة عين ، كما في الحلم ، فاخرج باصبعيه على الخارطة علم الاشارة الاحمر الذي يعلم فوجنا الـ١٢٣ — وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلف من الفين وسبعمائة محارب — وغرزه بحركة رشيقة الى بعد مائة فرسخ الى الجنوب «وبهذه الطريقة ، وبعد ان تحتل قرية دوموفكا ، ستهدد جناح العدو . . .» ثم اخذ العلم الذي يعلم فوجنا الـ٣٩ — وهو حسب معلومات قسم الملاكات مؤلف من الفين ومائة محارب — ونقله الى بعد خمسة وتسعين فرسخا الى الجنوب الشرقي «وبهذه الطريقة سيقوم الفوج التاسع والثلاثون بهجوم امامي ، وهكذا . . .» عندئذ قلص القائد العام عينيه من خلال الدخان لينظر الى الخارطة ، ووافق ، لان رئيس الاركان ، على اية حال ، قد قضى الليل مترويا في كل شيء ، ولان الخطوط والسهام قد خطت بدقة بالحبر الاحمر والازرق ، ولان النتيجة واحدة — مهما يكن موضع اعلام الاشارات — وهي انعاش الحركة في الجبهة . . . وهذا هو المطلوب . . .

قاطعه تشيسنوكوف وهو يهز رأسه الكبير الاصلع :

— اسمع ، ليس هذا نقدا ، يا اخ ، بل حنقا . . .

— نعم ، حنق . . . ولماذا علىّ ان اصمت اذا كان هذا ما افكر فيه . وهذا مما يفكر فيه تليغين ايضا ، وما يفكر فيه مقاتلونا ، ويتحدثون عنه . . .

زفر تليغين زفرة قوية ، دون ان يرفع الغليون من فمه . وتضاعفت فى نفس المفوض مرارة الشك والحيرة ، كل ما حاول ان يكبته فى نفسه . انه لم يتخلف عن الحياة خلال عشرة اعوام من الاشغال الشاقة فى العهد القيصرى ، بل ان اشياء كثيرة معقدة قد ظهرت فيها ، دوامات ايضا يمت وجهك . . . وكان قلبه الذى طهرته سنوات العذاب يجد صعوبة فى تقبل التشكك فى الذين يقاتلون فى صف الثورة . فكان يحب مثل هؤلاء الناس فى الحال ، ولكنه كان يكتشف غير مرة ان بعضهم كان يضمر الشر . وقد احب روتشين ، لانه كان حادا مستقيما ولا يهاب شيئا ، حتى ولو وضعت بندقية بين عينيه . سأل المفوض :

— وماذا يمكن ان يقول المقاتلون ؟ عن قريب سنوزع عليهم السترة المبطنة والاحذية اللبادية . فتدور احاديث اخرى . من الذى يهذر ؟ الهاربون ؟ ان المطر ينفذ الى عظامهم ، وبطونهم خالية ، فلهذا تصطك اسنانهم . . .

سأل روتشين :

— متى سنوزع السترة المبطنة والاحذية اللبادية ؟

— مفوضية التموين وعدتنى وعدا قويا . . . وقد رأيت امر الصرف . . . وعدونى بالف وخمسمائة بطة ، ونصف عربة من شحم الخنزير المقدد . . .

— الم يعدوا بطيور محمصة من الجنة ؟

دمدم المفوض مع نفسه ، ولم يجب عن ذلك . وبالفعل لم يستطع ان يجلب للواء غير وعود واوراق . وكان قد سافر الى سميربوخوف ، وتشاتم فى التليفون ، وقضى ليالى مؤرقة ذارعا حجرته من زاوية الى اخرى ، كعادته القديمة فى السجن . . . لقد حدث شىء غير مفهوم ، فاينما دفعه فكره الثورى السليم وجد فى طريقه عقبة مبهمة تشربك كل شىء فيها واختلط .

سأل المفوض :

— ماذا يقولون ، على اية حال ؟

نقر روتشين ورقة الامر باصبعه محتدا :

— الامر يقول : ان نحتل قرية ميتروفانوفكا وضيعة داللى بسريتين ، ونحتفظ بهما . لقد احتللنا ذات مرة قرية ميتروفانوفكا وضيعة داللى بناء على امر القائد العام . وخرجنا منهما طائرين كالطلقة . وسيتكرر هذا بحذافيره بعد غد ، حتى لتنفذ ما كتب هنا .

— ولماذا ؟

— لانه . . . لان من المستحيل الاحتفاظ فى هذا الموقع ، ولا ينبغى ان نقدم على ذلك .

قال تليغين هازا قلبونه : صحيح .

— هب انا اقدمنا على ذلك ، وخسرنا مائة مقاتل فى هذه العملية ، وتلذذنا فى جبهة البيض دون ان يكون لنا اتصال بقواتنا . عند ذاك سيطبقون علينا من اليسار واليمين ، فنخرج سراعا من هذا الكيس ، وفضلا عن ذلك سنضطر الى ان نعبر النهر ثلاث مرات حيث سنتعرض للرمى عند العبور ، ثم هناك الارض المنبسطة حيث سيهاجمنا الخيالة ، والمستنقع حيث سيغطس نصف العربات .

— ولكن هذه القرية وتلك الضيعة ضروريتان لنا فى الخطة الاستراتيجية العامة .

— لا . . . انظر الى الخارطة . . . وهذا ما يقوله المقاتلون : لا توجد فكرة ولا هدف ولا خطة فى كل عملياتنا خلال الشهرين الماضيين . . . نحن نراوح فى مكاننا دون اى توقع مأمول . ونكيل ضربات لا معنى لها ، ونتكبد خسائر فى الرجال ، ونخسر الايمان فى النصر . . . صحتى : اليوم ليلا سيغادر بضع عشرات من الرجال الجبهة من تلقاء انفسهم . . وبعد شهر سيجلبونهم الينا ثانية . . . انا اتساءل : ما الذى حدث ، وماذا يحدث ؟ خلل !

قال تليغين بعد ان حشرج فى غليونه :

— اليوم ابلغونى فى كوكبتنا للخيالة — وانا لا ادرى من اين يعرفون ؟ — ان مامونتوف ، على حد زعمهم ، قد عبر الدون ثانية ، وهو يتوغل فى مؤخراتنا .

اختطف روتشيلد الامر ، ومرر عليه بصره ، ثم القاه ، واتكأ على الحائط ثانية .

— محتمل جدا . . وهذا الامر خال حتى من التلميح الى ذلك . . .

ودخل المكلف بالحراسة وهو رجل كهل قصير القامة ملتح يحمل كيس عتاد قذرا :

— ايها الرفيق آمر اللواء ، يطلبونك على التلفون شخصيا .

نظر تليفين الى المفوض متمعنا ، والتى معطفه على كتفيه بعجالة ، وخرج . قال المفوض ، وهو يمسح جبينه مرة اخرى :

— اذا صدق الانسان بك ، يا روتشيلد ، فقد كل ايمانه . فما الذى يحصل ؟ هل هناك خيانة بيننا ؟

— انا لا افترض شيئا ، ولا اؤكد ، ولكننى اعرف ان من المستحيل الاستمرار فى القتال بهذه الطريقة .

— والامر العسكرى يجب ان ينفذ ؟

— نعم ، يجب . . . وسانفذه غدا . . .

فكر المفوض لحظة ، ثم ضحك بالتضاب :

— لعلك تبحث عن الموت ؟

— ان هذا لا يتعلق فى المسالة كليا ، وابعد من ان يمسك . . . وانا ، فضلا عن ذلك ، لا ابحث عن الموت . . . وحتى لو جئت الينا منذ فترة لا بأس بها لعرفت ، على اية حال ، ان الفوج لا يريد ان ينفذ هذا الامر . . . ولكن يجب ان ينفذه . . . ان حياة الجيش هى فى تنفيذ الامر الصادر اليه . فاذا انتفى ذلك كان مآله الى التحلل والفوضى والموت . . . سافرا الاخير بنفسى ، والسود الفوج الى الهجوم . . . فاعتبر هذه العملية تجربة للضبط . . . ولننه الحديث بذلك . . .

عاد تليفين ، وجلس دون ان يخرج يديه من جيبى معطفه . وكانت عيناه مستديرتين .

— ايها الرفيقان ، رئيس المجلس العسكرى الاعلى يطوف فى الجبهة ، وبعد ساعة سيكون عندنا . . .

ومرت ساعة واخرى . ونزل المطر رذاذا . وكانت كوكبة الخيالة فى كامل نصابها ووحدة الموقع تصطفان فى المرعى وراء بيت

الضيعة . وكانت قطرات المطر تلتمع على اعراف الخيول المتدلية ، وخصلها الممشطة جيدا ، وعلى معاطف الفرسان الناصلة اللون . وكانت الخيول تدوس الوحل بسنابكها فتزداد شبها بالجيف المستخرجة من الماء . لقد كانت ضلوعها بادية ، واكفالها ناتئة ، واشفارها متدلية . وكان ايسرمان ، آمر الكوكبة ، وهو ملازم سابق فى الخيالة القيصرية ، ذو وجه مدور ، وانف مرفوع كانف الصبى ، ينظر الى تليفين فى يأس . فضيحة ! وعلاوة على ذلك ظهر من حيث لا يدرى جرو فذر طويل القوائم وقبع امام الكوكبة يراقب مستغرقا بفضول رخى البال .

هش ايسرمان عليه هازا ذراعه ، الا ان الجرو وتر اذنيه فقط ، ومال برأسه الى جانب . وفى تلك اللحظة استدار الفارس المكلف بالاشارة ، والواقف على مرتفع غير بعيد بحصانه ولكزه بعجالة ، وبرقل فى عدو سريع نحو تليفين ناثرا الوحل .

لاحت مقدمة سيارة ضخمة لامعة يحف بهما مصباحان متباعدان صاعدة المرتفع فى زاوية قائمة تقريبا ، ثم ظهرت السيارة مكشوفة طويلة رمادية فاتحة .

اخذت الخيول ترفع اقدامها من هديرها الشديد وتهز رؤوسها . اصدر ايسرمان امره : «استعداد !» وتوقفت السيارة وهى تكاد تسحق الجرو الذى قفز جانبا ، كقطعة من القطن ، وقبع ثانية . تقدم تليفين ، رافعا سبقه بالتحية مختارا حسبما اتفق احد الثلاثة العسكريين الجالسين فى السيارة ، وكانوا جميعا يضعون معاطف صهباء فوق معاطفهم . نهض الجالس الى جانب السائق واضعا يديه على الزجاجة الامامية ، واستمع الى التقرير دون ان ينظر الى تليفين .

ثم استدار نحو الكوكبة بحركة حادة . نهض العسكريان الجالسان فى المقعد الخلفى — احدهما شاحب بلون الورق مبتل اللحية ، والثانى ممتلئ منتفخ ضارى الهيئة — واديا التحية العسكرية . واخذ الرجل يتحدث بصوت نابح دافعا رأسه الى الاعلى حتى لاح منخراه اسودين ، ورقصت نظارته الانفية المبللة على قصبة انفه :

— ايها المقاتلون ، باسم سلطة العمال والفلاحين آمركم بان تشحذوا سيوفكم اشد ، وتركزوا حرابكم بصلابة اعظم . من منكم لا

يريد أن يروى حصانه من عصب الدون الهادئ؟ الجبان وحده لا يريد ذلك . . . لماذا ما تزالون هنا ، وليس هناك ؟ ان الجمهورية تتوقع منكم مآثر بطولية خارقة . فالى الامام ! اضربوا العدو ، وانثروا رماده في سهبنا الام . . .

وظل يتحدث باندفاع اشد على هذا المنوال . وانتهى من خطابه ، واجال بصره في الكوكبة ، وهتف «هورا !» رافعا فوق راسه قبضته المطوية . فردد المقاتلون هتافه باصوات متنافرة . لقد اقلقهم خطابه . وكأنه رجل نازل عليهم من القمر . فوجئوا بان ينعتوا بالجبناء ، ولم يكونوا يتوقعون ذلك .

دعا تليغين بهزة من راسه :

— لست راضيا عن وضع مقاتليك . انهم رعاع على خيول ! ولست راضيا عن حالة خيولك . انهما كدشان لجر العربات ! اتبعنى . . . .

وانهبد على المقعد قرب السائق . وانطلقت السيارة الضخمة من مكانها نحو الضيعة .

وتبعها تليغين على فرسه ، متصورا في عجالة ان الامر ربما يضمر احتمالا قويا يرميه . . .

توقفت السيارة عند مقر قيادة الميدان . ووصل تليغين وراءها وفي اثره تشيسنوكوف يلط على سرج حصانه في غير اقتدار . وكان على مقدمة البيت جندى الخفارة على التلفون ، وقد ادى التحية مرتجف اليد والفزع مرتسم على وجهه . وتوسل بعينيه الى تليغين يطلب اذنا بالحديث . وتكلم متلجلجا من الجهد ليلتزم بالرسميات ، وابلغه ان مقر اللواء قد نقلن يستدعيه قبل دقيقة (وكانت جميع اقسام اللواء ومستلكاته وخزانته والوشيقه في قرية ڤايفورونى على بعد حوالى اربعين فرسخا الى الشمال) . واستطاعوا ان يبلغوه بان دورية من البيض من رجال ماموتتوف في اغلب الظن — قد اغارت على القرية ، وان الاتصال التلفونى قد انقطع اثر ذلك .

زحف العسكرى الممتلئ الجسم على ركبته ثقيل الحركة — كان رئيس اركان القائد العام — وانحنى على المقعد الامامى ، واخذ يهمس لرئيس المجلس العسكرى الاعلى . فهز هذا راسه . وقال لتليغين عبر كتفه :

— ستتسلم تعليماتى ببريد الميدان .

ظل تليغين وتشيسنوكوف ينظران طويلا بصمت وذهول الى الطريق الاسود الذى انطلقت فيه السيارة الشبيهة بالغول وذابت كالشبح في عتمة المطر .

اشتغلت داشا في قسم تحسين الارض التابع للجنة التنفيذية كمساعدة ثانية لرئيس «مكتب المشاريع» . كانت في بعض الاحيان تقوم برسم البقع بالالوان المائية على خارطة ولاية كوستروما في الاماكن التى يفترض ان تجفف مستنقعاتها للحصول على الفحم النباتى وخام المستنقعات بكميات لا تنفد . وفي احيان اخرى كانت تستنسخ القوائم التى يعدها المهندس غريبومولوف ليجعل اللجنة التنفيذية في حالة دائمة من التأثر العصبى بضخامة مشاريعه العقيمة تماما في واقع الحال ، لان القسم لم يكن يحوى غير صندوق الاصباغ وبعض الفرش وكمية غير كبيرة من ورق وتمان ، فلا ارغاش ، ولا عربات ، ولا خيول ولا مضخات ماصة ، ولا نقود ، ولا ايد عاملة .

وحصلت داشا على جراية — هى ربع رطل من الخبز المخلوط بالقش ، واحيانا بعض اوراق الغار او حب الفلفل . وكانت انيسيا تشتغل مراسلة في اللجنة التنفيذية ، وكانت تحصل على جراية اكبر لخدماتها القتالية . فالى جانب ثمن رطل من الخبز والفلفل كانت تتلقى سمكة ونصف من السمك المجفف ، واحيانا سمكة رنجة صغيرة بلون الصدأ .

وكانت انيسيا الى جانب عملها الاصلى تعمل في حلقة التمثيل للهواة ، وتتردد لسماع المحاضرات المبسطة في كلية الآداب والتاريخ التى اجليت من قازان الى كوستروما . وكانت انيسيا تنظر بترفع بالغ الى واجبها المباشر — وهو الجلوس في مقعد متداع عالى المتكأ عند باب نائب رئيس اللجنة التنفيذية — فكانت اما ان تطرق راسها لتصم اذنيها باصبعيها ، وتنحنى نحو ركبتيها وتقرا تراجيديات شكسبير ، وحين كانت تستدعى ، كانت تجيب بسهوم : «الآن ، الآن . . .» بل وترد بحدة على الطلبات المتكررة في ان تنقل هذا الظرف او ذاك الى احدى الغرف العديدة المزدحمة بالمناضد ، والمكتظة

بالناس الذين شغلوا انفسهم بعمل من الاعمال ، واما ان تتغيب عن مكانها . وذات مرة كانت احدى المشتغلات ، وهى امرأة ذات وجه مصفر ، لفتت نظرها بهذا الخصوص . فنظرت انيسيا اليها نظرة سوداء قائلة «الا ترفعى صوتك علىّ ، يا رفيقة ، فانا لم اخف حتى من سيوف القوزاق . . .» حتى ان هذه المستخدمة المثقفة التى عملت كثيرا من قبل فى قضية تحرير المرأة وجدت من الافضل الا تتورط مع هذه العاملة اللاذعة السليطة . . .

كانت داشا تعود الى البيت بعد الساعة الخامسة بينما كانت انيسيا لا تعود احيانا الا فى ساعة متأخرة من الليل . وكانتا تعيشان فى بيت خشبى مطل على الفولغا . وكان كوزما كوزميتش يطعم داشا وانيسيا الى حد الشبع ملتزما بامر ايفان ايليتش تماما ، ويتابع ، خلافا لتسميه ، القيام باعمال غير صافية فى الحصول على المأكولات والحطب ، رغم ان ذلك كان يشق عليه فى بعض الاحيان : فقد كان كبر السن يؤثر فيه ، والطقس الخريفى يميل به من اللغب واللغط الى التاملات الفلسفية الهادئة عند الموقد المشتعل ، والمطر يضج ضجيجا خفيفا فوق السطح .

وحين يزرورق الغبش الصباحى فى النافذة كانت داشا وانيسيا تحتسيان فى العادة الشاى المصنوع من الجزر مع شىء من الادام ، وتخرجان الى العمل . وكان كوزما كوزميتش يغسل الاوانى ، ويسكب جردل الماء القذر ، ويكنس بالمكنسة كلتا الغرفتين ، ثم يبدأ على مهل ويزفرات فى الغالب فى تقليب الفكر والتخمين ممن يمكن ان يقتنص اليوم بيضتين وقطعة من شحم الخنزير ، زجاجة من الحليب ، نصف تبعة من البطاطس . . . وكان كوزما كوزميتش لا يستجدى ، لا سمح الله ! بل كان يقوم فقط بتبادل الافكار الفلسفية والخلقية بالمأكولات تبادلا لا غبار عليه . وخلال هذين الشهرين عرفه كل اهالى كوستروما تقريبا ، بل طاف اكثر من مرة فى القرى القريبة من المدينة .

وكان وهو يفكر يقوم فى العادة برتق وخياطة شىء ما فى النور المتزايد عند النافذة . فالحياة قوة جبارة . وحتى فى زمن التحولات التاريخية العميقة والمحن الصعبة يخرج الناس من ارحام امهاتهم ورؤوسهم فى المقدمة ، وبصراخ حانق يطالبون لهم موضعا فى هذه الدنيا سواء اكان يلائم هذا آباءهم وامهاتهم ام لا . ويتحابب الناس

دون اعتبار الى انهم يملكون من وسائل الدعم الخارجية اقل نسبيا مما لدى الطاووس على سبيل المثال حين ينشر ذيله الترف ، وهو يرقص على مرج الربيع . ان الناس ينشدون السلوى ، ومستعدون الى ان يقدموا نصف رغيفهم الى من يسكب طمأنينة غير متوقعة فى نفوسهم التى يمزقها الشك : «ماذا سيحل بنا ؟ على مشاكل العشب ، وتغطى عوراتنا باوراق الكرنب ؟» وآخرون يكونون ممتنين لو وجدوا مستمعا فهيما يمكن ان يكشفوا امامه كل ما يفور فى اعماقهم من غيظ دون ان يخافوا اللجنة الاستثنائية فى الولاية .

وكان كوزما كوزميتش يخرج للطواف فى البيوت . وكان يمسح قدميه فى الاروقة المظلمة ، ويدخل المطبخ . وفى بعض الاحيان تصرخ ربة البيت عليه فى غضب :

— جاء الطفيلى مرة اخرى ! لا يوجد شىء اليوم ، لا شىء ، لا شىء . . .

— جئت اسأل عن ماريا سافيشنا — كان كوزما كوزميتش يرد بذلك هازا وجهه الاحمر بالتحية مقلصا شفتيه — اهى فى حالة سيئة ؟

— سيئة . . .

— ليس الموت بحد ذاته رهيبا ، يا انا ايفانوفنا . بل ما يرهق ارواحنا هو شعورنا باننا عشنا حياة عقيمة . ومن هنا يحتاج الانسان الى السلوان . ضعى يدك على جبهتها الباردة وقولى : كانت حياتك صحيحة ، يا ماريا سافيشنا ، فلا تتأسفى عليها . ولكنك كنت تكدحين مثل اصغر نملة وحملت نشتك بلغب وبلا مسرة . والاعمال لا تذهب عبثا ابدا ، وكل شىء يتجمع ، ويزداد بيت الانسان سعة وعلوا ، ويكون لقشتك شىء تستنده . لقد ربيت اولادا واحفادا ، وها هو مساء حياتك قد حان . فاغمضى عينيك ، وارقدى مطمئنة . ولا تأسى على شىء ، فانت لم تكونى ملومة فى شقائك . . .

وترثى كوزما كوزميتش وهو يجلس على مقعد عند الباب . وكانت المرأة تكسر شظايا الخشب فاذا بها تلقى الفأس فجأة ، وتزفر عدة مرات متتالية ، ويتبلل خدها بالدموع . . . .

— يسعى الانسان ليعيش . . . واذا تعس لا احد يقول له كلمة شكر . . .

– لان حياتنا ما زال فيها ظلم . . . بينما يجب ان يقام لكل انسان تصنب جزاء على العالة . . . وسيكون ذلك في المستقبل ، يا آنا ايفانوفنا ، في المستقبل ستكون الحياة طيبة . . .

– ذلك في العالم الآخر ؟

– لا ، في هذا . . .

– انت وحدك الابله الطيب . . .

– هذه مهنتي ، يا آنا ايفانوفنا ، ولكنني لست طيبا . . . انا محب للاستطلاع . والانسان لا يحتاج الى شفقة . الانسان يحب حين يجد اهتماما من الناس به . حسنا ، بعض يمكن ان ازور ماريا سافيشنا ؟

– اذهب . . .

وكان كوزما كوزميتش لا يخرج من مثل هذا البيت خالي الوفاض . وفي المساء كان ينشر ويكسر الخشبة التي يكون قد اخذها من احد البيوت ، ويشعل الموقد في النصف النسائي من البيت ، وينفخ الرماد من السماور اللائز ، ويضعه على الطاولة ، ويقص على داشا وانيسيا عن روحاته . فيقول وهو ينفخ في صحن الشاي :

– ظهر لي منافس . صار عجوز يطوف على البيوت حافي القدمين لا يضع على جسده غير قميص من قماش الاكياس ، وقد نشر لحيته عن قصد ، وانفه المهيب بشكل غير اعتيادي يملأ وجهه . وهو يدعى الاب انفل . وقد اختلق هذا المحتال حكاية بسيطة . فهو يلج البيت ، ويجلس على الارض ويبدأ بالترنح وتشمير الذراعين ، ويولول : «هذا جزاؤك ، يا انفل . وانت لم تصدق ، تفو ، تفو . . رأيت بعينيك ، ولمست بيديك . تفو ، تفو ، تفو . . .» والمستمعون اليه يفغرون افواههم ،فيمثل برهة اخرى ويقول : قبل ايام ، في ليلة الجمعة وضعت امرأة زوجها في الجيش الاحمر مولودا ممتلئا له اسنان . وقد غسلوه وقمطوه ، ووضعوه على يدي امه . فتخرج الام ثديها ، وتقدمه له ، فلا يأخذه ، بل ينظر اليها نظرة ذات معنى ويقول : «ماما ، ماما ، ها انا قد جئت ! . . .» – رشف كوزما كوزميتش من صحنه بصوت عال وضحك – سيأخذ انفل زبائني مني . انه غيور ! اليوم التقينا في احد البيوت فاشار باصبعيه على صدغه اشارة ساخرة وقال :

هل جئت يا كوزما لتأخذ فضلاتي ؟ اذا اخذت تتعقبني فستعرف طعم عصاي . . .

قالت داشا بحدة :

– اترك كل هذه الحماقات ، يا كوزما كوزميتش ، والتحق في الخدمة السوفييتية ، لا بأس ، لا بأس ، سندبر امورنا على الجراية وحدها . . . والا فقد بدأ الناس يتحدثون عنك حديثا غير جميل ، وهذا يزعجني كثيرا . . .

وافاقت انيسيا من احلامها المرفرفة كعادتها دائما وقالت :

– اليوم تحدثت مع شخص ، انه خنزير – ولوت تعابير وجهها ونغمات صوتها – كنت جالسة اقرأ بالطبع ، فياتي رجل يشتغل عندنا في قسم التموين المدني ، مهلهل رخو معوج الفم .

«اود كثيرا ان اتعرف بعمك .»

«اي عم ؟»

«الذي تعيشين معه . . . بحاجة الى ان استمع الى نصيحة روحية منه . . .»

«انه لا يقدم اية نصائح . . .»

«ولكنني سمعت العكس . الكثيرون يأتون اليه ويجدون عنده تعزية . . .»

«يا رفيق ، لا وقت لي لسماع سخافاتك . ها انت تراني مشغولة . . .»

فيسر في اذني مع لعابه :

«الم تسمعي بالطفل الذي يتكلم ؟ . .»

«اذهب الى الشيطان . . .»

«لا حاجة الى الذهاب بعيدا ، نحن منذ زمان مع الشيطان . . وذلك الطفل اليس المسيح الدجال ؟

قالت داشا : – شيء مزعج جدا جدا .

– نعم ، وحشة – قال كوزما كوزميتش ذلك ، وصب لنفسه قدحا آخر من الماء الغالي وهو ساهم – وحشة تزرع الرنين في الآذان . ومع ذلك فان الروس مولع بالاستقصاء . وهو الى ذلك سريع التأثر . وله رأس نفيس . وكل ما يحتاج اليه هو المعرفة والطريق الصحيح للخروج من هذه الشربكة البيزنطية . منذ زمن

طويل تراودني الرغبة ، يا صاحبي العزيزين النفيسين ولكن دون ان اعقد العزم ، تراودني الرغبة في ان اقترح عليكما الانتقال الى موسكو .

— الى موسكو ؟

تساءلت انيسيا واتسعت عيناها الزرقاوان .

— الى النور ، الى الافكار ، اقرب الى القضايا العظيمة . واقطع لكما عهدا بان أكف عن شيطنتي . . . فانا نفسي قد قرفت منها منذ زمان . . . منذ ان رأيت صورتي — الاب الغل — حتى اصابني الغم ، وتملكتني كليا . . .

قالت داشا :

— الى موسكو ، الى موسكو ؟ عندنا هناك مكان نلجأ اليه ، فقد بقيت لكاتيا شقة تعيش فيها ماريا كونديراتيفنا . . . وربما لم يبق منها شيء الآن ؟ آه ، يا كوزما كوزميتش ، ايها العزيز ، دعنا لا نتأمل في الامر . . . فنحن هنا نعيش على ما يقع في اليد ، ونبيع اعز الاشياء لدينا . . . وانت اصبحت هنا انسانا اكثر لسوا . . . اسمع ، في موسكو ، ستدخل انيسيا مدرسة المسرح في الحال . . .

لم تقل انيسيا شيئا في الرد على ذلك ، سوى انها احمرت ، واسبلت جفنيها .

— كوزما كوزميتش ، اذهب غدا لتعرف هل هناك سفن ذاهبة الى ياروسلافل ؟ . . .

واستولى الانفعال على داشا ، فصمتت وتنهدت . قوس كوزما كوزميتش ظهره ، وضغط براحتيه على بطنه ، وفكر في ان من المحتمل الا تكون في موسكو مجازفة تذكر بخصوص الطعام المرائين ، وعند الضرورة القصوى فان لديهم جواهر داشا الغالية المخفية سرا . . . . ثم ان في الامكان ان يأخذوا معهم من كوستروما زهاء بودين من طحين الجودار . . . ثم كيف افلت من لسانه موضوع السفر هذا ! ولكن الى الاحسن ، بالطبع . . . واخذ يؤلف في ذهنه رسالة توضيحية لايفان ايليتش الذي تلقى منه قبل فترة بطاقة بريدية قصيرة يعلن فيها انه حي ومعافى مع الحب والقبل .

اتكأت انيسيا بمرفقها على المنضدة ، وحدقت في الضوء الواهن لقنديل الصفيح ، وتراءى لها ذلك السلم (الشبيه بسلم اللجنة التنفيذية) الذي ستنزل فيه عارية الكتفين ساحبة ذيل فستانها

الحريري وتفرك يديها الملطختين بالدم ، ثم الصندوق الطويل المصنوع من خشب الصنوبر — التابوت — الذي ستنهض منه وترى روميو ، وترى قارورة السم . . . .

وهكذا ظل الثلاثة جالسين طويلا قرب السماور الهامس . وكان الليل يرشق زجاج النافذة الصغيرة بدفقات حادة من المطر . ولكن لم يكن تعنيهم رداءة الطقس ، ولا تعاسة المأوى ، ولا كل الحرمانات العابرة ، فقد كانت قلوبهم تخفق بحرارة وثقة على عتبة الحياة ، وكأنهم وُهبوا شبابا دائما . . . .

كان ايفان ايليتش يعتبر نفسه رجلا موزونا ، فاتـه لم يفقد صوابه مهما يكن من شيء . ولكن الذي حدث هو انه فتح زر قراب مسدسه باصابع لم تطاوعه كثيرا وبدون تفكير ، وكأنما اصيب بعصبي فجائي ، وسحب مسدسه ، وصوبه على رأسه ، وداس على الزناد ، ولكن رصاصة لم تطلق ، لان احد الاشخاص كان قد افرغ الرصاص من مسدسه لغرض من الاغراض .

التفت اليه روتشين والمفوض تشيميتوكوف واخذا يعنفانه بشدة ناعتين اياه بالغر الساذج ، وبالمتقف ، وبخرقة لا تصلح حتى لمسح عجيزة حصان عجوز . وقد فعلا ذلك في حقل ، حيث ترجلوا من خيولهم عند تل ترابي اسود من المطر . وعلى مسافة غير بعيدة كانت تقف كوكبة الخيالة ووحدة المقر على صهوات الخيول . وكان ذلك كل ما تبقى من لواء تليغين .

فقد نفذ فيلق ماموتتوف الى مؤخرته بجبهة عريضة وقطع كل اتصالاته ، وحطم وسائل الاتصال ودمر مستودعات التموين والذخيرة في قرية غايفورونى وفي يوم واحد تحولت مؤخرة اللواء كلها الى فوضى انعدم فيها كل اتصال باية نقطة قيادية ، فتراجع الرجال في وحدات مشتتة وفرادى واختبأوا ، وراحوا يهيمون على وجوههم .

ان كلا الفوجين للمشاة وجد نفسه في المصيدة قبل ان يفيق الى نفسه . فقد هاجمهما رجال ماموتتوف من الخيالة من المؤخرة ، والخيالة القوزاق المترجلون من المقدمة . وترك المقاتلون الحمر الجبهة ، وتشتتوا شذر مذر .

واتضحت حجوم الكارثة شيئا فشيئا ، وبالتدريج ، صار تليغين ومعه كوكبة الخيالة ووحدة المقر فى البحث عن لوائه . كان ما يزال يأمل فى ان يجمع بعض الفلول ، فقد زال الذعر ، وكان مامونتوف بعيدا ، الا انه سرعان ما اتضح ان من المستحيل ان يجمع الناس من تحت السماء الرصاصية ، وبين اكداس الدريس المنتفخة ، والحقول التى يتعذر فيها السير ، والمنخفضات والاجمات حيث يخيم الضباب ... فقد ذهب رجال للبحث عن احدى وحدات الجبهة للانضمام اليها ، وراح بعضهم يجوبون الضياع يسألون اهلها من تحت النوافذ اذنا فى ان يختبئوا ليدفئوا انفسهم بينما اغتنم آخرون الفرصة فولوا هاربين بعيدا عن هذه الاماكن الى مواطنهم وزوجاتهم ومواقد بيوتهم .

عثر تليغين وروتشين والمفوض تشيستوكوف مصادفة على رجلين من الفوج التاسع والثلاثين منهكين الى حد الاعياء ، حتى لم يبق لهما الا ان يجلسا وراء تل عرنس ، وقد رويا للثلاثة قصة بائسة جدا ..

قال احدهما :

— عبثا تجوالكم فى الحقول ، فانكم لن تعثروا على احد . كان هناك فوج وزال .

وبقى الآخر جالسا وظهره الى كومة الدريس وكشر عن اسنانه :

— باعونا ، وهذا كل ما فى الامر ... اتظنون اننا لا نفهم فى الاوامر العسكرية ؟ نحن نفهم كل شىء .. باعونا ... اللعنة على القيادة ! اعطونا اسلحة من الكارتون لاحذيتنا ! — وحرك اصابعه البارزة من حذائه وقال : — انتهينا من القتال ... النهاية ... آمين !

وعند كومة الدريس هذه انهار تليغين . طافت فى ذهنه مقدمة السيارة المربعة بمصباحيها المتباعدين . اين فرصة التبرير امام هؤلاء ؟ لقد ضيع كل شىء بسماحته الكسول ، وتركه يفلت من بين يديه ، ويزيغ ...

قال لروتشين وتشيستوكوف :

— كفاكما صياحا على . حسنا ، ضعفت ، جبنت ، وانا الملوم ... وانقبض وجهه بصورة متقلصة ، واخذ يضع مسدسه فى قرابه — كنت محظوظا طوال حياتى ، وكنت انتظر دائما الانهيار فى يوم ما ... حسنا ، دعوا المحكمة العسكرية الثورية تصدر حكمها ...

— اذهب الى الشيطان ! ليس الامر يخصك الآن ! — صاح روتشين به وقد اختلجت عضلة خده — الى اين تقود الكوكبة ؟ الى الشرق او الى الغرب ؟ ما هى خطتك ؟ ما هى المهمة الآتية ؟ فكر !

— اعطنى الخارطة ...

تناول تليغين الخارطة من يدى روتشين فى غضب ، وتمتم ، وهو ينظر اليها ، شاتما نفسه بشتى العبارات الفاحشة . وتراقصت امام عينيه اسماء المدن والقرى والضياع . ولكنه تغلب على ذلك ايضا فى آخر الامر . وبعد نقاش تقرر السير شرقا فى محاولة للاتصال بوحدات الجيش الثامن .

وقضوا بقية النهار يسيرون عدوا كلما كان ذلك ممكنا . وحين ادلهم الليل حتى لم يعودوا يرون آذان خيولهم ارسلوا رجال الاستطلاع للبحث عن قرية روجدستفينسكويه التى اختفت غير بعيد فى الظلام الدامس . وتوقفوا دون ان يترجلوا عن خيولهم وانتظروا طويلا . قرب فاديم بيتروفيتش حصانه من حصان تليغين ، ومس ركبته بركبته وتساءل :

— حسنا . ربما يمكن ان توضح الآن ؟ هل يمكن ان اتحدث اليك ؟

— ممكن .

— لماذا قمت بذلك المشهد المسرحى ؟

— اى مشهد مسرحى ، يا فاديم ؟

— مع المسدس الفارغ ...

— ربما فقدت عقلك ! .. — وانحنى ايفان ايليتش على سرجه نحوه ، ولكنه لم يتبين فى الظلام غير كتلة غامضة ذات عينين سوداوين — فاديم ، اذن لم تكن انت الذى افرغ الطلقات ؟

— لست انا الذى افرغ الطلقات من مسدسك ... بدأت افكر فى انك اكثر مكرا مما تبدو ...

— انا لا افهم ... جبنت ... لا علاقة للمكر هنا ... لو كنت فى مكانك لما ذكرت ذلك ...

— لا تراوغ ، لا تراوغ ...

كانا يتحدثان بخفوت . وكان روتشين يرتجف بكل كيانه مثل كلب صيد فى طوق .

— ان رجال الكوكبة جميعا رأوا ذلك المشهد المقزز عند كومة الفريس . . . اتعرف ماذا يقولون ؟ يقولون انك مثلت كوميديا . . . تريد ان تنقذ حياتك عند المحاكمة العسكرية . . .

— لا افهم ماذا تعنى فى كلامك !

— لا ، يجب ان تصغى الىّ ! — وبدا الحصان تحت روتشين يضطرب ايضا — يجب ان ترد على بكل اخلاص . . . ففى مثل هذه الايام يعرف معدن الانسان . . . هل تحملت المحنة ؟ ادراك ان لطخة قد علقت بك ؟ . . . وانت لا تملك الحق فى ان تلطخ نفسك . . .

وثب حصانه ، وضرب وجه تليغين بذيله بقوة . عندئذ قال ايفان ايليتش بصوت مبحوح بكبته تشنج فى حلقومه :

— ابتعد عنى ، والا طعنتك ! . . .

وفى تلك اللحظة قال المفوض تشيسنوكوف فى الظلمة :

— كفاكما ثرثرة ، ايها الرجلان . انا الذى افرغت الطلقات .

لم يرد روتشين ولا تليغين بشىء عن ذلك . كانا يتنفسان تنفسا ثقيلا احدهما من الصدمة الشديدة والثانى من امتلاء النفس بالبغضاء ، وكلاهما لا يرى الآخر . ومن الظلام تردد اصوات قصيرة كالطلقات :

«قف ، قف !» «من انتم ؟» «اتركنى» «من اين انتم ؟» «نحن رجالنا ، وانتم من اى جانب ؟ اللعنة عليكم» .

كان ذلك اصطدام دورية باخرى . دار الخيالة بعضهم حول بعض خائفين فى هذه الظلمة الحالكة ان يجردوا اسلحتهم ، وغير راغبين فى نفس الوقت من ان ينفصلوا لما تملكهم من الحماس الحانق ، فتصايحوا وتشاتموا ، حتى احس الطرفان من قوة التعابير ان كليهما من الحمر .

«لماذا تمسك لجام فرسى ؟»

«من اى وحدة ؟»

«لا شأن لك فى هذا ، يا ابن . . . نحن وحدة فرسان كبيرة» .

«اين وحدتكم ؟»

«تعال معنا . . .»

وتعبت كلتا الدوريتين اخيرا ، وسارتا بهدوء الى الكوكبة . وتبين ان قرية روجدستفينسكويه على مسافة غير بعيدة ، وراء

غابة ونهر صغير . وحين سئل احد رجال الدورية الاخرى عن الوحدة الموجودة فى القرية اجاب بغير كثير من الادب :

— ستصلون ، وتعرفون . . .

كان سميون ميخائيلوفيتش بوديونى واثنان من قواد فرقه يجلسون وراء طاولة فى احد الاكواخ يشربون الشاى من سماور كبير . وحين رأى سميون بوديونى الرجال الثلاثة — تليغين وروتشين وتشيسنوكوف — يدخلون قال بلهجة مرحة :

— وصلت تعزيزاتنا . اهلا وسهلا . اجلسوا واشربوا الشاى معنا .

اقتربوا من الطاولة ، وتصافحوا مع بوديونى الذى كان ينظر نظرة مبطنة الى آمر اللواء الهائم واركان حربه (وكان مطلعا على كل شىء) وتصافحوا مع قائد الفرقة الرابعة ، وهو رجل قصير القامة له شاربان مهيبان يمكن ان يصلا الى ما وراء اذنيه بسهولة — ومع قائد الفرقة السادسة الذى مد لكل واحد منهم يدا كبيرة ، وضغط بها على ايديهم بقوة وكانه يلوى حدوة فرس ، وقد انطبعت على وجهه الفتى المورد طمأنينة عميقة .

سأل سميون بوديونى عما اذا كان قد هيئ لوحدتهم مبيت جيد ، وهل لديهم شكاوى او طلبات . رد روتشين بانهم قد نزلوا فى احسن ما استطاعوا ان يوفروه ، وانه لا شكاوى لديهم .

— خير على خير ، اذن — اجاب بوديونى الذى كان يعرف جيدا ان القرية التى نزل فيها فيلقه لقضاء راحة قصيرة فى الليل لا توفر موضع راحة حتى لذبابة — ولماذا انتم واقفون ؟ اسحبوا المصطبة واجلسوا . انا اتذكرك جيدا يا رفيق تليغين . ان رجالك استقبلوا قوزاق الدون بحمام حار ، آنذاك . . . — واجال بصره فى الجالسين حول المائدة مقلصا عينيه فى رضى شديد ، وهز قائد الفرقة السادسة رأسه مؤكدا ان القوزاق بالفعل قد استقبلوا بحمام حار ، بينما هز قائد الفرقة الرابعة وجهه الكالميكى بفخر وجفاف ، وتابع بوديونى

قوله – اظن فى هذه المرة عبث بكم مامونتوف بعض الشىء . . . ماذا جلبتم معكم ، جماعة المقر او وحدة قتالية ؟
قال تليغين :
– وحدة قتالية ، كوكبة معززة .
– وما هى حالة خيولكم ؟
– فى حالة ممتازة – اجاب رونشين بسرعة – قوائمها الامامية بحذوات .
قال بوديونى مندهشا :
– تصوروا ، حتى القوائم الامامية بحذوات . اظن لا حاجة لكم فى اللعاب للبحث عن الجيش الثامن ، فقد لا يكون فى مكانه الآن . . .
قال تليغين :
– يجب ان ارفع تقريرا لقائد الجيش .
– قدم التقرير لى . . . ماذا تقولان ، يا قائدى الفرقتين ، فى ان اضم آمر اللواء وكوكبته المعززة ؟
هز كلا القائدين رأسيهما موافقين . تناول بوديونى قبضة تبغ من علبة صفيح ، واخذ يلف سيكارة . وكرر قائلا :
– لا حاجة لكم فى اللعاب بعيدا . انضموا الينا . لقد جلسنا ذات مرة نفكر انا وقائدا الفرقتين وقررنا بعد التفكير بان خيولنا اخذت تسمن ، ومقاتلينا يضجرون ، فلنذهب شمالا للبحث عن مامونتوف . . وهكذا نجرى ، هو يبتعد عنا ، ونحن نلاحقه . . .

كان سميون بوديونى يمزح ، بينمــــا كانت الامور شديدة الخطورة ، فبعد ان عرف بوديونى ان فيلق مامونتوف قد خرق جبهة الحمر جازف براسه وخالف الامر الشخصى لرئيس المجلس العسكرى الاعلى فى الاستمرار بلا هوادة فى تنفيذ الخطة العسكرية التى – ان لم تكن تنطوى على خيانة ، فان لبابها وفشلها المحقق قد تبديا الآن بوضوح ، وانطلق بمبادرته الخاصة لملاحقة مامونتوف . وكان بوديونى وقائدا فرقتيه يتصورون جيدا لانفسهم صريف الاقلام القوى على الورق فى مكتب القائد العام ، والمخاطر الفواحة برائحة الموت تلك التى تنتظرهم فى نهاية الخط المباشر . ولكن انقاذ موسكو كان

اغلى لديهم من رؤوسهـــم . ولم يروا انقاذ موسكو الا فى ملاحقـــة مامونتوف فورا ، وفى دحر فيلق الخيالة الذى هو افضل فيلق لدى البيض . وكانوا لا يشكون فى ان هذا الفيلق لن يصمد لضربات سبعة آلاف مقاتل بالسيف فى فيلق بوديونى ، وانه سيصرع لا محالة فى مكان ما فى الحقول العريضة بين تسنا والدون . وكان عملا باسلا ان يلحق بمامونتوف الذى كان قد اخذ من قطاع الطرق عادة تبديل الخيول المنهكة المصابة فى القرى والضياع .
كانت افواج مامونتوف من قوزاق الدون – وهى افواج جريئة اسكرتها الانتصارات – تضم عددا اكبر بكثير . ولكن مامونتوف كان لا يسعى الى الالتقاء ببوديونى ، فقد كان يخاف هذا الخصم العنيد الذى يلاحقه . اذ لم تكن القوة التى تتصدى له خيالة من الاعصار بل ارهب قوة لا يعرف الا الله عقبة الالتقاء بها فى ارض مكشوفة . انها خيالة روسية نظامية . كان بوديونى يزحف باقل سرعة ، ولكن بشكل اشد . فتارة كان يختار طريقا اقصر او اكثر ملاءمة ، وتارة كان يحصر مامونتوف فى اماكن كان من الصعب الحصول فيها على علف للخيول او على خيول مستراحة . .
واستمرت هذه المطاردة ، هذه اللعبة الخطرة لقوتين جبارتين من الخيالة تسير من يوم الى يوم . وكانت الادخنة والحرائق فى ضباب الخريف تشير الى الطريق الذى يسلكه مامونتوف . وكان مامونتوف يهاجم الوحدات الحمراء فى المؤخرة ، وينسحب سريعا فى ناحية . واخيرا راوغه بوديونى ولحق به . ففى صباح باكر ، وحالما لاحت معالـــم الصلبان القديمة سوداء على خلفية حدائق الخضروات وثب سميون بوديونى ومعه كوكبة الفرسان الى قرية بانسة كان مامونتوف يقضى ليلته فيها .
الا ان عربة من ثلاثة خيول صهباء خرجت فى الحال من بوابة بيت فى الطرف الآخر من القرية وراحت تبتعد . كان مامونتوف فى هذه العربـــة المكشوفـــة يتلفت على مقعده حاسر الراس محلول المعطف ، وقد اطلق عدة رصاصات على فارس فى المقدمـــة ذى شاربين وعباءة قوزاقيـــة سوداء كان يلاحقه ، لقد عرف انـــه بوديونى ، ولكن القربينة ترافصت فى يديه . وطوردت العربة ، الا ان خيول الدون الصهباء حملتها بعيدا كالريح .

كانت الصرخات الوحشية وصلصلة السلاح والطلقات المنفردة ما تزال تتردد في افنية البيوت . لقد كان حرس ماموتتوف الشخصي من القوزاق يقاتل باستماتة . طاف رجال بوديونى فى القرية ، واخذوا يخرجون من المخابئ والزوايا الى الشارع اناسا وكيهم الذعر ، منهم من خرج فى لباسه الداخلى فقط ، ومنهم من خرج فى حذائه لا غير . وتبين انهم موسيقيون . احاطوا بهم ، واخذوا يضحكون منهم . تقدم سميون بوديونى ، ولما عرف جلية الامر طلب ان تجلب لهم آلاتهم الموسيقية .

ولما راى الموسيقيون ان البلاشفة لا يقتلونهم بالسيوف ، بل يضحكون منهم فقط ، تراكضوا وارتدوا ملابسهم بنشاط ، وجلبوا آلاتهم الهوائية — هيليكونات ضخمة ، وابواقــــا وترومبيطات — وكانت جميع الابواق من الفضة الخالصة . واندهش رجال بوديونى ، ونطقوا . انها لغنيمة عظيمة !

قال سميون بوديونى :

— على الاقل حصلنا على شعرة من جلد خنزير . . . اتعرفون عزف "النشيد الاممى" ؟

كان الموسيقيون يعرفون عزف كل ما يشتهى المرء . فقد كان بينهم طلاب من كونسرفاتوار موسكو ، وقد قضوا عاما ونصف عام فى البحث عن مورد رزق ، وخبز ابيض متنقلين من مدينة الى اخرى ، هاربين من اعمال الاباحة والاستجوابات وقتال الشوارع حتى وصلوا الى روستوف فجندوا . بل ان قائدهم — وهو رجل ذو انف اسفنجى ومشبع بالكحول — اعلن انه ثورى اصيل قديم ، نظروا الى انفه المورد المزرق وصدقوا بانه لن يلحق بهم اذى .

وتملص ماموتتوف مرة اخرى من النزال ، وخرج فيلقه بمناورة سريعة من التماس . واستمرت الملاحقــــة . ولكن مقصده اضحى واضحا ، وهو الخروج من خلال جبهة الحمر الى جماعته . وكان بوديونى يخشى ذلك اكثر من اى شىء آخر . ذلك لان حملته كلها ستكون بلا جدوى ، وعند ذلك لن يقتصر الامر على تحمل المسؤولية امام القائد العام ، بل اسوا من ذلك ، امام رئيس المجلس العسكرى الاعلى .

كما شاء سوء الحظ الا يطلع فى الاثناء اى اتصال ويعرف ما يدور فى العالم حوله فى تلك الايام . . . واخيرا وصلوا الى السكة الحديد .

خرج بوديونى على حصانه الى محطة القطار ومعه رئيس اركانــــه والمفوض ، وقعد الى جهاز الارسال . وتلقى عن طريق التلغراف اخبارا جعلته يرسل فى طلب قائدى الفرقتين وامراء الوحدات الكبار للوصول الى المحطة على الفور .

واجتمعوا فى مشرب المحطة ، حيث كانوا يرون من خلال النوافذ الكبيرة المحطمة تقدم كوكبات الخيالة ، وعبورها سدة القطار . والى الخلف منها يمتد غروب موحش ملاصق للارض تحت ثقل السحب . سمقت صفوف الفرسان — والاشارات على رماحها — على المنحدر ، وبدت مقدودة من حديد ، شديدة البأس على خيول قوية . ذهل تليغين من التعبير المرتسم على وجه فاديم بيتروفيتش روشين ، الذى كان ينظر فى النافذة — فى انعكاس الغروب . فقد كان وجها ترتسم عليه الانفة والجمود وكانما فى حالة انفعال قوى .

— يجب ان نعرف اى شىء هى . . . — قــال بصوت كامد ، وتقدم تليغين ليسمع بشكل اوضح — لقد نسينا . . . ليس هناك عقاب يساوى مثل هذه الخيانة . . . قبل الارض على غفرانها لك . . .

كان فاديم روشين يتحدث على هذا النحو لاول مرة بعد الشجار عند كومة الدريس . وكان تليغين يدرك انه يتعذب ، وانه يصمت لا عن انفة ، بل عن يأس لانه لم يكن فى وسعه ان يطلب غفرانا من تليغين بكلمات عادية من مثل "اعذرنى ، يا ايفان . . ." والآن ، وفى حالة التوتر الطويلة والتعب وصل الى لحظة الاحساس الطاغى بوطنه المضاع والمنسى والمكسوب من جديد ، وكان ذلك فى نفس الوقت دعاه الى الصلح عنه . . . .

سعل ايفان تليغين ، واراد ايضا ان يقول شيئا طيبا لروشين عاطبا على شجارهما الاحمق ، وكانه لم يكن . . . . وفى تلك اللحظة خرج بوديونى من قسم التلغراف . واحاطوا به فقال :

— ايها الرفاق ، هناك اخبار كبيرة الشأن . . . ولنبدأ بالاخبار المنغصــة . ان كوتيبوف استولى على اوريل . ودورياتــه قد بلغت مسـافة قريبــة من تولا . وهو فى هذا الهجوم دق اسفينا عريضا فى جبهتنــا . وتراجع الجيشان الثامن والعاشر الى الشرق ، والتاســع والثالث عشر الى الغرب . . . وكان ذلك فى الاسبوع الماضى — وصمت بوديونى والتمعت عيناه بالق مرح — ومنذ ذلك الحين تغير الوضع

تغيرا كبيرا ، يا رفاق . . . اولا يمكنني ان اؤكد لكم بان القيادة العليا كلها قد استبدلت . ولم يعد رئيس المجلس العسكري الاعلى يتصرف في الجبهة الجنوبية . . . واسترجعت قواتنا اوريل . . . ومزقت افواج كورنيلوف وماركوف ودروزدوف المجيدة شر تمزيق ما بين اوريل وكرومي . . . ان ما انتظرناه طويلا قد بدا . . . والتفاصيل غير معروفة حتى الآن . . ولكن مجموعة صدامية خاصة تعمل بنجاح ضد كوتييوف . . .

وتوقف سيميون بوديوني ثانية مديرا في يديه قصاصة من شريط التلفون اللاسلكي ، وتحرك شارباه ، والقى نظرة ضارية على امراء الوحدات الملتفين حوله .

— ان عمليات فيلقنا لم تجر وفق امر القائد العام ، ولكن خلافا له . . . فقد امرنا بالتحرك جنوبا الى سهوب سالسكيه ، الى مانيتش ، حيث كاد الجيش العاشر ان يتحطم ، وصعدنا الى الشمال . وبدلا من ان نكون على الجانب الايسر من الدون كنا على جانبه الايمن ، وبدلا من ان نبتعد عن خيالة الدون ، تشبثنا في ذيلها . وهذا غير صحيح ، ولا يجدي شيئا ! . . . اما بالنسبة لتفكيرنا البسيط ، فان لنا عقولا فلاحية قوزاقية ، ولا يجدر ان يكون لنا تفكيرنا الخاص ، وبالمقابل فان في اركان القائد العام عقولا متعلمة ، متنورة . . . والذي حدث اننا سرنا واوامر القائد العام سارت وراءنا واننا لم استلمها ، ولم اقراها : فانت اذا بدات تتروع فان السيف سيسقط من يدك في اغلب الظن . . . ومع ذلك ، فسواء اردت ام لم ارد فان الامر قد لحق بي . . . والامر خال من الكلمات المطولة — وبسط شريط التلفون حتى لا يلتف حول نفسه ، وقرا — «الى قائد فيلق الخيالة بوديوني . . . تشير معلومات الاستطلاع الاخيرة الى تحرك خيالة العدو من منطقة فورونيج الى الشمال . آمر قائد فيلق الخيالة بوديوني بتحطيم خيالة العدو . . .» وهكذا كل شيء باختصار ووضوح . يعني ان عقولنا قد اصابت بتفكيرها . . .والامر موقع من قبل رئيس المجلس العسكري الثوري للجبهة الجنوبية ستالين ، في مقر القيادة العامة في سيربوخوف ،

عادت كاتيا الى موسكو ، الى نفس زقاق ستاروكونيوشني قرب شارع اربات ، حيث يقع البيت ذو الطابق العلوي (الذي انتقل اليه

نيقولاي ايفانوفيتش سموكوفنيكوف في بداية الحرب مع داشا قادما من بطرسبورغ والذي عادت كاتيا اليه من باريس) ونزلت في تلك الحجرة التي شهدت جزع حياتها اليائس في ذلك اليوم الكئيب ، يوم دفن نيقولاي ايفانوفيتش . آنذاك استلقت على الفراش ، وتغطت بمعطفها الفرائي ، وتمنت ان تغادر الحياة ، وتنهدت وانسلت من تحت معطفها ، وسارت الى غرفة الطعام لتجلب شيئا من الماء ، وتشرب المورفين ، وفي ضوء الغبش رات فجاة حياتها الثانية : كان فاديم بيتروفيتش روشين يجلس في انتظارها . . . .

والآن انتهت هذه الدورة الثانية من حياتها ، مترعة بالجهد والحب والعذاب ، وخلفت وراءها طريقا طويلا جدا من الخسائر التي لا ترد . وقد احست كاتيا بذلك احساسا حادا حين خرجت في اواسط تموز من محطة كييف تحمل صرتها . . . رات اطفالا صغارا يسبحون في نهر موسكو الناضب واصواتهم تتردد في السكون مجلجلة موحشة ، ورجلا عجوزا يجلس على العشب الذابل عند الشاطئ ومعه عود لصيد السمك . ولما خرجت الى شارع سادوفيا حيث اختفت الاسيجة المشبكة التي كانت تحيط بالممشى الاوسط المشجر كله ادهشها السكون المخيم ، فلا صوت غير حفيف اشجار الزيزفون الهائلة مغطية الفيلات الصغيرة المقفرة بظلها الاخضر المهيب . وفي شارع اربات الذي كان يزخر بالناس لم تجد تراما ولا عربات اجرة ، بل وجدت بعض السابلة يعبرون عبر سكة الترام الصدئة مطرقي الرؤوس . سارت كاتيا حتى زقاق ستاروكونيوشني ، وانعطفت فيه حتى رات بيتها ، فارتخت رجلاها . وقفت طويلا على الرصيف المقابل . كان هذا البيت يتراءى لها في ذكرياتها بيتا جميلا ذا لون ذهبي واعمدة بيضاء مسطحة ، ونوافذ نظيفة تتسدل عليها الستائر . . . وخلفها كانت تعيش ظلال كاتيا وفاديم روتشين وداشا . . . امن المعقول ان يختفي كل ما كان دون ان يترك اثرا ؟ احقا ان الحياة تولي كالحلم في راس على وسادة ، وبعد ان تخادع خداعا عقيما تتلاشى بعد زفرة الاستيقاظ ؟ لا ، لا ، في تلك الايام الخوالي تجمد اثنان : كاتيا في مكان ما في غمرة المسرة غير المترقعة حينما القت قارورة المورفين على البساط وتدلت فاقدة القوى على ذراعي فاديم بيتروفيتش روتشين المتصلبتين والثاني هو الذي كان يهمس لها بكلمات الحب وكانما قد اسود من الانفعال . لا ، لم يكن

ذلك حلما ، ولم يختف . انه ما يزال هناك وراء النوافذ السوداء وهناك ايضا ليلتهما المؤرقة الاولى ، فى القبل الصامتة العميقة كالعذاب ، وفى الكلمات المتكررة والمتجددة ابدا والمعبرة عن الدهشة من ان تكون هذه المعجزة الوحيدة على الارض ، المعجزة التى شابكت بمثل هذه القوة يدين سمراوين قويتين ويدين بيضاوين رقيقتين هما اكثر الاشياء رقة واكثرها رجولة . . .

كان البيت يقف معوجا بادى البؤس مسلوخ الجدران ، وليس فيه اعمدة بيضاء . اختلقتها كاتيا اختلاقا . كانت النافذتان الاخيرتان من الطابق الاول قد غطيتا من الداخل باوراق الجرائد ، اما النوافذ الاخرى فقد تلطخت بلطخات من الوحل اليابس مما يدل على خلوها من الساكنين . . . وكان زجاج الطابق العلوى حيث كان مخدع داشا ، قد هشم كليا .

عبرت كاتيا الشارع ، ودقت الباب الخارجى الذى نعقت فى ظلاله البنى خطوط طويلة . دقت كاتيا طويلا حتى تنبهت الى ان ثقبا مغلقا بالغبار كان فى موضع المقبض . عندئذ تذكرت ان الوصول الى الباب الخلفى يقتضى الانعطاف فى شارع جانبى . كان باب الحديقة مفتوحا ، وقد سارت منه عبر فناء صغير لما فيها العشب فى ممشى مطموس المعالم . اذن ، فالمنزل لم يكن خاليا ، على اية حال .

دقت كاتيا باب المطبخ . وبعد قليل فتح الباب رجل صغير القامة شاحب بلون الورق اشقر الشعر يرتدى نظارة له رأس كبير اشعث :

— صحت باعلى صوتى ان الباب غير مغلق . ماذا تريدين ؟

— اعذرنى ، اردت ان اسأل : اما تزال ماريا كوندراتيفنا العجوز تعيش هنا ؟

— نعم ، هنا — رد بصوت تناقش فيه المسائل الحسابيــة — ولكنها توفيت .

— توفيت ! متى ؟

— منذ زمن غير بعيد . لا اتذكر بالضبط .

— ماذا سأفعل الآن ، اذن ؟ — قالت كاتيا حائرة — وهل شقتى مشغولة ؟

— انا لا اعرف ، سواء أكانت شقتك ام لا ، لكنها مشغولة . . .

واراد ان يغلق الباب ، الا انه رأى عينى المرأة الجميلــــة مغرورقتين بالدمع فتريث .

— انه لامر مزعج . . . انا قادمة من محطة القطار راسا ، فاين سأذهب الآن ؟ غبت عن موسكو عامين ، وقـــد عـــدت الى بيتى ، فاذا . . . .

— عدت الى بيتك ؟ — اعاد السؤال بدهشة — الى موسكو ؟ . . .

— نعم . قضيت الوقت كله فى الجنوب ، ثم فى اوكرانيا . . .

— عجيب . انت مجنونة ؟

— كلا . . . ولماذا ؟ هل العودة الى البيت امر غير معقول ؟

اختلج احد طرفى شفتيه الرقيقتين فى وجهه الناحل الشاحب كلون الورق ، وتغضن خده الرخو :

— الا تعرفين ان الناس يموتون جوعا فى موسكو ؟

— سمعت ان الطعام عسير . . . ولكننى لا احتاج الى الكثير منه . . . ثم ان ذلك شىء مؤقت . حين تشتد الضائقة يجب ان يكون الانسان فى بيته .

— من انت ، على اية حال ؟

— انا المعلمة يكاترينا روتشينا . . . انتظر ، سأريك . . .

واخذت كاتيا تفك عقدة كيس الجنفاص باسنانها . واخرجت شهادة مفوضية الشعب للتعليم .

— عملت فى مدرسة روسية للاطفال الصغار فى كييف حتى الجلاء . . . ثم طلب مفوض الشعب منى الا ابقى مع البيض مهما كلف الامر . . انا نفسى ما كنت اريد ان ابقى . . . واعطانى هذه الرسالة لمفوض الشعب لوناتشارسكى . . . ولكنها مسدودة بالختم . . .

قرأ الرجل الشهادة ، وقرأ العنوان على طرف الرسالة . وكانت كل حركاته متباطئة .

— فى الحق ان غرفة العجوز غير مشغولة . فاذا كنت تودين ان تسكنى هنا بالذات . . . فانتقلى اليها . . . ولكن كل شىء هنا متآكل ومتحطم . . . فى موسكو يمكنك ان تنزلى فى اى فيلا فارغة . . .

وتنحى ، وترك كاتيا تدخل المطبخ شبه المظلم الذى تكدس فيه اثاث محطم . واشار الى مفتاح غرفة العجوز المتدلى من مسمار فى الممر الملطخ بالسخام ، وانصرف بخطوات بطيئة الى غرفته (التى

كانت من قبل مكتب نيقولاى ايفانوفيتش) . فتحت كاتيا بصعوبة باب لغرفة محبوسة الهواء لها نافذتان تلطخت من الخارج بلطخات جافة . كانت هذه غرفة نومها . وسريرها ما يزال فى موضعه . وكان صندوق الادوية المعطور الذى تناولت منه المورفين آنذاك ما زال معلقا على الحائط وعلى صفاقتيه صورتان باهتتان من الفولكلور الروسى . وكانت المرحومة ماريا كوندراتيفنا قد جلبت الى الغرفة احسن ما فى الشقة من اشياء - ارائك وكراسى ورفوفيات مكدسة بعضها فوق بعض ومضعضعة ومغطاة بنسيج العنكبوت والغبار .

واستولى اليأس على كاتيا . فقد كان عليها ان تبدأ العيش ، ان تبدأ الدورة الثالثة من حياتها فى هذه الغرفة المكتومة الهواء المكدسة بالاثاث الزائد عن الحاجة ، فى موسكو الجائلة الخاوية الجائعة المتلظية بشمس تموز . جلست على الحشية العارية ، وبكت بصمت . كانت متعبة جدا وجائعـــة . وبدت المصاعب المقبلـــة والتعقيدات اقوى من ان تتحملها قواها الهزيلة . وتذكرت كوخها الصغير المتداعى الحبيب المعبود بالقرب من المدرسة ، والحديقة الصغيرة ، والحقل ذا التلال الممتد وراء السياج . . . المكتسة عند عتبة الباب ، وبرميل الماء فى الرواق ، والضوء المخضوضر المتسرب عبر اوراق الشجر الى النافذة الصغيرة والساقط على دفاتر الاطفال . . . والاطفال المرحين الطلقاء ، وطفلها المفضل ايفان غافريكوف . . .

لماذا لم يكن من الممكن ان تبقى هناك مدى العمر ؟

نزلت كاتيا من السرير لتجلب لها شيئا من الماء لتبلل الخبز الجاف الذى جلبته من كييف . ولكنها لم تجد حتى قدحا تبدأ الحياة معه ! مسحت كاتيا عينيها وقد تملكها الغضب ، وذهبت الى الرجل الشاحب .

دقت بابه دقا خفيفا ، وقالت بصوت ناعم :

- اعذرنى ، ارجوك ، ما زلت اضايقك . . .

سار ببطء ، وفتح الباب ، وتفرس فى كاتيا وكأنما صعب عليه ان يفهم .

- اعذرنى ، ارجوك . . هل لديك قدح ؟ اريد ان اشرب ماء

- اسمى ماسلوف ، الرفيق ماسلوف ، اى قدح تريدين ؟

- قدحا زائدا . . .

- حسنا . . .

وذهب الى اعماق الحجرة تاركا الباب مفتوحا ، فرأت كاتيا كتبا كثيرة على رفوف تنوء بها مصنوعة من الخشب غير المصحوج ، وكتبا مفتوحة ومخطوطات على منضدة كتابة ، وسريرا حديديا بالمعا تناثرت الكتب عليه ايضا ، ووساخة على الارض ، وجرائد مصفرة تغطى النوافذ . وعاد ماسلوف نحو كاتيا بنفس البطء ، واعطاها قدحا قذرا .

- يمكنك ان تأخذيه كليا . . .

فى المطبخ وصلت كاتيا بجهد الى حوض الغسيل الذى تكدست فيه الفضلات ولكن الماء كان جاريا فيه . غسلت القدح ، وشربت الماء بتلذذ ، وعادت الى غرفتها . ارادت كاتيا ان تفتح النافذتين ، وان تغتسل قليلا قبل ان تأكل خبزها . ولكنها وجدت من الصعب فتح الصفاقات الملتصقة . انشغلت كاتيا طويلا . ونبشت ، ودقت على المفاصل برجل مخلوعة من كرسى ، وزفرت عالية . وجاء ماسلوف على الضجة ، ووقف بعض الوقت ينظر الى كاتيا بدهشة صامتة :

- لم تريدين ان تفتحى النافذتين ؟

- من الممكن ان يختنق المرء هنا .

- اتظنين ان هواء الشارع سيكون احسن ؟ غبار وسخام ، والعفونة تتصاعد من كل افنية البيوت . . .انا لا انصحك بذلك - استمعت كاتيا لذلك وهى واقفـــة على افريز النافذة ، واطبقت شفتيها ، وعادت تدق برجل الكرسى من جديد - لنفرض انــك ستفتحين النافذتين ، ولكن سيتعين عليك ان تسديهما فى الليل من جديد . . . فلا ضرورة لتضييع الجهد . . .

واستجاب المفصل اخيرا . وثبت كاتيـــا من افريز النافذة ، وفتحت النافذة ، واطلت برأسها وتنفست هواء الشارع بنهم .

قال ماسلوف باستغراق :

- نعم ، نعم . لم نحل مشكلة المدينة بعد ، - واهتزت ركبتاه فجأة ، وانطوتا . فتلفت ليجد مكانا يجلس فيه . واتكأ على عضادة الباب ، ودس اصابعه الكبيرة وراء الحبل الذى يحزم رخوا قميصه الجنفاصى المتسخ وقال - ذاب الثلـــج ، وانتشر الوحـــل وبقيت القاذورات وجثث الكلاب والقطط الميتة ، وحتى فطائس الخيول فى

الشوارع والافنية . . . جرفت الامطار بعضها ، ولكن هذا ليس حلا المشكلة . . .

قاطعته كاتيا :

— قل لي ، هل الحمام يعمل عندكم ؟

— لا علم لي به . . . في احد الاوقـــات كان يعيش هنـــا سمكري . . . وكان في ايام الاحاد ينشغل في المطبخ والحمام بمبادرة تلقائية منه ، ولكنه رحل الى الجبهة . . .

قالت كاتيا بحزم :

— من الافضل ان تنصرف . سانظف الغرفة بعض الشيء ، واغتسل واجيء الى غرفتك . . . قبل كل شيء احتاج الى ان اعرف بعض العناوين . . . فانا لا اعرف شيئا في موسكو . . ايمكنك ان تساعدني ؟

— نعم ، نعم . اليوم يوم احد ، وساظـــــل طوال اليوم في البيت . . .

وسحب جسمه من عضادة الباب ببطء ، وانصرف . ادارت كاتيا مفتاح خلفه . لقد كان من المهم ان تحتد ، عندئذ ستشتد حمية العمل . خلعت بلوزتها وتنورتها خوفا من ان تلوثهما ، وبدات حملتها ضد الغبار . كانت الخرق متوفرة في مختلف الصناديق بكمية وافية . تبشت كاتيا ورات بياضات سريرها مع العلامات التي وضعتها عليها . لم وجدت قمصانها وسراويلها الداخلية ، وبعض الازواج من الجوارب المرفوءة . ان ماريا كوندراتيفنـــا امراة طيبة ، فقط احتفظت حتى بالاشياء القيمة هذه ! . وبشكل عام كانت العجوز المتوفاة نهاية وجشعة . . . ولكن لا باس . . . لتستريح عظامها في التراب . . .

. . . .

في ذلك المســاء اطلع ماسلوف كاتيا على مخطوطاته ، بل وقرا شيئا منها . كانت بحثـــا تاريخيـــا عن الاشتراكيين ـ الطوباويين الكلاسيكيين . قال لكاتيا الجالسة على سريره غير المرتب :

— ايبدو لك غريبا ان من الممكن ان يندرس الطوباويون في مثل هذا الوقت ؟ الطوباوية في عهد الدكتاتورية البروليتارية ؟ اين اذن المنطق الداخلي ؟ اعترفي بانك مستغربة ؟

هزت كاتيا راسها مؤكدة استغرابها ، وكانت لا تكاد تفتح عينيها .

— ومع ذلك ففي الامر منطق . . . انا اتوقف بالتفصيل على محاولات بعض الاشخاص وجماعات صغيرة في منتصف القرن التاسع عشر في تطبيق الافكار الطوباوية . وهذه صفحة من اطرف صفحات تاريخ الحركة الاشتراكية . . .

واستدار عن كاتيا ليحجب عنها ابتسامة ساخرة كشفت عن اسنانه الصفراء .

— ولكنني مضطر الى الكتابة في ايام الآحاد فقط . فانا منقل بالعمل في لجنة المنطقة الحزبية ، ونحن قليلون اذ لم يبق في موسكو لدى عدد ضئيل من الحزبيين . . . وانا لم اعف من التعبئة للجبهة الا بسبب صحتي الضعيفـــة للغايـــة . . . انـــا منهك جسمانيـــا ومعنويا . . .

وعلى رغم من اعتلال صحته وضموره الظاهري التام فقد كان على قدر كاف من النشاط . في اليوم التالي اصطحب كاتيا الى مفوضية الشعب للتعليم ، وعرفها بالرفاق الضروريين لها ، وساعدهـــا في التسجيل والحصول على بطاقات التموين .

ولولاه لضاعت كاتيا تماما في المفوضية الضخمة باقسامهـــا المتعددة ومكاتبها ورؤساء الاقسام لا سيما وان روح القلق والتلون من الروتين كانت تدفع المستخدمين مرة في الاسبوع على الاقل من مكان الى مكان ، ومن طابق الى طابق مع مكاتبهـــم ودواليبهـــم وارشيفاتهم ، بل وتغير النظام الداخلي للتبعية والارتباط والمسؤولية .

حصلت كاتيا في الحال على وظيفة معلمة في مدرسة ابتدائية في منطقة بريسنيا . وفي المكتب الآخر سجلوها في عمل اجتماعي مجاني في الدورات المسائية لمحو الامية . وفي المكتب الثالث امسك بها رجل نحيل للغاية ذو بشرة زيتونية وعينين هائلتين محمومتين ، وقادها عبر الممرات والسلالم الى قسم الدعاية للفن . واضافوا لها هناك محاضرات خارجيـــة في المصانع . وقال لهـــا الرجل ذو البشرة الزيتونية :

— ستحدد مضمون المحاضرات فيما بعد . ستقدم لك الادبيات المناسبة والخطة . ولا حاجة الى الفزع . فانت امراة مثقفة ، وهذا يكفي . ماساتنا اننا لا نملك غير عدد ضئيل جدا من المثقفين . فان نصف المثقفين يقومون باعمال التخريب . وسيندمون على ذلك كثيرا .

والآخرون ابتلعتهم الجبهة . ان مجيئك ترك انطباعا طيبا جدا لدى الجميع . . .

واخيرا ، وفي احدى الممرات التقى بكاتيا رجل مكتنز شديد الحركة كليا ذو شفتين غليظتين يرتدي بلوزة من قماش الشيت مخضرة عن الابطين .

– هل انت ممثلة ؟ اشاروا لي عليك الآن – تكلم بعجالة ، ودون ان يلقي بالا الى جواب كاتيا بانها معلمة طوق كتفيها بذراعه ، وقادها عبر الممر قائلا – ساضمك الى فريق ترفيه متنقل . ستسافرون الى الجبهة في عربة خاصة ، ولدى خروجكم من موسكو ستحصلون على كمية غير محددة من الخبز والسكر واحسن الزبدة . . . البرنامج . اها ! بقوامك هذا يمكنك ان تغني وترقصي ، وسيصفق لك مقاتلو الجيش الاحمر . . . ارسلت الى الجبهة البروفيسور لشيبوتيكين ، وهو في الستين من العمر ، وهو كيمياوي او فلكي . وهل اعرف ؟ الآن يسمونه «ملك فريق الترفيه» وهو يغني المثاني من برانجيه . . . يمكنك الا تتشكريني ، الا مجرد متحمس . . . .

– اسمع ! – صاحت كاتيا ، وقد تحررت من تحت ذراعه – عندي مدرسة ومحاضرات ومحو امية . . . لا تتحمل قواي الجسدية . . . .

– ما يعني قواك الجسدية ؟ وهل تتحمل قواي الجسدية ؟ شاليابين ايضا لا تتحمل قواه الجسدية ، ومع ذلك فقد حصلت له على صندوق من زجاجات الكونياك ، وهو الآن يسأل بنفسه ان يرسل الى الجبهة . حسنا ، فكري في الامر . . . ساجدك . . .

سارت كاتيا الى البيت مثقلة بالمسؤولية . كانت الريح الحارة تعصف في الشوارع الخالية لتدير دوامات من الغبار والاوراق على الرصيف المرصوف بالحجارة . انعطفت الى بولفار تفيرسكويه . واخذت تحسب لتجد هل سيكفيها الوقت اذا نامت ست ساعات ؟ . . يعني ستبقى ثماني عشرة ساعة . . قليلة ! ساعات الدروس في المدرسة ، وتصحيح الدفاتر ، وتحضير الدروس ليوم الغد . . . ولمحو الامية ساعتان على اقل تقدير . . . يا الهي ، والسير ذهابا وايابا ؟ والقاء المحاضرات والذهاب الى هناك وطريق العودة ؟ ثم يجب الاعداد للمحاضرات . . . ثماني عشرة ساعة لا تكفي !

جلست كاتيا في البولفار ، وخيل اليها انها تجلس في نفس المكان الذي التقت فيه – هي وداشا – ببيسونوف عام ١٩١٦ ، وقد صار معفرا بالغبار كليا لا يكاد يجرجر قدميه . يا للبلاهة ! ان امرأتين لا تصلحان لشيء ولم تكونا تعرفان ماذا تفعلان بالوقت الفائض ، مرتا بمأساة مجهولة الهوية حين حياهما بيسونوف – وكانه خارج من احد قصائد بلوك : «ما اصعب على الميت ان يتحرك بين الاحياء متظاهرا بالحياة وجيشان العاطفة !!» – ومر بهما ببطء ، فشيعتاه بنظريهما ، وبدا لهما بائسا بشكل خاص ببنطلونه شبه العسكري الذي لاح وكانه سيسقط عنه . . . .

يجب ان تنام اربع ساعات ، وتأخذ كفايتها من النوم في ايام الآحاد . ثم سيكون عليها ان تقف في طوابير الطعام ! اغمضت كاتيا عينيها ، وانت . . . حركت الريح خصلات الشعر على رقبتها النحيلة ، وضجت الاوراق بقوة على شجرة الزيزفون العتيقة فوق رأس كاتيا . . . وعلى هذا الضجيج كفت كاتيا اخيرا عن تعذيب نفسها بمشكلة كيف لها ان توفر اكثر من اربع وعشرين ساعة في اليوم الواحد . لا بأس ، ستدبر امرها على نحو ما ! . . . ودارت افكارها حول هذا التغير الغريب الذي حدث فيها ، والذي ما انفك يمدها بالدهشة والفرح . حالما قالت : «لا . . .» وهي تنظر في وجه الكسي المغتاظ واضعة علباعها على جدار الموقد بدا يشيع فيها توقع هادئ واثق لسعادة جديدة في حياتها . وقد احست بقليل من هذه السعادة في الربيع : في كل مساء قبل ان تنام كانت تتذكر اليوم المنقضي فلا تجد فيه شيئا مظلما مقيضا للنفس . واعجبت كاتيا بنفسها . وها هي الآن تتوهم الفزع واليأس بشكل مبالغ فيه . وكان من المستحيل ان تنهض بالاعباء الاجتماعية . . . المسألة تختلف تماما : ان الفتيلة البائسة الملتفتة تتقلب بين عشية وضحاها الى مخلوق مهم ، بل وصار الناس – على ما يبدو – محتاجين الى كاتيا ، وكان الرفيق المسؤول ذو الوجه الزيتوني والعينين الجميلتين جدا يتحدث معها باحترام كبير . . . وكان عليها ان تكون على مستوى المسؤولية في هذا كله ، فسيكون فظيعا لو قالوا في مفوضية الشعب للتعليم : «ونحن وضعنا املنا فيها . . .» ان الامر في موسكو يختلف كليا عن الجلوس في عربة

تسير وراء عربة الكسي مهتزة في السهب وهي تلغم قشة وتفكر : «ما الذي يجديه لك جمالك ، ايتها الاسيرة ؟»

طلب ماسلوف من كاتيا ان تقدم تقريرا مفصلا . وعندما نقلت له الحديث مع الرفيق ذي الوجه الزيتوني تجمع خد ماسلوف الايمن في غضون مركزة لابتسامة ساخرة معوجة . واشاح وجهه عن كاتيا قائلا :

— نعم ، نعم . مأساة المثقفين هي نصف المصيبة . . . هناك ما هو اكثر مأساوية منها .

. . . .

افتتحت كاتيا المدرسة في اول آب . وجاءت بهدوء صبايا صغيرات حافيات لهن ضفائر شدت بخرق او قطع من الخيوط السميكة ، وصبية حليقو الرؤوس كليا في قمصان ممزقة ، وجلسوا على المقاعد بهدوء ايضا . وكانت وجوه الكثيرين شفافة تبدو شاحبة من النحول .

قضت كاتيا اليوم الاول كله في التعرف على الاطفال ، والجلوس معهم على المقاعد ، والاستفسار منهم ودعوتهم الى مبادلة الاحاديث . وكانت لها تجربتها غير الكبيرة في اثارة اهتمام الاطفال في اقصر وقت ممكن . كانت تتناول كتابا وتفتحه وتقول : «هذا كتاب . صفحات بيضاء وحروف سوداء ، وسطور رمادية . مهما تمعنتم النظر فيه لن تجدوا شيئا آخر . ولكن اذا تعلمتم القراءة والكتابة ثم عرفتم التاريخ والجغرافية والحساب ، واشياء كثيرة اخرى فان الحياة تدب في هذا الكتاب فجأة . . .» .

وتذكرت كيف كان الفضول يلتمع في عيون الصبايا والصبيان في مدرسة قرية فلاديميروسكريه . وكانت تتحدث بانجذاب شديد عن «القيصر سلطان» :

«ها انت قد بدأت بالتعليم أ ب ت ، ثم كتابة الحروف على اللوحة ، ثم اخذت تتهجى الكلمات ثم القراءة بصوت عال بالتأكيد كلمة وراء كلمة من البداية حتى النهاية . . . وفجأة ، وفي احد الايام السعيدة تأخذ السطور بالاختفاء امام عينيك ، فترى بدلا منها بحرا ازرق وموجة زاحفة على الساحل ، وتسمع حتى تكسر الموج على الساحل ، حينذاك يخرج من زبد البحر اربعون عملاقا

في دروع حديدية وخوذا مرحين مبللين ومعهم رجل ملتح هو تشيرنومور . . .»

وكانت تشعر وهي تتحدث هنا ، في حي بريسنا ، ان كلماتها تبدو وكأنها لا تقع في آذان الاطفال بل تذبل بوحشة في الصف ، حيث نصف مربعات النوافذ قد ركمت بخشب الابلكاش ، والطبقة الخارجية للجدران قد تساقطت حتى لاح الآجر . وكانت الصبايا بايديهن النحيلة جدا بحيث يمكن امرارها باسطوانة من فوطة الطعام ، والصبيان بغضونهم الصغيرة وكدماتهم يصغون بهدوء فلا ترى في عيونهم غير التسامح . . . فقد كان الجميع يفكرون في شيء آخر .

في فترة الاستراحة الكبيرة كان الاطفال يخرجون الى الفناء ، ولكن بضع فتيات فقط كن يحجلن على رجل واحدة ملقيات الحجارة ، وصبيين فقط يديران شجارا شكسا . اما الغالبية فكانت تجلس في ظل السياج حيث نما الارقطيون ، وتظل جالسة هناك ولا احد منهم قد جلب معه طعاما . فقد كانوا جميعا ابناء وبنات عمال يعيشون في ذلك الحي ، والكثيرون من آبائهم قد خرجوا الى الجبهة . القى احد الاطفال بذيله على الارض ، وحدق في السحابة المخيمة على بريسنا كالدخان . جلست كاتيا على مقربة وسألت بلهجة جادة :

— انت ميتيا بتروف . اليس كذلك ؟

— اها .

— اين يعمل بابا ؟

— بابا في الحرب منذ زمان .

— وماما ؟

— ماما في البيت ، مريضة .

— وهل يكتب بابا من الجبهة ؟

— لا .

— ولماذا لا يكتب ؟

— لا شيء يكتب عنه . . . الاخبار المفرحة قليلة . . . عندما رحل قال لماما : سأقتل عشرة جنرالات جزاء على مرضك من جراء الكد . انه جريء للغاية .

— ماذا تريد ان تكون حين تكبر ؟

— لا ادري . . . ماما تقول اننا لن نعيش هذا الشتاء . .

. . . .

كانت جحافل البيض تزحف على موسكو ، وكان الخريف يزحف بسرعة اكبر . وتالقت بعض الايام الذهبية الكئيبة فى بواكير الخريف، ثم هبت ريح عنيفة من الشمال تسوق السحاب بقطعان حالكة .

ولم يكن فى المدرسة ما يدفأ به . ذهبت كاتيا لزيارة ذى الوجه الزيتونى فى مفوضية الشعب للتعليم لتشتكى له . فاكتفى بان هز رأسه دون ان يصرف بصره عن وجه كاتيا الحلو . «افهم . يا يكاترينا ديميتريفنا ، قلقك واقدر حرارتك ، ولكن نقص الوقود سيكون عظيما فى هذا الشتاء . وعدوا مفوضية الشعب للتعليم بتقديم الحطب . ولكن الحطب فى ولايــة فولوغدا ويجب نقلـه من هناك بالعربات . . . وعلى العموم تكلمى فى الموضوع واضغطى حيثما يمكنك ذلك . . .»

وكان الاطفال يأتون الى المدرسة مزرقين مبللين فى معاطف خليقة ، او فى سترات امهاتهم التى لا تصلح الا لتعليقها فى الحدائق لتخويف الطيور حتى ان كاتيا قررت اخيرا اللجوء الى طريقة النهب الصريحة ، وعينت يوم عمل تطوعى لتحطيم الاسيجة . وفى مساء داكن وتحت ضجيج الريح العاصفة قام حارس المدرسة – وهو عجوز اصم ذو رجل خشبية ، وكاتيا ، والاطفال (الذين جاؤوا جميعا تقريبا) بتحطيم الاسيجة ، وحملوها جميعا الى رواق المدرسة . ونشر العجوز الخشب ، وفى الصباح كانت غرفة الصف دافئة رطبة ، وخرج البخار من الجدران الرطبة ، وجلس الاطفال يشوشين ، فحدثتهم كاتيا من منصتها عن الطاقة الشمسية (وكانت هى نفسها لم تعرف بذلك الا يوم امس من الكتاب المفيد «قوى الطبيعة») .

– كل ما ترونـه ، يا اطفال : هذه المنصة ، وتلك المقاعد والنار فى الموقد ، وانتم انفسكم ، من الطاقة الشمسية . . امتلاكها هى مهمـة الانسانيـة . . . ولهذا الغرض يجب ان يتعلـم الانسان ويتعلـم ، ويناضل ويناضل . . . والآن لنتحول الى درس اللغــة الروسية . . . ان اللغـة الروسية هى ايضا طاقة شمسية ، ولهذا يجب امتلاكها جيدا . . .

وكان الاطفال فى فترات الاستراحــة يروون لكاتيـا مختلف الاخبار . فقد كانوا يعرفون ما كان يجرى فى حى بريسنا فى موسكو ،

وحتى عند الفورودات وراء الحدود . واستنبطت كاتيا الشىء الكثير من هذه الحكايات . وهكذا عرفت قبل ان تعرف من الصحف عن الثغرة التى احدثها البيض عند اوريل التى اخذ الجرحى يصلون منها . وذهبت صبيتان الى عائلة ميكولين لغرض تقصى الاخبار حيث سمعتا ان ستيبان ميكولين الخراط قد عاد من توه الى بيته وقد ثقب الرصاص جسده . رفع المسكين جسده على السرير قليـلا – وكان الاطباء قد الزموه الزاما قاطعا بالاستلقاء على السرير – وسمعته الصبيتان بأذانهمـا يصرخ فى حضور زوجته وامه بصوت موحش :

– عندنا خيانة فى الجبهة ، خيانة ! اعطيانى ورقـا وحبرا لاكتب لفلاديمير ايليتش لينين ! ان افضل البروليتاريين يسفحون دما ، ويغطيهم الارض الرطبـة ، ولكنهم لا يريدون ان يسلموا موسكو للجنرال الابيض . . . لسنـا الملومين فى سقوط اوريل ، بل الخيانة .

وحين سمع ميتيا بتروف بحكاية الصبيتين امتقع لونه فصار بلون الحائط المجصص ، واتسعت عيناه معذبتين حتى ان كاتيا جلست الى جانبه على مقعده ، وضمت رأسه الى صدرها ، الا انـه حرر نفسـه صامتا ، فلم يعد مكترثا بالتسرية والمداعبة .

هطل المطر غزيرا لعدة ايام ، وبدت بريسنا غاطسة الى الركبة بوحل سائل بلون كامد . وكان الاطفال يأتون مذعورين تماما من الاشاعات المريعة التى كانت تنتشر فى المدينة كالطاعون . وكان من الصعب حمل الاطفال على تركيز اذهانهـم على الدروس . لم تحضر الفتاة الصهباء كلافديا الجمع والطرح فانفجرت باكية بمرارة فى منتصف درس الحسـاب . دقت كاتيا منصتها بالقلم :

– كلافديا ، اضبطى نفسك حالا .

– لا اقــدر ، يــا ع . . . هـ . . . . ة . . كا . . . ت . . . يا . . .

– ماذا حصل ؟

اجابت الفتاة بصوت فيه حشرجة :

– تقول ماما : على اية حال لا جدوى لك من تعلم الحساب ، يا كلافديا . . .

– ما هذه البلاهة ! امك لم تقل ذلك قط .

– لا . انهــا قالت : لا فرق فى الامر . خرجت من الوحــل

ومستعودين الى الوحل . . . الضباط صيدوسوننا جميعا بخيولهم . . .

عند هبوط الظلام ذهبت كاتيا الى دورة محو الامية متسللة في درب الصحن ما يكون بالاسيجة لكيلا تبلل قدميها قدر الامكان ، وتوقفت بيأس عند مفترق طريق غير عارفة كيف تعبر الشارع . في ذلك المساء لم تأت ايـة امرأة من بين النساء العشر التى كانت تعلمهن في شقة العامل تشيستوكوف الذى ارسل الى الجبهة قبل فترة قصيرة ليكون مفوضا . قالت لها زوجته التى تزوجته قبل ستـة اشهر ، وهى الآن حبلى ونحيفة للغاية تنتشر البقع الصفر على وجهها كله :

— توقفى عن المجىء الينا وانتظرى قليلا . مالنا ولهذا الامر الآن ! . . . ثم ان ذلك سيكون افضل لك .

واطلعت كاتيا على رسالة صغيرة لزوجها من الجبهة : «لوبا ، حيثى امرك اذا استولوا على تولا ، فاننا لن نتخلى عن موسكو الا عبر آخر جثة . . . اكتب لك على عجل مع شخص ذاهب الى موسكو . . . ربما يأتى اليك ضابط هو الرفيق روتشين ، كونى على ثقة بـه ، سيخبرك بكل شىء — ولطيف لو يسمعه رفاقنا . . . وليساعدوه اذا احتاج الى شىء . انـا رغـم كل شىء حى ومعافى ، وقد تعلمت ركوب الخيل ، وذلك ما لم يخطر على بالى قط .»

— نحن فى انتظار الرفيق روتشين هذا . ولا ادرى لماذا لا يأتى — قالت زوجة تشيستوكوف وهى تنظر الى النافذة المبللة — عندئذ تعـالى واستمرى . . سارسل صبيـة لتستدعيك . . . من روتشين هذا ، لعله زوجك ؟

اجابت كاتيا :

— لا ، زوجى قتل منذ زمان .

ولدى عودتها الى بيتها اشعلت النار فى الموقد الحديدى الصغير بمدخنته المتصلة بفتحة فى نافذة التهوية — كان يسمى «النحلة» لان هذه المواقد المسماة بهذا الاسم كانت كالنحل تئز حين تشعل بقطاعات الخشب — وقد صنعـه عمال بريسنا ، ونصبوه بانفسهـم فى حجرة كاتيا ، مفترضين ان معلمتهم ستكون اكثر مقدرة على العمل اذا نامت فى غرفة فيها شىء من الدفء . خلعت كاتيا حذاءها المبلل وجوربيهـا وتنورتها الملطخة بالوحل ، وغسلت قدميها فى ماء شديد البرودة ، ولبست ملابس جافة ، وصبت الماء فى السخان ووضعته على «النحلة»

واخرجت من جيب معطفها قطعة من الخبز الرمادى الخشن وقطعتها الى قطع صغيرة ووضعتها على فوطة نظيفة الى جانب كوب الشاى وملعقة فضية . وقامت بكل ذلك وهى فى ذهول . وحين انصفق باب المطبخ وترددت فى الدهليز خطوات ماسلوف الثاحطة البطيئة بشكل لا يحتمل ، سارت كاتيا ودقت باب غرفته .

— اها ! احتراماتى ، يا يكاترينا ديميتريفنا . تفضلى اجلسى . طقس شرير . . . بينما اراك تزدادين ملاحة . . نعم . . .

ولسبب ما كان مقتاظا فى ذلك المساء بشكل غير مألوف وحين سألته كاتيا : ما الذى يحدث ولماذا هذا الفزع فى كل مكان ؟ لم يشح بوجهه عنها ، ورسم على شفتيه الرفيعتين ابتسامة من اكثر ابتساماته الهازئة سخرية :

— يهمك ان تعرفى الاخبار الحزبية ام شيئا آخر ؟ الجبهة ؟ رجالنا ينضربون . وماذا يمكننى ان اقول لك بعد ؟ ينضربون ! اما فى موسكو فهناك مزاج تفاؤلى بشوش ، كما هو دائما . . . تعبئة عامة للشيوعيين ضد دينيكين . . . وفى بتروغراد تفتيشات عامة فى الاحياء البرجوازية . واتخذ قرار باغلاق جميع المعامل والمصانع بسبب نقص الوقود . . . ثم الخبر الاخير المشجع كليا : اعلن عن اعادة تسجيل البطاقات الحزبية ، اى التطهير الشامل . . . وبهذه الطريقـة نحسب اننا سننتصر على دينيكين ويوديتش ، وكولتشاك . . .

وجرجر قدميه فى الغرفة التى تناثرت فيها اعقاب السيكائر ، وقد تدلى شريطا سرواله الداخلى المحلولان على رسغيه من تحت بنطلونه المبلل القذر . . . كان اثناء سيره يطقطق بسلاميات اصابعه طقطقة موهنة بسبب رخاوته ، وكرر بصوت هازئ :

— وبهذه الطريقة نحسب اننا سننتصر . طبيعى ان هذا كله غير مفهوم لك . . . ولا غرابة فى ان يكون غير مفهوم لك . . . والاغرب من ذلك بكثير ان يكون غير مفهوم لى ايضا . . . انا لا افهم شيئا بعد الآن . . . الاشتراكية تقام على قاعدة من الحضارة المادية . . . الاشتراكية اعلى شكل لانتاجية العمل . . نعم . ومن الضرورى وجود طبقة عاملة عالية التطور كثيرة العدد ؟ وكيف لا ! لقد قرأنا كارل ماركس ، قرأناه بتمعن . . . لا بأس ، سنشغل انفسنـا باعادة التسجيل . . . ما تزال لنا فضلة من قوة . . .

وهكذا لم تعرف كاتيا منه شيئا ذا جدوى . وفى مفوضية الشعب للتعليم ، حيث ذهبت فى اليوم التالى لتتلقى التعليمات كان هناك تيار من الهواء البارد فى الممر الرئيسى ، وذلك شىء لم يحدث من قبل قط (فلعل نافذة تحطمت او فتحت عن عمد) ومع ذلك فقد كان المستخدمون يجتمعون فى كل مكان فى جماعات متهامسة . ولم تجد كاتيا طائلا من تنقلها من غرفة الى اخرى ، الا ان مستخدمة واحدة فقط ابلغتها ، وهى تخفى انفها فى ياقتها المحكوكة من فرو الثعلب :

– لعلك ما زلت نائمة ، يا مواطنة ، فلا تعرفين ان من المحتمل ان نجلو الى فولوغدا .

ثم حدث تغير حاد بنفس الفجاة . فى الصباح ، وحالما تنورت الدنيا ، هرعت كاتيا الى المدرسة . وفى شارع سادوفيا اضطرت الى التوقف والانتظار . مرت فصائل مسلحة من العمال على الوحل المتحجر معطلة البرك المتجمدة تحت اشجار الزيزفون الضخمة الجرداء والريح تعول فيها كما تعول فى الشتاء . ومرت وراءهم عربات ثم طوابير اخرى متكاتفة الصفوف تسير ببطء . وكانها تحت تعويذة من السحر . وهنا وهناك كانت اصوات خشنة لانثى تنشد «النشيد الاممى» . وكانت قطع القماش الحمراء التى يحملونها قد كتب عليها بعجالة وبحروف معوجة : «الجميع الى النضال ضد عصابات دينيكين البيضاء !» ، «عاشت الثورة البروليتارية فى جميع العالم !» ، «الموت للبرجوازية العالمية !» . وظلت الطوابير تتابع طالعة من ظلمة صباح غائم . حدقت كاتيا فى تلك الوجوه غير الحليقة النحيلة المرهقة الداكنة ، وبدا وكانما انطبع على عيونهم وشفاههم المطبقة تماما تعبير واحد عن عذاب مقهور وتصميم وارادة لا تغلب ...

وفى المدرسة ما لبث الاطفال حتى قصوا الاخبار لكاتيا : بالامس كان لينين فى المصنع الميكانيكى فى بريسنا ، وبدا اسبوع الحزب .

على مسافة غير بعيدة عن فوروليج انضم فيلق كوبان تحت قيادة شكورو الى فيلق مامونتوف . فاضحى لمامونتوف ست فرق خيالة مقابل فرقتين لدى بوديونى . توقف مامونتوف واخذ ينتظر بوديونى . كان مامونتوف حذرا . خصص جزءا من القوات لتعزيز

٢٧*

الدفاع عن فوروليج واعـداد تنظيم الفيلقين وشكل منهما ثلاثة طوابير واختـار موقع المعركة التى ستطوق فيه خيالة الحمر وتباد – وكان حقلا شاسعا ينتهى بسدة خط حديد يسير عليه قطار مصفح كالسلحفاة الفولاذية ذات مدافع من ست بوصات .

كان بوديونى جريئا وشديد الاحتراس فى الوقت ذاته . وقد تلقى معلومات مفصلة عن جميع استعدادات الجنرال مامونتوف ومناوراته .... كانت احدى الفتيات الصغيرات تخفى تحت منديل راسها تحت الضفيرة مذكرة بخط مخربش او احدى العجائز المسكينات تحمل كيسا لقطع الفضلات تعبران نقاط حراسة البيض – وما اقل من تقويه فتاة فقيرة او عجوز يعافها اى قوزاقى باشمئزاز – وتتصلان برجال بوديونى للاستطلاع وتقدمان لهم المعلومات .

توقف بوديونى بين الغابة والمستنقعات دون ان يتقدم الى الحقل العريض الذى عين لهلاكه . وامر بان تطعم الخيول حتى الشبع ، وان تفحص حذواتها فحصا جيدا (كانت الحذوات مدقوقة فى قوائم الخيول الامامية فقط) . وامر بان تستكمل عدة الذخيرة وان تستبدل عصيدة الدخن التى ضجر المقاتلون منها ، وان يقسم لهم اللحم المملح المفروم مع الفول ، والحليب المعلب المحلى والبسكويت السكر من مختلف الانواع ، والتبغ العبق ليقعوا حول النيران . وكل ذلك قد اخذ من «الترسانة المتنقلة» وهو الاسم الذى اطلق على طوابير عربات البيض التربة . وكانت فى تلك الآونة تخرج ليلا ونهارا من فوروليج الى مامونتوف . وكان محبو بوديونى حريصـا بشكل خاص على الاستيلاء على البنادق اليابانية الجديدة لتستبدل بها ، حسب الامكان ، البنادق القديمة التى استهلكت فى المعارك ، وعلى ادوات الكتابة ايضا .

وبالاحتماء بالغابة والمستنقعات كان من الممكن ان يأخذ المقاتلون قسطا وافيا من النوم قبل العملية الخطيرة . ولكن هذه العملية – الاشتباك بالسلاح الابيض مع ست فرق من فرق الدون – بدت للمقاتلين خطيرة جدا حتى ان القليل منهم اخلد للسكينة . فتفقدوا خيولهم تفقدا لامعا جدا ، لا تنفقا عابرا واصلحوا السروج ، وشحذوا السيوف . ولم تسمع فى الوحدات اغان ولا اكورديونات ، وجرت

احاديث عميقة المعانى . وحين تقع ابصارهم على المفوض يلوحون له قائلين «تعال هنا ، يا شميوعى . . قل لنا ايها الرفيق العزيز . . اذا تضينا على مامونتوف فهل نستولى على فورونيج ، فان لهم هناك ثروة لا تخطر على بال . . .» وكان المفوض يرد بان سميون بوديونى لم يصدر امرا حتى الآن بخصوص فورونيج . وعند ذاك كانت المناقشات تبدا : هل تستطيع الخيالة الاستيلاء على منطقة محصنة ؟ فكان بعضهم يقول : ممكن بالحماس الشديد ، والبعض الآخر يؤكد ان ذلك مخالف لكل احتمال .

كانت كوكبة تليغين المكلفة بواجب الحراسة تتخذ مواقعها عند حافة مستنقع . والى الجنوب حقل كانت تلوح فيه دوريات البيض بين الآونة والاخرى . وكان معروفا ان احد طوابير مامونتوف الثلاثة يتجمع فى تلك الناحية . وفى المساء كانت السحب تعكس وميضا خافتا لنيرانهم .

فى هذه الكوكبة ايضا كانت تدور احاديث كثيرة حول المعركة المقبلة التى حشدت لها من الخيالة هذه الحشود الجبارة الضخمة على نحو لا مثيل له . وقد ذكر فارس قديم يدعى غوربوشين ان معركة واحدة مثل هذه قد وقعت فى عام ١٩١٤ قرب برودى ، اذ هاجمت فرقة خيالة نمساوية مؤلفة من اربعة افواج فرقة خيالة خفيفة روسية هجوما محتما ولكن النمساويين بعد هذه المعركة سحبوا كل خيالتهم الى المؤخرة . . . قال الفارس القديم : لقد هاجموا من الاعلى ، من تل يريدون ان يحصروا جماعتنا فى واد . الا ان رجالنا خرجوا للقائهم من الوادى الى التل ، وعلى كل جناح اربع كوكبات من الخيالة القوزاق من حملة الرماح . والاولانيون فى الوسط حاملين الرماح والفرسان الاختياريون (الهوسار) بقبعاتهم ذات الاشرطة الصفراء والحواشى الصفر لبزاتهم — وقد كانوا فرسانا جسورين ! لم يدرك رجالنا ان النمساويين لن يستطيعوا ان ينعطفوا بخيولهم من التل بتلك السرعة . وحين بداوا يقتربون منا ، بوغتوا بموجة من العرامة من جانبنا لم يكونوا يتوقعونها فحاولوا ايقاف خيولهم ، ولكن الوقت قد فات ! وهاجمهم رجالنا بالرماح من الاسفل مما يسهل الامر . تزرق لنمساويا برمح وتتركه ، ثم تنطلق مخترقين صفوفهم ، وتتحول وتطعن بالسيف ، ليس على الكتفين — فقد كانوا يضعون صفائح فولاذية تحت

كتافياتهم — بل فى خط مائل على جذوعهم . . . وهكذا خلفت الافواج الاربعة مطروحة فى التل مطعونة مغروزة بالرماح فى الارض . شىء فظيع !

كان لاتوغين يتضايق حين يتحدث شخص بحضوره بشكل جذاب ، فقاطع المحارب القديم هذا :

— اما ، كان ، وما اكثر ما كان . انها مجرد صدفة . . . ولكن حدثنا كيف استولى ثلاثة من رجالنا الحمر على كتيبة المانية . . . لا تعرف ؟ اما ! كان يجب عليك ان تعرف . . .

— هيا ، حدثنا ، يا لاتوغين .

ترددت اصوات بذلك . فركع على ركبتيه قرب النار ، ولبصق جمراتها التى اضاءت وجهه الناحل الذى لم يبق فيه غير العروق بعد ثلاثة اسابيع من التقلب على السرج . وكان تليغين منذ البداية قد سجله فى كتيبة المقر مع غاغين وزادوبفيش ، وخلال شهرين امتلأت خدودهم بعض الشىء ، وهم الآن فرسان فى الكوكبة .

— كان معنا فى الجيش العاشر رجل يدعى لوتكا شور لا تكاد تجد مثيلا له فى الطعن حتى ولو احصيت التفتيش — بدا لاتوغين حديثه ، وقد وضع يديه على مقبض سيفه الذى انغرست نهايته فى الارض — فى الخريف الماضى . وقبل ان يخرج من لوائه الاوكرانى ، طلع فى دورية استطلاعية مع رفيقين له . وبينما هم سائرون ودون ان يخطر لهم على بال اصطدموا بالالمان ، وبكتيبة كاملة منهم لا اكثر ولا اقل . انزوى الالمان فى مكان قصى يطبخون لهم حساء . . .

قال احد المستمعين :

— ما هذا الكذب ! الالمانى يطبخ حساء فى مكان قصى . .

القى لاتوغين نظرة ثقيلة على هذا الرجل :

— هل اشرح لك لماذا كانوا يطبخون الحساء ؟ . . حسنا . . كان الالمان فى طريقهم الى وطنهم . فقد قامت ثورة هناك . . . وفى اوكرانيا هبت جميع القرى فى تلك الانحاء ونصبت الرشاشات فى كل مكان ، وقطعوا الطرق ، فجاع الالمان . . . هل فهمت الآن ؟ وقبل ان يستطيع الالمان ان يتهيأوا للقتال ، اخرج لوتكا من حقيبته قطعة قطيلة من لفافة الساق ، وغرزها بالسيف ، وسار نحوهم بجراة قائلا «استسلموا . انتم محاصرون بقوة كبيرة من الفرسان ، ونحن لا ننوى

حتى نلوث سيوفنا بالدم ، بل ندوس عليكم بخيولنا ...» وكان بينهم مترجم ترجم لهم هذه الكلمات . رد آمر الكتيبة ، وهو الماني ركبي برتبة ضابط صف ، رد على لونكا : «اشك في صحة كلماتك ...» فقال له لونكا : «انت محق في شكك . امتط حصانك ولنذهب الى مقر الاركان ، وهناك سنقترح عليك شروطا معتبرة ...» تشاور الالمان فيما بينهم بشكل جدى ، وقال الآمر «لا باس ، سنخرج ثلاثة مقابلك ، وفي حالة اكتشاف تحايل منك ، سنقتلك في الطريق ..» قال لونكا له «تفضل ، لن يكون هناك اى تحايل . انت تتعامل مع مقاتلي الثورة ...» وخرجوا ، ووصلوا الى مقر الاركان . وتبدا المفاوضات مع الالمان . ويطالبون بالسماح لهم بالمرور على السكة الحديد . وباعطائهم خمسة وعشرين بودا من الدخن . ويطالب رجالنا بان يسلم الالمان اسلحتهم ومدفعين . ويعاند الالمان ، ويعاند رجالنا . ولونكا يحضر طوال الوقت ويقول : «ايها الرفيق آمر اللواء، انهم جياع ، ولهذا السبب يصعب الاتفاق معهم .. دعني احرضهم . اطلب لهم شيئا من لحم الخنزير الجيد وخبز القمح» اما عن الخمرة فان الشيطان لم يذكرها بشكل رسمي ، فقد كان مدير الميرة صديقه الحميم ، فاقتطع منه ربع جردل . وجلس مع الالمان في احد الاكواخ ، وقطع شحم الخنزير والخبز ، وصب الكحول في قدح . وبدا يتحدث عن هنا وذاك : كيف ان الناس عندنا في اوكرانيا ياكلون ويشربون بشكل جيد ، ثم ان الشعب بشكل عام يميل الى التعاطف . ومدح الالمان ايضا لانهم اطاحوا بغليوم . وعلى الرغم من ان حديثهم كان يجرى بلا مترجم في هذه المرة فان الالمان فهموا كل شيء . ربت لونكا على ظهورهم بقبضته بطريقة ودية ، وامسك آذانهم ، وقبلهم . وبعد قليل لم يبق وراء المائدة غير اثنين : هو وآمرهم ضابط الصف . لونكا يبذل كل جهده ، والالماني يكتفي بالضحك وهز الاصبع ... وجاء رسول من مقر الاركان ليعرف كيف يجرى الامر ؟ ويجيب لونكا «بشكل سيئ . الأمر لا يستجيب للتحريض . نحتاج الى ربع جردل آخر ..» وحين فرغا من الربع الثاني لم يبق وراء المائدة غير لونكا وحده . ونقل الالمان ليلتهم هناك . وفي الصباح ابقى ضابط الصف رفيقيه وحيدين – على اية حال لم يكونا قادرين على امتطاء فرسيهما بعد تلك السكرة – وخرج مع لونكا . وفي المساء قاد الكتيبة كلها –

زهاء اربعمائة رجل – والعلم الاحمر في المقدمة ... بهذا الشكل اعجبه تحريض لونكا ...

وعندما انتهى لاتوغين من قصته – وهي اروع بكثير من قصة غوربوشين – قصة المعركة عند بروبى – اخذ المقاتلون يضحكون ضحكا شديدا ، فمنهم من صهل وابدى كل اسنانه ، ومنهم من مسح دموعه ، ومنهم من تاوه فقط هازا ذراعه . وتقدم روتشين من النار ، وانحنى نحو لاتوغين وقال :

– ابحث عن دالفى وزادوبيفتر ، وتعال معهما الى الخيمة .

. . . .

في الضباب الصباحي الابيض المنطبق على الحقل كله انطلق خمسة فرسان : كان روتشين على فرس كميت مقصوص العرف وعلى مسافة ذراع امامه كان دونديتش الصربي الصغير الجسم آمر احدى كتائب بوديوني يمتطي جوادا اسحم . كان دونديتش خلال طريق حياته الصلب قد وجد وطنه الثاني ، واغرم بروسيا الشاسعة الاطراف وثورتها المترامية الحدود بكل حماسة رجل بسيط النفس محب للحياة شديد الجراة . كان دونديتش وروتشين يرتديان معطفي ضباط قاتمي اللون بكتافيات ذهبية . والى الخلف منهما لاتوغين ودالفى وزادوبيفتر يرقلون على افراسهم في قبعات مائلة بشدة وسترات من فراء الاغنام ، وعلى اكتافهم كتافيات برتبة رقيب .

لقد اعطيت لهم مهمة النفاذ الى فورونيج ، ومعاينة مواقع المدفعية ومقدار قوات الخيالة والمشاة ، ومن بعد ذلك تسليم الجنرال شكورو قائد الدفاع ظرفا مختوما فيه رسالة من بوديوني .

كان دونديتش يحب الحياة ، ويحب الدخول معها في لعبة خطرة . اما في ايام تشرين الاول المنشطة هذه حيث كانت العضلات تتوتر من تلقاء نفسها تحت القميص العسكرى من مجرد استنشاق الهواء المنعش المملوء بمختلف الروائح الزكية في الضباب الصباحي فقد كان يجد البقاء بلا عمل شيئا لا يحتمل ابدا . وقد تبرع بنفسه ان يسلم شكورو الظرف المختوم . راح يبحث عن روتشين حتى وجده وقال له :

– فاديم بيتروفيتش ، انت رجل ملائم كليا لمغامرة صغيرة ، فانت تعرف عادات الضباط ومختلف تسلكاتهم . لعلك توافق على الذهاب معي الى فورونيج ؟ ان ذلك يستغرق يوما واحدا . وسيكون

ذلك مسيرة طيبة على ظهور الخيل . وقد وعدنا بودبوتى بفرسين لنا هما بيتوشوك وافرورا . . .

وكان من المضحك ان يخير بين ان يوافق او لا يوافق . الا ان فاديم بيتروفيتش تضايق فقط من تذكيره بتسلكات الضباط . ولكنه في واقع الامر اضطر ان يقضي المساء كله بتعليم رفاقه كيف ينبغي على ذوي الرتب الواطئة ان يقفوا بهيئة استعداد ، ويؤدوا التحية العسكرية ويردوا ، وما هو المظهر الخارجي لضباط جيش المتطوعين ، وكيف ان رجال دروزدوف بمسحة التهكم البادية على وجوههم يحبون لبس النظارات الانفية تكريما لرئيسهم الراحل ، وان رجال كورنيلوف يتميزون في العادة بنظرات كابية ، وعلى وجوههم خيبة امل مشمئزة ، وان رجال ماركوف يتباهون بمعاطف قذرة ولغة فاحشة .

واتفق على انهم اذا اوقفوا وسئلوا فانهم سيرددون : «نحن نحمل طرفا سريا الى قورونيج من آمر الفوج الاحتياطي التطوعي الذي وصل الى منطقة كاستورنايا من الجنوب» . فان ذلك جواب مبهم ومقنع .

وبعد زهاء ثلاث ساعات من السير الحثيث ، لاحت قورونيج في الضوء الشاحب الذي كان يغلف الفترة القصيرة من تحت سحب رصاصية ، لبدت القباب وابراج الحريق والسطوح الضاربة الى الحمرة . لم تعترضهم دورية واحدة خلال الطريق كله . فقد كان رجال الدورية ينظرون في منظاراتهم الى الفرسان الخمسة الذين يخبون بالراسهم باتجاه المدينة ، ويواصلون طريقهم بدون عجل . وقد حصل التاخير الاول عند الجسر . فقد كان هذا الجسر الخشبي غير المتين موضوعا تحت الحراسة يسير عليه رجال مهيبون يرتدون طاقيات بلا ظليلات ، ومعاطف بيضاء من فراء الاغنام كتلك التي ترتديها النساء في اوكرانيا ، وجميعهم قد ارسلوا لحاهم لسبب ما . وفي الجانب الآخر وقفت جماعة من طلاب المدارس العسكرية قرب خنادق راس الجسر تدخن .

اوقف دوانديتش فرسه ، وقفز منه ، واخذ يشد احزمته . وقال بصوت خفيض :

— ليس من المستحسن تماما ابراز الهويات المزيفة ، ثم ان النهر ممتلئ بالمياه . وخوضه في موقع ما ، والتبلل حتى الرقبة امر ينطوي على عاقبة اسوا . سنضطر الى عبور الجسر على خيولنا .

قال لاتوغين بلهجة كئيبة :

— حسنا . سنتخلص منهم بالشتائم .

وهنا قال زادوريفتر وهو يكاد يختنق بضحكته :

— اوي ، يا رفاق . اصاب بالعمى اذا لم يكن الذين على الجسر قسسا ، اصحاب اللحى . . .

— الى الامام سر . واظهر المرح .

قال دوانديتش ، وقفز الى سرجه كالقط . ضج ذوو اللحى على الجسر باصوات متنافرة : «قف ، قف» . اتجه دوانديتش نحوهم ممسكا العنان بقوة لاكزا بيتوشوك بمهمازيه . الا انهم رفعوا اصواتهم بصياح شديد ملوحين بالبنادق حتى ان فرسه اخذ يتراجع على رجليه الخلفيتين ضاربا بذيله في غيظ . اضطر دوانديتش الى التوقف . ارتفعت بعض الايدي لتمسك باللجام . فصرخ لاتوغين دافعا بحصانه :

— جننتم ! تمسكون بلجام سيادته ! من انتم على اية حال ؟ اروني الوثائق !

— سكوت ! اوقف حصانك ! — قال دوانديتش له بهدوء وعبر كتفه ، ثم انحنى على سرجه نحو ذوي اللحى وقد ابتسم عن اسنان بيض من تحت شاربيه البارزين :

— هل تطلبون ترخيصا لعبور الجسر ؟ ليس لدي . . . انا المقدم دوانديتش ، ومعي حراسي . . هل يكفيكم هذا ؟ شكرا لكم . . .

وانطلق بيتوشوك الى الامام ضاحكا حتى ان الحصان حمحم وشب على رجليه الخلفيتين مبديا بطنه الرمادي المنمل ، وقفز مارا بذوي اللحى ، وهم لا يكادون يجدون الوقت لان يتنحوا . الا ان دوانديتش شد على العنان في الحال ، وتحول الى السير الوئيد . وعلى الشاطئ الآخر بينما فزع . القى الطلاب العسكريون سيكائرهم وتراكضوا نحو الخنادق الطينية واذيال معاطفهم الطويلة على الارض تتشابك بين ارجلهم ، ومن هناك وجهوا فوهتي رشاشتين نحو الفرسان . وصاح آمر استحكام الجسر — وهو ضابط طويل له وجه رخو مشروب — ماطا الكلمات ببطء بصوت وقح مألوف جعل روتشين يطبق اسنانه باشمئزاز :

– هاى ، يا من على الجسر ، ترجلوا واعدوا الوثائق . . . ساعد الى اثنين ، وافتح النار . . .

فتح دونديتش فمه باتجاه روتشين :

– لا مفر من المهاجمة . . .

وامتدت يده الى سيفه . فاوقفه روتشين بحركة سريعة .

– تبلوف – نادى روتشين على الضابط الطويل – اترك الرشاشتين . . هذا انا ، فاديم روتشين . . .

وترجل عن حصانه على مهل ، وقاده من مقوده ، وسار عبر الجسر وحده . كان هذا الضابط هو نفس الشخص المسمى فاسكا تبلوف السكير المشاغب الاحمق – الذى كان فى فوج روتشين فى الماضى – والذى حذره روتشين ذات مرة عن جد من انه سيحطم وجهه على تخرصه وبذاءته . نظر تبلوف بارتياب الى روتشين وهو يقترب ، معيدا مسدسه الى قرابه ببطء .

– لم تعرفنى . . . وربما من فرط السكر ؟ مرحبا ، يا فتى – ومد روتشين له يده دون ان يخلع القفاز – ماذا تفعل هنا ؟ اراك قد جمعت لنفسك جماعة من ذوى الكروش واللحى . يا للحماقة ! لقد حان الوقت لان تكون آمر فوج . . . أانزلت رتبتك مرة اخرى ؟ على السكر ، بالطبع ؟

– اوه ، يا للشيطان ! – قال تبلوف صافرا بالحروف بسبب النقرة السوداء التى لاحت تحت شاربيه بدلا من الاسنان الامامية – فاديم روتشين ! . . . – واختلج الكيسان الصغيران الاحمران تحت عينيه – يا للسماء التى انزلتك . . . اعتبرناك هاربا . . .

– شكرا ! . . .

وحدق روتشين فى عينى تبلوف تحديقة صلبة حادة (شعر تبلوف بالحرج من هذه النظرة ، فرأى من الافضل الا يستمر فى الحديث عن الهروب) وقال روتشين :

– ان لكم رأيا جيدا جدا عنى . . . كنت طوال الوقت فى اوديسا عند غريشين-الماروزف . . . والآن رئيس اركان الفوج الاحتياطى الخاص والخمسين ، ربما تريد ان اريك وثائقى حقا ؟ – سأل روتشين متحديا واستدار ولوح منادبا – دونديتش ، تعال . . تستطيع ان تبقى على فرسك . .

نخر تبلوف فى غضب لا مبرر ، وكان دائما يتوجس من روتشين :

– كف عن التحذلق . . . اراك قد اتخذت طريقة خاصة فى التحدث معى ، يا روتشين . . . الى اين انت ذاهب ؟

– الى الجنرال شكورو . . جلبنا لكم فوجا ليعاونكم ، يقولون انكم خائفون من بوديونى كثيرا . . .

– عندنا فوضى . . . جندنا جميع المدنيين ، والجنرالات المتقاعدين ، والموظفين البهائم . . . وحتى القساوسة البسوهم البزات العسكرية ، وارسلوهم لى .

اخرج روتشين علبة السيكاير ، وكانت فيها سيكاير اجنبية استولى عليها يوم امس من طابور مقر القيادة . دخن تبلوف ونفث الدخان الزكى الرائحة على شاربيه . وقال متعجبا :

– هذه السيكاير الاجنبية الحقيقية ! من اين هى ؟ اما نحن فيقدمون لنا التبغ البيتى . . . وهو يسبب حرقة جهنمية . اعطنى زوجا سيكارتين على الاقل للاحتياط . . .

– كيف تعيش ، يا فاسكا ؟

– اعيش عيشة الخنازير . بلا نقود . . ضجرت من كل شىء – والقى من تحت حاجبيه نظرة جانبية الى دونديتش الذى قفز من حصانه ، والى الفرسان الجهمين الثلاثة وراءه . وقال – اذا كنتم تظنون يا سادة ، انكم ستقضون وقتا ممتعا فى فورونيج فانتم على خطأ . . . الاوغاد الحمر الوا على كل شىء . ما من حالة واحدة ، ولا ماخور واحد . لا مكان للراحة مطلقا . . .

قال روتشين :

– لاعرفكما : المقدم دونديتش .

– الكابتن تبلوف .

وتبادلا التحية العسكرية . غص دونديتش بضحكة وجهه الاسمر وعيناه تتقلبان بسرعة ، وقال :

– مع الاسف ، مع الاسف . بينما كنا نحلم فى الواقع بان نقضى وقتا ممتعا . . عندنا ما يكفى من النقود . . .

– طبعا توجد فتيات فى الشقق الخاصة ، ويمكن الحصول على الفودكا الممتازة ، والشمبانيا مخبأة عند المضاربين . . ثمن الزجاجة خمسمائة روبل ! فظاعة ! – وتراءى الحنق فى عينيه

المتورمتين اللتين تسحان دمعا باستمرار – السلطة العسكرية تعامل هؤلاء المضاربين معاملتها للقديسين ... منقذو الوطن ! ... في تامبوف صادف ان شربنا كثيرا ، وكانت قائمة الحساب فظيعة ، وليس لنا ما ندفعه ، فضربت صاحب المحل في وجهه وانصرفت . فالزلوا وتبق ... وهكذا ، يـــا فاديــم ، يسود شعور الكبت في وحداتنا ، اننا ، على اية حال ، نضحي بحياتنا .. والشباب يزول ... وماذا ينتظرنا في المستقبل ؟ موسكو المهدمة ؟ افلاس ... من حسن حظك الله الهيئة الجامعة . يمكنك ان تخلع البزة العسكرية المقملة وتلقي محاضرات ايا كانت ... اما انا فسامضي في هذا العمل الرتيب المضجر ... وفضلا عن ذلك لن يسمحوا لنا بالاحتفــــاظ بجيش حقيقي ...

قال دوندينتش :

– انت بحاجة الى تغيير الجو ، يا كابتن . لنذهب الى المدينة ، ليس لنا من عمل سوى ان نسلم الظرف للقائد ، وبعد ذلك نمرح طوال الليل ... انا مسؤول عن الشمبانيا ...

– اوه ، اللعنة ! – قال تبلوف ذلك وحك ما وراء اذنه – لا يليق ان اترك موقعي بدون سبب معقول ...

قال روتشين :

– سلم القيادة الى الاقدم في الحظيرة ... وقل لآمر الموقع انك اشتبهت بان تكون رجال استطلاع حمرا متخفين ... في اسوأ الحالات سينعتونك بالمغفل ...

فتح تبلوف فمه الخالي من الاسنان ، وقهقه وقال وهو يمسح عينيه :

– هذه فكرة ! بل وحتى اردت ان استغفلكم ...

– عين الصواب ...

– يا ضابط الصف الاقدم غلوزديف ! – صاح تبلوف بصوت مرح رنان ، واستدار نحو الخندق ، حيث عاد الطلاب العسكريون يتجرون حول الرشاشة . وعندما تقدم ضابط الصف الاقدم – وهو غلام في نحو الثامنة عشرة ذو عينين زرقاوين وتحتين – وادى التحية بخفة رافعا كوعه بموازاة كتفه ، سلمه تبلوف القيادة ، وامر بتهيئة فرس .

في الطريق الى المدينة روى تبلوف ، وهو يتقلب على سرجه من لظاد السير ، كل المعلومات المطلوبة : ما هي الوحدات العسكرية الموجودة في نوفورونيج ، وكم يوجد فيها من مدفعية ، واين مواقعها ...

– فزع حيواني ، ولا شيء غير ذلك ... اريد ان اخبركم بان كوتيبوف اصيب بالفشل بالقرب من اوريل ، حتى ان رجالنا اصيبوا بهزة فظيعة ... ان ذلك لم يحدث من قبل قط ... انت تذكر الحملة الجليدية ، يا فاديم ! ليس عندنا الآن غير تعبير واحد يتكرر : «فقدنا العزيمة ...» نعم ، نعم ، ان شيئا قد فقد – الحماس السابق .. ثم ان الفلاحين هنا انقلبوا اوغادا . ينظرون كالذئاب ... ان الجنرال كوتيبوف على حق تماما ، يقولون انه رد على القائد العام بحدة : «يمكن الاستيلاء على موسكو بشرط ان يقدم للسكان الاصلاح الزراعي والمشنقة ...» بحيث لا يبقى عمود تلغراف واحد فارغا ... ان يجري الشنق كما حدث ايام بوغاتشيف ليشمل قرى بكاملها .. كل ذلك على اية حال ، قصة مضجرة ... اعطوني احد العناوين : اختان خدومتان للغايـــــة تعزفان على القيثار وتغنيـــــان الاغاني الرومانسية .. تخلبان اللب ، يا فتى ! دعونـــا نذهب اليهمـــا راسا ...

والظاهر ان تبلوف كان معروفا جدا ، فان بعض الدوريات التي التقت بهم اكتفت باداء التحية حتى دون ان تلقي نظرة جانبية على دوندينتش وروتشين . وفي الشارع الرئيسي انعطفوا الى مدخل حديقي لاحد الفنادق . نزل تبلوف من فرسه ، ومد رجليه ، وقال بشيء من الخجل :

– لا احب ان اؤذي العين اكثر من اللازم ، من الافضل ان انتظركما هنا ... القيادة العامـــــة في الطابق الثاني .. فقط ان تستعجلوا ، يا سادة .. – ثم توجه بكلامه الى القوزاقي الكوباني المجدور الوجه ذي الشاربين القصيرين الواقف عند المدخل وقال بحدة – دعهما يدخلان ، يا ابله ...

ارتقـــى دوندينتش وروتشين سلمـــا من الحديد . كـــان قد كتب على طرف رسالة بوديوني «الى اللواء شكورو . شخصي وسري ...» وكان قد تقرر ان يسلم الظرف عن طريق المرافق . كان ديوان الاوراق يحتل قاعة المطعم ذات النوافذ مفقودة الطلاء . دخل

دولديتش وروتشين القاعة ، وفي نفس اللحظة ومن الباب الآخر دخل شخصان : احدهما طويل ضخم في وجهه الجميل الخشن الملامح سبلتان غزيرتان ، وكان يسير على عكازة تفخت ابط معطفه الرمادي الفاتح ، معطف الجنرالات . وقد عرف روتشين انه الجنرال ماموتتوف . اما الثاني الذي كان يرتدي سترة جركسية بنية فقد كان له وجه ملتهب عالي الوجنتين شقي الملامح فتحتا منخريه واسعتان ، وانفه مرتفع . لقد كان ذلك الجنرال شكورو . دخلا وتوقفا عند منضدة كان يجلس اليها ضابط اركان صغير في بنطلون لركوب الخيل عريض كجناحي خفاش ، يمل شيئا على فتاة شقراء حلوة القسمات كانت تشمر يديها عاليا وتطبع على الآلة الكاتبة .

اشار روتشين لدولديتش على شكورو سائلا «ما العمل الآن ؟» وفي تلك اللحظة التفت ماموتتوف فوقع بصره على ضابطين غير معروفين له ، فامر بصوت عالي النبرة :

– تقدما ، ايها السيدان . . .

اتخذ روتشين هيئة الاستعداد عند الباب ، وتقدم دولديتش من شكورو :

– لدي رسالة لاسلمها الى فخامتكم .

كان شكورو يقف وظهره الى دولديتش تقريبا ، ولم يلتفت ، واكتفى بان حرك رقبته القوية الحمراء التي انغرزت فيها ياقته المطرزة ، ورفع شفته العليا كالذئب ، وسال دون ان ينظر الى وجه محدثه :

– من اين الرسالة ؟

– من آمر الفوج الاحتياطي الحادي والخمسين الذي وصل الى الشاطئ الايمن للدون انتظارا لاوامركم . . .

– من اين هذا الفوج الحادي والخمسون ؟ – واستدار شكورو ، الا انه ظل على جفائه ، وتناول الرسالة ، وادارها في يده وقال : من الآمر ؟

احس فاديم روتشين الذي كان واقفا عند الباب ببرودة غير مريحة ، وانزل يده في جيب معطفه الى مقبض مسدسه . لقد تحولت الامور الى درجة عالية من الحماقة والتخلخل واللاجدوى . . الآن سينطق دولديتش باسم سخيف . . . يا للاسف ! كان من الممكن ان ينقلوا لبوديوني معلومات قيمة .

– يقود الفوج الحادي والخمسين الكونت شامبرتين – رد دولديتش بذلك على الفور ، وجابه بنظرة مرحة نظرة شكورو الجانبية الناقمة العابسة : هل تسمح لي بالانصراف ، يا صاحب الفخامة ؟

– انتظر ، انتظر ، يا مقدم – قال ماموتتوف واخذ يستدير نحوه على عكازته بحركة غير متقنة – يبدو لي انه اسم مألوف – ولجأة لوى الالم وجهه الجميل اللحيم ، فان حركته غير المتقنة جعلت الجبيرة تحتك بساقه التي حطمتها رصاصة في الاسبوع الماضي ، حين كان يهرب من بوديوني على عربته . وتمتم : – اوه ، اللعنة ، اللعنة . يمكنك ان تنصرف ، يا مقدم . . .

ادى دولديتش التحية العسكرية ، وقام بنصف استدارة متقنة ، واتجه نحو الباب . ورأى روتشين شكورو يتحدث الى ماموتتوف الذي ما يزال ملتوي الوجه من الالم ، ويلفي بيطء الظرف الذي يحتوي على رسالة سميون بوديوني التي كان روتشين ودولديتش على علم بمحتواها : «٢٤ تشرين الاول ، في الساعة السادسة صباحا ساكون في فورونيج . آمرك ، يا جنرال شكورو بان تصف جميع القوات المعادية للثورة في الساحة ، عند السوق ، حيث شنقت العمال . وآمرك بان تقود الاستعراض بنفسك . . .»

هبطا السلم الحديدي . قابلهما طلاب عسكريون يحملون البنادق ويسيرون في خط واحد . وبدا لروتشين ان دولديتش الصغير الذي يسير امامه مرفوع الرأس مصلصلا بمهمازيه يسير على مهل شديد للغاية . وتلك شجاعة فارغة حمقاء لا ضرورة لها ! . . .

في الطابق الثاني في الاعلى ترددت صيحة حادة مبحوحة . خرج دولديتش وروتشين الى مدخل الفندق ، ومن الرصيف اندفع تيلوف نحوهما . كان وجهه الرخو بشاربيه المتدليين يتعطش الى الشمبانيا ، والاغاني الرومانسية ، والفتيات . . . .

– الحمد لله ، يا سادة . . . لنذهب . . .

دس قدما واحدة في الركاب وحجل على القدم الاخرى قرب الحصان الحرن . كان روتشين على سرجه . اخرج دولديتش علبة السيكاير ، واشعل سيكارة – كانت اصابعه السمراء الجافة

ترتجف قليلا – والقى عود الثقاب المشتعل ، وتناول المقود من لاتوغين وقال بصوت حاد :

– اول زقاق الى اليسار انطلق عدوا !

كان الزقاق الاول لا يبعد غير مسافة عشرة بيوت . كان لاتوغين وقاقين وزادوبلينير اول من استدار اليه ضاربين بلاط الشارع بسنابك خيولهم . زعق تبلوف وهو يشد عنان فرسه ويلتفت :

– يا سادة ، يا سادة . . . الزقاق التالي ، الى اليمين . . .

الا ان حصانه انطلق به مع الجميع الى اليسار . التفت روتشين عند الزاوية ، وهو يستدير ، ورأى طلابا عسكريين يخرجون راكضين من مدخل الفندق ، ويلتفتون مجال ساحبين ترابيس اسلحتهم .

– روتشين ، ما هذه اللعنة ؟

صاح تبلوف وهو يكاد يبكي منتقلا الى العدو مع الجميع . التصق دونديتش بحصانه اثناء العدو وانحنى ، وقبض على مشط يده بقوة ، وقطع حبل مسدسه ، وسحب المسدس من غلافه .

وصاح كاشفا عن اسنانه :

– انا مدين لك بشمبانيا !

الآن كان هو وروتشين والمقاتلون الثلاثة ينطلقون في الزقاق الملتوي بكل سرعة خيولهم مارين بالبيوت الصغيرة والاسيجة واشجار الزيزفون المعمرة التي كانت اغصانها العارية تحتك بقبعاتهم ، وترددت طلقات الى الخلف . عبروا حقلا دون ان يخففوا من سرعتهم ، وبالقرب من الجسر تحولوا الى الخبب الخفيف . ثم الى السير عند خنادق اول الجسر . نادى دونديتش مربتا على عنق الفرس المتصاعد منها البخار :

– يا ضابط الصف الاقدم لفوزديف ! – وعندما اقترب هذا يخفي سيكارته في ردنه اضاف – طلب الكابتن تبلوف مني ان انقل لك انه سيعود بعد نصف ساعة . سنعود نحن الى هنا في صباح الرابع والعشرين ، فلا تخفنا بالرشاشات . . .

– سمعا ، يا حضرة المقدم . . .

وعندما صار الجسر بعيدا خلفهم ، وقد هبط المساء ،

اعطوا فترة استراحة لخيولهم المزبدة التي بدأت تتعثر . عند ذلك قال دونديتش لروتشين :

– انا محرج جدا امامك وامام الرفاق . . . كثيرا ما لعبت بنفسي على اظهار الفتوة . الخطر يسكر ، والعقل يحتد . وانما العاشق نفسي انسى الغاية والمسؤولية . وبعد ذلك احس بالندم . . . لو ان الرفاق الآن نزلوا من خيولهم ، وسحبوني من رجلي ، وضربوني لما احسست بالتكدر ، بل ولشعرت بالتخلص !

دفع روتشين رأسه الى الخلف وتهقه عاليا . فقد كان هو الآخر يحتاج الى تنفيس التوتر الطويل الذي ارهقه تماما .

– هذا صحيح ، يا دونديتش ، تستحق ان تضرب بشكل جيد ، لا سيما على السيكارة في المدخل . . .

. . . .

وتجح دهاء بوديوني . فبعد ان قرأ ماموتتوف وشكورو رسالته التي سلمت الى ايديهما شخصيا بمثل تلك الوقاحة المنقطعة النظير استولى عليهما غيظ لا يوصف . فان كتابة مثل هذه الرسالة وتعيين اليوم والساعة لاحتلال فورونيج يحتاجان الى ثقة . ومعنى ذلك ان بوديوني كان يملك مثل هذه الثقة . وفقد الجنرالان الاحساس بالتوازن .

كانت خطة بوديوني في دحر الخيالة البيض مبنية على ان تقوم كل قواته المتمركزة بشن هجوم مضاد مباشر ضد الطوابير الثلاثة لفرق الدون وكوبان الساعيتين لتطويقه . ابطأ الاعداء بالهجوم واقتصروا على اعمال الاستطلاع . والآن اضحى بوديوني واثقا انهم سيهجمون عليه دون ان يحفلوا بالعواقب .

في ليلة الثامن عشر من تشرين الاول اشار رجال الاستطلاع الى بدء تحرك للعدو . وحانت ساعة المعركة الدموية . قال سيميون بوديوني وهو منكب مع قالدي قرقنيه على الخارطة في ضوء شمعة : «حطنا سعيدا» واصدر امره الى الفرقتين والافواج والكوكبات: «الى الخيول ! »

ورنت تلفونات الميدان سواء في كوخ مظلم او في حقل ، في خندق مغطى بالاغصان والتبن او تحت كومة دريس ، وسمع رجال الاتصال من السماعات ما كان الجميع ينتظرونه من ساعة الى اخرى ،

هرع المراسلون الى صهوات خيولهم ، وانطلقوا فى الظلام وهم يضعون اقدامهم على المهاميز اثناء العدو . كان المقاتلون نائمين بثيابهم فى تلك الليلة الحالكة كالقبر ، الساكنة الريح فاستيقظوا على الصياح الممدود : «الى الخيول ! » ووثبوا على اقدامهم نافضين النوم عنهم ، واندفعوا الى مرابط الخيل ، واسرجوا خيولهم على عجل ، واوثقوا السيور بقوة جعلت الخيول تترنح .

تجمعـــت الكوكبــات فى الحقـــل ، ومن صيحات امراء الوحدات الشراميـــة فى الجبهـــة ، وجدت مكانها فى الظلام انتظمت فى صفوف ، وانتظرت طويلا ملقية بابصارها الى الناحية التى يوشك الفجر ان يطلع منها . كانت الخيول ما تزال تتنفس بثقل من اثر النوم . وكانت برودة رطبـــة تتغلغل من خلال الستر المبطنة وفروات الاغنام ومعاطف الجنود الخفيفة . وصمت الرجال ، وكفوا عن التدخين .

وها هى الطلقة الاولى تصدر مبريرة من بعيد . وترددت اصوات المفوضين : «ايها الرفاق ، امرنا سميون ميخائيلوفيتش بوديونى بتحطيم العدو . ان ماجورى البرجوازية يسعون الى شق طريقهم الى موسكو -- الموت لهم ! كللوا سلاح الثورة بالمجد» .

لم ينور الفجر الحقل بسبب جثوم الضباب . انطلـــق سيل نمالية الوواج بوديوفية على امتداد فراسخ فى كركبة ثقيلة وصفوف متلاصقة . وفى الضباب الكثيف لم يكن المحارب يرى غير رفيقه الى اليسار ورفيقه الى اليمين . وعجائز الخيول امامه تنط فى الضباب الحليبى المتخلخل .

كان العدو على مسافة قريبة تتناقص . وصارت طلقاته تسمع مترددة بلا نظام . واخذ المقاتلون وهم يحثون خيولهم بلهفة يتفعون رقابهم ساعين الى ان يروه . ثم سرت فى السيل كله صيحة راحت تتردد اعلى واكثر خنقا وضراوة . فان الصفوف الامامية قد رأته . . . .

اخذت تطلع من الضباب اشباح فرسان يتعطفون على خيولهم . لم يصطبر قوزاق الدون ، فاندفعوا للقائهم بنفس السيل العارم . . . الا انه يبدو ان الشيطان حملهم بهذا البعد عن قراهم الاصلية ليطاعنوا هؤلاء الشياطين الحمر . سمعوا هدير الحقل كله وارتجافه فادركوا اية قوة رهيبة توشك ان تعصف بالخيول والرجال وتخفق وتلف .

وتتعالى اكوام الاجساد المدماة . . . وليت ذلك لسبب وجيه ! ركن القوزاق الى خيول الدون الوثابة الخفيفـة الحركة فاخذوا يرتدون ويجولون . . . وقليلون منهم فقط ، المستميتون للغاية ، السكارى من الجراة خرقوا سيل البوديونيين طاعنين بالسيوف فى تهور وخبط عشواء . . .

ولم تنقذهم خيول الدون الوثابة . والذين استداروا اصطدموا بالذين ما زالوا يندفعون الى الامام . . . اوقع بعضهم بعضا . . . راح رجال بوديونـــى يطعنون ويدوسون ويطاردون . . . بدات صيحات وحشية . . . فى الضباب لم يرى غير فارس منكب على عرف فرس ، وآخر يلاحقه منحنيا على السرج لتوجيه ضربة بسيفـه . . . . صهلت الخيول المهتاجة قاضمة باسنانها . . .

الآن استدارت جميـــع الواج القوزاق لتولى الادبار . الا ان ضربات الرشاشات التى انغرزت عميقـا فى جناحها قطعت الطريق عليها ، ودفعتها بنيرانها الى ناحية ، حيث اخترقت كوكبات جديدة من خيالة بوديونى كتلها المختلطة المرتبكة وهى تسعى الى الفرار .

استمرت مطاردة فرقتى ماموتنوف حتى طلوع النهار . وتناثرت فى الحقل آلاف الجثث فى الستر القوزاقيـــة الزرقاء ، وفى السراويل المزينة بالاشرطة الحمراء عند خطوط الدرز . وانطلقت الخيول المذعورة بلا فرسانها .

فى وقت الغداء تجمع رجال بوديونـــى كمعسكر هائل فى حقـــل منبسط متجمهرين حول مطابخ ميدان جيدة من النحـــاس الصاق انتزعوها من العدو . وتصاعد البخار من قدور عصيدة الدخن المعتادة المفعمـــة بقطع من شحم الخنزير ، وقد اضيفـــت ، هذه المرة ، المكرونـــة والرز والفول واللحم المملح واشياء اخرى من هذا القبيل خلطها الطباخون لتحسين نكهتها .

وبعد ان شبع المقاتلون تماما دخنوا وتفاخروا فيما بينهم بما غنموا فى القتـــال من سيف فرســـان من الفضـــة او قربينـــة يابانية ، او جواد من خيول الدون اصهب محجل وذى غرة .

ولم يهدا الهياج الذى خلفته المعركة ، وما كان له ان يهدا ! عزفت الاكورديونات فى كل مكان ، وترددت اصوات تناغمها اخرى . انتشرت السحب تحجب السمـــاء ، وجثم الضباب علـــى وجـــه

الحقل . . . » وعلى انغام البلالايكا دق الراقصون الارض بكعوبهم وسط الصفير مشمرين اذرعهم كما يشمر البجع جناحيه ، مقرقصين وضاربين الارض ضربات متتابعة .

ولكن الابواق تصدح من جديد داعية الى القتال ، الى العمل الصعب ! من بعيد مر بوديونى على فرسه فى عباءته القوزاقية وقبعة من فراء الاستراخان القطنى . ومعه قائدا فرقتيه كلاهما . وبدأ الافواج تصطف من جديد ، وتوغلت فى صفوفها ثمانى رايات حمر رفرافة .

. . . .

ان الانهيار الذريع للطابور الاول اجبر البيض على التخلى عن تطويق بوديونى ، واحبطت خطتهم الاولى ، وسارع بوديونى بالاستفادة من الارتباك . ففى تلك الليلة عند الفجر هاجم رجال بوديونى الطابور الثانى من رجال ماموتنوف ، ولم يتحمل الضربة هذا الطابور ايضا وتراجع الى سدة السكة الحديد تحت حماية القطار المصفح . خرج القطار من فورونيج ثقيلا مترفقا عبر الجسور . كان الضباط المدفعيون تحت الابراج الفولاذية وقرب مدافعه من عيار ٦ بوصات ورشاشاته يمعنون النظر فى الضباب الآخذ بالتحول ببطء . وبين الحين والآخر كان يظهر على السدة رجل من رجال الاتصال يلوح بعلم صغير ، فيتوقف القطار دقيقة ليتلقى المعلومات . وهكذا اضحى معروفا الوضع الحرج للطابور الثانى الذى رده رجال بوديونى الى سدة السكة الحديد .

زاد القطار المصفح فى سرعته . وظلت الصافرة المبحوحة فى قاطرته تزعق بلا انقطاع لتنبئ رجال ماموتنوف بمعونة عاجلة .

لمح المدفعيون الذين كانوا يعاينون من خصاص الابراج شبحا غير واضح فى الضباب . وقد انطلق على السدة للقاء القطار المصفح . اوقف القطار حركته ، وعاد يتحرك الى الوراء . واطلقت المدافع قذائفها على الشبح المتنامى بسرعة . ولكن الوقت كان قد فات . فان قاطرة بضائع كبيرة اطلقت باقصى سرعتها خالية من الناس ارتطمت بالعربة الفولاذية الامامية للقطار المصفح . وكانت القاطرة كلها قد عبئت بالديناميت من امام ومن الجانبين . ودوى انفجار . وفى الحال تفجرت القذائف فى العربة المصفحة من التماس ، ووقفت

العربة المصفحة على طرفها فى دوامة من التراب والرمل والشرار والدخان والبخار ، وتدحرجت مسحوقة ساحبة على منحدر السكة السلحفاة الفولاذية الضخمة برمتها .

وهرب الطابور الثانى من رجال ماموتنوف الى فورونيج . وبدأ الطابور الثالث يتراجع الى هناك ايضا – بدون قتال الا انه اجبر على خوض المعركة فى اليوم الرابع من هذه المذبحة التى لا سابق لها ، وحطم كليا . وتناثرت جثث القوزاق المطروحة على مسافة فراسخ من الحقول والتلال .

وتراجعت الى وراء النهر جميع فرق الدون وكوبان محصورة متكبدة فى بعض افواجها ما يصل الى النصف من عدد رجالها . وفى الصباح الباكر من الرابع والعشرين تحركت قوات بوديونى الرئيسية الى هناك ، حيث وجدت الجسر الخشبى الذى كان محروسا من قبل القناوسة والطلاب العسكريين بقيادة تيلوف متروكا لم يلحقوا ان ينسفوه . كانت بعض البطاريات تطلق النيران من ناحية المدينة رافعة اعمدة من الوحل والماء . . . وصل بوديونى الى الجسر ، ورأى الجسر واهى البناء ، استدعى الموسيقيين ذوى الابواق الفضية ، وامرهم بان يعبروا الجسر الى الجانب الآخر من النهر ، وان يعزفوا هناك امرح الالحان واكثرها اثارة من موسيقى المارش والرقصات . كان طلاب الكونسرفاتور بالهيئة التى اخذوا فيها آنذاك – فى معاطف قصيرة ذات تطريزات صفراء وحمراء على الاكتاف – وقد تراكضوا عبر الجسر ، وما كادوا يعبرونه حتى اصابته قنبلة فانهار . وفى وسط هدير الانفجارات اخذ الموسيقيون شبه الاحياء من الفزع ينفخون فى ابواقهم الفضية ويصدحون . . . .

وسلم كل مقاتل خيال قذيفة مدفع ليحملها فى يده . وصاح امراء الوحدات والمفوضون «الى الامام ! » وقذفوا بانفسهم قبل وحداتهم فى الماء القارس البرودة الغائر المتطاير من القذائف المنفجرة . وفى وسط النهر الزلق الرجال عن سروج خيولهم وسبحوا وقد وضع كل فارس يدا على عرف فرسه ، ورفع القذيفة على الاخرى . وقفزت خيول المدافع الى النهر الغاضب ساحبة المدافع على قاع النهر . وعبر رجال بوديونى النهر واخذوا يهاجمون فورونيج بحرارة غضابا مبللين وعلى خيول مبللة . الا ان فرق ماموتنوف وشكورو هنا

ايضا لم تتقبل المعركة ، وابتعدت بسرعة الى ما وراء الدون باتجاه كاستورنايا .

كان دحر احسن خيالة البيض والاستيلاء على فورونيج احد العمليات الاولية لخطة عسكرية ضخمة وضعتها القيادة الجديدة للجبهة الجنوبية .

وقد تلقى قواد الجيوش والفيالق والفرق والالوية وامراء الافواج نسخا من هذه الخطة مطبوعة على ورق مزرق وموقعة بتوقيع ستالين . وصفت فيها – بالتفصيل ، وبشكل مفهوم لكل مقاتل احمر وممكن التنفيذ فعليا – عمليات جميع وحدات الجبهة الجنوبية ابتداء من منطقة اوريل وكرومي ، (التي كان يتراجع عنها تحت ضربات التشكيلة الخاصة بقيادة سيرغي اوردجونيكيدزه فرسان دينيكين المسحورون تحت قيادة الجنرال كوتيبوف الذي اقسم بان يكون اول من ينفذ الى موسكو) ومن عمليات منطقة فورونيج وكاستورنايا (حيث اعطيت لفيلق بوديوني مهمة شطر جبهة البيض عند نقطة التقاء جيش الدون بجيش المتطوعين) وانتهاء باحتلال روستوف على الدون التي كان الطريق اليها يمتد عبر الثغرة التي احدثت خلال منطقة دونباس المتجمعة البروليتارية .

وخلافا لتوقعات الجميع سواء اولئك الذين كانوا جالسين في الخنادق المنتنة على حقائبهم في اهبة السفر واثقين من ان الفرنسيين سيجلبون الى موسكو في عيد العام الجديد الشمبانيا والمحار وحتى بنفسج بارما ، او اولئك الذين كانوا يقضون الساعات في غرفة استقبال حاكم اوروبا في باريس ، وهم الآن مرفوعو الرؤوس ، وروسيا الدستورية في ايديهم تقريبا ، حتى انهم لم يضبطوا انفسهم فدخلوا في مكتب كليمانصو حيث يشتعل موقد ، وحيث جلس الدكتاتور الضئيل المكور الكتفين وحاجباه الاشيبان متدليان على مشروع مكون كالقبر يعم العالم ، ونهض الفرنسي ليقدم اصابعه المعقدة للروسي الذي كان يضغط عليهما من شدة الفرح ، بل وخلافا لما توقع انتون ايفانوفيتش دينيكين نفسه الذي هجر منذ زمان لعبة «الفينت» في ايام الجمع ، والذي بالرغم من ضعفه الذي يشترك فيه مع الجميع اخذ يؤمن بان له رسالة سامية – قام

البلاشفة الذين كانوا في آخر رمق بشيء لا يتصوره العقل ، وتنظموا هجوما مضادا جبارا رغم تفشي التيفوس والمجاعة الحادة للغاية والدمار الاقتصادي الكلي ، حتى تصدعت كل السياسة العالمية لخنق وتقطيع اوصال روسيا الحمراء . تلك البلاد المترامية الاطراف التي كانت تمثل – اذا اردت الحق – لغزا لعقول اوروبا الغربية .

وكانت لغزا ينابيع الهام الشعب الروسي . كما ان افكار السعادة للجميع والنظام الاجتماعي العادل – تلك الافكار التي ظن انها قد اقبرت الى الابد تحت تلال جثث الحرب العالمية – قد انتشرت وكأن عاصفة نثرت بذور شجرة الجنة في روسيا المعدمة المخربة ، حيث ما يزال الريفيون الاميون يقص بعضهم لبعض حكايات اسطورية عن ايفان الابله ، وعن الساحرة بابا ياغا ، وعن الابسطة الطائرة ، والشيوخ العميان – رجالا ونساء – ينشدون اشعار الملاحم المطولة عن معارك الجبابرة ومآدبهم وحفلات زفافهم .

وربت هذه الافكار في شعوب روسيا مرونة وصلابة الفصل الفولاذي . ان الفلاحين الذين ما يزالون يحكون الحكايات ، وعمال المعامل نصف المتهدمة التي عمدت مداخنها منذ زمان ، من خلال قضائهم على المجاعة والتيفوس والخراب الاقتصادي التام يدحرون ويطاردون جيش دينيكين ، وهو جيش من الدرجة الاولى ، وقد اوقفوا عند مشارف بيتروغراد جيش يودنيتش الصدامي ودفعوه الى استونيا ، وحطموا وشتتوا في ثلوج سيبيريا جيش كولتشاك الكبير العدد ، وقبضوا على حاكم عموم روسيا هذا ، واعدموه رميا بالرصاص ، وهم الآن يدحرون ويطاردون اليابانيين في الشرق الاقصى . انهم ، الملهمون بافكار لينين – بالافكار فقط لان لي روسيا لا شيء يؤكل ولا شيء يلبس – يؤمنون بانهم اقوى من جميع من في العالم ، وانهم سيبنون على خرائب دولتهم المعدمة ، وفي اقرب وقت مجتمعا شيوعيا عادلا .

٣٠

خيل الى كاتيا ان معدتها الآن ، لا تزيد على الارجح عن حجم محفظة صغيرة لحفظ قطع النقود المعدنية . ليس فيها ما يكفي الا

لما يزيد قليلا عن خمسين غراما من الخبز ، وقطعة من سمك الفوبلا المسلوق ، وليضع ملاعق من الحساء . وكانت المصيبة التي تجابهها هي في التنورات التي اضحت فضفاضة عليها وليس لها ما تخيطها به ، ولا الوقت الذي يسمح لها بذلك . وبمقابل ذلك اضحت عينا كاتيا اوسع بكثير مما كانتا في الخريف الماضي ، حيث كانت ماتريشا تطعمها الفطائر المسممة عن قصد .

كانت الصبايا في المدرسة يقلن لها احيانـــا ، وهن يلوين افواههن الجائعة :

«يا عمة كاتيا ، ما احلاك . . . .»

وكان ذلك يبعث السرور في نفس كاتيا ، لان كل الحياة كانت في المستقبل . والتذكار الوحيد عن الماضي — خاتم زمردي بومضته الخضراء الساطعة — قد ضاع وهي ما تزال في قرية فلاديميرسكويه . اما الاشباح المحبوبة التي كانت تسكن هذا البيت المتداعي في زقاق ستاروكونيوشني ، فلم تعد تخطر في ذاكرتها بينما كانت تتصور المستقبل الذي تتجـه نحوه كل الآمال ، كل افكار الناس المعذبين بالجوع وشدة القرس والخراب والحرب طريقا عريضا لامعا كزجاجة في الشمس ، وسط المروج الخضراء والبحيرات المخضبة المحاطة بكتل الاشجار الناعمة — طريقا يؤدي الى معالم مدينة خفيفة الزرقة معقدة فاخرة رائعة يجد الجميع ضالتهم من السعادة .

ذات مرة تحدثت كاتيا عن ذلك في الدرس . واصغى الاطفال وقد اخلدوا للهدوء . والصبايا العاطفيات اعجبن بشكل خاص بان الطريق الى المستقبل يتلوى عبر المروج الخضر ، حيث من الممكن ان يطاردن الفراشات ، ويجمعن باقات من الزهور الصغيرة ، على شكل نجيمات . ووجد الاولاد الحكاية غير مرضية . فان كاتيا لم تقل شيئا عن القطارات المنطلقة في كل مكان خلال هذه المروج ، مارة بمؤشرات الاتجاه ، وعبر الجسور المشبكة والانفاق ، ولم تذكر المداخن الضخمة التي يتصاعد منها الدخان مراحا . واتفق الجميع على ان مدينة المستقبل زرقاء بالطبع ، لهـا بيوت عالية تناطح السحب ، وترامواپات شديدة السرعـة ، ومراجيح في جميع البولفارات ، واكشاك تبيـع الفطائر والسجق . سألت كاتيا : «والدندرمـــه ؟» . الا انـــه تبين ان الاطفـــال لـــم يتذوقـــوا

الدوندرمه قط ، او ربما تذوقوها عندما كانوا صغارا ونسوهـا .

وكان على كاتيـا ان تحرص كثيرا على قوتهـا . قبل فترة قصيرة حملت جردلا مملوءا الى الفناء واحست فجأة بانها لا تستطيع ان تمضي بـه ، فوضعته على الارض ، واتكأت على الحائط مغالبة الغشاوة التي غطت على بصرها . ومن حسن الحظ ان المحاضرات عن الفن ظلت مؤجلة ، فقد اقفرت موسكو تماما ، وكان من الممكن ان يسير المرء من اربات الى شارع ستراستنايـا دون ان يلتقي بعابر سبيل . ومع ذلك فقد كانت «الازفستيا» تنشر في كل يوم انباء انتصارات عسكرية . وتدفقت الجيوش الحمراء الى الدونباس في سيل عريض عبر ثغرة في الجبهة عند كاستورنايـا ، واندلعت انتفاضات الفلاحين في مؤخرة البيض . والآن لاحت للنظر نهايـة للحرب والنكبات .

في المساء ، والساعة تقترب من الثامنة ، كانت كاتيا جالسة في حجرتها ، دون ان تشعل الفتيل . فقد كان الموقد «النحلة» يلقي ضوءا كافيا من خلال بابه نصف المفتوح . جلست كاتيا على مقعد واطئ ، والقت قطع الحطب بحذر ، فاشتعلت بضوء ساطع ، وفرقعت فرقعة لطيفة لانها كانت من نفس الطاقـة الشمسيـة التي تحدثت كاتيا عنها في المدرسة .

كانت كاتيا تقرأ «الجريمة والعقاب» . يا الهي ، الى اي حد كانت تلك الحياة بلا مخرج ! وضعت كاتيـا يدها على الكتـاب ، وحدقت في النار . ما ارهب الليلة التي قضاها سفيدريغايلوف في الحانة الخشبية ، في الجادة الكبيرة ! لقد كان نفس المطعم التي جلست فيه كاتيا مرة واحدة في حياتها مع بيسونوف ، ولربما في نفس الحجرة التي كـــان سفيدريغايلوف يزجي فيهـــا الوقت ساعـــة بعد ساعـــة ولله عرف انـــه غير قـــادر على قهر الرعب والنفور من الحياة .

ان هذه اللعنة قد حطمت واحرقت وبددت . والآن يستطيع المرء ان يجلس هذه الجلسـة ويقرأ بهدوء عن الماضي ، ويكـوم الحطب في الموقد ، ويؤمن بالمستقبل .

ترددت في الممر خطوات غير متوازنة ، ومن الارجح انهم عادوا مرة اخرى الى ماسلوف للتشاور . في المدة الاخيرة اخــذ الناس

يترددون عليه باستمرار في غبش المساء ، وكانت اصواتهم الصاخبة تسمع حتى في غرفة كاتيا . ومهما كانت الساعة التي ينتهي فيهـا الاجتماع كان ماسلوف يوصل الناس الى المطبخ ، ويدق باب كاتيا بحذر :

«امعقول انك آويت الى الفراش ؟ عيب ، عيب ان ينام المرء مبكرا . . . وانت امرأة عصرية . . . اى ، اى ، اى . . . »

وكان يدير مقبض الباب بالحاح ، وكانت كاتيا ترتجف من الغيظ . فقد كان ماسلوف عنيدا ومعتدا بنفسـه بشكل فظيع ، ويستطيع ان يبقى وراء الباب حتى الصباح .

«يكاترينـا ديميتريفنـا اريد فقط ان اجلس بهدوء قرب موقدك . . . اعصابي توترت . . . اسمحي لي بطريقة رفاقية . . . »

وكان من الـحمق الاستمرار في الصمت . وفي آخر الامر تفتح كاتيا الباب . فيجلس امام الموقـد ويأخذ بوضع قطع الخشب — وكانت كل قطعة منها اغلى من الذهب — وكان يضحك بغموض ويمد كفيه الضيقتين فوق حديد الموقد الحامي ، ويشرع في الحديث عن موضوع قوة الجنس الرهيبة كالقضاء . . . والاستجابة لهذه القوة جمال ! وسائر الاشياء بيوريتانية عفنة . وفضلا عن ذلك فان كاتيا جميلة ووحيدة و «متحررة من الابوان» على حد تعبيره . وكان واثقا ثقة لا تتزعزع من انها ستسمح له ان لم يكن اليوم فغدا بان ينسل تحت لحافها .

واليوم ، وقد قرأت كاتيا دستويفسكي كانت الاصوات في غرفة ماسلوف تترامى الى سمعها موحشة . فقد كانت تتردد هناك هتافات عنيفة ، ثم تسقط بين الحين والآخر اشياء تبدو وكأن كتبا تقذف على الارض . واليوم لا بد انه سيأتي لتهدئة نفسـه .

سمعت خربشـة على الباب ، وانسل صوت خفيف عبر ثقب الباب : «يا عمة كاتيا ، هل انت في البيت ؟» انها صبية ، كلافديا في حذاء لبادي ضخم ربط بحبل .

— ارسلتني زوجـة تشيسنوكوف لاستدعائك . عندهـا رتشين من الجبهة .

— وهل الجو بارد في الخارج ؟

— فظاعة ، يا عمة كاتيا ، ريح شديدة تجعل العين تزغلل ،

ليت الثلج يتساقط ، ولكن لا ثلج . . . شتاء جنوني ، ولكن غرفتك دافئة ، يا عمة كاتيا . . .

كانت كاتيا غير راغبة في الخروج الى البرد وجرجرة نفسها الى بيت زوجة تشيسنوكوف في بريسنيا ، وكان الشيء الاكثر ارهاقا انها ستضطر الى حديث حتمي في الليل . ارتدت معطفهـا ، والقت لفاعا دافئا على رأسها فوقه . وخرجت مع كلافديـا الى الشارع بحذر لكيلا يتنبـه ماسلوف . اندفعت الريح الليلية نحوهما من الزقاق المظلـم بقوة جعلت كاتيـا تغطي الفتاة الصغيرة باطراف منديلها . وكان الغبار يلذع الوجه ، والسطوح الحديدية تقرقع . كانت الريح تعول وتصفر وكان كاتيا وكلافديا آخر مخلوقين على الارض . فقـد مات كل شيء ، ولن تخرج الشمس بعد لتطل على العالم .

بالقرب من نافذة شاحبة الضوء في بيت خشبي صغير ادارت كاتيا ظهرها للريح لتلتقط انفاسها . ومن خلال شق بين ستارتين لم توصلا بعضهما ببعض بشكل محكم رأت كاتيـا حجرة مكتظـة بالاثاث ، ومدخنة سوداء متصلة في موقد بشكل ملتو ، وفي وسط الحجرة ضوء «تحلق» وقد جلس بعض الاشخاص في مقاعد وثيرة . وكان الجميع قد اسندوا رؤوسهم على اكفهم ، وراحوا يصغون الى شاب واقف امامهم يقرأ شيئا في كراسة وقد رفع بشمم انفه المتجه الى الاعلى . وكان يرتدي معطفا مهلهلا مفتوحا على صدره العاري وحذاء لباديا مطوقا بحبل رفيع ، كحذاء كلافديا . ومن حركة يديه والطريقة البطولية التي يهز بها شعره الكثيف غير الممشط عرفت كاتيـا انـه يلقي اشعارا . واحست كاتيـا بدفء في قلبها ، وابتسمت وادارت وجهها للريح ، وهرعت الى اربات دون ان تدع كلافديا تخرج من تحت منديلها .

كان بيت زوجة تشيسنوكوف حافلا بالناس — جميع زوجات العمال الذين خرجوا الى الجبهة ، وبعض الشيوخ يجلسون مجلس الصدارة عند طاولـة ، حيث كان القادم يتحدث عن الشؤون العسكريـة . اخذت النساء يسألنـه والبعض يقاطع بعضـا : هل سيخف وضع الخبز عن قريب ؟ هل يمكن توقع وصول الوقود

الى موسكو فى عيد الميلاد ؟ وعن توزع الاحذية اللبادية والمعاطف الفرائية فى وحدات الجيش ؟ وذكرت اسماء ازواج واخوان ليعرفن ما هم احياء معافون ، وكان هذا العسكرى كان قادرا على ان يعرف بالاسماء جميع العمال المقاتلين بالالوف فى جميع الجبهات .

لم تستطع كاتيا ان تشق طريقها فى الحجرة فوقفت عند الباب . ووقفت على اطراف اصابعها ووضع بصرها خلفا على القادم يسجل شيئا فى ورقة صغيرة . وقد انزل راسه الملفوف بضمادة . وسال :

— اهذه كل الاسئلة ، يا رفاق ؟

وسرت رجفة فى جسد كاتيا ، وكان هذا الصوت الواطئ القاطع النبرة قد لفظ فيها ممزقا قلبها . واستدارت فى الحال لتصرف . ثم يغب عن ذاكرتها شيء ، على ما يبدو ، ، ان رنين الصوت الشبيه بذلك الرنين الحبيب الذى صمت الى الابد اثار فى نفسها اسى قديما ، الما قديما غير مدعو وعديم النفع . . . وبهذا الشكل تعود فى الحلم الى ذاكرة انسان وحيد ذكرى ماضيه البعيد ، فيرى بيتا صغيرا فى غابة لم يقع عليه عيناه قط ، منارا بضوء بهت ، وبالقرب من البيت امه المتوفاة تجلس وتبتسم كما فى الطفولة البعيدة ، فيود ان يمد لها ذراعيه ، ويدعوها من الحلم الى الحياة ، ولكنه لا يستطيع ان يمسها ، وتظل هى صامتة تبتسم . عندئذ يدرك ان ذلك مجرد حلم ، فتتحدر دموع نابعة من الاعماق على صدر النائم .

ولعل وجه كاتيا كان بهذا الشكل ، بحيث ان احدى النساء عند الباب قالت :

— يا مواطنات ، افسحن الطريق للمعلمة لتتقدم ، فسبقتن عليها تماما . . .

وفسحن الطريق لكاتيا لتتقدم الى الامام . فدخلت ورفع الرجل الجالس الى الطاولة راسه المضمد فرات وجهه الصارم ، وقبل ان يضيء الفرح ويوسع عينيه الداكنتين ترنحت ، واخذ الدوار يطوف براسها ، والوعى يتخلى عنها شيئا فشيئا ، وطنين الاصوات المتصاعد يبتعد ، والضوء يعتم ، كما حدث لها

حين كانت تحمل الجرذان فى الزقاق . . انغمست كاتيا فى احساس بالذنب ، وتتابعت انفاسها ، وشحبت ، واخذت تتهاوى . .

— كاتيا ! — صاح هذا الرجل شاقا طريقه بين الاشخاص — كاتيا !

امسكتها عدة ايد ، ولم تدعها تسقط على الارض . ووضع فاديم روتشين بين كفيه وجهها المتكسر الحبيب الفاتن حيث الفم جامد نصف مفتوح ، والمقلتان مختفيتان وراء الجفنين .

— هذه زوجتى ، يا رفاق ، هذه زوجتى .

كرر روتشين محركا شفتيه المرتجفتين .

سارا والريح تهب على ظهريهما . كان فاديم روتشين يضغط كاتيا عليه من كتفيها الراعشتين . وكانت كاتيا تبكى طوال الطريق ، وتتوقف وتقبل روتشين ، اخذ يحكى لها لماذا اعتبره الجميع ميتا ، بينما كان طوال عام يبحث عنها فى كل روسيا . الا ان ذلك كان حديثا مشربكا طويلا ولا حاجة له الآن على الاطلاق . وكانت كاتيا تقول احيانا «قف ، سرنا فى غير طريقنا . . .» ويستديران ، ويجوبان شوارع جانبية مظلمة خالية ، حيث كانت ديك الرياح الصدئة تصرف على المداخن ، وتقرقع صفائح الحديد تصف المقلوعة عن السطوح ، وتحرك شجرة زيزفون عتيقة بعويل يمزق القلب اغصانها السود من وراء سياج مهدم . . .

فى زقاق ستاروكونيوشنى قالت كاتيا :

— هذا بيتنا ، هل تتذكره ؟ ولكن كنت تدخل من الباب الامامى فقط . انا اعيش فى نفس الغرفة ، يا فاديم .

عبرا الفناء وكفنا . كان باب المطبخ مغلقا .

— آه ، غير لطيف . . . سنضطر الى دق الباب . . . اطرق باقصى ما تستطيع . . .

ضحكت كاتيا ، ثم بكت قليلا ، وقبلت فاديم وعادت تضحك من جديد . دق فاديم الباب بشدة بكلتا قبضتيه .

— من هناك ؟ من هناك ؟

سال ماسلوف منفعلا وراء الباب .

– افتح ، انا كاتيا .

فتح ماسلوف الباب ، وكان القنديل الصفائحي يرتعش في يده بفتائله الزجاجي ، وحين راى عسكريا وراء كاتيا تراجع خطوات ، وقد انكمش خداه في غضون طولية ، وتقلصت عيناه ببغضاء .

– شكرا .

قالت كاتيا ، وهرعت الى حجرتها دون ان تطلق يد فاديم ، ودخلا الحجرة ، حيث ما تزال بقية من دفء . سألت كاتيا هامسة :

– هل معك اعواد ثقاب ؟

وكان شديد الانفعال ، حتى انه اجاب بهمس ايضا :

– معي . . .

واشتعلت الضوء ، وهو قبس صغير في علبة كان يكفيهما تماما لان يحدق احدهما في الآخر طوال الليل . فكت لفاعها دون ان تصرف بصرها عن فاديم ، وكان قد شاب تماما ، بل كانت في حاجبيه بعض الشعرات البيض ، وظهرت الرجولة على وجهه ، واكتسى مسحة غير مالوفة لها من الصرامة والسكينة . وقد سحرها ذلك . فقد كان اكثر شبابا ورجولـــة ووسامـة من ذلك الذي كانت تتذكره في روستوف . رات الضمادة ، ففتحت فمها ، وتنهدت قائلة :

– هل انت جريح ؟

– خدش . . . ولكن بسببه حصلت على اجازة اسبوعين في موسكو . . . كنت اعرف انك هنـا . . . ولكن هل كان يمكن ان اجدك ؟ (ابتسمت ابتسامـــة فرح ذات معنى ضمني ولقد رقصت طرفي فمها) كنت ان الحق بك وانت في القريـــة . . . لقد طاردت كراسيلنيكوف . . (اختلج حنك كاتيا ، وهزت راسهـا بغضب) كاتيا ، لقد قتلته . . . (اسبلت جفنيها واحنت راسها) كاتيا ، كنت قد بدات ان اروى لك الملابسات التي جعلتك تتلقين نبا موتي . . . في الحقيقـة انني قد مت . . . (اخذت كاتيا تنظر اليـــه بفزع ، وامتلات عيناها الواسعتان بالدموع مرة اخرى) . كنت مسافرا في عربة قطار في الليـل . وقد فقدت كل ما اعيش من اجلـه ، وكنت مخطئـــا في الشيء الرئيسي ، وكان واضحـــا لي انني سأقتل او انتحر . . . . اعذريني ، يا كاتيـا ، ذلـك شيء مرهق وكاس ، ولكنني اريد ان ارويه . . . كنت افكر فيك ، لم يكن ذلك حبا ، الا لم يبق في نفسي ما احب به ، ولكنه تفكير مجهد فيك ، كما يفكر المرء في شيء لا يمكن تمزيقه ، وتركه ونسيانه ، لا يمكن ان يخان . وهذا هو الشيء الوحيد الذي يربطني . . كانت تلك الليلة في عربة القطار تحليلا لكل شيء في . . . والآن ، حين اتعرق في الطرف الآخر من بندقيتي على وجوه مالوفة ، ادرك اي نفس سوداء محطمة ستصيب برصاصتي . . .

وضعت كاتيا ذراعيها على كتفيه ، وضغطت خدها على قلبه وهو يدق دقات قوية متتابعة . ظلا واقفين وسط الغرفـة ، هو في معطفـه غير المزرر ، وهي في معطفهـا الفرائي . كانت تعرف انــه سيحدث الآن عن الشيء الاهم . . . الرجل العزيز الرائع . . . انه يريد ان يبرر نفســه امامها لتحب فيه ذلك الشيء الجديد النزيـه الصارم المشبوب العاطفـــة . . . عندما خرج في روستوف عن اطواره ، وهجرها كانت تعرف انــه سيتعذب عذابا قاسيا ، ويفهم كل شيء . . . استمعت وهي تضغط نفسها عليــه ، الى كلماته المبهمة المتقطعة ، وكانـه يخطط على عجل هيروغليفية عذاباته الجسيمة . . . ولكن كاتيا كانت تفهم كل شيء بدون كلمات . . . .

– كاتيا ، المهمة جبارة فوق كل مقياس . . . لم تحلم قط بالنا سننقذها . . . انت تذكرين – فقد تحدثنا عن ذلك كثيرا – كم بدا لنـا مرهقـا وبلا معنى دوران التاريـخ ، وانهيار الحضارات العقيمة ، والافكار التي تحولت الى محاكاة تهكمية بائسة لها . . . تحت القميص المنشى لسترة السهرة نفس الصدر المشعر للانسان البدائي . . . كذب ! ان الغشاوة تمزقت عن العين . . . كل حياتنا الماضية جريمة وكذب ! روسيـا خلقت الانسان . . . والانسان طالب بحق الانسان في ان يكون انسانا . . . ان ذلك ليس حلما . انـــه فكرة ، وهي على رؤوس حرابنا وقابلـــة للتحقيق . . . والضوء الباهر اضـــاء الاتبيـــة نسف المهدمة لجميع العصور الماضيـــة . . . كل شيء قائـم على اساس ، كل شيء طبيعي . . . والهدف قد وجد . . . ويعرفه كل مقاتل احمر . . . كاتيا اتفهمينني الآن قليلا ؟ بودي لو اعبر لك عن كل ما في نفسي . . . يا فرحي ، يا قلبي ، يا معشوقتي ، يا تجمى . . .

وفجاة عصرها بين ذراعيــه بقوة حتى طقطقت كل عظامهـا ،

فزادت من انضغاطهـــا على موضع القلب من صدره ، ولا غير ، دق الباب ، وصوت ماسلوف :

— يكاترينا ديميتريفنا ، هل تسمحين للحظة واحدة . . .

— ولمـــا لم يرد عليـــه احد ، اخذ يديـــر مقبض البـــاب على عادته — المسألة انك تعرفين حالة الطوارئ في المدينة . وفي غرفتك رجل بعد الساعة العاشرة . . . ولما كنت مسؤولا . . .

— انتظرى ، سأتحدث معه .

قال روتشين وهو ينزل ذراعي كاتيا عن كتفيه .

— فاديم ، لا تخرج عن اطوارك . سأتكلم معه بنفسى . . . اتوسل اليك ، ارجوك . . .

وخرجت وراء الباب في الحال ، واغلقته وراءها . كان ماسلوف يقف مبتسما ابتسامته الساخرة وهو ما يزال يمسك بالقنديل .

— لا يمكن ان تدخل في غرفتي ، يا رفيق ماسلوف .

قالت بلهجة صلبـــة لم تتحدث بها معه قط . اخذ ماسلوف يتراجع عن الباب مشيرا اليها بان تتبعه متفرسا فيها بهستيرية . سألت ، وهي تسير وراءه :

— ماذا ؟ ما تريد ؟ انا لا افهم . . .

— اريد ان انبهك ، يا يكاترينا ديميتريفنا ، بان لا تلقى اهمية لكارثتى . . . لا وجود لها . . . لقد ابلغوك ، بالطبع . . . في المنطقة كلها استبشار واحتفال بالنصر . . . ما زال الوقت مبكرا للاحتفال والاستبشار . . .

اجابت كاتيا غاضبة :

— انا لا افهم شيئا . باختصار ارجو الا تدق بابى . . .

— لا تكذبى ! انت تفهمين كل شىء . . . آه ، كم جربتك ! اسمعى ، اولا : استمرى في الحديث معى كمـــا وكان البطاقـــة الحزبيـــة لم ياخذوها منى . . . سيكون ذلـــك اكثر تبصرا . . . (واصدرت حنجرته غرغرة ، رغم انه كان يتكلم بخفوت وخمول) . لم يتغير شىء يكاترينا ديميتريفنا ! . . . ثانيا : ان ضيفك الليلى يجب ان يخرج في الحال . . . تريدين ان تسألى : لماذا اصر على ذلك ؟ هذا هو جوابى . . . (ووضع يده في الجيب الصدرى لسترته المطلقة المقطعة الازرار واخرج مسدسا مسطحا ، وامسكه في

راحتـــه ، لتراه كاتيـــا) وبعد ذلك ، سنستمر في علاقاتنـــا السابقة . . .

تملكت كاتيا رجفة شديدة ، حتى انها لم تستطع غير ان ترمش رمشا بطيئا . دفع روتشين الباب ، وخرج :

— ماذا تريد من زوجتى ؟

تغضن وجه ماسلوف حتى اذنيه ، وقرفص ليضع القنديل على الارض ، والمسدس يدور في يده .

— اى ، اترك هذا — قـــال روتشين وهو يتقدم منه ، وانتزع المسدس من يده ، ووضعـــه في جيب معطفـــه — هذا سأسلمه الى اللجنة الاستثنائية في المنطقة ، ويمكنك ان تتسلمه هناك ، واذا اقتربت من بابنا مرة اخرى سألوى رقبتك . . .

وعادا الى الغرفة . طقطقت كاتيا باصابعها صامتـــة . خلع روتشين معطفها عنها .

— كل شىء مفهوم ، يا كاتيا . وهو لن يحشر نفســه هنا بعد الآن . الطلب الظن انني سمعت عن ماسلوف هذا وانا في الجبهـــة . انه من اولئك الذين يفسدون الجيش . . .

وخلع معطفــه ، وحط بالقرب من كاتيا الجالســة على مقعد ذاهلة ، ووضع راســه على ركبتيها . اخذت يداهـــا تمران على شعره وخديه ورقبته . وكلاهما قد نسى فورا حادثـــة ماسلوف الحمقاء . جلسا صامتين . واخذ يعتمل في نفسيهمـــا قلـــق جديـــد وشديد وغريب الى الابد وبكر — في نفسه فرح اشتهائها ، وفي نفسها فرح الاحساس بفرحه . . .

— اقوى بمليون مرة ، يا كاتيا .

— وانا ايضا . . . رغم انني دائما ، دائما ، يا فاديم . . .

— اتشعرين بالبرد ؟

— لا ، لا . . . مجرد انني احبك جدا . . .

جلس الى جانبها في المقعد العريض القديم وقبل عينيها وفمها وطرفي شفتيها . وقبلها من صدرها ، وتذكرت كاتيا ان في ثديها الايسر شامـــة الولادة التي كان معجبا بها لسبب ما . وفكت ازرار بلوزتها الصوفية ليقبل الشامة .

برد الموقد «النحلـــة» بالفعل ، وصارت الغرفـــة باردة . ترقص قاديم عند الموقد ، وهو يلقى بنظراتـــه الى كاتيا طوال الوقت ، ويبتسم عن اسنان منظومة ، وتنفخ فى الجمر واضعا كتل الخشب المقطوعة من قوائم وظهور المقاعد من الخشب الاحمر . وعاد الدق» من جديد . واحمرت كاتيا وهى تخلع ملابسهـــا ، وضحك قاديم ، واحتوى وجهها براحتيه ، وقبله .

ظلت الريح تعول فى المدخنة طوال الليل ، وتخفق فى صفائح الحديد . نهضت كاتيا عدة مرات كالرية التى احبها كيوبيد وعدلت فتيلة المصباح ، وهى لا تصرف بصرها عن وجه قاديم النائـم . كانت ممتلئة بالسعادة وعارفة انه ممتلىء سعـادة ايضا ، ولهذا السـبب كان وجهه على هذه السكينة والرصانة .

— كاتيا ، كاتيا ! — صاحت داشا وهى تندفع فى المطبخ — كاتيا ، حبيبتى كاتيا !

وتردد فى الممر وقع حذائها اللبادى المتجمد . واندفعت نحو كاتيا ، وطوقتها ، وقبلتهـا ، وابتعدت عنها ، ونظرت مشبوبـة العاطفـة ، وعادت تحتضنها وتمسد لها . كانت تفوح منها رائحـة ثلج وفراء الغنام وخبز أسود . وكانت ترتدى سترة من فراء الاغنام ، منديلا ريفيا ، وقد تدلت صرة وراء ظهرها .

— كاتيا ، حمامتى ، عزيزتى ، شقيقتى . . . كم اشتقت لك وحلمت بك . . . لا ، تصورى فقط اننا اضطررنا ان نمشى على الاقدام من محطة ياروسلافسكى . ان موسكو كالقرية : هدوء وغربان زرع وثلج ، ودروب علمتهـا الاقدام فى الشوارع . . . مسافـة بعيدة ، ورجلاى تكادان تنطويان . . . اما كوزما كوزميتش فيحمل بودين من الطحين . . . وصلنـا الى ستاروكونيوشنى . . . ولم استطع ان اجد البيت ! قطعنا هذا الزقاق بطوله ثلاث مرات . . . ويقول كوزما كوزميتش ليس هو الزقاق المقصود . . . وتملكنى الغيظ ، فقد نسيت البيت ! . . . وفجاة . . . لا ، تصورى فقط ! من الركن خرج رجل فى لباس عسكرى . تقدمت منه : «من فضلك ، يا رفيق . . . » اما هو فقـد تفرس فىّ بملء عينيـه . . . فتحت فمى

دهشـة ، وجلست على الثلج . . . قاديم ! واتصور ان عقلى قد غاب عنى ، الموتى صاروا يمشون فى شوارع موسكو الخلفية . . . والغرب هو فى الضحك ، وقبلنى . . . ولم استطع ان انهض . . . كاتيا يا حسنائى ، يا شقيقتى الذكيـة . . . نحن بحاجـة الى عشر ليال لكى تروى الواحدة للاخرى ما لديها من اخبار . . . يا ربى ، انا اعرف هذه الغرفة . . . والسرير وصندوق الادوية . . . حدثنى قاديم عن ايفان . بعد ايام سيتوجه قطار اسعاف الى وحدتهم وقد قررت ان اسافر عليه كممرضـة ، وستصحبنى انيسيا وكوزما كوزميتش . . لن نتركه وحده هنا ، فيتعفرت . . . كاتيا ، نريد اولا ان ناكل . . ضعى السخان . . . ثم نغتسـل . . . قضينـا اسبوعا فى عربة بضائع قادمين من ياروسلافل . . . يجب ان نخلع ملابسنا كلها ونغليهـا . سنبقـى الآن فى المطبـخ ولا ندخل الى غرفتك . . . تعالى اعرفك بصديقى . . السانان رائعان ، يا كاتيا ! وانا مدينة لهما بحياتى وبكل شىء . . . سنسخن الموقد بانفسنا ، ونغلى الماء . . هناك عدد كبير من مختلف الاثاث . . . كاتيا ، أمن المعقول انك لم تشيبى قط ؟ يا الهـى ، تبدين اصغر سنـا منى بعشر سنين . . . انا واثقة من ان اليوم الذى سيجتمع فيه شملنا قريب ، قريب جدا . . . .

فى موسكو كان الشوفان يوزع ببطاقات التموين . ان عاصمة الجمهورية لم تمر قط بوقت عصيب يشابه شتاء عام ١٩٢٠ . فان هجوم الجيوش الحمراء قد ابتلع كل القوى الحية . ونفدت بسرعة احتياطات القمـح والفحم المستولى عليهـا من البيض . وكانت الولايات الغنية التى مر بها القوزاق وجيش المتطوعين قد خربت . فكانت فصائل التموين العمالية لا تجد فيها غير فرائش هزيلة من القمح .

فى الذكرى السنوية للحملة الجليدية هرب جيش المتطوعين الى نوفوروسيـسك تاركا فى وحول كوبان المتعذرة الاجتياز العربات المهملة المحملة بالامتعة ، والمدافع الغاطسة فى الوحل ، وجيف الخيول . انتهى كل شىء . وهاجر انتون ايفانوفيتش دينيكين على

ظهر باتة الفام فرنسية وقد تفشى الشيب فى شعره واحدودب ظهره ، ليكتب مذكراته فى الهجرة . وعبرت الفلول الهزيلة لافواج المتطوعين على سفن النقل الى القرم . وادرك قوزاق الدون وكوبان اخيرا انهم قد خدعوا بقسوة ، ودفع القوزاق ثمن عنادهم بقبورهم المجهولة المنتشرة من فورونيج الى نوفوروسيسك .

كان الشتاء ما يزال فى موسكو . وزوابع آذار ترمى المدينة بالثلوج . وقد استنفدت المواقد جميع الاسيجة والاثاث الزائد . وتوقفت المعامل والمصانع . وكان المستخدمون فى الدوائر يجلسون الى مكاتبهم فى معاطفهم وينفخون بانفاسهم على اصابعهم المتنفخة لكى يستطيعوا ان يحتفظوا بالاقلام بايديهم بطريقة من الطرق ، فقد تجمد الحبر فى المحابر تماما فى انتظار الايام الدافئة . وكان الناس يمشون ببطء ، وهم يحملون على الدوام حقائبهم الظهرية . وقليلون منهم كانوا قادرين على السير من بيوتهم الى اماكن عملهم دون ان يتوقفوا ليستريحوا فى كومة ثلج او يتكئوا على مداخل البيوت اتقاء من الريح . وكانت المجاعة رهيبة وكان الناس يحلمون فى نومهم بخنوص مسلوق موضوع فى صحن ، وقد وضعت فى فمه قطعة بقدونس . وفى الحلم كانوا يمضغون باسنان فارغة لحم الخنزير المقدد الدسم والبيض المسلوق . الا ان افكار الجميع كانت متاججة ، فقد دمر تحول العداء للثورة العنيد الدموى الخانق ، والحياة تاخذ خطا صاعدا ، ولم تبق الا شهور قليلة من الحرمان والعذاب ، وسياتى قمح جديد ، وتشتغل الجيوش الحمراء المسرحة بالعمل السلمى ، بترميم جميع الاشياء المخربة وبناء ذلك الشىء الجديد الذى ستنسى فيه جميع العذابات ، كل مرارة المساءات الماضية . . . .

تحققت رغبة داشا . فقد اجتمع شملهم من جديد . حصل ايفان ايليتش وروتشين على اجازة قصيرة فسافرا الى موسكو فى قطار الاسعاف الذى تعمل فيه داشا ، ووصلوا اليها فى صباح غائم من آذار . حين كانت السحب الرمادية تتلبد فوق المدينة ، والثلج

ينحدر من السطوح ، وتتساقط دلايات الجمد الضخمة ، والهواء الثقيل فواح ومنذر بالقلق .

استقبلتهم كاتيا فى محطة القطار . كان روتشين اول من رآها من بسطة العربة ، فقفز والقطار لم يتوقف بعد . ركضت كاتيا نحوه متالقة بالفرح – فى عينيها وابتسامتها – خلال دخان القطار المتلوى بين الاعمدة الحديدية . فبدت له اعذب مما بدت له فى لقائهما فى كانون الاول . وكانت كل حياة حبهما فى هذه اللقاءات القصيرة . انزويا فورا فى ناحية تحت الساعة ، الا ان داشا الغيور جرت زوجها تليغين اليهما . وكانت تريد ان تسمع شقيقتها تبدو اعجابها بايفان ايليتش بصوت عال :

– كاتيا ، انظرى اليه . . . اتلاحظين كيف تغير ؟ فى بطرسبورغ كان فى وجهه عدم اكتمال . . . كما كانت عيناه ايضا مختلفتين . . . ارجو المعذرة ، يا ايفان . . . ولكن عندما كنا فى السفينة التى اقلتنا الى سامارا كانت لك عينان زرقاوان فاتحتان ، بل بمسحة من الحماقة حتى ان ذلك اقلقنى . . . اما الآن فهما بلون الفولاذ . . .

كان ايفان تليغين يقف امام كاتيا ، وقد زفر بتشنج من امتلائه بالاحاسيس . وبدا لكاتيا ايضا جذابا جدا اليفا هادئا ومتزنا .

– واليك صورته كاملة ، يا كاتيا . . . اثناء المسيرات – بل تصورى – حتى حين كان يطارد مامونتوف على ظهر حصانه كان يحمل معه فى عدل سرجه – احزرى ماذا ؟ – دميتين خزفيتين لقطة ولكلب كان قد اهداهما لى فى يوم زفافنا الثانى فى تساريتسين . . . لاننى قد اعجبت بهما كثيرا . . .

هرع كوزما كوزميتش نحو كاتيا ، وقد قفز من العربة لدقيقة . وظل يهز يدها بكلتا يديه وقتا طويلا والتمع وجهه الاحمر الحليق تماما سرورا ووفاء . وكان يبدو فى مريوله الابيض مضحكا حتى ان الناس النحاف المارين به على الرصيف نظروا اليه بعداء .

– احببتك ، يكاترينا ديميتريفنا خلال ايام قصيرة قدر محبتى لداريا ديميتريفنا . . . انا اقول دائما ليس فى العالم نساء اروع من الروسيات . نقيات فى مشاعرهن ومتفانيات ، ويعشقن الحب وشجاعات حين تقتضى الشجاعة . . . انا فى خدمتك دائما ، يكاترينا ديميتريفنا . . . ، ما ان انتهى من شؤونى حتى اهرع

اليك عند الغداء لاجلب لك اشياء جلبتها من روستوف . . . الفصل ربيع عندنا في روستوف . . . ومع ذلك فان الشمال احلى على القلب . . . حسنا ، اعذريني . . .

واقبلت انيسيا في مريول ايضا . كانت خيبة الامل تبدو على وجهها بعينيه الواسعتين . فقد كانت تريد ان تبقى في موسكو في هذه السفرة ، الا ان كبير الاطباء – بطريقة غير سوفييتية على الاطلاق – وحتى دونما رغبة في الاصغاء قال : «اى مدارس مسرحية هذه ! عن قريب ستحدث معارك كبيرة مجددا ، وتخلف الجرحى . لا اسمح لك ! »

– لا باس ، سانتظر حتى الخريف – قالت لداشا ومسحت انفها بطرف منديلها – الاعوام تمر ، وانا افقدها ، وهذا هو المؤسف . . . لاتوغين هنا ، وقد جاء لاستقبالي ، عفريت ايضا . . . جاء مندوبا الى المؤتمر . اصبح فخورا وجديا . . . وهو يقول انه لليوم الثالث يهرع الى محطة القطار ليستقبل قطارنا للاسعاف . . . ذهب ليقنع كبير الاطباء ليسمح لي باجازة ليوم واحد . . . داريا ديميتريفنا ، حدثني عن اغريبينا ، انها في ساراتوف ، وقد وضعت مولودا لا اعرف ان كان ولدا او بنتا ومرضت مدة طويلة . . . وعادت الى الفوج مع وليدها . . مسكينة ، لها خلق صعب ، لا تحب الا مرة واحدة . . .

خرجوا من محطة القطار ومشوا خلال موسكو كلها على الاقدام الى زقاق ستاروكونيوشنى ، فقد اعدت هناك غرفة لداشا وتليغين ، وهي نفس غرفة ماسلوف . وقد انقضى شهران وهو غائب ، في بداية الامر حمل كتبه ، ثم اختفى هو الآخر . . . ساروا ببطء بسبب كاتيا . اراد فاديم روتشين ان يضعها على يديه ، ويحملها تحت هذه السحب الربيعية الشعثاء المخيمة على موسكو . وتأخر تليغين وداشا عنهما لكيلا يضايقاهما . قالت داشا :

–انا اخشى على كاتيا . موسكو وهذه المدرسة ستقضيان عليها . وهي لا تاكل شيئا . . . خلال ثلاثة اشهر صارت نحيلة جدا . . . يجب ان ناخذها معنا في القطار . . . سيكون في امكاني ان اطعمها . . . اما هنا فهي لا تاكل شيئا ، وهذا غير معقول .

قال تليغين بخفوت وبدلالة :

– نعم ، ثم ان فاديم يتعذب بدونها ايضا . . .

ولحق بهما لاتوغين وانيسيا بعد قليل . وكانت انيسيا قد خلعت مريولها ، وقد تورّدت وجنتاها . سلم لاتوغين الجهم الجدي بطريقة متحفظة ، واخرج من ردن معطفه اربع تذاكر للضيوف الى مسرح البلشوى ، في اعلى طابق . وقال وهو يوزع التذاكر :

– نعم ، في الجبهة اسهل مما عندكم في موسكو . كان عليّ ان اخوض معركة كبيرة من اجل هذه التوافه . . . ومن حسن الحظ ان الملاحظ كان من بحارتنا على الطراد «افرورا» . . . ولهذا يجب الا تتاخروا . اليوم اجتماع مهم . حسنا ، يا انيسيا ، لنذهب . . .

كانت مئات المصابيح الكهربائية لا تكاد تضيء بضوئها المحمر الداكن صالة مسرح البلشوى بطوابقه الخمسة حيث ارتفع الضباب المتخلف من انفاس الحاضرين . وكانت الصالة باردة ، وكانها قبو . وعلى المسرح الواسع الذى سدت مؤخرته بالوواس من الجنفاص جلس اعضاء الرئاسة حول منضدة قائمة في الجانب ، وقريبة من اضواء مقدمة المسرح الشاحبة . اتجهت رؤوس الجالسين جميعهم الى نهاية المسرح حيث علقت على كلاليب الديكور في اعلى المسرح خارطة روسيا الاوروبية وقد تغطت ببقع ودوائر من مختلف الالوان تكاد تملأ كل سطحها . وامام الخارطة وقف رجل صغير الجسم في معطف فرائى حاسر الراس . وكان شعره المتدلي من جبينه الواسع يلقي ظلا على الخارطة وكان يمسك في يده عصا بلياردو طويلة ، يشير بطرفها من حين لآخر ، وهو يحرك حاجبيه الكثيفين الى هذه البقعة الملونة او تلك فكانت تضاء في الحال بضوء ساطع حتى ان ذهب الطوابق الكامد في الصالة ياخذ بالتلألؤ ، وتبدو للعيان الوجوه النحيلة المجهدة بعيونها المتسعة باهتمام .

وتكلم بصوت عالي النبرة في السكون المتوتر :

–عندنا في روسيا الاوروبية وحدها من الخث المجفف بالهواء ما يقدر بعشرات التريليونات من البودات . ونحن نملك من احتياطياته ما يكفي لقرون . والخث وقود محلي . ومن فدان واحد من مستنقع الخث يمكن ان نحصل من الطاقة على ما يزيد خمسا وعشرين مرة على ما نحصل عليه من فدان واحد من الغابة . ويحتل الخث المرتبة الاولى تليه القوة المائية والفحم ، وكلها تحل المشكلة

التي تجابهنا ، مشكلة البناء الثوري . لان الثورة التي انتصرت في ميدان القتال فقط ولم تنتقل الى التحقيق الفعلي لافكارها ، ستخمد مثل عصفة ريح . لقد اشار فلاديمير ايليتش لينين الجالس بيننا ، والذي الهمني تقريري لهذا اليوم قد اشار الى الخط العام للثورة الخلاقة : الشيوعية هي السلطة السوفييتية زائدا الكهربة . . .

– اين لينين ؟

سألت كاتيا ، وهي تطل من علو الطابق الخامس . كان روتشين يمسك بيدها النحيلة طوال الوقت ، فاجاب بهمس ايضا :

– انه هناك ، صاحب المعطف الاسود . انظري ، انه يكتب بسرعة ، ها قد رفع رأسه ، ويلقي قصاصة ورق عبر الطاولة . . . انه هو . . . اما الشخص النحيل ذو الشاربين الاسودين عند الخارطة فهو ستالين ، الرجل الذي هزم دينيكين . . .

وكان الخطيب يقول :

– في الاماكن التي تكمن فيها مليارات البودات من الخث في صمت روسيا المزمن ، وفي الاماكن التي تهبط عليها الشلالات او يسوق نهار جبار مياهه ستبنى المحطات الكهربائية ، وهي الفنارات الحقيقية للعمل الجماعي . لقد تحررت روسيا الى الابد من نير المستثمرين ومهمتنا ان نضيئها بوهج لا يخبو من النار الكهربائية . ان لعنة العمل الماضية يجب ان تصبح سعادة العمل .

ورفع عصاه واشار الى مراكز الطاقة المقبلة ، ومررها على الخارطة راسما الدوائر التي كانت تومئ الى مواقع الحضارة الجديدة المقبلة ، وتألقت البقع كالنجوم في اغشاش المسرح الواسع . لقد كلفت اضاءة الخارطة بهذه الاضاءة ولهذه اللحظات القصار تجميع كل طاقة المحطة الكهربائية في موسكو ، وحتى في الكريملين فكت جميع المصابيح في مكاتب مفوضي الشعب ما عدا واحدا بقوة ١٦ شمعة .

في القاعة كان الناس الذين كانوا يحملون في جيوب معاطفهم العسكرية وسترهم المثقبة بالرصاص حفنة من الشوفان وزعت عليهم اليوم بدلا من الخبز يستمعون مبهوري الانفاس الى آفاق الثورة العظيمة والقابلة للتحقيق بالفعل على الرغم من ذلك ، فالثورة تدخل الآن في طريق الخلق .

كان تليغين يقول لداشا خافت الصوت :

– تقرير مفيد . انا اعرف المهندس كرجيجانوفسكي هذا بشكل جيد . ستنتهي الحرب واعود الى المصنع ، فانا ايضا عندي افكاري . . . لدي رغبة شديدة في العمل ، يا داشتكا . . . اذا كانوا يضعون مثل هذه القاعدة الكهربائية ، فسيكون في الامكان القيام بكل شيء . فما اعظم ثرواتنا ! واذا قمنا بعمل حقيقي في هذه البلاد الجبارة ، فاننا سنتفوق على امريكا ! نحن اكثر غنى . . . سنذهب سوية الى الاورال . . .

قالت داشا له :

– وسنعيش في بيت من جذوع الشجر نظيف تماما ، فيه قطرات من صمغ الصنوبر ، ونوافذ واسعة . . . وفي صباحات الشتاء سنشعل الموقد . . .

وهمس روتشين في اذن كاتيا :

– أتدركين اي معنى ستتخذ جهودنا كلها والدم الذي ارقناه ، وجميع عذاباتنا الصامتة غير المعروفة . . . سنحول العالم بجهودنا الى مكان للخير . . وكل الذين في هذه القاعة مستعدون للتضحية بحياتهم من اجل ذلك . . . ليس هذا مجرد خيال انهم يستطيعون ان يروك الندوب والبقع الزرق التي خلفها الرصاص . . . وهذا في وطني ، هذه روسيا . . .

– لقد استقر العزم ! – كان الرجل عند الخارطة يقول متكئا على العصا وكأنه يتكئ على رمح – اننا نقاتل وراء المتاريس من اجل حقنا وحق العالم في ان نقضي مرة والى الابد على استثمار الانسان للانسان .

٢٢ حزيران ١٩٤١